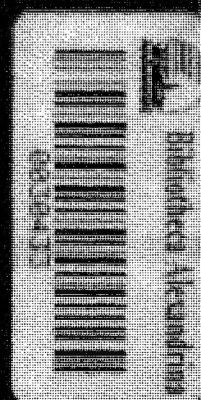


تاريخ الحضارات العالم

٢

روما وامبراطوريتها

منشورات عويدات
بيروت - لبنان



تاريخ الحضارات العام

تاريخ الحضارات العام

موسوعة في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه ايمار جانين أوبوايه
أستاذ في السريون أمانة متحف غيمة

٢

روما وأمبراطوريتها

أندريه ايمار جانين أوبوايه
أستاذ في السريون أمانة متحف غيمة

٣

القرون الوسطى

إدوار بروي أستاذ في السريون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنيه أستاذ في السريون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنيه و أرنيست لابروس
أستاذ في السريون أستاذ في السريون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيرب أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه مفتش المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف

موريس كروزيه

مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد الثاني

تاريخ الحضارات العام روما وامبراطوريتها

تأليف

جانين أوبوايه
أمينه منحف غيمه

أندريه إيمار
أستاذ في السوربون

نقله الى العربية

فؤاد ج. أبوريحان

فريد م. داغر

منتشارات عويدات
بيروت - باريس

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار
منشورات عويدات
بيروت - باريس
بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية
Presses Universitaires de France

الطبعة الثانية ١٩٨٦

مدخل

ما وقعت عيناى يوماً على موسوعة « تاريخ الحضارات الدام » في مجلداتها السبعة وهي التي ظهرت أصلاً بالفرنسية، عن « المطبوعات الجامعية الفرنسية » في باريس حتى تولتني نشوة من الغبطة تمتد معها ان يلهم الله ناشرأ يتولى نقلها الى لغة الضاد فيمُدّ المكتبة العربية ، ولا سيما باب التاريخ منها ، بمرجع هام من مراجع التاريخ العام تناهد فريق من كبار الاخصائيين وأعلام اساتذة التاريخ في جامعات فرنسا على وضعه على مثل هذا النحو الأسر من العرض والتركيز والتأليف هو أقرب الى تحليل حوادث التاريخ وتعليلها وفلسفتها ، من السرد المبسط .

وما كنت لأقنط ، وأنا أستسلم لهذه الاماني العراض والرؤى العذاب ، في ان يقبض الله لاحدى دور النشر في لبنان فتضطلع بهذه الرسالة وينقطع لها بالرغم مما دون هذا العمل من صعب وأعباء : مادية وأدبية ومالية ، وروحية وثقافية وتقنية ، لا بد من التقلب عليها ، من ناشر عربي يعرف قيمة الكتاب ، متبين لأهميته ، مؤمن برسالته التثقيفية والتثديبية ، لا يهاب المصاعب فيلقاها بصدر عامر بالايان ، اقتناعاً منه بأهمية هذا العمل الذي ندب له نفسه .

كنت يوماً ، من نحو ستين ، في حديث مع صديقي صاحب هذه الدار ، حول حاجات الثقافة العربية في عصرنا هذا ، ووجوب تزويد مكتبتنا العربية ، بكتب ثنية ، دسمة متعافية ، رزينة ، رصينة ، إما وضعاً وتأليفاً ، وإما نقلاً وتعريباً عن اللغات الاجنبية . واخذنا نستعرض معاً هذا التيار الجارف والفيض العارم من الترجمات النعجاف تلفظها المطابع ودور النشر في العالم العربي وتنزلها الى الاسواق ، بحيث أصبحت المترجمات اليوم ٩٠ ٪ من مجموع انتاج العصر في العالم العربي اليوم وأكثرها هشيم من سقط المتاع بعد ان كان تهشيماً للأصل ، تحفى عليك معاملة لما في الترجمة من تلاعب وتغيير وتعديل وتحريف واجتزاء ، في عملية عبث وسطو ، دونما رقيب او حسيب .

وبعد ان امتد الحديث بيننا نستعرض معاً حاجات ثقافتنا العربية والوضع المؤسف الذي تتردى فيه حركة الترجمة اليوم ، في العالم العربي ، اذ بصاحبي يسدّد نظره اليّ ويسأل قائلاً : « هل تعرف الموسوعة التاريخية « تاريخ الحضارات العام » التي صدرت تحت اشراف موريس كروزيه ؟ - فقلت نعم ، وهي عندي في مكتبتي الخاصة » . فقال : « وما رأيك في أمر ترجمتها الى العربية ؟ » . فقلت : « حلم جميل » انما دونه خراط القتاد » اذ ان نقل موسوعة تاريخية على مثل هذا الاتساع تتألف من سبعة مجلدات ضخمة كل مجلد يزيد . على ثمانمائة صفحة ويبلغ مجموع صفحاتها ٥٦٠٠ صفحة ليس بالأمر اليسير . ان مشروعاً على هذه الضخامة ، يقتضي له شرائط عديدة منها فريق مصطفى من النقلة والمترجمين يجيدون العربية والفرنسية متخصصين بالتاريخ ، ونفقات عالية طائلة ، وجلد مرير ومعاونة موصولة ، وفوق هذا ، والى هذا كله ، قلب عامر بالايان الحي ، المحيي ، والغيرة النيرة على الثقافة العربية » . قلت هذا وقرست في صاحبي فاذا بعيني تشعان نوراً وایماناً وصدق عزيمة .

وها هو المجلد الثاني من هذه الموسوعة التاريخية يطل على القارئ العربي بعد ان رحب

بجرارة ، بمطلع المجلد الاول ، في اواخر السنة الماضية ، رافلا بمثل هذه الحلة القشبية من الاخراج الحفي ، بعد ان بذل في سبيل اخراجه ، ما يُبذل من عناية وسهر وصبر طويل وبذل كريم . يشهد الله ، وهو خير الشهود ، على ما رافق ترجمة هذا الكتاب من جهد وحرص على الاصل والدقة في النقل ، بحيث يمكن ان نؤكد للقارئ الكريم ان كل كلمة في الاصل الفرنسي نقلت الى العربية بعناية سهلة صحيحة رشيقة ، دونما ركافة او عجة او تعقّد . ولا شك عندنا في ان النقد العالمي سيقول كلمته في هذا العمل بحيث يعرف الناس ما استنفذ اخراج هذا السفر من جهد وسهر وعناية ليخرج على مثل هذا النحو من الدقة والضبط ، وهي من بعض الصفات التي تحلت به منشورات دار عويدات ، في بيروت ، وما تفرّدت به .

يطيب لنا ان ننوه هنا ببعض ما لقي الجزء الاول من هذه الموسوعة من ترحيب النقد الادبي له . فقد نشر اديب فلسطين المشهور الاستاذ عيسى الناعوري ، وهو في الطليعة من رجال الفكر والادب في الاردن ، اليوم ، كلمة في مجلة « الاديب » الغراء ، في عدد يوليو ١٩٦٤ ، في الصفحة ٥٩ - ٦٠ ، ما يلي مخاطباً صاحب الدار الاستاذ احمد عويدات :

« لقد زوّدت المكتبة العربية بهذه الآثار العلمية النفيسة ، في ترجمات أمينة ، واهية ، لا تختلف عن الاصل في غير الحروف التي كتبت بها . . . وأنا أعلم انك تقوم بهذا الجهد الكبير الضخم منفرداً ، وأعرف ما تلاقيه في ذلك من عناء متواصل ، ومن سهر طويل ، وما تبذل فيه الى جانب الجهد والعرق والسهر ، من مال ، ومعرفتي هذه تضاعف من تقديري لعملك ومن اعجابي الكبير به . ويزيد من اعجابي وتقديري ، ذلك العمل الضخم الجبار الذي انصرفت اليه اخيراً ، بكل بذل وتضحية ، وهو توليك نشر موسوعة « تاريخ الحضارات العام » الذي اصدرت منه حتى الآن الجزء الاول ، في قرابة ٧٢٠ صفحة من القطع الكبير ، وفي حلة رائعة من الالاقة الدالة على شدة عنايتك بالكتاب . . . وهو كتاب جدير بعنايتك واهتمامك حقاً . وانا ارجو غلصاً ان يعينك الله على انجاز جميع أجزائه . فهو ثروة نفيسة للمكتبة العربية التي تفتقر الى مثل هذا الأثر الضخم الجامع . وآمل ان يجد عملك من تقدير المؤسسات الثقافية العربية والقراء ما يكافئ جهذك المبارك وخدمتك الجليلة . اقول هذا ، وانا اذكر ان الجهود المخلصة يندر ان تجد من يهتم بمكافأتها ، وتشجيعها . . .

عندكم في لبنان جوائز أصدقاء الكتاب ، ولكن الناشر المجتهد المخلص لا ينال شيئاً منها كما ينال المؤلف . ان الجمعية تعتبر المؤلف وحده من « أصدقاء الكتاب » او من « اهل الكتاب » . . . لا ادري . ولكنها لا تعتبر الناشر مثل ذلك . فليتها تهتم بالناشر اهتمامها بالكتاب والمؤلف ، لأراك تنال من تقديرها . وهو أضعف الايمان - ما يثلج نفسك ، ويشجعك على المضي في الدرب النبيل الذي تسلكه مجاهداً مؤمناً بقيمة العمل الذي تؤديه لأمتك .

ونحن اذ نشارك الاستاذ الناعوري آماله وأمانيه نتمنى معه ان يتم اخراج هذه الموسوعة التاريخية ، على مثل هذا النحو خدمة للثقافة العربية والدراسات التاريخية الاصلية .

يوسف اسعد داغر

بيروت في ١٩٦٤/٧/٣٠

القسم الأول

الغرب ووحدة البحر المتوسط

تناولنا في المجلد الاول من هذه الموسوعة الكلام في حضارة الشرق الادنى الى بزوغ النصرانية . فعلىنا الآن ونحن نتعرض لدراسة الغرب ، ان نعود القهقري قليلاً الى الوراء ، ما يقرب من ألف سنة .

تاريخ المدينيات ووقيتها التاريخي التوقيت الزمني هو قوام التاريخ وهيكله . ولذا كان من اولى واجبات المؤلف ان يراعي أحكام هذا التوقيت ويأخذ باصوله المرعية . إلا ان التاريخ سلسلة متلاحقة الحلقات ، قوامها ترابط الوقائع والمجريات على اختلاف انواعها . فالقضايا التي يثيرها ، تنوء عن الحلول المرتجلة . فاذا كانت معرفة الاشياء من الامور التي لا بد منها ، فتفهم الوقائع ، وفحصها ، وتحليلها ، اجدى للمرء وادعى . والحال ، ان تفهم الحضارة واكتناه جوهرها لا يستدعي الوقوف على المدينيات التي عاصرتها الا بنسبة ما كان لها من اثر بارز في هذه الحضارة . هنالك شعوب يلتظمها مدى جغرافي واحد ، الا انه قد لا يقوم بينها علائق وصلات ، وان قام شيء من هذا فمن ذلك النوع السطحي . وهذه المؤثرات قد لا يكون لها من الشأن الا بمقدار ما هي ذات اتجاه معين . هنالك مدينيات معطاءة ، تعطي الغير ، الكثير من ذاتها او من ذات يدها ولكن قلما تأخذ هي منه او تقبس عنه . ذلك هو في الواقع حال المدينيات القديمة التي قامت بالنسبة للاحقة منها ، بدور المهدب او المربي . وهكذا أليف الناس النظر اليها وذلك لما لها من الاعراف والتقاليد التي يقدسها المريدون والأتباع . وهذان المدلولان اللذان لا بد من ان يتوفرا معاً ، هما شديداً الاتصال ببعضها ببعض ، الا ان ترابطهما المنطقي المكين لا يقوى على الثبات والاستمرار اذا ما انفصل احدهما عن الآخر .

استمرار مدينيات الشرق الادنى هذا هو بالفعل وضع مدينيات الشرق الادنى الغابرة بالنسبة للغرب ، اذ اننا نشاهد بعض هذه المدينيات قائماً قبل عام ٣٠٠٠ ، وليس في غربي البحر المتوسط كله ما يمكن مقارنته بها ، ولو من بعيد . وهذه المدينيات تستمر اجيالاً متطاولة ، متعاقبة ، حية ناشطة ، دون ان تجدد من شبابها الا ما ندر ، لا تشعر او قلما تشعر بالقوى الجديدة والمؤثرات المطلة من البلدان المجاورة حتى في حال بسط سيطرتها عليها ، فكيف بها تتفتح لمؤثرات بعيدة تعمل بالواسطة ؟ اما مدينيات الشرق الادنى التي هي احدث عهداً مما سبقها على رقعة الشرق عامة ، فهي لا تقبس ولا تأخذ الا بما تقدمها من المدينيات الغابرة . فليس في الغرب المتأخر في نظرها ما يدعو للقبس والتقليد .

فالمدينة اليونانية بنوع خاص ، لا ترى في الاقطار الواقعة منها الى الغرب ، سوى اراض

تصلح للاستعمار والاستثمار ، تقع عليها كلما سنحت منها الظروف ومكنت لها صروف الدهر ، فترسل اليها الجوالي في اثر الجوالي بالعدد الكافي ، والاقتنت منها باستغلالها تجاريا بالحصول على محاصيل الارض فيها ، او يجعلها سوقاً تفتق فيها مصنوعات وما تحملها اليها من سلع وخرصاوات . وما عدا ذلك ، فلا ترى في هذه الاقطار شيئاً يستحق الاهتمام له او المحافظة عليه ، فهي بالفعل لا تأخذ شيئاً منها . فهذا الشرق المترامي الاطراف ، المتعدد الثروات ، الحير للعقول بما بلغت اليه حضاراته من الرفاه والنعمة ، الآخذ بجامع القلوب بما حقق من انجازات جبارة ، والمسيطر على العقول بما بلغت فيه الاديان من العقائد ومناسك العبادة والاحتفالات السامية ، والذي يفرض الاحترام لشدة اطلاعه على اسرار الطبيعة ومعانيها ، هذا الشرق ، عرف منذ عهد بعيد ان يشبع ما في الاغريق من عطش الى المعرفة ، ومن توق شديد الى الاطلاع على الحضارات الاجنبية . فاي داع بعد هذا ، يحفزهم لعمري ، على الاقتباس من قرطاجة مثلاً ، بينما تكون صور على قيد بضع مراحل منهم ؟ وتروي بعض المصادر التاريخية ان الاسكندر الكبير ، كان يحترق ، قبل وفاته بقليل ، فكرة القيام بحملة واسعة تحمله ورجاله ، بحركة التفاف حول القارة الافريقية او عن طريق مصر وقرطاجة ، الى اعمدة هرقل (جبل طارق) ليعود منها الى اليونان عبر شبه ايبيريا (اسبانيا) وغاليا (فرنسا) وايطاليا . فلو صح الحلم واستطاع العامل المقدوني تحقيق معالم هذه الصورة الجغرافية التي ارتسمت في ذهنه وطالما راودت خياله الجموح ، لعاد ذلك على الحضارة الهلينية بخصائص وميزات غير التي طبعتها فقردتها . فلو كان هنالك امرؤ ما ، يستطيع الكشف عن افكار مخبوءة يمكن الانتفاع بها في الغرب المخشوش ، لكان هو الاسكندر نفسه الذي عرف ان يكشف ما خفي من مخبوءات الفكر والعلم والثقافة حينما اجتاحت جحافل بلاد ايران الشاسعة . الا ان خلفاء الذين لم يكن بينهم من يدانيه ، من بعيد او قريب ، نبوغاً حربياً ولا ثقافياً ، قبعوا خاملين في الاراضي التي دوخها لهم ، واستكانوا الى ما قيضت لهم الاقدار من ملك وسلطان ، فاقصرت الحضارة الهلينية على التمكن للروابط التي اقامتها من قبل الحضارة الاغريقية في دورها البارزين من تاريخها القديم والكلاسيكي العتيق .

تأثير الشرق المتوسط على الغرب
غير ان عدم الاخذ لا يمنع العطاء . وبالفعل هنالك عدد من مدنات الشرق الادنى امتدت او ، بالاحرى ، شجعت المدنيسات الغربية الناشئة ، على الاخذ والقبس . فقد قامت في افريقيا تجاه المضيق الذي يفصل بين حوضي البحر المتوسط ، مدينة قرطاجة ، احدى انشاءات مدينة صور . والوجود الاغريقي الذي قام في الغرب ممثلاً بهذا العديد من المستعمرات اليونانية التي ازدهرت في جنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية ، تبلور عن كتلة من الجوالي اليونانية زخرت حيوية ونشاطاً ، كما قدم العديد من هذه الجوالي اليونانية في جنوبي غاليا وغربي اسبانيا وجنوبها . فالشرق السامي والايجي بعث الى الغرب بمجاليات اخذت تنتظم على شاكلة المدن الام التي انشطرت عنها ، واقتصرت في تكيفها بالمحيط الجديد على الحد الادنى . الا ان هذه المجتمعات الناشئة في تربة جديدة وبيئات جديدة ، أثرت

عميقاً بسلوكها وتصرفها ، في غير جهد ولا عناء ، على الشعوب التي عاشت بينها ، وذلك بما كان للحضارة التي تحملها وتنعم بها من سمو وعلو شأن ، فشرت حولها شيئاً من النظم السياسية والاقتصادية ، التي كانت تأخذ بها وتعتمد عليها في عيشها ، كما نشرت الكثير من الاعتقادات والأفكار والأذواق والأعراف التي قال بها سكان هذه المستعمرات وساروا عليها .

وقد حدث الى جانب هذا كله ، بفضل هذه الجوالي اليونانية ، تأثيرات تمت بالمداورة ، أي بمزل عن وجود ممثلي هذه المدينيات ، اذ قام الاغريق والقرطاجيون بدور السامسة . وبواسطتهم عرف سكان الغرب ، اذ ذاك ، وجهاً من وجوه الشرق اكثر انطواءً من المألوف ، واقل تعبيراً . وليس من الضروري القول مع القائلين ان الاتروسك جيل جاء اصلاً من آسيا الصغرى ، لنذكر كيف ان الفن الاتروسكي ، كصنوه الفن الاغريقي القديم ، مر بدور « متمشرق » .

والحق يقال ان هذين العاملين ليسا على قدم واحد من المساواة . فالواحد منها يستخف بالفعل ، بالآخر ويزدريه حتى في الحالات التي تقبس فيها مدينيات الشرق الاوسط من الغرب . فجدورها لا تُعْرِق ولا توغل الا في تربة شرقية . فهي لا تختار نماذجها ولا تتخير عناصرها المقومة الا من الشرق . والامر الذي لا يَـأْرى فيه قط ان بعض هذه المدينيات الشرقية تتطور بخطى حثيثة قلما عرفت مدينيات الغرب مثلها ، بعد ان عرفت كيف تفيد من ظروف اكثر ملاءمة ، ومن التقدم الذي حققته المدينيات التي سبقتها الى الوجود في سلم الحضارة ومضار الحياة . وهكذا قدمت هذه المدينيات للعالم البعيد عنها نماذج يستلهمها ، وصوراً يترسما وينسج على منوالها عندما يستيقظ عنده الوعي وتستشرب فيه الحياة وتندفع نحو الخلق والابداع . ففي الحين الذي افرغت فيه المدنية الهلينية ، في بوتقة واحدة ، الاختبارات التي جمعتها وألفت بين المثل التي اخذتها عن بلدان الشرق الأدنى ، عمدت الى صهر هذا كله في لفة مثالية كان لها من شديد الوقع ما سحر مدينيات الغرب الناشئة ، فراحت تتكيف به وتتأثر معه بعيداً ، حتى عندما رأت الحد من هذا التأثير ، والصمود له والوقوف في وجهه .

ومع ذلك إيانا والمغالاة . فالكلام عن شرق رائد وغرب سائر في ركابه ، وعن شرق مهذب معلّم ، وغرب متعلم له ومقتبس منه ، يذهب بالكثير من مفارقات المعنى ، والمداول . فالغرب لن يفقد أصلاته في هذا القبس ، بل الامر على عكس ذلك تماماً . فبعد ان دقت هذه الاصلة طويلاً واسترقت ، راحت هذه المدينيات تعيد منها صلاية العود ، عندما دب اليها ريس الحياة وجاش فيها النشاط من جديد ، في مطلع العهد المسيحي ، الى ان قضت الاقدار على هذين العالمين بالانفصال والسير كل منهما في اتجاه مستقل معاكس . فالى هذا التاريخ كانت حركة القبس ناشطة باستمرار ، ولا سيما في الحقل الثقافي . ففي هذه الملاحظة كفاية لتبرير الفارق الزمني البدائي بين المجلد الاول والثاني من مجلدات هذه الموسوعة التاريخية . فقبل قيام الامبراطورية الرومانية ، كانت مدينيات الشرق الأدنى ، تكفي نفسها بنفسها ، وتتعارف فيما بينها وتفهم

قبل ان تتعرف الى مدنيات الغرب ، الا ان العكس لا يصح مطلقاً . فعبثاً نحاول فهم مدنيات الغرب ما لم ندرس مدنيات الشرق ونطلع عن كتب ، على تاريخها الجيد .

من المفارقات القائمة بين الشرق والغرب مفارقة لا ترتبط وحدة سابقة لارائها في الشرق الادنى وانقسام مستمر في الغرب بشيء بالسابقة ، اذ ليس ما يرغم المجتمعات الغربية ولا ما يجبر المدنيات على التطور والسير بها نحو الوحدة . ففي اواخر القرن الرابع ومطلع القرن الثالث قبل الميلاد، استطاع الاسكندر إنشاء وحدة سياسية، حافظ عليها خلفاؤه من بعده ، تألفت مقوماتها من هذه الاقطار التي لعبت شعوبها ، بصورة مباشرة ، فعالة، دوراً بارزاً - وليس عارضاً - في تاريخ الشرق الادنى . وفي ظل هذه الوحدة السياسية برزت مدينة موحدة هيمنت على الشرق بكامله وطبعته بطابعها . فالشرق الكلاسيكي ، لم يعد مجرد صيغة او صورة من خلق المعلمين ، متقطع الارصال الجغرافية . فقد اصبح هذا الشرق الواحد حقيقة واقعية ، حية ، نابضة - لها ككل كائن حي ، شوائبها - كما لكل مجتمع بشري قائم ، نواقصه . ولهذه الوحدة المتحيزة ، من الكمالات ومن الملء ، ما يتضاءل حياها - كل ما قام او عرف من نظائرها في التاريخ ، من قبل .

والحال ، فقد شهد الغرب ، في هذه الحقبة قيام مدنيات لا يمكن تجاهلها ، او التغاضي عنها . مع ان بعضها شاخ واندثر ، الا ان القوى المبدعة في هذا الغرب لم تنضب يوماً ولم تحف ، ولم تصب بالعقم او القحط . فاذا كانت حضارة الاتروسك الزاهرة ، قد غلقتها التاريخ ولفها بقمط النسيان ، مع ان عهدها لا يزال في الخواطر طرياً ، وفي رأى العين ، فمدنية قرطاجة هي الاخرى ، في اُبان زهوها وازدهارها ، وروما بدورها ، قطعت ، في هذا السبيل شوطاً بعيداً ، بينما يؤلف الغاليون ، من ناحيتهم ، قوة مادية هائلة بالرغم مما يعتورها من قلة التنظيم ، بعثت الفزع والرعب ببطشها وبأسها . وليس ما يحول دون بلوغها يوماً من الايام التنظيم المرتجى ، فتصبح إذ ذاك ، بالفعل ، بعبء يخشى شره . ففي الوقت الذي تمت فيه وحدة الشرق الادنى ، نرى الغرب شتيتاً ، متقطع الاوصال ، موزعاً بين مدنيات متباينة ، تفاوتت درجة تطورها ، واختلفت حيوياتها باختلاف منطلقها عبر الزمن . فوضع الغرب آنذاك ، شبيه من جميع الوجوه ، بالوضع الذي كان عليه عالم شرقي البحر المتوسط ، قبل ذلك بنحو ستة او سبعة قرون ، مع انه ليس وراء ماضي الغرب الذي غبر وانقضى ما يمكن مقارنته ، من قريب او من بعيد ، بهذه المدنيات التي زهت وازدهرت في مصر ، وبلاد ما بين النهرين ، وحوض بحر إيجه ، وما بلغت من تفوق عظيم .

ومع هذا ، وبالرغم من هذا ، فالمستقبل يفتقر عن بسمة عريضة للغرب ، اذ ان الحصلة الكبرى التي عادت بها الحقبة التاريخية التي ينتظمها القسم الاول من هذا المجلد ، هي إعداد وحدة أشمل واوسع ، بالرغم من عدم وحدة البحر المتوسط لحساب روما

دخول بلاد ما بين النهرين وإيران فيها . إلا أنها لعمري ، وحدة سياسية لا غير . إلا ان الوحدة المدنية او الحضارية لن تتم بالسرعة ذاتها مع ان عوامل السير لا تنقصها . ولا بد ، والحالة هذه من حدوث واحدة من هاتين الوحدتين ، فيتاح للأخرى ان تخلق لنفسها الأطر والملاكات التي لا بد منها للتطور والتقدم . فالفتح المظفر المبين الذي حققه الاسكندر من قبل ، مهد لطلوع المدنية الهلينية . أما الفتح الاكبر الذي قامت به روما فهو الذي مكن من تحقيق الوحدة القوية التي عرفتها الامبراطورية الرومانية في القرنين الثاني والاول قبل الميلاد .

علينا أن نقول بالحمية التاريخية ، هنا ، الى الحد الأبعد ، الى ما وراء الحدود التي يبلغ اليها منطق المؤرخ ، فنقرر ان الغرب كُتِبَ له لعب هذا الدور ، وقُدِّرَ له السير في هذا الاتجاه . ومصير كهذا ، هو من فعل عناصر بشرية ، مختلفة العروق ، بعضها شرقي الاصل والنشأة ، كقرطاجة مثلاً . والغرب في هذا السير المقدور غير مدين لأية هبة أو نعمة مجانية من الطبيعة ، وذلك بما ركز فيه من غرائز وخصائص مفرقة . قد يرد بعضهم بوزن الغرب وتجليه وتساميه الى ما فيه من قوى وقدرات ناشطة ، بينما أخذ الشرق يعاني أوصاب الشيخوخة . انها لعمري ، نظرة فاسدة للنشأة الشعوب يناهضها حيناً مائة دليل ، ويجرحها أحياناً ألف دليل ودليل . ولعل أقربها طراً على الاطلاق الى الصواب ، حكاية الفتح الروماني . فمن أَلِفَ هذه الحكاية الى يائها ، ومن بابها الى محرابها ، للمفاجأة ولغير المتوقع ، دور حاسم . صحيح ان المفاجيء والطاريء وما ليس في الحسبان ، عنصر ملازم لواقع الحرب وللأحلاف العسكرية والسياسية . فاذا ما استعرضنا التفاصيل ونظرنا ملياً في ماجريات التاريخ ، وجدنا ان اكثر من حلف واحد ، وان اكثر من موقعة حربية واحدة ، كان مصيرهما في كف عفريت او في ضمير القدر المجهول . هنالك أمور تصدم منطق موقعة او معركة حربية صدماً عنيفاً . فبينما القدر المجهول يكتنف وضعاً حربياً او ظرفاً سياسياً ، ترى الدولة نفسها مرغمه على التدخل عسكرياً . في اليونان مثلاً أو في آسيا الصغرى ، قبل ان تظهر نتائج الاعمال الحربية التي تنهض بها ضد قبائل اسبانيا والليغوريين الاشداء البأس ، فتتشبى روما ولاية لها من غالباً الجنوبية تشد بها بين اوصال ولاياتها في ايطاليا وبين الفتوحات التي دوختها جيوشها المظفرة في اسبانيا ، من نحو قرن ونصف ، وذلك بعد عدة سنين من انشاء ولاية مقدونيا وآسيا الصغرى . وفي سياسة روما ، الداخلية منها والخارجية ، على السواء ، اكثر من مثل نضربه لك ، يريك كيف ان كثيراً من النتائج التي امكن لروما اعتبارها نهائية ، كادت تصبح موضوع شك وتردد ، كما كانت من شأنها ان تجمل مستقبل البلاد كله في خطر ماحق . بعد هذا ، يصح ان نتساءل : هل كانت الوحدة الرومانية لتتم ؟ ، وبمثل هذه السرعة ؟ ، وعلى مثل هذا النطاق الواسع ؟ ، ولحساب روما بالذات ؟ قد يكون مجازفاً مغروراً من يجيب بالاجاب عن هذه الاسئلة المخرجة .

فالقوى والعوامل الخفية التي تتحكم بمصائر الدول والشعوب ، هي التي جاءت بالجواب

القاطع الجازم ، فقدمت لنا صورة لا شبيه لها ولا نظير ، من الرقي والتطور الذي بلغته
الانسانية في عهد روما ، كارت له من النتائج العظيمة الضخمة ما لم يسبق للتاريخ ان سجل
مثلا او عرف ما يضاهيها .

علينا ان نستعرض تباعاً ، بعد ان عرفنا العناصر الشرقية التي لعبت هنا دورها البارز في
هذا المصير ، والعناصر الغربية التي شاركت فيه ، اقوام الاتروسك الذين افاضوا على ايطالييا
بمدينة سطع نجمها عالياً ، وقرطاجة ، هذه المدينة الشرقية النشأة التي انشأها الاستعمار الفينيقي في
الغرب ، والغاليين الذين هدد تدويجهم بالقضاء على معالم روما الناشئة ، واخيراً روما التي ارسى
قواعد امبراطورتها على حوض البحر الابيض المتوسط .



الكتاب الأول

المغلوبون على أمرهم

الفصل الأول

مَدَنِيَّةُ الْآتْرُوسْ ETRUSQUES

شعور الانسان وتحسسه بامور السياسة يفوق كثيراً تحسسه واهتمامه بالمسميات الجغرافية. لنأخذ ، مثلاً ، اغريقيةً متوسطة الثقافة من معاصري بركليس . فهو يعرف معرفة تامة ان الدول والممالك تنمو وتتطور ، ثم تهرم وتشيوخ وتنقرض عن وجه الارض . فهو يسلم مقتنعاً ان بالامكان قيام سيطرة على البحر المتوسط قوامها جنود وموظفون اداريون من اصل ايطالي ، مثلاً . الا ان صاحبنا هذا يجهل تماماً ان المصطلحات الجغرافية ومدلولاتها عرضة للتبدل والتغير والتطور . فاذا ما قام احدهم وقال له : ان بعد اربعة قرون تطلق كلمة ايطاليا ، على شبه الجزيرة التي تقع بين البحر الادرياتيكي والبحر التيريني وجبال الألب ، لكان وقع هذا الكلام عليه اشد من وقع الصاعقة . فالاغريق عرفوا هذا المصطلح الجغرافي واستعملوه بعد ان تساموه من احدى اللهجات المحكية الوطنية المستعملة في هذه الرقعة من الارض ، دون ان نعتد في اثبات ذلك مصدرأ اصيلاً نعول عليه ونأتم به . الا ان هيرودوس اطلق هذا اللفظ الجغرافي ، لدى استعماله له ، على مقاطعة كالابريا ، دون سواها . وليس من الصعب ان نتبع توسع مدلول هذا المصطلح ، في المجال اليوناني أولاً ، ثم في المجال الروماني ، بالنظر لصروف الفتوحات والمؤسسات الرومانية المتتالية . وقبل عهد يوليوس قيصر بقليل ، اي بعد منتصف القرن الاول ، قبل الميلاد ، اطلقت كلمة « ايطاليا » على شبه الجزيرة المعروفة بهذا الاسم اليوم ، بما فيها سهل البو Po ، حتى حدود جبال الألب .

وهذا التطور في مدلول المصطلح المذكور يمكن اتخاذه رمزاً . ففي الوقت الذي بلغت فيه الحضارة اليونانية اوجها من الازدهار والتجلي ، لم تكن ايطاليا بعد « تعبيراً جغرافياً » . فقد استوطنتها شعوب وقبائل مختلفة الاصل والعرق ، تتكلم لهجات متباينة اصلاً وفصلاً ، وتسرع على نظم حضارية متباعدة . فالى الحين الذي جعلت روما حقيقة واقعية لهذه البلاد ، لم يكن لايطاليا سوى وجود فكري او عقلي ، في عرف الاغريق ، حتى ان الايطاليين انفسهم الذين لم يكونوا

ليعنوا الا بشؤونهم الخاصة، لم يكونوا ليفقهوا الجغرافية بلادهم معنى ولا يرون لها اية وحدة طبيعية. الا ان شعباً واحداً من شعوب تلك البلاد، لعب دوراً بارزاً في تاريخها. فكل الدلائل تشير الى ان حضارة زاهية قامت فيها وازدهرت ، وان فكرة وحدة البلاد او توحيدها قد تكون جالت في خواطر هؤلاء القوم واتجهوا في تحقيقها الاتجاه السوي . فما كان ينطل القرن الرابع قبل الميلاد حتى رأينا الاتروسكيين يخلون مسرح التاريخ ويغيبون عنه الى الابد .

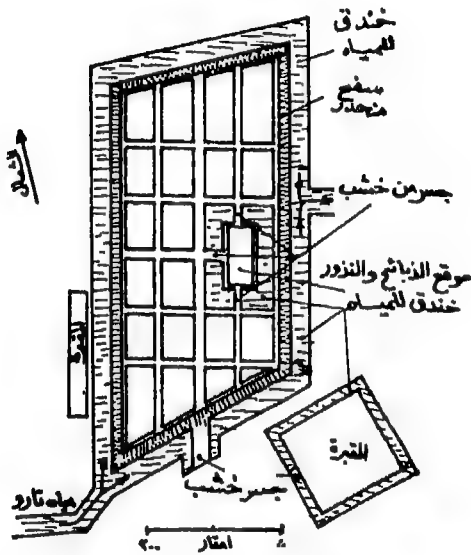
١ - تاريخ ايطاليا القديم

مشكلات غامضة متشابكة قضية سكان شبه الجزيرة الايطالية وعهد ما قبل التاريخ فيها، هي من الامور التي تثير مشكلة دقيقة ليس هنا مجال البحث فيها طويلاً . فبقطع النظر عن المعلومات الضعيفة الوجيزة، المتضاربة فيما بينها والمستمدة من مؤرخي اليونان ، علينا ان نعول هنا على ما يمدنا به علم فقه اللغة وعلم الآثار الايطالية . الا انها معلومات اعجز من ان تزيل الابهام والغموض الذي يكتنف هذه القضية . ففني الوقت الذي نرجو ان نفيد كثيراً ، في المستقبل ، من علماء الفيلولوجيا ، نرى ، على عكس ذلك تماماً ، علماء الآثار يزيدون الامور تعقيداً بالآراء المتضاربة التي تثيرها نتائج الحفريات والتنقيبات الاثرية التي يقومون بها والتي بنى على نتائجها العلماء الآمال العريضة . لا مرأى انهم عولوا كثيراً على الطقوس الدينية ومناسك العبادة، واتخذوا من مراسم دفن الموتى وحرق جثثهم دليلاً يميزاً لبعض الشعوب وبعض الحضارات . ولما كنا هنا ، والحق يقال ، امام جهل قاضح للمناطق والادوار التاريخية المتعاصرة ، كان لا بد لنا من ان نقصر في حديثنا ، على العادات المعمول بها ، هذه العادات التي تخضع لتقلبات وتغيرات من الصعب تحليلها ، وهي تغيرات استمرت حتى بلغت صميم الامبراطورية الرومانية ، حيث تغلبت عادة دفن الموتى وساد العمل بها .

والشيء الوحيد الثابت والاكيد معاً، هو تنوع عناصر السكان في البلاد، الامر فيشياء عنصرية الذي يحدو بنا للنظر اليه نظرة عجيلى دون ان نتعرض بكلمة للاتروسك وللقضيا التي يثيرها الوجود الاتروسكي .

نجد الى الشمال الغربي من ايطاليا، والغرب الاوسط من صقلية وجزيرتي كورسكا وسردينيا، عناصر اثوغرافية قديمة محافظة . ومن الحكمة وحسن الفطن ان ننتهنا اجمالاً بـ « شعوب البحر المتوسط » . وبالرغم من المسميات المختلفة التي اطلقت عليها عبر التاريخ القديم ، « كالليغوريين » الذي عرفت به الاقوام التي كانت تحتل ، حتى اواسط القرن السادس قبل الميلاد، منطقة اوسع بكثير من المقاطعة المعروفة اليوم بمقاطعة « ليفوريا » اذ كانت تشمل جانباً كبيراً من ايطاليا الشمالية حتى حدود جبال الألب ، يبدو من الراجح، ان هنالك وشائج عرقية بين هذه الاقوام و « اليباريين » دون ان يتمكن علماء اللغات الذين يعنون بدراسة الاسماء ، من الوصول الى نتائج تحوز الاجماع .

وهذه الجماعة البشرية التي هي ولا شك، اقدم العروق البشرية التي أهلت بها إيطاليا، لا بد ان تكون اكتسحت إيطاليا برمتها . والظاهر انها اضطرت الى الانطواء على نفسها والانكماش الى الغرب امام ضغط الهنـد الاوروبيين الذين كانوا يسيطرون : على الشمال الشرقي والقسم الاوسط، والجنوب، من شبه الجزيرة الايطالية ، كما سيطروا على النصف الشرقي من جزيرة صقلية . وقد اصطلح المؤرخون على تسمية هؤلاء القادمين بـ « الايطاليك »، بالنظر لاتساع رقعة سلطانهم . فالهنـد الاوروبيون ، مصطلح فيلولوجي او ألسني، يتميزون عن اسلافهم الذين حلوا محلهم ، بالوشائج التي كانت تشد اللهجات التي كانوا يحكونها . فبدلاً من ان يكونوا كلاً متجانساً، الفوا عدداً من البطون والافخاذ ، بينهم : الفينيت ، والأمبريوت ، والسابنز واللاتين والسمنيين وغيرهم . ونرى هؤلاء الاقوام في اواخر الألف الثاني ، يستقرون نهائياً حيث نجدهم منذ ظهور



الشكل ١ - مخطط تيراماريه دوكتيلازو دي فونتسلانو في ولاية بارما ، وفقاً للحفريات التي جرت في اواخر القرن التاسع عشر والتي يتضارب العلماء اليوم رأياً في تعويلهم عليها.

استقرت الى الغرب من جزيرة صقلية هي اقوام أسبوية هاجرت اليها بعد حروب طروادة وسقوط الإليون. وعلى السواحل الشمالية والغربية من صقلية انشأ الفينيقيون مستعمرات صار امرها فيما بعد، الى ذرايعهم من القرطاجيين ، منها مثلاً : بانورموس (باليرمو) . ومنذ القرن الثامن ، اخذ الاغريق ينشئون مستعمرات لهم ومدناً على سواحل إيطاليا الجنوبية التي عرفت فيما بعد باسم « اليونان الكبرى » وذلك في شقة من البلاد امتدت من مدينة كوم شمالاً، الى مضيق أوترانت جنوباً ، كما انشأوا مدناً عديدة لهم على ساحل جزيرة صقلية الشرقي والجنوبي، ثم جاءت قبائل غالية استقرت افخاذها في سهل نهر البو .

اول هذه الحضارات حضارة التيرامار كم كنا نتمنى لو نستطيع تحديد كل من هذه الحضارات التي انشأتها كل من هذه الشعوب. ولما كانت هذه الشعوب لم تعش منعزلة ، فقد خضعت لمؤثرات شتى تداخلت وتشابكت بعضاً ببعض ، يصعب تحديدها وتبيين مقوماتها ، اعاقت تطورها الداخلي واخرته . فبدلاً من ان تساعد الحفريات الاثرية على إلقاء اضواء كاشفة ، زادت الامور تعقيداً بما أثارته من مجادلات ونظريات متضاربة . وهنا ايضاً ، علينا ان نقنع بعد الكثير من التوضيحات ، ببعض امثلة نسوقها نموذجاً دون ان نحاول عبثاً رسم توافق دقيق بين شعب معين من هذه الشعوب وبين الحضارة التي انشأها .

يتميز تاريخ ايطاليا ، في العصر الحجري الجديد ، باقبال الناس على النحاس الامر الذي دعا المؤرخين الى نعت هذه الحقبة بالعهد الحجري النحاسي . ولم يبرز مطلع الألف الثاني حتى برز معه استعمال الشبهان فاتاح ظهور ما يسميه المؤرخون بحضارة التيرامار (اي التربة الغضارية) التي تتميز باستعمال الانسان للاوتاد المنصوبة في بطن التربة لتقويتها وتدعيم الاكواخ المصنوعة من الطين ، تقليداً او تشبهاً بالدعائم المائية المنصوبة في البحيرات . وتوصل العلماء في اواخر القرن التاسع عشر الى الكشف ، في بعض الاماكن ، عن تخطيط رتيب لبيوت السكن - وهي نظرية يتنكر لها العلم اليوم - يحيط بها من الخارج خندق وسفح منحدر يستدير حولها ، مع تبليط للشوارع وايجاد ساحة او باحة للاجتماعات العامة ، واقامة مراسم العبادة عليها .

وكان يمثلو هذه الحضارة يعتمدون في اقامة هذه الانشاءات ، على الفؤوس والمناجل والمقاشط والسيوف . وازدهرت حضارتهم في سهول لمبرديا ، وفي الجنوب من سهل البو . ويرى البعض ان هذه الحضارة نقلها فاتحون غزوا البلاد من الشمال . إلا ان غيرهم يرى ، بعد ان شهدوا معالم حضارات اخرى من العصر الشبهاني في ايطاليا ، ولا سيما معالم الحضارة الابنينية (نسبة الى جبال الابنين *Apennin*) بأنها حضارة محلية يبرز فيها بوضوح الطابع الغريني قامت في سهل يخترقه العديد من الأنهر التي تردفه باستمرار بالرواسب والطيني .

الحضارات الفيلانوفية ثار مثل هذا الجدل بين العلماء ، حول تباين معالم الحضارات الحديدية التي قامت في مطلع الألف الاول قبل الميلاد . فراح البعض يردّها الى شعوب وقبائل جديدة ، مستشهدين على ذلك بعدم عثورهم على دور وسيط من البرونز ، كما هي الحال مثلاً في مقاطعة اللاتيوم ، أو بروز مفاجيء لعنصر الحديد . وقد لوحظ ان هنالك اماكن تم فيها الانتقال من معدن الى آخر ببطء كلي ، انما باستمرار موصول ، الأمر الذي يتنافى مع افتراض غزو جديد .

ولعل ابرز الحضارات الحديدية واطهرها على الاطلاق ، هذه الحضارة المعروفة بـ « الحضارة الفيلانوفية » نسبة لموقع يقع على بعد ٨ كلم من مدينة بولونيا . ولعل النموذج الذي يمثل هذه الحضارة خير تمثيل هو جرة العظام الخروطية الشكل المزدوجة ، وهي تتألف اصلاً من وعائين من الخزف مقلّين من الاسفل . والغالب في صناعة خزفيات هذه الحقبة ، ان الجرة تصنع احياناً من البرونز او الشبهان . فمع ان هذه الحضارة عرفت الحديد وتدبرته واستعملته ، فقد آثرت

عليه الشهبان ، فاقبلت على استخدامه والتعويل عليه بعد ان تفننت في طرقه وترقيقه . والشاهد على استعماله بكثرة وشدة الاقبال عليه ، هذه الارقام الثلاثة نذكرها هنا . فقد كشفت حفريات قامت بالقرب من بولونيا ٤٠٧٣ فأساً و ١٠٧٦٨ اداة اخرى ، كلها من الشهبان ، يزن مجموعها ١٤١٨ كيلوغراماً . وهذه الحضارة قامت وازدهرت في اواخر القرن التاسع قبل الميلاد ، ثم اخذت تتطور حتى اواخر القرن السادس ، منتشرة في جميع انحاء ايطاليا الشمالية ، الامر الذي حدا ببعض علماء الآثار الى اعتبارها حضارة شمالية ، فردوها الى حضارة «التيرامار» وحضارة ايطاليا الوسطى . فليس بينها وبين حضارة الاتروسك التي انبعثت عنها أي تقاطع .

وهكذا برزت امامنا الحضارة الفيلاوفية التي تقضي بنا الى بعض مميزات الحضارات الايطالية الحقة التاريخية فنلجها على مصراعها . وكذلك قل عن الحضارات الحديدية الاخرى التي تتجلى امامنا ، من وقت لآخر بمعالم مختلفة ، متباينة . اما سماتها الخارجية فقلما تبرز لنا واضحة ، جلية الا في حالتين لا غير .

تبدو الاولى في هذا العرف المتبع ، المعروف «بالربيع المقدس» وهي عادة درج الناس على اتباعها في الازمات الشديدة وايام الضيق ، اذ ينذرون فيها للآلهة ، مواليد الناس والحيوانات الأليفة التي تولد خلال فصل الربيع الطالع . ووفاء النذر كان مدعاة ، كما هو مظنون ، لمعادة الذبيحة وتقديم القرابين . انما كان يجري استبدال الذبيحة بفسكك الجليل المولود اثناء الربيع المقدس ، وفصله خارجاً عن القوم ، عند بلوغه الرشد وطرده خارج القبيلة ، وقطع كل صلة له بها . وكان من جراء الاخذ بهذه العادة ان طلعت جاليات صممت على شق طريقها الى الحياة واقتطاع محل لها تحت الشمس ، مها كلفها الامر . فقد عمل بهذه العادة في ايطاليا بين قبائل السمنيوم الجبليين وبين السابنز ، ومنهم امتدت الى الرومانيين فاقتبسوها ، وعملوا بها على نطاق ضيق حتى القرن الثاني قبل الميلاد ، فاننا نجد لها مرجية الاجراء عند الكلتيين في اوربا الوسطى . ولذا لا بد من القول بوجود عادة من هذا النوع غلب الاخذ بها عند بعض الاقوام الهند الاوروبية .

ويستدل من كتابة اثرية مرقومة على احد الاعمدة المحيطة بـ «جندي كابسترانو» ليس هنا مجال الاستطراد في شرحها وتفصيلها ، ان سكان البلاد الاصليين كانوا يعرفون الكتابة ويجيدونها في الوقت الذي تم فيه نحت هذا التمثال ، في النصف الثاني من القرن السادس ، وهي كتابة اخذت ايجديتها من الايجدية اليونانية . ويكشف لنا هذا التصوير البدائي الجاف ، ولو من بعيد ، وبشكل ملموس ، تأثره بالفن الاغريقي القديم . ففي كلا الحالتين نرى المدنية الهلينية بحاجة ماسة للاتروسكيين لتنتقل بواسطتهم الى قلب شبه الجزيرة الايطالية . ومها يكن من الامر ، فلا بد من ان ننعم النظر ملياً في الاثر الذي خلفته وراءها حضارات شرق البحر المتوسط في سكان ايطاليا .

قامت منذ عهد بعيد علاقات وطيدة متنوعة ، بين طرفي البحر المتوسط . فان لم تترك حضارة كريت القديمة اثرها في صقلية ، فقد خلفت فيها تجارة المينيين بعض المعالم . وتزعم بعض الاساطير

حضارات شرقي البحر المتوسط
وايطاليا

الآغريقية ان الملك مينوس، لقي حتفه في صقلية، عندما كان يقوم بحملة بحرية عليها. والفينيقيون انفسهم نقلوا الى شواطئ البحر المتوسط الغربية، مع ما نقلوا من محاصيل الشرق، منتجات صناعاتهم التي حرصوا على تنفيها وبيعها من سكان تلك الاقطار النائية. والتطور التقني الذي عرفته المدن الإيطالية في العصر الشباني يبقى سرّاً مغلقاً واحجية محيرة لولا تأثر هذه المدن بصناعات الشرق. وزاد اثر هذه العوامل عمقاً عندما راح القرطاجيون والآغريق ببسط نفوذهم على تلك الشواطئ، بما اسسوا عليها من مستعمرات وما انشأوا فيها من جاليات، فنشطت بالتالي المبادلات والمقايضات التجارية، وراح سكان إيطاليا في الجنوب والوسط، يقبسون، اسوة بالآتروسكيين، وعلى نطاق واسع، من حضارات الشرق، فتزداد طاقات مدنيّتهم خلقاً وابداعاً. الا انهم نقلوا عن الآغريق اكثر مما اخذوا من القرطاجيين الذين اقتصر دورهم على النقل والسمرة. وقد اخذوا بروعة الفن الروماني الذي اثر فيهم عميقاً وهياماً لاقتبال المؤثرات الدينية. ففي الايجديات الإيطالية شهادة عدل ودليل ساطع على بعد غور الاثر الآغريقي فيها. فعبثت الايجدية الفينيقية اليهم عن طريق الايجدية اليونانية. ومها يكن من ضخامة هذه الاقتباسات واتساعها فقلما بلغت حد التمثيل والاستمراء. جاء القرطاجيون والآغريق بمدنيّات تفوق بكثير الحضارات الوطنية التي تفتحت براعها في إيطاليا قديماً، وقد هزتهم مشاعرهم الوطنية فأبوا ان يرجوها ويخلصوا لها السعي الحميد لتأمين إشعاعها، شاهد على ذلك، عدم اكترائهم بهذه المؤثرات واللحاحات التي تبدى خطها الدقيق لباحثين عنيدين، ورفضوا ان يبدلوا اي جهد في سبيل نشر هذه المدن مؤثرين ابقاء البرابرة في جهلهم يعمهون، ليسهل استعمالهم شغيلة وسخرة. والحق يقال ان وجودهم في صقلية لم يبق دون اثر. فقد راح السكان البسائيون في غربي هذه الجزيرة، ولا سيما قبائل الأليم بينهم، وهم أسويو الجذر، يخضعون في بادئ الامر، لمؤثرات الحضارة البونيقية، ثم لم يلبثوا بعد لأي من الزمن، ان تأغرقوا، اسوة بسكان شرقي الجزيرة. ومرد هذا المسلك ينهجون، انغزالهم في جزيرتهم، وإقبالهم طوعاً واختياراً، على مشاركة الآغريق والقرطاجيين، الحروب التي قاموا بها، ضد غزاة أغراب. ونشهد شيئاً من هذا يتم في شبه الجزيرة الإيطالية. فبقطع النظر عن الآتروسك الذين اشتهروا بنافستهم للآغريق وبعداهم الشديد لهم، لم نر شعباً واحداً بين الشعوب الإيطالية يتنكر للغة الام او للغة القومية، كما اننا لا نرى شعباً واحداً منهم، يتنكر لمنظّماته الاجتماعية ونظمه الدينية والعقائدية، ويوجد الروح الوطنية فيه. فلم تصبح إيطاليا يوماً بالنسبة للآغريق، ما كانت لهم آسيا الصغرى من قبل.

ولذا تم المقدور ووقع ما لا بد من وقوعه دون ان يترك ذلك على المخطاط المستعمرات اليونانية
قرطاجة نفسها اي اثر يذكر، ما لم تكن انشأت لها موطئ قدم في شبه الجزيرة الإيطالية. فلم يلبث آغريق اليونان الكبرى ان تعرضوا لضغط شديد من قبل الإيطاليك. فبعد غلبتهم على الآتروسك رأوا انفسهم وجهاً لوجه مع الشعوب القاطنة الى

الجنوب من سلسلة جبال الابنين ، الذين اشتد منهم الساعد وقويت شوكتهم وأصبحوا مفرزة لجيرانهم ، اثر النجاح الذي لاقوه ضد الاغريق من سكان صقلية . فبعد ان عملوا مرتزة في جيوش الاغريق ، انتظموا كتائب مدربة استطاعت ان تملي ارادتها على أسيادها . فقد قام مرتزة المامرتين - عبدة الاله مامرتوس (اله الحرب مارس) بنهب مدينة مسينا ، عام ٢٨٨ ، واتخذوا منها دار سكنى لهم . وكان هؤلاء المرتزة ، على الغالب ، من قبائل السمينيين ، جاؤوا صقلية في خدمة سيراكوزة والعمل في جيشها . وكانت مدينة تارنت تعاني ، اذ ذاك ، الامر من عنفوان جيرانها وعنتهم ومطامعهم العريضة ومعاملاتهم السيئة . وهكذا بدت المستعمرات والجوالي الاغريقية في الغرب ، أدنى من قاب قوسين الى الزوال والاضمحلال ، بعد ان ضعف شأنها في ايطاليا من جراء الحروب الضروس التي خاضت غمارها في صقلية ضد قرطاج من جهة ، وخلال المنازعات الدامية التي أقامت هذه المستعمرات وأقعدتها بعضاً على بعض ، فأهكتها وجعلتها لقمة سائغة في فم روما ، فبسطت عليها بعد حروب طويلة ، سيطرتها المنقذة وسلامها المنعش .

وقد عرفت هذه الجوالي الاغريقية عهداً يذكر من الازدهار السياسي والثقافي ، فساهمت في القرن السادس ، بصورة مجدية ، بإعلاء ونشر الحضارة الهلينية من الوجهتين الفنية والفكرية . ففي مطلع الجيل الخامس قبل الميلاد ، إبان حكم آل دايونيدس ، وخلال القرن الرابع أثناء ولاية دنيوسوس القديم ، استطاعت سيراكوزة ان تثنى لها نوعاً من الامبراطورية المهيبة الجانب . إلا ان طلائع الاخطاط تفشت في هذه الجوالي ، منذ منتصف القرن الرابع . بالحقيقة ان كل شيء أغرى الاغريق بآسيا : حضاراتها القديمة ، وكنوزها المكنوزة ، والماضي السحيق للمستعمرات التي أنشأوها على سواحل البحر وكثرة الجزر المتناثرة حباتها في بحر إيجه . استطاعت كورنثس ان تثنى مدينة سيراكوزة في صقلية ، التي بلغت من بعد الشأو وخطر الشأن ما جعل اثنيترونو اليها ، الفينة بعد الفينة ، باشتهاء . إلا ان قيام الحواضر الاغريقية المغربية على السواحل المطلة من الشرق ، على بحر إيجه ، بينما سواحل اليونان الغربية بقيت عطلاً منها ، لم يكن من فعل القدر الغاشم ، ولا كان جذبها القوي من فعل الخيال . فاستمر الاغريق في تشوقهم الأسر اليها ، وفي تطلعهم نحو الشرق ، بعد ان ساهموا ، من حيث لا يشعرون ، ببعث اليقظة ونشر الوعي القومي في ايطاليا ، وعملوا على تحريك القوى والقدرات الكامنة فيها ، وهي قوى وطاقات لم تلبث ان عملت ضدّهم وانتضبت في وجههم .

٢ - الاتروسك

كان باستطاعة القدر ان يضع . بأسرع مما فعل ، حداً لمضير الاغريق في الغرب ، اذ لم يبلغ تأثيرهم على شعوب ايطاليا ما بلغه من العمق على الاتروسك . فما ان اشتد منهم الساعد حتى أصبحوا خطراً يهدد الاغريق قيندرهم بشر مستطير لم تساعد على دفعه وتحويله عنهم ، ظروف طارئة . حرصنا حتى الآن على ألا نستفيض بحثاً عن الاتروسك وان لا نتعرض لهم إلا لما .

فقد بلغت المدنية التي أنشأوها شأواً عالياً من الازدهار برزت كثيراً ما قام من أمثالها في إيطاليا قديماً . بحيث لا مندوحة لنا الآن من درس هذه المدنية بتبسط .

لا بد لنا ان نبين هنا ، حدود المصادر التي يمكن الركون اليها والاعتماد عليها مصادر البحث
لدراسة تاريخ الاتروسك . فهي من النقص والفقر بحيث توجب التحفظ الذي
لزمناه في بحثنا هذا واخذنا النفس به .

اهتم الاغريق والرومان بدراسة تاريخ الاتروسك والمدنية العظيمة التي خلفوها ، فخصوصهم
بأبحاث هامة مجتزئة منها يذكر مصدري لأصحابها شهرة واسعة ، اولها ارسطو الذي لم يغفل عن
ان يخص الاتروسك بدراسة واسعة بين الشعوب المائة والثامنة والخمسين التي تعرض لذكرها ،
فخص أنظمتهم السياسية بدراسة طويلة . اما الثاني منها فهو الامبراطور كليوديوس الذي وضع
كتابه الموسوم . « حول التيرينيين » وهو كتاب يقع في ٢٠ جزء . إلا ان هذه المصادر كغيرها
من الوثائق الأخرى القديمة ، عبثت بها أيدي الدهر وأطاحت بها ، ولم يبق مما يتعلق منها
بمدنية الاتروسك الزاهية التي تعد أزهى وأزهر ما اطلعت إيطاليا القديمة من مدنيات ، سوى
نتف مبعثرة متقطعة الأوصال .

اما الوثائق الاتروسكية الاصلية ، فهي ، على وفرتها ، لا تبيل غلة ، لعدم استوائها من جهة ،
ولافتقارها للدقة المرجوة من جهة أخرى . فهي تتمثل بهذه الآثار العديدة التي عثر عليها
الباحثون والمنقبون ، وسوادها الاكبر من القبريات ، بعد ان اقبل علماء الآثار على نبش قبور
القوم التي كانت تفص بالحوائح المنزلية ، اكثر من اقبالهم على التنقيب بين معالم المدن التي
استوطنوها وعمروها . وبذلك اعادوا الى النور نماذج من حياة هذا الشعب في معتقداته ومناسك
عبادته ، وكشفوا بالتالي عما جال في خلدكم من افكار وآراء . والجانب الآخر من هذه الوثائق التي
تعود علينا بمعلومات اوثق واوسع ، هي الوثائق المكتوبة ، وهي كثيرة متعددة . منها لفائف
وعصائب من الكتان لمومياء مصرية محفوظة اليوم في احد متاحف زغرب ، من اعمال
يوغوسلافيا ، تحمل بضعة عشرة آلاف من الرقم ، معظمها من الرقم الجنائزية والندرية . وقد
امكن قراءة هذه الكتابات بيسر لأن الايجدية الاتروسكية مستمدة من الايجدية الاغريقية .
ولكن فك الحرف او قراءته لا يكفي وحده لتفهم النص . وبالرغم من ترجمة نحو من ٣١ كلمة
هي من نُقِلَ الاقدمين ، وبالرغم من عثور المنقبين على بعض كتابات ثنائية اللسان مكتوبة
بالاتروسكية واللاتينية ، وبالرغم ايضاً من الجهود الطائلة التي بذلها فريق مجرب من علماء اللغات ،
لا تزال اللغة الاتروسكية للآن طلسماً وأحجية غامضة وسراً مغلقاً . ولذا لم يستطع العلماء ان
يستخرجوا شيئاً هاماً من هذه النصوص باستثناء مسميات بعض الآلهة وبعض الاشخاص . وهذا
الوضع المؤسف يوضح لنا مجلاء كم هي حدسية ، النتائج التي توصل اليها علم الفيلولوجيا الاتروسكية .

من هم الاتروسك ؟ هذا الشعب الذي كان يسمى نفسه : « راسنا » ، وبهذا
قصة منشأ هذا الشعب
الاسم عرفه الإغريق والايطاليون . فالكلمة منحوتة من الجسدر :

« تورس *Turs* » الذي نجعل منه المعنى الصحيح . وهذا الجذر يبرز في الكلمات : *Tyrseoi* و *Tyrrhenoi* وهذه الكلمة لا تزال خية في الاصطلاح الجغرافي المعروف « بالبحر التيريني » . والجذر « *Tusci* » الذي يظهر في كلمة توسكانا *Toscana* و *Etrusci* . والتنويه بهذا كله في مطلع هذا البحث يبرز جلياً الشك الذي يعتور معلوماتنا حول هذا الشعب .

فلاجابة عن هذا السؤال المربك يمكن ردها الى ثلاثة ، إثنان منها عرضاً بوضوح ، منذ التاريخ القديم . فقد راح بعضهم ينسب الاتروسك الى شعوب شمالي اوربا ، ممن دخلوا البلاد عبر هذا القسم من جبال الألب المعروفة : بالألب الرتيك . والبعض الاخرى يرى مع القدامى من المؤرخين ان الاتروسك غزاة فاتحون خرجوا من آسيا الصغرى واستقروا بعد تطواف في ارجاء شتى من البحر المتوسط حيث حطوا رحالهم ، وذلك ربما في اواخر القرن الثالث او مطلع الالف الاول قبل الميلاد . من البديهي الا يكون بين اصحاب هذين الرأيين من يفترض فناء جذرياً او جلاء كاملاً للشعب او الشعوب الذين استباحوا باحته ، اذ ان غزواً يأتي من البحر لا يمكن ان يزحزح او يقتلع امامه سوى عدد محدود من السكان ؛ ففرض الغزاة عندما استقر لهم الامر ، على القسم المغلوب على امره ، نظامهم السياسي ولسانهم وعاداتهم . ويرى فريق ثالث ان طالع المدنية الاتروسكية وازدهارها انما هو حصيلة تطور وتدرج من الداخل بينما اخذت المدنيات الاقليمية او المحلية القائمة على سواحل البلاد ، تتدرج وتبدأ وتتطور الهويته ، بفضل اتصالاتها البحرية باقوام البحر المتوسط الشرقي ، مستغلة ما تفيضه عليهم التربة من الخامات المعدنية كالحديد والنحاس . فالاتروسك ، والحالة هذه ، انما هم اصليون بقدر ما يمكن نعت شعوب ايطاليا قديماً بهذا الوصف ، وليسوا مطلقاً غزاة طواريء اغتصبوا البلاد في بداءة التاريخ في شبه الجزيرة الايطالية والحقب التاريخية التي تلتها .

فكل الدلائل ، من اي نوع كانت : اثرية او لغوية ، ومن اي مصدر جاءت : ايطالية بالطبع ، او شمالية او ايجية او اسيوية حتى ومصرية ، مما استشهد به المؤرخون في معرض بحثهم هذه القضية التي سلسلت مقاليتها بعد القرن الثاني للميلاد ، ثم عاد فارقتع الجدل حولها من جديد في القرن الثامن عشر وما بعده ، عقب العثور على النماذج البديعة التي خلفها الفن الاتروسكي ، لا يمكن استعراضها هنا جميعاً ولا يفيد عرضها شيئاً . والقول بان اكثرية علماء العصر يأخذون بالنظرية التي تُغلب الاصل الشرقي للاتروسك وترجحها ، لا يوجب الاقتناع ولا يلزم الاخذ به ، اذ ان معضلات من هذا النوع لا تُحل بالاقتراع وعد الاصوات . فهناك اليوم علماء بارزون يتبنون هذا او ذاك من الرأيين المعارضين لنظيرتنا هذه . فمن الافضل ، والحالة هذه ، الوقوف الى جانب هذه الملاحظة مع العلم ان الوضع الحالي الذي تدعمه الاكتشافات الاثرية والمناقشات العلمية ، والبراهين التي تؤيد المنبت الشرقي للاتروسك ، تبدو ، بالنسبة لغيرها ، اكثر انسجاماً واقل عرضة للجرح من سواها . اما القول باكثر من هذا ، والذهاب الى ابعدمنه ، ففيه عنت وفيه تقرير وتعللة بالمستحيل ، اذ ليس في هذه الحجج ما فيه القطع او الجزم نفيًا او إثباتًا .

وبما لا مراء فيه هو ان الموقف الصحيح هو الاعتصام بالنفي ، ولو من اضعف الايمان ، تجاه الزعم القائل ان لغة الاتروسك ليست لغة هند اوروبية .

بين القرن العاشر على الابد ، والقرن السابع قبل الميلاد على قوة الاتروسك واتساع رقعة نفوذهم الاقرب - وهذا المدى الارحب والارسع الذي تحدده هذه

النظريات الثلاث وتضع فيه التوقيت الزمني الخاص بالاتروسك - نرى فيه هذا الشعب ذا نظام قائم ، اذ سيطر على رقعة من الارض تقع بين البحر التيريني ونهري الارنو والتير . وعلى هذه الرقعة الضيقة من الارض ، أنشأ الاتروسك عدداً من المدن ، اقدمها عهداً وأنشطها طراً تلك المدائن التي الى الجنوب ، على شواطئ البحر ؛ بينما تلك التي قامت في داخل مقاطعة اتروريا الشمالية ، لم يبرز لها نشاط إلا بعد ذلك . فليس ما يميز بنوع خاص ، ازدهار الزراعة فيها ، إلا ما جاء في المصادر التاريخية عن أعمال تجفيف مستنقعات ماريم *Maremma* الساحلية . إلى ان هذا الشعب برز عالياً الشعوب التي أهلت بها ايطاليا فناصرتهم وذلك بما كان له من النشاط في حقل التعدين وتصنيع الحديد . فقد سيطر على جزيرة إلبا ، الامر الذي الذي زاد من طاقته على تأمين المزيد من الموارد التي كان بحاجة اليها وتوفير خامات الحديد والنحاس التي تفيض بها مقاطعة أتروريا التي رفلت من موارد الارض وما تحت الارض بما لم ترفل به مقاطعة أخرى من المقاطعات الايطالية ؛ وما انصرفت احدهما ، عبر التاريخ القديم لاستغلال الثروة المعدنية الكامنة فيها كتنصرف اتروريا لها ، وعلى مثل هذا النطاق الواسع . ان مدناً مثل بوبولونيا وفيتولونيا الواقعتان تجاه جزيرة إلبا ، وفي منطقة المعادن بالذات ، يُصرف نشاط الاهل فيها ويُقنسى في سبيل استخراج الخامات المعدنية التي تقوم مدن أخرى باعدادها وقضيتها للتصنيع ، فتفتح هذه الصناعة الباب على مصراعيه امام التجارة الخارجية . وهكذا رأى الاتروسك أنفسهم ، منذ عهد مبكر ، وجهاً لوجه مع جزيرتي كورسكا وسردينيا . وليس ما يحول دون ذهاب الفكر او ما يعطل الظن انهم غامروا برحلات أوسع وأبعد الى الجنوب ، وحتى الى الشرق ، مع ان القرطاجيين والاغريق سيطروا على معظم المرافق التجارية وأمنوا الاتصال بها . فقاطعة اتروريا رفلت بمصنوعات الذهب والفضة والحديد ، وأدوات الفخار والخزفيات الثمينة التي كانت تصنع في اليونان وتستورد منها ، من كورنثس أولاً ثم من أثينا ، فتجد عند الاتروسك رواجاً عظيماً . فمن أضرحة الاتروسك ومدافنهم اطلع العالم على أجمل الخزف اليوناني الذي يرجع صنعه الى القرن السادس وبدا الخامس قبل الميلاد . وكان الشبهان ومصنوعاته مادة اولية للتصدير للخارج . وهكذا توفر لبعض الطبقات الاجتماعية لدى الاتروسك غنى لا ينكره احد ، وهو ثراء كان الى جانب القوى البشرية والحربية الأخرى التي توفر لها هذا الشعب عاملاً قوياً من بين العوامل العديدة التي أمنت له الازدهار والانتشار في رقعة واسعة من بطاح ايطاليا قديماً .

فقبل غروب القرن السابع سيطر الاتروسك على ثغور نهر التير ومعايره ، وذلك باحتلالهم

موقع روما ، وبهذا اقاموا لهم رقة جسر نحو اللاتيوم وايطاليا الجنوبية . اما في القرن السادس ففراهم يحتلون مقاطعة كمانيا حيث أسسوا مدينة كابو المشهورة واستطاعوا ان يقيموا بينهم وبين فريق من الاغريق من سكان مدينة بوزيدونا حالة من التفاهم والتراضي . وكانت هذه المدينة التي تعرف اليوم بمدينة بيستروم مرفأ نشيطاً تؤمه السفن كما كانت ملتقى للطرق البحرية التي ربطتها بخليج ترانت ، عبر جبال البروتوم . فكانت بوزيدونا هذه بمثابة البوابة الاغريقية لمقاطعة كمانيا الواقعة تحت الاحتلال الاطروسي . اما علاقة الاطروسك بالاغريق ، فكانت على الغالب تتسم بالحروب ، كما انطبعت علاقاتها مع قرطاجة التي اضطروا ان يتنازلوا لها عن جزيرة سرديليا . وعلى هذا قس علاقاتهم مع مدينة مساليا (مرساليا اليوم) . وقاموا بحروب مكشوفة مع اغريق مدينة فوقيه *Phocée* الذين جلوا عن مقاطعة ايونيا بعد ان اكتسح الفرس شواطئ آسيا الصغرى الغربية واستوطنوا الساحل الشرقي من جزيرة كورسكا التي اضطروا لمغادرتها عام ٥٣٠ ، بعد معركة ألاليا البحرية ، (البريا اليوم) ، ثم حروبهم ضد مدينة كوم القائمة في قلب مقاطعة كمانيا ، واخيراً وليس آخراً ، حروبهم ضد الجوالي الاغريقية في الجزر الايولية (ليباري اليوم) الواقعة الى الشمال من صقلية .

والمد الاطروسي يبدو جلياً واضحاً ، في الاتجاه المعاكس ، أي في الشمال ، في أواخر القرن السادس . فبعد ان اجتازوا سلسلة جبال الابنين احتلوا مدينة فلسطينا ومنطقتها فأصبحت قاعدتهم الكبرى للانطلاق منها الى الشمال ، ومنها بلغوا سهل نهر البو وسيطروا على معظم القسم الشرقي من مجرى هذا النهر بما فيه ساحل البحر الادرياتيكي ، الى الجنوب من مصب نهر الأديج .

عبثاً نحاول التأريخ لهذه الفتوحات التي يقوم بها الاطروسك والتي تؤيدها الكشوف الأثرية الحديثة ، وان كان المؤرخون القدامى لا يأتون على ذكرها الا لماماً وبإيجاز كلي يقرب من التقدير . ان فقر المصادر حول المد الواسع الذي بلغه الاطروسك ونذرتها يبعث في نفس المؤرخ الأسف الشديد . فاذا ضربنا صفحاً عن كثير من التأريلات والآراء العارضة نقف امام نظريتين متعارضتين متعاندتين . فاما ان نرد هذا التوسع يحققه الاطروسك ، الى عصابات من المغامرين اقتنمت أثر رائد مغامر حالفه الحظ ، جرّت وراءها تباعاً جوالي متتالية أقعدت نفوذ القوم ومكنت له ، واما ان تكون تمت هذه الفتوحات وفقاً لارادة مدبرة وخطة محكمة موضوعة ، أعدتها حكومة مركزية ، تبينت عن كذب وحدة ايطاليا الطبيعية فراودتها فكرة تحقيق وحدتها السياسية . ولكل من هاتين النظريتين من البراهين والحجج ما يؤيدها إثباتاً ودفعاً . وهذه الحجج المؤيدة والدافعة معاً ، تنعكس ولو غامضة ، في هذه الحداث التي وسعت العلاقات بين الاطروسك وروما في تطلمها الى السيطرة والغلبة ، كما تبدو من خلال الاقاصيص الاسطورية عند الرومانيين ومن

التزاويق التي تزين قبر فرنسوا^(١)، ومها يكن ، وسواء أجه الأمر قضاءً مقدوراً أو تدبيراً مقصوداً ، فالإنجازات التي حققها الاتروسك تنسم بالعظمة ، وعلى ايطاليا ان تنتظر طويلاً ليطلع على أرضها وفي سماها مثل هذه المآتي وعلى مستواها الرفيع ، تقوم بها روما التي وفقت الى إقامة وحدة تجاوزت ، بكثير الوحدة التي أنشأها الاتروسك في اواخر القرن السادس قبل الميلاد.

وكم نتمنى لو نستطيع ان نعرف ماذا كان عليه الاتروسك ، من نظام داخلي . التنظيم الداخلي
فالاطلاع على هذا الامر عامل قوي يساعدنا على تفهم الاهداف التي ترسمها هذا الشعب والصفات التي لا يست السلطان الذي انشأه . الا ان وضع المصادر التي لدينا كثيراً ما يحدو بنا لتفادي الاحكام الرخيصة ، والانكى ، ان نعمم على كل المدن الاتروسكية ما نراه قائماً في روما القديمة ، بينما وضع روما وضع خاص بها ، مقصور عليها وحدها .

مما لا ريب فيه قط ان المجتمع الاتروسكي مجتمع ارسوقراطي الطابع . يشهد على ذلك ما نراه من مظاهر الغنى والبذخ تتكشف عنهما معالم قبور القوم ومدافنهم اذا ما قارناها بالمقابر المتواضعة لمجهرة السواد . كانت مقاطعة اتروريا مثوى عدد طائل من الاسر الكبيرة ، ترتبط فيما بينها بروابط الانساب والتضافر والتضام ، كما نلص ذلك من خلال بعض المسميات والكنى التي لم يكن ما يحاكيها في عالم البحر المتوسط . فمن العادات التي سار عليها الشرق والشرقيون ان يأتي اسم الشخص متبوعاً باسم والده لتمييز الناس بعضاً عن بعض ، بينما راح بعض الشعوب الاسيوية ، كالليكيين مثلاً ، ينتسبون للام ، الامر الذي حمل فريقاً من المؤرخين على الظن بسيرهم على النظام الامومي . فقد اتبع الاتروسك الطريقتين المذكورتين واستعملوا معها اسلوباً آخر او اقتصروا عليه وحده . فاسم الشخص يصبح نعتاً او وصفاً للكنية او الشهرة . والجدير بالملاحظة هنا حرصهم على الانساب والاصلاب ، الامر الذي ساعد على تكوين مشجرات عائلية معقدة . والظاهر انهم عرفوا ، هم ايضاً نظام الاتباع ، (Clients) الذي نهج عليه الرومان . فمن المفيد كثيراً تحديد تاريخ الاخذ بهذه النظم ، اذ لا بد ان يكون تطور المجتمع الاتروسكي قد ساعد كثيراً على تركيز الطابع الارستوقراطي الذي برز في تاريخ متأخر ، عندما شبت روما وترعرعت ، واخذت تؤثر بعيداً فيما حولها . فاتخاذ الاسم والكنية وقيام نظام (قبلي) متماسك شبيه بما عرف عند الرومان بـ (Gens) هو من هذه الاعراف التي

(١) هذه النقوش والتزاويق هي من حقبة متأخرة ترجع الى اواخر القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد . ولو كان بالامكان استنطاقها كما يجب لكشفت لنا كيف ان اهل مدينة فولاي (Vulei) تمتلوا حوادث جاءت ط حل ذكرها تقاليد الرومانيين وحكاياتهم . فهي تصف معارك وجنوداً يخوضون وقائع واشتباكات حربية . فبين اسماء جنود الاتروسك والرومانيين شبه عظيم ومحاكاة ظاهرة . من بين هؤلاء المحاربين الذين يلاقون حتفهم في المعركة جندي يدعى Cneve Turchunies Rumach الذي يرادفه باللاتينية Cnaeus Turquinius Romanus فنحن امام جندي روماني من آل تاركينوس.

سارت عليها امم ايطالية عديدة . فلن الفضل في هذا كله ، ألرومان ، ياترى ، ام للاتروسك ؟

ينتظم السلك الاجتماعي عند الاتروسك في قيام مدن عندهم . فقد جاء الكتبة الاقدمون على ذكر ما اسموه بـ « الدوديكابول » اي حلف الاثنتي عشرة مدينة الذي قام في مقاطعة اتوريا . غير ان القوائم العديدة التي جاءت على ذكر هذه المدن وتعدادها تختلف فيما بينها وتعارض فيها الاسماء وتباين . ومثل هذا التباين يطبع كذلك قوائم اتحادات المدن الاثنتي عشرية التي قامت على شاكلة الحلف الاول في كل من مقاطعتي كمبانيا وسهل البو . والغالب على الظن ان مجالس اتحادية كانت تعقد اجتماعاتها ، الفينة بعد الاخرى ، في الميدان (الساحة) المحيطة بالمعبد العام المعروف عندهم *Fanum Voltumnae* المجهول الموقع . وقد سارت الامبراطورية الرومانية فيما بعد على تعيين « محافظ او والي اتوريا » الذي ربما كان رمزاً لاستمرار رئيس الاتحاد . والذي يبدو من بعض الحوادث الطارئة ان الوثائم لم يكن ليرفرف دائماً بين المدن الاتروسكية ، حتى في العهد الذي بلغت فيه المدنية الاتروسكية أوجها ، وان روابط التحالف التي كانت تشدها بعضاً الى بعض ، تأخذ في التراخي والاحلال في بعض المناسبات .

وهذا الوثائم نفسه لم يكن ليطيع دوماً الحياة الداخلية في المدن نفسها . فقد قامت في تاريخ متأخر جداً ، منافسات طبقية ، سياسية واجتماعية ، بين الارستوقراطيين وطبقات الشعب ، وذلك ربما بتأثير ، من روما ، في بدء عهدها الاول ، وفي اعقاب تطور داخلي من العسير تتبع خطه . ويظهر هذا الوضع بجلء ابان الحقبة التي بلغ فيها الاتروسك عظمته ، اذ كانت تبرز هذه الخصومات بمناسبة انتخاب السلطات العامة وتعيين ممثلها في دوائر الحكم . سار الاتروسك في بدء امرهم على نظام ملكي ، وكان الملك عندهم يعرف باسم (*Lucumon*) ، وليس بالامكان الجزم في ما اذا كانت الملكية وراثية او انتخابية لمدى الحياة او لمدة معينة . وقد يكون من المناسب ان نتصور الامور على مثل ما كان عليه الوضع الاجتماعي في المدن اليونانية التي طبع تطورها ، تطور الحكم والادارة في الادارة الاتروسكية . فقد دقت سلطة الملك واستقرت تبعاً في المدن اليونانية . وعلى كل ، فالقول بغلبة النظام الاوليفرشي او حكم الاقلية ، امر يقبله العقل ولا يثير اي اعتراض . وتطور مدلول لقب الملك مع الزمن ، فاطلقوه تارة على كبير القضاة بعد ان جلس الملوك قديماً للقضاء طويلاً ، وطوراً على شيوخ او امراء الاسر الكبيرة التي كان الملوك يختارون من بينها . وأحيط الملوك والقضاة براسم عظيمة من التكريم والتبجيل والتعظيم سرت من الاتروسك ، فيما بعد ، الى الشعب الروماني الذي سار عليها . وعثر المنقبون ، في مدينة فيتولونيا على اداة حديدية تمثل اضمامة من القضبان *l'uisceun* يبرز من بينها فأسان . ويعزو الاقدمون ، باتفاق الآراء ، الى الاتروسك فكرة السلطة التي يمثلها تحكة الفؤوس الـ *Lictours* الذين كان عددهم يوازي عدد المدن الاثنتي عشرة المتحالفة ، مما يدل على ان النظام الذي اوجدوه هو نظام اتحادي اكثر منه بلدي ، والكرسي المشيخي ، والشال

الروماني الموشى بالارجوان ، والرداء الارجواني الذي يتدثر به قائد الحرب ، واحتفال النصر وما يصحبه من مراسم التعظيم والتبجيل ، وغير ذلك من الشارات التي تتم عن السلطة العليا والمسؤولية. فالنظم الاتروسكية اثرت بعيداً، ولا شك، في النظم والاعراف التي سار عليها الرومان فيما بعد وكان للاتروسك فضل السبق اليها والعمل بها. فراح الرومان يقتبسونها ويطبّقونها في بلادهم.

ديانة الاتروسك . وعلى هذا النحو نهج الاتروسك في ديانتهم وتمتعوا في روما بشهرة واسعة، اذ ان من مميزاتهم المفردة تضلهم بأمور الدين والامتنال الحرفي لوصاياه وفوايه .

ليس لعمري ما يميز ديانتهم وأساطيرهم الدينية. فاذا ما وقفنا عند بعض أسماء آلهتهم وجدنا ان بينها ما هو اتروسكي محض مثل الاله تين (Tin) الذي يرادف الاله جوبيتر ، والاله طوران Turan الذي يوازي الالهة فينوس او الزهرة . ويقوم بين مسميات هذه الآلهة من المواصفات المتشابهة ما يشير الى أصلها الاغريقي اللاتيني . وبعض الآلهة الأخرى ، أمثال : اوني (Uni) جينون ، ومنيرفا ، وماريس (مارس) هي ايطالية الاصل او المصدر، او بالاحرى كيتفها الاتروسك بعد اقتباسها بحيث برزت ايطالية الوضع او المنشأ . بينا هنالك آلهة أخرى مسمياتها اغريقية الاصل جرى اقتباسها رأساً من الاغريق، منها مثلاً هرقل Hercle او هيرقليس الذي له شأن أكبر عند الاتروسك منه عند اليونان ، بينا الاله ابولو وشقيقته ارتوم Artume او ارطميس لم يطرأ عليها، لدى اقتباسها، أي تعديل او تبديل. اما مناقبية هذه الآلهة والصور المشبهة لها والاساطير المتناقلة بشأنها، والأقاصيص المروية عنها فبينها ثباين عظيم من قطر وآخر. ومن الخير والمفيد جداً ان يقوم من يتصدى لشرح الوثائق التي تمت اليها ويحده منها التاريخ الصحيح . فالمصادر التي نعول عليها هي متأخرة جداً وتشهد عالياً بعملية الهكسنة، والتأغرق التي خضعت لها ، وهي عملية تمت تدريجياً وعلى مراحل ، على ضوء الصور والرسوم التي ألهمتها وأوحت بها ديانة اليونان وأساطيرهم .

المعرفة والطقوس الدينية مما يميز الاتروسك ، بالنسبة للأقوام الغريبة على الاقل ، من وجهة الديانة التي تمتّ بأكثر من سبب الى ديانة بلاد ما بين النهرين ، هذا

الخضوع والخشوع والاستسلام المطلق لمشئة القوى العليا التي تحركها مقاصد خفية . فالانسان في ضعفه المتناهي، لا سبيل امامه إلا الاستبانة عن هذه الارادة والكشف عنها لئلا يأتي عملاً لا تكون راضية عنه ، وان يبذل في جميع حالات الشك وقلة اليقين ، كل شيء في سبيل استئثارها وكسب رضاها . كل الظواهر الخارجية هي ، من حيث المبدأ ، إعلان عن امر ما ، وايدان له ، بشرط ان نتبينه وان نحسن تفسيره وتأويله . فجميع ظاهرات هذا العالم تترايط ، والحالة هذه ، فيما بينها وتتماسك بقوة، ومدلول كل ظاهرة لا بد ان يتعدى بكثير المسببات، منها بدت طبيعية . ففي رد الاسباب الى أصولها الصحيحة ، تعبير عن رغبة الآلهة في تحذير البشر منها وإنذارهم بشرها . وهذه الانذارات تبرز بأجلى بيان يمكن للانسان ان يتصوره ، بواسطة

الصواعق والرعود . غير ان أية ظاهرة طبيعية أخرى، مهما دق شأنها ، يغير مظهرها النظام الطبيعي للأشياء ، عندها الانسان من الخوارق وتطير منها . وهناك علامات وإشارات لا يمكن ان يتبينها الانسان ويفقه معناها ومدلولها إلا بعد جهد وعناء وببحث واستقصاء . وهذا البحث هو على نوعين : الاول زواج الطير ، كطيرائه من جهة معينة من الجو ، وفقاً لمواصفات دقيقة تلبس الاتجاه وتطبعه . والثاني هو فحص احشاء الذبائح ، ولا سيما الكبير منها ، وموضع اجزائها الدقيق ، اذ ان كلا من هذه الاوضاع يرمز الى إله معين من الآلهة ، كما يشير بالتالي الى ما هو وضع هذا الاله من الرضى او عدمه . كل هذه الأشياء والأمور تفرض وجود علم باصول ، لا يحسنه إلا الضالعون به المتمكنون من أسرارها . وكشف الغيب اختصاص يقتضي له التمرس الطويل باحكام تقاليد العبادة والكتب الدينية . فاذا ما روجعت هذه الكتب في الوقت المناسب وجد فيها من يحسن قراءتها وتفسيرها واستنطاق رموزها ، الجواب الشافي عن كل ما ترغب الآلهة فيه ، كما يقف منها على الأساليب والطرق والأعمال التي يتوجب على الانسان ان يتقيد بها بكل دقة . ويكفي الانسان ان يتمسك حرفياً بهذه المراسم ويطبقها بنصها حتى يخامره الامل بإمكان التأثير على هذه القوى العليا التي بيدها مصيره . ويرافق عملية الكشف عن رغبة الآلهة ومقاصدها الخفية والبعيدة عن ادراك البشر ، القيام بعدد لا يحصى من الأدعية والابتهالات والتضرعات والإشارات التي لا بد من الاتيان بها على نحو معين . فقد تركت لنا هذه الكتب وصف المراسم الدقيقة التي يجب التقيد بها عند إنشاء او تأسيس مدينة ما ، واتجاه الشوارع وتقاطعها عمودياً ، وكيفية طمر القرايين المقدسة في حفرة معينة ، ومدى الدائرة المقدسة التي يجب رسمها على المكان الذي تنشأ عليه هذه المدينة ، تشقها سكة محراث ، باستثناء مواقع الابواب الخارجية . والمراسم المتعلقة بانشاء المعابد والهيكل ، هي أدق مما وصفنا بكثير . اما ما يترتب على الانسان من اعمال وتصرفات بعد كشف الطالع ، فعدد كبير من المراسم والمناسك والحركات المختلفة ، عليه ان يتمها ويتقيد بأصولها وأحكامها وفقاً لتعليمات الكهان وارشاداتهم ، ووفقاً لمنهج لا يصح الخروج عليها ، من قرايين وأضاح وتكريسات ، وولائم تقام على شرف تماثيل الآلهة وانصابهم .

ومن الطبيعي ايضاً ان تجري خصوصيات الحياة وفقاً لمراسم دينية دقيقة فيحمل الناس التعاويذ والطلاسم التي يرد معظمها من مصر . والسير وفقاً لهذه الاعتقادات يفضي بالمرء الى النجاة والجوسية ، كما يظهر من بعض الآثار التي وصلت الينا من ذلك العهد . غير ان قلة المصادر تحول دون وصف هذه المراسم الدينية بالتفصيل ، ولا تستفيض الا بذكر المراسم والاحتفالات الخاصة بممارسة الوظائف الرسمية العامة التي انتقلت بحذافيرها الى روما ، لدى اقتباسها النظم السياسية التي اقتبستها عن الاتروسك والتي تؤلف معها قسماً متمماً لها . الم تكن اتروسكية الاصل ، هذه الطلاسم والحيوانات المؤهلة التي كان يحملها قضاة روما ، وهذه الاحتفالات الصاخبة التي كانت تقام في طول البلاد وعرضها بمناسبة الظفر والنصر في الحروب ؟ الم تكن

اتروسكية علوم الفأل والمصا المعقوفة التي كان يستعملها العرافون في كشف الطالع ؟ وهذه العيافة ، اي عادة فحص امعاء الذبائح واحشائها ؛ اتروسكية الاصل عادة التسليم بالخوارق وكل المراسم والتوسلات التي يجب الاعتصام بها لابعادها وابعاد المصائب التي تجرهما . فالاحترام المقرون بالاعجاب الذي كان يكنه الاتروسك للنظام ولعلوم الدين كان الباعث الاول على الاحتفاظ بعلوم الدين وعلى نقلها للغير .

الحياة الاخرى ساعد الكشف العلمي عن القبور ونش ما كانت تحويه من تزاويق وامتنعة ومفروشات ، على تكوين صورة عن فكرة الموت والحياة الاخرى عند الاتروسك قديماً . فالكل كان يعتقد بالحياة والبقاء بعد الموت . وكان الاحياء يحاولون تعويد الناس على فكرة الموت عن طريق الجنائز ومراسمها ، وعن طريق اقامة المآدب والملاهي ، وحرصهم على حفر صورة الميت وزوجته على الضريح ، محاطين بكثير من الحاجيات المنزلية كالاسلحة والحقى وما شاكل . ان ايجاد الجوع العائلي في القبر يجعل المرء يعتقد ان الميت انما هو حي ، يعيش بعد ، وبالتالي لها من موجب او داع قط للأسف والاسترسال للحزن العميق ، كما توحى بذلك الرسوم القديمة التي تغشى جدران القبور . صحيح ان هذه الرموس المزرقة هي وقف على الشخصيات الكبيرة ، ولكن ما عسى ان يكون لعمري ، مصير ممثلي الطبقات الفقيرة المسكينة ؟

سار الناس طويلاً على عادة فرش القبور وتأثيثها بالحاجيات المنزلية . الا اننا نرى منذ القرن السادس فكرة جديدة تبرز ، ولا تلبث ان تتحكم بالأذهان منذ القرن الرابع . من النظر ملياً في الرسوم القرية يتضح ان جميع الموتى ، حتى من كان بينهم من ذوي الجاه ورقعة الشأن ، هم في سبيل رحلة طويلة بعيدة في مملكة الظلام ، وهي رحلة تبعث الاسى الشديد في النفس ، يدفعهم أبالسة تصطك لمنظرهم الفرائص ، وقد انخطف منهم اللون وشعب المنظر وكشروا عن انياب حادة ، اجسامهم مزيج من اعضاء الانسان والحيوان ، لهم من الطيور الخواطف مناسرها الحادة ، ومن الحصان او الحمار اذنه ، حاملين بأيديهم مطرقة لتوجيه ضربة قاضية الى المسافر . وها هو عزرائيل (Charun) يخطف الميت من بين ذويه فتتراكض الافاعي والثعابين منسابة حوله تفحّ في اذنه . فيا لها من مملكة تبعث الرعب في النفس والهلع في القلوب لأركانها رأس ذئب ، وقد اختفت البسمة امام مرأى تنين مفترس يحمل بين يديه عدة التعذيب .

فالآثر الهليني يبدو واضحاً في بعض هذه الافكار كما يبدو جلياً في ميثولوجية جهنم . واسماء ملك مملكة الظلام وزوجته فرسبناي *Phersipnai* عند الاتروسك هي نفسها عند الاغريق وهما هاديس وبرسفوني . فاذا كان *Charun* ملاك الموت عند الاتروسك ، يأخذ اسمه من *Charon* ملك الموت عند الاغريق ، وعابر الارواح فوق نهر الستيكس (*Styx*) هو النهر الذي يحيط سبع مرات بجهنم حسب معتقدات الاغريق ، يتلبس عند الاتروسك دوراً وصفات

غنية. وهؤلاء الأبالسة والشياطين الذين قال الاتروسك بوجودهم ونقلوا الاعتقاد بهم عن أساطير الشرق ، إنما دخلوا الميثولوجيا الاتروسكية عن طريق الاغريق . فروح التسليم والرضوخ التي كانت تلطف عند الاغريق من لوعة المحتسب او المفجوع بأحد أعزائه ، تختفي تماماً عند الاتروسك ليحل محلها عند الميت ، روح متشائمة تعكس تماماً صورة حياة بشرية حطمتها قوى غاشمة لا تلين ولا ترحم .

يبرز هذا الفن بحلاء المؤثرات التي تلقاها من الخارج وخضع لها، وهي مؤثرات الفن الاتروسي شرقية ، في بادئ الامر ، اتصلت بالاتروسك عن طريق الفن الاغريقي القديم الذي عرف هو ايضاً طوراً شرقياً ثم هلينياً بعد ذلك . ولا شك عندنا في ان بعض رجال الفن من الاغريق استدعوا العمل في مقاطعة اتروريا ، فأفاضوا من فنونهم على ما كان معروفاً عند الاتروسك من أصول هذا الفن . ويحاول النقاد المعاصرون جاهدين ، ان يتبينوا الصفات المميزة للفن الاتروسي الأصيل ، وهي صفات ملازمة فيه ، مفردة له ، إنما تبقى محدودة المدى والأثر لثلا تذهب بالانطباع العام .

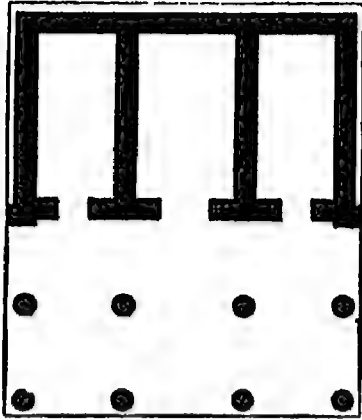
وهذه الصورة تصدمنا من الوجهة الفنية بما فيها من نقص قاضح . فقد استخدم الاتروسك الشبهات (البرونز) والفخار ، على نطاق واسع . وكانوا يدفعون غالباً في سبيل الحصول من الخارج على المواد الثمينة : كالعاج ، والذهب ، والفضة ، فلم يعنوا بنقش الرخام ، هذا الرخام الذي غالى الاغريق ، ومن بعدهم الرومان ، باستخدامه على نطاق واسع ، وحفره ونقشه . كثيراً ما عوّلوا في عائلتهم ، منذ القرن الخامس ، قبل الميلاد ، على العقود والقناطر التي اخذوا استعمالها من الشرق وأدخلوا عليها تحسينات جمة ، بينما أهمل الاغريق الاعتماد عليها . ويقتصر على الغالب ، الأثر الذي أحدثوه هنا على فروق بسيطة .

هنالك أنواع شتى من قبور الأغنياء . منها ما نقش في قلب الصخر الصلد او تم بناؤها ، تلتظم حُجَرَه امام ممر ، او تأتي على طراز منزل عادي . وأهم هذه القبور هيل التراب على سقوفها وشيد حول السطح جدار مستدير ليمنع سقوطه . هنالك قبر او ضريح عثر عليه بالقرب من شرفقري Cervetri ، بلغ قطره ٤٨ متراً . أقيم فيه خمس ممرات ، تمر من الخارج الى الداخل ، ثم يبتدىء ممر سادس ، مستدير الشكل ، هو الممر الوحيد الذي يبدو ان اللصوص ونباشي القبور احتدموه لأنهم لم يدروا به ، فلم ينهبوه . والقبر المذكور جرى استخدامه مدقناً لأسرة كبيرة طوال قرنين من الزمن ، أي من القرن السابع الى الخامس ، قبل الميلاد . وعندما نبشه المنقبون استخرجوا منه ، في عداد ما استخرجوا ، هيكلين عظيمين لبعض الارستوقراطيين ، وجرة قبرية متواضعة الشكل ، وغير ذلك من الحلي والذهب والبرونز .

والهيكل التوسكاني الطراز الذي ترك فيتروف وصفاً دقيقاً له ، كان يتألف عادة من ثلاث حجرات ، وهي هندسة كانت تتكرر عملياً في كثير من الهياكل ، منها هيكل جوبتير

الكابيتولي ، في روما حيث نرى هذا الاله يعتمد الى الالهين جونون وميترا . ولكن كلمة الاتروسك لا تؤلف دوماً ثلوثاً واضحاً ، كما ان بعض هياكلهم كانت تتألف من حجرة واحدة . فاذا كان تأثير الهيكل الاغريقي يبدو واضحاً ، فالهيكل الاتروسكي ، يبدي مع ذلك ، بعض الفروق . من ذلك مثلاً انه يقوم على قاعدة حجرية عالية ، كما ان بوابة المدخل

الرئيسي تقوم فوق اعمدة ؛ وهي بوابة ضخمة لا تزدان بشيء من النُصب او التماثيل ، قبل القرن الرابع .



الشكل ٣ - تصميم نظري لمبدع اتروسكي عرضه ٦ أجزاء طوله . علو الأعمدة فيه يجب ان تكون ثلث العرض وعرض الحجيرات الجانبية يوازي ٣/٤ الحجرة المركزية .

والهيكل الاتروسكي ، كصنوه الاغريقي القديم الطراز ، كانت مادته الاولى من الخشب ، اقله الأعمدة والسقف ، الا انه اطول منه بكثير . ولكي يحفظوا الخشب ويصنوه حينما برز وظهر ، كانوا يغطونه بقوالب من التراب المشوي ، يملونها بالنقوش والالوان . وعلى هذا النهج سار الاغريق انفسهم . انما ساحة الهيكل المغطاة بهذه القوالب ، عند الاتروسك ، كانت تتطلب الكثير من القوالب وعناء كبيراً في التزيين . فالاتروسك يعتمدون هذا الفن بمعزل عن التصميم الهندسي ، ولم يلبث ان اصبح عندهم ابرز معالم النقش ، واعطى آثاراً رفيعة من الدرجة الاولى ، اشهرها

واسيرها ذكراً على الاطلاق ، تمثال الزهرة (فينوس) في مدينة فاي (Veies) الذي كان يؤلف جزءاً من مجموعة فنية لها مقاييس الانسان الطبيعية ، وتمثل احدي اساطير دلف التي تروي حكاية شجار ابولو وهيرقليس بشأن الظبية ذات الرجل النحاسية ، وذلك على مرأى ومشهد من ارطيمس وهرميس . وبين الآثار التي اكتشفت ايضاً في هذا المبدع ، معالم تم عن وجود فئات اخرى . ومن الممكن جداً ان يكون ناحت تمثال ابولو اغريقياً ، الا انه من الأرجح ان يكون اتروسكياً ، اذ لا يزال التاريخ يحدث عن شهرة معامل مدينة فاي ومهارة صناعتها ، بينهم فولكا (Vulca) الفنان الاتروسكي الوحيد الذي احترم التاريخ اسمه ، فاستدعته روما ليشارك ويعاون في تزيين تمثال جوبيتر الكابيتولي الذي يمكن ان يضاهي ابرز الآثار الاغريقية من هذا العهد (اواخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس قبل الميلاد) وذلك لما في حركة الجسم من حيوية ونشاط ، وبما تفرغ عنه البسمة من إغراء ، وبما عليه من نظرة مثيرة تشع على الوجه كله . وهذا التمثال يبرز بكثير التماثيل الاخرى التي تمثل الرجال والنساء متكئين الى موائد الولايم ، او تغطي وجه بعض النواويس او الحجرات القبرية . وكثيراً ما تم صنع هذه التماثيل بروح حية ، واقعية ، تقارب أحياناً الرسوم الهزلية ، فيبدو معها ترهل البطن ، وتنافر

أعضاء الجسم ، وبروز العضلات . فنحن هنا ، ولا شك ، أمام آثار اتروسكية الوحي والفن ، فيها من الحقيقة العارية ما لا يخلو من طعم ودسم ، بحيث أثرت بعيداً بفن الرسم عند الرومان . ودراسة الآثار الشبهانية والرسوم الاتروسكية تفضي بنا ، هي الأخرى ، الى ملاحظات شبيهة بتلك التي أبديناها . فقد كادت الأولى منها تفقد من الوجود لكثرة ما تعرضت له من نهب وسلب ، اذ ان الرومان حملوا من مدينة اتروسكية واحدة غزوها ، ٢٠٠٠ قطعة مختلفة من البرونز . وقد وصلت اليها تحفة رائعة من هذه التحف هي : « ذئبة الكابيتول » حيث يطالعك فن طبيعي عار يتسم بالانسجام . اما الرسم ، فليس بين معالمة ما يبرز على هذا الشكل . فهو خير ما يتجلى في هذه الرسوم التي تغطي جدران القبور ، فتبرز الشخص في انسجام حركاتها وتوافقها في هذه المشاهد المتحركة التي أثمرنا الى تطورها من قبل . واننا لنلحس هنا لمس اليد أثر الاغريق في إحراز هذا التطور ، وفي هذا المرايا البرونزية التي حرص الفنان على ان يحلي منها القفا بصورة حية .

وصفة القول ، لا يمكن ان ننظر الى الفن الاتروسكي كفن اغريقي محلي او اقليمي ، نوعاً ما ، إلا انه فن لا يمكن تفهمه اذا ما ضربنا صفحاً عن مؤثرات الفن الاغريقي ونقله لها واقتباسه لنظريات ، او تغاضينا عن العديد من الموضوعات الاسطورية التي عاجلها وحيزها في هذه الادوات التي صدرها بمقادير هائلة الى ايطاليا والتي قام ينحو لمحوها رجال الفن الاتروسكي من رسامين ومصورين ومفرغين ، ويقلدونها .

من الادلة القاطعة على تأثر الاتروسك بالحضارة الهلينية ، الركود المخطط المدنية الاتروسكية
الذي اعتري ، الى حد ما ، الفن الاتروسكي خلال معظم القرن الخامس ، وهو قرن قام فيه من المشاكسات السياسية والاصطدامات الحربية بين الاغريق والاتروسك ما انقطعت معه العلاقات الثقافية والفنية بين الطرفين . والثابت ان كل ايطاليا الاتروسكية عرفت اذ ذاك ، ازمة حربية وسياسية تركت أثراً بعيداً في حياة البلاد الاقتصادية .

فأزمة النظام الملكي في روما ، ونهاية السيطرة الاتروسكية ، وقعتا معاً في وقت واحد ، اي في اخريات القرن السادس . وراحت فايي ، اقرب المدن الاتروسكية ، تحاول التحكم بمعاير نهر التيبر . فنتج عن ذلك حروب طويلة بالرغم من المواثيق التي تكرر عقدها ، والمعاهدات التي كانت تضع حداً لها . وقد انتهت هذه الحروب بعد جهاد عنيف دام قرناً بكامله ، باستيلاء روما على مدينة فايي . وبعد ذلك بقرن ونصف ، تمكنت روما من السيطرة على مقاطعة اتروريا ، اذ اشتد منها العصد وازدادت قوة وبطشاً إثر فتوحات اخرى حققتها . ولكن ، ماذا من القضية منذ البدء ، وما الذي كان عليه الوضع في بادىء الامر ؟ فالمقاومة الشديدة التي ابدتها روما ، والانتصارات التي حققتها تبعاً في حروبها ضد فايي لا يفهمان ، الا من خلال الموقف الحيادي الذي وقفته منها المدن الاتروسكية الاخرى ، فاضطرت هي ان تخوض الحرب وتدخل المعركة

وحدها ، فاهيك عن الهجمات التي تعرضت لها مستعمراتها في الخارج .

اما على ساحل مقاطعة كمبانيا فقد هب سكان مدينة سيراكوزة الاغريق الى نجدة بني قومهم من سكان مدينة كوم (Cumae) ، المشتبكة بعراك طويل مع الاتروسك ، وفازوا عليها عام ٤٧٤ ق.م ، في موقعة بحرية كثيرة ما غناها الشاعر الاغريقي الأشهر بنداريس ، والتي خلدت ذكراها في النفوس طاغية سيراكوزة هيرون *Hiéron* بتكريسه لإله اولمبيا ، خوذة للعدو وقعت في ايديهم . وما عثم ان زال اسطول الاتروسك وعمارتهم البحرية ، مما ساعد الاغريق على احتلال جزيرة ألبا ، وإنشاء موطىء قدم لهم في جزيرة كورسكا وعلى ساحل البحر الادريا تيكي الشمالي ، وهاجوا سواحل اتروريا نفسها . وهكذا بعد ان تم عزل مقاطعة كمبانيا وامتنع اتصالها بالبحر ، اذ كانت روما تسد المنافذ اليه ، ومن البر ، وقعت غنيمة باردة في أيدي السمنيين الذين انحدروا اليها من جبال الابنين ، متجهين نحو السهل والساحل ، واستولوا على مدينة كابو في منتصف القرن الخامس . ولم تلبث ان أصبحت سيطرة الاتروسك على هذه المقاطعة اثراً بعد عين . وتلاشت هذه السيطرة كذلك في سهل البو ، منذ مطلع القرن الرابع ، اثر غزو الغالين لهذه المنطقة واستيلائهم على مدينة فلنسينا ، واستبدلوا اسمها باسم جديد هو «بولونيا» الذي لا تزال تعرف به اليوم ، ولم يبق للاتروسك سوى مقاطعة اتروريا بالذات التي لم تعتم ان وقعت تحت سيادة الرومان وسيطرتهم .

وبالرغم من اقتطاع أوصالهم ، صمد الاتروسك في وجه الفتح الروماني . إلا ان مدينتهم لم تذهب بسقوطهم السياسي . فبعد الركود الذي اعترى هذه الحضارة في القرن الخامس ، عادت اليها حيويتها ونشاطها في القرن الرابع ، عقب زوال سيطرة سيراكوزة التي اقام الطاغية دنيسيوس دعائها وعرف بقوة شكيمته ان يوسع من آفاقها . وراح الاتروسك يعيدون صلاتهم بالحضارة الهلينية . غير ان الأزمات والحروب التي خاضوها ضد جيرانهم فعمركتهم بثقلها ، فتت في عضدهم ، فسيطر على نفوسهم التشاؤم واستسلموا لقضاء القدر العاشم . وبعد ان رسخت سيادة روما وأعقرت جذورها في الارض اخذت حضارة الاتروسك تأفل تدريجياً لتزول تماماً مع ظهور المسيحية . وبعد ان تكلتبتتت البلاد ، دخلت حضارتهم في خبر كان ، ويأتي مورخو الرومان على ذكرها لماماً ويروون أخبارها نتفاً مبعثرة .

ولم تنتظر هذه الحضارة ساعتها الاخيرة لتنقل للناس تراثها المجيد . فقد اقتبست الكثير من عناصرها المقومة عن الاغريق ، وهو اقتباس يبدو أكبر قدراً وأضحى صدراً اذا ما رفضنا الأخذ بنظرية أرومتهم الشرقية وتعويلهم في التحضر والنقل ، على الايونيين . ومها يكن من الأمر ، فبعد ان تبدت للاتروسك إمكانية تحقيق وحدة ايطاليا السياسية ، انصرفوا لتحقيق وحدتها الأدبية ، معتمدين في ذلك على بسط حضارتهم على الأقوام والشعوب الايطالية . وعن طريق الحضارة الاتروسكية تعرفت شعوب ايطالية كثيرة ، تدريجياً ، الى المدنية الهلينية ،

وبالتالي الى الشرق ، فأمدتهم من ذاتها بالكثير من عوامل التحضير والتمدين كالتقنية المادية ،
وبنظريات وأفكار واذواق جديدة أفرغتها وسكبتها بقوالب إيطالية الطابع . ويجب ألا يفوتنا
التنويه ، على الاخص ، بما لها من فضل كبير على روما بالذات ، بما ألحنا اليه لماماً في المناسبات
المعارضة . من ذلك مثلاً ، كما يرجح كثيرون ، نقل الإيجدية الى الرومان وأن قام من لم يسلم من
المؤرخين بهذه النظرية . وبما لا شك فيه أن الرومان نقلوا عن الاتروسك ، في عمارتهم ، الباحة
أو دار المنزل (*Atrium*) ، وهذه الملاحى التي ترافق الجنائز ، وكثيراً من عناصر الهندسة المعمارية
وقواعد مسح الأرض وغير ذلك . فروما مدينة للاتروسك أيضاً بأكثر من هذا : فهي مدينة
لها بكيانها الأول بالنظم الادارية والسياسية التي سارت عليها . فقد نشأت بمعاونتهم ووفقاً للمراسم
المتبعة عندهم . وقد حكم روما ، منذ تأسيسها الى قلب النظام الملكي فيها وإعلان الجمهورية ، عام
٥٠٩ ، ملوك من اصل اتروسكي أمداً روما ببلات الجيش وأقاموا أطره وفقاً للنماذج
والتنظيمات الاتروسكية .

وهذه المدينة التي كتب عليها الزوال والانقراض ، كانت من أشد العوامل التي ثقفت
المنتصرين عليها ، فانتقلت اليهم وعاشت فيهم .

الفصل الثاني

قرطاجة وحضارتها

يتردد المرء كثيراً قبل الجزم بقدوم الاتروسك من الشرق ، بينما ليس من ينكر قدوم القرطاجيين من مدينة صور . فالسلطنة التي انشأها القرطاجيون ، مثال حي لتناقض تاريخي مزدوج ، بقدر ما يعرف التاريخ من متناقضات . ففي الحين الذي نرى فيه المستعمرة الناشئة يشتد منها الساعد ، نرى المدينة الام (صور) تنحط وتهوي . ومن جهة اخرى ، في الوقت الذي تجدد صور فيه شبابها ، وتتأغرق بعد ان عاث بها الاسكندر خراباً ونهباً واستهانة ، نرى قرطاجة تحافظ بغيرة متقدة على الطابع الفينيقي لحضارتها ، وترفض بشم وإباء ، ان يتسرب اليها شيء من عوامل الهلينية . لهذه المتناقضات ، والحق يقال ، مرد واحد ، هو موقع قرطاجة النائي الذي جعلها بمعزل عن الامبراطوريات الاجنبية ومؤثراتها ، تلك الامبراطوريات التي طلعت في الشرق قبل ان يطل عليه شيء من شبهاتها بزمان طويل . فقد وجدت امامها في الغرب ، ليس المجال الطبيعي للانطلاق والازدهار فحسب ، بل ايضاً ما يسر مهمتها ورسالتها في تشييد استقلال مكين وسلطان ضخم ، وامبراطورية ماثامية الاطراف . فالى الحين الذي تصطدم فيه بروما ، بعد ان تركتها وشأنها تنمو وتكبر وتبسط سيطرتها التامة على ايطاليا كلها ، وتنظمها كما تشاء ، وتصطلي معها بحروب اكول ضروس ، نرى القدر يتراقص بين يديها الى ان يميل عنها ليداعب منافستها الكبرى ، فتتداعى وتهوي الى الحضيض .

هل كان بإمكان قرطاجة ان تنتصر ؟ ربما استطاعت الى ذلك سبيلا ، مع ان نصرها بدا مؤكداً في بعض المواقف والمناسبات . ان عملية إفراغ العالم القديم وصهر مدينته وحضاراته في بوتقة جديدة ، هذه العملية التي تنطحت لها روما وقامت بتحققها ، لمهمة من نوع آخر ، اشق واصعب ، يكفي لنتبين صعوبتها ، ان نعرف ، كيف ان قرطاجة ، بعد سبعة قرون طوال من الحياة والنشاط العارم ، زالت وتوارت عن مسرح التاريخ دون ان تترك وراءها اثرأ عميقاً تردد ذكره الاجيال . ومها يكن الدور التاريخي الذي لعبته المدن الفينيقية ضئيلاً ومتواضعاً ، بالنسبة لقرطاجة ، فقد طبعت هذه المدن تطور المدينة باكثر مما طبعت قرطاجة .

من طرابلس الغرب الى اقاصي المغرب الأقصى يمتد ، على طول الساحل
 اصل هذا الشعب الافريقي الشمالي ، شريط ارضي ، يضيق حيناً ويتسع ، طساب هواؤه
 وحلم مناخه ، بعكس الداخل الصحراوي ، فأهله الانسان منذ العصور الخوالي وعمره . وقد
 عزلته الصحراء عن باقي اطراف القارة السوداء فاصبح ألصق بمنطقة البحر المتوسط واتباع
 منه بالقارة الافريقية . ولم يُظهر سكان البلاد البدائيون في تلك المنطقة ، اية رغبة او توق ظاهر
 نحو الاستقلال ، وهم على ما هم عليه من وحدة العرق والاصل والارومة والروح ، المحافظة
 والتمسك بتقاليدهم وعاداتهم التي كانت تشدهم بعضاً الى بعض في الامس الغابر كما تشدهم اليوم .
 وكان باستطاعتهم ان يهتفوا او انهم اختتمروا بالفعل ، ببعض المؤثرات المصرية . الا ان بُعد
 الشقة بين الطرفين ، وما انتصب بينها حاجزاً من البعد والصحاري ، جعل هذه التفاعلات في حكم
 العدم . ولكي يتأثر هؤلاء الاقوام بمدنية متطورة نامية كان لا بد ان تأتيهم عن طريق البحر .
 وهذا ما تم لهم بالفعل عن طريق بحارة فينيقيين جاشت نفوسهم بروح المغامرة .

كانت البلاد فقيرة بالخامات المعدنية ، فاقبل الاهلون على حرثها وزرعها بأساليب زراعية
 بدائية . فلم تكن تدر شيئاً يلفت اليه نظر التجار او يغريهم بالقدوم اليها والاستيطان فيها .
 ولعل من مميزات الفضلى انها كانت تقع على الطريق البحري الذي يفضي الى اسبانيا الجنوبية ، التي
 كانت تقيض بمعادن الفضة والزئبق ، كما تفضي الى البلدان الواقعة الى الشمال الغربي من القارة
 الاوروبية (جزر كستيريدي *Cassitérides*) التي كانت تدر القصدير ، هذه المادة الضرورية لصناعة البرونز
 او الشبهان . وليس من يشك في ان البحارة الفينيقيين أطلوا على تلك الارحاء في اواخر الألف
 الثاني ق. م. سائرين مع الشاطئ ، يتعرفون ، على مهل ، الى الخليجان والمرافئ ، يؤمونها ليلاً بعد
 ان يكونوا قطعوا في النهار ما يقرب من اربعين كيلومتراً تقريباً . فاذا كان سبقهم الى هذه
 الأقطار سوام من الناس ، وهو أمر مشكوك فيه جداً ، او سلك وإياهم الطريق ذاتها ، فقد كان
 ذلك بصورة استثنائية محفوفة بالاعطال . وعلى كل استطاع الفينيقيون بسط نفوذهم على
 المنطقة والقضاء بالتالي على كل منافس لهم فيها .

تروي التقاليد المأثورة ان تأسيس أولى المستعمرات الفينيقية في المنطقة تم ، على ما يرجح
 ثقاة المؤرخين ، في اواخر القرن الثاني عشر ق. م. فأنشأوا مدينة « عوتيقة » على ساحل تونس ،
 وغاديس (قادس) على ساحل اسبانيا الجنوبي ، كما أنشأوا على سواحل المحيط الاطلسي ، في المغرب
 مدينة ليكسوس . اما المستعمرة التي أعدها الأقدار لمستقبل ازهر ، فقد أنشئت بعد ذلك بكثير ،
 أي بعد قرن من هذا التاريخ ، في عرف البعض ، اي سنة ٨١٤/٨١٣ ، وهي السنة التي يرجحها
 المؤرخون القدامى . وفي « القرية الجديدة » أو « قرت حدثت » او قرطاجة ، أسسها مستعمرون
 باشراف قادة جاؤوا من مدينة صور ، معظمهم من عناصر فينيقية مختلفة الجذور .

على المضيق الذي يربط بين حوض البحر المتوسط وفي طرف
 مجاح قرطاجة ونشأة امبراطوريتها
 شبه جزيرة يعزلها عن القارة عدد من الجزر المتناثرة ، قامت

قرطاجة ، فوق موقع جغرافي ممتاز . فليس باستطاعة أية حتمية ان تفسر لنا كيف ان فينيقية عوتيقة ، او قرت عوتيقة القديمة ، التي سماها ابن خلدون وطاقة ، وهي أقدم عهداً من قرطاجة ولها ما لتلك من موقع بحري حصين، لم يكتب لها ان تسيطر وان تنشئ لها ما أنشأه قرطاجة من بسطة السلطان وعزة الشأن . نحن نجهل تماماً الأسباب البشرية والعوامل التي هيأتها للاقتدار لاستشراف قرطاجة واستفحال امرها .

تميز نمو قرطاجة مع ذلك بالبطء . فقد سبقها الى الوجود عدد كبير من المستعمرات الفينيقية بينها ما قام على مقربة من البحر ، او على سيف البحر وشواطئه في بعض جزر مضيق صقلية (مالطا وبنتلاريا حالياً) وعلى شاطئ صقلية الغربي وشماليها . لكل من هذه المستعمرات مدن رئيسية ، ولكن ما هي ؟ لا نعرف شيئاً على الغالب من هذا كله ، كما أننا نجهل الجهل كله تاريخ تأسيسها . ولذا نرى أنفسنا أعجز من ان نتصور العلاقات التي شديتها أصلاً الى قرطاجة ، التي عرفت على ما يبدو ان تستفيد كثيراً من الوضع الذي تسكنت فيه المدائن الفينيقية منذ أواسط القرن الثامن ق . م ، بعد ان تناقلت عليها وطأة الغزاة الآشوريين . وكانت مدينة صور أكثر المدن الفينيقية ، في الشرق ، تعرضاً للنقمة والسلب ، لما عرفت به من الغنى الغريص والثروة الطائلة ، وشدة البأس ، وقلة الاستعداد للخضوع والتسليم . وفي سنة ٧٣٢ ، بعد ان وقعت في وجه الاسكندر بنناد ورفضت بإباء ان تفتح له ابوابها ، استولى عليها عنوة ودك معالمها الى الارض ، فتجاوبت الآفاق بصدى هبوطها الذريع . وقد كان خفّ عندها كما خف عند المدن الفينيقية الأخرى الشقيقة ، كل رغبة في الإهتمام بالغرب فعرفت قرطاجة ان تسبأثر لوحدها ، بترك صور وصيدا وتنهض بها الى الوجود .

وقد قامت قرطاجة بعملية التصفية او التجميع هذه لا تلوي على شيء ولا تهتز لأمر ، وسخرت في هذا السبيل ما جاش فيها من اطماع توسعية وطموح واسع محتفظة للأساطيلها التجارية بجميع مرافق الانجار والابحار ، جاعلة من المستعمرات الفينيقية الأخرى مجرد مكاتب ، وهي تعمل في ذلك كله ، على سيطرتها البحرية ويطشها . فأتاح لها غناها إنشاء أسطول تجاري ضخم أردفته ، عند الاقتضاء ، بعارة حربية ويحيش بري قوي ، اتخذت منه أداة لنجدة الاحلاف أو لبسط سيطرتها على المستضعف منها . وتمكنت بعض هذه المدن من المحافظة ، ان لم نقل على استقلالها التام ، فأقله على شيء من الاستقلال الاداري الداخلي . من هذه المدن مثلاً ، مدينة عوتيقة . وهكذا استطاعت قرطاجة ان تحقق أهدافها الرئيسية كاملة . فقد استصفت ، منذ مطلع القرن السادس ق . م ، كل ما كان فينيقي الطابع مما وقع غربي خليج سيرة الكبير . وبذلك حققت في غربي البحر المتوسط وحدة عجزت أمها صور عن تحقيق شيء منه في الشرق .

وأنجزت أكثر من هذا : فتوغلت عميقاً داخل البلاد . وفي هذا السبيل قامت بسلسلة من الحروب الدامية تضرست بها الأقوام التي كانت تعترض طريقها الى التوسع وبسط رقعتها ، او

كانت تقيم على الساحل . وكان عليها ان تتحمل مغبة هذه الفتوحات الغاشمة ، اذ ما كادت روما تضيّق ، فبا بعد ، عليها الخناق وتحصرها في البقعة التي قامت عليها في الساحل الافريقي ، حتى طرأ على سلطانها ما غير من معالمها . فبعد ان كانت سيدة البحار ، عادت دولة برية مهضبة الجناح ، مقلدة الأظافر .

واصطدمت في توسعها التامبي ، الفينة بعد الفينة ، بالاغريق . وهذا الاصطدام لم يتميز بالعنف في افريقيا ، عند الحدود التي تفصل بينها وبين القيروان ، حيث تقوم اراض صحراوية منفردة . اما في اسبانيا فقد اضطرت لاقتسام تلك البلاد مع مسّاليا (مرسيليا اليوم) التي اضطرت للتنازل لها عن ممتلكاتها الواقعة على ساحل البحر ، الى الجنوب . وكان الامر على عكس ذلك في صقلية التي اصبحت منذ القرن السادس ، قبل الميلاد ، مسرحاً لحروب متتالية اهرقت فيها جهود طويلة ودماء مطلولة ، اضطر معها سكان الجزيرة الاصليون في الداخل ، للاشتراك بها والتلطي بنارها . وقد تمكن القرطاجيون مراراً من محاصرة سيراكوزة ، الا انها لم تلبث ان ردت لها الضربة بعد ذلك بقليل في عهد طاغيتها اغاتوكليس الذي حاول ، في اواخر القرن الرابع ق.م ، غزو افريقيا وتجنيد حملة عسكرية عليها . وقد رجحت الكفة لقرطاجة في نهاية الامر ، اذ استطاعت ان تقيم لها ، عام ٢٦٤ ق . م ، حامية في قلب مدينة مسينا ، على مقربة من منافستها . وكان ذلك الشرارة التي انطلقت منها الحرب البونيقية الاولى ، اذ كانت الرومان قد استولوا على اليونان الكبرى وحلوا محل الاغريق في صقلية ، بعد ان ضعفت شوكتهم وذهب عزهم .

فالخروب التي خاضت قرطاجة غمارها في صقلية هي عندنا ، اقل الحروب التي نهضت بها ، جهلاً بأسبابها ووقائعها ، وذلك بفضل ما كتبه عنها مؤرخو الاغريق . اما حروبها الاخرى فنكاد لا نعرف عنها شيئاً يذكر . ونعرف بالتفصيل المحاولة التي قامت بها للتوغل في قلب جزيرة سردينيا ، والمقاومة العنيفة التي قوبلت بها من قبل الجبليين الاشداء من سكان تلك الجزيرة ، الذين قابلوا الرومان ببأس اشد عندما حاول هؤلاء ايضاً مهاجمتهم . والشيء المهم الذي نعرفه انها استطاعت ان تسيطر ، بعد تضحيات دامية ، على سكان البلاد البدائيين ، في الداخل ، خلال القرن الخامس ، بحيث خضعت لها كل البلاد التي تعرف اليوم بتونس . ولما راح الرومان يستغلون ضدها الصعوبات التي جرتها عليها «حروب المرتزقة» ، في سبيل اقتطاعهم جزيرة سردينيا ، عهدت بامر الدفاع عن ممتلكاتها في الخارج ، الى هملقار برقا وعينته قائداً اعلى لجيوشها ، فانتهج خطة سياسية كان من بعض نتائجها اخضاع قبائل الاسبان عنوة اوصلاً . وفي اسبانيا اسس مدينة «قرطاجة الجديدة» المعروفة اليوم باسم قرطاجنة . ومن اسبانيا انطلق ابنه هانيبعل ، عام ٢١٨ ق . م ، لمهاجمة روما بعد ان هباً لملته جيشاً مدرباً .

ولما بلغت قرطاجة أوج عزها في القرنين الرابع والثالث ق . م ، كانت سلطتها تمتد فوق

امبراطورية مترامية الأطراف ، إلا انها مشعثة الاوصال ، يشدها بعضاً الى بعض ، المواصلات البحرية يؤمنها اسطول ضخم . علينا ان نحتز من المغالاة في تبيان ما كانت عليه هذه الامبراطورية من إصالة وجدّة . فالجديد في سيطرة القرطاجيين على البحر ، انها تحيزت وقامت في الشطر الغربي من البحر المتوسط الذي لم يكن سبق له ان عرف من قبل ، سيادة وسيطرة من هذا الطراز وبمثل هذا الاتساع . فاضطرتها ضرورات الدفاع عن ممتلكاتها في افريقيا واسبانيا الى تركيز سيادتها البحرية على وسائل دفاعية متينة . وهذه المفارقات ، مها دقت واسترقت ، لها أهميتها الخاصة ، اذ تساعدنا على ان نفقه ليس حقيقة الامبراطورية القرطاجية فحسب ، بل ايضاً كل امبراطورية مماثلة لها ، قامت عبر التاريخ القديم ، كما علينا ان نحذر من مقارنتها بهذه الامبراطوريات التي استقام أمرها في التاريخ الحديث .

قيام هذه السلطنة الشاسعة والحفاظ عليها ، والدفاع المجدي عنها ، كل هذا القوي : الاسطول اقتضى وجود قوات مسلحة ضخمة . إلا أن معلوماتنا حول هذا الموضوع بالذات ، قليلة ومتقطعة ، إلا انها تزدد وفرة وغنى كلما تعلق الامر بمحروبها مع روما ، هذه الحروب التي سماها الرومان : « الحروب البونيقية » ، نحتاً من كلمة *Punicus* أو *Poenicus* المشتقة من كلمة *Poeni* وهو الاسم الذي أطلقوه على القرطاجيين .

ففي الطور الاول من هذه الحروب التي كانت تستهدف السيطرة على صقلية ، بلغ المجهود الحربي ذروته في السيطرة على البحر . ويستدل من أوثق المصادر بأن اسطول قرطاجة ، بلغ عام ٢٥٦ ق.م ، ٣٥٠ سفينة حربية كبيرة . وتمكنت من المحافظة على هذه القوة طوال الحرب التي استمرت ٢٣ سنة ، خسرت قرطاجة خلالها ٥٠٠ سفينة بينما خسر الرومان من جهتهم ٧٠٠ سفينة . ولم يكن باستطاعة أية دولة هلينية اذ ذاك ، ان تحشد مثل هذا الاسطول الضخم ، كما تلاحظ المصادر الاغريقية التي لدينا . وليس في هذا الصدد ما يدعو للعجب او الدهشة ، إذا ما قارناه بما نعرفه جيداً عن ضخامة اسطول اثينا في عضورها الذهبية . فليس في فن السفانة القرطاجية أي ابتكار او تجديد من حيث الفن الاستراتيجي ، ولا من حيث هندسة صنع السفن . صحيح ان السفينة القرطاجية هي أضخم حجماً من السفينة اليونانية ذات صفوف المجاذيف الثلاثة في عهد بريكليس^(١) .

والاسطول القرطاجي الذي كان يتألف ، عام ٢٥٦ ، من ٣٥٠ سفينة كان له من الطاقة ما يتسع لـ ١٥٠ ألف محارب ، كما يؤكد مؤرخو العصر ، أي بمعدل ٣٠٠ مجذف أو بحار و ١٠٠ جندي محارب في كل سفينة من ذوات الخمسة صفوف من المجاذيف . إلا اننا نجعل كل شيء عن

(١) انواع السفن المعروفة عند الاغريق هي : الـ *Trièrè* والـ *Tétrèrè* والـ *Pentèrèrè* وصفاً للسفن المجيزة بثلاثة او اربعة او خمسة صفوف من المجاذيف . ويقابلها عند الرومان الانواع : *Trirème* و *Quadrirème* و *Quinquèrème* .

طريقة تسليحهم وتجنيدهم . ومهما يكن من كثرة السكان في المدن ، فقرطاجة كانت تجند ، مثلها في هذا مثل أثينا قديماً ، غير المواطنين من سكانها ، ليم لها مثل هذا الحشد الضخم . وكانت المدن الحليفة او الحاضعة لسيطرتها تضطر لتزويدها برديف من أبنائها هي الأخرى ، كما تجند الاغراب الذين يقطنون في مينائها ، كما تجند كتائب من الرقيق . وما ان غلبتها روما على أمرها بعد ان جهزت سفنها الحربية بخطاطيف هابطة تستحيل معها المعركة البحرية معركة برية ، لم يعد بوسع قرطاجة ان تبذل من جديد ، مثل هذا الجهد وتكرره ، فأسقط في يدها .

بالرغم من ضخامة الأرقام التي يوردها مؤرخو ذلك العهد ، لم تبلغ جيوشها العدد الجيش المذكور . فلم يزد جيش هانيبل في اسبانيا ، على ١٢٠ ألف جندي عند نشوب الحرب البونيقية الثانية . وعندما اجتاز جبال البيرينه (البرانس) متجهاً الى ايطاليا ، كان قوام جيشه يتألف من ٥٩,٠٠٠ جندي . وقد تطور فيما بعد تشكيل هذا الجيش فانخفضت كثيراً نسبة المواطنين فيه . فقد اشتركوا من قبل بحملات عسكرية حاربت خارج البلاد ، فألفوا فيه فرقة مختارة . ونشاهد في مطلع القرن الرابع ، الشبيبة الارستوقراطية في قرطاجة تؤلف فرقة خاصة مختارة تعرف بالطابور المقدس ، بلغ عدد رجاله ٢٥٠ جندي . وقد ففي هذا الطابور برمته في حروب صقلية . ومن ذلك الحين اخذت قرطاجة تقتصد بدم أبنائها . فهم لا يدعون للجنودية او للحرب ، إلا في الملمات الكبرى التي تتهدد مصير البلاد بخطر ماحق ، وقد ضعفت نزعة الحرب فيهم لانقطاعهم طويلاً عن التدريب العسكري وإلمامهم له . وهذا التطور في نظام التعبئة والجنودية ، لم يلحق أي ضرر بقرطاجة اذ راحت تتدبر شؤونها الحربية والعسكرية على الطريقة الهلينية . فكما امتدت رقعة امبراطوريتها وانفسحت منها الآفاق ، فرضت على اتباعها الجدد نوعاً من الخدمة العسكرية ، كما فرضت على الممالك والأقوام المرتبطة معها بمواثيق ومعاهدات ، مدها بفرق مساعدة . وكانت فرقة فرسان النوميدي في افريقيا ذخراً لها في الملمات ، الى ان جاء مستنيساً حليف روما ، وحملهم على الانتقال الى جانب روما في اواخر الحرب البونيقية الثانية . ومن جهة أخرى ، نرى قرطاجة تعمل كثيراً ، منذ اوائل القرن الخامس ق . م ، على تجنيد المرتزقة ، ولا سيما في القرن الرابع ، فتحسن انتقاءهم من بين الافريقيين والاسبان وسكان جزر البليار ، والغاليين وسكان سردينيا وجزيرة كورسكا والليغوريين والايطاليين ، حتى ومن الاغريق . لم يكن تنظيم هذه الاخلاط من أقوام متباينة العرق واللسان والتقاليد ، واستخدامهم على الوجه الأصح ، والاستفادة من خدماتهم الى الحد الأقصى ، بالأمر اليسير . وهذا ما يعترف به المؤرخ الروماني بوليب ويشيد عالياً بمقربة هانيبل ونموه العسكري الفذ ، إذ عرف انب يستفيد من هذا اللجم الى أقصى حد . وكان هذا الجيش من المرتزقة يعبأ كراديس ، وفقاً لقومياتهم ، يتولى امرهم ضباط من بني جنسهم دربوا التدريب العسكري اللازم بقيادة ضباط ورؤساء قرطاجيين ، تعين لهم أعمال تختلف باختلاف الاسلحة التي بين أيديهم . وهكذا يتدربون على أفانين الحرب حتى يجيدوا أصولها . فاذا ما بدا لنا اليوم جيش هانيبل من أكفأ الجيوش

التي قامت في التاريخ القديم ، فالفضل في ذلك كله إنما يعود أصلاً ، وفي الدرجة الأولى ، لعبقرية هذا القائد الفذ ونبوغه العسكري .

فإذا ما وضعنا جانباً عبقرية هانيبعل الذي كان صاعقة حرب كما تشهد على ذلك موقعة « كان » التاريخية التي عدها شليفن نموذجاً أعلى لنصر حاسم يحنل الخصم ويبيده تماماً ، فالتجديدات التي أدخلها القرطاجيون على فنون الحرب تكاد لا تذكر . وهي تنحصر ، على الاجمال ، بفن الحصار وإقامة التحصينات الحربية وبعض انواع الاسلحة التي استخدموها في حروب صقلية في أواخر القرن الخامس لم يلبث ان قلدها اهالي سيراقوزة ، وعندهم أخذها إغريق اليونان . وكانت أسوار قرطاجة تثير دهشة معاصريها في القرن الثاني ق. م ، اذ بلغ طولها ٣٤ كيلومتراً ، وارتفاعها ١٣ متراً ، وسماكتها ٨ أمتار ، يتخللها ، على مسافة ٦٠ متراً الواحد من الآخر ، بروج واصطبلات يضم الواحد منها ٣٠٠ فيلا و ٤٠٠٠ حصان . وهندسة التحصينات هذه إنما اقتبسوها عن مدينة صور التي اخذتها يدورها عن الاشوريين . ومن ميزات قرطاجة العسكرية انها أدخلت الى الغرب الفنون الحربية المتبعة في بلاد الشرق ، ولا سيما استعمال الفيلة في المعارك الحربية ، وهي خطة سار عليها الهند ، وعندهم أخذها الاسكندر وخلفاؤه من بعده . وراح الملك بيروس (Pyrrhos) ملك ابيروس في القرن الثالث ق. م ، يتخذ من الفيلة عنصراً مفاجئاً في حروبه في صقلية . ومنذ ذلك الحين ، أخذت قرطاجة تصطاد الفيلة وتطاردها وتعمل على ترويضها وإعدادها للحرب . غير ان الفيل الافريقي هو أصغر حجماً من الفيل الآسيوي ، ومنظره اقل وقعاً و رهبة في النفس من الآسيوي ، ناهيك عن ان الرومان عرفوا ، فيما بعد ، كيف يتفادون شرها وضرها عندما تقوم بالهجوم .

ليس من ينتقص من قدر القوة الحربية التي عرفت قرطاجة ، انشاءها اذا ما قيست بما درج عليه الغرب طويلاً في هذا المضمار ، قبل ان تسجل روما النجاحات التي حققتها في هذا المجال . وهذه القوة تحقها على الوجه الذي وصفنا ، لا تذهب ، مع ذلك ، بالمشاكل والمعضلات التي اثارها قيام هذه القوة وتأمين استمرارها وبقائها ، منها مثلاً : المشكلة السياسية الكامنة في السلطات الحاكمة ومنزلة اصحابها من الدولة وعلاقاتهم بالهيئات والسلطات الاخرى ، وغير ذلك من الصعوبات الاقتصادية والمالية ، التي تتمثل في توفير الاعتادات اللازمة لآلة الحرب ، والنهوض بها على الوجه الاكمل ، والتمويل على المرتزقة وغير ذلك من المشكلات المتشابكة التي تزيد الأمور تعقيداً وارتباكاً . فالجيش المحترف يمثل طوعاً لقادته . اما الجند المرتزقة فباستطاعتهم ان يفرضوا ارادتهم ويلحفوا في الطلب ، متشددين في قبض مرتباتهم وأعطياتهم الشهرية ، وإلا تاروا ، وتتمروا ، وتمردوا واعلنوها حرباً لا تبقي ولا تذر ، كحرب المرتزقة التي قاموا بها في اعقاب الحرب البونيقية الاولى ، فكانت ثورة لاهبة اكلت الاخضر واليابس ، وكادت تقضي على قرطاجة اذ افسحت الطريق لما يعرف : « بالحرب التي لا ترحم » والتي قادت قرطاجة الى قاب قوسين وادنى من الهلاك .

يكتنف الغموض هذه النظم ويغلفها الابهام بحيث نرى انفسنا عاجزين
النظم السياسية والاجتماعية
عن تحديدها لا سيما وقد خضعت ، هي الاخرى ، لعوامل عديدة
قضت عليها بالتحول والتبدل . وبما يبدو من ظواهر الامور ان في المدينة ثلاث قوى او ثلاث
نزعات بالاحرى ، تتباين وفقاً للظروف والصروف .

من المرجح ان تكون سارت المدينة في بدء امرها على النظام الملكي ، وهو نظام لم يلبث ان
زال العمل به مع مطلع الطور التاريخي ، لتفسح المجال لهيآت حكومية ، تستبدل عاماً بعد
عام ، عن طريق الاقتراع العام والتصويت الشعبي . من هذه المؤسسات او الهيآت العليا ، مجلس
السوفيت *Suffètes* او القضاة . اما السلطة العليا فكانت تتمثل بمجلس الشيوخ وبمجالس اخرى
دونه صلاحيات . ليس بمقدورنا ان نحدد منها : عدد الاعضاء ، ولا كيفية التشكيل او التأليف ،
ولا الصلاحيات التي كانت تنعم بها . والذي نعرفه عنها يكفي للتأكيد ان هذه السلطات هي في
قبضة اقلية ضئيلة من سكان المدينة ، ينعم اصحابها بالثراء الوافر والجاه العريض . ولكن ما
عسى ان يكون هذا الثراء ؟ اعتماداً على التقاليد المروية ، الفئة الحاكمة هي طبقة غلبت عليها هموم
التجارة والكسب ، فاقبلت تمسك بنواصيه وتؤمن اسبابه لتستدر الربح الوفير . فسعت اليه ،
ايما كان ، وطلبته انما تبدي لها ، وتلقفته باية وسيلة كانت . فهي تسيج حوله وتضحي في سبيله
بكل شيء . فلا عجب ، بعد هذا ، ان ياترسل خصومهم من رومان وغيرهم في رميهم بكل
فرية ومعرة ، فيصورونهم بأبشع الصور ويرمونهم بأقذع الاوصاف . ومهما يكن ، فقد قامت عند
القرطاجيين ثروات طائلة ، تباورت وتجسبت : اطياناً وممتلكات شاسعة واسعة ، باتساع رقعة
الامبراطورية العريضة التي انشأوها لهم في قلب افريقيا . ففي المدينة طبقة من اشراف
البونيقيين ، يعرف ابناؤها ، مع ذلك ، كيف يجودون بدمائهم حفاظاً على الاجداد وذوداً عن
الاطيان . وهي طبقة تحب التنعم وتستسلم للذائذها ، وهي بالطبع ليست اكثر من غيرها سوء
استعمال ، واقل ائتمان للوظيفة العامة ، تستمسك بالسلطة وتتشبث بالكراسي وتسعى اليها . فاية
اقلية تخلت يوماً ، طوعاً او اختياراً ، عن سلطة طالما شدت عليها بنواجذها ، وسيجت حولها
بكل ما أوتيت من حول وطول ؟

القادة
كثيراً ما نقص هؤلاء القادة العيش على قرطاجة وكادوا يوردونها مورد الهلكة .
ففي مدينة لا تحتفظ في اوقات السلم بجيش يتص موارد الخزينة العامة ، كان
من المعقول جداً ، اذا ما شئت ان تتفادى طغيان قادة جيش المرتزقة ، ان تختار قادتها من بين
الاسر الشهيرة فيها ، وهي اسر معروفة لدينا . من هذه البيوتات العريقة ، اسرة ماغون التي
اخرجت لقرطاجة ، ابتداءً من القرن السادس . ق . م ، ولدة اربعة اجيال متعاقبة ، عدداً
من القادة تولوا قيادة الحرب ضد الاغريق . ومن هذه الاسر الشريفة اسرة آل برقا التي انجبت
فيمن انجبت من مشاهير الرجال ، القادة هملقار وابنه هانيبعل . وهذه الاسر التي تحدثت

اصولها من الاشراف ، عرفت كيف تزيد المدينة سناءً على سناء ، وغنى ورفعة عن طريق الانتصارات الحربية التي حققتها، كما عرفت ان تؤلب حولها الاتباع والأنصار يشدون منها الازر وينصرونها في الازمات ، فيحسبون لها الف حساب . وقواد الحرب هؤلاء، يجري انتخابهم من قبل الشعب ، بعد ان يجري ترشيحهم لهذا المنصب من قبل مجلس الشيوخ . فيتسلمون مقاليد الجيش وقيادة الحرب في حملات وغزوات حربية ينتدبون لها ، دون تحديد مدة عملهم باستثناء عزل طارئ . يتسلم القادة الامر متمعين بسلطة مطلقة ، وبم عزل عن نصيح المستشارين وعيون المراقبين ، يديرون امور المنطقة التي يعهد بها اليهم كما يرغبون . فالقادة من آل برقاهم نواب ملك حقيقيون ، وهانبيعل يصرف القضايا ويقضي بها باعتباراه السيد المطلق غير المنازع ، ويدبر الحرب ضد روما . ويصرف دبلوماسيتها حتى ساعة رجوعه الى ارض الوطن . ورؤساء المرتزقة الذين يتولون شؤون الجيش ومهامه ، هم رؤساء من قبله ، لا يعرفون سلطة غير سلطته ، ولا يتجسسون باي احترام للادارة المدنية القائمة في قرطاجة . أضف الى هذا كله القيادة الاغريق في صقلية ، وهي منهم على قاب قوسين وادنى ، كيف انهم يستأثرون بملء السلطة في المدن التي يتسبون اليها ، او في المدن الاخرى التي يعملون على خدمتها ، فيفرضون عليها دكتاتورية غاشمة مستبدة . ففي مثلهم ما فيه من اغراء وتشويق يحفز بقواد قرطاجة على الاقتداء بهم واثيان ما يسعى به هؤلاء للاستئثار بالسلطة .

فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تحتاط الادارة المدنية في قرطاجة للامر ، وان تتحرز ضد المفاجآت . فهل كان ثمة ما يبرر عندهم مثل هذه الظنة ؟ فالرويات المتوارثة تأتي احياناً على ذكر بعض محاولات انقلاب من هذا النوع دون ان تستفيض في التفاصيل ، وهي محاولات نادرة لعمرى ، اذا ما قيست بهذه الاجيال الطويلة المشحونة بالحروب . ولعل ندرة هذه المحاولات وقلتها تعود اصلاً الى ان جيوش المرتزقة كانت تحارب ، في الغالب ، خارج البلاد ، فلا يرجع القائد اليها بعد انتهاء حملته او مهمته الا ويكون قد سرح الجيش . ومهما يكن ، فالأقلية الحاكمة في قرطاجة كانت جد يقظة . وما ان استشعرت بتفاقم نفوذ اسرة ماغون وخامرتها فكرة امكن عبثهم بنظام البلاد الاساسي حتى راحت تقرر، في اواسط القرن الخامس ق . م ، إنشاء مجلس قضاء اعلى ، يتمتع بالعصمة يستدعي للمثول امامه ، للمناقشة وتأدية الحساب ، ايأ كان من الناس ، مهما علا شأنه . وكثيراً ما اصدر هذا المجلس حكمه بالاعدام صلباً على القادة الفاشلين او العابثين منهم ، او على ذوي المطامع الخطرة بينهم ، حتى اذا ماراح هؤلاء يتفادون بالانتحار العقاب الذي استحقوه ، راح الشعب ينتقم لنفسه منهم بالتبثيل باجسامهم .

غير ان مثل القادة من آل برقاريننا ان الخوف من مغبة الفشل ونتائجه لم يكن ليفت من عضدهم . فهم في وضع مؤات يحسدون عليه . فالمصادر الرومانية تتهمهم باصطناع الاحزاب وشراء الانصار بالمال والاعطيات ، وهو اصطناع محتمل ليس ما يمنع تصديقه . ولكن أنى لنا ان نثق بتهم الاعداء وتقولات الخصوم ونخرصاتهم ؟ فالمناجم المعدنية التي حفلت بها اسبانيا

كانت تدور على قرطاجة المال الوفير ، كما ان الانتصارات الباهرة التي سجلها هانيبعل على الرومان في بلادهم ، كل ذلك اضى عليه سناء ليس بعده من سناء ، وفخاراً لا يزال التاريخ يمدحنا عنه باعجاب . وكل الظواهر تدل بوضوح انه كان باستطاعتهم ان يعولوا ، في مناهضتهم الطبقة الارستوقراطية الحاكمة ، على قوى اخرى تكن في الشعب .

هو المجهول الاكبر في قرطاجة من الوجهة السياسية .

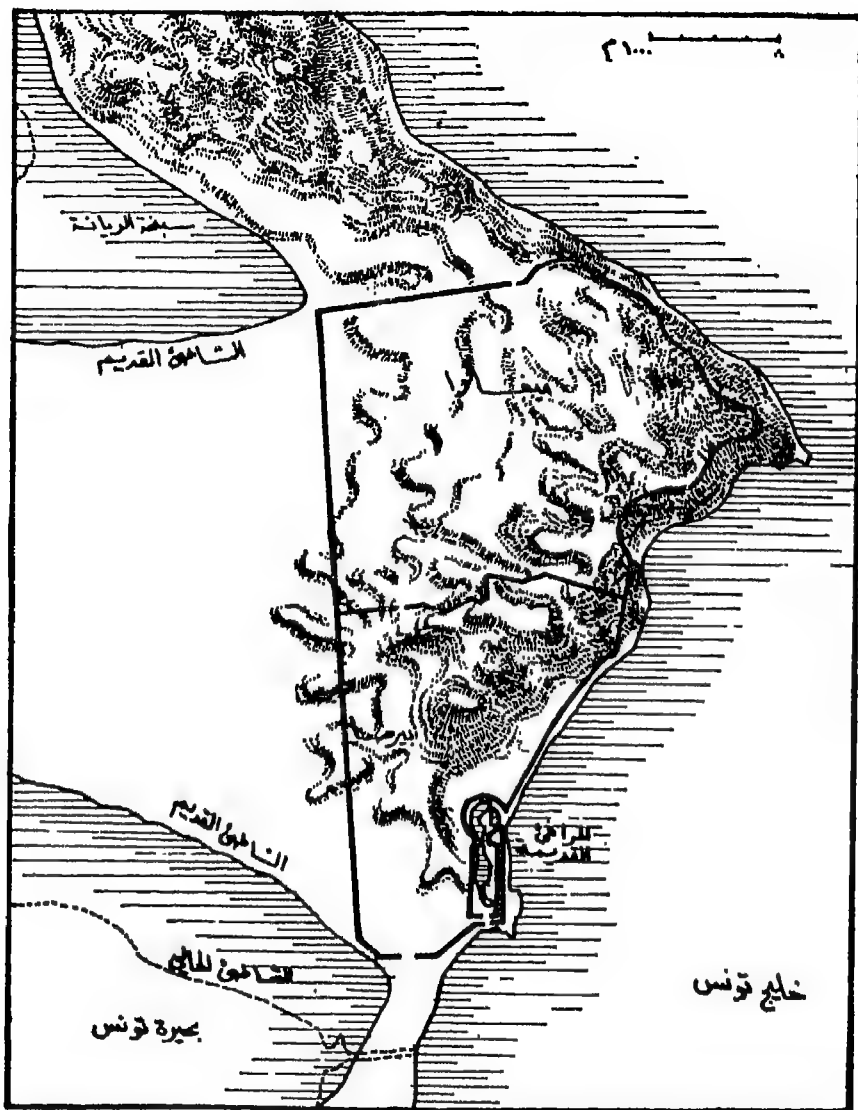
الشعب

ويؤكد الجغرافي الاغريقي المشهور سطرابون ، ان سكان هذه المدينة ، بلغ عددهم قبيل زوالها بضع سنوات ، أي من نحو ٥٠ سنة قبل فقدانها امبراطوريتها ، ٧٠٠,٠٠٠ نسمة . فقد كانت تحتل بالفعل ، رقعة واسعة من الارض تقع بين بحيرة تونس وهضبة بيرسا (من ضواحي تونس اليوم وهي المعروفة بضاحية سان لويس) وبين ضاحية ميغارا الى الشمال . وكان من نشاط الحركة الاقتصادية والتجارية فيها انها صارت مورد رزق لعدد كبير من السكان ، معظمهم بالطبع ، من الطبقة الكادحة ومن مختلفي العروق والأصول . وكان المنتمون الى العرق السامي في المدن الفينيقية ومستعمراتها يؤتمون «صور الغربية» المزدهرة ، المتدفقة حركة ونشاطاً ؛ بينما نرى صور الشرقية ترسف تحت عبودية الفاتحين والغزاة الذين أناخوا على صدرها ، كما ان اغريق صقلية أنفسهم كانوا يتجهون اليها ويقيمون فيها . فقوانين البلاد كانت تبيح الزواج من الأجانب كما يستدل من البطل الماغوني الذي صرعه الطاغية كجيلون السيراكوزي في مدينة هيمير *Himère* ، عام ٤٨٠ ، اذ كان ابن إحدى سيدات سيراكوزة .

فكم كانت لعمرى ، لسبة الرعايا ، والارقاء في هذا العدد الذي ذكره سطرابون؟ وما نسبة الاجانب او الاغراب بينهم الذين لا حقوق سياسية لهم ؟ وهل كانوا يفرقون — وبالايجاب فعلى أي أساس — بين المواطنين السليين وبين المواطنين الايبايين ؟ وكيف كان هذا الشعب يتوزع ؟ وما هي هيأته ومنظلماته ؟ كلها أسئلة ترتسم على الشفاه وستبقى دوماً دون جواب .

والشيء الثابت الاكيد انه قام في قرطاجة ، هيئة شعبية لم تتمتع مدة طويلة بأية سلطة عملية لا تتعدى التصديق والموافقة على المقترحات والمشاريع التي يضعها مجلس الشيوخ وهيأة مجلس القضاء . ولم تجاهلت هاتان الهيئتان ، وجود المنظمات الشعبية ، عندما تكونان على اتفاق ووثام ؟ وقد حدث ، فيها بعد ، ما أوجب تطويرها وزاد في شأنها ونفوذها . فهل جاء هذا التطور بصورة عفوية ، طبيعية ، ام جاء نتيجة عمل مدروس وخطة موضوعة ، تخضع بها الشعب متأثراً ، بمثل المدن الاغريقية ، او مدفوعاً اليه دفعاً من قبل بعض قادة الجيش ، تعبيراً منهم عن معارضتهم لمجلس الشيوخ ؟

مهما يكن ، فما ان انطلقت الحرب البونيقية الثانية حتى راح الشعب يعبر عن إرادته ، فبرز بوضوح ، الشأن الذي يحظى به حزب هانيبعل في قلب هذا الشعب . ولم يخف هذه النفوذ او يضعف على أثر الكارثة المؤسفة التي انتهت اليها هذه الحرب ، والشعب يدغدغه الامل بأن



الشكل ٤ - قرطاجية

يتمكن هانيبل من اصلاح ذات البين والاعوجاج الذي يعتور دستور البلاد، فيضع حداً لِعَبَثِ
الحاكمين ولسوء تصرفاتهم .

هذه الغضبة يثيرها هانيبل بين صفوف الشعب وطبقاته والامال العراض التي راودت خياله،
كل ذلك حل خصومه على السعاية به عند أعدائه الرومان الألداء ، فصوروه لهم بعبعا يخشى
شره ولا يؤمن جانبه. فقرر ان يتواري ، ويبتعد عن البلاد لللايقع فريسة بين أيديهم فينكلوا
به . هذا الحادث بعينه يجعلنا نتصور الصعوبات التي تجببط بها قرطاجة ، فيها بعد ، أي قبيل
الحرب البونيقية الثالثة ، وفي أثنائها ، اذ ما زلنا نلبين بين ثنايا الشعب القرطاجي ، حزبا
ديموقراطيا حمله ، بضبط منه على ان يتخذ إجراءات جذرية. ومما تكن مصادرها ضعيفة ومراجعتنا
قليلة ، هذه المصادر المتعلقة بحوادث سنوات قرطاجة الأخيرة ، فهي تليح لنا ، مع ذلك ، ان
نلبين بوضوح ، شيئين مهمين : وقوع أعمال شغب وعنف ، واستعداد فريق من الناس للاستعانة
بالأجنبي الدخيل والتعاون معه. فلكل من الرومان ومستنيسا أنصار وأتباع يظهرونهم ويشدون
منهم الأزر : هذا مندفع في عاطفته ، والآخر وصولي مأجور ، تحدته نفسه بالوصول الى الكرسي
والاستئثار بالسلطة ، وخطر الموت الزؤام يرفرف فوق المدينة الثائرة ، المهية الجناح ، وقد
ثارت فيها الأطماع ، وتلاحت المصالح ، وتصادمت متنابهة متقاتلة وأصبحت سوقا واجت
بأسفل الدماء كما انها حفلت ، من جهة اخرى ، باروع صور البطولة .

فالاسناد التاريخي يعول هنا على التاريخ القديم الذي تتجههم مصادره وتقسو مراجعه ، وكيف
لا تقسو وهي في غالبيتها مصادر إغريقية رومانية . فلا عجب ان تسترسل في وصف هذا
الوضع المحموم ، الشديد الغليان وفقا لأغراض الكتاب والمؤرخين. وهذا الوضع لأبعد بكثير من ان
يصور حقيقة ما كانت عليه قرطاجة يوم كانت هي نفسها . فقد كان لها ، هي الأخرى ، وقفات
الكبرى وساعات الفصل البكر . والمؤرخ يرغب من الصميم في معرفة مسلك الدولة ، وما هو
بالضبط موقف النظام الارستوقراطي ، من السلطة الاستثنائية التي تمتع بها فريق من الشعب
كان من الطليعة بين من تضرسوا بهذه الاحداث الجسام وتربصوا بها . فتى يا ترى ، وكيف ،
انتقلت السلطة العليا من يد اوليفرشية ضيقة الى يد الشعب ؟ يؤسفنا كثيرا ولا شك ، ان نجمل
كيف سقطت هذه المدينة بين أشدق الموت فتلقفتها ثنايا الدمار ، قدفن ، ربما الى الأبد ، سر هذه
الوقائع والاحداث العنيفة التي هزت المجتمع الافريقي اذ ذلك ، والتطورات التي مرت بها او
عاشتها التي كان من نشأتها ان تساعدنا هنا ، في هذا الظرف بعينه ، على تفهم الحقيقة ،
وهناك ، بعد مقارنتها بظروف شبيهة بها ، على تفهم ما كانت عليه اوضاع القوى الشعبية وميولها
المختلفة ونوازعها في خطرها العنيف .

الامبراطورية القرطاجية والتجارة البحرية
من حسن الحظ وبين الطالع ان يكون الوضع الاقتصادي
أقل غموضاً وأكثر وضوحاً منه في الوضع الاجتماعي

والسياسي، والا لكان أسقط في أيدينا لولم نر قرطاجة ، وهي مدينة فينيقية في الصميم ، مرفأً بحرياً وميناءً تجارياً قبل كل شيء. الا انه من الميثبط للعزم والخيب للامل الا نستطيع التحديد، على وجه الدقة ، لمواقع احواض هذا المرفأ ، او هذه المرافئ كما هو اصح ، ونتتبع التطورات التي مرت بها وصارت اليها ، اذ كان لها بالفعل مرفأان : احدهما تجاري ، والآخر حربي عسكري ؛ او ان يتعثر بنا الخيال الممنح فتراها مقتصرة على هذه الغدران او البحيرات المتواضعة الماثلة في مرأى العين اليوم . فعلى الخيال ان يلهب نفسه فيوسع من جنباتها لتستوعب هذه الاساطيل الجرارة التي سيطرت ، اجيالاً طوالاً ، على حوض البحر المتوسط الغربي وتحكمت ، سيدة غير منازعة ، ببنافذه ومخارجه .

والجدير بالملاحظة هنا مما يُعد ابتكاراً جديداً في تاريخ البشرية ، هذا الدور النير والمساهمة الواعية التي اسهمت بها الدولة لتنشيط الحركة الاقتصادية عن طريق إنشاء عدد من الاحتكارات الحكومية لبعض الخامات او المواد الاولية ، فحصرت استثمارها ونقلها بالاسطول القرطاجي التجاري . ولعل اعجب ما في هذا كله ، وأدعاه للحيرة الحفاظ على سرية العملية والتشدد في صيانتها وعدم البوح بها ، مع بذل الجهد لإنهاء المتبعين الجادين في الاثر وتعمية معالم الطريق عليهم ، وذلك بإشاعة الاخبار المرعبة والمرويات المخيفة تحول الطرق البحرية التي كانوا يسلكونها اليها . ولم تكن الدبلوماسية القرطاجية تتورع او تتهيب عن استعمال القوة ، في هذا السبيل ، ففقد أولو الامر في قرطاجة ، مع الاتروسك ، كما عقدوا مع الرومان فيما بعد ، موافقات واتفاقات تحذر على هؤلاء واولئك تخطي بعض الخطوط او الحدود المعينة . من ذلك مثلاً ، معاهدة عقدوها مع الرومان ، في القرن الرابع ، الزموم بعدم الاتجار مع سردينيا وافريقيا او تشييد مدن لهم فيها ، كما منعوا عليهم الرسو فيها الا للامتيار واصلاح ما يطرأ من عطل على سفنهم ، ليس الا . فاذا ما ارغمتهم العواصف الهوجاء على ذلك ، كان عليهم ان يغادروها خلال خمسة ايام . وهكذا نرى قرطاجة تحتفظ لنفسها ، سواء أسمحت للسفن دخول مرفئها او مرفئها المدن التابعة لها او التي تسيطر عليها في صقلية ، بحق الإتجار على سواحل افريقيا الشمالية غربي القيروان او في القسم الجنوبي من شبه الجزيرة الايبيرية التي كانت بحق ، اغنى المقاطعات الاسبانية طراً بمناجها ، ولا سيما بمعدن الفضة والزئبق .

ومما هو ادهى واعظم من هذا ، فقد تجاوزت اساطيلها الى ما وراء منافذ البحر المتوسط ، فاخذت تتلمس لها طرقاً ومعايير جديدة في المحيط الاطلسي ، حرصت على ان تكون بالطبع تحت مراقبتها واشرافها الدقيق . فقد انفذت ، في اواسط القرن الخامس ق.م ، بعثة تجارية تحت امره البحار الجريء عملقون فبلغ بممارته الجزر البريطانية بحثاً عن معدن القصدير وايجاد طرق جديدة في تصديره تنأى عن رقابة الغالين . فلم يكن أخفى على افهام الناس ومعرفتهم ، من سبل التجارة البحرية مع اوربا الغربية والشمالية من جراء محافظة البحارة الساميين على

سرية هذه الطرقات التي كانوا يسلكونها وإبقائها بعيدة عن الانظار . فهل كانت هذه التجارة تتم رأساً ومباشرة او تجرى بالواسطة ؟ ومهما يكن فالدلائل تدل على ان قرطاجة نفسها لم تشترك على نطاق واسع بهذه الحركة ، بل تنازلت عنها لابنتها ورببيتها مدينة غاديس التي كانت تعاملها بشيء من الحرية لم تنل بعضه ولم تحظَ بمثل المدائن الاخرى الفينيقية الاصل . ولذا راح سكان هذه المدينة يقومون بالامر باسمها وتحت رعايتها ، وهم على اشد من اليقين من مؤازرة قرطاجة لهم في حراستهم الشديدة لنافذ المضيق الغربية . وهذه الصرامة في التشديد على منافذ البحر تحفزنا للتساؤل كيف تمّ للبحار المرسيلى بتياس ان يفوز بثقتهم ، ليقوم في اواخر القرن الثالث ق . م برحلة طويلة في هذه المناطق حملته الى مشارف ايكوسيا في الشمال من انكلترا والى شواطئ الدانمارك . فلم يبلغ علمنا ان بحاراً يونانياً آخر غديره سبقه الى مثل هذه الرحلة او سار على منواله واحتذى حذوه من بعده في رحلة لاحقة .

اما في الجنوب ، على موازاة الساحل الافريقي فقد رغب القوم ان يستوردوا رأساً حاجاتهم من محاصيل البلاد الاجنبية ، فطلبوا الذهب من السودان ، محاولين ما امكن ، الاستغناء عن خدمات القوافل الغالية التكاليف التي كانت تجوب ارجاء الصحراء لتبلغ منها مشارف البحر المتوسط . وكانت مدينة غاديس بمثابة مستودعات ضخمة تحتزن فيها هذه المحاصيل . ولدينا وثيقة مهمة للغاية ، الا انها فريدة من نوعها مع الاسف ، تثبت ان القرطاجيين جلتوا عالياً في هذا المضمار . والوثيقة المذكورة نص يوناني يصف لنا رحلة بحرية قام بها رحلة قرطاجي آخر ، من معاصري عملقون ، هو « الملك » حنون ، من أعضاء مجلس السوفيت ، ومن سلالة آل ماغون الاماجد . فقد كتب وصف هذه الرحلة الجريئة ونقشها محفورة على صفائح الشبهان واودعها احد معابد قرطاجة . فبعد ان اقلع من المرفأ التجاري وتحت امرته عمارة بحرية تتألف من ٦٠ سفينة حملت زهاء ٣٠ ألفاً من المعمرين القرطاجيين ، بين رجال ونساء اتجه غرباً ، واسس خلال رحلته هذه سبع مستعمرات ، ابعداها الى الغرب مدينة سرنه Cernè او قرنة ، على احدى الجزر القريبة من سواحل المغرب . ثم جدت في المسير بجرأ الى ان وصل نهراً « يور بالتامسيح وفرس البحر » . وقد راح المؤرخون يمعنون النظر ويطيّلون التمثلي في هذه المعلومات والفوائد التي تكشف عنها دون ان يتفقوا رأياً على تعيين الأمكنة الجغرافية التي تشير اليها وتحدددها . إذ احب بعضهم ان يرى في النهر المذكور الذي تلازمه حيوانات استوائية ، نهر السنغال ، في ادنى تقدير ، بينما رأى البعض الآخر فيه وادياً من اودية المغرب . وعسى ان يتمكن علماء الآثار من العثور على ما يلقي ضوءاً جديداً على معلوماتنا هذه ، تكشف عن حقيقة المواقع والامكنة التي أهلها هؤلاء المعمرون ، كما تفضي الى تحديد مدى احتلالهم لهذه المواقع عن طريق فحص معالم الخزفيات ودرس بقايا الفخار التي خلفوها وراءهم .

ليس من الحكمة ولا من اللائق بشيء ان نستعرض في التفسير والتعليق ، لأن الغموض لا يزال يكتنف هذا السر من جميع الوجوه . وليس من تقليد رصين ، ولا من تواتر ممكن يصح

اعتماده والركون إليه للقول مع القائلين ان القرطاجيين ، كرروا بالمعكوس ، الدورة الجغرافية التي اضطلع بها من قبل بحارة فينيقيون لحساب فرعون مصر نياخو . اما فيما يتعلق بأسفارهم البحرية على محاذاة سواحل المغرب ، فعلى ان نسترد بالضوء الكشاف الذي يسلطه هنا ابو التاريخ ، المؤرخ اليوناني هيرودوتس ، إذ وصف لنا في القرن الخامس ، وهو العصر الذي تمت فيه ، على الأغلب ، رحلة حنوت الاستكشافية ، النهج الذي اتبعه وسار عليه البحارة القرطاجيون في اعمالهم التجارية ، وهو نهج يزعم مؤرخنا انه اقتبس عن القرطاجيين أنفسهم . كان البحارة التجار يوضبون سلعهم على مقربة من الشاطئ ويضعونها في مرأى العين ، ثم ينسحبون داخل سفنهم فيأتي سكان البلاد ، إذ ذاك ، ميممين الدخسان القريب المتصاعد إيداناً واعلاناً ، فيضعون الى جانب السلع المعروضة ما يروونه معادلاً من الدراهم أو الخامات الأخرى لثمنها ثم ينكفئون بدورهم ويبتعدون ليفسحوا المجال من جديد للتجار فيحملوا ثمن سلعهم اذا ما وجدوها متعادلة ، وإلا تركوها وشأنها توكيداً للفريق الآخر باجحاف الصفقة واعراباً له عن الضرر الذي ينزل بهم ، وان الثمن المقترح بنحس ، وانه يترتب عليهم بالتالي ، رفعه وزيادته اذا شأوا ان يتسلموا البضاعة المزجاة . كل هذا وليس من فريق او جانب يلحق الضرر او ينزل الأذى بالفريق الآخر . فالقرطاجيون لا يأخذون الذهب قبل ان تتعادل قيمته مع ثمن البضاعة ، كما ان سكان البلاد لا يمتسّون هذه السلع قبل ان يتسلم القرطاجيون ثمن بضائعهم ذهباً . الصورة جميلة حقاً ، وأخاذة ، ولكن اكثر مما يجب ، وايرادها على هذا الشكل يثير الظنون . فالدهش في القضية ليس هذه المقايضة وما يتخللها من ثقة أو عدم ثقة ، وقد تكون صورة لما سبق أو جرى في زمن مضى وبين اقوام وفرقاء ذهبوا وولوا . ولهيرودوتس راوي القصة وعارضها فضل السبق . ولكن ليس ما يؤكد صحة ما رواه المؤرخ اليوناني في سرده هذه القصة ، ولم يكن سردها على ما نعتقد الا من باب الإيهام المستحب والتغيير المستملح .

ولعل أسلم المواقف الآن واحكمها هو ان نقصر على التنويه بالطابع الرسمي والاعتراف الحكومي للمغامرات الجريئة التي قام بها عملاقون وحنون في الكشوف الجغرافية التي غامروا في سبيلها . وعندما حدثت هذه المغامرات المثيرة لم تكن قرطاجة سوى مدينة استطاعت المدن الاغريقية في صقلية إيقافها عند حدودها . والحال لم يكن إذ ذاك ، في مقدور أية مدينة يونانية ، حتى ولا أثينا نفسها التي كانت آنئذ في أوج عزها ان يمحش في صدرها شيء من هذا . ففي عالم البحر المتوسط ذي الآفاق المحدودة على رحبها ، ارتكض قلب قرطاجة وجاش بأمر عديده ، تدعو للاعجاب ، لم تكن لتزول بسرعة لو تيسر لنا من المصادر ما يهد لنا السبيل السوي للمعرفة الكاملة .

الحياة الاقتصادية في قرطاجة لعبت الحركة التجارية في اقتصاديات قرطاجة دوراً بارزاً في ازدهار هذه المدينة كما تؤيد ذلك المصادر التي خلفتها لنا ومواردها الوفرة العصور القديمة .

غير ان قرطاجة لم تعرف يوماً صناعة استبدت جودتها بالازدهان . فقد استطاعت ان تؤمن

لنفسها الخامات التي كانت بحاجة ماسة اليها ، اما لقرب تناولها لها او لنقل القوافل البرية والاساطيل الحربية . من ذلك مثلاً : صباغ الارجوان ، والنحاس ، والقصدير وغير ذلك من المعادن الثمينة وريش النعام وبيضه ، والعاج ، والحجارة الكريمة وخشب الأرز ، وخلاف ذلك ، وهي مواد وخامات لم يبدُ لنا ان صناع قرطاجة تمكنوا فيما ندر ، من صنع حاجيات ثينة ذات ذوق رفيع يستبد بأذواق الأثرياء وتعريضهم باقتنائها ، بالرغم من ارتفاع ثمنها وعلو اسعارها . فلم يبلغنا يوماً انهم وصلوا الى خلق أو استنباط طراز فني معين . فالكماليات الغالية الثمن لم تشبع يوماً رغائب الارستوقراطية المحلية ولا صدرت قرطاجة شيئاً يذكر منها . فقد قصرت قرطاجة ، في هذا المضمار ، عن بلوغ المستوى الفني للمهارات الصناعية التي سجلتها المدن الفينيقية في شرقي البحر المتوسط وعرفت ، بالرغم من المنافسة الشديدة التي تعرضت لها ، ان تحافظ عليه خلال الأجيال القديمة المتطاولة . فمن بين هذه المصنوعات التي انتجتها ، عرفت صناعة السجاد وبعض الوسائد ان تستأثر بدوق الاغريق فيجدون في أثرها .

وعلى عكس هذا تماماً ، توفرت قرطاجة على صنع الحاجيات العادية ذات الاستعمال الدائم وانتجتها بكثرة ، وهي صناعة راجت سوقها واستبدت مصنوعات في عهد متأخر من تاريخ هذه المدينة ، مع انها كانت تزخر بما تستورده من هذه المصنوعات ، من بلدان المتوسط الشرقي : من فيليشيا ، وبلاد اليونان ، ومن مصر التي كانت تصدر تعاويند الخنافس المقدسة . وأخذت بالتالي هذه المستوردات تنقص ويتدنى معدلها كما تشهد على ذلك مخلفات القبور التي عثر عليها المنقبون والتي تنطق عالياً بقيام صناعة وطنية ناشطة ، متنوعة ، منذ القرن السادس ق.م . ، إلا انها صناعة مقلدة في كثير من انتاجها ، تقتبس نماذجها وطرق صنعها ، وطراز زخرفها من الخارج ، اذ ان استيراد هذه الحاجيات لم ينقطع حبله قط ، باستثناء الحاجيات المستوردة من وادي النيل ، التي استبدلت وحل محلها مصنوعات أتروريا وكبانيا . ومن الطبيعي ان تكون قرطاجة نشطت الى تصدير منتوجاتها الصناعية بأسعار رخيصة ، اذ اننا نرى نماذج كثيرة من هذه المصنوعات في عدد كبير من الاقطار الواقعة حول حوض البحر المتوسط الغربي ، كالفخار والخزف والزجاج . وحري بالملاحظة ان السواد الاعظم من مستهلكي المصنوعات القرطاجية وزبائنهم ، كانوا من سكان الاقطار والبلدان الواقعة على مقربة من شواطئ البحر ، وهم على الغالب من رعاياها وحلفائها والموالين لها . اما انتشار هذه المصنوعات وتغلغل استعمالها في الداخل ، بين الأقوام المتوحشة ، فكان يجري على نطاق ضيق . فهي من القلة والندرة بحيث تلفت النظر ، لا سيما في مقاطعات افريقيا الشمالية ، وهو أمر يجب رده أصلاً الى فقر السكان الوطنيين وما كانوا عليه من خشونة الطبع وتخلف الذوق عندهم .

فلم تكن الصناعة ، والحالة هذه ، لتدرّ على قرطاجة أرباحاً طائلة . فالدخل الكبير ، جاءها ، ولا شك ، من تجارتها الواسعة . فقد كانت سوقاً كبيراً لحزن البضائع وتفتيقها بنشاط

في الاقطار الواقعة حول حوض البحر المتوسط . فتحشد في عنابرها ومخازنها الخامات التي كانت قوافلها البرية والبحرية تعمل على جمعها وحملها من الاقطار الغربية . وعلى هذا المنوال نسجت في معاملاتها التجارية مع البلدان الشرقية ، وهكذا استطاعت ان تؤمن ببسر ، ما تحتاج اليه من المواد الغذائية ، الا انه لم يبد انها صدرت للخارج شيئاً كبيراً منها . فالبلدان الإيحيية التي كانت تؤلف سوقاً كبيراً للحبوب عرفت ان تؤمن حاجتها من البلدان المجاورة لها . فبعد ان عولت طويلاً على صقلية وبلاد اليونان وجزرها في سد حاجتها من الحبوب ، لم تلبث ان اصبحت قادرة فيما بعد ، على بيع مقادير كبيرة من محاصيل النبيذ والفاكهة عندها الى البلدان الغربية . وهذه الحركة التجارية الصارمة التي أمنت دخلاً كبيراً للدولة القرطاجية ، خير ما تتمثل في اعمال السمسة والعمولة وحركة النقل . وهذا ما يفسر لنا وجود مثل هذا العدد الكبير من القرطاجيين في المدن الاغريقية : في صقلية وبلاد اليونان وجزرها ، كما تشهد بذلك المصادر التي لدينا . أما خارج اليونان فليس ما نخولنا الجزم بالعكس ، مهما قلت المصادر التي بين ايدينا وندرت . فالعلاقات النشطة التي أقامتها مع مدينتي اغريمانت وسيراكوزة كانت ثابتة مستمرة بالرغم من الاصطدامات الحامية المتكررة التي وقعت بين قرطاجة والاغريق في صقلية . فليس من باب الاتفاق والصدفة ان تكون بعض نواحي حضارتها تفاعلت الى حد بعيد ، بالحضارة الهلينية .

ولما كانت الامور على مثل هذا النحو الموصوف ، كنا نتوق لو نرى قرطاجة سكّت لها العملة في وقت مبكر من نشاطها التجاري المحموم . ولكن شيئاً من هذا لم يحصل . والظاهر انها قررت الأخذ بهذا العرف بضغط من الاحداث ، اذ كان عليها ان تدفع مرتبات جيش لجلب من المرتزقة . فمهدت بهذه القضية في بادئ الامر الى مستعمراتها العديدة في صقلية ، وذلك حوالي اواخر القرن الخامس ق.م . وكان لا بد من مرور قرن كامل قبل ظهور القطع الاولى من السكة او العملة القرطاجية ، على انواعها الثلاثة : الشهبان والفضة والذهب . إلا انها سكة خشنة الضرب والصنع . والظاهر انها استعملت في اسواقها عملة يونانية كما تدل على ذلك قطع المسكوكات التي عثر عليها بين الانقاض ، مع انها لم تكن لتفتقر للمعادن الصالحة لسك العملة ، مفضلة استعمال السبائك في المقايضات التجارية تجريباً بين أقوام بدائية ، متخلفة في تطورها .

ولكن التجارة وحركتها النشطة لم تكن وحدها سر ثروة قرطاجة وغناها ، هذه الثروة التي صادفت في جمعها ازمات وصعوبات حادة ، كما يستدل ذلك من الآثار التي عثر عليها في بعض القبور ، خلال القرن الخامس ، مثلاً وان كنا لا نستطيع ان نتبين بوضوح ، طبيعتها وماهيتها لقلة المصادر لدينا . ومع ذلك قالانطباع العام الغالب هو انطباع ازدهار كلي . فالى جانب الموارد الطائلة التي كانت التجارة تدرها عليها ، هنالك مناجم الفضة في اسبانيا التي تمكنت قرطاجة من

استملاكها واستثمارها بعد الانتصارات الحربية التي سجلها القادة العسكريون في تلك البلاد ، اذ عمدوا في البدء للحصول عليها والاستثمار بها عن طريق مقايضة مصنوعاتهم مع سكان البلاد . والى هذا يجب ان نضيف ايضاً رسوم الضرائب التي كانت تجبها بقسوة لا تعرف الشفقة من البلدان والشعوب الواقعة في مدارها وتحت رعايتها . كذلك يجب الا نسقط من حسابنا هنا الزراعة ومرافقها العديدة لا سيما بعد ان بسطت هذه المدينة نفوذها المباشر على جانب كبير من افريقيا الشمالية . وبفضل اليد العاملة المحلية التي كثيراً ما رزحت تحت السخرة والاشغال العامة المرهقة ، عرف القرطاجيون الذين كانوا بحارة جريئين وتجاراً ماهرين ، ان يبلغوا مكاناً مرموقاً بين الشعوب التي نهضت بمرافقة الزراعة الى الارجح في العالم القديم . يجب الا يغرب عن البال قط كيف ان الفينيقيين اقبلوا على استثمار خيرات الارض الواقعة الى ما وراء البلاد التي كانوا يقطنونها . فكيف بذراريهم القرطاجيين في افريقيا حيث خصب التربة كان مضرراً للمثل عند الاقدمين ، بحودة محاصيلها ووفرة خيراتها ، مما حدا بالقدامى من الكتبة والمؤرخين الى التمثل في هذا المجال بذكر ارقام خيالية في معرض حديثهم عن خيرات الارض ووفرة المحصول : فقد بلغ من خصب التربة ، في مقاطعة طرابلس الغرب ، كما يؤكد هيرودوتس ، ٣٠٠ في الواحد . وخير ما تتمثل به الزراعة عند البونيقيين غرس الاشجار المثمرة ، كالدوالي وشجر الزيتون والتين والمان وغير ذلك . وعندهم اخذ الرومان ، في القرن الثاني ق . م ، شجرة التين الافريقي كما نقلوا معها شجرة الرمان سموها : « التفاح البونيقي » . وعندما كان كاطون الاب يعرض على انظار زملائه من اعضاء مجلس الشيوخ اكواز التين الطازجة التي نقلها معه من افريقيا الشمالية ، كان يحرص ان يشدد امامهم بالاكثرة على طزاجة هذه الفاكهة وطراوتها ، مورياً بذلك عن الخطر المدام الذي كان يتهدد روما في استبقائها قرطاجة بعد معركة « زاما » الفاصلة . ومن الجائز طبعاً ، التفكير انه اختار ، عن سابق قصد وتصميم ، هذه الثمار ليعرض امامهم بهذه المدينة التي كانت خصماً عنيداً وعدواً لدوداً لوطنه ، تشديداً منه على هذه المنافسة بين المدينتين المتجليات ، على انها ، بين زراعة الاشجار المثمرة المزدهرة في قرطاجة وبين ما كانت عليه من وضع متواضع في إيطاليا ، دعوة منه لتشجيعها . قامت هذه الزراعة عندهم على اسس ومناهج علمية مدروسة ومتطورة ، اذ كان لقرطاجة مهندسوها وخبرائها الزراعيون الذين عرفوا ان يفيدوا ، الى حد بعيد ، من كتب الزراعة والفلاحة التي وضعها من سبقهم من الكتبة الهلنيين . ولعل اشهر هؤلاء المهندسين واخدهم اسماً وذكرأ القائد « ماغون » الذي وضع موسوعة زراعية بلغ من ذبوع شهرتها ما حل مجلس الشيوخ الروماني على اتخاذ قرار بنقلها الى اللاتينية ، كما تم نقلها فيما نعرف الى اليونانية ، وتولاها كثيرون بالشرح والتعليق والتبسيط . وبقيت هذه الموسوعة طائفة الشهرة طوال العهد القديم ، اذ كثيراً ما رجع اليها علماء الزراعة من الرومان واغترف منها مهندسوهم ، وعولوا عليها في تنقيباتهم وتحقيقاتهم ، امثال كاطون (Caton) بليني (Pliny) . ويستدل من هذه النقول ان القرطاجيين كانوا اقل اهتماماً بالحبوب منهم بالاشجار المثمرة

والخضراوات ، والبقول وتربية الماشية ، والنحالة وغيرها من المرافق الزراعية التي بلغت من العناية والاتقان ما درّ عليهم الارباح الطائلة .

وليس ما يصور لنا النتائج التي بلغتها قرطاجة في هذا المضمار أحسن من الوصف الأخّاذ الذي تركه لنا ذيودورس الصقلي ، وذلك في معرض حديثه عن الحملة العسكرية التي جرّدها اغاتوكليس على افريقيا ، في اواخر القرن الرابع ق.م . فاسمعه يقول : « فقد افترت الأرض فيها : عن الرياض الفيحاء والحدائق الغنّاء والجنان السندسية التي كانت ترفل بكل جنس ونوع من الثمار ، تنساب بينها السواقي وتتخللها الترع المائية حاملة الى الدقاق منها الدفء والثراء . وكانت المنازل الريفية الجميلة تتناثر أمام مرأى العين ومأوى البصر ، على مسافات بعيدة ، ساطعة البياض ، حسنة البناء تحدث عالياً بغنى ساكنيها ونعماء اهلها . اما مغروسات الارض فكانت تتناوح بين الكروم وحقول الزيتون وغير ذلك من الاشجار المثمرة ، تطالعك في جنبات السهول وسفوح التلال ، قطعان البقر والغنم والمعز بينا الريف القصي ، كان ملعباً لقطعان الخيل . وجملة الخبر ، فقد كانت الارض تفيض بالخيرات وتتدفق منها المحاصيل على تباين انواعها ، وقد تقاسم ملكيتها سداة القوم من القرطاجيين واشرافهم يفرغون فيها ايامهم بين اللذائذ والاطياب » . بالطبع لم تكن عينا ذيودورس الصقلي قد اكتشلتنا بمأى ما وصف لنا . فقد اعتمد في نقل ما نقل ، على شهود عيان حدثوا بما رأوا وحيّزوا مشاهداتهم على الوراق . قد يكون احد رفاق اغاتوكليس في حملته المذكورة أخذ بروعة مشاهد لم يسبق له ان وقعت عينه على مثله حول سيراقوزة او في ضاحيتها . هذه صفحة حرية بان تحفظ وتروى ، ويستدعى الاستشهاد بها ادخال بعض تعديلات على النظرية التي استبدت بافهام الناس حيناً فجعلت من قرطاجة مجرد مدينة بحرية ، غرقت في الاعمال التجارية واستسلمت لها بكليتها ، مع ما الصقوه بها من نعوت واوصاف بشعة اعتادت الروايات القديمة المغرضة تردادها .

لما برع التاريخ القديم لقرطاجة في هذا المجال ، حرمة ، فاسترسل التأثير بالحضارة الهلينية وآدابها
الكتبة والمؤرخون ، ومعظمهم اغريق ورومان ، في النهش والثلث . فرموا القرطاجيين بكل فريّة ، وقذفهم بابشع النعوت والاوصاف . فهم كما صورهم لنا ، قراصنة يخفرون بالعهد المقطوع ، تيّاهون ، فياشون ، صلف في سيطرتهم ، أخسّاء في دناءتهم ، قساة القلوب ، خطفة ، مسترسلون في السوء ، متمرغون في الدناءات . تلك هي بعض قسّات الصورة التي تركوها لنا عنهم . من السهل كما هو مضيعة للوقت وقتله في السفاسف ، ان نتلّهي بكشف ما فيها من تجسيم وتضخيم ارادته موجدة بغيضة ، وحقد حقين . سلّموا لهم ببعض الذكاء دون ان يعترفوا لهم ، من جهة اخرى ، باي نزعة نحو اعمال الفكر واللذائذ الادبية . من الصعب لدينا ان لم نقل من المحال ، ان نستطيع ابداء رأي في هذا كله ، لانعدام مقومات الرأي وانقطاع المصادر الاصيلة . فما كتبه القرطاجيون بلغتهم الام وهي اللهجة الفينيقية المحكية

في شمالي افريقيا ، لم يبق سوى بعض نتف مجملها في غاية الاقتضاب والايجاز ، لا تمت الى الادب بصلة . والاثر الادبي البونيقي الوحيد الذي لا يلفه الغموض هو دائرة المعارف الزراعية التي وضعها ماغون . والى هذا ، فاذا استسلمنا للصمت الذي تلتزمه هنا المصادر الاخرى ، تبدى لنا انه لم يخرج من صفوف القرطاجيين اي مفكر او مؤرخ ، او شاعر ، او عالم واحد . فاذا اتفق صدفة ورأى تيرانس (*Térence*) النور على ارض بونيقية ، فقد وجد منذ حدوثه الباكورة في الاسر ، واقتيد عبداً الى روما واستعمل اللاتينية في كتاباته . ومع هذا ، والى هذا كله ، يحدثنا التاريخ عن قيام مكثبات في قرطاجة ، امرت روما بعد ان تمت لها الغلبة عليها وظفرت بها ، بتوزيعها بديداً على ملوك البربر وامرائهم . فقد جوت هذه المكثبات بالطبع مؤلفات اغريقية ، ولكن الى اي حد ؟ وعلى اي قدر ؟ وماذا كانت نسبتها فيها ؟ فالاغريق شغلوا انفسهم بقرطاجة ، فحلت بسيطرتها وسيادتها على الحوض الغربي من البحر المتوسط ، من تفكيرهم في الصميم . فما هو ارسطو يعني نفسه بدرس مؤسساتها والنظم السياسية والاجتماعية التي انتظمت حياة هذه المدينة . وقام بين الاغريق مؤرخون ارخوا ، باستفاضة ، للحروب البونيقية الاولى والثانية ، بما هو في مصلحة قرطاجة وتبين فضلها . كثيرون بين القرطاجيين من جودوا اللغة اليونانية واتخذوا منها يدأ لهم واداة طيبة احسنوا استعمالها في اعمالهم التجارية الواسعة التي رحبت رحابة البحر المتوسط ومشارفه في الغرب والشرق ، واتخذوا من هذه اللغة : لغة كتابة وتعبير واداة تفاهم ، لدرجة حملت السلطات القرطاجية المسؤولية ، ولكن دونما جدوى قط ، على تحريم استعمال اليونانية على رعاياها ، اثر حادث خيانة وطنية ، لا مجال هنا لتفصيله . وقد مر معنا كيف انه نشأت حوادث زواج وإصهار بينهم وبين الاغريق . فقد اظهر الناس اعجابهم في القرن الرابع ق . م ، من قوة بلاغة وفصاحة احد سراق القرطاجيين في سيراقوزة ، كما ان هانيبعل درس اليونانية ، وهو بعد في اسبانيا ، على معلم اسبرطي وضع فيما بعد ، تاريخاً مفصلاً لتلميذه . والطبقات الثرية في قرطاجة وقعت تحت تأثير الهلينية التي عرفت ، قبل الاسكندر بكثير ، ان تغزو المدن الفينيقية وتتغلغل في ثناياها .

ان ما نزل بقرطاجة من خراب مدروس ، ومن دمار مدبر لها ، مخطط
 تآثر قرطاجة بالفن الهليني
 يزكي ما هي عليه معلوماتنا من فقر مدقع حيسال الفن البونيقي .
 ازدانت المدينة ولا شك ، بالأبنية الضخمة ، كما ازدانت شوارعها وساحاتها وميادينها بنصب الآلهة . فلم يبق من هذا كله سوى نتف مبعثرة وحطام شتيت من معالم الفن المعماري عندهم . ولم يسلم من عملية الهدم الجذري سوى أقبية المدافن والقبور ، وعمق بعضها ٢٠ متراً في الارض ، وهو القسم الأهم ، ثم أخذوا يضيفون اليها ، بعد ذلك بكثير ، انشاءات علوية بشكل أضرحة واهرام . وهكذا لا نستطيع ان نتبين ما كان عليه القرطاجيون من الذوق الفني إلا من خلال النقائش والحزفيات والحلى التي عثر عليها المنقبون بين القبور . غير ان دراسة هذه الحاجيات لا تضمننا وجهاً لوجه ، مع فن يمكن وصفه بفن بونيقي أصيل ، اذ ان هذه المكتشفات إما ان

تكون خلواً من كل أهمية فنية أو أنها تعكس، على الغالب، التقليد المباشر للمصنوعات الأجنبية، ان لم تعكس يد صنّاع اغراب تأثروا الى حد بعيد، بالشرق المصري أو الفينيقي الذي اقتبس، هو الآخر من مصر، أكثر من طريقة أو طابع وراح يقلدها في الحين ان الفن اليوناني كان اذ ذاك المؤثر الفني الاكبر في الشرق .

والمصنوعات الحرية بالذكر هنا هي لعمرى من جهة ، هذه الاقنعة المتخذة من الخبز التي تصور لنا أناساً في كسرتهم ، ومن جهة اخرى أغطية نوايس عديدة فرشت بالنقوش المحفورة أو بالرسوم المتنوعة ، عثر عليها في مقبرة القديسة مونيكا . والحال ، لهذه الاقنعة مثيلات كثيرة في هذه الحقبة من الفن الاغريقي المشرقي القديم . اما النقائش فلشهرها النقوش الهلينية التقليد، وهي عبارة عن تماثيل اشخاص منتصبى القامة والقوام ، نحتها ازميل النحات كأنها مضطجعة أو مستلقية على الظهر ، بينما يبرز كاهنان يرسمان حركة سجود ، وامرأة صبية لها وجه صبور رصين كأنها الإلهة ثانيت ، ملتحفة حتى الخصر ، يجناحي بصفور ، وبمسكة باحدى يديها حمامة وبالاخرى بحجرة بخور . فلا يمكن ان نتردد في الحكم امام مرأى هذه الصورة : فالرخام يوناني الاصل ، ويونانية كذلك معالم الطراز والقسامات ، وإغريق النحاتون . فقد اقتصروا على رسم مواقف وعادات ورموز الديانة البونيقية ، سيان لديهم ان يكون النحت تم في داخل البلاد أو جرى بعيداً عنها ، مع العلم انه كان في قرطاجة جالية اغريقية بينها ولا شك، فنانون محترفون . وقد اكتشفوا عند قاعدة نصب في مدينة افسس ، في ايونيا ، على توقيع نحات ينتسب الى « القرطاجيين » . اما اسمه فيوناني الجرس يدعى « بويثوس Boéthos » وكذلك أبوه ، اذ انه يدعى ابولودوروس .

إن تطبع قرطاجة بالطابع الهليني يبرز في مجال الفن أكثر منه في مجالي الفكر والادب . فالقائد الروماني شيبو اميليان ، بادر ، عقب فتحه لقرطاجة ، عام ١٤٦ ق . م ، الى إعادة الآثار الفنية الاغريقية التي سلبها القرطاجيون خلال حروبهم مع المدن اليونانية في صقلية . كذلك حل معه الى روما عدداً كبيراً من التماثيل والانصاب التي كانت تزين المدينة ، ولم يكن ليعنّي نفسه بعادتها الى أصحابها ، وهو العلم الحبير بآثر الاغريق الفنية ، لو لم تكن هلينية الطابع والصنع اقتناها القرطاجيون خلال اتصالاتهم بصقلية والشرق الإيحي الذي كان يخضع ، اذ ذاك ، للوك مقدونين . اما عملية هـلـيـنة المدن الفينيقية فقد كانت قطعاً ، اذ ذاك ، اشواطاً بعيدة واستبد الذوق الاغريقي في النفوس لدرجة يصعب علينا ان نجد أمثلة اوقع في النفس وافعل فيها، على قوة إغراء الحضارة الاغريقية وفرض ذوقها الفني الرفيع على هؤلاء الاقوام الآسيويين، بينما يقف ابناء عمومهم ، في الغرب ، من الاغريق ، موقف المنافسين الأشداء .

ديانة القرطاجيين
ألحق بعض جنود القرطاجيين إساءة بالآلهة في جوار مدينة سيراكوزة فرأى القرطاجيون ، تكفيراً عن ذلك واستعطافاً لها ، حمل إلهة الزراعة عند الاغريق : ديمتير وابنتها ، الى عاصمتهم قرطاجة . فالمرء يأخذ بسهولة طقوساً رسمية ليس لها من صدى كبير يذكر ، باستثناء الاعياد الخاصة بالاله سيريس التي اتسمت بطابع لاتيني ونشطت خلال العهد الروماني وارتدت حيوية ظاهرة . وربما كان تأثير هذه الطقوس الدينية أوقع في نفوس الاقوام الافريقية الاصلية منها في نفوس القرطاجيين انفسهم . ومهما يكن من الأمر فهذه الحالة تؤلف شذوذاً او خروجاً عارضاً ، اذ ان الديانة الهلينية لم يكن لها من التأثير ما يفري الشرقيين بها ويمتدحهم اليها ، فوقفوا عند مظاهرها الخارجية ، ولا سيما ما تعلق منها بتمثيل الآلهة وتحيزها تحت أشكال مادية .

وهكذا نرى ان الديانة البونيقية لم تكن مغلفة على نفسها ، منكفئة على ذاتها ، متفردة للنفوس بتصلبها . فقد جاء بها معبرون فينيقيون ، وبقيت في جميع ادوارها محافظة على فينيقيتها في جوهرها وفي كل مظاهرها الكبرى . وديانة المشاركة من الفينيقيين برهنت ، في اكثر من موقف لها ، عن استعدادها لاقتباس مؤثرات اجنبية تعرف كيف تتمثلها . فقد اخذت من مصر ، وهكذا سار القرطاجيون ونهجوا على منوالها ، فقد نقلت قرطاجة عبادة إلهة جبل إريكس ، في غربي صقلية ورمزت اليها باحدى آلهاتها ، بينما رمز اليه الاغريق بافروديت . كذلك اقتبست ايضاً آلهة قبائل الافريقيين ، تقرباً منها واستمالة لها وتفادياً لغضبها او لنقمتها ، في بقاع سيطر عليها القرطاجيون . من المتعذر ان نتبين الجديد من هذه العناصر المقتبسة لجهلنا التام ما كانت عليه ديانة هذه الاقوام الافريقية .

وسواءً اكانت هذه الاقتباسات الدينية ثابتة فعلاً او مسلماً بها ، مقدرة تقديرأ ، يجب ان نحسب حساباً لما طرأ على هذه العقائد من تطور وتبدل خلال حقبة من الدهر نيفت على ستة قرون . وكم كنا نود لو تسعف المصادر التي بين ايدينا ، فتزيل الغموض العالق بهذا الوضع المعقد والذي زاده الاغريق ثم الرومان تعقيداً وإيهاماً ، بما احلولى لهم ان يتبينوا في آلهة القرطاجيين من وشائج القبس والصفات ؛ الا انها امنية لا تلبث ان تتطاير بدهاً وتنبخر هباءً ، بعد ان تعطلت وسائل البحث امامنا ولم يبق لدينا من اثر لأي اصل او كتاب يجب في عقيدة القرطاجيين ولا في اساطيرهم الدينية . فلا عجب ان يُقصر هذا النقص الفاضح معلوماتنا على اسماء بعض آلهة عرفناها من خلال بعض الرقم والنقاش التي تلازم عدداً من القرايين او من بعض الطقوس الدينية التي تكشفت معالمها لعلماء الآثار . اما جوهر هذه الآلهة ، وطبيعة الايمان بها ، والنظر في مناسك الطقوس الموقوفة عليها ، فكلها مباحث استطال حولها النقاش وسيستمر الجدل حولها طويلاً ، قبل ان تأتينا جبهة بالخبر اليقين .

فالمسميات والاسماء لا تنقصنا ، لا بل هي مربكة لكثرتها بحيث نرى انفسنا ملزمين

للاخذ بأسماء مختلفة لبعض الآلهة والالهات . فلنقتصر منها هنا على الكبار ، تفادياً للسأم وهرباً من الارهاق والإرهاص . واول هذه الارباب، الإله اشمون الذي يسميه الاغريق: اسكلابيوس (Esculapios) دون ان ندرك بالفعل الأسباب الموجبة لهذه التسمية . والمعروف لدى الجميع ان معبده كان قائماً على رأس جبل بيرسا . ثم الإله بعل همون ، أقوى آلهتهم وهو الموازي للإله إيل او بعل ، عند الفينيقيين وهو رب الارباب الذي يشبه في الربوبية الإله زوس عند الاغريق، وجوبيتر عند الرومان ، والذي استمرت عبادته باسم 'زحل' في افريقيا . ويأتي بعد هذه الأسماء ، الإلهة تانيت المعروفة باسم: بينيه بعل ، أي وجه بعل ، ونحن نجعل تماماً الوجه الحقيقي لهذه التسمية ، هذه الزوجة التي كثيراً ما تظهر بعبية بعل همون في الاحتفالات الرسمية ، قد تأتي قبله ذكراً ، وكثيراً ما يُقتصر عليها وحدها في الصلوات والتضرعات وبذلك قتل علينا كأنها الإلهة الأكثر شعبية . اما الرومان فقد تمثلوا باسم جونون ، شقيقة قرطاجة التقليدية وحاميها ، كما عرفت في عهد الامبراطورية الرومانية باسم تشلستيس ، أي المساوية .

من العسير حقاً ان نكون لأنفسنا فكرة صحيحة عما كان الطقوس الدينية ومناسكها المختلفة عليه القرطاجيون من التقوى والتمسك بأهداب الدين . فقد صورهم ، مع ذلك ، في التاريخ القديم بأنهم لم يتورعوا من خداع الآلهة كما لم يتعففوا عن خداع الناس وتضليلهم . كذلك غالى كتبة التاريخ القديم في تصويرهم لهم عبيداً أذلاء يتسكعون لهم في الملأ الشديدة والازمات الخائفة . فهم لا يختلفون في الحوادث المروية المتعارفة عن سوام من الشعوب الاخرى . وكان كبار الكهنة والكاهنات يؤخذون عادة ، من بين الأسر الشريفة ، كما كانت تقام الاحتفالات الدينية الرسمية تحت رعاية الدولة واشرافها . فقد أظهرت مناسبات عديدة ، هانيبعل متمسكاً بجبل الدين ، معتصماً بأهدابه ، مستسلماً للأساطير الدينية . فأت شئنا ان نبدي رأياً في المشاعر والاحاسيس ، والافكار التي جاشت بها نفوسهم : من حب وخوف ، واخلاق وعادات ، وكلها حوافز داخلية للأعمال والسلوك ، أسقط في يدينا ، لانقطاع السبيل وتعدر الاعتماد على الاصول الركينة .

والذي ادهش الاقدمين وحيرهم ، هو استمرار بعض الطقوس الدينية عند القرطاجيين التي رأت فيها النخبة من الاغريق والرومان ، عادة متأخرة ، متخلفة ، وحشية الطابع . فبفضل ديانة الاغريق ، اخذ القرطاجيون بالتشبيه أو تجسيم الصفاتية ، كما ركنوا في مناسكهم ، الى الرموز والتشابه المجازية ، وورثوا اليها بعبادة بعض الحجارة التي ألوهها وكنسوا عنها ببعض الحركات والشارات . فمن عاداتهم المستهجنة: معاشرة البغايا التي رُفِفت للهكيل . ومن بين الطقوس التي كانوا يستسلمون اليها بوحشية تنقرز النفوس لمرآها وتشمئز منها لما يرافقها من موبقات : هذه الذبائح البشرية ، حتى ان بعض الملوك تدخلوا لمحل القرطاجيين على الاقلاع عن هذه العادة

الوحشية ، كملك داربوس الفارسي ، والطاغية السيراغوزي جيلون وغيرهما . كل هذه المساعي ذهبت عبثاً وبقيت العادة سارية بينهم الى عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ، يقيمونها خفية ويقبلون عليها تحت جناح الظلام .

في اوائل القرن الرابع ق . م استولى قائد قرطاجي على مدينة هميرة (Hémire) التي اندحر تحت أسوارها من قبل ، احد أسلافه الذي راح ينتحر بحرق نفسه امام ابوابها ، تخلصاً من عار الهزيمة ، قبل ذلك باحدى وسبعين سنة . فأخذ الفاتح الجديد ، يثار له اذ أمر بقتل ٣٠٠٠ أسير من سكانها . وكان الرومان يقابلون هذه الاعمال الوحشية بأعمال ليست دونها بربرية كحفلات مصارعة الاسود . وكان القرطاجيون يقدمون ، في كل سنة ، احد أبنائهم من الأسر الشريفة ، ذبيحة لاله ملقرت ، شفيح مدينة صور الكبير ، وحامياها . وكانت نفوس الاقدمين تنقبض ملعاً ، كما تنقبض نفوس المحدثين اليوم من تقديم أحد الاطفال ذبيحة للاله بلع هموت ، وهي ذبيحة لم يكن عنها بد في نظر المسؤولين الذين كثيراً ما كانوا يحارلون تجنبها وتفادياها بالتي هي أحسن ، ولا ينفذونها إلا تحت ضغط الدولة والرأي العام ، في حالات الخطر الشديد المهدد لسلامة البلاد . « فقد كان هنالك ، كما يقول ديودورس الصقلي ، تمثال للاله ملقرت من الشبهان ، وقد بسط يديه بالحناء نحو الارض بحيث ينحدر الولد الذبيح رويداً ليهوي في اتون متقدة يرتفع لهيب النار فيها عالياً . ومن اليسير ان نتصور الهلع الذي يأخذ بمجامع القلوب ، بالرجوع الى الوصف الأخاذ الذي تركه لنا فلوبيير في روايته سلمبو (١) .

فاذا كانت هذه الذبيحة البشرية تقتصر على تقديم البكر من الولد كما نجح ان نعتقد ، فقد كانت ترمز عندهم لتكريس بواكير غلال الارض . ولم يخامرنا الشك في صحة هذه العادة والعبادة لما من مجال اماننا الآن لنفيها او لنكرانها ، بعد ان اختلفت الآراء حول تفصيلاتها على اثر الاكتشاف « الاركيولوجي » الاول الذي جاء في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، والحفريات الكاملة التي تمت ، في قرطاجة ، اثر الحرب الكونية الثانية . فقد اظهرت هذه الكشوف الاثرية معالم اقدم هيكل من هياكل قرطاجة على الإطلاق ، على مقربة من مرفأ المدينة . فقد عثروا في زريبة استحالت تلاً لكثرة ما ترام عليها ، بين القرنين الثامن والثاني ، ق . م من عظام الذبائح البشرية والقرايين الحيوانية التي كانوا يستبدلون بها ، في بعض الاحيان . فقد كان يعلو الذبيحة نصب كتب عليه العبارة التالية : « الى الربة ثانيت بينيه بلع ، والى الرب بلع هموت تقدمه من فلان ابن فلان . فلتباركه الآلهة » . ففي كرة ككرتنا الارضية ، حبا عليها الانسان ودب منذ عشرات الألوف من السنين ، قلما يوجد حي للسكن او ناحية في ارباض المدينة يتحفز معه الفكر متأملاً باخلاق الناس وعاداتهم مقدراً التطور الذي قطعته بالنسبة بعضها لبعض .

(١) سلمبو تأليف غوستاف فلوبيير . ترجمة سامي الرياشي ، ٣٥٢ صفحة ، قطع كبير - منشورات عويدات .

الحضارة البونيقية
وسكان البلاد البدائيون
من الطبيعي ان يكون هذا او ذاك من الشعوب التي كانت على تماس
بالحضارة البونيقية وقع تحت تأثيرها المباشر، بعد ان رأى فيها احدى
الحضارات المتكاملة . ولكن عبثاً نحاول ان تتمثل تمثيلاً صحيحاً
كنه هذه الحضارة وعناصرها المقومة . فالقرطاجيون لم يلعبوا يوماً الدور الخلاق الذي لعبه
الاغريق في الشرق من قبل .

لا تزال نجهل الى حد بعيد، طبيعة المدينيات التي طلعت في شبه جزيرة ايبيريا ، لتبين مدى
تأثرها جميعاً بالمدينة القرطاجية وانطباعها بها . فقد ظهر ، وأيم الحق ، هنا وهناك ، لا سيما في
المناطق الساحلية ، نماذج عدة من هذه المدينيات يظهر فيها بوضوح أثر قرطاجة ، كما يتبدى لنا
الأمر من النظر ملياً في بعض الخزفيات التي وصلتنا منها . ولعل أهم هذه الآثار شأنها ، وأبينها
تفاعلاً ، هو هذا التمثال النصفي الذي يعرف : « بسيدة ألخيه *Dame D'Elché* » الذي عثر عليه
بالقرب من مدينة أليكانت . فهو يثير أكثر من سؤال ومعضلة ، لا تزال كلها تنتظر الجواب
والحل ، لدرجة ان البعض أخذ يتشكك بصحته التاريخية .

اما في افريقيا ، فاشعاع المدينة البونيقية جاء بالفعل مخيباً لأضعف الايمان ودون ما نتوقع
له ومنه بكثير . والحال فالليبيون كانوا بدواً واهل ظعن ، يرسفون في وضع متأخر جداً ، ولا تقطع
اتصالاتهم بالحدود القرطاجية ، كما ان القسم الداخلي من البلاد وقع تحت سيطرة قرطاجة وأصبح
من مستعمراتها ، يؤمه التجار القرطاجيون في تنفيق سلعهم دون ان يخشوا بأساً . فقد امدت
الليبيون قرطاجة بالشفيلة كما قدموا لها الكثير من المرتزقة في جيشها ، مما سهل لهذه الأقوام
عملية القبس والنقل ، ولو على نطاق ضيق محدود . وقد حرصت الدبلوماسية القرطاجية من
جھتها ، على تشجيع الاصهار والتزواج بين الطبقات الارستوقراطية او الثرية من كلا الجانبين .
ويكفي دليلاً على ذلك وشاهداً على هذه السياسة ، قصة الاميرة الحسناء سوفونيسبا (*Sophonisbe*) .
وحرص امراء النوميدي على ان يوفروا لأبنائهم تربية عالية في قرطاجة وان يتخلقوا بأخلاق
القرطاجيين ، ويتطبّعوا بطبائعهم ، فنقلوا عنهم الرياش الثمين ، والملابس الفاخرة ، كما أخذوا
عن نسائهم استعمال الطيوب ولبس الخلى والمجوهرات . كذلك استقدموا من قرطاجة مهرة
المهندسين والرسامين ليتولوا الاشراف على بناء منازلهم وتشييد الاضرحة الجميلة ونقشها
وزخرفتها . وهل يحق لنا ، بعد هذا ، الذهاب في عملية الاخذ بأسباب التحضر والتمدن ، الى
ابعد من هذا ؟ فالأيجدية الليبية اشتقت من الايجدية البونيقية ، وفريق من آلهة القرطاجيين
لقيت رواجاً وعباداً لها عند الليبيين ، وأقيمت هنا وهناك ، لاله بعل همون ، وللإلهة تانيت ،
معابد وهياكل وأعياد موسمية . ومع كل هذا ، وبالرغم من كل هذا ، ليس في مقدورنا ان نجزم
ان افريقيا استسامت او تطبعت بطبائع الساميين .

فالقرطاجيون أنفسهم لم يهدفوا يوماً لمثل هذه الغاية . فسكان البلاد البدائيون لم يكونوا

أكثر من سائئة او مادة يمكن استثمارها والاستفادة منها ما أمكن . وقد يكون دار في خلد القرطاجيين ، بعد ان عَبَسَ لهم القدر وقلب لهم ظهر المجن عبر البحار ، ان يحسنوا سيرتهم مع سكان القارة . غير ان الدهر وقف لهم بالمرصاد ، فأخذ الليبيون ينشدون تحت قيادة رشيدة ، وحدثهم الوطنية ، وقامت من طرابلس الغرب الى المغرب الأقصى مملكة واسعة الارجاع تولى مصيرها مسينيسا *Massinissa* .

محاولة مسينيسا وجهوده هو مدين بعمره للخدمة النصوحة التي قدمها لروما في أواخر الحرب البونيقية الثانية . جعل من مدينة سيرا (*Syrta*) (قسنطينة) مقراً لحكمه وادارته . وسار الحظ في ركابه ، فاستولى في هجوم مفاجيء على عاصمة خصمه ومنافسه على السلطة : صفاقس (*Syphax*) ثم اشترأت نفسه الى ما وراء ترسيخ الحضارة البونيقية بين بني قومه وهدف الى ابعاد من هذا بكثير . فقد عرف عن كُثْب هذه الحضارة وتفاعل بها ، وقبس عنها وقيض له ان يستقبل في بلاطه وفوداً قرطاجية . فالصدفة وحدها ، أعجز من ان تبين لنا كيف ان أنصاب القرابين التسعة المؤرخة ، التي عُثر عليها بين القطع الأثرية السبعائة ، في معبد الحفرة (*el-Hofra*) في قسنطينة ، عام ١٩٥٠ ، يتراوح تاريخها ما بين عام ١٦٣ و ١٤٧ ق. م . فلم يقف عند هذا الحد ، فاقبل بالممالك الهلينية ، وقبس منها ما شاء من نغم وخطط ، فأدخل تغييرات جذرية على وضع بلاده الاقتصادي ، فوطّن قبائل البدو الرحل حيث التربة والمناخ تتلاءم وطبائعهم ، وأخذ بأسباب الزراعة فشجّعها ونهض بمرافقها ، وعنى بانتاج الغلال والحبوب ، كما نادى بالاقبال على التحضر والأخذ بأسباب المدنية ، فاستقدم فريقاً من الاغريق قدموا القرابين لآلهته في « الحفرة » . وهكذا استطاع ان يُقْعِد على نظم وطيدة ، نظاماً ملكياً قوياً وادارة رشيدة ، فضرب السكة باسمه وأقام مراسم عبادة ملكية ، ونهج نهج ملوك الاغريق في لبس التاج والصولجان وأنشأ له صلات مباشرة مع حلف ديولوس *Délos* والعالم الايجي حتى ان احد بنيه فاز باكليل الظفر في حفلات البنائينيه (*Panathénées*) .

فقد سار بنشاط ودهاء ، منذ عام ٢٠٣ حتى وفاته عام ١٤٨ وله من العمر اذ ذاك ٩٠ سنة ، على سياسة رشيدة هدف بها الى تحقيق وحدة البلاد وصهرها في بوتقة وطنية واحدة ، بعد ان تم له ما راود خياله من حلم معسول ، وذلك بالاستيلاء على قرطاجة ، المدينة الكبرى ، التي تليق عاصمة للمملكة الطالعة . فقد كان مسعاه لتحقيق هذا البرنامج الضخم سبباً في دمار قرطاجة وزوال امبراطوريتها من الوجود .

زوال قرطاجة
واضمحلال مدنيّتها
فقدت في اعقاب الحرب البونيقية الثانية سيادتها على البحار ، كما فقدت مستعمراتها العديدة ، ومعظم الاقاليم التي كانت تسيطر عليها في القارة الافريقية . فقبعت تجتر محتتها ، مهيضة الجناح ، تابعة من توابع روما ، تعلل النفس بالاستحجام وباسترجاع قوتها بفضل تجارتها المزدهرة وأساطيلها التجارية . وراودها

مسينيسا على نفسها محاولاً حملها على الاستسلام له عن طريق سلسلة من التحرشات والتعديات والتجاوزات المتكررة ، على أملاكها تارةً ، وطوراً عن طريق التهديد والوعيد . كل هذا وروما من ورائه تشد منه الازر وتغض النظر عن مضايقاته ، وربما شجعت سرّاً على التادي في العدوان ، والفَتّ من عضد هذه المدينة التي طالما أفلقت مضاجعها وراحتها ، وكادت توردها مورد الهلكة ، فلا بأس من ان تزيدما وهناً على وهن وضعفاً على ضعف . وعندما تبينت روما اللعبة التي كان يلعبها هذا الملك النوميدي ، وبأن لها الخطر الذي تتعرض له فيما لو تحققت أحلامه ونجحت محاولاته في بسط سيطرته على قرطاجة بعد الاستيلاء عليها ، راحت ، بدافع من روح البغض والضغن الذي تحمله لها بين الضلوع ، تبنت لها الشر وتعد لها العدة للقضاء عليها وذلك معالمها الى الحضيض . فلم تنثن عن عزمها ولم تحولها عن مقاصدها الشريرة لا دناءة الوسائل الدبلوماسية التي حركتها او اتخذتها ، ولا المقاومة البائسة العنيدة التي لقيتها من خصمها اللدود والبطولة التي تجلّت عبثاً واستمرت ثلاث سنوات ، باستمرار الحصار الذي نصبته روما حولها . وفي ربيع عام ١٤٦ انتهى كل شيء خلال الهجوم العنيف الذي شنته عليها ، بعد ان راح آخر المدافعين عنها يهودون بأرواحهم رخيصة في سبيل انقاذ عاصمتهم ، وقد استسلم قائدهم بينا راحت زوجته تطرح نفسها بشمم ، بين الحرائق التي شبت في معبد اشمون . ففي الحين الذي كنا نرى فيه شيبو اميليان ينتحب امام صديقه بوليب (Polybe) ويتصور أسمى والتياحاً امام السرعة التي تفاق زوال العظمة البشرية ، راح ينفذ الأوامر التي صدرت اليه لك معالم المدينة ، رأساً على عقب ، كما أخذ يبيع الأسرى من سكان قرطاجة البائسين في أسواق الرق والعبودية .

وراحت روما تضم الى ممتلكاتها المقاطعات التي خضعت طويلاً لسيطرة قرطاجة لتؤلف منها ولايتها الافريقية . واغتنمت مناسبة وفاة مسينيسا (١٤٧) فراحت تمزق اوصال الوحدة الوطنية التي تمكن من تحقيقها ، وهكذا تمكنت قبل نهاية القرن الثاني ، من ان تقضي على كل محاولة لمقاولة سيطرتها ، اذ استطاعت ان تذل حفيده يوغورطه وتجعله يخضع لنفوذها . وما ان جاء عهد يوليوس قيصر حتى أخذت توسع من حدودها في الغرب بضم ولاية موريتانيا اليها عام ٤٠ بعد الميلاد ، بعد ان بسطت ، منذ عهد بعيد ، حمايتها على كل شمالي افريقيا ، بحيث لم يعد في مقدور احد ان يحاول من جديد تحقيق الأهداف التي وضعها مسينيسا نصب عينيه لاقامة وحدة البلاد الوطنية . وهكذا لم تقض روما في افريقيا ، على مراهق تمثل في هذه الحضارة الفينيقية فحسب ، بل ايضاً خنقت في المهد جنيناً لم يكن في مقدورنا ان نتصور ، لو قدر له ان يحيا ويعيش ، المدينة الجديدة التي ستطلع على يده ، هي المدينة البربرية .

قليلة جداً هذه الحضارات التي طلعت علينا قديماً فتركت بعدها مثل هذا التراث المتواضع الذي تركته المدينة القرطاجية . فهدم قرطاجة ، والتكالب على نسخ تاريخها ومسحه ، وازدراء حضارتها والانتقاص من قيمتها ، كل هذه الاعذار لم تكن لتبرر العبث بكل ما من شأنه ان يحدثنا عنها ويؤثر على تفكيرنا ويزيده نوراً وادراكاً . فالأمثلة لا تعد ، على المتناقضات التي أتاها الرومان .

ولكن في الوقت الذي كانت فيه قرطاجة آخذة في الأفول والغروب عن الوجود ، كانت الحضارة الهلينية تتغلغل في روما وتغطي في جميع جنباتها . فقد ضاقت ذرعاً بهذا الوسيط النخيل وعزمت على تصفيته . والظاهر أنها لم تقتبس منه سوى النزر النزر الذي يتمثل على الأخص ، ببعض الفنون وبعض المهارات الزراعية . ومن بين الذين قولوا ترجمة دائرة المعارف الزراعية التي وضعها ماغون ، عضو من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني . وليس في هذا الذي تتمثل به هنا شاهد كاف للتدليل على انتشار اللغة البونيقية ، فلم يبق من تراثها شيء يذكر . ربما كانت الديانة القرطاجية ، بقطع النظر عن ذبائح الأطفال التي مارسها ، عاملاً كافياً لتحريك النفوس واجتذابها . ولكن أنى لروما ، إذ ذاك ، ان تتذوق سحر العبادات الشرقية وهي بعد على سجيئها الفطرية ؟ فلعل زوال قرطاجة واندثارها جاء قبل أوانها ، قبل ان تخلف شيئاً يبقى بعد القضاء عليها .

ولكن ما عسى ان يكون من الامر في افريقيا ؟ امتاز موقع المدينة الجغرافي الذي طالما انهالت عليه لعنات الرومان وتناولوها بسببه الموت الزؤام ، بفوائد كبيرة لقيامه على البحر منفذاً يحمل إليها خيرات السهول الخصبة في الداخل بحيث لم يكن لبقى خاوياً من الناس . فنذ عام ١٢٢ ق. م ، حاول غراكوس (Gracchus) ورفاقه ان يلبثوا عليه مستعمرة رومانية ، فلم يكتب لمحاولتهم النجاح . ثم جاء قيصر وأعاد الكرة من جديد فنجحت المحاولة بعد ان طواه الموت ، وعادت قرطاجة الى الوجود من جديد ، مدينة لم تلبث ان أصبحت ليس أهم مدائن افريقيا الشمالية فحسب ، بل من أهم مدن الامبراطورية الرومانية ، ازدهرت فيها التجارة ونشطت فيها حركة الاعمال ، إلا أنها كانت عطلاً من كل سمة او طابع بونيقي ، باستثناء استمرار عبادة بعض الآلهة أمثال زحل وجوون شلستيس بعد ان تكلستت عبادتها . اما ما تبقى من اقطار افريقيا فلا يبدو انها حافظت على أي ذكر حي للفيلقيين في الغرب ، صحيح ان هيكل «الحفرة» لبث مدة غير محدودة ، يستقبل وفود الحجاج وتقادمهم ، منها بعض القرابين نقشت أسماء أصحابها باللسان اللاتيني وآخر وثيقة خطت بالحرف البونيقي يعود عهدها للقرن الاول للميلاد . اما اللهجة التي دعاها القديس اغسطينوس : « بونيقية » انما كانت اللهجة الليبية التي استمر التكلم بها في المناطق الريفية ، ام اللهجة البربرية المحكية اليوم .

وهذه النسبة البعيدة هي من باب الرمز او المجاز ليس إلا . فعندما فتح العرب افريقيا في القرن السابع للميلاد ، لم يجدوا فيها أي أثر لآخوة ساميين سبقوا الى الفتح وبسطوا سيطرتهم عليها قبل قدومهم بألف وخمسة سنة ، بعد أن غادروا مدينة صور وأنشأوا لهم عليها حضارة ، انهال عليها من اللعنات وعوامل الحق ما يحمل عملية استحضارها اليوم امرأ عسيراً . فالحضارة البدائية المتواضعة التي خلفها وبراءهم الليبيون الرعاة عرفت ان تنال صروف الدهر وتقلبات التاريخ بأحسن مما غالبتها الحضارة القرطاجية . ولكن ، يجب ألا ننسى اننا نجعل عملياً هذه الحضارة أكثر مما نجعل المدينة النوميديّة الأخرى .

الفصل الثالث

الغاليون

بعد ان استعرضنا لتاريخ الاتروسك والقرطاجيين، بين شعوب الغرب التي غلبها الرومان على امرها ، علينا ان نتناول بالبحث هنا الغاليين الذين أصارتهم الاقدار الى ما اصارت إليه من تقدم ذكرهم من هذه الشعوب ، في وقت أخذوا بأسباب التدرج وتبدأ، في معارج التقدم وال عمران . غير ان تأخر وقوع هذا المصير المائل من شأنه ان يلقي ضوءاً على تاريخ الفتح الروماني وانبساط السيطرة الرومانية ، وان بدا عديم الفائدة « لتاريخ الحضارات العام » . ولذا كانت في الوسع صرف النظر عنه والسكوت عليه في هذه الكلمة التمهيدية لولم يتميز ، من جهة اخرى ، تاريخه بمفارقات لها شأنها الاكبر .

فإذا كانت المدينتان الاتروسكية والبونيقية زالتا من الوجود بعد ان كان يوسعها ان يسيرا في معارج التطور لو قبض لها البقاء والاستمرار في الحياة ، فقد تمت لكل منها الظروف الملائمة لبلوغها النضج المرتقى . اما المدنية الغالية نفسها ، فلم يتم لها المدى الزمني الذي لا بد منه للبروز والتفتح . فاذا ما نظرنا الى هذه المدنية نظرة بمجلة برزت لنا وكأنها مدنية بالقوة او بالقدرة . فقد كانت برزت الى الوجود في بعض نشاطاتها العامة ، فاذا بالغزو من الخارج والفتح يصدمانها فجأة وترى نفسها امام حضارة أكفأ وأحوى ، تطبق عليها وتخنقها ، لما لها من طاقات وامكانيات عسكرية وحضارية لن تلبث ان غمرتها واستبدت بالبلاد وفرضت نفسها دون ان تلقى مقاومة تذكر - أقله من الوجهة الحضارية . فما عساها ان تكون اعطت وأتامت ، لو لم يعبس لها الغد الطالع ، واستطاعت ان تسير سيرها الطبيعي وتندرج نحو التكامل الذاتي ؟ فعلى المؤرخ ان يكون حذراً في رسم المنحنى البياني الذي كادت ترسمه الاحداث والوقائع ، ابتداءً من نقطة الانطلاق .

أصبحت المدنية الغالية بضربة مميتة فأصمتها وقضت عليها ، بعد لأي من الزمن جاء في الوقت ذاته متأخراً وسابقاً للزمن الذي تم فيه القضاء على هذه المدينيات الغربية وغيرها مما عاصرها او عايشها . قلنا « متأخراً » بالنسبة للتوقيت الزمني المطلق ، و « سابقاً » بالنسبة لبلوغ هذه

المدنية مرحلة التطور المتكامل ، منها اختلفت مراحل تطورها وتباينت وتباطأ تفتحها وبرزها . وما يزيد عامل الزمن تعقيداً على تعقيد الغموض الذي نلاحظه على طبيعة معلوماتنا وأصلها ، وهي معلومات سوادها الاعظم من أصل يوناني او روماني ، ولذا فهي لا تتعرض للغالين الا بنسبة ما أثاروا من فضول الاغريق والرومان الذين لم يكتفوا لهم إلا في زمن متأخر جداً ، وبصورة غير مباشرة ، ومنقطعة جداً ، بعكس الاتروسك والقرطاجيين . إلا ان هذه الحقبة من تاريخ الغالين التي تضطرب حولها مصادرنا التاريخية فتبدو في فراغ ، قد يكون في مقدور الاركيولوجيا وعلم الآثار استدراك هذه النقص وسد الثغرة ولو جزئياً ، بعد ان استطاعت ملء هذا الفراغ في مناسبات وظروف عارضة أخرى ، اذ ان هذا العلم لا يستحضر ابدأ مدنيات من مستوى واحد في ما لها من مميزات مادية وأدبية . فالوقائع تؤيد هذا القياس النظري وتمنع الشك حول نقطة الانطلاق .

ومع ذلك ، فلا يظن احد اننا امام وضع أشبه ما يكون بالتوحش او البربرية بالمعنى الحديث لهذه اللفظة ، يحول ، بما له من تكثف وخشونة ، دون كل تفتح او ازدهار مبكر . قالغاليون تنموا في هذه البقعة من الارض التي عاشوا عليها ، وبين هذه المجتمعات البشرية التي جاورتهم بوضع اجتماعي يكاد يكون متميزاً . هنالك لعمرى ، في الغرب ، شعوب أخرى ، عرفت بتأخرها ، منها مثلاً ، شعوب الجزيرة الايبيرية التي وقعت تحت سيطرة روما ، في زمن اسبق ، فلم تتمكن مع ذلك ، من ان ترتفع معه الى المستوى الذي تستحيل معه المدنية حضارة . وهنالك ، من جهة ثانية ، شعوب أخرى : فالشعوب الواقعة في قلب اوروبا الوسطى مثلاً ، لم يسعها بقاؤها مستقلة وصمودها في وجه الفتح الروماني ، بلوغ هذا المستوى إلا بعد انتهاء حقبة التاريخ القديم . من الصعب على المؤرخ ، كما سيتضح لنا ، ان يتبين الوشائج التي كانت تشد ، بعضاً الى بعض ، قبائل الغالين ، وهي وشائج كانت على كل حال أمتن واثق من التي تقوم عادة بين الجيران . فان يكن توفر لهم من الوقت أكثر مما توفر لشعوب شبه الجزيرة الايبيرية وأقوامها ، فقد كان نصيبهم منه ، مع ذلك ، أقل بكثير من نصيب الشعوب الجرمانية .

فهما بدت هذه الملاحظات عامة ، لا تتعدى المظهر الخارجي ، فهي توحى ، مع ذلك ، بأن بلوغ شعب ما مستوى حضارياً ، لا يتوقف بالضرورة ، على الزمن ولا على استعداد الخلق . فالأمر يتوقف بالاحرى ، على عوامل أخرى متعددة ، كثيراً ما يعجز الانسان عن ان يتبين تفاعلاتها المشتركة . والدور الذي يلعبه كل من هذه العوامل التي لا تحصى : كالموارد الطبيعية ، والاتصالات الخارجية ، والظروف المؤاتية ، والنشاطات المتوفرة ، والحوافز الروحية التي يحيش بها الانسان ، وكلها عوامل تهيئ الانتفاع من الظروف القائمة والوضع المتحيز القائم . فمن كان عرضة للأخذ بالأحكام والتأكيدات المطلقة ، صدمه واقع المدنية الغالية والفي فيه

أكثر من عظة بالغة ، اذ ان الغموض الذي يكتنف مولد هذا الشعب وبروزه ، يزداد كثافة امام سر فشل الكفاءات الكامنة فيه والقدرات الخبوءة التي توفرت له .

١ - الكلتيون

الغموض الذي يكتنف
نشأة هذا الشعب

أغاليون هم ؟ فالمصطلح الذي وصلنا بالتقليد المتواتر يفتقر للدقة . ففي مطلع الفتح الروماني ، أطلق يوليوس قيصر هذه التسمية على فريق من سكان غاليا المستقلة ، احتل رقعة من الارض تقع بين نهري السين والمارن ، من جهة ، وبين الفارون والرون ، من جهة أخرى . فاسمعه يقول : « هؤلاء الاقوام يُدعون كلتيين بلغتهم ، اما نحن فقد عرفناهم باسم غاليين » . ومع ذلك لم يمنع هذا التمييز الظاهر الرومان من ان يسموا « غاليا *Gaulle* » مدلولاً أوسع وأشمل ، تنويعاً منهم بقربى الأصل والأرومة التي عرفوا ان يقينوا خيوطها الدقيقة ، بين هذه الاقوام المسيطرة على تلك البلاد ، فتوسعوا بإطلاق اللفظ ليشمل ، على السواء ، سكان ما وقع وراء جبال الألب بمن حدهم جبال البرانس والمحيط الاطلسي ونهر الرين ، فعرفت مقاطعتهم بـ (*Caule Transalpine*) او ما وقع قبل هذه الجبال ، الى الشمال من ايطاليا ، وهي المقاطعة المعروفة بـ *Caule Cisalpine* . اما الاغريق فقد استعملوا في التعريف بهم كلمة : كلتيون ، ثم كلمة : « غالاط » *Galates* في العهد الهليني الحديث ، تعبيراً منهم عن شعوب وأقوام سكنت مناطق أخرى تمتد من شبه الجزيرة الايبيرية حتى واسط آسيا الصغرى . فاذا ما اعتمدنا على هذه المعلومات المتقطعة والمصدرة التي توفرها لنا ، لماماً ، المصادر الادبية القديمة المشوشة ، لنكون لنا فكرة تقريبية حول أصل هذه الشعوب ، وحول تاريخهم القديم ، لأسقط في ايدينا . فمن حسن الحظ ان يتمكن علماء اللغة من مدِّنا بمعلومات اوثق وأمتن ، ولو افتقرت لما يفرض الاخذ بالرواية التاريخية . فالتنظريات الواسعة الشمول لا تنقصنا ، لا سيما تلك التي تقول بطولوع « امبراطورية ليغورية » بسطت سيطرتها على شمالي اوروبا وغربها ، والتي قال بها وعلم علماء اعلام ، مع اننا لا نجد اليوم من يدافع عنها .

اوروبا الغربية
ومدنيات عصر الشبهان

الغموض يكتنف الادوار الاولى لهذا الطور الذي يمتد تقريباً طوال الالف الثاني ق. م ، في اوروبا الغربية ، وهو طور لم تتحقق فيه قط وحدة المدنية . فالمدنيات القديمة التي تميزت عمارتها بضخامة الحجارة ، أمثال الثمائل (*Dolmens*) ، والوجوم (*Menhirs*) ، والجادات المملطة ، او تلك التي تكونت مبانيها وعمائرهما من أكواخ وقرى ارتفعت على مئذير ركزت في قعر البحيرات والغدران ، عمرت وعاشت بل اتسعت لديها وسائل القبس والتمثل . فالمدنيات التي قامت في جوتلاند والمانيا الشمالية اخذت تمتد وتوسع من غربي فرنسا حتى الهضبة الوسطى (*Massif Central*)

وادي نهر الرون . اما التي قامت منها في سويسرا فالتجهت في توسعها ، الى الشمال ، في مقاطعة بورغونيا وادي نهر الزين حتى شارفت نهر الماين . وتبرز في الوقت ذاته مدينت أخرى ، منها المدنية ذات القبور المخروطية الشكل (*Tumuli*) حيث كانت جثث الموتى توارى تحت أكوام من التراب والحجارة . ظهر هذا الطراز من المدنية في المانيا الجنوبية الغربية ومنها امتدت غرباً لتسيطر على ما وقع من بقاع بين نهري اللوار والسين . وفي أخريات الطور الشبهاني او (البرونزي) ونهاية الالف الثاني ق . م ، تطلع علينا ، ممتدة من جنوبي المانيا ، عبر مقاطعات ستيريا *Styrie* ، وكارنتيا *Carinthie* لتسير غرباً عبر مقاطعة بوربونيه *Bourbonnais* حتى حدود كتلونيا في الجنوب ، مدينة جديدة عرفت بمدينية (*Urnenfelder*) (او مقابر الاجران) والجرار ، فأدخلت استعمال حرق اجسام الموتى ، وألشأت لها مدافن قبورها مسطحة .

وهكذا نتخفي من الانظار ، خلال العصر الشبهاني ، هذه الانعزالية الجغرافية التي طبعت مدينت العصر الحجري الجديد . فقد ازدادت ، ولا شك ، الاتصالات الجماهيرية كما برزت العقائد الدينية وبعض المهارات اليدوية . إلا أننا نجعل تماماً المدلول التاريخي لظهور هذه المدينت ومدى انتشارها . فالخاطر يتجه بالطبع ، نحو هذه الموجات والتحركات الشعبية . وانتقالها جملةً من منطقة الى أخرى ، لضيق الرزق او لضيق الشقة . غير ان قيام عدة مدينت متعاصرة ، متباعدة السمات بعضها مع بعض يزيد تعقيداً الفرضيات التي نستعين بها اعتباطاً وبصورة تحككية لتأييد هذا الرأي . فالطقوس الدينية التي يسيرون عليها في دفن الموتى ، وزخارف الخزفيات ونقوش الادوات المعدنية التي توصل الانسان الى صنعها ، كل هذه العادات وغيرها كثير ، يمكن ان تلتقل ويشيع استعمالها عن طريق اتصالات عادية يومية . فدخل هذه الاعراف بين الناس وانتشارها عندهم لا يعني حتماً الغزو وحلول شعب محل شعب آخر وإخضاعه لسيطرته ، حتى في الظروف والحالات الاكثر ملاءمة لشيوع عادة الجرار والاجاجين التي يتفق عهد استعمالها مع عهد هذه الاقوام الغازية التي اخترقت المانيا وفرنسا ، بحيث يبقى الغموض يكتنف كل شيء يتصل بالملشأ الجغرافي وتوارثها عن المسرح . صحيح ان علماء اللغة استطاعوا ان يقينوا في أسماء الامكنة والانهر جذوراً شاع استعمالها وامتد طويلاً ، إلا ان الامثلة المستمدة منها لا تؤلف دليلاً قاطعاً لتعذر ردها الى مدينت لا يمكن تحديدها وتصنيفها بدقة . اما الانثروبولوجيا او علم السلالات البشرية ، فهي ، ولا شك ، امام نماذج بشرية متميزة كما أنها تطالعنا كذلك بنماذج بشرية هجين المنحدرة من عصور قديمة متطاولة العهد .

تبرز سمات هذه المدينت بوضوح وجلاء مع طلوع الالف الاول مدينت ما قبل التاريخ
ق . م ، وظهور استعمال الحديد . ولعل أقدم مناجم الحديد التي
استثمرها الانسان منذ القدم هي مناجم النمسا العليا ، هذه المنطقة
التي قد تكون تفاعلت ببعض العوامل المؤثرة التي جاءت من دنيا البحر المتوسط ، عن طريق

مقاطعة إيليريا (*Illyrie*) . ومهما يكن من الامر ، فأقدم مدينة عاجلت الحديد وتدبرته في مصنوعاتهما، هي المدينة المعروفة باسم هلشتات (*Hullstatt*) ، من اسم بقعة تقع على مقربة من مدينة سالزبورغ اليوم والتي استطاع العلماء ان يدرسوا معالمها درساً دقيقاً . وقد نشأت هذه المدينة بين ٩٠٠ - ٨٠٠ ق . م ، وانتشرت فوق منطقة واسعة اشاعت فيها ما استقرت عليه من مراسم دفن الموتى في (*Tumuli*) او حرق جثثهم ، كما استنبطت في تسليحها أداة هي أمضى ما عرفت من مادة السلاح ، وهي عبارة عن سيف مشحوذ ، يحدد الرأس . معالم هذه المدينة تبرز بوضوح وجلاء في ما تبدى منها في وادي الدانوب الوسيط وفي مقاطعة البوسنة . وقد بلغت في انتشارها، من ناحية أخرى ، مقاطعات المانيا الجنوبية والغربية ودخلت الى جنوبي انكلترا وشمال فرنسا وشرقيها ، متجهة الى الجنوب لتبلغ منها ضواحي تولوز وسهول شبه الجزيرة الايبيرية . وتبلغ الأوج في سيطرتها على هذه الاقاليم حوالي منتصف القرن الخامس ق . م .

هذه النجاحات التي حققها ، ليس بين المعالم التي كشفت عنها الاركيولوجيا ما يشير الى ان انها تمت بالعنف والفتح وسفك الدماء وما الى الحروب من خراب ودمار . فقد تحقق كل ذلك بفضل هجرات الاقوام البشرية ، على موجات بطيئة متلاحقة ، سيرا منها مع اتجاه الانهر مستقبلية معها الانشاءات والاعراف التي سبقت وصولها للبلاد والتي لم تخضع إلا لتمثل بطيء ، إلا انه مستمر .

سارت الامور ولا شك ، على مثل هذا المتوال ، أقله في بدء الامر من هذه المدينة التي ما لبثت ان حلت محل مدينة هولشتات منذ اواخر القرن الخامس . ق . م . وقد عرفت هذه المدينة الجديدة باسم (*La Tène*) وهو موضع في سويسرا ، يقع في الطرف الشمالي من بحيرة نيوشاتيل يجمع خير سماتها ومعالمها الاصلية . فلم تلبث ان حلت تدريجياً محل المدينة السابقة ، وسيطرت على المجال ذاته الذي ازدهرت فيه سابقتها، فاستبدلت منها باكراً ، السيف بالخنجر المدبب وعولت عليه أداة أولى في الحرب، كما استبدلت تدريجياً نظام دفن موتاهما باستعمال القبور المحفورة في الارض بمدافن تلال التراب . اما الحلى وادوات الزينة التي اقبل عليها الناس، والاغراض المنزلية التي جروا على استعمالها فهي أكرم مادة وأغنى ، بينها المصنوعات المتخذة مادتها من المينا والمرجان ، كما انها اقتبست أشياء أخرى من الخارج جيء بها من بعيد . واخذت بأسباب التطور والسير مع التكامل التقني والتنويع الفني في مراحلها المختلفة ، الى ان بدأت تميل الى الانحطاط والزوال في « غاليا » في نهاية مرحلتها الثالثة والاخيرة ، عندما وجدت نفسها وجهاً لوجه مع المدينة الرومانية التي استبدت بتلك البلاد مع الفتح .

والفارق الكبير بالنسبة للألف الثاني قبل الميلاد ، في نظر المؤرخ ، هو قدرته على الكلتيوت ان يربط بصورة اوثق بين المعطيات الاثرية وغيرها من معالم هذه المدينة . فالمؤرخ اليوناني هيرودوتس الذي وضع تاريخه في اواسط القرن الخامس ق . م ، استعان ، عندما اراد

ان يؤرخ لهذه البلدان، بالمعلومات التي اقتبسها من تقدمه من المؤرخين ، في القرون السابقة . ففي معرض حديثه عن شبه الجزيرة الايبيرية ، يأتي على ذكر الكلتيين « ملاصقين آخر شعوب اوربا في الغرب » . ففي الحين الذي يبدو له ان الدانوب ينبع من بلادهم ، فهو يتصوره منحدرأ من مقاطعة الروستون في جنوبي غربي غاليا . وهذا الوهم يقع فيه ابو التاريخ لا يذهب بتأكيده المزدوج بأن نهر الدانوب ينبع من المقاطعة الكلتية ومن عند الكلتيين ، وقد صرح به قبل زوال مدينة الهولشتات ، من اسبانيا والبرتغال . جاء بعض المؤرخين على ذكر الكلتيين او البروتوكلتيين *Proto-celtes* في العهد الشباني ، وانهم قاموا بهجرات واسعة نحو الغرب . فاذا أبينا مجاراتهم في هذا القول بدافع من التحفظ ، ولم نسلم بوجود أي تشابه بين اقوام المدينة الهولشتاتية والكلتيين في الغرب ، فلا بد من ان نسلم بأن هؤلاء اخذوا مع غيرهم من معاصريهم ، بأسباب هذه المدينة وساعدوا ، من خلال تنقلاتهم وهجراتهم ، على نشرها في الاقطار التي أهلوها ، اذ الى هذا العهد ترجع عادة لبس القلائد المفتوحة (*Le Torques*) التي عثر على بعضها في مدافنهم ، وهي عقود كان لبسها من مميزات الكلتيين الفارقة على شكل سلاسل من الذهب او الشبانات المقتول وتنتهي أطرافها بكتلة مستديرة . اما مدينة *La Tène* فلا يجوز التشكك حول نسبتها أصلاً ، فهي كلتية في صميمها . واذا اردنا لها تعريفاً أدق ، فلا بأس من ان نعتبها بأنها ارفع واتم طراز لمدينة الكلتيين في اوربا الغربية .

وهذه التسمية لا يمكن ردها على الاطلاق الى واقع اثوغرافي . فقد أبرز لنا كتبة العهد القديم وقنائه الصورة الكلاسيكية للانسان الكلتي او الغالي ، اذ صوروه لنا فارع القامة ، شديد البأس ، ازرق العين ، امغر الشعر أشقره . يتخلل هذا الوصف كثير من التقليد الموروث والتعميم المفرط لعرق بشري سيطر ردها من الدهر . فلم نعد لنرى ، منذ بدء الالف الاول ق . م ، في اي مكان او رقعة على الارض ، عرقاً بشرياً خالص الجوهر والاصل على اطلاق المعنى الطبيعي لهذه الكلمة . فالكلتيون ، كغيرهم من العروق البشرية الاخرى ، في أي منطقة حلوها ، تازجوا على درجات مختلفة ، مع سكان البلاد الاصليين الذين تهجنوا هم ايضاً وتخالطت عروقهم . وقد تكون الطبقة الارستوقراطية عندها استطاعت ان تحافظ على عرقها الصافي ، وعرفت ان تتفادى التلقيح من الخارج . فاذا صحت هذه الفرضية أمكن رد هذه الطبقة الى جذورها الاولى التي جاءت من الشمال وربطتها بشعوب أخرى . والحق يقال ، فالطابع الذي طبع هذه المدينة ببطء أو اضعف عليها هذه الفروق المشتركة ، هو الذي ميّز هذه المدينة وفرداها عن مدنات الشعوب الاخرى ، كالجermanيين مثلاً او غيرها من الشعوب التي توصلت الى احتلال شبه جزيرة سكندينايفيا والمانيا الشمالية ، مع العلم انه قام بين جميع هذه المدنات المتنوعة اتصالات واسعة .

ولعل خير ما يساعدنا عملياً على توضيح كلمة « كلتيين » هو علم اللغة او الفيلولوجيا ، ولكن بشيء من الصعوبة مع ذلك ، لخلو الامثلة العديدة التي يمدنا بها التاريخ القديم ، من الدقة والضبط .

فعل اللغة يضع تحت تصرفنا أسماء اعلام لمسميات بشرية وجغرافية ، وبعض اللهجات المصرية معظمها من جذر كلتي لا يزال معمولاً بها للآن ، منها مثلاً اللهجة الغالية التي يدرج استعمالها حالياً في كل من إيرلندا وإيكوسيا . ومنها كذلك اللهجة البريطانية التي عاشت ولا تزال حية في بلاد الغال (انكلترا) ومنها انتقلت الى مقاطعة بريتانيا الفرنسية ، على يد جماعة نزحوا اليها من مقاطعة كورنواي " Cornouailles " في انكلترا الجنوبية الغربية ، خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد ، امام غزوات الجرمانيين وضغطهم المتزايد . ولا يزال نجد انفسنا عاجزين عن تفهم الوثائق المكتوبة باللهجة الوحيدة الحية بين اللهجات الكلتيّة ، وهي اللهجة الغالية التي عثر علماء الآثار منها على بعض نصوص وجيزة بقيت محفوظة ليومنا هذا . وعلى الرغم من هذا ، توصل العلماء الى نتائج عامة ثابتة لها قيمتها الكبرى في هذا المجال .

وقد جاء علم اللغة بالدليل القاطع على ان اللغة الكلتيّة ترجع اصولها الى فئة اللغات الهند الاوروبية ، بينها وبين اللغة الجرمانية اواصر قريبة ، كما يقوم بينها وبين اللغة الايطالية وشائج وثيقة . وقد يكون مع ذلك ، الامر واحداً في اللغة الكلتيّة كما هو في اللغتين الجرمانية والايطالية من حيث التطور . فتكوين هاتين اللغتين يشهد عليه قيام لهجات اشتقت منها لم تلبث ان تباعدت عنها وتباينت معها ، مع ما بينها في الأصل من اواصر القربى . وليس من المستبعد قط ان تكون وحدة اللغة الكلتيّة الاصلية قد ادت ، منذ عهد مبكر ، الى ظهور لهجات خاصة لا تزال عاجزين عن تبيانها وتعيين حدودها .

ومن جهة أخرى ، ساعدت دراسة أسماء الامكنة والانهر والجبال ، علماء اللغة ، على تحقيق اكتشافات يشهد معظمها بشكل ينتفى معه الشك ، على سيطرة الجذر الكلتي ، في المانيا الغربية في منطقة تتناوح بين نهري الرين والدانوب . فلنأخذ على ذلك مثلاً واحداً هو ان جميع روافد نهر الرين ، من جهة اليمين : كالنكار Neckar والليب Lippe هي أسماء كلتيّة الجذر . ولذا كان بوسعنا الجزم ، دون تحرج ، بأن هذه المنطقة بالذات ، لم تكن موطن الكلتيين الاصيلي ، فهي الرقعة التي بلغت فيها اقوام الكلتيين ، ولمدة طويلة ، أعلى معدل من الكثافة ، كما تمثلوا أكبر قدر من سكان البلاد الاصيليين .

جاء هذا الشعب بالدليل على انه كان خلال بضع مئات من السنين ، أي قبيل امتداد الكلتيين منتصف الالف الاول وبعيده ، من أكثر الشعوب انتشاراً وانبساطاً . فبين موجات الهند الاوروبيين ، باتجاه الشرق ، في الالف الثاني قبل الميلاد من جهة ، وبين غزوات البرابرة ابتداءً من مطلع القرن الثالث للميلاد ، كانت موجات الكلتيين من أبرز الاحداث البشرية في هذا المجال ، ادت الى نتائج تاريخية غاية في الاهمية ، وان فائقنا معرفة الكثير منها لعدم توفر المعلومات الخاصة بالوضع السائد قبل وقوعها . فقد جرّت على بعض المناطق تبديلات جذرية ، من حيث طبيعة السكان ، والمحرق بين لجج موجاتها امبراطوريات ، كما ألحقت الهوان وأزلت

الضعف والمهانة بالبعض الآخر ، من بينها مدينة الاتروسك ، مثلا . فقد شلّوا وألقوا الرعب في قلب مجتمعات تحضرت منذ عهد بعيد ، كما جعلوا الهلع يدب في قلب مدنيات بلغت شأواً عالياً من التصور . فالمعلومات المتوفرة لدينا لا تترك مجالاً للشك في مبلغ الخراب الذي انزلوه في ايطاليا والعالم الهليني . فقد كان الشعور العام الذي استحوذ على العالم المتمدين اذ ذاك ، ولمدة قصيرة ، الشعور نفسه الذي تملكه عندما رأى نفسه وجهاً لوجه امام غزوات البرابرة التي دكت العالم الروماني . فهل استشعر العالم اذ ذاك انه امام كارثة دهماء ؟ قد يصح هذا في البلدان التي لم تكن تكتظ بالسكان او تلك التي كانت عدة الحضارة والعمران فيها بدائية . ومهما يكن ، فالصمت الذي تعتمص فيه مصادرها لا يخولنا الجزم نفيًا او اثباتًا .

نود ان نعرف الاسباب التي ادت الى انتشار الكلتيين ، أهى لعمرى ، كثرة المواليد وما تقتضيه بالتالي من زيارة موارد الرزق والعيش ، او المنافسات الشديدة والإحْن الداخلية ، ام ضغط خارجي جاءهم من الشعوب الشمالية ؟ علينا ان نقر هنا بما نحن عليه من جهل مدقع في هذا المضمار ، وذلك بالرغم من هذه المعلومات المشبوهة المبعثرة التي تعرض لنا . كذلك يهمننا ان نتعرف ايضاً وان نحيط بالظروف والامواضاع التي لا بدت هذا الانتشار ولازمته . والظاهر ان الامر نتج في الغالب ، ليس عن انتقال شعب او قبيلة من القبائل الكبرى بأسرها ، بل تم تباعاً ولحافاً بهجرة جماعات في إثر جماعات هامت على وجهها في شتى المناحي والاتجاهات . وهكذا نرى اقواماً من الـ *Tectosages* يستوطنون في آسيا الصغرى وفي تولوز ، كما نجد جماعات من الـ *Tolistoboiens* مستقرين في آسيا الصغرى ، وبعض أفخاذهم من الـ *Boiens* محتلين مقاطعة بوهيميا ومنهم اشتق اسم هذه المقاطعة ، وبعضهم استقر الى الجنوب من نهر البو في ايطاليا . وقول قيادة هذه الجماعات الآخذة بأسباب الاغتراب ، مقدمون من الأسر الثرية ، اصطحبوا معهم على عربات ومركبات للنقل ، الاولاد والنساء ، واتجهوا على بركة الرحمن ، سيان عندهم أرححوا الجماعات التي سبقتهم لاحتلال المنطقة ، او انتهبوها فرصة سانحة للنهب والسلب . ومهمهم الاكبر ان تقودهم خطاهم الى اراض جديدة يحتلونها ويقيمون فيها ، وهم على اتم استعداد لبسط سيطرتهم عليها بحمد السيف ، ولو اقتضاهم الامر ذبح السكان . فان تم لهم الامر بالتراضي ، فحبذ الاتفاق .

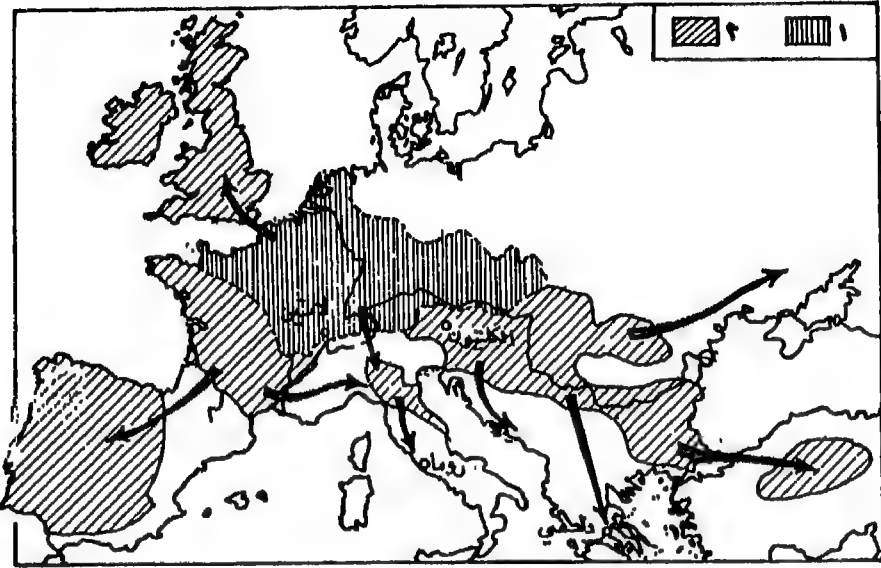
ان هجرة على مثل هذا الشكل من الدوران ، لا ضابط لها ولا وازع ، لا يمكن ان تقع تحت مراقبة التاريخ وحصره . إلا اننا نستطيع ان نتبين عن طريق المعلومات المشعة الذي يدنا بها علم الاركيولوجيا وعلم الألسنية ، الى جانب ما سجله الكتبة القدامى ، النتائج التي توصلوا اليها ، وهي نتائج تتسم بالعظمة خليقة بالاكبار والتقدير العالي .

احتل الكلتيون في اتجاههم نحو الشرق ، مقاطعة بوهيميا ووادي نهر الدانوب ، حتى انهم بلغوا ، عبر ترانسلفانيا ، سهول اوكرانيا . اما في الشمال من البلقان ، فقد وجدوا أنفسهم ، منذ فجر القرن الرابع ق.م ، وجهاً لوجه ، مع الإليريين والتراتيين ومن خلفهم المقدونيين . فقد ارسلوا لالاسكندر الكبير وفوداً

النتائج التي ادى اليها امتداد الكلتيين

رسمية . وفي سنة ٢٨٠ ق . م ، توغلو في مقدونيا ، ولم تنجُ عام ٢٧٨/٢٧٩ كنوز هيكل دلف من الوقوع بين ايديهم إلا باعجوبة . غير انهم لم يلبثوا ان ارتدوا عن هذه البلاد لما لقوا فيها من صمود قوة الدفاع ومتانة حصونها ومناعتها . فأسسوا في تراقيا دولة استمرت حتى اواخر القرن الثالث . واستطاعوا منذ عام ٢٧٦ ق . م ، ان يقيموا في قلب آسيا الصغرى حول مدينة أنسير (انقره اليوم) وفي منطقة غلاطيا *Galatie* التي اشتقت اسمها منهم وأسسوا فيها دولة حافظت على استقلالها حتى عهد اوغسطس .

اما في الغرب فقد انتشروا في جميع أنحاء غاليا ، وقامت موجتهم الاخيرة التي بلغت حدها



الشكل ٥ - انتشار الكلتيين

١ - المناطق التي ازدهرت فيها المدنية المعروفة بمدينة لا تين *La Tène* .

٢ - المناطق التي استقر فيها الكلتيون .

الاعلى بقدم البلجيكيين ونزلهم نهائياً بين نهرى السين والمارن ، في القرن الثالث ، واستمرت في تملؤها إلى اوائل القرن الثاني، وانتهت باقتلاع اقوام الكلتيين الذين كانوا سبقوهم الى السكنى في تلك المنطقة . ومن غاليا دخل الكلتيون ، في وقت غير معروف التاريخ ، بريطانيا العظمى وإرلندا ، كما دخلوا من الجنوب، الى شبه الجزيرة الايبيرية ، كما اورد خبر ذلك، هيرودوتس، في القرن السادس . ق . م . ولم يلبثوا ان سيطروا فيها على جميع المناطق الواقعة في الشمال والغرب والوسط . واخيراً تم لهم التوغل في ايطاليا بعد ان عبروا مجازات جبال الالب ، فاستقروا ، في القرن الرابع، في (لومبرديا) ، واستوطنوا المنطقة الواقعة الى الجنوب من نهر البو حتى جبال الابنين وشواطئ البحر الادرياتيكي ، فاحتلوا تبعاً ، الواحدة بعد الاخرى ، حواضر بلاد

الأتروسك ، امثال ملبوم *Melpum* وفلسينا *Felsina* التي عرفت فيما بعد باسم مديولانوم او (ميلانو) وبرونيا (بولونيا) ، كما ان بعض مسمياتهم عاشت في المجالات الاخرى التي وقعت تحت سيطرتهم^(١). وفي بعض الاحيان ، بعثوا بكراديس نحو الجنوب ، استولت بعد عام ٣٩٠ بقليل ، على مدينة روما ، وأزلت بها الدمار . ورأينا بعض سراياهم تكتسح مقاطعة كمبانيا وتبلغ في اندفاعها نحو الجنوب ، سواحل مضيق مسينا .

كل هذه الاقاليم والمقاطعات التي اكتسحها الكلتيون على نسب مختلفة من الاتساع والاستيطان ، لم تكن لتؤلف ، بالنسبة لتناثرها وتشتتها ، امبراطورية كلتية متجانسة .

وبعد ان اخذوا بأسباب التمدن وضربوا في جنبات الحضارة ، قلما نرى جماعاتهم تبادر لنجدة بعضها البعض ولو جمعتها وحدة الجوار . وقد يحدث أحيانا ان ينضم بعضها الى اعداء اخوانهم فيناصرونهم ويظاهرونهم عليهم مع ان مواجهة العدو الواحد المشترك كان يوجب عليهم الالتفاف معا وحدة متراسة . وعندما هب الرومان لفتح مقاطعة غاليا ، ما وقع منها بعد جبال الالب *Transalpine* او بعدها *Cisalpine* عولوا في أعمالهم الحربية على قوم من الغالين وقفوا من الفتح موقف الحياد وكثيرا ما شدوا من الفالحين الأزر وبادروا لنصرتهم . والدول التي أنشئت في المقاطعات التي سيطروا عليها ، لم تتمتع بعضها بتنظيم شديد الاسر قويه . فقد افسحوا المجال امام قبائلهم ان تقدم للجاني ، ولا سيما للمالك الهلينية ، جحافل متراسة من جيوش المرتزقة ، فبعثوا وشتوا على هذا النحو ، قوام البشرية التي كثيرا ما تنكرت لبعضها البعض ، وتلاحمت في القتال .

ولا يعني هذا انهم كانوا يجانبون الاخذ بالاعمال التي تتفتح لها ايام السلم . فاذا ما اتفقت الروايات القديمة على إطرأ ما كانوا عليه من روح حرية عالية تنزل الرعب في القلوب وتناقلت عن نسايم الحكايات المؤثرة البناء ، فقد اطنبوا بنوع خاص الطرق الناجحة التي اتبعوها في تربية الماشية وأمور الزراعة . ويصف المؤرخ الروماني بوليب الذي قام في القرن الثاني ، بعد رحلات واسفار ، بشيء من الارتياح والاعجاب ، ما كانت عليه مقاطعة ما قبل جيبان الالب (*Cisalpine*) من وفرة ومحبوحة في اسباب العيش ، بحيث كان يجد المسافرين في الفنادق كل ما يحتاجون اليه ، فيتناولون وجبات الاكل بسعر محدد ، موحد ، وليس وفقا لقائمة ألوان الطعام . فالعادة المتبعة عندهم ان يقدم اصحاب الفنادق والحانات ، لنزلائهم كل ما هم بحاجة اليه من الطعام بكميات كافية بثمن لا يزيد على نصف دانق ، أي ربع فلس واحد^(٢) . وكانت

(١) منها مثلا : شاتوميان (*Chateaufort*) في فرنسا ، ومتلين *Metelen* في ستفاليا ، والمدت الفرنسية الاخرى المعروفة باسم بولونيا ، ومدينة بولونيا (فيدن *Vidin*) اليوم ، على نهر الطونة او الدانوب ، بالقرب من بوابات الحديد .

(٢) أي ما يوازي اربع سنتيمات من سعر العملة في فرنسا عام ١٩١٤ .

فكرة الحرب ، مع ذلك لا تبارح خواطرهم . وها نحن نسمع بوليب نفسه يصف لنا بدقة سكان هذه المنطقة ، في القرن الثالث ق . م فيقول : « كانوا على بساطة من العيش . فلم يحسنوا سوى الحرب وامور الفلاحة . وهم على يسار من الرزق ، لهم من الذهب وقطعات الماشية ما يجعلهم أغنياء ، وهي مقتنيات يسهل نقلها وحملها بسهولة في رحلاتهم وتجوالهم ، كما يشتهون ، وكما تسمح لهم بذلك الظروف السانحة » .

ربما كان عددهم ضئيلاً في بادئ الامر عند أخذهم بأسباب الهجرة ، مع ان المصادر اليونانية واللاتينية تنال كثيراً بهذا العدد . فلم يتمكن الكلتيون الاحتفاظ بمعالم المدنية التي أنشأوها لهم في الخارج ، بعد الغزوات المتلاحقة التي أخذوا بها والحروب الدامية التي خاضوا غمارها . والظاهر انهم كانوا على جانب كبير من الاستعداد للقبس من الاوساط والمجالات التي استقروا فيها ومن الحضارات التي حلّوا بينها . ونزعوا على الاخص ، لاقتناء الحلي والثياب الموشاة ، كما اقتبسوا عبادة الآلهة الاقليميين الذين حلوا بين ظهرانيهم . وتنبهوا بأواصر القرى العنصرية التي شدتهم بغيرهم من الاقوام ، جاء الكتبة القدامى على ذكر : الكلتو سكيثيين *Celto - Scythes* ، والكلتو تراقين *Celto-Thraces* ، والكلتو ايبيريين *Celto - Ebériens* . هذه الأرومة الكلتية التي تجلت في هؤلاء الجنود الأشداء الذين عرفوا ان يدوخوا ، صدفة او اتفاقاً ، جانباً كبيراً من اوربا ، واقتطعوا قسماً من آسيا الصغرى ، لم تلبث ان تقلصت وتبلورت في قبضة من التقاليد الدينية واللغوية التي فقدت عملياً كل أهمية لها وشأن .

توقف مدنية الكلتين وأقولها بلغت موجة الكلتين الشجع وسجلت حدها الأقصى ، في القرن الثالث ، ق . م ، ثم اخذت تبدو عليهم اعراض العناء ويدب فيهم الوهن تدريجياً . فالشعوب المجاورة للفلاطين ، في آسيا الصغرى ، عرفت ان توقف تقدمهم ، واستطاعت الدولة الأتالية ان تفرض عليهم شيئاً من الحماية قبل ان يدخلوا في مدار الفلك الروماني ، كما ان مملكة تراقيا لم تلبث ان تداعت وانهارت . واستطاع السكيثيون والداس *Daces* والجليت *Getes* ان يصدوا الكلتين وان ينكصوم على الاعقاب باتجاه هنغاريا . وفي شبه الجزيرة الإيبيرية وغاليا الجنوبية ، قام الايبيريون الذين جاؤوا من الجنوب وربما من افريقيا ، بحركة مماثلة تحمل منطقة نهر الرون بعض معالمها . اما في ايطاليا ، فقد قام الرومان ، للمرة الاخيرة ، عام ٢٢٥ ق . م ، بصد الهجوم العنيف المفاجيء الذي قام به الغاليون ومن لف لِقَهم من بني جلدتهم في غاليا ما وراء جبال الالب ، واستطاعوا ان يسجلوا عليهم نصراً مبيناً عند رأس تيلمون *Télumon* من اعمال اتوروا الجنوبية . واخذت روما ، على الاثر ، تفت من عضد الكلتين وتقتطع بالتالي من اراضيهم حتى نشرت عليها سيطرتها التامة بعد العاصفة الهوجاء التي نزلت بها على يد هانيبعل وكادت تحتثها من اصولها . وما ان مالت شمس القرن الثاني ق . م للغروب ، حتى رأيناها تبسط سيطرتها على الكلت الايبيريين بالرغم من المقاومة العنيفة التي

أبدتها مدينة نومانس *Numance* الواقعة على نهر الدورو *Douro* ، كما استطاعت ان تقيم لها مواطىء قدم في غاليا الجنوبية .

فهما كان عليه الكلتيون من سوء التنظيم ، علينا ان نرد انحلالهم السريع وهبوطهم الى عوامل أخرى غير التفسخ الذي انهك قوام والظروف المحلية التي احاقت بهم . منها مثلاً الرداء العنيفة التي قبلوا بها لدى الشعوب الأخرى . ولو افترضنا ان بعض المعالم التي عثر عليها في سكندينايفيا والمانيا الشرقية الشمالية لا تؤيد هذا الرأي ، فلا يمكن مع ذلك التسليم بأن الضعف والوهن فشا فيهم حتى في المناطق التي سيطروا عليها بشدة ومراس ، في المانيا الجنوبية والغربية مثلاً . من الجائز مثلاً ، ان يكون جلاء البلجيكيين ونزوحهم الى شمالي فرنسا جاء نتيجة لما تعرضوا له من ضغط شعوب جديدة جاءتهم من وراء . فمن هم لعمرى ، هؤلاء الكمبر *Cimbres* والتيوتز *Teutons* الذين خرجوا ، بعد ذلك بقليل ، من جنوب شبه جزيرة جوتلاند وادي نهر الإلب *Elbe* ، فعاثوا فساداً في النمسا وسويسرا والالزاس ، وفي الجنوب من غاليا وشمالي ايطاليا ، بين ١١٣ - ١٠١ ق . م ، قبل ان يتمكن القائد الروماني ماريوس من سحقهم على التوالي : التيوتز عند ايكس آن بروفانس ، والكمبر عند فرساي *Vercell* ؟ . أكلتيون هم هؤلاء الغزاة القادمون ام طلائع الجرمان هم ، يدخلون حلبة الميدان ؟ ومها يكن ، ان وصول هذه الشعوب المتأخرة ألقى الرعب في قلوب الكلتيين في غاليا . وعلى كل ، هؤلاء الشعوب التي اصطاح الاقدمون على نعتها بالجرمان ، لم يلبثوا ان ظهوروا على ضفاف نهر الرين .

فمنذ مطلع القرن الاول ق . م ، لم يبقَ في هذه الرقعة الواسعة التي سيطر عليها المد الكلتى من مجتمعات تتمتع بالاستقلال ، إلا ما قام منها في القسم الأكبر من غاليا وبريطانيا العظمى . فقد كُتب للفريق الاول منهم ان ينشئ له مدينة ليس من الممكن التفاوضي عن ذكرها والمرور بها مرور الكرام .

٢ - الغاليون

الغاليون هم هؤلاء الاقوام الذين كانوا يقطنون « غاليا » ما وراء الالب عندما شرع الرومان بفتح هذه البلاد ، على فترتين متميزتين ، يباعد بينها مدى ٦٠ سنة .

ظهر مما تقدم من بحث ان هذه الاقوام لم تكن كلتية . فقد تكاثرت هجرات وحدة في التنوع الكلتيين وتنازلت موجاتهم بحيث لم تكن الذراري والولد التي خلفوها في البلاد سوى نسبة عدى ، بالنظر لعدد السكان . فاذا ما اخذنا بأقوال الكتاب القدامى ، كان عددهم عالياً بحيث لم يقل في ادنى حد عن ٢٠ مليوناً ، بينا قدرهم بعض المؤرخين بأعلى من ذلك

بكثير . اما الكلتيون أنفسهم ، فلا نستطيع ابداء أية فكرة بشأن عددهم ، لا سيما والمصطلح في معناه الحصري غير واضح الاعراق . ولا بأس من ان نؤكد هنا ان السواد الاعظم من سكان البلاد الاصليين تعود جذورهم الاولى الى العصر الحجري . وكـم توالى على البلاد ، في غضون العصور المظلمة ، من الانسرابات القومية والفتوحات الدامية ! وكـم من الغزاة الطواريء اقاموا في اطراف البلاد الخارجية ؟ وكـم يرى التاريخ نفسه في عـمـهـ بالنسبة لهذه الاضافات الجديدة ، كما انه يعوزنا الدليل القاطع للجزم بالتأكيد . ولا يبقى من هذا كله سوى الشعور بتنوع الجذور والاصول .

وهذا التنوع ليس ما يدعو لملاحظته والتنويه به لولا النتائج العملية التي يُفـضـي اليها ، ومن العسير تتبعها واقتفاء اثرها . ففي غالبا التي يتأهب يوليوس قيصر لغزوها وتدوينها ، هنالك اقوام الأكيتين (*Les Aquitains*) والغالين *Caulois* والبلجيكيين *Les Belges* وهي «تـبـاين بعضها عن بعض بما بينها من مفارقات اللغة والعادات والشرائع » ، دون ان يحدد منها وجوه الاختلاف والتباين . ومن الواضح ان قيصر يغلو جداً عندما يتعرض لوصف البلجيكيين الذين لا يمكن فصلهم عن سائر الكلتيين ، بالرغم من حداثة دخولهم البلاد نسبياً واستيطانهم فيها . إلا ان الامر على العكس من ذلك تماماً ، مع قوم الاكيتين وغيرهم من الشعوب القاطنة ، في هذه الناحية من بلاد غاليا ، المظلة على البحر المتوسط ، والتي سقطت في قبضة الرومان قبل عهد قيصر . والافخاذ الكلتيية التي دخلت البلاد من الشرق او من الشمال ، استطاعت هي الاخرى ، التغلغل في داخل البلاد حتى بلغت منها مقاطعات البروفانس واللانغدوق *Languedoc* ، بينما نرى جماعات الفولك اريكوميك تستوطن مدينة نيم وجوارها ، كما تستوطن جماعات فولك تكتوزاج (*Volques Tectosages*) مقاطعة تولوز ، ولم يكن وصل منهم اطراف الارموريك *Armorique* سوى قلة ضئيلة . ومع ذلك فقد تطبّع سكان هذه المقاطعات البدائيون بأطباع الكلتيين بينما كان سكان الجنوب اقل اخذاً بهذه الطباع . وفي مقاطعة بروفانس ، لم يأخذ الليغوريون بأسباب هذا التطبيع ، مع اننا نجد فريقاً من الاهلين هم من أرومة الكلث - ليغور *Cello - Ligures* . وقد قامت بين شعوب الايبيريين ومقاطعة اللانغدوق ، علاقات على مر السنين حتى مطلع الغزو الروماني للبلاد ، وكل الظواهر تدل على ان الاهلين استعملوا اللسان الايبيري في التخاطب والكتابة . اما مقاطعة اكيثين برمتها حتى نهر الغارون ، فقد عرفت كيف تحافظ على طابعها الاصيل ، كما عرفت ان تصمد ، فيما بعد ، في وجه الفتح الروماني ، بما فيها من اقوام البيرنيين وما كانوا عليه : من لغى ولهجات ، ومن آلهة وعادات ، خاصة بهم . ويكفي ان نذكر هنا مثلاً ، شعب الباسك *Basques* وكيف تمكن من الحفاظ على لصالة ارومته و زاد عنها الفتح الروماني . وأخيراً وليس آخراً ، قامت على سيف البحر المتوسط مدينة مرسيليا بما أهلها من جوالي الاغريق وذرائعهم ، وهم اصحاب مدنية أسمى بكثير مما كان عليه جيرانها ليرضوا بالتخلي عنها والتحلل منها .

فمع ما نشاهد في بدء الامر من عوامل وعناصر هذا الشعب ، وبالرغم من هذا الصمود ، ومن هذه المقاومة لهذه المؤثرات ، فقد وجد الرومان أنفسهم ، عندما أطلوا على غاليا ، شيئاً آخر غير جماعات متجاوزة ، متخاذلة ، متنازعة ، منعزلة بعضها عن بعض ، تتفاوت فيما بينها من حيث التطور والرقى الذي بلغته . فقد كان الكلتيون قد سيطروا ، منذ عهد بعيد ، على القسم الأكبر من البلاد ، فاندمجوا بها اندماجاً كلياً بحيث لم يبق أي أثر يذكر لعملية التوطن التي تمت على مر الزمن ، في عهود وأدوار متلاحقة . وقد كانت انتهت منذ امد طويل ، عملية انصهار هذه الاقوام التي قطنت البلاد ، وذابت بعضها في بعض ، بحيث كانت أكتثية الشعب تنظر الى البلاد نظرها الى الوطن الأم . وكان من السهل ان ننتبين الصفات البارزة التي كانت تفرد غاليا والغاليين ، باستثناء بعض نقاط محدودة ، فتجمل منها ومنهم ، بلاداً وشعباً هدفوا معاً للرقى واشترأت أعينهم للتقدم والتطور ، الامر الذي يضعنا امام مدنية ناشئة ، تستطيع ، اذا ما تم لها التكامل المرغوب وشئت عن الطوق ، ان تزيد وحدة البلاد ارتباطاً وانسجماً ، من الوجهتين العرقية والادبية .

يحدد بنا ، ونحن نشهد بزوغ مدينة جديدة تتطلع للأخذ بأسباب التطور والتكامل ، ان نتساءل ما عسى ان تكون المؤثرات التي تفاعل بها هذا الشعب وعن أي طريق اتته . وبما لا شك فيه قط ان هذه المؤثرات يونانية الاصل . غير انه يهمننا في الدرجة الاولى ان نعرف كيف تم هذا الاتصال ، وعن أي طريق أتى ؟

اتصالهم بالمدينة المحلية
وسبلهم اليها

اول ما تقع عليه العين ويلفت اليه النظر هو مدينة مساليا او مرسيليا اليونانية الاصل ، التي أنشأها معمرون اونيون ، قبل الميلاد بـ ٦٠٠ سنة ، خرجوا من مقاطعة فوقيه *Phocée* ، من أعمال آسيا الصغرى ، فعمروها على شاطئ بحر ، كثيراً ما ارتادته ورسد عنده السفن اليونانية . وقد عرفت هذه المدينة ان تحافظ على طابعها الاغريقي وان تحتفظ به طويلاً حتى بعد الفتح الروماني للبلاد . فبالرغم من المنافسة الحادة التي لقيتها من الاتروسك والقرطاجيين ، فاستحالت احياناً الى حروب حامية جرت عليها عهوداً من الركود في حركة الاعمال ، وانكاشاً في نشاطها التجاري ، فقد برزت بنشاطها البحري ، فأنشأت لها ، في عهود وأدوار اعتصم التاريخ حياها بالصمت ، مستعمرات عديدة على شواطئ اسبانيا الشرقية ، وغاليا الجنوبية . إلا ان صروف الدهر وتقلباته اضطررتها للتخلي عن احدى مستعمراتها هذه ، هي مدينة « مينيكية » (ملاخا اليوم) للقرطاجيين ، كما ان الايبيريين اغرقوا بجيولهم الكثيفة مستعمرات أخرى تابعة لها ، منها كاليبولس - برشينو (*Callipolis - Barcino*) وامبورياس (*Ampourias*) وروديه (*Rosas*) فاستقلت هذه المدن بأمورها . اما في غاليا ، فقد كانت احسن حظاً لا سيما بعد ان أصبحت حليفة للرومان فناصروها ووقفوا الى جانبها وشدوا منها الازر ، فأنشأت لها ما يكاد يشبه

امبراطورية شملت عدداً من المدن والمرافىء ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : بيرينه (*Pyrenè*) المرجح ان تكون (*Port - Vendres*) واغاثيه (*Agade*) وثلينيه (ربما *Arléate - Arles*) ونيكايا (*Nice*) وكينارستا (*Lu Ciotat*) وأوليبيا (*Hyères*) وانتيبولس (*Antibes*) وموناكو (*Monaco*) . وكانت مرسيليا تؤمن لها أسباب العيش عن طريق الاتجار ، مع غاليا ، كما يشهد على ذلك الخزفيات اليونانية الصنع بعضها من مصنوعات اثينا . واشهر هذه الخزفيات تلك التي عثر عليها بالقرب من مدينة بيزيه . وقد نقل هؤلاء التجار ، بالطبع بعض ما استقرت عليه المهارات الفنية والاساليب الصناعية وبعض الافكار والمعادن الاغريقية الطابع . وهكذا ظهر على لسان القوم المصطلح الجغرافي ، « غاليا الاغريقية » . وبين الوثائق والنصوص القديمة اكثر من نص ومرجع يحددنا عن الاثر الطيب الذي تركته مرسيليا . فها جوستن يقول : « وبتأثير من مرسيليا وسكانها ، راح الغاليون يتخلون عن عاداتهم البربرية ، فدمشت منهم الاخلاق ، ولانت عريكتهم واخذوا باسباب الحضارة : فحرثوا الارض واقاموا الاسوار والحصون حول مدائنهم ، وألفوا العيش في ظل القانون وتحمت حمايته ، وتخلوا عن استعمال القوة والبطش في تأمين حقوقهم ومصالحهم ، كما حذقوا من جهة اخرى ، تشذيب الكرمة وغرس نصوب الزيتون . فقد بدا على الناس وعلى الاشياء كأنما انتقلت اليونان الى غاليا وغاليا الى اليونان » . غير ان هنالك من الوقائع ما يجعلنا نخفف كثيراً من غلو الحدسيات والافتراضات التي طلع بها كتاب محدثون ، جعلت من مرسيليا قطباً للإشعاع الهليني في غاليا .

فقد صورت لنا التقاليد المتوارثة تأسيس هذه المدينة وكأنها انشودة حب عذري ربط ما بين هذه المدينة وبين سكان البلاد . فاذا ما قام يوماً ، مثل هذا الحب ، فهو لم يعمر طويلاً . فقد لقي الاغريق من المصاعب والعراقل أثارها في وجههم اقوام الليغوريين الاشداء ، ما اضطرهم ، في القرن الثاني ، لطلب النجدة من روما ، فبادرت لنصرتهم والتسييج حولهم برعايتها فامنت لهم شيئاً من الاستقرار . كذلك ناهبهم من الكلبيين بعد ان استباحوا مقاطعة بروفانس ، ما نغص عليهم العيش ، ولم يستطيعوا ان يتنفسوا الصعداء الا عندما دك الرومان حصون مدينتهم أنترمونت *Entremont* .

صحيح ان طبيعة الحرب لم تكن اذ ذاك ، لتحول دون التبادل التجاري ، غير ان الاخذ بالمصطلح الجغرافي : « غاليا الاغريقية » لم يكن ليخلو من غلو . ففني حال تبنيه ، فاللفظ لا يمكن اطلاقه الا على منطقة ضيقة ، اقتصر على بعض وكالات تجارية ومكاتب اعمال تناثرت حباتها حتى مرتفعات الألب المطلة على البحر ، ثم تنبسط وترحب مع انقراج الجبل . وهذه الخزفيات المحلاة بالرسوم التي المعنا الى خبر اكتشافها ببحوار مدينة أنسرون *Ensèrone* هي ، والحق يقال ، من الكماليات التي لم يحدث دخولها في المنطقة اي اثر بين في طراز المساكن والمدافن وفرشها من الداخل .

فالمعلومات المصدرة التي يدنا بها علم الآثار اليوم تجعلنا نرتاب كثيراً وتشكك في صحة الرواية التي روج لها البعض من امتداد تجارة مرسيليا الى داخل البلاد . وبالفعل ، نجد على طول الطريق الممتد بين نهري الرون والصون والذي يؤلف ممراً طبيعياً للمواصلات التجارية ، فجوات كاملة حتى القرن الثاني تقريباً بين الآثار اليونانية المكتشفة من خزف وشبهان ، في هذه المنطقة ، تمتد من نهر الدورانس الاسفل *Durance* الى نهر الإيزير (*Isère*) ، ولا تعود تظهر نسبياً ، بكثرة ، الا في مقاطعة بورغونيا . وقد عُثر بالاحص ، في شمال فرنسا ، على اجمل الآنية المصنوعة من الشبهان ، بين القرنين السادس والخامس ق . م .

ولعل احدث هذه المكتشفات وأبرزها على الإطلاق (كانون الثاني - يناير ١٩٥٣) هي التي عثر عليها في منطقة فكس (*Vix*) على مقربة من مدينة شاتيون - سير - لاسين^(١) وقد عثروا في حفرة هيل فوقها أكوام من التراب ، الى جانب الهيكل العظمي لاحدى السيدات ، على عدد من الآنية من صنع البرابرة ، يعود عهدها الى منتصف القرن السادس ، اثنان مدنية الهولشتات ، بينها أدوات خزفية أجنبية الصنع ، من العصر ذاته ، ومجوهرات من الذهب والفضة والشبهان يكفي ان نذكر بين الاخيرة منها تاجاً من الذهب زنته ٥٠٠ غراماً ، يحمل في طرفيه حصانين مجنحين . ومن بين هذه المكتشفات الاثرية واحد من هذه الاجاجين البرونزية الضخمة ، زنته ١٧٥ كيلوغراماً ، وعلوه متر و٦٥ سنتيمتراً ، محلاة اذناه المنحوقة بشكل قوقعة بحيوانات بحرية بين رسم ، على عنقه ثنائي مركبات يفصل بينها سبعة جنود . فن الطبيعى ان تثير هذه المكتشفات جدلاً حاداً بين الاختصاصيين من علماء الآثار ، لن ينتهي عن قريب ، يدور بالاحص حول منشأ هذه الآنية ، وحول صناعة المعادن لدى الاتروسك ، هذه الصناعة التي عرفت بنشاطها كما عرفت بتأثير الاغريق عليها . ويدور النقاش فيما بينهم ايضاً حول معرفة الطريق التي سلكته هذه المؤثرات الفنية لتبلغ بلاد غاليا ، دون ان يوحى احدهم بالاقتصار على مرسيليا والاكتفاء بأثرها وحده في هذا المجال . وتتجه الخواطر بالاحرى ، الى طرق برية تنطلق من سهل البو او من البحر الادرياتيكي ، عبر المجازات والممرات الألبية ، كما يقترح غيرهم طرقاً أخرى تنطلق من البلقان وتسير صعوداً مع نهر الدانوب .

فاذا تجاوزنا هذا الحادث الخاص ووضعناه جانباً ، علينا ألا نلتقص من أهمية الاتصالات التي أمكن القيام بها ، في تاريخ مبكر ، مع المدينة اهلينية في الشرق . فالكلتيون لم يهملوا قط هذه الاتصالات ، فتموها عن طريق الإليريين ، في بدء الامر ، ثم باسروها بأنفسهم فيما بعد . ولم يقيم ما يدعو الغالين الى قطعها او التخلي عنها . فالذهب الذي تم إغراقه في الغدران

(١) مما هو احدث من ذلك ايضاً ، الثور ، في شهر آذار - مارس ١٩٥٤ ، على قبر في مدينة راينهام (مقاطعة السار) ضم بين ما ضمه من الحلى ، اجمل خرس من الذهب يعود الى القرن الرابع ق . م وهو من خلفات مدينة لاتين *La Tène* . ويحمل الطابع اهليني على مثل هذا البعد من مرسيليا .

المقدسة ، على مقربة من مدينة تولوز ، لم يكن قط ، وبكل تأكيد ، من مسلوبات معبد دلفي ، هذا الذهب الذي جلب الولايات وجر المصائب على الرومان عندما اخذوا باستخراجه تبعاً ، فوصفوه بالذهب المسكون او المبسول . ويكفي ألا يكون الكلتيون سلبوا معبد دلفي او نهبوا مجوهراته وكنوزه حتى راحت الروايات والتقاليد المتوارثة تضفر ، باطلاً ، حول هذا الحادث الموهوم ، الاقاصيص المستملحة تروي للسلف المتهيب ، اخبار نقمة الإله ابولو وغضبه المهتاج . كذلك ، فاذا ما تجرأ بعض المؤرخين على القول بأن الكرمة دخلت البلاد عن طريق سويسرا ، فشجرة الزيتون جرى توطينها ولا شك ، على يد سكان مرسيليا . ويكفي ان نلاحظ هنا ان المسكوكات الغالية الاولى ذهبت في تقليدها الى حد بعيد ، المسكوكات المقدونية دون عملة مرسيليا ، لنقتنع بأن هذه المستعمرة الفوقية الاصل ، لم تكن المذهب الاوحد حتى ولا الرئيسي ، في عملية صقل سكان غاليا وبردختهم .

فالمؤثرات الخارجية تكاد لا تذكر اذا ما قيدت بالعوامل الهلينية التي فعلت فعلها في القوم . فالقرطاجيون قنعوا منهم بعلاقات تجارية ضعيفة . اما الرومان ، فلم يأخذ أثرهم يظهر إلا منذ ان استقرتوا نهائياً في الجنوب من غاليا ، اي منذ اواخر القرن الثاني ق . م ، وقد برز هذا الاثر للعيان في المجال الاقتصادي ، فهد بذلك السبيل امام الفتح الروماني وهماً لهم اسباب الغزو . إلا ان تدخل روما افضى بالفعل ، الى قتل المدنية الغالية الناشئة وبالتالي الى زوالها .

ومها يكن من الامر ، فليس من اللائق ان نحاول تفسير كل شيء بالمؤثرات الخارجية . فالعامل الرئيسي يكن في الغالين أنفسهم ، أي في هذا الانفعال والتفاعل الذي خضعوا له في النصف الثاني من الالف الاول ق . م ، مختمرين بما اصطلح عليهم من عوامل التربة والمجتمع البشري الكلتي وطبيعة الاقليم ، فتفاعل بهذا كله الكلتيون ، على توالي موجاتهم وتقلبات جماعاتهم ويطونهم . ومن نكد الحظ ، فاذا جئنا نحاول التدقيق في هذا كله ، بوضع النقاط على الحروف ، في تحديد الفوارق وتبيين المفارقات ، تجاوزت تأكيداتنا المطلقة نطاق التحليل والمضي فيه بنجاح : فكل محاولة في تعيين نسب العوامل العرقية بين عناصر السكان وتحديد اقدارها من جهة ، والظروف المحيطة والملازمة لظهور مدنية أصيبت بضربة قاصمة في الوقت الذي اخذت معه في تحقيق وحدة الشعب الغالي ، من جهة ثانية ، كل ذلك وما اليه ، يعجزنا ويسقط في ايدينا .

تجزؤ البلاد اقواماً متنافسة
فتطور هذه المدنية الناشئة وصيرورتها الى الوحدة ، لم يكن اكتمل بقيام وحدة سياسية في الوقت الذي راح فيه يوليوس قيصر يدوخ هذا القسم من غاليا المستقلة والذي كان يؤلف الجانب الاكبر من تلك البلاد .

ضم هذا الجزء المستقل من البلاد ، اذ ذاك ، نحواً من ستين شعباً ، شدم بعضاً الى بعض

وشائج متنوعة . وقد درجت العادة عندهم على ان يعقد الكهان - الدرويد - ، كل سنة ، في نقطة تقع في قلب البلاد ، في غابة اورليان ، على وجه التدقيق ، اجتماعاً كبيراً للنظر في القضايا العامة والخاصة منها على السواء . فوجودهم امام خطر مدام ماحق ، يهددهم من الخارج ، بعث في الجميع شعوراً عاماً بالخطر المائل ، هزم هزاً وبعث فيهم يقظة وطنية عارمة . إلا انه وقع حادث معركة أليزيا (Alésin) فكان هذا الحادث معياراً حسناً لسبر الامكانات العارضة والطاقت الكامنة . فلكي تقوم في غالباً دولة لها من المقومات ما يضمن بقاءها ويمكن لها في الارض ، تطلب ذلك أكثر من ازمة واقتضى اكثر من نازلة وطنية . فلم تكن نشاهد اذ ذاك ، في البلاد ، سوى شعوب متجاورة ، ابدأ متيقظة ، حريصة على استقلالها ، تدود عنه وعن ارضها بقوة السلاح وتمنع عنه تعديات الجيران وتجاوزاتهم .

والكبير المميز بين هذه الشعوب كان يشرب باعناقه الى السيادة وفرض سيطرته وسؤدده . وهي اهداف كريمة نزع بعض هذه الشعوب الى تحقيقها وتحيزها . ومثل هذا المصير قد يكون توفرت اسبابه ، في القرن الخامس ، لشعب البيتوريج Bituriges (بورج) ووقع شيء من هذا القبيل ، في منتصف القرن الثاني ، لشعب الارفيرن Arvernes الذي عرفت الفيالق الرومانية ان تخفض ، عام ١٢١ ، من غلواء ملكهم بتويت Bituit بعد ان شتت ببدأ ، جسوده العسكرية واستولت على مركبته المصفحة بصفائح الفضة ، بالرغم من دمدمية حرسه . وقبيل مباشرة قبصر للفتح ، خطر لشعب الادوين Eduens (قرب مدينة اوتون Autun اليوم) وهو شعب ربطته بروما صداقة ومواثيق ، بانه يستطيع يؤازرتها تحقيق مثل هذه السيطرة . غير ان الاطماع التي جاش بها هذا الشعب كغيره من الشعوب الغالية الكبرى ، اذ ذاك ، اثار في وجهه عداءات عنيفة ، زادها أوزاراً وتعقيداً ، استعانتهم بالاجنبي وطلب النجدة منه .

كانت اوضاع هذه الشعوب الداخلية ، على ما وصفنا : فلم يكن مات فيها ، الاحزاب والفوضى بعد ، ذكر تنقلاتها في سالف الدهر . وكان بعض هذه الشعوب كاهللفت ، مثلاً Helvètes على استعداد للسير سيرتهم الاولى عندما وقف لهم قيصر بالمرصاد واعترض تحقيق رغباتهم بضم مقاطعة الغارون الى ممتلكاتهم . غير ان معظمهم قد مكن لسكانه في المناطق التي استقروا فيها ، بحيث نرى اسماءهم اليوم تعيش وتخلد في اسماء المقاطعات التي حلوا فيها ، من ذلك مثلاً: كاليت Caletes وهي اليوم مقاطعة كو Cuux ، وفيلافيي Vellarii (مقاطعة فيلاي Velay) ، ولا سيا في الحواضر التي كانت عواصم البلاد والمراكز الدينية الكبرى فيها ، امثال : سواستون وتيرونيس او تور وبواتيه او مدينة بيريجو Périgueux ، الخ . وكثيراً ما استعمل قيصر نفسه اللفظ اللاتيني Civitates للتعبير عن هذه الشعوب . وبعد ان تم الفتح ، راحت الادارة الرومانية تجري في تنظيمها للبلاد ، على هذا الاساس فتقسمها ادارياً الى «مدن» . وكان لعمرى ،

الفرق شاسعاً بين المدينة - الدولة (*Cité - Etat*) الصغيرة الحجم ، عند الاغريق والايطاليين وبين الغاليين الذين كانوا يقطنون بلاداً واسعة الارحاء ، تخلو بعض نواحيها من المدن احياناً . وهذه المعادلة المصطنعة بين المسميات الجغرافية ، اخفت وراءها صعوبات كثيراً ما اعترضت الرومان عندما حاولوا التخلص من مصطلحات درجوا على استعمالها . ومع ذلك ، فالقوى الاجتماعية ، القائمة اذ ذاك كان من شأنها ان تفضي الى اوضاع يصح معارضتها بالاوضاع التي سادت مدن اليونان وايطاليا ، من قبل ، وسيطرت عليها . وهذا التطور السياسي الذي صارت اليه واخذت باسبابه متأخرة ، الشعوب الغالية ، جاء منه المدى اقصر من المدى الذي توفر للمدن الاغريقية ، الا انه سار في المنحنى نفسه .

والظاهر ان هذه الدول سارت ، في بدء امرها ، على نظام ملكي ، لم يلبث ان تطور عند وصول قيصر للبلاد واستحال نظاماً ارسوقراطياً ، اذ لم تكن نرى في طول البلاد وعرضها ، اذ ذاك ، أي مجلس للشعب او ما أشبه . وكانت الاسر الكبرى تتمثل في مجلس شوري ، كما كانوا ينتخبون كل سنة ، حكماً كان رئيسهم الاكبر لدى بعض هذه الشعوب ، يلقب بـ *Vergobret* ، الذي نقله الرومان بكلمة قاضٍ . اما في ايام الحرب ، فكان يصار الى انتخاب قائد عسكري عام .

كثيراً ما كان تطبيق هذه الانظمة والعمل بموجبها بصورة منتظمة ، مدعاة للتأسف والتمني فتثار بشأنها المنازعات والمشاكسات يحتكم فيها للسيف . ويروي قيصر ان الاجتماعات التي اعتاد كهان الغاليين عقدها لانتخاب رئيسهم الاعلى مدى الحياة كانت مثواً لتعقيدات لا تحل إلا بالقوة . اما احترام العدالة والتقييد بنصوصها فأمور كثيراً ما حفت ، في بعض الدول الخاصة ، ذوي الاطماع للتمرد على القانون ، واحتذاء حذو طغاة الاغريق او بعض سياسيي الرومان محاولين ارجاع الملكية والاستئثار بما توفر من امتيازات . ولهذا الغرض بالذات راحوا يحاولون استئالة الشعب لجهتهم والفوز بتأييده ومناصرته . وكان لابد لهم ، تحقيقاً لمآربهم ، ان يتغلبوا على مقاومة خصومهم من الاشراف وتصفيتهم قبل الاقدام على مغامراتهم . اما هؤلاء فقد عرفوا ان يحتاجوا لانفسهم من مقبة الامر ، وراحوا يفصلون بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية . وقد زاد شعب الادوين *Eduens* على هذه التدابير الاحترازية بأن اوجبوا على اخ كل قاض ، وكل عضو في مجلس الشوري تحدته نفسه بالتربع في مثل هذا المركز ، ان ينتظر وفاة أخيه ليرشح نفسه له . ولم يكن من النادر ان نرى ، هنا وهناك ، اوامر تصدر بنفي هذا وإبعاده عن البلاد ، او بالحكم على ذاك بالاعدام ، لاسباب سياسية . فالمواطن الارفرني *Sellios* ، والد الزعيم العالي وبخضم قيصر العنيد ، فرسنتجوريكس ، بعد ان فاز بمنصب امارة غاليا كلها ، وهو منصب لا نعلم من اختصاصاته وامتيازاته شيئاً راهناً ، حكمت عليه مدينته بالاعدام لانه طمح الى الملكية .

وعبارة قيصر هذه ، بالرغم مما يكتنفها من غموض وتعريض ، كغيرها من اقواله ، إنما

تشير بوضوح الى هذه الانقسامات التي كانت تمزق شعوب أخرى غير الافريون من شعوب غاليا . ان ما عرف به الغاليون من تذوق للبلاغة والاساليب البيانية وعنايتهم بأفانين الكلام ، جعل القدامى من المؤرخين يرون في هذا كله ميزة مفردة لهم ، تبدو على أتمها عند اشتداد الجدل واحتدام الكلام في منازعاتهم الحزبية ، وهذه الاحزاب التي كانت تنشأ ، في الغالب ، عن منافسات وأطماع شخصية أكثر منها عن نظريات عقائدية ، لم تكن تحول قط دون قيام علاقات وطيدة بين شعب وآخر من هذه الشعوب ، جعلت الأسر الكبيرة ، تتظاهر بسهولة ، فيما بينها ، ضاربة كسحاً عما يقوم بوجهها من حواجز وحدود وسدود . ومن وراء هذه الحدود كانت المطامع الشخصية تتساند وتتعامد بعضاً الى بعض ، فتنضمخ الاطماع الجماعية المشتركة وبذلك ينفسح المجال رحباً امام التدخل الاجنبي ، سواء أكان غالياً او جرمانياً او رومانياً ، فتتأزم الامور من جراء هذه المداخلات وتنحرج الاوضاع . وقد عرف قيصر ، بما أوتي من زكافة وبصيرة ومهارة ان يثير الفرص المؤاتية ويتدبر امر الافادة منها . وما كان عليه إلا ان ينهج نهج الزعيم الجرمانى أريوفيست *Arinoviste* ليفيد ، ما امكن ، من هذه الفرص السالحة التي جعلت غاليا برمتها فريسة لعدو مقامر .

وهذه الاوضاع الاجتماعية التي تتردى فيها البلاد وتضرس بنتائجها ، يجب النبلاء والاحلاف ردما في الغالب الى الاوضاع الاقتصادية . فهي تصور لنا ، على الوجه الاكمل ، الوضع السياسي السائد فيها . قد يكون الغاليون مارسوا نظام ملكية الارض المشاعية . ويرى البعض ان مثل هذا النظام عمل به قانوناً في القرن الاول ، إلا انه زال بالفعل وانقطع مع ما تعاقب على البلاد من اقتتاعات على حقوق التملك ، والاختلاسات والتعدييات التي أنهالت عليها على مر الزمن ، فاذا بالنبلاء يصبحون مالكي القسم الاكبر من الثروة العقارية . ونحن نجعل تماماً ما اذا قام في الريف شيء من الملكية الجماعية . فان صح الافتراض فهي ليست بذات بال ، كذلك نجعل تماماً كيف استثمر الاشراف وكبار الملاكين أملاكهم الشاسعة . ومها يكن من الامر « فسواد الشعب امره امر الارقاء لا يتميز عنهم بشيء » ، كما يؤكد ذلك قيصر وقبله يوليوس عندما يصف ، في القرن الثاني ، الوضع الذي كان عليه الغاليون القاطنون سهل البو ، في معرض حديثه عن أهمية الاحلاف والانصار في التنظيم الاجتماعي والسياسي . فننفذ أي امر يتوقف قبل كل شيء على كفاءته وقدرته في تأليب الناس حوله ، والحذب عليه ، وحلهم على التعلق به واستعدادهم للبدل حتى بنفوسهم في سبيل تأييده والدفاع عن مصالحه . ولذا نراهم يمتدّون بما لديهم من حسب ونسب ونشب ، ويفاخرون بالمجد الذي جرّوه عليهم وعلى مقاطعاتهم في الحروب والمعارك ، ويباهون بما لديهم من غنى وثراء ، وبما يجودون به من مكرّمات تتمثل بهذه الهبات والعطايا والمساعدات ، ويتبجحون بما لهم من حظوة لدى الحكام والقضاة ، وما يؤمنونه للضعيف المهيض الجناح من حماية ورعاية . « وكانت غالبية السكان » ، كما يؤكد قيصر ، تزرع تحت وطأة الديون وبهاظة الرسوم التي تفرض عليهم او الاحكام التي يزلها بهم كبار القوم .

فلا عجب ان يضعوا نفوسهم وما يملكون تحت رحمة الشرفاء والنبلاء فيتصرفون بهم تصرف السيد بعبدته ويسوقونهم سوق النعاج. ولكن لا يقبل احد من هؤلاء النبلاء ان يصاب احد من احلافه وأتباعه بأي 'ضرر' او شر ، او ان يضام ويذهب فريسة اضطهاد او ضغط او خداع . فقوته ونفوذه هما بقدر ما له من ضخامة الاحلاف والانصار .

وعندما يتحدثنا قيصر ، على الاخص ، عن الايكيث *Equites* « الذين يعني بهم في آن واحد: الحياالة والفرسان » تتبدى لنا فعالية الاحلاف والانصار الذين يلتفون حول بعض الشخصيات ، والدور الذي يلعبونه في المناقشات الحزبية والسياسية . وعندما يستعين بهذا اللفظ المعمول به في النظم الرومانية فهو انما يريد ان يشدد امامنا على ما كان عليه هؤلاء النبلاء من ثراء طائل ، وما لهم من نفوذ وشأن في الحروب ، والمركز الذي لهم في الدولة . وبين فئة النبلاء والاشراف ، كهان الدرويد او طغمة رجال الدين عندهم ، الذين كانوا يؤلفون في المجتمع طبقة ممتازة ، قد يكون قام ما يشبهها عند بعض شعوب الكلتيين . وهذه الطبقة لم تكن مغلفة على نفسها ، منعزلة عن المجتمع ، بل كانت نوعاً من الرهينة الكهنوتية . هنالك أسر شريفة كانت تحصر ، في الوقت الذي 'تعيد' فيه اولادها للعمل في امور الدنيا ان تخص احدهم للكهانة فيدخل طغمة الدرويد بعد ان يتلقى ما يجب من دروس وعلوم تهيشه لمهامه الدينية . وهذا الإعداد الكهنوتي الخاص انما كان يعطى ، في غرة الفتح الروماني ، ضمن معاهد خاصة في جزيرة بريطانيا او في غيرها من مناطق غاليا . ويرأس طغمة كهان الدرويد رئيس اعلى يجري انتخابه لمدى الحياة ، فيرأس الاجتماعات العامة التي تعقد كل سنة . وتنعيم كهان الدرويد بعدد من الامتيازات والمنافع : فاعفوا من التجنيد العسكري وخُصّص لهم ولافراد اسرهم الارزاق الكافية ، يلتف حولهم الانصار والمريدون . وكثيراً ما حدث ان انغمس بعضهم في ما ينشعب بينهم من منافسات او يشجر من منازعات بالرغم مما لهم من طابع ديني ، كما كان فريق من النبلاء والاشراف يحتكم الى آرائهم واقتضيتهم . لم يكن كهنا درويدياً هذا المواطن الادوني المدعو *Divicias* الذي نفي الى روما ثم عاد قافلاً الى وطنه بعد ما تم له من اتصالات واحاديث مع شيشرون ، ووقف في وجه اخيه المغامر دمنوريس *Dumnoric* وافسد عليه مساعيه ودسائسه ، وزود قيصر بمعلومات غاية الاهمية ؟

النبلاء وما كانوا عليه الاجتماعي في كل من غاليا واليونان ، اكثر من شبه ومحاكاة . قبين مساق حياة بعض . الاشراف من كلا الطرفين ما يعيد للذاكرة صور البطولات الهوميرية . قد يكون من المغالاة بكان ، القول بقيام الاوضاع والاشياء ذاتها ، لا سيما وقد سلك الغاليون في تطورهم سبلاً اخرى وطرقاً مختلفة . ولكن وجه الشبه والمجانسة لا يدع مجالاً للشك قط . وهذا التشابه في الاوضاع الاقتصادية التي سيطرت هنا وهناك ، هو سر هذا

التجانس . الا انه يبقى قاصراً عن تقريب حقيقة الأمر للافهام . فبالرغم من الغموض الذي يحيط بنا ، علينا ان نسلم ، ولو من باب مراعاة المثل الانسانية العليا ، بوجود تراث واحد ، مشترك من التقاليد والاعراف بين الهند الاوروبيين .

هؤلاء النبلاء هم رجال حرب مجريون مخلصون . تلك هي ميزتهم الاولى لدى الكلتيين ، اينما كانوا وانى خلوا . وها هم المؤرخون القدامى يتندرون في كتاباتهم بما كان يبديه الاشراف من احتقار للموت ، وباندفاعهم في ساحات الوغى ، وبجاستهم عند الايذان بالحرب ، وخوض غمارها باذلين في سبيلها كل عزيز ومرتحص . وكل ما عندهم من جهد وطاقة على الجهاد فيجودون بارواحهم ويتساقطون عياءً او يأساً . وعلى شاكلة ابطال هوميروس خاضوا المعارك راكبين عرباتهم الحربية ، يقدفون العدو بمزاريقهم ، ثم لا يلبثون ان يترجلوا ويخوضوا الحرب رجالة مشاة . وقد اعتادوا ان يحاربوا عراة الى نصف البدن ، الامر الذي ادهش الاقدمين فتفردوا بذلك عن جند الاغريق الذين كانوا يتدروعون الدروع الثقيلة . و تراهم في عهد يوليوس قيصر قد غيروا من عادتهم هذه فاستغنوا عن المركبات الحربية ونفروا عن استعمالها ، باستثناء الكلتيين في بريطانيا ، وتحلوا عن اتخاذ الخيل في الحرب الا كمطية للنقل .

فالحيلة عندهم ، هي افضل الطوابير واكرمها على الاطلاق . ولذا جعلوا منها عدتهم الكبرى وعولوا عليها اكثر مما عولت جيوش الاغريق والرومان . وكان النبلاء الكبار يمدون خيرة الاحلاق والانصار بما يلزمهم من خيل الطعان ، اما الباقون فيؤلفون كراديس المشاة ، عدتهم التروس والسيوف ولا سيما تلك التي صنعت خصيصاً لطعن الخيل . وكان استعمالهم السيف يقتضيهم جهداً جسدياً اكبر ، جعلهم في موقف اضعف من الجندي الروماني الذي كانت عدته الكبرى الخنجر الذي اسلس استعماله في الحرب ومهر فيه . والحق يقال ، ان نقطة الضعف انما تكن في غير ما ذكرنا . فالجيوش الغالية كانت تتألف ، في الغالب ، من طوابير مرتجلة تبادر للقتال عند توجيه الدعوة لها من قبل الزعماء والنبلاء ، لم تكن شجاعتهم والبذل سخياً بدمائهم ليعوض عما كانوا عليه من قوضى التنظيم وقلة الدربة وعدم التمرس بالمناورات الحربية ، وقوة الاحتمال والصمود في المعارك .

وفي فترات ما بين الحروب ومناقشات مجالسهم العامة التي يندفعون فيها اندفاعهم في الحروب ، كان الأشراف والنبلاء يعيشون بين ممتلكاتهم ومزارعهم ، يتلهون بالقنص والصيد فيستغيضون بهذه السليات عن التجمعات الصاخبة . وقد حال جهلهم لفنون الهندسة المعمارية وتقنية المصنوعات الابنوسية ، دون تجلي بذخهم في مفروشات بيوتهم وتجهيزها بالرياش والاثاث الكريمة . ومن مظاهر الفنى والثراء عندهم هذا التهافت على اقتناء الآنية الثمينة والادوات الجميلة يستوردونها من الخارج ، منها بعدت الشقة او غلا الثمن : كأسلحة الزينة والجوهرات والحزف الموشى بالرسوم والاشكال ، والحلي والاقمشة المزركشة الالوان . وقد تجلى هذا البذخ

على اتم صوره ، في هذه المآكب السخية حيث ترفل موائد الطعام بأشهى انواع اللحوم وألوان المأكولات ، يتنادمون ويشربون حتى يثملوا فيقعون صرعى فاقدى الرشد والوعي ، وقد أولعوا بخمور الجنوب يقتنونها بأعلى الاسعار ، بينما ينصرف الشعراء والزجالون ، وقد اجزلوا لهم العطاء للانشاد ، متغنين بمآثر الضيوف ومآتي الجدود . وهذا الاسراف يتجلى على احسن صوره ، في القبور والمدافن الجميلة التي تضم في ما تضم ، رماد السيد ، بعد ان عمت عادة حرق جثث الموتى خلال القرن الثاني ق . م ، وعظام الخيول الكريمة ، وعظام الاناسى : من عبده وخدمه ، وأنصاره وزوجاته ، قبلوا راضين ان يضحوا بأنفسهم مرضاةً لسيدهم وتكريماً له ، كل ذلك برفقة طائفة من الأسلحة والحلى ومن الامتعة المنزلية الغالية الثمن احياناً . كل هذه المراسم تدل بوضوح على تمسك القوم بعاداتهم القديمة المتوارثة سلفاً عن خلف . والواقع ان ملامح الصورة التي رسمناها هنا ، استمديناها ليس من يوليوس قيصر الذي يعتصم بالصمت في هذا المجال ، بل من مصادر أخرى اقدم منه واسبق له ، ومن بعض ما جادت به الاكتشافات الاثرية وما افاحت من ملاحظات . قد يكون التطور فعل فعلته في القوم وادخل على اوساط القرن الاول . ق . م تغييرات جذرية ، في عاداتهم واخلاقهم واعرافهم ، مع اننا نرى انفسنا عاجزين عن تقدير الضيوى التي قطعتها هذه الحركة الى هذا العهد ، والمراحل العديدة التي مرت بها . والذي نلاحظه هنا هو ان خمسين سنة لا غير بعد قيصر ، لا نرى ما يسمح عملياً ، التمييز بين الارستوقراطية الغالية عن غيرها من طبقة نبلاء الرومانيين واشرافهم ، في جميع انحاء الامبراطورية الرومانية .

النفوذ الذي تمتعت به طبقة النبلاء والقوة التي تمت لهم ، وما استقروا عليه الاردهمار الزراعي من اعراف وعادات ، خلال اجيال متطاولة ، كل ذلك يفرض قيام نشاط اقتصادي عم اطراف البلاد ، كان عماده ونقطة الثقل فيه الزراعة . فالسائمة والماشية هي مقياس غنى السيد وكلها دليل قاطع على الشأ الرفيع الذي بلغته تربية الحيوانات في غالبا . فالخيول المستعملة في جيش الفرسان انما تدل على ما كانت عليه تربية الحصان في البلاد ، فلا عجب والحالة هذه ان يرفرف في جميع انحاء البلاد وفي جميع الوية الجيش الروماني ، شعار الإلهة ايبونا *Epona* إلهة الخيل عند الغالين . ويؤكد لنا المؤرخ الجغرافي سطرابون ، من معاصري الامبراطور اوغسطس ، معتمداً في ذلك على مصادر قديمة ، ان الخنزير كان يربى في الهواء الطلق في جميع انحاء غالبا ، وان خطره على من لم يألف منظره او تربيته لم يقل عن خطر الذئب . وكان لحمه يصدر بعد تليجه ، بمقادير كبيرة ، الى روما وايطاليا . وليس من المستغرب قط ان يكون المصطلح *Bacon* ، المنحدر اليها من الاجيال الوسطى ، قد اشتق من اوضاع اللغة الغالية ، اذ ان احد الالهة المعروف بهذا الاسم ، بقي موضوع تكريم وعبادة خاصة ، في بلدة شالون سير سون ، الى عهد متأخر جداً . وكانت الزراعة تدر مقادير هائلة من الحبوب على اختلاف انواعها . فبدلاً من ان تصاب مرافقها بالتأخر او تعاني اي نقص في الانتاج ، نراها على

عكس ذلك ، تنمو وتزداد بحيث تبرز بحاصلها الطائلة انتاج اي بلد من بلدان البحر المتوسط .
الم يعزُ الرومان الى الغاليين ، وقد يكون هؤلاء من غير سكان غاليا ، فضل اختراع البرميل
والحراث ذات العجلات ، وحاصدة تجمع سنابل القمح في عربة متصلة بها ، بعد قطعها ، وينوّه
الرومان بشيء من الاستغراب ، دون ان يفقهوا الامر سرّاً ، بعادة مزج التربة الرملية بالتربة
الكلسية (عملية إصلاح التربة بالسجّيل) . وبلاد غاليا ، لا ترى نفسها مدينة بشيء يذكر
لروما ، من جهة الفنون الزراعية بالرغم من التفاوت بين الاقليمين ، واستطاعت دونما عناء ان
تؤمن من المواد الغذائية ، حاجة الجيش الروماني للجب الضارب على ضفاف نهر الرين ، كما تؤمن
حاجة روما ، في آن واحد .

ولعل التخلف الوحيد الملحوظ هنا ، هو الذي نلاحظه في زراعة الاشجار المثمرة ولا سيما
الكرمة منها . فقد ادخل زراعتها في البلاد ، الاغريق القاطنون على شواطئ البحر المتوسط ،
فانتشر استعمالها في غاليا الجنوبية . وعندما وطدت روما ، في النصف الثاني من القرن الثاني ،
في جنوبي البلاد ، حظرت على السكان زرع نصوب جديدة من الكرمة ومن شجرة الزيتون ،
تسبيحاً منها حول مصلحة ايطاليا في تصريف محصول البلاد وانتاجها منها . وقد احتفظ
للرعايا الرومان وحدهم ، بحق غرس نصوب جديدة من الكرمة وشجرة الزيتون ، في املاكهم .
ولما كان عدد هؤلاء المتمتعين بالرعية الرومانية آخذاً ابداً بالازدياد ، فقد رأينا الزراعة تزدهر
مرافقها جيداً في منطقة ثاربون ، في القرن الاول ق . م ، حيث تقننوا بالتأصيل عن طريق
انتخاب النصوب . وبذلك تم لهم الحصول على انواع متنوعة من الخمر اللذيذة . وهذا التقدم
تسجله مرافق الزراعة في مقاطعات البلاد الجنوبية ، لم يبلغ ، على ما نعلم ، هذا القسم المستقل
من غاليا ، كما تشهد بذلك مصادرها الاثرية والادبية ، اذ نراه يستورد من ايطاليا ما يرغب
فيه من انواع الخمر ، بينما كروم مقاطعتي بوردلييه وبورغونيا لا يرتفع لها ذكر الا
بعد ذلك بكثير .

المدن والصناعة والتجارة
امنت سيطرة الرومان وسيادتهم على هذه البلاد ، ازدهاراً كبيراً
لمرافق الصناعة والتجارة التي عرفت ان تأخذ بأسبابها قبل
الفتح الروماني . فاذا ما وجد قيصر حياة الريف عارمة ، فقد شاهد فيه ولا شك ،
مدناً ناشطة .

نشأت هذه المدن اصلاً بدافع الحاجة للدفاع عن البلاد . فهي ، على الغالب ، قلاع وحصون ،
قامت على المرتفعات ، او في قلب غياض ومستنقعات ، زادت في منعتها الطبيعية اسوار ترك لنا
قيصر وصفاً دقيقاً لها ، اذ كانت مواطن الضعف فيها بمثابة بعوارض الخشب المتصالبة ، تسد
بالجارة باحكام كلي . ومهما تكن المساحة الواقعة ضمن الاسوار ضيقة ، فباستطاعتها ان
تلعب دوراً ملحوظاً في حياة المحلة او المنطقة الاقتصادية . الا ان معرفتنا للوضع الاجتماعي

الذي كان عليه السكان ، من اسوأ ما يكون . فهم ، كغيرهم من سكان الريف ، يعولون احيانا ، على مشيئة عظيم من عظماء البلاد . الا انه من الصعب الظن بان الوضع هو واحد على السواء في جميعها . اذ ان دوران المدن ونشاطها كثيراً ما حمل الناس على التحرر من التبعية ، وعلى التطلع نحو الحرية .

فاذا ما وفّت صناعة الخزف وحياسة الصوف بمحاجات الاهلين العادية ، فصناعة الحديد والتعدين ارتدت ، هي الاخرى ، اهمية بارزة . فالمناجم والمعدّنون ، والساعون وراء فلزات الذهب بين رمال مجاري الانهر ، كل هذا اكتسب شهرة واسعة تجاوزت ولا شك ، في بعض الاحايين ، حدود البلاد القصية ، اذ ان الرومان الذين عرفوا بحرصهم على اكتناز المعادن الكريمة ، ولا سيما الذهب منها ، فراحوا يتجشمون مخاطر الاغتراب بحثاً عنه ، حز في أنفسهم كثيراً ، ان تجذب منه موارد البلاد . اما فلزات الحديد فمتوفرة فيها للغاية ، بينما فلزات النحاس والقصدير اتاحت وستيح طويلاً الازدهار لصناعة البرونز في البلاد . فايضا اجلنا الطرف وجدنا المهارات الصناعية تجاوزت في تطورها الصاعد ، الطور البدائي وتعدته بعيداً ، لا سيما صناعة تكفيت المينا وترصيعها ، اذ عرف الصناع الغاليون ان يؤمنوا لهم ، في هذا المجال ، شهرة واسعة اوصلت منتوجاتهم الى وادي الدانوب .

وهذه الصفحة المشرقة التي امتدح فيها سطرابون موقع غاليا الجغرافي وقركرها ، بين البحر الابيض المتوسط في الجنوب والمحيط الاطلسي ، في الغرب ، واثني عالياً على نظام جبالها وانهارها ، استمد سطورها ، ولا شك ، من كتاب تقدموه . ففي البلاد شبكة حسنة من المواصلات لا بل من الطرقات العامة ، كما تتوفر فيها اسباب الملاحة النهرية النشطة . يرد البلاد من الشمال جانب كبير من العنبر ينتهي قسم طيب منه الى البلدان المتاخمة للبحر المتوسط . وكذلك قل عن القصدير الذي تنتجه جزر كستياريد والتي تعمل اساطيل الارموريك القديمة على استيراده ، ولا سيما عمارة الفينيت النشيطة ، متحدية بذلك اساطيل مدينة قادش Cadès القرطاجية . فالعلاقات بين غاليا وبريطانيا متينة كما يشهد بذلك نظام كهان الدرويد المعمول به في كلا البلدين .

منذ القرن الثالث ق . م ، نرى عدة شعوب في غاليا تضرب لها السكة وهي ، في الاساس ، عملة ذهبية متشابهة تماماً ، حتى في طغرائها ، بالعملة المقدونية التي ضربها الملك فيلبوس الثاني ، والد الاسكندر ، على القطعة الواحدة ، من جهة ، رأس ابولو ، وعلى الجهة الثانية مركبة حربية يجرها جوادان . ثم تأخذ نماذج الانواع الاخرى تتغير وتبديل ، وتتجزأ بصورة غريبة . وفي مطلع القرن الثاني يطل علينا اثر مرسلينا ، ثم اثر روما اكثر فاكثر ، بحيث برزت المسكوكات الفضية والبرونزية ذات النقوش الوجيزة . ولم تلبث ان انتظمت السكة وعم استعمالها البلاد ، اذ ما كاد قبصر يطل عليها حتى رأينا تداول العملة يسهل الى حد بعيد ، المعاملات التجارية وييسر اسباب الاخذ بها .

في هذا الدور من تاريخ غاليا نرى العديد من التجار الايطاليين يحويون البلاد ، طولاً وعرضاً ، حتى القسم المستقل منها . فقد تغلغلوا فيها وانساحوا في أرجائها في سبيل تفتيق ما لديهم من المحور الاصيل . نقرأ في احدى خطب شيشرون خطبة تقيض بالمعلومات حول سوق احدى المدن ، ارهقها الحاكم الروماني بما فرض عليها من الرسوم الباهظة ، كما اتنا نجد في بعض مقاطعات الين جراراً ايطالية الصنع جيء بها قبل قيصر بزمان . ومن ثم نرى هؤلاء التجار يتعاطون بيع الخزف المصنوع في مقاطعات اتروريا وكبانيا الايطالية ، وهو أدق صنفاً من الخزف المحلي ، كما ان فريقاً منهم يقومون هنا وفي انحاء اخرى من دنيا البحر المتوسط ، بأعمال مصرفية ويتعاطون الربا . من هذه المدن مدينة جيناوم (Orléans) التي تعد بين تجارها عدداً من الرومان اتخذوا لهم منها مستقراً . وهكذا نرى بوضوح ، كيف ان تجارة غاليا الداخلية والخارجية على السواء تمتد وتنتشر بسرعة ، وهي تجارة تجمعها المصادر التي نعول عليها ، ومعظمها روماني الاصل والنوع ، بين ايدي الايطاليين . والذي لا مراء فيه ان اهمية الدور الذي قام به الغاليون ، بعد قيصر بمدة وجيزة ، يجعل من غير المقبول ولا المعقول قط ، عدم مساهمتهم في هذه الحركة الاقتصادية الواسعة النطاق ، لا سيما سكان مقاطعة تاريون الذين لا يمكن ان يكونوا بقوا ، بمزول عن هذه الحركة ، ونحت تصرفهم طريق من انشط الطرق حركة هو وادي نهر الرون . فقاموا بدور المذهب والرائد لدى ابناء جلدتهم في هذا القسم المستقل من البلاد .

فوفرة الانتاج الزراعي والصناعي ، وضخامة الحركة التجارية والمبادلات التي ادت اليها ، كل هذه العوامل وما اليها هيأت لغاليا ، اسباب اللحاق بنظام الحياة والمستوى الذي تحققي في بلدان حوض البحر المتوسط الغربي . ولذا جاز لنا ان نستنتج ان ما استهدفت غاليا الى تحقيقه من التطور الاقتصادي ، كان من شأنه ، ولا شك ، ان يفضي بها في التالي الى هذا التطور الاجتماعي الذي بدت طلائعه وارتفعت بنوده خفاقة ، ولو أغفلت مصادر العهد عمداً التحدث عنه ، وكلها رومانية مغرضة ، ولم تكن ، بالتالي ، بحاجة قط للفتح الروماني لبلوغه .

لا تخلو حياة البلاد الدينية من إصالة . فهذه الحياة لا تتمثل في قسمها الافضل بالآلهة الديانة التي عبدها الغاليون ، وقد تكاثرت عددها ، وتنوعت صورها ورموزها ، وهي رموز وصور يمكن ردها لأصول نجدها في غير موضع ومكان . فاذا قمنا نحاول ردها الى منابعها العرقية الاصيلية ، أسقط في ايدينا لكثرة ما يطالعنا من تواتر الصلات وتشابك العلاقات بين الغاليين وغيرهم من الشعوب التي عاصروها وعاشوها . فكم من النواتئ الطبيعية تسربلها سمات الدين شمت منها مناسك العبادة والطقوس : من قنن الجبال ورؤوس التلال ، والحجارة المجانبية المؤلهة ، والينابيع المقدسة والاشجار ، المباركة ، والحيوانات المقدسة . فوروا باسم « أمهات » عن عبادة الخصب . هنالك آلهة في السماء تشرق على أعمال البشر وتهيمن على نشاطاتهم ، تناقل الغاليون عبادتها عن الكلتيين ، بينها وبين آلهة الاغريق والرومان وشائج وصلات . وقد

ألقوا بها من الصفاتية غير المستقرة الصورة وعقدوا لها من السمات ما أعجز أكفأ القدامى من توضيح أو تبين هذه المعادلات ، عندما راحوا في تحليلهم لها ، يعولون على مناهج اليونان والرومان في تحديد مناقب هذه الآلهة ومشبّهاتها . فقد رأى قيصر في الإله عطارد احتق آلهتهم بالاحترام والتقديس ، ثم يليه مقاماً ، على التوالي : أبولو ، فارس ، فجوبتير ، فنيروفا . « فقد رأى الغاليون في هذه الآلهة ما سبق للناس أن رأوا فيها » فإذا ما وازت منيرفا عندهم ، الإلهة « بليزاما » التي لا يبدو أنها احتلت بين الآلهات الاثنى المرتبة السامية التي يحلوا لقيصر اضعافها عليها ، فعبثاً نحاول أن نضفي على هذه الآلهة الذكور ، هذا أو ذاك ، من الاسماء والنعوت الكبيرة التي أطلقوها على آلهة الغاليين ، امثال : تواتيس ، وتارانيس ، وايزوس وغيرها كثير . ومهما يكن من تباين المفارقات بين هذه التعريفات ، فليس من الصعب قط التعرف الى العقائد العامة التي تجسّمها .

لبعض هذه الطقوس الدينية مناسك فرّدتها وميزتها . ورجحان هذه العبادات في الريف يظهر بنوع خاص ، في افتقار المدن لهياكل ومعابد كبيرة ذات شأن . فلم يكن يهتم الغاليين أن ينشئوا لآلهتهم هياكل . وكانت العادة المتبعة عندهم أن يقيموا للآلهة في قلب الغابات أو في سبائخ الارض الموات ، اماكن خاصة مستديرة الشكل ، يتوافد الإلهون زرافات ووحداً لزيارتها في الاعياد الموسمية التي كانت في الوقت ذاته ، اسواقاً تجارية . ففي اليوم السادس من الهلال ، يتقدم كاهن يجلال وأبهة وهو لابس حلته البيضاء ، فيقطع بمقضب من الذهب غصون البقس المقدس (*Guis*) احد طفيليات شجرة البلوط فيتساقط على إحرامات بيضاء من الكتان فرشت تحته . فوجوده على السنديانة دليل بأنها مقدسة وشهادة على قدسية المكان . ويتبع عملية القطاف هذه نحر ثور ابيض ، ثم تقام الادعية والاوراد وتؤدّب المآذب والولائم العامة . اما استمرار الاخذ بتقديم الذبائح البشرية فمظهر من مظاهر التخلف في تطور عادة القرابين ، وهي ذبائح عملت السلطات الرومانية على منعها وتحريم الاخذ بها ، فاستجاب لهم الالهون بسهولة . اما الذبائح البشرية التي كانت تقام في حالات بعض الامراض أو الاخطار الشديدة فقد رأى فيها قيصر « مجلى لارادة الآلهة الخالدين التي لا يمكن تهدئتها إلا بالاستعاضة عن كائن حي بحي آخر » . ومن هذه الذبائح ما كان يقدم باسم الدولة ، فيحكون على الضحية ، مذنباً كان صاحبها ام بريئاً ، بالحرق أو الغرق أو الشنق .

ولعل خير ما يميز إصالة الحياة الدينية عند الغاليين هو نظام الكهنوت أو الدرويدية ، وهي عبارة عن رهبنة كهنوتية يسربلها الوقار وتتمتع بنفوذ ديني وسياسي عظيم ، ويجعلها تهيمن على الطقوس الدينية ، والاحتفالات الطقسية فلا نرى شيئاً من هذا التخصص والانقطاع عند كهان اليونان أو الرومان ، ولا هذه التعاليم الدينية التي كانوا يطلعون عليها تبعاً وبمقادير تتفق ودرجاتهم ، وخلال مدة طويلة تمتد عشرين سنة . وكان عليهم أن ينقلوا بعض تعاليمهم

للمؤمنين والشبيبة النبلاء الموكول اليهم تربيتهم وتلشتهم تنشئة عالية . وكفيرهم من الكهان قديماً ، فكان يترتب عليهم القيام بأعمال التعزيم وزجر الطير وعبادة الذبائح ، كما كانوا يقومون بأعمال السحر والتعزيم . وهذه أمور اوغرت صدر الادارة الرومانية فأوجست منهم شراً لعلاقتهم ببريطانيا المستقلة ، فاتخذت من اعمالهم هذه ذريعة لمطاردتهم ، قبل ان تأمر بنفيهم خارج البلاد . وقد استطاع فريق من هؤلاء الدرويد قبل الفتح بقليل ، ان يسمو بتفكيره ليبلغ فيه حد التجريد الفلسفي والنظرية العلمية . وكان شيشرون نفسه يجد متعة روحية في احاديثه ومناقشاته مع ديفيسياك *Diviciac* ، ويشدد قيصر امامنا ان كهان الدرويد ، « كثير ما استرسلوا في ابجائهم عن النجوم وما ترسمه حركاتها في الفضاء من دوران وابراج ، كما همهم عظم الكون واتساع الارض وغاصوا في درس طبيعة الاشياء وجوهرها » .

من تعاليمهم الدينية البارزة قولهم بالتنقص وتناسخ الارواح بعد الموت ، وانبعاثها حية من جديد في كائنات حية . ولذا راحوا يرسمون نهجاً للاخلاق الحسنة من مبادئه ضرورة الاعتصام بجبل الدين واحتقار المحارب للموت . ومع ان بين المحدثين أكثر من واحد يتباهى بتشككه ، فن العسير جداً التسليم بأن القدماء الذين رووا الكثير من اقاصيصهم واخبارهم اعترفوا لهم بهذه الافكار والمبادئ ، مع انهم قسوا عليهم وتجهموا لهم في أمور اخرى كثيرة .

الدين هو الشكل الوحيد الذي تباور عليه نشاط الغالين الادبي والفكري .
ولذا كان لازماً علينا ان نستفيض ، بعض الشيء ، في بحث اوجه هذا النشاط . فقد كان عندهم ادب تمثل في الشعر الملحمي والشعر الغنائي ، كما كان عندهم شعار وزجالون . وكان لهم بالطبع شعر ديني اذ كثيراً ما بلغت تعاليم الدرويد الشعب شعراً . الا انه لم يسلم شيء يذكر من هذا كله ، ولم يصلنا منه الا نتف مبثرة ، مع انهم اقتبسوا الايجدية اليونانية والحقوا بها بعض حروف ورموز لا تينية ازداد عددها مع الوقت ، وعرفوا الكتابة والخط ، كما يبدو من نقوش النميات الغالية والنقائش النادرة التي تم العثور عليها ، فراحوا في تخرجهم الديني والتعصب المذهبي ومغالاة منهم في التزمتم يحظرون نقل هذه التعاليم كتابة مؤثرين انتقالها بالتواتر المسلسل والتقليد المروي .

اما من حيث الفن ، فالآثار القليلة التي وصلت الينا من مخلفاتهم ، لا تعبر الا ما ندر ، عن اهتمامهم بالجمالية . ولعل اهم هذه الكشوف الفنية هي التي عثر عليها منذ بضعة عشر سنة في انترمونت ، بعد الحصن الذي سقط عام ١٢٣ بايدي الرومان ، فاسسوا على مقربة منه مدينة ايكس - آن - بروفانس ، وهي كناية عن نقوش تصور رؤوساً بشرية معدة لتعمل على رؤوس حقيقية لاعداء وقعوا في الامبرثم اجتزت رؤوسهم . وهي نقوش تعلق على ابواب الظافرين وفقاً لعادة يرونها لنا سطرابون .

ومهما بدا من فقر العنصر الفني في هذه النقوش ، فأثر الفن الاغريقي ظاهر فيها . ويتضح

من نقوش اخرى تم نبشها في المنطقة المطلة على البحر الابيض المتوسط ، ان قبيل الفتح الروماني بقليل ، شيئاً جديداً أطلّ على غالبا بفضل اتصالاتها مع الاغريق القاطنين على ساحل البحر .

المدينة الغالية والسيطرة الرومانية
ومها يكن من وضاعة المولود الجديد ، فقيمته لا تظهر على وجهها الصحيح إلا بعد مقارنته بمدينتي اقوى وأشد ، سق ونوهنا ببعضها من قبل . وسواء أكان هذا المولود جنيناً طري العود ، أو نبتة غضة ، فقد عديم كل نشاط ، وفقد كل حيوية من جراء وقوعه تحت سيطرة روما وسيادتها ، بعد ان هيمنت ، بين ١٢٥ - ١١٨ ، على الاقاليم الجنوبية ، ثم امتدت الى المحيط وضاف نهر الرين على أثر الحملة التي سيرها عليها يوليوس قيصر ، واستمرت من ٥٨ - الى ٥١ ق . م .

تم الفتح الروماني غلاباً وبعنف كلي . فقد عوّل قيصر أكثر ما عول لاستباحة البلاد وتدوين الغالين ، على البطش والشدّة . من ذلك مثلاً ، انه امر بقطع أيدي كل المدافعين عن حصن او كسليدونوم *Uxellidunum* في مقاطعة كيرسي *Quercy* ، آخر معقل من معاقل البلاد . وقد اتاخ بكله على البلاد ، فاطلّ الدماء غزيراً ، اذ جاوز عدد قتلى الحرب المليون ، كما نيّف عدد الاسرى الذين بيعوا في اسواق النخاسة بيع النعاج على المليون . والظاهر ان البلاد عرفت ان تعوض بسرعة الحساثر البشرية والمادية التي منيت بها خلال هذه الفتوحات . صحيح ان روما فرضت سيطرتها على البلاد بالقسوة كما فرضت عليها جزية باهظة تدفعها أنجماً سنوية ، ضاربة كشعاً عن فرض نظامها الاجتماعي والاقتصادي ، وديانتها ولغتها . والهجرة الايطالية في سبيل إنشاء مستعمرات رومانية بقيت في حدودها المعقولة . والحقيقة التي لا تماري ، هي ان زوال المدنية الغالية من البلاد ، يجب رده بالإكثر ، الى استجابة الطبقة المسيطرة بسرعة ، أكثر في المدن منها في الريف المتحفظ ، وأخذها بمنافع المدنية الرومانية ، فأقبل السكان عليها طوعاً واختياراً ، دونما تردد او تقزز ، وبمعزل عن أي اضطهاد مدبر او ضغط مخطط له من قبل الفاتحين ، بداعي الانتقام او الحقد . ومنذ القرن الاول للفتح الروماني ، نعمت المدينة الجديدة برضى وعطف قادة الحركات الانتفاضية والردات الوطنية التي كانوا يقومون بها عندما تراودهم وتلتصب امامهم في مآتي العين ، ذكريات الاستقلال المضيع . صحيح ان البلاد حافظت فأبقت الكثير من عاداتها وعباداتها وأعرافها المتوارثة ، حتى ان كلمة فرسخ (*Leuga*) رجح استعمالها في البلاد على كلمة ميل الرومانية . ومع هذا ، يشعر المرء بشيء من الرضى لهذه المفارقة التي تتمثل في طلوع مدينة جديدة تعرف عندنا بالمدنية الغالية الرومانية ، هي في صميمها أكثر رومانية منها غالية ، ليلهو بعد هذا ، بتعلّات من القشور والتوافه تبدو في بقاء او استحياء بعض التقاليد والاعراف .

ولما كان الفتح الروماني أدى الى فصم الماضي وانقطاعه ، وأدى الى مثل هذه الردة او الارتداد

الشامل' ، فهو يمثل حدثاً تاريخياً عظيماً له من النتائج الخطيرة والشأن البعيد ، ما يجعل ذكره او الحديث عنه يلهب الخيال . فبين الافكار العديدة التي تستبد بالخواطر عند النظر ملياً في هذا الحدث التاريخي العظيم ، فكرتان لا يمكن التغاضي عنها قط ، اذ يكونان الخاتمة الطبيعية لهذا البحث الذي نسوقه هنا .

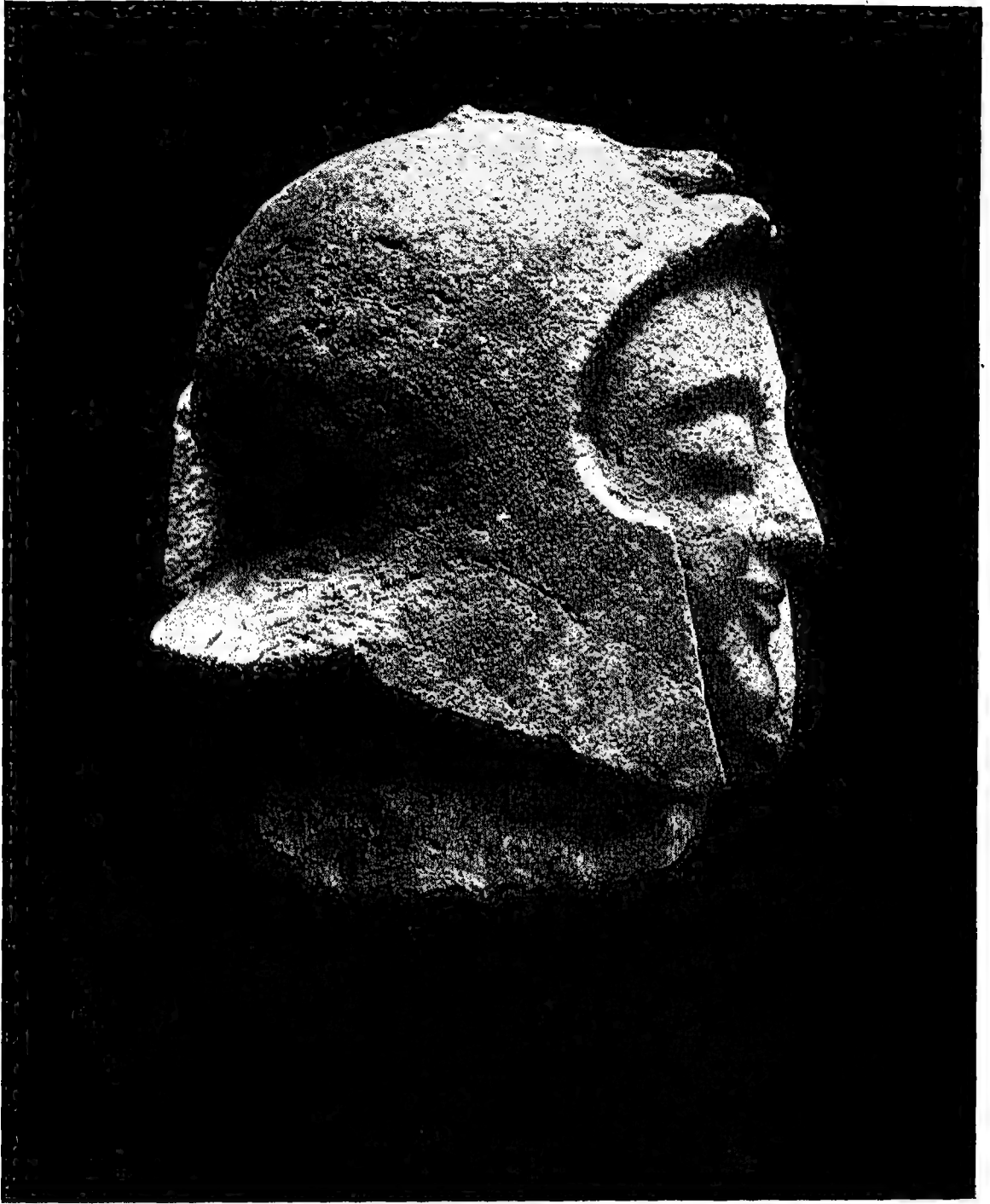
فقد حملت روما الى بلاد غاليا حضارتها دون ان تأخذ منها عملياً ، شيئاً يذكر ، اذا ما اقتصرنا على الامور الاساسية . ومع ذلك ، فهي مدينة لهذا الفتح بأشياء كثيرة ، منها هذه الموارد المادية الطائلة التي عرفت ان تستخلصها والتي تتمثل من ناحية ، بهذه الكنوز المدخورة ، ومن ناحية أخرى بهذه المحاصيل الزراعية والصناعية التي وفرتها لها خلال بضعة اجيال ، بلاد شاسعة الأرجاء ، متنوعة الطاقات والامكانات الطبيعية تتدبرها يد عاملة نشيطة . كذلك افادت ، على نطاق واسع من طاقات البلاد البشرية فأمدتها المقاطعات الغالية بطوابير من خيرة الجند ، منها ما اشترك بأعمال الفتح ، كما أمدتها بفئات عديدة من رجال الادارة ورجال الفكر ، وبامباطرة ابتداءً من القرن الثاني للميلاد . فاذا ما نظرنا الى الأمور من علي ، استبد بنا الايمان اليقين بأن سيطرة روما على مثل هذا القطر من اقطار اوروبا الغربية ، أعاد الى الامبراطورية الرومانية هذا التوازن الذي كاد يفقدها إياه ، فتحها للولايات الشرقية الواسعة الأرجاء ، الفنية بمواردها والسباق في تطورها الثقافي والحضاري . فلولاً غالياً ودخولها الامبراطورية ، لم يكن احد ليتكهن ما عسى ان تأتي نتائج الحرب الاهلية عليها . ففي الوضع الناشئ عن انكسار انطونيوس وكليوبطرة في المرحلة الاخيرة من مراحل هذه الحروب التي جرت الخراب على البلاد وتوازعتها بدعاً وشيعاً واحزاباً ، فما هو المنحنى الذي كان لا بد ان تتخذة حركة او موجة تشرق الامبراطورية الرومانية ، لولا الثقل الذي طرحته غاليا والغرب وأثره البارز في الحفاظ على هذا التوازن .

هذا ما خص روما من الامر ، ولكن ما عسى ان يكون الشأن مع غاليا ؟ ليس من الفضول بشيء ان نتساءل هنا ما عسى ان يكون عليه مصير هذه البلاد ، لو لم تبسط روما يدها عليها ، وما هو لمعري ، نوع وطابع هذه المدنية التي كان من المقدور ان تطلع بها لو لم يقع عليها هذا الفتح ؟ فالمؤرخ الفرنسي كميل جوليان (C. Jullian) مؤرخ غاليا الاكبر ، الذي قضى الشطر الاكبر من حياته باحثاً منقّباً في تاريخ هذه البلاد ، خامره الشك حيناً في كفاءة الطاقات التي تهنيء لها المستقبل الطالع امامها ، وأعرب عن عدم ثقته بها . الا انه عاد ، بعد ان تكتشفت امامه حقائق الامور يؤكد عالياً ، ويثبت قدرة هذه البلاد الكامنة ، على الخروج بمدنية غالية ، أصيلة الطراز والسمة ، لها من غنى الطاقات وتنوعها ما كان يسمح لعبقريه شعبها ، بعد الذي افاده من دروس الحضارة الهلينية ، ان تكيف على الصورة التي تتجلى لها وترغب في تحقيقها ، وضع مستقبل هذا الشعب ، ووضع طبيعة أرضه . وهذا الاحتمال المقدور ، حفزه ليصرح عالياً ،



۱ - محارب کا پسترانو

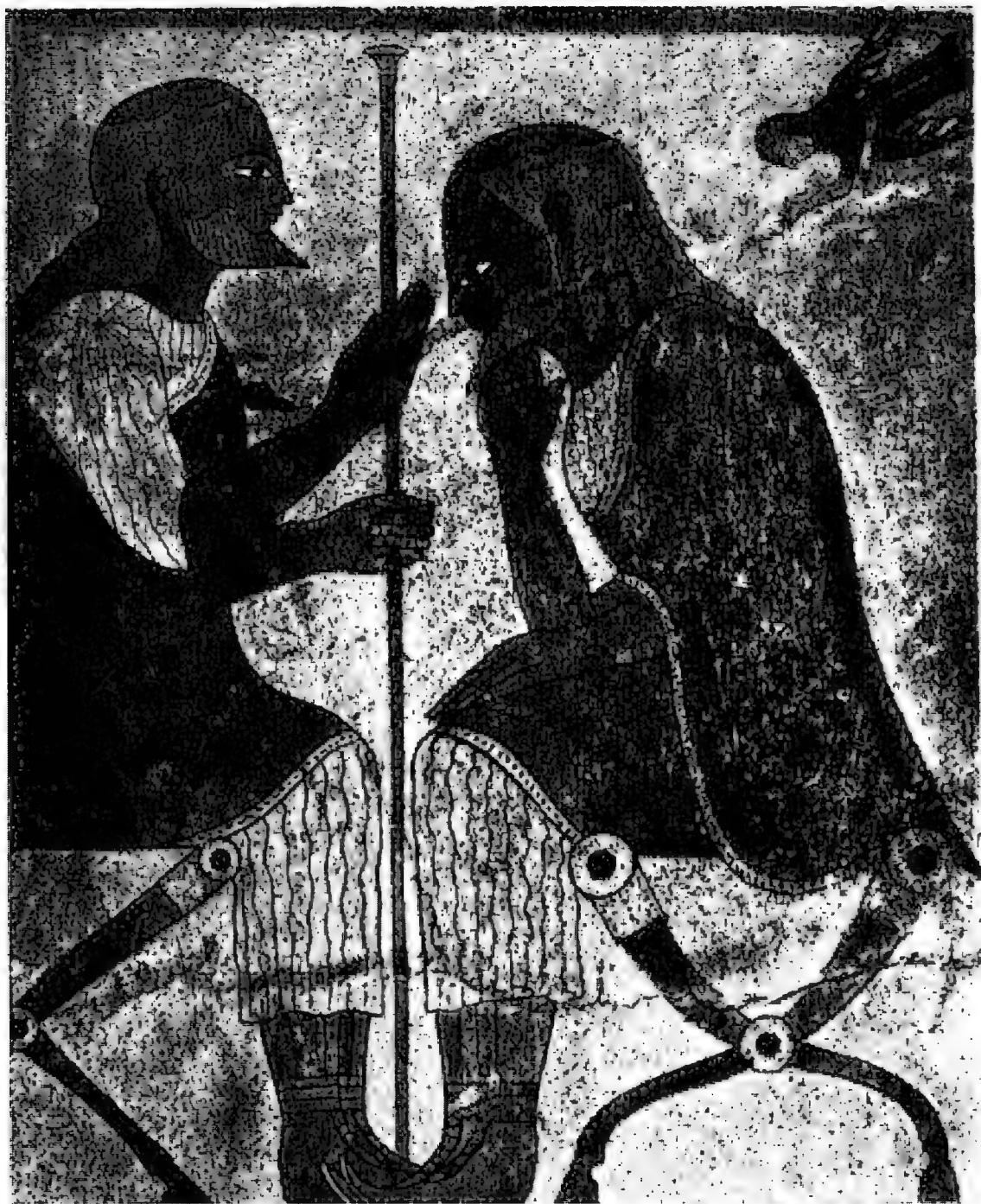
روما و امپراطوریتھا۔



٢ - رأس محارب اتروسك

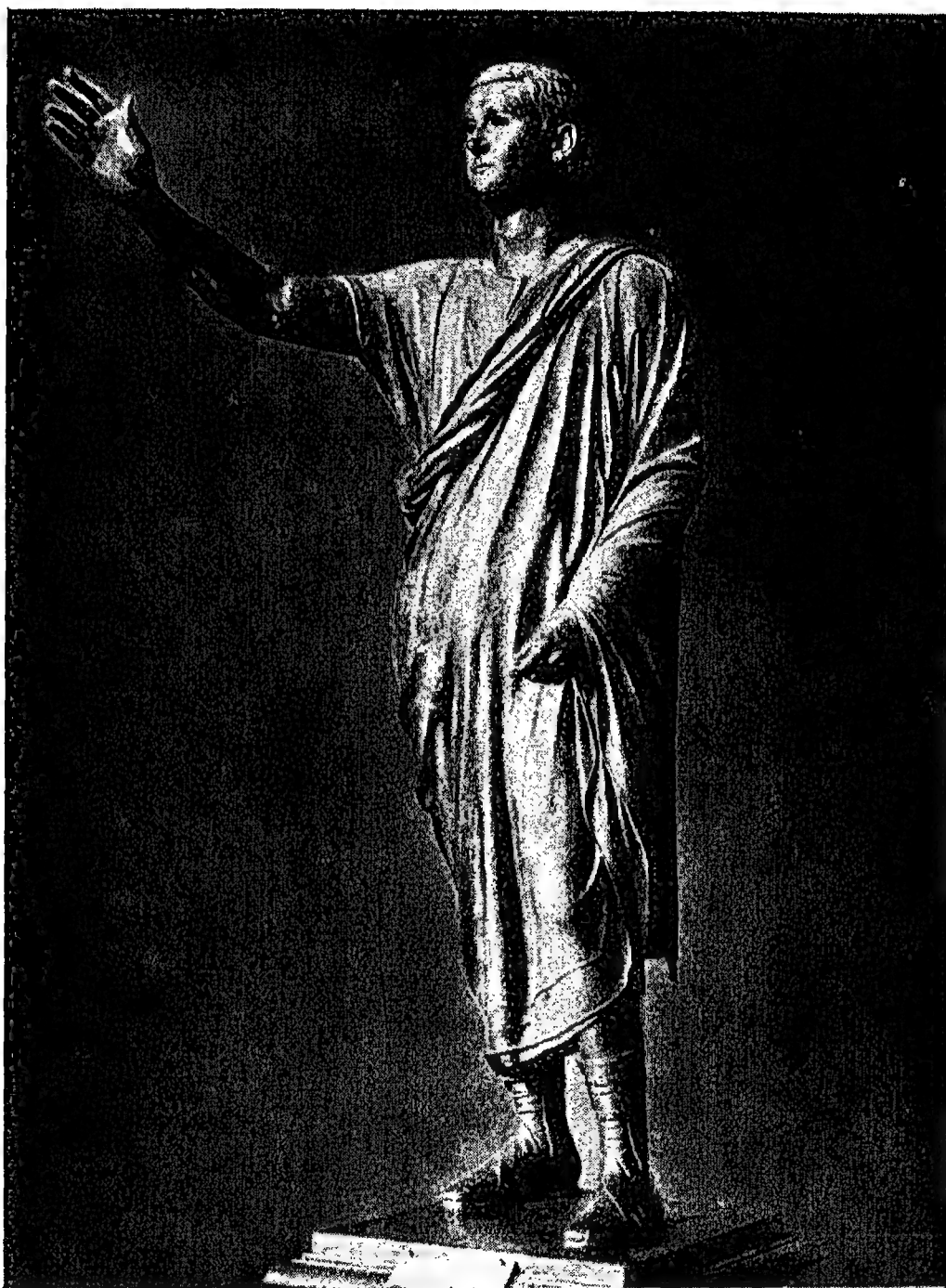


٣ - محارب اتروسك من الخزف

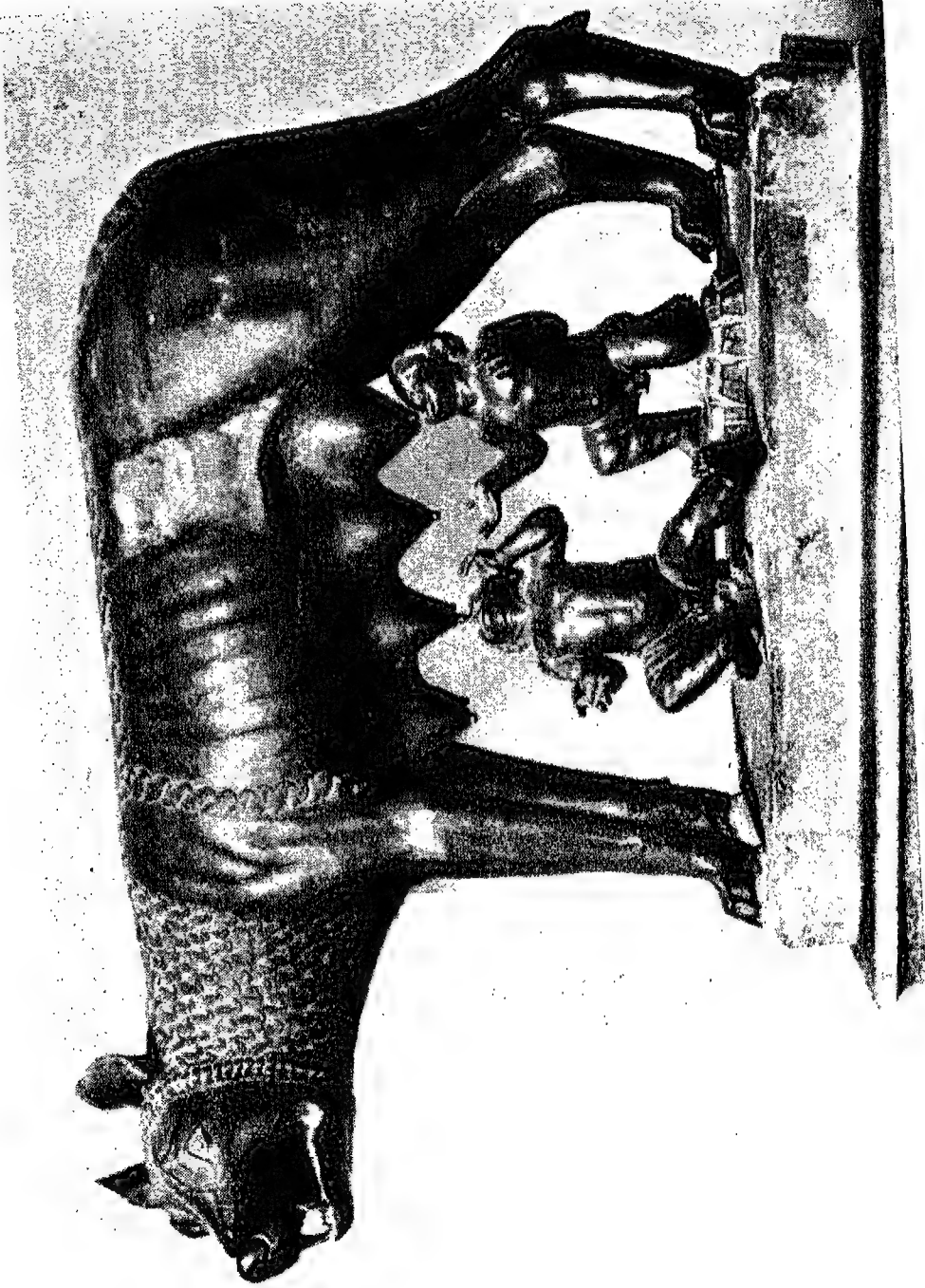




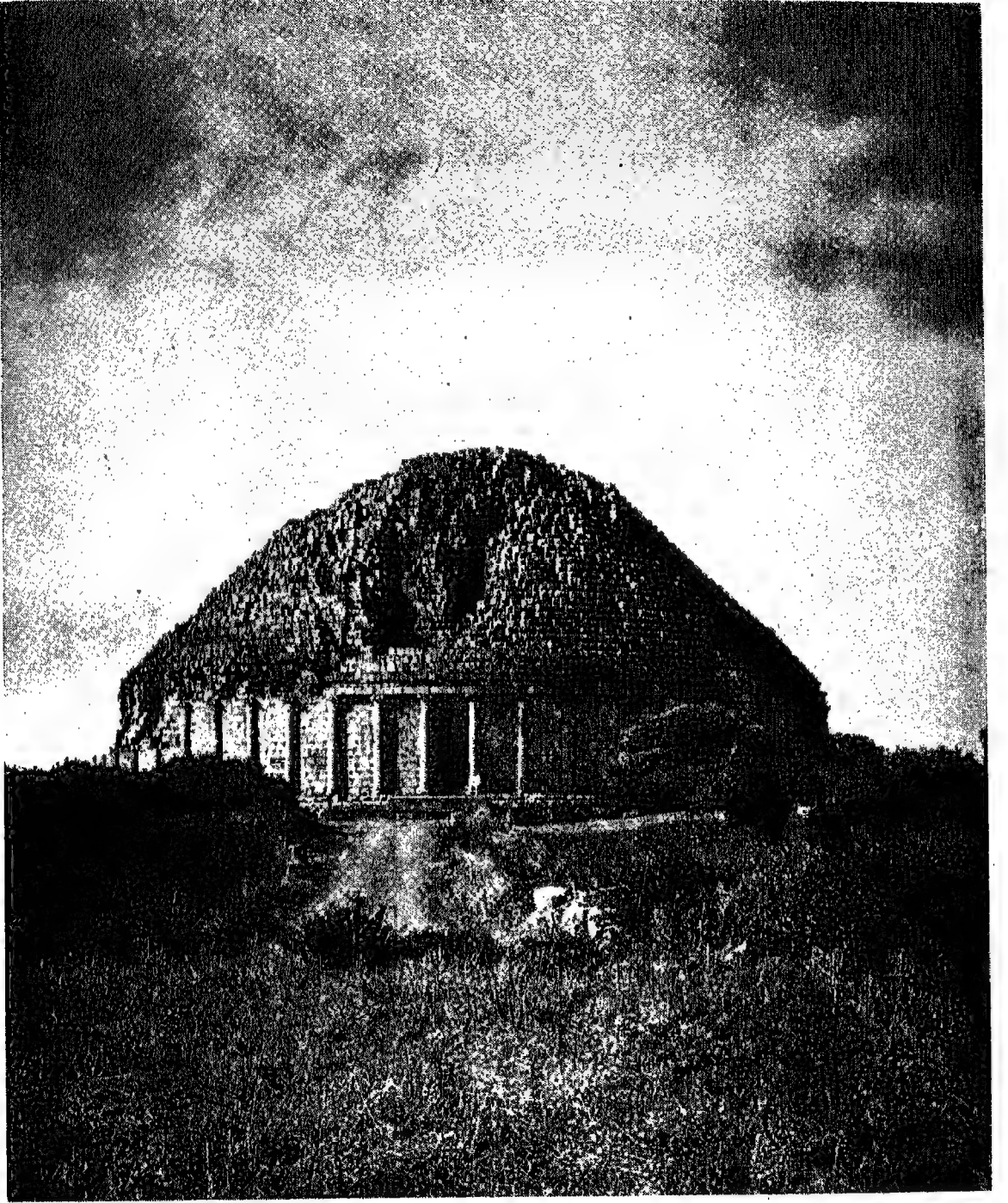
٥ - ديماس آل فولومنيوس ، على مقربة من بيروزا



٦ - الخطيب



٧ - ذئبة الكايتول



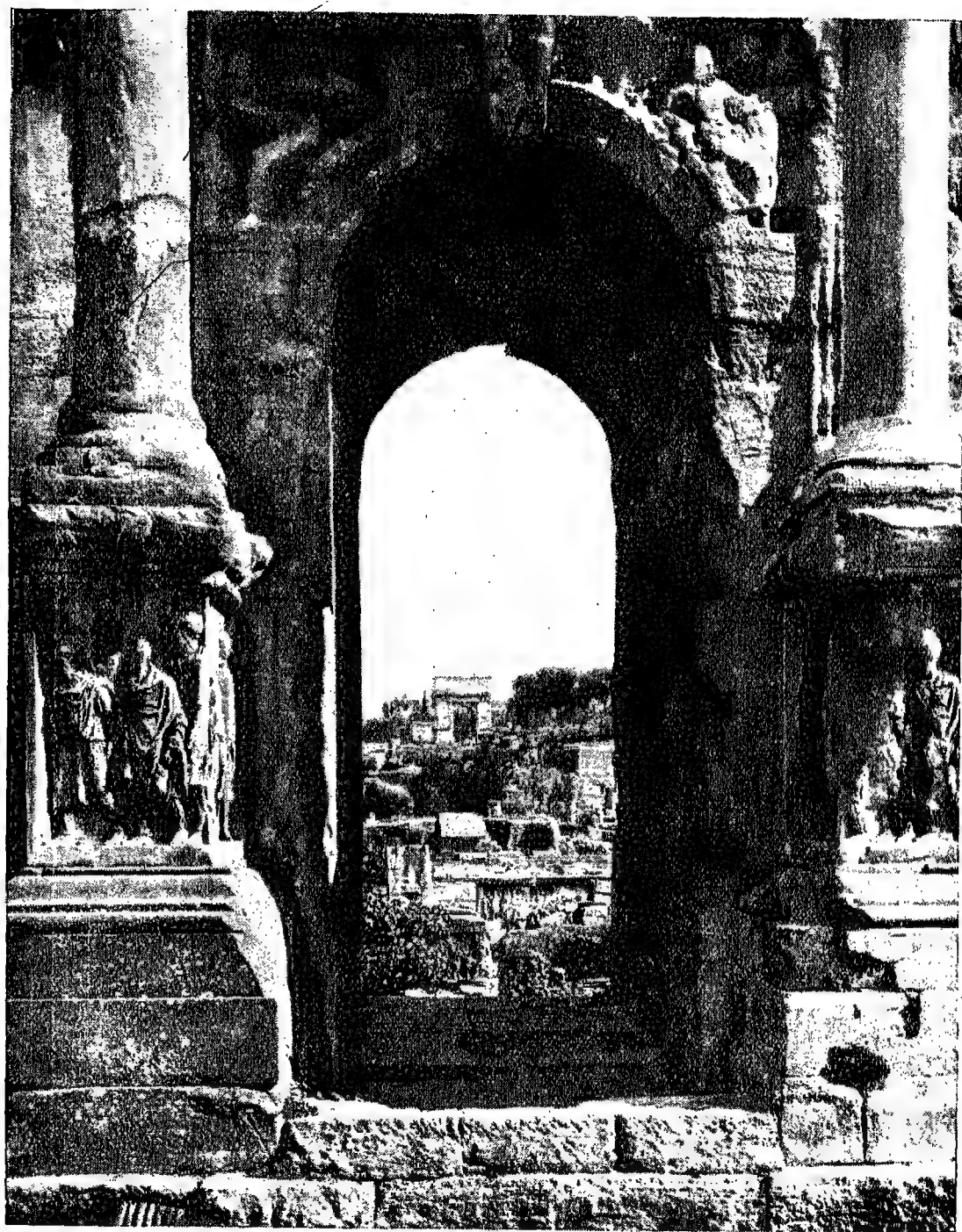
٨ - القبر المعروف بـ « قبر المسيحية » على مقربة من تيبسا
في الجزائر



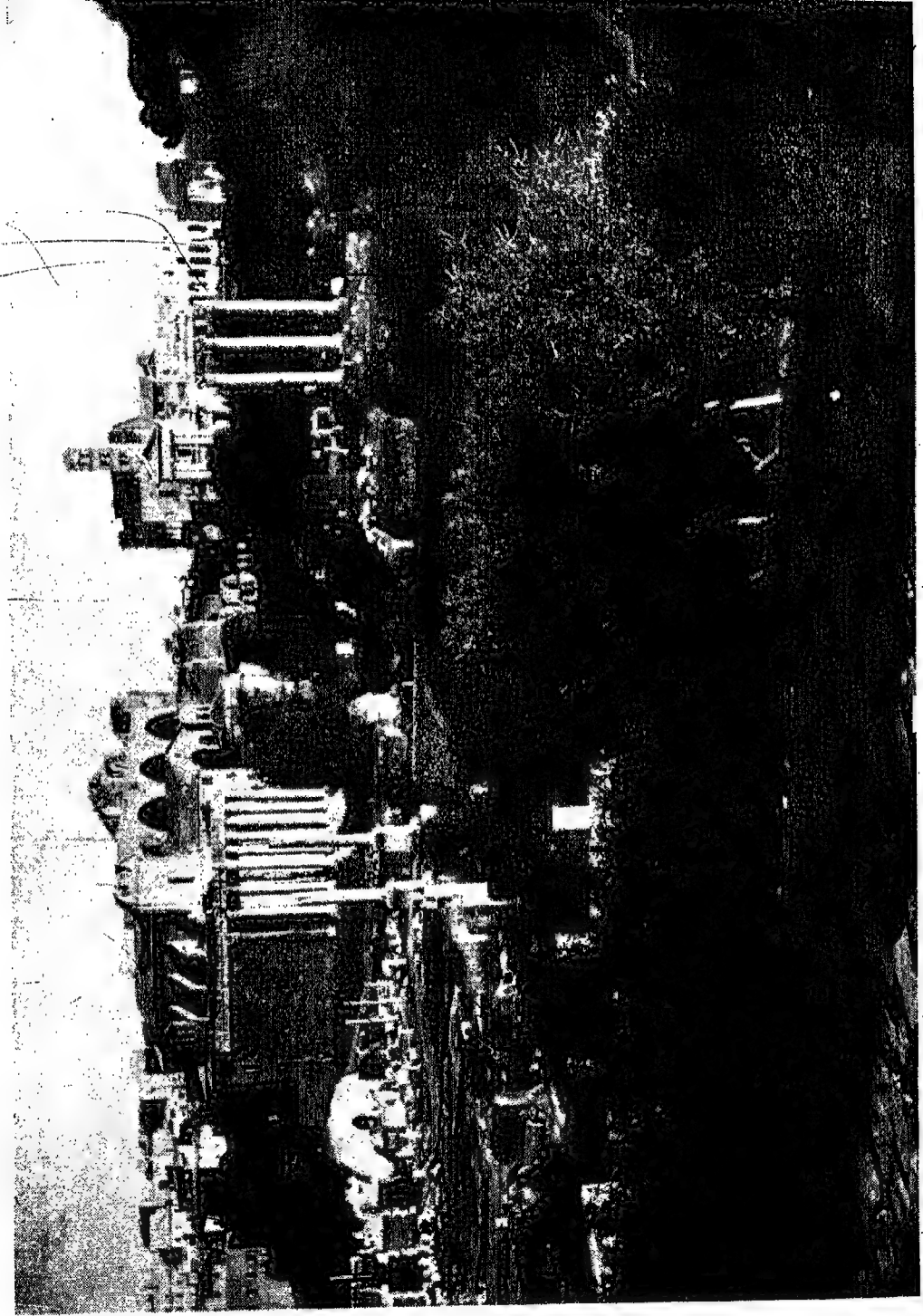
٩- سيدة الكيه



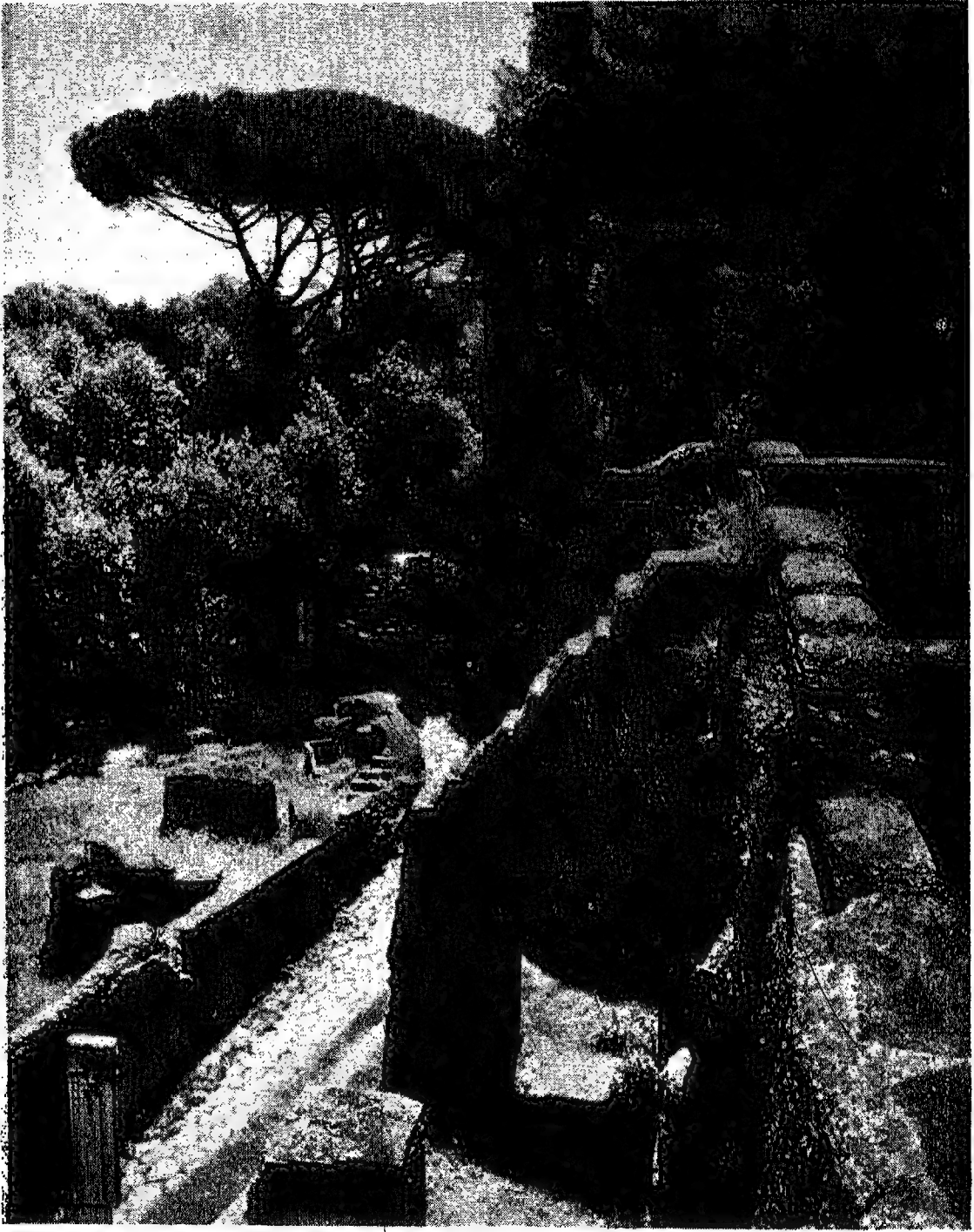
۱۰- موبلیت و مرکبات حریبه. افریز گردان به قومه نیکس



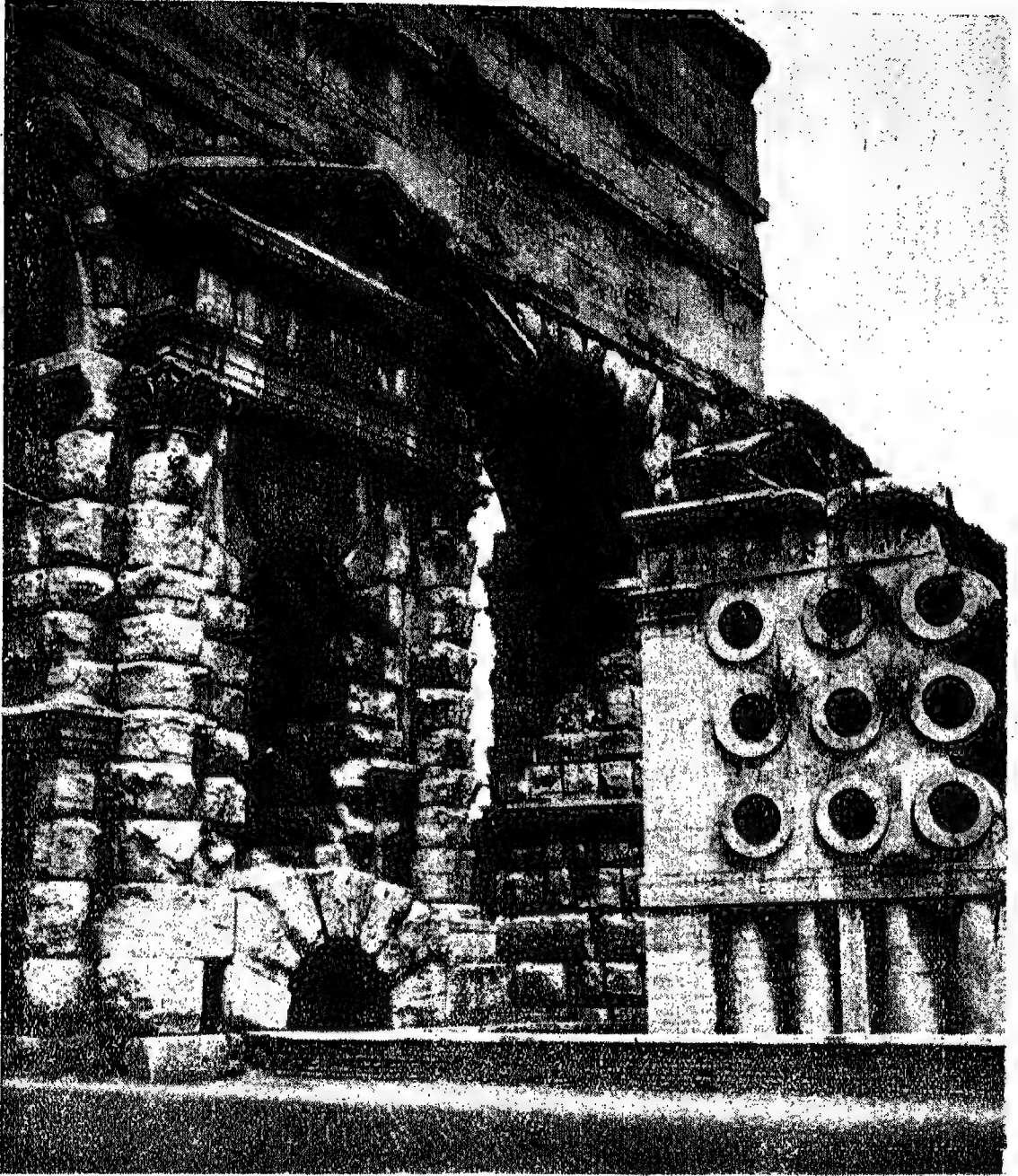
١١ - روما : الفوروم، من خلال قوس سبتيموس ساويرس



١٢ - روما : منظر عام للقوروروم



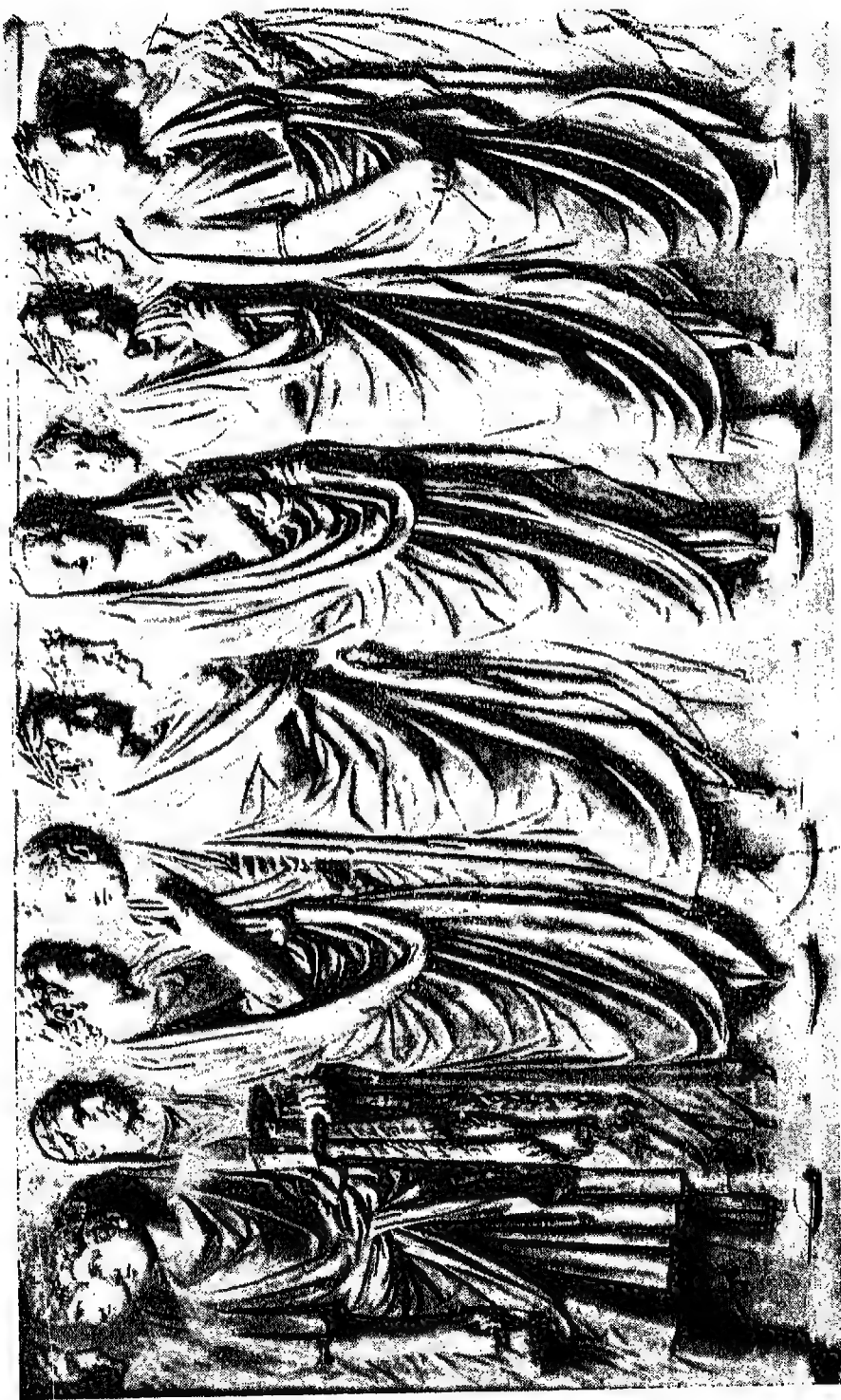
١٣ - روما : اطلال على جبل الهلاتين



١٤- روما: الباب الكبير ومدفن الخباز م. فرجيليوس
اوريماسيس



١٥ -- اوغسطس : رأس رخامي كتشف في أول (القرن
الاول قبل المسيح) .



١٦ - موكب شخصيات رسمية . نقش في « آرا باليس »

ويعلم على رؤوس الأشهاد ، في دهشة المحافظين وذهولهم ، بأن الأذى الذي ألحقه الفتح الروماني بغاليا ، ليس بالنظر للظالم الوحشية التي صلبها عليها فحسب ، بل أيضاً ، وبالأكثر ، لما سبب لها من إجهاض التربية الوطنية التي كانت أخذت بأسبابها . وقد قوبلت تصرّحاته الحارة هذه بمعارضة من قبل بعض المشنّعين ، محتجين بأن استقلال غاليا ومصير مدينتها ، كان يتعهدما على السواء ، في الوقت الذي اطل عليها قيصر ، مصير واحد : غزوات الجرمانيين ، بقيادة اريوفيست *Arioviste* والغزو الروماني بين فتح وفتح ، ودمار ودمار لا مفر منهما . فالفتح الروماني كان ولا شك ، أقل شؤماً على البلاد من الفتح الذي كان ينتظرها على يد منافسين زرعوا الهول وسمروا الخوف أينما وطأت سنابك خيلهم .

هذا المصير النظري الذي كان من الممكن ان يصيب كلا من روما وغاليا ، يؤلف لعمري مجالاً واسعاً للخيال الشرود ، والتجريد الفلسفي . فجمع العناصر التي تساعد على المضي في النظر ، ولو من باب المقارنة ، عملية هي من بعض حسنات علم التاريخ . فالاستسلام لها والانقطاع عنها بشيء من الهجامة خطر لا تحمد عقباه . فأَيَّ حَكَمٍ يفتي في الامر وضميره مطمئن لقضائه ، وهو حكم يدور ليس على أمر وقع ومضى فحسب ، بل على ما هو مقدور في ضمير الدهر ؟

الكتاب الثاني

حضارة روما الجمهورية

لننتقل دون إبطاء الى روما .

الشعوب الغربية الاخرى
قبل الرومان
مهما يكن من شأن الاتروسك (Etrusque) والقرطاجيين والغالين
فان هذه الشعوب الثلاثة وحضاراتها لم تغطّ الغرب بكليته قبل
الرومان . وعلى الرغم من تلميحنا في سياق البحث ، حول شعوب ايطاليا الوسطى والليغوريين
والإيبيريين وأولئك اللاتيين الذين ليس اسمهم الحالي « بربر » سوى امتداد خفيّ لاسمهم القديم
الواسع الانتشار ، « برابرة » ، وسكان الجبال في جزر المتوسط الكبرى وسلسلة الالب ،
والجرمانيين الذين اعرض الاباطرة عن إخضاعهم بعد مجزرة « جوقات فاروس » والبريطانيين
الذين أخضعوهم حتى غتنتق الجزيرة البريطانية عند سكوثلندا الجنوبية ، فالشعور بما
تفتقر اليه اللوحة التي رسمناها عن الغرب في الفصول الثلاثة السابقة لا جدال فيه ولا يختلف
عليه اثنان .

ولكن كيف لا نتراجع امام هذا التقسيم الكبير الذي هو نتيجة محتومة لعرض أكمل وأكثر
شمولاً ؟ اصف الى ذلك اننا لا نعرف هذه الشعوب معرفة تامة . ولكن بين النواحي العديدة التي
يجب على مؤرخ الحضارات القديمة ان يعترف يجهلها ، ليس ما يتعلق منها بهذه الحضارات ما يحمله
على الاسف الاشد . واذا كان هناك من فائدة في دراستها ، فان الفائدة الرئيسية ليست في
الوقوف على ما كانت عليه هذه الشعوب ابان استقلالها او ما كان يمكن ان تبلغه لو انها حافظت
على هذا الاستقلال . ولكن من شأن تشنتها وتنوعها وصبغتها التي لا تزال مخشوشة ان تظهر
بالمقارنة عمل الوحدة والتربية الذي قامت به روما خير قيام . غير ان عظمة هذا العمل ظاهرة
للعيان دونما حاجة الى هذه الايضاحات .

وهكذا فان روما هي المحور ابدأ . ويتضح هنا مرة أخرى ان الكلام
روما التي تؤدي اليها
عن شعوب اخرى يؤدي اليها حتماً . فهي انما تسلط على كل من يريد
رسم تطور المجتمعات على شواطئ المتوسط او في جواره . وفي كلامنا
عن الشرق الادنى وعن الغرب على السواء ، قليلة جداً هي الفصول التي اختتمت دون ان تأتي على

ذكرها ، وبالحاح أحياناً . ولم يكن القصد من ذلك الإنشاء بالمستقبل القريب أو البعيد بل تفسير نهاية حضارة ما أو زوالها أو ديمومتها جزئياً . والواقع هو أن روما كانت الوريث المباشر أو غير المباشر لشعوب لا يحصى لها عدد انصهرت جميع مصائرهما في مصير روما . فبعد تعداد شتى التراكات المادية والادبية التي ضمتها الى تراثها الخاص ، يجدر بنا ان نرصد اليها وننظر اليها كما استطاع ان يكونها عمل معقد أسهمت فيه الطبيعة والبشر والاحداث .

لن نتوقف عند نشأتها ومطلع عهدها ، فهي مدينة بوجودها وجوهر تنظيمها الاول الى الاثروسك . وقد بقيت دون تميز يذكر حتى بعد زوال وصايتهم عليها : مدينة ذات ملامح ريفية ظاهرة ، شأن العديد غيرها من مدن ايطاليا آنثذ ، كما نرجح . وقد يجدر بنا ، مع ذلك ، ان ندرسها كما وصفناها لو ان لدينا المعلومات الصحيحة عما كانت عليه اذ ذاك . ولكن صورة ماضيها كما نقلها اليها تقليد تحدد بعد ذلك بزمان طويل - اي في القرن الثاني قبل الميلاد ، في خال ان التاريخ المسلم به لتأسيس روما كان متأرجحاً حوالي منتصف القرن الثامن - ، وهي تكاد تكون خالية من الالوان المختلفة التي تفسح المجال للمقارنات المجدية ، مردها الى تفسيرات شومتها تشويهاً لا يرتق فتقه لا بل الى تركيب تحكي صرف . فمنذ السنة ١٧٢٩ استطاع احد المؤرخين ان يتكلم عن الشكوك التي تحوم حول القرون الاولى من تاريخ روما ؛ ويجدر بنا ، حتى في يومنا هذا ، ان نحفظ هذه المسائل التي لا تزال مطروحة ، لجهود علماء الاجتماع وعلماء الآثار وذوي الاطلاع الواسع .

هنالك شيء آخر يسترعي الانتباه في ما يستهدفه هذا الكتاب . عنيينا في الفتح والحضارة
الدرجة الاولى توسع روما ونموه ووسائله وطرائقه ، وفي الدرجة الثانية ، في روما الجمهورية
وبنوع خاص ، نتائج هذا التوسع .

اما النتائج التي تتناول الشعوب المغلوبة على نفسها والمعلنة خضوعها فليست اذ ذاك بالنتائج الاكثر اهمية لانها لا تزال سلبية . فحتى اوائل العهد المسيحي تقريباً ، واذا ما استثنينا ايطاليا ، نرى ان روما تهدم دون ان تبني شيئاً جديداً متيناً يتناسب مع ما تستولي عليه . وتقتل او اقله تخنق حضارات لا تهتم لاقامة حضارات اخرى مكانها . وتسلب وتفقّر وتستثمر دونما اعتبار الى انها تعرض حياة ممتلكاتها للإخطار . وتقتطع دون تعقل من مال اصبح مالها فتستنزفه وتعرض مستقبلها نفسه للخطر . ولن يظهر عملها الايجابي كوصية على العالم ومنظمة له ، وكبرية ايضاً في اكثر من منطقة من مناطقه ، الا بعد ذلك ، في عهد الامبراطورية وبفضل الامبراطورية .

ولكن نتائج الانتصارات ، منذ قبل الامبراطورية بزمان بعيد ، قد بدا اثرها على المنتصرين . فاذا ما تملذوا لبعض المغلوبين ووسعوا ادراكهم لمفهوم الانسان وايقظتهم مشاغل فكرية وجمالية جهلوا حتى ذاك العهد واوجدوا لانفسهم ادباً وفناً ؛ فان كل ذلك ، على الرغم من عظمة

اهميته المطلقة ، لا يمثل مع ذلك ، نسبياً ، سوى نتيجة لا قيمة لها . فلا ينجو في الحقيقة اي مظهر من مظاهر حياتهم من ردة الفعل . ويكفي للقضاء على هذه المظاهر ان تدوم الحروب التي تقتلع المواطن من بيئته وتثنيه عن المهام المنتجة . يضاف الى ذلك ، في هذا الافتراض ، اقتناء ونقل ثروات طائلة ، والاتصال بشعوب اعظم تطوراً وبحضارات على قسط كبير من التفخّل ، والسيكولوجيا الجديدة التي كيفها النجاح والسيطرة . فانفجرت من ثم ثورة متعددة الاشكال ، مادية وادبية ، لم ينج منها صقع من الاصقاع . واذا ما بدا التنظيم التقليدي مستمراً هنا او هناك فان واقعاً آخر يتسرب اليه يرسخ اندفاعه بقوة مطردة .

فانحون يواجهون المعاضل التي اوجدها اثر الفتوحات في ظروف الحياة الفردية والجماعية ، وحضارة مدينة ريفية تصبح قسراً حضارة عاصمة في امبراطورية ، وانتصار النظم الاقتصادية الجديدة والاضطراب الاجتماعي الذي يسببه ، وازمة النظام السياسي القديم الذي مضى زمانه ، وتراخي الانظمة القديمة ، وتعذر وضع غيرها ابان اضطرابات الصراع بين مقاومة قوى الماضي وفورة قوى الحاضر : ذلك هو المشهد الذي تقدمه لنا روما الجمهورية والذي ينطوي معناه الحقيقي على قوة مستقلة عن احداث هي اشبه بالمآسي احياناً . وقد يغري بعضهم ان يطيّلوا الكلام في موضوع المعاضل التي اوجدتها الانتصارات للمنتصرين . ولكننا سنقتصر هنا على استنتاج نظري : ان المؤرخ قد يبحث دون جدوى عن حالة اخرى يظهر فيها تضافر العوامل العديدة ، في حضارة ما ، على مثل هذا الالحاح وهذا الجلاء ، عن طريق الخلل الذي يحدثه انهيار احد هذه العوامل ، شيئاً فشيئاً ، في كافة العوامل الاخرى ، وحتى في ضمير المجتمع .

الفصل الأول

الفتح الروماني

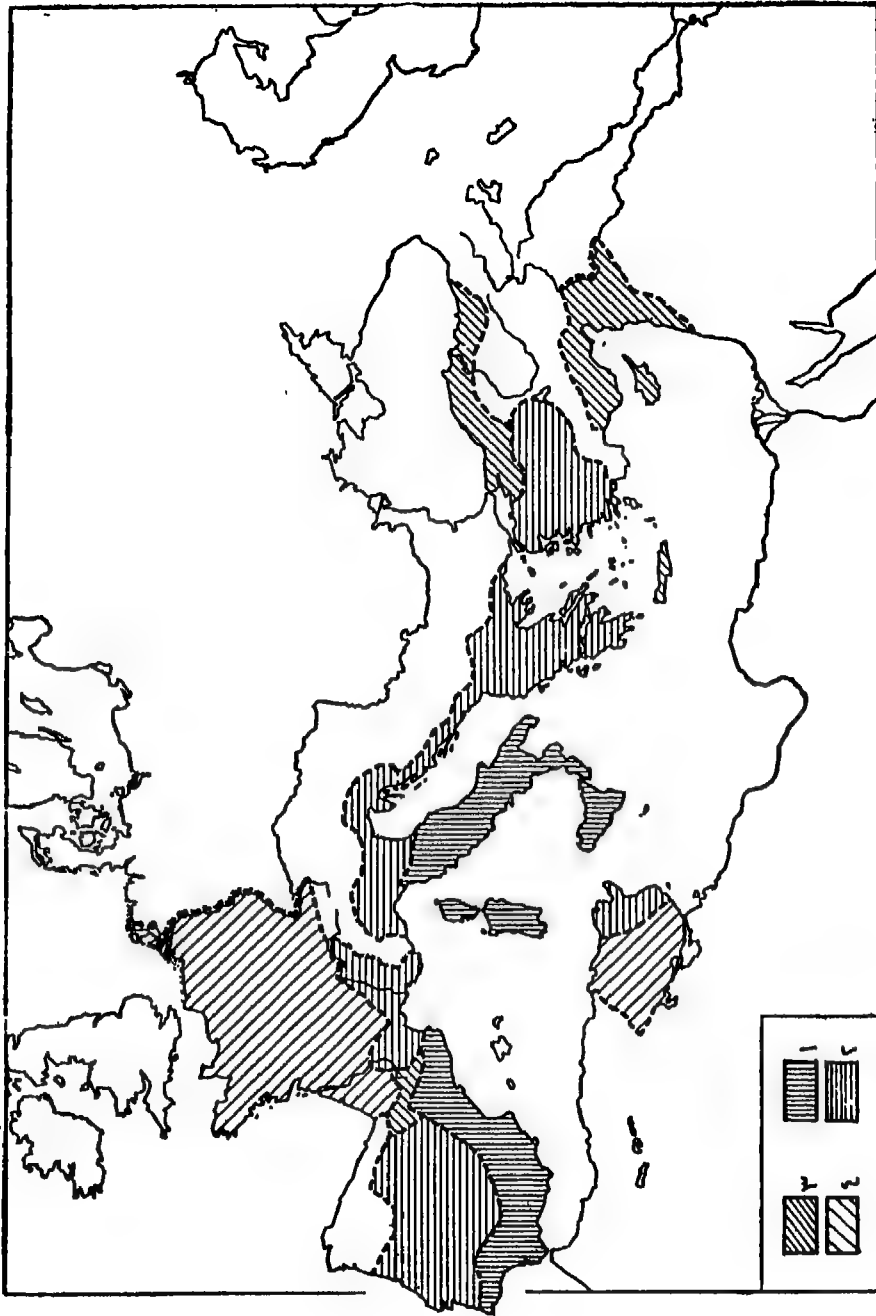
بعد ان حددنا قبلة هذا البحث ، نرى من واجبنا ان يتناول الفتح الروماني في الدرجة الاولى :
فبدون هذا الفتح يستحيل فهم حضارة روما الجمهورية .

١ - التوسع الجمهوري

غير ان اهمية هذا الحدث التاريخي العظيم لا تنحصر في المدينة التي حققت
خلق عالم متوسطي هذا الفتح . فهي انما تقرر لقرون عدة مصير العالم المتوسطي . ولعل ابسط
ملاحظة ، بهذا الصدد ، تفرضها نظرة الى الخريطة ، تقودنا ايضاً الى ابعاد استنتاج : فان روما
قد خلقت هذا العالم بفعل احتلالها اياه .

لم يسبق قط ان قام حتى ذاك العهد في اطار وحدة سياسية لم تدم طويلاً او خارج مثل هذا
الاطار ، سوى عالم واحد هو عالم الشرق الادنى الذي تجاذبت مركز الثقل فيه بلاد ما بين
النهرين حيناً وبحر ايجه حيناً آخر . ولعل الاسكندر هو الوحيد بين قدامى الفاتحين العظام
الذي يغلب على الظن انه وضع تصميماً يقضي ، بعد فتح الامبراطورية الفارسية حتى تركستان
والهندوس ، بفتح الغرب المتوسطي حتى جبل طارق . ولكن الوقت قد اعوزه للشروع
بتنفيذه . فبقي الغرب من ثم في عزلة متروكة لشعوب متخلفة لا تربط بينها رابطة ، يعيش كل
منها لنفسه في نطاقه الاقليمي ، ولا تقوم بينها صلات متبادلة او بعيده سوى تلك التي
احتكرت مكاسبها بعض المستعمرات الاجنبية المقيمة هنا او هناك على الشواطئ ، ولا تتأثر
سوى تأثر محلي وبطيء بحياة اقل بداءة تتصف بالانكماش ، ولا تسهم اي اسهام بنجاحات
الشرق الادنى ومنازعاته .

ولم يضع حداً لهذه العزلة سوى روما . فبعد ان اصبحت سيدة ايطاليا ، بين حوضي
المتوسط ، لم يكن من سبيل امانها للوقوف موقف اللامبالاة منها . فقامت فيها ، في آن واحد ،
بجملة توسعية موازية . فاخضعت البلدان الغربية لملائق عديدة وادخلتها ، في الوقت نفسه ، في



الشكل ٦ - الفتوح الرومانية في عهد الجمهورية

- ١ - مقاطعات خضعت لروما في أواخر القرن الثالث أو الحروب البونيقية الثانية؛ ٢ - فتوح القرن الثاني؛ ٣ - فتوح القرن الأول قبل قسيلة قيسر (٥٩)؛ ٤ - فتوح قام بها قيسر وعرف أوغسطس أن يحافظ عليها.

وحدة اعظم اتساعاً . وهي ، اذ أخضعت لشريعتها هذه الاراضي المختلفة الكثيرة المحرومة حتى ذاك العهد من اي اتصال فيما بينها ، قد اوجدت الظروف الاولى لوحدة متوسطة . وستعهد الامبراطورية فيما بعد تنفيذ هذه الوحدة . وقد اتاحت الجمهورية ، منذ الآن ، بالفتح الذي حققته ، تطور معطية جغرافية الى واقع بشري .

بيد انه يصعب عليها جداً ، في تحقيق عملها العسكري ، الا تسمح بخسارة شيء من عالم الشرق الادنى القديم . فهي لم تنجح في التوسع الى ابعد من نهر الفرات . وهي لم تتوقف راضية عند هذا النهر . فان ذكرى مجد الاسكندر تراود مخيلة اكثر من رئيس بين رؤسائها . وهي لا تجهل خصب بلاد بابل وواقع انتهاء كثير من طرق تجارة الشرق الاقصى اليها . اضاف الى ذلك ان خبرتها قد اتاحت لها تقدير الخطر الذي يمثله ، لممتلكاتها في سوريا ، قربها من الفلوات والصحاري التي تظهر فيها ، بصورة مفاجئة ، جماعات غفيرة من الفرسان النبالين . بيد ان إرث الملكية السلوقية ، حين وضعت يدها عليه ، كان قد أنقص انقاصاً ملحوظاً : فايران قد فقدت بكليتها ، وكذلك بلاد ما بين النهرين حيث اقام الفارتيون ، بينما استعاد سلايو ارمينيا استقلالاً تاماً . وقد اجرت روما عدة محاولات ، منذ عهد باكر ، لتوسيع هذا الارث المصغر . فكان بومبيوس بصيراً واكتفى بالمساومات ، وكان كراسوس مغامراً ففقد جوقاته الى المجزرة في سهل كار (Carrhes) . واقدم بعض الاباطرة على المغامرة بدورهم فاحرزوا نجاحات متفاوتة سريعة الزوال . وهكذا لم يستطع الرومان يوماً إعادة وحدة الشرق الادنى المقوضه منذ قبل وصولهم : فقد افترقت امبراطوريتهم الى اجزاء عريضة خرداً من الامبراطورية الفارسية وامبراطورية الاسكندر .

ولكن فتوحات جديدة كثيرة ، ايطاليا ودلماتيا وغاليا واسبانيا وافريقيا ، قد عوضت الى حد بعيد ، اقاليم وسكاناً ، عن هذا التخلي الذي قبلت به غير راضية . ولكن نتائج هذا التخلي الحقيقية اكثر من ان تحصى . فبفضله نجحت روما من الاندفاع نحو الشرق البعيد وسهلت عليها المهام الملقاة على عاتقها . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار المشاغل التي سببها لها الفرسان الفارتيون في فلوات ما بين النهرين ، هان علينا تصور تلك التي كان عليها مواجهتها في محاربتها بني جنسهم في فلوات تركستان . وهي لم تحتفظ من الامبراطوريات التي سبقتها سوى بالبلدان اليونانية حقاً وبذلك التي رسخت فيها الحضارة اليونانية بعض الرسوخ : فأفادت فيها من رصيد ثقافي ثابت ومن تيار صاعد . فيتضح من ثم ان فقدان مناطق ما بعد الفرات ، هو الذي اطلق ايديها في الغرب ، وأتاح لها أن تشيد ، عوضاً عن عالم الشرق القديم ، على غرار أسلافها ، عالم البحر المتوسط بكليته .

ان الشكل الجغرافي لهذا العالم لكافٍ لإعطائه ميزة الجدّة . أضف الى ذلك ان هذا العالم سيستمر حتى اليوم الذي ستنتزع منه انتصارات العرب جميع المناطق التي تحيط ببحره ، الداخلي من الجهة الجنوبية .

ان ما يلفت النظر ، اذا ما نظرنا الى حركة هذا التشيد ، هو البطء
الفتح الروماني عمل بطيء الذي تسير فيه . وتبدو المضادة عظيمة بينه وبين السرعة النافذة
التي اعتمدها اعظم فاتحي الشرق الادنى ، أمثال قوروش الفارسي والاسكندر المقدوني بنوع
خاص . فالاندفاع التوسعي الذي نهضت به الشعوب الايرانية ، الميديّة والفارسية ، حتى اذا ما
نظرنا الى هذا الاندفاع في مجموعه ، لم يدم سوى قرن وبعض القرن فقط ، منذ احتلال آشور
في السنة ٦١٤ حتى سلامين في السنة ٤٨٠ . اما اندفاع المقدونين ، حتى اذا ما ضمنا ملك
فيلبوس الى ملك ابنه ، فقد كفاه ست وثلاثون سنة لبلوغ حدوده القصوى . وعلى نقيض ذلك ،
فإن التوسع الروماني يتطلب زمناً اطول الى حد بعيد ، إذ ان الحروب الاولى ضد الجيران
الايطاليين تبتدىء منذ فجر القرن الخامس ، بعيد انهيار الملكية الاثورية ، وان ايطاليا نفسها ،
عند وفاة قيصر ، في السنة ٤٤ قبل المسيح ، لما يستتب الامر للرومان في شمالها الشرقي بين
ايستريا والدانوب .

من الجلي ، ان الخطوات الاولى ، في مثل هذا التطور ، هي في الغالب تلك التي تصطدم
بأشدّ العراقيل صعوبة . وليس من المستغرب ، على كل حال ، اذا ما اعتبرنا نقطة الانطلاق
روما ، واضطرابها لمحاربة مدن مماثلة لها وسكان جبال الأبنين الوسطى والجنوبية المشهورين
بقوة شكيتمهم وتوقفها أحياناً في نجاحاتها بفعل الغزوات الغالية ، كذلك التي خربتها في أوائل
القرن الرابع ، ألا تتوصل ، إلا بعد أحداث طويلة ، لإخضاع ما درجوا ، حتى قيصر ، على
تسميته بـ « ايطاليا » أو ما يطلق عليه الجغرافيون اسم شبه الجزيرة الايطالية . بيد ان هذا
الاخضاع لا يصبح أمراً ناجزاً ، بعد فتح تارنتا *Tarente* في السنة ٢٧٢ ، وفتح آخر مدينة أثورية
في السنتين ٢٦٥ - ٢٦٤ ، إلا قبيل النزول الى صقليا في السنة ٢٦٤ : أي ما يناهز القرنين
ونصف القرن ، لاحتلال شبه الجزيرة ، في حال ان احدى وعشرين سنة كانت كافية لأن يسط
فيلبوس السيطرة المقدونية على اليونان البلقانية !

واذا لم يسر التوسع خارج ايطاليا ، فيما بعد ، بمثل هذا البطء ، فإنه لا ينتهي في الغالب الى
ضم المناطق الا بعد المواعيد المقررة لهذا الضم . وتؤلف الحروب البونيقية ، في سلسلة الحروب
الطويلة التي نشبت ما وراء البحر ، شذوذاً يلفت الانظار ، لأنها تنتهي على الفور الى مكاسب
اقليمية : الاولى الى كسب صقليا والثانية الى كسب اسبانيا والثالثة الى كسب اقليم قرطاجنة .
ولكن المجازفات في الشرق الهليني تتأخر في اعطاء ثمارها . فقد تدخلت روما في اليونان منذ
السنة ٢١٢ ، وهزمت فيها الجيش المقدوني شر هزيمة في السنة ١٩٧ ، وقضت عليه نهائياً في
السنة ١٦٨ ، ولم تنشأ ولاية مقدونيا ، على الرغم من ذلك ، الا في السنة ١٤٨ . ولا حاجة
بنا لأن نقدّم الامثلة الكثيرة ، بل يكفي ان نستشهد بمثل مصر الفريد : فقد بسطت حماية
روما عليها عملياً منذ السنة ١٦٨ ، على الأقل ، وثقلت عليها يوماً بعد يوم كما يتضح من تكرار
تدخل الجيوش الرومانية في منازعات البلاد الداخلية ، ولكن ذلك لم يحل دون احتفاظ

الملكية اللاجية باستقلالها النظري وحق العملي أحياناً - فإن كليوباترا قد استخدمت انطونيوس بمقدار خدمتها له على الأقل - حق السنة ٣٠ قبل المسيح .

تفوق هذه الملاحظات في اميتها مجرد التوقيت الزمني . اجل ان تاريخ الفتح
وجامعي الروماني ينطوي على احداث سريعة ، كبسط السيطرة على غالبية المستقلة التي
حققتها قيصر في ثماني حملات عسكرية . ولكن مثل هذه الاحداث ، بصرف النظر عن ان
واحداً منها لا يرتدي طابع الصاعقة الذي ترتديه حملة الاسكندر اذ ضم في ثلاثة عشر سنة
الامبراطورية الفارسية الواسعة الارحاء الى الملكية المقدونية ، لا تخرج عن كونها استثنائية .
ويبدو بناء العالم الروماني على الصعيد العسكري ، الذي يمتد عدة قرون قبل الميلاد ، والذي
سيتم اكمل بعده ايضاً ، وكأنه في الحقيقة عمل اجيال عديدة جداً .

يستدل من ذلك ان هذا البناء لم يكن ، او لم يكن الا جزئياً ، عمل افراد بارزين . اجل ،
لم تفتقر روما الى مثل هؤلاء . وهي لم يعوزها المجد العسكري الذي يفترون عندها باسماء معينة
كما عند غيرها . وتفسر مؤهلات العديد من زعمائها الشهرة التي نعموا بها . لا بل ان بعضهم قد
لعب دوراً شخصياً حاسماً في توسع الامبراطورية . فقد تصرف بومبيوس في آسيا مثلاً وقيصر
في غالباً كما طاب لهما التصرف دون ان يستشيرا احداً : فاخترنا على هواهما من يهاجمان وعقدا
احلافاً وقررا ضم الاقاليم ، ممارسين بذلك في كماله ، باسم روما ، ودون اغفال اهدافها ، قانون
الحرب والسلم . بيد ان هذه الحرية لا يمكن ادراكها الا في القرن الاخير من العهد الجمهوري ،
وهي انما تمثل - وسنعود فيما بعد الى هذا التطور - مظهراً من مظاهر الاضطراب الذي خلقه
الفتح نفسه في سير نظام الحكم . فلم يكن القواد ، زمناً طويلاً ، قبل ان يتحرروا رويداً رويداً ،
سوى منفذين تسند اليهم مهمة عسكرية معينة . وهكذا فان اكبر واشهر مؤسسي العظمة
الرومانية ، كشييون افريقي وبولس اميليوس وشييون اميليانوس لم يأخذوا على انفسهم
امر اعلان الحرب ، واذا هم ابدوا رأيهم ، المسيطر غالباً ، في شروط الصلح المفروض على العدو
المغلوب على نفسه ، فانهم لا يملون ، مع ذلك ، هذه الشروط دون اشتراك غيرهم في الرأي ،
اي دون رقابة .

يبدو هذا القول وكأنه حقيقة بديهية ، اذ ان روما ، في ذلك العهد ، كانت جمهورية وكان
عليها بهذه الصفة ، الا اذا رضيت بالديكتاتورية ، ان تحدد مدة القيادات العسكرية ونطاقها
الجغرافي وان تتخذ سياستها الخارجية ، ما امكن الانتقاد ، من القرارات الفردية . ولكن كل
ظاهر ابتذال يزول اذا ما فكرنا ان تاريخ الانسانية جمعاء لا يقدم لنا اي مثل آخر عن جمهورية
تتابع طيلة اجيال عدة ، يمثل هذا الثبات وهذه الوحدة في النتائج ، ان لم يكن دائماً في
الاساليب ، سياسة تؤدي الى فتوحات على مثل هذا الاتساع . تفوق الاحداث الطارئة
والتحولات الفجائية في الاتجاه وانتهازية الغفلات والجهود ، يؤلف هذا الاستمرار في التوسع

وهذا التقدم شبه المتواصل في القوة والسيطرة ميزة الجمهورية الرومانية . وقد يستهيننا اللجوء الى تفسيرات شتى اكتفى بها اكثر من مؤرخ قديم : حذر روما ومصيرها الذي اعدت بموجبه لان تصبح امبراطورية. ولكن معاصرين كثيرين يعتقدون ان هذه التفسيرات انما تخفي عجزنا عن تبيان تسلسل الاسباب والنتائج تبياناً منطقياً . ويجب الاعتراف بان واحداً لا يستطيع التباهي بايضاح حدث تاريخي على مثل هذا الاتساع كما يجدر الايضاح ، وان المجازفة في الاشارة الى بعض الاسباب العامة التي ادت الى هذا النجاح تقود خصوصاً الى وعي عدم كفايتها . ولكن هل يجب ان يثنى هذا الاعتراف الضروري عن محاولة التحليل ؟

ليس واقع الجمهورية الفاتحة بالظاهرة النادرة : فقد اعطتنا المدن اليونانية التنظيم التقني للسياسة الخارجية اكثر من مثل عن ذلك . ولكن جمهورية تكرس في سبيل الفتح جهوداً بمثل هذا الاستمرار ، رافضة التنازل ابدأ عن مكسب حققته ، وعاندة بنجاح ، باستثناء الهزيمة النكراء التي انزلهاها الفارتيون في « كار » ، في تدارك الهزائم التي تمنى بها ، لشذوذ تاريخي هو اقرب ، في الحقيقة ، الى المغالطة السياسية .

قبل الشروع بتحديد الميزة الحقيقية للنظام الجمهوري في روما ، يجدر بنا ، بغية الاقلال بما يثبته هذا النشاط الذي لا يعرف الكلل من دهشة وحيرة ، ان نلفت النظر دونما ابطاء الى ان السياسة الخارجية لا تقررها في الواقع جمعية المواطنين ، واذا كانت استشارة الجمعية امراً واجباً لاعلان الحرب وفاقاً للانظمة ، واذا كان قرارها نافذاً ، فان الحكام يعرفون كيف يديرونها . فحين رفض الشعب ، بعيد نهاية الحرب البوليقيية الثانية ، ان تعلن حرب جديدة على الملك المقدوني ، احوالوا القضية للمناقشة مرة اخرى وحصلوا هذه المرة على اكثرية الاصوات . وليس هذا كل شيء : فبعد الاقتراح على اعلان الحرب ، رأت الجمعية نفسها محرومة من الصلاحيات حتى اليوم الذي دعيت فيه للموافقة دون مناقشة على معاهدة الصلح التي وضعت نصوصها على غير معرفة منها ؛ وليس لدى الشعب في هذه الاثناء سوى وسائل غير مباشرة ، وغير حاسمة على العموم ، كانتخاب القضاة الجدد مثلاً ، للاعراب عن اشمئزازه .

تعود ادارة السياسة الخارجية في الحقيقة الى مجلس الشيوخ ، أي الى هيئة مختصرة انتخبها ابعد من ان يتصف بالديموقراطية . يستقبل هذا المجلس السفراء الأجانب ويملي عليهم الأجوبة التي يتلقونها ؛ ويعين السفراء الرومانيين ويعطيهم التعليمات . ويتدخل في توزيع القيادات على القضاة ، ويحدد أهمية القوى العسكرية او البحرية والمبالغ التي توضع تحت تصرف كل قاض من القضاة . وأثناء العمليات الحربية يتلقى تقاريرهم ويبلغهم مقرراته . يناقش مشاريع المعاهدات ويوفد محلياً ، لأجل تطبيقها ، مفوضين يشتركون في ذلك مع القائد المنتصر .

ليس من ثمّ ما يشبه الوضع في كل من الجمعية الشعبية والمجلس في الديموقراطيات اليونانية . فبدلاً من أن تخضع السياسة الخارجية لمقررات ، غالباً ما تكون مرتجلة ، يليها حماس الشعب

ويأسه وهواه، تتعلق هذه السياسة بجهاز يسهل على أعضائه الذين يناهزون الثلاثمائة ان يديروها بطريقة فضلى . ولا ينتمي هؤلاء الى مجلس الشيوخ إلا بعد تلقي تربية معينة . ومن حيث انهم يحتفظون بعضويتهم مدى الحياة ، فانهم يوسعون خبرتهم ويستطيعون السير بموجب فكرة أو تقليد . ولما كانت المعلومات الضرورية تتوفر لديهم ، فإنهم يتمكنون من التوفيق بين المشاريع ووسائل العمل . هذه كلها امتيازات تقنية جلية عن تنظيم الديمقراطية اليونانية ؛ وهي تتلخص أن ندرك ادراكاً أفضل أمثناً ادارة السياسة الخارجية .

بديهي على كل حال ، ان هذه اللوحة تفتقر الى تصحيح في مراحل العهد الجمهوري المختلفة . ثم ان القوانين أبعد من ان تطبق زمناً طويلاً تطبيقاً كلياً الانتظام ، ولا تبقى ، على الأخص . قرونًا عديدة دون ان تتطور . ولا يبرز سلطان مجلس الشيوخ المطلق حقاً إلا إبان الحروب الحاسمة ضد دول ماباء وراء البحر الكبرى ، قرطاجة والملوكيات الهلينية في القرنين الثالث والثاني . وقد يحدث في هذه الظروف نفسها ، ان تصرف الآلة ، وعلى الرغم من ان التقليد الذي وصل إلينا بصدد العمود القديمة غير جدير بالثقة نفسها ، فان توزيع الكفاءات في السابق لا ينطوي ، على ما نعتقد ، على فروق جوهرية . ولن تحدث تبديلات هامة إلا في عهد لاحق ، ابتداء من اواخر القرن الثاني . فتقوم إذ ذاك جمعية المواطنين ، بتأثير قادة حازمين ، حتى في حقل السياسة الخارجية ، بمبادرات يضطر مجلس الشيوخ ان ينحني أمامها . وقد حدث خصوصاً ان استثمر بعض قادة الجيش حظوتهم لدى الشعب او أقله لدى الجنود ، فشكوا عصا الطاعة على مجلس الشيوخ . فسار التوسع الروماني من ثم سيراً أشد اضطراباً لأن من شأنته تهور الشعب وحرية العمل التي يحصل عليها القادة ان يدفعوا بهذا التوسع الى الامام .

الأسباب المباشرة
للاستعمار الروماني

مهما كان من فاعلية لإحكام وسير النظم السياسية لتنسيق وإيضاح التوسع ، فإن المعضلة الحقيقية التي يثيرها هذا التوسع تحتخطاها كليهما ، وان ما يهم تبيانها في الحقيقة هو الأسباب التي وجهت الحكام نحو فتح يبدو انهم لم يضعوا له حداً حتى اواخر الجمهورية ، لا بل بعدها بقليل أيضاً . والمقصود هنا هو غير الأسباب التي أدت الى كل من الحروب المتعاقبة التي جروا إليها روما جراً : وكلما بدت هذه الأسباب بوضوح ، بدا أنها مرتبطة الى حد بعيد بالمكان والزمان وبعض الرجال . لا بل ان ما يستهويننا اكتشافه ، بالنسبة لهذه النزعة المستمرة ، أو بالنسبة لما يجب اطلاق اسم «الاستعمار» عليه بعد ان نزع من هذا التعبير المستلزمات التي أضافها اليه تطور العالم المعاصر ، هو الأسباب الدائمة ، بما فيها ، وربما في الدرجة الاولى ، تلك التي لا يعيها الممثلون الزائلون وعياً كاملاً . بيد ان المؤرخ يشعر ساعته بكثير من التواضع بنقص وركاكة ما لديه من وسائل تحليل .

ان بعض التفسيرات التي قد تقنع في حالات أخرى يجب اقصاؤها في الحالة التي تعيننا . فستدانتنا لا تجيز لنا البتة مثلاً التفكير بضرورة ملحّة اوجدتها كثافة السكان ؛ ولا يبدو ان

روما قد لمست وجوب توسيع « نطاقها الجيوي » ، وان تأسيس مستعمراتها الاولى ، وهو متأخر نسبياً على نقيض ما جاء في التقليد ، انما كان استجابة لاهدافها العسكرية قبل ان يكون معالجة لمعضلة تزايد السكان . وليس كذلك ، طيلة القسم الاكبر من هذه القرون الخمسة ، من معضلة اقتصادية او من معضلة اجتماعية من شأنها ان تحمل روما على البحث عن حلها بواسطة الفتح : فلم تبرز مثل هذه الاسباب الا بعد ذلك بزمن ، اي بعد ان اثارها الحروب السابقة . وليس ايضاً من نظام سياسي او اجتماعي يحل في المرتبة الاولى طبقة يؤلف المحارب فيها نموذجاً مثالياً ويتلقى تربية ادبية وطبيعية توجه بالتفضيل الى الحرب : وقد نبحت دون جدوى في عهود روما الاولى ، باستثناء بعض الاشخاص النادرين ، عن بطل الملحمة الهوميروسية الذي ينزع الى المجد وملذات الحياة المادية ، او النيبيل المغامر — الذي عرفته اليونان في عهدها القديم ايضاً — المستعد لكل شيء في سبيل ارضاء طموحه الى السلطة . وليس هنالك اخيراً اي اثر لحرب عقائدية : فان روما لم تقرض يوماً لا تنظيمها ولا ديانتها . وقد جاز لها الاعتقاد احياناً ، كجمهورية ، بان الملوك يمتقنونها بسبب ذلك ويستهدفونها باحلافهم . ولكن شييون لم يكن كاذباً حين اعلن باسمها انها ليست ساعية لقلب الملكيات . اجل لقد اظهرت ، كجمهورية محافظة ، مزيداً من العداء المستحكم للنظم الثورية ، ولكنها قد انتهت راضية اكثر من مرة الى الاتفاق معهم ، مكتفية بمحاولة اتقاء المدوى .

بيد ان هذا الاستعمار لا ينبجى بالكلية من الاسباب العامة التي خلقت قبله أو بعده ، أسباباً أخرى عديدة . ولن يعترض أحد على ذكر الطمع بينها : فمن حيث أن الشعب الروماني شعب فلاحين فانه قد طمع في أراضي جيرانه لا سيما حين تكون اكثر خصباً او افضل استثماراً . ومن حيث انه استوطن اقليماً تمر فيه بعض الطرق ، فإنه قد صمم على الاحتفاظ بمكاسب حركة التجارة عليها وعلى زيادة هذه المكاسب . وقد صمم ايضاً على الحصول بسهولة على بعض المواد الخام . ولكن لهذا الطمع البدائي حدوده ؛ ويبدو ان مثل روما لا يجوز معه التراجع أمام تفسير لا نحلّه عادة في المركز اللائق به . فيبدو في الحقيقة ان روما لم تخضع لجاذب المكاسب الفورية خضوعها للخوف الذي أثار في كل زمان حروباً يفسرها كل من الخصوم ، بسلامة طويّة تامة ، كحروب دفاعية حيث يعتبر وجوده بالذات مهدداً ، وحيث غالباً ما يشكل هذا الوجود ، في الواقع ، الهدف الحقيقي . واننا نلص ، في روما الجمهورية ، هذا الشعور المتزايد والحساد جداً في اليونان — الكلام عن العصور القديمة — بأن سلامة دولة من الدول تعرض للخطر بمجرد قيام دولة أخرى مجاورة اذا ما بذت قواها متعادلة أو بمجرد احتمال تحالف لا تكون هي أحد اطرافه ، اذ ان حرصها على المحافظة على استقلالها يدعوها الى القضاء على استقلال غيرها . فالحروب ، من ثمّ ، والفتوحات ، اذا أمنت الحروب النصر ، يستند بعضها الى بعض ، لأن توسبه ممتلكاتها يضاعف الواجبات الدفاعية وظروف الصراع .

فيجد الاستعمار في مكاسبه نفسها مبررات لا تقهر لنقل مطامعه باطراد الى آفاق أبعد ، بحيث لا يكون له حدود بالتالي سوى حدود الأرض المأهولة .

الأسباب الثانوية ليس من المناسب هنا التبسط في هذا التفسير . واننا نسرع الى القول ، بالإضافة الى ذلك ، انه اذا كان تاريخ الفتوحات الرومانية ، حتى آخر الجمهورية وأبعد من ذلك ، غنياً بالأمثلة الخليقة بتأييد هذا التفسير ، فإن عوامل أخرى تفعل فعلها أيضاً ، مطردة القوة والتنوع ، لا سيما انطلاقاً من القرن الثاني . ولكنها عوامل ثانوية .

فهناك التيه الروماني ، وهو راسخ في القدم ، أو غير حديث العهد على كل حال ، ويسفر عن نتائج متنوعة جداً . أجل انه لا يدفع دفعة مباشرة الى التوسع حين يسهم في الهام ذاك المناد الجوح الذي أعطى عنه الحكام والشعب بكتيته البراهين الكثيرة في وجه أشد الصعوبات تعقيداً ، أمام الغالين وأمام هنيبعل على السواء . ولكنه بعد ذلك بزمان ، ازداد بفعل الانتصارات المتواصلة العظيمة فأدخل في نفوس الجميع - أو في نفوس الاغلبية ، إذ ان شيبليون اميليانوس الذي فكر في انه ليس من قوة دائمة وان وطنه سيعرف يوماً من الأيام المصير نفسه ، فبكى على أطلال قرطاجة التي كان قد هدمها - ثقة لا حد لها في مصير روما ، هي الكفيل بنجاح جميع مشاريعها . ولو جاز للورخ نسيان المعنى الخاص الذي ينطوي عليه التعبير في تاريخ اسرائيل ، لأمكن القول ان الشعب الروماني انتهى الى الاعتقاد انه الشعب المختار أيضاً . وان هو لمس انه الأقوى ، فلا يثير فيه ذلك أية دهشة لأنه يعتبر نفسه أعظم الشعوب عدلاً وفضيلة وتقوى . وهذه كلها افضليات تبرر في نظره الهبات التي تقدمها عليه الآلهة . ولكنها كلها دوافع لإقناعه بأن أي شعب آخر لا يستطيع ولا يجب ان يقف في وجهه . وقد أصبحت روما « المدينة » بالذات ، التي ألقيت على عاتقها رسالة اخضاع العالم والتي تخضعه بالاقتصاص دون شفقة من العصاة بممارسة حق المنتصر بكماله في هدم قرطاجة وكورنثس في السنة ١٤٦ ، ونومانس (Numance) في السنة ١٣٣ .

وهناك أيضاً ، في الوقت نفسه ، شهوة الذهب ، والبؤس ، وكلاهما قد زادهما أو أوجدهما الفتح الذي قلب الاقتصاد والمجتمع . فان رجال الاعمال الجشعين يبتغون استثمار نطاقات جديدة ، والجنود غالباً ما يبتغون حروباً جديدة تؤمن لهم الغنائم والمكافآت . وبفعل مصادرة ثروات العدو وتعويضات الحرب المفروضة على المغلوبين وأعطيات الحلفاء الملتحقين الى القوة والجزى السنوية التي تدفعها المقاطعات ، بلغت أرباح الاستعمار درجة حصلت معها عامة الشعب على قسطها من سخاء الدولة ، وساندت بحماس سياسة تؤمن لها مثل هذا الكسب . وقد تجاوز بعض رجال الدولة أنفسهم من ذوي الشأن هذه الأثانية ، فارتأوا أحياناً ان الحرب والفتح قد يساعدان على معالجة صعوبات داخلية ، اما بخلق عملية إلهاء وإما بزيادة الموارد المالية .

وهناك اخيراً انفلات الأطماع الفردية . استحق النصر أبدأ للقائد ، اذا كان حاسماً في نظر مجلس الشيوخ ، مجد « موكب النصر » ، وهو احتفال موروث عن الاتروسك ، يرتدي فيه الرئيس المنتصر الحلة البرفيرية المطرزة بالذهب ، ويصبغ وجهه بلون أحمر ، ويحمل تاجاً ذهبياً ، ويمسك بالصولجان ، ويمثل جويتير نفسه ، ثم يصعد الى عربة يتقدمها موكب المغانم المستولى عليها ، ويسير وراءها جنوده مدججين بالسلاح حتى معبد جويتير الكابيتولي . ولكنه عند نهاية الاحتفال يبرهن عن خضوعه للأنظمة الجماعية ، ويعود الى صفوف أمثاله متحلياً بسمعة خادم الدولة الأمين . بيد ان عدوى الأفكار والعادات الهلينية ، من جهة ، والامكانات التي توفرت للرجل الماهر والقوي بفعل انقصاص التوازن الاجتماعي القديم وتخلخل النظام السياسي ، من جهة ثانية ، قد اعطت قوة فائقة للجاذب الذي توحيه القيادات العسكرية الكبرى . فان ما تستطيع ان توفره منذ الآن هو المجد الذي يسحر الجماهير ، وهي الثروات التي يشتري بواسطتها التفاني ويتزايد عدد الزبن ، وهم الجنود الذين يرون فيه حبيب الالوهة ويقررون له « موكب النصر » قبل ان يبدي مجلس الشيوخ رأيه ، ويتخذون المبادرة - ويعود اول مثل أكيد عن ذلك الى السنة ٢٠٩ - ويعلنونه امبراطوراً في ساحة الوغى ثم يصبحون مستعدين ، بعد انقضاء قرن ، لأن يسيروا وراءه حتى في الحرب الاهلية . فخلق الفتح الظروف المادية والادبية للفوضى الداخلية ودفعت الفوضى بدورها الى الفتح . وأعلنت بعض الحروب ، دونما تقييد بالاصول الدستورية ، سعياً وراء النصر ووسعت الامبراطورية سعيها من القائد وراء ربط اسمه باخضاع أقاليم جديدة .

لم تحدث طفرات الاستعمار هذه دون ان تصادف مقاومة . ولكن
مقاومات سريعة الزوال
المقاومة ، بعد كل حساب ، كانت هزيلة ودون جدوى .
ودون جدوى
فقد حارب كاطون (*Caton*) القديم فساد الاخلاق الذي جرّ اليه مثل
الشرق اليوناني ، كما حارب تحرر زعماء الجيش واختلاساتهم . ولكن عمله الشخصي ، العسكري
او الدبلوماسي ، في اسبانيا واليونان على السواء ، وعناده في محاربة قرطاجة ، يبرهنان ، بما فيه
الكفاية ، مع ذلك ، انه لا يذهب من المعلول الى العلّة لاقتناع مواطنيه بالاعتدال . وحين
ذرف شيبليون اميليانوس ، في السنة ١٤٦ ، الدموع السخية امام اطلال قرطاجة المحترقة ، لم
يحمل ذلك قط على كبح غضبه وعنفه ، اذ انه قد برهن بعد ثلاثة عشر سنة عن عزم مماثل لا
يعرف للشفقة معنى في حصار وهدم « نومانس » في اسبانيا ، اما التقليد الذي يعزو اليه قوله
« ان وضع الشعب الروماني سليم وعظيم » والذي يفترض فيه الحشية من توسع لا حد له لم يبرز
الى حيّز الوجود إلا بعد ذلك بزمان ، حين نزل الامبراطوران الاولان ، اوغسطس (*Auguste*)
ثم طيباريوس (*Tibère*) ، عند الضرورة الملحة باعتماد سياسة دفاعية فقط .

اتخذ مجلس الشيوخ ، حتى في النصف الاول من القرن الثاني ، تدابير عنيفة حقاً وغريبة عن
كل تصميم متلاحم ضد اساءة استثمار رجال المال للفتوحات . ففي السنة ١٦٧ مثلاً ، حينما شعر

بعجزه عن مراقبة سوء تصرفهم في ممتلكات الدولة ، اذا ما ثبتوا اقدامهم فيها ، آثر ان يحظر كل عمل في هذه الممتلكات ، اعني بها مناجم المعادن الثمينة والاملاك الريفية والحرجية التي انتقلت الى روما ، بعد سحق الملك « بيرسا » (*Persée*) ، في مقدونيا . ولكن اشمئزاه الظاهر من بروز طبقات اجتماعية جديدة لا يمنعه من ان يوعز ، او اقله من ان يقبل بالنزاعات العظمى التي تفتح امام مستقبل روما آفاق الامبراطورية المتوسطة . ولسنا نلصق اي اعتبار اقتصادي له وزنه في اسباب الحريين البونيقيتين الاوليين او الحروب ضد الملكيات الاتينفونية والسلوقية . وعلى الرغم من ذلك فان هذه الحروب قد اندلعت واعطت ثماراً طيبة : فقد كسبت روما في الاوليين ، منذ القرن الثالث ، صقليا وسردينيا واسبانيا ، كما أسفرت الحروب الاخيرة ، في ثلاثين سنة ، من السنة ١٩٧ حتى السنة ١٦٨ ، عن بسط سيطرتها على الشرق الايحي .

وقد اعار مجلس الشيوخ نفسه ، من جهة ثانية ، اذناً اكثر اصغاء الى نداء المصالح . فارت رؤوس الاموال الموظفة في افريقيا في ايام جوغورثا *Jugurtha* ولا سيما في الشرق في ايام ميتريدات *Mithridate* ، رومانية كانت ام ايطالية ، اعظم واكثر تفرعاً ايضاً ، حتى بين مجلس الشيوخ ، من ان يقدم هذا الاخير على اهلاكها . ولكن اين يقف الدفاع عنها واين تبندى المساعدة المقدمة للمشاريع الجديدة ؟ فقد اصبح محتوماً على التوسع العسكري ، في القرن الأخير من العهد الجمهوري ، وباعتراف مجلس الشيوخ ، ان يخدم اكثر من مرة التوسع الاقتصادي .

وكذلك فان الشكوك الطبيعية التي يثيرها الرجال « المتفوقون » في ارستوقراطية مجلس الشيوخ قلما توصلت الى شل عمل هؤلاء الرجال . فمنذ عهد مبكر ، اي منذ الحرب البونيقية الثانية ، لمست هذه الارستوقراطية الخطر الذي يشكله الزعماء المنتصرون ، المتمتعون بتعلق الجماهير المتحمسة والواثقون من اخلاص جيوشهم ، على الانظمة الجمهورية ، اي عليها هي بالذات . ولكنها لا تتوانى ، حتى بالانتقاص من الشرعية ، في اللجوء الى مواهبهم حين تدعو الحاجة الى ذلك ، سعيدة جداً اذا ما استطاعت اذ ذاك وضع ثقتها في شبييون اميليانوس مثلاً . وكثيراً ما ترتكب الانخطاء ايضاً ، بفعل الكلل او العمه ، كما حدث لها حين اسندت الى قيصر ، الذي كان لها عليه اكثر من مأخذ ، ادارة غاليا الناربونية ، بالاضافة الى غاليا ما وراء الألب التي اسند الشعب ادارتها اليه لمدة خمس سنوات ، فقد اتاح هذا القرار المفاجيء ، لقيصر ، ان يحصل ، باخضاعه ما تبقى من غاليا ، على كل ما كان مفتقراً اليه حتى ذاك التاريخ ، اي المجد والثروة والجوقات . اما السياسة التي غالباً ما اعتمدت في الواقع فتقوم على خلق التنافس بين ذوي الطموح ، وعند الحاجة على تسهيل بروز منافس بنية رفعه الى مصف غيره ؛ فان اختيار ت. كوينكتيوس فلامينيوس مثلاً ، في السنة ١٩٩ ، وهو ضلٌ بن ضل قبلاً ، لادارة شؤون الحرب ضد المقدوني فيلبوس الخامس ، وابقائه في اليونان حتى السنة ١٩٤ ، يستجيبان دونما ريب للرغبة في ايجاد منافس مجيد لشبييون المنتصر على هنيبل في السنة ٢٠٢ . ولكن

مثل هذه المنافسات ، التي لا مخرج لها أحياناً سوى الحرب الأهلية ، - ماريوس وسيلا ، وبومبيوس وقيصر مثلاً - تؤدي إلى السرعة في التوسع إلى الحد منه ؛ أما مثل مصر فمثل شاذ إذ أن ضمها ، الناصح منذ زمن بعيد ، لم يتحقق في أيام الجمهورية لأن من شأنه إيقاف المزيد من المطامع وجعل من يحققه على جانب كبير من القوة .

تناقض ورهن بديهي ، في مثل هذه الظروف ، أن السياسة الخارجية لروما الجمهورية لا تنطوي ، إذا ما نظرنا إليها في جزئياتها ، على استمرار العظمة الذي توجبه إلينا نظرة سطحية . ويبدو مغريباً أن نعزو إليها المخططات العميقة المدروسة والأساليب التي يحسن فيها تعيين مقدار العنف والحيلة . فقد طاب لبوسوييه (Bossuet) مثلاً التأكيد بأن الرومان « أرادوا أن يخضع لهم كل شيء » وهدفوا في الحقيقة إلى إزلال جيرانهم أولاً والعالم كله ثانياً في فيء شرائعهم » . ويطيب لأكثر من مؤرخ معاصر ، في كلامه عن دبلوماسيتهم التي قد يستهدفها « الخطاب حول التاريخ العام » من زاوية مرتفعة جداً ، والتي يفرض احترام وقائعها على علماء البحث فحسب أكثر دقة ، أن يفكر بصددها بكلمة « ماكيافيلية » . ولكنه يصبح من العبث حينذاك تبين المنعطفات والمنعرجات ، المدهشة في أغلب الأحيان ، التي تصفها ، إذ أن تأثيرات جماعية وفردية كثيرة تفعل فيها فعلها .

والحقيقة هي أن الحكام الرومانيين يخضعون أحياناً للأقدام والمجازفة ويستسلمون أحياناً أخرى إلى كل تراخ مخز . وقد يرتكبون أخطاء جسيمة في التقدير لأنهم لم يحصلوا على نعمة العصمة في إدراك الأمور قبل وقوعها من أية عناية إلهية ، وقد يخشون شيئاً تافهاً أو يقللون من أهمية الأخطار التي يسهل اليوم ، بعد أن عرفنا ما صاروا إليه ، تبين نشأتها والظروف المؤاتية ، المهمة ، لازالتها دون كبير جهد . يتوجب عليهم توزيع إمكانات عنايتهم بين مصالحهم الشخصية الكثيرة والمخطط العام لسياساتهم الداخلية والخارجية والحوادث اليومية التي تعرقها أو تهتكها . ويتطورون تطوراً لا واعي ، من جيل إلى آخر ، ولا يتوصلون أبداً إلى تحقيق التضامن الكامل في جيل واحد . فهم بالاختصار رجال كسواهم ، وهم ، إذا حصرنا الكلام عن الهيئة التي تنهض بأثقل مسؤولية وأطولها مدى ، جمعية مؤلفة من ٣٠٠ رجل يمتد عملها إلى عدة قرون ، ولا يجوز إهمال ما تستلزمه هذه التحديد من انهيار وتناقض وتردد وتقصير .

بيد أن عملهم حقيقة واقعة ، ولن يرضى أي رجل عاقل بنسبته إلى المصادفة فحسب . فيجب بالتالي الإقرار بصفات الاداة العسكرية التي توفرت لروما ، وهي في الحقيقة صفات نادرة تحلى بها بعض القادة وبرزت في بعض العهود .

٢ - الشؤون العسكرية

من الاعتباط أن نحقر أعداء روما ، فدوئنا حاجة بنا للعودة إلى نشأتها الكوارث العسكرية الوضيعة ، يجب علينا التذكير بأنها ، حتى بعد أن تجمعت لديها الوسائل

الكثيرة والقوية ، غالباً ما واجهت اعداء لا يستهان بقوتهم .

ولعل من المغالطة الظاهرة القول إن اسهل هذه الحروب الهامة عليها تلك التي واجهت فيها اكثر الاعداء اجماداً ، اي الملكيات التي تأسست بعد فتح الاسكندر ؛ فاذا ما ابدى الجيش المقدوني القومي مقاومة تذكر ، اقله في العمليات التي سبقت معركة «سينو سيفال» و« بيدنا » الحاسمتين ، فقد انهارت سلطة السالوقي انطيوخوس الثالث « الكبير » في مغنيزيا بعد حملة لم تكن للجوقات الرومانية سوى مسيرة طويلة انطلاقاً من شواطئ الادرياتيك حتى بلاد ليديا. وفي الواقع فان الجيوش الهلينية التي لم يكن على رأسها قادة من امثال فيلبوس الثاني او الاسكندر قد اصبحت بالجهود منذ قرن ونصف . فقد كانت تعيش على اجماد ماضيها .

بيد ان اعداء آخرين كثيرين ، بفضل نجابة احد القادة او عناد الشعب ، قد صمدوا صموداً طويلاً امام روما وانزلوا بها هزائم مدوية كان من ضروب المعجزة احياناً ان تستعيد قواها بعدها . وليست هزيمة كانا *Canes* سوى اخطر هذه الهزائم بسبب فداحة الخسارة فيها ، التي تقدر ، وفقاً لافضل ما لدينا من مصادر بـ ٧٢٠٠٠ قتيل و ١٠٠٠٠ اسير من اصل ٨٦٠٠٠ جندي اشتركوا في المعركة تقريباً . وكانت « كانا » ، في اقل من سنتين انتصار هنيئيل الرابع ا واذا ما رجعنا الى تاريخ الجمهورية العسكرية واستعرضناه من اوله الى آخره ، يتضح لنا انه يقدم لنا لائحة طويلة من النكبات كان بعضها غلازي حقيقية كما حدث في اسبانيا امام « السلتينير » في « نومانس » ، وفي افريقيا امام « جوغورثا » ، وفي « اورانج » امام « السمير » و« التوتونز » .

اما ما يدعو الى الاعجاب ، بقدر ما يدعو اليه التسلب ، فهو المرونة وقابلية التكيف الدائم التي يبرهن عنها هذا التاريخ . فمن النادر ان تبتدىء حرب بانتصارات صاعقة : قد تكون روما غير مستعدة في الوقت اللازم ، وقد تكون تأخرت في نقل قواها الى ساحة القتال او أسندت قيادتها الى قائد ضعيف او أخذت على حين غرة بأساليب عدو او بلاد لم يسبق لها ان خبرتها خبرة كافية . ولكنها بسرعة متفاوتة ، تحسن تنظيم مجهودها وتكتشف الرجل الكفء وتدخل الاصلاح على تسليحها وتبتكر وتعتمد ستراتيجية او خطة جديدة : والفارتيون هم الوحيدون الذين سدوا عليها جميع هذه الابواب - ولم تنجح الامبراطورية نفسها ، بعد الجمهورية ، في فتحها .

ابدى بوليب ، الواسع الاطلاع وذو الاختصاص . والشغف بالفن العسكري ، الملاحظة التالية : « تفوق الرومان على كل شعب آخر في معرفة تغيير عاداتهم واستبدالها بافضل منها » . وقد قصد بذلك الاقتباسات التي كانت في الواقع كثيرة ومتنوعة : كاقبباس الترس المحدث على استطالة عن الغاليين ، واقتباس « البيلوم » عن « السمينين » ، وهو قطعة حديد ضامرة مثبتة في ساق من الخشب خفيفة الوزن بحيث يستطيع كل جندي ان يحمل منها اثنتين ، ومتوازنة ، على

الرغم من طولها البالغ مترين تقريباً ، بحيث يمكن القاؤها باليد على جيش الاعداء ، واقتباس الخنجر القصير ، الصالح للاستعمال حشداً وشفراً ، عن الايبيريين ، واقتباس اسلحة الفرسان ، الرمح ذي الحدين المعدنين والدرع والترس المتين عن الاغريق ، واقتباس الآلات الحربية الثقيلة عن الاغريق ايضاً وعن القرطاجيين . ولما كان الرومان يجهلون في البدء كل شيء عن شؤون البحر ، فقد طلبوا الى تجارهم ، في اول الحرب البونيقية الاولى ، ان يمثّلوا صناعة مركب كبير من مراكب الاعداء وقع في ايديهم . وقد استخدموا ، على غرار الجيوش القرطاجية والهلينية ، وحدات من المرتزقة والحلفاء الذين يحتفظون بأسلحتهم واساليبهم القومية في المعركة : فرساناً نوميديين اتاحوا للشيبون التغلب على هنبعل ، ونبالين كريتيين وبالياريين استخدمهم قيصر حتى في شمالي غاليا ، وفرساناً غاليين ، ثم فرساناً جرمانيين ابان انتفاضة فرسنجيتوريكس *Vercingétorix* الكبرى . لا بل انهم غامروا ، دونما افادة كبرى على كل حال ، بان احضروا الى اليونان وآسيا فيلة حرب تسلموها من قرطاجة المغلوبة على نفسها .

ولكن بوليب قد شدد ايضاً ، في البحث الشهير الذي كرسه للجيش الروماني ، على بعض صفاته المميزة . فامتدح بنوع خاص روح التنظيم التي كانت تتجلى في عمليتي التجنيد والتعبئة ، والحرص على ان لا يتوقف الجيش ، حتى ليلة واحدة ، دون ان يشيّد له معسكر نظامي ويحاط بخندق ومنحدر وحباك ، واليمين التي يقسمها الجنود في بدء كل حملة ، وقوة النظام التي تميزها العقوبات الصارمة بما فيها القرع والموت ، حتى النصف الاول من القرن الثاني ، والمكافآت ، تيجاناً واوسمة واسلحة شرفية ، التي تبهمن للمواطنين ان حاملها قد اتى مأثرة من المآثر . ولم كنا لود في الحقيقة معرفة ما اذا كان كل ذلك ينسب الى الرومان ام يعود الى عادات مشتركة بين شعوب كثيرة من شعوب ايطاليا الوسطى ، ولكن رغبتنا ابعد من ان تلقى اجابة أكيدة .

بيد ان تأكدنا يزداد بصدد التحسينات التقنية التي تكفي بعض الامثلة عنها للدلالة على ان الرومان لم يقتصروا على الاقتباس من شتى الجهات . فقد استطاعوا مثلاً اكتشاف علاج مؤقت لتلاني سوء خبرتهم البحرية الذي حال دون قيامهم ببناء سفن خفيفة وسهلة القيادة على الرغم من اقتباسها عن سفن قرطاجة : فابتكروا ، لهذه الغاية ، « الغريان » ، وهي كلاليب كبيرة تؤلف جسراً ضيقاً ، وتجمد سفينة العدو بسقوطها عليها وتحول المعركة البحرية ، بفعل اقتراب السفينتين الواحدة من الاخرى ، الى معركة برية . وهكذا ايضاً فانهم قد مارسوا فن حصار نظامي وثابت كثيراً ما انطوى على اجهزة هائلة للإحاطة بالمدينة المحاصرة ، وليست عمليات حصار قرطاجة ونومانس على يد شيبون اميليانوس وحصار « أليزيا » على يد قيصر سوى اشهر الامثلة المعروفة فقط : فالهجوم النهائي بالتالي ، حتى اذا ما بدا ضرورياً ، لا يقرر الا بصورة مضمونة النتيجة على محاصرين انهكتهم المجاعة . وهكذا ، وبنوع خاص ، فانهم قد كيفوا وحدتهم العسكرية التقليدية ، اي الجوقة .

أداة الانتصارات الحاسمة :
الجوقة في أوائل القرن الثاني
بفضل « بوليب » و « ثيت - ليف » ، نحسن اليوم معرفة الجوقة في
أوائل القرن الثاني . المرونة هي صفتها الاولى ؛ ويقوم النجاح الذي
جعل من الجيش الروماني اول جيش في العالم ، في انه حصل على هذه
المرونة دونما إضرار بالصلابة .

تبرز هذه المرونة في ضالة مجموع افراد الجوقة ، - ٤٥٠٠ رجل في ظروف التجنيد العادية ،
و ٥٣٠٠ عند الحاجة - مما يسهل قيادتها ، في حال ان ليس هناك ما يمنع ضم هذه الوحدة
الاساسية الى وحدات أخرى .

وتبرز في تنوع الجوقة الداخلي . فهي تؤلف جيشاً صغيراً قادراً على المحاربة مستقلاً عن
غيره . ويمثل مشاة الهجوم فيها ، ويتراوح عددهم بين ٣٠٠٠ و ٣٨٠٠ رجل ، قوة القتال
الاولى . ويستخدم المشاة ، المسلحون بأسلحة خفيفة والبالغ عددهم ١٢٠٠ رجل ، في المناوشات
الاولية ، فيحاولون زعزعة قوة العدو قبل الاصطدام الذي يتوارون عند حصوله . وتضم
الجوقة اخيراً ٣٠٠ فارس يشكل عددهم الضئيل ضعف الجوقة الوحيد .

وتبرز في تجزئة وحدة المشاة الحقيقية . اجل لا شك انها قد حاربت في البدء مؤلفة كتيبة
متراسة . ولكنها توزعت الآن الى ثلاثة خطوط . وحل الرمح في أسلحة جنود الصف الثالث
محل « البيوم » ، وهؤلاء اقل عدداً من جنود الصفين الآخرين ولكنهم أكبر سناً وافضل تمريناً
ويلعبون دور الاحتياط .

وتبرز في تقسيم كل من هذه الخطوط الى عشرة افواج وعشرين كتيبة . اجل قد يكون هذا
التقسيم قديماً ، بيد ان المؤرخين المعاصرين يذهبون اليوم الى التأكيد ان تنظيم الافواج قد تحدد
نهائياً ابان الحرب البونيقية الثانية . تحتل الافواج مراكزها محتفظة بمسافات معينة بين بعضها في
الخط الواحد وتلتزم في الخطوط الثلاثة مؤلفة ما يشبه رقعة الشطرنج ، فيدخل كل صف المعركة
في الوقت اللازم ، دونما تشويش ، ويتصرف كل فوج وفقاً لمقتضيات الظروف وينتقل لمساندة
جيران يبدو عليهم الوهن او لاستثمار شجون ساحة المعركة ونقاط الضعف في جبهة العدو .

وتبرز اخيراً في الفرد نفسه الذي ينتمي الى الجوقة . ويشدد بوليب ، في صفحة شهيرة
أخرى يفسر فيها تفوق هذه المجموعة الحسنة التوزيع على الكتيبة المقدونية الجامدة ، على سهولة
الحركة وعلى المبادأة المتروكتين لكل جندي . فانتصارات الجوقة هي في الحقيقة انتصارات
كل من جنودها ايضاً الذين أثراهم تعدد الحروب وتعاقب الحملات بخبرة مباشرة شخصية او
بخبرة رفاق السلاح . ولم يحقق أي جيش قديم ، في وحداته او في رجاله ، بالقدر نفسه الذي
حققه الجيش الجمهوري في القرن الثالث وأوائل القرن الثاني ، ذلك التحالف الوثيق بين الصفات
المتوسطة في جيش ممتن والصفات نفسها في جيش المواطنين المستعدين للتضحية الكبرى دفاعاً
عن الوطن وحفاظاً على أجياله . ولكن هذا التحالف ما كان ليديم ابداً .

أضف الى ذلك انه يجب الإشارة الى بعض النواقص حتى في هذا العهد
النواقص : الاسطول العظيم .

من هذه النواقص ما لا تبرز خطورته إلا بين الحين والحين . فلا يخلو من المغالطة مثلاً ان روما قد استولت وحافظت على امبراطورية المتوسط دون ان يكون لديها اسطول حقيقي . فأوجدت هذا الاسطول ، بفضل الحزم الذي تتحلى به والاستعانة خصوصاً بمدن ايطاليا الجنوبية التي أخضعتها ، حين لمست الحاجة اليه ، في حربها ضد قرطاجة مثلاً . ولكن عليها ، منذ صراعها ضد الملكيات الهلينية ، ان تبحث - وغالباً ما تجد - عن أكثر من عضد في الشرق نفسه ، لدى بعض الحلفاء كأطال او اوفينيوس البرغاموسي وكرودوس بنوع خاص . أضف الى ذلك انها لا تتعهد هذا الاسطول بعد زوال الحاجة التي فرضت بناءه . لذلك فقد تتعرض لمفاجآت مؤلمة كتلك التي دبرها لها مثيردات بالهجوم الذي شنه في السنة ٨٨ . وكثيراً ما تتغاضى ، حتى بتعريض قوتها للخطر احياناً ، عن تعاضل عمليات جريئة تنهض بها قرصنة تشجع ظهورها الظروف الطبيعية والبشرية في حوض المتوسط الشرقي ، كلما تراخت قوى الامن في الدولة المسيطرة . ولكنها لم تستفد من أية أمثلة . فهي تعلم ان لديها وسائل المقاومة ، وهي تقاوم فعلاً ، ولكن في فترات متقطعة ، لأنها ترفض بذل جهد مستمر . فهي إنما تتكل على جيوشها قبل كل شيء آخر ، على الرغم من التأخير الذي اتصفت به بعض اعمالها العسكرية ، ومن اكتفائها ، طيلة ثمانين سنة ، بتحالفها مع مرسيليا للاتصال بملكاتها الاسبانية ، ومن ان سيادتها على قناة «اورانت» قد بدت لها ، طيلة فترة اطول ايضاً ، كافية لاحتلال اليونان البلقانية والسيطرة ، عن طريقها ، على الشرق البعيد . اما الاسكندر فقد كانت له اعذاره الاخرى في إهمال الناحية البحرية في ستراتييجيته وادارته الامبراطوريتين .

ينطوي تنظيم القيادة على سيئات كثيرة ما تكون نتائجها ملموسة . ولسنا نعي القيادة
هنا صغار الضباط بمن فيهم قواد المئة الذين يقودون الكتائب ويقود واحد من اثنين منهم الفوج الذي تؤلف كتيبته جزءاً منه : فكلهم مختارون بين افضل الجنود . ولكن ضمانات الخبرة المماثلة لا تتوفر في كبار الضباط . فالشبان من طبقة الاشراف يخدمون في وحدة الفرسان او في الاركان العامة ، لا في وحدة المشاة ، ومع ذلك فمن بينهم ينتقى كبار الضباط العسكريين الذين ينتخبهم الشعب او يعينهم القائد بمعدل ستة في كل جوقة . والرؤساء بنوع خاص مديونون بقيادتهم لانتخابهم قضاة .

والكلام هنا عن الرؤساء حتى في جيش واحد : فقد قضى التقليد وروح النظام السائد بان يكونوا دائماً اثنين ، كالقنصلين فيما يعيننا ، يستلمان القيادة متناوبة يوماً بعد يوم . هذه كانت الحال حتى في معركة « كانا » في السنة ٢١٦ ولم يستند الا في وقت لاحق ، وبصورة منتظمة ، الى حجة العمليات الحاصلة على جبهات متعددة في آن واحد لتلاني محاذير النظام القاضي باسناد

قيادة كل جيش الى رئيس مستقل ، ومهما يكن من الامر فان هذا الرئيس ، مبدئياً ، يستبدل كل سنة . اجل ان مجلس الشيوخ يسهر ويوجه الانتخابات ويقول كلمته في توزيع القيادات و « يمدد » اكثر من سنة ولاية القاضي الذي يرضى هو عنه ، الخ . ولكن هذه التدابير ليست سوى تدابير مؤقتة . فلما كان غريباً عن المعقول ان يسند هذا المركز اكثر من مرة الى الرجل الواحد ، حتى بعد امد طويل ، اصبح من الواجب اكتشاف قنصلين جديدين ، كل سنتين ، يتحليان بما يجعلهما قائدين جيدين ، وهذه لعملهم معجزة تفوق امكانات اي مجتمع من المجتمعات ، حتى ولو لم يكن للعوامل الاخرى اي ضلع في تعيينهم . ولا مهرب لروما من هذا القياس ذي الحدين : فأمّا تعاقب رؤساء سريعي الزوال ، وقليلي الخبرة غالباً ، وعاجزين تماماً أحياناً ؛ واما خطر الموت الذي يمثل ، لنظمها الجمهورية ، ببعض القادة الذين يضطروا إلحاح الظروف لأن تحلّهم مركزاً ممتازاً أو لأن تسمح لهم باحتلاله .

التجنيد وعدد الجنود الحقيقي
ليست معضلة عدد الجنود ، والتطور الذي يدخله على التجنيد بأقل خطورة من هذه الظاهرة .

كل شيء في منتهى السهولة نظرياً . فإن القانون المرتكز على ما جرت عليه عادة قديمة في تسريح الجيش أثناء فصل الامطار ، ينصّ على ان كل مواطن ، ابتداء من السابعة عشرة ، يمكن دعوته الى الخدمة للاشتراك في ستة عشر حملة اذا انتمى الى إحدى وحدات المشاة ، وفي عشر حملات اذا انتمى الى إحدى وحدات الفرسان : فيختار القناصل على هوام - وترتبط كلمة « جوقة » اشتقاقاً بمفهوم الاختيار - الرجال الذين ستألف منهم جيوشهم . أضف الى ذلك ان روما قد احتفظت لنفسها بحق طلب المهندسين من جماعات الايطاليين المرتبطين بها وفاقاً لأنظمة مختلفة دون ان يتمتعوا بحقوق المواطنة الرومانية ؛ وبعد التحاقهم بالجيش ، يولّى عليهم رؤساء من الرومان ، فيحاربون الى جانب الجوقات دونما انضمام فعلي إليها . أجل . هنالك نصوص تحدّد ، فيما يتعلق بعددهم ، متطلبات روما المحتملة ؛ ولكن المصلحة العامة ، في حال تعرض ايطاليا لغزو مثلاً ، تسمح لها بتجاوزها . لذلك ، فان مبدأ الخدمة العسكرية الاجبارية ينوء بثقله على كافة الرجال الأحرار في شبه الجزيرة . ففي السنة ٢٢٥ ، أي سبع سنوات قبل اندلاع الحرب البونيقية الثانية ، بلغ مجموع الرجال الممكن تعبئتهم ٧٠٠ ٠٠٠ رجل ، منهم ٢٥٠ ٠٠٠ مواطن روماني تقريباً .

بيد ان هذه الاعداد الضخمة نظرية ، لأن لواقع الواجبات المالية أثره كماً في المدن اليونانية ، وللأسباب نفسها : فعلى الجندي ، من جهة ، أن يتحمل نفقات سلاحه الشخصي ، أقله بتسديدها من مرتب أقرّ في عهد باكر وجعل متساوياً لجميع المشاة ؛ ويرى الاغنياء لازماً عليهم ، من جهة ثانية ، ان يدافعوا عن ممتلكاتهم التي تعرضها الحرب للخطر ، أو انهم يبدون جزيلاً من الاندفاع ، كما يسود الاعتقاد ، في الذود عنها . ولذلك فان الفقراء لا يخدمون

إلا في الاسطول ، حين يكون هنالك اسطول ، باستثناء حالة واحدة ، تقرّ فيها التعبئة العامة التي يوجبها الاضطراب ؛ وقد واجه المسؤولون هذه الحالة ، دون ان يحققوها ، لآخر مرة ، في السنة ٢٢٥ ، حين بلغ الخطر الغالي الذروة . اما الآخرون فيقدمون ، بحسب ثروتهم ، مشاة الوحدات الخفيفة ومشاة الخطوط الهجومية ، بينما يؤمن الأثرياء جنود وحدات الفرسان . ولكن لما كان الأثرياء يستطيعون أيضاً الخدمة في الأركان العامة او القيام بوظائف عامة تعفيهم من التجنيد ، فان عدد الفرسان المواطنين يبقى على الدوام ناقصاً . وقنع معظم الاعباء العسكرية ، في الواقع ، كما في اليونان الكلاسيكية أيضاً ، على الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها الفلاحون الملاكون .

ومن البديهي ان هذه الطبقة ليست معينة لا ينضب .

في الظروف العادية ، تجمع أربع جوقات سنوياً ، أي ١٨.٠٠٠ مواطن ، يُضم إليها ايطاليون أكثر عدداً بقليل ، لا سيما في وحدات الفرسان . ولكن الحاجة قد ازدادت ابتداء من الحرب البونيقية الثانية . فبلغ عدد الجوقات ، إبان هذه الحرب ، خمساً وعشرين جوقة ؛ وليس من النادر ، بعد ان وضعت الحرب أوزارها ، وحتى السنة ١٦٧ حيث يؤلف نص « تيت-ليف » آخر مستندائنا ، ان تجمع أربعة عشر أو خمسة عشر جوقة ، غالباً ما يتجاوز أفرادها الخمسة آلاف رجل ، بينما تزداد نسبة الايطاليين حتى تبلغ ثلثي العدد الإجمالي . ولا يعني ذلك ان القوى التي تشارك في المعارك تتجاوز ، في ساحة القتال ، الاعداد التي توصلت إليها من قبل الملكيات الهلينية في النزاعات التي قامت بينها ، حيث يبلغ الجيش ٧٥.٠٠٠ كحد أعلى . ولما كانت روما حائزة على النوعية فقد اعتبرت من العتات ان تتفوق على خصومها عددياً : فليس من ريب مثلاً في ان الامبراطورية الفارسية كانت قد جمعت كتلاً تتجاوز هذه الاعداد تجاوزاً بعيداً . ولكن تعدد مشاريعها هنا وهناك وهنالك ، قد اضطرها الى أن تحارب على عدة جبهات . وليس ما حظي بالمزيد من عناية روما هو نفسه ما قد يغرينا ان نعتبره اليوم أعظمها أهمية . وهكذا فانها تبقي في اسبانيا وايطاليا جيوشاً اعظم منها في الشرق الايمجي في الوقت نفسه الذي تبسط فيه سيطرتها على هذا الأخير : ولا يأتيها العُضد اللازم سوى من الحلفاء الذين تتوفى اليهم محلياً ، لأن اقتصادها الكلتي في القوى أشبه بالتقير أحياناً . ولكن ليس تحت ذلك كبير أمر : فالجهود الاجمالي ثقيل ، والخسائر ثقيلة أيضاً حتى ولو لم نستطع احصاءها .

أضف الى ذلك ، ان تحليل المعضلة الكامل لا يخضع للطرائق الحسابية لأنه ينطوي على مظاهر أخرى كثيرة . وخطر هذه المظاهر هو تلك الصفة القاسية التي يتسم بها الواجب القاضي على الطبقة الوسطى بالاشتراك في حملات وراء البحار تدوم سنين عدّة ، دونما عودة الى البيت العائلي في فصل الامطار . وسنبتن في مكان آخر نتائجها الاقتصادية والاجتماعية . وقد

استفاد منها الحكام للحصول على بعض النتائج العسكرية . فقد نظم احدهم ، بعد « كانا » جوقتين من ارقاء متطوعين قدمهم اسيادهم للدولة يعتقدون اذا ما برهنوا عن سلوك حسن : وهذا تجديد لم يسمع به من قبل ولن يعاد اليه بعد هذه الحرب على الرغم من ان نتائجه لم تحيب الآمال . فقد أُوثر فيما بعد الاستعانة بمزيد من الايطاليين وحلفاء ما وراء البحر والمرتزقة . وقبل ان ينظم العهد الامبراطوري الدفاع عن الامبراطورية بواسطة سكان الاقاليم ، فتحت روما الجمهورية هذه الامبراطورية ، على غير يد الرومان .

ولكن هذه العلاجات لم تكن كافية . وقد نقل الينا التقليد الفكاهي اصلاحات ماريوس حوادث ذات مغزى : في اليونان ، منذ اوائل القرن الثاني ، طلب بعض افراد الجوقات تسريحهم بالحاح ، كما اثار التجنيد للحرب المقدونية الثالثة تشكيات حادة من اختيار الرجال انفسهم اكثر من مرة . وكانت الاغريقيات يفكرن بالجيش حين حاولن ايجاد طبقة جديدة من الرقيقين الملاكين . وعندما اخفق مجهودهن ، لم يبق امامهن سوى حل واحد . وهذا الحل هو الذي طبقه ماريوس في قنصليته الاولى في السنة ١٠٧ .

اعرض ماريوس في هذه السنة عن تعيين مجنديه بفعل سلطته وقرر قبول كافة المواطنين الذين يتقدمون للانخراط في الجيش دونما نظر الى ثروتهم او الى فقرهم . فصادت هذه الطريقة لدى جميع الطبقات الاجتماعية نجاحاً منقطع النظير بحيث انها غدت القاعدة فيما بعد : واذا بقيت الخدمة العسكرية الاجبارية واردة في القانون ، فانها لم تطبق الا في حالات استثنائية ، في الحروب الاهلية بنوع خاص . ولا مكان لمغالة في اطراء النتائج المختلفة التي اعطاها هذا الاصلاح .

وقد تحققت اصلاحات تقنية ايضاً . فاصبح من الممكن رفع عدد الجوقات وسهل على روما الى حد بعيد تنظيم عدة جيوش في آن واحد لا سيما وانها انتهت بعد ذلك بوقت قصير الى منح حق مواطنتها لجميع الايطاليين . وفقدت الفروق في تسليح الجنود اسباب وجودها فاضمحلت ولم تعد تعكس وضعهم المالي . وامن الحلفاء والمرتزقة دون غيرهم جنود فرق الفرسان وفرق المشاة الخفيفة ، وسيخدم جميع المواطنين منذ الآن في فرق المشاة الثقيلة حيث زال التمييز القديم بين الصفوف الثلاثة ايضاً . واصبح من الضروري اضافة شعبة داخلية جديدة الى هذه الوحدة التي رفع عدد افرادها الى ٦٠٠٠ رجل : فاحدثت السرية يجمع الافواج ثلاثة ثلاثة واصبحت قادرة ، بعد ان جهزت تجهيزاً كافياً ، على ان تقوم بعمل مستقل ، حتى ولو عزلت عن الجوقة . فندت جوقة ماريوس ، بعد هذا التنظيم ، جوقة قيصر نفسه ، وقد كانت في الحقيقة جوقة كراسوس في « كار » ايضاً ، لانها وجدت نفسها دونما منعة امام نبالين يمتطون صهوات الخيول : ولكن هل كان من الممكن لسابقتها ان تبدي منعة اجدى ؟

الجندي والرئيس بيد ان التبدل الرئيسي كان اجتماعياً ترافقه انعكاسات اخلاقية وسياسية عميقة .

لم تجند الجوقات منذ ذلك الحين ، باستثناء بعض المغامرين ، الا بين الفقراء الذين يستهويهم المرتب وامل الغنيمة بنوع خاص ؛ ومن حيث ان الحياة العسكرية قد اقصت عنهم الهموم المادية ، فانهم قد رضوا بخدمة اكثر تواصلاً خارج ايطاليا . فاصبحوا ، بعد افتراقهم عن مواطنيهم ، جنوداً محترفين ممتازين ، ولكن دون احترام للشرائع والنظام القائم ، مستعدين لان ينفذوا بانقياد اعمى كل مهمة تطلب منهم ، حتى قلب الحكم ، لا يتعرفون الا الى الرئيس الذي خدموا تحت امرته واقسموا اليمين امامه يوم انخراطهم في الجندية والذي قادهم الى النصر .

ولكن يتوجب على هذا الرئيس ، من جهة ثانية ، ان يكون قادراً على اكتساب اخلاصهم . فقد اخفق بعض الرؤساء ، كلوكولوس مثلاً ، اخفاقاً مزرياً ، بسبب حرصهم الصارم على احترام النظام وبعدهم عن مرؤوسيه وتشبثهم بسلطتهم . وبرهن غيرهم فطرياً عن الصفات التي تثير حماس القساة والبطاء او عرفوا كيف يتحلون بها بعد اكتشاف سرها : الحزم عند الحاجة في تنفيذ المهام العسكرية ، مع التساهل المقصود ، والتغاضي عن الوسواس التي تحاصر الحيوان البشري بعد المعارك وخلالها ، وشجاعة القائد وطول اناقه الشخصيان ، اذ يتحمل قسطه من المخاطر والمتاعب ، والانتباه الذي يعيره الاعمال الفردية والعدل في توزيع العقوبات والعفو والمكافآت ؛ وفن التفوه في الوقت المناسب بالالفاظ التي تشدد الهممة او تثير الحماس ؛ والقدرة على الجمع بين البساطة العائلية ، وحتى الالفة ، في اوقاتها ، وبين العظمة التي تفرض نفسها على الغير ؛ والسخاء والعدل في توزيع الغنائم ، والتأثير والمهارة السياسية اخيراً اللذان يميلان الحكومة ، عند تسريح الجيش ، على اقطاع الجندي ارضاً يؤمن له استثمارها شيخوخة هائلة ينصرف فيها الى تربية اولاده . اجل لم تكن روما ، حتى ذاك التاريخ ، لتجمل مثل هذا الانسان ، ولكنها عرفت على غير اكتمال ، او مثل شيبون الذي انخرط في مجتمع ورؤس جيشاً لم يبلغا كلاهما من النضج ما يتيح له فرض نفسه . اما من الآن فصاعداً فكل شيء يساعد على تفتحه .

يمثل اصلاح ماريوس من ثم حدثاً عظيماً في تاريخ روما ، وفي عالم كامل عن طريقها . او جدته ظروف الساعة الملحة ، فعدتها هو بدوره وانضم الى اسباب اخرى ليحدد المستقبل . اعطى الجمهورية جيشاً افضل انطباقاً على حاجاتها ومواردها فاعطته هي مثلاً جديداً للرئيس كان ماريوس نفسه احد نماذجه وكان من المحتم ان يؤدي طموحه ، تساعده القوة المادية والسحر الآخذ من الجنود ، الى الكارثة او الدكتاتورية في هول الحروب الاهلية .

ان معضلة القيادة التي كانت في البدء عسكرية فقط ، اخذت بالتالي تزداد خطورة لانها اصبحت في آخر المطاف معضلة سياسية ايضاً . وليست هذه بين الضرورات التي خلقها الفتح ، الضرورة الوحيدة التي جهلتها روما .

عدم الانطباق
على المهام الاستعمارية

اجل لا يسعنا ان نمزو اليها عدم انجاز الفتح الذي نهضت به اقليمياً : فقد بدأت مرحلة الاضطرابات الكبرى اكثر من سنة بقليل بعد حملات «غاليا» ، وغدت مهمة الحلف انجاز العمل المتوقف . ولكن ما كان محققاً منه قد استلزم ، للمحافظة عليه ، جيشاً دائماً لم تفكر الجمهورية يوماً في تأمينه لنفسها .

كان من الواجب المفروض عليها ، على نهر الرين وفي البلقان وعلى نهر الفرات وفي افريقيا نفسها ، ان تكون في وضع يمكنها من مراقبة جيرانها الاقوياء او المزعجين على الاقل . وكانت من الواجب عليها ، في الداخل ايضاً ، في اكثر من منطقة ، ان تفرض احترامها على سكان اخضعوا حديثاً ، او ما زالوا في حالة هيجان احياناً ، ويزيد في استعدادهم للثورة انهم تحت رحمة استثمار اميري واقتصادي لا يعرف حداً ولا يعرف للرحمة معنى . ولم يكن من حاجة ، على ما نقدر ، لبلوغ هذه الغاية المزدوجة ، لاحتلال شامل يستهدف عرض القوة . ولكن كان مفروضاً في الحكام ، على الاقل ، ان يلبثوا جهازاً عسكرياً ويبقوا بعض الحاميات في حصون قائمة في نقاط حساسة ، او وحدة على بعض الاهمية في قلب مجموعة اقليمية .

لم يحدث شيء من ذلك . فقد اهلكت روما هذه الواجبات ، الا بصورة عرضية . وان قبضة الرجال التي وضعتها في الظروف العادية تحت تصرف حكام الولايات تمثل قوة رمزية اكثر منها واقعية ، اي العنصر البشري اللازم لموكب ابهة او السند الضروري لعمل بوليسي . ومن حيث هي تنكرت لمبدأ بذل جهد عسكري دائم ، فلم ترض بتجنيد جيش الا للقيام بتنفيذ مشروع معين ، كفتح جديد او هجوم معاكس او قمع ثورة . وحين تنتهي العملية وذبولها ، اي حين تضم الاقاليم او تعقد الصلح او تعيد الهدوء ، لا تتأخر قط في اعادة جنودها الى ايطاليا بغية تسريحهم معرضة نفسها بالتالي الى اخطر المفاجآت . ويمكن القول انها بعد سيادتها على امبراطورية واسعة الارضاء تشبثت بسلوك الطريقة التي سلكتها حين كانت مدينة صغيرة لا يقع على عاتقها سوى الدفاع عن اقليم محدود يسهل الوصول الى جميع اجزائه في وقت قصير جداً ، في حال ان الطرق الكبرى التي شرعت في انشائها او شقها - وهي نادرة ، على كل حال ، خارج ايطاليا : الطريق الاغناسية بين ديراخيوم وتسالونيك ، والطريق الدومسية بين نهر الرون وجبال البرانس (البيرينيه) - لم تلغ المسافات ولم تمنع البطء . فلم تع الواجبات الجديدة التي فرضتها على نفسها ، ولم تلق عليها اختبارات نفسها اي درس لانها درجت ابداً على تفسيرها كامور عارضة .

ولو فرضنا جدلاً انها وعت هذه الواجبات وفتحت اعينها جيداً ، لتوجب عليها بالمقابلة مزيد من المال ومزيد من الرجال . ولو اوجدت لنفسها ادارة ، لتوجب عليها ايضاً الاعراض عن اعتماد الوسائل المرجحة لتموين جنودها لانه اذا صح ان الحرب قد تغذي الحرب فان وحدة مستقرة للاحتلال والحماية لا تستطيع العيش طويلاً باعتمادها على الغزو دون غيره . ولو وعت

واجباتها لتوجب عليها اخيراً تنظيم ادارة مركزية قادرة على فرض هيبتها على القادة وعلى تنسيق المساعدة المتبادلة . ولكن واحداً لم يتصور كل ذلك تصوراً اذ ذاك . فعوضاً عن ان يكون لروما الجمهورية جيش واحد ، كان لها على التوالي جيوش لا تلبث عاجلاً او آجلاً ان تبسرحها ، مع ما يستلزم هذا التعدد المتقطع من ارتجال وتشويش وفردية في شخص الرؤساء ، وبالتالي من مخاطر عسكرية وسياسية .

وسنرى في سياق البحث ايضاً ان روما قد امتلكت اقاليم دون ان تجعل منها امبراطورية متراسة ، فكان لهذا النقص نتائجه ايضاً . ونشأت كل هذه الشوائب من السبب نفسه . فقد بقيت المدينة الجمهورية مدينة في فتوحاتها ، دون ان تكيف أنظمتها وفقاً لحاجات دولة كبيرة . وكان من المقدر لها ان تموت بسبب فتوحاتها وتترك للنظام الذي سينتقل إرثها اليه أمر تنفيذ المهمة التي تنكرت هي لها .

الفصل الثاني

المدينة وفشلها

عرف العالم القديم كثيراً من المدن الأخرى . وليس من النادر في التاريخ ان تصبح المدينة جمهورية ايضاً . غير ان الأهمية الحقيقية لهذه الظاهرة تكمن في غير مكان : في تطور أنظمتها الجمهورية ، أي الاختلال الذي أدخلته عليها اسباب تسهل معرفتها . فان المدينة الجمهورية اليونانية التي طابقت ، فوق تنوع الحالات المحسوسة ، مثلاً حضارياً معيناً ، قد عرفت الانهيار بفعل انهزامها امام الملكية المقدونية . اما نجاحات الجمهورية الرومانية ، على نقيص ذلك ، فقد خلقت الازمات التي لم تغلب عليها .

١ - المدينة LA CITE

ولكن يبدو ، بعد كل اعتبار ، ان هذه المدينة كانت افضل استعداداً للتوسع
المدينة اليونانية
والمدينة الرومانية
من مدن أخرى كثيرة . اجل لا تسمح لنا معلوماتنا حول المدن الفينيقية والأتروسكية مثلاً باجراء مقارنة ما ، ولكن المدن اليونانية ، في العهد الكلاسيكي ، التي نعرفها معرفة أوفى ، ترتدي طابعاً لا وجود له في روما : واذا كان إيضاح الفرق أمراً دقيقاً في جوهره المثالي ، فانه يبدو اساسياً في نتائجه العملية .

تتكررت المدينة اليونانية لتوسيع حدودها البشرية . وقد ذهب المواطنون الذين يؤلفونها ، احياناً ، الى اقضاء أبناء الزنى وأبناء الأمهات الاجنبيات ، فلم يقبلوا برضاهم ، في صفوفهم ، سوى أبناءهم . اما اولئك الذين لم يمنحهم نسبهم هذا الحق ، فلم يحصل عليه منهم ، في أغلب الاحيان ، سوى اشخاص منغين صدرت لمصلحتهم قرارات خاصة . ويقفل باب هذه المواطنة حتى في وجه اليونانيين الذين تربطهم بهم وحدة يطيب لهم الاعتراف بها أثناء الاعياد اليونانية الجامعة ، كأنهم يحرصون ، على ما يظهر ، على إبقاء نقاوتهم العنصرية وعلى حصر التمتع بالحقوق السياسية في إطار ذوي هذه الحقوق من الشرعيين .

لا يسعنا التأكيد بأن روما لم تشعر يوماً بمثل هذه الأثرة . بيد ان تصرفها يبرهن ان هذه

الاثرة لم تسيطر فيها قط سيطرة مستمرة . وفيما يلي ناحية قانونية تدل ان هنالك اكثر من فارق بسيط . ففي اليونان - وفي اثينا بالتدقيق ، ولكن هذه المدينة مثال الديمقراطية اليونانية - يخضع عبد المواطن الذي يعتقه سيده لنظام هو اقرب الى نظام الاجنبي المقيم ، ولا يستطيع حفرته ان يتفلتوا منه إلا في حالة استفادتهم من تدبير فردي . اما في روما فيستفيد العبد نفسه من نظام المواطن مع بعض قيود تفرض عليه شخصياً ولا تلبث ان تزول عن حفرته ؛ ولم يكن هذا الامتياز نظرياً لأن عدد المعتقين قد تزايد باطراد . فلا مجال من ثم للدهشة امام السخاء ، المنقطع النظير في عالم المدن القديم ، وقد ميز عالم الامبراطوريات نفسه بين الرعايا ، حتى ولو جهل المواطن الذي حل روما على منح حق مواطنتها كاملاً ، دون ربطه بأي واجب ودون الحصول منه على أية منفعة ، لرجال احرار أجنب : ولعلّ اعداءها بالأمر ، اذا كان خضوعهم على شيء من الصدق ، يحصلون على هذا الحق قبل حلفائها المتسكين بطابعهم الخاص ، اذا ان الخاضعين يستطيعون بواسطته تحسين مصيرهم .

بدأت المجموعة البشرية الاولى هذا التوسع منذ عهد باكر جداً . فمنذ القرن الرابع قبل المسيح ظهرت أسماء عائلات من الاتروسك والفولسك والكمبانيين في لوائح ارفع القضاة الرومانيين مرتبة . ولم تقص الطبقات الاجتماعية الدنيا : فان إيجاد القبائل الجديدة ، انطلاقاً من توسع الاقليم الروماني ، يرفع عدد القبائل الى خمس وثلاثين ، بينها إحدى وثلاثون قبيلة ريفية ، ويضمّهم الى المدينة . لا ريب في ان التجنس القانوني الكامل تفيد منه الارستوقراطيات والبورجوازيات النائية افادة أسرع . ولا ريب ايضاً في بروز مرحلة توقف ابتداء من منتصف القرن الثالث ، وهو التاريخ الذي يحدّد التقليد فيه بـ ٣٠٠ ٠٠٠ تقريباً عدد المواطنين البالغين ١٧ سنة على الأقل ، في حال انه يرفعه في اواخر القرن الثاني الى ٤٠٠ ٠٠٠ فقط بعد إزاله الى اقل من ١٥٠ ٠٠٠ . ولكن « الحرب الاجتماعية » ، في اوائل القرن الاول ، تقود روما الى فتح ابوابها لجميع الايطاليين : فأصبح عدد مواطنيها ٩١٠ ٠٠٠ في السنة ٧٠ . وازداد التوسع بعد ذلك ازدياداً مطرداً سريعاً ، حتى في مصلحة سكان الاقاليم ، اما بفعل الانعامات المتفرقة التي لجأ اليها القادة في بلدان هدأوها ونظموها ، كما فعل بومبيوس منذ السنة ٧٢ في قلب البرانس (البيرينيه) وكرر فعله في الشرق في السنوات ٦٧ - ٦٢ ، واما بفعل الانعامات الشاملة التي استصدر قيصر قراراً بها في السنة ٤٩ لمجموع « غاليا » الواقعة وراء جبال الالب .

هل يتم ذلك عن تدبير اناني ام عن سخاء ؟ لا شك في ان روما تخضع لما ترى فيه مصلحتها . فهي تزيد بذلك مواردها البشرية لتجنيد جوقاتها وتأسيس مستعمراتها : في اواخر القرن الثالث استشهد احد الملوك المقدونيين بها وبالفائدة التي تجنيها من أساليبها كي يطلب الى إحدى المدن التسالية استقبال مواطنين جدد . وهي تدرك ايضاً انها تقلل بعملها هذا من مرارة الشكاوى التي قد تدفع الى الثورات ، ويثبت اخلاص سواد الايطاليين الاعظم في أسوأ ساعات الحرب ضد هنيبل ، انها لا تتعامل دائماً مع ناكري الجميل . وليس من شك ايضاً في انها تستوحي ،

ومنذ عهد مبكر ، نظرة أكثر شمولاً منها في المدينة اليونانية ، اذ انها تزيل الحدود البشرية التي علفت المدينة اليونانية على الاحتفاظ بها أهمية كبرى . وهي فخورة باسمها ، وليس حق مواطنيتها باللقب الباطل ؛ ولكنها تتحاشى ان تجعل منه احتكاراً محصوراً في طبقة وراثية ضيقة . وقد اعتمدت ، منذ عهد مبكر جداً ، ودون ان يضطرها الى ذلك شيء ، سياسة لم تترأث ائينا الديمقراطية اماكن اعتمادها إلا ساعة انهيار امبراطوريتها . وينطوي مجرد هذا التجديد على أهمية عظيمة : فللمرة الاولى في التاريخ يرفع المنتصرون المغلوبين الى مستواهم ويدخلونهم في شراكتهم . ولم يؤثر في النفس مدى تطبيق روما لهذا التجديد الذي أخذ يتسع شيئاً فشيئاً حتى شمل عالمنا بأكمله .

غير ان روما لا تسير قدماً في التجديد . فقد تنكرت لمثال المدينة المحصورة كما نادى به افلاطون وارسطو وأبقت على نظم أصبح من السخرية تطبيقها على توسعها البشري والاقليمي . وقد سبق لارسطو ان أكد انه « لا يبقى هنالك من مدينة اذا بلغ مواطنوها الـ ١٠٠٠٠٠ » . بيد ان روما قد تجاوزت هذا العدد تجاوزاً كبيراً وبقيت ، على الرغم من ذلك ، منظمة كما لو كان مواطنوها ١٠٠٠٠٠ او ٢٠٠٠٠٠ . وغني عن القول ان نظمها قد تطورت ، اذ لا شيء يبقى جامداً طيلة خمسة قرون . ولكن تطورها زاد من خطورة المعاضل بدلاً من ان يحلها .

ان تتبع مراحل هذا التطور يتجاوز امكانات بحثنا . فمع اسفنا للتضحيات ^{الاقليم} ^{واقسامه القانونية} الضرورية ، نكتفي بالنظر الى الدولة الرومانية في آخر القرن الثالث والنصف الاول من القرن الثاني . كان اقليمها اذ ذاك منبسطاً جداً .

فهناك في الدرجة الاولى مدينة روما نفسها . ان الارض القائمة داخل اطار مكرس وفاقاً للطقوس تكون المدينة بالذات . هنا يجب تنفيذ كافة الاعمال الهامة في الحياة الدينية والحياة السياسية . ولا مكان في هذه الاعمال لفكرة القوة : فلا وجود اذن للسلطة العسكرية في هذا الاطار ؛ ويتوجب على مرافقي القضاة ، حين دخولهم اليه ، ان ينزعوا قووسهم من حزمة القضبان ؛ ولا يجوز لاحد ، باستثناء الاحتفال بموكب النصر ، ان يظهر فيه بأسلحته او ببزته الحربية . وينتهي من جهة ثانية ان المساكن مالبثت مع الزمن ان تجاوزت هذا الاطار ، فكان ان بعض الانظمة ، المطبقة فيه فقط ، — بصدد حقوق الضباط ، مثلاً — قد اصبحت تطبق في دائرة اوسع .

ولكن روما هي « المدينة » ايضاً كما طاب لمواطنيها حينئذ وكما سيطيب لهم اكثر فاكثر ان ان يدعوها : والمقصود بذلك المدينة الكبرى والاقوى من كل مدينة سواها ، التي يشع مجدها وسلطتها بعيداً .

بين بحرين ، وباستثناء بعض النواحي الصغرى ، يؤلف اقليم المدينة نفسها ، الذي يكون فيه السكان الاحرار مواطنين عادة ، معيماً كبيراً يبلغ ضلعه ٢٠٠ كيلومتر تقريباً : وهو لا يشمل سوى منطقة صغيرة جداً من الاتروسك ، بحيث ان زاويته الغربية لا تبعد عن مصب نهر

التبهر الا مسافة قليلة . ويبلغ مجموع مساحة هذا المعين ٢٥٠٠٠ كيلومتر مربع ، روما هي المدينة الوحيدة فيه ، وبالتالي المركز الوحيد لكل حياة رسمية . ولا تحتل المجموعات السكنية الاخرى سوى مرتبة القرى ، وتحمل اسم « البلديات » او « المستعمرات » احيانا حين توطن روما فيها رجالاً تقطعهم بعض الاراضي . وهذه المجموعات انظمتها المحلية ، ولكن استقلالها الداخلي يبقى محدوداً جداً بفعل خضوعها لاوامر ورقابة الحكومة المركزية .

لروما « حلفاؤها » ايضاً ، وتنطبق هذه التسمية الرسمية على ما تبقى من شبه الجزيرة الايطالية بنوع خاص . ولكن بعض المدن الايطالية تؤلف « الحلفاء ذوي الاسم اللاتيني » ، وليس لهذا التعبير مدلول جغرافي بل قانوني فقط . فالمقصود بهذه المدن تلك التي يتمتع مواطنوها بحق شخصي شبيه بحق المواطنين الرومانيين . وان هذا النظام الذي ابتكر في الاساس لمدينة الحلف اللاتيني المنضمة الى الاقليم الروماني منذ عهد قديم ، قدطبق على مدن اخرى بعيدة وعلى « المستعمرات اللاتينية » المؤسسة على صورة « المستعمرات الرومانية » ولكن لمنفعة غير المواطنين . اما « الحلفاء » دون تحديد فقد عقدت معهم روما معاهدات تنطوي بنودها على تنوع كبير : تخلت على العموم عن كل حرية في نطاق سياستها الخارجية . ولكن جميع هذه التمييزات ، في الحياة العملية ، تفقد الكثير من اهميتها . وتذكر روما انها على جانب من القوة تستطيع معه ان تتخطى الحدود التي يضعها العرف وحتى النصوص امام سلطتها : وليس من رادع ضميري يحول دون تصرف حكامها تصرف الاسياد ، قولاً وفعلاً ، في علاقاتهم مع « الحلفاء » ، لا فرق اذا كان هؤلاء « ذوي اسم لاتيني » ام لا .

ماذا نقول بالتالي عن الولايات ، غالبا ما وراء الالب ، صقليا ، سردينيا ، كورسكا ، اسبانيا ؟ كل شيء فيها ، سكان وممتلكات ، ملك لروما بفعل الحق الذي يعطيه النصر : ويعود لها وحدها أمر تعديل « قانون الولاية » . واذا ما بقيت ، داخل اقليم الولاية او في جوارها ، مدن او شعوب تدين بلقب « الحلفاء » بسبب سلوكها اباتان الفتح ، فان روما تميل الى عدم الاكتراث ، شأنها في ايطاليا ، بالمعاهدات التي أحسنت بها على هذه المدن وهذه الشعوب .

فهناك اذن ، منذ هذا العهد ، أقاليم واسعة الأرجاء ومصائر وحياة ملايين عدّة من البشر تتصرف بها الحكومة الرومانية .

اننا لحسن الحظ نعرف هذه الحكومة معرفة حسنة في تنظيمها وسيرها
جمهورية
على السواء . فروما جمهورية منذ آخر القرن السادس ، وهو التاريخ الذي
ذات دستور « مختلط »
يعينه التقليد لنفي تاركوينوس الثاني ، ويحدد فيه انهيار الملكية وتحرير
السيادة الانروسكية . وقد قضت بعض الموجبات الدينية بالابقاء على « ملك للضحايا » لا
يستطيع ان يمارس أية وظيفة عامة أخرى . وفي حال شغور مراكز القضاء العليا ، يلجأ احيانا
الى « ملك مؤقت » لا تتجاوز مدّة سلطته القصوى خمسة ايام ، ويخلفه ملك مؤقت آخر اذا

استمر الشغور مدة اطول . فقد مقتت روما لقب الملك في مفهومه العادي ، وسبيلك قصير
بمخناجر المتأمرين لأن نفسه قد سوت له ان يحمله .

ولكن هنالك أكثر من مثال للجمهورية . وترتدي الجمهورية الرومانية نفسها أكثر من شكل .
فقد بدا تنظيمها للاغريق الذين حاولوا اذ ذاك معرفتها معرفة جيدة كصورة الدستور المختلط
الذي سمى واضعو النظريات عندهم ، منذ زمن بعيد ، لتحديد مثله الاعلى : دستور يستفيد في
آن واحد من حسنات الملكية والارستوقراطية والديموقراطية ، لأنه يقتبس بعض العناصر عن
كل من هذه الانظمة ويعدل الواحد بالآخر فيتجنب بذلك تجاوزاتها وإفسادها . وبوليب هو
أشهر هؤلاء الاغريق وأكثرهم إعجاباً ، وقد وصلت اليها نبذة هامة من البحث الذي كرسه ، في
اواسط القرن الثاني ، للأنظمة الرومانية ، تـكـوـن الاساس الذي لا غنى عنه للدرس الذي
قد يحاول هذا او ذاك القيام به اليوم . ولكن الواجب يقضي في الحقيقة تصحيح استنتاجاته :
فاذا اعتبر بوليب نفسه ان التوازن في طريق الانهيار ، فانه لا يرى او يتظاهر بأنه لا يرى ان
التوازن الذي يغالي في اطرائه ليس في الواقع إلا ظاهراً .

١ - الظاهر الملكي

مناصب القضاة

يرى بوليب الملكية في القنصلية . والافضل ان يقال بمعنى اوسع ،
انه يراها في مفهوم منصب القاضي . فع ان الدكتاتورية منصب
قضاء استثنائي ، فانها تنطوي على طابع اكثر ملكية منه في
القنصلية نفسها ، وليس القضاء ، اقله في بعض مظاهره ، بمعيد عن هذه الحقيقة ايضاً . ويستلزم
التمييز بين مناصب القضاة العليا مقياساً لهذه الغاية . فما هو هذا المقياس ؟ هل هو « السلطان »
Imperium ام السدة العاجية ، ام اهمية الوظائف الدينية ؟ ان لكل هذه المقاييس اهميتها .
ولكن اعتماد كل منها ينتهي الى اختلاف في التصنيف : وقد تردد الرومان انفسهم معتمدين هذا
المقياس تارة وذاك تارة اخرى . وخلق بنا ان نستغني عن هذا التوزيع ونقتصر على الفكرة
العامة . فالقنصلية في الحقيقة هي التي تعطينا افضل مثل عنها لانها خير حافظ على وحدتها
الاولى ، اذ انها حلت محل القضاء بظهورها بعده . ولكن مناصب قضاة اخرى مختلفة ، وان
احدثت دون منطق ، بحسب الحاجات او الظروف ، تمكس ايضاً ، في بعض الاحيان ،
المثال الاول .

وما يزيد في اهمية هذه الفكرة انها مبتكرة . ولا يوجب القول بذلك ، على كل حال ، ان
يعود الفضل في احداثها الى روما : فان معلوماتنا الاولى حول المدن الاثروسكية والايطالية لا
تسمح لنا بنفي الاقتباس عن إرث جماعي . اما الواقع الذي يجب التشديد عليه ، فهو انه ليس
ما يوازي ذلك عند الاغريق .

تشق كلمة *Magistratus* ، التي تطلق في آن واحد على الوظيفة والقائم بها ، من كلمة

Magister « المعلم » . ثم ان *Magis* تعني « أكثر » ؛ لذلك فالقاضي هو « أكثر » من مواطن . فهو ، من حيث تعريفه ، ليس بخادم الجماعة ، او منفذ لقراراتها او خاضع لرقابتها واوامرها أو قابل العزل بإرادتها : هذا هو القاضي في الديمقراطيات اليونانية ، أو بالأحرى ما يضطرنا فخر المفردات التاريخية الى تعيينه بهذا الاسم الذي احتفظت اللغة الفرنسية ، مع ذلك ، باطلاقه على القاضي (*Juge*) ببعض مفهومه اللاتيني . واذا ما عين القاضي الروماني وفقاً للأنظمة ، يتسلم بالوقت نفسه ، بمعزل عن الجماعة ، وفوق الجماعة ، سلطاناً مستقلاً ، يجعل منه تجسيدا للدولة ، ومثلاً ومستعملاً لسلطتها . سلطان وسلطة : وهنا أيضاً يردّ التضيق الى غموض المفردات العصرية ، وعدم انطباقها على الوقائع التي ليست مجرد فوارق ، على الرغم من مرتكزها المثالي . كان الرومان يتكلمون عن البوتستاس *Potestas* التي لهذا المنصب أو ذاك ، فنترجم نحن *Potestas* « بقوة » ، في حال ان ما كان يقصد بها هو إمكانيات العمل الخاصة بمنصب ما ، بحيث يمكن تطبيق هذا المفهوم على الأنظمة اليونانية . ولكنهم كانوا يميزونها نظرياً عن « السلطان » ، وهو مفهوم اوسع وأرفع ، وخاصة لمنصب قضاء عدّة وللدكتاتورية ، والقنصلية والقضاء : فكان يعني ، في حال المحافظة على وحدته ، السلطة العليا في الدولة ، وحق القيادة في الحياة المدنية (« في البيت ») والحياة العسكرية . وهذا بالضبط ما جهله الاغريق .

أمام هذا الخلاف الاساسي ، بين الاغريق والرومان ، يستهويننا كثيراً ، ان نربطه بالخلاف الذي بدا لنا سابقاً . فعلى نقيض روما التي تمنح حق مواطنيتها بسخاء ، تضمن المدن اليونانية به ، وليس لديها ، عوضاً عن القضاة ، سوى موظفين فحسب : ولا شك في أن هذين التناقضين يعكسان ، على مستويين مختلفين ، تناقضاً واحداً أعظم عمقاً . فالمدينة في نظر الاغريق هي قبل كل شيء ، في جوهرها ، جمهور المواطنين : جمهور له فرديته ، وطدت وحدته الوراثة الطبيعية والاتحاد الروحي ، الذي تتيح هذه الوراثة تفتحه ، وبالتالي جمهور معاد لانضمام عناصر أجنبية ، يمثل في نظره تنازلاً وإفساداً يفقده مزايا أصله ، واخيراً ، جمهور ذو سيادة في وحدته المحكمة الإقفال يحل ، باستثناء الآلهة الذين يحمونه ، كل ما هو سواه . أما الأساس الروحي للمدينة الرومانية فغير ذلك . فالمواطنون يقرون بأن لروما وجودها بدونهم وبأنها ، اذا ما تجسدت في الكائن الجماعي الذي يؤلفونه عندما يجتمعون ، تتجسد أيضاً ، في بعض الرجال الذين يمنعون بعض الضمانات . وحين يتكلم هؤلاء الرجال ويعملون باسم المدينة ، يمارسون خيال المواطنين سلطة ينحنون أمامها . فمن الطبيعي ، في مثل هذه الظروف ، أن يشعر جمهور المواطنين ، وهو أقل تفاخراً بسيادة لا يحتكرها ، بأقل كراهية لانضمام الغرباء اليه . ولكن الديمقراطية الرومانية ، على كل حال ، لا تتمتع بملء حريتها لكي تفتح ، إذ انه يتوجب عليها ، أقله نظرياً ، وعملياً أيضاً في غالب الأحيان ، أن تحسب حساباً لسلطات اخرى .

الرواسب الملكية
مثل مناصب القضاء إحدى هذه السلطات ، وليس من شك ، باستثناء المناصب الخاصة « بعامة الشعب » ، في ان اصولها ملكية . وان في بعضها استمراراً للملكية في كمالها تقريباً ، لا سيما حين تمارس قيادة عسكرية . ولم تثر مناصب أخرى عن الملكية سوى قسط محدود من خاصياتها وسلطتها . بيد انها كلها ، باستثناء المنصب المحصور دوره في التنفيذ والادارة المالية ، تتمتع بسلطة مستقلة لا يفوقها ، في حال المنافسة ، إلا سلطة منصب أرفع . ويكفي ان نجتمع بعض الخطوط ، باستعارتها خصوصاً من المناصب المنعم عليها بالسلطان ، لإظهار شأن هذه الرواسب الملكية .

ان القاضي الروماني ، وهو الوسيط الطبيعي بين المدينة والآلهة ، يتولى تقديم القرابين العامة ، ويعرب عن التمنيات التي تلزم روما ، ويدشن المعابد الجديدة ، وينظم الاعياد ، ويشرف على الاحتفال بها . وعليه ، وله وحده ايضاً ، قبل أي عمل يقوم به باسم المدينة ، ان « يستشير الطالع » ، أي ان يحاول بطرق مختلفة ، لا سيما بملاحظة طيران الطيور ، معرفة ما اذا كان الآلهة عاطفين على المشروع .

والقاضي هو مطلق السلطة كقائد جيش . يتمتع وحده ، في روما وفي الحياة المدنية ، بحق دعوة الشعب ومجلس الشيوخ اللذين لا يستطيعان بدونه أن يجتمعا أو ان يدرسا قضية لا يطيب له عرضها عليها . يوزع العدل وفقاً لنظم وقواعد يحددها هو نفسه ، شريطة ان يعلن غنها . ينشر القرارات . يفرض أقصى العقوبات ، وقد درج على ذلك زمناً طويلاً ، على الذين يخرجون على أوامره العامة والخاصة . لا يمكن ان يعزل أو يحمل على التنازل او يلاحق عدلياً طيلة مدة ولايته .

ان في مثل هذه السلطة ما يبرر الاحترام اللائق به والشارات الخارجية التي تلفت الانظار إليه . يرتدي الحلة المحشاة باطار من الارجوان ويستبدله في الجندي بمعطف قائد الحرب ، وهو من الارجوان الخالص . يجلس في الاحتفالات العامة ، بينما يقف المواطنون أمامه ، ومن حقه أن يجلس ايضاً على السدة العاجية السهلة البني . يتقدمه في تنقلاته جنود يحملون حزمياً من القضبان تتوسطها فأس ، وترمز هذه وقلك الى قدرته على الإكراه ، أي على القسر والعقاب .

ولكن هذا المنصب المثالي لا وجود له في الواقع ، حيث يجزئه ويحدد منه التقييدات الواقعية
عدد من الاعراف والمبادئ الدستورية .

فهناك ، في الدرجة الاولى ، مناصب قضاء عدة ، ويمتلك أحدها ، منصب الحامي عن حقوق الشعب ، أسلحة كافية لشل كافة المناصب الأخرى . وهناك أخيراً أكثر من قاض أصيل لكل من هذه المناصب . ولم ينبج من مبدأ هذا التعدد الشامل سوى الدكتاتورية ؛ ولكن مدتها لا يمكن ان تتجاوز ستة أشهر .

ولا تقدم المناصب الأخرى طويلاً ايضاً ، من جهة ثانية ، على الرغم من تعدد شاغلها

الأصليين . وهي تدفع الى الشك والتنافس بفعل ما هي عليه ، وما تخلقه من آمال : من هنا كان الحرص على ان لا يستمر فيها أحد زمناً طويلاً . فاذا حق لمراقبي الإحصاء والأخلاق العامة أن لا يستقبلوا إلا بعد سنة ونصف ، فان القضاة الآخرين يتنازلون كلهم ، بعد مضي سنة ، عن مراكزهم لخلفائهم . أضف الى ذلك ان الاحتياطات تتخذ للحيلولة دون تجديد انتخابهم أو إعادة انتخابهم في موعد قريب : فبينما استطاع بريكليس ، بطريقة شرعية جداً ، ان ينتخب قائداً في أثينا طيلة خمسة عشر سنة متواصلة ، فرض في روما ، منذ اواخر القرن الرابع ، فاصل عشر سنوات لإعادة الانتخاب للقنصلية ، الوحيدة بين المناصب التي قد يبدو دوام الترتع فيها مغرياً ، الى أن ارتأى الاخوان غراكوس وساتورنينوس ان منصب المحاماة عن حقوق الشعب قد يكون مغرياً ايضاً . وبحول قانون صادر في أواسط القرن الثاني دون قنصلية ثانية ، ولن يحيزها مجدداً سوى « سيلتا » بإعادة فرض فاصل السنوات العشر . واذا ما شاب هذا التشريع المتقلب ، عملياً ، بعض السيئات ، فانه يوحى مع ذلك بالروح التي يستلهمها النظام .

ومن المهم ايضاً تبيان المدى الحقيقي لتعدد الشاغلين . فعلى نقض المدن اليونانية ، حيث يعقد القضاة الاجتماعات ، عادة ، ويتخذون مقرراتهم بالأكثرية ، نرى ان احترام روما للسلطة المستقلة التي ينعم بها كل منهم ، أعظم من أن تنزع عن اعمالهم الطابع الفردي ، ولكن هذا الاستقلال الحدّاع يحدّ من حريتهم في العمل ولا يسهم قط في زيادتها . فهناك حق النقض الذي لا يعود فقط للقاضي الأعلى بالنسبة لقرار من هو أدنى منه ، بل لقضاة متساوين بحيث يكفي تشبث الواحد منهم فقط لإبطال ما يقرّ عليه رأي عدد من زملائه . وليس للقاضي الفردي في الحقيقة سلطة اخرى ممتعة سوى هذا النقض فحسب .

فهل السلطة القضائية وحق اصدار البراءات أعظم استقلالاً ؟ ولكن القاضي مرغم على احترام القوانين ، واذا ما جعلته وظيفته في مأمن من العزل ورفع الدعوى عليه ، فان هذه الحصانة تزول حين يصبح مواطناً عادياً : فهو معرض إذ ذاك ، دون أن يتوجب عليه تأدية الحسابات كما في أثينا ، لأن تستهدفه دعاوى خطيرة ذات مفعول رجعي ، لأن المدّعين الجسورين كثيرون . وعليه ايضاً ، ان يحسب للعرف وللرأي العام حسابهما : فبينما يتمتع القاضي « المدني » بحق نظري يتيح له ، بنشر بيانه حين تسلمه العمل ، ان يقلب ، رأساً على عقب ، القوانين والقواعد المرعية في الدعاوى التي سببت بها ، فانه لا يحدث شيئاً الا بحكمة ويقتصر عملياً ، في اكثر الأحيان ، على إعادة بيان سلفه . ولا يستطيع القاضي بنوع خاص الاستغناء عن العمل برأي مجلس الشيوخ الذي تفوق سلطته المعنوية والعملية سلطة القاضي الى حد بعيد كما سنرى ذلك في سياق البحث .

وما القول عن حق القسر ؟ يقابله حق العودة الى الشعب . ان هذا الحق الاخير لتقديم حقاً ،

ويسبق التقليد تاريخ الاعتراف به بأرجاعه الى عهد الملكية . وهو يوحي المزيد من الاعتزاز الى الرومان الذين يرون فيه « سور » و « حصن » حريتهم الفردية ، وللمقارنة بينه وبين قانون *Habeas corpus* البريطاني ، على هذا الصعيد ، ما يبررها كل التدبير . فهو يفتح في الواقع ، امام كل مواطن روماني ، امكان العودة الى جمعية الشعب اذا ما حكم عليه القاضي بعقوبة جسدية : فلا يبقى امام القاضي والحالة هذه سوى فرض الغرامة المالية ضمن حدود معينة . اجل لم يكن لهذه الحماية من وجود في البدء سوى على ارض الاقليم الروماني . ولكنها تمتد رويداً رويداً حتى تشمل ايطاليا والاقاليم الاخرى ؛ لا بل ان بعض القوانين جعلتها تشمل الجيوش في اوائل القرن الثاني .

لا شك في ان بعض القضاة ، لا سيما في ظروف معينة ، تصرفوا بجرية حيال هذه الاوامر : ويكفي لذلك ان نذكر باعتراض بوبليوس غافوس المؤثر — *Civis romanus sum* — « انا مواطن روماني » — اثناء ضربه بالعصي وموته بعقوبة الصليب الخزية الخاصة بالعبيد ، تنفيذاً لامر « فيريس » قاضي صقليا . وفي مستندائنا امثلة اخرى كثيرة ، دون هذا المثل شهرة لانه اعوزها فن شيشرون وحمياه لابرازها ، ولكنها ليست دونه تعبيراً . وقد اصدر القنصل شيشرون نفسه — محتتماً في الحقيقة برأي ابداء مجلس الشيوخ — قراراً بخنق شركاء كاتيلينا في المؤامرة ، في سجنهم . وأي نظام يذهب في احترام شريعته نفسها الى حد الامتناع عن الاعتقاد بان « السلامة العامة هي القانون الاخير » ؟ واذا لم يحب فيريس على خطاب شيشرون حول العقوبات ، الذي لم يلق قط على كل حال ، فقد استطاع احد المؤرخين اخيراً ان يقدم لتبرئته اكثر من حجة لها وزنها .

بديهي ان الجيوش هي التي حصلت فيها اكثر واخطر التجاوزات على القوانين التي تحمي « ظهر » و حياة المواطنين من تمسف القضاة : فقد امر « كراسوس » و « قيصر » بالافتراء على تعيين واعدام رجل من اصل كل عشرة رجال بين الفارين او العصاة . اجل ان النظام العسكري موجباته التي لا يستطيع اكثر الناس تساهلاً ان ينكرها — ولم يشتهر الكثير من قادة الرومان ، لا سيما العظام والمجيدون بينهم ، بفعل حنو مصطنع غريب عن التقاليد الوطنية — ولكن ما لا شك فيه ، اذا ما وضعنا هذه الضرورات بجانباً ، ان سلطة القاضي وسلوكه الملكيين هما بلا مراء ، من حيث القانون والواقع ، اكثر بروزاً خارج روما منها داخل روما والاقليم الروماني بالذات . فهو وحده في الخارج لا زميل الى جانبه يقف في وجهه : فحين يجتمع جيشان يرأسهما قاضيان متساويان ، القنصلان مثلاً ، للقيام بعمل مشترك ، يتولى القيادة كل من الرئيسين يوماً واحداً بالمنابذة . ثم ان بعده يخفف من الوصاية التي يستطيع مجلس الشيوخ ممارستها حياله . وهو ، اخيراً ، يمثل روما ويتصرف بالقوة المادية التي امتنت عليها ويتمتع بالقدرة المعنوية التي تجسد في شخصه : فلا يكون رجلاً اذا ما تهرب على الدوام من النزعة الى اساءة استعمالها .

وقد اعترف الرومان انفسهم بان الحاكم ، اي القاضي ، ملك في اقليمه : وسرى ان ذلك لم يعد بالخير لا على الاقاليم ولا على روما .

ليس من الضروري لعمرى ، بعد هذه النظرة العامة ، ان نستعرض بالتفصيل مناصب القضاء
مناصب القضاء المختلفة .

الدكتاتور قاض استثنائي يختاره ويعينه احد القناصل ، بناء على دعوة مجلس الشيوخ في الواقع . ومن حيث انه لا يخضع لأية رقابة او نقض ، فان له سلطة مطلقة على القضاة والمواطنين على السواء . فيتضح من ثم ان أمر تعيينه انما يتقرر لمواجهة الاخطار القصوى ، كتهديد أجنبي مدام او فتنة خطيرة . ولكن آخر دكتاتور من هذا النوع قد عين في السنة ٢١٦ ، غداة معركة « كانا » وقد عين البعض منهم بعد ذلك ، وكلّفوا القيام ، في غياب القاضي الاصيل ، بطقس ديني او سياسي ؛ ولكن ذلك لا يخرج عن مجرد حيلة في الاجراءات الرسمية . ثم انقطعوا نهائياً عن اللجوء الى هذا المنصب . اما دكتاتورية « سيللا » و « قيصر » فليس ما يجمع بينها وبين الدكتاتورية الرسمية القديمة سوى الاسم فقط : فهي تصديق شرعي لاستبداد أقيم بقوة السلاح .

وتتوج وظيفة مراقب الاحصاء والاخلاق العامة المناصب التي يتألب فيها كبار رجال السياسة مقاماً ، ولكنها لا تستلزم امتياز « السلطان » . وقد درجت العادة حتى اوائل القرن الاول ، تاريخ انتشار الفوضى ، على انتخاب مراقبين اثنين كل خمس سنوات . وتطوي مهمتها ، التي تنتهي باستعراض عام يرافقه احتفال يشتمل على ذبيحة كبرى وتطهير ونذور ، على تنظيم الشعب في سبيل حاجات المدينة العسكرية بنوع خاص . فيقومان ، تحقيقاً لهذه الغاية باحصاء الاشخاص والممتلكات ؛ ويوزعان المواطنين طبقات ووحدات تضم كل منها مائة شخص ويضعان بنوع خاص لائحة بالشيوخ ولائحة بالفرسان يستطيعان ان يقصيا عنها اولئك الذين يبدو لهما سلوكهم ، حتى الخاص ، موضع انتقاد وشبهة . ويحددان ، لمدة خمس سنوات ، قيمة الضريبة ويلزّمان الواردات والنفقات العامة .

ولكن ما قيل عن منصب القضاء بصورة عامة ينطبق بنوع خاص على القنصلية ، وريثة الملكية الزائلة . فالقنصلان اللذان ينتخبان لسنة واحدة يطلق عليهما اسمهما ، يمنحان ملء « السلطان » أي « سلطان البيت » و « سلطان الجندية » . لا ينقطعان عملياً الى الشؤون المدنية ، حتى خلال القرن الثاني ، إلا في فصل الامطار ويقضيان ما تبقى من السنة في احد الاقاليم على رأس جيش من الجيوش . بيد ان هذا الحل الفاسد ، الذي جاز اعتماده حين كانت الحروب تدور على مقربة من روما ، ينطوي اذ ذاك على مساوئ خطيرة . وسيقتضي مع ذلك انتظار « سيللا » في اوائل القرن الاول لاعتماد حل آخر كان لا يزال مطبقاً في اواخر الجمهورية . فالقناصل منذ ذاك التاريخ يبقون في روما طيلة سنة ولايتهم ويتولون فيها الحكم المدني فقط . ثم

كلّفوا ادارة شؤون احد الاقاليم باسم « بروقنصل » الذي اطلق من قبل عليهم حين كانوا يحتفظون بقيادتهم الى ما بعد الاجل القانوني لوظائفهم .

وكان القضاة العدليون ، في اول عهد الجمهورية ، هم القضاة الرئيسيين . ولكن خلق مناصب القناصل قد أنزلهم الى المرتبة الثانية . بيد انهم استمروا في استلام « السلطان » . وأسند الى اثنين منهم القضاء المدني : الاول ، « قاضي المدينة » ، للنظر في الدعاوى بين المواطنين ، والثاني ، القاضي « المتنقل » ، للنظر في الدعاوى التي يكون احد الاطراف فيها أجنبياً . ومنذ نهاية الحرب البونيقية الثانية التي استولت فيها روما على صقليا ، عين قضاة عدليون آخرون كي تسند اليهم ادارة اقليم او قيادة اسطول او جيش صغير . وطبق عليهم سيلا اخيراً ، الذي رفع عددهم الكامل من ستة الى ثمانية ، القانون المفروض على القناصل : فأصبخوا جميعهم يقضون سنة في روما متمتعين بصلاحيات عدلية ، ثم يعيّنون حكاماً في احد الاقاليم .

ويشرف نظار الابلية الاربعة على شؤون الامن وصيانة الشوارع والابنية العامة وتموين الاسواق . وما كانت هذه المهام التقنية لترتدي أهمية تذكر لو لم يضاف اليها تنظيم الالعاب في مواسم الاعياد الدينية : فاستطاع النظار بذلك ، حتى ولو كان الثمن تصدّع ثروتهم الشخصية ، اكتساب شعبية تؤمن انتخبهم لمناصب القضاء العليا .

ليس ما يشبه هذه الاستعاضة عند القضاء الماليين - وكان عددهم ثمانية اذ ذاك ثم ارتفع الى عشرين في ايام « سيلا » والى اربعين في ايام قيصر - . فمؤلاهم يكتفون بتأمين الادارة المادية لصناديق المال العامة ، بعضهم في روما بحسب مقررات مجلس الشيوخ ، والبعض الآخر ، بمعدل واحد في كل اقليم او جيش ، بحسب اوامر القاضي الذي يخضعون لسلطته .

يحذر بنا ، دون ان يشمل هذا الاحصاء المناصب الدنيا ، ان نفسح مكاناً منصب المحاماة عن
حقوق الشعب
خاصاً لمنصب المحاماة عن حقوق عامة الشعب . فجميع مميزاته ، باستثناء بعضها مما تتصف به مناصب النظار المنتمين الى عامة الشعب ، كالقدسية مثلاً ، تفصله عن مناصب القضاء الاخرى ، وهو يلعب احياناً دوراً اولياً في الحياة السياسية الرومانية . ولا ريب في انه ، بصورة عامة على الاقل ، تجديد مبتكر يفسره وضع المدينة الداخلي في القرن الخامس قبل المسيح وحدة الصراع القائم آنذاك بين عامة الشعب وطبقة الاشراف المسيطرة على كافة مناصب القضاء .

ان « لقدسية » المحامي عن حقوق الشعب ، التي تؤمن له الحرمة ، قيمتها الدينية : نجس وملعون كل من يجرؤ على ان يد اليه يداً او ان يقف في وجهه . كان في الماضي يدفع المجرم بنفسه من اعلى الصخرة « الطاربية » ، واذا ما اكتفى ، حتى في القرن الاول ، بالتحويل بخطر هذه العقوبة القديمة ، فقد حدث له ان ضرب المجرم بيده والقاه في السجن ، حتى ولو كان احد القناصل . فمن البديهي ان توفر له هذه الامتيازات الهائلة ككل حرية في ممارسة صلاحياته .

ليست اكثر هذه الصلاحيات بالاجابية . وليس لمهامه نطاق خاص به . ولا يستلم « السلطان » . ولا يمثل روما ولا عامة الشعب نفسها التي تنتخبه ، ولكن لديه كافة الوسائل المفيدة للدفاع عن افراد عامة الشعب ، فرديا ام جماعيا ، ضد كل معتد ، باستثناء الدكتاتور الذي يقضي تعيينه بتعليق حقوق هذا المحامي . وان هذه الحقوق التي يمارسها على هواه تحمل اسماء وترتدي اشكالا متنوعة : « العون » الذي يقدمه لمواطن يهدده احد القضاة ، « والاعتراض » على عمل او قرار ، حتى « النقص » المسبق لمشروع قانون ما . يضاف الى جميع هذه الصلاحيات السلبية والهدامة ، منذ البداية ، حق واحد ايجابي ، اعني به حق دعوة عامة الشعب الى جمعية لملها على الاقتراح على احد المقررات : ونرى في الواقع ، منذ اوائل القرن الثالث ان لمقررات عامة الشعب قوة القانون . بيد ان العرف الذي استقر خلال الحرب البونيقية الثانية والذي اجاز له جمع مجلس الشيوخ لعرض قضية من القضايا عليه ، قد زاد بلا شك من نفوذه دون ان يزيد من سلطته الراهنة .

وهناك ، بالاضافة الى الدكتاتورية ، استثناء واحد ذو طابع اقليمي جغرافي يحد من صلاحياته . فان هذا المحامي يغدو مواطناً عادياً اذا ما بعد مسافة ميل (١٤٧٩ م) عن اطار روما . وهذا يعني ان ليس له من سلطة على الجيش ، اذ قد بدا غير معقول ابداً ان يولى حقاً قانونياً في معارضة سلطة القائد العسكري وهي مطلقة بالضرورة . ولكن أهم اعمال الحكومة المدنية تجري ضمن هذا الاطار . لذلك فان منصب المحاماة عن حقوق عامة الشعب يمثل قوة عملية عظيمة .

يمكنه ، اذا ما اكتفينا بظواهر الامور ، ان يشل كل حياة سياسية وادارية في دوره التاريخي المدينة . وان ما يجعل المدينة ، في الواقع ، بأمن من هذا الخطر ، هو ان عشرة أشخاص يشغلون منصب المحاماة في آن واحد ، وان باستطاعة كل منهم ان يمارس سلطاته السلبية ضد أي من زملائه وحتى ضد التسعة منها بلغ من موافقتهم على عمل مشترك . وليس في تاريخ الجمهورية الرومانية كله سوى حالة واحدة عزل فيه محام عن حقوق الشعب بسبب تصلبه ، أعني به « أوكتافيوس » الذي اقترعت عامة الشعب ، في السنة ١٣٣ ، على نزع سلطته لأنه تشبث بحق النقص بصدد مشروع القانون الزراعي الذي تقدم به طيبيريوس غراكوس والمحامون الثمانية الآخرون ، ولم يستند الى هذا التدبير كسابقة فيما بعد . ولنفكر الآن ، لاطهار الفرق ، بالسهولات التي كانت لدى الديموقراطية الاثينية لنزع السلطة عن قضاتها والتي لجأت اليها حتى ضد بريكلليس : وهذا دليل واضح جديد على ان مفهوم القاضي الذي يمثل الشعب والذي يمكن عزله اذا ما فقد ثقة الشعب هو يوناني لا روماني . بيد انه من البديهي ، بالتالي ، ان عمل المحامي غالباً ما يمتد بالعجز : ويكفي الاحتمال السيكولوجي وحده للاقتناع بأن مستغلين كثيرين ، لا بل خونة كثيرين ، وجدوا مكاناً لهم بين عشرة رجال ينتخبون ويحددون كل سنة في نظام لم

يعرف احزاباً منظمة على الطريقة العصرية .

على الرغم من هذا الضعف ، أثار عمل المحامي ، أكثر من مرة ، مصاعب خطيرة في وجه المسؤولين الرومانيين . ففي قلب دولة يقضي مفهومها الاساسي باعطاء المدينة وجوداً مستقلاً ، في حدّ ذاته ، عن الواقع البشري الذي يكوّنها ، فيضع المواطن في خدمة الدولة قبل وضع الدولة في خدمة المواطن ، كان وحده ، مع حق رفع الدعوى امام الشعب ، رادعاً لعمل المسؤولين وعنصر دفاع عن شخص المواطن ، وبالتالي قوة تقابل سلطة الدولة المطلقة . واذا كانت الجمهورية الرومانية ، التي صممت ونفذت ، قد وجدت موافقاً لوجودها وسيرها ، فيجب ان نرى في ذلك موضوع مراهنة ؛ وقد قدّم الشعب الذي تقيّد به برهاناً ساطعاً عن تفرده ونظاميته .

بيد انه من الخطأ الاعتقاد بكمال المثالي ، اذ انه قد أسهم في النهاية بإيصال روما الى الفوضى . فوق استخدامه كأداة معارضة سلبية ، استخدمه بعض الرجال الحازمين ، الذين يحسنون سياسة الطبقات الشعبية ويعرفون ما يريدون ، ليس كأداة بلنبلة فحسب ، بل كأداة تنظيم وعمل ضد الطبقة الحاكمة . وهو لم يسمح بتعهد وتغذية غليان جرائم الثورة فحسب ، بل اتاح فرض اصلاحات وحلول جديدة . ولنضرب صفحاً ، للدلالة على ذلك ، عن القرون الاولى التي يختلط فيها التقليد بالأساطير . ولكن فلاميليوس ، قبيل الحرب البونيقية الثانية ، قد قاد ، كحمّام عن حقوق الشعب اولاً ، ثم مع المحامين الآخرين زملائه ، معركة بناءة ضد الارستوقراطية . ثم فتحت أزمة حرب هنيبل الطويلة ، بتبريرها تقوية وتوحيد السلطة ، عهد احتجاج المحاماة عن حقوق الشعوب ، التي روّضها مجلس الشيوخ آنذاك .

بيد ان ذلك لم يمنعه ، ابتداء من السنة ١٣٣ ، من ان يستعيد استقلاله وفاعليته في ايام الاخوين طيباريوس وكايوس غراكوس اللذين شغلا كلاهما هذا المركز ، الاول في السنة المذكورة والثاني بعده بعشر سنوات ، واللذين أبقا كلاهما وتوقفا الى تجديد انتخابها ، فبعثا الحركة الشعبية وأدخلها اليها ، روحاً نضالية مضطربة وأوحيا لها مرة أخرى ، بمثلها وحتى بموتها ، القوة التي ينطوي عليها مثل هذا السلاح . فخدم هذا الوعي « الشعبين » ، ولكنه خدم المفسدين والمتطرفين والطامعين ايضاً . وبين موت كايوس غراكوس ونهاية الجمهورية ، باستثناء الفترة القصيرة التي لاشت فيها قوانين سِلا عملياً سلطة المحامين عن حقوق الشعب ، تمثل أسماء ماريوس وغلوشيا وساتورنينوس ودروزوس وكلوديوس وكوريون وانطونيوس - وكان هذان الاخيران مجرد عميلين لقيصر - حلقات سلسلة طويلة من المحامين الذين لم ينظر اليهم الافاضل (Optimates) نظرة رضى . ولم يرض عنهم النظام الجمهوري كذلك . فقد كشفت هذه المحاماة الغريبة آنذاك عن حقيقة طبيعتها : جهاز دولة محدث للحيولة دون تجاوزات الدولة ، لديه وسائل أعظم من ان لا يدعوها امتلاكها لاستخدامها بغية شل الدولة شلاً دائماً .

« تسلسل الأجداد » على الرغم من ان المحاماة عن حقوق الشعب مدينة بأحداثها للخطر الذي توحيه مناصب القضاء الأخرى في الحكومة والادارة ، فانها تدخل مع ذلك ، في نظام مراتب هذه المناصب الذي يمكن القول فيه انه سيرة الاشخاص . ومن حيث ان هذه المناصب توزع بالانتخاب وتليح ممارسة قسط متفاوت من سلطة الدولة ، فانها « أجداد » تعترف بها حياة المواطن ولا يهمل ذكرها الحفدة . ولكن هذه الأجداد غير متساوية في العظمة ، والطموح يدفع كل قاض الى محاولة بلوغ أرفع الأجداد سمواً التي تستند الى شاغلين أصليين قليلين . لذلك قد يكون أعظم تدابير سيلا فاعلية ضد المحاماة عن حقوق الشعب إقفال باب المناصب الأخرى في وجه من مارسها : فبينما كانت توفر حتى ذاك العهد إمكان الحصول على الشهرة ، اذا بها تكون ، حتى إلغاء قوانين سيلا ، طريقاً غير نافذة يتحوّل عنها أولئك الذين يتطلعون الى أبعد من ذلك .

وقد اعتمدت أكثر من دولة ولا تزال تعتمد حتى اليوم ، أقله ضمناً ، مفهوم التسلسل الضروري في الوظائف العامة ، استناداً للدليل البديهي الذي يقول إن الخبرة المكتسبة في أدنى الوظائف يبدو مفيداً في أعلاها . اما في روما فقد اتخذ شكلاً صارماً هو « تسلسل الأجداد » الذي نظم بكل عناية .

كان العرف والنظام الجماعي ، مدة طويلة ، كافيين لتجنب السرعة في غير حينها . وخلال الحرب البونيقية الثانية ، اتاحت بعض الظروف الاستثنائية لشيبيون ان يحتل ، في عنوان شبابه ، مركزاً لا نظير له . ولكن المنافسين برزوا في وجهه فلمس المسؤولون الحاجة الى رادع . فاكثفوا دوماً ابطاء المبادئ الأساسية : رفع السن التي يمكن ان تحصل فيها المزاوجة حول منصب القضاء المالي الذي اعتبر نقطة الانطلاق في « التسلسل » ، وذلك بإيجاب تكرير عدة سنوات لخدمة الدولة قبل استلامه ، إيجاب المرور في مناصب قضاء أخرى ، وفقاً لترتيب معين ، قبل محاولة بلوغ القنصلية ، إيجاب تمضية فترة محدودة بين تولي منصبين متعاقبين . ولكنهم بعد الموافقة على هذه المبادئ الثلاثة ، اخذوا يتلمسون طريقهم ، والمعاصرون اليوم ابعد من ان يروا الفوارق التفصيلية بوضوح . ويبدو علياً انهم قد ساووا بين القضاء المالي والقضاء العدلي وبين المحاماة عن حقوق الشعب ونظارة الطرق والابنية العامة . وبينما كان بالإمكان في القرن الثاني بممارسة القضاء المالي في سن السابعة والعشرين والقضاء العدلي في سن السادسة والثلاثين رفعت السن علياً في القرن الأول الى التاسعة والعشرين للقضاء المالي والى الثانية والاربعين للقضاء العدلي .

وتوصلوا ، بالتوفيق بين القانون والعرف ، - لم يتناول الاحصاء ومراقبة الاخلاق العامة اي نص معين ، ولكن هذا المنصب اسند في الواقع الى قناصل قدامى - الى شبه هرم يتناقص فيه عدد الشاغلين الأصليين من درجة الى أخرى ، الشيء الذي كان يسمح بإجراء الاختيار .

وان في هذه الطريقة لاستجابة لبعض النزعات الفطرية في الذهنية الرومانية : حاجة الى النظام والى التسلسل المستقر . ولكن قرار الرأي على وضع صيغة شرعية لهذا التسلسل وعلى اثقال صموماته وعلى المضي في تأخير بلوغ المناصب العليا يتم بنوع خاص عن انهيار النظامية الفطرية والخوف من المصائر « الحارقة » ا فاردت الطبقة المسيطرة الاحتماء من النجاحات الصاعقة . ولكنها اخفقت ، لا بل ان هذا الاحتباك الماهر قد أفسد احياناً بملء ارادتها . ويحذر بنا في الحقيقة ان نلاحظ ان قيصر الذي فاز عليها قد مر بالنظام في جميع المناصب ولم يشغل كلا منها الا « سنته » فقط اي دون تقديم او تأخير في السن الدنيا المحددة ، بينما طاب لخصمه بومبيوس ان يفيد على الدوام من استثناءات غير شرعية : واذا ما خالف نظام ما شرعيته بالذات ، ففي ذلك ابلغ دليل يقدمه هذا النظام على ضعفه .

٢ - الظاهر الديموقراطي

جميعيات الشعب

اذا كانت هذه الشرعية، في ما يعنينا، قد صممت بمثابة حيلة ضد الطامعين، جميعيات الشعب في اليونان وفي روما فقد حصرت ايضاً ، بشكل ضيق جداً ، حرية الاختيار المعترف بها مبدئياً للناخبين، اي للشعب . وقد كتب بوليب : « لو نظرنا الى قوة الشعب ، لبدا الدستور الروماني ديموقراطياً بدون ريب » . ولكن ذلك ليس الا ظاهراً فحسب . فلم يكن كافياً ، على غرار العنصر الملكي الذي مثله القناصل ، ان تقابل هذا العنصر الديموقراطي قوى توازنه . اضاف الى ذلك ان المواطنين وجميعياتهم كانوا منظمين بشكل تصبح معه دون جدوى ، في الظروف العادية، سيادة ثبوتها على الرغم من ذلك، تسمية « الشعب الروماني » المستعملة رسمياً للدلالة على الدولة الرومانية .

لنعد مرة أخرى الى المدينة اليونانية . أجل عرف المسؤولون فيها كيف يحتالون على جمعية الشعب التي لم تمارس في كل زمان وكل مكان سلطة فعلية مماثلة للسلطة التي تمتعت بها في اثنينا حين بلغ القمة فيها النظام الديموقراطي الراجح . ولكننا نلصق في الاعراف التي سادت الجمعيات في اليونان وروما ، فوارق تمسّ جوهر الأمور : وبفضلها تنجلي حقيقة مفهوم المواطن ومفهوم المدينة .

ان لأحد هذه الفوارق قيمة الرمز ؛ ولم يفت الرومان ادراك أهميته : ففي اليونان يجلس اعضاء الجمعيات الشعبية على مقاعد حجرية ؛ اما في روما فيقفون في ارض منبسطة ، امام الرئيس الجالس على منصة هي « المنبر » . وبديهي ان مدة الجلسات تتأثر هنا وهناك بهذا التناقض المادي . ولكن هذا التناقض ، بنوع خاص ، يثبت وجود فارق عميق في طريقة فهم العلائق المتبادلة بين مجموع المواطنين والقاضي الذي يترأس اجتماعهم . فان الشعب المجتمع للنقاشه يقوم بواجب ويستخدم حقاً ، في كلا الحالتين . بيد ان هناك خلافاً في الذهنية : فهو يترقبه في

اليونان ، كنظير على الأقل ، بينما يبدو طبيعياً للرومان أن يكون في وضع المروؤوس ، وهو يرضى بذلك . وان هذا الدليل ، يضاف الى غيره بما سبقت الإشارة اليه سابقاً ، يثبت ان مثالية المدينة في روما تستلزم شيئاً آخر غير الشخص المعنوي الذي يكونه جمهور المواطنين ، شيئاً يشترك فيه القضاة ويمسكونه .

وهناك فارق آخر ليس بأقل مغزى . ففي داخل الجمعية الشعبية ، في كافة المدن اليونانية ، تحصى الاصوات على اساس الأفراد لا على أساس الكتل . اما في روما فالقاعدة المعتمدة هي دائماً على نقيض ذلك ، اذ ان لكل كتلة صوتاً واحداً يعبر عن رأي أكتريتها الداخلية . ويعني ذلك ان للطريقة المتبعة في توزيع المواطنين على الكتل تأثيراً حاسماً على تشكيل الاكثورية الرسمية في الجمعية . وقد تكون هذه الاكثورية الرسمية مختلفة جداً عن الاكثورية الفعلية ، لأنه قد يقوم أكبر تفاوت عملي بين مواطنين متساوين قانوناً ، بحسب تعبيرهم عن رأيهم الشخصي داخل كتل يكون عدد أعضائها مرتفعاً جداً او متدنياً جداً . ولننصف الى ذلك ، حتى لا نشير إلا الى نتيجة ثانوية بين نتائج كثيرة غيرها ، ان تجنب المواطن لضروب الضغط الخارجي ، حين يقترح في إطار كتلة محدودة بالضرورة ، أضعف منه حين يضم اقتراحه الى كافة اقتراحات أعضاء الجمعية . فقد يؤدي هذا النظام الى أكثر النتائج منافاة للديموقراطية ، وقد أدّى اليه فعلاً كما سنرى ذلك . ولكن هل كان ارتقاها السبب الرئيسي في اعتماد هذا النظام والإبقاء عليه يا ترى ؟ يجدر بنا بالاحرى ان نفكر باستمرار التنظيم الداخلي في المدينة والهيئة المدنية وقوة الحرص عليه . اجل لم تجهل المدن هذا الحرص لأن مواطنيها كانوا موزعين قبائل ؛ ولكنهم لا يعيرونه كبير اهتمام في الجمعية ، بينما هو ذو سيطرة على كيان الجمعية وسيرها في روما . فيجب ألا ننقل من شأن هذا التناقض ، لأن جهاز المدينة السياسي يعكس نزعات أدبية ووقائع اجتماعية على السواء . وهو يؤدي الى استنتاجين ، اولهما ان روما تضرب بمساواة المواطنين عرض الحائط بينما يطبق الاغريق مبدأها تطبيقاً واسعاً ، أقله في بعض المدن ، وثانيهما ان الدولة في روما أقل اهتماماً بالمواطن الفردي منها في اليونان ، إذ انها لا تريد معرفة رأيه ولا تميز له الاسهام في تكوين الارادة الجماعية الا بواسطة الكتل التي يمكنه الانضمام اليها ؛ والحقيقة هي ان تحرر الانسان المواطن تحرراً كاملاً ، هو مثل يوناني لا روماني ، واذا ما بدأ يظهر في روما ، بفضل علائقها باليونان ، في آخر عهد الجمهورية ، فهو لا يتوصل الى فرض نفسه لا على الأنظمة ، التي لم يتوفر لها وقت التكيف عليه قبل زوالها ، ولا على الاخلاق .

كان من المنتظر ، والحالة هذه ، ان تلجأ روما الى النظام التمثيلي . ومهما كان من المظهر المغالط الذي ظهر به استمرار الجمعيات اليونانية الاولى في بعض الحالات ، فان له تفسيره في التصميم على الحيلولة دون توسط اي شي او اي شخص بين المواطن والمدينة . بيد ان الكتلة تتوسط بينهما في روما ، ولا يلزم سوى خطوة واحدة لتوسط بمثل الشعب ايضاً . وكان من

الواجب ان يؤدي الى ذلك ارتفاع عدد المواطنين وتوزعهم الجغرافي . فحين يحق لـ ٢٥٠٠٠٠ مواطن منذ اوائل القرن الثالث ، والمليون مواطن تقريباً في السنة ٧٠ ، وللرجال. الاحرار في كافة الحما ايطاليا بعد حصولهم تدريجياً على حق المواطنة ، الاشتراك في جمعية واحدة لا يمكن ان تلتئم الا في روما نفسها ، يصبح الحفاظ على ميزة الجمعية الاولى لهذه الجمعية اكثر من مغالطة فحسب : فهو يصبح اذ ذاك سخرة غير معقولة . ولا يوفر التثبت به اية سهولة للطبقة الحاكمة . وخير لها ، على نقيض ذلك ، اقله ابتداء من اوائل القرن الثاني ، ان تكون علاقتها بمثلين قد يفضي اختيارهم الى بعض العناصر المعتدلة من ان تكون بجهل سحسة تتأثر بتحريض المحرضين . والتهمة التي يحدّر ان توجه الى المسؤولين الرومان هي العمة قبل الانانية في استثمار وضع شاذ . فليس من شخص آنذاك يفكر بحل يميل المعاصرون بالفطرة الى اعتباره في منتهى البساطة لانه اليوم رائج التطبيق في مجتمعاتهم . اجل نحن نلصق في الاتحادات الهلينية عقم الخيال نفسه والتقليد نفسه الذي لا يتماشى وحاجات الزمن . ولكن نتائجها اشد خطورة الى حد بعيد في روما التي غدت اقليمياً وبشراً الدولة الايطالية والتي ابقت على نظمها حين كانت مدينة صغيرة دون ان تكيفها وفقاً لهذا النمو .

لا تخلو هذه الانظمة من التعقيد . فمنذ آخر القرن الرابع
 كابتد حد - قد يكون الامر على غير ذلك قبل هذا التاريخ -
 نرى ان الجمعيات جميعها مفتوحة الابواب لكافة المواطنين
 الرومانيين دون استثناء . بيد ان المبادئ الثلاثة التي اعتمدت في توزيع المواطنين الواحد بعد
 الآخر رسخت كلها بحيث ان وجودها قد جرّ الى قيام انواع ثلاثة من الجمعيات التي تنظمت
 وحدات الاقتراع فيها وفقاً لمبدأ آخر .

الطرائق المختلفة في توزيع
 المواطنين والجمعيات

لم يعد آنذاك لاحد هذه الانواع من اهمية عملية ، اعني به ذلك الذي يوزع المواطنون بموجبه ، وفقاً لانتسابهم الوراثي ، الى ثلاثين « وحدة » *Curie* تنحدر هي نفسها ، بمعدل عشرة اشخاص لكل منها ، من القبائل المنصرية الثلاث الاولى . فجاء منح حق المواطنة لعناصر عديدة غير رومانية ينزع عن هذا التوزيع كل حقيقة . فلم تعد الجمعيات المؤلفة من ممثلي هذه الوحدات لتجتمع الا شكلياً فقط بغية القيام باعمال ذات طابع طقسي ، كمنح « السلطان » للقضاة الجدد مثلاً .

اما الجمعيتان الاخريان ، على نقيض ذلك ، فليستا مؤلفتين من ممثلين على هذه الندرة . فالجمعيات « القبلية » تضم المواطنين الموزعين على خمس وثلاثين قبيلة ، اربع منها « مدنية » واحدى وثلاثون « ريفية » . كان لهذه القبائل في البداية واقع اقليمي يخصص به من يقيم فيه او اقله يمتلك الاراضي فيه : ويشبه النظام على هذه الصورة النظام المعتمد في اكثر من دولة ديموقراطية معاصرة . ولكن التطور اللاحق قد افسده . فان عدد القبائل الريفية الذي ارتفع

مدة طويلة بشكل مواز للأراضي الرومانية *Ager romanus* قد توقف عن الارتفاع منذ السنة ٢٤١: فارتبط المواطنون الجدد منذئذ، حتى ولو حصلوا على المواطنة بشكل جماهيري في منطقة كاملة، بإحدى القبائل السابقة التي خسرت، بسرعة، الشيء الكثير من طابعها الإقليمي. ثم إن القبائل المدنية، وهي أكثر عدداً وتضم نسبة مرفوعة جداً من الفقراء، غدت دور القبائل الريفية شرفاً. ولذلك فقد درج ناظرو الإحصاء الذين يختارون على هوامم، في مواعيد الإحصاء، القبيلة التي يخصصونها بمواطن جديد، والذين ينعمون حتى بحق نقل مواطن قديم من قبيلة إلى أخرى، كعقوبة معنوية، على أن يسجلوا أفراد الطبقات الدنيا، لا سيما المعتقين منهم، في القبائل المدنية. وليس لكل من هذه القبائل المدنية المتزايدة عدداً سوى صوت واحد شأن كل من القبائل الريفية التي يحتفظ المواطنون الميسورون فيها بجانب كبير من الأهمية.

وقد أفضى نوع آخر من أنواع التوزيع - أقدم من التوزيع على القبائل ولكنه ارتبط به أخيراً - إلى الجمعية المئوية؛ ونسب إلى الملكية أحداث نظام «الوحدات المئوية» بسبب ارتباطها بتنظيم الجيش: فهناك وحدة عسكرية أيضاً، يطلق عليها اسم «وحدة المئة». والجمعية «المئوية» في الواقع، هي الشعب المعبأ. وهي بالتالي، أيضاً، بسبب الموازنة القائمة بين الثروة وبين الواجب العسكري والمالي، الشعب الموزع على طبقات يحددها الإحصاء يعد التحقيق الذي يجريه ناظرو الإحصاء كل خمس سنوات. ولكن كليات هذا التنظيم قد تنوعت. وتشكل هذه التنوعات وتحديد تاريخها وارتباطها بالتطور الاقتصادي والنقدي، منذ زمن بعيد، إحدى معاضل التاريخ الروماني التي اشتد الخلاف حولها. وقد تحقق تبدل هام ما بين السنة ٢٤١ وبدء الحرب البونيقية الثانية. فقد أعطى النظام القديم أكثرية الأصوات المطلقة (٩٨ من أصل ١٩٣) إلى الوحدات المئوية في الطبقة الأولى دون غيرها، في حال أنه قامت هنالك، وفقاً لمستويات الثروة المتعاقبة نزولاً، أربع طبقات أخرى أيضاً. فاحتفظت الطبقة الأولى منذئذ بـ ١٨ وحدة مئوية من «الفرسان» ينتمي إليها أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان، أي النخبة المحدودة بين المواطنين. أضف إلى ذلك أنها تشمل، بمعدل وحدة عن القبيلة، ٣٥ وحدة مئوية من «العقال» (فوق ٤٦ سنة)، و ٣٥ وحدة «من الشبان». أما الطبقات الأربع الأخرى، فهل تشمل كل منها ٧٠ أو ١٠٠ وحدة مئوية؟ وما هي طريقة التوزيع فيها؟ لم تلق بعد هذه الأسئلة أجوبة واضحة. ولكن، مهما يكن من الأمر، فقد أضيفت إلى هذه الوحدات المئوية الـ ٣٦٨ أو الـ ١٨٨، خمس وحدات فقط ضمت اثنتان منها العمال واثنتان الموسيقيين - ويقبل أعضاء هذه الوحدات الأربع في الجيش - وواحدة الفقراء الذين لا يستخدمهم الجيش لأنهم لا يمتلكون حتى الحد الأدنى من الضريبة المفروضة على الطبقة الخامسة. وهكذا فإن المواطنين الأغنياء والميسورين من جهة والمواطنين المسنين من جهة ثانية ينعمون بأفضلية عظيمة تحت ستار المساواة وعلى حسابها. فيتضح أن تكوين الجمعيات المئوية

وتكوين الجمعيات القبلية على السواء ابعد من ان يستجيبا لموجبات الديوقراطية كما تصورتها مدن امن أمثال أثينا وخضعت لها منذ القرن الخامس .

على الرغم من ان هذه الحقيقة لا تقبل الجدل ، يجب ألا نغفل ان بعض
صلاحيات الجمعيتين النجاحات قد حققت بالنسبة للوضع الماضي .
القبلية والثوية يتعلق احد هذه النجاحات الرئيسية - وهذا لا يعني انه بلغ حداً بعيداً -
بدور الجمعيات القبلية . فالجمعية المثوية اقدم عهداً منها ، واذا ما انطبق تنظيمها ، في شكله
الاخير ، على توزيع المواطنين الى قبائل ، فان مفهومها العام الذي يفسر بعض تفاصيل سيرها ،
كما سنرى ذلك ، يحد من حرية الحاضرين . لذلك فان كل زيادة تتناول نصيب الجمعيات القبلية
تصطبغ بطابع الاصلاح السخفي ، ان لم يكن الديوقراطي . وفي الواقع تناولت
الزيادة نصيبها .

يكتنف هذا التطور غموض كبير . بيد انه من المهم ان نشير هنا الى ان الجمعيات القبلية ، في
البداية ، كانت ، قبل كل شيء آخر ، جمعيات لعامة الشعب يدعوها للالتزام المحامون عن
حقوق هذه العامة ويقصى عنها النبلاء . وكانت بالتالي تقرر « الاستفتاءات » *Plebiscita* او
« مراسيم عامة الشعب » ، التي لا تقيد سوى هذه العامة ، بينما لم تكن « القوانين » التي تقيد
كافة المواطنين لتنبثق الا عن الجمعيات المثوية . بيد ان هذا التمييز قد فقد كل اهمية منذ ان
اقرت المساواة القانونية بين القانون والاستفتاء . فنتج عن ذلك ان النبلاء ، الذين المحذر عددهم
شيئاً فشيئاً من جهة ثانية ، استطاعوا الدخول دوغماً صعوبة الى الجمعية القبلية . كما نتج عن ذلك
ايضاً ان القضاة آثروا هذه الاخيرة على الجمعية المثوية بسبب السهولة الكبرى التي يلاقونها في
دعوتها للاجتماع ومراقبة الجلسة وحتى الاقتراع - ٣٥ صوة بدلاً من ١٩٣ او ٣٧٣ . فلم تحتفظ
الجمعية المثوية بصلاحيات حصرية غير النظر في الدعاوى الخطيرة ، وعلان الحرب ، وانتخاب
القضاة للمناصب العليا . واحتفظت الجمعية القبلية باقل من هذه الصلاحيات : انتخاب القضاة
للمناصب الدنيا فقط . غير ان اكثرية الامور التي قد تطرح على احدى الجمعيتين تعرض عليها ايضاً ،
كأكثورية مشاريع القوانين بنوع خاص .

ولقد تحقق نجاح آخر بصدد نظام الجمعيات وتنظيمها المادي . فقد اضطر
الاصول المعتمدة المواطن ، لمدة طويلة جداً ، الى التعبير شفهاً عن رأيه ، مما حدد ، في غالب
الاحيان ، من خريته الفعلية . ثم اقر الاقتراع المدون على « لوحة » (*Tabella*) فردية في
السنة ١٣٩ ، وصدرت خلال ثلاثين سنة تقريباً قوانين اخرى عمت هذه الطريقة على كافة انواع
الانتخاب : فتوفر بذلك الشرط الاساسي لسرية الاقتراع اي لحيته . وفي السنة ١١٩ اكتسب
ماريوس ، وهو بعد محام عن حقوق عامة الشعب ، شعبية كبرى باقتراح تقديم به وتوفيق الى
اقراره يقضي بان تضيّق ، بقياس عرض الرجل ، « الجسور » التي يجب على المواطنين المرور

عليها قبل القاء « لوحتهم » في صندوق الاقتراع : فنجاء المقترح بذلك من كل رقابة ومن كل ضغط . وليست مثل هذه التدابير في الحقيقة مما لا يعبا به : فالحركة الديمقراطية الرومانية تلمس وجوب اجراء بعض الاصلاحات في الانظمة وتحقق بعضها .

ولكن هذه الحركة لا تستطيع الذهاب الى ابعد من هذا الحدّ او لا تجرؤ على ذلك بتعرضها لمبادئ أساسية تسيّر اجراءات الجمعيات . وليس من شك في ان درس هذه الاجراءات بالتفصيل أمر مستحيل . بيد أنه يحذر بنا ان نستخلص بعض خطوطها التي تتميز بها وصاية ضيقة على شعب يتمتع بالسيادة مبدئياً .

تلتئم الجمعية برئاسة القاضي الذي يوجه الدعوات الى اعضائها . بقرّر وحده جدول الاعمال ويوجه سير المناقشات . ولا يمتلك الشعب أية وسيلة لفرض ارادته في تقرير الاجتماع وأي حق مبادرة او تحويل في المشروع الذي يعرض عليه . واذا كان الموضوع موضوع انتخابات فلا احد يستطيع إرغام الرئيس على ان يقدم له جميع أسماء المرشحين ، ولا اعتبار إلا للأصوات التي تنالها أسماء يريدها : ولم يكن ذلك مجرد امكان نظري ، حتى في عهد متأخر نسبياً . واذا كان الموضوع مشروع قانون ، فكثيراً ما يستخدم الرئيس حقاً مماثلاً ، محصوراً فيه ، يستطيع بموجبه ان يسرده او يحوّر نصه . ومن حيث ان الجمعيات المثوية هي الجيش ، وتجتمع بالتالي خارج إطار روما ، فلا ينعم بحق توجيه الدعوة لالتئامها سوى قاض « منيح السلطان » يستطلع الطيور قبل الجلسة . فلا تعوزه من ثمّ الحجة الدينية لحل الجمعية عندما يطيب له ذلك . لا بل ان الواجب يقضي عليه ، حتى لا يقع في خطأ شكلي ، بالجوء الى الحل في بعض الحالات ، كحالة نوبة الصرع التي يصاب بها احد الحاضرين - والصرع « مرض الجمعيات » بالذات - او حالتي البرق والرعد ، بحيث انهم انتهوا احياناً ، بغية تجنب عرقلة سير الاعمال ، الى حصر حق « ملاحظة الساء » في بعض الاشخاص فقط او الى إبطاله كلياً . واذا لم تقض الانتخابات الى اي نقاش ، فان مشروع قانون واحد يتطلب عدة جلسات للتشاور والمذاكرة يتمتع الرئيس خلالها ، منذ زمن بعيد ، عن استخدام حقه في اعطاء الكلام لمن يريد ، ولكنه استخدم على الدوام حقه في ان يكون الخطيب الاخير . وتكرس الجلسة الأخيرة للاقتراع فقط بالاجابة « بنعم » او « لا » على « سؤال » الرئيس حول مجمل النص ، وحول عدة نصوص متكاملة احياناً . وتتوقف عمليات الاقتراع منذ بلوغ الاكثريّة . اما في الجمعية المثوية ، التي تعود الأولوية فيها الى احدى الوحدات المثوية الـ ٣٥ التي تضم « شبان » الطبقة الاولى - الوحدة « الممتازة » التي قلتخب بالقرعة لأن لرأيها قيمة الانباء بالمستقبل - والتي يجري الاقتراع فيها وفقاً لترتيب الطبقات التسلسلي ، فان وحدات الطبقة الرابعة ولا سيما الخامسة تكاد لا تقترح ابدأ . ولا يصبح القرار نهائياً ، اخيراً ، إلا اذا رضي الرئيس باعلانه : وهكذا ، فان القضاة ، على الرغم من تعيينهم عن طريق الانتخاب ، يعتبرون رسمياً « خلائق » الرئيس . وان هذه المهلة القصوى المفسحة امام رفض

الرئيس او امام حق القضاة الشرعي بالاعتراض والنقض لم تمر دائماً دون استخدام .

ان هذه العجالة حول الجمعيات الرومانية ، على الرغم من إيجازها ، تقضي بنا الى استنتاجات لا يمكن ان تنقضها أية قاعدة او أي عرف لم تتعرض لها . فمن جهة يقلل تنظيم وسير الجمعيات الشعبية الى حد بعيد من التأثير العملي الذي قد يكون في الظروف العادية للطبقات الاجتماعية الدنيا مع انها ، شأنها هنا كما في غير مكان ، أكثر عدداً من طبقات الأغنياء . ومن جهة ثانية ، توازي سلطة القضاة سلطة الجمعيات في الدولة ، ان لم تكن متفوقة عليها . ولا ريب في ان هاتين الملاحظتين لا تسمحان قط ، في روما ، بالمساواة ، بين الجمهورية والديموقراطية ، حتى اذا فسرنا هذه الكلمة الأخيرة بمفهومها القديم .

٣- الظاهر الارستوقراطي مجلس الشيوخ

يبقى العنصر الارستوقراطي ، وهو اقوى عنصر في الدستور الروماني والحياة السياسية الرومانية على السواء . ولم يصعب على بوليبي ان يرى ان مجلس الشيوخ هو الذي يمثل العنصر : بيد انه لم يعطه اهميته الحقيقية . وهناك نقطة رمزية تقابل ما لاحظناه بصدد الجمعية من شأنها ان تكشف لنا عن عظمة هذه الهيئة : الشيوخ يجلسون ايضاً امام رئيس لا يعتلي أي منبر .

تشتق كلمة *Senatus* من *Senex* « المسن » ؛ فمجلس الشيوخ اذن مجلس « قدماء » ويطلق على اعضائه اسم « الآباء » ايضاً ، اي انهم في الوقت نفسه نبلاء ورؤساء العائلات الاولى في روما . ولكن كل ذلك يرتبط بماض سحيق . فقد اضيف الى كلمة « الآباء » ، في عهد متوسط ، اسم المفعول *Conscripti* « المسجل على اللائحة » . فكانت اللائحة ، ولكن تأليفها غداً آلبا .

عدد الشيوخ العادي هو ٣٠٠ . رفعه سيلا الى ٦٠٠ وقبصر الى ٩٠٠ ولكنه في كل الحالات لم يحدد بنص قانوني ؛ وليست الزيادات التي حققها الدكتاتوريون سوى نتيجة الزيادة التي ادخلوها على عدد القضاة المألين . فالعرف قد جعل من التعيين في منصب القضاء المالي ، حتى قبل القانون ، شرطاً ضرورياً وكافياً للدخول الى مجلس الشيوخ .

اخذ قضاة الاحصاء والأخلاق ، منذ اواخر القرن الرابع ، وكل خمس سنوات ، بوضع لائحة بالشيوخ . وكان لهم الحق في إقصاء من يريدون إقصاءه من أعضاء اللائحة السابقة ، ولكنهم لا يلجأون الى هذا القرار المخزي إلا لاعتبارات اخلاقية ، أي في حالات نادرة ، اذ ان الشيخ اذا ما سجل على اللائحة يبقى عملياً في منصبه مدى الحياة . اما اختيار الأسماء الجديدة

فيجب ان يتناول اعظم النبلاء شرفاً . فلا يرى قضاء الاحصاء والاخلاق بالتالي افضل من ان يأخذوا بعين الاعتبار الاشخاص الذين يعينهم الشعب في مناصب القضاء . وقد استقرت هذه العادة خلال الحرب البونيقية الثانية ، بغية سد الفراغات العديدة التي اوجدتها الهزائم العسكرية الاولى ثم شملت شيئاً فشيئاً ، خلال القرن الثاني ، مناصب القضاء الاخرى التي ليس من حاجة بسبب ارتفاع عدد شاغليها ، للجوء الى المواطنين العاديين . واخيراً سن « سيل » قانوناً يكرس قبول القضاة المالمين في مجلس الشيوخ : واكتفى قضاء الاحصاء والاخلاق بعد ذلك بإبرام وضع راهن — وذلك حين يكون هناك قضاء احصاء واخلاق ، لان تعيين خلفائهم لم يعد منتظماً منذ هذا التدبير الذي يجعل من احدى صلاحياتهم الرئيسية امراً وهمياً .

انخفض من ثم عمر الشيوخ الوسطي انخفاضاً كبيراً : فقد كانوا يحتلون مناصب القضاء المالي في سن مبكرة . وتطور طابع مجلس الشيوخ الرسمي ايضاً : فعدا مجلساً مؤلفاً من القضاة القدماء ، مما يترك صدهاء حتى في ترتيب اللائحة . ففي اعلى اللائحة ، اقله قبل « سيل » الذي يلغي هذا اللقب الشرفي ، يسجل اسم « الاول في المجلس » الذي يختاره قضاء الاحصاء والاخلاق بين الشيوخ المرموقين . ويليه في اللائحة ، وفاقاً لمرتبة وظائفهم ، القضاة القدماء ، « الاحصائيون والاخلاقيون » و« القنصليون » و« العدليون » ، الخ ، يرافق ذلك ترتيب داخلي في كل فئة وفاقاً لاقدمية القضاة في مناصبهم . ويدعى القضاء لابداء رأيهم بحسب ترتيب اللائحة ، ولكن الاولوية تعطى ، في الفئة الواحدة ، للقضاة المعينين ، اي الذين جرى انتخابهم فعلاً ولم يستلموا بعد مهامهم والذين يلتفت النظر اليهم اقتراح الجمعية الشعبية الحديث العهد .

ولكن مجلس الشيوخ لم يفقد شيئاً بفعل هذا التطور . فهو في الماضي قد مثل نخبة الشعب المتميزة بنسبها و ثروتها وسنها وخبرتها ، وكلها عناصر تكون الاعتبار الاجتماعي . ولم يعين القضاة عملياً ، باستثناء السن ، وفاقاً لمقاييس اخرى . فيضم مجلس الشيوخ كافة الاسماء الكبيرة ، وكل عضو من العائلات الكبيرة لا تقصيه مبدئياً عن الحياة السياسية نقيصة ظاهرة ، وكل من درس في شبابه على ابيه واجباته المقبلة فتولى بعد ذلك شؤون ومصالح الدولة . فيفضل العظمة الملمنة بالحكمة التي يضيفها على اعضائه نسبهم وتربيتهم ووعيمهم لواجبهم ، يجسد مجلس الشيوخ روما وتقاليدها واستمرارها وكيانها الدائم ومصيرها ، اي انه هو ايضاً ، شأن القضاة ، ذلك الكيان الادبي المستقل عن جمهور المواطنين المنتظمين جمعية شعبية .

الفرق كبير بالتالي بينه وبين « مجلس » المدن الديموقراطية اليونانية . مجلس الشيوخ والقضاة كان هذا الأخير مستشار الجمعية يحرص على تنفيذ مقرراتها ويراقب حياة المدينة باسمها . اما مجلس الشيوخ فلا علاقة له بالجمعية بل بالقضاة في القيام بدورهم المستقل . تمتع في البداية بالـ *Auctoritas* ، ومعناها الاشتقاقي « الزيادة » ، أي بالقدرة على إكمال قيمة قرار شعبي لا يغلته إلا في وقت لاحق ، وهذا يعني حقه في إلغاء القرار. ويبدو ان السعي قد بذل لشل

هذه السلطة ، خلال النصف الثاني من القرن الرابع ، بمصر حق الاستفادة منها قبل جلسة الجمعية فقط . أجل ان لهذا الاصلاح أهميته القانونية ، ولكنه لا يسدّد في الواقع ضربة مؤلمة لسلطة الشيوخ . فاذا لم يكن هناك ما يحول دون اطلاق الشعب على ترشيح او مشروع لا يرضى عنها مجلس الشيوخ ، فنادرأ ما يحدث ان يخالف رأيه قاض من القضاة . وقد كمنت قوّته العملية ، في الحقيقة ، في نزول القضاة عند نصائحه .

لا يعطي مجلس الشيوخ مبدئياً سوى « المشورات » ، *Senatusconsulta* ، ولكن أصول جلساته ، وهي على جانب كبير من الاختلاف عن اصول جلسات الجمعية ، تحلّه منذئذ على صعيد غير صعيد الجمعية . وهو أيضاً لا يستطيع الاجتماع إلا بناء لدعوة احد القضاة — او عدة قضاة ، اذا كانوا يقومون بعملهم متضامنين — الذي يتّأسه ويختار على هواه القضايا التي يعرضها عليه . وحين يطلب الرئيس رأي احد اعضائه ، يتمتع كل من هؤلاء بحرية القول التامة . ويحق للمضوران يتكلم ساعات كاملة ، أي ان يلجأ الى المراقيل ويقترح التعديلات ويثير قضية لا يتعرض لها الرئيس ويطالب بأن تكرر لها جلسة مقبلة ، الخ . فاذا بدا على المجلس انه سيوافق على هذه المطالبة ، فسيكون دائماً هنالك قاض على استعداد للموافقة عليها ، وهو الرئيس اخيراً ، شأنه في الجمعية ، الذي يحدد موضوع الاقتراح ، وهو الذي يستطيع ، بعمله هذا ، ان يستخدم تحكه استخداماً عريضاً ، فيرفض التعديلات مثلاً او لا يقبل إلا بجلتين متناقضتين ويهمل كل الحلول الاخرى . ولكن الاقتراح فردي قد ترافقه ، في حالة الشك ، عملية احصاء دقيق بعد جمع الأعضاء في مكانين مختلفين من القاعة . ثم يأتي اخيراً دور وضع صيغة « المشورة » *Senatus - Consulta* ، فاذا كان الرئيس مسيطراً سيطرة كافية ، يتوجب عليه تعيين شيوخ يشتركون في عملية التحرير ويحرصون بالتالي على ان لا يتم النص النهائي عن شعور الاكثرية .

بيد انه يجدر بنا ان نرى في هذه الاصول معلولاً لا علّة ، وظاهرة لا تفسيراً . « فالمشورة » تتضمن دائماً التعبير المقيّد « اذا ارتأى » او « اذا ارتأوا » الذي يحفظ في الظاهر حرية القاضي او القضاة في التقرير ، ولا يتفق هذا النص مع الطوعية الدائمة — باستثناء حالات نادرة وفاضحة — التي يبدىها القضاة حيال نصائح يعملون بها كما لو كانت أوامر .

حتى ولو اخذنا بعين الاعتبار النفوذ السياسي والأدبي الذي يدين به مجلس الشيوخ للتقليد ولانتخابه وللخدمات التي يؤديها للمدينة ، فلسنا ندرك مثل هذا الانقياد اذا لم نفكر بكل ما يرتبط به في حياة الرجل السياسي الروماني . فمن حيث ان الشيوخ ينعمون بالتأثير الاجتماعي الذي يوفره النسب والثروة ، فانهم يستخدمونه استخداماً مجدياً ابان الانتخابات . وان مجلس الشيوخ بنوع خاص ، اذا ما نظرنا اليه كهيئة ، يجد في صلاحياته المعتادة أكثر من إمكان لجعل مهمة القاضي سهلة ومجيدة احياناً ، ولإقامة المراقيل ايضاً في طريقه ، اقله بتشجيع معارضة احد زملائه او احد المحامين عن حقوق الشعب ، وللحكم عليه بأن يبقى مغموراً . وهكذا

تطبق على القاضي دائرة لا يستطيع النجاة منها إلا بواسطة صراع سافر : فهو يدفع بمجاملاته
ثمن رضى الأكرثية في مجلس الشيوخ .

تشمل سلطات مجلس الشيوخ في الواقع نطاقات متنوعة جداً بفضل
صلاحيات مجلس الشيوخ العادات التي اتخذت صفة القانون والتي يجب إصدار قانون لتعديلها .

وقد سبق لنا ورأينا مدى هذه السلطات في كل ما يختص بالسياسة الخارجية وملحقاتها
والأقاليم والجيش . ومع ذلك فلنشدد عليها ، لأن المجلس يمارس ، في هذا الحقل بنوع خاص ،
ضغطاً غير مباشر على أسمى القضاة مرتبة بواسطة احساناته وغضباته . ولما كان عليه تعيين
الأقاليم التي سيسند الحكم فيها الى القناصل والقضاة العدليين في سنة ما ، وتلك التي سيبقى الحكم
فيها في أيدي من تولاه في السنة السابقة وستمديد ولايته عليها ، فانه يخدم الأشخاص المعنيين او
يضر بهم بوحى من شعوره نحوهم . ولم يقدم ، زمناً طويلاً ، على توزيع الأقاليم هذا ، إلا بعد
الانتخابات : وقد وجب انتظار قانون اقترحه كايوس غراكوس ، في السنة ١٢٣ ، حتى يضطر
للبت به قبل معرفة أسماء المنتخبين ، الأمر الذي عرقل تدابير دونه ان يكفى للإلغاء . وكما
انه يستقبل السفراء الأجانب ويحييهم على أسئلتهم ، فانه يعين السفراء الرومان ويزودهم
بالتعليمات : فليس بالتالي من حرب نظامية دون رأيه ، وليس من صلح أيضاً اذا لم يوافق على
بنود معاهداته . وهو الذي يحدد ، قاضياً قاضياً ، العدد اللازم للجيش والأساطيل والوسائل
المالية المقابلة . وهو الذي يمنح او يرفض « موكب الفوز » للقائد المنتصر . وهو الذي يوجه
اليه قادة الاقاليم وحكامها تقاريرهم ويرفع اليه الشاككون مظالمهم : فبرز من ثم نوع من السلطة
القضائية الخاصة بمجلس الشيوخ يوزع بموجبها اللوم اذا لم يستطع فرض العقوبات الاخرى . اصف
الى ذلك ان الشيوخ ، حتى استلام كايوس غراكوس منصب المحاماة عن الشعب ، وطيلة السنوات
العشر التي بقيت فيها قوانين سبلا سارية المفعول بعد ذلك ، قدموا وحدهم اعضاء مجالس
المحلفين « الدائمة » : وكان احد هذه المجالس مختصاً بالنظر في دعاوى سرقات امناء الخزينة التي
ترقع على حكام الاقاليم بنوع خاص .

اذا كانت صلاحيات المجلس الاخرى اقل تأثيراً مباشراً على ارتقاء القضاة في المناصب ،
فانها مع ذلك قد اسهمت في جعله يلعب دوراً حاسماً في الحياة الاجتماعية .

لنفصل عنها السلطات الدينية التي تعبر عن شيء من طبيعته الحقيقية ، اعني به اشتراكه في
الكائن غير المادي الذي هو روما . فحين شغور « السلطان » المطلق ، اي شغور منصب الملك
من قبل ، وشغور منصب القنصلين الآن ، الذي قد يعقده شغور منصب الدكتاتور ايضاً ،
يعود الى « الآباء » حق استطلاع طيران الطيور وتعيين « الملك المؤقت » . وفي الظروف العادية
يسهر مجلس الشيوخ على القيام بالاحتفالات والطقوس ، ويقرر الاعياد ويحدد ميزانيتها ويحيز
عبادة الآلهة الجدد او يصدر حكمه عليهم ، الخ .

أما ما تبقى فإدارة مادية . من ذلك إدارة ممتلكات المدينة مثلاً : فهو يقرر إنشاء المستعمرات لأنه يجر إلى هبة قطع الأرض المسلوخة من الأملاك العامة ، وفي المدة التي تفصل بين تعيين قاضي الاحصاء الخلف وانتهاء مدة قاضي الاحصاء السلف ، يبت بالشؤون المتعلقة بنفقات وإيرادات الدولة ، ولا يتصرف القضاة المليون المسؤولون عن الخزنة إلا وفقاً لأوامره ، وهو الذي يميز إصدار النقد . بحيث أن أكثر القطع النقدية تحمل الحرفين . S.C. (*Senatus - Consulto* أي بموجب « مشورة ») .

لم يعترض على أية من هذه السلطات حتى آخر الجمهورية . ويكتفي ألد أعداء مجلس الشيوخ بالقول أنها ليست وقفاً عليه وإن الجمعية الشعبية ، ذات السيادة ، تستطيع أن تحد منها . ويستصدرون عند الحاجة قانوناً يدخل تعديلاً عليها أو يقضي بقرار خاص : فرز قطعة من الأملاك العامة ، وإسناد ولاية إقليم إلى أحد القضاة ، الخ . أجل ، إن المجلس ينظر شذراً إلى هذا الانتقاص من امتيازاته التقليدية ، ولكنه لا يتجاوز في اعتراضه حداً معقولاً ويقرر الانحناء في النهاية .

بيد أن الوضع قد تغير في السنة ١٢١ ، حين أقرت ، في حمى الصراع ضد كايوس غراكوس المشورة « القصوى » التي تلزم القناصل بالحرص على أن « لا تصاب الدولة بأي سوء » . وقد اعتمدت هذه الصيغة إبان الازمات اللاحقة ، ولكنها بقيت مبهمه . غير أنها ، في الواقع ، قد سمحت باسم السلامة العامة ، كما فهمتها آنذاك اكثرية المجلس الساحقة ، بالأقدام ، دون أية محاكمة ، على اعدام عدة مئات من انصار كايوس غراكوس في السنة ١٢١ ، وساتورنينوس وغلوشيا واصدقائها في السنة ١٠٠ ، وشركاء كانيلينا في المؤامرة ، بأمر القنصل شيشرون ، في السنة ٦٣ . فهي إذن تمنح القضاة سلطات دكتاتورية مطلقة وتوقف مفعول كافة الضمانات الشرعية ، ابتداء بحصانة المحامين عن عامة الشعب وحق رفع الدعوى امام جمعية الشعب . وهذا لمعري حق جديد يدعي به المجلس دون استناد إلى أية سابقة . ولكن خصومه اذا ما هم ثاروا على اللاشرعية وتوصلوا من ثم إلى الحكم على شيشرون بالنفي في السنة ٥٨ ، فانهم قد لجأوا هم ايضاً إلى المشورة « القصوى » في السنة ٨٣ مثلاً ، حين توجب عليهم الدفاع عن انفسهم ضد « سيل » ورأوا انفسهم اسياء المجلس إلى حين . فلسنا في الحقيقة امام تجديد دستوري ، بل امام تدمير قوة : النظام يتخبط في ازمة ولا يعبأ بالشرعية .

مر من قبل في مراحل عظيمة هادئة مسلم بها . وهو قد ارتكز إلى اسس النظام الجلسي
ادبية تفوق بأهميتها نصوصاً مكتوبة هي عمل بشري قابل التحوير . وليس
أسباب ازدهاره باستطاعتنا ان نرد هذه الأسس إلى الوحدة ، لا بل ليس باستطاعتنا معرفة
مدى أهميتها النسبية بالضبط : فهي متشابكة كلها . فكان هنالك احترام الـ *Mos majorum*
« عرف الجدود » الذي يفرض الايمان بالحكمة القديمة ، أي بالعهد الذهبي نوعاً ما : ان هذا

الاحترام هو الذي أعطى التقليد قوته ، لا بل أعطى ، الى حد ما ، كل سابقة قيمتها . وكان هنالك الاعتراف بالقوى المتجسدة في غير العدد الأكبر . وكان هنالك ما ينتزع قبول الفرد بالانتماء الى المراتب التسلسلية ، أعني به الشعور بأن الانسان يوازي بما يمثله ، لا سيما في ماضيه ، اقله ما يوازيه في حاضره . وقد اسهم كل ذلك في اقرار سيطرة مجلس الشيوخ . ولم يفت هذا الاخير ، على كل حال ، ان يلجأ الى بعض التمييزات المفيدة : فقد أصدر حكمه مثلاً ، في تعاليمه حول الماضي ، على الملكية وبرع في إزالة أضرار رواسبها في مناصب القضاء العليا . وتهيب بنا هذه الملاحظة الى ان نذهب في بحثنا الى ما وراء المثالية : فكما ان المؤرخ لا يستطيع نكران ما تنطوي عليه مشاعر واعتقادات الجماعة من أثر خاص في تحديد حياتها السياسية ، كذلك لا يستطيع ان يتجاهل ان هذه العوامل الروحية تقتصر في أغلب الأحيان على السمو بوضع رامن وان اتفاقها مع غيرها يقرر على كل حال أهميتها العملية .

ان التحاليل السابقة تناولت عن قصد ، في الدرجة الاولى ، عهداً يتبدى في السنوات الاولى من القرن الثالث ويمتد الى الاربع الثلثة الاولى تقريباً من القرن الثاني . في هذا العهد ازدهر في كماله ، بعد ان تعرض لعاصفة قبل ذلك ، ما يجب تسميته بالنظام المجلسي . فهو قد نشأ ، بهذا الشكل ، عن الحرب البونيقية الثانية التي نسبت هزائماً الاولى ، لا سيما هزيمة بحيرة ترازيمينسا و«كانا» ، الى قواد شعبيين سبق لهم ان حاربوا مجلس الشيوخ . ومنذ «كانا» ، وحتى نهاية الحرب ، نهض هذا الاخير ، بسبب احداق المخاطر وتعدد الجبهات الحربية وتغيب عظام القضاة وعدد كبير من المواطنين المجندين تغييباً شبه مستمر ، وطيلة خمسة عشر سنة تقريباً ، بمهمة الحكم غالباً ، والتسليق دائماً على الأقل ، وقد نهض بذلك وحده . او باستخدام قضاة من المراتب الدنيا كالمحاميين عن حقوق عامة الشعب . وقد برهن آنذاك ، من جملة ما برهن عنه من صفات ، عن حزم وثبات امنا النصر لروما ووفرا له سلطة لم يعرفها من ذي قبل . وان كثيراً من الطرائق والسوابق التي لجأ اليها بعد ذلك قد ظهرت اثناء الحرب حلولاً موفقة ، وما كان تعاقب النجاحات العسكرية الكبرى في القرن الثاني ليستطيع الانشاء عنها .

بيد ان سيطرة مجلس الشيوخ ، حتى في هذه الحقبة ، قد ارتكزت الى سبب آخر غير الانظمة ومهارة احد اجهزتها في جعلها تخدم مصلحتها بالذات . فالنظام المجلسي قد منح السلطة طبقة عبر وجودها الرامن ، دون ان يكون له بعد اي طابع رسمي ، عن شراكة في المصالح . ونحن سنعود الى هذا الواقع الاجتماعي في سياق البحث . بيد ان الاشارة تجدر منذ الآن الى ان الشيوخ كلوا آنذاك اوسع المواطنين ثروة واعظم الملاكين العقاريين ، وانه كان لديهم « زبن » عديدون سيطروا بواسطتهم على الناخبين ، وان مصاهرات متبادلة كثيرة قد جمعت بين عائلاتهم ، وان ابناهم كلوا يدخلون « مراتب الابداد » بقوة ويدخلونها وحدهم تقريباً ، وان « نبلاء »

مجلس الشيوخ كانوا بمثابة طبقة ومناصب القضاء بمثابة وقف عليهم . وقد تتيح الاحصائيات الاستشهاد ببراهين عديدة تثبت هذا القول ، ولكننا نكتفي ببعض الارقام التي لا تحتاج بلاغتها الى اي تعليق . من السنة ٢٣٣ الى السنة ١٣٣ ، اي خلال مئة سنة ، تعاقب على روما مئتا قنصل ينتسبون الى ثمان وخمسين عائلة فقط ؛ لا بل حدث اكثر من ذلك ، فقد قدمت ست وعشرون عائلة ١٥٩ قنصلاً ، وعشر عائلات اخرى ٩٩ قنصلاً . فكيف لا يتحقق الاتفاق للإبقاء على هذا الوضع واستثاره .

٢ - فشل النظام ونواقصه

على الرغم من ذلك انفجرت الأزمات ، مرتدية باطراد مزيداً من الخطورة ، حتى منشأ الأزمات الحروب الأهلية التي ستفضي الى النظام الامبراطوري . فيتوجب علينا من ثم البحث عن أسبابها وراء الرجال الذين تسببوا فيها .

كان أحد هذه الاسباب محتوماً ، كما رأينا ، اذ ان مجلس الشيوخ قد تساهل في استمرار حروب دائمة أو عجز عن ان يضع لها حداً : فحصل بعض القادة على المجد والغنيمة بانتصاراتهم وأمنوا تعلق جيوشهم التي غدت جيوشاً محترفة ، فوجد بينهم من يرفضون العودة الى الحياة المدنية حين يضمنون احترام أمثالهم . بيد ان الطموح الى السلطة ما كان ليرادهم لو لم يكن النظام ضعيفاً .

تسرّب الضعف بالفعل الى النظام عن طريق اختلافات الارستوقراطية المجلسية . فقد ساعد ضيق إظهارها على تشكيل عُصب من الدسائس حول بعض الزعماء . وقد لعبت العلاقات العائلية في هذه العصب دوراً لم يكن حاسماً على الدوام لأن الحسد وحتى البغضاء قد ينشآن بين الانساب الأقارب : فان ب . كورنيليوس شيبون نازيكاً سيرايون وطيباريوس غراكوس ، والأول هو قاتل الثاني ، كانا ابنتين لشقيقتين . وكان للصدقات او العداوات الشخصية وللخدمات المتبادلة او منافسات الوظيفة دورها ايضاً . ويصطدم المؤرخون اليوم بعدم توفر المستندات لوضع دراسة عن هذه الاحزاب وتتبع تقلباتها التي من شأنها ان تلقي نوراً ساطعاً على أكثر من قرار من قرارات السياسة الرومانية . ومهما يكن من أمر ، فان تضامن النبلاء قد شابته الخلافات المتأصلة ، ولم تتراجع الاهواء الهائجة امام افطع الفضائح : فلم تكن حياة كلون القديم مثلاً سوى سلسلة من دعاوى رفعها على غيره او رفعها غيره عليه ، كما ان شيبون الافريقي نفسه قد غادر روما ليقضي آخر حياته بعيداً عنها ، مختاراً النفي ونائراً على البشر ومحتقراً كل الاحتقار التهم الموجهة اليه .

وضعف النظام كذلك ، اخلاقياً ، باستثمار أسياده لسلطتهم استثماراً أنانياً . وقد شدّد بوليب على حرص القضاة الرومان في التصرف بالأموال العمومية وفضلهم بقوة على مواطنيه

الاغريق : « قد يضع الاغريق عشرة عقود ويفرضون عشرة أخنام ويستعينون بعشرين شاهداً ، ولكنهم يعجزون مع ذلك عن القيام بوظائفهم بنزاهة . اما عند الرومان ، فبمكنة القضاة والسفراء التصرف بمبالغ ضخمة ، وهم يبرهنون عن نزاهة كلية احتراماً منهم لقسمهم فقط » . بيد ان بوليب قد أشار ، في مقاطع أخرى ، الى تبدل هذه الاخلاق . أتاح حكم الأقاليم وقيادة الجيوش ، في الواقع ، الفرص للغوايات والتجارب القوية . فخضع لها أكثر من واحد ، كما خضع لنشوة السلطة المطلقة على اجساد وحتى على حياة الكائنات البشرية له . فقد ورد في احدى خطب كلتون ، الذي لم يجد المحرم ما يجيب به عليه ، ذكر حادثة قتل حقير اقدم عليه عند نهاية احدى الولائم ، ل . كوينكتيوس فلامينيوس نفسه ، القنصل السابق واخو بطل سينوسيفال ، كان ضحيته فارّاً غاليّاً يطلب الحماية ، وذلك لغاية واحدة هي ارضاء قرطاجيٍّ عزيز عليه أبدى الاسف امامه ، حين اضطر لمغادرة روما بسرعة ، لعدم تمكنه من مشاهدة مصارعة المسايين . اضعف الى ذلك عدم كفاءة عدد كبير من هؤلاء الرجال السياسيين الذين تسلموا القيادة ارتجالاً ولم يمارسوها وقتاً كافياً لاكتساب خبرة تعوزهم . فلا غرابة اذا ما توفرت الفرص الكثيرة لأعداء مجلس الشيوخ لاحتقار النظام كله من وراء الافراد المسؤولين .

وقد انضم الى كل ذلك ما هو أدهى : اختلال التوازن الاقتصادي والاجتماعي الناجم عن الفتوحات . فقد قامت في روما طبقة من المواطنين الكادحين ، المتزايدين عدداً ، المستعدين للاندفاع وراء كل تيار وللاشتراك في كل ثورة . فسيطر الخوف ، باكراً جداً ، على الطبقة الحاكمة ، من امكان تأثير بعض القادة الحريين النافذين على هذه الطبقة . ولكن الخطر داهمها من جهتين . فحصرت ههما في محاولة لإحكام هؤلاء الرجال بتنظيم ارتقائهم وإيقافهم . ولم تفكر بالاضلاحات — او لم تعقد العزم عليها — أي بالتضحيات التي كان من شأنها ان تخفف من الخطر الثاني ، الحقيقي ، الذي أثاره وجود الجماهير الشعبية في المدينة والقلق المسيطر عليها . وكان الأوان قد فات حين حاول شيوخ يتسبون الى العائلات الشهيرة ، آل غراكوس وأصدقائهم ، تدارك الداء . ولكن أكثرية المجلس الساحقة تكتلت ضدهم ولجأت هي نفسها الى العنف الفوضوي في سبيل محاربتهم . فجاء موتهم انتصاراً لها — وفي الواقع حكماً عليها بالزوال .

ان الاضطراب الذي ابتدأ على هذا الشكل لم يعرف نهاية حقيقية . فتقابلت الفوضى والحرب الأهلية فئتان منذ ذلك الحين تضطرم فيهما احقاد متبادلة : فئة « الشعبين » وفئة « الأفاضل » ، وقد ساندت كلا منهما مداورة فئة الفرسان . ولكن فئات النخبة الاجتماعية ، حتى ولو اتحدت حين يتضح خطر الثورة ، ما كانت لتستطيع التغلب على الديمقراطيين ، الذين يفوقونها عدداً ، الا باللجوء الى الرشوة والتحويل ، والقوة عند الحاجة .

فدرجت العادة ، عند الطرفين ، على ان لا يتراجعا امام أية مغالاة في سبيل السيطرة على

الشارع والجمعيات ، وفرض مرشحيهما للانتخابات ، وشل عمل القضاة الذين حلوا هم زملاءهم على انتخابهم . وتوصلوا لان ينظموا فرقاً من الانصار ، وعند الحاجة من المسايقين المبيد حاملي الدبابيس والاسلحة الحقيقية في غالب الاحيان . ولنا في القرن الاخير للمهد الجمهوري الف مثل عن اعمال عنف افضت الى معارك دامية يتقاسم مسؤولياتها الطرفان . ويكفي هنا ان نستشهد بالوقعة المفاجئة التي تصادمت فيها ، في شهر كانون الثاني من السنة ٥٢ ، على بعض المسافة من روما ، زمر العدوين ، كلوديس وميلون ، المهيجين المتطرفين المنتمين الاول للشعبين والثاني « للافاضل » . ومع ان السنة الجديدة قد ابتدأت ، فقد كانت المدينة دون قضاة في المناصب العليا ، اذ ان الانتخابات لم تجر ولم يعين « ملك مؤقت » فسقط كلوديس جريحاً ونقل الى منزل حيث اجهر عليه حرس منافسه . ولكن اصدقاء الضحية احرقوا ، في اليوم التالي ، قاعة اجتماعات المجلس ، فاستخدمت وقوداً لترديد الجثة . ففرقت روما في الفوضى .

وغرقت في الحرب الاهلية ايضاً ، لانه كان من الحتم ان تستدعي اضطرابات الشارع ، عاجلاً ام آجلاً ، تدخل الجوقات . وكانت الجوقات في قبضة قادتها الذين نزعوا بصورة طبيعية الى ان يجمعوا بين قضيتهم الشخصية وقضية الفئة التي هم مدينون بالقيادة لعضدها . كانوا في البدء لا يزالون يحترمون الشرعية ، فاكتفوا باستخدام رصيدهم لدى الشعب واخلص جنودهم القدامى . ولكن هذا التحفظ ما كان ليستم ، فخطا الخطوة الحاسمة ، مرة اخرى ، على غرار ما حدث حين قتل طيباريوس غراكوس ، احد افراد فئة « الافاضل » . فسيلاً هو الذي حقق ، في السنة ٨٨ ، اول انقلاب عسكري باقحام جيوشه في « المدينة » حتى داخل الاطوار الذي لم يسمع للقادة والجنود بدخوله الا للاحتفال « بموكب النصر » . كانت هذه سابقة اسرعوا من الجهة الثانية الى الاقتداء بها . فتحول التنازع السياسي الى حرب اهلية تزيد من مجد وطموح اولئك الذين كانوا يتزعمونها . وكان من شأن قهر جيش الخصوم ، وهو اشد ضماناً من هياج جمعيات الشعب ومن سلطة مجلس الشيوخ من حيث انه يسمح بتحطيم الحواجز الشرعية بضربة واحدة ويجعل الاغتيال عملية رسمية عن طريق لوائح المحكومين بالقتل دوناً محاكمة ، ان يولي السلطة ، اي سلطة من السذاجة الاعتقاد بان مستلمها سيتخلى عنها دائماً ، على غرار ما فعل « سيلاً » بعد ان سن للجمهورية قوانين جديدة .

فماز النظام الجمهوري تاركاً المكان للملكية الامبراطورية .

نواقص المدينة الجمهورية بعد تفكيك هذا التلاحم ، لا تستدعي نواقص النظام الأخرى درساً طويلاً . بيد انه تجدر الاشارة اليها على الاقل : فكما ان المدينة لم تعرف كيف تكيف بجيشها وحكومتها المركزية على الحاجات الناجمة عن الفتح ، كذلك لم تفلح في القيام بمهمة الادارة اليومية قياماً حسناً .

اجل لم تشك قط من عجز مالي . فقد عرفت في الحقيقة ، خلال الحرب البونيقية الثانية ،

صعوبات من هذا النوع حين اضطرت لأن تعرف من احتياطيها الذهبي لسكه ، ولتخفيض وزن القطعة الفضية ، الدرهم ، بمعدل السدس ، ولرفع قيمته مع ذلك من عشر قطع برونزية الى ستة عشر ، ولضاعفة الضريبة المباشرة المفروضة على رأس المال مرتين وحتى ثلاث مرات ، ولخلق حماس متفاوت التلقائية في مواطنيها الأثرياء بغية الحصول منهم على قروض او هبات . ولكن النصر وضع حداً لهذه المتاعب التي زالت نهائياً . فقد أفضت حروب القرن الثاني العظمى ، في بلدان الشرق الهليني ، الى كسب غنائم ضخمة كانت تودع الخزائنة العامة بعد استعراض كل من مواكب النصر ، وتعدت الخزائنة ، بالإضافة الى ذلك ، من تمويزات الحرب التي كانت تدفع أقساطاً ، ولا سيما من موارد الأقاليم ، كالضريبة السنوية ودخل الأملاك العامة (المناجم بنوع خاص) . ففدت المدينة على جانب من الثروة استطاعت معه ، منذ السنة ١٦٧ قبل المسيح ، ان تلغي الضريبة المباشرة المفروضة على مواطنيها : ولم تجب هذه الضريبة بعد هذا التاريخ . وفي السنة ١٢٣ أخذت تصدر ، مع كايوس غراكوس ، سلسلة القوانين « الحنطية » التي أرغمت الدولة ، وفاقاً لتطورات النزاع بين الاحزاب ، على بيع القمح للمواطنين بسعر مخفض تارة ، وحتى على توزيع بعضه مجاناً تارة أخرى : وحين فرض قيصر دكتاتوريته ، كانت لوائح المستفيدين من هذه الاعطيات العمومية السخية تضم ٣٢٠ ٠٠٠ اسم .

بيد ان هذا اليسار المالي ارتبط الى حد بعيد بطابع جهاز الدولة الذي بقي بدائياً جداً . فاذا ما استثنينا مرتبات العسكريين والطريقة الخاصة المعتمدة في تموين المدينة عن طريق بيع القمح بخسارة او توزيعه مجاناً ، انحصرت النفقات الرئيسية في العبادة والاشغال العامة . اجل كانت الألعاب التي تقام للترفيه عن الشعب في مواسم الاعياد الدينية باهظة النفقات ؛ ولكن نظار الأبلية والطرق الذين عاد اليهم أمر تنظيمها كانوا يتحملون نصيباً كبيراً من الأكلاف اهتماماً منهم بالدعابة الانتخابية . اما الأبلية ، بالإضافة الى ان سخاء الافراد ، او اقله سخاء القادة من دخل غنائمهم ، قد ساهم بأكلافها ايضاً ، فما زالت في حالة وسط نسبياً : فقد نمت روما شيئاً فشيئاً دون نظام معين ولم تحاول بالتالي ان ترتدي مظهرأ خارجياً لائقاً بقوتها ، ولن يحوّلها سوى الملوك خدمة لنفوذهم الشخصي ؛ ولا شيء من جهة ثانية ، باستثناء الطرق ، في ايطاليا والاقاليم . اما الاقتداء بالدول الهلينية العظمى ووعي ضروريات الحياة المادية فلم يصبحأ أمراً ملحاً إلا ببطء ؛ واستمرت روما في العيش كأنها مدينة صغيرة ، مستشبهة مبدئياً بتفاني واعتزاز مواطنيها الاولين بغية التقليل الى أقصى حد من نفقات ضرورية لتحقيق المهام الجديدة الملقاة على عاتقها . ولم يتقاض الشيوخ والقضاة والكهنة أي أجر اذ ان وظائفهم كانت « شرفية » . وقد عاونهم كتبة ومساعدون دائمون مختلفون تولت الخزائنة دفع أجورهم ؛ وكانوا كلهم من الفقراء لا يبلغ مجموعهم عدداً كبيراً ولم يؤلفوا يوماً دوائر قيمينة بتأمين استمرار ادارة يتبدل المسؤولون عنها تبديلاً سريعاً .

لم يكن لهذه الادارة من وجود في الواقع ، أقله بقدر ارتباطها بالدولة . ولعل

أسوأ ما هنالك ان الدولة ، المتصلبة في تهرابها من واجباتها ، سمحت بقيام ادارة خاصة حقيقية ، ادارة المزارع ، وتمادت في السماح لها بالعمل على حساب قوتها الخاصة وفي سبيل القضاء على مرؤوسها : وان نظرة على تنظيم الاقاليم ومصيرها سيلقي ضوءاً على هذه المغالطة الظاهرة .

لم تحدث روما ، طالما هي لم تبسط سيادتها الا على ايطاليا ، اي جهاز خاص لممارسة الاقاليم هذه السيادة . فقد عاد امر مراقبة سلوك الجماعات المحلية ، في اطار الاستقلال ، الى مجلس الشيوخ والقضاة العاديين . وكان باستطاعة هؤلاء ان يفوضوا الحكام « *Préfets* » بتأمين هذه المهمة : وقد وُجد هؤلاء في كمانيا بنوع خاص ، عينهم قاضي المدينة العدلي في البداية ، ثم انتخبهم الشعب ، بغية توزيع العدل . بيد ان النتائج ائت متوسطة فقط وغالبا ما افسدها تحكم القضاة ، فحاول قيصر ادخال النظام الى هذا التنوع وتنظيم الحكم المحلي في الوقت نفسه تنظيماً اقرب الى الديمقراطية ، بواسطة قانونه « البلدي » . غير ان الشكاوى لم تكن قط عامة او خطيرة .

ولكن روما ، منذ منتصف القرن الثالث ، سيطرت وحافظت على اراض تقع وراء البحر - صقليا في الدرجة الاولى - فتوجب عليها استنباط نظام جديد : فقدت هذه المناطق « ولايات » . وقد عنى هذا التعبير في البدء ، ولمدة طويلة جداً ، المهمة المسندة الى احد القضاة ، اي صلاحيته الخاصة : السلطة القضائية ، وقيادة الاسطول وادارة الحرب الخ . فصدر شيئاً فشيئاً عن هذا العمل الاخير ، الذي كثيراً ما يقوم به قضاة المناصب العليا ، مفهوم الاقليم ، اي الاقليم حيث تدور العمليات ، او الاقليم المحتل المسندة ادارته الى حاكم ، اي الى قاض . وقد درجت العادة ، حتى سلا ، على ان لا تتجاوز مدة الاسناد سنة مهمة القاضي . ولكن تطور المفهوم هذا لم يزل مفهوم المهمة الفردية : فالرجل الذي يتسلم اقليماً من الشعب الروماني ، يتسلم منه تفويضاً يجمع سلطاته على هذا الاقليم ؛ وكان من جهة ثانية يتمتع فيه « بالسلطان » العسكري الكامل .

كان من شأن هذا النظام ان اخضع الاقليم الى تبديلات متكررة في الحكام : وقد حدث ذلك مبدئياً ، وعملياً كل سنة ايضاً في اغلب الاحيان ، حين لا « تمتد » ولاية القاضي . وقد اخضعه بنوع خاص الى تعسف الحاكم ، بسبب السلطات الواسعة التي يمنحها هذا الحاكم ، الحق الذي يؤتيه آياه النصر . اجل لقد اقر « قانون الاقليم » حين انشائه ؛ وكان هذا القانون له بمثابة الدستور ، يحدد بقمته ويعين النظام الخاص الممنوح ، مثلاً ، للمدن التي عقدت معاهدة مع روما واستحققت صفة « المتحدة » - وقد اعترف ببعضها « حرة » احياناً - وبين مبلغ التعويض المفروض ، وكيفية استيفائه ، الخ . ولكن الحاكم ، يمثل سلطة روما وقوتها ، المتمتع بحق توزيع العدل ، البعيد عن كل رقابة او خطر باستثناء خطر الدعوى التي قد ترفع عليه بعد عودته الى ايطاليا ، كان حراً طليقاً في اخضاع سكان الاقليم لتطلباته حتى غير الشرعية ناهيك عن التسهيلات التي وفرتها

له بعض العادات كالتلاعب في الرسم المفروض على الخنطة ، وهو يختلف عند الشراء عنه عند البيع ، او كالأجرب المفروض على الأقليم بتأمين معيشته ومعيشة بطانته .

الى هذا الاغتصاب يقدم عليه السيد ، انضاف اغتصاب المزارعين . فالجمهورية الرومانية لم تحاول قط ، في الحقيقة ، تنظيم اقل ادارة مالية ، لا لنفقات الخزانة ولا لوارداتها ولا لاستثمار املاكها العامة . وقد وكلت هذا الامر الى مزارعين هم على العموم جميعات ذات شأن كثيراً ما تفرض نفوذها على الحكام المكلفين مبدئياً مراقبة اعمالها . وقد ارتبط هؤلاء بها باشكال مختلفة ابتداء من الرشوة حتى التهديد بالتشهير قليحاً او تصريحاً . وقد شاركها الكثيرون في ارباحها عن طريق وسطائهم . وقد تمتعت هي ، عن طريق ثروتها واشخاص اعضائها ، بنفوذ سياسي عريض في روما ، لا سيما حين قضى « القانون العدلي » ، الذي سنه كلوس غراكوس ، باستدعاء الفرسان ، اي اعضائها واصدقائهم ، كمحلفين في المحاكم . وبعد ان توسع هذا الحق ، ثم الغاء سيلا ، ثم اعيد في اعقاب الدعوى التي هاجم فيها شيشرون قاضي صقليا العدلي السابق ، فبريس ، جعلهم اسباب دعاوى سرقة الاموال العمومية المسلطة على الحكام . اجل بلجات المدن والملكيات اليونانية ايضاً الى تلزيم الاموال بغية تجنب انشاء ادارت دقيقة . ولكنها جزأت التلزيم ، وغالباً ما افترطت في التجزئة ، ومارست مراقبة شديدة على الملتزمين ، حائلة دون حصولهم على قوة اجتماعية وسياسية . اما الرومان فلم يحافظوا على هذا النظام الا في صقليا والغوه في المناطق الاخرى كما حدث في المملكة الاطالية القديمة التي اصبحت الاقليم الاسيوي . فقصروا في واجباتهم الاولى نحو انفسهم ونحو رعاياهم بسبب افتقارهم الى ذوي الاختصاص ، وخوفهم امام تعقيد المعضلة العملية ، وانانيتهم وقسوتهم كفانحين يعتبرون كل شيء جائزاً للمنتصرين . وكان من مصلحتهم في الحقيقة تأمين بقاء الرعايا ، فحدوا من جهة ثانية ، من حريتهم الشخصية بسماعهم لارستوقراطية مالية ان تنمو وتصبح الحكم في نزاعاتهم الداخلية .

كانت الاقاليم اذن خاضعة لاستثمار لا حد له تقريباً . فحتى ولو لم يل الحكم الاقليمي حرباً حقيقية واسند الى هذا او ذاك لمناسبة الفوز بقضاء عدلي او بقنصلية ، فانه قد بات وسيلة طبيعية لاعادة بناء ثروة يذرها بذخ الحياة في روما او النفقات الانتخابية . ومع ان شيشرون كان حاكماً زهياً على كيليكيا في السنة ٥٠ ولم يقيم سوى بحملة قصيرة ضد الجلبيلين المساكين ، فقد جمع بعد انقضاء السنة ما يعادل ٥٥٠٠٠٠ فرنك في السنة ١٩١٤ . اضع الى ذلك ان الاقاليم قد تعرضت لغزو « تجار » من جميع الطبقات ، بينما لم يكتف عملاء الملتزمين بفرض ما يفوق حقهم في جباية الضرائب او بفرض الاشغال الشاقة في المناجم والحاجر والاملاك العمومية الاخرى المزممة ، بل عمدوا ، لا سيما مع الجماعات ، الى الربى الفاحش - ٤٨ ٪ واكثر احياناً . وقد حمل الحكام على الحكمة ما حدث للوكولوس الذي اراد وضع حد لفضيحة هذا الربى والذي افضت المعارضة الفعالة لدى جنوده انفسهم ، في السنة ٦٧ ، الى فقدان حظوته وانزاهه ، فتفاوضوا عن كافة هذه التصرفات ، لا بل اشتركوا فيها احياناً باقراض جيوشهم والحكم في الدعاوى .

ذاك كان منذ القرن الثاني ، واستمر حتى عهد الامبراطورية ، النظام السائد في الاقاليم الرومانية . وكان منه في الحقيقة ان ادخل عوامل فوضى إضافية الى مدينة شكت من المزيد منها . فليس هنالك من دولة ؛ وليس من وحدة وحتى من تضامن ؛ وليس من ادارة ، بل اقاليم معزولة لكل منها حاكمها الذي هو ملك يتمتع بسلطة مطلقة وسريعة الزوال في آت واحد ، وارض توفر المال والاسلحة احياناً لسيادها في ثوراتهم على الحكومة المركزية ، وبلدان نهبت أثناء الفتح واستثمرت بعده دونما شفقة ، لا لمنفعة المجموع بل لمنفعة مواطنين أثرياء ، وشعوب انتزع منها ليس استقلالها فحسب بل ممتلكاتها المادية ايضاً فعدت مستعدة لاستقبال أي محرر : فبعد انتصار ميتريدات مثلاً ، شفى العالم اليوناني غليله في السنة ٨٨ بتقتيل ٨٠ ٠٠٠ روماني وايطالي في آسيا الصغرى ، و ٢٠ ٠٠٠ بعد ذلك في ديولس ، بينما كان ملك البونت – ولكن التقليد يعرف كيف يبتدع الأماليح الرمزية والكلمات التاريخية – يسكب الذهب المذوّب في فم احد القناصل السابقين .

ليس من ريب في ان الجمهورية قد تركت ، عند زوالها ، عملاً ضخماً شاقاً للنظام الذي سيخلفها .

١ الفصل الثالث

النظور الاجتماعي والاقتصادي

اذ لم تكيف المدينة الجمهورية أنظمتها ، بسبب لامبالاتها او عجزها ، وفاقاً للنتائج المباشرة وغير المباشرة التي أدى اليها الفتح ، فقد أصبح من المحتم ان يقلب هذا الأخير ظروف حياتها الاقتصادية والاجتماعية رأساً على عقب . وان التطور الذي نلاحظه في هذه الحقول لمن أشدّ الاحداث تأثيراً في تاريخ العصور القديمة من حيث اتساعه الخاص ومن حيث انعكاساته .

فليس من تبدل ، في أي مكان ، اعظم بروزاً منه في جهاز ونوع حياة الطبقة الحاكمة ، تلك التي توفر لنا مستنداتنا حولها مزيداً من المعلومات .

١ - الطبقة الحاكمة

كانت روما في البداية مدينة فلاخين يتعاطون الزراعة وتربية المواشي .
الاقتصاد والمجتمع الاوليان
وقد بقيت الحياة البسيطة التي يمارسها في الحقول ملائكة يعنى بقطيعه ويحبرث ارضه بنفسه ، مثلاً قومياً أعلى ، وان كان على العموم مثلاً مبتدلاً كما هو طبيعي . ولكن التربة الرومانية بالذات ، لم تكن صالحة جداً للاستثمار الريفي حتى ولو صرفت مياهها وفاقاً للتقنيات الاتروسكية . لذلك فان روما وسكانها قد لبوا دعوة أخرى ، هي دعوة موقع روما كمدينة - جسر هي أقرب المدن الى مصب التيبر حيث يتوجب على الملاحة البحرية ان تفرغ شحناتها وحيث تلتقي بالتالي طرق برية او مختلطة : احداها موازية للساحل تقريباً ، من اتروريا الى كمانيا ، والثانية تحاذي النهر وتسير عليها المراكب التي تنقل الملح - ولذلك سيطلق عليها اسم « طريق الملح » - قاصدة جبال « الابنين » الوسطى . فيتضح بالتالي ان نشاط روما التجاري قديم جداً حتى قبل ان يجعل منه تزايد سكانها امراً واجباً ويفرض استيراد كميات متزايدة من الحبوب لسدّ نقص الانتاج المحلي . فلا مجال بالتالي ، منذ عهد مبكر جداً ، لأن نهمل - الى جانب الريفيين - مدنيين نشيطين ايضاً مع انهم يعيشون حياة اخرى .

فهل يحذر بنا التشديد على هذا الخلاف لتفسير توزيع المواطنين منذ القدم الى طبقتين ، طبقة

الأشراف وطبقة عامة الشعب ؟ منذ زمن قديم تناولت معضلة أصول هذا التوزيع الاجتماعي الثنائي حلولاً مختلفة جداً : ومن الجراءة ، حتى اليوم ، ابداء رأي قاطع في هذه الأصول . اما في الواقع ، فحين يترامى الفرق بين هاتين الفئتين من المواطنين ، أي حين يبدأ التقليد ، الذي يشك بالكثير من رواياته وتفسيراته ، في الكلام عن النزاع بينها ابتداء من أوائل القرن الخامس ، تبدو طبقة الأشراف كأرستوقراطية من الملاكين العقاريين وطبقة عامة الشعب كطبقة مؤلفة من عناصر مختلفة جداً يتجاور فيها صغار الملاكين الأحرار والصناعيون والتجار . ومهما يكن من الأمر ، وحتى ولو سلمنا بأن الاختصاص الاقتصادي كان له دوره في أصل هذا التوزيع ، فإن خلافتات أخرى متنوعة قد برزت وارتدت مزيداً من الأهمية .

كان الأشراف وحدهم في الواقع منظمين عائلات كبرى *Gentes* يحمل كافة أعضائها اسم (*Gens*) ، مما يفرض استعمال أسماء شخصية وحق القاباً . وقد تفرعت هذه العائلات الى عائلات صغرى خضعت كل منها الى سلطة « أبي العائلة » (*Pater familias*) وكان لكل منها تقاليدهما ، وأعرافها وعباداتها الخاصة ، وأملاكها المتجاورة على العموم ، الجمعية أحياناً ، والمتمتعة ، على الأغلب ، بامتياز أشبه بحق استرداد المبيع منها . وبالإضافة الى أفراد العائلة (*Gentiles*) حفدة جد الـ (*Gens*) أو المرتبطين بذريته بالتبني ، كانت للعائلة ، « زبنها » أيضاً أي اثاس « يسمعون » كلمة السيد ، مرؤوسون تقليديون بالوراثة . وكان بين هؤلاء معتقون ، ولكن واحداً منهم لم يمتلك كثيراً من العبيد بعد . ولذلك فقد كانوا في أغليبيتهم رجالاً ، وفلاحين أحياناً ، وضعوا أنفسهم ، لأسباب مختلفة ، اقتصادية أحياناً ، تحت حماية أحد المقتدرين القانونيين والمادية ، « نصيرهم » ، متعهدين له بالمقابلة بأن يسيروا وراءه ويساندوه حتى بأموالهم في بعض الحالات . أجل ان قيام الروابط بين رجل ورجل ، أحدهما يحمي الآخر ويدخله في خدمته ، له ما يشبهه في كثير من المجتمعات القديمة وحتى من مجتمعات أحدث عهداً . ولكن هذه الروابط لا تبرز في أي مكان آخر أعظم اتساعاً وفعالية منها في روما لأن نظام الاستزلام (الزبن) الذي كان في البدء خاصاً بطبقة الأشراف قد أصبح شيئاً فشيئاً نظاماً عاماً استفاد منه كل غني ومقتدر ، وأثر ، حتى النهاية ، في تنظيم وحياة المجتمع الروماني . وقد سمح هذا النظام ، في تلك الأزمنة القديمة ، لبعض العائلات بتأليف مجموعات بشرية هامة : يقال ان عائلة فابيا (*Fabia*) كانت تضم ، في السنة ٤٧٩ ، بالإضافة الى ٣٠٦ أفراد ، ما بين أربعة وخمسة آلاف « زبون » . فيظهر جلياً ان هذا التأثير على أعضاء الطبقات الدنيا ، بالإضافة الى الدور العسكري الذي لعبه الأشراف بفضل ثروتهم وتربيتهم ، قد وفر لهم احتكار السلطة السياسية الوطيد العلاقة باحتكار الحماية والرعاية .

بيد ان بعض « الزبن » ، على الرغم من مساعي الأشراف — ان قانون « اللوحات الاثني

عشرة يعاقب خيانة الزين - وحتى دون زوال العائلة ، قد حطموا هذه القيود ، منذ عهد باكر جداً ، للاتحاق بعامة الشعب او للعودة اليها . فها لا يجد الانسان نفسه محاطاً بمثل هذا النظام الديني والاقتصادي والاجتماعي . وقد تمسك الاشراف بهذا الفارق ضناً منهم بامتيازات طبقتهم ، فرفضوا زمناً طويلاً الاعتراف بشرعية الزواج المختلط ، في حال انهم وافقوا عليها دونما صعوبة ، وعلى قدم المساواة ، بينهم وبين عائلات نبيلة من مناطق ايطالية مضافة الى الارض الرومانية ، شرط ان يكون تنظيمها شبيهاً بتنظيمهم . وجهلت عامة الشعب المجموعات العائلية التي لم تظهر فيها إلا تدريجياً ، خالية من معناها الحقيقي . وكذلك ، فقد اختلف اختلافًا يتيماً أيضاً التنظيم الجماعي ، المتميز ، الذي جعل من العامة ما يشبه مدينة قائمة بذاتها لها قضاتها الذين انتخبهم ليدافعوا عنها ضد طبقة الاشراف ، ومرد ذلك الى ان هذا التنظيم كان مستقلاً عن الوراثة والاطارات الاجتماعية التي ترممها ، والى انه وضع جنباً الى جنب مواطنين متساوين مبدئياً .

أفضى هذا الصراع الطويل والعسير احياناً الى بلوغ المساواة المدنية
انهيار طبقة الاشراف
والاجتماعية والسياسية بصورة تدريجية ، فكانت النتيجة المحتومة انهيار
وطبقة النبلاء
الطبقة المحظية .

حافظ الاشراف على حقهم في بعض وظائف كهنوتية نادرة جداً او على وظائف يغلب عليها الطابع الديني كوظيفة الملك المؤقت مثلاً . وقد احتفظوا كذلك بأولوية أدبية من الصعب جداً ، على كل حال ، تحديدها ومعرفه مداها : فقد احترم الرومان نظام المراتب المستند الى التقليد . وبما يدعو الى الدهشة البظء الذي رافق ظهور بعض مبادئ المساواة في الوقائع بعد بلوغها . فبكذا بعد ان حصل الشعبون في القرن الرابع على حق اسناد احد مناصبي القنصل او قاضي الاحصاء الى احدهم بالضرورة ، انتزعوا ، في منتصف القرن الثالث ، حق شغلها كليهما في آن واحد . ولكن القنصلين لم يعينا من بين عامة الشعب ، للمرة الاولى ، الا في السنة ١٧٢ وقاضي الاحصاء الا بعد القنصلين باربعين سنة ، ولم تدرج هذه التجديدات في الاعراف والعادات ، لابل ان نسبة الاشراف في كافة الاجهزة الحاكمة ، باستثناء مناصب قضاة عامة الشعب فقط ، قد بقيت مرتفعة اذا ما قيسست بعددهم الحقيقي .

بيد ان هذا الواقع ليس ذا شأن لانهم ما كانوا ليجدوا فيه سوى ارضاء لانانيتهم او دور اية دون اثر سائد لا يحسب لآرائهم فيه اي حساب . فقد اسهم كل شيء في ان ينزع عنهم طابع الطبقة المتميزة بنوع حياتها : تكرر الزواج المختلط ومزاجي زوايا استلام الزين الذي غدا اوسع شمولاً ، وتجزئة الاملاك المقارية العائدة الى عائلاتهم ، واثراء عناصر اجتماعية اخرى . ومن جهة ثانية اخذ عددهم بالانخفاض لان انضمام العائلات الجديدة اليهم بعد انفصهارها في المدينة الرومانية قد زال منذ القرن الثالث : ففي آخر الجمهورية ، على ما نعلم لم يبق هنالك سوى اربعة

عشر من هذه العائلات الكبرى تضم ثلاثين عائلة صغرى تقريباً . وبالاختصار ، فان الماضي ، على هذا الصعيد ، قد ادركه الموت ، وان الدم الحديد الذي وفره الاباطرة ، تمسكاً مفرطاً منهم بالشكليات الدينية ، لم ينجح قط في اعادته الى الحياة .

وقامت ارستوقراطية اخرى اطلق عليها اسم طبقة النبلاء « *Nobilitas* » وكان مقياسها في ذلك عضوية رئيس العائلة في مجلس الشيوخ : فهي قد جمعت اذن ، في آن واحد ، عائلات من عامة الشعب وعائلات من طبقة الاشراف . وقد فتحت ابوابها مبدئياً للجميع بمجرد الانتخاب لمنصب من مناصب القضاء . ولكن هذه الابواب قد اوصدت عملياً اذا ما نظرنا اليها كطبقة اجتماعية . ومرد ذلك الى انه يقلب ان ابناء الشيوخ الذين استطاعوا حضور جلسات مجلس الشيوخ وقوفاً وافادوا عن تضامن النبلاء اثناء الانتخابات قد دللوا على نقائص لا تعوض اذا هم لم يرتقوا سلم المراتب . وعلى نقيض ذلك فقد كان هزيراً جداً حظ المرشحين الآخرين ، « الرجال الجدد » - ولا ينطوي هذا التعبير على مفهوم دقيق ، بل استعمل على العموم للإشارة الى اولئك الذين لم يتوصل واحد من جدودهم الى اعتلاء منصب ذي « سلطان » . وكان من الندرة المستهجنة وصول احدهم الى القنصلية : اربعة فقط ما بين السنة ٢٠٠ والسنة ١٤٦ ؛ اما في القرن الاول فقد كان شيشرون اول من توصل اليها في السنة ٦٣ ، بعد ماريوس الذي توصل اليها في السنة ١٠٨ .

وقبل ان يحظى النبلاء باعتراف الدولة الرسمي ، استفادوا من عادات راسخة في التقليد حتى يتميزوا عن الطبقات الاجتماعية الاخرى . اجل لقد فقدوا امتياز الخاتم الذهبي الذي شمل الفرسان قبل ان يشمل كافة المواطنين ، ولكن الطريدة الارجوانية المخططة على القميص من اعلى الى اسفل كانت عندهم اوسع عرضاً منها عند الفرسان . وكان لهم وحدهم الحق في انتعال الاحذية الحر . وكان لهم اخيراً « حق الرسوم » ، اي حق عرض اقنعة او تماثيل جدود العائلة المجيدين في المواكب الجنائزية .

وهكذا فان هذه الارستوقراطية التي برزت في القرون الاخيرة من العهد الجمهوري قد تمتعت بامتيازات وافرة جوهرية وشرفية على السواء . ومهما كان من أمر نجاحات الحركة الديمقراطية ، فقد تنكرت الذهنية الرومانية لعملية التمهيد والمعادلة . اجل يستحيل علينا نكران ما تنطوي عليه من أهمية قانونية التنازلات التي انتزعتها عامة الشعب من طبقة الاشراف خلال صراعها الطويل . ولكن هذه الاصلاحات قد عادت بالفائدة على رؤساء عامة الشعب بنوع خاص ، أي على اولئك الذين كانوا في الواقع مساوين لحصومهم . وقد برهنوا ، بعد بلوغهم مأربهم ، عن الذهنية الطبقيّة نفسها التي شكّا منها جدودهم : فان والد الاخوين غراكوس مثلاً ، الذي شغل منصب القنصلية مرتين ومنصب قضاء الاحصاء مرة واحدة ، لم يكن ، على الرغم من انتائنه الى عامة الشعب ، اقل عجرفة ولا اقل قسوة نحو الوضعاء من أي شريف من الاشراف .

لم يكن هنالك مبدئياً من ضريبة « مجلسية » ولم يفرض قضاة الاحصاء ، لإبقاء احد الشيوخ على « اللاتحة » ، حداً أدنى من الثروة . وكانت المزاخمة الانتخابية وطريقة الحياة المحترمة ، من جهة ، تفرضان نفقات باهظة ؛ ولكن الوظائف التي تمارس خلال الحياة السياسية كانت تتيح ، من جهة ثانية ، التعويض عن هذا الانفاق وتحقيق المكاسب بطرق تتفاوت نزاهة . فكان الشيوخ اذن من الأثرياء ، لا بل اوسع الرومان ثروة على العموم ، وكانت ثروتهم بمحمة في الممتلكات العقارية لأن تخصيصها لغاية أخرى كان محظراً عليهم نظرياً كما سترى ذلك قريباً .

هل احتفظ لهم ولأعضاء عائلتهم ، أثناء عمليات الاحصاء ، بالوحدات المئوية الفرسان المعروفة « بوحدات الفرسان » ؟ يبدو ذلك ثابتاً في البداية ، ولكن التطور اللاحق غامض في توقيتته وكيفياته الرسمية . فقد فقد المدلول الذي يحدده اسم الفارس معناه العسكري الاول ، وبهذا المعنى ، كان الشيوخ وابناؤهم ، هم ايضاً ، وهم خصوصاً ، من « الخيالة » . وبعد ذلك ، اي خلال القرن الثالث كأبعد حد ، تميز الاسم بفارق جديد بحيث لم يعد من الممكن ان يعني سوى « الفرسان » . وقد عني في الواقع المواطنين الاثرياء الذين لا ينتمون الى مجلس الشيوخ ؛ ويبدو ان الحد الأدنى للثروة الضرورية قد انتهى الى ما يعادل ١٠٠.٠٠٠ / فرنك (١٩١٤) في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، وهو معدل ضرائبي يخول حق الانتخاب وقد يكون هو نفسه ايضاً معدل الطبقة الاولى بين الطبقات الانتخابية الخمس .

تميز هؤلاء الفرسان خارجياً عن المواطنين الآخرين : فقد اجازت لهم عادة درج عليها منذ اواخر القرن الثالث بحمل الخاتم الذهبي والطريدة الأرجوانية الضيقة ؛ واعطاهم قانون سنه كايوس غراكوس الحق في مقاعد خاصة اثناء التمثيليات المسرحية . ولكنهم افادوا من امتياز عملي هو اثن من كل ذلك الى حد بعيد : كان باستطاعتهم ، على نقبض الشيوخ ، استثمار رؤوس اموالهم ، كما استطاعوا ، بسبب إقصائهم عن مناصب القضاء ، احتكار العمليات المالية في روما . اجل لم يتعاطوا جميعهم الشؤون الكبرى : فقد انتمى بعضهم الى بورجوازية المدن الصغيرة في ايطاليا ، وحتى الى بعض الملاكين العقاريين الذين اكتفوا بإدارة املاكهم . ولكن تعاوناً وثيقاً قد وحد هذه الطبقة التي ليس بمكنتنا تقدير عددها المتزايد باطراد بفعل انتشار الثروة . وقد افضى تعاونهم الى خدمة المضاربين الذين اداروا مصالح ضخمة وتوصلوا في الحياة السياسية الى سلطة يبررها دورهم الاقتصادي ومركزهم المتوسط بين المجلس وخصومه ، ان لم يبررها عددهم . وبسبب عداوتهم للأناية المجلسية ، وللغوضى الاجتماعية بنوع خاص ، فانهم قد ساندوا هذا الحزب ثارة وذاك الحزب ثارة أخرى ، وقبضوا ثمن مساندتهم تسهيلات في سبيل توسيع ثرواتهم

ألف الشيوخ والفرسان اذن نخبه المجتمع الروماني ، تلك النخبه التي عادت لها الثروات والبذخ السلطة بصورة مباشرة او غير مباشرة . وقد توصل بعضهم ، لا سيما من بين

الشيوخ ، - اقله اذا صدقنا التقليد الذي يميل الى الاماليح وينقطع بالتميز الى الاشخاص المنظورين - الى تكديس ثروات طائلة جداً . ويبعدون اعظمهم ثروة كان ، كما يبدو ، كراسوس الذي أطلق على جدوده ، منذ عدة اجيال ، لقب « الاغنياء » (*Dives*) . فقد ورث ما قيمته ١٨٠٠.٠٠٠ فرنك (١٩١٤) ؛ ولكن مضاربات شتى ، ابتداء من تلك التي وفرتها له احكام « سيللا » بالنفي ، رفعت ثروته الى أكثر من ٥٠.٠٠٠.٠٠٠ فرنك ، وعلى الرغم من الحسائر التي لحقت به ، فما زالت تقدر بـ ٤٢.٥٠٠.٠٠٠ حين انتقل الى الشرق حيث لقي حتفه . وباستطاعتنا ان نستشهد بلوكولوس وبومبيوس ايضاً . ودون ان نعمم هذه الحالات الاستثنائية يمكن القول بأن ثروة تقدر بعدة ملايين - وليس من ضرورة لان تكون نقدية ؛ ولكن ذلك قضية اخرى - غدت شيئاً عادياً ، ابتداء من القرن الثاني ، في هاتين الطبقتين الحاكمتين . ولا يستحق النظام عملياً سوى اسم البلوتوقراطية (حكم الاثرياء) .

ولم ير الشعب في هذا القدر من الثروة ما يهين شعوره . لا بل ان خطب التأيين استندت اليه لتمجيد الميت . وقد نظر الرومان على الدوام الى مفهوم المثلث والى العناد في الدفاع عنه وتوسيعه والى الاقتصاد وحتى الى البخل نظرهم الى ضروب من الفضائل . وان كاتون القديم الذي تظاهر ، في اول القرن الثاني ، بتقشف روماني الازمنة القديمة ، قد كره التبذير وتباهى بضبط ادارة املاكه ولم يتراجع امام اية وسيلة شرعية لتوسيعها : ففي نظره ، « عجيب والهي هو الانسان .. الذي يترك اكثر مما اعطي » . وقد شدد بوليب ، في كلامه عن سخاء شيبون اميليانوس ، على هذا الطابع من الخلق القومي . « يبدو هذا السلوك ، عن حق ، حسناً في كل مكان . ولكنه يبدو في روما مدهشاً وذلك لسبب بسيط هو ان اياً من اهاليها لا يعطي احداً بما هو له ... فكلهم يبرهنون عن حرص مفرط في شؤون مصلحتهم » . وان ما اعجب به بوليب قد ادهش عمي تلميذه وصديقه ، المتربعين في المرتبة الاولى بين النبلاء ، على الرغم من انها قد استفادا من هذا السلوك .

في روما هذه حيث اعتمد المجتمع الرفيع ، فيما مضى ، تقشيراً عسيراً ، وحيث قدمت الاطعمة للسفراء القرطاجيين المدعوين عند بعض الشيوخ في الاواني الفضية نفسها التي استعارها الشيوخ مداورة ، نشأت الفضيحة ، بالضبط ، من التبذير الذي ظهر في ازدياد الفخفة بنوع خاص ؛ فنار مذهب الاخلاق على هذه الاخيرة واصدروا حكمهم عليها كهدامة للاملاك التي كان تسلسل درجاتها في الاساس من جهاز الدولة نفسها ، وكهدامة للانظمة القديمة الفردية والاجتماعية . ولكن الثروة اعطت نتائجها المحتومة في كل مكان ، لا سيما على رجال اتصلوا بشرق يفيض خبرة ودروساً فيما يعود للمذات الحياة المادية . ففرض كاتون ، دون جدوى ، العقوبات الصارمة ، خلال اعتلائه منصب قضاء الاحصاء في السنة ١٨٥ - ١٨٤ ، مخمناً على النساء وعرباتهن وعبيدهن الشبان الباهظي الثمن بما يوازي عشرة اضعاف الثمن الحقيقي وفارصاً

على رأس المال ، المقدر على هذا الاساس ، ضريبة توازي ثلاثة اضعاف الضريبة العادية . وحاولت القوانين « التقتيرية » ، دون جدوى ايضاً ، اصلاح الاخلاق بالحد من الانفاق . ويطول بنا الكلام بسردها كلها ، ابتداء من قانون اويوس الهامى عن حقوق الشعب الذي سن بعد كارثة « كانا » والغى بعد سبع سنوات من الانتصار على قرطاجة على الرغم من معارضة كاتون ، القنصل آنذاك ، حتى قانون الدكتاتور قيصر ، وجميعها اربية في تفصيل ما منعه بصدد بهرجة النساء او الافراط في الانفاق على الولايم او بصددهما معاً ، ولكنها جميعها بدون جدوى ، اذ يكفي تكرارها لاثبات ذلك . اما منذ القرن الاول ، فقد غدا البذخ احد توابع مرتبة اجتماعية معينة : فقد درج شيشرون مثلاً على مداعبة صديقه اتيكوس بسبب اعتداله المفرط . وكاث من الواجب امتلاك فندق خاص وحدائق في روما وبيتاً مزداناً بالتأثيل وزرائب للحيوانات وبيوتاً للطيور في مناطق مختلفة من ايطاليا ، وحتى على الشاطيء الكبشاني الذي يقصده المجتمع الرفيع صيفاً . كما كان من الواجب اقتناء جمهور كبير من العبيد الشخصيين وامناء السر والحوذيين والخدام : فقد اعتبر رؤساً متناهياً ان يضطر بومبيوس الهارب الى حل سبور حدائه بنفسه ، وقد اففق شيشرون ، خلال خمسة اشهر من السنة ٤٤ ، ما يعادل ٥٠.٠٠٠ فرنك (١٩١٤) للمحافظة على مستوى معيشته الخاصة .

ليس من ريب ، من جهة ثانية ، كما شكنا من ذلك المعجبون بالتقشف القديم ، في ان عدوى هذه الاخلاق الجديدة قد اضرحت احياناً بالدولة ؛ ولن نشدد على الفجور والزنى والطلاق الذي انتشر ، خلال القرن الاول ، في صفوف الطبقة الحاكمة : لم يكن الرومان الاقدمون ليهتموا بطهارة الذكور ، وقد بدا تحرر النساء بنتائج اخرى كثيرة لن يرضى احد اليوم بان يثور ثأره عليها ؛ وعلى الرغم من الاشتماز الذي ولدته بعض الفضائح ، فقد برهنت هذه الارستوقراطية ، في الحروب الاهلية ، انها لم تكن متخنة قط وان الكثيرات من نساءها قد تحلن بصفات الرجولة . ولكن وجه استخدام المال قد اسهم في الاساءة الى نظام في طريق الانهيار . فقد ازداد الانفاق في سبيل التوصل الى مناصب القضاء ، لا سيما وانها تقود الى وظائف تسهل معها اعادة بناء الثروة المفقودة ومضاعفتها . وقد درج نظار الابنية والملاعب على زيادة المبلغ الذي يخصصه مجلس الشيوخ للالعاب العامة فتنافسوا في تنظيمها ببذخ مبتكر : فكان من قيصر مثلاً ، في السنة ٦٥ ، ان وضع برنامجاً لتبارز ٣٢٠ زوجاً من المسايين ، المجهزين جميعهم بدروع فضية . وكذلك فان كل انتخاب ، على الرغم من قوانين غير نافذة تشبه بعدم جدواها القوانين « التقتيرية » ، قد افضى الى افلات الديسمة من قيودها بشكل افساد مخز ، في الغالب ، لعب دوره في الدعاوى ايضاً بشراء المحلفين .

الافساد السياسي
والديون

فلا غرابة والحالة هذه ان يلجأ كثيرون ، بعد انفاق دخلهم على الرغم من ضخامة ثرواتهم ، الى قروض تضمنها املاكهم ولا سيما ، في الواقع ، الثقة التي يوحياها مستقبلهم السياسي . اجل ان

شيشرون لم يعر الشؤون المالية عناية كبرى ؛ ولكنها ، طيلة حياته ، لم تترك له مجالاً للراحة ، في حال ان ممتلكاته يمكن ان تقدر بما يوازي ٧ ٥٠٠ ٠٠٠ فرنك تقريباً (١٩١٤) . وقد اعترف قيصر ، قبيل سفره الى احد الاقاليم الاسبانية الذي أسندت ولايته اليه بعد انتهاء سنته في منصب القضاء ، بأن ديونه تفوق كل ما يملكه بما يوازي ٦ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنك ، مما حدا بدائنيه لأن يعضوا في الاعتراض على مغادرته روما حتى الساعة التي كفل فيها كراسوس هذه الزيادة . وتكفي هذه الامثلة التي يسهل علينا تأييدها بكثير غيرها لإظهار ركافة مثل هذا النظام القائم على الدين . فاذا ما انفجرت ازمة وألقت الرعب في قلوب الدائنين وحملتهم على رفض تجديد القروض وعلى إنذار المدينين بالدفع ، حصل انهيار شطر كبير من الارستوقراطية يزيد من خطورته انخفاض اسعار الممتلكات العقارية المعروضة للبيع . ويتضح بالتالي ان كثيرين من غير الفقراء قد ثقلت عليهم وطأة الديون ، وان تيارات الثورة الاجتماعية التي خلقها هذا الوضع الوخيم ، « بمؤامرة » كاتيلينا في السنة ٦٣ وحتى « أثناء دكتاتورية قيصر » قد جمعت أكثر من مناصر ، ورؤساؤها انفسهم من افضل الطبقات العليا : « جمهور من الرجال الغارقين في الديون » ان لم يكن في جميع الجرائم التي اسرع شيشرون ونسبها اليهم .

وكان كل ذلك ابعد من ان يدعم الطبقة الحاكمة والنظام .

٢ - الثورة الاقتصادية

ان الوقائع التي اوردها أعلاه تعود الى القرن الاخير من العهد الجمهوري بنوع خاص : فالدهاء الذي كشفت عنه قد ارتدى اذ ذاك مزيداً من الخطورة . ولكن اعراضه قد برزت قبل ذلك لأنه النتيجة المباشرة للثورة الاقتصادية التي فجرتها الحروب الظافرة والفتوحات .

١ - جمع رؤوس الاموال في ايطاليا

غدت روما شيئاً فشيئاً سيّدة شبه الجزيرة الايطالية فاتسع أفق علائقها التجارية . وقد توجب عليها ان تعوض عن نقص انتاجها الزراعي باستيراد الحبوب من الخارج . وتوجب عليها ايضاً ، اقله لتسليح جنودها ، ان تضاعف مصنوعاتا او تتوفق الى اقناع من يعمل لحسابها في المناطق الأخرى . وفي الواقع قامت في ايطاليا اقاليم اخرى أعظم خصباً وتقدماً تقنياً من « اللاتيوم » : اتروريا (الأتروسك) وكبانيا واليونان الكبرى . فلجأت روما اليها منذ عهد مبكر ، أي زمناً طويلاً قبل اوائل القرن الثاني التي شهدت اخضاعها لسهل « البو » الخصب اخضاعاً نهائياً . وهكذا زادت حاجاتها وعملها بفضل الوحدة الاقتصادية في شبه الجزيرة التي سبق للتوسع الاتروسي والتجارة اليونانية ان مهّدا لها تمهيداً عريضاً . وقد سبقت هذه الوحدة الاقتصادية في الزمن الوحدة المعنوية التي خيبت متانتها آمال هنيئيل . ومن حيث ان الواحدة دعمت الأخرى ، فقد حصل شيبليون من المدن

احتلال ايطاليا وتوسيع مصالح روما الاقتصادية

الأتروسكية على مؤن هامة وتلقائية من المنسوجات والعتاد والحديد والاسلحة على انواعها فجهز الاسطول والجيش المعدن لمحلته على افريقيا في السنة ٢٠٤ ، ولا ريب في ان اتروريا قد امتلكت آنذاك قوة صناعية وضعتها تحت تصرف روما . ولكن ليس مدهشاً ان تجمع في ذاك التاريخ بين قضيتها وقضية الرومان لأنها ارتطبت منذ امد بعيد بجهاز المحالفات الذي أقيم في ايطاليا . فالمدش المدهش هو الوضع السابق للوحدة المعنوية حين لم يكن لدى روما شيء تعوض به عما يأتيها من الخارج . وقد يجوز الاعتقاد بأن قوة روما العسكرية ، منذ القرنين الخامس والرابع ، قد وفرت لها ، بفضل الغنيمة والاحتلال ، المساعدة الضرورية ، ويقول التقليد بأن المرتب العسكري قد اقر إبان حصار « فييس » (Véies) الطويل ، الذي يغلب انه استمر من السنة ٤٠٦ حتى السنة ٣٩٦ ؛ ولم يكن من المستطاع اقراره لو لم تتصرف روما بموارد يستحيل على غير الحرب وحدها ان تؤمنها في ذاك الوقت .

جنت روما بالتالي في عهد باكر ، فائدة مادية من انتصاراتها ، بيد انه يغلب على الظن ، من حيث وصايتها ، التي اتصفت بالحزم والتفهم والعطف في آن واحد ، انها لم تهمل مصالح اولئك الذين يصبحون رعاياها او محبيها . فلم تخرج عن حدود معتدلة في استثمار ثرواتهم المكسدة وموارد الطبيعية وامكانات نشاطهم البشري . وقد سارت حياهم — وكان ذلك عاملاً حاسماً في تكوين وحدة ايطاليا المعنوية — على سياسة تعاون اقتصادي جزيل النفع للجميع . فكان من واجبهام مثلاً الحرص على استمرار علائقهم التجارية التي لم تخل من النشاط فيما يتعلق بالأتروسك او الاغريق . وقد قامت به خير قيام كما يتضح من معاهداتها الاولى مع قرطاجة او من الحروب التي خاضت غمارها ، في النصف الثاني من القرن الثالث ، ضد القرصنة الليبرية المضرة بسلامة البحر الادرياتيكي والبحر الايوني . ولكنها لم تبق هي نفسها بعيدة عن تلك النشاطات التجارية التي لم يفت مواطنيها الاسهام فيها برؤوس اموالهم وبأشخاصهم . ولم يؤلف هؤلاء يوماً ، كما حدث لشعوب فاتحة اخرى ، ارستوقراطية من المنتصرين عاصمة في تنظيمهم العسكري ومقتصرة على مراقبة المغلوبين . فلم تخل صفوفهم من رجال الاعمال الذين ارتفع عددهم باطراد . اجل ان مستنداقنا لا تتيح لنا تتبع هذه النجاحات . بيد انه من الواضح ان فتوحات روما الايطالية قد جعلتها تهتم بالحياة الاقتصادية في العالم المتوسطي ، وهي حياة قطعت اشواطاً بعيدة في التطور . وانها اقتطعت فيها لنفسها مكاناً مطرد الاتساع .

ولنا في تاريخها النقدي الادلة المقنعة على ذلك على الرغم من الشكوك التي تحيط بهذا الموضوع ومن الخلاف بين علماء المسكوكات القديمة . فلم تبدأ روما الا في عهد متأخر نسبياً في ضرب المسكوكات الحقيقية ، ولم يحدث ذلك قبل القرن الرابع . ولم تضرب آنذاك سوى المسكوكات البرونزية . وحين بدأت في ضرب الفضة ، في اوائل القرن الثالث كما يغلب على الظن ، انما حصل هذا الضرب في كمانيا لا في روما حيث تأخر حصوله حتى السنة ٢٦٨ . ثم حدثت بعض

الاضطرابات بسبب النفقات الباهظة التي اقتضتها الحربان البونيقيتان الاوليان ، واستقر النظام النقدي الروماني في اواخر القرن الثالث او اوائل القرن الثاني . فارتكز الى الدرهم الفضي اساساً الذي يزن اربعة غرامات تقريباً اي انه يوازي عملياً الدرهم الاوسع انتشاراً في العالم اليوناني ، الدرهم الاثيني الذي اعتمده الملوك المقدونيون . ولم يضرب الذهب الا في ظروف استثنائية . اما البرونز الذي كان « الآس » *As* ، وحدته الاساسية ، وعادل في النهاية ١/١٦ من الدرهم ، فقد فقد اهميته الماضية .

على الرغم من إيجاز هذه العجالة ، يظهر هذا التطور الانتقال التدريجي ، البطيء جداً حتى القرن الثالث ، والسريع نسبياً بعد ذلك ، حين أمنت روما سيادتها على ايطاليا ، الى اقتصاد اقل انكشافاً يمتد شعاعه باستمرار . فأحس الملاكون الريفيون ، الذين تألفت منهم الطبقة الحاكمة ، بمصالح جديدة ، وفي المشاغل التي أقامتها في وجههم فتوحاتهم الايطالية ، لعبت المدن اليونانية في ايطاليا الجنوبية دوراً دونه دور سكان جبال الابنين الشكسين .

فماذا حدث يا ترى حين اصبحت روما ، بفضل توسع افقها السياسي استثمار فتوحاتهم
والعسكري ودبلوماسيتها وانتصاراتها منذ « زاما » لا سيدة ايطاليا خارج ايطاليا
فحسب بل سيدة كل الحوض المتوسطي ، وحين وجدت في نفسها القدرة ،
المباشرة او غير المباشرة ، على تشجيع او خنق كافة المراكز الكبرى لحياة اقتصادية نشطة
وازدهرت منذ زمن بعيد ، كقرطاجة مثلاً ولا سيما بلدان الشرق الهليني ؟
ان سلوكها ليغني مفاجأة كبرى للؤرخ .

فهي ، حتى عندما بدت انتصاراتها وكأنها وضعت ايطاليا في مأمن من خطر الغزو ، لم تدخل أي تبديل في الأساليب التي اعتمدتها حيال شعوب شبه الجزيرة . اجل ليس هنالك من مجال ، على الصعيد القانوني وحتى العملي احياناً ، بصدد توزيع المغنم على الجيش مثلاً ، للكلام عن شراكة على قدم مساواة تامة بين مواطنيها والايطاليين غير المواطنين . ولكن هذه التمييزات ، مهما بلغ من ثقلها على اولئك الذين تألموا من وضع متدنٍ ، لم تتناول الجوهر ، اقله في الحقل الاقتصادي . وحتى قبل ان تمنح روما حق مواطنتها للجميع ، درج سكان الاقاليم والاجانب على اطلاق اسم « الرومان » ، دون أي تمييز آخر ، على المواطنين وغير المواطنين شرط ان ينتسبوا الى ايطاليا : فقد كان هؤلاء واولئك ، في الواقع ، شركاء في الاستثمار المالي والاقتصادي الذي اخضعت له الفتوحات الجديدة .

بيد ان الجدة هي في ما يلي : ان كل الشعوب وكل الاقاليم خارج ايطاليا ، بما فيها صقليا مع انها قريبة من شبه الجزيرة ومأهولة بسكان من الاغريق أو المستقرقين لا يتميزون عن سكان اليونان الكبرى ، قد خضعوا لنظام آخر . ولم تمر الحرب عليهم مرور العاصفة فحسب بما يرافقها من شدة محتومة وانفلات غرائز . فقد استمر النهب ، بعد عقد الصلح ، باعتماد الوسائل الرسمية

او غير الرسمية التي كان لها من الرواج والاستمرار ما جعل المستفيدين منها يعتبرونها قانونية .

فما هو مردّ هذا التناقض ؟ ان المفاجأة ، والحق يقال ، اذا ما نظرنا الى تاريخ العصور القديمة – وقد برهن أكثر من استعمار معاصر عن تعامٍ مماثل – حيث استسلم المنتصرون لجشع مغر لا يعرف للشفقة معنى ، قد تنشأ خصوصاً عن معاملة الايطاليين معاملة ممتازة . فقد قامت روما حيالهم بشيء جديد كان مقدمة لعملها الاكبر في عهد الامبراطورية .

ولكن ما يلفت الانظار انها حصرت ، في العهد الجمهوري ، تصميمها على التعاون الاقتصادي ، في ايطاليا دون غيرها . وكان من الممكن ان تفسر ذلك بتضامن عنصري لواعٍ لو انها لم تشمل بهذا التصميم اغريق اليونان الكبرى انفسهم ، دون حاجة منا للكلام عن الاتروسك الذين امتزجوا منذ عهد بعيد بحياة شبه الجزيرة : فلماذا ادخلتهم فيه يا ترى واقصت عنه اخوانهم في صقليا ؟ لا ريب في ان تحقيق الوحدة المعنوية السابق قد أسهم في ذلك : فقد تكون – على غير اكتمال – شعب ايطالي اكثر منه روماني أفضى به وعيه للتضامن الى احتقار الآخرين احتقاراً انانياً والشعور بأن كل شيء جائز حيالهم . ويجب ان تأخذ بعين الاعتبار ايضاً ظروف الفتح العسكرية وتشكيل الجيوش المعروفة بالرومانية مع ان نصفها « حليف » اتي ايطالي ، في حال ان سكان الاقاليم والاجانب ، في العهد الجمهوري ، لم ينخرطوا فيها إلا بنسبة ضئيلة جداً . ويجب ان نفكر اخيراً ، وربما خصوصاً ، بالتبدلات السيكولوجية ، الفردية والجماعية ، التي أحدثتها امتلاك الثروات الاولى . فأثار الذهب شهوة مفرطة للذهب ، اما مذاق البذخ ، فبالاضافة الى انه لا يعرف القناعة ، فقد امتد الى طبقات اجتماعية اعظم اتساعاً . وأية وسيلة لتحقيق الثروة أسير من تعرية أولئك الذين اجاز قانون الحرب معاملتهم وفقاً لهوى المنتصر ؟

وبما لا ريب فيه ، بهذا الصدد ، ان الانحراف الحاسم قد سببته الحروب الظافرة العظمى التي دار رحاها ، خلال النصف الاول من القرن الثاني ، حول شواطئ بحر ايجه . فقد وجد المنتصرون انفسهم هناك امام ثروات طائلة كدستها اجيال لا تحصى في مناطق نعمت بحضارة قديمة تفوق ما غنموه في افريقيا حول قرطاج . فلم يقاوموا التجربة ، وكان ما جموه نقطة انطلاق لإثراء ايطاليا المدهش بما ولّته من رغبة في الاستزادة . وليس ما يشبه هذا الحدث ، في تاريخ حوض المتوسط القديم ، سوى مصادرة الكنوز الفارسية على يد الاسكندر . فقد وفرت هذه المصادرة للمنتصر ثروات اعظم شأنًا ، وتمت في وقت اقصر ، اذ انها لم تتطلب خمس سنوات . بيد انها جرّت الى نتائج اقل تأثيراً . ومرد ذلك في الدرجة الاولى الى ان القسم الأكبر من هذه الكنوز كان مجمداً بشكل سبائك مفرغة في خواب مخبأة في دهايز القصور الاخيمينية : فكانت النتيجة ان البزل من ممتلكات السكان كان خفيف الوطأة . ومرد في الدرجة الثانية الى ان الكسب من هذه المصادرة قد توزع جغرافياً توزيعاً اعظم اتساعاً : واذا ما عاد بعض الجنود القدماء والموظفين وغيرهم من الاغريق بقسم كبير منه الى اوروبا ، فقد استقر كثيرون غيرهم

نهائياً في البلدان المحتلة ، فوثب النشاط الاقتصادي في هذه البلدان ، بفعل وجودهم ورؤوس الاموال التي وضعوها في التداول ، وثبة عظيمة جذباً الى الامام . اما الفتح الروماني فلم يحدث فيه شيء من ذلك . فهو قد استولى على الثروات الحية والمتداولة والثروات المكنتزة على السواء . كما انه قد ادى الى انتقال تدريجي وشامل نحو منطقة واحدة هي شبه الجزيرة الايطالية حيث مالت طبعاً الى التجمع رؤوس الاموال المنتثرة حتى ذاك الحين في كافة أنحاء الحوض المتوسطي . ولم يعرف مثل هذا التجمع سابقة مماثلة بالاتساع الذي بلغه آنذاك ، كما ان الحدث الاقتصادي الذي يمثل لم يتكرر مراراً فيما بعد .

لقد تم الانتقال وفقاً لكيفيات مختلفة . كان بسطها الغنيمة التي الغنيمة وتعويضات الحرب يعود بها القادة ويدفعونها الى الجزانة العامة بعد عرض الموكب الظافر والغرامات و«الاملاك العامة» الذي قد يستغرق وقتاً طويلاً . وكثيراً ما يحدث ان تتضمن مصادرنا بيانات مفصلة بها ، تتفاوت كمالاً وصحة على كل حال . وقد يكون من الممل ان نستشهد بكافة الاحصاءات المعروفة . فلنقتصر اذن على معطيات هي في الوقت نفسه شاملة - اذ انها لا تتناول مواكب النصر التي تلت الحملات الاسيوية على الملك السلوقي والغلاطيين والحملات الاسبانية والايطالية الشمالية - وجزئية ، اقتبسناها عن دراسة بصيرة جداً . فبين السنة ١٩٤ والسنة ١٦٦ بلغت الغنيمة التي اسفرت عنها الحروب في شبه الجزيرة اليونانية فقط ، ذهباً مسكوكاً او فضة مسكوكاً او ذهباً وفضة قابلين للسك فوراً ، قيمة تناهز السبعين مليون درهم ، اي ما يوازي سبعين مليون فرنك (١٩١٤) . وفي هذا المجموع تمثل غنيمة بولس اميليانوس الذي قضى في «بيدنا» ، في السنة ١٦٨ ، من الملكية المقدونية ٥٢ ٥٠٠ ٠٠٠ درهم .

واضيفت الى الغنيمة التعويضات المفروضة على المغلوب لاستيفاء نفقات الحرب التي تحملها المنتصر . وكانت هذه التعويضات تشمل عادة مبلغاً يدفع حين عقد الصلح من الممكن ان يحتل مركزه في الغنيمة الظافرة وعدداً مختلفاً من الاقساط السنوية : ٢٠٠ ٠٠٠ درهم دفعتها قرطاجة كل سنة ، طيلة خمسين سنة ، بعد معركة زاما ؛ و ٦ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم دفعتها الملكية السلوقية سنوياً طيلة اثنتي عشرة سنة بعد السنة ١٨٨ ، الخ .

لم تفرض هذه التعويضات الا على الدولة التي تحافظ على كيانها القانوني بعد نهاية الحرب . اما الدول الاخرى فكانت تفرض عليها الغرامات السنوية التي تعتبر دائمة . لا بل ان روما لم تتردد في فرض غرامة قيمتها ٦٠٠ ٠٠٠ درهم على مجموع الجمهوريات الاربع التي نظمتها في مقدونيا بعد «بيدنا» مع انها منحتها ، لمدة عشرين سنة ، استقلالاً سريع الزوال ؛ ولكنها لم تفرض الغرامة في الظروف العادية الا على الاقاليم التي تمارس حيالها سيادة حققتها بالنصر : وقد رمزت هذه الفريضة الى حقوقها المطلقة ، كما مثلت الغرامة ، من جهة ثانية ، القسم الاكبر من الضرائب التي تحصلها من اراض تعود اليها . وقد حدد قيمتها وتفاصيل جبايتها القانون الذي ينظم البلاد

ولاية . وغالباً ما استوحى القانون ، بصدد هذه القيمة وهذه التفاصيل ، الوضع السابق للفتح ، اذ ان الغرامة عادة قديمة واساسية من عادات الدول القديمة ولا سيما الملكيات منها . فلم تأت روما بمجديد ، كما انها لم تهتم للتوحيد بنوع خاص . بل حاولت ، رغبة منها بسلوك اسهل السبل واقصرها ، الاستفادة الى اقصى حد مما كان قائماً قبلها واعتاده رعاياها الجدد . لذلك فان الغرامة قد ارتدت اشكالاً متنوعة . ففي الشطر الاكبر من مدن صقليا ، وبفضل الإبقاء على القوانين التي منها ملوك سيراكوزا ، تألفت الغرامة كما في السابق من ضريبة عينية توازي ، بعد مراقبة البذار والحصاد ، عشر محاصيل الارض من حبوب ونبذ وزيت وبقول . اما في الجمهوريات المقدونية الاربع ، على نقيض ذلك ، فكان لزاماً ان تدفعها نقدا طوائف السكاك التي توزعها وتجيئها كما يطيب لها ، وهي لم تمثل في مجموعها ، على كل حال ، سوى نصف الضريبة التي كانت تجيئها الملكية الزائلة .

وكانت روما اخيراً ، عند الاحتلال ، تضع يدها على ممتلكات الدولة او الملك الذين تحمل محلها . وقد شملت هذه الممتلكات على العموم ، بالإضافة الى الاملاك العقارية ، اهم المناجم والمهاجر والاحراج والملاحات . وهي كثيراً ما ضمت اليها ما تصادره من الجماعات والافراد الذين تصمم على معاقبتهم بسبب موقفهم منها . فأنشأت بالتالي ، على غرار ما فعلت في ايطاليا ، « أملاكاً عامة » (*Ager Publicus*) شاسعة ومتنوعة جداً ووافرة الدخل احياناً كانت هي تنشط في تنظيم ادارتها . ففي اواسط القرن الثاني تطلبت بعض مناجم الفضة في ضواحي قرطبنة في اسبانيا ٤٠٠٠٠ عامل وأدخلت عليها ٢٥٠٠٠٠ درهم يومياً . ولم يمض مجلس الشيوخ طويلاً في ريبته من الملتزمين التي جعلته في البدء يمنع العمل في مناجم الذهب والفضة في مقدونيا ويحصر بعد ذلك عدد العمال في مناجم الذهب في ايطاليا الشمالية .

اتيح من ثم لروما ، بفعل الغرامات واملاكها العامة ، ان تتلقى سنوياً من ولاياتها ، بعد ان تزايد عددها ، كمية اجمالية ضخمة من الخيرات . بيد ان كل ذلك ، لا سيما الغرامة بمجد ذاتها وبعض الرسوم غير المباشرة ، الضئيلة اجمالاً ، والمعدة لاكلها ، لم يشكل اوقاراً لرعاياها الاقليميين : فالنهج الذي جعل الاستثمار عبئاً لا يطاق قد لجأ الى طرق اخرى .

الاستثمار الخاص
ادار مجلس الشيوخ روما ادارة حكيمة فكنزت بصورة خاصة الذهب الذي لا يسك في الظروف العادية ؛ بيد ان القسم الاكبر من هذه الموارد كان يلقي في التداول بفضل انفاق الدولة والمرتببات العسكرية ونفقات الاشغال العامة والمعبادة . فانتقلت الموارد بالتالي من الجماعة الى الافراد مضافة الى الفوائد التي جناها المواطنون من الغاء ضرائهم المباشرة وبيع القمح بسعر منخفض وتوزيعه مجاناً بعد ذلك . ولكن استثمار الافراد المباشر للفتوحات والولايات قد اتسع اتساعاً غريباً .

وكانت هنالك ، كما هو بديهي ، وفاقاً لما درجت عليه الجيوش آنذاك ، غنيمة الجنود الفردية

تضاف اليها ، بصورة عادية منذ اوائل القرن الثاني ، المنح التي يهبها القائد جميع جنوده لمناسبة موكبه الظافر . وترينا احدى الحوادث الطريفة الجنود الرومانيين انفسهم يستفيدون من مشتاهم لاستثمار قنوتهم بالمراباة المحدودة والتجارة على نطاق ضيق مع الاجانب . وليسوا في الحقيقة ، مع التجار الثانويين ، بن فيهم مشترى الغنائم البشرية المعدة لاسواق الرق ، الذين يسرون دائماً وراء الجيوش ، سوى مقدمة جيش لجب من التجار والمضاربين الذين يتوافدون على البلاد فور تهدئتها .

انتمى هؤلاء الى كافة الطبقات الاجتماعية - باستثناء الشيوخ - فكان منهم المواطنون الرومانيون و « الحلفاء » الايطاليون والاحرار والمعتقون ، فيعملون لحسابهم الخاص او يمثون شركات كبرى ، ويستوردون او يصدرون ، مستعدين في الواقع لشراء كل شيء ونقل كل شيء وتسليف كل شيء بغية استلاب كل شيء . وغدت جزيرة ديولس الصغيرة الواقعة في قلب بحر ايجه والمعادة الى اثينا في السنة ١٦٧ ، شرط ان تجعل منها مرفأً حراً ، احدى قواعد عملياتهم الرئيسية في الشرق وغيره حتى اليوم الذي امر فيه ميتريدات بتقتيلهم وبنهب الجزيرة في السنة ٨٨ . وقد وقفنا بواسطة الكتابات على نشاطاتهم المختلفة ، وثروتهم التي تثبتها الأبنية التي شيدوها ، وجمعياتهم بشكل اخويات دينية ، وتأثيرهم ايضاً على السلطات النظامية التي استولوا في الواقع على صلاحياتها . ومرد ذلك الى انهم ، في ديولس كما في غير مكان ، وحتى في البلدان الخليفة ، اصحاب اخاذات كانوا ام مستقلين حين يسمح لهم بالدخول اليها ، يحملون طابعاً مشتركاً على الاقل : فانهم يعملون في مأمن من نفوذ وقوة روما .

في عداد هؤلاء « التجار » يبرز عملاء جمعيات الملتزمين (*Publicani*) . جمعيات الملتزمين ويقصد بـ *Publicani* اولئك الذين يعنون بالـ *Publica* أي بشؤون الدولة المالية ، اولئك الذين تزمهم الدولة جباية وارداتها واستثمار أملاكها وتنفيذ مشاريعها وتأمين تموين جيوشها ، الخ . وينطبق الاسم في الواقع على كبار الملتزمين الذين يتوجب عليهم ايجاد جهاز كامل من الماعدين والقبول بتسليف اموال هامة : يفسر اتساع شؤون الدولة وتتكورها لانشاء ادارة لا تستلزم سوى الاستعانة بصغار الملتزمين ، كيف انهم بلغوا مكانة كبرى . وترادف الكلمة في الواقع كلمة « فرسان » ايضاً ، وهم الملتزمون الحقيقيون المنتسبون كلهم الى هذه الطبقة الاجتماعية والممثلون أوسع اعضائها ثروة .

وكان من البديهي ، المسلم به ابدأ ، ان يقصى الشيوخ وأبناءؤهم عن الالتزامات من حيث ان رقابة وإدارة الاموال العامة شكلتنا إحدى صلاحيات المجلس الرئيسية . وقد حظر عليهم بالإضافة الى ذلك اقتناء مراكب يزيد عمولها عن ثلاثمائة قارورة أي ثمانية اطنان تقريباً . وقد اتخذ هذا التدبير قبيل الحرب البونيقية الثانية في مرحلة الصراع بين « الشعبين » و« الافاضل » . ولم يبلغ التدبير حق في اوج النظام المجلسي لأنه يتفق اتفاقاً تاماً وبعض العقائد الراسخة في روما ،

كما رسخت من قبل في اليونان ، التي اعتبرت كل نشاط تجاري امراً معيباً . وفي الواقع ما كانت التجارة البحرية الواسعة - لم يكن هناك من تجارة كبرى سواها - لتكتفي بهذا الحد الأدنى من الحمول ، فحظرت ، عن طريق هذه المداورة ، على غرار تلميحات الدولة ، على الشيوخ وابنائهم . فكانت النتيجة ان هاتين الطريقتين لتوظيف رؤوس الاموال الخاصة ، وفي كليهما بعض المغامرة مع انهما وفيرا الارباح في حال النجاح ، غدتا وكأنهما وقف على اوسع المواطنين ثروة بعد الشيوخ ، أي على الفرسان .

ولم يفت ذوي الاقدام بين هؤلاء ان يستفيدوا من ذلك . فتوجب عليهم العمل المشترك بغية جمع المزيد من رؤوس الاموال وتقاسم الاخطار ، وخصوصاً بغية توسيع إطار التأثيرات الاجتماعية والسياسية التي قد يكون استخدامها مفيداً . ويعود اقدم توحيد للمصالح في سبيل مفاوضة الدولة ، على ما نعلم ، - وقد جرى ذلك بمناسبة دعوى في موضوع ضرر مقصود ألحق بأحد مجهزي السفن - الى الحرب ضد هنيبل . ثم تألفت جمعيات قانونية نعرف الشيء الكثير عن تنظيمها في القرن الاول . فهي ترتدي مظاهر أشبه بما ندعوه اليوم مجلس الادارة والمدير العام والمساهمين والمتهمدين : فقد اقتضى الحرص على توفير ادارة حسنة البحث عن الحلول المبتكرة . بيد اننا لا نعلم شيئاً عن عدد هذه الجمعيات ، واننا نرجح ان جمعيات سريعة الزوال قد تألفت للالتزامات الطارئة كتشييد الأبنية مثلاً . اما بصدد الالتزامات الكبرى ، كمناطق المناجم او ضرائب الولايات ، فلا ريب في ان عمل الجمعيات المجهزة كان دائماً في الواقع لا يتواجد لوازمها وموظفيها في امكنة الالتزام لا يترك مجالاً لأية منافسة .

يضع قضاة الاحصاء دفاتر الشروط ويجرون التلخيصات لمرحلة السنوات الخمس القادمة ، ولكن عوامل كثيرة تفضي الى تخفيض واجبات الملتزمين ، وليس التشدد الذي يبدىه كاثول اثناء ولايته ، على الرغم من تدخل مجلس الشيوخ « الذي نزل عند توسلات ودموع الملتزمين » ، سوى تشدد استثنائي وعابر . وليس من جهة ثانية ما يمنع الجمعيات من القيام بنشاطات اخرى الى جانب النشاط الذي تتحمل مسؤوليته أمام الدولة . وان في ذلك لفائدة لها لأنه يؤمن استخدام عمالها ورؤوس اموالها استخداماً ابعد استمراراً . ولذلك فهي لا تتوانى عن القيام بها متعاطية الأعمال المصرفية بنوع خاص - وقد غدت عمليات تحويل النقود ونقل الأموال اختصاصاً من اختصاصاتها لأنها تؤلف بالنسبة لها واجباً اساسياً - والمراعاة ، ولا يتوانى بعضها على الأقل ، عند الحاجة ، عن تعاطي التجارة الواسعة . ولكن تعهد هذه الشؤون الخاصة جعلها تتداخل في الشؤون ذات الطابع العام وتستفيد من التسهيلات المتوفرة لهذه الأخيرة بفضل تنفيذ هذه وتلك في الاماكن نفسها وبواسطة الرجال انفسهم ورؤوس الاموال نفسها . وقد رأينا فيما سبق نقص الرقابة التي يستطيع ممثلو الدولة ممارستها حيال تصرفات رجال المال في الولايات .

تآزر من ثم عمل « التجار » والملتزمين . وعمل الدولة لادخال المعادن الثمينة الى ايطاليا

بكيات ضخمة . فنذ اواسط القرن الثاني ، وبفعل تيار ذي اتجاه واحد متزايد السرعة لا يقابله تيار آخر على بعض الالهية ، اتخمت شبه الجزيرة الايطالية برؤوس الاموال في حال ان المناطق الاخرى في العالم المتوسطي اخذت تفتقر لمصلحتها .

٢ - النتائج الاقتصادية

لم يحدث ما حدث دون نتائج اقتصادية تأثرت بها الولايات وايطاليا على السواء .

ان الشرق الذي بلغ ، قبل وصول الرومان بزمن بعيد ، درجة رفيعة من التطور عالم الولايات الاقتصادي ، قد تألم من هذا البزل اكثر من غيره . وهو قد استطاع ، في البداية ، ان يعوّض عنه بعض الشيء بفضل التقدم التقني في زراعته وصناعته اليدوية . انفتحت ايطاليا امامه سوقاً غنية بالمال ومتشوقة لارضاء حاجات جديدة ، في مصنوعات الفخفخة خصوصاً . وحولت الاسكندرية ورودس نحوها جانباً هاماً من تجارتها . ولم تعرف ديلوس يوماً الازدهار الذي عرفته ما بين السنتين ١٦٧ و ٨٨ ، اي في فترة انتشار التجار الايطاليين فيها بكثرة نادرة ؛ ولكن تفوق النفوذ الروماني ، اذا ما استثنينا مصر التي حال استقلالها المستمر دون اسوأ المظالم ، قد افضى منذ القرن الاول الى اواخر المواقب . فقد بيع في جزيرة ديلوس ، في يوم واحد احياناً ، حتى عشرة آلاف عبد يجر جلهم نحو ايطاليا . ولم يحصل ذلك دون ضرر . فقد اخذت ايطاليا تنتج بعض المصنوعات ، وهي لم تكف نفسها من بعض الاصناف فحسب ، بل صدرت بعضها الى الخارج ايضاً . فعمرت المصنوعات الشرقية الكساد بفعل اهلاكها بالرسوم وانكماش زبنها المحليين في اعقاب افتقار الارستوقراطيات القومية . وفي صقليا نفسها التي صدرت الحنطة زمناً طويلاً ، انثنى السكان عن العمل : لم تكن الجزيرة ، في اواخر العهد الجمهوري لتستطيع ان تلعب الدور الذي لعبته في توين روما خلال القرن الثاني . فاصيب الشرق كله ، قبيل الحروب الالهية ، بتقهقر اقتصادي اعتبره بعضهم داء عضالاً .

كان الغرب احسن حالاً لانه كان ابعد تخلفاً : وقد بقي فيه اثر الاغريق والقرطاجيين التبروي محدوداً . وهو قد ضم اكثرية كبيرة من البلدان الجديدة التي اخذت روما تحت على استثمارها ، مدخلة اليها رؤوس الاموال وتجهيزات الانتاج والتقنيات . وقد اقدمت على ما اقدمت عليه بدافع اثنائي محتفظة لنفسها بالقسم الاكبر من الارباح ، وبالارباح كلها احياناً ، كما فعلت في مناجم اسبانيا مثلاً . ولكن بعض هذه البلدان اخذت تحتل مركزها في الاقتصاد العام للعالم المتوسطي : غالباً الناربونية ، قاعدة العمليات التجارية المثمرة في اتجاه غالبا المستقلة ، وخصوصاً اسبانيا . فأفادت من ذلك عناصر غربية قامت فيها قبل روما وعناصر قومية ايضاً : ويبدو ان مرسيليا وقادش عرفنا آنذاك ازدهاراً اعظم منه في السابق .

فما هو المستقبل الذي سينتظر الغرب اذا ما استمر النظام الروماني في التغاضي عن هؤلاء

« التجار » ، هؤلاء « الرجال المحترمين جداً » ، الذين تولى شيشرون ، في اشارته الى ارتفاع عددهم في غالبا وفي قدسه في الغالين ، مديحهم وتقريظهم رغبة منه في الدفاع عن الحاكم فونتيوس ، سنة بعد هجومه على الحاكم « فيريس » ؟

تبدل كل شيء في ايطاليا أيضاً .
ايطاليا :
الانتاج والمقايضات
يجب أن تتكيف الزراعة . فقمح شبه الجزيرة ، لا يستطيع منافسة الحبوب المستوردة ، إن لم يكن من غاليا ما وراء الألب بسبب الافتقار الى طريق ملاحية ، فأقله من صقليا وافريقيا ، ومن مصر أيضاً التي تتميز بانتاج أفضل ، ويرضى المنتجون فيها بمستوى حياتي أدنى . وضعت حرب هنيبل أوزارها في السنة ٢٠٢ : فبين السنتين ٢٠٣ و ٢٠١ بيع القمح في روما بربع سعره العادي ، وبيع في السنة ٢٠٠ بثمان هذا السعر . وستكررين آن وآخر الظروف الاستثنائية التي أدت الى هذا التدني . وحين تأخذ الدولة على نفسها ان تباع القمح بسعر منخفض وان توزعه بعد ذلك بالبحر ، تضطر الى الحصول عليه من غير مكان بفضل الغرامات المفروضة عيناً أو عن طريق الشراء بأسعار محدّدة متدنية جداً يعينها حكام الولايات . ولا يعد انتاج الحبوب عملية رابحة في ايطاليا ، فعدّل عنه المستثمرون بملء اختيارهم .

وجهاً من ثم عنايتهم الى تربية المواشي لأن الانعام يعسر نقلها مسافات بحرية طويلة ولأن لديهم عبيداً يسهل عليهم استخدامها 'رعاة' . ووجهوا عنايتهم بنوع خاص الى الزراعات التي تتطلب معارف خاصة : زراعة البقول في السباح وزراعة الأشجار المثمرة كالكرمة وشجرة الزيتون وشجرة التين . وقد دفعهم الى ذلك كل شيء . فهم يمتلكون رؤوس الأموال التي تتيح لهم الانفاق الضروري . وأظهر ارتفاع الثروة لدى المستهلكين أذواقاً أكثر تطلباً . واستفادت ايطاليا ، أخيراً ، في ما يعنينا ، من الخبرة والمعارف الزراعية الكثيرة التي حصل عليها الشرق الهليني وقرطاجة ؛ وبعد ان أصدر مجلس الشيوخ أمره بهدم هذه المدينة في السنة ١٤٦ ، حرص على ترجمة البحث الزراعي الذي وضعه القرطاجي ماغون . فكانت هذه الأساليب الجديدة موضوع دعاوة رسمية ساندتها الاختصاصيون الايطاليون في الزراعة منذ كاتون .

ظهرت جدوى مثل هذه الجهود بشكل واضح . فقد أنتجت خلال القرن الثاني خور جيّدة أشهرها خمر « فاليرنا » الكباني . ولكن الانتاج الرائج ، المتوسط الصنف ، كان أهم من المحاصيل البذخية . وقد بلغ من غزارته ، أن المسؤولين قد اهتموا لتصريفه ؛ فصدر قانون حظر بموجبه على البلديين ، حين تنظيم الولاية الناربونية ، زراعة كروم جديدة واشجار زيتون جديدة . بيد أن المعضلة لم تبرز بعد بكل خطورتها . فإن ما يحسن عمله ، كي تدرك هذه الزراعات دخلاً سريضاً ، هو أن يعنى الملاك بمراقبتها شخصياً ؛ اما الشاب الأرعن الذي يعوزه المال ، فعليه ، كما يزعم شيشرون ، ان يبيع كرومه ويحتفظ بأحراجيه . وقد بيع النبيذ

الايطالي في ديلوس نفسها ، وابتاعت غالباً المستقلة ، طيلة القرن الأول ، نبيذاً مستورداً من شبه الجزيرة . وإذا كانت هذه الأخيرة ، بسبب تقدم تربية المواشي ، قد اشتملت على مناطق ريفية الخفض عدد سكانها كثيراً ، فإنها قد اشتملت أيضاً على مناطق أخرى يلفت الانظار ازدهارها وتقدم الزراعة فيها . وقد خصص لها العالم الزراعي « فارون » ، وهو معاصر لقيصر ، صفحة شهيرة امتدح فيها بحرارة نوع منتوجاتها ؛ ويجب ألا ننظر الى هذا المديح نظرنا الى مجرد مغالاة أدبية : فإن الاكتشافات التي أجريت في كمبانيا ، حيث تنتشر في جوار بومبي « مقاصف » تفسر المعاصر وسقائف صنع الخمر شهرتها ، تؤيد هذه اللوحة ايما تأييد .

لم يختلف الوضع اختلافاً كبيراً في حقبة الصناعة . فالإيطاليون لم يحققوا أي اكتشاف حقيقي . وهم ، شأنهم شأن الإغريق ، لم يفكروا بابتكار الآلات ، وقد اكتفوا بتقنيات الصناعة اليدوية ، وأتاح لهم اتصالهم بالشرق تحسين تلك التي اعتمدها منذ أمم بعيد . وكان من شأن استيراد العبيد بأعداد لا تحصى ، وقد يفضل بعض الشرقيين منهم سيادهم على صعيد المعرفة ، أن ضاعف طاقات عملهم . فازداد الانتاج بالتالي ازدياداً عظيماً . وليست صناعة الكماليات ما وجهوا عنايتهم نحوها ، بل صناعة الضروريات الرائجة الاستعمال المنتجة بكيات كبيرة وبكلفة ضئيلة يمكن معها تصديرها حتى الى الشرق نفسه أحياناً . ولدينا عن هذا التقدم مثلٌ يميز توفره لنا الخزفيات التي نعرف عن صناعاتها القديمة ما لا نعرفه عن الصناعات الأخرى لأن حطامها لا يفنى . فقد اقتدي في البداية بالخزفيات « الساموسية » ببرنيقها الأحمر ونقوشها الناتئة ، ثم حلت محلها ، قبيل وبُعِيد العهد الميلادي الخزفيات المعروفة بـ « الأريثية » نسبة لـ « أريثيوم » (أريزو Arezzo) في اتروريا ، التي كانت المركز الأول لصناعتها . وقد صُدرت الخزفيات الكبانية أيضاً ، لا سيما نحو غالبا . ثم انضمت صناعة المعادن ، لا سيما الشبه ، الى الخزفيات ، لتجعل من اتروريا وكمبانيا أوسع المناطق الإيطالية نشاطاً .

كانت النتيجة تجارة ناشطة ، لم تكن الصادرات فيها كمية مهمة ، على الرغم من رجحان كفة الواردات . وقد مثلت الحبوب الجانب الأكبر من هذه الأخيرة ، بينما اشتملت الأولى ، بنوع خاص ، على النبيذ والخزفيات والمصنوعات المعدنية . ثم أُضيفت اليها تجارة المستودعات الوسيطة . قضت روما ، في السنة ١٤٦ نفسها ، على مركزين اقتصاديين هامين هما كورنثوس وقرطاجة . ولم تستطع إيطاليا ان ترث سوى قسط زهيد من تجارة كورنثوس التي يغلب انها توزعت على المرافئ الإيحية . ولجئنا ورثت تجارة قرطاجة ، أي ان التجارة ما بين البلدان الغربية تمت عن طريقها ، فلمعبت أيضاً ، بقدر ما استلزم ذلك افتقار الشرق ، دور السمسار بين حوضي المتوسط . ويفسر تعدد هذه العلائق نشاط المرافئ الإيطالية الذي برز في القرن

الاول بروزاً خاصاً في اثنين منها . اما الاول ، كما هو بديهي ، فثنائي روما - اوستيا عند مصب التيبر ، الذي استخدم في الدرجة الاولى لتموين المدينة ، لأن الصناعيين لا يعملون فيها للتصدير . وأما الثاني ، فهو بوتولي « Putéoli » (Pouzzoles) في كيبانيا ، وقد تميز آنذاك بنشاط واسع جداً ، وبالتوازن التام في تجارته ، فغداً مدخلاً ومصرفاً لمنطقة كثيفة السكان ، وذات اقتصاد متطور جداً .

يجب ألا نخذعنا بالتالي زفريات علماء الأخلاق القدامى . فإذا ما نظرنا الى شبه الجزيرة كمجموع ، نرى أن الفتوحات لم تسهم الى طاقات انتاجها ومقايضتها . فعلى نقيض ذلك دفعت بها الى الأمام بتزويدها ايطاليا باليد العاملة ورؤوس الأموال والتقنيات ، وبخلقها حاجات مجهولة تسعى بشق الطرق لإرضائها ، وبشدتها اليها شتى خيوط الحياة الاقتصادية العامة في العالم المتوسطي . أجل نحن لا ننكر أن هذا الازدهار الذي أوجده الانتصارات واستند الى القوة ينطوي على بعض الصنعة . وليس من شك في ان المنافسات الظافرة ستبرز حالما تخف الأعباء التي تشلّ الولايات ، وحالما يزداد تقدم بلدان الغرب الجديدة في الثقافة والتجهيز ، وهما شبه مفقودين آنذاك . ولكن السعة الاقتصادية ، في القرن الأخير من العهد الجمهوري ، واقع رامن .

تقدم لنا ، روما في ايطاليا النشيطة هذه ، المكتبة على الانتاج والمقايضات ، مشهداً مختلفاً كل الاختلاف . فالبطالة تزداد فيها باطراد يشجعها ، في وسط مالي كبير اوساط المواطنين ، سخاء الدولة والافراد الاثرياء . تمارس فيها الصناعة اليدوية ، ولا سيما صناعة المهن الحظيرة ، طبقة كادحة من العبيد والأجانب . ولكن هذه الطبقة لا تعمل للتصدير : فنحن أمام حوانيت خشبية ، لا أمام مصانع . ان روما تتعاطى الاستيراد فقط : منتوجات غذائية بكيات ضخمة لتغذية سكانها المتزايدين باطراد ، تأتيها من المناطق القريبة والبعيدة ، ومصنوعات ايضاً من شتى الانواع .

ولكنها تلعب مع ذلك دوراً رئيسياً في اقتصاد العالم الذي تسيطر عليه سياسياً : دور الوسط المالي المنظم الحركة ، وفي الواقع دور السوق الوحيدة لرؤوس الأموال . وهي تضطلع من ثم بمهمة لا سابقة لها ، لم ترثها عن أي مركز آخر ، لأن مدينة واحدة ، لم تجمع من قبل ، بالدرجة نفسها ، القسم الأكبر من الثروات القائمة في اطار على مثل هذا الاتساع . فاضطرت الى التجديد كما اضطرت الى تكيف أساليبها الدقيقة جداً ، وفاقاً لأهمية المصالح المواجهة واتساعها الجغرافي وبروزها في كل مكان ، ان لم يكن الى ابتكار هذه الأساليب ابتكاراً . ومن البديهي ان هذا التكيف كان في الوقت نفسه تدريجياً وأثالياً ، وتحقق وفاقاً لازدياد رؤوس الأموال الإيطالية ، ولمصلحتها دون غيرها ، بغية الاستفادة منها بدخل أفضل وبمكاسب جديدة ، دونها اهتمام - وهو اهتمام لم يزجج المستفيدين في أي مكان آخر - لشقاء أولئك الذين يدفعون أثمانها .

ولكنه على الصعيد التقني فكيف يلفت النظر بمرورته وتنوع أشكاله .

كانت شراكة رؤوس الاموال احد التجديدات الرئيسية ، اقله على هذا الصعيد . وقد سبق لنا ورأينا التنظيم الممتاز الذي أدت اليه بصدد جمعيات الملتزمين . وليست هذه الاخيرة سوى الطراز الرسمي الاول : كانت الدولة تعترف بها كل خمس سنوات وتحتاج ، في مفاوضاتها ، لمعرفة أسماء مديريها وأهم مساهميها . ولكن مساهمات أخرى كثيرة لم يعلن عنها ، وأشكال شراكة أخرى كثيرة ، كانت تعمل خارج الجمعيات المصرح بها . وعلى الرغم من المنع الذي استهدف الشيوخ ، بصدد الاموال العمومية والتجارة على السواء ، فلم يمتنعوا بـل اقرضوا الاموال واستخدموا المعتقن مستعيرين أسماءهم لهذه الغاية . وفيما يلي مثل فيه الدلالة كل الدلالة على مهارتهم ، لا سيما وانه غير مرتقب . فقد روى بلوتارك ان كاتون المتقشف نفسه اهتم للتجارة البحرية حائثاً دائنيه على تأليف جمعية قادرة على تجهيز خمسين سفينة وعاهداً الى احد المعتقن تتبع العمليات الجماعية حتى النهاية : وهكذا جعل توزيع المخاطر التجارية بواسطة القروض ، التي عرفها الشرق واليونان ، امراً أضمن الى حد بعيد من المغامرات الكبرى . وتعود هذه الرواية في وقائعها الى النصف الاول من القرن الثاني : فيمكننا بالتالي ان نتصور بسهولة ما اقدم عليه في القرن الاول رجال هم دون كاتون اخلاقاً .

والحقيقة هي ان رؤوس اموال كافة الطبقات الميسورة في جميع نواحي ايطاليا ، اي الشيوخ والفرسان وغيرهم ، قد اخضعت آنذاك الى حركة محمومة . فانطوى توظيف الاموال في العقارات نفسها على بعض مظاهر المضاربة لأنه انما يستهدف الدخل الوفير وارتفاع الاسعار . وقد عكف بعضهم على انتاج المأكـل والخمر النادرة المعدة لموائد ذوي الازواق الرفيعة . وضاعف كراسوس ثروته بتخصيصه ٥٠٠ من عبيده لتجارين وبنائين ، وباتباعه ، بشن نجس ، وابان الكارثة بالذات ، البيوت المجاورة لمركز احدى تلك الحرائق التي كثيراً ما اندلعت في روما القديمة . ومع كل ذلك فهو المال بالذات الذي آثروا الاتجار به عن طريق اقراضه لقاء ضمانات او عن طريق تشميله في شؤون متنوعة . وكانت الساحة العامة القديمة في روما ، الفوروم *Forum* ، مركز مصفق حقيقي يتفق فيه على القروض والديون ووثائق التحويل على الثروات البعيدة والمساهمات في المشاريع المالية والتجارية . وقد بلغ النظام من الكمال ما جعل العمليات تتم ، للقسم الاكبر من قيمتها ، بوثائق مخطوطة تجنب نقل المعدن الثمين نقلاً فعلياً الى مسافات بعيدة . ويعوزنا اليوم ما حفظته ارض بابل ووصل اليها احياناً عن عهود ابعد قدماً : المحفوظات الخاصة برجال الاعمال . لكن مراسلات شيشرون تشهد بتعدد الصلات بينهم والتسهيلات التي توفرها لزملائهم واصدقائهم وبأهمية المصالح التي يدبرون شؤونها . فاذا صح ان العالم القديم قد نظم وطبق تقنية المصرف الكبير في الاعمال ، فانما حدث ذلك في روما في القرن الاخير من العهد الجمهوري .

يبدو ان بناء على مثل هذا التعقيد لا يمكن ان يكون إلا سريع العطب بسبب التضامن الذي يوجد بين كافة عناصره . وقد برهن عن انه يتأثر بالشائعات : فما القول عن الاضطرابات والحروب الاهلية والصعوبات العسكرية ؟ وللأحداث البعيدة صداها الخاص اذا ما جرت في الشرق الأيحي ، أي في أغنى منطقة قوظف فيها رؤوس الاموال الايطالية . وان خطب شيشرون التي استهدفت ، في السنتين ٦٧ و ٦٦ ، تكليف بومبيوس مهمة تنظيف البحر من القراصنة وتولي الحرب بعد ذلك ضد ميتريدات بعد ان أخفق فيها لوكولوس ، قد صادفت في الزمان الاضطراب الذي ستكون « مؤامرة » « كاتيلينا » تنتهائ في السنة ٦٣ . وتظهر هذه الخطب الخطورة الحقيقية التي ينطوي عليها قلق بل ازمة تهدد بالخطر مصالح عظيمة ، متداخلة من أعلى السلم الاجتماعي الى اسفله : وليس من ريب في ان هذه الازمة هي التي خلقت هذا الاضطراب بتجميد رؤوس الاموال ومنع تشغيلها ، ان هي لم تقوضها ، وبجمل الدائنين على الاحلح في المطالبة بدينهم . ومنذ السنة ٥٠ ، ادت القطيعة بين قيصر من جهة ومجلس الشيوخ وبومبيوس من جهة اخرى ، الى ازمة مماثلة . فروما قد ضاعفت شجونها في الوقت الذي ضاعفت فيه ثروتها لأن الاطمئنان ليس نتيجة اقتصاد يتطور في هذا الاتجاه .

٣ - الطبقات الدنيا

كان للتطور الاقتصادي صدهاء في تكوين المجتمع وفي نشاطات ومصير طبقاته المختلفة . وقد قلنا ما يجب قوله ، بصدد الطبقة الحاكمة ، في مستهل هذا الفصل . فلا يزال امامنا سوى ما يتعلق بجمهور السكان الذين لن تمنعنا لامبالاة المصادر القديمة حيالهم من ترائي مصيرهم .

١ - الرق وحرب العبيد

كان من نتيجة الحروب الظافرة والاثراء الذي عقبها ان دخل ايطاليا عدد لا يعد العبيد محصى من العبيد . اجل كان هنالك عبيد منذ اقدم العهود : فقد استطاعت روما ، بعد « كانا » ، ان تجند منهم جوقتين . ولكنهم غدوا الآن جماهير غفيرة . وان قانون الحرب الذي تمشى عليه كافة المتحاربين - اصبحت بعض اسرى هنيئيل عبيداً في اليونان - وقد غدّى الاسواق بهم منزلاً إليها ، في الظروف العادية ، اسرى الحرب ، بل جميع سكان المدن المفتوحة عنوة في اغلب الاحيان . وقد حدث ما هو اسوأ من ذلك : التنكيل الذي لا يعرف للشفقة معنى . ففي السنة ١٦٧ ، بعد النصر واخضاع الاهالي ، اصدر بولس اميليانوس امره باختطاف وبيع ١٥٠٠٠٠ شخص من سكان الابير . وفي كل مكان اذن ، في البلقان وآسيا وافريقيا واسبانيا وغاليا ، باع قضاة المالية بالدلالة ، مرافقي الجيوش من التجار ، الغنائم البشرية التي كانت تنقل بعد ذلك ، مواكب كثيفة ، الى الاسواق الخاصة : ويجب الانسى ان قيصر قد امر ببيع مليون من الفالين . وان المصادر الاخرى من قرصنة ، وعبودية دين - لم ينج منها سوى

المواطنین - واستيراد برابرة ، لا اهمية تذكر لها اذا ما قورنت بهذا المصدر . ولن تخف تغذية الاسواق بالعبيد ما دامت روما قادرة على خوض الحروب الظافرة . وقد انتهى الى ايطاليا ، اوسع البلدان المتوسطية ثروة آنذاك ، العدد الاكبر من هؤلاء العبيد ، او على الاقل افضلهم قوة وذكاء وجالا . وبديهي ان ليس لدينا اي احصاء في هذا الموضوع ، ولكننا لا نشك في ان العبيد الذين دخلوا شبه الجزيرة بلغوا الملايين .

كان العبيد فئات متفاوتة الكفاءات ، وقد استخدموا في شتى استخدامهم ومصيرهم الاعمال .

فكان هنالك عبيد للالهة يستخدمهم سيدهم للمتعة والتباهي ؛ وكان اخرون خداماً مدربين ؛ واستخدم غيرهم ، من المثقفين ، امناء سر يوثق بهم ؛ وقام آخرون باعمال تتطلب خبرة واختصاصاً ؛ الخ . وقد ادى تدريبيهم الى نوع من التجارة مارسه كلتون وكراسوس من قبله . وكانت اكرثية العبيد من الاغريق والشرقيين الاذكياء والماهرين . فبدأ تأثيرهم على المجتمع الرفيع يزداد اهمية منذ هذا العهد ؛ ومن ميزات شيشرون الفاتنة دالته العطوفة على مجيئه في الحقلين الادبي والمالي الذين لم يفته ان يعتقهم . وفي اثناء حركة النفي والاعدام التي تولاهما سيلاً ، غض الطرف عن سرقات امين سره ، المعتق خريسوغونوس . وليس مينوذوروس ، اميرال اسطول بومبيوس ، سوى عبد معتق ايضاً .

وقد استخدم بعض العبيد عمالاً اختصاصيين في مشاريع خاصة صغرى . فاذا اتقنوا مهنتهم ، غدا السباح لهم ، لا سيما في المدن ، بممارستها لحسابهم الخاص ، لقاء اقامة معينة ، امراً اعظم نفعا ، بحيث ان النظام اليوناني حول العبد صناعياً صغيراً او حائوتياً « مقيماً وحده » ، قد ساد روما ايضاً . وغالباً ايضاً ، على غرار ما حدث في اليونان ، ما منح السيد الحرية القانونية لا سيما وان هذا المنح ما كان ليمنعه من اضافة واجبات مالية الى الحقوق التي يخوله اياها القانون على المعتق . وهكذا انصهر هؤلاء العبيد القدماء بسرعة نسبية في سكان المدن وأثثروا تأثيراً عميقاً في اخلاقهم . واذا ما خالف الحظ نشاطهم في العمل ، بلغ بعضهم مراتب رفيعة : فانما كان عبداً معتقاً ذلك الحجاز الثري ، م . فيرجيلوس افريسايس ، الذي ابتنى لنفسه ، في اواخر العهد الجمهوري او اوائل رئاسة اوغسطس ، على مقربة من المدخل « الاعظم » في روما ، الضريح المكعب المدهش ذا الكوى الواسعة المستديرة التي تمثل فوهات القرن .

بيد ان هنالك عبيداً آخرين ايضاً . نذكر منهم ، في الدرجة الاولى ، المسافين ، المفتاتين جيداً والمدربين في مدارس كيبانيا الضاحكة . ونحن سنراهم فيما بعد حين يعم الميل الى الالعاب الدامية في كافة أنحاء العالم الروماني . وقد رسخ هذا الميل في روما في اواخر القرن الثاني ، فاستلزم اشباعه مثلين ينتظرهم الموت كانوا عبيداً في اكرثيتهم على ما نرجح . ونذكر في الدرجة الثانية عمال المشاريع الكبرى ، الاشغال العامة والمناجم . ولا حاجة لان تتوفر لدينا حولهم

المعلومات ، التي تنقصنا كلياً آنذاك ، لتقدير شقاوم بسبب ظروف ناصبة احاطت بعمل قاموا به فرقاً واقرة العدد . ونذكر اخيراً العبيد الريفيين وهم بدون شك اكثر العبيد المقيمين في ايطاليا عدداً : وانما يهمنا معرفة مصيرهم .

تكلم كاتون في بحثه حول الزراعة ، عن اولئك الذين تخيلهم في أملاكه ، ويقدر عددهم بالثلاثين . ويتضح من فحص القواعد التي يضعها بصددهم انه لا يغفل رأس المال الذي يمثلونه ، فلا يرضى بأن يموتوا جوعاً او عملاً مرهقاً او ضرباً . واذا ما اشار ببيعهم عندما يتقدمون في السن او يمرضون ، فلا يشير بأن يباعوا مع « العربات والحدائد العتيقة » فحسب ، بل مع « الثيران الطاعنة في السن » ايضاً . فكل شيء يؤول ، بالنسبة له ، الى مسألة انتاج بمائلة لمسألة انتاج المواشي التي يغذيها صاحبها ويحرص على ان لا ينهكها ولا يسيء معاملتها . ولا شك ، على نقض عمال كاتون الذين يشتغلون في بساتين الكرمة والزيتون ، في انه توجب على أكثرية العمال الريفيين ان يكونوا رعاة ، لأن العناية بالقطعان ، وحدها تقريباً ، تتيح باستمرار تشغيل رجل يقتضي تعهده طيلة السنة . ولكن هذا العمل ، بالاضافة الى انه يبعد العبد عن رقابة مستمرة ، لم يغير شيئاً في طبيعة الحساب الذي كان على الاسياد ان يحسبوه والذي حال دون الافراط في القسوة وفي الاقتصاد الغذائي او غيره . لذلك ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار اعمال العنف التي يأتيتها ، في غياب السيد المتكرر ، وكيل هو نفسه عبد في اغلب الاحيان ، لا يجب ان نبالغ في تصور السجون المظلمة والتقييد بالسلاسل وعقوبات الشنق . ولكن يجب ألا ننسى النتائج الأخرى للحساب نفسه . فقد منع السيد ، إلا في الظروف الاستثنائية ، من اعتناق العبد الذي يعجز عن استمالة جميله او يجمع بعض المال الذي يبتاع به حريته . وقد منعه ايضاً من القبول بالمحاذير والنفقات التي تستتبعها تربية اولاد العبيد ، وهم قليلون على كل حال بسبب ندرة النساء بين العبيد . وهكذا فقد انحط العبد الى مرتبة الحيوان وفقد كل امل بالعطف وبمستقبل افضل ، فتألم في نفسه ، ان لم يكن في جسده ، كلما وعى طبيعته البشرية ولو وعياً غامضاً .

حروب العبيد
اذا لم يكن هذا الاحساس فطرياً فيه ، فقد كانت الحياة الجماعية كافية لأن تثيره فيه لأنه يجد فيها ابداً رفيقاً اعظم نباهة قد يكون منحدرأً أحياناً من النخبة الاجتماعية في بلاده . اصف الى ذلك ان العبيد الآتين من الشرق الهليني قد جاؤوا بصدى الآراء او التيارات الثورية . ولا يدهشنا ان تكون أشد الثورات خطورة قد طارت شرارتها من صقليا وايطاليا الجنوبية أي من المناطق اليونانية المتأثرة تأثراً خاصاً بالتطور المؤاتي لاقتناء الاملاك الواسعة . وقد توصلت تدابير الأمن الشديدة ، في الظروف العادية ، الى كبح اضطراب خفي دائم الغليان : وكانت السلطات المحلية تتولى ذلك ، بمساعدة القضاة عند الحاجة . بيد انه حدث ثلاث مرات ، تفصل بين الواحدة والاخرى ثلاثون سنة تقريباً ، ان حادثاً محلياً ، وحتى عائلياً ، قد اثار ، لأنه لم يقمع فوراً ، حريقاً يغذيه شيئاً فشيئاً المثل الذي توفره للياثسين

اعمال العنف الاولى . وقد اطلق الرومان على هذه الثورات الكبرى اسم « حروب العبيد » لأن قمعها قد تطلب عمليات عسكرية حقيقية .

ففي هذه الحروب توجب على قوات الامن ان تقابل ، لا عصابات متشقة ، بل كتلا تحس بالحاجة الى الاتحاد تضم بضع عشرات الالوف من الرجال احيانا . وكل مرة تولى قيادة هؤلاء الثائرين زعيم لا ريب في انه تحلى بصفات غير عادية حتى توصل الى فرض نفسه على مثل هؤلاء الاتباع ، واذا ما هوجأ ، كما تشير الى ذلك مصادرها ، الى اساليب المخرقة ، فان هذه الاساليب هي التي تفعل فعلها في جماهير لا يمكن ان تتصف بروح نقدية عالية . وكان هؤلاء الزعماء مساعدهم ، وقد حاولوا تنظيم زمهرم وانتهاج بعض الخطط العسكرية بواسطتها . فاحرزوا على قوى الامن المحلية وعلى الجيوش المعبأة بسرعة انتصارات عديدة . ولكن ضعف تسليح الثائرين قد ظهرت نتائجها الحتمية امام جوقات مدربة نظامية . وهل يمكن من جهة ثانية ان يفرض عليهم نظام ما ؟ فهم قد خضعوا لغرائزهم الثائرة البدائية مكسدين الضحايا والخراب . فكان اندفاعهم بالتالي خطراً على الاسس الاولى للنظام الاجتماعي وللحضارة . فتكونت ضد هذا الاندفاع في روما الجبهة الموحدة التي ضمت اشد الاحزاب تحاصماً . اجل كان من المستطاع ، في حمى الاشتباكات والحرب الاهلية ، تسليح بعض العبيد وتجنيدهم . ولكن اعظمهم جرأة قد تراجعوا امام الخطر الشامل : فاحس الايطاليون الاحرار بتضامنهم كما لو كانوا به امام ثورة في ولاية . فتوار سبارطة الهلينية ، في اليونان مثلاً ، قد تجاوزوا اقصى ما . توصل اليه « الشعبيون » الرومانيون ونرجح ان السبب البسيط في ذلك هو انهم لم يهتموا ، على غرار الشعبين ، لمكاسب الفتح المادية .

انفجرت حربا العبيد الاوليان في صقليا على يد زعماء وجيوش من اصل شرقي ؛ ولم تنتقل العدوى آنذاك الا الى بعض النقاط من ايطاليا الجنوبية . وقد قاست الجزيرة الامرين من هذه الثورات ومن قمعها . وتفسر هذه الاخيرة جزئياً انهيار انتاجها الزراعي ، الملموس في القرن الاول . وتفسر ايضاً تشدد الحكم ، حتى فيريس ، في توزيع العدالة ، لانهم مضطرون للاستمرار في تشديد الرقابة البوليسية حيال محاولات الدعاوة والاضطراب .

اما الحرب الثالثة فأعظم شهرة : وهي تلك التي تزعمها ، في ايطاليا هذه المرة ، رجل تراقي ، ربما من اصل ملكي ، هو سبارطاكوس . فقد جر وراءه اولاً ، في السنة ٧٣ ، رفاقه المسايقين في مدرسة « كلوا » ثم ، شيئاً فشيئاً ، ما لا يقل عن ٦٠ ٠٠٠ رجل : ملحمة غريبة مفاجئة ، دامية ووحشية الى اقصى حد ، تخللتها احداث اتصفت بالفظاعة حيناً وبالعظمة حيناً آخر . وليس اقل هذه الاحداث تأثيراً ، حتى اليوم ، ذلك الذي أرغم فيه هؤلاء المسايقون ، الذين كانت العائلات الكبرى تضطرم الى الاقتتال لمناسبة جنازة احد اعضائها ، مائتي زوج من الأسرى على الاقتتال بعد موت احد معاوين سبارطاكوس . ولكن عظمة هذا الاخير لا تتجلى

في تطبيق شريعة السن بالسن تطبيقاً فظيماً، بل في اتساع الخطة التي رسمها. فعلى نقيض سابقه، الذين قادوا رجالاً شرقيين بنوع خاص، اضطروا، بعد الحروب ضد «الكبر» و«التوتونز»، وبعد نمو علائق روما بالبلدان الشمالية، إلى قيادة عصابات تضم كلتيين وجرمانيين في الدرجة الأولى. لذلك، فعوضاً عن أن يفكر بالسلب دون غيره، واقتناعاً منه بأن الفشل والموت سيكونان نصيبهم المحتوم في إيطاليا، قد قرّر أن يقودهم إلى الحرية الحقيقية بشق طريق أوطانهم لهم من الجهة الشمالية. ولكن المأساة التي لا نعلم أسبابها الحقيقية - ونرجح أن أحدها هو جاذب ثروة شبه الجزيرة - قد حدثت حين عاد إلى إيطاليا الجنوبية بعد أن بلغ غالباً ما وراء الألب ظافراً. فقد قرر عمله هذا مصير الثائرين. كان كراسوس قد أعطي صلاحيات استثنائية وجند عشر جوقات فدحرم حتى طرف شبه الجزيرة، بينما كان فيريس يفرض رقابة شديدة على صقليا. وجاءت النهاية في أوائل السنة ٧١ وطورد الهاربون في كل مكان ولم يرحم المنتصر وبومبيوس - الذي اصطدم في بلاد الأتروسك بأحدى عصاباتهم - شخصاً واحداً منهم: وقد نصب كراسوس على الطريق «الآبية» *Appia* بين كابوا وروما ٦٠٠٠ صليب علّق على كل منها رجل محكوم بالموت.

إذا ما نظرنا إلى الرعب الذي أثارته أدوار الازمة رأينا أن الإرهاب الظالم لم يحل المعضلة. علينا أن نكتفي بالافتراضات، أقله بصدد أواخر الجمهورية وأوائل الامبراطورية، لنفسر عدم اندلاع حرب أهلية بعد ذلك. واقرب هذه الافتراضات إلى الحقيقة أن الحروب الأهلية قد وفرت إمكانات عديدة لأبعد العناصر مغامرة وعنفاً. وفي سبيل تجنيدهم، اعتق الخصوم العبيد أو استقبلوا الفارين. وانتسبت قوات سكستوس وبومبيوس، الذي كان مقيماً في صقليا وارغم اكتافيانوس فترة من الزمن على التخلي عن حقوقه للاتفاق معه، في أكثريتها إلى هذا الأصل، وبعد أن استند إليها المنتصر حجة من حجج دعاوته، لم ير ضيراً في أن يستخدم جنود المغلوب وبجارته. ونحن نرجح أن اعتماد هذه الطريقة قد ساعد، بفعل انتهازية تخضع لمشاغل أخرى، على تجنيب الخطر الأكبر، حين لم تكن روما لتستطيع بذل الجهد الذي بذلته ضد سبارطاكوس ثلاثين سنة من قبل. وبعد ذلك، في عهد الامبراطورية، تضاعف الخطر تلقائياً، دون أن يعالج قط، بعد معرفة حقيقية بالضبط، بالادوية اللازمة: ولكن ما حدث، باستثناء بعض التوقف بعيد الحروب الظافرة الكبرى، هو أن عدد العبيد قد أخذ يتناقص تدريجياً بسبب العدول عن السياسة الداعية للحرب وتزايد عدد المعتقين وهبوط إيطاليا اقتصادياً.

٢ - الفلاحون الأحرار

ان ازدياد اليد العاملة العبدية، المقابل للفتوحات العظمى في القرن الثاني، ما كان ليحجر سوى العواقب الوخيمة على المصير المادي لرجال أحرار يعيشون من عملهم. ونحن نعرف، من هذا القبيل، متوسطي وصفار الفلاحين الذين كانوا يزرعون أراضيهم بأنفسهم. ولكنهم في

الحقيقة ألفوا ، في شبه الجزيرة التي عرفت فيما مضى اقتصاداً زراعياً بسيطاً ، غالباً الى حد بعيد ، طبقة وسطى ، وهامة ايضاً ، لأنهم قدموا لروما هيكلًا اجتماعياً وعسكرياً - جمع المشاة من بينهم - لا نظير له من حيث المتانة . فكل ما قد يصيبهم يهدد بالخطر ، اول ما يهدد ، الدولة التقليدية .

لا مرأى في ان عددهم قد تدنى . وليست منافسة العبيد السبب الوحيد
الازمة : الاملاك الخاصة
وحتى الامم في ذلك لانها قد اضررت في الدرجة الاولى بالعمال الاحرار
والاملاك العامة
الذين يؤجرون سواعدهم للملاكين . بيد انها ، بصورة مباشرة ، وبتسهيل
استثمار الاملاك الواسعة ، قد اضررت بالاملاك الصغيرة . واثار واقع الحروب نفسه تأثيراً مؤسفاً ؛
فخلال السنوات الخمسة عشر التي امضاها هنيبعل في ايطاليا اتلفت الجيوش الارياف . ثم ان
التجنيد المتكرر وطول مدة الحملات فيما وراء البحر قد سلخا الفلاحين عن املاكهم التي حرمت
من ثم ادارة وعمل السيد . واذا هم عادوا من هذه الحملات بالغنائم ، فقد اكتسبوا عادات لا تشجع
العمل الشاق المستمر . ولكن جميع هذه الاسباب ، مباشرة كانت ام غير مباشرة ، تتضاءل
امام تطور الاقتصاد الزراعي الايطالي . وقد سبق لنا وبيننا كيف استحالت العيش على الفلاحين
الايطاليين من بيع الحبوب باسعار متدنية فرضتها الواردات وكيف اضطروا لان يوجهوا
عنايتهم الى نشاطات اخرى لا سيما تربية المواشي وزراعة الاشجار المثمرة . ولكن ذلك لم
يتوفر الا لذوي رؤوس الأموال القادرين على توظيف المبالغ الضرورية لهذا الغرض . وقد توفرت
رؤوس الاموال هذه باطراد للاغنياء ، المستفيدين الرئيسيين من اثرات الحروب . فتجمعت بالتالي
الاملاك العقارية ونمت بينما هاجر الملاكون القدماء المستثمرون الى المدن ، وإلى روما بالترتيب ،
او تحولوا الى عمال ريفيين مأجورين ، بائسين بفعل منافسة العبيد .

وازدادت خطورة الداء بسبب وجهة استخدام الاملاك العامة في ايطاليا ، وهي بالضبط ما
كان بالامكان ان يوفر له الدواء . فقد شملت هذه الاملاك مساحات كبرى من الاراضي
المصادرة لمنفعة روما حين الفتح او بعد الثورات ، وقد انتمت الحيازات التي حصلت اثر نداء
هنيبعل . وطالما استعملت الدولة بعض اقسامها ، بين وقت وآخر ، لتوزيعها انصبه بمجموعة او
متفرقة على مواطنين رومانيين او حلفاء « لاتين » : فحدث من ثم بزل في طبقة كادحة قديمة او
حديثه العهد وتألفت مرة ثانية طبقة من الزراعين الاحرار . ولما كان امر ادارة ممتلكات الدولة
يعود لمجلس الشيوخ فان هذا الاخير هو من تولى هذا التوزيع . غير ان احد المحامين عن حقوق
الشعب قد تجاسر مرة واحدة ، في السنة ٢٣٢ ، وطلب الى الشعب الموافقة على ان تفرز وتوزع
على المواطنين الفقراء منطقة محتلة وراء الابنين بمحاذاة الادرياتيک . ولكن مجلس الشيوخ ،
بفضل السلطة التي جعلته الحرب البونيقية الثانية يستعدها ويوطدها ، قد توصل الى تجنب تجديد
هذا النهج الذي اعتبره نهجاً ثورياً . واستفاد من احتكاره للسلطة فقرر في اوائل القرن الثاني

بعض التوزيعات وانشأ بنوع خاص قرابة عشرين مستعمرة . ثم وضع حداً لهذا التوزيع : فالاملاك العامة ، في نظر الاوليفارشية المجلسية ، يجب ان تستخدم لغايات اخرى .

لقد بيعت منها بعض القطع فقط لان الحزاة العامة لم تشك من العجز الاندراً . وحاول الكثيرون استئجارها ، وقولى مراقبو الاحصاء التزيم الذي تناول اجمالاً مساحات كبيرة : ذاك كان مصير البراحات *Landes* والمراعي بنوع خاص . واخيراً كان مسموحاً لاي كان ان «يحتل» الارض التي لا يشغلها احد مقابل ضريبة سنوية الغاية منها التذكير بملكية الدولة . وعملياً ، اذا استمرت الجماعات المحلية ، عن طريق الالتزام او بدونه ، في استثمار اراضي الحدود التي سلخها منهم الفتح الروماني مبدئياً ، فإن الريفيين المفتقرين لم يستفيدوا من الاملاك العامة الا بهذه المداورة مستكملين تغذية مواشيمهم القليلة في المراعي المشتركة . اما ما تبقى منها فقد استأثر به الاغنياء بالنظر الى ان استثماره او مجرد استخدامه يستلزم ابدأ رؤوس الاموال ؛ وقد تألفت جمعيات من الملتزمين لتعاطي تربية المواشي كما وظف كبار الملاكين ولا سيما الشيوخ امواهم في الاراضي المجاورة لاملاكهم لان تشغيل ثرواتهم في الاستثمار الريفي كان وحده جائزاً . ولهذا السبب احجم مجلس الشيوخ خلال الربع الثاني من القرن الثاني عن توزيع القطع الفردية .

وهكذا لم يتلق الفلاحون الاحرار ، في ازمتهم الخائفة ، اي شيء يعوض عليهم ، وعوضاً عن ان تساعد املاك الدولة على استمرار التوازن الاجتماعي فانها قد ضاعفت امكانات التوسع التي توفرت من قبل للاملاك الخاصة في التطور الاقتصادي .

لقد لوحظ نهج هذا التطور منذ العصور القديمة . ويبذل المعاصرون اليوم الحركة اصلاحية جهدهم في اكتشاف بعض مفارقاته . وأهمها اختلاف زمن حصوله وفقاً لمناطق ايطاليا . لستثن في الدرجة الاولى ايطاليا الجنوبية التي هي ، كما نظر اليها بوليب ، حديقة غناء مخصبة زهيدة الاكلاف . فقد كان ايضاً في شبه الجزيرة مناطق يعسر الوصول اليها من الساحل ولا يدخل القمح الاجنبي اليها ، اعني المناطق الجبلية في ايطاليا الوسطى . اما على مقربة من روما ، في اللاتيوم واتوريا الجنوبية ، فقد فضل الاثرياء توظيف رؤوس امواهم في الاراضي حتى يستطيعوا مراقبة استثمارها مراقبة اجدى . ومن جهة ثانية غدت ايطاليا الجنوبية كلها ، وهي التي قد عفا الخراب خلال الحرب البونيقية الثانية ، المنطقة النموذجية لتربية المواشي على نطاق واسع : ولعل نظامها الزراعي الراهن قد تحدّد منذ القرن الثاني قبل الميلاد .

اكتشف بعض المسؤولين الرومانيين الداء ، اقله من خلال بعض نتائجه . فلمسوا الصعوبات في تعبئة الجنود ولاحظوا انخفاض مستواهم : حصلت حوادث مؤسفة مؤلمة لا سيما خلال الحملات على نومانس في اسبانيا . ولاحظوا ايضاً الارتفاع العددي في الطبقة الكادحة المدنية والردائل التي اذلتها . فبرز في ايطاليا النقص في الرجال الذي علموا ان اليونان شكت منه ولا تزال . اجل نحن نفتقر الى المعطيات الواضحة حول الايطاليين الاحرار غير المواطنين ؛ ولكن قضية مدنيهم

قد اشتكوا احياناً من الصعوبة التي يصادفونها في جمع المتطوعين للجيش الروماني . اما المواطنون فان عددهم بعد ان بلغ الرقم القياسي ٣٣٧ ٠٠٠ في السنة ١٦٤ قد اخذ بالانخفاض ، من احصاء الى احصاء ، الى ٣١٨ ٠٠٠ في السنة ١٣٦ ، أي ما يقارب ٦ ٪ . فرأى الداء بعض المسؤولين الذين رضوا بفتح عيونهم وادركوا بسهولة احد اسبابه : طغيان الاملاك الواسعة واقتصادها العبدى على الاملاك الصغيرة : يعزوا بلوتارك الى كلوس ان اخاه طيباريوس غراكوس ، حين مروره في اتروريا ، « رأى هذه البلاد الجميلة المقفرة التي لا زراع ولا رعاة فيها سوى الاجانب والبرابرة » .

برز كذلك اثر الافكار الداعية الى حب البشر وحتى الى المساواة التي طلع بها بعض المفكرين الهلنيين . فلا مجال مثلاً لنكران هذا الاثر عند طيباريوس غراكوس . ولكن اذا وجب ربط اسم هذا المحامي عن حقوق الشعب بحركة الاصلاح استناداً الى مبادرته ونهايته المفجعة ، فان فكرة وكيديات هذا الاصلاح قد لاقت صداها لدى شيوخ من المرتبة الاولى ، من امثال « رئيس المجلس » آنذاك . وفي الحقيقة فكر هؤلاء الارستوقراطيون المستنيرين ، في الدرجة الاولى ، تفكير رومانين مغممين بالتقاليد القومية ، وبمفهوم دقيق لمصلحة روما ايضاً . وكلنا يعلم المضادة البليغة الشهيرة التي جعلها طيباريوس غراكوس بين الوحوش البرية التي تمتلك اوجرتها على الاقل وبين اولئك الذين يموتون ذوداً عن ايطاليا وليس لهم بيت تأوى اليه عائلتهم . ولكننا نلاحظ ، اذا ما امعنا قراءة صفحة بلوطارك بكاملها ، ان الخطيب لم يقصد سوى المواطنين دون غيرهم الذين « يطلق عليهم اسم اسباد العالم » والذين « لا يملكون ملرة » . فلا قيمة من ثم لاعتراض المعارضين انه يستحيل عليه التفوه بغير هذا الكلام امام جمعية من المواطنين .

فلم يفكر المصلحون ، لا في بداية حركتهم ولا بعدها ، بالاقليميين الذين كان استغلالهم وبؤسهم ، مع ذلك ، في الاساس من انهيار الفلاحين الايطاليين : وكلوس غراكوس هو الذي نظم لمصلحة الملتزمين جباية الفريضة على ولاية آسيا . لا بل لم يفكروا في البداية بالايطاليين غير المواطنين الذين كثيراً ما لجأت اليهم روما في جمع المتطوعين لجيوشها والذين اقصاهم القانون الزراعي عن توزيع الاراضي ، مع انه اخضعهم ، شأن غيرهم ، لمبدأ استعادة الاراضي المقطعة . اجل لقد تطوروا بسرعة بصدد هذه النقطة واقترحوا ، منذ السنة ١٢٥ ، حلاً يقضي بتعميم حق المواطنة في ايطاليا ، اي يجعل الايطاليين يستفيدون من القانون ؛ وان المثل الاعلى في المساواة القانونية الذي قالوا به لم يزل بعد ذلك من برنامج الشعبين . ولكنهم لم يقولوا به الا لاعتبارات انتهازية ، اي رغبة منهم في جمع الحلفاء من حولهم والقضاء مسؤولية الثورة على خصومهم . واذا ما اوجبت المعضلة الزراعية بحث المعضلة الايطالية جدياً ، فانها تحتفظ في نظرم باولوية منطقية تتأيد في اولويتها الزمنية ، ولم يحملهم على التصدي للمعضلة الثانية الا تصميمهم على حلها هي .

هكذا افضى الاصلاح الى اصلاح آخر ، وافضى في الواقع تدريجياً الى عدة اصلاحات اخرى . ومرد ذلك الى ان الاصلاح الزراعي لم يكن ليتم الا على حساب الاوليفارشية العقارية التي ضمت اكثرية طبقة النبلاء المجلسيين . فاقترضت مواجهة مقاومة عنيدة تبديها هذه الطبقة اذ ان هزيمتها لا يمكن ان تعني سوى انهيار النظام السياسي الذي عرفتة روما منذ الحرب البونيقية الثانية والذي القى في الواقع بزمام السلطة الى مجلس الشيوخ . امام مثل هذه النتائج لا يدهشنا ان يتخلى عن آل غراكوس بعض انصارهم الاول .

بديهي انه يستحيل هنا عرض تطور التشريع الزراعي عرضاً مفصلاً لا التشريع الزراعي تتفق عليه الآراء احياناً .

كانت نقطة انطلاق هذا التشريع القانون الذي اقره الشعب بنساء على اقتراح طيباريوس غراكوس المحامي عن حقوق الشعب ، وقد تقدمه بصورة اكدية قانون آخر على الاقل . اختلف العلماء حول عدد هذه القوانين وتاريخها . ولكن لا نعبأ بذلك اذ ان قانوناً واحداً لم يطبق . وقد وضعت ايضاً ، منذ زمن قريب ، مشاريع كان مصيرها الجبوت . واستندت كافة القوانين او المشاريع الى المبدأ القانوني الذي احتفظ للدولة بمبدأ تملك جميع الاملاك العامة التي لم تنقل ملكيتها الى شخص آخر وفاقاً للأنظمة المرعية الاجراء : فكان باستطاعتها من ثم استعادة الاراضي « المحتلة » او المؤجرة والتصرف بها كما يظيب لها . ولم يعرف القانون الروماني ، وشأنه في ذلك شأن القانون اليوناني ، الاستملاك الذي تلجأ اليه الاصلاحات الزراعية الحالية . واكتفى قانون السنة ١٣٣ ، على غرار النصوص السابقة ، بتعيين حد اعلى ، على بعض الامية ، ما يعادل ١٢٥ هكتاراً لرب العائلة من « محتلي » الاراضي ، يضاف اليها ٦٢٥ هكتاراً لكل ولد - تنزع بعده الاراضي العامة الايطالية من مستثمريها ، ومقابل ذلك يصبح هؤلاء مالكين شرعيين للاراضي الباقية . وتقسم الاراضي المستعادة وتوزع على المواطنين انصبة مساحة كل منها ٧٥ هكتارات لا يمكن بيعها وتخضع لفريضة سنوية تسمح بمراقبة مصيرها : فتتكون مرة اخرى بالتالي طبقة صغار المستثمرين التي اعتبرت ضرورية لعافية المجتمع والدولة .

ذاك كان النظام . وقد أثار في الواقع ، بسبب بساطة تصميمه ، صعوبات سرعان ما تمسكت بها المعارضة . ولم تعرف هذه الاخيرة كللاً في معارضتها فادى عنادها الى حوادث تعتبر من اعنف حوادث تاريخ روما الداخلي كموت طيباريوس غراكوس في السنة ١٣٣ وموت شقيقه في السنة ١٢١ . وكانت لها الغلبة احياناً : اجل لم تجرؤ قط على الغاء المبادئ المتفق عليها ، ولكنها علقت تطبيقها او اخرته او حصرته في مناطق نائية هي ثانوية في نظر طبقة النبلاء . ولكن الاصلاح ، بفضل سلسلة طويلة من القوانين الزراعية ، اعتمد في النهاية ونفتح ووسع توسيعاً اعظم سخاء على المنتفعين به . ولنكتف هنا ببعض التعديلات . فلم يقتصر على

حصص الـ ٧٥ هكتارات : بل توصلوا الى الـ ٥٥ هكتاراً ، وألغوا الضريبة المفروضة عليها ، الشيء الذي سهل ، من جهة ثانية ، نقلها الى الغير ، واعترض من ثم الهدف المنشود . ولم يقتصر على الأراضي المستعمدة من شاغليها : فقد ابتيع منها بمال الدولة . ورغبة في جعل التوزيع اكثر ثبوتاً ، جمعت الانصبه وانشئت المستعمرات . وسلخوا اخيراً ، بتخوف كلي ، الطريق المدة لان تكون طريق المستقبل ، بان شرعوا بتطبيق هذه التدابير ، ليس في ايطاليا فحسب ، بل في الاقاليم ايضاً حيث شملت الاملاك العامة كثيراً من الأراضي الخصبه . وقد سبق لشيبيون ، في السنة ٢٠٦ ، قبل ان يغادر اسبانيا التي انتزعها من البونيقين ، ان اسس ايطاليكا ، قبالة اشبيليا الحالية ، باسكانه فيها العاجزين والمتقاعدين من جنود جيشه . ولكن هذا المثل لم يقتد به بعد ذلك . ثم عادوا الى هذه الفكرة في عهد كلؤس غراكوس ، ولعل هذا العود كان مداورة للتخفيف من صعوبة استعادة الأراضي في ايطاليا ، فاقروا انشاء مستعمرة في افريقيا هي « المستعمرة الجونونية القرطاجية » التي تأسست على مقربة من الموقع اللعين الذي قامت عليه المدينة المهدمه في السنة ١٤٦ . فاخفقت المحاولة . ولكن انشاء فاربونا ، في السنة ١١٨ ، قد عرف نجاحاً كلياً .

وتطور في الوقت نفسه المنتفعون بهذه القوانين . فقد اراد المصلحون الاولون تخفيض عدد المواطنين الفقراء بالاستفادة منهم فوراً . فسمح منذ ماريوس للكادحين بالانخراط في الجوقات وحرص جميع القادة الظافرين على ايثاق تعلق جنودهم بهم بتأمين المكافاة لهم ، فلجأ المصلحون الى القوانين الزراعية كي يوزعوا على الجنود انصبته من الاملاك بعيد تسريح الجيش . ويضاف هذا النصيب الى الغنيمة الفردية ، فيحدث التوق اليه اقبالاً على التطوع عندما تتدلع الحرب : كان الريفيون البؤساء يرضون بالمخاطرة بحياتهم بضع سنوات رغبة منهم في تأمين الحصول على قطعة ارض بعد نهاية الحرب . لا ريب في ان الهدف الاجتماعي قد تحقق ، ولكن بمدورة مادية ، وبما هو اخطر من ذلك ، اي بانحراف اخلاقي . والدليل على ذلك ان الارض المقطعة لم تعبر عن اعتراف الدولة بواجبها في مساعدة المواطن على العيش من عمله بل اصبحت مكافاة على خدمات مؤداة . ولكن لماذا ادبت يا ترى ؟ في اغلب الاحيان ، لطموح قائد يستخدم جيشه في الحرب الاهلية دونما خجل لا سيما وان انتصاره ، بما يستتبعه من مصادرات ونفي ، يوفر له الأراضي التي يستطيع اسكان جنوده القدماء فيها : وكان سيلاً اول من نهج هذا النهج . وقد وجب ان يأتي قيصر ويستصبر خلال قنصليته في السنة ٥٩ ذلك القانون الذي طبقه الى حد بعيد خلال دكتاتوريته ، حتى يعود الى توزيع الأراضي على المواطنين الفقراء على نطاق واسع ويستمر في الوقت نفسه في الانعام بسخاء على الجنود القدماء : فأسكن في كيبانيا ٢٠٠٠٠ رب عائلة لكل منهم ثلاثة اولاد على الاقل ، ولجأ بنوع خاص الى المعتقين المرسلين الى روما لاعادة بناء كورنثوس التي كانت قرطاجة قد هدمتها في السنة نفسها .

نتائج القوانين الزراعية على الرغم من اللجوء الى الاستعمار الاقليمي، بقيت ايطاليا ، دون ريب، قبلة انظار الايطاليين . ويجب ان لا نقلل من اهمية النتائج التي اسفرت عنها الصراعات الحامية طيلة قرن تقريباً ضد استئثار الطبقات الحاكمة بالاراضي . اجل بقي عدد الاملاك الواسعة مرتفعاً لا سيما في ايطاليا الجنوبية : وقد سمح ببقائها النصيب المتروك لشاغلي الاملاك العامة ، وتولى العمل الباقي حصر الثروات العقارية الطبيعي عن طريق الارث ام الشراء . ولكن الملكية الصغيرة ، في عدة مناطق ، لا سيما المتوسطة ، كانت قد عادت الى الوجود . وألف الملاكون الجدد بورجوازية بدت وكأنها مستقرة . فهل عملوا بسواعدهم ؟ لا يمكننا اثبات ذلك . ولكنهم اقاموا في املاكهم وراقبوا استثمارها مراقبة دقيقة . وتوفر لهم المال أكثر من ذي قبل ، لا سيما اذا كانوا جنوداً قداماء ، فاستطاعوا اغتنام طرائق اوفر دخلاً : وليس ازدهار الكرم والزيتون في اواخر العهد الجمهوري سوى ثمرة اتعابهم في اغلب الاحيان .

وليس هذا كل شيء . فقد افضى انتقال الملكية الى فرج سكان ايطاليا . اجل لا يمكننا اليوم قياس الصهر المنصري . ولكن تقدم الوحدة اللغوية ، وهي عماد قوي للوحدة الادبية ، يمكن تتبعه خطوة خطوة . ففي القرن الاول زال استعمال اللغة الاتروسكية كما زال في يومبيي ايضاً استعمال اللغة الاوسكية *Oskue* ؛ وقد أسهمت في هذا الزوال القوانين الزراعية ، تساعدنا في ذلك عوامل اخرى كثيرة ، ولا فرق اذا استفاد منها المدنيون ام قدامى العسكريين .

لا سبيل لمعرفة ما اذا كان باعثو هذه النتائج قد ارادوها وارقبوها : فعلى غرار جميع الظواهر الاجتماعية ، يغلب ان هذه النتائج تمثل تسوية بين التطور الثقافي المتعدد الاسباب وبين الاعمال البشرية المقصودة التي تحاول تعجيل ودعم واستمالة او مقاومة نتائج هذا التطور . ولكن الحقيقة الثابتة هي ان مجهوداً كبيراً قد بذل بغية تقويم نتائج الفتح الوخيمة بالنسبة للفلاحين الاحرار ، وان هذا المجهود قد ذلل أسوأ الصعوبات فلم يبق دون ثمرة . وامام هؤلاء الملاكين المتوسطين وتقدم اللغة اللاتينية تعود بنا الخيلة الى توطين المستعمرين اليونانيين الذي حققته بعض الملكيات الهلينية . ولكن الموضوع هنا انتزاع الملكية من الطبقة نفسها التي في يدها زمام السلطة . لذلك يجوز التأكيد بأن تاريخ العصور القديمة لا يعطينا أي مثل آخر شبيه بهذا المثل عن تدخل الدولة النافذ بغية التأثير ، على حساب فئة من مواطنيها ، على الواقع الاجتماعي ، وبغية اعادة تكوين طبقة هي في طريق الزوال .

٣ - الطبقة الكادحة المدنية

غير ان هدفاً على الاقل ، بين الاهداف التي سعى وراءها القائمون بالاصلاح الزراعي ، لم يتحقق بلوغه . فهم قد توخوا تخفيض عدد الكادحين الذين يتجمعون في روما ، حيث تفسد اخلاقهم ، باعادتهم الى العمل الحر في الحقول . ولكن هذا العدد لم ينخفض بل استمر في التضخم ؛

وجل ما نستطيع قوله هو انه كان من شأن هذا العدد ، لولا القوانين الزراعية ، ان يزداد أكثر من ذلك . وليس في واقع هذا الفشل ما يشير أية دهشة : فبين اليأس في البطالة والكثرة المشكوك في نتائجه لم يترك الانحطاط الاخلاقي لذوي العلاقة مجالاً للتردد ، وقد وجب ان يبرز دكتاتور من امثال قيصر حتى يجرؤ على القيام حيالهم بعمل قسري ، ولو غير مباشر . اصف الى ذلك ان خصوم القوانين الزراعية لم يكونوا ليهملوا حجة فوضى الحكم . ويمكن الحكم على مهارتهم بقراءة تحريضات القنصل شيشرون مقاوماً ، في السنة ٦٣ ، مشروعاً تقدم به رولوس : « قال هذا المحامي عن حقوق عامة الشعب في مجلس الشيوخ ان لعامة الشعب المدنية مزيداً من الاهمية في الدولة وانه يجب « تفريغ » المدينة منها . هذه هي الكلمة التي استعملها كأنه يتكلم عن فنتاس ما لا عن طبقة من خيرة المواطنين . اما انتم ... فلا تتنازلوا عما هو ملككم ، الرصيد السياسي ، والحرية ، والاقتراع ، والكرامة ، والمدينة ، والساحة العامة (الفوروم) ، والالعب ، وايام الاعياد وغير ذلك ، ما لم تفضلوا على بهاء هذه المدينة ، بتخليكم عن كل ذلك ، الاستيطان ، بقيادة رولوس ، في جفاف مدينة « سيونت » او في طاعون مدينة « سالييس » . فكانت الغلبة لشيشرون . وكانت الحجة مفحمة ، ولكن لجوءه اليها ، مع توفر غيرها لديه ، لم يخدم سمعته كرجل دولة .

اهمية واحدة
الكادحين المدنيين

لما كانت روما المدينة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم في ايطاليا ، فان الكادحين المدنيين الوحيدين الذين كانوا على بعض الاهمية العددية هم الكادحون الذين اقاموا فيها . وكانوا كافين لتعمير اكثر من مدينة . وبسبب افتقارنا الى المعطيات الاحصائية الاخرى ، نرانا مضطرين لأن نقبل بالعدد ٣٢٠.٠٠٠ الذي كان ، حين استلام قيصر السلطة ، عدد المواطنين المقيدين على لوائح توزيع القمح المجاني . ومع ذلك فلا يكفي هذا العدد ليقافنا على الحقيقة الكاملة . فلو افترضنا انهم لم يدونوا في هذه اللوائح سوى المواطنين القاطنين روما ، فهل أقصي عنها مبدئياً أولئك الذين بلغوا حداً أدنى من اليسار ؟ وما هو خصوصاً المعدل الذي يجب ان تضرب به هذا العدد اذا ما اردنا ان تأخذ بعين الاعتبار عائلات الذين يتقاضون المخصصات ؟ فهو لا يعطينا بالتالي سوى مقياس لأهمية الكادحين ، ولكنه في واقعه لا يخلو من قوة التأثير . ويمكن ان يقدر تقديراً أفضل اذا ما قورن بتأكيد ذلك المحامي عن حقوق الشعب الذي قال في نهاية القرن الثاني ان ليس في روما « ألفا رجل ممن يملكون شيئاً ما » . وعلى الرغم من ان شيشرون لا ينفي هذا التأكيد حين يستشهد به ، فانه يبدو مغالى فيه جداً . ولكن التفاوت العددي ، على كل حال ، كان عظيماً جداً بين الاغنياء والفقراء .

ليست هذه الطبقة مدينة بتكاثرها — الذي نجعل مراحل — لارتفاع عدد الولادات . واذا ما اعوزتنا الارقام فان الشهادات تتفق اتفاقاً كافياً للاعراض عن هذه النظرية . فقد جازل للوالدين الرومانيين ، على غرار الاغريق ، ان لا « يربوا » اولادهم اي ان يلقوا في الشارع مواليدهم الجدد ، ولم يستخدموا هذا الحق ، على كل حال ، بمقدار استخدام الاغريق له . ولكن الوفيات

بين الاطفال كانت مرتفعة . فمن اصل الاثني عشر ولداً الذين انجبتهم كورنيليا والدة آل غراكوس ، لم يبق في قيد الحياة سوى ثلاثة فقط . فما هي حال الطبقات الفقيرة ياترى ؟ حين تقرر ، منذ قيصراً ، تشجيع العائلات الكثيرة العدد ، بدا وجود ولد ثالث مقياساً كافياً .

بعد استبعاد هذا السبب يمكن القول ان تكاثر السكان مرده الاستيطان الذي ليس من سر في اسبابه : زيادة دور المدينة سياسياً واقتصادياً ؛ نزوح الفلاحين الايطاليين المفتقرين اليها بعد ان اربعتهم او ارمقتهم حياة المأجورين التي ارغمتهم عليها ، في الريف ، خسارة الارض التي اعتاش منها جدودهم ؛ نمو الرق الذي كاث يفضي ، بشكل شبه عادي في روما ، الى الاعناق

واذا كان المستوطنون احراراً ، تمتع شطر كبير منهم بصفة المواطنين حتى قبل اقامتهم . اما الآخرون ، الخلفاء « اللاتين » او الخلفاء الايطاليون ، فان التشريع ، الذي عاملهم بكل سخاء في اوائل القرن الثاني ، قد غدا فيما بعد اشد قسوة ، ولكنه لم يتوصل قط الى الحيلولة دون حصولهم على حق المواطنة ، مع انه قد لجأ عند الحاجة الى مداورات لا تخلو من الغش . وحدث الشيء نفسه للجانب غير الايطاليين ، وهم قلة على كل حال في عهد الجمهورية . اما المعتقون فقد استفاد كل منهم من نظام سيده القديم . وهكذا فان التمييزات القانونية ، التي لا اهمية لها خارج الملائق بالدولة ، كانت تتلاشى خلال جيل او جيلين على الاكثر : ولم تقوض وحدة الطبقة الكادحة الرومانية .

يصح القول نفسه في التمييزات العنصرية . فالعناصر الوحيدة الغريبة حقاً والكثيرة نسبياً . قد وفرها العبيد المتعددون الاجناس : وما كان اعتناقهم ليتحقق الا بعد فترة اختبارية يمارسون خلالها اللغة ويقتبسون العادات السائدة . بيد ان الشرقيين لم يتخلوا عن عباداتهم بسهولة ، لا بل انهم نشروا حولهم عقائدها وطقوسها . ومهما يكن من الامر فان الوحدة الادبية قد كملت بالتالي الوحدة القانونية . ولسنا نعرف في روما آنذاك ، بين جماهير سحسة بالفطرة ، خصومات شبيهة بتلك التي برزت في كبريات مدن الشرق كلاسكندرية مثلاً : ولن ترتدي الكراهية ، التي استهدفت اليهود والمسيحيين بعد ذلك ، طابع العنف الا بايعاز من السلطات .

كان من البديهي ، في مدينة بلغت هذا العدد الكبير من السكان ، أن تبرز البطالة في الفوارق الاجتماعية ومستويات الحياة المادية خلاقات شتى كثيرة . وليس من ريب في ان طبقة الكادحين هذه ضمت عمالاً شجعاناً وشرفاء ؛ فليست امكانات العمل ما اعوزهم . وقد بلغ بعضهم اليسار بمهارتهم وجدّهم ، لا بل توصلوا الى الانصهار في طبقة الاغنياء . ولكن معرفتنا بهذه الطبقات الوسيطة بسيطة جداً . ولا تلقي مستنداتنا ضوءاً آنذاك إلا على طبقات أشد غمراً ، واكثر عدداً . بيد انه يموزنا معرفة النسبة التي تنطبق عليها ، في هذه الطبقات ، الصفات المادية ، والاخلاقية ، التي تمزوها المصادر الى مجموعها . والحقيقة الوحيدة هي ، ان

مثل هذه الفوارق التي لم تبد ضرورية للمعاصرين آنذاك لا تبدو كذلك ضرورية لاولئك الذين يحاولون اليوم ادراك وتفسير ما حدث يومئذ في روما .

فنحن لا نسمى وراء المغالطة ، والقعقة الكلامية ، بل نقتصر على ملاحظة واقع عندما نؤكد ان القسم الاكثر نشاطاً ، في هذه الطبقة ، هو ايضاً اكثرها بطالة . وقد يكفي مجرد وجودها ، بسبب ضخامة عددها ، لأن يثقل على حياة المجتمع كله وعلى مصير المدينة نفسه . وباستطاعتنا تصور ما يمكن ان تأتبه بفضل سهولة العمل السجس التي توفرها لها بطالتها .

ما هو عدد هؤلاء الفقراء الذين يجهلون العمل المنظم ، ويتوصلون مع ذلك الى تأمين معيشتهم ؟ يستحيل تقدير نسبتهم في مجموع لا يقع هو نفسه تحت تقدير . ولكن هذه النسبة تتجاوز ، على كل حال ، تجاوزاً بعيداً ما يستطيع ان يقبل به مجتمع حريص في المحافظة على توازن عادي . وشرّاً ما في ذلك ، من جهة ثانية ، هو ان هذه البطالة تفعل فعل الطعم . فهي تجتذب الى روما ، بالإضافة الى الكسالى بالسليقة ، كافة اولئك الذين يلاقون صعوبة ما في تأمين معيشتهم من نتاج عملهم العادي ! فالكادحون العاطلون عن العمل في المدينة يرتفع عددهم ارتفاعاً مستمراً ، ولا حدود نظرياً لطاقتهم ما دام معيولهم قادرين على تحمل هذا العبء .

فالبطالة تستازم الطفيلية .

الطفيلية

قامت الطفيلية في البداية على حساب الاغنياء . وقد انحرف نظام الزين القديم الذي استلعب حماية « السيد » الأدبية والقانونية عن مفهومه الأول . وقد اصبح من السهل وغير النادر ان ينتخب « السيد » دونما تقيد بأي تقليد عائلي ، كما اصبح من واجب السيد ، الذي لا فرق بين قدرته وثروته المتكاثفتين ، ان يؤمن للزبون حماية مادية ؛ هي أعطية مادية أطلق عليها اسم « سبورولا » التي تعني اشتقاقاً « السلة الصغيرة » المملوءة بالمواد الغذائية ، ولكنها استبدلت تدريجياً ببعض القطع النقدية . وقد أضيف إليها ، كما هو طبيعي ، الإشتراك في ولائم الأعياد العائلية او الاحتفالات العامة . وما كان الاغنياء الحريصون على الدعاوة لأنفسهم لأن يقصروا سخاءهم في هذه المناسبات على زينهم دون غيرهم . فالولائم التي ينظمونها يقبل فيها الجميع ، ومن لا يستطيع احتلال مكانه حول الموائد التي تعدّ حتى في الشاحات العامة يعطى « السلة الصغيرة » وحتى « اناؤ الزيت والنبيد » الذي يستبدل بمبلغ من المال ايضاً . وليس هذا السخاء سوى ثمن التأثير الاجتماعي والسياسي . ومن واجب الرجل الذي قدّرت له الثروة ان يفيد بها مواطنين أقل حظاً : فامتناعه عن ذلك دليل بخل أي دناءة نفس . أجل لم يجهل الشرق الهليني هذا المفهوم ؛ ولكن نظامه السياسي قد جعله ، عملياً ، مقتصرأ على الملوك . ومن حيث ان نبلاء الرومان قد تمثلوا بالملوك وتمتعوا ، كجماعة ، بسلطتهم ، فانهم قد بنوا هذا المفهوم ، راضين بما يجره من موجبات : ويمكننا أن نتصور التجاوزات التي تدفعهم اليها ثروتهم ومنافستهم على السواء .

أفضى منطق النظام الى الطفيلية التي انتشرت على حساب الشعب - الملك نفسه ، أي على حساب الدولة ، ولكن ببطء . فبينما بدأ عهد اسباغ النعم الكبيرة الخاصة في اوائل القرن الثاني ، اكتفت الدولة خلال فترة طويلة نسبياً بأن تكرس ، شأنها في الماضي وشأن أكثر من مدينة يونانية ، جزءاً من موازنة الاعياد لنفقات الولاثم العامة . ولم يفتها من جهة ثانية ان تترك لمنظمي هذه الولاثم من القضاة الحرية في ان يجعلوها ، بجودة اصناف ما كلها وبعدد المدعويين اليها ، تتجاوز الاعتمادات الرسمية ، اذا طاب لهم ، في هذه المناسبة ، ان يتباهوا بالانفاق من اموالهم الخاصة . ثم بدأت في ١٢٣ ، مع كايوس غراكوس ، سلسلة القوانين « الحنطية » التي يكفي هنا ان نستعرض تطورها العام . يبدو ان قانون السنة ١٢٣ قد اقتصر على القليل من الموجبات : فمن حيث انه ارغم الدولة على ان تبيع كل مواطن كمية شهرية معينة من الحبوب بسعر محدد ثابت ، كان بمثابة ضمان ضد ارتفاع الاسعار وطبق عملياً ، على ظروف روما الخاصة التي تجي عيناً الغرامة المفروضة على صقليا ، مجهوداً سبق للندن اليونانية ان بذلته . ولم يتبدل القصد إلا بعد ذلك بواسطة مشاريع او قوانين تدخل على غن المبيع تخفيضاً عظيماً . واخيراً ، في السنة ٥٨ ، سن كلوديوس قانوناً يقضي بالتوزيع المجاني .

ان هذا التطور لمفيد ببطئه ، وباستطاعتنا ان نكتشف له اسباباً كثيرة لا تتنافى بل ترتبط ببعضها على ما نرجح : قصر نَقَس الاغنياء الحاكمين الذين لا يمكن لسخائهم ان يرافقوا ازدياد عدد الافواه الواجب اطعامها ؛ اهمال المفهوم الاول للقوانين الزراعية واعتمادها لمنفعة قدامى الجنود وحدم تقريباً ؛ المزايدة المحتومة في التدابير المأراخية لمصلحة طبقة كادحة اخذت تعي قوتها المتزايدة وتستخدمها ؛ اثره لا نظير له لتحقيقه دولة توسع فتوحاتها توسيعاً مطرداً . وقد انطلق بعضهم من العدد ٣٢٠.٠٠٠ المسجلين في السنة ٤٦ واكدوا ان الانفاق السنوي قد بلغ آنذاك أكثر من ١٩ مليون فرنك (١٩١٤) : ولكن هذا الحساب يستند الى معطيات غير اكيدة وغير ثابتة . ومهما يكن من الامر فالعبء ثقيل . لذلك ، وعلى الرغم من ان الدولة تستطيع حينذاك تحمله دون ان تفرض ضريبة مباشرة على المواطنين ، يحذر بنا ان نلاحظ ان قبولها بهذا العبء يرتبط ، شأنه شأن أمور أخرى كثيرة ، بمفهوم الحق ، الذي يعطيه النصر ، في سلب اموال المغلوب : فلماذا يجعل الاستئثار بمنافعه وقفاً على اقلية من الحكام ورجال الاعمال ؟

وهكذا فان المواطن الطفيلي ، سواء دان بفدائه للاغنياء الذين يجمعون او يستعيدون ثرواتهم على حساب الولايات ، ام للخزانة العامة التي تمولها الغنائم والغرامات ، يعيش عيلاً العالم الذي فتحته روما او لا تزال مستمرة في فتحه : ان المجتمع الروماني تحول الى نقابة نهاين .

تفسر كثرة المشاهد اعتبارات ووقائع مماثلة . اجل لقد سيطرت على نشوء اسباب التسلية مواكب النصر والالعاب ومبارزات المسايفين اعتقادات دينية مورثة عن الاتروسك . ولكن معناها التقوي ما لست ان زال . ولما كان جمهور المواطنين عاطلاً عن العمل ،

توجب توفير اسباب التسلية له . فصرف الذهن في ابتكار الآلهي وفي مقاومة مله بتنوعها وجدها . ولما استحال جعل مواكب النصر أكثر تكرراً ، وزع استعراضها على عدة ايام وأدخلت عليها مشاهد تذكر بأهم حوادث الحملة ؛ ثم أحدثت ألعاب جديدة ، استثنائية في البداية ، ما لبثت ان أصبحت عادية . وكثيراً ما حدث ، بحجة الاخطاء الشكلية ، ان أعيدت الالعب يوماً ثانياً وثالثاً وأكثر احياناً ، حتى سبعة ايام ، منذ السنة ٢٠٥ . ثم تنوع وتحسن برنامجها : فأضيفت ، الى الاحتفالات والتمارين الرياضية ومباريات العدو ، الرقصات اليمائية والتمثيليات المسرحية وعرض الحيوانات الغريبة وفتحها ، واخيراً مبارزات المسافين التي لم يعد الافراد ينظمونها تقدمه لأرواح موتاهم بل غدت ، منذ اواخر القرن الثاني ، جزءاً لا يتجزأ من الالعب المنظمة باسم الدولة . وباستطاعتنا ان نسرد ، في الكلام عن هذا التطور ، تفاصيل لا تحصى . ولنكتف بثلثة ارقام : أمر سيلا بقتل ١٠٠ اسد ، فرقع بومبيوس هذا العدد الى ٣٢٥ وقبصر الى ٤٠٠ .

وسيتولى الاباطرة ما هو افضل من ذلك . ولكن النظام الجمهوري ، بصدد « الخبز » و « الالعب » ، لا يلتزم موقفاً وجلاً : فقد حصل الشعب على قسطه من اللذات التي تسمح بها الثروة ، وخشي المسؤولون عن تأمينها له ، منذ ذاك الوقت ، ان يملّ نخطها الواحد .

وجدت هذه المشاهد والالعب والمبارزات المزيد مما يتممها في تلك التي وفرتها
الافساد والعنف
السياسة . ومرد ذلك الى ان الجمهورية لم تقص عنها عامة المواطنين كما ستفعل الملكية بل برهنت عن سخائها النادر في تقديم المشاهد التي لا يمكن حتى للمتطلبين ان يحكوا على الحياة والتنوع فيها بأنها غير كافية . ومما زاد في جاذبيتها ان ليس ما يمنع احقر الناس من ان يلعب فيها دوراً نشيطاً ، لا بل ان لعب هذا الدور ، الذي هو الامتياز الملكي بالذات ، كان ، نظرياً ، حقاً وواجباً كل مواطن . ولكن شتان بين النظرية والواقع . فمن الجلي ان ابسط المستحيلات المادية لا يسمح لـ ٣٢٠.٠٠٠ المسجلين في السنة ٤٦ ، حتى ولو كانوا قاطنين روما ، ان يجتمعوا كلهم ، أي ان يارسوا كلهم معاً نشاطاً سياسياً ، لا مستمراً فحسب ، بل مقتصرأ على العمل الحاسم الذي هو الاقتراع . وقد غدا هذا النشاط بالضرورة وقفاً على شبه محترفين ينضم اليهم احياناً فضوليون تستهويهم احدى المناقشات الكبرى . فهل يمكن ان يلتقي هؤلاء الاختصاصيون لغير العاطلين عن العمل ، او الهواة ، او المأجورين للمتناقسين ؟

افساد : ولكن لا نستعملن الكلمة بدون تروء . فان الرابطة بين الحامي والحمي التي تفرض مساعدة السيد في الحياة العامة تعني ارتزاقاً في نظر المعاصرين . ولكن الرومان ، انطلاقاً من المفهوم الاول ، يرون غير هذا الرأي : لا استعطاء ولا شراء ، بل حماية وعرفان جميل توقيري . وكذلك يبقى السخاء الخاص الذي يتناول الشعب بكليته ، في نظرهم ، بعيداً جداً عن التصميم على الافساد الجماعي : انه انعام مجرد عن الغايات ، وان القوانين التي حاولت ، في القرن الثاني ،

الحدث منه ، يجب ان تفسر كقوانين تقيد النفقات المفرطة . ولكن هذه الفوارق لا تنافي الحقيقة العارية : فعدد الزين العظيم والمآكب والالعب تؤمن النجاح السياسي . اصف الى ذلك ان قوانين اخرى حاولت تنظيم « المنافسة » ، أي الدعاوة الانتخابية ، وعاقبت خصوصاً شراء الأصوات الفردية الذي مورس على اتساع وقحة متفاوتين . ففي السنة ١١٠ صاح جوغورثا قائلاً : « مدينة معروضة للبيع وناضجة للزوال اذا وجدت من يشتريها » . وهو انما يفكر بالحكام خصوصاً ؛ ولكن هؤلاء مرغون ، في الدرجة الاولى ، على شراء وظيفتهم التي تتيح لهم ، بعد ذلك ، ان يبيعوا انفسهم . ظروف جديدة للكسب تسنح للفقراء ، وضربات موجبة الى سير النظام الطبيعي .

وهناك ما هو اسوأ من هذا الافساد المتستر او السفيه : العنف الذي يدفع اليه الاخلاص المهووس لرجل او لقضية والضمير المسلكي الذي يتميز به الطاغوت المأجور لتنفيذ كافة المهام . وفي ارض الطبقة الكادحة المدنية تجمع عصابات المرجفين ، من المواطنين وغيرهم الذين تنفلت صيحاتهم وفضاظاتهم انفلتاً يزداد تكرره ، مقاطعة مناقشات الجمعيات والاقتراعات ومفضية احياناً الى الحريق والجريمة . ومنذ فاز طيباريوس غراكوس بمنصب ، الهامي عن حقوق الشعب ، اضطرت جميع الاحزاب لان تلجأ الى مساندتهم ، لان العنف بدا وكأنه الحماية الوحيدة من العنف . فاستقرت الفوضى استقراراً دائماً ؛ وهي مدينة بنجاحاتها المستمرة لوجود جمهور عاطل عن العمل تتولى عناصره المتطرفة ، في خدمة مستخدميها ، إرغام الباقين على الصمت حين لا تجبرهم وراها جراً .

البؤس والديون
الاحتداد امر يسير حين نحاول تهذيب الاخلاق . وفي ما يعيننا ، لا يمنع الوقوف موقف الحذر من هذه المحاولات من النزول عندها قسراً ، حتى اذا اخذنا بعين الاعتبار تفرّض الذين يلقنونا الدروس والذين تفسر ثروتهم الاحتقار للموس عند اكثر الناس انسانية . ولكن هذا الانحطاط مصدره البؤس . فنذ القرن الثاني ، اتخذ التعبير « عامة الشعب المدنية » معنى ازدرائياً ؛ فانتسي آنذاك ، بشكل نهائي ، المعنى القديم لـ « عامة الشعب » وتحدد معناها المزدوج ، المادي والادبي ، الذي يرافقها حتى اليوم . وان شيشرون ، الذي يمالق الجماهير حين يتوجه اليها ، ليعبر في ظروف اخرى عن اشمئزازه : « قدر المدينة وثمالتها » . لم تخل أية مدينة كبيرة منها ولا تخلو منها اية مدينة كبيرة حتى اليوم . بيد ان الخيف في روما ، في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، هو اهميتها العددية . ولذلك يمكننا القول بهذه الاستعارات على ان لا ننسى آلام هذه العامة ولا مسؤوليات اولئك الذين شاهدوا قيامها لامبالين ، فتركوها تنمو وتتألم ، مستخدمين عيوبها وسجسها ومحركين حماسها وغضباتها .

اجل ليست اسباب التسلية ما اعوزها . وان غذاءها شبه مؤمن تقريباً شرط ان يبقى عدد افراد العائلة محدوداً . وهي تجمع بصعوبة بعض النقود بقيامها بعمل غير مضمون يزيد في ندرته

وجود العبيد . ولكن ما تجمعه لا يكفي لسد النفقات ، ولسنا نفكر هنا بتلك التي تنجم عن البطالة نفسها . فما هو السبيل بنوع خاص لتأمين السكن في مدينة يزداد سكانها بسرعة مطردة ؟

ان تشييد المساكن الكبيرة الجماعية حيث يتكدر الفقراء محرومين من كل رفاهية ، تجارة راودت مخيلة ذوي رؤوس الاموال وانتظروا منها ارباحاً هامة . فالاجور مرتفعة والتشريع قاس على المستأجر . واذ كان الاختلاط يفسد الاخلاق ، فان الاستدانة والقلق الذي تثيره يفعلان فعل خير الثورة . وان مسألة الديون ، التي تجعل منها ادنى ازمة معضلة حادة لا تواجه المبدرين الاغنياء فحسب . فهي اعظم اقضاضاً بالنسبة للفقراء الذين يجد المهيّجون الفوضويون بينهم عدداً كافياً من البائسين لتعريض النظام السيامي والاجتماعي للخطر . وقد سبق ورأينا ان مؤامرة كاتيلينا قد صادفت في الزمن احد هذه الاندفاعات المحمومة . وكانت بداية الحرب الاهلية الكبرى الثانية منطلقاً لاندفاع آخر ، لا سيما وان بعض انصار قيصر قد اعتقدوا ان الساعة قد حانت ، بانتصاره ، لتحقيق كل مجبوحة ورخاء . وقد انتهز بعض الحمامين عن حقوق الشعب غياب الدكتاتور واقترحوا ، في السنة ٤٨ ، وفي السنة ٤٧ ايضاً ، تأجيل دفع الاجور و إلغاء الديون ، ولم يعد النظام الى نصابه دون اشتباكات دامية . وحين عاد قيصر ، توفى ، بعد صعوبات شتى ، الى سن قانون تقديمي يقضي بحسم الفوائد وتأجيل الدفع سنة واحدة والغاء سجن المدينين .

ان هذه الاضطرابات ، بتكررها وخطورتها ، تمّ عن شيء آخر غير السجس الخاص بهذه الطبقة : بؤس مادي وأدبي يجعل من ضحاياه أدوات في ايدي عنف أعمى .

الخاتمة

ان هذا العرض أبعد من أن يستطيع تبين كافة مفارقات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في روما وايطاليا . ولعل عيبه الاول انه لم يعط استقلالاً كافياً لطبقة لن تهب ريحها إلا في العهد الامبراطوري مع انها اخذت تبرز ، ناشطة جداً ، في العهد الجمهوري : اعنى بها « بورجوازية » البلديات الايطالية ، والطبقة الوسطى في المدن الصغرى . وهي في الحقيقة تكاد لا تتميز عن الفرسان الذين انضم اليهم أكثر اعضائها حظاً والذين لا يتميز جمهورهم ، بدوره ، عن الملتزمين العموميين . واتصفت بالنشاط فدانت هي ايضاً لاستثمار الفتوحات برؤوس اموالها الاولى ، حتى ولو وظفتها بعد ذلك في الاراضي التي راقبت تحسينها . غير ان دورها السياسي ، اذا كان دورها الاقتصادي هاماً ، قد بقي في العهد الجمهوري ولا أثر له تقريباً : ولكن عناصر بشرية نشأت فيها لن يفوت النظام الامبراطوري الاستفادة منها للادارة ، وحتى لتولي شؤون الدولة في عهد فسبسيانوس .

لذلك فان الكلام عنها كطبقة مستقلة تقابل الطبقات الاخرى لن يبدل شيئاً في الاستنتاج العام . فقد هدف كل هذا العرض الى تبيان مدى العمق الذي بلغه الفتح الروماني في قلب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الشطر الاعظم من ايطاليا . فهو قد حقق ، على دفعات قوية تلتها تقنية منظمة ارمقت المناطق التي اخضعت لها ، انتقال كنوز ، الى شبه الجزيرة ، كدستها اقدم وأغنى حضارات شواطئ المتوسط . وبفضل هذه الكنوز ، احدث في ايطاليا اقتصاداً دقيقاً وريكياً بفعل تركيبه . فأتاح للبعض جمع ثروات طائلة وهوّـر البعض الآخر بمنافسة المصنوعات المستوردة والعبيد الغريباء ، واوجد بالتالي تفاوتاً اجتماعياً يئناً وأثار معاضل عجز النظام ابداً في معالجتها عن اعتماد حلول غير الحيل واستخدام القوة ، او عن اكتشاف هذه الحلول نفسها .

ليست اهمية التطور الاقتصادي والاجتماعي ، بغية تفسير « موت » الجمهورية الرومانية ، دون اهمية التطور السيامي نفسه ، وقد وجه التطورين على السواء مدى الفتوحات وتوسعها الدائم .

الفصل الرابع

هليانة روما: الديانة

لقد برز أيضاً تطور عظيم في حياة الرومان الأدبية ومعتقداتهم وطقوسهم الدينية ومثلهم الجمالية . ومع انه يشبه ، باتساعه ، التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، فانه ينطوي على بعض المميزات الخاصة .

من هذه المميزات انه اقل استقلالاً حيال التأثيرات الخارجية . ويمكننا في الواقع تحديد هذا التطور بكلمة واحدة : « هليانة » . وبديهي ان هذا التحديد موجز ، شأن كل تحديد . لذلك سنحاول في هذا البحث ان نضيف اليه ما ينقصه بالضبط . ولكنه على العموم تحديد مقبول : فان الاغريقي الذي ينزل روما ، في اواخر العهد الجمهوري ، لا يستطيع ، دون اطلاع مسبق ، ادراك المعاضل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بينما هو لا يستغرب المشاغل الدينية والفنية والفكرية . ولا يعني ذلك ان قرب ومثل الحضارة اليونانية ، الحاسمين هنا ، لم يترك أثراً هناك . فهناك أيضاً قد فعلا فعلهما وقد سبق وألحنا الى ذلك ، كأثر. ممثل الفاسيلفس (الملك) على القادة الظافرين . ولكن هذا الاثر ، المحدود دائماً ، لم يلعب سوى دور ثانوي ، ضائعاً بين العوامل الرومانية بالذات . وليس بالتالي ما يستحق المقارنة بما سيظهر الآن .

لما كان هذا التطور قد استطاع ان يجبل ، بصورة ابعد عمقاً ، النفوس والعقول وفاقاً لنماذج اجنبية ، فهذا يعني بالضرورة انه كان مطلق الحرية في العمل . ولا عجب في ذلك . فالدولة والمجتمع قد ابديا مقاومة افضل لان الانظمة والمصالح قد ساندتها ، بينما كانت الحياة الادبية اكثر مطاوعة . وقد اسهم التطور الذي تناو لها في خلخلة التنظيم القديم لانه بدل مثال الانسان الذي توافق معه هذا التنظيم . ولكن نتائجه كانت ابطأ ظهوراً : فهو لم يصطحب اية ثورة فورية في نظام الطبقات المختلفة وعلاقتها المتبادلة . لا بل لم يتضح قط للمعاصرين ان الملكية الامبراطورية قد استندت اليه لتجعل من نفسها وريثة الفوضى الجمهورية . فعلى تقيض ذلك ، حلول النظام الجديد ، اقله في اول عهده ، مقاومة بمض الشخصيات التي اعتبرها المحافظون

على التقليد افساداً وشرأ . فعلى الصعيد الديني تظاهرت النزعة التي يمثلها اوغسطس بالمحافظة على ما هو قديم . ولا فرق هنا اذا كانت صادقة وفعالة ام لا : ولكن الشيء الاكيد ان التطور الثقافي لم يرتبط ارتباطاً مباشراً ، بنسبة غيره ، بالتيار الذي افضى بروما الى نظام جديد .

ومن هذه المميزات ايضاً - وهو يرافق الاول - ان التطور ، على هذا الصعيد ، كان اسرع حصولاً . اجل لقد ازدادت سرعته وغدا اثره اعظم انتشاراً وعمقاً في القرنين الاخيرين من العهد الجمهوري . ولكنه اخذ بالبروز قبل ذلك بزمان بعيد . ويرد تقدمه النسبي الى انه اقل ارتباطاً بالظروف المادية ، ولا سيما الثروة . كان لهذه الاخيرة اثرها : وان تكران ذلك ، بصدد الفن مثلاً ، معناه المغالاة ، حتى الولودية ، في الخوف من التدنيس المادي . ولكن الارتباط ، على صعيد الديانة والادب ، لا يظهر بهذا الوضوح الملم . لذلك فقد اكتفى الرومان ، دون ان ينتظروا الفتوحات الكبرى واستثمارها ، بروابط ايسر وايسر اقامة . منذ عهد باكر ، لعب الاتروسك دور الوسطاء مع الحضارة اليونانية ، بالإضافة الى اثرهم المباشر العظيم بفضل سيطرتهم . ناهيك عن ان الحضارة اليونانية لم تكن محصورة في الشرق المتوسطي . ف منذ القرن الثامن استوطن بعض الاغريق ايطاليا الجنوبية . وكانوا على صلة بكافة مناطق شبه الجزيرة . واقتبست عنهم روما الشيء الكثير حتى قبل ان تخضعهم . ومنذ ان بدأت تندخل في اليونان البلقانية ، في اوائل القرن الثاني ، تكلم كثير من قادتها وساستها اللغة اليونانية بسهولة : منذ ذلك الوقت ، جبلت النخبة الاجتماعية بثقافة اجنبية كان من الطبيعي ، بعد تسربها ، ان يزداد انتشارها . لا بل كان من شأن تفوق الحضارة اليونانية وجاذبيتها ونفوذها ، لو استطاع العالم الهليني المحافظة على استقلاله ، ان يضمن هليانة روما ، ولو ببعض البطء . ولكن فتحه قد زاد ، بفضل الصلات المتعددة ونقل الرجال ورؤوس الاموال من الشرق اليوناني الى ايطاليا ، في سرعة تطور ترقى اصوله ونتائجه الاولى الى عهود قديمة جداً .

اجل « ان اليونان المحتلة قد احتلت قاهرها اللفظ » . ولكن هوراثيوس ، حين أكد ذلك ، قد فكّر بأدب معين ، وحتى بعروض معين . لذلك فلنحذرن الامثال السائرة : اذ ان هذا الجار اللفظ لم ينتظر احتلال اليونان كي يلتبس دروسها .

١ - الديانة والحياة الدينية التقليديةتان

تبدو سرعة هذا التطور بوضوح خاص في الحياة الدينية .

لم يأل الاختصاصيون جهداً في البحث عن الديانة الرومانية الاولى وادراكها . وقد ساعدت مجهودهم هذا ، ولا تزال ، ظروف مؤاتية : معلومات علماء الاجتماع وأصول الشعوب عن الذهنية الاولى ، تقدم الألسنية ، اعتناء أساليب المقارنة ، اخيراً ،

وخصوصاً ، - اذ ان هذه الظروف ليست وفقاً على الدروس عن الديانة الرومانية - الوفرة ، اقله النسبية ، في المستندات الموجودة المدينة ، هي ايضاً ، للتعمير الاستثنائي الذي عرفته اسماء وطقوس يرفع التحليل ، بجلاء متفاوت ، الستار عما يحيطها من معتقدات . ولذلك فقد ادى هذا المجهود الى نتائج اكثر اقناعاً ، بوضوحها ، من تلك التي ادت اليها حتى اليوم دراسة الديانة اليونانية مثلاً .

ليس في اي مكان غير روما ما يفرض بمزيد من الاقتناع ، المقارنة المؤثرة بين النزعات الدينية في شعوب العصور القديمة ونزعات شعوب اليوم المتخلفة . فعلى غرار هؤلاء آله الرومان الاولون القوة الحيوية والطاقة الخفية والقوة التي تتحكم بالعمل وتحققه ، سواء كان هذا العمل بشرياً ام مستقلاً عن الانسان ؛ والعامل ، يد او شيء جامد ، وهو غير منظور احياناً ، لا قدرة له بدون الارادة التي تستخدمه لعملها . فهذه الارادة اذن ، او ارادة غيرها تناهضها ، هي التي يتوجب على الانسان ان يحاول استئالتها حتى تنفعه اذا كانت متعطفة وحتى يبطل اذها اذا كانت مضرة .

ان هذا الاعتقاد الذي استمر حياً ، يفسر ميلاً طبيعياً دفع الرومان الى ان يكرموا ، كآله او عفاريت تدير هذه الأعمال ، اقل عمل ، لا بل اقل مرحلة من مراحل . وقد اعترف الرومان بعدد لا يحصى من « القوى » او الارادات وخصوصاً بحركة احترام او تقديم او صلاة قصيرة : فالطفل يرضع بفعل قوة من هذه القوى ويشرب ويأكل بفعل غيرها ، وتقوم « قوة » بالحراثة الاولى ، وغيرها بالحراثة الثانية والاسلاف وقلب الارض ونزع الأعشاب ، وتكون « قوة » عقد جذع الحنطة ، واخرى تعطي الحبة غلافها ، الخ . ان هذا الاستعداد العقلي ، الذي لم يتلاش في يوم من الأيام ، قد ادى بسرعة الى تأليه مجردات هي خاصيات رمزية لبعض الآلهة ، ثم افضى ظهور الفلسفة الى اعتماد هذه الطريقة اعتماداً متزايداً : فكانت لكونكورديا (اتفاق) معبدها منذ السنة ٣٦٧ ، ولليبرتاس « *Libertas* » (الحرية) ايضاً في السنة ٢٣٨ ، ولهونوس وفيرتوس (الشرف والفضيلة) في السنة ٢٣٣ ، الخ .

لم تمنع هذه النزعة المزدوجة الى تعميم ما هو الهى وتجزئته الى ما لا نهاية له من اعتبار بعض « القوى » اعظم شأنًا من غيرها . ومن البديهي ان تسلسل مراتبها قد اختلف باختلاف الأوساط الاجتماعية وباختلاف الزمان . ويثير اكتشاف اسباب هذا التسلسل واختلافه صعوبات كبيرة ، لأن تأثيرات كثيرة ، تتفق تارة وتتناقض اخرى ، قد فعلت فعلها منذ عهد قديم جداً ، ولذلك فان الترتيب ، كما تجدر محاولته ، يرافقه بالضرورة ارتياب وتحكم .

ولا يعقل ان لا يكون الرومان قد ورثوا شيئاً عن اقدم شعوب ايطاليا الاصلية التي انتمت هي نفسها الى مجموع « المتوسطين » . ولعله من الجائز ان ننسب الى هذا المنشأ عبادات تتجه في الواقع ، من وراء آلهة مختلفة الاسماء ، الى مبدأ الحصب ، ويبدو ترجيح المنشأ نفسه ممكناً

لبعض مظاهر عبادة الاموات لا سيما وان ارتباطها بالعبادات الزراعية ، عن طريق اعتقاد مشترك بالتجديد والبقاء ، امر طبيعي جداً من جهة ثانية .

ويتمثل اسهام الهندو اوروبيين بالآلهة السماويين : فان اسم جوبتير ، إله النور والزوبعة ، يحتوي على اسم زفس الذي اضيفت اليه في حالة رفع الاسم ، تسمية « *Pater* » (الاب) . ومما لا ريب فيه ايضاً ان عبادات المنزل (فيستا) والعائلة تتصل بالمتشأ نفسه .

واخيراً فعلت بعض التأثيرات الاتروسكية واليونانية فعلاً تنظيمياً بغية تقريب « القوى » المتجاورة واعطاء بعض الآلهة شخصية مميزة . ولكن الاتفاق ابعد من ان يتحقق آنذاك حول طاقتها وتحديدها وموعد مفاعيلها .

اضف الى ذلك ، ان هذه التأثيرات الأخيرة ، مها بلغ من قوتها ، لم تحد قط ، تعدد الآلهة بشكل محسوس ، من تكاثر مطرد لامتناه في عدد الآلهة الذين اعترف بهم الرومان . فقد عرفوا أكثر من جوبتير واحد شخص كل منهم بنعت عبادي يميزه ، وبمعبد او مذبح ايضاً . فقد حمل هذا الاسم آلهة سياسيون : إله المدينة الاعظم الذي اقام له الملوك الاتروسك معبداً على الكابيتول ، وإله اتحاد المدن اللاتينية ، لاتيار (*Latiar*) او لاتيال (*Latial*) الذي كان له معبده على الجبل الالبي ؛ وآلهة سماويون ، فكان هنالك جوبتير لوسيتيوس (*Lucétius* اللامع) واليسوس (*Elicius* الممطر) وفولنور (*Fulgur* الزوبعة) وسومانوس (*Summanus* البرق الليلي) وقوانس (*Tonans* الرعد) ؛ وآلهة تستجلب السعد ، فكان هنالك جوبتير فيريترس (*Férétrius*) ، إله الشجرة التي تعلق عليها غنائم العدو ، ولايس (*Lapis*) ، الإله الذي تمثله صوافة ، ويغلب انه استمرار لعبادة الفأس في عهد ما قبل التاريخ ؛ وآلهة عسكريون ، فكان هنالك جوبتير بروونيافور (*Propugnator* المدافع المحارب) ، وستاتور (*Stator* « موقف » المحاربين) ودينولسور (*Dépulsor* « طارد » الأعداء) وفيكتور (*Victor* المنتصر) . وباستطاعتنا ان نمضي في التعداد بعيداً وان نقوم بتعداد مماثل لكثير من الآلهة .

يبدو على بعض الوضوح ، من ثم ، ان مجهود التنظيم ، الذي لم يصبح قط قياسياً ، والذي لم يتجل إلا بالمائلة ، قد حقق نتائج محدودة جداً . ويمكن القول نفسه عن مجهود التوضيح . فان الرومان بفعل اعتقادهم بانتشار المبدأ الإلهي في الطبيعة انتشاراً شاملاً ، يبدون وكأنهم قد رضوا اهدأ عن مفاهيم مترددة ومبهمة . فهم لم يهتموا إلا بقناعة قصوى مدهشة ، لإعطاء شخصية لآلهتهم وحتى للتثبت من هوياتهم . فلا التشبيه ، ولا الميثولوجيا ، على ما تجيزه من فوارق ، شكلاً بالنسبة لهم حاجات او قناعات حقيقية ، حتى ولو تعلموا مبادئها على يد الاجانب . ودرجوا على ان يدخلوا على صلواتهم صيغاً متحذرة كهذه « ذكرأ كنت ام أنثى » او « أيا كان الاسم الذي تؤثر اطلاقه عليك » . ومنعهم الاعتقاد نفسه من ابداء أي اعتراض مبدئي

على استقبال إله جديد : فقد كفاهم في السنة ٣٩٠ ان ينسب صوت مجهول احد المواطنين ، ليلاً ، بوصول الغالين قريباً ، حتى يشيدوا ، دوغما اعتبار آخر ، مذبحاً لأبوس لو كوانس أو لوكوتوس (*Aius Loquens ou Locutius*) (المتكلم) . وهكذا أيضاً يمكن تفسير إحدى خصائصهم الدينية البارزة ، أعني بها قابليتهم ، التي لا نظير لها في الشعوب القديمة ، حيال الآلهة الأجانب . فقد كانوا مستعدين لكل تقارب ، معتمدين دون صعوبة ما أسموه « بالتأويل الروماني » . أي اكتشاف إله يعرفونه ويعبدونه ، في الإله الأجنبي ، ولم يكونوا من جهة ثانية أقل استعداداً لتبني الإله الجديد باسمه الأجنبي دون ان يبحثوا في زوهم عن إله مماثل أو إله يدخل هذا الإله الجديد في الزون (البانتيون) .

الانسان امام الآلهة
مما يمكن من ارتفاع عدد هذه القوى الخفية المهمة ، وربما بسبب عددها الذي حال دون رغبة المؤمن في ارضائها جميعها ، فقد حدث للمؤمن ان خشياً : ولكنه كان من المستحيل عليه ان يحبها . وليس المقصود هنا بالشعور العاطفي : فكل شيء قد اقتصر على طقوس حددت تفاصيلها ووجب الخضوع لها .

لا ريب في ان هذه الطقوس قد ارتدت في الاصل طابعاً سحرياً مكرهاً للقوة التي تقسام الطقوس من اجلها . ولم يزل هذا الطابع عنها كلياً : فان استعمال بعض الادوات واللجوء الاضطرابي الى لباس التنكر يرتديه المشتركون في الطقوس ، وحتى الشخص الرئيسي ، كالفائد الظافر في موكب النصر ، لا تفسير آخر لهما ؛ واستمرت بعض الصلوات ايضاً بمثابة رقى حقيقية ، ولم يتجاسروا في سواها ، إلا بكل عناية واهتمام ، على تعديل أية كلمة من كلماتها . إلا ان هذه الطقوس ، حين نستطيع فهمها ، ترتبط في مجملها بالاصول القانونية التي تتفرع ، مع ما يرافقها من ايماءات وصيغ ، عن السحر ايضاً . واننا لنجد احياناً مطابقة مذهشة بين ايماءات وصيغ متماثلة ، نقلت نقلاً احياناً من طقوس الى اخرى ، في ممارسة القانون المدني وممارسة الديانة . « فالتقوى » تعتبر قبل كل شيء آخر كعدالة نحو الآلهة ، أي كتنفيذ ، غاية في الامانة والدقة ، لكل ما هو متوجب لهم وما نعلم علم اليقين بأنه يرضيهم ، حتى نستميلهم لاستجابة ما نطلبه منهم . اضع الى ذلك ، في اغلب الاحيان ، ان الصلاة والذبيحة يرافقها نذر ليس سوى صفقة مؤخرة الاجل ، يعبر المؤمن فيه ، بكلمات يجتهد معها الحؤول دون أي تهرب يمكن ، عما يلتزمه وعما يتعهد بتنفيذه حين يستجاب ملتزمه .

اجل ليس هذا المفهوم خاصاً بالديانة الرومانية : فالانسان ، في ضعفه يستخدم كل وسيلة لديه تجعله يأمن شر القوى الفائقة الطبيعة . ولكنه لا يبرز ، في أية ديانة اخرى ، بمثل هذا الوضوح وهذا الشمول .

الديانة المائيلة
كان هنالك تعبد خاص . ومع ان الدولة لم تفرض أية عقيدة ، فقد كان لها الحق في مراقبته . ولكنها لم تستخدم هذا الحق الا عرضاً ، وفي عهد متأخر ، بغية منع المبادات التي اعتبرتها خطيرة . ولذلك فقد ازددى هذا التعبد اشكالاً مختلفة جداً . ونحن

نشاهدده خصوصاً في مظاهر العبادة المنزلية لا لانتنا نعرفها معرفة جيدة عند الرومان فحسب ، بل لأنها عندهم اعظم شأنًا منها عند اي شعب آخر .

فهل كانت علة أم معلولاً يا ترى ؟ وهل هي قاعدة تنظيم العائلة الرومانية الوطيد ام انعكاس وجودها السابق على الصعيد الديني ؟ لقد اخذ فوستيل دي كولانج ، بقوة منطقته المعروفة ، بالتفسير الاول جاعلاً من العائلة بعد ذلك الخلية الاولى التي كونت المدينة بانضمامها الى خلايا اخرى . ولكن اكثرية الناقدين الساحقة تميل منذ زمن بعيد نسبياً ، كما يبدو ، الى التفسير الثاني . ومهما يكن من الأمر ، فان هذه العبادة قد جاشت بحيوية ومقاومة اقوى منها في العبادات الرسمية .

استلزمت عبادة فيستا العائلية ، التي لم يكن مذهبها سوى الموقد المنزلي الذي لا تنطفئ ناره ، والذي تلقى فيه القرابين في ساعات معينة ، فيندلع منه اللهب الراقص ، ويقدم له رب العائلة قرينته حال زواجه منها وطفله حال ولادته . واستلزمت ايضاً عبادة « جن » العائلة الذي غالباً ما تمثله حية مرسومة على الحائط قرب الموقد ، وهو روح الجدود والقوة الحيوية للذرية المتجسدة في رب العائلة ، بينما كان لربة العائلة إلهة حامية هي « جونون » . ولم تهمل العبادة شتي « قوى » المنزل وحيثاته ، ابتداء من آلهة البيت (*Pénates*) الذين اشتق اسمهم من كلمة *Penus* (المؤن) . وقد دخل عليها آلهة من الخارج لا سيما « لار » (*Lares*) آلهة الاملاك : فخذ اواخر القرن الثالث يتأيد وجود « لار » عائلي .

وما كانت الديانة المنزلية لتنسى الموتى . ولكن عبادتهم على ما يبدو ، كانت الجزء الاضعف فيها ، ما لم يشركوا ، كجدود ادنين ، في عبادة جن العائلة ورئيسها . ولكنهم اعتبروا مستمرين في حياة غامضة ، دون ان يشعر ذورهم بحاجة الى توضيح اقامتهم تحت الارض . وكان من المهم ارضائهم بالقرابين ، وقد عنى اسم « مان *Mânes* » ، الذي ظهر في عهد متأخر نسبياً ، الموتى الذين امكن ارضائهم . اما اهمال الموتى الآخرين ، الـ « لارف » (*Larves*) والـ « ليمور » ، فقد جعلهم يعودون الى الأرض ، قلقين ومؤذنين : حاولوا من ثم طردهم من المنزل باحتفالات خاصة . وهناك اكثر من سبب يجعلنا نشك في ان كل ذلك كان رومانياً حقاً في الأصل . وانما تجدر الإشارة الى ان الذعر الذي استحوذ على الاطروسة لم يتسرب قط الى هذه العبادة .

لما كانت حياة الروماني القديم العادية حياة فلاح ، فقد وافق العبادة المنزلية ديانة فلاحين بالضرورة عبادة لمنفعة الاملاك ، معدة للمحافظة على المواشي والبذور والحصاد وازدهارها . ولدينا ، بهذا الصدد ، في بحث « كاتون » في فن الزراعة ، تفاصيل عديدة دقيقة عن الاعياد الواجب الاحتفال بها والذبايح الواجب تقديمها والصلوات الواجب تأديتها وتطواف الحيوانات الواجب تنظيمه حول الاملاك . فكل عمل من اعمال الحياة الزراعية يجب ان يرافقه

عمل ديني يلتبس نجاحه او يحاول تهدئة غضب اله المكان ، قبل القطاف ، تقدمه نبيذ وامعاء خنزيرة لـ « سيريس » ، ونبيذ وبخور ونوع مختلف من الحلوى يضاف الى كل منها لـ « جانوس » وجوبيتر ؛ وقبل تخفيف شجر الغابة او الشروع باحياء الارض ، تضحية خنزير ؛ الخ . وكان يتولى تقديم هذه القرابين فرد من الأفراد ، كـرب العائلة للعبادة العائلية . ولكنه بذلك كان يسهم في ازدهار الجماعي : فقد اقتنع « كاتون » بأنه مواطن فاضل حين يقوم بواجبه كملاك فاضل .

ومن جهة ثانية تسربت المشاغل الزراعية تسرباً عميقاً الى الديانة الرسمية أيضاً . اجل لم تأت أبعد الروزنامات قدماً ، التي نسب تحديدها الى الملك « نوما » (*Numa*) ، على ذكر جوبيتر الكابيتولي ؛ ولكن العدد الاكبر من الاعياد التي لحظتها هذه الروزنامة وغيرها قد مثلت ، بمواعيدها ، وطقوسها حين يمكننا تفسيرها ، وبالأله موضوع العبادة ، أعياداً من الحياة الريفية . وقد اشترك عدد كبير من عظام الآلهة في هذه الحياة منذ القديم او اشتركوا فيها بدائرة ما . فكان هنالك « جوبيتر ليبر » (*Jupiter Liber*) إله الكرمة وأعياد للنبيذ الجديد . وقد كان « نبتون » (*Neptune*) إله الينابيع قبل ان يغدو إله البحر . واشتق اسم « ساتورن » *Saturne* من كلمة *Sata* التي تعني « الاراضي المزروعة » . وان « مارس » *Mars* نفسه ، الذي اعتبر في النهاية إلهاً للجيش والحرب ، قد قام في البداية بدور ليس دون هذا الدور شأنًا كحام للعمل الزراعي ومحاصيله : فهو من أقبعت لأجله احتفالات « التطهير » بتطواف دائري تعقبه ذبيحة كهري ، وصفها « كاتون » كما وصف الصلاة أيضاً ، مورداً كلماتها الكثيرة التدقيق « ان تمنع وتطرد وتبعد الامراض المنظورة وغير المنظورة والجذب والتخريب والكوارث وآفات الفلك ... » .

الديانة الرومانية القديمة هي قبل كل شيء آخر ديانة ارباب العائلات والفلاحين ؛ ويجب ان نفكر هنا بما كانت عليه ، زمنًا مديدًا ، حياة الطبقة الحاكمة اقتصادياً واجتماعياً في روما حيث اتاح التملك قيام واستمرار العائلة المجموعة حول رئيسها ، وليس عرضاً انها كانت في الوقت نفسه ديانة حقوقيين ؛ فليس من التحكم ان نكتشف فيها ، مع اعترافنا بأن هذه المشاعر قد بلغت في هذا الشعب درجة خاصة من القوة ، الحرص على المصالح وتفهم الواقع ، وكلاهما محتومان ، او أقله أكثر طبيعية من الظواهر الصوفية الحارة ، في ملاكين ورؤوساء كتل عائلية يتحملون اعباء المسؤولية . فكان من المتوجب ان تتبدل أمور كثيرة كي تتبدل نفس البشر وتتبدل معها ديانتهم ؛ ولكن هذه الديانة ، بفعل القوة التي يوليها التقليد ، قد قاومت التبدل مقاومة عنيفة .

تبنت المدينة بين الآلهة الكثيرين عدداً كبيراً ، ولم تكف عن تبني آلهة جدد ، الكهنوت دون ان ترضى ، في أي حال ، بالتخلي عن إله قديم واحد . وسيتباهى اوغسطس بأنه أعاد بناء ٨٢ معبدًا في روما : فاذا ما فكرنا بالمعابد السليمة والمذابح البسيطة جاز لنا ان

تتخيل عدداً مرتفعاً جداً . وقد اقتضى لهذه العبادات الرسمية من يؤمنها ويحتفل بأعيادها باسم الدولة . فعاد نصيب كبير من هذا العبء ، كما في المدن اليونانية ، الى القضاة الذين هم الوارثون الرئيسيون للسلطات الدينية التي تمتعت بها الملكية القديمة ، لا سيما حق استطلاع الحظ وتقديم الذبيحة باسم الجمهور والتعهد بالنذور التي تقيده . ولكن بينما كان لدى الاغريق كهنة دائمون قليلون ، كان لروما عدد كبير منهم .

ان كلمة « *Sacerdoce* » تنطوي على واقع من الصعب جداً تحديده بسبب فقدان كل صفة مشتركة حقيقية . لا بل ان التحديد السلي نفسه يجب ان يفسح مكاناً للاستثناءات . واذا ما نحن أهملنا اقل هذه الاستثناءات خطورة ، يكفي ان نقول ان أعضاءه لم يؤلفوا اكليروسا او هيئة كهنوتية . فجاءاتهم قد بقيت مستقلة بعضها عن البعض . وكانوا جميعهم مكرسين ترافقهم صفتهم الكهنوتية حتى الموت . ومع ذلك فقد عاشوا في الوقت نفسه حياة المواطن العادية دون ايقاف نشاطهم السياسي الذي قد يرغمهم ، مثلاً ، على التغيب عن روما وتولي قيادة احد الجيوش . إلا ان وظائفهم لم تكن شاغلة ، ولم تجعلهم وسطاء بين المدينة والآلهة . فقد قاموا خصوصاً بدور القيمين والمستشارين الدينيين لدى السلطات العامة . بيد انه يجدر القول مرة ثانية هنا ان أياً من هذه التأكيدات لا ينطبق تماماً على كافة الأعضاء . فقد مثل الكهنوت الروماني سلسلة من المؤسسات المتلاصقة التي ظهرت في تواريف مختلفة واستجابات لرغبات مختلفة بمصادرها ومبادئها وتنظيمها . لا بل لا يجوز القول ان الكهنوت بجميع فئاته قد خضع لتطور عام ؛ فكان للتطور سرعته الخاصة في كل من الفئات التي تناولها ، وقد تملّص بعضها منه .

فبالنظر الى مثل هذا التنوع في الفئات الكهنوتية والى عددها الكبير ، نرانا عاجزين عن استعراضها استعراضاً كاملاً ، لذلك نكتفي ببعض الأمثلة .

كان هنالك كهنوت فردي . حافظ « ملك الذبائح » (*Rex Sacrorum*) على الصلاحيات الدينية التي لم تنتقل الى القضاة . وأشرف على الذبائح والولائم المقدسة والاعیاد ؛ وليس هذا سوى دور تمثيل . وكان هنالك ١٥ كاهناً خاصاً افرد كل منهم لإله معين ؛ وقد خدم ثلاثة منهم إلهاً عظيماً ، جوبيتر ، ومارس ، وكويرينوس (*Quirinus*) . واحيط دياليس (*Dialis*) ، كاهن جوبيتر ، بأعجاف عظيمة ، ولكنه اخضع ، كما أخضعت امرأته « الكاهنة » لمراسم عبادة مازمة جداً ولألف تقييد ، كلها قديمة المنشأ وغالباً ما يخيم الغموض على تفسيرها . فيجب ألا يلبس الجلباب ويشدّب الكرمة ويستهلك شراباً او طحيناً مختمراً ويرتدي ملابس كتانية او غيرها مما يقتضي عقدة او حلقة ، ويلبس او يمتطي الحصان ويرى سلاحاً او يشاهد ميتاً ، الخ . وتفسر شدة هذه المحرمات ، دون جهد ، كيف ان هذه الوظيفة ، في اواخر العهد الجمهوري ، قد بقيت شاغرة طيلة ثلاثة ارباع القرن بسبب عدم تقدم مرشح اليها بين الأشراف الذين استبقيت لهم .

ومع ان الفيستاليات (*Vestales*) قد انتظمن في هيئة ، فانهن قمن ايضاً بدور بسيط ككاهنات . كن ثلاثاً في البدء ثم غدون ستاً ترثسن احداهن ، « الفستالية العظمى » ، وكانت مهمتهن الرئيسية الانتباه الى العناية بالنار المقدسة ، رمز حياة المدينة ، التي يجب ان تشتعل باستمرار في معبد « فيستا » . وكن ينتخبن صغيرات من العائلات الكبرى ، ويقمن في المعبد الذي يجب ألا يلجه أي رجل . وكن يؤدين ، من جهة ثانية ، نذر عفاف تعرضن مخالفته لأن تدفن حيات في حال ان عقوبة السوط تكفي لمن تكلف منهن العناية بالنار فتتركها تخبو . ولكنهن ، في سن الثلاثين يعدن الى الحياة العامة ويستطعن الزواج .

اما اعضاء بعض الاخويات ، كاللوبيرك (*Luperques*) والسالين (*Saliens*) والأرفال (*Arvales*) ، الخ ، فقد احتفلوا باعياد طقوسها قديمة جداً تستلزم التطوافات وسباقات العدو والرقصات والأغاني . ولكن احتفالهم ، في الحقيقة ، ترتبط بالعبادة العادية . وعلى نقيض ذلك فان هيئة العشرين قاضياً وكاهناً تكتفي بإيفاد بعض اعضائها للقيام بالطقوس التي لا حرب « عادلة وتقوية » بدونها ، اي معلنة وفاقاً لقواعد القانون الانساني والديني ، ولا معاهدة مقبولة شرعاً : فإعلان الحرب يلقي احدهم بقوة نبله لأرأس لها في ارض العدو بينما يحمل آخر اعشاباً مقدسة مجموعة من الكايتول يسلمه إياها احد القضاة .

ولا تتعدى الطقوس الظرفية ايضاً تلك التي يقوم بها ، بفعل دعوة إلهية ، الاحبار المجموعون في هيئة من ثلاثة او خمسة اعضاء أولاً ، ثم من تسعة ابتداء من القرن الثالث ، واخيراً من ١٥ منذ سيبلا ، يرثسهم « الحبر الأعظم » (*Pontifex maximus*) . انطلق هؤلاء من وظائف وضعية واعترف التاريخ القديم كله بأن اسمهم عنى « صانعي الجسور » ، ويبدو هذا المعنى الاشتقاقي واجباً على الرغم من تردد بعض المعاصرين . فقد اسندت إليهم ابدأ مهمة العناية بحجر « سوبيسيوس » ، الوحيد والمهم جداً ، الذي وصل ضفتي نهر التيبر ، ويقلب انه بني من الخشب فقط دون اية قطعة معدنية . ولكن تطوراً لجهله جعلهم يسمون الى مصف حراس التقليد ، ومفسري الأنظمة ، وقضاة القانون الديني ومنظمي ومراقبي التعمد الرسمي . وبصورة خاصة راقب رئيسهم الفيستاليات ؛ وكانت مراسيم الهيئة حول الاخطاء الشكلية ملازمة للقضاة وللكهنة الآخرين . فمن الطبيعي اذن ان يتمسك اوغسطس وجميع خلفائه بحمل لقب « الحبر الأعظم » . واذا ما اقصرنا الكلام على العهد الجمهوري ، نرى ان تقدم سلطة الاحبار على حياة روما الدينية قد ادخل النظام اليها ، ولكنه اسهم ايضاً في إحاطتها بالخطر والتمسك المفرط بالشكليات .

وكانت مهمة هيئة العرافين المؤلفة من ثلاثة ، ثم من تسعة ، ثم من خمسة عشر ، تطبيق تقاليد العلم التفاضلي ، لا سيما بموجب مراقبة طيران الطيور داخل بقعة محددة في الفلك وبواسطة القضيب المنحني الذي امسى الشارة الرمزية للعرافين : ومن حيث انهم يعرفون ما اذا كانت

استعدادات الالهة موافقة ام غير موافقة ، فان آراءهم يجب ان تتقدم كافة افعال الحياة العامة .

وانيطت العرافة ، عن طريق استقراء امعاء الضحايا ، ولا سيما كبدها ، باختصاصيين اطلق عليهم اسم *Haruspices* ينتمون باغليبيتهم الى اتوريا بسبب ما اشتهر عن الاتروسك من اتقان هذا العلم والاحتفاظ به .

احل التقليد في عهد الملوك الاتروسك لاتباع مجموعة من الأوامر الطقسية وهتافات الغيب صادرة عن عرافة كوم *Cumes* في كمبانيا ، اي في منطقة يونانية . وبغية المحافظة على « كتب العرافة » هذه ، واستشارتها - حين تبرز الحاجة الى ذلك لمجلس الشيوخ - وتفسيرها ، نظمت هيئة من عضوين ، ثم من عشرة في القرن الرابع ، واخيراً من ١٥ منذ سيلا ، كان يشار اليهم بهذا التعبير « القائمون بالذبايح » مع ذكر عددهم . فهم يكلفون ترؤس الاحتفالات التي يستصдرون امراً بها بعد استشارة الكتب . وان سلطة هذه الكتب اعطت الهيئة دوراً فعالاً جداً في ادخال العبادات والطقوس الهلينية الى روما .

لا نذهبن الى ابعد من ذلك في استعراض الكهنوت الروماني . فهو كاف لتبيان كهنوت الدولة عدد الفئات الكهنوتية وتنوعها والامية والمرتبة اللتين احتلها بعضهم في تنظيم المدينة . كانت مثل هذه المؤسسات شبه مجهولة في المدن اليونانية . ولكن معرفتنا بها في روما ، على ما رأينا ، لا يستنتج منها انها ابتكار روماني : فان لاكثر من كهنوت مما استعرضنا ، كما نرجح ، اصوله في العادات الاتروسكية او الايطالية . اما ما يلفت النظر ، وما قد يكون رومانياً حقاً ، فهو ، على الرغم من تعدد هذه الفئات ، نفوذها والدور الذي سمحت لها المدينة بان تلعبه في حياتها بالذات : ويفسر هذان الواقعا احدهما الآخر ؛ على كل حال ، فقد كان لها خلال زمن طويل ، يدوم بالنسبة لاكثرها حتى آخر العهد الجمهوري ، قوة جاذب حقيقية ، ومن الطبيعي جداً ان يعلق قيصر ، الذي لم يكن بعد متقدماً في مراتب الأجداد ، اهمية استثنائية لنجاح ترشيحه للقب « الحبر الأعظم » ، فلم يكن ذلك ، بالنسبة له مجرد لقب ، بل وظيفة من الدرجة الاولى . ولكن شيببون الافريقي كان « سالياً » الشيء الذي اوجب عليه ، في زمن العيد ، ان يبقى شهراً واحداً دون تنقل من مكان الى آخر ، وهو واجب مزعج حقاً لقائد من القواد . وقد تباهى شيشرون بلقب العرافة . وفي العهد الذهبي للنظام المجلسي ، سعى النبلاء وراء وظائف الكهنوت ، وقد بلغ منهم انهم جمعوا منها اكثر من واحدة حين استطاعوا الى ذلك سبيلاً . وكانت هذه المهام ، شأن مناصب القضاء ، « اجداداً » تذكر بمنأى في الكتابات المدفنية التأبينية ، التي تنوه بمراحل تألب الراجلين منهم في المناصب : وكان اغلبها في البداية ، شأن مناصب القضاء ايضاً ، وفقاً على الاشراف ، وقد احرزت عامة الشعب نصراً ، في السنة ٣٠٠ ، حين فتحت لها ابواب الهيئات برفع عدد اعضائها الى تسعة ، على ان ينتمي خمسة منهم

الى هذه الطبقة . وهدفت الحركة الشعبية بالاضافة الى ذلك ، اقله فيما يتعلق بالهيئة الحبرية ، الى تغيير طريقة التعيين بواسطة الهيئة نفسها : فقد فرضت ، في اواخر القرن الثاني ، ان يتولى المواطنون انتخاب سبعة عشر قبيلة ، بالقرعة ، بين القبائل الخمس والثلاثين الراهنة ، واذا ما انقضى سبيل هذا الاصلاح ، فان اعداده في السنة ٦٣ قد جاءت في الوقت المناسب لتسمح بانتخاب قيصر حبراً اعظم .

كل ذلك يكشف لنا بوضوح الطابع الديني العميق الذي ترتديه المدينة الجمهورية . فالحياة السياسية والحياة الدينية فيها قد ألفتا كلاً واحداً يقوم به الرجال انفسهم . حمل رب العائلة مسؤولية المبادأة المنزلية . وتوجب كذلك على المسؤول الروماني ان يتحلى في آن واحد بخبرة دبلوماسية وخبرة سياسية ، كما توجب على علمه القانوني ان يتخطى القانون المدني والقانون العام ويشمل القانون المقدس . وقد لفت شيشرون النظر الى ذلك بحق : « ان الذين اكتسبوا المزيد من المجد في حسن ادارة شؤون الدولة مكلفون بالديانة ، كما ان اوسع مفسري الديانة علماء مكلفون بالمحافظة على الدولة » . وقد عم الاعتقاد بأن روما مدينة بعظمها لتعطف الآلهة الذي قابله ، بكل نزاهة ، ارضاء لمتطلباتهم بلغ دائماً الحد المطلوب ، دون ان يتخطاه .

المثل الأعلى هو التوازن ، او ما دعي « بالصلح مع الآلهة » .
المبادأة العامة
فاذا ما حدث ان اختل ، بفعل خطيئة بشرية لم يعلم بها احد ، فان الآلهة يظهرن استياءهم الحق « بالمعجزات » . ولم تنطو هذه الاخيرة ، بحسب مفهومها الاول الذي لم يتبدل قبل اواخر الألف الثالث ، على أية دلالة طبيعية على المستقبل ؛ وليس من مفسر يستطيع ان يقرأ فيها مستقبلاً لا تنبئ به . فلا معجزة مفيدة اذن . بل كلها ، الصاعقة ، والفيضان ، ومطر الحجارة ، وولادة المسخ الغريب الحلقة ، وعرق او حركة التمثال في المعبد ، وصعود الثور الى السطح ، الخ . تشير ، بانقطاع مجرى الامور الطبيعي ، الى الغضب الإلهي . فيقدم بها احد القضاة تقريراً الى مجلس الشيوخ الذي يتخذ المقررات او يشك في علمه فيلجأ الى الاحبار او الهيئة المؤكول اليها امر استشارة كتب العرافة او مستطلمي امعاء الضحايا ، وينتظر اجوبتهم للتداول فيها . وهكذا تصدر الاوامر باقامة احتفالات التطهير والتكفير التي تشكل « علاج » المعجزات وتعيد الصلح .

كان من الافضل ، في سبيل تجنب فترات تأزم غير مقص ، اذ ان كل شيء يتم وفقاً لاجراءات حازمة مدهشة ، بل مستكربة ، الانتباه بعناية ودون ملل الى تأدية كافة واجبات الجماعة نحو الآلهة . فانصرفت السلطات الى ذلك . وكان لكل معبد عام نظامه الذي حدده المرفق للقدماء و « قانون » حقيقي للجدد ، وفصل الاحبار في صعوبات التفسير . فكانت النتيجة طقوساً لا يحصى لها عدد ، تخلو منذ زمن بعيد عن فهمها ، كما ان العلماء المعاصرين ابعد من ان يفهموها فهدماً افضل .

فهناك في الدرجة الاولى ، الذبيحة ، أي تقديم الغذاء للإله . ليس من ريب في ان الذبيحة البشرية قد اعتدت في العصور القديمة . وقد عادت الى الظهور بين الحين والآخر . ففي السنة ٢١٦ ، تحت تأثير الغلق الذي أثارته كارثة « كانا » وبعد استشارة كتب العرافة ، دفن زوجان ، يوثاني وغالي ، لا يزالان على قيد الحياة ، وإذا ما أكد « تيت ليف » *Tite - Live* ، بهذا الصدد ، ان الطقس « ليس رومانياً على الاطلاق » فقد يقصد بملاحظته احدى طرائق الاحتفال فقط . بيد ان هذه الضحايا البشرية ليست دموية . فقد اكتفي على العموم ، بظواهر خداعة كالأشخاص الخشبية السبعة والعشرين التي ألقي بها في نهر التيبر أثناء عيد الارجيه (*Argées*) . ولم يذبح سوى الحيوانات المختارة . فلكل إله تفضيلاته ولكل احتفال تقاليده فيما يعود للنوع والجنس والسن - حيوان لا يزال رضيعاً ، او نبتت اسنانه العليا والسفلى ، او بلغ أشده - واللون وانعطاف الجزء : ففي احتفال التطهير العام الذي جرى في ظروف مختلفة ، فرض « مارس » ذبيحة قوامها خنزير ونمجة وفور . ولم تقدم الدولة ، شأن الافراد ، على الاستعاضة عن الحيوانات بأشكال من الخبز والشمع . ولكن ضحاياها ترافقها قرابين أخرى ايضاً ، زهور وسنابل وطحين وحلويات وحليب وعسل ونبذ الخ . وليس لكل ذلك من قيمة ، على كل حال ، إلا اذا لم يبد الإله استعدادات مضادة بإشارات غير موافقة ، كتلك التي يستطيع الاختصاصيون إبصارها جلياً بفحص امعاء الضحايا . ومن المهم جداً ، فوق كل ذلك ، ألا يرتكب أي خطأ او اهمال في القيام ببعض الایماءات واستخدام بعض الصيغ في الصلوات والندور : بينا يتوجب على الحاضرين المحافظة على صمت مطلق . ومن شأن اقل اخلال بأحد هذه الشروط ان يجر الى بطلان العمل وإعياب إعادته .

وهناك الأعياد ، الثابتة او المتنقلة ، التي يعود أمر تحديدها للأجبار . فقد ورد ذكر خمسة واربعين بعيداً في الروايات الكتابية التي وصلت إلينا ، ولا تحجم الدولة عن التدخل ، مكتفية بلشاط الأفراد ، الا في عدد ضئيل منها . وقد تنوعت الطقوس بصدد الاعياد بنوع خاص مضاعفة المراسم المختلفة الملشأ والدقيقة التفسير . فلنأخذ مثلاً ، بين امثلة اخرى كثيرة ليست دون غنى بالانغاز والاحاجي ، طقوس « حصان تشرين الأول » في عيد « الاكويريا » التي يحتفل بها في الخامس عشر من هذا الشهر : اكراماً لما رس . يقد جسد الحصان الأيمن في العربة محمزة السبق عقدأ من خبز ، يذبح كاهن مارس الخاص الحيوان الذي يتنازع رأسه سكان محلتين بغية اثباته في هذا البناء او ذاك ، يحمل العداؤون الذنب الى منزل الحبر الأعظم حيث يرفعونه فوق الموقد حتى يتساقط دمه عليه . تحتفظ الفيساليات بما تبقى من الدم مع رماذ الحملان المستخرجة من بقرات مذبوحة في عيد آخر ، مع العلم ان هذا الرماذ نفسه يستخدم لتطهير المواشي في عيد ثالث . ولن يعجب احد من التردد والاقرار بالجهل حين يتوجب تفسير طقوس على مثل هذا التعقيد .

الفت الألعاب المشهد الرئيسي ، والوحيد احياناً ، في الأعياد التي تجري هي فيها . ويثير

كل منها مسائل شائكة جداً في اغلب الأحيان : تاريخ ظهورها كالعاب غير اعتيادية ، ثم تقريرها كالعاب عادية ؛ طقوسها الأولى وتطورها ، منشأ ومغزى العناصر القديمة في هذه الطقوس . فبدون ان نتعرض لهذه المشاهدات يكفيننا اقصار الكلام على ما هو اكثر بساطة وأقرب الى المعقول . ان للتقليد ، الذي يُجَل في العهد الملكي تأسيس ابعاد الألعاب قدماء ، « الألعاب الرومانية » ، اكراماً لجوبتير الكابيتولي ، التي بقيت ابدأ « الألعاب العظيمة » وحق « العظمى » ، والتي شيد من اجلها « الملعب المستدير الاعظم » ، نصيباً كبيراً جداً من الصحة . فقد استلزمت منذ البدء تطوفا ورقصات ايمائية واستعراضات وحركات جماعية وتمرين . ثم اضيفت الى برنامجها السباقات ، والمصارعات ، وفي النصف الاول من القرن الرابع ، عرض ممثلين عرفوا باسم « هيسترون » ، وهو اسم اتروسكي ، و « لوديون » ؛ ومنذ عهد باكر نسبياً ، ووفقاً لعادة تمشت عليها شعوب ايطالية اخرى ، تركت حدة ذهن الممثلين الشعبيين المرتجلين لنفسها العنان ، بهذه المناسبة ، في انواع التمثيليات المضحكة . فإِعدّ بذلك ، ادخال التمثيليات المسرحية على الطراز اليوناني ، في عهد لاحق . منذ القرن الثالث فعل التأثير الهليني فعله دون وسطاء : فله يعود الفضل في الملاكمات والجوقات المنظمة والمهازل والمآسي . وعلى الرغم من ذلك استمرت بعض العادات الاتروسكية سائرة . ومن هذه العادات ، على الرغم من اقتباس اسمها عن اليونانية ، عادة « البامبا » او التطواف الذي تفتتح به الألعاب الرومانية حتى في اواخر العهد الجمهوري والذي يقفوا موكب الظافر حتى في لباس القاضي الذي يرثسه . ومنها أيضاً عادة مدعوة لانتشار غريب ، هي معارك المسافين التي ضمت الى الألعاب العامة في اواخر الألف الثاني دون ان تدخل على برنامجها بالذات .

فقدت الألعاب اخيراً طابعها الديني : وكانت قد فقدته في اليونان ايضاً الى حد بعيد . فنظر اليها الحاضرون نظرهم الى مجرد مشاهد . وان في الهوى الذي أثارته لدى الجماهير تعليلاً لمضاعفاتها السياسية التي سبقت الإشارة اليها ولتطويل مدة كل منها ولتزايدها ، فقد استغرقت الألعاب الرومانية خمسة عشر يوماً في عهد قيصر . وظهرت « الألعاب الشعبية » بعدها بأمد قصير ، وأضيفت اليها بعد ذلك اكراماً لابولون وسيريس والام الكبرى (*Grande Mère*) وقلورا (*Flora*) . وفي اواخر العهد الجمهوري غطت الألعاب العادية خمسة وستين يوماً من ايام السنة . وأكملت ألعاب ظرفية بعضها عام « ينذر » خلال الحروب والبعض الآخر خاص كالألعاب « المائمية » اكراماً للموتى . اما الألعاب « القرنية » المعدة لافتتاح قرن جديد — ولكن طرائق الحساب عديدة — فلم تبلغ بعد الشأن والروعة اللذين سيعطيها اياها اوجسطس .

تلك هي الطقوس العبادية الرئيسية في الجمهورية الرومانية . اجل لقد كانت هنالك طقوس كثيرة غيرها : ولكن هذا البحث ، تجنباً للاطالة ، لا يستطيع ان يتناول بالوصف ، على الرغم

من طرافتها ، لا « الالتباسات » التي يزور المؤمنون أثناءها المعابد طيلة أيام عدة بغية استئزال انعامات الآلهة على المدينة او بغية تأدية الشكر لهم ؛ ولا « المآدب » المقدمة لإله أو عدة آلهة التي يشترك فيها القضاة والكهنة والمواطنون المعاديون ايضاً ؛ ولا المآدب المقدمة للآلهة الغريباء حيث توضع رسوم الآلهة وفاقاً للجنس ، على غرار الآدميين ، على أسرة أو على كراس ؛ ولا « الوسادات » التي توزع هذه الرسوم عليها بغية السماح لها بمشاهدة الالعب او السماح للمؤمنين بتأدية واجب الاحترام لها ؛ الخ .

العبادة والدولة
مها يكن من الامر ، فقد قيل ما فيه الكفاف للاعتراف بأن المشاغل الدينية تعتبر بين المشاغل الرئيسية في الدولة الرومانية . وهي لا تنفصل عن المشاغل الاخرى ، بل ترافقها ابدأ وتشترك معها اشتراكاً حميماً . وهي نتيجة وجود روما ، والواجب الاول الذي يفرضه هذا الوجود عليها ، وشرط مستقبلها .

اجل ليست الفكرة بمجديدة في التاريخ القديم . لا بل نحن نرجح ، اذا ما اقتصرنا على الحالات المميزة ، ان مصر وبلاد ما بين النهرين قد خصتا الديانة بنصيب مماثل في حياة الدولة . ولكن يجب ألا نقارن إلا ما يمكن مقارنته ، سواء في شكل الدولة او ذهنية الرجال الذين تضمهم : ففي كل مكان وزمان ، حرصت الملكية على الابقاء على الانظمة الدينية التي اعتبرتها بمثابة سور من أعز اسوارها ، وليس تضامن العرش والمذبح ابتكاراً من ابتكارات القرن التاسع عشر الذي اشتهر بمناذاته بالحرية المدنية والدينية ومبادئه للاكليروس . فلا يبرز تميز روما من ثم إلا بمقارنتها بالمدن اليونانية بنوع خاص . الفرق بينهما ، في الحقيقة ، فرق في الدرجة لا في الجوهر : فان ما يستمر هنا خاضعاً للتسوية معتدلة ، ينمو هناك نمواً عظيماً جداً . ولكن هناك أكثر من ذلك ، اعني الفرق في التفكير ، اذ لا نصادف إلا في روما ذاك الحرص القانوني وذاك التمسك بالشكليات اللذين سيطرا على تفسير الفرائض العبادية ولم يحذ عنها المسؤولون . كان الروماني رجل واجب ، ولعله كان بنتيجة ذلك رجل حق ايضاً .

٢ - المستحدثات

الروابط الدينية
الحضارة اليونانية
كان الاغريقي اوسع مرونة وأعنف تمييزاً . وهو لم يدن بهذا العمق وهذا الاتساع الى سرعة تطوره فقط . وليس من ريب في ان لنجابتة الخاصة نصيباً كبيراً في ذلك ، اذ ان سرعة هذا التطور ليست نتيجة المصادفة . فهو قد كان شاعراً وفناناً قادراً على تخيل الاساطير والاشكال العارمة بالسحر والظرف والحياة . وكان عالماً وفيلسوفاً يعيل بالسليقة الى ان يذهب الى ابعد حد بتفكيره حول الكون والطبيعة ونفسه بالذات . وقد تجاذبته نزعة عقلية تقوده الى أعظم الانكارات جسارة ونزعة صوفية غذائها ابدأ اتصاله القديم المستمر بالشرق ونفخ فيها التمايش الذي اوجده فتح الاسكندر قوة

عجيبة نادرة . اما روما ، فقد استطاعت ، بفضل ثروتها ، ان تضيف على الاحتفال بعباداتها فخفخة ما كان العالم اليوناني ليستطيع مضاهاتها . ولكن العالم اليوناني قد برهن عن تفوق واضح في كل ما لم يكن ثروة مادية ، أي في الفكر والعاطفة الدينية والذوق في مظاهره الخارجية .

كان من الممكن ان يبدي الرومان ، بفعل تعلقهم بتقاليد ملازمة محددة ، مقاومتهم لكل جديد . ولكننا رأينا ، في ما سبق بيانه ، ان مفهومهم الواسع للالهيات لم يكن ليقبل بهذا التعصب . ولعلمهم شعروا ايضاً ، شأن آدميين كثيرين ، بحاجة الى شيء آخر هو القناعة العاطفية والفكرية والجمالية التي لم توفرها لهم عباداتهم الخاصة . ولم يبلغ بهم الامر ، في عهد الجمهورية ، ان يسمحوا بتفتح التقوى الفردية في صوفية حارة متحررة من شتى ضروب الضغط . فقد حرصت الدولة على الاستمرار في التنظيم والرقابة . بيد انها قبلت بعبادات وطقوس غريبة دون ان تعي انها بذلك تفتح ، للمستقبل ، ابواب المدينة لحصان طروادة .

والدليل على انها قامت بذلك دون جزع وتردد ان الاقتباسات الاولى قد حصلت في عهد ميكر جداً . لم يتم ذلك باقصال مباشر باليونان نفسها ، او اقله لا يمكننا إثبات ذلك على دمة روايات يشك في صحتها ، بل عن طريق الاتروسك والشعوب الايطالية حيث تركت الحضارة اليونانية اثرأ عميقاً لا سيما في الاتروسك . اصف الى ذلك ان هذا الاثر قد صادف ، في روما ، ارضاً خصبة متمثلة بالجماعات الهندو اوروبية المنشأ التي كانت لها بعض النزعات الدينية . واقتصرت السيطرة على كمبرانيا في القرن الرابع وعلى كافة أنحاء ايطاليا الجنوبية في القرن الثالث على تسهيل استمرار تسرب - تعود بدايته الى ما قبل التاريخ - سابق للوقت الذي كان باستطاعة روما فيه ، حين وعت قوتها ، ان تحاول ، بدافع الكبرياء ، - ولكنها لم تحاول - مقاومة تقليد المغلوبين .

يحذر بنا ان نعطي فكرة عن اهمية الاقتباسات القديمة ، دون حاجة الاقتباسات القديمة منا الى تعدادها وخصوصاً الى توقيتها والبحث عن طرق حصولها .

منذ العهد القديم جاء روما من اليونان آلهة يغرنا ان ننتعهم « بالجاهزين » سواء حافظوا على اسمائهم اليونانية ام لا : ابولون الذي كان موضوع اكرام عظيم لا سيما في مدينة فييس القرزية ؛ سيريس التي ليست سوى ديميتير (Demeter) ؛ مركور الذي هو هرميس *Hermès* نفسه ؛ كاستور وبولوكس ، الخ . ومنذ هذا العهد ايضاً مثلت ببعض الآلهة اليونانيين آلهة ايطاليين تبنتهم او « قوى » جسديتها ، ولم يحصل هذا التمثيل قط دون تنقيح منقول عن النماذج اليونانية : فاقترنت ديانا من ارتيميس ، وجونون من هيرا الخ . ففدا من ثم الزون الروماني ، في جوهره ، تابعاً من توابع الزون اليوناني ، ان لم يكن نسخة وفق الأصل عنه . اما الميثولوجيا فقد اقتصرت ، منذ ان وجد ادب روماني ، على نقل او تقليد الميثولوجيا اليونانية .

وتبنت روما بعض الطقوس ايضاً . وقد سبقت الاشارة الى مدى التحويل الذي طرأ على

برنامج الألعاب القومية الكبرى ، بحيث استلزم هذا البرنامج تمثيلات مسرحية على الطريقة اليونانية . وإذا صعب علينا تحديد زمن دخول المآدب المقدمة للآلهة الغراء ، مع ما تتطلبه من أسرة ووسادات ، فليس من ريب في أنها مقتبسة عن الطقوس اليونانية . ويبرز الاثر نفسه بوضوح في ممارسة العرافة . فلم تنح الطرائق الرومانية سوى معرفة ما اذا كانت استعدادات الآلهة مؤاتية ام غير مؤاتية . ولذلك فقد لجأوا ، بغية التزود بالنصائح ، الى هاتفي الغيب من الاغريق . وقد جاء في التقليد ان آخر الملوك تاركوينوس قد اوفد من يطرح الاسئلة على ابولون في « دلفي » . وكي لا يقطعوا هذه المسافة الطويلة اكتفوا على العموم باستشارة الكتب التي ابتاعها الملك نفسه من « العرافة » (Sibylle) ، نبيه ابولون في كوم . فلا عجب من ثم اذا ما ادت هذه الاستشارة اكثر من مرة الى تبني عبادات وطقوس يونانية . ولتأخذ مثلاً عبادة الاله الشافي اسكلابيوس : ففي اوائل القرن الثالث ، وبمناسبة انتشار احد الاوبئة ، ارسلوا الى بلاد ارغوس من يطلب اسكلابيوس في ابيدوروس (Epidaure) مركز عبادته الرئيسية ؛ نزلت الحية التي تمثل « قوته » الى الياسة في الجزيرة التيسيرية حيث شيد معبده ؛ تولى الإله المعالجة فيه ، كما في المعابد اليونانية ، بأن أرسل الى المرضى الذين يقضون ليلهم فيه ، أحلاماً فسرها الكهنة وأعطوا « الوصفات » اللازمة . ثم أخذت « المعجزات » تدريجياً ايضاً ، كما حدث في اليونان ، تعتبر دلالات على المستقبل ، لا دلالات غير مؤاتية فحسب .

قد تجيز بعض العلامات الاعتقاد بأن الجماهير قد برهنت ، في هذه الحقبة القديمة ، انها اكثر قابلية لمثل هذه الأشياء الجديدة من مجموع المسؤولين . بيد ان هؤلاء ايضاً قد اضطروا الى تغيير موقفهم . وقد اضطروا الى ذلك خلال
 أزمة الحرب
 البونيقية الثانية

الحرب البونيقية الثانية بنوع خاص ، حين هزت مداومة الخطر الضمير الديني في روما كلها حتى أعماقه . وقد وصف كافة المؤرخين القدماء الدوار الجنوني الذي استحوذ في بعض الفترات على النفوس . فكتب ثيت - ليف ، بصدد السنة ٢١٣ : « خيل ان تغييراً مفاجئاً أصاب البشر أو الآلهة . فلم تلغ الطقوس الرومانية خفية فحسب ، أي بين جدران المنازل ، بل ان جمهوراً من النساء لم يتقين ، حتى في الخارج ، في الفوروم وعلى الكابيتول ، في ما يعود للذبايح والصلوات الى الآلهة ، بالعرف الموروث عن الجدود » . اتخذ المجلس بعض التدابير آنذاك ، فأمر بتسليم كافة « مجموعات التبهوات وكتب الصلوات والدراسات حول الذبايح » ، وحظر « تقديم الذبيحة في مكان عام أو مكرس ، وفاقاً لطقس جديد أو غريب » . لكن هذه الابتغاءات التأثيرية قد بلغت من القوة حداً لم يعد من مورد للحاكمين إلا محاولة تقنينها : ولم يهتموا ، كما سنرى ذلك ، لا ثلاث الأوراق التي سلّمت اليهم دون ان يظلموا عليها .

يبدو كوينتوس فابيوس مكسيموس (Quintus Fabius Maximus) ، في مرحلة الهزائم الأولى الكبرى ، وكأنه تجسيد التقوى الطقسية . وفي الحقيقة نمت هذه التقوى ، بفعل حثته

المنظم ، مع ما تستلزمه من شدة : فبسبب إخلال بنذر العفاف دفنت إحدى الفيسطاليات حية وانتحرت أخرى ، بينما مات شريكها في المخالفة تحت ضربات العصي التي كالحا الجبر الأعظم بنفسه . ولكن هذا التدقيق لم ينحصر في العبادات الرومانية بالذات ، لا بل إن صلات « المتمهل » (*Temporisateur*) ببلاد الأتروسك ، قد فتحت أمامه آفاقاً أوسع . فهو الذي كرّس « الجبل إريكس » (*Éryx*) ، الذي كان فيما مضى حصن السيطرة البونيقية في غربي صقليا ، معبداً لفينوس الإريكسية (*Vénus Erycie*) : فكانت هذه الإلهة المتعددة العنصریات ، وهي صقلية متأثرة إلى حد بعيد بعشائر الفينيقية وافروديت اليونانية ، الإلهة الأولى التي قام معبدها داخل النطاق الروماني . وفي السنة ٢١٦ أوفد أحد أعضاء طائفتها ، المؤرخ فابيوس بيكتور ، لاستشارة هاتف الغيب في دلفي ، ولم يهل شيء مما أوصى به هذا الهاتف . وقد حظيت عبادة أبولون العراف آنذاك بنفوذ كبير . فأرسلت بانتظام إلى دلفي قرابين من أصل الفنائم المجموعة من العدو . وفي السنة ٢١٢ ، وبموجب نبوءة اكتشفت في مجموعة صودرت في السنة السابقة وأيدتها استشارة كتب العرافة ، نظمت إكراماً للإله ألعاب أثارت الحرارة الشعبية وما لبثت أن أصبحت سنوية : ومنذ البداية اعتمد الطقس اليوناني بشكل صريح بصدد الذبيحة التي تفتتحها .

كانت اليونان متصلة بآسيا الصغرى ، ومنذ زمن بعيد كان لأسطورة « إينه » (*Enée*) التي تربط روما بطروادة ، صفة رسمية . وهكذا ، في أواخر الحرب ، وبغية استمالة طالع جديد إليها ، قبيل حملة شيبون على أفريقية ، قرّر الرأي على الاقتباس عن عالم غير العالم اليوناني . وقد جاءت فكرة هذا المسعى عن كتب العرافة أيضاً التي أضاف إليها هاتف الغيب في دلفي نصائح عملية . وفي السنة ٢١٤ أخيراً ، عاد وفد يرئسه شيخ تولى فيما سبق منصب القنصلية مرتين ، من فريجيا (*Phrygie*) حيث حصل في « بسينونتي » (*Pessinonte*) ، بفضل الملك البرغاموسي أطال الأول (*Attale 1er*) ، على « الحجر الأسود » ، رمز « سييل » (*Cybèle*) « أم الآلهة » و « الأم الكبرى في جبال إيدا » (*Ida*) . وعلا بما فرضه هاتف الغيب ، حمل « أفضل » رجل في المدينة ، كان ب . كورنيليوس شيبون نازيكاً في نظر المجلس ، الإلهة من المركب إلى شاطئ « أوستيا » (*Ostie*) ، ورافقها « السيدات الرومانيات الأولى » إلى روما حيث احتلت مكانها ، هي أيضاً ، داخل « النطاق » الروماني . لا سنبل لنكران أهمية هقرا الحدث الشهير الخالد الذكر . فللمرة الأولى تنظم في روما عبادة إلهة شرقية ؛ وقام بخدمة معبدها خصيان فريجيون كانوا يتجولون في الشوارع ، أيام الأعياد ، بأزيائهم وينشدون ترانيمهم القومية الغريبة . يحذر بنا ألا نهمل الاحتياطات المتخذة : منع عبادة اتيس (*Attis*) الشبيهة إلى حد كبير بسييل ، وتحظير الانتماء إلى الكليروس على المواطنين . ولكن الخطوة الأولى قد خطيت وستعقبها خطوات .

يبدو ان هذه الخطوات لم تحدث فوراً ، فغداة الحرب بدا النظام المجلسي اقل حفاوة :
القمع ولعله خشي انتقال العدوى الى الجيوش المرسلة الى اليونان وآسيا . وما لبثت
مقاومة العادات الجديدة ، التي تجسدت في كاتون وتأيدت في فترة تسلمه منصب قاضي الاحصاء ،
ان ظهرت على الصعيد الديني .

تظهر لنا هذه المقاومة خصوصاً في فضيحة الرقصات الخلاعية ، حيث لا يزال الغموض
محيطاً بنقاط عديدة ، على الرغم من جهود المؤرخين ، ولكن ملابساتها الكثيرة لا تحول دون
بقائها قضية دينية في الدرجة الاولى . في السنة ١٨٦ اكتشفت الشرطة الحكومية او تظاهرت
بأنها اكتشفت ان أسرار ديونيسوس قد حقت تقدماً مخيفاً في جميع أنحاء إيطاليا الجنوبية
وتسربت الى روما نفسها ، وان فجوراً مخزياً يقرّف فيها مقترناً بالاختلاسات والتقتيل ، وان
المؤامرات تعد فيها لا لإفساد الاخلاق فقط بل لإفساد المجتمع والدولة ايضاً . فتوالى آنذاك ،
طيلة خمس سنوات ، التحقيقات والوشايات والاستجوابات وأعمال التعذيب . وانفجرت
اعمال القمع : دخل السجون سبعة آلاف شخص تقريباً وقضى على عدد كبير بالاعدام بعد
محكمة سريعة .

ليست قضية الكتب البيثاغورية دون هذه القضية مغزى مع انها دونها عنفاً . كانت روما
حتى ذاك العهد قد افسحت المجال للبيثاغورية ، تلك الفلسفة المتشعبة بصوفية حافظت ، على
الرغم مما اعترضها من صعوبات ، على حيويتها في إيطاليا الجنوبية ، ولا سيما في طارتنتا . ومن
حيث انها لم تنفّر الرومانيين ، فأنا نرجح ان تلطيفات ملموسة قد ادخلت عليها . ومهما يكن
من الأمر ، فان التقليد الذي جعل من الملك « لوما » تلميذاً مباشراً لبيثاغور ، قد حفظ ، فيما
يعود لهود اقل قدماً ، ذكرى قرارات رسمية مؤاتية . ولعل « كاتون » نفسه ، قبيل السنة ٢٠٠ ،
حين مر في طارتنتا ، اعار اذنًا صاغية لبعض الأحاديث . ومع ذلك ، ففي السنة ١٨١ ، حين
اكتشفت في احد المدافن نصوص بيثاغورية تعزوها احدى الكتابات الى لوما ، كان كافياً
للمجلس ان يعلنها احد القضايا ، بعد الاطلاع عليها ، متنافية والديانة الرسمية ، حتى يأمر
بأحراقها دون أن يقرأها احد .

ولكن اننى لمثل هذه الديانة الفاترة التي لا تهتم للإجابة على سؤال مقص
عدم جدواه :
يطرحه الفرد حول مصيره بالذات ، ان تجدد ، في عون السلطات دون
ادخال المبادئ الشرقية
سواء ، الوسائل لمقاومة نجاحات عقائد افضل تجهيزاً واعظم نفوذاً ؟
وأنى لها ايضاً ان تقاوم العدوى بينا الرومان موجودون في الشرق وبيننا الشرق ، اقله بواسطة
العبيد ، موجود في روما ؟ فالموضوع ، منذ ادخال سيبييل وتوسع المصالح الرومانية ، لم يعد موضوع
الآلهة الذين كيفتهم ونقّتهم الحضارة اليونانية الكلاسيكية ، بل اولئك الذين خولهم العالم الهليني
وتبناهم ارضاء لفرديته المخالفة للصواب ، واولئك الذين توفق العالم الشرقي الى ابقائهم

بعيد عن كل تأثير يوناني ، أحيانا . أجل كان من المعترف به ، في القرن الاول ، ان تتلقى الشخصيات الرومانية المرموقة ، اذا ما مرت في اثينا ، مبادئ اسرار الفيس (Eleusis) . ولكن هذا نفسه لم يعد كافياً اذ ان الشيء الذي لا مفر منه قد اخذ بالظهور .

قارن بعضهم احيانا قضية الرقصات الخلاعية بالاضطهاد التي سوف تتناول الديانة المسيحية . ولكن المقارنة عرجاء ، اذ ان المحاكاة الامبراطورية ستلاحق الديانة المسيحية كديانة بينما لم يتجاسر مجلس الشيوخ ، في السنة ١٨٥ ، على تحريم ممارسة الطقوس الديونيسية على المؤمنين الزاعمين بانها مفروضة عليهم بنذر شخصي . فقد اجازها لجماعات محدودة يجب ان لا تتجاوز رجلين وثلاث نساء لا يخضعون لتنظيم ولا تربطهم عهود متبادلة ، ملازماً ايها بالاعلان عن نفسها للسلطات وبالحصول على موافقتها بحسب القانون . ولكن هذه التسوية انطوت على محال هو استمرار الرقابة الشديدة . فاختفى الدهر على المرسوم المجلسي ، وفي اواخر العهد الجمهوري ، احتفل باسرار ديونيسوس في منازل كثيرة من « بومبيي »

اما ما تبقى ، مما لم يتناولوه اي اضطهاد ، فلم يكن بحاجة لاي سماح بالدخول . وسنعود فيما بعد الى كل ما كان مدعواً للشهرة . فلنكتف اذن بالإشارة الى انه قامت في روما ، في زمن قيصر ، طوائف بيثاغورية على جانب من التأثير ، وان وجود عبادات شرقية مختلفة في ايطاليا الامر ثابت ؛ فنجد الحملات على « ميتريدات » ، استورد الجنود عبادة عرفوها في آسيا هي العبادة الدموية للإلهة الكبادوكية « ما » (Ma) التي اسرعوا واطلقوا عليها اسم « بلتونا » ؛ اثناء العيد ، وفي وسط الشارع ، ينشد كهنتها الاناشيد ويحرقون اجسامهم بالفأس المزدوجة التي ترمز الى الإلهة ؛ وستكتشف في احد معابدهم أوان خزفية ملأى باللحم البشري . ومنذ القرن الثاني نشاهد عبادات سيرابيس (Sérapis) ، وايزيس الاسكندرية في ديلوس حيث يتعاطى التجارة ايطاليون كثيرون ، وفي بوزوليس ، المرفأ الرئيسي في ايطاليا ؛ وتدخل ايزيس روما في عهد سيلا . ثم يدخل « ميترا » نفسه ايطاليا بواسطة قراصنة كيليكين سابقين وجنود اشتركوا في حملات بومبيوس الشرقية . ولعل صمت المصادر حيال آلهة آخرين من قبيل المصادفة لا من قبيل عدم وجودهم في ايطاليا . ومهما يكن من الأمر فان روما تجتذب اليها ، في عهد مبكر ، عرافين ومنجمين شرقيين لا يخامرهم شك في انهم سيجدون فيها زبناً كثيرين .

من الثابت ان الدولة قد تحاشت ان تتبنى اية من هذه العبادات تبنياً رسمياً . لا بل ان المجلس قد اتخذ احيانا تدابير بوليسية سريعة الزوال : طرد المنجمين في السنة ١٣٩ ، وفي اواسط القرن الاول اصدر اوامره تكراراً يهدم معابد ايزيس التي شوهدت حتى على الكايتول .

ولكنها استبقاظات باطلة ، وفادرة على كل حال . فباستثناء عبادة « ما - بلتونا » ، ستعرف هذه العبادات الشرقية ، وعبادات اخرى كثيرة ، في تاريخ لاحق ، نجاحات مدهشة واسعة

جداً . اجل لم تكن بعد في اواخر العهد الجمهوري سوى في مرحلتها الأولى . ولكن وجودها
ينبىء بالمستقبل ويحضره .

المظاهر الاجتماعية والسياسية
للتطور الديني

ان موجة التدين القلق هذه عمت الطبقات الاجتماعية الدنيا بنوع
خاص . فهي بفعل تأملها أكثر من غيرها قد شعرت أكثر من غيرها
بحاجة الى التأثر والوعود . اصف الى ذلك انها كانت على اتصال
بومي وودي بعبيد يلتقي الكثير منهم الى الشرق . وقد بدا هذا الميل نفسه خطراً للحكام .
اجل ، لقد اعتبروا الديانة امراً ضرورياً للشعب . فنذوا واسط القرن الثاني لم يتردد بوليب ،
الذي عاش قريباً من شيبون اميليانوس ، في ان يرى في العبادات الرومانية بناءً صناعياً مصمماً
خير تصميم لخير الدولة والمجتمع : « يخيل الي ... ان الوجع الحزافي يحمي مصالح روما ...
وبتنمية هذه العاطفة ، انما فكروا بالشعب في الدرجة الاولى . قد لا يكون هذا الاحتياط
ضرورياً في دولة لا تضم سوى العقلاء ؛ ولكن لما كانت الجماهير تتصف بتقلب الرأي والاهواء
المشوشة والاحقاد العنيفة والغير المتبصرة ، تستحيل السيطرة عليها إلا بالخوف من . كائنات غير
منظورة ، وبشقي انواع الاوهام » . وقد نجد هذه الفكرة عند كثيرين غيره بأقل وقاحة في
التعبير . ولكن العبادات الغريبة ، من حيث هي تتوجه الى مؤمنها دونما اهتمام للاطارات
الاجتماعية التقليدية ، كانت في نظرهم خطراً مكنياً على النظام الضروري للمجتمع والدولة .

لذلك ، قامت النخبة الاجتماعية ، في ما يعينها ، بمجهود كبير للابقاء على تنفيذ كافة
الطقوس . أما دلائل التخلف التي يمكن ملاحظتها فنادرة ، ولا أهمية حقيقية لها : الاهمال في
ترميم بعض المعابد ، والشغور المستمر ، منذ آخر السنة ٨٧ ، في منصب كاهن جوبيتر الخاص .
وفي القرن الثالث ، قام بين المسؤولين أنفسهم ، من يتظاهر بالاحاد في ممارسة وظائفه بالذات ،
ولا يتقيد بنصائح المرافقين . ولكن مصلحة الدولة ، خلال الحرب البونيقية الثانية ، والتضامن
الطبعي ، بعد الحرب ، وضعاً حداً لهذه الجسارات : وان احتقار قيصر للمراقيل الدينية التي
أقامها ، في السنة ٥٩ ، زميله في القنصلية ، في وجه قوانينه ، يمثل الشذوذ الوحيد عن القاعدة .
ولكننا عبثاً نبحث عن تقوى حقيقية ورام هذه الظواهر المؤثرة . فلم يرق في الارستوقراطية
الحاكمة ، على ما نعلم ، أي مشايخ للعبادات الشرقية بالذات ، التي تركت للشعب ؛ بل على
نقيض ذلك ، قام بعض الملحدون ؛ وقام بنوع خاص تلاميذ مذاهب فلسفية تنظر الى الآلهة
التقليديين كما الى رموز أرواحيات . ويبدو شيشرون معبراً عن الحقيقة ، حين يكتب
في بحث عن العرافة : « على العاقل ان يحافظ على عادات الأجداد بالتقيد بالعبادات والطقوس .
ويرغنا جمال العالم ونظام الأجسام السماوية على الاعتراف بوجود كائن أزلي يتوجب على
الانسان إكرامه ، والاعجاب به » ؛ حكمة سياسية من جهة وتفسير فلسفي من جهة ثانية ؛
لقد زال الايمان من الديانة الرسمية .

أعطى العالم الهليني ، باستمراره في ممارسة ديانة الأولمب القديمة ، المثل عن هذه المواقف . ولكنه أعطى ، كذلك ، المثل عن المثالية الدينية التي توفر للملكية مركّزها : الانسان المتفوق الذي يختاره الإله ويلهمه . أنتى لروما من ثم ان تنجو من العدوى ؟ فقد سمح شيبليون الافريقي ، قبل ، بأن تنتشر حول ولادته الالهية أساطير ماثلة للأساطير التي انتشرت فيما مضى حول ولادة الاسكندر ، وأمضى ساعات كاملة في معبد جوبيتر الكابيتولي ينجي « أباه » الذي ينعم عليه بنصائحه ، فاتهمته مصادرتها بالخرقة والحداع . واقتفى الكثيرون اثره منذ اواخر القرن الثاني ، على الرغم من عنادية عند كبير منهم كانوا أشد اشبهتزازاً من ان يحافظوا على أقل ايمان ، وأبعد مهارة من ان يملوا التظاهر بأنهم مختارون من الله منذ الأزل . واتجه تفضيلهم الى فينوس ، والدة « اينه » وإلهة روما القومية . فعزا سيلاً انتصاراته الى فينوس « السعيدة » ، وتبنى هذا اللقب لنفسه ؛ والتمس بومبيوس النعمة من فينوس « المنتصرة » ؛ وأدى قيصر بأبهة العبادة لفينوس « الأم » ؛ إذ ان عائلته ، آل جوليوس ، تنحدر منها مباشرة .

وهكذا ، فبينما كان كل شيء يخلخل الدولة الجمهورية ، وسين لم يعد هيكلها الديني سوى مجرد ظاهر ، تباهى أشد خصومها خطراً ، امام الجماهير المستعدة لأن تؤمن بكل معجزة ، بالانعامات الفائقة الطبيعة التي دانوا بنجاحاتهم لها . فانضم التطور الديني من ثم الى التطورات الاخرى في سبيل القضاء على النظام القائم

الفصل الخامس

هلينة روما:

اليقظة الفنية والفكرية

بدأت اقتباسات روما الفنية والفكرية عن الحضارة اليونانية ، شأن اقتباساتها الدينية ، قبل تدخل الدبلوماسية الرومانية والجوقات الرومانية في قلب العالم اليوناني بزمان طويل : فات التأثيرات التي اصابته الاتروسك وانتقلت بواسطتهم قد فعلت فعلها منذ عهد مبكر جداً ، كما فعل فعله ايضاً مثل اليونان الكبرى وتعليمها عن طريق كمانيا والشعوب الايطالية . ولعل الاستدانة ، على هذا الصعيد ، من هذه الحضارة المتفوقة ، قد فاقت الاستدانة على صعيد المعتقدات الدينية . فليس هنا من معطية سابقة ، ولو بدائية ، يكفي تنظيمها وتصعيدها وانماؤها . بل طاولة شبه ملساء ، او شعب خشن جداً استيقظ ، بصلاته غير المباشرة ، على مشاغل جديدة ؛ ومنذ ان برزت مثل هذه المشاغل في روما واخذت تلقى فيها رضى ليس على شيء من السخرية ، نترامى اثر الحضارة اليونانية .

بيد ان هذا الاثر قد برز بقوة نادرة منذ ان بسطت روما سيطرتها المباشرة على ايطاليا الجنوبية . وقد شعر المؤرخون القدماء ، من هذا القبيل ، باهمية الاستيلاء على طارنتا في السنة ٢٧٢ و اشاروا اليها . فاستعرض آنذاك للمرة الاولى ، في احد مواكب النصر ، بعض الاسرى اليونانيين او المستغرقين ، والتماثيل ، واللوحات ، والزخارف والنقوش التي ازدانت بها مدينة يونانية كبرى : غنيمة مزدوجة اجاز قانون الحرب المنتصر التصرف بها تصرفاً واحداً ، وكان لامتلاكها اثر واحد دائم ، اذ قد اكمل الاسرى العبيد ، بقولهم وبانتاجهم ، التربية التي وزعها ، صامتاً وساحراً ، مشهد التحف الفنية . ولم يكن ذلك ، في الزمن ، سوى الانتقال الاول بين انتقالات بشرية ومادية ، على مدى واسع ، ضاعفتها الانتصارات اللاحقة وتمادى فيها ، بعد الانتصارات ، استثمار الاقاليم اليونانية استثماراً لا يعرف للشفقة معنى . وان التقدم الذي احرزه العالم اليوناني منذ زمن بعيد قد جعل من فتنة هذه التحف وهؤلاء الرجال قوة لا تقاوم : فاستسلم الرومان لها دونما صعوبة لا سيما وان تمرنهم قد بدأ قبل ذلك العهد .

مهما يكن من الأمر ، فانهم لن يلبثوا ان يدينوا بالكثير لفن اليونان وفكرها . ولكن الى اي حد ستركون هذا السحر يفعل فعله فيهم يا ترى ، وماذا سيفعلون من هذا الدرس ؟ كان بإمكانهم ، اذا ما استفادوا من خبرة الغير وحافظوا على ميزتهم ، ان ينقلوا التقنيات المجرية الكاملة الى خدمة نزعاتهم الخاصة . وكان بإمكانهم ايضا بفضل القوى الجديدة والثروات المادية التي فاض بها شبابهم ، ان ينوبوا ، على طرق شقها مثقفهم ، عن حضارة يونانية اتعبها مجيهاها وانتهكها السلب الذي كانت خاضعة له . وكان باستطاعتهم اخيراً ان يبقوا تلامذة متقادين لاساتذة قد يستمروا في التقدم عليهم ، او اقله مجرد زين لعملاء ماهرين في إرضاء اذواق اوجدوها فيهم .

ثلاثة امكانات غذا كل منها ، هنا او هناك وبحسب المهود ، امراً واقعاً . وليس من ريب ، على العموم ، اقله خلال العهد الجمهوري ، في ان الامكان الثالث هو الذي كان غالباً : وعلى الرغم من الفوارق التي سنشير الى اهمها ، ومن الازدهار الادبي الذي برز اخيراً في روما ، فان روما آنذاك قد دخلت في فلك العالم الذي اخضعته لسيطرة قسوتها المغرورة الجشعة .

١ - الفن

لا يستدعي هذا التأكيد ، تحفظاً يذكر بصدد الفن .

الامر الاثروسي
لما كانت روما قريبة جداً من مركز حضارة زاهرة هو اثروريا ، فقد دانت لها بفنها البدائي . فالملوك الاثروسك الذين اعطوها انظمتها الاولى كمدينة انعموا عليها بابنيها الاولى ايضا . وقد اجمع التقليد على ان يذكر بين هذه الأبنية المعبد المكروس على جبل الكابيتول لجوبيتر ولاقرانه من الاناث . فقد رمّم ، واعيد بناؤه وربما حوّر اكثر من مرة ، وبقي على الدوام المعبد الرئيسي للديانة الرسمية . وقد حافظت روما ابداءً حتى بعد ان وطدت استقلالها بالقضاء على الاستبداد الاجنبي ، على الروابط الثقافية التي شذبتها الى بلاد اسياها القدماء . ثم احتلتها تدريجياً ولم تهمل الكسب الفني الذي احرزته باحتلالها : فكم وك من عملية استلاب مجهزة اقدم الرومان عليها في مدن اخرى قبل عملية استلاب ال ٢٠٠٠ تمثال من فولسينيا في السنة ٢٦٤ ؟ لذلك فقد جاءت التربية الاولى من الاثروسك بنوع خاص .

تميزت هذه التربية ، من جهة ثانية ، بالسرعة ، في مدينة لم تخل ، كما رأينا ، من الموارد المالية ، وتجنببت النخبة الاجتماعية فيها ، التي أحسنت استقبال نخب المدن الايطالية الاخرى ، كما رأينا أيضاً ، اعتقار ما من شأنه تجميل اطار وجودها . ومن الخطأ الفادح الاعتقاد بأن الرومان ، في القرون الاولى من العهد الجمهوري ، لم يكثرثوا بالمشاغل الجمالية . فعلى الرغم من استمرار صفة حياتهم الخاصة بذلوا الجهد لكي يكرموا بأبهة الالهة الذين دانواهم بالنجاح لرضمام ، وقد حرصت كل عائلة كبيرة على تقليد ذكر الجدود الذين أكسبوا الشهرة . لا بل ان بعض الرومان على الاقل

قد شعروا. بسحر الفن الدنيوي اللطيف الذي تعلموه بواسطة جيرانهم . اجل يبدو انهم افترضوا الى العبقرية الخلاقة ؛ ولكنهم يستقبلون التحقيقات الاجنبية بسهولة ، وقد حدث ان استساغوها بمرونة .

منذ القرن الخامس شيدت روما عدة معابد . وقد عكست معابدها طرازاً الفن البدائي اروسكياً طبع هندسة العمارة الدينية الرومانية بطابع دائم . تميز هذا الطراز عن الطراز اليوناني ببعض الصفات الخاصة التي يجدر بنا ، دونما حاجة الى تبiana كلها ، ان نشير الى أهمها ، او بالحري الى تلك التي تظهر بأجلى صورة في شكل هذا الطراز . فقد بقي تلاصق قاعات المعبد الداخلية الثلاث ، مثلاً ، التي فرضها جمع بعض الآلهة في ثواليث (جوبيتر وجونون ومينرفا ؛ سيريس وليبير وليبير) طرازاً كلاسيكياً دائماً في معابد جوبيتر «الافضل والاعظم» (*Optimus Maximus*) أي جوبيتر الكابيتولي . ثم ان الرومان قد شيدوا عدداً كبيراً من معابدهم على مصطبة او قاعدة على بعض الارتفاع في البناء ؛ فاضطروا من ثم الى تجهيز سلم يؤدي الى جبهة المدخل بينما انتصب جدار القاعات الخلفي ، والجدران الجانبية في أغلب الاحيان ، على حافة القاعدة تقريباً .

شيدت هذه المعابد الاولى بالأخشاب ، واستخدم كثيراً في سبيل صيانتها وتزيينها ، الخزف المتعدد الالوان : وكانت هذه العادة واسعة الانتشار ، ليس في اتروريا فحسب ، بل في كبنانيا وايطاليا الوسطى ايضاً . ولم تسفر أعمال التنقيب في روما ، حتى اليوم ، عن اكتشاف أي شيء يذكرنا بمجموعة ابولون في فييس . ولكنه يتوجب علينا ، مع ذلك ، القول بأنهم لجأوا بمهارة الى التزيين الناتىء بواسطة لوحات التلبس الترابية التي نضدوا فيها النقوش السعفية الشكل والروؤوس الصعراء الوجه وابتكروا مجموعات التماثيل . لأعلى جبهات المعابد وللثلاث في الجبهات نفسها وللتماثيل المنصوبة داخل المعابد . فن الثابت ان فن التشكيل بالفرين قد اعتمد بالتفضيل طيلة قرنين او ثلاثة قرون في روما ، وقد حدث ، حتى في عهد سيلاً ، انهم لجأوا اليه ، احتراماً منهم للتقليد ، لتزيين المعابد الجديدة ، بينما كانوا قد اخذوا يستخدمون المدافن والتماثيل المدفنية النصفية ، مواد أغلى ثمنًا واقل قصاً .

وفّر فن التصوير طريقة أخرى للتزيين . فان الذوق الذي أوحى به للرومانين ، وهو قديم ايضاً ومقتبس عن الإتروسك والكبنانيين واللاتين ، قد استمر زمناً أطول . وقد لجأوا اليه في داخل المعابد وعلى جدران المدافن تحت الارض وحتى على جدران الابنية العامة ، ان لم يلجأوا اليه آنذاك – ترتقي اقدم رسوم بومبي الى زمن أكثر تأخراً – على جدران المنازل الخاصة . ولم يأنف بعض اعضاء النخبة الاجتماعية من ان يتعاطوه شخصياً : فهناك معبد دشن في اواخر القرن الرابع بعد ان زين جدرانه بالرسوم المدعوك . فابوس فحمل ، بفضل ذلك ، لقب « المصور » الذي انتقل الى ذريته . لم يبلغ النيا شيء من التصوير الديني . وعلى نقيض ذلك ،

ظهرت في احد مدافن الاسكويلينوس بقايا مشاهد تاريخية ، معركة ومفاوضة ، رسمت في القرن الثالث على الأرجح ، يبرز فيها نشاط قائد روماني يدعى ك . فايوس . وكذلك فقد أمر م . فاليريوس مكسيموس ميسالا ، في اوائل الحرب البونيقية الاولى ، بتصوير معركة ظافرة على جدار قاعة جلسات مجلس الشيوخ . ومن الجائز ان نرى ، في اختيار هذه المواضيع ، ظهور ميل مبكر سوف 'يمنح الفن الروماني إجناساً دائماً نحو تمثيل الأحداث الواقعية التي تستعاد بوقار اظهاراً لمجد روما ومجد حكامها وآلهتها : المعارك ، الاستعراضات الظافرة ، الذبائح ، الاحتفالات العامة .

جلي ان هذه المشاهد التاريخية قد جمّلت ونظمت بدافع من حرص الفنانين على إظهار عظمة تحرك العواطف ، كما ستجملها وتنظمها فيما بعد النقاشة العظمى . وعلى نقبض ذلك ، فقد برزت منذ اوائل عهد صورة الشخص المصنوعة بالتراب او المنقوشة ، واقعية فظة جداً وكأنها تمند في ان لا تخفي أية بلية من بلايا الطبيعة او السن . وقد تولدت هذه الصور من قوالب شمعية تؤخذ عن وجه الموتى بغية صنع « الصور » والاقنعة والتماثيل النصفية التي تحفظ في الاروقة العائلية ويؤلف منها موكب في جناز الحفدة . لم تبلغ الينا أية قطعة قديمة من هذا النوع ، وانما يمكننا ان نتخيلها بالاستناد الى مجموعة الرؤوس شبه الهزلية التي سارت على هذا التقليد حتى اوائل الامبراطورية ، وهي مجموعة تحرك النفس ولا تعرف للشفقة معنى .

لذلك يستهويننا ان نعرف ما كانت من امر التماثيل التي يغلب انها نصبت في روما منذ عهد باكر اكراماً لأبطال قوميين ، وحتى لألقبيادس وبيشاغوروس : فهذان الاخيران هما اللذان لم يتردد مجلس الشيوخ في أن يعترف بأنها ، كل فيما خصه ، الاولان بين الاغريق بسالة وحكمة ، واللذان امر هاتف غيب دلفي ، حين استشير أبان الحرب ضد السمينيين في القرن الرابع ، دون أي ايضاح ، بأن تنصب لهما التماثيل . واذا ما تعذر الكلام آنذاك عن الصور المتقنة ، فما هو الحد الذي بلغه النقاشون ، حتى الاجانب منهم ، الذين توجب عليهم ان يأخذوا اذواق زينهم بعين الاعتبار ، في مسعاهم لتحقيق تعبير مثالي شامل ؟ ولكن المصادر القديمة التي تشير الى هذه التحف لم تترك لنا وصفاً .

بدت اذن بعض المقاصد الجمالية على الصعيد الجماعي . اما البذخ الخاص ، باستثناء مظاهر تكريم الموتى ، فلا نعرف منه سوى نتاج صناعة تعددين الشبه الناشطة والمتقنة جداً منذ ذاك العهد عند الاتروسك والمنتشرة بواسطتهم في جميع انحاء ايطاليا الوسطى . ومن اطراف هذا النتاج مرايا وعلب مستديرة مزدانة برسوم محفورة بالازميل . ويبدو منذ القرن الرابع ان المركز الرئيسي لهذه الصناعة كان برينستا *Préneste* (بالسترينا الحالية) ، احدى مدن اللاتيوم . واما المرأة « فيكورني » ، وهي واحدة من اجل امثالها ، فتحمل كتابة تثبت انها صنعت في روما على يد فنان اجني لاحدى نساء برينستا . واستوحى الفنانون طريقتهن والمشاهد المصورة من الرسوم

المصورة على الخزفيات المزخرفة ، وقد صدرت اليونان القديمة زمناً طريلاً - كورنثوس أولاً ، ثم أثينا - هذه الخزفيات الى ايطاليا ، ثم استوردت ، ابتداء من القرن الرابع ، من اليونان الكبرى ، ثم من فاليريا ، وهي مدينة قريبة جداً من اتروريا والتير ، شمالي روما .

تمثل الصور المحفورة على مرآة فيكورني إحدى حوادث رحلة الارغونوط : الحضارة اليونانية والحضارة الايطالية والحضارة الرومانية والاثر اليوناني جلي فيها باختيار الموضوع وبمعالجته ، ولعلتها تقليد لتحفة من تحف فن التصوير العظيم . وباستطاعتنا ان نسرد امثلة اخرى كثيرة عن الاثر اليوناني في الفن الروماني البدائي . ثم ان اكثرية التحف التي عرفت مباشرة او عن طريق الوصف لا يمكن ان تفسر الا باللجوء الى الميثولوجيا اليونانية او الديانة اليونانية . ونحن نعلم من جهة ثانية مدى اقتباس الاثروسك عن الفن اليوناني . كما ان اليونان الكبرى وكمبانيا قد ضمتا مراكز اخرى للنشر هذا الفن . وقامت اخيراً علائق مباشرة احياناً : فمئذ اوائل القرن الرابع اتى الفنانان اليونانيان ، داموفيلوس ، وغورغاسوس ، وهما مصوران على الأرجح ، الى روما بغية زخرفة معبد سيريس .

ولكن هناك بعض الطوابع وبعض الميول التي لم ترتد قط في اليونان الحيوية نفسها مع انها لم تكن مبهولة تماماً فيها : قد يمكننا التجادل حول قيمتها الجمالية ولكن لا يمكننا التجادل حول حقيقة وجودها . لا يجوز ، على ما يبدو ، نسبتها الى الرومان دون غيرهم اذ اننا لا نجد لها في روما وحدها بل نجد لها دائماً في فن مدن اخرى من اللاتيوم ايضاً وحتى في كافة انحاء ايطاليا الوسطى . واذا ما استهدفت جهود المؤرخين اليوم استخلاص هذه الميزة ، فان اكتشافات علم الآثار لا تهيب بنا الى نسبتها الى الرومان فحسب بل الى الايطاليين عموماً . وليس في الحقيقة ما يثير الدهشة في ذلك . فالحضارة الاثروسكية نفسها ، حتى اذا سلمنا باصولها الشرقية ، قد استساغت إرثاً ايطالياً ونزعات ايطالية . اصف الى ذلك ان روما ، على الرغم من اسطورة «ابنه» الطروادي ، لا تمثل جسماً غريباً في شبه الجزيرة . وما كانت عناصر سكانها الاولى لتختلف كثيراً عن عناصر سكان المدن المجاورة . اما ما يكون شخصية روما بينها فهو في الدرجة الاولى موقعها في مكان اشغال وبالتالى تلاقى البشر والمحاصيل ؛ وهو في الدرجة الثانية مصيرها العجائبي في تحقيق الفتوحات . وقبل ان تصبح عاصمة العالم فانها قد اصبحت عاصمة ايطاليا مبتلعة وناقلة باسمها للمستقبل كل ما بقي من الميزات الايطالية الخاصة .

هل كان يمكنه ظروفي اخرى ورجال آخرين تأمين بقاءات اكبر عدداً الاشغال العامة الكبرى وابعد مغزى ، وتميزاً احلى عذوبة؟ قد يصح القول بذلك . انما يجدر بنا ، على كل حال ، الاعتراف بان روما ، بفضل عنادها الصبور والجرأة التي عرفت كيف تبرهن عنها في وجه المسائل العملية ، قد خدمت ما ابقت عليه من هذه الحضارة الايطالية . لا شيء ، في هذا الصدد - اذ لم يكن هنالك من حد فاصل بين الفن ، الذي قلما يكون

اختياريا ، وبين الاشغال الكبرى ذات المنفعة العامة - يعطينا شهادة ابلغ من تحقيقات مهندسيها الاول . فقد كان علمهم وتقنياتهم مدعويين لان يبقيا احد اختصاصات روما المجيدة . برزا منذ هذا العهد القديم وبقي اسم ابوس كلوديوس ، الذي لقب « بالاعمى » (*Caecus*) في شيخوخته السقيمة ، مرتبطاً بمشاريع عظيمة كانت منطلقاً ، طيلة قرون عدة ، لسلسلة متصلة الحلقات دامت ما دامت روما بالذات .

تولّى منصب قاضي الاحصاء في السنة ٣١٢ وبنى « القناة الآبية » التي جرّت الى روما مياه ينبوع يبعد مسافة تتجاوز ١٦ كيلومتراً . اجل لقد امكن ، في الريف الروماني ، توصلا لهذه الغاية ، استخدام أقنية سابقة محفورة لأعمال التجفيف توفرت للاتروسك والاطاليين الخبرة القديمة فيها . وعلى الرغم من ذلك فارت تحقيق هذا المجرى تحت الارض كان نجاحاً جميلاً لا سيما وقد جهّز على أكثر من ١٥ متراً عمقاً في بعض الاحيان ، بعلوّ ١٦٥٠ متر وبعرض متر تقريباً . ولم تستند القناة الى الاقواس إلا مسافة قصيرة جداً (٩٠ م) فوق منخفض في المدينة . ومنذ السنة ٢٧٢ ، استازمت قناة جديدة ٣٠٠ متر من القناطر . ولما كان ارتفاع عدد سكان المدينة والاهتمام برفاهيتهم قد زادا باطراد ، فقد أفضى ذلك تدريجياً الى أبنية ازدادت أهميتها شيئاً فشيئاً ايضاً : « فالقناة المارسية » التي شيدت ما بين السنة ١٤٤ والسنة ١٤٠ قد بلغت ٩٢ كيلومتراً طولاً منها ١١ كيلومتراً على القناطر . لا شك في ان الاغريق ، منذ زمن بعيد ، - تعود قناة افباليينوس في ساموس ، مع النفق الذي استازمته ، الى القرن الرابع - قد حققوا مثل هذه الاعمال الممدّدة لتموين مدنهم بالمياه . ولكنهم لم يحققوا ، ولم يصمموا على ما نعلم ، أعمالاً على مثل هذه الأهمية .

تجدر الملاحظة نفسها بصدده الطرقات . فان شعوباً أخرى قد أنشأت طرقاً في السابق : وهنالك تقليد ، يشك فيه كثيراً على كل حال ، يعزو الى الرومان انهم استوحوا في ذلك أساليب القرطاجيين في صقليا . ولكننا لا نستطيع ان نعطهم فضلهم في إنشاء اولى الطرقات الطويلة المدى . فعين كان ابوس كلوديوس قاضي احصاء ايضاً ، وضع تصاميم الطريقة « الآبية » ولزم اعمالها ، وهي التي وصلت روما بـ « كانا » - ١٩٥ كم - في كبانيا ، والتي سيدعوها احد شعراء العهد الامبراطوري « ملكة الطرقات » . وقد اخترقت المستنقعات البونتيية بخط مستقيم فوق ردمية بلغت ٢٨ كم طولاً . واعتمدت في إنشاء الطبقات الحجرية التي شدّها الملاط الى بعضها البعض وتناقصت قياسات حجارتها بين الاساس والسطح ، واللوحات التي غطت هذا السطح فيما بعد ، فكانت اول تطبيق لتقنية ستعطي ، طيلة قرون وتحت كل سماء ، في الجبال والمنخفضات ، براهين أخرى كثيرة عن تفوقها . وفي العهد الجمهوري اخترقت ايطاليا بنوع خاص ، في كل الاتجاهات ، طرقاً عظيمة مماثلة لتولت الجمهورية بعد ذلك تعميمها على الاقاليم على نطاق واسع . لكن هذه الطرقات لم تستخدم للسير السريع . فان هدفها الرئيسي

كان تسهيل انتقال القوات المسلحة والبريد ؛ كما ان عمليات المساحة قد استندت اليها في تقسيم الاراضي . فجعل منها هذا الدور العسكري والاداري ، مع اتساع شبكتها ، دعامة من اوطد دعائم السيطرة الرومانية على ايطاليا اولاً وعلى الامبراطورية بعد ذلك .

فهل كانت هذه المشاريع وهذه النزعات رومانية يا ترى ؟ العدل يقضي ، في الحقيقة ، ان نصفها بالاطالية ، او باللاتينية على الاقل : اذ ان عائلة كلوديا سابينية المنشأ . فيجب بالتالي ان لا ننفي قيمة نوعية على العنصرية التي يفسر الانصهار البشري الباكر استخدامها التقليدي في مفهومها العريض . واذا ما تم الاتفاق على ذلك ، فان الاشارات الوجيزة السابقة الى هذه الاشغال العظيمة تكفي للدلالة على ان التصميم على قهر الطبيعة المعادية واستخدام الطرائق الفعالة في هذا السبيل قد سبقا ، في روما ، قيام الاتصال الودي بالحضارة اليونانية خلال القرن الثالث . فقبل هذا الاتصال توفقت جرأة مهندسيها الى الانطلاق وأثارت سواعد عمالها الاعجاب — ولكن كم بينهم من العبيد ؟ — كما قام جنودها ، في كل مرحلة ، ببناء معسكرهم .

قبل ذلك بألوف السنين ، حققت حضارات الشرق الادنى الامبراطورية اعمالاً اعظم ضخامة . فهل كان ما أتته ابعد تجرداً عن المصلحة يا ترى ؟ يحذر بنا ان نجد مقياساً مشتركاً للمصلحة . فان اليد العاملة ، مندفعة كانت ام راضية بنصيبها ، التي استنفدت قواها في خدمة الآلهة وابنائهم او خلفائهم الملكيين ، قد آمنت بأنها توفر للجماعة ، على الدوام ، احسانات قوى كلية القدرة . اما الرومان فقد كونوا ، عن المنفعة العامة ، فكرة اقل غموضاً واقل بعداً . فمن حيث ان ديانتهم كانت ديانة قانونية ، او دنيوية اذا صح التعبير ، فانها لم تفتح امامهم آفاق مثل هذه الاعتبارات . ومن حيث هم لم يؤدوا واجباتهم مسبقاً لأهلتهم ، بل اكتفوا بنحوهم بعود مشروطة ، فانهم قد تحاشوا القيام بتعهدات على مثل هذا النطاق . وهم قد كيفوا بجهودهم ، لا ضناً به ، بل اقتصاداً ، وفاقاً للكسب المباشر الذي ارتقبوه منه . ولم يبرز كبرياؤهم في الاعتداد بقوتهم و ثروتهم إلا بعد حين ، وقد بقي زيغانه الشليع امراً نادراً .

لا يحدينا ، على كل حال ، ان نسير الى ابعد من هذا الحد في مقارنة تصرفات على مثل هذا التباعد ؛ فالمقارنة المفيدة يجب ان تجرى مع الاغريق . في الحقيقة تفوق الرومان عليهم على هذا الصعيد : اجل لقد اعوزهم ذلك الانسجام المرن وذلك التألف السهل بين المنطق والتأثير اللذين احلا الفن اليوناني في المرتبة الاولى . ولكن ما ان شعروا بحافز المنفعة التي فهموها على طريقتهم والتي لم تختلف قط عن طريقة الاغريق ، حتى برهنوا ، باكراً جداً ، كما رأينا ، عن حدة خيال وسعة تفكير . وحين توفرت لهم بعد ذلك وسائل خلق ما هو اعظم ، عرفوا كيف يضيفون على تحقيقاتهم العملية ، الحالية من الزخرفة ، والمطابقة ، منذئذ ، لمثل أعلى من الجمال الوظيفي ، طابعاً من الجلال الصافي .

نقل التحف اليونانية
حافظ الرومان اذن ، فيما يعنينا ، على عبقريتهم الخاصة . ولكنهم لم يحافظوا عليها على صعيد الفن الحقيقي .

فقد حدث امر جديد هو احتلالهم لايطاليا الجنوبية وصقليا وشبه الجزيرة اليونانية وآسيا الصغرى المستغرقة . وقد حدث معه ، لا استلهاهم فنا لم يكونوا ليجهلوهم ، بل استشارهم وتمتعهم المباشر بكل ما استطاعوا ، مادياً ، نقله الى وطنهم بعد ان اختاروا ما طاب لهم اختياره من نتاج كدته ارفع الشعوب فنا .

ولست الامثلة ما ينقصنا عن هذا الاستيراد الضخم للتحف الفنية . لن نعود مرة اخرى الى مواكب الظفر التي كانت تقدم ، طيلة ايام عدة احياناً ، لاعجاب الجماهير ، الغنائم التي تشارك فيها . فلننظر بالاحرى الى تصرفات القنصل ل . موميوس الذي هزم ، في السنة ١٤٦ ، الجيش الآخي على مقربة من كورنثوس . ويعود الفضل الأكبر في شهرة هذا الحدث الى تقليد تالاب طابع بعض الروايات بطابع مضحك فظهر هذا الروماني بمظهر الحشونة والبربرية . واذا هو اقدم على هدم كورنثوس بعد نهبها فانما فعل ذلك نزولاً عند أمر مجلس الشيوخ ؛ وان بوليب ، الذي شاهد زمر الجنود يلقون باللوحات الشهيرة ارضاً ويلعبون عليها بالكعب ، يمتدح اعتداله وتجرده الشخصيين . وما ان علم بقيمتها حتى اسرع والغى بيع لوحة ، ضربت يجالها الامثال ، الى الملك البرغاموسي اطاتال الثالث واحضرها الى روما حيث وضعها في معبد سيريس . وعندما انذر ملتزمي نقل اللوحات والتماثيل الى ايطاليا بوجوب التعويض عما يفقد منها بغيرها ، فان انذاره يكون اقرب الى الصواب اذا ما نظرنا اليه كفكاهة لا كإنذار حقيقي . اصف الى ذلك ان اعادة الاعتبار للرجل ليست هنا من الاهمية بمكان : فان قيمته كحالة نموذجية تختلف كلياً . وفي نظر « بلين القديم » ، اذا كان القادة الظافرون في آسيا الصغرى ما بين السنة ١٩٠ والسنة ١٨٨ قد ادخلوا الى روما عادة المصنوعات الفضية المنقوشة والأقنعة الثمينة والاسرة المنزلة بالشبه ، ان موميوس قد ادخل عادة المصنوعات الشبيهة الكورنثية واللوحات الفنية . وقد عزا احد معاصري اوغسطس الى مغانم اكثر واجل التماثيل التي ازدانت بها روما . فحين كان قاضي احصاء في السنة ١٤٢ وزع القسم الأكبر منها على كل انحاء المدينة تقريباً واستطاع بالفائض منها ان يوزع الهبات على البلديات الايطالية وحتى على مستعمرة ايطاليكا في اسبانيا .

هذا مثل بسيط بين امثلة اخرى كثيرة . ولكن الجال ليس مجال احتداد وتظاهر بالفضيلة . فان فاتحين كثيرين قبل الرومان قد اعتمدوا طريقة الاستلاب هذه التي تفري ، حتى اليوم ، اكثر من منتصر معاصر . ولعل الاغريق وحدهم انقطعوا ، منذ اواخر العصر القديم ، عن استلاب كنوز « البرابرة » الفنية لانهم قبلوا على هذا الميل — وليس هذا اقل الدلائل مغزى على استقلالهم الجمالي . ولم يبد خصومهم ، الفرس والقرطاجيون والفلاطيون مثلاً ، ترفعاً مماثلاً .

أما الرومان ، فقد سبق لهم ونهجوا هذا النهج في حروبهم ضد الاتروسك ، ولم تنطو الأساليب التي اعتمدها في العالم اليوناني على أي جديد باستثناء وفرة دخلها النادرة التي تفسرها راحة هذا العالم ، وما يمكن ان ندعوه بكثافته الفنية . ولم تستلب الممتلكات الخاصة استلاباً منظماً إلا من قبيل العقوبة الفردية أو الجماعية ، وغالباً ما تحلى الرومان بظرف تقوي قضى باحترام المعابد بين الممتلكات العامة . ومع ذلك ، فقد كانت النتيجة وإبلاً وتكديساً في مدينة لن تلبث ان تطفح بهذه التحف .

وساعد على ذلك ان النقل الذي اجري لحساب الدولة قد رافقه في الوقت نفسه أو في وقت لاحق نقل اجري لمصلحة الأفراد . وحصلت كذلك صفقات واغتصابات سهلتها تسهيلات نادرة التفاوت المالي والاداري الذي أوجده الفتح بين الأسياد والرعايا . فما هو مصدر الشحنات الفنية المجموعة في مركبين غرقا في القرن الأول قبل الميلاد ، واكتشفا في اوائل القرن العشرين ، الاول في انتيكيتيروس (Anticythère) جنوبي البلوبونيز ، والثاني في مهديه على شاطئ تونس الشرقي ؟ هل هي غنائم حربية استولى عليها سيليا في اليونان ابان العمليات ضد ميتريدات ؟ أم صفقات وطلبات ؟ أم مجموعات أرسلها السامرة بغية بيعها في أغنى الأسواق أموالاً ؟ مهما يكن من الأمر ، فليس أبلغ ، في استعادة الماضي ، من تنوع - أعمدة ، وقطع رخامية وشبيهة ، وتماثيل مختلفة الاشكال والقياسات ، ونقوش ناتئة ، وأوان ، النح .. - وجمال بعض القطع الذي يلفت الأنظار : بفضل هذه الاستيرادات المستمرة ، جمعت روما ، التي غدت مدينة - متحفاً ، ثروات فنية يونانية تفوق ما جمعتها أية عاصمة هلينية عظمى .

يكشف هذا العناد المستمر في تحقيق هذا المطلب ، دونما ريب ، عن سيطرة الفن اليوناني والفنانين اليونانيين شعور بكبرياء جشع فطري عند حديثي النعمة : كان من واجب الشعب - الملك على نفسه ان يبرز الملوك الهليين ، وان تبرز مدينته مدنها والمدن الجمهورية اليونانية ، كأثينا ورودوس ، الذائعة الصيت بفخامتها . ولكنه قد وعى في الوقت نفسه مفهوم واجب الاحترام الذي يؤديه المنتصرون لتفوق المغلوبين الفني .

قارب بعضهم أحياناً بين ما حدث في روما ، خلال القرن الثالث وفي اوائل القرن الثاني ، وبين الصدمة التي شعر بها الفرنسيون في اواخر القرن الخامس عشر بعد ما قطعوا جبال الألب ودخلوا إيطاليا . فاذا كانت كل مقارنة قابلة للانتقاد ، فان هذه بنوع خاص تموّه الحقيقة تويهاً . فبصرف النظر عن أهمية الاتصالات السابقة ، يؤخذ عليها ، في الدرجة الاولى ، انها تهمل فقدان أية حركة توازي النهضة في البلدان اليونانية وفي روما : وما المقصود هنا ، دونما تعرض لمصادر الوحي ، سوى حركة فنية جديدة وقوية ، ربما أسهم فيها هنا وهناك فنانون قوميون .

يلاحظ « بلين القديم » ، في اواسط القرن الثاني ، انبعاث الفن اليوناني بعد تقهره السابق : ولكنه يعني ، وهذا امر آخر ، استعادة الازدهار المادي . شهدت الحضارة الهلينية من قبل

عادة المجموعات . ودرجت هذه العادة في روما مستهدفة التحف اليونانية وغيرها . فقد جمع الرومان منها ما يعود للعهد الكلاسيكي ، وما لبثوا بعد ذلك ان جمعوا ما يعود للعهد القديم ايضاً . وشهد الشرق ، في نطاق تجارة المصنوعات الفنية ، ازدياد النشاط في اوساط هذه التجارة التقليدية ، أثينا ورودوس وبرغاموس ، التي ترده اليها أثرياء الرومان مبتاعين منها لأنفسهم أو لأصدقائهم أحياناً ، كما فعل اتيكوس (Atticus) الذي وثق الناس بسلامة ذوقه . ثم دخلت هذه التجارة روما مع ما يرافقها من حرف تابعة ، كالترميم ، او طفيلية ، كالترفيف . فكان من شأن هذا الولع بالماضي ، انه أضر بالتجديد الذي بدا ، مع ذلك ، وكأن كل شيء يشجته : انتشار التقنيات ، ووفرة الأموال ، وامثلة التحف المدروسة على هيئة ، وتميز بعض النزعات الإيطالية . ولكن كل ذلك بات دون جدوى . أجل لم تكن كثرة النتاج السابق لتسد حاجات زين متزايدين باطراد . ولذلك ، فالتنـاج الجديد لم يهبط ، بل أخذ في الاتساع بنسبة الطلب المتزايد وبفعل انتشار الثروة ؛ ولكنه لم يتبع أي تيار مجدّد ، ولم ينعشه أي نسخ جديد . فاقصر أبداً على النسخ ، وعلى بعض الاقتباسات أحياناً عن أصول برهنت عن نجاحها في البلاطات والمدن الهلينية .

غير ان هذا الجمود ليس مثاراً لمزيد من الدهشة ؛ فقد كان للاغريق ، بعد كل حساب ، مصلحة في استثمار مهارتهم وصيتهم . ولكن ما نجد مزيداً من الصعوبة في ادراكه هو كيف ان القليل القليل من الفنانين الرومانيين أو الإيطاليين ، على الرغم من الظروف الكثيرة التي توفرت لهم للحصول الفني ، قد لاقوا آنذاك من التقدير ما أتاح للمصادر أن تحافظ على اسمائهم . فحتى اواخر العهد الجمهوري — ولن تبدل هذه الحال ، في العهد الامبراطوري ، إلا بكل بطء — لم تذكر هذه المصادر فناً رومانياً يحمل اسماً لاتينياً ، سوى كوسوتيوس المهندس المعماري . في السنة ١٧٥ كلفه الملك السلوقي ، انطيوخوس الرابع ، اتمام معبد زفس الاول في اثينا الذي أوقف بناؤه منذ اواخر القرن السادس ، والذي لن ينتهي ، على كل حال ، إلا بعد مرور ثلاثة قرون . كان هذا الملك معجباً جداً بالعادات الرومانية ، فأكسبه ذلك ، وغير ذلك من الغرابات ، ما اشتهر عنه انه نصف مختل . ولكنه كان ماهراً في العناية بشعبيته ، لا سيما في اثينا . ولذلك يغري بعض العلماء أن يروا في كوسوتيوس مواطناً رومانياً حديث العهد ، يوناني الاصل ، أضاف الى اسمه الصيغة اللاتينية .

ان صفة التعكم في هذا الافتراض اليائس تنطوي على بعض الرمية : انها حالة فريدة وشبه مشينة ان يكلف اغريقي فناً رومانياً القيام بهذا العمل . وعلى نقيض ذلك فليس من سبيل لاحصاء الطلبات المنفذة في البلاد اليونانية ، والصناعيين والفنانين اليونانيين المجموعين رضى او قسراً والمنقولين فرقاً كاملة والمستدعين أو الآتين باختيارهم الى ايطاليا للعمل في خدمة الرومان . فاذا ما انطوى نتاج مغفل ما على بعض الجمال فان تحليل نمطه يدفع بالنقاد في اغلب الاحيان

الى نسبته الى فنان يوناني مجهول . اجل قد تبدو استنتاجاتهم مشوبة بذلك الميسل اللاواعي نحو الحضارة اليونانية الذي لا يتخلل عنه مؤرخ الفن الا بصعوبة . ولكنها في الواقع تتفق مع كل ما نشاهده من العلاقات الفنية بين الشعبين . وللدلائل الصغيرة بلاغتها احياناً : فقد درج الرومان حتى ذلك العهد على استيراد المرمر من الأتيك (Attique) والجزر الايحية ولم يستخدموا مرمر ايطاليا في روما قبل عهد قيصر .

وليس اقل بياناً ان رومانياً واحداً لم يتذمر من هذه السيادة الأجنبية . فالتقليد الذي لا ينضب معينه في الكلام عن انتقادات كاتون اللاذعة ضد فساد الأخلاق والبذخ والفلسفة والشعر نفسه والطب عند الاغريق ، لا يروي عنه اي انتقاد ضد فنهم : ولعله اكتفى بالاعتراض على عدد التماثيل المفرط—ولكن اصبح له مثاله اخيراً—وعلى استخدام الصور الالهية لاهداف دنيوية . والحقيقة هي انهم خضعوا جميعهم للتيار ولم تبد المتع التي جنوها منه وخيبة العاقبة لاي منهم . ولم تفهم قط حطة فنهم او بالاحرى عدم وجوده . نحن لا نشك في ان الوطنيين المثقفين قد تألموا من ذلك بعد ان زالت النشوة الأولى التي أثارها فيهم الاعتقاد بان هذه البدائع أصبحت منذئذ ملكاً لهم ، ولكنهم لم يعترفوا باستذلالهم . فان شيشرون الذي بحث بشغف عن التحف اليونانية كي يزين بها مقاصفه والذي دفع ثمنها غالباً على الرغم من مشاغله المالية قد تظاهر بنسيان اسم بوليكليت احتقاراً حين وقف خطيباً في جمهور كبير . اذا كان هذا الاسم قد راوده دوناً جهد في القسم الاول من كتابه (*Tusculanes*) ، فانه بذلك يحاول تفسير خضوع روما حيال الفن اليوناني بلامبالاة الجدود المرعبة : « لو أدّى لفايوس الاكرام الخلق بوهبته التصويرية ، وهو رجل ينتمي الى ارفع طبقات الاشراف ، اما كنا احصينا بين الرومان فنانيين عديدين من امثال بوليكليت وباراسيوس ؟ » اما في الواقع ، فقد اكتفوا كلهم بعذر واه ، ملعن او ضمني : كان للرومان ، فاتحي العالم وحكامه ، مشاغل اخرى اعظم شأناً .

النقاشه
يجوز لنا والحالة هذه ان نمر مرور الكرام بنتاج ليس رومانياً إلا يحنسية زبنة .
فنقتصر خصوصاً على الفنون العظمى .

ان منتجات النقاشه لا يحصى لها بعد . فالدولة ، او بالاحرى القضاة الذين يمثلونها والذين تباروا بذخاً بالاسهام فيها بثروتهم الخاصة ، وزعت الميزد منها على الساحات العامة والأبدية القديمة او الحديثة في « المدينة » . وقد بلغ من زحمة الغوروم بتماثيل النبلاء التي أقامها ذووهم او النفعيون انه تقرر ، منذ السنة ١٥٨ ، ان يزال منه كل تماثيل لم تصدر اجازة رسمية باقامته . ولم يهمل الأغنياء متعتهم الخاصة ومقتضيات العرف السائد فزينوا منازلهم في المدينة ومقاصفهم وحدائقهم . وحدث مثل ذلك في جميع أنحاء ايطاليا حيث سارت المدن الصغيرة على خطى المدينة الكبيرة . فقامت حركة لا تقاوم ، شبيهة بتلك التي جرّت وراءها المجتمع الهليني منذ أواخر القرن الرابع ، مقتبسة طرائقها وتحقيقاتها على كل حال ، على انها أقوى منها لأنها

اقل ذوباناً في الزمان والمكان وأوفر موارد مادية ، فجرت وراءها كل المجتمع الايطالي الرفيع والمتوسط .

لا ينتظر من هذا الانتاج ، الرائج والوفير ، كما لم ينتظر ذلك من قبل من الفن الهليني ، ان يكون في مجموعه انتاجاً من النوع الاول . ونحن نميل ، امام غزو الفن الاجني الذي لم يتجدد لمنفعة زينه ، الى الاسف لما حلّ بالميزات التي برزت في فن القرون الاولى من العهد الجمهوري ، باقصائها الى مرتبة دنيا ، ان لم يكن باضمحلالها اضمحلالاً كلياً . فلو حوفظ عليها بأن يوضع في خدمتها ما امتلكه الفن اليوناني ، لزم طويل ، من تقنية وقوة منطق وأناقاة وتحريك للعواطف ، لأدى ذلك الى نتائج ذات قيمة كبرى . واذا ما استمر انتاج الصور الواقعية ، فانها قد بيعت لغير اعضاء الطبقات الاجتماعية العليا ، وما كانت لتطلب من الفنانين المتمتعين ببعض الشهرة : فللتأثيل النصفية والنقوش الناتئة في الانصاب المدفنية ، آنذاك ، أهميتها كاستنداد عنصرية واجتماعية ، لا كتحف فنية .

على الرغم من ذلك ، ترك لنا هذا العهد بعض النقوش الجميلة ، ويحاول الاختصاصيون اليوم تعيين تواريخها بغية تبيان تطورها . ليس من ريب في ان أهم عهد ، بهذا الصدد ، هو القرن الاول ، حين استطاعت مقاعيل الثقافة المتبادلة ان تستقر وتحدد بعض النزعات وتشرع في نشر بعض المذاهب . وتهتم المصادر القديمة اهتماماً كبيراً لحالة اغريقي من ايطاليا أصبح مواطناً هو باستيليس الذي بلغ قمة الشهرة منذ زمن سيلا وتعلمد عليه كثيرون ممن بلغت الينا أسماؤهم حتى ما بعد العهد الميلادي . وتصفه لنا عالماً بأصول الفن وممارساً للنقاشة . ولكن لم يصل الينا شيء مما صنعته يده . وهكذا ، باستثناء حالات نادرة جداً لا شأن علمياً لها ، فان كل ما وقعنا عليه غفل ، وما زالت تواريخ التنفيذ التي يهمننا معرفتها موضوع جدل حاد .

لنستعرض اذاً أهم هذه الآثار دون حاجة منا للتعرض لهذا الجدل . فنذكر مثلاً بعض تماثيل نصفية جافة الوجوه آذاها الهوى ، ذلك الهوى نفسه الذي سيطر على المدافعين العنيدون عن هذه الفكرة أو تلك في الحروب الأهلية التي اندلعت في زمن ماريوس وسيلا . ونذكر ايضاً تماثلاً لبومبيوس وآخر لشيشرون وآخر لقيصر يتجلّى فيها التجليل السيكلولوجي العميق : ولم تضر امانة الصورة فيها بالتعبير الجلي والعميق . ويجدر بنا ان نشير خصوصاً الى نقشين ثالثين ، احدهما في مونيخ والثاني في اللوفر يعودان الى مذبح دوميتيوس اينيوباربوس . فقد قرّ الرأي تقريباً على انها لحياء ذكرى تأسيس نابونا على يد احد جدود ناقشها ، في السنوات الاخيرة من العهد الجمهوري على الاربع . وهما انتاج فنانين مختلفين ، وعلى الرغم من ان المشهد الميثولوجي الممثل في النقش المونيخي على جانب كبير من المهارة والظرف ، فان النقد يعلقون مزيداً من الاهمية على ما يتصف به من جفاف وتصنع ، على نقش اللوفر الذي يمثل ذبيحة ومشهداً رسمياً اما لتسريح الجيش ، واما لتسجيل المواطنين الممدنين لاستيطان المستعمرة الجديدة كما نرجح . وان

مثل هذه القطعة لدليل على استمرار النزعة الحرة ، اقله عرضاً ، الى معالجة المواضيع التاريخية بنبل ، وهي نزعة ستلهم الكثير من روائع الفن الامبراطوري التي لا اعتراض عليها .

كان على هندسة العمارة ، شأن النقاشه ، ان تواجه تزايداً عظيماً في الطلب .
هندسة العمارة وقد وجدت هندسة العمارة بواعثها ، ونماذجها الكثيرة ايضاً ، في ابتكارات التجميل وتزيين الأبنية التي حققتها الحضارة الهلنسية . أضف الى ذلك انها تفوقت على النقاشه في مطابقة الميل الروماني الى التقنية المتينة والمادية التي تتيح للبشر إثبات وجودهم على هذه الارض .

بنى الرومان كثيراً ، عمداً على عين ، بغية إعلاء روما فوق العواصم الكبرى في العالم المتوسطي ، والمدن الإيطالية الصغرى اقله الى مرتبة شبيهاً باليونانيات . ولكنهم في الظروف العادية بنوا بلا تبصر ، دونما تخطيط جامع . وكان هذا الشتات ثمناً لتعاقب القضاة وتنافسهم . وكان على مجلس الشيوخ ، تلافياً لذلك ، ان يقوم برقابة مستمرة : ولكنه شغل بأمر أخرى ولم ير الأشياء من زواياها الطبيعية ، على هذا الصعيد ، بتأثير الفطنة المحافظة ، والحقيرة طوعاً . ولذلك لا نشاهد برنامجاً حقيقياً ، لا من حيث وفرة الأبنية الجديدة فحسب بل من حيث تلاحمها الداخلي ايضاً ، إلا حين عادت السلطات الادارية ، او اقله السلطة الادبية ، لفترة طويلة نسبياً ، الى الشأن تتوفر لديه الاموال الضرورية ويرغب ، على غرار المستبدن او الملوك اليونانيين ، في تأمين العمل للكتل العمالية واقتنان الجماهير الشعبية بالتباهي بسخائه وقرض ذكره على الاجيال اللاحقة . فحدث ان توفرت هذه الشروط مجتمعة في القرن الاخير من العهد الجمهوري ، حين لم يعرف ارتقاء الطامعين حدوداً . فحتى ذلك العهد اقدم هذا القاضي ، او هذا القائد خصوصاً ، على نذر معبد ، وذلك الاخير ، لا سيما بين قضاة الاحصاء الذين كانت الاشغال العامة احدى مهامهم الرئيسية ، على تشييد معبد ملكي — كان كاتون اول من شيد معبداً ملكياً أطلق عليه اسم بوركينا (Porcia) باسم عائلته ، ثم سار على خطاه كثيرون غيره — او رواق او مستودع . لكن الدكتاتورين سيلا وقيصر ، وبينهما يومبيوس ، كانوا أرحب أفقاً فصمموا أبنية كبيرة غير مألوفة ، وبمجموعات ايضاً ، وأنفقوا في سبيل تحقيقها دونما حساب بقدر الفنائم التي كدسوها .

يجب ان تضاف الى هذه الابنية المعدة للاستعمال العام المنازل الخاصة التي تزايدت حتى في الريف بفضل المقاصف : منازل بسيطة جداً يتكبد فيها الوضعاء متألمين من عدم توفر الاسباب الصحية وغلاء الأجور ، ولكنها اعظم اتساعاً وزهواً من ذي قبل بسبب نمو الثروات والسعي وراء الرفاهية ، ووراء البذخ الصاخب في اغلب الأحيان .

توجب اذن على مهندسي العمارة ان ينهضوا بعمل ضخم لا سيما في روما . وكان لعدد هذه الابنية والسرعة في انجازها ذيول سنحدها تحديداً افضل لدى دراسة هندسة العمارة في العهد الامبراطوري الذي اقصف بها للأسباب نفسها . لم يكن استخدام الملاط ، وسد الفراغ في

الجدران بالرضام ، والقرميد والتليس التريني اموراً مجهولة في المنطقة المستقرقة ، فاضطر المهندسون الى اللجوء اليها بصورة قياسية . وكذلك ، فاننا لن نستعرض ، الا بمناسبة درس الامبراطورية ، اهم نماذج الانبئة : ظهر بعضها آنذاك ولكنها لم تعم الا فيما بعد . يكفي الآن القول بان ما يمكن رده منها الى اصول رومانية ليس كثيراً ، لا بل ان اكثر من معبد قد بني آنذاك على الطراز اليوناني . وقد اتى التكيف الضروري بطيئاً جداً ، وكان حصوله وفقاً للتقاليد القومية ، من جهة ثانية ، اقل منه وفقاً لحاجات المجتمع الروماني والعادات الرومانية .

فلنحاول بالتفضيل اعطاء فكرة عن العمل الذي حققه « الأباطرة » العظام في القرن الاول والذي يبشر اتساعه بالتحقيقات الضخمة في العهد الامبراطوري .

لسنا نعرف معرفة تامة ما المجزه سيلاً في روما بسبب اعمال الترميم والتحويل اللاحقة . بيد اننا نلاحظ انه اعاد تنظيم حي الفوروم القديم رابطاً بينه وبين مرتفع الكابيتول المشرف عليه من الشمال الشرقي . وشيد بين قتي هذا المرتفع دار المحفوظات التي اطلت على الساحة العامة بحجمه تبلغ ٧٠ متراً طولاً مستندة الى اساس يعلوه رواقان من القناطر . ونرى ان هذا الطابع الفخم ، تتصف به هندسة تعتمد نوعاً من التزيين المسرحي ، كما اعتمد من قبل في برغاموس عاصمة الاطاليين ، ولكن بتناسق يتفق والذهنية الرومانية ، اشد بروزاً في معبد اله الحظ في بريستا الذي رسمه ووسعه : كان هنالك عشرة سطوح منضدة على منحدر الجبل ، مع ما يرافقها من اروقة وسلام ، تؤدي الى بناء مستدير ذي قبة ترتفع ١٢٠ متراً فوق قاعدة الجبهة . وليست هذه المدينة الوحيدة في ايطاليا التي استفادت من سخاء الدكتاتور .

اما بومبيوس فقد شرع في روما بتنظيم ميدان مارس وراء الكابيتول . فبعد عودته من الشرق ، شيد فيه اول مسرح مبني بالحجر في المدينة ، ومعابد عديدة ورواقاً ذا اربعة صفوف من الاعمدة تحف بالحدائق ، وبناء لجلسات مجلس الشيوخ .

اما قيصر فقد قصد ان يبرز سلفيه . ولا سبيل لعمرى لاحصاء كافة الاعمال التي قام بها في روما وايطاليا وحتى في الولايات . فهو قد شرع بشراء الأراضي وتنفيذ الاعمال خلال حملاته على غاليا ، قبل ان يصبح دكتاتوراً ، وشيد المعبد الكبير « جوليا » الى جانب الفوروم القديم . ولم يتردد في تنظيم الفوروم الجديد بعد ان نزع الاتربة والانقاض من ارضه . وقد استخدمت هذه الساحة الفسيحة - ١٦٥ م × ٧٥ - المحاطة بالاروقة ، اطباراً لمعبد نذره ، يوم انتصاره على بومبيوس ، للإلهة التي جعل منها جدة عائلته ، فينوس الام . وقد انتصب قبالة هذا المعبد تمثال الدكتاتور متمطياً حصاناً مفلوج الخوافر على غرار اصابع الانسان كان العرافون قد تنبأوا بان ماله سيسيطر على العالم .

هكذا قدّمت روما في تجهيزاتها وابنياتها الجديدة الدليل على التغييرات في نظامها السياسي

واخذت ترتدي شكلاً خليفاً بقوتها وثروتها وخليقاً ايضاً بالرجل الذي تولى فيها السلطة . لاشك في ان التطورين ، البنائي والسياسي ، سيحدثان على كل حال وان الموازنة بينهما ستظهر ايضاً : فالطبيعة البشرية ، في وضع روما آنذاك ، كانت تستدعي ذلك . ولكن ما حدث انما حدث بسرعة بتأثير من سنى الحضارة الهلينية الساحر : فقد عينت هذه الاخيرة الابنية الواجب تشييدها وقدّمت اليد العاملة القادرة على النهوض بهذه المهمة بفضل تعليمها مثلاً اعلى في العظمة لا ترضى السلطة معه ، اقله للتأثير في نخلة الجماهير ، باطار عادي هو دليل الشح والجهل . واذا نحن نظرنا الى ملكية قيصر من زاوية برنامجها الفني ، لرأينا انها هلينية لا رومانية .

ولكن مدينة كبرى لا تتجدد في فترة دكتاتورية دامت سنوات معدودات . فقد توفي قيصر باكراً جداً . غير ان المثل الذي اعطاه سيرارد الاباطرة ابداً .

٢ - التطور الفكري

على الرغم من ان الحياة الفكرية في روما قد تأثرت بالحضارة اليونانية ايضاً ، فانها تتصف بزيادة من التميز . فقد كانت الحضارة اليونانية لها مهبداً وقدوة . ولكن مجرد الاستقلال اللغوي قد تنافى والنقل بلا شرط ولا استثناء الذي سهل تحقيقه بصدد النتاج الفني . كما ان الحاجة للترجمة ، بالإضافة الى ما اوجدته من اتصال اوثق اتضح انه أعظم فائدة من حيث الاساليب ، قد افضت اقله الى التعبير والتبديل . وقد تفاوت عمق التبديل ومدى الاضافات الشخصية التي كان هو منطلقاً لها باختلاف المؤلف واللون الادبي والعهد . وقد تطلع بعضهم ، بعد تفكير عميق ، بخطر الذرى يدفعهم الى ذلك حنان متغطرس نحو وطنهم تحيish به قلوبهم . فصمموا على استخدام مرونة مهارة الفكر واللغة والنسق التي اعترفوا بأنهم مدينون بها الى المؤلفات الانجينية رغبة منهم في ان يعملوا لروما تراثاً فكرياً يتفق والنزعات القومية الخاصة التي يعود الفضل في بقائها او يقظتها اليهم . واذا لم يحالفهم النجاح التام في كل الحقول ، فانه قد جاء هنا وهناك نجاحاً لا جدال فيه . وعند زوال الجمهورية كان الرومان قد تجاوزوا مرحلة الوعود . ففي نطاق بعض النشاطات الفكرية ومعزفة بعض العواطف والتعبير عنها نراهم وقد قطعوا مرحلة التلمذة والشراء فيما يعود لبهجة نظرهم وتزيين مدنهم ومنازلهم .

١ - اليقظة

ان التركيب العقلي في شعب من الشعوب ابعد من ان يبدو ، بعد التحليل ، شئ فلاح وراقعي حاصل بـسيطاً ، كما انه لا يتثبت كما تثبت النظريات الهندسية . ولكن من يحاول تحديد وفهم هذا التركيب عند الرومان ، يرى ان مفهوم الشعب الفلاح حقيقة ملازمة لا تقاوم . فان عامة الشعب الروماني التي تعيش من نشاطها التجاري تتميز منذ عهد مبكر

باختلاطها وتأثرها بالتيارات الكثيرة وبقلقها واندفاعها وحتى بقابليتها، ولكنها لا تحمل الناس على الانقياد لعدوتها. فروما لاتينية وإيطالية قبل أن تكون رومانية بالذات بما لهذا التعبير من مفهوم ضيق ومدني. فان ما يعتد به في الدوجة الأولى هو الأرستوقراطية الحاكمة والطبقة الوسطى اللتان تتألفان في أكثريتها من الملاكين الريفيين القريبين من الأرض المنهمكين باستثمارها شخصياً المتفانين في الدفاع عنها الموزعين أوقاتهم بين الحقول والجيش ومناقشة الشؤون العامة.

هل من داع للدهشة، والحالة هذه، إذا ما ساد الحس العملي والواقعي والموس؟ فهو قد سيطر على اللغة نفسها التي لم تدخل عليها التعابير المجردة إلا في عهد متأخر نسبياً دون أن تتمكن يوماً من تبديل التيارات الصرفية والانشائية التي فرضتها عليها سميتها الأولى. وقد قام أحد علماء اللغات ممن يحسنون اكتشاف الفوارق الدقيقة بدراسة «اللاتينية لغة فلاحين» و«اللاتينية لغة المحسوس» فانتهى إلى أن أكثر من كلمة ذات معنى أدبي تشتق من الحياة الريفية كـ (Egregius) مثلاً (وهي تعني اشتقاقاً «المنفصل من القطيع») فأصبح معناها بالتالي «السامي»، «المجيد».

وعلى الصعيد العقلي تميز الشعب الروماني بميل قليل نحو العلوم، لا سيما المجردة منها كالرياضيات، ونحو الفلسفة، وهما النطاقان اللذان شغف بهما الفكر اليوناني وغالباً ما خلط بينهما. أجل لم يعوز الرومان التفكير أو الميل إلى التنظيم المنطقي. ولكنهم آثروا تطبيقها على الواقع القريب وعلى الأبحاث ذات المنفعة المباشرة. ولن تغريهم العلوم قط إلا بتطبيقاتها العملية: الإحصاءات، الأشغال العامة، الشؤون المالية، المساحة، الزراعة، النخ. ومن حيث أن الروماني مجدّ وصبور وكثير التدقيق، فانه يراقب نفسه، ويطيّب له درس الأخلاق وما يفضي إليه من قدح يتفاوت عنفاً وسخرية؛ ومن حيث هو عضو في مجموع، يستهويه الاهتمام بالأحداث السياسية والاجتماعية التي يطيّب له تقديرها ومحاولة فهمها؛ وهو يعتز بمأضي عائلته ووطنه ويريد أن يجد فيه دروساً للمستقبل. وهذا ما سيملي عليه موقفه حين يواجه نظامين فكريين: فالتاريخ سيستهويه دراكاً لا بما يعرضه من حقيقة مجردة عن الغاية بل كأمثلة في السلوك الفردي والجماعي؛ أما الفلسفة فستستهويه بقدر ما تكون سيكولوجية أخلاقية وتحليلاً لأنظمة الدول والمجتمعات لا نسجاً نظرياً فحسب. ولم يفته اكتشاف ما للكلام من قوة في النظام الجمهوري، ولكن ما اعتبره أعظم قوة هو السلطة التي توفرها للمواطن الممتاز، كما حدده بلوت، «الثروة والثقة والاعتبار والمجد والحظوة»، بحيث أن البيان المنق لم يغره قط. وبالمقابلة، أفضى به عنفه الشديد وحرصه على المصلحة والعمل إلى ابتناء نظام فكري جديد هو نظام القانون: فلم يظهر الفكر الروماني في أي حقل آخر، وبشكل أفضل، طاقاته العقلية واستعداده للتصميم المنظم وحتى لحدة التصور، شرط الانطلاق من حالات حسية والخلوص في درسها إلى وسائل حل سواها.

يجب ان نحذر الاوهام بصدد وضوح ومتانة مثل هذا التسلسل : فان التاريخ والعلوم التي تتناول معطياته لا تستطيع حتى اليوم - وهل ستستطيع ذلك يوماً ؟ - اثبات طابعه الكافي والضروري . من اليسير ان نعزو ما حدث الى بعض الجذور ، ولكنه من البساطة الكلية الاعتقاد بان ليس هنالك جذور اخرى او بان الجذور التي اكتشفنا ما كانت لتنبئ قروغاً اخرى . فكم نوابت بمجولة اجهضت يا ترى ؟ وما هي التأليف الخفية المتسعة التي اتاحت تفتح ما ازدهر من هذه النوابت ؟

مهما يكن من الامر ، فليس ما ورد في بحثنا سوى امكانات فقط ، قد لا تكون الوحيدة على كل حال . وكان لا بد من تحقيقها .

ولكن تحقيقها كان ابطاً منه في كثير من الحقول الاخرى . فقد اجمع التقليد على البقطة البطيئة واقع هذا البطء لا بل اعلنه اعلاناً : لم يشعر الرومان يوماً بكبرياء لا طائل تحته والمسيرة في تقديم تاريخ يقظتهم الفكرية ولا في انكار فضل الاجنبي عليها اي ، فيما يعيننا ، فضل الاغريق الجلي المباشر .

قد تفضي بنا معرفة الاتروسك والشعوب الايطالية معرفة اكمل الى اطالة لائحة اقتباسات روما القديمة عنهم . ولكن هذه اللائحة حتى تاريخه موجزة جداً . فليس من ينكر اليوم بان روما مدينة بايجديتها للاتروسك الذين استمدوها من اغريق « كوم » على الأرجح . اما عن الشعوب الايطالية فقد اقتبست في عهد مبكر ، لاغانيها البطولية الشفهية التي كانت تتلى في الجناز والمآدب ، الشعر « الساتورني » المتميز بوزن تتخلله المقاطع القصيرة والطويلة . وقد احتفلت معهم باعياد شعبية يطلق فيها العنان للتنكر الهجري وللقدح الهازل ، ثم اعتمدت رسمياً ، في السنة ٣٦٤ ، الألعاب المسرحية على الطريقة الاتروسكية التي اشترك فيها الراقصون والممثلون الهزليون المحترفون ، فادخل ذلك بعض التنظيم على هذه الاعياد ، ولكن المسرح اللاتيني ، حين قام واقتفى اثر المسرح اليوناني ، قد حافظ على بعض هذه الغرائب .

اما ما تبقى فيغلب ان الاغريق مصدره المباشر منذ ذلك الحين حتى اواخر القرن الرابع . ولا يتردد البعض في هذا الاعتقاد .

تضعنا الشريعة التي حفرت ، في أواسط القرن الخامس ، على « اثني عشر لوحة » من الشبه ، امام مسائل كثيرة . فهي اجلّ أثر من آثار الادب القومي ، وقد استغدم نصها زمناً طويلاً لتدريس التلامذة . ونحن لا نعرفها إلا عن طريق انتشهادات جزأة لا يتيسر جمعها وفاقاً لترتيبها الاصلي بصورة أكيدة . اصف الى ذلك عمق البحث فيها عن نظام قانوني حقيقي : فهي قد وفرت سلسلة من القواعد المختلفة المصادر التي يعود بعضها الى ما هو جاف وينم بعضها الآخر عن أفكار أكثر انسانية . واذا ما صدقنا التقليد ، فقد استلزم تحضير تحريرها ارسال مفوضين يستفسرون في البلاد اليونانية ، حتى اثينا ، عن شرائع صولون . بيد ان الرومان يتباهون

باطراء تفوق القانون المدني الذي حدّته على قانون أية مدينة يونانية . ولكن قيمة هذا التقليد وهذا الحكم موضوع نقاش بين المعاصرين . وتقوم أهمية هذه الشريعة التي لا نزاع فيها في انها حددت ونشرت للمرة الاولى قانوناً واحداً لكافة المواطنين . فاذا كان جلياً ان الرومان قد استوحوا في عملهم هذا المثل الذي أعطاه الاغريق منذ زمن بعيد ، فان هذا التأثير سياسي واجتماعي لا فكري .

هل يجدر بنا ان نذهب الى ابعد من ذلك بصدد ابيوس كلوديوس «الاعمى» قاضي الاحصاء العظيم في السنة ٣١٢ ؟ فهو قد تقدم الرومان النبلاء المولعين بالالسنية فطبق الاجمعية على العلم اللاتيني في تركيب الاصوات . لم يكن حرف C الأصم كافياً لهذا العلم ، فأوجد من ثم ، — ولكن الرومان لم يتخلوا عن عادة كتابة « Caius » الذي يلفظ *Gaius* — الحرف G وأحله محلاً أصبح شاغراً بعد إقصاء الحرف Z النافل . وكرّس زوال الحرف S بين حرفي علة وابداله بالحرف R : فـ « *Fusius* » مثلاً أصبح « *Furius* » . وقد تقدم أيضاً ، على ما نعلم ، سلسلة نبلاء الرومان الذين اقتضروا بالكتابة المفيدة ، في مواضيع عملية ، فألف بحثاً قانونياً وبمجموعة حكم أخلاقية منظومة . وقد رأى بعض القدماء أنفسهم ، في هذه الحكم ، أثر حكم بيثاغوروس الذي ما زال مذهبه منتشرأ في اليونان الكبرى والذي تجمل منه الاسطورة معلّم الملك نوما . ولكن التنف القليلة جداً التي بلغت الينا من مؤلفاته لا تسمح لنا بالفصل في ما دان به هذا المجدّد للحضارة الهلينية .

غير ان بعض الشيوخ الرومانيين ، منذ هذا العهد ، قد تكلّموا اللغة اليونانية . ولكنهم كانوا عادمي الحداقة فيها : ففي السنة ٢٨١ استقبل احد الموفدين الرومانيين بسخرية سامعية حين خاطب سكان طارنتا بلقّتهم . ويدل ذلك ، فيما يدل ، على ان المجتمع الراقي ، الذي يغلب انه امتلك عبيداً يونانيين او مستغرقين واستخدمهم « مربين » ، قد شعر بحاجة الى « لغة ثقافة » حين لم يجد في التراث القومي ما يرضي بعض الاذواق . وما لبث فتح ايطاليا الجنوبية ، ثم فتح صقليا بفضل الحرب البونيقية الاولى ، ان زادا سرعة هذه الحركة .

ارتفع عدد العبيد الاجانب ارتفاعاً عظيماً . وأتى رجال أحرار وأقاموا في روما وفتحوا ، على غرار المعتنقين مدارس علموا تلامذتهم فيها اللغتين اللاتينية واليونانية في آن واحد . فتعين اذ ذلك ، لقرون عديدة ، استخدام اللغتين على كافة العائلات التي فرضت على أبنائها متابعة دروس لا تقف عند حد الدروس الابتدائية . وما كان هذا المثل الأعلى ليبقى اضعاف احلام ، وليس نجاحه الشامل في حقل التربية اقل ما يدعو الى الدهشة في تاريخ روما الثقافي .

منذ اواخر القرن الثالث واولئ القرن الثاني أصبح باستطاعة بعض الرومان المريقين ان يضعوا باللغة اليونانية مؤلفات هامة . فان موفد مجلس الشيوخ الى دلفي بعد معركة « كانا » ،

ك . فايوس بيكتور ، قد كتب باليونانية « أعمال الرومان » ، وحذا حذوه احد معاصريه : ويبدو ان ما دفعها الى ذلك ليس حرصها على تأدية الاكرام الواجب لمهارة المؤرخين اليونانيين التي ما كانت اللغة اللاتينية لتسمح لها ببلوغها ، بقدر رغبتها في تعريف الاغريق بماضي مدينة اخذت عظمتها في الامتداد الى عالمهم . ولم ينتظر كاتون نفسه سن الشيخوخة ، على الرغم مما جاء في تقليد معين ، حتى يتعلم لغة شعب بدا له المخطاطه داءاً سارياً : فقد كان في الخامسة والعشرين حين أتاحت له مصادفات الحرب البونيقية الثانية وبطاقات السكن ان يتلقى دروساً في البيثاغورية في طارنتا ، واذا هو اسم استخدم ترجمائاً خلال جولته الدبلوماسية في اليونان ، فقد تظاهر بالجهل ، كما يوضح بلوتارك ، بدافع من الغطرسة القومية ، وفي العقد الاول من القرن الثاني بدا بطل « سينوسيغال » ، تيتوس كوينكتيوس فلامينيوس ، للاغريق كواحد منهم يحادثهم ويداعبهم : وقد حررت ونقشت باليونانية كتابة اهداء التمثال الذي نصب له في روما . وقد نشر والد الاخوين غراكوس خطاباً ألقاه في رودوس باليونانية : وما يثير الدهشة عدد المفردات اليونانية التي يستعملها حتى الكتاب الذين يوجهون كلامهم لحشد شعبي « كبوت » مثلاً - وهذا يكفي لاستبعاد المقارنة بينه وبين رولسار - مقتصرين على انائها وفقاً للطريقة اللاتينية : ومن حيث ان عامة الشعب المدنية هي في الاصل مختلفة الاجناس وتشترك بفضل حركة المرفأ التجارية ، في حياة اعظم اتساعاً ، فانها قد احتكت باليونانية على الاقل في اختلاطها اليومي بالعبيد والمعتقين .

ولكن غزو اللغة هذا ، من حيث هو رافق في الزمان نقل روائع الفن شعراء العظمة
اليوناني بالجملة الى روما ، قد أسفر عن نتائج مختلفة جداً . فبدلاً من ان الرومانية الاولون
ينجم عنه استسلام قاتر ، رافقه مجهود واع لتزويد روما بشعر لاتيني . بدا
الادب أبسط بؤادر النشاط الفكري ، لأن اللغة واقع رامن ، ولأنه في متناول الجميع . وقد وفر
الشعر ما لم يحسن توفيره النثر المخصص للحاجات التقنية التي لا شأن للفن فيها ، أي شكل التعبير ،
وهو أكثر اغراء ، بفضل روابطه بالموسيقى ، وأكثر انطباقاً على حاجات الحياة الدينية
والجماعية ، بفضل تسهلاته التذكيرية . وقد نهض بهذا المجهود الاختياري المتواصل أسمى النبلاء
اعتباراً بالاتفاق مع الاجهزة الرسمية . فطلب مجلس الشيوخ قصائد تناسب الظرف خلال الحرب
البونيقية الثانية ؛ وشجع التمثيليات المسرحية بمضاعفة الالعب وزيادة محصاتها ؛ واجاز إنشاء
هيئة من الممثلين والمؤلفين تجتمع في احد المعابد . قلما احرزت هذه المشاريع نجاحاً تاماً ،
ولكن يجدر بنا حقاً ألا نستعزى بالنتائج .

لم يكن المؤلفون الاولون من اصل روماني . انتسب باعث الحركة ليفيوس اندرونيكوس
(Livius Andronicus) الى طارنتا التي جعل منه احتلالها عبداً - في الثامنة من عمره اذا كان
المقصود حادثة السنة ٢٨٢ . أصبح مريباً في عائلة من قبيلة (ليفيا) الكبرى وأعتق منذ السنة

٢٤٠ كما بعد حدّ حين أخرج أولى مسرحياته « القانونية » أي المنطوية على مغزى متواصل . وجاء الآخرون ، وهم من الاحرار ، من ايطاليا الجنوبية حيث استساغت الحضارة اليونانية ، منذ امد بعيد ، طبقات بلدية كبيرة . اما نافيوس ، وهو مواطن اشترك في الحرب البونيقية الاولى ، فكان كيبانياً ، وان مطالبته بحرية القول التامة وجرأته في انتقاد العائلات الكبرى التي أدّت به الى السجن ، وربما الى الموت في المنفى ، لا يفسرها تشاغره بمواطنيته الرومانية فحسب : اذ اننا نلصق فيها صدى الفردية اليونانية المتأججة . اما اينيوس الكالابري اخيراً فكان جندياً « حليفاً » في اواخر حرب هنيبعل حين اختاره كاتون وأحضره الى روما حيث حمّاه شيوخ نافدون : ضمّه اجدهم الى حاشيته خلال حملة في اليونان واستحصل له ابنه على حق المواطنة . ففتح ، على غرار ليفيوس ، مدرسة يونانية - لاتينية في روما . يتضح من ثم ان الحضارة اليونانية انما اثرت في نشوء الادب اللاتيني عن طريق رجال طبعتهم الى حدّ بعيد بطابعها الخاص .

أبدى هؤلاء الرجال نشاطاً واسعاً جداً بغية تحقيق نتائج متميز في كل الحقول . فألف كل من الثلاثة في مواضيع شتى : المآسي والمهازل والملاحم وقصائد المناسبات ، لا بل ان اينيوس قد وضع بعض الابحاث الفلسفية . وقد توجب عليهم النسيج على منوال الاغريق الذين غالباً ما اقتصروا على تقليدهم ، لا بل على النقل عنهم كما فعل ليفيوس اندرونيكوس بصدد الاوديسة (*Odyssée*) . واستوحوا التمثيليات اليونانية ، فاخترأوا لمآسيتهم احداثاً ميثولوجية عاجلها أوريبيد من قبل ، او أي مؤلف يوناني سواء ، وجمعوا احياناً مهزتين يونانيتين في مهزلة واحدة وفقاً للطريقة المعروفة « بالإعداد » . ولم يتردد نافيوس احياناً في إلباس بعض مهازله اسماء يونانية صرفة : اكونتيزومينوس *Akontizoménos* « الرجل المصاب بالنبلة » (أو كولاكس *Kolax* « المتملق ») . ولم يتراجع اينيوس ، الذي أهمل الوزن « الساتورني » الملل واعتمد وزناً دونه مقاطع قلّدت به وزن الشعر اليوناني ، أمام قصيدة تعليمية ، ورد فيها ان هذه او تلك من الأسماك أو من الأصداغ ، لا قيمة لها إلا اذا كان مصدرهما هذه او تلك من المدن اليونانية .

مهما يكن من علاقة هؤلاء الشعراء بالحضارة اليونانية ، فإنهم على الرغم من ذلك اعطوا الشعر اللاتيني استقلاله . واينيوس هو الوحيد بينهم الذي وصل الينا منه أكثر من نصف حقيرة : ٦٠٠ بيت شعر من ملحمة بلغت أبياتها ٣٠٠٠ . وهو لا يزال فيها متصنعاً ومتلبكاً على الرغم من تقدمه الملموس بالنسبة لسابقه . فقد كتب : « لم يهتم أحد من قبلي لفن اتقان الكلام » . ولكنه ، على ما يبدو ، افراط في هذا الاهتمام ، بينا هو ما كان ليستطيع الاعتماد على لغة مرنة وذوق سليم . لذلك فقد برهنوا كلهم عن تردد وخشونة وصبوة . ولكنهم كلهم كانوا عند حسن ظن الارستوقراطية الحاكمة التي ما كانت لترضى بأن يبقى وطنها خالياً من الالانقة الضرورية . فعرفوا كيف ينشئون مسرحاً رومانياً ، حافظ ، على الرغم من اقتباساته عن المسرح اليوناني ،

على بعض التقاليد الإيطالية التي كانت من جهة ثانية قد اثرت في المسرح في اليونان الكبرى وصقليا . وحاولوا بنوع خاص معالجة المواضيع القومية . ويبدو ان الأوديسة نفسها التي نقلها ليفيوس اندرونيكوس - منهملاً الألياذة - قد اختيرت عن قصد لأنها تأتي بأوليس (Ulysse) الى ايطاليا ، وتوحي بأنها ملحمة ادرياتيكية لا إيجية . وازداد بروز الناحية القومية في مؤلفات نافيوس . فقد دعيت إحدى مآسيه « رومولوس » ؛ وكان موضوع ' مأساة أخرى اسمها كلاستيديوم ، النصر الذي أحرزه الجيش الروماني ؛ في جوار هذه المدينة ، على الغالين ، حين أقدم القنصل م . كلوديوس مرسلوس ، في السنة ٢٢٢ ، على قتل الملك (فيردومار) بنفسه . أما ملحمة فهي « الحرب البونيقية » التي تنطلق من « اينه » و« ديدون » ، قبل ان تصل الى قصة الحرب الاولى ضد قرطاجة بما فيها المعاهدة النهائية التي وضع نصها شعراً . أما اينوس فقد عالج مؤلفه العظيم « الحوليات » (*Annales*) بمجل تاريخ روما بنفس ملحمة حقيقي احياناً ، أقله في القسم الأول الذي ينتهي بهزيمة هنيبل ، بينما يتناول القسم الثاني ، على مر السنين ، الاحداث التي عاصرتها .

وهكذا ، خلال ثلاثة ارباع القرن تقريباً ، اي من السنة ٢٤٠ حين اخرج ليفيوس اندرونيكوس مأساته الاولى ، الى السنة ١٦٩ حين توفي اينوس ، كان مجهود المسؤولين المتأثرين بحال الادب اليوناني آخذاً باعطاء ثماره : أفرغ الفكر الروماني الفخور بماضيه وبتميزه في قوالب لا يمكن ان تقتبس الا عن اليونان لانه لا يمكن تصور قوالب اعظم كالأ .

بلوت خلال العهد نفسه برز شعراء آخرون ، ولكن شاعراً واحداً هو في نظرنا اكثر من مجرد اسم : بلوت ، الذي ولد ومات قبل اينوس بخمسة عشر سنة تقريباً والذي يجب ان ندرسه على حدة لانه يختلف كل الاختلاف عن السابقين .

نحن هنا امام ايطالي من شمالي روما ينحدر من اصل شعبي على الأرجح ويمارس اكثر من مهنة قبل ان يتعاطى المسرح ويتعلم اليونانية اتفاقاً ، كلما سمحت له حياته المضطربة بذلك في الأرجح : الآخرون احرار في التفكير بارضاء وثقيف جمهور راق . اما هو فلا اعتبار عنده الا للجماهير التي يعرف لغتها وآراءها السائدة وجهلها للدقة العاطفية وغبطتها الفطرية الزاخرة في ايام الاعياد . فهي الجماهير التي اخذ على نفسه اضحاكها معترفاً دون خجل بان المال الذي يدفعه له ملتزم المشاهد يؤمن حياته المادية . ولكنه ، بفعل قربيه اليها ، يسر باطلاق العنان لقرينته الشخصية . ولذلك فالمواعظ ليست قسمته ، واذا برز وطنياً يحترق الاغريق راضياً ، فبدون غطرسة وادعاء وجفاء وتذمر ، بل اقتناعاً منه بواقس تفوق جلي تثبته الانتصارات المتكررة : لا تشغله قط ابهات ماضي روما ولا هموم المستقبل ايضاً . وليس في مؤلفاته ملحمة او مأساة . ولا يريد ان يكون سوى شاعر هزلي ، مع انه طرق المأساة - المهزلة مرة واحدة في موضوع مقتبس عن الاسطورة ، امفيتريون *Amphitruon* .

قبل ذلك بقرن، طرق سيراكوزي الموضوع نفسه بالطريقة نفسها : لذلك فبلوت لم يكن مجدداً. وهذه هي حاله في تمثيلاته الأخرى ، التي بلغت النسا باقفاق هو اشبه بالمعجزة : فمن اصل الاحدى والعشرين تمثيلية التي اعتبرها فارون اصلية في عهد قيصر ، وصلنا عشرون تمثيلية كاملة وتنف من الحادية والعشرين . لا ريب في انه لم يضع النماذج الجديدة ؛ ولكن يجب الا نأسف لذلك حتى نتمكن من الحكم على بلوت : فهو يتباهى بالانتحال رغبة منه في ارضاء مشاهدين شغيفين بالتمثيلات التي لا يعرفونها الا بما ذاع عن مرحها ، ونحن نعلم من جهة ثانية انه لا يحجم عن التركيب والتشويه كما يطيب له ذلك . وتسيطر الركافة ايضاً على عقدة مهازله التي هي في نظره مجرد لحة ينسج عليها المشاهد التي تعجبه . واذا كانت افضل « مهزلة جديدة » هلينية قد نوعت درس الامثلة البشرية والسجاي والمواطف ، فان بلوت لا يحفل لهذا الدرس ايضاً . وليس ابطال تمثيلاته سوى دمي متحركة او ادوار مكرسة : شيخ قاس او حليم ، شاب مبذر ، فتاة ذات جاذب ، عبد محتال ، تاجر عبيد وقع وطفيلي ، جندي مجيد ، الخ . الحياة مفقودة فيها ، والناحية الهزلية صناعية مبتذلة . ولكن الضحك الجديد ينفجر من المواقف التي تبتكرها وتنوعها مخيلة لا تعرف الملل يجموح طليق من كل رادع لا يخشى التحكم ويثق بتوفير التسلية بالتسلي ، فيكثر من المفاجآت والالتباسات والحركات والسورات في المهزلة . وينفجر كذلك من الكلمات وتصادم الاجوبة البديهة السريعة والدعابات والشراسات الكلامية التي تستخدم مفردات لا ينضب لها معين بفضل الاقتباسات المختلفة والمشتقات المضحكة المستنبطة . ويوفر التحريف اخيراً قسماً هاماً — بينما يسحر القسم الآخر بلعاف شعره — من القطع الغنائية المنشدة ، الغزيرة جداً اذ انها تشغل ثلثي التمثيلية احياناً ، التي تمثل تراث المسرح الايطالي .

وهكذا فان بلوت ، على غرار شعراء عصره ، يفرغ في قوالب يونانية مادة رومانية ، ولكنها مادة من طينة أخرى : لا العظمة الارستوقراطية التي تريد ان تسمو بالنفوس حتى تتفوق على نفسها ، بل المرح الشعبي الذي يحياه نسغ القربة القادر . ومن المؤسف ان ينتهي الانحدار المادي والاخلاقي في عامة الشعب المدنية والاهتمام لكرامة رسمية الى وضع حد ، بعد ذلك ، لهذا الانفجار الطليق المستعذب .

٢ - مقاومة الحضارة اليونانية وانتصارها

ان كاتون نفسه لا يحسد مثل هذه الحركة إلا بصورة جزئية ، زائلة ، كاتون والصراع
ضد الحضارة اليونانية
وغير حاسمة على كل حال . اجل يجب ان يحسب حساب لبلاغته حيث لا يعوز حمة المعنى ، في المبنى ، لا الافتان ولا الجرأة : عشرون سنة فقط تفصل ولادته عن ولادة بلوت ، واننا لنجد في بعض نبرات قريحته الساخرة « الرجل الجديد » المنعذر من طبقة الفلاحين ، ان لم يكن من طبقة الكادحين . ولكن التبدل الحاصل تبدل في

الفكر المتصلب تصلباً يائساً في صراعه دفاعاً عن مفهوم قديم - لا بل ضيق - للحضارة الرومانية والحضارة الإيطالية في الوقت الذي برز امامها المزيد من الامكانات لكي تطلا على بشرية ارحب .

ان هذا الانسان يفضل الدور الذي يريد ان يلعبه : ولا تتوصل خشونته المصطنعة الى اخفاء ثقافته . ووراء دوره الاجتماعي وقيمه كمثل اجتماعي الذين اضطررنا للامح اليها اكثر من مرة ، يحذر بنا ان لا نصغره لا على الصعيد الفكري ولا على الصعيد الأدبي . وليس كونه اقدم ناثر لاتيوني وصلت الينا بعض آثاره ما يسترعي الاهتمام فيه ، ولا يمكن من جهة ثانية ان يكون الاهتمام له من هذه الزاوية الا نتيجة مقارنته بمن سبقوه ، وهذا امر مستحيل . ولكن غرابته عظيمة ومؤلفاته اعظم . حرص على الديمومة بشهرته وعمله وعرف ان المناقشات السياسية لا تؤمنها ، فصمم على الكتابة وكتب ونشر دون كلل . ليس من لون ذي شأن الا وطرقه : خطب وادب وتاريخ وحكم وقانون وفن عسكري واقتصاد ريفي . وقد جدد معالم هذه الالوان احياناً ، كما فعل في التاريخ الذي طارد فيه غطرسة الاشراف حتى انه لم يذكر في « الاصول » اسماً علماً غير اسم احد قبيلة بيروس ، والذي وسع آفاق دراسته فتخطى روما الى ماضي المدن الإيطالية . والشعر في نظره تبدل ؛ ولكنه اكتشف اينبوس ، ولم ينتقد الا في عهد متأخر جداً ، الحماية ، النفعية في نظره ، التي احاطه بها نبلاء يكرهم . وقد استسلم عند الحاجة الى الصنعة الفنية ولكنه حاول اخفاءها جهد المستطاع . وهو قد آثر في كل ذلك الظاهر الخش على الواقع .

ولكن اني لنا ان ننسى انه يوجه الى الفكر الاجنبي ، اي اليوناني ، تهما واحقاداً تعميه ؟ فهو لم يرض سوى مرة واحدة بالتمييز بين الاطلاع المفيد على ادب الاغريق الذي قد ينطوي على اشياء ممتازة وبين درسه المتعمق المضر . امطر بلواذعه الشنيعة كافة ابحادهم : سقراطهم ، الفصيح الثرثار الفاسد ، وايقراطيم ، التافه ، واطباؤهم السفاحون المحلفون لتقتيل جميع « البرابرة » ، الذين لم تعوزهم الحيلة لايحاد الثقة في حمل المرضي على دفع اجورهم . ان في مثل هذه المبالغات مثاراً للقلق في كل نفس .

كان النجاح حليف الحركة التي جسدها ، في فترات قصيرة ، ضد الفلاسفة وعلماء البيان الذين يلغون دروساً غزومية ، ولا سيما ضد الابيقوريين ، الذين تمنى احدهم ، فابريكيوس - فابريكيوس روسو - منذ اوائل القرن الثالث ، لو ان مذهب « اللذة » يستهوي اعداء روما دون غيرهم : في السنة ١٧٣ اقصى اثنان من ممثلي هذه الطائفة . وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة اتخذ تدبير مماثل بحق جميع الباقين بتهمة تعليم مبادئ نظرية وعملية تسيء الى المبادئ الاخلاقية التي يرتكز عليها بناء الدولة . ولكن جاء غيرهم ، حتى من برغاموس واثينا احياناً ، بصفة موقدين : فاستفادوا من الانتظار الذي يفرض عليهم والقوا المحاضرات . ويعود اشهر حادث

من هذا النوع الى السنة ١٥٥ حين اوفد الاثينيون ، على جناح السرعة ، الى مجلس الشيوخ ، رؤساء المدارس الفلسفية الثلاث الرئيسية ، الرواق والكلية والأكادمية . فكان ان مثل هذه الاخيرة بنوع خاص ، وهو كرنيا ، قد سحر مستمعيه بالرشاقة الجريئة التي اتصف بها جدله غير الحافل بالآراء السائدة والقادر على الدفاع ، على التوالي ، عن نظريات متناقضة . حينذاك استصرخ كثون الناس على الفضيحة وحث مجلس الشيوخ على الفصل سريعاً في القضية الدبلوماسية ، « حتى يعود الموفدون الى مدارسهم ويناقشوا ابناء الاغريق ، وحتى يخضع ابناء الرومان ، كما في الماضي ، للشرائع والقضاة » . يتضح من ذلك وجه الخلاف : ترويض الفكر الفردي ويقلبة الروح النقدية هنا وقبول الانظمة التقليدية ككل وكعقيدة هنالك . وهو لا يختلف في الحقيقة عن المسألة التي أثارها في وجه الاغريق ، في القرن الخامس ، تعليم السفستين . وهي مسألة حاضرة ابدأ يحجب عليها كل منا على طريقته الخاصة . ولكن هل يحق لأولئك الذين ترفعهم هذه الأنظمة الى السلطة وتثبتهم فيها ان يفصلوا في هذه المسألة باسم المواطنين ؟ ومن يجرؤ على الجزم بان رومان ذاك العهد قد بلغوا التقدم الذي يتيح لهم طرح هذه المسألة على انفسهم ؟

غير ان النظام المجلسي اعجز من ان يقدم على تنظيم حياة المواطنين ندوات الثقافة اليونانية الخاصة ، اذ ان من توفرت لديهم الوسائل المادية كانوا مطلقي الحرية في السعي وراء كل افاقة فكرية . فقد راجت رواجاً لم يسبقه نظير سوق « المهبدين » اليونانيين ، واخذ اوسع النبلاء نفوذاً ، ممن تفرض عليهم وظائفهم الاسفار المتكررة الى الشرق والاقامة فيه ، يستميلون رجال الفكر من الاغريق ويستقبلونهم في منازلهم الرومانية استقبالا ودياً ضنوا به على الفنانين الذين لم يميزوا بينهم وبين الصناعيين تمييزاً واضحاً .

تألفت من ثم عدة ندوات للثقافة اليونانية في الارجح . فكان هنالك ندوة في كنف الاخوين غراكوس ، وليس اقل ما يميزها الدور الذي لعبته فيها امرأة ، هي والدتهما كورنيليا ، الراغبة في ان تؤمن لابنيها ، بعد ان اصبحت مسؤولة عنهما بفعل إرماها المبكر ، خير تربية وتفتح صفات الرجولة فيهما . فبرزت ردة فعل محافظة عتيقة ضد بعض الاغريق من نسب لهم اعداؤهم تأثيراً مشؤوماً : فاعدم احد علماء البيان وطيباريوس وابعد فيلسوف رواقى .

وتنبئنا المصادر القديمة ، لاسيما بوليب وشيشرون ، بوجود ما اتفق على تسميته بـ « ندوة شيبون اميليانوس » . احاط والد هذا الاخير ، بولس - اميلوس ، طفولته وفتوته بعملين يونانيين وكتب يونانية ، ولم يحتفظ لنفسه من المفانم التي اسقطها في يديه القضاء على الملكية المقدونية ، سوى بمكتبة الملك « برسيه » بغية اهدائها ابناءه . وبعد مرور سنوات عدة ، صادق الشاب بوليب الذي كان قد نفي الى ايطاليا وابقى فيها سبعة عشر سنة مع غيره من الاخيين . وعاش معه حياة حميمة كانت جزيلة النفع لكليهما ؛ فدان بوليب له بسهولة الانتقال وسهولة

الاستطلاع اللتين اتاحتاه تصميم وتحرير «تواريخه» ، بينما استفاد شبيون من خبرة صديقه العسكرية ومن ثقافته الفلسفية . وبعد ذلك بزمن استقبل الفيلسوف باناييتيوس الرودسي ، مجدد الرواقية ، بدوره ، في بطانة ذلك الذي سينتصر على قرطاجة ونومانس . وقد اشترك في احاديثهما رومانيون عديدون ، اقارب واصدقاء ينتسبون الى العائلات الكبرى ، ممن يتدرجون في « سلم الابداد » . وكي لا نحصيهم كلهم نقصر على ذكر كايوس لاليوس وسبوريس موميوس - سبق لنا وتكلمنا عن اخيه - الذي يكفي وجوده في هذه الجمعية للاقاء الشبهة على سمعة الفظاظه التي الصقت بهادم كورنثوس . هؤلاء الرومان هم الذين يطيب لشيشرون نسبة الحوار اليهم في مؤلفاته الفلسفية ، واذا هو لم يهتم ، في ما يعنيننا ، للأمانة في التاريخ ، فانه يعيد امام اعيننا جواً واقعياً لثقافة رفيعة ورقيقة . اضف الى ذلك ان هذه الندوة قد فادت الى حد بعيد بمبدأ الاختيارية الاجتماعية وبسطت حمايتها على احد المعتقين ، هو الشاعر تيرنس ، فانتشرت شائعات - لتذكر هنا النظريات العصرية الماثلة في موضوع شكسبير - عزت الى شبيون ولاليوس ابوة مهازله : ترهات لا قيمة لها لعمرى ، ولكنها قد تكون مستوحاة من بعض النصائح المعطاة في اطار ضيق .

ينتشر حتى اليوم سحر اخاذ من مثل هذه الندوات التي يجتمع فيها عظماء هذا العالم تسهلاً لاحتمالك الآراء وبحسناً عن بهجات الفكر . ولكن يجب ان لا نتجاهل خطرها الذي تعرضت له الارستوقراطية الرومانية في القرن الثاني لاسيا وان الثقافة التي تهلل لها ثقافة اجنبية . فخطرها كامن في التنكر لميزة الخلق القومي والانقطاع عن القوى التي تنعش الشعب وتفجر فيه حياة خالصة طبيعية دائمة الجدوة . اضر التصدع بالشعب لانه حرمة من عضد فكري كان على النخبة ان تؤمنه له . وقد اضر بالنخبة ايضاً لانه قادها الى البرودة والكلفة .

ان هذه الندوات لم تبلغ هذه المرحلة بعد ، أو ان المصادر لا تقدم الدلائل
أدب الثقافة اليونانية الواضحة على ذلك . ولكن الادب اللاتيني ، على أي حال ، لم يف آذناك بالوعود التي قطعها في اوائل القرن الثاني .

كان من بعض نبلاء الرومان ، كبولس كورنيليوس شيبون ، ابن الافريقي . ووالد اميليانوس بالتيني ، ان ذهبوا بالمغالطة ، الى الكتابة باليونانية . فوضعوا بنوع خاص كتباً تاريخية و « حويلات » ، وكان فابيوس بيكتور أول من أعطى المثل . ولكن السبب الذي دفعه الى ذلك قد زال منذ زمن بعيد ، وكان الطرف مؤثماً لقريحة كانون التي لا ترحم ، فثار على واحد منهم لم يكتف بمثل هذا المقصد الغريب ، بل شعر بحاجة لطلب المندرة عن خرقه ؛ فقد بلغ من هؤلاء الرومان انهم اعتقدوا بأن التاريخ الذي ابتكره الاغريق وأشهره لا يمكن ان يكتب إلا بلغتهم : لم يعتبروا ان النثر اللاتيني قد بلغ النضج اللازم ، ولم يثقوا ، في سرد الاحداث الرومانية ، إلا برونه الأداة التي استخدمها معلمون أثاروا اعجابهم .

بيد ان بعض مؤرخي الحوليات ، قد كتبوا ، منذ هذا العهد ، باللاتينية ، وبديهي ان هذه اللغة كانت لغة الخطباء . فقد جمعت ونشرت خطب عديدة سعيًا وراء الشهرة الأدبية والدعابة ، لا سيما منذ الأخوين غراكوس الذين وسع عملهما حقل المنازعات السياسية وزاد في حدتها . لم يصل الينا أي نص كامل ، ولا نستطيع ابداء رأينا في هذه البلاغة إلا بما نقل عنها فقط أو ببعض مقتطعات ، أهمها ما بلغ الينا من كايوس غراكوس . تبدو فيها البلاغة ، على الطريقة اليونانية ، على شيء من تحريك النفس المصطنع والغليظ . ولكن طيباريوس غراكوس ، على الرغم من الحرارة التي تجيش فيه ، قد أدرك قيمة صحة اللغة والاعتدال كما أدرك أخوه ، المتفوق عليه تأثيراً ، قيمة الإيقاع . وهكذا نشأت الفصاحة اللاتينية كعلم وفن ، بفقدان بعض بدايتها ونضارتها .

لم يقضِ تقدم النثر على تفوق الشعر . حاد هذا الأخير عن الملحمة وانكبّ على المسرح بنوع خاص . وما فتئ ازدياد الألعاب يحمل على طلب عظيم جداً على الرغم من إعادة التمثيليات مراراً ، فكانت النتيجة نتاجاً وافراً في المآسي والمهازل . وهنا خصوصاً ، يبرز تبار الثقافة اليونانية بقوة .

أعار النقاد القدماء ، شعراء المآسي اهتماماً كبيراً آنذاك . أما نحن فلا نعرفهم إلا بالمقتطعات التي وصلت الينا منهم ، ونرى خصوصاً انهم ولعوا بسعة الاطلاع وبالكلاسيكية الصافية ، فتوجهوا آنذاك الى سوفوكليس واسثيل مفضلينها على أوريبيد . وعلى نقيض ذلك ، فقد بلغت الينا المهازل الست الوحيدة التي ألّفها تيرنس العبد الافريقي المعتقد - من أصل قرطاجي لا نوميدي على الأرجح - الذي أدركته المنية قبل سن الثلاثين : فهي تنطوي على صفات وسيئات الالهام المراقب وتمّ عن اتصال حصري بالأدب الأجنبي .

ولد تيرنس حين توفي بلوت . وبين هذا وذاك عالم حضارة منظمة وموسّعة ومصعّدة . فعلى غرار بلوت ، اقتبس تيرنس عن المهزلة الجديدة الهلينية ، لا سيما عن ميناندر وسالساثرين على خطاه ، مواضيع تمثيلاته التي احتفظ بأسمائها . ولكنه ، شأن الذين نقل عنهم ، يتوفق الى تصور عقدة محكمة متماسكة . يعرض عن المشاهد التحكية والفواصل الموسيقية . فينتقل من المداعبة الى المهزلة التي تسيطر الوحدة على مختلف مشاهدتها . وإذا ما حافظ على أمثلة الأبطال التقليديين ، فإنه يعرف كيف ينوعها ، وقد ينجح في طبعها بطابع مميز أحياناً اذا أحسن فحص الطباع . ويتفق التحليل السيكولوجي ، الدقيق والمؤثر ، عند الشعراء اليونانيين ، ونزعاته الخاصة : فهو يعتمده ويتوسع فيه ويدخل عليه مفارقات قد تكون شخصية . فهل يعني ذلك انه يتسامى فوق ما تسامى اليه بلوت من حقيقة ؟ نعم ، اذا كان المقصود حقيقة عامة أو مجردة ، اذا صح التعبير . اما اذا كان المقصود حقيقة رومانية فيختلف الأمر . يعوزه فتنة المشاهدة بأم العين : وهو لا يدعي ذلك على كل حال ، إذ ان روايته تدور فصولها في البلدان

اليونانية التي رآها للمرة الاولى حين توفي فيها . أما بصدد مراقبة الاخلاق ، فان اتجاه تفكيره يحمله على ان يرى التفاهة بدلاً من حمله على الاستشاط غيظاً . ان فهمه اوسع من ان لا يعذر ويفضي . وأفضل ما يصفه جملة يضيق النص صداها ولكن طاب للقدماء ان يوردوها مفصولة عن النص ويجعلوها بمثابة مجاهرة بعقيدة ايمانية : « أنا انسان ولا شيء في نظري ، مما هو بشري ، بغريب عني » .

كثير من الاناقة اذن : وربما مزيد من الاناقة المفرطة في الارستوقراطية ، مع مزيد من الدقة والفكر الراعيين . ولا تلاحظ هذه الرقة إلا عند القراء ، اذ ان وحدة النوال ، على المسرح ، تخفيها . فلا عجب من ثم اذا تذوقت الجماهير الرومانية هذه الميزة ، بينما هي طالبة ضحك ، دونما اهتمام للنوع . فان « الحماة » (*L'Ilécyre*) قد أخلت المسرح مرتين قبل ان تحظى بالاصفاء حتى النهاية : في المرة الاولى اعلن عن مصارعة ورقص على الجبال ، وفي المرة الثانية عن معركة بين مسافين . هذه اماليح ، حقاً ، ولكنها ستؤدي الى نتيجة لأن لها مغزاها . فالمسرح الروماني سيزول منذ اواخر القرن الثاني وستخلفه كل المشاهد الاخرى : أفليس مرده ذلك الى انه لم يعرف كيف يسمو بولئك الذين اسندت اليه مهمة التوجه اليهم دون ان ينزل هو نفسه الى مستواهم ؟ فالمسرح الاثيني لم يقطع الأشواط بسرعة قبل ان يتوقف مشاهديه .

نشوء الهجاء :
لم يكتب لوسيليوس للمسرح ؛ ولكنه ، لو فعل ، ربما خدمت صفاته المهزلة . واذا ما انتمى هو ايضاً الى ندوة شيبون اميليانوس ، فانه لوسيليوس (*Lucilius*)
قد عاش قرابة ثلاثين سنة بعد انفراط عقدها ، ولعل استقلاله البارز ، مع انه يوفق بينه وبين احترامه الفائق لصديقه الشهير ، قد ازداد عزة بفعل هذا الفاصل الزمني . ومهما يكن من الامر ، فبدون قدوات يونانية هذه المرة ، اقله من حيث المبنى ، قد اوجد لونا جديداً هو الهجاء . وسيقول كوينتيليانوس : « انه روماني بكيته » . وفي الواقع ، اذا لم تكن السخرية وقفاً على شعب واحد ، فان تخصيص القصائد لها امر مميز ويتجلى الخلق القومي في الواقعية الطبيعية والأدبية التي كانت منذ البدء دستور هذه القصائد .

ان تيار الثقافة اليونانية ، الذي هزأ بعاداته الغربية المستهجنة ، لا يظهر الا في لغة لوسيليوس . اما ما تبقى فلتسيطر عليه قريحة سليمة صادقة ، لا تتردد في ذكر اسماء الاعلام وتبرهن عن قوة عظيمة في وصف الطبائع التي تحيا حياة حسية ، عاكسة عهدها وبيئتها وكيانها الباطن . وهي تمند في إثارة الضحك ، وغالباً ما تترج عن قصد ، وتداعب احياناً . وتتجلى بالاساطير والامثال والتوارد والحوار . ويفوت مؤرخ المجتمع شيء كثير اذا هو لم يتمكن من قراءة كل ما ألفه لوسيليوس ؛ ومؤرخ الادب ايضاً ، اذ ان الادب مدين له ، على الرغم من النقد الذي وجهه اليه هوراتيوس ، بسلسلة طويلة وجميلة من الهجاء الروماني .

٣ - تفتح الأدب اللاتيني

انطلاقة القرن الثاني
يكفي مثل لوسيليوس للدلالة على ان اخذ النخبة بالثقافة اليونانية لم يستنزف
ينابيع العبقريّة الرومانية . واذا استمر القرن الثاني على جانب من الجذب
بوجه عام فانه قد حضر ازهار القرن الاولى الذي يوافق ، قبل اوغسطس ، اوائل
الكلاسيكية باكثر من نصف قرن . فقد ساعد هذا الاستغراق على خلق لغة متينة ومرنة معاً
لا يشوبها سوى انفصالها عن اللغة الشعبيّة الذي يحول دون التجديدات والزيادات التلقائية .
ووفر للنثر جملة جديدة بان تفرغ في قالب فكره وان تقيس التأثير الذي يريد احداثه . وعلم
الشاعر بعض اسرار وزن الشعر العلمي . وادخل الشعور على النفوس بان سلخ عنها قسوتها الاولى
وبان حثها على تحليل احساساتها ان لم يكن بعد قد حثها على العطف على احساسات النفوس
الاخرى . وفتح الاذهان يجعلها تلج معرفة كدستها حضارة عرفت كيف تعمل
للانسانية جمعاء . انتهت قرون التمرين : فالادوات والمواد والطرائق ، كل شيء اصبح
جاهزاً او كاد يصبح جاهزاً .

فليست ساحات القتال ، من ثم ، الحقل الوحيد الذي تستطيع روما فيه ان تدعي بانها
وريثة الحضارة اليونانية : فان عدد الرومان الذين يطمعون في متابعة عمل هذه الحضارة يزداد
باطراد . اما عامة الشعب المدنيّة ، المتروكة وشؤونها ، فقد احتفظت بلامبالاتها ، وبعاداتها
احياناً . ولكن الازراء يفضي ، في وطن يتسع يوماً فيوماً ، الى انتشار بوجوازية رافق رقيها
الثقافي رقيها المادي وايدة تأييداً . واذا ما استمر تأليف الندوات ، فهي لم تعد
تحتكر الشغف الفكري الذي يتسرب الى طبقات اخرى غير ارستوقراطية ويحد فيها
اتباعاً جدداً متحمسين .

لا شأن للمنازعات التي مزقت روما حينذاك ؛ فهي اقل حدة من تلك التي مزقت العالم
اليوناني فيما مضى دون شل انطلاقة حضارته . اجل ليس من روماني خليق بهذا الاسم يستطيع
اهمال الشؤون العامة : فلن يبرز الميل الى الابراج العاجية الا في عهد لاحق . ولكن النشاط
المفيد للمدينة (*Negotium*) لا يتنافى ونشاط الفكر الذي يشرف وقت الفراغ ويبرره . ولد
الرجال الذين اعطوا روما ، للمرة الاولى ، الزينة الفكرية التي اعتبرها الجميع ضرورة لمجدها ،
بعد ان انفجرت الاضطرابات - البكر ، فارون ، في السنة ١١٦ ، واخواه التوأمان ، سالوستوس
وكتولوس ، في السنة ٨٧ - وعاشوا في جو اضطرابات اشد حدة لعب فيها قيصر وشيشرون
اعظم الادوار نشاطاً .

وليس من قبيل المصادفة ، عندما انتهت السلطة الى ايدي حاكم فرد ، ان يغدو هذا الاخير ،
وهو قيصر ، سيد الفكر والادب في عهده وادهى سياسيه وانبعق قواده . وليس من قبيل
المصادفة كذلك ان يستخدم دكتاتوريته لمحاولة نشر ثقافة يبدو له الانسان بدونها وكأنه يخون

الرسالة التي تحددها له مواهبه . فيكفيه ان ينقطع الشخص ، ببعض الجدارة ، الى « الفنون الحرة » في روما لتبهر حصوله على حق المواطنة : انها مكافأة عادلة للخدمات المؤداة ، وطعم ممتاز لاستمالة الذين قد يكونون قادرين على تأدية مثلها . وكذلك فإنه قد انشأ في ملحقات الفوروم الجديد المكتبة العمومية الاولى في المدينة . فشق بذلك طريقاً لن يتوانى احد من الباطرة عن السير فيها على خطاه ؛ اجل لقد كان اكثر قناعة من الملوك الهلنيين في عواصمهم واكثر قناعة ايضاً منه في حقلي التجميل والفن ، ولكنه نقل الى روما مفهوماً تجهله هو المفهوم الهليني لواجبات الجماعة وواجبات من يحسدها حيال شؤون الفكر .

بقي تفتح روما الفكري متفاوتاً على الرغم من اتساعه . واذا ما ظهرت بعض الجلود العلمي التأخرات الزمانية ، فهناك تأخرات اخرى لم يتوصل الفكر الروماني الى التعويض عنها ، لا بل لم يحاول ذلك في يوم من الأيام .

ان هذا الجود يلفت الانتظار في الحقل العلمي بنوع خاص . فليس في روما من علماء طبيعة رياضيين . وادرون جداً اولئك الذين اعاروا علم الفلك اهتمامهم : وليس من الجسارة الافتراض بان الباحثين ، او الابحاث الثلاثة التي روي عن نشرها تقتصر على نقل المؤلفات اليونانية . وقد لجأت روما الى الاقتباسات حتى في التطبيقات العملية . ففي السنة ٢٦٣ وضعت في الفوروم ساعة شمسية ؛ ولكنهم لم يضعوا ساعة اخرى ضبط عليها خطأً الطول والعرض لروما الا في السنة ١٦٤ . واذا سارت روزنامات اخرى كثيرة على الاشهر القمرية ، اسوة بالروزنامة الرومانية ، فقد اتاحت بعض الانظمة القانونية اصلاح اخطائها عن طريق اضافة يوم الى السنة . اما في روما ، فان اقرار الاشهر الاضافية كان منوطاً بهيئة الاحبار الذين ادى جهلهم ووسوسهم الدينية وحتى تحزبهم السياسي احياناً — اذ ان القرار المتخذ يطيل او يقصر السنة ، وبالتالي مدة سلطات القضاة — الى اضطرابات خطيرة : فقد بلغ التقدم على الشمس اربعة اشهر في السنة ١٩٠ ، وستة واربعين يوماً حتى في السنة ٤٦ ، وقد تخللت هذين الاصلاحين تغييرات اخرى تثير صعوبات مؤلة في وجه المؤرخين المعاصرين .

حينئذ ، واخيراً ، جاء قيصر ، أو بالأحرى ، جاء من مصر ، حيث أتاحت له اقامته بالقرب من كليوباترا الوقوف على النجاحات التي حققها العلم اليوناني ، بفضل ملاحظات الشرقيين الألفية ، علماء اسكندريون كان اوسعهم شهرة سوسيفينيس (Sôsigènes) . فطرد الدكتاتور الوسوس التقوية وفرض منذ السنة ٤٥ الروزنامة « الجولية » الشمسية التي كانت تحدد السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع اليوم . وهنالك تفصيل اضافي يلقي نوراً فاضحاً على جهل الرسميين في روما آنذاك : لما كان قيصر قد مات منذ السنة ٤٤ دون ان يتمكن من اجراء رقابة شخصية على القرار القاضي بتعيين السنة « الكبيس » الاولى ، أساء الاحبار تفسير نص قراره فعينوا في البداية اليوم الثلاثمائة والسادس والستين كل ثلاث سنوات ؛ ولم يصلح خطؤهم إلا بعد مرور اثنتين وخمسين سنة .

على الرغم من النقص الذي انطوى عليه اصلاح قيصر حينذاك ، اذ أن البابا غريغوريوس الثالث عشر قد اضطر لاعادة النظر فيه ، فانه قد اثبت ابعده نتائج علم ذاك العهد تقدماً . ولكن هذا العلم كان اسكندرياً . فقد اقتصر فضل روما ، في ما يعنينا ، على اعتماد احدى هذه النتائج العملية أولاً وعلى تعميم استخدامها ، بفضل شمول امبراطوريتها . وجدير بنا ان نقدر هذا الدور حق قدره ، لا بل جدير بنا ان لا نخشى من اعطائه قيمة الرمز : اذا كانت روما قد نقلت الى البشرية جمعاء ما توصل الاغريق الى اكتشافه ، فان الطريق المختصرة تنطوي على حقيقة مؤثرة ايضاً . وما يزيد في ملائمة المثل ان حضارة شرقية قديمة قد اسهمت في العمل المشترك بتقديمها المواد الاولى . ولكن الحقيقة ، على الصعيد الفكري ، هي ان اسهام الاغريق قد استظهر على كل اسهام آخر .

أما الطب ، وهو التعليم الآخر الذي تلقى الاغريق من الشرق مبادئه الأولى التي حاولوا تنظيمها كعلم ، فلم يقف الرومان منه موقفاً مختلفاً . فما قام بينهم حينذاك عالم بأصول هذا العلم ، واذا وجد ممارسون بلديون — يكفي ان يعلن كاتون عن الحذر الذي يوحيه اليه اطباء الاغريق حتى يحكم على استدعاء كل طبيب — فلا يمكن ان يكونوا إلا جهالاً . وباستطاعتنا التمكن بمستوى خرافات الجماهير ، عندما نرى كاتون ، في بحثه عن الاقتصاد الرفيف ، يسدي النصائح ويصف الصيغ السحرية ويتوسع في فضائل الملفوف الذي يقي من كل الأمراض ويشفي من كل الجروح والدمامل ، الخ . فكيف يعرض الناس عن اطباء الاغريق الذين أموا روما بعدد كبير بغية ممارسة فنهم فيها ؟ ثم برز جراح قبيل الحرب البونيقية الثانية ، فعرف في البداية نجاحاً كبيراً : حصل على حق المواطنة ، وابتاعت له الخزانة العامة بيتاً كي يقيم فيه . وزالت بعد ذلك شهرته ، لأن قسوته في « القطع » و « الاحراق » قد اعتبرت مفرطة . فاقترض ، هنا ايضاً ، انتظار قيصر حتى تدرك الدولة واجبتها : انعم الدكتاتور بصفة المواطن على كافة الاطباء الممارسين في روما وكل من يجتذبهم مثل هؤلاء الاطباء اليها .

استسهل الرومان المهام التي وافقت واقعتهم القريية ، بفعل طابع النزعة الى العلم الواسع
أقل خطراً ارتدته طرائقهم ، والنتائج المرتقبة منها . ويمكن
المعارف المتنوعة والغاؤون
استخدام التعبير « علم واسع » لجمع هذه المهام : فهو يقابل ، في مفهومه العريض ، أقله ميلاً فكرياً ، أعني به ذلك الميل الى الابحاث الدقيقة حيث يتوفق الجدل احياناً الى بلوغ نتيجة ثابتة . واذا ما اقتزن هذا الميل بميل مواز يتناول المعارف المتنوعة والتربية معاً ، بغية عرض المعلومات المكتسبة عرضاً واضحاً ومنظماً — ان مسائل التربية و « المتاع المفيد » التي سبقت وتسلمت على عقل كاتون ، ستجد أبداً رومانين حريصين على درسها ، مما ينسجم كل الانسجام ودور روما التاريخي في التكييف والتعليم — فانه لا يبقى دون فعالية منذ العهد الجمهوري . بيد انه يجدر بنا ، بعد الاشارة الى هذه المقدرات القومية نوعاً ما ، ان لا نقلل من شأن العضد الذي استطاع الباحثون الرومان اكتشافه في العمل الذي انجزه قبلهم ، في المعنى نفسه ، العلماء الواسو الاطلاع والمتنوعو المعارف في العالم الهليني . وان

هذا العمل الذي أفصى الى نتائج عظيمة ، لم ينقطع في المراكز الشرقية الكبرى ، حيث اعطى بمجاثون لا يعرفون الكلل ، من امثال أمين مكتبة برغاموس ، كراتيس ، الذي اوفده الملك أطال الثاني سفيراً الى روما حيث طرأ عليه طارئ أطال اقامته فاستفاد منها لالقاء المحاضرات ، ومن امثال الاسكندري ديديموس « Chulcentere » ايضاً ، امثلة حية أسرع الرومان الى الاقتداء بها . وكان فضل هؤلاء الاكبر في توجيه مجهودهم شطر الشؤون الرومانية .

أدى لهم خدمة جلّى أمرٌ أصدره الخبر الاعظم بوبليوس موسيوس سكيپولا في أواخر القرن الثاني بنشر « الحوليات العظيمة » حيث دوّن الاخبار حتى ذاك العهد ، سنة فسنة ، الاحداث الرئيسية ، في نظره ، في الحياة الرومانية . ولكن ما هي نسبة ضبط اعادة جمع هذه الحوليات التي أدركتها النيران في السنة ١٤٨ ؟ مها يكن من الامر ، فان مجموعة احداث ، دينية في الدرجة الاولى ، وسياسية وحتى اقتصادية ايضاً — اسعار الحنطة مثلاً — وضعت ، على هذه الصورة ، تحت تصرف الباحثين . وكان باستطاعة هؤلاء ايضاً اللجوء الى لوائح القضاة وتقاليد العائلات الشريفة التي يشتهر بها على كل حال .

نهض بعمل البحث هذا رجال كثيرون ، وقد حفظت لنا المصادر القديمة أكثر من اسم . ومن التفه وعدم الجدوى احصاؤهم لاسيما وان شيئاً لم يبلغ اليانا من نتاجهم تقريباً . فأجدر بنا بالتالي ان نقتصر على اقلهم تعقيداً وأعظمهم شأنًا ، أعني به فارون . فقد عمّر طويلاً ، مناهزاً التسعين وبلغ من ذبوع شهرته ان مبادئه الجمهورية المحافظة لم تمنع قيصر من اختياره لادارة المكتبة العامة التي أسسها . وفي الواقع ان اتساع وتنوع اعماله وشغفه شبه الشامل وانتلجه الحُصْب النادر — ٧٤ مؤلفاً في ٦٢٠ كتاباً — قد بررا هذه الشهرة . انكب على الادب الصافي ، ربما في شبابه خصوصاً ، فكتب ١٥٠ كتاباً في الاهاجي الميلينية ^(١) حيث مزج النثر والشعر ، ومزج كذلك السخرية والتحريف الهزئي والتفكير الرصين والادب الشعبي والنقد الادبي . واهتم للغة والادب اللاتينيين فكان نحوياً ولغوياً ومؤرخاً للشعر المسرحي . وكان مؤرخاً لماضي روما في مؤلفات عديدة لاسيما الواحد وأربعين كتاباً في « الآثار البشرية والدينية » ، ذلك المرجع الزاخر الذي انتهلت منه دونما انقطاع الأجيال اللاحقة . وألّف موجزاً تربوياً تضمن كل ما يجب ان يدخل في التربية الجيدة . وجعل من نفسه اخيراً ، في سن متقدمة ، عالماً في أصول الزراعة والاقتصاد الريفي في كتابه « شؤون الريف » الذي جاء لشره موافقاً لفرجيل مؤلف « الجيورجيات » حول اعمال الزراعة وتربية المواشي . لم يبق اليوم من هذا الانتاج الضخم سوى الحطام . « فالشؤون الريفية » وحده وصل اليانا كاملاً ؛ ولا يمكن ، بالاضافة اليه ، الحكم على فارون إلا بواسطة بعض الفصول المأى بالنواقص من بحثه في « اللغة اللاتينية » وبواسطة بعض النتف التي ينتسب اوفرها

(١) نسبة الى الفيلسوف اليوناني مينيب *Ménipe* ، وهو من اتباع المذهب الكلي ، الذي اعتمد في لواذعه اشاراً مختلفة الارزان في القصيدة الواحدة .

الى « الآثار » . اجل نحن لا نلص عندنا مزيداً من التوقد . ولا يعني ذلك انه افتقر الى الذكاء النقدي والعقل الرشيد وحتى النزاهة الفكرية . ولكن أنى له ، حتى بمساعدة كتبة يرجح انه لم يستغن عنهم ، الوقت الضروري لأن يراقب ابدأ التقاليد التي جمعها ويُغذي فكرياً متميزاً حقاً ؟ ومهما يكن من الأمر ، فان الرجل الذي استطاع الحجاز مثل هذا العمل ، غير زاهد في تقلبات زمانه ، يفرض الاحترام .

يمكننا دون تحم أن نضع ، في جوار الحركة التي نهض بها فارون ، الابحاث العديدة التي كرس في القرنين الثاني والاول للحق الخاص والحق العام : دروس وتعليقات مرتكزة الى تفسير النصوص ، لا سيما نص شريعة الاثني عشرة لوحة ، والى التاريخ . وقد اعتبر رجالات روما الاول وضع مثل هذه الابحاث عملاً مجيداً . ونذكر على سبيل المثال حبرين اعظمين ، « ب. موسيوس سكاپولا » الذي نشر الحوليات الحبرية ، وابنه كوينتوس ، واضع مؤلف ضخيم اعتبر اساسياً لمدة طويلة لانه المؤلف الاول الذي عني بتوزيع مادة الحق المدني وفقاً لتبويب منطقي . بفضل هذه الجهود المتواصلة ، وفي الوقت نفسه الذي زال فيه تدريجياً من التشريع كل اثر للماضي القديم ، اعد ما سيشرف العهد الامبراطوري ، اعني به تفتح العلم القانوني الروماني تفتحاً كلياً .

كان لمادة ونتائج هذه الابحاث اهمية تاريخية : فقد تجمعت مصادر اكيدة وواضحة . التاريخ وفي الوقت نفسه اقدم بعض ذوي المراكز العليا ، على الطريقة الهلينية وبدافع أدبي مزعوم ، على تدوين مذكراتهم : ونكتفي على سبيل المثال ان نذكر سيلاب بعد استقالته . كان من المفروض في هذه المذكرات تبيان السيئات التي هي دستور هذا اللون ، ولكنها اوضحت السيكولوجيات وفاق ، من حيث القيمة ، الذكريات التي يشوها الكبرياء العائلي . كان الرومان فخوريين جداً بآاضي وطنهم ومنساقين بدافع السياسة في منازعات الاحزاب والافراد ، لذلك فان عقليتهم النقدية كانت بحاجة قصوى الى ان تستيقظ : فاستيقظت عند النخبة . وقد لعب تأثير بعض الاغريق الشخصي دوره في الاتجاه نفسه . فالمؤرخون الهلينيون لم يبالوا كلهم بأمر الوسواس : فقد قام بينهم خطباء خطرون يهونون التأثير المددوق في النفوس ، ويغلب انهم اوقعوا بعض الضحايا في روما . ولكن اقامة بوليب الطويلة فيها والعلائق التي ربطته ببعض رجالاتها ، لا سيما وانه ينتمي الى غير هذه الطبقة ، كان لها صدامها . اما الاثر الاقوى ، خلال القرن الاول ، فهو أثر بوزيديدولوس ، ذلك العقل الشامل والرواقي الذي جمع الى التاريخ علم الاجتماع وحتى الجغرافيا العلمية : فمن تحقيقاته الطويلة والرصينة في الغرب وصلت النينا ، عن طريق غير مباشرة ، اكثرية معلوماتنا عن الغالين قبل قبصر . بيد ان المؤرخين الرومانيين كانوا اقل اهتماماً لمسألة العلل من هؤلاء الاساتذة اليونانيين المتأثرين بالفلسفة الى حد بعيد . ولكنهم تعلموا منهم اولوية الوقائع والحاجة الى تدويرها الفردي او الجماعي وقيمة انشائهم الواضح . وهكذا تسامى التاريخ

الى مرتبة لون ادبي لاتيني كبير واقتبس في الوقت نفسه اقله بعض الفضائل العقلية التي كونت عظمة مبدعيه اليونانيين .

ولن نذكر ، هنا ايضاً ، بين اسماء كثيرة ، سوى بعض الاسماء الجديرة بالذكر . اصف الى ذلك ان اسماً واحداً ، بين الاسماء المهمة ، قد عرف ببعض مؤلفاته ، هو كورنيليوس نيبوس . ولكن جامع النواذر الموجزة هذا لا فضل له سوى انه ادخل الى روما لون الترجمة باهتمامه حتى للأجانب .

هل قيصر مؤرخ يا ترى؟ اعوزه لذلك الوقت والميل : فهو رجل تشرب ثقافة رفيعة جداً ، ولكن ثقافته لم تخلصه من التأتاج على العمل بل خدمته وزادته تأججاً ؛ وهو عقل يستهويه كل ظرف يمارس فيه نشاطه ولكنه لا يحيد ابداً عن هدفه الأوحده : السلطة ، وهو ذو ذوق رقيق يقدر بهجات الفكر وغيرها ويسعى وراءها ولكنه لا يخضع لسيطرة واحدة منها . فقد نظم اشعاراً والف مسرحية - على غرار الاسكندر - ووضع درساً في النحو ، وذاعت شهرة خطبه بين المتطلبين . ولكن لم يصل اليها منه سوى « تعليقاته » على حرب الغالين وعلى الحرب الأهلية التي انجزت على يد غيره . وهي لعمري مؤلفات دعاوة قام بتحريرها على عجل في فترات راحته ونشرها تنقاً متعاقبة بغية تثقيف الرأي العام تحت ستار إعلام . ولا وجود مطلقاً للاهتمام التاريخي الصافي ، على الرغم من تجرد ظاهر ليس في الواقع سوى ارب متناه وفن خالص واسلوب ماهر احسن استخدامه بغية ارغام القراء ، ارغاماً افضل ، على ان ينظروا الى الاحداث ويفسروها بحسن التفات وقبول . وليست « تعليقاته » بالاختصار سوى مذكرات فورية وتقارير موجهة .

ولكنها تصدر عن خير شاهد يمكن ان نحلم به لانه لعب الدور الاول ؛ وعن اكثر الناس شفها بكل شيء ايضاً ، على الرغم من انه اعظم ذكاء ورغبة في العمل من ان لا يقيس مجهوده بالفائدة التي يستطيع جنيها منه ؛ وعن ابعد الناس سيطرة على نفسه اخيراً واشدهم حرصاً على ان لا يبدو عليه اقل شعور قد يؤثر من قريب او بعيد في وضوح رأيه . فالاديب والرجل قد ارادا عملاً خالياً من العصبية ، فكان ما اراداه ؛ وقد جاء مطبوعاً باعتدال لا يضاهيه اعتدال في تركه الوقائع تصدر حكمها بالمديح او باللوم . وقد اسهم خلوه من العصبية في وضوحه الذي بلغ من كماله اننا لا نشتبّه بصنعيته ، بل علينا التفكير ملياً كي نكتشف ان كل شيء لم يُقل بما يجب ان يقال ، وان كل شيء لم يحدث بمثل هذه السهولة . فحتى نعرف ونفهم حقيقة فتح غاليا ، يعوزنا « تعليقات » قائد غالي كبير . كان باستطاعة قيصر ، بفضل مواهبه الكثيرة ، ان يصبح مؤرخاً لا يحارى لو انه طمح الى ذلك ، ولكنه ، لو فعل ، لما كان قيصر .

على نقيض ذلك ، تغلب المؤرخ على رجل العمل في سالوستوس أحد اصدقاء قيصر وأحد اولئك الانصار المتحمسين ، الجموحين ، والمبتكين احياناً ، الذين يستميلهم كل رئيس حزب .

أضف الى ذلك ، أن رجل العمل لم يجد عملاً بعد اغتيال الدكتاتور ، فتوارى أمام المؤرخ في المنزل الفخم الذي أتاحت له اغتصاباته الحصول عليه في قلب روما . لذلك ، فإن التطور جليّ بين « مؤامرة كاتيلينا » و « حرب جوغورتا - دونما حاجة الى ذكر كتاب « التواريخ » المكرس لفترة ما بين السنتين ٧٩ و ٦٦ ، اذ لم يبق منه سوى نتف فحسب . منذ البدء ، اقتفى سالوستوس آثار توسيديد ، واستوحى انشاءه الموجز ، والجامع حتى الحشونة . ولكنه قد اقتدى به احياناً ايضاً في حرصه على استنزاف المصادر بالاستفادة من اقامته في افريقيا للاستعلام حتى عن البلديين وبالجهد الذي بذله في الفراسة السيكولوجية والتحليل الاجتماعي . وغني عن البيان ان المشايخ لا يمكن ان يتوارى في هذه الفترات من ماض قريب لا يزال حياً . وهو لا يهتم ، كما توفق قيصر الى ذلك ، لاختفاء اهواء تعبّر عنها دفاعاته ومهاجماته . بيد ان قرّده يزداد يوماً فيوماً ، فيقدم هذا الديمقراطي أخيراً لقارئه عناصر اكرام لمثلي الحزب المناوئ : وهذا ما يزيد في قيمة الداعي الى الاخلاق الذي تتمنى كثيراً لو يكون دون مأخذ في حياته الشخصية .

على غرار المؤرخين اليونانيين ايضاً ، أكثر قيصر وسالوستوس من الخطب بأسلوبها البلاغة المباشر او غير المباشر . ولكن الجملة الصافية عند الاول ، والغامضة عن قصد عند الثاني ، والموجزة على غير تنميق عند كليهما ، تنحدر من علم البلاغة اللاتيني الذي تمثل هي احدى نزعاته . فنذ ذاك العهد كانت البلاغة اللاتينية ، وهي ابنة البلاغة اليونانية ، مسيطرة على اساليبها ، أي على النثر الذي ابتدعته ، سيطرة كافية لكي تناقش في استخدامها . ان هذه المنازعات ، المستوردة من العالم اليوناني الذي انهمك بها منذ القرن الرابع على الرغم من فقدانه حرياته في تلك الاثناء ، ازدهرت في روما حيث لعب الكلام في الجمعيات والمحاكم دوراً مماثلاً لذلك الذي لعبه من قبل في اثينا الديمقراطية . فكان على الروماني الحقيقي منذ امد بعيد ان يكون حقوقياً وخطيباً . واذا ما تجلّى ببعض الذوق ، فلا يستطيع ان يكون خطيباً دون فن ودون تأمل في فنه . وعبثاً اراد المتمسكون بالتقليد مقاومة أثر البلاغة العلمية التي أتاحت حيلها تأمين الغلبة لقضية باطلة . فقد درّست وفقاً لتربية مستوحاة من المدارس اليونانية بقواعد نظرية دقيقة جداً وتمارين على مواضيع خيالية . في السنة ٩٢ اقفلت مدارس البلاغة اللاتينية ولكنها لم تلبث ان فتحت ابوابها . ولعل التدبير املته ظلامية معادية للديموقراطية ، لأن الخطباء اليونانيين قد تركوا وشأنهم منذ اواسط القرن الثاني ولأن النخبة اخذت ترسل اولادها في القرن الاول الى رودوس واثينا كي يتابعوا علومهم . فانتقلت من ثم الى روما الطرائق المختلفة المعتمدة في العالم اليوناني والمجادلات التي زعزعت .

اعتمد بعضهم اللون المعروف بـ « الآسيوي » ، لانه نشأ في آسيا ودرّس في برغاموس بنوع خاص . ومن حيث انه كان منمقاً جداً أي مثقلاً بالصور والمفردات المؤثرة ، فقد سعى ايضاً وراء الايقاع الذي هو أشبه بالغناء عند الالتقاء . وخير ممثل لهذا اللون في اوائل القرن الاول

هو هورتنسيوس وانتسب البعض الآخر الى الذوق « الأثيني » بطموحهم الى النقاء الدقيق ، والموجز على بعض الجفاف ، والمتين . وكان هذا بالضبط مثل قيصر الاعلى ؛ وهذا المثل هو الذي احرز الغلبة ، في اواخر العهد ، في اوساط الشباب .

وقال غيرهم اخيراً انهم اكتشفوا في رودوس درساً ومثلاً في التسوية : فلا إفراط في العري ولا إفراط في التنميق الصناعي ، بل غزارة انيقة في خدمة معنى رصين ومتين . وهذا كان برنامج شيشرون .

انه مدين للفصاحة بارتقائه الاجتماعي . وقد بدأ ارتقاؤه هذا بالاثراء اذ ان شيشرون خدماته قد قابلتها الاعطيات والهبات عن طريق الوصيات والنصائح بالتوظيف المثمر . وبدا خصوصاً بسنى الحياة السياسية ، اقله في مرحلتها الاولى ، فأثاحت نجاحاته الخطابية « للانسان الجديد » ، المنحدر من عائلة فرسان في بلاد « الفولسك » ، ان يتوصل الى القنصلية منذ السنة ٦٣ ، « سنته » ، في السن الدنيا المفروضة لذلك . فمارس ، طيلة السنة التي تولى فيها الحكم ، دكتاتورية كلامية حقيقية ، منتزعا من مجلس الشيوخ سلطات خاصة لسحق محاولة كاتيلينا الثورية ، واستطاع التباهي بعد ذلك ، ربما « بفعل سبب » ، ولكن دون غاية ، بأنه خلص الدولة والمجتمع . ثم أتى دور الكسوف . ولكن موت قيصر جعله يستعيد دوراً اولياً نهض به بسذاجة وهوى وشجاعة معاً . واذا ما هومات ضحية طامعين عند هو في ملاحقة احدهما واعتبره الآخر شخصاً احمق ، فقد مات دون ضعف ، على الاقل ، وماتت معه الحرية الرومانية . وهكذا فانه دان بارتقائه الى حدة فصاحته العلمية ، ودان لها ايضاً بنهاية ديموستيلنس . وانما هو مدين لها حتى اليوم بجوهر شهرته التي لا يضاهيها حقاً سوى شهرة ديموستيلنس : فالمعاصر الذي يطلب اليه تأليف « تراجم متوازية » لن يتردد في الوقوف موقف بلوطارك ويرى فيه الشريك الضروري للخطيب الاثيني .

لدينا اليوم حوالي السنين من خطبه ، أي ما يعادل نصف الخطب التي عرفها التاريخ القديم . وهو قد اعاد النظر فيها قبل نشرها ، وبلغ منه انه نشر خطباً لم يلقها قط : ككثيرة الخطب « الفرينية » مثلاً . ولكنها ، حتى في مبناها الشفهي قد تضمنت مقاطع أعدت كتابة ، وكانت ، على كل حال ، نتيجة تحضير متقن . واذا ما انسجم فن شيشرون مع مزاجه الشخصي ، فانه قد خضع مع ذلك الى تقنية بالغة المهارة والتفكير كما يتضح من الابحاث النظرية العديدة حيث اطال التكلم عنها بغية تبرير اسلوبه . فقد رفع هذا الاسلوب الى مستوى النظرية في ما يعود للصوت والاشارات ، والتركيب العام ، وإنماء الافكار بالثقافة العامة ، والبحث عن الحجج وعرضها ، والوقت المناسب للجوء الى السخرية والحفظة ، وتضيد الجمل واختيار المفردات . فالليقين والاقناع والتأثر والاغراء ، من حيث ان كل ذلك يسهم في بلوغ هدف واحد ، يمكن تحقيقها في نظره باعتماد صفات فطرية تزيد في قوتها التربوية والمهنة .

ان ما يلفت النظر اليوم هو صنعية هذه الاساليب الماهرة . ونحن نستسلم حتى الى الملل امام هذه الجمل الطويلة وتوازن اقسامها المرتقب مسبقاً . ويستهوينا غالباً ان نتصل اتصالاً مباشراً بالرجل وبهواه الصادق الضائع في عموميات تافهة وتمحكات حقيرة . ونكون سعداء جداً حين يحدث له ان يكون سيء النية ، لا بدافع بصيرة المحامي في شدة الضيقة ، بل بدافع الحدة والحمية ؛ فنحن حينذاك امام حملات لا ترحم تشن بسخرية متفوقة في المرافعات وببغضاء جنونية في اعنف الخطب السياسية ، كالخطب الكاتيلينية والفيليبية ، مثلاً . ولكن الحقيقة — اوليس ذلك هو الالم بالنسبة لمحارب خطيب ؟ — هي انه توقف في بعض الظروف الى اثاره حماس مستمعين معادين مبدئياً . والحقيقة ايضاً هي ان اجيالاً متعاقبة كثيرة لم تر ، طالما آمن الناس بفعالية البلاغة ، افضل من ان ينحنوا على كماله حتى ينتزعوا منه الاسرار .

بيد ان الخطيب لم يحدد الرجل كله الذي كان اشد كبار المفكرين الرومان ايماناً بامور الروح ، ان لم يكن اعظمهم كلاً وافاقه — يجب الا ننسى قيصر — في القرن الاخير من العهد الجمهوري .

الف قصائد رصينة جداً وتعليمية — نقل كتاب « الظواهر » السهاوية لاراتوس السولي — وسياسية تاريخية : بيد ان فقدانها لم يحرمنا من الروائع في الارجح .

راسل صديقه اتيكوس بصورة متواصلة . ولم يخضع نشر رسائله ، بعد وفاته بتسع سنوات ، لاعتبارات الصداقة والادب فحسب ، ولكنه قد اخطأ هدفه بدون شك اذا كان ما املاه تصميمياً على الثلب والتعير . ولم تكن مجموعات الرسائل امراً جديداً ! فقد نشر الاغريق اكثر من واحدة منها دون تدقيق في صحة النصوص التي تألفت منها . ولكن الشيء الأكيد ، على الرغم من ان مجموعة سابقة واحدة لم تصل الينا ، هو ان المجموعات السابقة لم ترتد طابع الغزارة والاهمية الذي ارتدته هذه المجموعة . ومهما يكن من الأمر فان هذه المجموعة لا توفر لنا ، بالحياة التي نجيش فيها ، شهادة مشوقة حول عهد شيشرون وبطانته فحسب ، بل خير شهادة تولد فينا الميل الى البدهاة الانسانية والحدة البديعة او العطوفة في ردات فعله .

بحث اخيراً ، في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة من حياته ، عما يحوله عن شق خيبات آماله وآلامه — عن كسوفه السياسي وعن انفلات محزن تستسلم له قوى تفوقت عليه ومزقت منافساتها ووطنه ، وعن الدكتاتورية القيصرية التي كمت حرية الكلام ، وعن وفاة ابنة احبها — في وضع الدروس الفلسفية . وقد غذى بعمله هذا طموحاً الى إثناء تراث روما . وبديهي ان المقصود هنا هو التراث الادبي ، كما جرى له في دروس البلاغة المعاصرة لهذه الدروس : وقد توصل الى ذلك بفضل طريقته الحوارية ، المقتبسة عن افلاطون ، وبفضل اللهجة المازحة او الحسيفة ، وبفضل اتقان النثر الذي جعلت منه هذه الدروس ، بعد الخطب ، وسيلة تعبير واضحة وقوية ومرنة اعتمدها جميع الكتبة اللاتين اللاحقين . كما ان المقصود هو التراث الفكري ايضاً الذي كان يشكو ، اذا

ما قورن بالتراث اليوناني ، من نقص يحز في وطنيته . ولكنه كان بعيد الهمة في ذلك . وفر له الفكر اليوناني نقطة الانطلاق : فعرض مجلاء ، حيال المسائل المختلفة التي تناوّلها ، المذاهب التي بدت له جديدة بالاهتمام ، اي مذهب ارسطو ومذهب الرواقية ، راجعاً الى الاصول بغية تفسير ما صارت اليه آنذاك ، فقابلها وانتقدها بغية التوصل الى « اختيارية » وسيطة معقولة . ولكن الجهد العظيم الذي بذله قد تأثر بالسرعة التي بذل فيها ، على الرغم من صفات استساغة وذكاء حاد قل نظيرها . اصف الى ذلك ان شيشرون قد حول برضاه صوب علم الاخلاق والسيكولوجيا والحق ، ولا سيما الحق العام ، نظريات لم يتح له فهمها على الأرجح . فمن السخرية ، والحالة هذه ، ان نضيف الى مجده صفة الفيلسوف التي طمح هو اليها . ولكن هذه الناحية من نتاج ادبي مدهش باتساعه وتنوعه وثروته قد اسهمت ، بوضوحها ، والشغف الفكري ، ونوع المسائل المطروقة ، والثقة الموضوعية في العقل وفي تفاعل الأفكار ، والعناد في معرفة الانسان وخدمته ، والشعور الأدبي ، في جملة اعظم الادباء الذين دانت بهم روما اخيراً لمخالطة الحضارة اليونانية .

وهكذا فان النثر اللاتيني الذي بقي قاصراً لمدة طويلة ، قد حصل على براءة موت المسرح الادبي النبيل . لا بل انه تغلب مؤقتاً على الشعر .

وتعود دولية الشعر جزئياً الى انه فقد حقلاً كاملاً صممت النداءات التي كانت تأتيه منه والتي كانت له طيلة قرنين حوافز فعالة . فالمسرح الادبي يعاني في الواقع سكرات الموت على الرغم من المساعي المبذولة لاعلاء شأنه لدى الجماهير عن طريق البذخ في الاخراج : استعراض ٦٠٠ بغل في السنة ٥٥ لتمثيلية كليتمنسترا (*Clytemnestre*) و ٣٠٠٠ دن لتمثيلية « حصان طروادة » . وتخلت المأساة والمهزلة عن مركزها لالوان قبلت اصلاً في آخر التمثيليات وحاول بعضهم عبثاً المحافظة على بعض ما اتسمت به من اعتبار وحشمة : فهناك ضرب من المهازل المضحكة ينحدر بسرعة الى الابتذال ، كما ان نصيب الكلمات المستعذبة يتلاشى تدريجياً في « التمثيلية اليمائية » التي يتوجب على ابطالها ان يكونوا ماهرين في الرقص والمزاح .

ولكن الشعر ، في الوقت نفسه ، يسلك طرقاً جديدة : ومنها الفلسفة والفلسفة والشعر لوكريس (*Lucrece*) على الرغم من قصيدتين قصيرتين قلد فيها اينيوس مؤلفات يونانية .

غدت بعض المذاهب الفلسفية اليونانية منذئذ مذاهب معترفاً بها في روما . فلنهمل البيثاغورية التي سمحت لها ارتباطاتها الايطالية بالدخول قبل غيرها : فبعد ان برزت بعض وجوهها الاولى ، نراها آنذاك في روما حيث أسس نيجيديوس فيقولوس *Nigidius Figulus* جمعية دينية حقيقية في عهد قيصر ، هي أقرب الى الديانة منها الى الفلسفة . وقد سبق لنا ورأينا ان المعتقدات الاخرى قد صادفت لدى « كاتون » واصدقائه مزيداً من المقاومة في النصف الأول من القرن الثاني . ولكنها تغلبت على هذه المقاومة : اذ كيف يمكن العزوف عن افكار اعتبرها الاغريق أثمن زينة عقلية للانسان ؟ . وكان لتعليم الفلسفة في رودوس واثينا الشهرة نفسها

التي كانت لتعليم البلاغة ، وقد استهوى ، على غرارهِ ، الشبيبة الرومانية . وألقيت محاضرات عديدة في روما نفسها . وتجدر الإشارة هنا الى اقتتار روما الى مدارس فلسفة يوزع التعليم فيها باللاتينية على غرار مدارس البيان: فليس من موجب علي يرغب على ذلك ، وليس أيضاً - وهذا ما يفسر طموح شيشرون - من مذهب متميز نشأ في الغرب يفرض مفرداته الخاصة وتقدمه العقلي .

ان الرواقية ، بين المذاهب المنتشرة في العالم اليوناني قد احرزت في روما أعلى درجة من النجاح . وقد خدمها في ذلك اقامة اهم ممثلها في روما الذين كان لهم من قوة الفكر ما جعلهم يطبعون آراء اسلافهم بطابعهم الشخصي : باناييتيوس ، صديق شيبون اميليانوس في القرن الثاني ؛ وبوزاينديونيوس الذي برع في أكثر من حقل من الحقول الفكرية ، في القرن الاول . ومنذ البداية ايضاً ، أقله في ما يعود للزعات الادبية ، تجمعت ظروف عديدة وقدرت « للرواق » الانتشار : فهو يوصي بالعمل الذي يتوجب على الروماني الا يحيد عنه ؛ ويدعو باسم العقل الى التحلي بالفضائل العابسة ، العدل والشجاعة والقناعة ، التي تطابق المثل القومي التقليدي ؛ لا بل ان الخضوع نفسه للنظام الإلهي في العالم قد انطوى على بعض ما يأخذ بجماع القلب في مدينة تنهض بواجب تنظيم الامبراطورية التي سلطها عليها القدر . اجل لن يتم الفوز العظيم إلا في عهد لاحق ، أي في العهد الامبراطوري ، ولا يمكننا الاستشهاد إلا باسم كلتون الأوتيسكي حتى نحاول آنذاك ، ولو ببعض التكلف العقائدي وبعض الحُور الذي تمحوه عظمة موته ، التوفيق بين سلوكه والمعتقد الذي اعتر بالمناداة به . ولكن وجود الرواقية امر راهن منذ الآن ، وهي على اتم استعداد للتسرب بعيداً الى النفوس التي سيثيرها الاستعداد .

على نقيض ذلك ، وقبل اعصار الحروب الأهلية الطويلة ، يبدو ان الأبيقورية ، في ظاهر أمانيتها اللامبالية ، وفي حقيقة نبل تجرّدها على السواء ، لم تستعمل سوى عدد قليل من المشايخ في روما : فهي أبعد من ان تثير اعجاب نخبة متعطشة الى العمل . ولكن فخرها ، الفريد من نوعه آنذاك بين كافة المذاهب ، انها قد ألهمت شاعراً كبيراً هو لوكريس .

ان لهذه الملازمة وزنها ، ولكن ليس ، لسوء الطالع ، ما يوضحها : فالرجل غير معروف إلا بقصيدته التي لا تتضمن أية دلالة على حياته . لا ريب في انه تألم أقله من المشهد الذي وفره له معاصروه . ولكنه تباهى بأنه اكتشف تهدة لآلامه في حكمة ابيقور ، فأخذ على نفسه تعليمها . فتميّزه من ثم ليس في المعنى ، بل هو ، فكرياً ، وفي الدرجة الأولى ، في شغف علمي متأجج يحمله ، بعد عرض نظرية ديموكريت المادية والذرية التي سبق لايقور وتبناها ، على درس عدد كبير من الظواهر بغية تقديم الدليل على انها كلها قد تقبل تفسيراً ، او تفسيرات احياناً ، لا تمت الى ما فوق الطبيعة بصلة . فلم يتراجع في هذا الصدد امام أية جسارة وحذاً حذوا أكثر من اغريقي . واذا نحن لم نستطع اليوم تقدير أهمية إسهامه الشخصي حق

قدرها ، فالاحترام الذي يوجبه مدى ونشاط هذه المحاولات لا يقبل أي تحفظ . ان تميزه ، - وهو يبدو بذلك ذا طابع روماني اعظم - يقوم ايضاً في تصميمه على الانشاء التعليمي وفي طابع البرهان العقلي الذي يطبع به اسلوبه . فهو يريد اقناع القارئ بأن العالم ليس سوى مادة ، وان كل شيء فيه ، حتى النفوس ، مركب من ذرات يتنوع جمعها وفاقاً لمصادفة التقائها ويحررها الموت حتى 'تجمع بعده جمعاً اتفاقياً جديداً . ان هذا اليقين وحده سيخلص الانسان من رعبه حيال الموت ، الذي لا تعقبه أية مكافأة او اية عقوبة ، وحيال الآلهة الذين لا اثر لهم في العالم والذين « يقضون في هدوء دائم اياماً دون اضطراب وحياة دون غم » . وان تميزه اخيراً وخصوصاً تميز ادبيّ قوامه الجمع العجيب بين قوّة هذا المنطق وانفعال الشاعر الحاد . فمن حيث انه يفيض شفقة على البشر بسبب ألمهم المادي وآلامهم الادبية الناجمة عن مخاوفهم ، يشعر برغبة جنونية في اثراهم في حقيقته وفي احلامهم معه في « المناطق الصافية » : غير ان هذه اللهجة الحادة في كافة اجزاء قصيدته تناقض ، بهذا الصدد ، الهدوء الذي يدعي تلقين سره . اضف الى ذلك انه يهتز اعجاباً ببهاء الطبيعة العظيم ويعبر عن اعجابه بنبرات يغذي حرارتها شعور زاخر . فهل ينمّ مؤلفه « طبيعة الاشياء » عن « فن كثير » كما كتب شيشرون الذي يعتقد بأرجحية نشره بعد وفاة لوكريس ؟ اجل قد ينمّ قدم اللغة والنظم عن تقليد مقصود للملاحم القديمة . ولكن لا يمكننا والحالة هذه ان نتصور اتفاقاً أكمل بين المقاصد الجمالية وقوّة مزاج الفنان .

الشعر الغنائي
كاتولوس (Catulle)
في الوقت نفسه تقريباً الذي ظهر فيه شعر لوكريس الفلسفي ، ظهر في روما الشعر الغنائي الذي سيمثل فيها بسلسلة اطول من الشعراء . نشأ في الأندية المجتمعية التي لم ينقصها سوى شخص « الفاسيلفس » حتى تشبه ، حتى بالتأثيرات النسائية ، بلاطات الملكيات الهلينية ، لا سيما بلاط الاسكندرية ، اعظمها رقة وذوقاً سليماً . ويصبح من ينتمي اليها « احدث سناً » ، باعطاء هذا التعبير معناه المزدوج ، الحقيقي والمجازي ، والجدة الجمالية والسن على السواء . وعلى من ينتمي اليها ان يتحلّى بثقافة رفيعة اقتناعاً بان نظم القصيدة جدير بالعناية نفسها التي تتطلبها العمل السياسي ، الذي لم ينصرف بعضهم عنه بعد ، او بالعقدة الظرفية التي غالباً ما تداخل كلا من القصيدة والعمل السياسي : فاذا لم يزل هناك قسوة في الحملات ، حتى المنظومة منها ، فهناك ظرف في الغزل ، وكثير من التصنع المقصود ، وعلم ميشولوجي واسع ، ووزن في النتاج الادبي ، وقد وفرت المدرسة الاسكندرية امثلة كثيرة على ذلك .

كاتولوس هو الوحيد بين هؤلاء الكتاب الذين وصل الينا منهم مجموعة قصائد غير كاملة على كل حال : حوالي مائة قصيدة بعضها لا يتجاوز البيتين ويبلغ اطولها ٤٠٨ أبيات -- وقد أدركته المنية قبل الخامسة والثلاثين من سنه -- ؛ وهي قصائد مختلفة الازان والالوان ، طرق فيها الهجاء والمجون والنشيد الديني ، والرواية الاسطورية . وينمّ كل ذلك عن ادراك لكمال

المبنى ومهارة في اللغة ، وجوج مرن وسهل ، تمثل ، على ما نعلم ، ما يقابلها من تقدم حديث العهد وجليل الفائدة . ولكن صدق الشعور المتواتر لأثن قيمة ايضاً . أحب كاتولوس تلك التي يطلق عليها اسم « لسبيا » (*Lésbie*) التي ليست سوى شقيقة المهيّج كلوديوس . كان باستطاعته ان يختار افضل منها ، ولكن كان من شأن اختياره ، لو فعل ، ان يدعو الى الاسف ، لأنه تألم من خيانات عشيقته ، فوفرت له هذه الآلام نفسها ، بانماء وإعماق شعوره ، ظروفًا جديدة للتعبير عنه . اجل لقد وجدت « صافو » من قبل ، وعرف كاتولوس مؤلفاتها ومؤلفات الاسكندريين الذين نقل عنهم الى اللاتينية عدّة تمثيلات ، « كشر بيرينيس » مثلاً (*La Chevelure de Bérénice*) لكلتياخوس . ولكن التعبير عن الهوى الذي يعمي البصيرة ، تلك الشرّة الهائلة والام الصارخ ، نادر في ادب العصور القديمة اليونانية والرومانية . فقد وجب ، للاقدام على ذلك بمثل هذه القساوة ، قوّة نضرة يتمتع بها شعر في شرخ الشباب ، لم تصل اليها الكلفة بعد . غير ان خلفاء كاتولوس ، الذين سيدينون له بالكثير من مهارتهم التقنية ، لن يسيروا وراءه في هذه الطريق .

الخلاصة

تأيّد اذن ، حتى قبل نهاية العهد الجمهوري ، نجاح روما ونضجها الادبيان على نقيض ارتباطها الفني وجمودها العلمي . فما اعظم الشوط الكبير المقطوع منذ ترددات الادب الاولى في النصف الثاني من القرن الثالث ! فان هلينة روما قد انبثت فيها ادباً يتمتع بكيان مستقل وينتج روائع لا تتأخر أبهى الحضارات عن الاعتراف بها . ولم يحدث شيء من ذلك تلقائياً : اذ ان اختيار القدوات قد وفر تسهيلات نادرة جداً . اصف الى ذلك ان النجاحات كانت بطيئة ، وشاقة في أكثر الاحيان ، يتخللها التسكع والاجهاض . كان للعقل اليوناني الفضل في انه خلق ، وخلق بسرعة ، في قرنين او ثلاثة قرون ، ما قد صرفت روما أربعة قرون في ادراكه وتقليده وتطبيقه على مواردها وعلى نزعات عبقريتها الخاصة . ولكن الانطلاقة قد حدثت ، وباستطاعتها ان تسير طريقها حتى ولو قطعت جسور الاتصال بينها .

ثم ان مثل كاتولوس يتيح لنا ان نحدد ببعض الوضوح المرحلة التي بلغتها آنذاك النخبة الادبية الرومانية ، فهي ، من حيث احساسها المرفه بالجمال وتعودها لذة الابحاث الفنية ، تستسيغ في جوهر كيانها كل الحضارة اليونانية منذ العهد القديم حتى المدرسة الاسكندرانية ؛ وهي لا تزال تنهل منها وتنقلها الى اللغة اللاتينية ولكن غايتها الوحيدة هي التمرّن والممارسة . فهي في الوقت نفسه قد استعادت بعض الميزات الاصلية او حافظت عليها ؛ فلم تذهب بالاناقة حتى التصنع ؛ وبرهنت على قدرتها على نظم « اشعار قديمة » في موضوع « الافكار الجديدة » ، وعلى

التعبير ، في صيغ لا يغرب عنها أي سرّ من أسرارها ، عن آراء ومشاعر طبعتها هي بفارقاتها الخاصة .

وباستطاعة كاتولوس ان يرمز الى شيء آخر ايضاً ، فهو قد أتى الى فيرونا (Véronne) في ايطاليا الشمالية ، البلاد الغالية ، الى روما التي سبق لها واستقبلت في القرن السابق تيرنس من افريقيا . وهكذا فان روما التي دانت ببقعة ادبها لاطالين جنوبيين مستغرقين قد أمنت تعبئة حاجتها منهم في الغرب ، فنقلت الى هذا الاخير الثقافة التي تلقتها من الغير وكيفتها . ولكنها اجتذبت اليها وضمت الى مجدها القوى الحية التي برزت فيه . وان هذا الدور ينسب ، من زاوية هذه المظاهر المختلفة بالدور الذي ستلعبه طيلة العهد الامبراطوري الاول .

فهي قد عقدت منذ الآن ، على طريقها ، ولمصلحتها ايضاً كما هو بديهي ، خيوط شبكة العلائق المختلفة التي أمسكتها بيديها . واحتلت منذ الآن ايضاً ، بفعل تقبلها واعطائها وتحويلها ما تتقبله ومحاولة رقابة تحويل ما تعطيه ، مركز حضارة ناشئة ستشمل الإطار الاقليمي والبشري الذي اوجدته فتوحاتها - تلك الحضارة التي هي المصدر الأهم والمباشر للحضارة « الغربية » الراهنة .

القسم الثاني

مدنيّات الوحدة الرومانية

الكتاب الأول

المدنية الرومانية في عهد الإمبراطورية الأولى (القرنان الأول والثاني)

وصلنا في بحثنا أخيراً ، الى هذه الإمبراطورية العظيمة التي ابتلعت في ثناياها كل ما تقدمها من إمبراطوريات ، وعنهما انبعثت الممالك التي نشاهدها اليوم ، ولا تزال نفوسنا تكن لشرائعها الاحترام العميق . فيجب علينا بالتالي ان نقف على اخبارها أكثر من أي إمبراطورية كانت . وقد لاحظت ياسيدي الأمير ، ولا شك ، أنني أعني لإمبراطورية الرومانية .

(يوسويه)

من كتابه : « خطبة في التاريخ العام »

على منحدر جبال الابنين مقابل البحر الادرياتيكي ، قام نهر الروبيكون حداثاً فاصلاً بين مقاطعة غاليا قبل الألب ، وبين القسم الايطالي الواقع تحت ولاية حكام روما ومجلس شيوخها مباشرة . وعندما اجتاز قيصر هذا النهر وعبر منه الى الضفة الثانية ، في منتصف شتاء ٥٠ - ٤٩ ق . م ، واتجه منه الى الجنوب ، على رأس فيالقه المظفرة التي كانت ادائه الطيبة في فتح غاليا ، في جولات ثمان متتالية ، كرّست زعامته وجعلت منه الزعيم الذي كان ، شكّل عمله هذا ، خروجاً على السلطة الشرعية ، فانطلقت بذلك شرارة حرب اهلية استمرت قرابة عشرين سنة تخللتها فترات قصيرة من الهدنة المؤقتة ، وامتدت حتى غرة آب سنة ٣٠ وهو اليوم الذي أطل فيه ، صاحب معركة اكتيوم ، على الاسكندرية فكانت إطلائته تلك ، إيذاناً بانتحار كل من خصميه : انطونيوس وكليوباترا .

من هذه الهزات الدامية التي نزلت بالبلاد ، أطلت اشياء وطلعت عليها اشياء . فاذا على هامة روما سيد هو القائد الاوحد لجيوشها حامية دمار البلاد واستقلالها ، يوجه منها السياسة ،

ويفرض القانون ، ويُشرف على الادارة ويجعلها بمعزل عن طمع الطامعين اليها ، الطامعين فيها ، وفي مأمن من جشع الجشعين . وبفضله قامت دولة استطاعت ان تؤمن لرعاياها ، ما لا بد منه لدولة تروم عيشاً كريماً : حدود منيعة الجانب في الخارج ، وأمن مستتب في الداخل ، وصحة في ميزانية الدولة وماليتها العامة . صحيح ان بمالك اخرى عرفت ، هي ايضا ، ان تحقق على اقدار متفاوتة ، مثل هذه الامور ، فرسمت لها الدول الهلينية سوابق عرفت هي ان تنفيذ منها وتتعط بها . ولكن ، الى جانب الجدة التي طبعت معظم الحلول التي طلع بها ، لم يسبق لتجربة مضت ، ان عرفت نجاحاً ملازماً كالنجاح الطويل الذي حالفه ، بما لم يتم مثله او بعضه ، لدولة تمت لها رقعة على هذا النحو من الاتساع ، وتألفت من مثل هذا العدد من الشعوب والاقوام المتباينة . وهذا الجديد الذي تبلور على مثل هذا الشكل واستمر في الصدد المرسوم بضعة قرون ، تم تحت سيطرة او كثاف او غسوط وإشرافه المباشر ، فترات أقاصيه وتباعدت نهاياته : من مضيق جبل طارق غرباً حتى شطآن البحر الأسود شرقاً ، ومن مصاب نهر الرين شمالاً ، الى مشارف شلالات النيل جنوباً . ولأول مرة في التاريخ ، يصبح البحر الابيض المتوسط برمته ، بحيرة داخلية ضمن الامبراطورية ، فطوت حوضه : الشرقي المتهلّلين ، والحوض الغربي الذي ، بالرغم مما تحالف عليه تباعاً من عوامل إغريقية وبونيقية واخيراً رومانية ، بقي على سماته البربرية الاولى . وعلاوة على ذلك ، فهذه الامبراطورية التي تجاوزت اطرافها بعيداً الأراضي الواقعة حول هذا البحر ، عرفت كيف تحافظ على التوازن الذي أمنتها لها المركزية المعمول بها في روما . وبفضل هذه الوحدة التي حققت ، والتضامن الذي ارست دعائمه في عوالم كانت في الامس الغابر تجهل بعضها البعض ، استفاد افقها ورحب امام الجميع ، واتسعت منه الحدود بحيث استحالت الاتصالات التي قامت فيما بينها ، أمّتين واثق . فقد أطلّ على البشرية جمعاء ، المتخلف منها والمتطور ، عهد جديد ، لم تعرف المدينيات التي مرت على مسرح التاريخ ، مجتمعة ومنفردة ، ظروفها وأوضاعها ، اكثر حلاً واوفر مؤاتاة من التي غمرته في هذا العهد . فهل تستفيد مما تم لها ، فتتلاقح الازهان وتتفتح الاكام عن قطوف متنوعة الجني والثمار ، تجود بها عبقرية كل شعب من هذه الشعوب ، ام تنصهر كلها معاً في وحدة متماسكة ، شاملة ، قادرة ؟

الفصل الأول

من الحرب الأهلية

الى السلام الروماني

بعد ان قلبت الحرب الاهلية التي استمرت عشرين عاماً الاوضاع الراهنة في روما ظهوراً لبطن، ورأساً على عقب ، هيأت للعالم الروماني بأسره مصيراً جديداً .

كان لا معدّ من ازمة ولا محيص عن حل لها ، وهي ازمة عرفت المدينة الجمهورية اعجز بكثير من ان تدبر الامبراطورية
البلاد من قبل ، مثيلات لها فشلت جميعاً . فلا بد ان تفشل هي وتهيض مهينة المجال لطوع غيرها بعدها حتى يتمهد السبيل امام المصير الذي لا بد منه ولا حيدة عنه . فالاشخاص الذين قاموا بالدور الاول على مسرح هذا المجتمع ، امثال قيصر وبمبيوس ، وانطونيوس واوكتافيوس ، والعديد من الممثلين التكررة ، طبعوا الاحداث التي لازمت هذه الازمة الفاصلة وصاحبها ، بطابعهم الخاص . وقد تكون جاءت على شكل آخر واوضاع اخرى ، لو قام بتمثيلها غيرهم من الممثلين . ولكن النتيجة الاخيرة لم تكن لتأتي الا وفقاً لما صارت اليه : اي قيام سلطة فردية شخصية . كان لا بد لهذا الخاض وما رافقه من آلام وأوجاع ان يشهد مولد امبراطورية تحوّلت قسماً صورتها ، الظروف المتحركة المائلة ، وشخصية الفائز منها ، وتوازن القوى التي لم يكن من مفر من تفاعلها والتعويل عليها .

كان لا بد لهذه المدينة الجمهورية التي أعطيت مثل هذه السيطرة الممتدة الى اراض نائية مترامية الاطراف ان تدفع الثمن غالباً .

فعندما ساوت في رعويتها بين الايطاليين ، عرفت كيف تصون بهذا التدبير الحكيم نظمها الادارية ، وهي نظم تسرب اليها الخلل عندما اتسع تطبيقها المصطنع ، ليشمل مثل هذه الرقعة من الاتساع ، عجزت معه ندوتها عن ضم جزء ضئيل من هذا الجسم الاداري الاخطبوطي الشكل . وقد بدا عجز النظام المعمول به وعدم استجابته للوضع المائل شيئاً لا يحتمل ولا يطاق ، لا سيما اذا كانت روما ماضية في فرض سيطرتها على الولايات الخاضعة لحكمها . ان توسيع الحل الذي

فرضته على إيطاليا بحيث يشمل الولايات الاخرى ، محاولة ملؤها الهزء والسخرية ان لم تكتمل
باصلاح جذري ، لأداة الحكم ويخلق نظام اداري جديد ، على اساس من التحالف او التمثيل
العام . ومثل هذا الحل لم يخطر اذ ذاك على بال احد . والى هذا ، فالامريتيعلق في الدرجة
الاولى ، بالسيادة والسيطرة ، وهي سيطرة كريمة في جشعها ، يفرض الأخذ بها ، في الاساس ،
إنزال الرعب في الناس ، وتطمين رعاياها المتحفزين دوماً للانتفاض والثورة ، والاعتماد على
القوة والبطش لارهاب الشعوب الواقعة وراء تحوم امبراطوريتها المترامية الاطراف الذين يتربصون
الفرص السالحة للانقضاض عليها .

ولذا كان لزاماً على روما ان تُبقي لديها ، جيوشاً جرارة يتعرض معها وجودها وكيانها
بالذات لخطر الحروب الاهلية . فاذا ما نجحت جمهوريات العصر الحديث ، على ضوء التجربة
والخبرة المؤلة التي خبرتها ، ان تتفادى ، حيناً ، خطر الجيش الضاغط على صدرها ، وتتجنبه ،
وتأمن شره ، فالجمهورية الرومانية لم يخطر لها يوماً على بال ، مثل هذا الامر ، ولم تحتط لنفسها
يوماً ضد هذا الخطر المائل الجاثم على صدرها . فقد تغافلت عن الرباط الذي شد السلطة المدنية
الى السلطة العسكرية ، فتحلل دون ان تبالي ، من الاسفل ، ومهما ان يبقى شديد الاسر في
الرأس . فجيوشها تألفت وحداتها من جنود محترفة ، لم يألفوا الانصياع لغير امر قائدهم . وكـ
سولت النفس الامارة بالسوء لهؤلاء القادة ، ان يستعينوا بتحقيقاً لمآربهم الخاصة ، بهذه الاداة
الطبيعة بين ايديهم ، فجرت منافساتهم المغرضة واطماعهم المتعارضة ، المدلّة والهوان للوطن ،
والفوضى للبلاد .

وعلى هذا الشكل هوت الجمهورية الرومانية ، وقد أعجزها حل قضية غاية في الدقة ، هي
قضية العلاقات التي يجب ان تشد السلطة المدنية الى السلطة العسكرية ، فبرزت حدتها وخطورتها
عندما تعلق الامر بالسلطة العليا في الامبراطورية . وقد حمل موت الجمهورية معه موت مدينة
روما نفسها . رأت النور مدينةٌ ، فلم يكن في وسع روما ان تتصور لها كياناً غير هذا الكيان
الذي كانته ، فلم تستطع ان تكيّف نطّـمها المدنية للدور الذي تستوجب سيطرتها على اراض
شاسعة . صحيح انها برهنت في هذا المجال عن مرونة ولباقة تصرف لم تُبدِ مثلها مدينة من
المدن الكبرى التي برزت في التاريخ القديم ، وذلك بمنحها رعويتها بسخاء لم يسبق ان سخت
مدينة مثله من قبل . وهذا الامتداد البشري له حدوده وطاقته ، وهي حدود لا يمكن ان
تتخطاها مدينة كان من الانظمة التي سارت عليها ان يتولى جمهرة الناهخين فيها التشريع والقوانين
وتعين الحكام الاداريين . ولكي يُتاح لها الإبقاء على هذه الاقطار التي فتحتها ، والاقوام التي
أخضعها لامرتها ، وضمتها بعضاً الى بعض ، كان لا بد من تغيير وضع الدولة ونظام الحكم
والقيام بتشكيل اداري جديد ، وذلك بسن نظام جديد قادر على تنظيم الامبراطورية على
أسس جديدة ، ونشر نظام حياة مشتركة ينعم بنعمائها الشعب الملك ورعاياه على السواء .

الامبراطورية والحرب الاهلية هي حرب قاسية مريرة ، فريقت شمل الوطن ، وأسالت الدماء غزيراً ، وأرغمت الحُصوم على اتخاذهم يداً من كل شيء ، والاستعانة بكل أيد ، وطلب المعونة من أي بارقة ، عركت الكل بثقالها ، لم توفر أحداً ، بعيداً كان أم قريباً ، وهددت بسوء المصير والشر المستطير ، كيان الامبراطورية ، وسيادة روما وتفوقها ، على السواء .

ولم يتورع بعضهم في تأليبهم الاحلاف والانصار حولهم ، من استنفار حتى أعدى اعداء الرومان الفارثيين انفسهم ، خصومهم اللداء . فقد سولت النفس لبمبيوس طلب مؤازرتهم ، الا انه عرف ، بما له من لباقة وكياسة وتصريف للأمور ، ان يتفادى الخيانة العظمى ، غير ان الحقد الازرق والموجدة حمل كوينتوس لابينوس سليل احد قواد قيصر البارزين ابان حروب الفتح في غالبا ، ان يتولى قيادة جيش من جيوشهم ، في هجوم له ناجح ، قام به باتجاه البحر المتوسط . وتمكن احد ملوك الدولة الارزادية *Arsucides* ، من احتلال سوريا وفينيقيا وفلسطين وبسط سيطرته عليها . بينما راح لابينوس نفسه يبسط سيطرته على كل آسيا الصغرى ، وضرب السكة باسمه ولقب نفسه امبراطور الفارثيين . اما اذا كان انطونيوس فشل فيما بعد في تجريدته العسكرية على ميديا *Medie* ، فقد كان له الفضل في ارجاع حدود الامبراطورية الى ضفاف نهر الفرات .

ولحسن حظ روما ، لم يكن في الغرب بين الشعوب المنضوية تحت لواء الامبراطورية الرومانية ، شعب له من شدة الشكيمة والبأس ، ما عرف معه ان يفيد من الأزمة الخائقة التي تخبطت فيها روما . فالعالم الذي كان اذ ذاك ، يأتمر بأمرها ، بقي في مجمل ، صامداً متمسكاً ، بالمحاولات التي قامت بها بعض البلدان الدائرة في فلك الامبراطورية ، بقصد التحرر وخلع النير الروماني الذي رزحت تحت ثقله ، لم تلق النجاح المرجى . وهكذا ، بدلاً من ان تنكشف رقعة الامبراطورية وتتقلص ، راحت ، على عكس ذلك ، تتسع وتمتد وترحب ، باحتلالها ولو بصورة مؤقتة ، اقطاراً في كل من آسيا وافريقيا ، لم يبرهن حكامها عن خضوعهم التام ولا امتثلوا ، كما يجب ، للنواهي التي وضلتهم من روما . كذلك تم لها اخيراً ، ان تضم الى ممتلكاتها الواسعة ، مقاطعة جديدة لها وزنها وقيمتها ، هي مصر التي كانت للآن ، من البلدان الخليفة المرتبطة بالامبراطورية بمواثيق ومعاهدات .

وهكذا كل من ارتبط بروما رأساً او بالواسطة ، وشذ مصيره الى مصيرها ، اضطر ، طوعاً او قسراً ، ان ينحاز لهذا او ذاك من هؤلاء الزعماء المتناحرين ، الذين جاشت نفوسهم على السواء ، باطماع أشعبية وزخرت بنشاط محمود وبحيوية لا تعرف الملل في تحقيق الرغائب . ولو كان بالامكان تقويم الخسائر البشرية والمادية التي جرتها على البلاد هذه الحروب الاهلية النهمّة ، الاكول ، لبلغت أرقامها عدداً مرعباً . وهذه الحروب ، بما اتسمت به من حول وطول ، وبما رافقها من

تكاليف مبرر ، ومن قوى ضخمة تشابكت فيها وتلاحمت في جميع الميادين ، تجاوزت بمراحل كل ما سبقها من حروب أهلية نشبت في تلك البلاد، وشتت منها شمل العباد ، اذ لم تبلغ مطاعم الخصوم المتشاكبين في الحروب الماضية هذا الاتساع في الطمع والجشع والاهداف الواسعة التي رمت هذه الحرب الاخيرة الى تحقيقها . والحق يقال ، فالولايات الغربية لم تتعرض بها كثيراً . ففي غالبا ، تعرضت مرسيليا وحدها للأذى والضرر، إثر محاصرة قيصر لها وإرغامها على التسليم له . أما اسبانيا وافريقيا ، فقد كانت كل منهما ، ساحة حروب دامية ، وقعت في عهد قيصر . وعلى عكس ذلك تماماً ، ففي الحقبة التي عقيبت وفاة قيصر مباشرة ، وهي اطول ادوار هذه الحرب الضروس ، ازدادت المصافة هيجاناً كما ازدادت نار الحرب أواراً ، فاكثرت بلهيبها جميع أنحاء الامبراطورية لاسيما إيطاليا والشرق وصقلية، وتجلت العنف على اشدّه وبرز في جميع اشكاله والوانه : من نفي، وإبعاد بالجملة، ومصادرة الاملاك والمقتنيات، ووضع الجوائز والاعطيات لمن يأتي برأس خصم معين، ومهيجية الجند وفضاظتهم والاعمال الوحشية التي قاموا بها ، ونهب المدن التي تؤخذ غالباً او قهراً وسلبها ، وذبح السكان ذبح النعاج وبيعهم اسرى في اسواق النخاسة والرق ، واستفحال شأن قراصنة البحر وقطاع الطرق بعد ان اختل الأمن واختلط الحابل بالنابل، والاستعانة بالعبيد والارقاء وتجنيدهم كما فعل سكتوس بمبيوس ، ومصادرة الاملاك والكنوز المنذرة ، والاموال المكنوزة ، وفرض التجنيد العسكري العام على جميع القادرين من الرجال، وفرض الرسوم والضرائب ، والغرامات الباهظة على المنظمات والجمعيات واعتصارها بشتى الوسائل، والقروض الاجبارية والضرائب الاعباطية والمصادرة على جميع انواعها، الى غير ذلك من ضروب العسف والابتزاز

وبالرغم من اعفاء الرعايا من الضرائب المباشرة، وهو امتياز نعموا به منذ اكثر من قرن، لم تنجح إيطاليا في فرض الرسوم الباهظة عليها ، ولا من اعمال التعصب والسلب والنهب والابتزاز ورؤوس الاموال التي كانت الشركات التجارية تستثمرها وتستغلها في اعمال الاتجار، راحت فريسة المغتصب المستببح . وقد كتب على إيطاليا ان تمد كلا من الزعماء المتنافسين ، بالرجال القادرين على الحرب ليؤلفوا منهم الكتائب التي يستعملونها مطايا للوصول الى اهدافهم وتحقيق اطماعهم . ومهما كان من قضاظة اعمال العسف والضغط والارهاق التي تعرضت لها ، فالشرق الهليني استهدف لاكثر منها وافظع . فبعد ان سلّبت اقطاره ونُهبت مقاطعاته خلال حروب الفتح الروماني، واستغلها الحكام ورجال الاعمال ابشع استغلال بدت موارده الطائلة وكانها لا تنضب ومصادره لا تنقطع. فكل فريق من هؤلاء الزعماء المتشاكبين وقعوا تحت اغرائه واخذوا بما لهذه الاصقاع من سحر جذاب وثروات طائلة فراحوا يتنازلون منها ، تبعاً ما فيه قوام الحرب وعدتها ومادتها. وهذه الاعتدة الخفيفة التي أتيح لانتونيوس جمعها ، والنفقات الباهظة التي تكبدها، استمدّها من الشرق، بينما لم ينعم اوكتافيوس، في الغرب ، ببعض هذا ، او بما يمكن مقارنته به .

ليس من المستغرب قط ، والحالة على ما وصفنا ، ان يبدا الشرق حقلًا
مقفلاً حاول معه ذوو الاطماع من الرومانيين تصفية منازعاتهم ووضع حد
لهذا الرضع المتأرجح . فشهد أعنف المعارك الفاصلة واشدها هولاً : موقعة
الشرق الهليني
ينازع روما الصدارة
فرسال في تساليا، حيث قُتِلَ قيصر ان يسحق جيش بيبوس، ومعركة فيلبس في مقدونيا حيث
ثأر لنفسه من قَتْلَةِ ١٥ آذار ، ومعركة أكتيوم في ابيروس، اذ ادى انتصار اوغسطس الى هرب
كليوباترا وانسحابها من المعركة، الى هرب انطونيوس واللاحاق بها متخلياً عن اسطوله وجيشه .
وقد بدا الشرق في نظر المتحاربين ، انه خير الاماكن لتحركات الجيوش ومناوراتها ، فيه من
الموارد الطائلة ما يساعد ، الى حد بعيد ، على الكر والفر ، والهجوم والدفاع ، على ايطاليا محط
الآمال والانظار . ولما ظهر لبمبيوس اولاً ، ثم للقتلة الجمهوريين الذين اغتالوا قيصر ان لا حيلة
لهم في البقاء في روما والاحتفاظ بها ، قرروا الانسحاب واللجوء الى الشرق ليقبضوا فيه عدتهم
للحرب من جيوش وعتاد . وقد حالفهم النجاح الى حد بعيد ، بحيث قرر خصومهم مبادرتهم
حالاً بالحرب لئلا يقوى منهم الجانب . اما انطونيوس ، فقد كان عليه في اعقاب معركة فيلبس
ان يقرر أي الشطرين يفضل . فما عتَمَ ان آثر الشرق تاركاً الغرب وقضاياه المربكة وشؤونه
المحرجة لاوكتافوس . وبذلك حسن اختياره وتمت له الحصة الفضلى . وبالفعل ، فقد أنشأ له
في الشرق ، قوة حربية ، ضخمة اقتضت خصمه عشر سنوات من الجهد المرير ، والتنمية
المدروسة ، والتخطيط ليؤمن التوازن والتعادل معه . ومن بين الدروس البليغة الكثيرة التي
أتاحت لنا هذه الازمة الحارقة ، استنتاجها ، الدرس التالي وهو ان العالم الهليني الذي بدا في
اعين البعض عيباً، متعباً ، ومنهوكاً منذ عهد بعيد ، كان بالفعل ، ولا يزال يملك ، في الفترة
الاخيرة من تاريخ الجمهورية الرومانية ، حيوية عارمة وطاقات هائلة ، لم يتبينها اصدق
الرومانيين فراسة .

فاذا كان ، والحق يقال ، المظهر المادي من هذه الحيوية هو الذي يبرز للعين ، للوهلة الاولى ،
فالمادة ليست وحدها مما يستبد بالاذهان ، لا سيما وهنالك عالم الفكر ودنيا الحضارة ، ولكل
منها سطوه على الخواطر ، ووقعه في النفوس .

ففي عالم ، على مثل هذا القدر العظيم من غنى التجربة الطويلة والخبرة الواسعة التي تمت له ،
من اي لون او جنس كانت ، ألم يكن لروما ان تجد الكثير مما يليق بها اقتباسه واخذة ، بالرغم مما
اقتبست عنه من قبل واخذت ؟ ففي الشرق وجده ، يمكنها ان تجد الحلول المرتجاة للمشكلات
الشائكة التي تتخبط فيها ، والتي لا يصح بعد ، التسويف في حلها .

فقد وضعت احداث الحرب الاهلية الكبرى ، من هذه الناحية ، الخصمين وجهاً لوجه امام
تغييرات وتطورات لم تنته الى نتيجة حاسمة . فبتعويل بيبوس على الشرق الذي عرف ان ينشئ
له فيه نفوذاً عظيماً ، بفضل الحملات المظفرة التي قادها من قبل ، ومكنه الطويل بين ربوعه

وبين شعوبه ، ادرك جيداً ما سيلقي في هذه المنطقة من امكانات وموارد يفيد منها . وباعتماده ، من جهة ثانية ، على مجلس الشيوخ او الندوة الرومانية ، جعل الشرعية والتقاليد الرومانية المرعية ، الى جانبه ، بقدر ما بقيت هذه التقاليد صحيحة . اما قيصر ، فباعتماده على غالبا ، وبما له من نفوذ وسلطان في كل من ايطاليا واسبانيا ، جعل مقومات قوته وطاقته مركزة على الغرب . ومع ذلك ، فقد تبدى لقيصر انه هو نفسه أقرب من خصمه بيبوس ، الى طريقة التفكير الهليني ونظرته السياسية لأمر الدولة . فقبل ان تعرف مباشرة ، على الملكية المصرية المؤهلة ، كان عزم في قرارة نفسه ، ان يقوم بإصلاح جذري في نظام الدولة السياسي والديني معاً ، هذا النظام المتبع في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية . وهكذا تبدت لنا هذه الامبراطورية منقسمة على نفسها الى شطرين ، انتصبا ، بفضل خصومة زعيميهما ، الواحد في وجه الآخر ، ونهضا بقضية ، لا كبير شأن لها في الاساس . وهذه المفارقة بالذات عرضت عام ٤٢ ، في الواقعة الكبرى التي ادت الى انتصار قيصر وورثته الناهضين بأمره بعد مقتله ، كما افضت بالتالي الى تصفية الجمهوريين ومن لف لفهم .

وقد سارت ماجريات الأمور على عكس ذلك في الطور الاخير من الأزمنة التي وجدت حلها النهائي في معركة اكتيوم . فإقامة انطونيوس طويلا في الشرق وتقافاه مع كليوباترا طرحت من جديد ، وجهاً لوجه ، على بساط البحث اساس الوسائل المادية التي اعتمد اليها وعول عليها ، كل من الخصمين المتنافسين ، كما تناولت بالمثل ، النزعات التي كانتا يمثلانها . وقامت الدعاية التي اطلقها المنتصر الفاتح تسخر من الشرق ، وتهزأ به ، على أبشع وجه ، هذا الشرق الذي كان شركاؤه ودعاؤه « حياة لا مثيل لها » هم أنفسهم زعماء المعسكرين وممثلوهما ؛ وما في نظر فرجيل : « الإله النبات اوبيس Ambis » ذو الرأس الذي يشبه رأس الكلب وغيره من مسوخ الآلهة . وقد انتصبوا ، شاكي السلاح ، في وجه نبتون وفينوس ومينرفا ، في هجومهم على اوكتافيوس يحف به « اعضاء مجلس الشيوخ والشعب ، وارواح السلف الصالح ، والآلهة الوطنيون العظام » ، وهو جدل اساسه واقع صارخ . ففي حال فوز انطونيوس تسمي هذه الامبراطورية التي قامت وارتكزت على سواعد الفيلاني الرومانية غير رومانية ، عاصمتها الفعلية الاسكندرية ، وليست روما .

فإذا ما انعمنا النظر في النتائج التي سيفضي اليها ، ولا شك ، نقل العاصمة واستبدالها ، نتيحة الصراع برزت امامنا في الحال ، كلمة باسكال^(١) : « انف كليوباترا » . فلو كان هذا الانف اقصر مما كان ، لتغير وجه التاريخ . فإذا ما تملينا النظر في هذا الانف لبدأنا بالفعل ، أنه اطول من اللازم . غير ان طابع هذا الصراع لم يكن ليتوقف على شؤنه أرادته الطبيعية لصاحبة هذا الأنف . ومع ذلك ، فمدلوله يبقى عميقاً بعيد الغور . فبقاء قوات جراحة في حوض البحر المتوسط الشرقي على أهبة الاستعداد وأتمه ، من شأنه ان يزرع الرعب في القلوب لا سيما اذا ما تولى انرها الرومان ، بعد ما أخذوا بسحر المدينة الهلينية ، ونفخوا فيها من عبقريتهم في التنظيم ، ومدّها بالأطر والملاكات اللازمة ، أمر مجرد التفكير فيه يهز

(١) باسكال : حياته ، فلسفته ، منتخبات تأليف اندرية كريسون - زديني علما - منشورات عويدات

فرائص القوم في روما ، ويخلع قلوبهم هلعاً ، بحيث تخرج الشاعر الابيقوري هوراتيوس عن اخراج خوره المعتقة من مستودعاته ليستمتع بأطاييها . فقد ذهبت أقدار الحرب ومضائرها الآن بهذا الجَزَع يعترى روما ، واصبح في مقدورها ان تحتفظ لنفسها ، بالصدارة الأولى الى ان يصبح في مكنة القسطنطينية ، بعد لأي من الدهر ، تنازعها إياها . وكان يكفي شيء بسيط جداً في الثاني من ايلول ٣١ ق.م ، لتفقد روما كل شيء ، عند ساحل أبيروس ، امام رأس اكتيوم *Actium* .

فبقاء روما « المدينة » الاولى ، لم يحل دون تعرضها لتغيرات جذرية ، بينها أكثر من واحد يحمل في الصميم طابع هذا الشرق الذي تغلبت عليه وفازت به . فالأخذ بالنظام الملكي أتاح للأحداث المتتابعة فتح الابواب على مصراعيها امام المؤثرات الهلينية التي تجاوزت بكثير هذه المرة ، وعلى نطاق اوسع ، تلك التي تفاعلت بها في عهد الجمهورية ، ومهدت لها الطريق للتغلغل ، والتمطي على شكل لا يقاوم . وقد اقتضى هذه المؤثرات وقتاً طويلاً لتمكن عروقتها وترسخ ، بعد ان صهرتها البوققة الرومانية وأنضجتها وهبأتها للاستعمال ، قبل ان تثقل بدورها الى الغرب . فلم يتم هذا كله بعملية تسلم وتسليم ، ولا بنسخ حرفي . فليس بمستغرب قط ان يقتصر المعاصرون لهذه التطورات ، عن التحسس بهذا كله ، او ان يستشعروا مسبقاً بمصائر المستقبل .

وبالمثل ، فقد تأثروا عميقاً بالنهج الذي سار عليه ، منذ البدء ، النظام الجديد ، السلام الروماني : فاقسم منذ اللحظة الاولى من إطلالته ، بالثانة والمهابة . والذي كان من شأنه مقوماته ووسائله ان يبدو غريباً ، بدا ، على عكس ذلك ، لمعظم سكان الامبراطورية ، خيراً لا يثمن ، تمثل في هذا السلام الذي رفر ف فوق رؤوس الجميع ، مشيعاً الطمأنينة في الداخل ، والامن في الخارج . اما نتائجه فلم تكن آنية ولا سطحية . فبمجرد ان استتب هذا السلام وبُذِل في سبيل ترسيخه ما بذل من وسائل وأساليب ، ترك طابعه العميق في هذه المدينة التي أتاح لها الازدهار مدة قرنين من الزمن . فقد سميت بحق : « بالسلام الروماني » وهو تعبير من المستحب الاحتفاظ به لما له من المدلول الخاص الذي سنحاول في ما يلي ، ان نكشف عما يتضمنه من المعاني والحقائق الأولية . ومثل هذا التحليل ليس بعملية يسيرة ، كما انها ليست من الهينات الهينات هذه المهمة يضطلع بها الضالع بها بتمهل كلي وثؤدة ، وقد لاقى في مقارعة خصمه العنيد انطونيوس أشد المعاناة والجهد في الانتصار عليه ، وفي توقيفه الى حل قضية ، بدت على ضوء المحاولات السابقة ، غير قابلة للحل ، مستعصية له . وقد حافظ خلفاؤه من بعده ، على السمات الاساسية التي ألبسها الحل الذي ارتآه ، وقد مهد لمحيثهم تصميم اصيل قوامه الرغبة الشديدة التي جاشت في صدره ، والوصية التي سلمهم اياها ليتموا الرسالة التي كان بدأها . وهكذا يصح لنا ان ننتع هذا « السلام الروماني » ، بالسلام الاوغسطي ، وقد عرف بهذا الاسم فعلاً ، في اعقاب استنباذه .

ولكي يقيم دعائم هذا السلام على أسس وطيدة ، راح اوكتافيوس اوغسطس يستغل العياء العام الذي تملك الناس بعد ازمة خانقة كانت 'تخمد منهم الانفاس . إلا ان الافادة من مثل هذا الشعور العابر لم يكن كافياً وحده لتأمين النجاح والاستقرار لهذا المولود الجديد الذي جاء على يده .

ولكي يوطد عمله هذا ، ويقيم على أسس ركيئة ، 'عهد ، عن سابق قصد وتصميم الى روما ، بمهمة تهذيبية سامية . فالسلام الروماني لم يكن بالطبع غير هذا السلام الذي يصون المدنية التي ظلمت بها روما ، هذه المدنية السامية ، وبعبارة اخرى ، هذه الحضارة المنقطعة النظير ، وراح يضارب بكثير من النجاح والتوفيق ، بما أوتيت من سحر وجاذبية ممثلة بهذه القوى المادية والروحية التي تشع من كل فجٍ وصوب .

فقد عرفت روما ، قبل وصوله الى الحكم ، ان تتمثل دون ان تكاد تشعر بذلك او حتى تريده ، عدداً من الشعوب البرابرة ، إنما على نطاق ضيق . فقد خطر لقيصر من قبل ، ان وضع خطباً منهجية اوسع وارحب ، قصد بها ، ورمى منها الى خدمة روما بالطبع ، وخدمة مصالحه الشخصية في الدرجة الاولى ، على شاكلة ما قام به الاسكندر المقدوني ، قبل ذلك بقرنين ، وبعض الممالك الهلينية التي أطلت من حطام امبراطوريته . وهذه الخطة التي أورثها قيصر خليفته ، راح هو ، أي اوكتافيوس ، يتدبرها من جديد بحكمة وثؤدة ، في حدود ضيقة وبقوة اقل ، وبسرعة اخف ، وبالتالي بصورة أدعى للنجاح واضمن . فقد راح يخفف من سرعة السير ، ويباعد بين الخطى والمراحل . وعندما قام بعض خلفائه من بعده ، ولا سيما غالينولا وكلوديوس يوسيان ؛ هذا من رقعة الامبراطورية الخاضعة للإدارة الرومانية ، وذاك يوزع بسخاء كلي ، الرعاية الرومانية وما تحوله لضاحايا من منافع عريضة وامتيازات ، فقد خرجا على ما كان شرع به اوغسطس ونداً عن الصدد . وقد انفسحت امامها ، والحق يقال ، الامكانات لقطف ثمار الغرس الذي غرس ، والبذور التي بذر . يتحتم علينا ألا نأخذ بمجرقة المصطلح الذي كرسه الاستعمال ، وهو : « مدينة مغلفة » وهو اصطلاح ، كثيراً ما استعمل للتعبير عن السياسة التي رمت للتشديد على الصفات التي يجب ان تتوفر في من يمنحون الرعاية الرومانية . ويقابل هذا ، الوضع المعروف : « بالمدينة المفتوحة » للتدليل على السياسة التي انتهجها قيصر وسار عليها خلفاؤه من بعده ، اذ راح يكثر ، حتى في الظروف التي لم تكن تضطره للاكثار من الانصار عن طريق توزيع الرعاية من عدد المواطنين الجدد ، ولكن على نطاق اضيقت واصغر ، رافضاً اعطاء الترفيعات القانونية إلا لمن تتوفر لهم الشرائط الثقافية والمناقب الحضارية . وسلك المسلك ذاته مع افريقيا وآسيا ، حيث ابقى ، في حال وجودها ، واعاد الى الوجود ، عندما تسنح له الفرصة المؤاتية ، الممالك والدول التي احتلتها جيوشه من قبل ، فجعل منها دولاً توابع له ، بدلاً من ان يتركها ولايات خاصة ، رافضاً ضمها وإفراغها في قالب السلطنة إلا بعد ذلك بكثير . وهكذا وقر لها فترة للانتقال ، يتولى خلالها الحكم والادارة امراء عرفوا بولائهم للامبراطورية ،

واعتنقوا ، قلباً وقالباً ، المثل الرومانية ، وهو من ورائهم يرشدهم ويبدل لهم النصيح في المهمة التي يضطلعون بها ، مهيناً لهم بذلك ، على مر الزمن ، سبل القبس والتمثيل .

والسلام الذي عرف ان يؤمنه على هذا الشكل ، ويحققه في داخل الامبراطورية وعلى حدودها الخارجية ، عن طريق استمالة الناس لمثل المدنية الرومانية ، شابه شيء من التفاؤل الرخيص . ولكن بعد ان انتهت الحروب الداخلية الى ما انتهت إليه من إقرار السلام ، لم يكن أحد ليجعل ان باستطاعة ابناء الوطن الواحد ان يثوروا بعضاً على بعض ، ويتلاحموا بعنف أشد من العنف الذي يقع على البلاد من الأجنبي الغازي . فضرب اوغسطس بهذا الاعتبار عرض الحائط ، وراح يدافع عن مذهبه الواقعي ويبحث عن أسباب اخرى وبواعث تزيد النفوس طمأنينة وإيماناً .

والنظام السياسي والاداري الذي عرف ان ينشئه أمّن له بالفعل السلطة ، ان لم يكن ليدير بنفسه كل شيء ، فاقله ليشرف على كل شيء ، ولذا كان من خطل الرأي القول بان التشريع الذي استأن ، كان الحافز اليه شهوة الوصول الى الزعامة الفردية . فمظاهر الاعراض او الترفع الذي بدت عليه ، في اعقاب معركة اكتيوم للإبقاء على هذه الامتيازات اصلاً ، والتوسيع لها فيما بعد ، لا يمكن ان نتخدد احداً . ولكن هذه المظاهر الهزلية كانت تخفي وراءها شعوراً صادقاً لا يشوبه اي طمع او طموح شخصي ، اذ انه اعتقد اعتقاداً ثابتاً وطيداً بأنه لا بد لروما وللامبراطورية من سيد أعلى . وبالفعل ، فجمعه بين يديه السلطة السياسية والعسكرية ، كان الوسيلة الوحيدة الكفيلة بمنع الولايات والاضرار التي لا بد ان تنزلها بالبلاد ، أطماع الزعماء وجشع المتنافسين على السلطة . ثم ان تنظيمه للجهاز الإداري وإحلاله القانون والعدل في فرض الضرائب ، وسجاية الخراج والرسوم — وكلها اصلاحات لا بد منها لوضع حد للابتزازات والاختلاسات التي تبعت على التدمير وتثيير الخواطر — كل هذا قضى عليه ان يفرض قبضة قوية ، شديدة الوطأة ، لا تراخي فيها ولا تحللاً . كان لا بد من امبراطور يفرض نفسه وهيئته على الاحزاب والولايات وقادة الجيش ، ورجال المال واهل الثراء . فلا سلام داخلي الا بهذا الثمن ، وعلى هذا الاساس . وقد استصوب الناس مثل هذا التدبير الحكيم ، بعد الاختبارات المريعة التي مرت بهم وبينوا ما فيه من نفع جليل لهم .

بعد هذا الذي عرضنا له ، بقي علينا شيء اساسي لا بد من المجاهرة بالقوة اساس السلام الداخلي به . فالسلام الروماني الذي نظمه اوغسطس وعرف خلفاؤه من بعده ، ان يصونوه ويحافظوا عليه ، طيلة قرنين كاملين ، لم يكن معنى هذا النوع من السلام الغير ، المترهل ، المستضعف ؛ « رومانياً » فقد كانه في الصميم ، لان روما تحتمت منه القسومات وفرضته ، وقامت تراقبه وتسهر عليه ، ولم تهمل كبيرة او صغيرة حتى يبقى لواؤه مرفرفاً فوق الجميع ، خفاقاً في جميع الارحاء ، مستعدة دوماً لاستعمال القوة لصيانتها من عبث العابثين .

كان من الممكن بعد ، ان تهب على البلاد ثورات في الداخل . فالعالم الروماني ، فيه ، هو الآخر ، فريقي يعني الحرمان ، لم تكثرت له الحكومة إلا بالقدر الذي يرغبه على احترام القانون والنظام الاجتماعي والتسليم بالوضع القائم . ثم ان ما لهذه المدينة من سحر وفتنة يختلف وقعه على الرعايا ، طاقة وقدرأ بين الفعل والقوة ، ما يستحسن معه فرض اقل ما يكون من السلبية . ثم إن في استمرار الولايات على تذكر ايام استقلالها ، واستمرار الاهلين على تذكر ايجاد السلف وما آتيهم واجادهم ، كل ذلك يكون مرتعاً خصباً للثورات والحركات الانتفاضية . صحيح انه لم يحدث في القرن الاخير من العهد الجمهوري اضطرابات في الولايات اختل لها حبل الامن وتعكر السلام . ولعل اهم حادث من هذا القبيل هو ما حدث في آسيا الصغرى وبلاد اليونان ، في عهد متريدات ، اذ انه غزا البلاد واحتلها ، بعد ان اهاج منها خواطر الاهلين بدعاياته ونداءاته ، وسؤل لهم الانتفاض على الرومان . وباستثناء بعض المناطق الجبلية الصعبة المنال ، والوعدة المسالك ، وبعض القطاعات الجبلية في اسبانيا وسردينيا والساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، أدرك الناس عدم جدوى الانتفاضات التي قاموا بها لزحزحة النير الروماني عنهم ، فاستسلموا صاغرين للمصير الذي انتبها اليه . وقد اتسعت اطراف الامبراطورية بما ضم اليها من الولايات ، منها غالباً ، مثلاً التي تم فتحها قبل نشوب ازمة الحروب الاهلية ، ومنها أيضاً مصر التي دخلت الامبراطورية مقاطعة من مقاطعاتها ، عندما كانت جذوة هذه الحروب آخذة في المحو . فكيف السبيل ، والحالة هذه ، الى اطمئنان روما لولاء هذه الاقوام ، بعد ان عانت ، في عهد الجمهورية ، الكثير من الحركات الانتفاضية وخروج الولايات عليها ، لعدم اعتصامها بالفتنة والحكمة في تصرفها لمحوها ؟

والحل الذي توصلوا اليه اخيراً ، لم يكن قط قائماً على إقامة حاميات عسكرية في قلب المقاطعة او الولاية . فاستعيض عن هذا كله بأقل عدد ممكن من شراذم الجند ، وهو امر يبدو لنا غير قابل للتصديق . من ذلك ، مثلاً ، فرنسا ، هذه البلاد الشاسعة الاطراف ، التي تم فتحها في ايام قيصر ، باستثناء الازراس واللورين ، فقد كان فيها طابور واحد لا يتجاوز عدد افراد رجاله الالف ، يعملون الى جانب سرايا اخرى مخيمة بالقرب من الحدود . والامبراطرة الرومان لم يعرضوا سوى عدد ضئيل من فيالقهم تفادياً لاستعمالها ، اذ انهم كانوا يعمّلون ، بالاحرى ، على الحاميات القوية المرابطة على الحدود ، والتي كان باستطاعتها ان تعود ادراجها الى وراء ، اذا ما دعت الحاجة الى ذلك .

وبالفعل ، فقد حدثت بعض حروب داخلية ، بالرغم من التدابير الاحترازية التي اتخذت من قبل ، منها مثلاً ، الحروب التي نشبت بمناسبة الازمة العسكرية ، التي اندلع لهيها عام ٦٨ - ٦٩ ، بعد الميلاد ، ومحاولة اغتصاب السلطة التي قام بها أفيدوس كاسيوس ، في عهد الامبراطور مارك اورييل . فقد وقعت كذلك انتفاضات في الولايات التي معظم سكانها من الحضرة ، إلا انها كانت فادرة لم تدم طويلاً . وعندما كانت قوى الامن الموضوعة تحت تصرف

الادارات المحلية عاجزة عن إعادة الامن الى نصابه بعد ان تكون الطبقات الاجتماعية مائلة للحركة الانتفاضية في البلاد، تتولى ، اذ ذاك ، الجيوش المراقبة على الحدود ، مهمة إخماد الفتنة وتتولى الامر بأهون السبل . وعندما راحت الامبراطورية تحمد الثورة التي نشبت ، عام ٦٩ - ٧٠ في الجهة الشمالية الشرقية من غاليا ، او تحاول إخماد « الحرب اليهودية » التي نشبت في اول عهد الاسرة الفلافية في عهد الامبراطور هدرانوس ، لم تضطر للاستنجاد بقواتها كلها لاعادة الأمور الى مجراها الطبيعي . اما البلاد التي اهلها من البدو الرحل ، او صعبة المرتقى لطبيعتها الجبلية فالمهمة فيها كانت اشق واصعب ، لأنها كانت تتجدد كل يوم ، فيقتضي ذلك الاكثار من الوحدات الخفيفة التي تتحرك بسرعة ، من مراكز للمراقبة ، للوصول بعد طول جهد وعناء ، لنتائج تكاد لا تذكر .

القوة الخارجية
فاذا كان السلام لم يتوفر ، على أكمله ، في داخل البلاد فهو لم يستتب ابداً ، مع الخارج . انتصب في قلب روما ، على مقربة من الفوروم (الساحة العامة) هيكل على اسم الإله جانوس ، عُرف باسم جانوس كويرينوس ، كانت ابوابه تبقى دوماً مفتوحة على مصراعها طالما كانت الامبراطورية ، رسمياً ، في حروب مع الخارج . ولعل آخر مرة أُغلقت فيها ابواب هذا الهيكل ، كانت سنة ٢٣٥ ق . م . اما في عهد اوغسطس الذي جعل من السلام قضيته الكبرى ، واناط بها شهرته في الخارج ، فقد أُغلقت ابواب هذا الهيكل ، ثلاث مرات لا غير ، إلا انها لم تكن لتلبث ان تُفتح من جديد ، مع العلم انها كانت مفتوحة عندما حانت ساعته الاخيرة . وبعد وفاته ، أُغلقت ابواب الهيكل مرات معدودات ، لم يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة ، حتى مطلع القرن الرابع للميلاد .

فالامبراطورية الرومانية نهضت ، والحالة هذه ، بأعباء حروب عدة متنوعة الاهداف والاتجاهات ، قلّ ان تكون دفاعية ، بالمعنى الحصري ، اي مبعثها تعديت من الخارج . وأهم هذه الحروب هي التي وقعت في عهد الامبراطور مارك اوريل ، في منتصف القرن الثاني للميلاد ، عندما تجاوزت حدود الامبراطورية ، في الشمال بتحركات الشعوب التي تملأ بها عالم البرارة في الشمال والشمال الشرقي من اوروبا ، وتمخض بها ليطلع منها ، في ما بعد ، بتلك الغزوات التي انهالت على العالم الروماني . وهذه الحروب ، كانت الغاية منها في الغالب الفتح وتلبست وجوهاً متعددة .

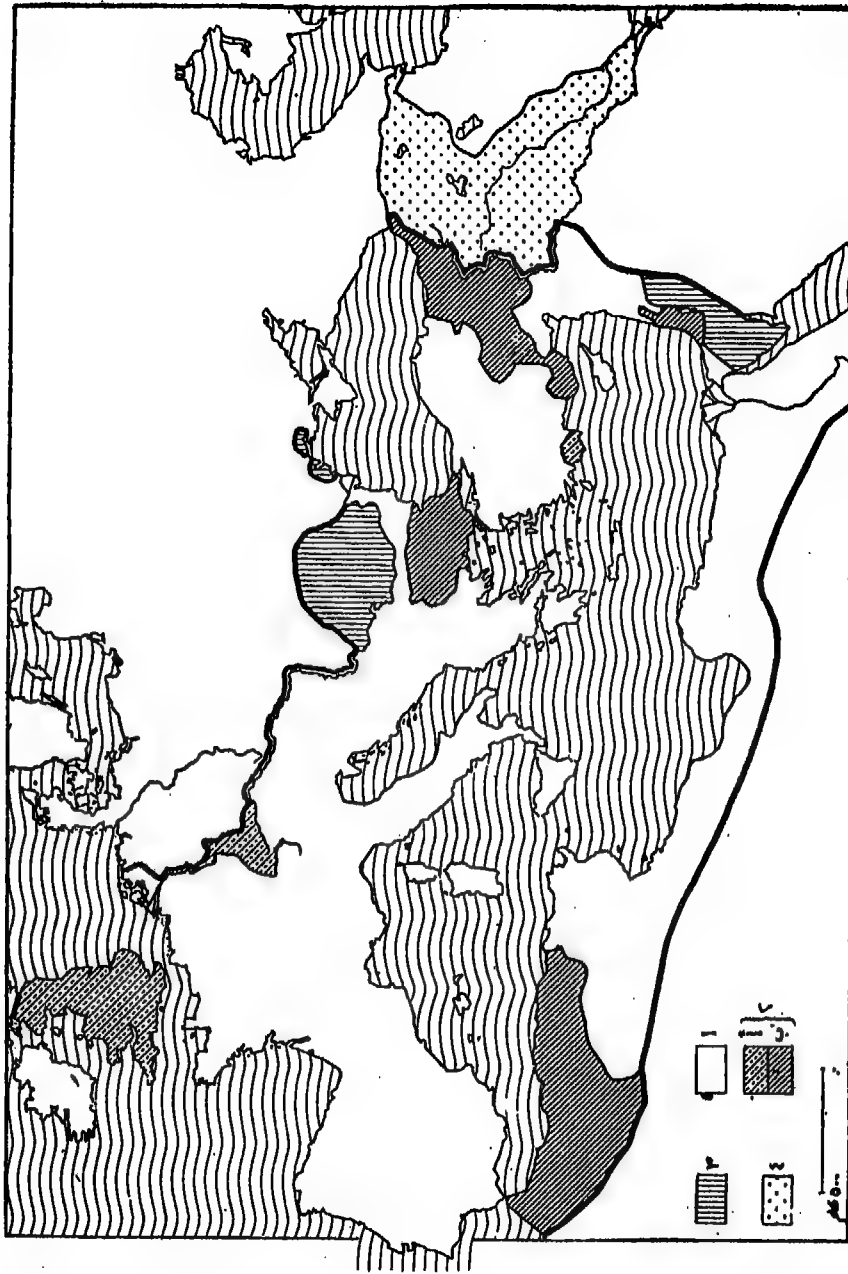
قام بعض هذه الحروب بدافع السيطرة وبسط رقعة الامبراطورية رغبة بضم مقاطعات طمعاً بخيراتها الوافرة . فقد رغب الامبراطور كلوديوس بمناجم بريطانيا ، فأرسل الفيالق الرومانية تحتلها . كذلك طمع الامبراطور تراجانوس بمناجم داسيا ، فيم شطرها وعبر اليها ، مجتازاً نهر الدانوب . وهكذا كانت الاسباب الاقتصادية الباعث الاقوى لهذه الحروب ، يقوم بها تراجانوس في الشرق : فيحتل شبه جزيرة سيناء وما وراء الاردن ، وأنشأ منها ولاية رومانية

جديدة ، عرفت « بالولاية العربية » ، كما راح يحاول تقليم اظافر الفارثيين ويستخلص من ايديهم بلاد ما بين النهرين وبابل ، مسهلاً بذلك التجارة مع بلدان الشرق الأقصى فيرقها الفارثيون بفرض رسوم باهظة .

وهناك حروب اخرى قامت بها الامبراطورية لتوسيع رقعتها في الظاهر ، بينما الغاية التي رمت اليها كانت بالفعل تنظيم وسائل الدفاع عن الامبراطورية ، على نطاق اقليمي او موضعي ضد خطر قائم ، او محتمل الوقوع . فكانت هذه الحروب تشنها الدولة الرومانية ، دروساً بليغة لجيرانها المشاغبين من جهة ، ومن جهة اخرى تقوية لشبكة دفاعها على الحدود ، وذلك بانشائها سلسلة حصون وقلاع تقيها هجماتهم ، او لاحتلال مراكز استراتيجية جديدة اكثر ملاءمة من القديمة فتوفر بذلك عليها بعض الفرق ، عن طريق حذف تنوءات بارزة او اختصار خط الدفاع الأمامي . فالحروب التي خاضتها الامبراطورية في جرمانيا ، وهي حروب ليس هنا مجال التبسط بها ، تعد خير دليل وشاهد على هذه الاستراتيجية الهجومية التي كانت في صميمها ، دفاعية محض ، اذ كانت غاية خطة اوغسطس من الحملة التي عهد بها الى قائده فاروس ، والتي فشلت فيما فشل ، التقدم حتى نهر الإلب *Elbe* ، فيتم له بذلك ربط البحر الشمالي بنهر الدانوب ، عن اخصر الطرق واقومها ، وهو خط الحدود الذي انشاء قيصر . ومن هذه الحروب التي شنها الرومان تحقيقاً لستراتيجيتهم المرسومة ، المعركة المعروفة بمقول الديكومات *Champs Décumates* (راجع الشكل ٨ ص ٢٨٣) وهي الأراضي الواقعة تحت سيطرة الرومان بين الغابة السوداء وسلسلة جبال الجورا الصوابية ، وكانوا اقاموا حولها شبكة من القلاع والحصون المنيعة .

لم تؤثر هذه الحروب جدياً على امن البلاد في الداخل ، ولم تتعرض بها سوى الولايات الجانية . فاذا ما اصاب ايطاليا منها بعض الرذاذ ، في عهد الامبراطور مارك اوريل ، فقد اقتصر الضرر على الولايات الشمالية دون سواها ، على اثر اختراق خط الدانوب . وقلما حدث ، باستثناء الحقبة التالية ، حروب تناولت عدة جبهات معاً في وقت واحد ، وهي حروب لم تؤلف ، على ما يظهر ، عبئاً ثقيلاً للامبراطورية . والثابت انها تكاثرت وتواترت ، فاقتضاها النهوض بها جهداً موصولاً ويقتطع مستمرة . عرفت روما مصير كل الامبراطوريات الضخمة التي اعتبرت قوتها مصدراً لحقوقها ، هذه الحقوق التي تلزمها ايضاً بواجبات لا يحيد عنها . غير ان روما لم تكن في عداد هذه الامبراطوريات التي ارتضت مثل هذا المصير ، بل على عكس ذلك ، كانت بالاحرى ممن تتحكم به .

فالحقوق والواجبات هي من صميم رسالتها . فاسمع ما يقوله فرجيل بهذا الصدد : « تذكر جيداً ايها الروماني ان عليك ان تحكم الشعوب ، هذه هي فنونك الجميلة : ان تتعرف الى حقوقك وان تنهض بواجباتك . فليس بينهما ما يصدم المثل الرومانية التي أقتنست على السواء ، القوة والاخلاق الحربية ، والتي تنسجم على امثل ما يكون مع المثل الامبراطورية التي لم تكن غير مثل دولة عسكرية .



الشكل ٧ - الامبراطورية الرومانية في آخر الدولة الانطونية داخل الحدود .

١ - الامبراطورية عند وفاة أوغسطس ؛ ٢ - ١ - الفتوح الرومانية من أوغسطس الى تراجانوس ؛ ٢-٢- الدول
التوابع عند وفاة أوغسطس والتي تم ضمها الى الامبراطورية فيما بعد ، خلال القرن الاول ؛ ٣ - فتوح تراجانوس ؛
٤ - الولايات التي ألحقها تراجانوس بالامبراطورية ثم عادت فانفصلت عنها بعد وفاته .

وهكذا ، مهبا بدا هذا السلام ناقصاً ، مهدداً ، او دوماً في وضع المهدد ، فقد كان « رومانياً » وأوغسطيناً ، له وقعه في النفوس واحترامه في القلوب ، ابدأ على استعداد لامتناع الحسام لزرع الخوف وفرض الاحترام ، وهي سياسة لم يكن في مقدوره انتهاز غيرها : فقد كان في اتم سعوده : سلاماً مدججاً .

لنلقِ منذ الآن نظرة متملية على الجيش الامبراطوري ، قوام قصور الحلول العسكرية الجديدة السلام الروماني وأداته الطيعة ، والتكأة التي قامت عليها المدنية الرومانية خلال هذين القرنين .

بجهد تشكيل هذا الجيش لم يكن من الامور البسيطة ، ولا من المهام اليسيرة ، يراعى العمل به وفقاً لمقتضيات الوضع القائم . فامتداد رقعة الامبراطورية ، وتباين اقوامها : عروفاً وأجناساً واجيالاً ، وامتداد اطرافها ، وقيام شعوب وقبائل مزعجة ، مشوشة يحوارها ، كل هذا وما اليه ، اقتضى حلاً جديداً . من الامور التي ميزت النظام الامبراطوري وأبرزته بوضوح عن العهد الجمهوري الراحل ، قيام جيش دائم لم يتوقف انشاؤه ووجوده على ظرف طارئ وحادث معين - هو حالة الحرب المستمرة - كما كان عليه الوضع الراهن في العهد الجمهوري . فكيان هذا الجيش وقوامه ، انبثقا من صميم النظم الجديدة التي طلعت على الامبراطورية . ولم يخلُ قيام الجيش وبقاؤه من مشكلات عديدة ، معقدة ، لم يتوصلوا الى حل بعضها إلا بتسوية واهية من التوازن المتأرجح .

وهذه الفياتل ، كيف السبيل الى تكتيبيها وتعبئتها ؟ وانتي يجب ان ترابط وتقوم ؟ لم يكن من المستطاع الرجوع القهري الى الورا ، الى نظام الخدمة العسكرية الإلزامية العامة التي انتسخ الأخذ بها ، منذ عهد ماريوس ، فكان الرجوع اليها في الحروب الداخلية تديراً تعسفياً طالما تدمر منه الناس وتعلموا . قد يرضون عن مثل هذا التدبير عندما تتعرض البلاد لاختطار داهية ، دهاء ، توردها الهلكة . ولذا أبقوا عليها من حيث المبدأ ، ولم تطبق الا في الحالات القصوى النادرة جداً . ولم يكن في طاقة احد ، ولا في مقدور اي انسان كان ، ان يفرض على الناس اجمع ، تحت اي ساء عاشوا ، وفي اي مكان حلوا من هذا العالم المتمدين ، او كانوا في اقاصي اطراف الامبراطورية ، حيث تمر الحياة رتيبة ، كئيبة ، ليس ما يميزها في هذه الحصون النائية ، حياة تفرغ على نغم واحد في المراكز والقلاع الامامية ، والمناورات الحربية والاشغال اليدوية الاجبارية . ولهذا الاسباب مجتمعة ، كان لا بد من جيش مختف ، تضرّس افراده بالانتظار الملل ، وألفوا مواجهة المخاطر والطوارئ . وجيش على هذا النحو لا يمكن ان يقوم الا على متطوعة يقبلون ، طوعاً واختياراً ، على الخدمة العسكرية ويتدربون على فنون الحرب والجهاد ويشبون على المهنة ، ويتمرسون بها طويلاً من خلال مزاولة يومية ، وتمارين مستمرة .

وهذا الوجوب ، اقتضى بالطبع ، وجوباً آخر : إلزام بالزام . فقد كان من المحال اجتذاب

مثل هذه الحشود من المتطوعة ، وعلى القدر الكافي وبالعدد الوافي ، يمثل هذه التعلّات الثقافية التي لوحّت بها الجمهورية السالفة . فالولايات التي تعسكر فيها الكتائب الرومانية باستمرار ، كان لا بد من بقائها وحفظها سليمة ، فلا تتعرض ، بتشجيع من المسؤولين او بتغاضيهم ، لأعمال الابتزاز والاعتصار . فالحروب لم تعد مورد رزق ورجعة رابحة ، لندرتها من جهة ، ولوقوعها ، في أكثر الاحيان ، في بلاد غير ذي خصب ولا عطاء ، من جهة اخرى . والتطوع في الجيش يجب ان يُقبّل عليه الناس لما في السلك من غم وارباح : كالمرتبات والجرايات ، والمكافآت العينية او النقدية التي يصار الى توزيعها في بعض المناسبات ، وتعويزات سخية تعطى لهم لدى التسريح من الجيش ، او الترفيع الى مرتبة اجتماعية او قضائية اعلى . كل هذه منوّفات ومغريات كانت تبور بالفعل ، عن نفقات ومصارفات تزرع كاهل الدولة الى جانب ما كانت تُزرع به الخزينة في هذه الدولة ، من اعباء ومسؤوليات يقتضيها تأمين وسائل العيش لأفراد الجند ومدّهم بما يلزم من عدة الحرب والسلاح .

ولذا كان لا بد من الاستعانة بمادة بشرية استخدامها يكلف الدولة اقل بكثير من الاستعانة بالعناصر البشرية المتباينة العروق والاجناس التي تألف منها مجموع سكان روما ، الذين اصبحوا ، مع الزمان ، وبفضل المآتي التي حققها السلف الصالح ، الطبقة الارستوقراطية في المدينة بحيث انها اخذت تُمج الحياة العسكرية ، وتكره ما فيها من مضايقات ، لا يرضون بتحملها منها لحقهم من منافع وامتيازات في حال قبولهم بالتجنيد . ولهذا الاسباب راحت الامبراطورية تدعو للخدمة في جيشها ، سيراً منها مع التقاليد التي تمشت عليها الجمهورية من قبل ، لتأمين سلامتها وصيانة أمنها ، ليس رعايا احدث عهداً بهذه الرعاية فحسب ، بل ايضاً فرقاء ، دونهم وضعاً اجتماعياً ، تختارهم من بين سكان الولايات ومن بين الاجانب ، فألفوا معاً نصف الجيش المحترف تقريباً . فقد أغرام العمل والخدمة في جيش روما الفاتح اغراءاً تجاوز في نظرهم الربح المادي الذي طمعوا في الحصول عليه ومنّوا النفس به . وهذا ابرز واقوع ما تميّزت به المدينة الرومانية من قوة الجذب والاغراء . فبعد ان نشأت السلطنة الرومانية على سواعد حلفائها ودماء رعاياها ، اذ بنا نرى روما اليوم ، تتوجه اليهم ، مرة اخرى ، في مهمة الحفاظ على هذه الامبراطورية والدود عنها .

فالقضية العسكرية ألّفت ، الى جانب المادة البشرية التي هي عماد الجيش ، مشكلة مادية لا تقل حدة عن الاولى . فنذ عهد اوغسطس ، كانت على المواطنين الرومان المعفين من الخدمة العسكرية ، ضريبة بدّل خدمة ، مقدارها واحد في العشرين من اصل التراكات المورثة ، لتغذي صندوق الجيش وتعويزات الصرف من الخدمة . ومهما بلغ من غنى الامبراطورية اذ ذاك ، وضخامة فيها ، فقد كان عليها ان تواجه ، الى جنب الابعاء المالية المترتبة على حشد مثل هذه الحشود الضخمة من الجند ، النقص البشري الذي كانت تعاني منه ، أكثر من اهتمامها بعجز خزينتها ، اذ كانت تنوي جمع هذه المبالغ من رعاياها ، دون سواهم . وقد لاقّت في هذا السبيل

الكثير من العنت والازعاج حتى في ابان عزها وأوج ازدهارها . فكان عليها ان تسن وتشرع ما هو في طاقتها ، اذ لم يكن في وسعها توفير اسباب السياسة التي تمني بعض امبراطرتها اتباعها والسير عليها .

وتنظيم قيادة الجيش العليا هو نفسه ، لم يلاق عندها الحل الامثل والاكمل ، اذ ان ارتباط هذه القيادة بشكل الدولة والنظام الاجتماعي الذي كانت عليه ، كان يحول دون النظر الى هذا المنصب الخطير بتجرد . ولذا كان لا بد من ان ترتبط قيادة الجيش العليا ، رأساً ، بالامبراطور نفسه . فبقاء الامبراطور واستمراره في الحكم ، ارتبط الى حد كبير ، ببقاء الجيش ، واستمراره هو الآخر ، يتوقف على استمرار الامبراطور نفسه . وهذا الجيش المرابط معظمه على الحدود ، كان يتألف بالفعل من عدة جيوش ، لكل منها قائده . فكيف السبيل ، والحالة هذه الى انتقاء هؤلاء القادة ، وكيف يمكن الحيولة دون تسخيرهم الانتصارات التي يحققونها لمصلحتهم الخاصة ، واستغلال منزلتهم في الجيش ونفوذهم عليه ، للوصول الى السلطة العليا ؟ ومن جهة اخرى ، فالجنود انفسهم ليسوا بشيء يذكر ما لم تتوفر لهم الأطر والملاكات التي تنتظم سلوكهم . فما السبيل ، لعمري ، لتأمين هذه الملاكات ، وتأمين تدريبهم الفني والمسلكي ؟ وعلى أي اساس يجب ان تقوم ترقيتهم ، وان تلتسق ترفيعاتهم ، وما هي القاعدة الذهبية لتحقيق هذا كله ، على الوجه الاكمل ؟ وما عسى ان يكون علمهم في السلم الاجتماعي ؟ وكان من مصلحة النظام الجديد الذي طلع على البلاد ، الفصل بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية ، وذلك بتحديد اختصاص كل منها وتأمين الانسجام والترابط بينها . كذلك ، كانت المصلحة العامة تقضي ان لا ينظر ، عند الانخراط في الجيش وتقرير الترفيعات ، الا لمن أنسوا منه الليل العميق للسلك العسكري ، ومن توفرت له الاستعدادات الخلقية اللازمة ، وبرهن عن كفاءاته العسكرية في المعارك الحربية ، دون ان يؤبه الى شيء آخر : كالاصل والفصل ، والحسب والنسب . وسنجهل ابدأ ، ما اذا كان الامبراطور اوضحوا هذه الأمور كلها وحددوا لها الأهداف ، او انهم لم يتمكنوا ، او بالاحرى لم يحاولوا ضرب عرض الحائط بهذه العوامل والتخلص من التقاليد المرعية .

فقد بقيت ابواب مجلس الشيوخ موصدة امام ابناء هؤلاء الاعضاء بينما بقيت كل مراكز القيادة وفقاً على هؤلاء الاعضاء . فالخروج عن هذه التقاليد التي كانت تشد بعضها الى بعض الجهازين الاداري والعسكري ، كان بمثابة خروج على مجلس الشيوخ . فالانتقال من جهاز الى آخر ، لم يكن امراً مستحيلاً ، وإن دقت سبله او ضاقت منافذه . فالوصول الى مجلس الشيوخ ، والتقلب في وظائفه : ترقية وترفيعاً ، هو من هذه المكافآت المحفوظة لخدام الدولة الامناء . وكلها امور يرجع بها الى هيئة من المحكمين ، تخضع قراراتها وترتيباتها الانتخابية لمواقف الاحزاب المتنافسة وتأثيراتهم . وقد اوجب رفع عدد ملاكات الجيش ، لعمري ، الاستمانة بطبقات اجتماعية اخرى ، اذ ان اعضاء مجلس الشيوخ ، فقدوا ، لقلّة عددهم وضآلته ، هذا الاحتكار الذي مارسوه ، من هذا القبيل ، وغتنوا به طويلاً ، وحدهم دون سواهم . فأخذنا نشاهد ، على مر

الزمن، طلوع فرسان وضباط، وضباط صف، من بين افراد الجند. الا ان السعي لاملأ الملاكات لم ينحط ليلغ ادنى دركات السلم الاجتماعي . فالوحدات الجديدة افرزت لها قيادات جديدة احتفظت بها واقتصرت عليها وهي ، على الغالب ، ادنى مرتبة من الاخرى ، ودونها جذبا واغراء ، بينما بقيت القيادات الاولى تعاني النقص . ولم تقم المنافسة بين الفريقين الا بعد ان خضع ضباط الثانية لتدريب طويل او عند ما راح الملك يغمر برعايته وعطفه ، ضباط الشفاليه حتى اوصلهم الى مرتبة المشيخة . كما اوصل ضباط البيادي الى فرقة الحباله . والتدرج الحكيم في هذه المراتب دعا ابناء الطبقات الى شيء من الحماسة وحلمهم بالتالي ، على التنافس والمباراة فيما بينهم ، فساعد ذلك على صيانة المجتمع من التفسخ والانحلال ، كما ساعد الامبراطور على الاحتفاظ بسلطته على الجيش وسيطرته عليه ، اذ ممكنه من ان يكافئ الاخلاص ويشجع الكفاءة الشخصية . الا ان الامر ألحق بعض الاذى بالقيادة : وانتقص من قيمتها والمؤهلات التي يجب ان تتحلل بها . فقد كان من اثر هذه التدابير ان اقتضت وقتا اطول لبروز الكفاءات كما اقتصرت التجلي والظهور على بعض الظروف والمناسبات كوقوع الازمات ، مثلا .

تنظيم القوة البحرية : طرأ على تنظيم الجيش وتشكيله ، خلال القرنين الاولين من عهد الامبراطورية ، تطورات كثيرة يقتضيها تقصي مراحلها استطرادات وتفاصيل لا محل لذكرها هنا . فلنقتصر على نظرة عابرة نلقها على خير العهود التي قامت فيه القوات الرومانية بدورها العسكري ، على الوجه الامثل ، باعتبارها حصن العالم الروماني الحصين ودرعه المتين ، اي في منتصف القرن الثاني للميلاد ، خلال حكم هدريانوس وانطونين .

فلاسطول البحري لم يكن له شأن يذكر . فالبحر المتوسط الذي اصبحت جميع شواطئه وما وراءها من اقطار خاضعة جميعها للسلطة الرومانية ، هو نفسه بحاجة للأمن ولبعث الطمأنينة في النفوس . ففي هذه البحيرة الداخلية التي تقع في قلب الامبراطورية ، تمر خطوط المواصلات التي تربط روما بجميع الولايات التابعة لها . واعمال القرصنة البحرية التي كان لا بد من ازالة كل خطر لها في القرن الاول ، كادت تفقد ، الا ما ندر ، كل اثر لها . وهذه الاساطيل الحربية التي كانت تمخر عباب اليم في اواخر الحروب الأهلية ، فقدت الكثير من شوكتها وشكيمتها . فنجد ان انتصف القرن الاول اصبحت استطاعة السلطة ان تسحب فرقتين رومانيتين اضافيتين من اصل جيش المشاة الذي عهد اليه العمل على ظهر الاساطيل الحربية ، والحقتا نهائيا بالجيش البري . ولعل العمارة الوحيدة التي حافظت على قوتها وبأسها ، هي العمارة التي عهد اليها بتأمين المواصلات مع بريطانيا ، ومراقبة سواحل البحر الشمالي ، مؤمنة الاتصال بجيش الرين السفلي . اما الطرق النهرية الواقعة على الحدود ، ولا سيما على الرين والدانوب ، فقد قامت فيها عمارات اخذت ، هي الاخرى ، نصيبها في الدفاع عن الامبراطورية متعاونة مع الجيش البري على ذلك . وكل هذه الاساطيل لم تكن لتؤلف شيئا يذكر في امر الدفاع . ففوة روما هي قوة جيشها البري . فالبحارة والقوى العاملة على هذه السفن الى جانبهم ، لم يكن لها من الشأن ما يمكن

مقارنته بأقل فرق الجيش البري . ولم تندّ الامبراطورية هنا عن تقاليد روما التي رأيناها دوماً ، طوال تاريخها المديد ، تعجز عن القيام بمجهود بحري حربي استطال أكثر مما اقتضته حرب معينة ، الأمر الذي جعلها دوماً تفاجأ بخطر انتصب امامها بغتة ، وسبب لها الكثير من المتاعب ووجع الرأس .

الجيش الروماني : اللجيون
استأثر الجيش بعناية الامبراطرة ورعايتهم . فقد بلغت قوة هذا الجيش نحواً من ٣٥٠.٠٠٠ ، وهو لعمري عدد ضئيل جداً بالنسبة لعدد سكان الامبراطورية البالغ ما لا يقل عن ٥٠ مليون نسمة . وهذا العدد الضئيل جداً ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار التسعة آلاف كيلومتر من الحدود البرية ، بقطع النظر عن الصحراء الكبرى وبلاد العرب التي تنتقل فيها قبائل البدو الرحل الذين دثبوا على أعمال السلب والنهب . ويجب الان نسي ما كان يترتب على هذا الجيش من أعباء المراقبة حتى ما تعلق منها بشؤون الادارة الداخلية احياناً ، وغيرها من المهام التي كانت تستنفذ جانباً من الجيش العامل ، المكلف بأمور الدفاع عن البلاد ضد كل خطر خارجي . من ذلك مثلاً ، وضع الحامية الرومانية في روما نفسها ، وهو تدبير اجرته الادارة الجديدة في العهد الامبراطوري دون ان يقوم ما يماثل في روما خلال العهد الجمهوري . وكان لا بد من هذه الحامية لأمن السلطة المركزية وسلامتها ، وللأمن الداخلي في المدينة . فمن اصل الـ ١٢.٠٠٠ جندي الذين كانت تتألف منهم الحامية ، في عهد الامبراطور طيباريوس ، شكل قسم منهم ، بلغ عددهم ٤٥٠٠ جندي ، الحرس الامبراطوري الخاص . وتألفت الحامية من ٩ طوابير هي عماد الامبراطور وعدته في الحملات التأديبية التي كانت تدعو الحاجة اليها من وقت لآخر . وما تبقى من هذه القوة ، بين كتائب خاصة بالمدينة وبالحراسة ليلاً ، لم يفارق المدينة بحيث يؤمن لها ما تحتاج اليه من قوة بوليسية ومرتبات لمكافحة الحرائق عند نشوبها . وعلى هذا النحو تقريباً كان وضع القوات الرومانية المرابطة في اسبانيا ، سواء منها القائمة في شبه الجزيرة الايبيرية او التي كانت منها تعمل في مقاطعة موريتانيا - المغرب اليوم - فلم يكن من مهمتها التصدي للأجنبي .

وهكذا يتضح ان الجيش الامبراطوري كان بحاجة الى كل فرد من افراده ، والى كل ما تتمتع به من كفاءة عسكرية ومهارة في فنون الحرب ، ليقوم على الوجه الاكمل ، بالمهمة الموكولة اليه والتي قام بها بشكل مرضي .

اما الوحدة النموذجية الكبرى ، سيدة المعارك المعبأة ، فلا تزال تحمل الاسم الذي عرفت به من قبل ، وهو « اللجيون » ، هذا الاسم الذي ارتبط ابدأً بالأجناد التي حققها الفتوحات الكبرى التي عليها نشأت السلطنة الرومانية ، وهي فرقة لم تدخل عليها الامبراطورية تعديلات تذكر ، باستثناء سرية من الخيالة ألحقت بها ، لم يتعد عدد افرادها ١٢٠ فارساً . واللجيون ،

وحدة مشاة في الاساس ، يتراوح عددها بين ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ جندي ، وهو عدد تباين الكتبة والمؤرخون الاقدمون في تحديده . وتتألف اللجيون من : طوابير *Cohortes* ، وكراديس *Manipules* وسريات *Centuries* ، ينتظمها جميعاً ملاك قيادي ، متين ، يتألف من ٦٠ ضابطاً برتبة قائد مائة يعرف عندهم بـ : *Centurion* ، وهم ضباط خرجوا من بين صفوف الجند بما أظهره من كفاءة ومقدرة ، ورقوا تبعاً ، الدرجات العسكرية ، وكانوا يتولون قيادة السريات الاولى في الكراديس . اما ترقيتهم الى درجات أعلى ، فأمر بقي نادراً جداً في القرن الثاني . ولم نرَ بينهم من وصل الى قيادة الفرقة او اللجيون ، هذه الوظيفة المحتفظ بها ، اصلاً ، لأعضاء مجلس الندوة او اعضاء مجلس الشيوخ ، إلا في مصر ، حيث كان يتولى قيادة الفرقة ضابط من رتبة شغاليه .

على كل افراد الفرقة ان يكونوا حاصلين على الرعاية الرومانية ، وهو امتياز لم يكن من العسير قط الحصول عليه ، اذ كانت الدولة تمنحه بكل طيبة خاطر ، لكل من يتطوع في الجيش ، وقد عرفت الادارة ان تفيد من هذا الامتياز خلال الحروب الاهلية . وقد اخذت الامبراطورية ، في القرن الثاني ، تعود لهذا الثمر وتضعه موضع التنفيذ ، فلا تمنح حق الرعاية إلا لعناصر بشرية ضربت بأسباب الحضارة بسهم كبير ، لدى انخراطها في الجيش . وكانت الفرقة ، في تشكيلها تعتمد ، الى حد كبير ، على التطوع المحلي ، فتعمل على استكمال وحداتها وتشكيلاتها العسكرية حيث ترابط ، مؤثرة في ذلك ابناء الجنود وتفضيلهم على سواهم ، بعد ان نُشِّتوا على شيء من الانضباط العسكري ، وأرضعوا حب الحرب .

الفرق الرومانية الصرف لم تكن لتؤلف سوى نصف الجيش ، اذ ان النصف الوحدات الاضافية الآخر كان يتألف من كراديس غير نظامية ، افرادها من غير الرعايا الرومان ، فيشكلون وحدات اضافية مساعدة تنضم الى الفرقة . وتؤلف معها وحدة تخضع لقيادتها العامة مباشرة .

وكانت هذه الوحدات تضم ما بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ جندي ، مسلحين على الطريقة الرومانية ، وتنهج في الحرب النهج الحربي الروماني ، تحت امرة ضباط يحملون الرعاية الرومانية . فالجناح كان يتألف دوماً من فرسان الخيالة ، بينما كانت الكراديس تتألف من المشاة واحياناً من عناصر مختلفة . وكان كل كردوس يحمل اسم البلدة او المنطقة التي تشكل من رجالها . غير ان اضطراب هذه الكراديس للخدمة ، احياناً كثيرة ، بعيدة عن مناطق نشأتها وتكوينها ، جعلها تحمل فيما بعد ، اسماء المقاطعات التي كانت ترابط فيها . ومما يكن ، فأفراد هذه الوحدات الاضافية هم من مستوى اجتماعي وحضاري أدنى من افراد الفرق الرومانية الاصل . ولم يتروا إلا بعد انتهاء خدمتهم العسكرية ، واذا ذاك فقط ، تسلم اليهم براءة رسمية ينحون بموجبها حق الرعاية الرومانية .

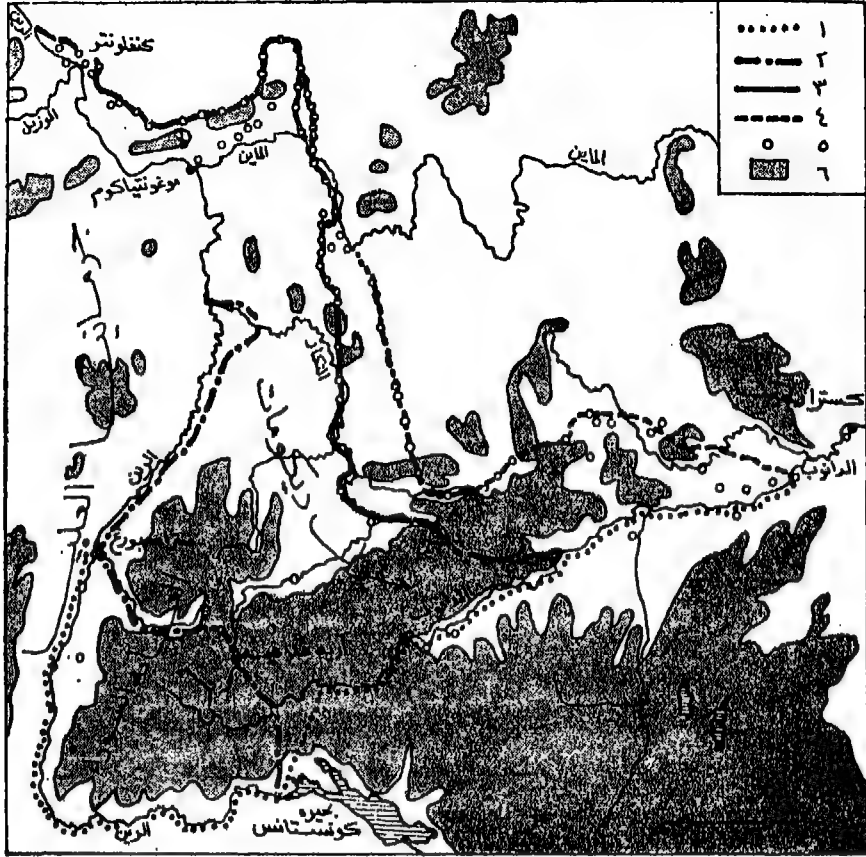
وألحق بالجيش الروماني ، في القرن الثاني ، فرقة اضافية اخرى غير التي اتينا هنا على ذكرها ووصفها من الفرق المساعدة ، عرفت عندهم باسم *Numeri* ، هي على الغالب من نوع القنصاة تعمل الى جانب الوحدات الرومانية . لأفرادها أسلحتهم وعتادهم وطرقهم الحربية ، هي الطرق الجاري الاخذ بها في بلادهم . وهي على الغالب وحدات خفيفة السلاح ، سريعة التحرك والتنقل ، يعهد اليها بمهام تقتضي السرعة والمفاجأة .

فالجيشون الرومانية وما اليها من قوى اضافية مساعدة تضاعف عددها ، كانت الجيوش . تؤلف الوحدة العسكرية التي تشبه الى حد بعيد ، فرق الجيوش الحديثة . كان عدد هذه الفرق ، عند وفاة أوغسطس ، ٢٥ فرقة ، تغير قليلاً فيما بعد وفقاً لمقتضيات الظروف ، بين زيادة او نقصان ، او حل بعضها احياناً ، في حالات التمرد والعصيان مثلاً . فاذا بهذا العدد يرتفع الى ٣٠ فرقة في عهد الامبراطور تراجانوس ثم يهبط الى ٢٨ في عهد هدريانوس . وقد شكل الامبراطور مارك اوريل فرقتين اخريين ، كما شكل الامبراطور سبتيموس ساويروس ثلاث فرق جديدة في عهده .

وكانت هذه الفرق توزع على مختلف المناطق والولايات وفقاً لمتطلبات الحاجة العسكرية ، وضرورات الدفاع والحفاظة على الأمن . فاذا ما رأت الادارة تخفيض قواتها في ولاية ما ، او نقل الحامية المرابطة فيها ، أجرت هذا التدبير بتسهيل كلي ويحتفظ ، اذ كثيراً ما يكون استقرار الأمن في البلاد صورياً لا غير . ولعل اكثر جيش روماني استهدفت فرقه للتعديل والتبديل والتغيير هو الجيش المرابط على الرين ، وهي تغييرات استمر الاخذ بها طيلة قرن تقريباً . فبعد ان تألف في عهد أوغسطس من ثمان فرق ، انخفض عددها الى اربع عند وفاة هدريانوس ، بينما كان جيش الدناوب في هذا الوقت بالذات ، يتألف من ثمان فرق ، وجيش آسيا من ٨ فرق ايضاً ، وقام ثلاث منها في بريطانيا ، بينما رابطت ثلاث في كل من اسبانيا وافريقيا ومصر .

هذه الجيوش ، في معظمها هي جيوش تغطيّة ، وتوسّعاً ، جيوش احتلال . فهي تغطي الولاية او المنطقة وترد عنها عوادي الطامعين من الغزاة وتصون أمنها ، ليس عن طريق الحشد والتكتيب والتأليب ، وكلها امور لم يكن في مقدورها وحدها القيام بها ، لولا وحدات اخرى اضافية مرابطة في البلاد . وعلاوة على هذا ، لم يكن هنالك من جيش احتياطي ، ولذا ، كان من العسير جداً ، ان يتحول الى جيش مناور ، متحرك محارب ، الا اذا ما استنفر وحدات إضافية من جيوش اخرى قريبة او بعيدة ، او صير الى تقوية هذه الجيوش المرابطة ، وذلك بدعوة المحاربين القدماء ، ومثل هذا الاجراء لم يكونوا يرجعون اليه إلا عند خطر مدام . وكانت الامبراطورية ، بالنسبة للوضع الذي يكتنف جيشها ، وطريقة توزيعه على البلاد ، لا تستطيع الصمود على جبهة معينة إلا باضعاف حاميتها المرابطة في جبهة ثانية ، ولذا كان عليها ان تلتزم

خطة دفاعية بحثة . فكل هجوم ، مها كان مداه او طبيعته ، كان يعتبر امراً كالياً لا يمكن لها مجابهته إلا ما ندر ، وعند ضغط خارجي يكون خطراً على البلاد . وهكذا نستطيع ان نفهم الآن التردد الذي كان عليه الامبراطرة في بعض الأحيان وانثناءهم فجأة ، في بعض الآونة ، عن



الشكل ٨ - الحدود بين الامبراطورية الرومانية وبين جرمانيا ومقاطعة ويطيا
١ - الحدود قبيل الامبراطور فمبسيانوس ؛ ٢ - الحدود في عهد فمبسيانوس ؛ ٣ - الحدود في عهد الاسرة الانطونية ؛ ٤ - الحدود في آخر عهد الاسرة الانطونية ؛ ٥ - بعض الحصون والقلاع الدفاعية ؛ ٦ - المراكز الواقعة على اكثر من ٥٠٠ متر .

تجريدات وحملات عسكرية كانوا اخذوا بها وساروا فيها اشواطاً ، ثم مالوا عنها ، على غير توقع وانتظار ، لتكاليفها الباهظة . ولذا كانوا يفضلون القيام بحركات هجومية محدودة ، والفتوح التدريجية يجرؤونها على مراحل ، قد تمتد عشر سنوات وأكثر . اذا ما اقتضى الامر ، كذلك اعتبروا القيام معاً ، وفي آن واحد ، بالحرب على جبهتين ، وضعاً يتهدد البلاد بكارثة ، يجب تقاديه بأي ثمن .

فالجيش الامبراطوري قام ليتدبر وضع الامبراطورية العادي ، وليؤمن استمراره التنظيم وسيره الرتيب ، لا ليعالج ازمات عارضة ، طارئة ، لا سيما كان لها صفة الشمول والاتساع . فهو لا يوحى في النفس ، ولا يدخل في الروح سوى طمأنينة زمنية ، آنية ، واهية . فاذا ما نعمت البلاد بشيء من هذا في القرن الثاني ، فبفضل الهدوء النسبي الذي سمحت لها به الشعوب المجاورة لها ، وليس بفضل تفوق الامبراطورية العسكري او الحربي . فاذا كان من الصعب على قادتها، او كانوا عاجزين عن ان يتصوروا الاخطار التي ستعرض لها الامبراطورية في المستقبل الطالع ، فافات أكثرهم فطنة وبصيرة ، ان يستشعروا ما هم عليه من وضع لا يوحى قط بالطمأنينة . فالحرص الذي تجلّى عند الامبراطرة بالاقتصاد بقواتهم عن طريق اختصار الحدود وإزالة النواتئ ، او عن طريق إقامة الحصون والقلاع الدفاعية على طول خط هذه الحدود، هو الدليل بعينه على انهم لم يكونوا ليفقلوا او ليتجاهلوا، ما هو عليه الوضع من وهن كما ان في هذا ، البرهان على رغبتهم الصادقة في معالجة هذا الوضع وتدبر الامور بشكل يبعث الطمأنينة وتأنس له الخواطر .

ولكي تبقي الامبراطورية ولاياتها الواقعة على الحدود البرانية الاشراف على الحدود وتنظيمها
بمعزل عن هجمات البرابرة وتهديداتهم ، راحت تحاول جهدا ، لتيسير المهمة الموكول الى الوحدات العسكرية تنفيذها ، وهي مهمة عسيرة ، شاقة تقوم بمراقبة الحدود والصمود في الدفاع عنها ، عند حدوث ما يهددها . وتحقيقاً لهذه الغاية ، أخذت الامبراطورية ، في بادئ الأمر ، تقيم الحاميات ، على طول شواطئ الانهر الكبيرة ، القائمة على هذه الحدود او على مقربة منها ، كالفترات في جزء من مجراه ، والدانوب ، والرين ، ان تعذر اقامتها امام نهر الإلب . ولكن طمأنينة تقوم على الجيش وحده لم تكن لتكفي او ليقنع بها أحد . ولذا أخذت ، خلال القرن الثاني ، تقيم لها او تستصلح ، في نقاط عديدة ، خطاً من التخوم والحدود اصطلاحاً على تسميته بـ « Limes » .

ولعل خير ما يرسم في خاطرننا صورة مثلى للمراكز الدفاعية التي يتألف منها هذا الخط الحصين ، هو تخيم يحيط به خندق ، يليه منحدر يقوم دونه سياج ، ثم يأتي سور خارجي تتقاطع ابراج المراقبة ، وحصون تقوم وفقاً لمقتضيات طبيعة الارض ووضعها الطبوغرافي ، او وفقاً لما يخططه لها المهندسون العسكريون . وسنرى مثال او صورة مثلى لهذه الحدود الحصينة هو هذا الجدار الحصين الذي قام في بريطانيا قديماً وعرف بجدار هديرانوس ، فينطلق من نهر التاين Tyne ويمتد ليدخل بموقع صولواي فيرث Solway Firth . وامعانا في منعة الخط ، اضيف اليه في القسم الشمالي منه ، جدار آخر عرف بجدار انطونين ، امتد من فيرث الى فورث حق نهر الكلايد . ومثل هذا الخط الحصين قام كذلك بين نهري الرين والدانوب - وهو الخط المعروف بخط الحدود الجرمانية - هذا الخط الذي حرص امبراطرة الاسرة الفلافية (Les Flaviens) ،

عقب وفاة الامبراطور انطونين ، على تقوية دفاعه ومضاعفة مناعته . ودخل ضمن هذا الخط المنطقة المعروفة عندهم بمحلول ديكومات *Champs Décumales* ، الممتدة ٥٠٠ كيلومتراً ، بينها ٨٠ كيلومتراً في خط مستقيم ، ثم يبتعد عن نهر الرين على مساواة مدينة « بون » ليعود فيدخل بالدانوب ، على ارتفاع مدينة راتسبون . وكأن بهذا الخط الذي شابه سور الصين فبعث الرهبة في النفوس ، شيئاً خارق الطبيعة .

وهناك مثال آخر لهذه الحدود الحصينة ، انما على نسبة اقل ، من الضخامة والعظمة ، كان مع ذلك ، لا بد من ارادة جبارة وجهد طائل لاقامته وتشييده ، هو هذا الخط الذي يقوم الى الشرق من سوريا ، في خط ينحدر جنوباً حتى القارة الافريقية مواجهاً الصحراء . ويتخلل هذا الخط : خنادق ومنحدرات وحصون وقلاع هي ادنى شأناً واهمية من التحصينات الواقعة على الخط الاول . ويستمد هذا الخط قوته ومناعته الاولى من سيطرته على موارد المياه والتحكم بها بواسطة شبكة محكمة من الاستحكامات وما فيها من حصون وقلاع ، يتخللها عدد من الآبار التي تم حفرها واعادها في المناطق المجربة ، وشبكة جيدة للري وسقاية الأرض ، في منطقة تصلح للزراعة ، يتعاون فيها سكان المزارع والقرى مع افراد الجيش على استئثارها واستغلالها ، وعلى رد غزوات البدو عنها .

وعلى كلا الخطين ، اردف هذه الاعدادات العسكرية والتحصينات الحربية ، شبكة ممتازة من الطرقات الجيدة وما اليها من تفرعات وتشعبات ، تصل مراكز الدفاع والحصون بعضها ببعض ، كما تؤمن اتصالها بمؤخرة البلاد ، حيث تقوم عادة مخيمات الجيش الرئيسية ، اذ لا بد من تأمين وصول الامدادات العسكرية والمؤن اللازمة للرابطين على الحدود والمدافعين عنها .

والبحث العلمي عن معالم هذه الحدود الحصينة لم يجر بعد بصورة دقيقة مرضية ، إلا في بعض الأماكن منها ، كالمانيا وبريطانيا . ثم جاء التصوير الطبوغرافي من الجو يؤازر هذه الكشوف العلمية ويصححها ويبرزها للنظر . ومهما كانت النتائج الأخيرة التي ستؤول اليها الحفريات الأثرية عن معالم هذه الحدود الحصينة في مناطق اخرى ، ومهما بلغ من دقتها في المستقبل الطالع ، فلن تبطل او تتخلل النتائج الأكيدة التي توصل اليها العلم حتى الآن . فإنا وجدنا معالم بعض الحصون التي قامت في مراكز واماكن معزولة ، وفي قطاعات بعض الطرق القديمة ، امكننا ان نجزم ، بكل تأكيد ، اننا امام مخيمات لبعض وحدات الجيش الروماني . ففي كل تخم من تخوم الامبراطورية الرومانية ، تبرز بصورة واضحة جلية ، معالم هذا الجهد الطائل الذي بذله المهندسون العسكريون العاملون في خدمة روما وخدمة جيشها ، ليؤمنوا للامبراطورية جمعاء ، ومسا اليها من ولايات دخلت تحت سيطرتها واشراقها ، اكثر ما ترغب فيه من الأمن والطمأنينة والسلام .

الحياة في غيات الجند عرف الجندي الروماني ان يحافظ ، من الوجهة الحربية ، على ما اشتهر به من كفاءة ومقدرة عسكرية . فالجندي ابن مهنة وان شئت ، فقل ابن سلك . فهو اختصاصي ، احترف مهنة الحرب . وبالرغم من انه روماني التبعية والرعية بالتبني ، وروماني التبعية لأمد يقصر او يطول ، فهو فخور بهذا الشرف الذي أوتيته بالخراطه في الجيش ، وشرف موروث له وقعه في النفوس . تهتز نفسه وتطرب لبريق الأوسمة التي تزين صدره ، على قلة ما سخوا بها في القرن الاول ، ثم راحوا يبخلون في توزيعها ، في القرن الثاني حتى بلغوا فيه حدود التقدير ، ناهيك عما كانت توفره للجندي من منافع مادية وادبية اخرى.. فالراغب كان يزداد ويرتفع حتى في هذا العهد الذي استقر فيه النقد ، كمهدي اوغسطس وفبسيانوس، ولم ترتفع قيمته إلا في اواخر الدولة الانطونية *Les Antonins*. والجندي الروماني حسن العدة والعتاد والذخيرة ، تؤمنها له مصلحة التوريدات في الجيش ، وهو ينعم كذلك بالتسهيلات والمنافع التي تؤمنها له مصالح الجيش الفنية والهندسية . ولذا فهو يقبل على الخدمة راضياً مرضياً ، وقد اتقن المهنة بعد ان تفقته بأموارها واسرارها مدة طويلة ، يقبل بنشاط وحماة على المناورات وينقطع اليها بكليته ، لاسيما في عهود بعض الامبراطرة ، كمهد الامبراطور هدراليوس مثلاً . فالامبراطور خبير بأموار الجيش يكثر، من دورات التفتيش ويتشدد بأعمال المراقبة ، كما يشهد بذلك الامر اليومي الذي اصدره في ناحية لميز (الجزائر) *Lambèse* ووجهه الى جميع مفارز الفرقة الافريقية وما اليها من كرايس وأجنحة تعمل معاً في حروب المناوشات .

وهناك مهام واعمال اخرى غير التي ذكرنا ، تملأ ايام الجندي في اوقات الخدمة ، كالتمارين التي يقوم بها ، وحراسة القلاع والحصون ، واعمال الدوريات بين مخفر وآخر . ولكي يجنبوا الجندي اوقات الفراغ ، تفرض عليه القيادة القيام ببعض الاعمال التي لها اتصال بالمنفعة العامة ، كاصلاح مناطق الحدود وتهيئتها ، وشق الطرقات وتعبيدها ، وبناء الجسور والعبارات ، وتشديد الاسوار حول مواقع الدفاع وتحصينها ، وبناء المساكن الخاصة بالادارة ، والمعابد والمسارح والحمامات ، والقناطر لإسالة المياه ، وإبصالها للمعسكرات ، وغير ذلك من المرات . هنالك عدد من وحدات الجيش لها مقالع خاصة لاستخراج حجارة البناء ، ومعامل لصنع القرميد والطوب ، كما يوجد ، تحت تصرفها ، الاحراج والغابات والمناجم ، حيث تعمل فرق مختلطة من الجيش والعمال تحت اشراف ضابط صف، واعمال التعمير والبناء وما تقتضيه من اعمال صيانة وحراسة ومحافظة، اعمال اتقنت الاخذ بها وحدات الجيش في العهد الجمهوري ، ورسخت اصولها ، وتوطدت اساليبها ، في العهد الامبراطوري ، مع قيام الجيش واستقرار نظمه ، وقيام معسكراته ونخباته وحامياته بتعمير المقاطعات المتأخرة عن سواها في رقعة الامبراطورية وتجهيزها بالانشاءات اللازمة . غير ان الرغبة في التوفير والاقتصاد ، من جهة ، والحاجة الملحة للملاكات الفنية والتقنية في المقاطعات النائية عن مراكز الحضارة ، كل ذلك حمل الجيش ، من

جهة اخرى ، على النهوض بمشاريع عمرانية لها ادارتها ودوائرها الخاصة ضمن الجيش .

ولكن هذا الوضع بالذات لم يكن ليخلو من محاذير تلحق بالجندي فتترك اثرها في قدرته الحربية وكفاءته العسكرية . فالأخذ بأسباب المدنية والسير قدماً في معارج التطور ، كانت لا بد من ان يترك اثره بارزاً في نفس الجندي ، مهما بلغ من حرص الامبراطرة للحد من فعل هذا التطور . فبين الانشاءات التي اقامها الجيش في معسكراته ونخباته لتأمين راحة الجندي والترفيه عنه ، والتي تتوفر فيها ، على اقدار وانصبه مختلفة اسباب الطمأنينة ، أين يقع منها النافع اللازم ، وأين يبتدىء الكآلي الزائد ؟ ولذا راح بعض الغيور من المتشددین على الاخلاق يتهمون هذه الانشاءات بتضييع وتحنيت من يجب ان يتحلوا بالقوة والشدة والبأس لمواجهة شطف العيش ، وقسوة الحياة العسكرية ، وإحزن الحرب ومشقاتها . وبعد ، فامتداد الخدمة العسكرية واستمرارها مدة طويلة ، أمر لم يكن ليخلو من المحاذير . فبعد ان كانت مدة الخدمة ١٦ سنة للجنود النظاميين ، و ٢٠ سنة للعاملين في الفرق الاضافية الأخرى ، و ٢٥ سنة لجند القناصة وغيرهم من افراد القوات السيارية ، نرى هذه المدة تختفئ ٤ سنوات ، في عهد اوغسطس وتختفئ لفترات أقصر ايضاً ، في عهد طيباريوس . وكثيراً ما كانت مدة الخدمة العسكرية الفعلية تمتد وتطول اكثر من ذلك بكثير ، إذ ان التسريع من الجيش والصرف من الخدمة ، لا يمان إلا بأمر رسمي ، قد يتأخر صدوره سنة وربما سنتين . وقد يمضي بعضهم في الخدمة ٣٠ سنة وربما اكثر من هذا ، عند تجديدهم لمدة تطوعهم في خدمة العلم . ويروي أحد المؤرخين حادثة جندي قضى في الخدمة العسكرية ٤٠ سنة . ومرد ذلك ، على ما نعتقد ، للصعوبات المالية التي كان يتخبط فيها بيت المال ، فيعجز عن مواجهة ما يترتب عليه من التزامات نقدية وعينية لمن يجري تسريحهم من الجيش . ثم ، فالنظام العسكري الذي كان ساري المفعول ، إذ ذاك ، كان يحظر على الجندي ، عقد زواج شرعي ، كما ان إقامة هذا الجندي مدة طويلة في المعسكر أو الخيم كان مشجعاً له على التسرّي الخفي . وقد انتشرت العادة وعم استعناها بعد ان قام على مقربة من انشاءات الجيش ونخباته ، مبانٍ مدنية عمرها المتجرون مع الجيش والمتعاملون معه ، ومعظمهم من اوساط مشبوهة ، دخل عليهم فيما بعد ، وحلّ بينهم عناصر أقل شبهة . وعلى كثر الايام ومر السنين ، زادت هذه الانشاءات المدنية الى ان أصبحت مدناً وحوضر ذات شأن . من ذلك مثلاً ، مدينة ستراسبورغ ، ومايانس وبون ، وهي مدن نشأت على مقربة من معسكرات الفرق الرومانية الثلاث التي كانت ترابط على خط الرين . وهكذا لم تلبث ان تجسد اسرة الجندي ، وهي قريبة من ربه ومعلمها ، التسيلات المادية اللازمة لها . وتقتض القيادة النظر عن المخالفة في بادئ الأمر ، ثم لا تعدم أن تعترف بالأمر الواقع وتقره ، لما يوفره لها من منافع ولما يجنبها من مصاعب . وعلى هذه الصورة ، تم تحضير البلاد وتدينها ، وأخذت الاقوام المتخلفة من سكانها بأسباب التمدين والتخلص تدريجياً من التأخر الذي كان عليه البرابرة ، فيروح الناس يعمرون الارض ويزرعونها ، فيسهل بالتالي ، على ادارة الجيش ،

توفير المهات والمؤن اللازمة له ، كما ان حركة الاسكان تسهل لها امر المتطوعة ، مادة الجيش وذخره ، اذ يجذبونهم على مقربة من المعسكرات . ولا يمضي كبير وقت حتى ينضم الى هذه المجتمعات البشرية ، المحاربون الذين يسرحون من الجيش بعد انتهاء خدمتهم او انتهاء الحرب ، فتشقطهم الدولة من املاكها الاميرية اراضي ينصرفون لإحيائها واستثمارها . وهكذا يتألف منهم ومن ذراريهم رديف يستعين به الجيش عند الملمات ، لقربه من مراكز الدفاع أولاً ، ولسهولة الاعتماد عليه والاستعانة به ثانياً . ولكن كل معالم هذا التطور الذي يأخذ الجندي الروماني بأسبابه لا يلبث ان يترك اثره الظاهر في كفاءة هذا الجندي ، وخلخلة مؤهلاته من الوجهتين العسكرية والحربية .

وهكذا لا تعم مناطق الحدود ان تتحول الى عالم خاص قائم بذاته ، عليه ان على ضوء المراجعة يؤلف وحدة بل ينصهر في هذا العالم الروماني الذي أنيط به الدفاع عنه والسهل على أمنه وسلامته ، بعد ان أمّن له هذا العالم الموارد اللازمة لأوده وعيشه . فاذا ما استمر يتلقى من روما : حكامه وولاته ، ونظامه والأوامر التي عليه ان يتقيد بها ، فالجانب الأكبر من رجاله ومن قوريداته ، يرد عليه من المؤخرة ، التي تتقلص رقعتها رويداً وتتكمش . وهذا الجيش الذي يربط عند الخط الدائري للامبراطورية ، لا يلبث ان يتطبع بطابع السكان العائشين على مقربة منه ويتخلق باخلاقهم ، وهو طابع يتبدى ، ليس في ما يقوم من فوارق بين الجندي المحترف والمدني المعمر فحسب ، بل ايضاً في ما هو أدهى من هذا بكثير ، في هذا الجهل او نصف الجهل الذي يباعد بين المؤخرة ، اي داخل البلاد ، وبين منطقة الحدود . وعندما تنقل الأزمات الحادة الطارئة الحرب الى داخل البلاد ، الى المؤخرة ، سواء أكانت حرباً اهلية او غزواً خارجياً ، يشعر السكان بصدمة عنيفة ، وبشيء من الهلع عنانما تلبدى لهم حقيقة الجيش الروماني وواقعه .

ومع ذلك فنطقة الحدود تلعب اكثر من دور بارز . فهي تقوم ، بدء ذي بدء ، بدور الدرع الواقي والترس الدافع . فقد رأينا المتاعب التي عانت منها ادارة الجيش في وضع خططها الاستراتيجية وتنفيذها . ومن جهة اخرى ، فمشاهد الحياة العسكرية التي يحدثنها عنها المؤرخون في ما بعد ، تزيد هي الاخرى ، من حدة هذه المتاعب والصعوبات في وجه الجيش وتضطره للمرابطة على الحدود للاقتباس ، في حياته اليومية العادية بما يراه او ينتصب امامه في بيئته المادية والبشرية ، فتضعف منه القوة على الحركة والحفّة في التنقل . وعندما يحول البرابرة الغزاة بضغطهم المتزايد ، طبيعة القتال ، من حرب حركات والتفاف الى حرب دفاع عن المواقع العسكرية ، يذهب ضغطهم هذا بكل العراقيل ويحجر الامبراطورية على ادخال تعديلات اساسية على النظم المتبعة لديها في تعبئة جيشها وتنظيمه . غير ان الحاجة لهذه التغييرات لم تكن استبدت بعد ، في القرن الثاني ، ولا يزال في مقدور القوات ، بالشكل الذي ارتضته لها روما .

ان تقوم بالدور المترتب عليها . والعالم الذي يخضع للسيطرة الرومانية ، يستطيع ان يستمتع بطمأنينة وامن لا مثيل لها على الاطلاق ولا كفاء، من الوجهة المادية والادبية . ففي اي قطر أو صقع من الاقطار والاصقاع الخاضعة لهذه السيطرة قد تحدث بعض الأمور: كثورة عسكرية او انتفاضة محلية يقوم بها سكان هذه او تلك من المقاطعات ، او غزوة من قبل البرابرة الغزاة ، او منافسة بين الزعماء الذين يطمحون الى السلطة العليا . الا انها تبقى احداثاً محلية ، فردية ، استثنائية ، لا غير .

ولكن هذا « السلام الروماني » لم يحمل الى المدنية الرومانية في عهد الامبراطورية الاول ، الخير العميم فحسب ، القائم في تجنيبه البلاد ويلات الحروب ، بل ايضاً ساعد كثيراً على تطويرها من حيث المفهوم العام والمناهج المرسومة لسيرها . وبذلك تسبب في بقاء ما نرى من معالم النظام الاجتماعي ليتلاءم وحاجات الطبقات الهائلة وليزيد من سحر واغراء بعض المنافع والخدمات التي من شأنها اجتذاب الناس نحو المثل الرومانية ، ويساعد على الأخص في جعل التطورات التي تمر بها تؤول لتحسين مناطق الحدود فتبعت فيها الحركة والنشاط عن طريق تشجيع الانتاج ، وتنشيط مرافق التجارة فيها ، وبناء الطرق والمدن ، وتثبيت السكان في المدن والارياف ، ومد الجيش بالعناصر البشرية المخشوشة الطباع والمعروفة بروح المغامرة والتي يمكن ان تتحول الى عناصر شغب وقلق وإزعاج . فاذا بهذه العناصر التي خضعت للانضباط الروماني ، وتأثرت به ، وعاشت في ظله ، وتخلقت بالتالي بالاخلاق الرومانية ، وتطبعت بطباع الرومان ، واخذت أعرافهم ، وثبتت لغتهم ولسانهم ، تباهي وتفاخر بما تم لها من صيرورة ومصير ، وبما عادت عليها خدمتها الطويلة في الجيش ، من وضع جعلها على قدم المساواة مع الرومان انفسهم .

فالجيش الروماني بالمفهوم الذي عرضنا له ، وبالعامل الذي حققه في القرنين الاول والثاني لليلاد، هو اداة طيعة، فعالة لرومنة وليتنة هذا القسم الواقع على اطراف العالم الروماني.

الفصل الثاني

الدولة بين النظر والواقع

الثورة السياسية وطابعها النهائي
في مساء ذلك اليوم من عام ٤٢ ق . م ، الذي فيه انتحر قَتَّة يوليوس قيصر بعد الهزائم الشنعاء المتتالية التي لحقت بهم ، كان النظام الجمهوري في روما يلفظ أنفاسه الأخيرة . فالإصطدام الذي وقع في اكتوبر بين اوكتافيوس وبين خصميه انطونيوس وكليوباترا ، كان لا بد ان يؤدي الى ظهور سيد على روما والعالم الروماني ، اذ لم يكن من المعقول قط ان ينسحب المنتصر ويتوارى متخلياً عما تم له من الامر ، بعد ان قضى على القوى المتمردة ، وعرف كيف يستميل ولاء ما تبقى من جيش منافسه . فالتجرد البشري له حدوده مهما بلغ من بذل الذات . قد يكون اوكتافيوس تلبس بمظهر الزهد في الحكم ، ورغب عن السلطة فراح يضع ، بعد ثلاث سنوات من موقعة اكتوبر الفاصلة ، خلال الجلسة التي عقدتها ندوة الشيوخ في ١٣ كانون الثاني عام ٢٧ ق . م ، مقاليد السلطة بين يدي « مجلس شيوخ الشعب الروماني » بعد ان آلت كلها الى جماع قبضته . إلا انه عرف كذلك كيف يستجيب ، في اليوم ذاته ، للالتباسات والتوسلات التي انهالت عليه من كل فج وصوب وينزل عند رجاء ورغبات الضارعين اليه بالآل يتخلى عن الحكم ، بل يرضى منه ببعض الامر . كذلك لم يكن بُد له ، من الانصياع لقبول لقب : « اوغسطس » هذا الاصطلاح الذي تشده الى كلمة « سلطة » *Auctoritas* ، أكثر من آصرة اشتقاق وجذر ، بحيث راح خلفاؤه من بعده ، يحملون هذا اللقب الشهرة الذي اصبح رمزاً للسلطة التي تسلموها ونهضوا بأعبائها .

وهكذا فالظاهر التي تشددوا باحترامها تبدت مظاهر جمهورية ، وتلبست بالشرعية لينطلي بها الامر على المغفلين الاغرار السذَّج ، بعد ان اخذ النظام الجديد كل سمات وخصائص الملكية وشاراتها المألوفة . وقد اخذت سلطات اوغسطس الامبراطور تتسع وتشتد ، وهو بعد في قيد الحياة ، بعد ان رأى ان الظروف العارضة تسمح له بالكشف عن ورقته ، او ان حادث تسلم السلطة جعل من الحتم عليه ان يقبض على الادارة بيد من حديد .

فقد فعَّل الدهر فعلته . كان لاوغسطس ، عند انتصاره في معركة اكتوبر ، ٣٢ سنة من العمر ، ومات سنة ١٤ لليلاد ، قبل بضعة اسابيع من بلوغه السابعة والسبعين . وهذه الحياة المديدة النادرة يُقضي معظمها في الحكم وعلى رأس الادارة ، ساعدت النظام الجديد الذي أسسه ، على التوطد والرسوخ ، ومكنت له الاسباب المستحكمة ، من الإغراق . قد يكون بعض

خلفائه من بعده، قام هو الآخر بمثل هذه المسرحية التي اجاد تمثيلها في ٢٧ ك ٢٣ (يناير). وقد يكون قام في عهده او بعده، دسائس وفتن رافقتها محاولات قتل كالفتنة التي وضعت حداً لسخافات كاليغولا ومهاتراته، والتي رمى أصحابها منها الى العودة بالحكم الى النظام الجمهوري . فقد ظل في الامبراطورية أناس غاظمهم قيام العهد الجديد، كما بقي في روما خصوم له ألداء، راحوا يترصدون الفرص المسعفة ، والظروف المؤاتية . أفكلم يضطر او غسطس نفسه لحثق بعض المؤامرات في المهد ! ولكن أنتى لكل هذه الألاعيب وما اليها من مكاييد ودس ان تطرح على بساط البحث ، ما تم من هذه المآتي الغر ، والانجازات السياسية التي أتاها على مثل هذا النحو من العظمة، وعلى مثل هذا القدر من المجد المؤتل، لم تلبث ان استحالت حيا لها المقاومة ، اسفاً شديداً واعجاباً، كمال الثناء العاطر لما آتت ألهبت الخيال ونالت تقديس الاجيال . فقد قام ابدأ ، على رأس السلطة « أول » لم تبرز ملامحه وتوضح قبياته الا بقدر ما اراده طبع هذا « الاول » ، وليس القوى المندفعة في خصومته . وعندما قام ، لفترة قصيرة ، على السلطة ، في عهد مارك اوريل ، صاحبان ينتسبانها ، لم تمس ازدواجية الشخصية ، مبدأ الأولية ، حتى في أحلك عهود الامبراطورية ظلمة، يوم راحت تتخبط في فوضى ماحقة . وهكذا وجه او غسطس الحياة السياسية في روما التوجيه الغائبي الفصل ، وراح التطور الذي اخذت سياسة الدولة بأسبابه يُبرز قسما هذا النظام الملكي مع اكتماله .

١ - الامبراطور

قام على رأس النظام الجديد أول أو مقدم *Princeps* ، وهو اصطلاح ارادوا به التعبير عن صاحب السلطان الحقيقي، مع ان ليس في صيغة هذه اللفظة واشتقاقها شيء خاص ينم عن هذا او يشير اليه ، بل كان للكلمة ، على عكس ذلك تماماً ، صلة استعمال في النظام الجمهوري . فقد عرف منذ عهد بعيد ، بين نظم الجمهورية ومراتبها ، وظيفة معينة يُعرف صاحبها بـ « امير مجلس الشيوخ » كانت ميزته الوحيدة ، المبادرة ، قبل غيره من اعضاء مجلس الشيوخ ، الى ابداء الرأي في امر مطروح على النقاش . وعندما يتنزى شق القلم عند شيشرون بهذا التعبير، وهو تعبير كثيراً ما ورد على لسانه ، فكلمة *Princeps* عنده ، انما تدل على الاولوية الادبية في التوجيه المؤثر . فاذا ما ازدادت هذه الاولوية شأنًا لصالح الامبراطور ، فلم يكن هذا سبباً او علة ، بل جاء نتيجة او معلولاً ، للسلطات والصلاحيات التي تمتع بممارستها .

١ - الحكم

اولى هذه السلطات واطرها شأنًا وأبرزها أثرًا هي بالطبع السلطة العسكرية ، التي آلت اليه قانوناً وشرعاً ، ومارسها فعلاً وعملاً . فهي أس هو القائد الاعلى للجيش او أصل السلطة التي يمنحها الشعب ، او بالاحرى ، التي تمنح باسم الشعب ، في بدء كل عهد من عهود السلطة ، ولمدة السلطة ومدى عهدها . وهذه السلطة (*Imperium*)

توصف رسمياً *Proconsulare Majus* أي السلطة البروقنصلية العظمى . وهذا النعت *Proconsulaire* يولي حامله أو صاحبه ، السلطة العليا التي يتمتع بها صاحب الولاية أو حاكمها ، ويمارس بحكم منصبه هذا ، جميع السلطات والصلاحيات التي تمارسها روما نفسها . أما الصفة المشبهة « العظمى » أو الكبرى فلكي يشدد على أن السلطة الممنوحة تبلغ أعلى درجة وأعظمها ، وتعلو فوق سلطة أي حاكم أو قنصل آخر ، مهما بلغ من شأنه .

جاءت الامبراطورية الى الوجود ، واطلقت على العالم الروماني ، نتيجة الإختبار والتجربة وليس نتيجة التجريد والنظر الفلسفيين ؛ استدعى وجودها وطلوعها ، الرغبة الصادقة في قطع الطريق على الحروب الاهلية ، وما تجره في ثنائها ومطاوئها : من شرور وويلات وأهوال ، والرغبة ، من جهة أخرى ، في توفير الطمأنينة والأمن في الداخل والخارج ، للعالم الروماني عن طريق الاحتفاظ بجيوش رومانية جرارة ، كما يشهد على ذلك ، إنتصار أوغسطس في اكتيوم ، والحوادث الدامية التي وقعت عام ٦٨ - ٦٩ بعد الميلاد ، وأسفرت عن تغلب فسبسيانوس وتفوقه على خصومه ومنافسيه . فكان الحل الذي تم على هذا الشكل ، جيء به لاقرار وضع قائم وجدت فيه البلاد ، بعد انتهاء هذه الازمات ، ولتكريس ديمومته ، والإبقاء على زعيم وحيد اوحده ، على رأس الجيش الروماني ، مهما نأت معسكراته ، وتباعدت نخباته وحامياته عن العاصمة روما . فبتسليم السلطة اليه وبالقضاء مقاليد الحكم بين يديه ، تأمنت له اسباب السؤدد والسيادة وسلس له الأمر ولان ، بعد ان يكون صاحب هذا الأمر : إما انه لا يستطيع ، وإما انه لا يرغب في تولي قيادة الجيش . اما كل هؤلاء الذين يمارسون جانباً من قيادة الجيش فيوصفون بكونهم : *Præfectus* ، أي والي أو متولي . وكثيراً ما اطلقوا عليهم وصف *Legatus* أي مندوب أو معتمد . اما الاول من هذه الالقاء ، فكان يحتفظ به ، وفقاً لاعتق التقاليد الرومانية ، لمن يتولى ولايته من الحاكم العام ، وليس من الشعب الروماني نفسه مباشرة . واللقب الثاني أبين مدلولاً ، ووضح معنى اذ يراد به أو يقصد منه : التفويض والاعتماد . فالوالي والمعتمد يستمدان سلطتهما من مشيئة الإمبراطور وأرادته المعبر عنها بقرار أو مرسوم . ولذا فهو يسحبها منها ، متى شاء وكيفما شاء . وكلاهما مسؤول امامه عن امور الوظيفة التي يقومان بهامها ، يؤديان له عنها حساباً ، ويأتمران بأمره وحده دون سواه . هنالك استثناء واحد لا غير على هذه القاعدة العامة الاساسية بدر في مطلع العهد الامبراطوري . وهذا الخروج على القاعدة المذكورة يتمثل في منصب افريقيا المشيخي ، وتحت امره صاحب هذا المنصب فرقة رومانية . وهذا الاستثناء الوحيد الذي جرى إلغائه في عهد كاليغولا ، وانقطع الاخذ به ، واصبح بالتالي ، أمر الفرقة المذكورة ، خاضعاً رأساً للسيد الاول *Princeps* وتابعاً له ، بينما حاكم المقاطعة العسكرية يصبح ، بعد انقطاعه عن الولاية المشيخية القديمة ، حاكم ولاية نوميديا الامبراطورية .

فن نتائج حصر ملء القيادة العليا بصاحب السلطان الاول (الامبراطور) ، أن يُنسب

اليه كل فضل او خير ، او نفع او كسب ، مادياً كانت او سياسياً ، يؤمنه للامبراطورية ، فوز عسكري ونصر حربي ، يؤتاه قائد من قواد الجيش ، حتى في حال بقاء قيادة (*Ductus*) العمليات الحربية الفعلية في ايدي القواد ؛ اذ من المفروض ان يكون الفضل في هذا النصر للامبراطور نفسه ، لانه هو وحده ، له الحق بترؤس حفلات زجر الطير واستطلاع الطلع ، واستخراج الفأل ، والقيام بالمراسم الطقسية التي تسبق المعركة وتتهيء لخوضها . فهو الذي يوحى ، مبدئياً ونظرياً ، البت بالأمور ، والجزم في المعضلات ، لانه هو وحده ، مهبط الوحي والالهام الالهي ، وحامل بركة الآلهة وموضع مسرتها ورضاها . فهو وحده ، ابدأ ، ابو النصر ، وسبب كل ظفر . فكل نصر يؤتاه ، وكل ظفر يناله ، فرصة مناسبة « للتهاف » باسم صاحب الأمر « الامبراطور » . وعلاوة على هذا ، فهو وحده صاحب الحق الاول بترؤس الاحتفالات التقليدية التي تفتتح حفلات الإبتهاج بالنصر ، وهي عادة لم يسجل التاريخ الروماني المديد ، غير عشرة استثناءات لها لا غير ، وقعت كلها في مطلع عهد الامبراطورية ، يقوم فيها احد اعضاء الاسرة المالكة بترؤس هذه الاحتفالات . اما بعد طيباريوس رأساً ، فالقيادة الذين استحقوا شكر الدولة والوطن ، وكانوا في حظوة من البلاط ، لم يكن لترك لهم سوى « الطواف » او الفخر الاصغر ، « بالملابس المظفرة » دون ان يرتفعوا الى درجة الابطال الأول في مثل هذه الحفلات الفخمة . وهذا ما يفسر لنا هذه الارقام التي يباهي اوغسطس بسردها في مذكراته : « امور الحكم » عندما يفخر علانية ، وعلى رؤوس الاشهاد : « وقع علي الاختيار » للطواف مرة ، ولزياح النصر ثلاث مرات ، وأعطيت لقب امبراطور ٢١ مرة ... للانتصارات التي سجلتها في البحر والبر ، انا شخصياً او بواسطة وكلائي ومعتمدي ، وأمر مجلس الشيوخ قيام صلوات شكر عامة للآلهة ، إقراراً برعايتها ، وعرفاناً بجميلها ٥٥ مرة . وهكذا بلغ عدد الأيام التي عيّد فيها الشعب مبتهجاً ، بناءً على اوامر مجلس الشيوخ ٨٩٠ يوماً .

وهذه الفكرة بعينها يعبرون عنها ، بصورة مادية او رمزية ، في سلسلة متصلة الحلقات من الوقائع والاحداث . فالامبراطور وحده يلبس الباليوم (*Paludamentum*) او الرداء الارجواني الخاص بقائد الجيش الاعلى ، إلا انه يجانب لبسه وهو في روما او ايطاليا ، وذلك ، ليس تكريماً منه ، بل خشية من ان يمس مشاعر المواطنين وإحساساتهم . فهو قائد حارب في الصميم ، وقائد دائم ، اينما وجد ، على عكس القواد في العهد القديم ، اذ كانت صلاحياتهم العسكرية محدودة ، تقتصر فقط على زمان ومكان معينين ، فما ان انتهت مهمتهم حتى يلفهم النسيان في المناطق التي تولوا امر القيادة فيها تحت امرة حاكم مندي . ومن حقه ، وهو في روما ، ان تسير في ركابه مفرزة خاصة من الجيش الى جانب الحرس الذي يقوم دوماً بحراسته . فالجيوش تنادي باسمه امبراطوراً ، وتؤدي له القسم المقدس ، قسم الولاء والطاعة ، وبدون موافقة هذه الجيوش وهتافاتها والمناداة باسمه ، فلن يصبح امبراطوراً . فهو الذي يقبل المتطوعة في الجيش ، ويتولى عملية تسريح من يجب تسريحهم من الخدمة العسكرية . وبيت المال الذي

يترتب عليه دفع التعميصات العائدة للمسرّحين، لا يتحرك بدون إشارة منه او كلمة يقولها هو. فهو الذي يهب الاوسمة الحربية لمستحقها، ويُعيّن الضباط، ويقر الترفيعات لذويها. فإليه وحده، يعود تقرير تشكيل الجيوش، وتعبئتها، وبقاؤها ونشاطها.

وهكذا، فالثائد العام هو السيد غير المنازع للقوات العسكرية. وله الرأي الأخير والكلمة الفصل، في كل امر ومشكلة، مهما كانت طرفها الآخر. فعلى أثر الحوادث الدامية التي سببت مقتل كاليغولا، دون فائدة تذكر، والأزمة التي أنشبت اظافرها في البلاد، عام ٦٨ - ٦٩ للميلاد، لم يبق احد ليخضع نفسه. فالسر الحقيقي لهذه السلطة، كما يراه المؤرخ الروماني تاسيت *Tacite*، يكن في تفاني الجنود والملاكات التي تلتظم عقدهم، لمن نادوا باسمه امبراطوراً.

وهذه السلطات والصلاحيات العسكرية التي تمت له وتمتع بها، لا يمكن فصلها سلطاته المدنية او عزها او تجريدتها قط عن الصلاحيات والسلطات المدنية الواسعة، حسبما يدل عليه مدلول كلمة *Imperium* القديم الاستعمال. وهذا المعنى نفسه بدا مع ذلك، غير واف بتأدية المراد، واقتضى، بالتالي، تضمينه عدداً من السلطات والصلاحيات الخاصة جرى استنباطها من لا شيء، او جُردت اعتباطاً من بعض الوظائف والراتب التي لم يمكن ان يستقيم لها كيان او قوام بدونها. وألبست الامبراطور عن طريق العرف وإطلاق العادة، او عن طريق قرارات قانونية سوّغت استعمالها، كالصلاحيات التي نصّت عليها مواد القانون. الذي كرّس فسبسيانوس امبراطوراً، واولاه ما اولى، من سلطات وصلاحيات، وقد حفظ لنا التاريخ نصّ هذا القانون مكتوباً على احدى النقائش. وليس في وسعنا ان نستعرض هنا بالتفصيل والتبسيط الوافين هذه السلطات، فلنتقف عند بعضها هنيهة.

لما كان الامبراطور من طبقة الاشراف *Patriciens* مولداً، في عهد الاسرة «البوليوكودية»، او شرعاً بقوة القانون، فيما بعد، فلا يمكنه، والحالة هذه، ان يصبح تريبوناً *Tribun* يتحدر من طبقة الكادحين او الطبقة الشعبية. وقد رؤي، مع ذلك، ان يُعطى هذا اللقب لاوغسطس وخلفائه من بعده، فتمت لهم، بذلك، السلطات والصلاحيات اللازمة، شرعاً وعرفاً، لهذه الوظيفة *Tribunicia Potestas* التي تُؤتي صاحبها، جميع الحقوق التي تمتع بها الـ *Tribuns* في العهد الجمهوري. فالامبراطور على شاكلة التريبون، شخص مقدّس، مكرّس، لا يمكن هزئ به او سخر منه. وعلى شاكلتهم، له ملء السلطة والحق بأن «يشفع»، أي يعارض كل قرار او مشروع قرار، يتخذ مجلس الشيوخ او الحاكم. وعلى شاكلتهم، يستطيع ان يدعو للاجتماع، اعضاء مجلس الندوة، في الحال، وان يرأس اجتماعات مجالس الهيئات الحكومية، وان يتقدم اليها بما يرى من اقتراحات وتوصيات. فاذا صح النظر، وكانت هذه هي بالذات الامتيازات والصلاحيات التي نعم بها ومارسها تريبون الشعب، فهناك مع ذلك فروق بعيدة

وتباين عميق ، بين ما تم للامبراطور منها وبين هؤلاء التريبيون . فالسلطة التريبونية تُعطى لسنة واحدة ولذا اقتضى تجديدها وإقرارها سنة بعد سنة ، ولو بصورة شكلية . فالصلاحيات التي تخولها لصاحبها ، يُعمل بها وتبقى سارية المفعول ، على بعد ١٠٠٠ خطوة من روما . وإلى هذا قال التريبيون الآخرون ، الذين يجالسهم ويصاحبهم ، ويجلس معهم الى مقعد واحد ، ليسوا طبعاً ، رصفاء له ولا زملاء . فليس في مكنتهم قط ، ولا لهم اجرة ، ان يمارسوا ضده ، حق الرفض او الاعتراض . ولذا كانت السلطة التريبونية من هذه الدعائم الاساسية التي قامت عليها سلطة الامبراطور وصلاحياته الواسعة

ومع ان الامبراطور ليس من فئة التريبيون ، فهو لا يتنزل ليمارس اية وظيفة من الوظائف الخاصة بمحكمة البلدية . ومع ذلك فقد ألغى الامبراطور قبضته الشديدة على شرطة المدينة وعهد بها الى موظف ينعم برعايته ، يستطيع هو ، متى شاء ، عزله وطرده . كذلك عهد الى احد خاصته ، بمهمة تأمين وسائل الاعاشة لروما وسكانها ، وهي وظيفة أُلقيت مقاليدها بين يديه . وحرص على ان يحتفظ بها ويؤتمن مهامها بعد ان تم له من الامر والسيطرة المطلقة على مصر ، اخصب اهراء روما واغناها على الاطلاق . فنهض بأعباء مهمته هذه ، على احسن وجه ، بعد ان استتب الامن في البلاد وتقلص خطر القرصنة في البحر .

وحرص الامبراطور على ألا يُهمل مبدئياً ، او يسخر ، او يُغفل او يلتقص من صلاحيات اية وظيفة من الوظائف العليا المعترف له بها شرعاً وقانوناً . ومه جداً ان يقوم بها وفقاً للتقاليد المرعية ، اي بالاستعانة بأحد الزملاء له في هذه الوظيفة . وكان باستطاعته ان يردد ما كان يردده اوغسطس حين يقول : «لم يكن لي من الصلاحيات أكثر مما لزملائي في الوظيفة الفلانية» . ولكن ما عسى ان يستطيعه زميل له ، وللامبراطور مثل هذه الصلاحيات ، ومثل هذه القوة والسطوة ؟

وتطل علينا ، من وقت لآخر ، في القرن الاول ، وظيفة *Censure* وصاحب هذه الوظيفة (*Censor*) هو القيم على النظام الاجتماعي في المدينة . وهي وظيفة كانت دوماً من وظائف الرجل «الاول» في الدولة ، إلا مرة واحدة جاءت ضد اوغسطس نفسه . وقد اتفق مرة ان قرر الامبراطور دوميتيانوس الاحتفاظ بهذه الوظيفة ١٨ شهراً أي أطول من المدة المعينة لها قانوناً ، فأصدر قانوناً اصبح معه *Censor Perpetuus* ، أي «سنسور» الى الابد . ولم تلبث هذه الوظيفة ان تنوسي امرها ، فزالت الى الابد . وقد استطاع الامبراطورة ، بها او بدونها ، ان يراقبوا بعين يقظة ، النظام الاجتماعي والتسلسل الطبقي عن كثب ، فرفعوا الى طبقة الفرسان *Chevalier* او الى مرتبة الشيوخ ، من شاؤوا من الناس ، دونما رقيب او حسيب وأنعموا بمرتبة *Patriciat* على من شاؤوا من افراد الاسر الرومانية .

اما وظيفة القنصلية ، فهم يتقلدونها كلما رغبوا فيها ، ومالوا اليها . ولذا نرى الامبراطورة

يعينون لها ، عدة مرات ، طيلة حكمهم ، ويقبضون عليها كلما تم لهم الامر . فالبعض منهم تولاه بصورة آلية في غرة كانون الثاني او (يناير) . فالقنصليات التي هي من هذا النوع ، ملؤها الفخار ، لان السنة تعرف اذ ذاك باسم القنصل . فمن اصل عشر سنوات ، فات فسبسيانوس منها القلب مرتين ، وابنه تيطس ثلاث مرات . وعلى كل ، فلا نعرف احداً تولى هذا المنصب في حياته ، اكثر مما تولاه الامبراطور اوغسطس .

ومها يكن من شأن هذه الوظائف والرتب ، وضعية كانت ام رفيعة ، ومن النفوذ الذي توليه صاحبها ، فسيان لدى الامبراطور اسقاطها واهمالها بالكلية او التمرس بصلاحياتها بصورة رسمية قانونية . فبفضل النصوص القانونية ، وبماله من قوة النفوذ ، فالامبراطور وحده يعين اصحاب هذه المراتب ، اما رأساً او يوحي بتعيينهم او يسمح لهم بتقديم ترشيحهم لها . فليس من امل قط ان تؤول احداها الى عدو له ، او شخص تحوم حوله الشكوك والظنون . وليس لاي من هذه الوظائف ، اي مدلول سياسي حقيقي ، فهي تليح لحاملها او لصاحبها بالاكتر مناسبات الظهور امام الحاكم في الحفلات العامة وتلفت اليه النظر ، كما تليح له ، في افضل الحالات واحسنها ، ان يكون موضوع تكريم ، مكافأة له على خدمة اتاه . وعلاوة على ذلك ، له الحق الكامل بانشاء وظائف شرفية ، تمكنه من تعديل سلم المراتب المعمول بها في ترفيعهم ، ويُقحمهم في طبقة حاملي عضوية مجلس الشيوخ وفي المرتبة التي يحاول تعيينهم فيها .

هذه الامثلة ترينا ولا شك ، مدى الصلاحيات المدنية المضافة الى صلاحياته او السلطات العسكرية الأساسية التي يتمتع بها . في وسعنا ان نقضي قدماً في مثل هذا العرض ، ونجري مثل هذا التحليل على مجالات اخرى من مجالات الادارة العامة في الامبراطورية ، ولا سيما في حقل السلطة التشريعية او السلطة القضائية ، فننتهي معها الى النتائج ذاتها . فالسلطة التي تمتع بها الامبراطور دوماً ، كانت سلطة مطلقة لا حد لها . فبعد ان كانت هذه السلطة ، في بادىء الامر ، ضمنية ، مستترة ، اذ بها تبرز وتتفتح بشكل اوضح ، في القرن الثاني . فعندما يكتب الفقيه الروماني اولبيانوس ، في مطلع القرن الثالث : « ان الشعب يولي الامبراطور جماع السلطة Imperium التي له ، كما يولي كل سلطان Auctoritas » فهو انما يعترف ويؤكد النتائج التي آل اليها التطور الذي خضع له الحكم في العهد السابق .

منذ البدء ، نرى اوغسطس يضيف شيئاً جديداً على جماع السلطات التي السلطة Auctoritas تمت له واستقرت في قبضة يده . فقد رأينا عندما قرأنا العبارة التي وردت في : « امور الحكم » ، كيف انه كان يدعي بأنه لم ينعم من السلطة ما جعله يتقدم به على رُصفائه ، في أي من « الوظائف والمناصب التي صارت اليه » . وقد قال بعكس ذلك تماماً في الفقرة السابقة لها ، كما يعترف ، هو نفسه ، عندما يقول : « فقد نَوّفت في السلطة على الجميع » أي على جميع الموظفين . فليس في التصريحين المذكورين أي تناقض كما يبدو لأول وهلة ، لأن كلا منها يُنَاطَر ناحية خاصة .

فالأصطلاح الإداري *Auctoritas* له مدلول فقهي ودستوري ، اذ ينظر الى صلاحيات الوظائف واختصاصات كل منها والتدابير الصادرة عنها . غير ان لهذا المصطلح اللاتيني من غموض المعنى وقلق المدلول ، ما لا نرى معه أي نص في القانوني الروماني يوضحه او يزيل منه ما يحيف به من إشكال : فهو يوحى معنى سلطة ادبية مشوبة بسلطة دينية . وهذه السلطة يستمدّها أوغسطس من مجموع ما تم له من صلاحيات واختصاصات ، نالها شرعاً وقانوناً ، لا ندرى انها توفرت لأحد غيره من قبل ، عرف كيف ينتسبها ويصيرها اليه بعد ان تظاهر ، في بدء الامر ، بالإعراض عنها والزهد فيها . وهذه السلطة أتته صاغرة بعد ان فاضت خواطر الناس وأحاديثهم بالخدمات الجلى والمآتي العظام التي أداها للبلاد ، كما أتته من إعجاب الشعب وتعلقه به وعرفانه لكبير جميله وتقديره السامي له . كل هذا جعل منه الرجل الاول - الامير (*Le Princeps*) ليس بين اعضاء مجلس الندوة فحسب ، بل ايضاً بين جميع المواطنين . وهكذا نرى أوغسطس يقطع بصورة جازمة ، ويفصل بلا لبس ولا غموض ، ويحدد المضامين والمدلولات التي تمر تحت كلمة امبراطور ، وهي مفاهيم تتجاوز كثيراً ، كما سنتحقق ، فيما بعد ، الإطار الفقهي للكلمة . ومع ان خلفاء من الامبراطرة لم يحظوا بشيء ، من هذا الماضي الثري الذي تم له ، فهم يستمسون بهذه الكلمة ويشدون عليها بالنواجذ .

وهذا الإيهام الشامل ، والغموض يغلف كذلك ويلف « قانون الجلالة »
 صاحب الجلالة
 الذي جرى تطبيقه ، منذ عهد أوغسطس ، لصالح الامبراطور ، كما نرى
 في حمى القانون
 بعض الامبراطرة بعده ، ولا سيما طيباريوس ، يحرصون على تطبيقه بمخاضه .
 فنحن امام قانون مسنون قائم . ولذا لا بد لموضوع هذا القانون ، وهو افراغ « الشعب الروماني »
 في شخص الامبراطور ، وتجسده فيه ، ان يتم ، ولو شكلياً ، بطريقة شرعية قانونية . فامر تقويض
 السلطة الذي يجعل من الشخص الاول الممثل الحقيقي للشعب الروماني ، هو كنه هذه السلطة
 وجوهرها وصلبها . ومن ثم ، فصلاحيات التربيون التي حملها وتمتع بها ، كان لها هي الاخرى ولا
 شك ، اثرها العميق في جوامع هذه السلطة ، اذ تجعل من الشخص الاول ، الممثل المكرس ،
 المقدس ، للطبقة الكادحة *Plèbe* والوريث الادبي لوظيفة استخدمت في الماضي ما لها من
 صلاحيات واسعة ، للوقوف في وجه اعداء هذه الطبقة الكادحة المتقمصة في الشعب الروماني .

وهذا القانون الذي اورثته الجمهورية كان يعاقب بشدة وبلا رحمة ، كل من تجرأ على النيل من « جلالة » الشعب الروماني . وهذا المصطلح له من الطواعية والمرونة ما يجعل منه اداة رهيبه في يد الامبراطرة الذين تتناهم وسوس الظنون والشكوك . فكل مخالفة او عبث لتقسيم « اداء الامبراطور » والاخلال بواجب الاحترام ليس نحو شخصه فحسب ، بل ايضاً نحو تمثاله ، وابداء أي رأي معارض ينتقص من ارادة الامبراطور ومشيتته ، من قريب او بعيد ، كل ذلك اسباب كافية للاحقة المتجنين قضائياً ، والحكم عليهم بالموت في اكثر الأحيان . ولذا تكاثرت عدد السعاة والوشاة والعيون ، وراحوا يأخذون في غيرة آكلة ، الناس في الظنة ، ويرسلونهم امام

المحاكم ، طمعاً في حظوة صاحب السلطان ، او في المكافآت التي تعود عليهم بحسب القانون ، من مصادرة ثروات المتهمين .

وهكذا ، فالقانون الذي كان يراد به الحفاظ على « ذات الجلالة » والتسييج حوله ، استحال ، في بعض العهود ، سيفاً مصلتاً فوق الرؤوس ، ينزل الرعب والهلع في الطبقة المشيخية ، حيث يقوم المعارضون ويعتصمون ، في القرن الاول ، اذ كان معظم من راحوا ضحية هذا القانون من اعضاء هذه الطبقة . ولما كان اعضاء الندوة يقومون هم انفسهم بالمحاكمات والنظر في قضايا ذات الجلالة ، فكم رأينا اعضاء هذه الهيئة ينحدرون الى ادنى دركات الجبن والخنوع في تنفيذ رغائب الامبراطور وتصفية من تحوم حولهم الشكوك ، الأمر الذي غذى الحقد والبغضاء في قلوب الناس ، ضد هذه الطبقة ، كما يشهد على ذلك ، أدب ذلك العصر . فاذا كان من المتعذر علينا ان نعرف اليوم الحقيقة كاملة حول أكثر من قضية من هذه القضايا ضد ذات الجلالة ، فالقانون المذكور كان ، ولا راء في ذلك ، خير عدة واداة ، وخير مسعف لتأييد سيادة الامبراطور وسلطاته .

٢ - الرجل الذي أعدته العناية الالهية

ولكن هذه الامبراطورية الملكية لا تقنع بجمع السلطة في قبضتها ، ولا يكفيها ان يسير القانون صاغراً في خدمتها : فهي تدرك اكثر من سواها ، ما في هذا وذاك ، من وهن وضعف لما يتعرضان له من قلب ونحو وتغير . فاذا كانت فيها ما يرضي او يقنع ملكاً لا يقيم وزناً لنوازع الروح ، فالواقعية الجامدة ، تبدو جافة في نظر مواطنين تتطلع نفوسهم الى المثل الروحية ، بعد ان صقلتها الحضارة الهلينية . ولذا راحوا يحيطون الملكية بهالة من الرمزية الروحانية ، من الخير والمفيد لنا معاً أن نتعرف الى قسماها البارزة . كذلك من اللائق ان نشير هنا بوضوح الى ما كان لهذه الهالة من وقع عميق وتأثير عملي . وبالطبع يجب الا يخامرنا الشك قط انها تطورت ، ودخل على الفكرة الاساسية ، مع الامبراطورية الذين تعاقبوا على الحكم ، والأجيال التي عاصرتهم ، تغييرات اقتضتها موجبات الزمان والمكان . فكل نص قانوني ، وكل رمز من هذه الرموز التي احاقت بالامبراطور ، يؤلف حادثاً متميزاً عن غيره ، يتعذر على المؤرخ تقويمه وفقاً للمقاييس العلمية المعمول بها .

الهالة الروحية
التي تجلج الامبراطورية ؛
تطورها ومتابعها

كان اوغسطس الرائد الاول في هذا المجال ، وأول من نسج على المنوال . فكل شيء حوله يبسط الأمور . من ذلك مثلاً ، الجليل الذي يرعاه له الجميع من دواني الامبراطورية الى اقاصيها ، عندما اعاد اليهم السلام والطمأنينة بعد ان اکتووا بلظى حروب اهلية ضروس لا تبقي ولا تذر ، فاؤوا بكل كلها وتضرسوا بذيولاتها ؛ وهذه الوحدة العميقة الجذور التي حققها فلتت الشعث ، وجبرت العظيم المهبط ، وهذه الامبراطورية التي شيدتها فبرهنت ولاياتها الشرقية ، خلال هذه

الحروب ، عما تجيش به من حيوية عارمة ، مادية وأدبية على السواء . فالتجربة التي قام بها تباعاً ، قيصر ثم انطونيوس بعده ، اوضحت له الاخطار التي تكن وراء نقل فلسفات الشرق ونظرياته الى روما ، نقلاً حرفياً مادياً . من المستحيل ألا تظهر اعجابنا هنا ، كما اظهرناه من قبل امام مرأى البناء السياسي المشمخر الذي شيده ، بهذه الرويّة والفطنة والتحفّظ يديها في اقتباس بعض هذه المستوردات الأجنبية الصنع ، معرضاً عما جاء في غير اوانه ، مسقطاً منها ما لا يصلح للاستعمال في روما . كل هذه الحيلة حملت الناس على الشك في إخلاصه . فقد برهن عن كفاءة ، ولربما عن تحيّل ايضاً ، وبكل تأكيد ، عن شعور حاد بالممكن الحدوث او الوقوع . ولكن ، مع هذا علينا الانسقط من حسابنا ما كان عليه من روح تقوية ، صحيحة ، حملته احياناً على الاستسلام للخرافات والالوهام ، واثارت فيه التشكك كغيره من الناس .

ومهما يكن ، فقد ترك لنا ، لدى وفاته ، تراثاً ادبياً له من وفرة الغنى ما نعجز معه عن الإحاطة به . وتم له من الألقاب والرتب ما لم يتوفر مثله لاي من خلفائه . والقسم الاوفر من هذه التركة التي خلفها بعده ، لم يلبث ان ردها الناس الى فضل الوظيفة التي تمت له ، بمزل عن الرجل . غير ان تطور هذه الهالة الرومانية التي جلبت الامبراطور ، ثم وئيداً ، وبتمهل ، بخلاف التطور السريع الذي رافق السلطة السياسية . وقد راح بعض الامبراطورة : امثال كاليغولا ودوميتيانوس وكومود يستعجلونها ، بينما سار فيها البعض الآخر الهويناء ، ان لم نقل القهقري . وبمجل القول ، ففي الحين الذي تبلغ فيه الاسرة الانطونية أوجها ، في القرن الثاني ، وتزداد فيه سلطة الامبراطور قوة ، وفعلية ، لم نلاحظ قط ان هذه الهالة اتسعت وتضخمت . عما كانت عليه في عهد اوغسطس . فعلى ان تنتظر الحقبة التالية وبروز فعل المؤثرات الشرقية لئرى تغييراً ملحوظاً يطرأ على هذا الوضع .

ففي عهد اوغسطس نفسه ، كان تأثير العامل الهليني واقعاً متحيزاً لا داع لوجه الغرابة فيه . فمن بين البلدان المتمدينة الاكثر اتصالاً بروما ، هذا الشرق الذي عرف ضروباً من الملكية المنبثقة من انتفاضات عسكرية اخذت بتلايينه منذ فتوحات الاسكندر ، وخضعت لعوامل التطور والتكامل ، حتى بلغت تمامها ، اقله من الوجهة النظرية . وباستطاعة هذا الشرق وحده ان يقدم سوابق يمكن تطبيقها والنسج على منوالها بصورة فعلية ، بحيث ان كل ما أنتجته هذه السوابق من انجازات فنية ، وآثار فكرية ، ونظريات فلسفية ، عاد عليها بتأثير عظيم ، سواء أ سقطت هذه الممالك تحت هجمات الجيوش الرومانية المتتالية ، ام انها راحت فريسة الفوضى ، فتداعت للخراب ، وزالت من الوجود ، دون ان ينتقص ذلك من سناء البنيان الفكري الذي شيده . ومع ذلك ، فقد كان على النظام الملكي الذي اطل من جديد على روما ان يحسب حساباً لتقاليد روما ، هذه التقاليد التي في السير عليها والاخذ بها ، فخر له وحافز للمباهاة . فمن الطبيعي ، والحالة هذه ، ألا يهمل العناصر المستمدة من اعماق التقاليد الرومانية التي منها استقى سيلاً من قبل ، وعنها اخذ قيصر من بعد ، ومنها اغترف اوغسطس وعنها صدر .

وكثيراً ما ظهر في آخر الامر، ان هذه العناصر المتباينة المنشأ والاصل، بين شرقي وبين روماني قومي محض، التي كونت هذه الهالة، قام بينها أكثر من شبه وبجائسة ساعدت على انصهارها معاً وذوبانها بعضاً ببعض في لفة وانسجام.

وهكذا نرى انفسنا امام فلسفة متنوعة العناصر يحاول المؤرخون اليوم جاهدين، منذ أكثر من ثلاثين سنة، تعيين وتحديد منشأ كل من هذه العناصر المقومة، وتحديد قدر كل واحد منها، وكيفية تفاعلها بعضاً ببعض، وأهمية الدور الذي لعبه كل واحد منها. وامام هذا الضجيج المتصاعد من هذا الجدال العلمي المحتدم، نرى، مرة اخرى، ان من المستحيل ألا تقتصر إلا على بعض امثلة لا غير.

بين هذه العناصر، عنصر روماني الاصل، يعبر عن تقليد مكروس، يرى في الامبراطور الحبر الاعظم او الكاهن الاعظم. فقد حرص اوغسطس الحرص كله، وهمه كثيراً ألا يُهمل او ينتقص قط، من قيمة هذه الوظيفة التي تلازمه مدى الحياة. فلم ينتزعه عنوة من صنوه ومنافسه لبيدس، بل لبث طويلاً ينتظر وفاته عام ١٢ ق.م، ليطالب به وينتسبه لنفسه. وحرص خلفاء اوغسطس من بعده، على التمتع بهذه الرتبة والوظيفة عند اعتلائهم أريكة العرش. فالجبرية العظمى تولى حاملها وصاحبها سلطات دينية غاية في الأهمية. وقد أعطى اوغسطس المثل في ممارسته لمهام هذه الوظيفة بدقة واهتمام زائدين، وهو مثل حرص خلفاؤه من بعده، على احتذائه واقتفاء اثره.

والى هذا، فالامبراطور عضو بارز في مجمع كبار الكهنة والاحبار، بحيث يراقب عن كثب نشاطهم ويهيمن على انتقائهم واصطفائهم وتعيينهم في مراكزهم. ومن بين هذه الرتب الكهنوتية، رتبة يباهي بالانتساب اليها والنهوض بأعبائها، كما يستدل جيداً من الانواط والميداليات التي تحمل صورته. وهذه الرتبة هي رتبة العراف او العائف، وذلك بالنظر للدور الذي يلعبه هؤلاء الكهان في الكشف عن الفأل واستطلاع الطالع. وقد رمزوا الى هذه الرتبة بالعصا المعقوفة المعروفة عندهم باسم *Lituo* التي اصبحت، فيما بعد، من الشارات المميزة للامبراطورية.

وهكذا يبرز الامبراطور على رأس الحياة الدينية ويطل رئيساً لجميع الاحبار، ويصبح بالتالي، الوسيط بين الدولة والآلهة. فالواجبات والحقوق التي تخوله اياها رتبة الكهنوت، تزيد كثيراً من شأن السلطات والصلاحيات التي يتولاها رأس الادارة و«الاول» في الدولة. فهو يرأس شخصياً أهم الاحتفالات الدينية ويضفي حضوره على أبسط الاعمال وأقفلها مهابة الطقوس الدينية ومراسمها. فهو المسؤول الاول عن بناء المعابد والهياكل، وعن صيانتها وتأثيثها وحفظها. وموجز القول، فالاسم الذي يحمله «اوغسطس»، مشتق من أقدم المرامم الدينية واعرقها اصطلاحاً عندهم، هي رتبة العرافة *Augure*، وهي رتبة تضفي عليه شيئاً من الجلال وتحلبه بهالة من التقوى والخشوع بما لهذه الكلمة في مفهومها الحديث من قوة المعنى، بينما الكلمة اللاتينية *Pietas* لها

مدلول أعم واوسع . وبهذه الصفة يستمطر على الشعب الروماني عطف الآلهة ، ويستمد منها الرعاية والهداية . فالتعدي ، والحالة هذه ، على سلطته أو مس شخصه ، هو التجني بالذات على الدين وعلى روح الانضباط الذي يمثله في المجتمع .

وهذه الآلهة التي تحرس الامبراطور وترعاه في حله وترحاله ، تظهر هالة النصر الامبراطوري عطفها وحدها عليه بما يؤثاه ، على يدها ، من نصر مبين وتوفيق عظيم ، في جميع اعماله الحربية . فكل المظاهر الحربية التي تلازمه كقائد أعلى للجيش ، يجب ان تحمل عميقاً ، طابع الهالة الدينية . فالفازيولوس في بيزنطية ، مثله مثل الامبراطور في روما ، مدين بما يصيب من فوز مبين في ساحات الوغى ومن نصر في الحروب ، لفعل الآلهة وهديها . وهكذا تلتقي هنا ، مرة أخرى الايديولوجيا الملكية التي انطلقت من فتح الاسكندر ، بالنظريات الرومانية القديمة ، فيتأزجان وينصهران معاً . وهكذا نرى الايديولوجيا تؤيد الى حد بعيد ، هذه التقاليد وتقويها ، وإلا ، تعذر علينا ان ندرك كيف ان ، على شاكلة كلمة *Basileus* ، تصبح كلمة *Imperator* ، لدى قبصر اولاً ، ومن ثم لدى اوغسطس ثم بسرعة ، لجميع خلفائه ، اللقب الرسمي الذي يرد قبل كل الالقاب والرتب والكنى التي يحملها الامبراطور . وعلى هذا تصبح كلمة امبراطور مرادفاً لكلمة المظفر أو المنتصر ، والمؤهل من قبل الآلهة والمصطفى ، بحيث راحوا يُضيفون صفة الالهية ، على نصر اوغسطس ، فيقولون : *Victoria Augusti* ، كما راحوا يرفعون هذا الرسم : النصر المجنح ، على المباني الرسمية وأثبتوه على العملة والنقد . وفي عهد الاسرة «اليوليو كلودية» ، كل شيء كان يدل على ان هذه الإلهة هي بالفعل ، الإلهة ذاتها التي رعت مؤسس الاسرة ذاته ، أي اوغسطس المظفر ، ومن ثم راح هذا المؤله ينتقل من امبراطور آخر ، غلداً رسم اوغسطس الحي الدائم .

ثم تطور الامر بحيث راحوا يُفردون ، أكثر فأكثر ، هذه الإلهة . فاستنبطوا وتضرعوا وشكروا *Victoria parthica* ، وطوروا *Britannica* ، وحيناً *Germanica* أي الإلهة التي بفضلها ، تمت الغلبة على الفارثيين والبريطانيين والجرمانيين . ثم تطل علينا فكرة جديدة تُعمل بها ، بكل تحفظ وحيطه ، منذ العهد الجمهوري ، قامت بتسمية ابن الملك أو ولي عهده ، باسم العدو المغلوب على امره . واول حادثة نشاهدها من هذا النوع تعود الى عهد اوغسطس نفسه ، اذ لقب ربييه دروسوس بلقب جرمانيكوس . ولم يمضِ كبير وقت حتى تركزت العادة في الامبراطور نفسه . وتقادياً للادمان الناجم عن العادة المتكررة ، تتكاثر الالقاب والكنى وتضاف اليها نعوت وأوصاف تزيد من قوة ومعنى . فالامبراطور مارك اوريل لا يلبث ان يلقب بـ : صاحب الارمن أو صاحب الفارثيين العظيم ، بينما الامبراطور تراجانوس لم يلقب إلا *Parthicus* لا غير ، كما عُرف ايضاً بـ : صاحب الماديين ، وصاحب الجرمانيين ، وصاحب السرماتيين . وهذه الالقاب ، مثلها مثل قطع النقد الرومانية الحاملة صورة الامبراطور متوجاً بالنصر أو الحاملة لرسوم أسرى حرب سجدة ، اشارة للبلدان التي اخضعتها الجيوش الرومانية ، انما يراد منها أكثر من مجد باطل لا طائل تحته . فهي ترمز الى

الشراكة التي لا انفصام ، لها بفضل القوة الإلهية ، هذه الشراكة المؤلفة من الامبراطور ، ومن الظفر عربون السلام على الارض .

كثيراً ما تغني الشعراء « بفضائل » ملوك الإغريق وبعطفهم ، ولذا الفضائل الامبراطورية راحوا يضيفون عليهم القاباً وكفى منها : المنقذ او المحلّص . ولم تلبث هذه الالقاب ان انتقلت بعد ان تحولت قليلاً ، الى شخص الامبراطور . فقيام صاحب الأمر في روما هو عربون سعادتها ، ومنتهى الإسعاد ، كما يقول هوراثيوس في خطبة له القاها مرحباً بعودة اوغسطس بعد غياب طال أمده : « فعندما تطل بطلعتك البهية على الشعب ، تستحيل ايامه بهجة ، بسامة ، كأيام الربيع الضاحك والشمس في رآد الضحى » . قمع اوغسطس نرى رواج الصرح الامبراطوري مزيناً بالغار يعلوه اكليل من خشب السنديان ، هو « الاكليل الشعبي » الذي يقدمه المواطنون لمُنقذهم . فالامبراطور ، هو بالفعل ، منقذ الدولة ، كما هو منقذ الرومان ، هو *Conservator* او *Servator* ، بل هو اكثر من ذلك ، هو مخلص المجلس البشري بأسره . فالحلاص او الفداء الذي بذله ، يبرر الى حد بعيد ، لقبه : باني الوطن ، هذا اللقب الذي اصبح من ألصق القاب الامبراطور . ففيه هو اجتماع مجلس الندوة الروماني في روما ، كان يرى ، على مقربة من مذبح إله النصر ، ترس مذهب نقش تحته ما يشير الى انه مقدمة من مجلس الشيوخ والشعب لاوغسطس اعترافاً بما يتحلى به من فضل ، وحلم ، ومن عدل ، ومن تقى . وكان بقطع النقد الروماني ، في عهد اوغسطس ، سبحة لا تنتهي ، تقص على الناس في تداولهم لها ، هذه الفضائل الاساسية التي تحلى بها ، كما انها تحاول ان تحيى ، بما تحمل من اشارات ورموز ، مناقب الامبراطور ، ولا سيما الشعار الآخر الذي تحمله ويرمز للعناية الالهية تنويعاً بالحيثيات التي اسبغها ، والمنافع التي افرغها على الشعب الروماني والامبراطورية الرومانية : رمز السلام على الأرض ، والإسعاد لبني البشر .

وهذه الايديولوجيا الامبراطورية ، وما فيها من مفهوم ومدلول ، تفيض بالطبع ، ببعض الألفاظ والتعابير الرومانية الاصل والطابع . فاذا ما شاعت وذاعت بالسرعة التي نرى ، فالفضل في ذلك ، للسوابق الهلينية التي اعتمدتها . فليس من المستغرب قط والحالة هذه ، ان نشهد عبادة الامبراطور تنطق بفكرة الرسالة او الدعوة الالهية التي تمت على يد شخص هو فوق البشر ، فتتلور معالمها في ما رأينا من هذه المظاهر على اختلاف نواحيها .

متشابهون وليسوا انداداً اكفاء . أوتي اوغسطس من الفطنة ما صانه من عبادة الامبراطور الانزلاق الى مبالغات قيصر وقطره في روما ، ولا سيما من سفاهات انطونيوس وخطئه في الاسكندرية . من يستطيع غيره ، باستثناء من اصابوا بمس في عقولهم او دخل على نفوسهم ، ان يطلب لنفسه المجد والتكريم الذي ليس فيه ما يؤهله له ؟ فباستثناء بعض حالات شاذة ، غاية في الندرة ، ليس من يندفع في شهوة الشهرة بحيث يطلب لنفسه التأليه

الكامل او المطلق ويُعترف له بذلك رسمياً . يكفي الانسان ويرضيه ان يقترب او يدنو من الالهية ، او يبلغ منها نصف المرتبة او درجة وسطى فيها . وهذا التحفظ يبدو واضحاً جلياً في بادئ الأمر ، من خلال الحرية المتروكة للمباديات المحلية او الفردية ، والتي يُفترض فيها ان تأتي عفوية تلقائية ، او عن طريق براعة الطلب واستدراج العرض ، بضغط من الهيئات الادارية الحاكمة . وكلها حالات تتبلور عملياً عن صور واشكال متباينة . فالتعميم لا يأتي الا بعد حين ، وبصورة تدريجية ، وعلى مراحل . وعهد فسبسيانوس الذي اطل على البلاد عام ٦٩/٦٨ بمثابة مولد ثان او جديد للامبراطورية ، يعتبر مرحلة حاسمة من مراحل التطور الذي مرت به هذه الفكرة ، مم بقاءها غير مكتملة ولا مستجعة لكل شرائطها . ولكن خلافاً للعرف المعمول به لدى بعض الممالك الهلينية ، فالامبراطور هو موضوع عبادة ، وهو في قيد الحياة ، تقدمها له هيئة عامة : كالدولة او الولاية او المدينة ، بصورة عادية وبصفته فرداً .

فالدولة ترفع له تكريماً إلهياً وتجعل من بعض ذكرياته الخاصة اعياداً وطنية عمومية ، فتطلق مثلاً على الشهر الذي ولد فيه قيصر باسم « يوليو » ، كما تطلق على الشهر الذي نال فيه اوغسطس القنصلية لأول مرة ، وفيه سجل اكبر انتصاراته الحربية : اسم اوغسطس . ودرج الناس على استعمال هذه التسميات المصطلحة حتى يومنا هذا . والحلف او القسم باسم الامبراطور ، هو شيء مقبول جائز ، كما ان رسومه وصوره هي من المقدسات . وراحت الحكومة تشرك عبادة جن اوغسطس او نبوغه بالتكريم الذي كانت احياء روما ، تقدمه للارواح المشرفة على مفارق الطرق او تقاطع الطرق ، فتصبح في الاصطلاح العام : الالهة الاوغسطية . فالمعجم الهليني غني بمثل هذه التسميات . فاستمدوا منه اسماء الاشهر ، والقسم مثلاً . هنالك اكثر من شبه بين الجن *Genie* ، وبين تيخه *Tyché* . فالقدرة على الابداع لا تنضب .

ويتمتع الافراد ، في هذا المجال بحرية اكبر وأوسع . هنالك إهداءات وتقادم مؤثرة للغاية تشرك رأساً او مداورة ، اسم الامبراطور او احد افراد الاسرة المالكة ، بشق اسماء الآلهة ، فنشأ في معظم المدن جمعيات تحتفل بهذه العبادة وتقيم لها المراسم والاعياد ، وتقدم الذبائح والقربان على شرفها . وتنظر السلطات الادارية الى هذه المواسم التذكارية بعين الرضى . وهي تتدخل لتنظيمها . وبعد ان كانت هذه الهيئات تحمل في الشق اسماء شتى ، نراها على عكس ذلك ، في الغرب اللاتيني ، اكثر انسجاماً وانضباطاً ؛ من هذه الهيئات مثلاً هيئة الرجال الستة ، التي ما ان تلتهي مدتها القانونية حتى تتحول الى جمعية او شركة حقيقية .

ففي هذه الهيئات التي نوهنا بها ، ومن بينها *Seviri* ، يهيمن اسم واحد هو اسم اوغسطس الذي يتغير مدلوله ومفهومه مع تعاقب الايام والازمان . « فأوغسطس » انما يشير في اول الامر ، الى مؤسس لامبراطورية وموطد اركانها : فطالما هو في قيد الحياة ، فاللفظ انما يشير الى فرد معين ، واليه تتجه ، بالطبع ، كل عبارات التكريم والتبجيل والعبادة . ثم يصبح الاسم لقباً او كنية ، يحرص على حمله كل خلفائه من بعده . واذا ذاك تفقد مظاهر التكريم والتقديس طابعها

الفردى او الشخصى ، وتتجه بالأكثر ، الى الرتبة والوظيفة أكثر منها الى حامل اللقب . وهذا التحول نلاحظه كذلك ، يطرأ على عبادة « روما اوغسطس » التي انتشرت كثيراً خارج ايطاليا ، وهي عبادة لها طابع رسمى . تضطلع بها جمعيات عامة وتنطبع هذه العبادة بطابع الامبراطورية نفسها من الوجهتين المحلية (البلدية) والاقليمية . فنجد العهد الجمهورى ، استبدلت مدن الشرق ومقاطعاته عبادة ملوكها *Basileus* بعبادة روما . غير ان اوغسطس يرفض ان تقام عبادة خاصة به ، إلا انه يسلم بإنشاء عبادة خاصة : « بروما واوغسطس » تخصص لها الاعياد والمراسم ، إلا ان مدلولها الفردى الخاص ما لبث ان ضعف ، وفقد من شأنه في هذه الازدواجية واختفى تماماً مع خلفائه . وهذه العبادة تأخذ بالانتشار والاتساع بفضل مؤازرة السلطات الادارية لها ، فيجري الاحتفال بها على نطاق البلديات المحلية ، ليصبح الاحتفال ، فيما بعد ، في إطار يشترك فيه عدة بلديات . وهكذا نرى انفسنا امام احتفالات تقوم في الولاية او تشترك بها مجموعة من الولايات ، وهي احتفالات تقام بانتظام ، وعلى قدر كبير من الابهة والفخامة فتتفق المدن عليها وعلى المباني الخاصة المعدة لها ، وعلى الألعاب والملاهي التي ترافقها ، وعلى الموظفين المكلفين بالسهر عليها وعلى اعدادها ، مبالغ طائلة كثيراً ما استنفذت سوازنتها . من هذه الاعباء ما عرف في الغرب باسم *Flumines* او *Sacerdotes* ، بينما قام منها في الشرق مواسم اتخذت مسمياتها من اسم المدينة متبوعاً بكلمة رئيس . فانتشار هذه الاعياد ، ومدة قيامها ، والاحتفال بها ، والآلهة التي تكرم فيها ، انما يشير بوضوح الى اشتراك النخبة الاجتماعية في هذه الاعياد الموسمية التي تقام في الولاية .

اما في روما ، فالدولة نفسها تنشئ عبادة خاصة هي عبادة الامبراطور الراحل ، وعملية التأليه هذه ، يقررها مجلس الشيوخ ، فيرفع الامبراطور الى مصاف الآلهة . ويكفي لذلك ان يتقدم شاهد للشهادة من الهيئة المذكورة ويؤكد ، يمين مغلظة انه شاهد ، اثناء الاحتفال يجنازة الامبراطور وحرق جثثانه ، روحه تطير على اجنحة نسر . وهكذا يحتفظ مجلس الشيوخ بطريقة يرفض معها تكريم امبراطورة ، سيئ السيرة والسريرة . ورفضه هذا بمثابة حكم قاطع عليهم . إلا ان الطريقة لا تخلو قط من الخطر ، ولا تسلم دوماً من سوء المغبة ، ولذا تحفظ المجلس بالمجازفة فيها إلا في الحالات الوراثية التي لا يتنطح فيها الحلف للدفاع عن سمعة السلف والحفاظ على ذكره . وعلى كل حال ، فالاصطلاح الذي سار عليه اوغسطس في ما لقيصر ، واتبعه طيباريوس في ما لاوغسطس ، وكرسه العرف والاستعمال ، هو ان الامبراطور الراحل لا ينادى به إلهاً بل إلهي . فهو لا يؤله ، انما يكرم كآلهة . والبون شاسع بين الوضعين والاصطلاحين . ومع ذلك لم يحل هذا دون تشييد معبد للراحل الإلهي ، ولا دون إنشاء مجمع كهنوتي او رهبنة خاصة تنقطع لتكريمه ، تحمل اسمه ، ينتخب اعضاؤها من بين أغنى طبقات المجتمع .

استعرضنا في ما اجرينا من بحث ، للاستشهاد بكثير من الحالات والحوادث بين المرأة والتشكك الفردية . فقد رأينا مثلاً ، أعضاء اسرة احد الامبراطورة يفوزون جميعهم بالتكريم الإلهي . كما جرى ذلك بالفعل للامبراطور تراجانوس : فقد لقي ابوه وشقيقته وزوجته

مثل هذا التكريم ، كما جرى إشراك عدد من المتألهين والمتألهات في عبادة جماعية واحدة ، وذلك ، لأسباب وراثية ، خلافة او عملية ، كانتشار عبادة احد هؤلاء المتألهين في مدينة ما او أكثر ، من مدن الولاية ، فيخفف ذلك من حدة او من رواج عبادة « روما اوغسطس » وغير ذلك . فعلى ضوء هذه الوقائع المتباينة في كل من المناطق والجماعات والافراد ، نرى عبادة الامبراطور ، على عكس ذلك تماماً ، يزول ما بينها من فوارق ، فتتوحد او تكاد ؛ دون ان تبلغ مع ذلك ، درجة كبيرة من التجانس والانسجام .

ولا يخطر على بال احد ان الامر كله انتهى الى فشل ذريع . فهذا التجانس يأباه امبراطرة القرنين الاول والثاني ، ولا يرضون قط بتأليهم المطلق . فهم يرفضون ان يصيروا الى ما صار اليه الملوك البطالسة او بعض ملوك الدولة السلوقية . فهذا القلق او التشكك يجب رده اصلاً الى نفور بعض الامبراطرة ، امثال طيباريوس وكلوديوس وغيرهما ، من التكريم الإلهي . هذه العادة التي عرفها على أشدها وسار عليها إغريق بلدة « جيثيون » ، من اعمال ولاية لاكونيا ، وإغريق الاسكندرية . وهذا الإعراض او المجافاة مرده ، على ما يظهر ، لما أنسوه من اشمئزاز سكان روما ومن فشل التجربة المؤسفة التي قام بها كل من كاليغولا ونيرون ، ودومتيانوس وكومود ، فراح الشعب يقتص لنفسه منهم ، وأماهم شرمية ، كانت درساً لقوم يعقلون .

ولكن النظام الملكي له منطقته الذاتي وهو اشد اسراً من التدابير والاجراءات المصطنعة معها تفننوا في إعدادها وصياغتها . ومهما يكن من السبب او اللعنة التي لحقت بهؤلاء الامبراطرة الذين تجرأوا على التمادي في هذا المجال فدفعوا غالباً ، بدمائهم ، الاسخافات والاسفافات التي أتوها ، الى جانب تجنيهم الانيم ، فقد ساهموا ، مع ذلك في إعداد المستقبل وتهيئة اكثر مما ساهم فيه الامبراطرة المترددون . فقد خشي هؤلاء أشد ما خشوا منه ، الا يستطيعوا ، اذا ما هم وحدوا النهج ، الاستجابة لالتباسات عفوية تلقائية . وعلى هذا الاساس اشتطوا في التنظيم وذهبوا فيه بعيداً ، بحيث ان عبادة التكريم التي كانوا موضوعاً لها ارتدت طابع نظام حكومي او بالاحرى ، نظم حكومية ومؤسسات رسمية ساروا عليها وفقاً للتسلسل الاجتماعي والوظائفي الذي وضعته الدولة ، اذ مهما كان عرفان الجميل والاعجاب عميقاً ، فلا بد ان يفقد شيئاً من الحماس اذا ما افرغا في قوالب جاهزة وجرى التعبير عنها وفقاً لمراسم تضعها السلطات الادارية . وعلى هذا قس ايضاً الفوارق التي تميز الامبراطور المؤله عن الإله ، حتى اذا ما نُظر اليها نظرة واقعية ، قتلت او اضعفت الشعور الديني ، ومنعته من الانطلاق والتجلي على السجبة ، بينما اعتبارها اجراءات سياسية ينتقص كثيراً من مبدأ العبادة في الصميم لما تحركه في المرء من تردد وتثني فيه من تشكك .

فالمستقبل يفتح بالاحرى امام طرق اخرى ، وهي طرق يصح ان نتساءل معها ما اذا كانت انفع وأجدى ؟ بالطبع لا ، انما هي اوضح وأبين وأنصح ، كما انها اكثر ارتباطاً والتصاقاً ببعض الأفكار التي يزداد الاقبال عليها . فالامبراطور كاليغولا يتبجح بما تم له من مناقب وخصائص

هي من صفات الآلهة ، التي اقرها التقليد الموروث ، ويعمل على الانصهار فيها والذوبان معها . ونرى صوراً للامبراطور نيرون على بعض النقود الرومانية متوجاً باكليل يشع من كل صوب ، رمزاً للشمس المشرقة وتشبهاً بها . ففي الحين الذي يحرص فيه الامبراطور دومتيانوس على الظهور والبروز كرب *Dominus* نراه يتشبه ويتشدد في المناداة به إلهاً *Deus* . وفي عهد الامبراطور كومود ، برزت العادة باعتبار كل ما يختص بالامبراطور او يتعلق به « مقدساً » ، وكلها سوابق لم يلبث ان استفحل امرها وعظم بعد ذلك .

ولما كان الامبراطور يباهي ويفخر بالرسالة السامية التي يعتقد بائتمانه عليها: الاومي الدفاع عن الامبراطورية من تعديات البرابرة ، بؤرة الفساد على الارض ، وتأمين السلام ، والحفاظ على النظام في البلاد ، وتوزيع الخير والرفء على الأرض ، فهو بالطبع ، يفض الطرف عن الذين يرون فيه إشعاعاً وانبثاقاً ، ومن ثم تجسيدا للالهية او للآلهة التي تسيطر ، تحت اسماء شتى ، على النظام الكوني . وفي عهد الاسرة الانطونية التي احسنت الحفاظ على الكثير من هذه المظاهر ، رأينا هذه الافكار بعينها تستبد بالخواطر ، لتبرز بوضوح وجلاء للناس في عهد اسرة سيفيروس .

٣ - الخلافة في الاسرة بين الواقع والتظر

ليس في هذا كله ما فيه حل المشكلة ، التي تلازم كل نظام امبراطوري
الخلافة الامبراطورية :
أو ملكي من أي نوع كان . وهذه المشكلة هي اشد خطراً على الخلافة
البديل في الوراثة المتممة
والوراثة الامبراطورية التي جاءت في اعقاب سلسلة من الانتصارات
الحربية والامجاد العسكرية ، والتي سيبقى مصيرها مرتبطاً الى الابد بالجيش ، وبنسبة ولاء الجيش
لهذه الامبراطورية . كل هذا يجعلنا نتساءل : كيف السبيل الى تأمين استقرار نظام الحكم القائم ،
اي انتقال السلطة الشرعية الى امبراطور ، من صلب رسالته ومهمته ان يؤمن لروما وللامبراطورية
ما يطعمان فيه وينتظران منه بحق ؟

رفض او غس طس حل مشكلة الملكية ، فمنعه رفضه من الاخذ بالحد الأدنى من الحق الملكي
الذي استبد في اقطار الشرق الهليني . فبدأ الخلافة الوراثية ، لم يكن من الممكن قبوله والاخذ
به منذ اعلان العهد الجديد . ومع انه لم يكن احد ليجرؤ على الجهر به ، فبدأ الحق الوراثي
فيها كان كامناً او مضمراً ، اذ انها اي الوراثة ، نتيجة منطقية حتمية لكل نظام ملكي . وقد
شاعت الاقدار ان يكون بين الـ ١٧ امبراطوراً الذين تعاقبوا على الملك والحكم خلال قرنين من
الزمن ، ثلاثة منهم لا غير ، هم : كلوديوس وفسبسيانوس ومارك اوريل ، كان لهم ، عندما
حانت منيتهم ، ابن شرعي يخلفهم على العرش . كذلك قضت الاقدار ان يكون الامبراطور
كلوديوس ملكاً مستضعف الجانب ، ركيك الارادة والادارة ، ينال منه بيسر ، رهط من
الافاكين الدساسين في بطانة لا ذمار لها ولا زمام ، عرفت كيف تقصي ابنه ووريثه الشرعي

بريتانيكوس لصالح حفيد اخيه وربيه نieron . ومن المؤسف لعمرى ، ان تصبح الخلافة تقليدية في مثل هذه الظروف التي لا يستها ، لتصبح فيما بعد ، شرعية بقدر ما يمكن لمثل هذا الامر ان يتم ويتوفر لنظام قام اصلاً ، على مبدأ إيلاء سلطة الشعب الروماني والعهد بسيادته ، الى رجل احد ، فرد .

ولثلا تضطر الدولة للاحتكام للسيف وبالتالى لحروب اهلية ، للبت في قضية الخلافة ، كلما اطلت من خلال موت امبراطور ، كان لا بد من إيجاد بديل له او عوض عنه ، فاتخذوا عدداً منهم ، بعضهم جرى اشراكهم معاً في وقت واحد . واكثر الذرائع استعمالاً ، كان التبني الذي يتلام جيداً والعرف المتبع واحكام قانون الاسرة عند الرومان . ولهذا العرف سوابق تفره ، وتزكيه ، في سلوك قيصر بالذات الذي تبني ابن اخيه اوكتاف المعروف تباعاً باسم اوكتافيان ثم اوغسطس ، كما يبرره سلوك اغسطس في اعمال التبني التي اتاها في عهده المديد . وكثيراً ما اضافوا الى هذا الأسلوب طريقة اخرى هي اشراك المتبني في سلطات وصلاحيات امبراطورية صرفة : كالسلطة التريبونيه والسلطة البروقنصلية . وكان من جدوى هذا الاسلوب ومنافع الطريقة التي ساروا عليها ، الا تجعل العرش يشغر عند وفاة صاحبه الاول . والى جانب هذا التفويض الشرعي او بدونه احياناً ، كانوا يعمدون الى تعيين الوريث او ولي العهد بصورة واضحة ، بعيدة عن اللبس والاشكال ، وذلك بتوليته وظائف كهري ، قبل بلوغه السن القانونية ، مع ما في هذا من مغايرة للعرف المتبع ، او باعطائه ألقاباً تجعل منه بحق ، المتقدم ادبياً . وهكذا نرى دوميتيانوس يعين ست مرات قنصلاً ، قبل وفاة اخيه تيطس ، كما ان الامبراطور هدراليوس جاد بلقب « قيصر » لمن رشحه لمنصب « اوغسطس » .

وخطا الامبراطور مارك اوريل خطوة أبعد الى الامام ، اذ منح تباعاً لقب « اوغسطس » للوسيوس فيروس *L. Verus* ، ابنه بالتبني ، ثم بعد موت هذا الاخير ، لابنه كومود ، واحتفظ لنفسه وحده ، دون سواه ، في كلا الحالتين ، بلقب ووظيفة كبير الاحبار ، وما تجرؤوا على الفصل بينها إلا بعد ذلك بنحو ثلاثة ارباع القرن . وفي ما عدا ذلك ، كانت المشاركة كاملة فقد حق للثنتين ان يقابلا بالتحية الامبراطورية الرسمية ، كما استحقا ان يحملوا الالقاب ذاتها التي في حملها إعادة لذكرى الاجداد الحربية . فبدلاً من ان تحمل قطع النقد الرومانية الجديدة صورة « نصر اوغسطس » *Victoria Augusti* ، فأصبحت تحمل رسم واسم *Victoria Augustorum* . وهذا الجديد الذي طلع به علينا مارك اوريل ، ما لبث ان أصبح القاعدة التي ساروا عليها ، والمثال الذي احتذوه في القرن التالي .

وهذا الاجراء بالذات ، يعيد الى الازهان ، عهد الوصاية المشتركة التي عمل بها حيناً في بعض الأسر الملكية الهلينية . فالطريقة كانت مرعية العرف ، متبعة لما كانت عليه من بساطة ويسر . ومن الغرابة ألا تكون الانظار اتجهت اليها والا تكون الامبراطورية الزومانية اخذت بها قبل سنة ١٦١ بعد الميلاد ، مع انها كانت تدبيراً معروفاً عملاً به وجرى تطبيقه ، منذ أكثر من

مائتي سنة . إلا انه اتضح أكثر من مرة لمن يعنيه الأمر عجز هذه الطريقة عن تأمين انتقال الخلافة بسلام . ولذا صح لنا ان نعتبر هذا التأخير ، مظهراً جديداً لموقف الإدارة والتحفظ الذي اضطر العهد الجديد للوقوف عنده ، تمييزاً له عن نظام ملكي لم تكن روما لترغب فيه او لتتحمس له .

كان لفكرة خلافة الأسرة وقع ، ولا شك ، شديد في النفوس . وهذا تطور الحق السلافي
الاعراء بالذات كان له أثره البارز في واقع الخلافة السلافية . فالانسان
نزع بطبعه ، للبقاء والديمومة . ونظرية الرجل الذي أعدته العناية
الربانية ، مهدت السبيل طبعاً امام الفكرة الثانية وهي فكرة
الأسرة المصونة ، المهمة بنعمة الآلهة . فالامبراطورية الاولى تقدم للمؤرخ ثلاثة امثلة لكل منها
طابعه الفردي المميز .

فمن عهد اوغسطس الى عهد نيرون ، برهنت السلالة اليوليو - كلودية عما لاثنتين من افراد هذه الأسرة من تأثير ونفوذ عظيمين ، هما قيصر الذي كان من اسرة يوليوس ، واوغسطس الذي كانت جدته لأمه من هذه الأسرة ايضاً ، ولم يلبث ان اصبح منها في الصميم بعد ان تبناه قيصر نفسه . وقد تزوج من والدة الشقيقين : *Claudii* ، واذ لم يعقب تبني أكبرهما سناً ، وأرغمه على ان يتبنى بدوره ، ابن اخيه الاصغر ، بعد ان مات ابوه من قبل . وهكذا انفصرت اسرة يوليوس بأسرة كلودي . وقد ازدادت الوشائج بين الاسرتين ، فيما بعد ، لصوقاً ومتانة ، على إثر المصاهرات والزيجات التي وقعت عبر الأجيال بين الاسرتين ، فضمت ابنة اوغسطس الوحيدة وبناتها من بعدها الى افراد الأسرة الكلودية ، وقد وقع من حوادث التبني بين افراد الاسرتين وأفخاذها وبطونها ، ما يجعل من المستحيل اليوم ، تتبع خيوط هذه الوشائج المتشابكة . ولكي يبدو هذا التعقيد على أتم صورته يكفي ان نورد هنا شاهداً واحداً . فعندما تزوجت أغريبين الثانية من خالها كلوديرس ، كانت لحماً ودماً ، ليس فقط ابنة حفيدة اوغسطس وحفيدة ابنة اخته ، بل كانت ايضاً بالتبني ، ابنة حفيده . كل هذا التشابك والتراكب والتعاضل لم يخل من نفع وفائدة ، على شرط ان يعرف المستغلون كيف منه يفيدون ، ومثل هذا الأمر لم يغيب عن فطنة أغريبين وزكاتها . فأصرة التبني التي شدتها الى اوغسطس كانت احدى هذه الوسائل التي تدرعت بها لتحمل كلوديرس على تبني نيرون ، اخذ افراد اسرة دوميتيوس *Donilius* ، فاستطاعت بذلك ان تقصي عن الخلافة بريثانيكوس ابنه الشرعي ، الذي كان بحسبه ونسبه ، بأبيه وامه ، حفيد اوغسطس .

وهكذا بدت الأسرة اليوليو - كلودية في عيون معاصريها ، من هذه الاسر المختارة ، المصطفاة ، والمهيأة ، ان لم يكن شرعاً فوضعا ، للاحتفاظ بالرتبة والسلطة الامبراطورية . غير ان مسائل هذه الشجرة وفروعها المتعددة ، وتشابكها بعضاً ببعض ، كان من الأسباب التي حالت او منعت

تأمين انتظامها وانضباطها . فقد كان بوسع الامبراطور طيباريوس ان يلزمها التسلسل المدرج ، وبعبارة اخرى ان يقصرها على التدرج المسلسل الذي كانت تقتصر اليه ، لو عرف كيف يحتذي حذو اوغسطس ويأتم بهدي فطنته ، عندما نظم قضية خلافته ووراثته . غير ان ما كان عليه طيباريوس من نفرة للناس ، وابتعاده عنهم وبجافاته لهم ، كل ذلك وقف حجر عثرة دور المرتجى والمرغوب . ومنذ ذلك الحين ، اصبحت الوراثة السياسية كرة او ألوية ، تتقاذفها شعبية المرشح في الرأي العام ، وقادة الجيش ، والدسائس المحيكة وراء الكواليس ، وسخرية القدر وعيب الأقدار . وعندما يادر حرس القصر كلوديوس بالتحية الإمبراطورية ، إعلاناً له باعتلائه أريكة الحكم ، خاف وأخذت فرائضه ترتعد هلعاً ، فتوارى خلف سجف القصر وستائره . وهذا الوضع حل كل امبراطور على ان يتخلص من السبائى وذويه عندما يرى فيهم منافسين له على السيادة والسلطة . وهكذا أخذت الاغتيالات السياسية والسموم المدسوسة بعلم وقن ، من قبيل طامع في الحكم خالغ العذار ، امثال «سيجان» ، تفعل فعلها الذريع بين الاسرة الامبراطورية العديدة الفروع ، فحصلت افرادها البارزين حصداً ، وكادت تؤدي بها الى الهلكة والزوال . وعندما أجبر نيرون على الانتحار عام ٦٨ بعد ان تخلى عنه حرسه ، لم يكن بقي احد من افراد الأسرة ليطالب بايجاد قيصر وأغسطس ، ويلوح بها تعريفاً وانتساباً . وهكذا اصبحت الدولة والسلطة العليا فيها ، فريسة الاقوياء يتجاذبونهم كلما اشتد من احدهم الساعد او تراءى للقوي بسمة يفتر بها الحظ .

اما الرجل القوي في هذه الاسرة فهو تيطس فلافيوس فسبسيانوس ، اول الاسرة الفلافية
 امبراطور اخبرته للناس هذه العائلة ، التي تولت الحكم مدة قصيرة لم تزد
 على ٢٦ سنة ، الا انها ألّفت كتلة بزت بتجانسها وتراسها ، ما تم منه للأسرة
 اليوليو - كلودية . كان تيطس بن فسبسيانوس البكر ، ولما لم يعقب الابنة ، فقد خلفه على
 العرش الامبراطوري ، عند وفاته ، شقيقه دومتيانوس . وهكذا نرى ان الحظ سار في ركاب
 هذه الاسرة ، فرتبت أمر الخلافة فيها ببساطة كلية ، وبذلك ، عرفت ان تجري ، في روما ،
 حقاً وراثياً قام على قاعدة : الخلافة للبكر الذكر ، وجعلته بعزل عن تقلبات الرأي ودسائس
 الدسائس .

وعرف الامبراطور فسبسيانوس ، بما أوتي من حزم وعزم ، ان يفيد من مؤاظة الحظ له وسيره في ركابه . فما ان قبل تسلم أريكة الامبراطورية حتى رأى في وجود ولديه الى جنبه ضماناً كافية للخلافة في ذريته . « وكان له من الجرأة ان عالن مجلس الشيوخ » ، كما يؤكد المؤرخ سويتون ، بان ولديه سيخلفانه ولا احد غيرهما . وفي هذا السبيل عمل ما يترتب عليه عمله ، فعهد الى ابنه تيطس بالسلطة التريبونية والسلطة البروقنصلية ، كما رفع ابنه الثاني دومتيانوس الى رتبة القنصلية وثبته فيها عدة مرات . وبفضل هذه الاجراءات الحكيمة والتدابير الرشيدة ، بدت السلطة بين يديه حقاً وراثياً قائماً في الاسرة ، ينتقل من السلف الى الخلف بصورة تلقائية ،

دون صريف او صرير . ثم راح بعد هذا ، ينصرف من جهة اخرى ، لتنظيم عبادة الامبراطور وتقديسها . فليس ما يصدمننا او يثير دهشنا قط ، ان نرى ونقرأ على احدى النقائش التي عثر عليها في بريطانيا ، « العبارة التالية التي كتب لها انت تعمر طويلا ، وهي : « البيت الإلهي » وبعبارة اخرى : « الأسرة الإلهية » ، تنويها بالأسرة الامبراطورية وشارة إليها .

هذه النظم والانشاءات المستحدثة كان يلزمها ، لتعيش وتُعمر في نفوس القوم ، ان يطول بقاء هذه الأسرة على الحكم ويدوم الى ما شاء الله . غير ان تصرفات دومتيانوس وسفاسفه كانت سبباً في هلاكه وقته . وما كاد جثمانه يرارى الثرى ، حتى راح بجاس الشيوخ يلغي قرارات التبني التي كان اتخذها الامبراطور الراحل ، اذ كانت تبني بعد وفاة اولاده ، اولاد شقيقه الذين كانوا في الوقت ذاته ابناء عمومته . وهكذا وجدت خلافة الامبراطورية نفسها امام فراغ جديد وعلى حافة هاوية عميقة .

عرف المتآمرون ، هذه المرة ، ان يحكوا الجبكة ويسددوا الضربة ، وينفذوا
الاسرة الانطونية
بدقة ، التدابير المقررة ، فلم يجد العنف طريقه الى تعيين الامبراطور الجديد .
اختيار الاصلع
فالامبراطور الجديد الذي نادوا به : نيرفا ، قبيل به الجيش راضياً مرضياً ، فكان طليعة الأسرة الانطونية التي اطلت على الحكم في شخصه واستقام لها الأمر قرناً تقريباً اي من سنة ٩٦ الى سنة ١٩٢ للميلاد . اما قضية الخلافة في عهد هذه الأسرة ، فليس في التاريخ كله ، بما فيه تاريخ روما والأسر الملكية التي تعاقبت على الحكم ، اسرة أعلق في النفس واشد غرابة من هذه الأسرة . فالغرابة تكاد تلامس الخروج على العرف المألوف .

ولئلا نستطرد الى ما لا طائل تحته ، يكفي التأكيد هنا ان كل الاباطرة الذين أطلعتهم هذه الأسرة ، باستثناء واحد منهم ، هو الأخير بينهم ، الذي تم على يده وأد الأسرة ، مع انه الوحيد الذي جاء منها الى الحكم بحق الوراثة الخلافية ، قد تعاقبوا على الحكم على أساس التبني وليس على أساس البنة الطبيعية . ويجب ان نذكر هنا انه حدث مثل هذا لطيباريوس ، اذ كان ابناً بالتبني لأوغسطس . فاستمرار تعاقب الأمر على هذا النحو ، يكون بحمد ذاته ، حدثاً جديداً ، يستدعي النظر . صحيح انه كان هنالك وشائج من القربى بين السلف والخلف ، كأبناء العمومة أو الخؤولة ، والمصاهرات التي ربطت بين الآباء والابناء ، بررت وزكّت اعمال التبني هذه . وليس من الغريب قط ، لعمرى ، ان نفرض ، في بعض حالات هذا التبني - وهو أغرب ما في هذا النوع - وجود بنة طبيعية ، ولكن غير شرعية . ومن المؤكد كذلك أن عملية التبني عند هؤلاء الاباطرة لم تكن سوى تدبير أعرج ، أخذ به في الحالات القصوى ، بعد ان رأى من لجأ الى هذه الطريقة من بينهم ، أنفسهم بدون عقب يخلفهم . وأول امبراطور منهم رزق صبياً ، بادر للحال لتأمين الخلافة له ، حتى أن الامبراطور مارك أوريل نفسه رأى ذاته ملزماً للأخذ بالقانون الطبيعي مع انه جاء في مصلحة كمود نفسه . فاذا كان ثمة ما يبرر ، بالفعل ، قرارات التبني هذه ويزكيها ، فالشيء الذي يبقى غريباً ويصدم العرف ، لا بل يكون

المفتاح الحقيقي لهذا السر المغلق وينأى بعيداً عن الواقع : هو قبول الجيش لمثل هذه الاجراءات التي اتبعت لتأمين الخلافة والأخذ بها دون ان يحدث في الغالب ما يعكر صفو الأمن ، اذ كانت ترفع الى السلطة العليا قواداً ليس لهم من الحسب ولا من المجد العسكري - باستثناء ترايانوس - ما يستحقون معه ثقة الجيش والولاء الذي عرف به ، وهم في الغالب افراد لمعوا في بطانة الامبراطرة الذين دُعوا لخلافتهم ، أو برزوا في المجتمعات الرومانية التي عرفتهم وقدرت مواهبهم بمعزل عن الجيش الروماني ؛ فاذا ما عرفوا ان يفوزوا بولاء الجيش فبفضل ما جاؤوا به حالاً من دليل على كفاءتهم ومواهبهم ، أو بفضل ما كان عليه الجند اذ ذاك من احترام لروح الانضباط ، بلغ حدّاً من العمق لم تعرف البلاد له مثيلاً من قبل ، وهي فترة قصيرة الأمد ، اذ ما قيسَت بمدة بقاء الامبراطورية ، ولكنه طويل بالنسبة للامبراطرة الأنطونيين الخمسة ؛ فعرف هؤلاء الملوك ان يفيدوا من هذا التوازن المدهش الذي جمع بين القوى الأدبية والقوى الاخرى المتفاعلة في الامبراطورية .

هذه الملاحظات العابرة أعجز من أن تستنفذ الاهتمام الخلق بالأسرة الانطونية ، والظروف التي أحاطت بها ، والوضع القائم الذي أوجب تكوين طبقة اجتماعية مُوجَّهة تكون في مأمن من وصول امبراطرة الى الحكم يجيء بهم الجيش على سنان الرماح . واقتصرت هذه النظرية على تثبيت وضع قائم ، والترسيخ له في النفوس ، والعمل على رفع مستواه ، بعد ان قررت الأخذ بالنظام الامبراطوري ، وجعل الخلافة في الأسرة من حق « الأفضل » و « الأمثل » ، لها . وقد حرص العهد على تسمية الوريث الأفضل ، وعلان امره ، وذلك تقويةً للامبراطرة الذين أقر مجلس الشيوخ الروماني خلافتهم . ولم يكن المؤرخ تاسيت ، وهو من معاصري الامبراطور ترايانوس إلا ترجمان حال زملائه من اعضاء هذا المجلس عندما راح يقصّ علينا في « توارينجه » قصة تبني الامبراطور غلبا *Galba* لبيزون *Pison* أثر مقتل نيرون ، فكتب على لسان المتبني : « لا يعني هذا قط ان لا أنسأ لي ولا رفاق سلاح ، ولم أبلغ الحكم لأنني طمحت اليه ، وسعيت له ، كما يشهد على ذلك ، ممارستي للسلطة بنصفّة ، ومعزل عن الأخذ بالوجوه ، وتفضيلي لك على باقي الناس ، ليس على خاصتي فحسب ، بل على خاصتك ايضاً ... فهذا الاختيار الذي صدر عنا هو الحرية بعينها . أما الآن بعد ان انقطعت اسرة اليوليين واسرة الكلوديين ، فالاختيار والانتخاب أساسه : الأمثل والأفضل . ان يأتي المرء الى الوجود ودم الأمراء يسري في عروقه ، فأمر من صميم الحظوظ والاقدار ، التي يتعطل معها الفكر وينعدم النظر . فالمتبني هو الذي يقطع ويحزم في ما يُفصّل . فاذا ما قرر الاختيار كان له الرأي العام هادياً » . ورسالة الاطراء والمدائح التي وجهها « بلين الأصغر » *Pline Le Jeune* للامبراطور ترايانوس تتضمن ، هي الاخرى ، تصريحات من هذا النوع . فالأخذ بهذه النظرية ولو ظاهراً ، أضفى كثير أعلى السلالة الانطونية شيئاً من الوقار والنبيل في تفكيرها : فعبثاً نحاول العثور على غيرها من الاسر الامبراطورية تتفتح في ظلها وعهدا ، مثل هذه الافكار السمحاء التي لم تنقضها الحوادث والماجريات الواقعية التي حدثت خلال أجيال متعاقبة . إلا ان هذا النقص كان لا بد له من ان يقع ويحدث . وقد شاء

القدر العابت ، الساخر ، ان يأتيها على يد مارك اوريل نفسه .

عدم اكتمال تجربة النظام الملكي الامبراطوري
قَيْضٌ لنا ان نشهد ، ونحن بصدد الحديث عن طقوس عبادة « روما
او غسطس » او عبادة الإلهي *Diri* ، عدم اكتمال الملكية الامبراطورية
وبلوغها التام ، اذا ما قارناها بالملكيات الاخرى . هل كان من شأن
تطوير أسرع في المظاهر الدينية ومناسك العبادة ، ان يساعد أكثر في تطوير نظرية الملكية
لامبراطورية ليبلغ بها الى الكمال والتام ؟ فالعبادة الامبراطورية كانت تفتقر ، بالفعل ، الى
الكثير من روحانية الدين . فلا عجب ان يقابلها الكثيرون بالتشكك وان يعرضوا عنها ويولوها ظهرهم .
فلو بلغ هذا التطور تمامه لكان جاء ، على عكس الواقع ، بنتائج فعالة ، ربما تبلورت عن
وضع قانون لوراثه الخلافة الامبراطورية ، ثابت ، واضح ، وهو وحده القادر على ان يشيّد
النظام الملكي على أسس ركنية من الشرعية والدستورية فيجعل من هؤلاء البشر المقدّر لهم ان
يحصد الموت ، والذين تعاقبوا على الأريكة الامبراطورية ، كلاً متجانساً ، اذ ان عدم توفر هذا
العنصر الاساسي عرّض الامبراطورية ، الفينة بعد الفينة ، لهزات عنيفة وخضات شديدة ،
أورثتها الفوضى والوهن . وهذه الامبراطورية ، باعتبارها مؤسسة بشرية ، وملكية عسكرية ،
لم يكن لها بدءٌ من التضرّس بما تضرّست به من إحترار الدهر وصروفه ودوّله ، انما قد يكون
جاء هذا كله ، على نطاق اضيق وبعده اقل . فغموض النظام الذي سارت عليه ، والإشكال
الضميني الذي اتصفت به ، اقامها ، منذ الاساس ، على خواء ، وجعلها واهية ، متداعية في الصميم .
هنالك ، بالطبع ، عدد من النظم الملكية ، عانت ، منذ البدء ، الداء نفسه ، إلا انها عرفت ،
فيما بعد ، كيف تنفض عنها اعراض هذا السقم فتعود اليها العافية سريعاً . ومسؤولية عدم اكتمال
فكرة النظام الامبراطوري في روما ، انما مردّها قبل كل شيء ، والحق يقال ، الى الظروف التي
لايست هذه الامبراطورية وأحاطت بها ، وللأفراد الذين تولوا مقدّراتها خلال القرنين ، وهي
الفترة التي ائتمن اليها عهد الامبراطورية الاولى ، وما خامرهم من شكوك وتردد وما أتوه من
سخافات وترهات .

ومع ذلك ، وبالرغم من هذا النقص الجذري في التكوين والبنيان ، استطاعت هذه
الامبراطورية ان تحيا وتبقى وان تنتظم ، ان لم يكن نظرياً فأقله واقعياً .

٢ - النظم القديمة

عرف النظام الامبراطوري ان يشق طريقه في الدولة ، وان يحقق نجاحاته على حساب النظم
والمؤسسات الجمهورية التي لم تلبث ان خفّت حيويتها وضوّل نشاطها ، يوماً بعد يوم .

استمر العمل بالهيئات الشعبية القائمة ، انما قلت دعوتها للانعتاد .
فإذا ما عقدت جلساتها ، فلأمر تافه وبصلاحيات اخذت
تضيّق وتدق ، شيئاً فشيئاً . وقد يحدث ان تدعى ، في القرن الاول للاجتماع ، عند مناسبة
Les Comices

عارضة للتصويت على بعض مشروعات القوانين ، بعد ان حُرمت من فرصة مناقشتها ، مع العلم ان قرارات مجلس الشيوخ والامبراطور ، لها وحدها قوة القانون ، بحيث لم يعد يبقى لهذه الاجتماعات الشعبية أية قيمة تشريعية على الاطلاق .

كذلك فقدت هذه الهيئات ما كان لها من صلاحيات انتخابية ، بعد ان بطل العمل بها فعلاً ، منذ عهد اوغسطس ، وذلك على أثر تمتع الامبراطور بحق التوجيه وتقديم الاقتراحات التي احتفظ به لبعض الوظائف الكبرى بعد ان جرى تحويلها بكل بساطة ونقلها الى يد مجلس الشيوخ . واكتشفت عام ١٩٤٧ بعض كتابات ألفت ضوءاً على وجود نظام وسيط ، جرى العمل به قبل هذا الانتقال ، تظهر بوضوح ، دهاء النظام الذي تم وضعه عام ٥ ق . م ، ثم أدخلت عليه تحسينات عديدة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩ و ٢٣ للميلاد ، جعلت منه مجرد عملية انتخاب شعبي بسيطة . وكان اعضاء مجلس الشيوخ وخيرة طبقة الشغاليه يتوزعون وفقاً للقرعة ، الى هيئات مائة Centuries تتولى اختيار مندوبين اولين *Destinati* ، من بين عدد من المرشحين تعرض قوائمهم على الهيئات الشعبية لاقرارها والتصديق عليها . وكان عشر من هيئات المائة Centuries تحمل اسم حفيدي اوغسطس ، توفيا يافعين . وعندما توفي ابن طيباريوس وابنه الآخر بالتبني ، جرى إنشاء خمس هيئات مئة جديدة عند كل وفاة منها حملت اسماءها . والاعتقاد السائد هو ان هؤلاء الأمراء الذين رُفِعوا الى مصاف الابطال كانوا اداة وحي وإلهام للتأخين المشتركين بعملية الاقتراح كما يقترحون ، هم أنفسهم ، أسماء الاعضاء الجدد للهيئات الشعبية . إلا اننا نجعل الجهل كله ، الوقت الذي امكن فيه الاستغناء تماماً ، عن مثل هذه الاساليب . ومهما يكن ، فالاقتراع لم يكن سوى عملية صورية ، وهمية ، لا طائل تحتها البتة .

وقد بدا لاوغسطس ولخلفائه من الامبراطرة الذين تعاقبوا على الحكم بعده انه اذا كانوا يريدون فعلاً الاستقرار للعهد الجديد ، كان عليهم ان يجعلوا الحياة السياسية في البلاد بمنأى من الدسائس والاضطرابات والقلال التي طالما اتصفت بها اجتماعات الهيئات الشعبية وافسدتها . فالشعب الملك كان بالفعل قد فقد كل سلطة له ، عند اعتلاء الامبراطور العرش ، وفقاً لقرار يصدره مجلس الشيوخ يقتصر عادة ، على المناداة به امبراطوراً ، وتقليده مقاليد الولاية والسلطة . وقد حفظ لنا التاريخ نص القانون الذي تمت بموجبه الولاية لفسبسيانوس . فالامبراطور وحده يكفي لادارة مصالح الشعب والدفاع عنها .

فهذه الوظائف الكبرى التي كان الامبراطور يقلدها لأصحابها ، اما رؤساء ، المناصب والوظائف كالقنصلية مثلاً ، او بالواسطة عن طريق البوح برغبته الخاصة ، بشأن بعض المرشحين ، لم تكن لتتمتع ، بالفعل ، بأي استقلال خاص . فهي مراتب بقي معمولاً بها كاللقاب لا غير ، لها درجاتها ورتبها المتسلسلة في الادارة ، باستثناء وظيفة المراقب العام التي كان الامبراطور يحرص على الاحتفاظ لنفسه بكل صلاحياتها واختصاصاتها ، سواء أحمِل هو نفسه ، هذا اللقب او لم يحمله ، وكثيراً ما ، لم يكن لهذه الالقاب سوى مظهر تبجيل خارجي تثقل على حاملها

أحياناً ، نفقة تمثيل . ويذكر ديون كاسيوس في معرض حديثه عن الامبراطور كلوديوس ، ان عدداً من القناصل الرومانيين تخلوا عن الرتب القنصلية التي كانوا يحملونها ، مع ما هي عليه من علو الشأن ، لانهم عجزوا عن تحمل تكاليف تمثيلها .

هنالك ناحية من هذا التطور الذي خضعت له وظيفة القنصلية ، يمكن الوقوف عندها ملياً واتخاذها قياساً ، للدلالة على ما خسرت هذه الوظائف والرتب من قيمة الشأن البعيد الذي كان لها من قبل . ورتبة القنصلية التي بقيت محتفظة بكل شاراتها الفخرية وبعنائيتها ببعض المراسم الدينية ، فقدت ، في الواقع ، كل ما كان لها من شأن وشأو ، بعد ان برز الامبراطور على رأس الدولة ، وتحلى مع نوابه ومثليه ، بما يتحلى به من سلطات واختصاصات عالية . وخسرت هذه الرتبة من قدرها وشأنها بعد ان ازداد عدد الحاصلين عليها ، مع انه لم يكن يوجد منهم معاً في الوظيفة ، في وقت واحد ، اسوة بما كان عليه الوضع في الماضي ايضاً ، اكثر من مائتي قنصل . فالذين كانوا يتقلدون هذا المنصب في غرة كانون الثاني (يناير) كانت السنة تحمل اسماءهم . وهذا الفريق من القناصل هم القناصل « العاديون » الذين تأثرت رتبهم والقباهم باقل مما تأثر به اخرى ، بالنظر للامتيازات التي تمتعوا بها . وقد جرت العادة ان يستقيل هذا القنصلان ، قبل بدء السنة الجديدة بقليل ليفسحوا المجال امام قنصلين جديدين يحلان محلها . وكانوا يتعاقبون بسرعة في الوظيفة ، بحيث كنا نرى ، في القرن الاول ، القنصل يعين لفترة اربعة اشهر . وليس بالغريب او النادر قط ان نرى قناصل قبلوا التعيين لمدة شهرين او لشهر واحد . وهذه العادة كان لها ما يبررها من رغبة الامبراطور في ان تتوفر له سهولة اكبر في اختيار اصحاب بعض الوظائف التي لا يقوم عليها إلا من كانوا قناصل من قبل . وهكذا فقدت هذه الوظيفة كل شأن لها .

هذا الاستخفاف ينزل بمرتبة القنصلية يبرز على اشدّه ، عندما نعرف ان القنصلية كانت السبيل او الطريق المؤدي الى البروقنصلية التي لصاحبها سلطات شبه مطلقة على الجيش او الولاية التي يتولى ادارتها . فلم يبق في الامبراطورية سوى مركزين لصاحبها سلطة البروقنصلية ، يجري اختيارهما من بين فئة القناصل : هما بروقنصل آسيا (مركزه افسس) وبروقنصل افريقيا (مركزه قرطاج) ويتقاضيان عن وظيفتهما هذه مرتبات ضخمة للغاية تنقطع معها شهوة الارتكابات والاختلاسات وسوء الائتمان . فضلاً على ذلك ، ان الاول منها انتزعت منه ، في غرة العهد الامبراطوري ، كل سلطة على الجيش ، وكذلك الثاني منها كان له المصير ذاته ، وكلاهما يخضع لسلطة الامبراطور ، يساعدهما في حكم الولاية وادارتها موظفون يأتي تعيينهم من قبل الامبراطور نفسه ، كما ان مدة تعيينهم في هذه الوظيفة لا تتعدى السنة ، ولا يمكن تجديدهما عند نهايتها ، بأي حال . وهكذا يبدو ان معظم افراد الطبقة القنصلية لم يكن امامهم من امل سوى التطوع في خدمة الامبراطور ووضع أنفسهم تحت تصرفه للانعام عليهم بأية وظيفة يقتديهم لها . ولم تكن وظيفة القنصلية تعطى إلا لمن برهنوا عن كفاءتهم ، وجاؤوا بالدليل القاطع على ولائهم للامبراطور ، فاذا ما قبلوا بما يعرض عليهم منها انفتح امامهم الباب لوظائف أكبر وأعلى

تبقى دوماً تحت المراقبة الضيقة واشراف الامبراطور المباشر .

ومثل هذا التحول والتبدل يطرأ على الوظائف الاخرى ، ولا سيما وظيفة البروقناصل الذين يعهد اليهم بحكم الولايات الامبراطورية وادارتها . ويجري انتقاؤهم غالباً من بين طبقة الـ *المقدمين* *Prêteurs* الذين لم يكونوا أسعد حظاً ، ولأرفع حالاً من حكام ولايتي آسيا وافريقيا . « ان سلك التشريعات والاجاد » هو بيد الامبراطور وتحت رحمته . والوظائف المختلفة التي تتسع لمثل هذه التبعيلات لا تعطى ولا يعهد بها إلا لمن يقوم بهام وظائف الادارة الامبراطورية .

مجلس الشيوخ بين المؤسسات الجمهورية التي تضرست بالتغيير ونابها من التحويل والتبديل اقل *Sénat* من غيرها في الظاهر كان مجلس الشيوخ ، لا بل يبدو لمن يرى الامور من الخارج ، انه نال المزيد من السلطات ، لأنه حل محل الهيئات الشعبية في الانتخابات التي كانت وقفاً على هذه الهيئات ، كما ان القرارات التي كانت يتخذها ، كانت بمنأى عن الاستفتاءات الشعبية والانتقادات او الاعتراضات التي يثيرها في وجهها التريبون او محامو الشعب . وكان من سياسة اوغسطس ومعظم خلفائه حتى اواخر القرن الثاني ، الاعتماد ظاهراً ، على هذا المجلس في تجنب البلاد ، خطر الاضطرابات الشعبية . فقد رموا من وراء ذلك الى تعزيزهم نفوذ هذه الهيئة والرفع من شأنها . غير ان هذه المشايعة او السلطة الثنائية ، *Dyarchie* ، كما يسميها المؤرخ الالماني مومسن *Mommsen* ، لم تكن بالحقيقة ، سوى تغير او تعلية . هل كان الامبراطور يرغب فعلاً ، باقتسام السلطة — وهو أمر يتنافى أصلاً مع رغبة الفرد بالسيطرة المطلقة — مع مجلس يتألف من ٦٠٠ عضو يضم العديد من العناصر التي لا يمكن استخدامها أو الانتفاع بها ، بينهم كثيرون معروفون بميولهم الجمهورية وحديثهم على نظم العهد البائد ، كما ان بينهم من عرفوا بأطباعهم الاشعبية وطموحهم ، وغيرهم من اصحاب الزلفى والمدلسين؟ ونرى اكثر من امبراطور يدخل في خصام مكشوف ، ان لم يكن مع مجلس الشيوخ ، كهينة قائمة بذاتها لم تكن لتجرؤ على الوقوف بوجهه ، فأقله مع بعض الشيوخ الذين تحوم حولهم الشكوك ويرتاب جداً باخلاصهم له ، ويشك في ولائهم نحوه ، فيتفادى شرهم بقطع دابرهم أفراداً وافواجاً . فالزواج الشخصي الذي فرّد هؤلاء الطغاة ، الذين وصفهم مؤرخون من مؤرخي العصر ، كانوا مثلهم اعضاء في المجلس المذكور ، أمثال تاسيت ، بأبشع الأوصاف كان سبباً في ذلك أن عدداً كبيراً منهم ذهب ضحية الدسائس التي حاكوها ، كما ذهب غيرهم فريسة إهشاة النفاثين والأرصاد المبتوثة عليهم . ولم يصف الجب ويصح إلا في عهد الدولة الأنطونية ، باستثناء حكم هدريانوس وكومود ، بعد ان لعبت عوامل كثيرة دورها الملطف والمهدئ ، منها مثلاً كفاءة بعض الامبراطرة الذين عرفوا ان يفرضوا الاحترام حولهم ، وقدرتهم على الذهاب بالاحقاد ، والتحسينات التي أدخلت على تشكيل مجلس الشيوخ بعد ان اعتمدوا في الاختيار ، قاعدة جديدة هي خبرة العضو الجديد وحنكته ، دون حسبه ونسبه أو نشبه ، والرغبة المشتركة في تجنب البلاد أزمة كالأزمة التي وقعت فيها ٦٨-٦٩ ق.م. غير ان الحقبة لم تطل كثيراً ، اذ ما كاد مارك اوريل يتوارى ويخلو

العرش بموته حتى عادت الخصومة على أشدها .

وفي هذا القرن الافلاطوني الاستثنائي ، لم يتمتع مجلس الشيوخ ، مع ذلك ، بأية سلطة مستقلة ، اذ كان الامبراطور يشرف عن كثب ، على انتقاء الحكام وكبار الموظفين ، في حال عدم توليه امر تعيينهم بنفسه ، ويخلق وظائف شرفية لا طائل تحتها ، كما يحرص اشد الحرص على تشكيل اعضاء المجلس وتأمين التسلسل الدقيق في المراتب والدرجات . فالمجلس لا يخطر له يوماً على البال ، معارضة رغبات الامبراطور ، والقرارات التي يتخذها هذا المجلس ، تختفي وتلنخ عندما يصدر الامبراطور مراسيمه فيبادر اعضاؤه الى إقرار المشروعات التي يعرب عنها في خطبه وتصريحاته . وللامبراطور ، كما لمجلس الشيوخ ، حق الاعتراض ، والاحتكام برفع القضايا الى مجلس أعلى ، غير ان الاعتراض ينتهي دوماً لمصلحته هو ، وليس لمصلحة المجلس . فاذا ما نال مجلس الشيوخ ، في عهد الأسرة الانطونية ، وحده ، الحق بمحاكمة احد اعضائه جزائياً ، فهو يحرص على ان يتبين رغبة الامبراطور وارادته الحقية في الأمر وسريته قبل اصدار حكمه ، كما انه يبادر في الحال الى الاعراب عن أسفه وندمه ، اذا ما خانه الظن وطاش فأله . ولعل اهم امتيازات مجلس الشيوخ الروماني ، هو ان يفوض ، من قبل الشعب ، وباسم الشعب ، السلطة للامبراطور الجديد . غير انه لم يكن لرأيه إلا ما ندر ، وزن حاسم ، كما وقع للامبراطور نيرفا وللانبراطور تريانوس . والموقف العادي المألوف الذي يقفه هو الاعتراف بمن وقع عليه اختيار الجيش وقراره له ، او المصادقة على قرار الامبراطور السلف بشأن الخلافة .

ولكي يتوفر له غير ما توفر من سلطة وهمية ، كان عليه ان يضطلع بتوجيه سياسة البلاد الخارجية ومراقبة حكام الولايات وما تحت إمرتهم من جيوش ، والسيطرة على اموال بيت المال . غير ان تحرر قادة الجيش ، قبل نهاية الحكم الجمهوري ، جرّد المجلس المذكور من كل هذه السلطات والصلاحيات ، ثم جاء عهد الامبراطورية فأجهز على ما كان تبقى له منها . فعق الحرب او السلام هو بيد رئيس الجيش الاعلى . فنذ اوغسطس ، خضعت البلاد لتقسيم اداري أدخل عليه فيما بعد تعديلات لم تتمدّ الاساس القائم ، والمبدأ المعمول به . فالولايات المشيخية وحدها هي التي لا تقوم فيها فرق من الجيش ، وهي الولايات التي استتب فيها الأمن ولا اضطراب على حدودها الخارجية . تابع مجلس الشيوخ ، في اول العهد الامبراطوري ، مراقبة الموظفين الذين يتولون ادارة بيت المال ، الملقب « بهيكل ساتورن » والذي لم يكن يتغذى إلا من الرسوم الجبائية من ايطاليا والولايات المشيخية ، وهي رسوم لم تكن لتغطي مصروفات الدولة في هذه المقاطعات . فعلى خزانة الامبراطور ان تبادر لسد العجز . ومنذ عهد نيرون ، اخذ الامبراطور يُمنى شخصاً بتعيين ولي بيت المال « *Aerarium* » والحد من صلاحية مجلس الشيوخ في ضرب العملة إلا البرونزية منها . كان في روما قطاعات واسعة في الادارة العامة يقتضي لها الاختصاص والتقنية ، كما يقتضي لها المضي في الخطة العامة الموضوعة لها . من هذه الادارات : مديرية البوليس ، ودائرة التموين *Annone* ودائرة القناطر المائية *Aqueducs* ، ويجرى نهر التيبر وشواطئه ، والمجارير

العامة ومباني الدولة ، وكلها دوائر بمعزل عن اختصاص الموظفين ، ترجع لاشراف الامبراطور مباشرة .

فالشكليات التشريعية والمظاهر الخارجية استمر العمل بها بعد ان بولغ في الحفاظ عليها . غير ان المخطاط النظم القديمة كان قطع مراحل بعيدة بالرغم من الاحتفاظ بالهيئات الشعبية ونظام الوظائف الادارية ، ومجلس الشيوخ ، وبذلك ألبس العهد الامبراطوري النظام الملكي الذي اقامه في البلاد ، رداءً جمهوري المظهر .

٣ - النظم والمؤسسات الجديدة التي طلعت بها الحكومة والادارة المركزية

قابل الخسار العهد الجمهوري ، في الجانب الآخر ، قيام ادارة جديدة ضرورة التطور ومصاعبه اقتضت ما اقتضته من نظم ومؤسسات اخذت تتفتح وتتنظم تحت اشراف الامبراطور وبمعيته ، فضمت عدداً من الموظفين عهد اليهم الاضطلاع ببعض نواحي الادارة ومساعدة الامبراطور في الحكم . ففي خلال هذين القرنين ، لم يبق احد من هؤلاء الامبراطرة ، حتى من اشتهر بينهم بموقفه المعتدل من مجلس الشيوخ ، وباستعداده الطيب نحوه ، بمالأة هذا المجلس الذي لن تسنح لنا الظروف بالتنبؤ به ، إلا بنسبة ما يتصل بأتفه الاحداث التي رافقت هذا التطور بعد ان اصبح لا يُقاوم . صحيح انه قطع بعض المراحل بسرعة ، وهي سرعة لم تتم في عهد الامبراطرة الأكثر فظاظاً او ذوي النزعات الأكثر اضطراباً ، امثال كاليغولا ودومتيانوس مثلاً . فقد جاء هذا التطور على يد امبراطرة تأثروا كالامبراطور كلوديوس ، مثلاً ، بنصح بطانتهم النيرة ، او كالامبراطور هدريانوس ، الذي كان عهده حانماً ، فوضعوا نصب أعينهم ، في الدرجة الاولى ، مصلحة الدولة العليا .

وهذا التطور الموصل ، لا يمكن ان يفوت معناه احداً على الاطلاق . فمن شئت من المقاطعات وللم الولايات ضمت بعضاً الى بعض ، بعد ان تم فتحها على يد مدينة مظفرة ، حكمتها ونظمتها بوسائل مرتجلة ، وأمنت حاجاتها كما تبذت لهذه المدينة ، وراحت تطبق هذه الاساليب بالذات ، حقاً او بطلاً ، على العالم الذي خضع لها ، كان لا بد للامبراطورية الرومانية ان تهدف لنظام دولة ، وان تصبح بالفعل ، دولة لتحقيق الاهداف التي تضمنها نصب عينها ، والرسالة التي تضطلع بها . فقد تأثرت ، ولا شك ، بما عرفت من خبرات الممالك الهلينية التي قامت في الشرق او ربطتها بها علاقات نامية واخذت الكثير من نظمها السياسية والادارية . فأين يمكن لها ان تجتهد ، في هذا المجال ، احسن من الشرق الهليني تجربة ناضجة ، مكتملة ، والمناهج القوية التي لا بد لدولة عظيمة ، من الاعتماد عليها والركون اليها ؟ فلا عجب ، ان يرد الامبراطرة الرومانيون على مثل هذا المعين الثري يعبتون منه ويصدرون عنه . إلا انهم كانوا متحفظين جداً في ما

نقلوا ، وحرصوا ألا يكون القبس تقليداً حرفياً ، ونقلوا أعمى ، فراحوا يكتفون ، وفقاً لأغراضهم وحاجتهم ، بعض النظم التي تلقفوها ، كما استنبطوا من جهتهم حلولاً جديدة للمشكلات التي عرضت لهم .

يحذر بنا ، ونحن نستعرض لهذا كله ، ألا نعول كثيراً على تضارب آراء الكتبة الاقدمين وجدلهم الصاخب ، الذين ردّدوا ، من حيث يدرون أو لا يدرون ، ورتجوا ، عن وعي أو غير وعي ، رأي مجلس الشيوخ المعروف بتمسكه بماض مرّ وانقضى ، أفزرعه طلوع طبقات اجتماعية جديدة في البلاد ، وهاله سفتح « الحرية » ، واستبداد النظام الملكي من كل جانب . ففي التاريخ القديم ، على ادنى تقدير ، لم نر أي نظام ملكي ، حتى هذا النظام الامبراطوري نفسه ، يقبل ، راضياً مرضياً ، على الأخذ بمثل هذه الوظائف في الادارة . فهو يشعر مسبقاً بفقره واحتياجاته الشديدة للموظفين الفنيين ، الأمناء المخلصين ، كما انه لا يحفل قط كيف ان رسوم الجباية والضرائب مهما زيدت ، تقصر عن تغطية الزيادة الحاصلة في بابي النفقات والصرف ؛ فلا بد ، والتالي ، ان يصاب نشاط الدولة بشيء من الوهن والضعف ، من هذا كله . فلا يقبل على الأخذ بالنظم الجديدة إلا بضغطة من الضرورات القصوى . ففي هذا الطرف بالذات ، فلذة الاستبداد لا تدخل في الحساب ، بل الحاجة الملحة للتنظيم ، لجعل الادارة أكثر فعالية ولانقاذها مما عانت من سوء التصرف ، ومساوئ عدم الكفاءة وعدم الانسجام التي تضرست بها من قبل .

فلسفة العهد في مرحلته الاولى ، لم تكن ذات نزعة مطلقة . فهي على عكس ذلك تماماً ذات نظرة شوری . فالألوف من القضايا والامور التي كانت تُعرض من قبل لنظر كبار الموظفين ، أو لحكام الولايات ، أصبحت تُرفع ، منذ الآن فصاعداً ، للامبراطور رأساً . وهذا التوزيع الذي ساد الادارة من قبل ، وحال دون خلق دوائر وإحداث مصالح فيها ، ولو بشكل بدائي ، أولي ، زال وانقضى وحل محله تجميع اداري جعل من الضرورة انشاء مثل هذه الشبكة الادارية وتنظيمها . فلم تلتأ كلها دفعة واحدة ، مكتملة الجهاز والاختصاص . والذي تأخر ظهوره ، ولا سيما في بعض المصالح ، هو الاعتراف بالطابع الرسمي لهذه المصالح ، مع انه كان باستطاعة الامبراطورة فرضها بالقوة قبل ذلك بكثير ، انما آثروا بقاءها والاستعانة بها كأدوات مساعدة خاصة . وقد بدا ، لعمرى ، شيء من التناقض ، ولو في الظاهر ، بين العهد الجديد ، من حيث كنه وجوده وطبيعته ، وبين النظام الوظيفي الذي تبناه وسار عليه ، هذا النظام الذي قام في الأصل ، على التفوق البارز الذي تجلّى في مؤسسه ، فاذا بالدولة تخفض من أثره المباشر فأقصرت عمله الاكبر على التوجيه ، والإشراف على ادارة لها كيانها الخاص وتنعم بالديمومة والاستمرار .

هذه الملاحظات التي ابديناها هنا ، تلاحظ على الاخص ، مجلس امبراطور الخاص . الامبراطور الخاص ، والمصالح العديدة الاخرى التي اقتضاها حسن سير العمل في هذا المجلس ، والتي لم تدخل في صلب تكوين الدولة الا من عهد هديرانوس .

كان لاوغسطس، منذ البدء، اصدقاء حميمون، بينهم « مكيني » و « أغريبا »، كما كان يحف به، في اوقات الحرب، رفاق سلاح لم يلبثوا ان ألتفوا حوله اركان حربه. وهذا العرف التقليدي، له اصوله الرومانية البعيدة الجذور والمحترمة معاً - فعلى كبير القوم ان يستشير من حوله - كما له اصول هلينية، ولذا استمر الاخذ به والحفاظ عليه. ومع ذلك لم يبلغنا قط، ان هؤلاء « الاصدقاء » ألتفوا يوماً، بالرغم مما بين الاسماء من مشابهاة، طائفة او هيئة سلسلة الدرجات والرتب، شبيهة، من بعض الوجوه، بما كان معروفاً من امثال هذه الهيئات، في الممالك اليونانية.

فالاهمية المتزايدة للدور النامي الذي لعبه الامبراطور في الحقلين العدلي والقضائي هي التي تُبرز التقدم الذي تحقق في انشاء « مجلس الملك » الذي كان يجتمع بصورة غير منتظمة، كما ان تشكيله كان يختلف في عهد اوغسطس، ولم يصبح قائماً، ثابت الشكل إلا في عهد طيباريوس. وقد تجدد تشكيله رسمياً واعيد النظر جذرياً في قوامه، في عهد هدريانوس. وكان اعضاؤه يقسمون الى ثلاثة فئات، ويتقاضون مرتبات سنوية ويمقدون جلساتهم برئاسة الامبراطور او برئاسة كبير امناء البلاط، في حال تغيبه. وهم يتألفون عادة، من شفاليه وشيوخ، يقر مجلس الشيوخ نفسه تعيينهم في هذه الوظيفة. وبين اعضاء المجلس عدد من كبار الفقهاء والمشرعين، يتحلون، مهما كانت الظروف، بالكثير من الحنكة والخبرة الواسعة ونفاذ البصيرة، وذلك للبت بالقضايا المحالة الى مجلس الامبراطور او المستأنفة اليه للنظر فيها من جديد، وذلك لتفسير لقانون جديد، او شرعاً او تكملة لتشريع خاص. ففي مجال الشرع، حقق مجلس الامبراطور الخاص *Concilium principis* عملاً تشريعياً عظيماً من ابرز الاعمال التي قام بها العهد الامبراطوري.

لا بد للامبراطور من كتابة سر او ديوان، اسوة بسراة القوم وعظماهم عند المكاتب الادارية الرومان. فاستخدم اوغسطس، في هذا السبيل، أمثال ما لديه من الأرقاء أدبياً، وارفعهم ثقافة، وابرزهم علماً، وهم على الغالب، اقوام اغارقة او شرقيون، اعداليهم حريتهم، وأعتقهم، بعد ان رسفوا في العبودية طويلاً فاعتقهم وحررهم، تقديرًا منه للخدمات الجليلة التي أدوها.. وكانت امانة السر في بادئ الأمر، ديوان كتابة خاص، لا مشاركة له في الصلاحيات والاختصاص. ومثل هذا الديوان تم انشاؤه على يد الامبراطور كلوديوس، الذي اذناً ايضاً عدداً من الدواوين والمصالح، فجعل واحداً منها للآداب، وآخر للمظالم، وآخر للتحقيق القضائي، وآخر للدراسات، وبعد ذلك قام ديوان آخر هو ديوان بيت المال او المحاسبة. واستمر العمل بهذه الدواوين لتيسير مهمة الادارة، كما نشأ غيرها كثيراً فيما بعد، كديوان المحفوظات *Archives*. وهكذا قام الى جانب الحكومة المركزية اجهزة ادارية أتيح لها ان تقوم بعمل رتيب، رصين، موصول الاصول، لم يكن بد منه للانضباط.

ويبقى رؤساء هذه الدواوين او المصالح الادارية، لمدة ثلاثة ارباع القرن، بين يدي المعتقين من الرق. من أشهرهم في عهد كلوديوس الامبراطور: نرسيس *Nurcisse* وبسلاّس. فالنفوذ العريض الذي تم لها، والغنى الوافر الذي جمعاه بطرق وأساليب تختلف أمانة واستقامة،

والاجلال الذي أحيطا به وهما في بطانة الامبراطور ، والملق الذي لاقوه من ذوي الالتماس ، جعل اعضاء مجلس الشيوخ يجرضون في ريقهم حسداً ، كل ذلك لم يخف عن الناس ، الأصل الوضع الذي انطلقوا منه . فاذا ما خدموا الامبراطور فخدمتهم هذه تذهب لسيدهم بكل ما في الكلمة من قوة شرعية أكثر مما تتجه للامبراطور نفسه . وعلينا ان ننتظر طلوع عهد هدريانوس لنرى تغييراً جوهرياً في طبيعة هذه الدواوين ، اذ اخذ الامبراطور يسندها ويلقي بها الى شخصيات لها شأنها في المجتمع ، فيأتي بهم ، في معظم الحالات ، من صفوف الشفاليه . فأعضاء مجلس الشيوخ لا يمكن الاعتماد كثيراً على ولائهم ، كما ان المنزلة التي لهم باعتبارهم اعضاء الندوة المذكورة ترشحهم لوظائف أكبر ، من الوجهة العملية ، مع انها ترتبط بالامبراطور من الوجهة النظرية .

وأجهزة التقرير والتبليغ هذه ، كانت تهتم بشؤون العالم الروماني كله بينما أنشأ وصاية رنيابة الامبراطرة عدداً من الوظائف الاخرى ، تعمل بها في ايطاليا وبعضها في روما فقط ، وهي وظائف وادارات لا يمكن فصلها عن الحكومة المركزية بشكل من الاشكال نعمت كلها بصلاحيات وسلطات محلية وفقاً لدوائر ادارية معينة ، كما لعبت دوراً مهماً في عالم السياسة . وهذه الوظائف المتباينة في طبائعها وصلاحياتها وفي مسؤولياتها ، من الملل والنافل معاً ان نحاول هنا استعراضها جميعاً ؛ يعهد الامبراطور ببعضها الى مفوض او مندوب يدير شؤونها ويتحمل مسؤولياتها كوظيفة « نواب » *Préfets* ، اما الاخرى فوظائف مزدوجة لها طابع فني او تقني ، تستوجب من صاحبها الاختصاص والاستمرار ، وهي شروط لا تتوفر عادة في الحكم والمراقبين الذين ينتدبون لمدة سنة . ومن بين هؤلاء الموظفين : الاوصياء *Curateurs* الذين يتألف من مجموعهم لجان تقوم بالاعمال التي كان يعهد القيام بها من قبل الى « سنسور » المراقب . والخاصة المهيزة لهؤلاء الموظفين هي انهم يعيّنون من قبل الامبراطور ، وهو يدفع لهم مرتباتهم ويخضعون للترقية والترفع ، والعزل والرفق ، حسبما يراه مناسباً . وبما ان الادارة لا تنفصل عن العدل والعدالة ، فالامبراطور يتدخل بواسطة المندوبين والمعتمدين في معظم شؤون الدولة : العامة والخاصة ، على السواء .

بين هذه الوظائف ، عدد كبير يحتفظ به لاعضاء مجلس الشيوخ ، منها وظائف الاوصياء ، باستثناء ما كان منها خاصاً بالطرقات الثانوية او الفرعية الواقعة في ايطاليا ، ومنها الطرقات الرئيسية او الدولية ، وقناطر روما ، ومصلحة ضفاف نهر التيبر ومجاري المدينة ، الى غير ذلك . ومن هذه الوظائف : نيابة المدينة التي انشئت ، في الأصل ، لتمثيل الامبراطور في روما ، عندما يكون غائباً عنها ، وبقيت وظيفة دائمة ، استمر العمل بها ، بعد مكث الامبراطور طيباريوس الطويل في جزيرة كابري . وعلى صاحب هذه الوظيفة ، ان يسهر على الامن واستتبابه في جميع انحاء المدينة ، وتحت تصرفه ثلاثة طوابير من البوليس البلدي . وبعد ان استهدف صاحب هذا المنصب لمنافسة شديدة طويلة ، بقي على رأس القضاء الجنائي ، في روما وضواحيها ،

على مسافة ١٠٠,٠٠٠ خطوة او ما يوازي ١٥٠ كلم ، فاذا ما جمع الى وظيفته وهي عضوية مجلس الشيوخ ، عد ذلك تكريماً لمجلس الشيوخ كما عد اعترافاً من الدولة بالدور المجيد الذي لعبه هذا المجلس في تاريخ روما والامبراطورية التي انشأتها .

اما النيابات الاخرى فيشغلها موظفون من فئة الشفاليه ، بينها ثلاثة خليفة بالاحترام تستحق التنويه بها بشيء من التفصيل .

فالاول منها هي نيابة الـ *Prætor* او الولاية وتشبه رئاسة الاركان ، وهي عبارة عن مركز عالٍ متعدد النشاطات والصلاحيات . فنائب الولاية هو قائد حرس الامبراطور قائد الجيش الاعلى ، الذي يتألف عادة من تسعة طوابير ، يعد الواحد منها بين ٩٠٠ - ١٠٠٠ جندي ، ومركزها روما . منذ عهد طيباريوس ، بينما لم يكن منها في عهد اوغسطس ، في ايطاليا كلها ، سوى ٦ فرق لا غير . وهذه القوة مكلفة بالسهر على الامن وتأمين اسبابه ، وتمكين الامبراطور من ممارسة سلطته غير المحدودة باعتباره القائد الاعلى للجيش .

ورئيس الحرس يحمل دوماً خنجرأ صغيراً رمزاً لوظيفته وللصلاحيات الواسعة التي يمارسها ، يقلده اياه الامبراطور تنويهاً منه بان له حق الموت والحياة . ويقوم نائب الولاية ، من جهة ثانية بدور رئيس اركان الجيش ، ويتعهد تجهيزاته لاسيما في اوقات الحرب ، ويمارس ، في ايطاليا ، السلطة الجنائية ، على مسافة ١٠٠ ميل ؛ كما ان موظفي هذه الفئة هم ، بحكم الوظيفة التي يشغلونها ، اعضاء مجلس الشورى ، كما نظمه الامبراطور هدريانوس . فصاحب هذه الوظيفة ، يأتي في قمة سلم الدرجات الوظيفية ، وهي وظيفة تحفظ عادة لفئة الشفاليه . غير ان اباطرة العهد الاول يترددون في امر صاحب هذه الولاية ، يعهدون بها ، من وقت الى آخر ، دونما تمييز او تحديد في الصلاحيات ، الى اثنين من الموظفين ، او الى واحد ، على السواء . الا انهم يفضلون ، مراعاة منهم للفعالية وحسن التنفيذ ، وضبطاً للإدارة ، إسنادها ، في الغالب ، الى موظف واحد ، مع ما عرف عنهم من حذر وتحسب له ما يبرره ، اذ ان قصة سيجان ، في عهد طيباريوس ، وبيريليس ، في عهد كومود لا تزال ماثلة في الأذهان . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان يوجس الابطارة شراً من العهد بمثل هذه القوة والسلطة الى نائب تجيش نفسه بالاطماع . ومن الامراض التي اوهنت العهد وفتت كثيراً في عضد الدولة لتفشيها ، عدم توفر الولاء في هؤلاء الحكام ، وافتقار الموظفين للاخلاص ، وحب الانتفاض والثورة التي كثيراً ما تمخض بها جنود الولاية . فلا عجب ان يكون والي الولاية هو المسؤول الاول عما يحدث في الولاية من امور تخل بالامن .

اما الولايتان الاخرتان الاقل نفوذاً وتأثيراً : ولاية الحراس *Vigiles* (شرطة الليل وسرية مكافحة الحرائق) ومصلحة التموين والتوريدات *Annonæ* ، فلم يكن من خوف او تحوط من اصحابها . فقد أولت ظروف الحياة وملابسها المتشعبة والمعقدة في روما ، هاتين الوظيفتين ، اهمية كبيرة لما كان يجب ان يتحلى به صاحبها من الاستعداد الفني والتقني . فلا عجب ، والامر كما ذكرنا ، ان يُضفي عليهما منصب والي الولاية ، بعض الظلال الكاسفة ، وذلك بالنسبة للقوة

العسكرية والحربية التي كانت توضع عادة تحت تصرف هذا الوالي .

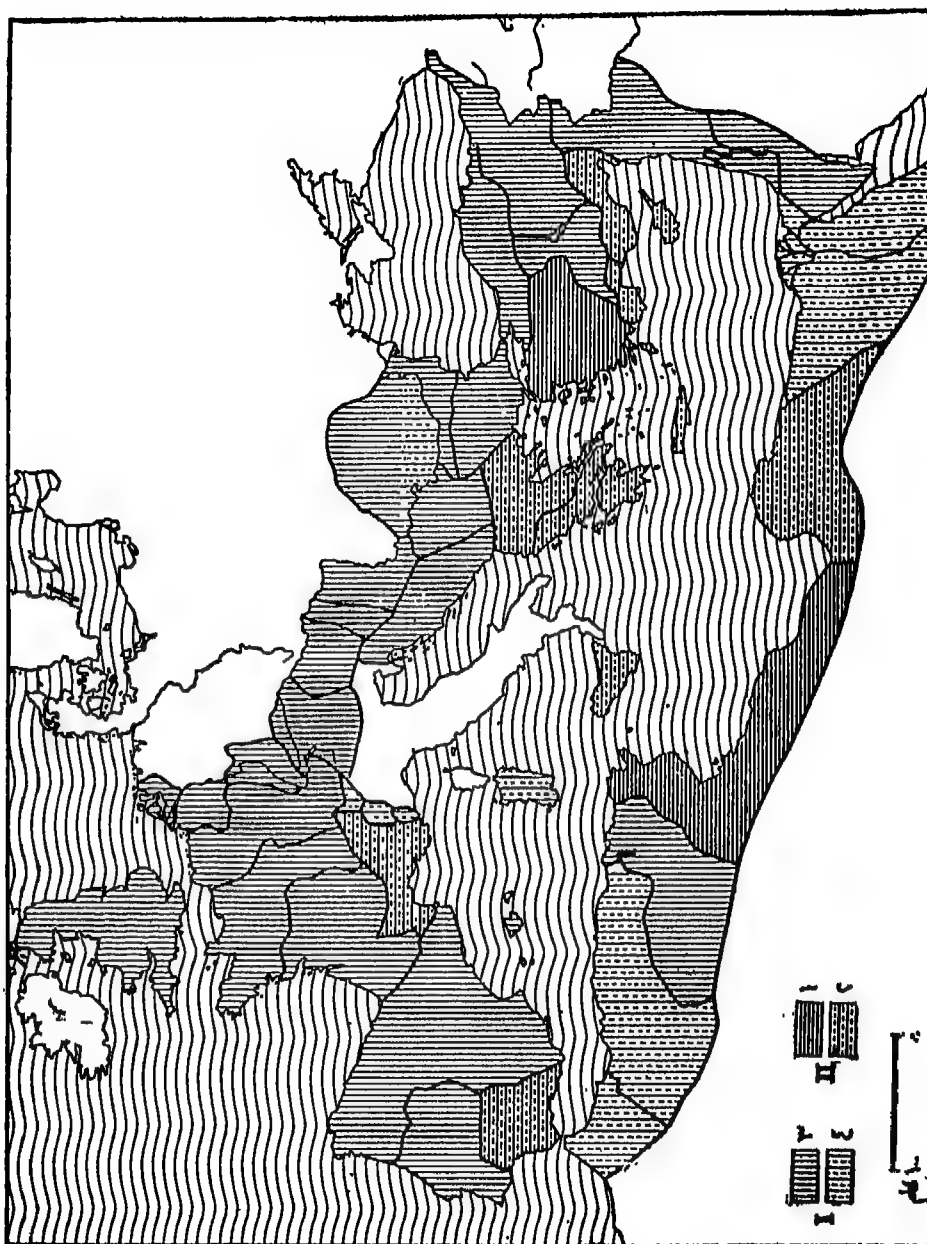
عدد كبير من هذه الوظائف المستجدة يعيد الى الازهان سوابق من الوظائف الهلينية. فمدير الحرس يذكرنا حتماً ، بقائد الليل *Stratège de nuit* لدى البطالسة ، ووالي الولاية نفسه المستمد صلاحياته من القانون الروماني العام يحمل طابع قائد الحرس الملكي في الممالك اليونانية التي قامت في اعقاب خلافة الاسكندر المقدوني بما اعتوره من شوائب ولازمه من عورات . وذلك يعود بالفعل ، الى طبيعة الوظيفة ومهامها الاساسية لدى الطرفين : فهي واحدة هنا وهناك ، اذ تقوم اصلاً بالاشراف ، والعمل على كل ما من شأنه ان يزيل الاضطرابات والقلق والفوضى . فاذا ما عرفت الامبراطورية ان تحمل المشكلة على مثل هذا النطاق الواسع من الاجراءات والاحتياطات ، وعلى مثل هذا الاهتمام الشديد والمستوى العالي الذي لم يُبلغ الى مثله او بعضه في الممالك الاخرى ، فمرد ذلك ، من جهة ، الى انها افادت كثيراً من التجربة التي تلقتها من الخارج ، كما انها راعت ، من جهة ثانية ، ما كان يحف بروما من وضع معقد بالنسبة لعدد سكانها الكبير والاهتمام الذي هم به جديرون والابحار التاريخية التي يمثلون . ومهما يكن من الامر ، فالباطرة ، لم يعودوا ليعنوا ، هم انفسهم ، بحل المشكلة عن طريق ايجاد مصلحتين لهذا المنصب او دائرتين ، طالما راح غيرهم يبحث عن مثل هذا الحل ، ان لم يكن توصل بالفعل ، الى حله بعد . من ذلك مثلاً انهم اقاموا حاميات دائمة مستقرة ، كما عهدوا بالامر ، من جهة ثانية ، الى عملاء ، لهم كل الثقة بولائهم فأولوم صلاحيات ومسؤوليات انتزعوها ، على نطاق واسع ، من مجلس الشيوخ ومن بعض الحكام ، بحيث يستطيعون معها تأمين الادارة البلدية .

فالنتائج النظرية جاءت جلية ، واضحة بينما كانت هذه النتائج ، من الوجهة العملية بسيطة لا يؤبه لها كثيراً . علينا مع ذلك ان نلاحظ هنا ان الصعوبات العملية جاءت من قِبل قسم من الجيش والحاميات المرابطة دون ان يشترك الشعب بهذه الاضطرابات او يساهم في إثارتها ، كما حدث في كل من الاسكندرية وانطاكية .

٤- الادارة المحلية والاقليمية

كذلك كان من الضرورة بمكان ، تأمين ادارة رشيدة للامبراطورية ، تبرز معها المسؤوليات ، تقتضي وحدها في السياسة ، كما تقتضي مواصلة العمل على تحقيقها . وكان من المحتم على السلطة الامبراطورية ان تبرهن ، منذ البدء ، عن سيطرتها المطلقة وامتلاكها ناصية الامور والاشراف على الادارة الحكومية التي اخذت بالاتساع والتضخم .

بجرد التفكير بتجريد ايطاليا بما لها من وضع ممتاز في الامبراطورية ، والقضاء على ايطاليا
الامتيازات التي كانت تتمتع بها ، منذ عهد بعيد ، كان من شأنه ان يثير وحده ،
العتار ويطلق الشكوك . ففي هذا القطر الذي كانت فيه روما تتمتع بما تتمتع به من وضع مدني



الشكل ٩ - خريطة التقسيمات الادارية للامبراطورية الرومانية في اواسط القرن الثاني
I - ولايات مشيخية يتولى الحكم فيها حكام من رتبة بروقتصل ؛ ١ - ولايات حكامها قناصل قداما ؛ ٢ - ولايات حكامها بريطور مقدمون .
II - ولايات امبراطورية يتولى ادارة الحكم فيها ؛ ٣ - مندوبون بروبريتوريان من فئة قنصل قديم او مقدم قديم ؛ ٤ . بروكوراتور او ولاة من رتبة شفاليه .
من العسير تحديد الفئة التي كانت عليها جزيرة كورسكا - لم تكن ايطالية منقسمة اذ ذاك الى ولايات .

ممتاز ، كان الشعب يتمتع بشبه ادارة مستقلة- و تتولى الهيئات الشعبية ادارة شؤنها البلدية تحت مشاركة مجلس الشيوخ والحكام الاداريين المحليين ، وقد أدخلت ، بعد ذلك بكثير ، تعديلات على هذا التقليد الموروث : فالشؤون البلدية فيها لم تستبد بالطبع بالاهتمام ، كما استبدت به روما ، ولا عرفت الحدة والدقة في الادارة التي اقتضتها روما في هذا المجال . ومع ذلك كان لابد للادارة العامة من الالتفات لهذه الناحية ، وذلك بتعيين مندوب *Curateur* لهذه او لتلك من المدن التي تعاني البلبلة وعدم الانتظام في ميزانيتها ، وآخر ليعنى بشؤون العدل والعدالة . وقد طلع علينا الامبراطور هدريانوس في هذا المجال بتدبير جديد ألغاه خليفته ، ولم يلبث ان عاد اليه مارك اوريل وأصبح من بعده تدبيراً مرعي الاجراء رسمياً ، اذ قسم شبه الجزيرة الايطالية الى أربعة محافظات او ولايات ، قام على ادارة كل منها ، شيخ من اعضاء مجلس الشيوخ يحمل لقب « قاض » ، اذ كان بين اختصاصاته القطع بالقضايا المدنية ، بينا القضايا الجنائية كانت من اختصاص ولاية المدن والولاية الذين كانوا يعنون بمراقبة سير الحياة في المدن ، ويتدخلون بشؤونها ، كلما سنحت لهم الفرصة لذلك . وهكذا تم تدريجياً إعداد ايطاليا وتثبيتها للمصير ذاته الذي آلت اليه الولايات الأخرى ، بعد ان رؤي ادخال تحسينات جديدة على اوضاع المدن في الولايات الأخرى .

تقدم ذكر الخطط الادارية الكبرى عندما جرى البحث عن وضع توزيع الولايات والحكام
الولايات . ففي ١٧ كانون الثاني (يناير) عام ٢٧ ق . م ، صدر مرسوم قسمت معه الولايات الرومانية خارج ايطاليا ، بين مجلس الشيوخ وبين اوغسطس ، على أساس من التوازن بين الجانبين . وما لبث هذا التوازن ان اختل فيما بعد ، لصالح الامبراطور ، للتعديلات التي طرأت على هذا الاتفاق ، ولا سيما بعد ان ضمت الى الادارة الامبراطورية ، ولايات جديدة تم فتحها في وقت لاحق . ففي اواسط القرن الثاني ، كان الوضع بالنسبة للولايات الرئيسية التي كان يحاكمها برتبة شيخ من اعضاء مجلس الشيوخ ، ومن بينها ولاية مصر التابعة طبعاً للادارة الامبراطورية ، كما يلي : ٢٣ ولاية أمرها منوط بالامبراطور رأساً ، و ١٠ ولايات مرتبطة ادارياً بمجلس الشيوخ .

كان الامبراطور ، بالطبع ، يسيطر عن كثب ، على حكام الولايات الخاضعة لادارته ، وهم ، في الغالب ، من اعضاء مجلس الشيوخ ، سبق لهم ان شغلوا من قبل ، مراكز قناصل او مفوضين ، وفقاً لأهمية الولاية او الحامية العسكرية المرابطة فيها . فهم يحملون لقب « نائب اوغسطس » ، تدليلاً على تابعيتهم ، ويضاف الى لقبهم هذا الوصف *Proprétoriens* تدليلاً على التحاقهم بالامبراطور لأن له الحق وحده في الدولة بأن يلقب بروقنصل في الولايات الآتفة الذكر . اما حكام الولايات الأخرى ، أي تلك التي أنيط امرها بمجلس الشيوخ ، فكانوا يؤخذون من طبقة الشغاليه ، ويعرفون باللقب *Procurateurs* ، فكانوا يتولّون شؤون الولايات الصغيرة ، او ادارة المقاطعات التي لم تكن قطعت بعد شوطاً بعيداً في مضار التطور الحضاري ، مثل مقاطعات

موريتانيا الواقعة الى الغرب من افريقيا الشمالية . وعلى كل ، لم يكن تحت حكام هذه الطبقة أية فرقة من فرق الجيش . وعلى هذا الوضع بالذات كانت مصر وصاحبها يعرف بـ والي . وكانت مصر مركزاً لحامية عسكرية ، اختلف عدد فرقها على توالي الزمن ، فكانت ٣ في القرن الاول ، ثم اثنتان ، ثم واحدة منذ عهد هدر يانوس . وقد دعا الى قيام مثل هذه الحامية في مصر ، ما كان لوادي النيل من أهمية بارزة ، في مدّ روما وإيطاليا بما تحتاجان اليه من المواد الغذائية . ويكشف لنا المؤرخ الروماني « تاسيت » ما كانت تخفيه تولية الامبراطور لولاية مصر من سر خفي ، اذ كان يحذر الحذر كله من دخول أي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ، او أحد من فرقة الشفاليه له شهرته الواسعة ، مصر ، بدون ترخيص خاص منه مسبق ، وذلك لما يتعرض له من اغراء شهوة الخيرات الوفيرة التي كانت ترفل بها تلك البلاد ، والرغبة في الاستمتاع بها ، فيأخذ في تبديد الدسائس وجبك المؤامرات للاستئثار بهذه الخيرات . فيحاول منع تصديرها الى الخارج ، وفي ذلك ما فيه من تهديد لسيطرة الامبراطور نفسه ولروما بالجماعة . ولذا كان الامبراطور يولي الوظائف الادارية الكبرى لاداريين من رتبة الشفاليه ويعهد اليهم بوظيفة حاكم في الولايات الخاضعة لسلطته مباشرة .

ومهما يكن من أمر هؤلاء الحكام ، شيوخاً كانوا او شفاليه ، نواباً للملك او ولاية او مفوضين ، فهم من رجال الامبراطور وخاصته ، يصطفهم بنفسه ، ويعينهم على رأس الادارة ، فيبقون فيها ما طاب له بقاؤهم عليها ، وهم مسؤولون عن ادارتهم امامه وحده ، او امام من ينتدبه من قبله لمحاسبتهم ، ينزل بهم القصاص الصارم ، اقله الرفق والعزل ، اذا ما اساؤا الى ما أؤتمنوا عليه ، من مهام ومسؤوليات ، او يجزيهم خيراً بمنحهم الألقاب الفخرية وترفيعات سنية ، اذا ما رضي عن اعمالهم ونتائج ادارتهم .

ولم يكن من النادر قط ان نرى موظفاً من اعضاء مجلس الشيوخ يتقلب تبعاً بين الوظائف الكبرى فيارس تارة وظيفة *Proprétoriens* او بروقنصل ، اذ لم تكن مثل هذه الوظائف توزع على فئتين من الموظفين : اصحاب الاولى من الشيوخ الذين يمكن نعمتهم بالحياديين او الأحرار ، واصحاب الثانية من الموظفين التابعين للادارة الامبراطورية . فهذه المناصب الادارية ذات الدرجة الادارية المشتركة والصلاحيات المختلفة التي اقتضت مصلحة الدولة وحسن سير الاعمال انشاؤها بكثرة ، وما يحدد لها من مسؤوليات وصلاحيات واغراض ، لم تكن سوى درجات في سلم التوظيف الخاص بالشيوخ ، وفقاً للعرف المتبع ، يعملون جميعاً ، كل واحد ضمن اختصاصه ، في خدمة الدولة ، وتأمين مصالحها . والى جانب الأخذ بهذا العرف الاداري المعمول به ، كثيراً ما كان الاباطرة يتخذون ، ابتداءً من مطلع القرن الثاني ، قرارات ومراسيم ، بتعيين عدد من كبار الموظفين يُنتقون من فئة الشفاليه ، في رتبة توازي عضوية مجلس الشيوخ أو أعلى درجة من بين الحاصلين على الرتبة الأولى من هذه العضوية ، الأمر الذي أدى بالتالي الى توحيد السلك الاداري ، وتأمين التجانس بين سلم الدرجات . وهكذا اصبحت هذه المفارقات النظرية ،

بين مرتبة وأخرى ، لا معنى لها وليس ما يبررها . فالاشخاص الذين يقع عليهم الاختيار للملء هذه الوظائف ، سبق ان اعطوا الدليل على كفاءتهم وعلى ما يتحلون به من قدرات ومؤهلات ادارية ، وعلى جدارتهم المسلكية للمهام التي ينتدبون اليها او تناط بهم . فتعيينهم لهذه الوظائف يُعتبر ترفيعاً استحقوقه ، بعد ان عرفوا ان يجمعوا الى الاختصاص الذي يحملونه ، شعوراً قوياً بالاخلاص للمصلحة العامة المشتركة التي يعملون على خدمتها ، وان يزدادوا ولاءً للامبراطور ، بنأى عن روح الزلفى والملق التي تطبع عادة رجال الحاشية والبلاط .

في هذه الروح تقوم بالفعل احدى المفارقات التي ميزت العهد الجديد روح جديدة تغمر الادارة الذي طلع على البلاد ، والى مثل هذه النتائج الطيبة ، افضت التطورات التي طرأت على جوهر الادارة المحلية في الولايات .

فالمركية الادارية التي سار العهد الجديد على مبدئها وطبقها في الولايات ، لم تجلب معها المزيد من الحرية لسكان الولايات . فمثل هذا الجهاز الاداري البطيء الحركة والثقيل الوطأة لم يقتصد عليهم بالمتاعب . فالحرية التي ما زالت بعض الجماعات والهيئات الشعبية المحلية تتمتع بها ذهبت ، هي الأخرى ، ضحية الاصلاح الاداري ، فجرت على الأمور الادارية وقضاياها شيئاً من البطء والتهمل في معالجتها ، والتشاغل في تحريكها والانتقال بها ، اذ كثيراً ما كانت الادارة المحلية تضطر لرفع الأمر للادارة المركزية للموافقة على التدابير والاجراءات التي تتخذها في امر معين . فانشاء مصلحة البريد الرسمي للدولة وتنظيمها في عهد الامبراطور هديرانوس تحمّل اعباءها ، السكان القريبون من طريق البريد ، اذ فرض عليهم ان يؤمنوا ما يحتاج اليه البريد من حيوانات الجر ووسائل النقل .

ومع ذلك ، فاذا ما رحنا نقارن بين المنافع التي عادت على الشعب في العهدين شالت كفة الامبراطورية ورجحت . فالولايات التي لم تكن لتبالي باحتضار مجلس الشيوخ وحشرجته ، لم تتضرر كثيراً بما حيك من دسائس في البلاد ومن الاغتيالات السياسية التي أتاها احبائها . فالمصالح الادارية الكبرى عرفت ان تؤمن التعاون بين مختلف الدواوين ، وان تطبق بحذافيرها ، نصوص القوانين المعمول بها من قبل ، وذلك حتى في احلك الأزمات التي هزت الامبراطورية وفي عهد أسوأ الباطرة . ان امبراطوراً من طينة نيرون مثلاً ، لم يكن كله سيئات . فترك اثرأ مختلف قدرأ لدى سكان الولايات . فما عسى ان يكون الوضع ، والحالة هذه ، مع اباطرة خيرين ، عرفوا بنشاطهم العارم ، وتفرغوا للعمل المجدي على صعوبته ، امثال : طيباريوس ، وفبسسيانوس ، وترايانوس ، ومن جاء بعدهم . وهكذا جاشت الحكومة بادارة جديدة ، غمرها ، أكثر فأكثر ، شعور الولاء للسلطة ومكنت لهذا الشعور في نفوس الناس وقلوبهم ، صهرتها التجربة ، وصقلتها الاختبارات الماضية فتأثرت ، الى حد بعيد ، بالنظريات والفلسفات الهلينية ، ولا سيما بالنظرية الانسانية التي تنزّت بها فلسفة الرواقين فانسجمت مع النزعات الرومانية بعدان لفتحها . وتمتعت هذه الادارة ، الى جانب الثقة التي اولتها السلطة الامبراطورية ،

بما يلزم من الوسائل لفرض مشيئتها وللتعبير عنها بأعمال واجراءات حظيت بتأييد السلطة ومساعدتها . وهكذا رأينا حكومات الولايات تنعم ، هي الأخرى ، بجهاز اداري ، تم له في جميع درجاته ، الملاكات والأنطر اللازمة ، والمؤهلات الادارية التي لا بد منها . فكانت من المتوجب على كل حاكم ولاية ان يراقب ، عن كثب ، مرؤوسيه ، كما كان يخضع ، هو الآخر ، لمراقبة أعلى ، من قبل الادارة المركزية ، بما حوله من عيون مبثوثة وأرصاد قائمة . وقام الى جانب الوالي دوائر ومكاتب ديوانية محلية ، انتظمت أعمال الادارة ، وسارت بها على شكل ما قام من امثاله في روما . ولم يكن ليبدو لأحد قط ان الأمر بلغ حد الكمال والتام في هذا كله ، انما ساد الجميع شعور بأن الوضع الإداري احسن حالاً بكثير ، مما كان عليه من قبل .

برزت هذه الحقيقة على أنصع صورها في مرفقين هامين من مرافق الادارة العامة في
المدالة
الامبراطورية ، هما : العدل والوضع المالي في البلاد .

قام فوق السلطات البلدية حاكم الولاية الذي أخضع ما كانت تتمتع به هذه البلديات من حريات ، لقيود وتضييقات متزايدة . فكان قطب الادارة الاقليمية ومرجعها الأكبر . فهو الذي يتولى النظر في أم القضايا المدنية التي تعرض عليه ، ويُقرّ الأحكام بالموت التي تصدرها المحاكم ، كإحداث ذلك لبيلاطس البنطي ، والي اليهودية ، عندما صدّق على الحكم بصلب السيد المسيح . كان للرعايا الرومانيين الحق بأن تجري محاكمتهم في روما اذا ما راحوا يتمسكون بحقوقهم هذا ، فيمثلون امام محكمة الجزاء فيها وليس امام مجالس الهيئات الشعبية التي فقدت تباعاً كل صلاحياتها القضائية . وقد افاد القديس بولس وغيره كثيرون ، من هذا الحق الذي تمتعوا به بوصفهم يحملون الرعية الرومانية . وهنا مجال للتساؤل كيف ان تكثر عدد من يحملون هذه الرعية لم يفض الى ازدحام هذه المحاكم بالمتداعين ، إلا ان يقال بوجود حالات خاصة متميزة ، او الافتراض بأن بعض الحكام تجاوزوا صلاحياتهم دون ان ترتد فرائضهم او يؤنبهم الضمير . فها مثلاً الحاكم « غلبا » ، نائب الامبراطور في اسبانيا ، قبل اعتلائه العرش ، يأمر بقتل متهم يحمل الرعية الرومانية بالرغم من احتجاجه بجنسيته الرومانية ، ويعطّق على صليب ابيض عال ، آخر لتسميمه ربيعاً له ، ثم تراه هو ذاته ، بعد ان أصبح امبراطوراً ، يحكم بالموت على نائب الامبراطور ومثله في جرمانيا السفلى ، لاهماله التماس مجرم رفع محاكمته الى روما ففُضِر بالتماسه عرض الحائط . وسها يكن ، ففي بعض الحالات عندما تكون الجريمة فاضحة نكراء ، كانت القاعدة المألوفة ان تجري المحاكمة في المكان الذي تقع فيه الجريمة .

حرص كل الولاة الرومانيين على ان يقوموا بواجباتهم القضائية خير قيام . ولذا نراهم يجرّون دورات تفتيشية منتظمة في ولايتهم ، وقيمون مجالس للعدل والنظر في أمور الناس ، في كل المدن الرئيسية التي يرون بها ، وهم في هذا كله ، يستمعون بأهم رجال القانون ومشاهير الفقهاء ، فيتولون بأنفسهم ، او بالوكالة ، التحقيقات القضائية التي لا بد منها . وكانت بعض الولايات تقسم الى أقضية ولكل قضاء نائب عمومي يقوم بالمحاكمات . وكانت طبيعة الأحكام التي

يصدرها الحاكم هي الدليل الأكبر على ما فيه من مقدرة وعلى ما يتصف به من نزاهة ونصفة ،
اذ لم يكن هنالك مجال قط لتجد الرشوة طريقها اليه .

والخطر من ان يركب القاضي رأسه فيصدر احكاماً اعتباطية ، كان يحد منه حق المتهم
بطلب محاكمته في روما كما كان للامبراطور الحق برفع كل قضية اليه . فعلى صاحب الظلامة ، في
الولايات الامبراطورية ، ان يرفع ظلامته للامبراطور نفسه . اما في الولايات المشيخية ، فبإمكان
المتظلم ان يلتمس محاكمته امام الامبراطور او امام مجلس الشيوخ ، إلا انه كان يفضل دائماً المثول
امام الامبراطور . وبالفعل كانت الأحكام تستأنف أغلب الأحيان ، حتى ان الحكم انفسهم ،
كانوا لدى أدنى شك يخامروهم في قضية ما ، يبادرون باستئنافها الى روما . وهكذا نرى النشاط
الحقوقي والقضائي يخدم كثيراً في الحكومة المركزية ، وفي اصغر الدوائر القضائية التابعة لها
ويتوسع . فالامبراطور الذي كان ينزع في الصميم ليصبح المصدر الوحيد للتشريع والقانون ، كان
يفتتها فرصة ذهبية لتوجيه هذا التشريع حسباً تقتضيه الضرورات والنظريات الجديدة والعمل
على توحيدها . وهذا التطور عاد بالنفع ليس على روما وإيطاليا فحسب ، بل بالأكثر ، على
الولايات التي عانت ما عانت من عنّت الحكم المتعاقبين ، سنة بعد سنة ، على الحكم واستبدادهم
في الأحكام التي كانوا يصدرونها .

وعلى مثل هذا قس وضع المالية في الدولة . فالولايات كانت ملزمة
بالتقديم القسم الاوفى من مواردها ومحاصيلها . ومهما تعرضت له من
احداث مفاجئة كان عليها ان تستمر في تقديم ما كان يتوجب
عليها تقديمه لسد الحاجات المشتركة . فالامبراطور كان يتولى ادارة واستغلال ملاك التاج ، وهي
ممتلكات واسعة كان دخلها يسد جانباً من النفقات العامة . وممتلكات التاج هذه ، كانت تتألف
اصلاً ، من عقارات خاصة صادرتها الدولة في إثر احكام سياسية صدرت على اصحابها ، ومن
تركت اوصى بها اصحابها للامبراطور ، وهي عادة جرى عليها سرقة القوم في روما ، ومن
بعض ولايات بينها مصر ، التي كانت تخضع لنظام استثماري خاص ، وتدر على الدولة الرومانية
فيئاً يبرز بضخامته كل ما كانت تدره ممتلكات التاج الأخرى مجتمعة . والى هذا ، يجب ان نضيف
الرسوم المستوفاة كضرائب غير مباشرة تفرض على سكان الولايات والرعايا الرومانيين على السواء
الذين كانوا يتحملون وحدهم ضريبة على التركت تعرف بضريبة واحد من عشرين ، أي ٥ ٪ من
اصل التركت التي تذهب الى اباعد الأقارب التي كانت قيمتها تتجاوز ١٠٠ ٠٠٠ Sesterces^(١) .
وهذه الضريبة كانت تغذي « صندوق الجندي » ، هذا الصندوق الذي كان يدفع تعويضات لأفراد
الجيش عند صرفهم من الخدمة العسكرية . وكان اوغسطس يشعر ببعض الأسف لفرضه مثل
هذه الضريبة على المواطنين ، لأنها تمس في الصميم ، الإعفاء من الضرائب المباشرة ، هذا الامتياز

(١) السترس عملة رومانية تساوي ربع دينار فضة .

الذي تمتعوا به منذ عام ١٦٧ ق. م. غير ان الولايات الإيطالية بقيت وحدها بمعزل عن الضريبة الكبرى وهي الضريبة التي تقع على الولايات التي تم امتلاكها بالفتح ، وذلك بفضل ما تمتعت به من امتياز : « الحق الإيطالي » *Jus Italicus* الذي ساواها بالعاصمة ، فاعتبرت بموجبه ارض الفاتحين . وهكذا لم نلث ان طلع علينا اخيراً ما عُرف بتبرع التاج *L'or Coronaire* وهو تبرع اختياري ، من حيث المبدأ ، إلا انه بالفعل تبرع إلزامي ، على الجميع ان يقدموه للامبراطور ، سواء أكلوا حاملين الرعوية ام لا ، وذلك في مناسبات خاصة ، كوقوع حوادث هامة سارة . فاذا ما رفض ترياينوس رفضاً كلياً مثل هذا التبرع عند اعتلائه العرش ، او اقتصر الامبراطور انطونين على تقاضي نصف هذا التبرع ، من الولايات الأخرى وأسقطه عن إيطاليا ، فما هذه ، إلا بعض حوادث يمكن اتخاذها دليلاً على ان هذه الاجراءات المستجدة كان في الإمكان ان تقضي الى طريقة في توزيع الضرائب أكثر انصافاً ومساواة ، إلا أنها بقيت ، مع الأسف محاولات بدائية لا غير . فالمساواة امام الضرائب ، كالمساواة امام القضاء او الادارة ، لم تكن ساعتها قد حانت بعد . وما هو أدهى من ذلك ، فالاقتراب من مثل هذا الوضع كان يتم بتردد كلي لما فيه من مساس لمصالح الطبقات الممتازة الشديدة الحساسية .

استمرت الولايات تتحمل وحدها تقريباً هذه الأعباء المالية المزرحة التي
المدارة الضرائبية
زادها وطأة قيام جيش لـجـب ، دائم ، وادارة متشعبة ، متداخلة ،
وتوحيد رسوم الجباية
تدفع لها مرتبات وأجور آخذة بالارتفاع والصعود ، يوماً بعد يوم .

والجدير بالملاحظة هنا انه لم يسبق للامبراطورية ان عرفت عهداً من اليسر والازدهار المالي كالعهد الذي مر عليها اذ ذاك . فقد راحت تنفق بسعة على مشروعات كانت تعد ، اذ ذاك ، من الكماليات ، وذلك بانشاء بلاط فخم كثير التكاليف ، وتزيين روما وزخرفتها بالمباني والصروح الفخمة ، والترفيه عن الشعب ، ولا سيما عن سكان روما ، بتأمين أسباب عيشه ولهو ومرحه . وهذه التكاليف الباهظة اقتضاها جوهر النظام الذي سار عليه العهد الجديد ، اذ يكفي ان يتجاوز امبراطور ما ، كما حدث لنيرون مثلاً ، الحد المألوف في الانفاق حتى يدب الاضطراب والبلبل في مالية الدولة وتُرمى بالعجز والعسر . وقد رأينا فيما سبق ، كيف ان الوضع العسكري في الامبراطورية كان يتأثر ، في الأوقات العادية ، من نتائج سياسة التقدير التي تضطر الدولة للسير عليها ، في بعض الأحيان ، مع انه لم يكن اذ ذاك ، ما يحول دون فرض ضرائب جديدة او زيادة معدل الضرائب القديمة . كل هذا دليل قاطع على ظهور روح جديدة لدى الأسياء الذين تعاقبوا على الحكم . فقد اختفى من بينهم رجل الدولة الروماني ، المتعنت المعروف بخشونته او جفائه ، وبرزت للعيان مثالية ملك يهيم في الدرجة الأولى تأمين رفاهية رعاياه الى ابعد حد . وهذه المثالية جاءتهم ولا شك ، من هذه الممالك الهلينية مع ما جاءهم من النظم السياسية التي اقتبسوها عن ملوك هذه الدول : كالبطانة ، والبلاط ، والحاشية ، والمظهر الخارجي الفخم لمدينة روما ، التي اصبحت ، ليس فقط عاصمة البلاد وقاعدتها الكبرى بل ايضاً كرسي المملكة .

كل هذا الجديد يوحى بفكرة الحكم عند السيد ، كما يوحى بما يمكنه من رعاية وعطف وروح النصف للجميع .

وهذه المؤثرات الهلينية تظهر في أكثر من ناحية من نواحي النظام المالي الذي سارت عليه الامبراطورية الرومانية . فبعد ان فرضت سيطرتها على مصر ، راحت هذه الامبراطورية تفرض عليها نظاماً اقتصادياً أساسه : الاحتكار ، والاقتصاد الموجه ، وضرائب متعددة تركز على التعداد ، والمراقبة الشديدة ، التي أمنت للبطالسة مثل هذا الغنى الذي رفلوا فيه ، وللامبراطورية الرومانية صندوقاً عامراً بالنضار . وهذا الاستغلال المنظم الذي خضعت له مصر حسبما سمحت به تقاليد البلاد ، والنظام الاجتماعي السائد فيها ، لم يمكن تطبيقه في كل مكان . فقد اقتبست الامبراطورية من النظام المعمول به في وادي النيل ما رأت فيه نفعاً لها . من ذلك مثلاً فكرة الضرائب غير المباشرة على المبيعات بالمزاد العلني او الحراج ، بمعدل ١ في المائة ، كما فرضت رسماً مقداره ٤ ٪ على عمليات بيع الرق ووسعت العمل بهذا المبدأ وطبقته في تحصيل الضرائب وجباية الرسوم .

ولعل أهم الضرائب المباشرة هي الضريبة على العقارات . وفي هذا السبيل اخذت الدولة ، منذ اوغسطس حتى عهد الامبراطور تراجانوس ، بعملية مسح للامبراطورية . كذلك كان هنالك ضريبة أعناق ، على أساس إحصاء لعدد النفوس . وفي عهد مارك اوريل ، أنشئت مصلحة الأحوال الشخصية وإلزام الناس بالتصريح بالمواليد . كل هذه الطرق كانت مرعية الاجراء في مصر منذ عهد بعيد . وقد تطورت اساليب جباية الضرائب ، بعد ان توارت عن المسرح ، خلال ازمة الحرب الأهلية التي عانت منها البلاد الامرّين ، جمعيات الجباة والعشارين القوية . وامام هذا النقص في الجباية ، راحت الدولة تعتمد ، في بادئ الامر ، تازيم الحراج الخاص بالضرائب غير المباشرة ، ثم اعتمدت الطريقة المتبعة في مصر ، وهي تازيم الحراج ولذا استعانت بجباة من الطبقة الاجتماعية المتوسطة حتى ومن الطبقة السفلى ، وفي ذلك تيسير لعمل هؤلاء الجباة لسهولة اتصالهم بالناس من جهة ، ولسهولة مراقبة عملهم من قبل الادارة المركزية وتقويمها عند الاقتضاء . اما الضرائب المباشرة ، فقد استغنوا فيها عن المتعهدين والملتزمين وعهدوا اليها للادارة البلدية ، كل في ما يعينها ، وبعد الجباية يكلف موظفون كبسار باستلام المبالغ المحصلة ليجري تسليمها لبيت المال .

ففي الوقت الذي انقطع فيه دابر عهد الارتكابات والاختلاسات التي اتاها متعهدو الحراج ، انقطع فيه كذلك ، او قلّ كثيراً جداً ، سوء تصرف الحكام والولاة وإرهاقهم الأهليين بصنوف من المظالم بعد ان اخضعوا لمراقبة شديدة من قبل مفتشين ماليين ، مسؤولين مباشرة أمام الامبراطور . كما أجبروا على ارسال معظم الاموال التي يجوبونها من الولايات الامبراطورية الى بيت المال *Fiscus* الذي كان يخضع مباشرة للامبراطور . كذلك ، كان المفتشون يراقبون ، عن كثب ، أعمال الجباية في الولايات المشيخية ، ويؤمنون تحصيل الرسوم والضرائب المترتبة على أصحابها ، ولاسيا

الرسوم المفروضة على الارث والتركات ، فيرسلونها لمصلحة صندوق الجندي ، كما كانوا يؤمنون ، من جهة اخرى ؛ ادارة املاك التاج ويرسلون بدخلها الى صندوق الامبراطور الخاص . وهؤلاء المفتشون المليون كانوا برتبة تجميعدار ، اما الذين كانوا في الدرجات العليا ، فكانوا من فئة الشفاليه . وهكذا نرى هذه الطبقة الاجتماعية تؤمن ، هنا ، في العهد الامبراطوري ، ما كانت تؤمنه في النظام الجمهوري السالف ، من جباية الضرائب والاموال المستحقة للدولة . إلا ان هذه المشابهة لم تكن لتصح الى هذا الحد ، وسنرى بعد قليل ، التغييرات التي طرأت على تشكيل طبقة الشفاليه . ويكفي ان نشير هنا ، ولو بصورة عابرة ، الى التعديل في الدور الذي كانوا يقومون به . فلم تعد الدولة لتختار من بينهم متعهدين لتأمين الضرائب والخراج ، بل أصبحوا ، من الوجهة النظرية ، على الأقل ، مديري مال ، بعد أن كانوا رجال اعمال ، في خدمة رجل يحكم الدولة ويدير شؤونها ، أي انهم أصبحوا ، اكثر فأكثر ، موظفين اداريين يقومون بواجباتهم بروح جديدة .

مجالس الولايات ليس بغريب قط ، ان يرتاح سكان الولايات ارتياحاً شديداً لهذه التغييرات المدهشة التي طرأت على هذا القطاع من الخدمة العامة في الدولة ، فراحوا يعبرون عن غبطتهم للامبراطور ، بشق الوسائل ، منها مثلاً ، عبادة « روما واوغسطس » التي أدى الاحتفال بها الى ما عرف من بعد ، باسم « مجالس هيئات الولاية » .

فاللفظ المستعمل لا يعبر عن المعنى المقصود الا بصورة تقريبية . والمراد بهذه المجالس : اجتماعات سنوية لمندوبين يختارون من بين المدن والخواضر القائمة في هذه التقسيمات الادارية التي تتباين مساحتها وتختلف ، لتشمل حيناً ، ولاية بكاملها ، وأحياناً اكثر من ولاية أو أقل . من ذلك مثلاً مجلس « غاليا » الذي كان يُعقد كل سنة ، في مدينة ليون ، فيجتمع فيه ممثلون عن الولايات الغالية الثلاث . وهكذا كان المجلس الواحد يؤلف وحدة تضم جمهرة الممثلين للأفراد الواقمين خارج نطاق بلديات المدن ، وهي الوحدة التي كان من مصلحة الادارة الاعتراف بها ، لما توفره لها من منافع وخدمات : كالشرطة والادارة المالية وغير ذلك . والتسليم بوجود هذه المجالس والاعتراف بها كان بمثابة تنازل من قبل روما عن بعض قوتها وسلطتها ، للشعوب التي أخضعها لسيادتها والتي لم تشأ ، ان تكف ، كما كان باستطاعتها ان تفعل ، عن العمل على التفريق بينها ، عملاً بالمثل القائل : فرق تسد . وهذا المجلس كان يتشكل عند الشعب الذي يمثله ، وفقاً للتقاليد المرجعية عنده ، وحسباً يقتضيه واقعه العنصري أو السلافي ، ويؤلف عاملاً ضاماً يزيد من وحدته ويشد من روابطه .

وهذه الفكرة بالذات تفسر لنا كيف أنه لم يظهر مثل هذه المجالس في قطرين اثنين من أصل الاقطار التي تتألف منها الامبراطورية الرومانية ، هما مصر وايطاليا .

اما الأولى ، فقد كان لها من غنى مواردها الطائلة ، ووفرتها ما جعل الهجوم الذي قامت به كليوباترا على روما مليئاً بالتهديد لها ، وخطراً شديداً على مصيرها بالذات . ولهذا ، رأى

الرومان، في كل وحدة أو محاولة تكتل تقوم فيها خطراً يهدد الامبراطورية الرومانية في الصميم ، عدا عن انه لم يكن يقوم فيها ، اذ ذاك ، سوى عدد قليل من المدن . اما ايطاليا فقد كان عندها ما هو افضل بكثير من هذه المجالس ، اذ ان سكان المدن فيها كانوا رعايا رومانيين ، لاسيما وان وحدتها برزت على احسن صورة ومثال ، في هذه الحكومة المركزية التي قامت فيها وانبثقت منها بالذات . وهذه النظرية تفسر لنا كذلك القيود التي وضعوها للحد من نشاط هذه المجالس خشية ان يساء استعمالها ويوجه في غير الاتجاه الذي حدد لها عند قيامها . فلم يكن باستطاعتها ان تقيم فيما بينها شيئاً من التحالف او التوحيد، فتعمل معاً لهدف واحد مشترك ، لاسيما ومهمتها الأساسية هي التعبير عن عواطف من انتدبوها لتمثيلهم بهذا الاحتفال الديني أكثر من اجتماعهم لتكريم سيدهم وولي امرهم . وهكذا كان هؤلاء السادة ، المعداد الاصغر المشترك لهذه المجالس التي تمثل مختلف شعوب واقوام الامبراطورية الرومانية . فقد كانوا ما هم عليه ، لأن اوامرهم كانت عنصر انسجام وأداة تأليف للجهود المبذولة ، ولأن العبادة التي كانوا موضوعها كانت العاطفة الوحيدة التي تسمح لها بالتعبير عن نفسها .

إلا انه عندما اتضح للسلطة الرومانية ، على مر الزمن ، ان لا خوف عليها ولا خشية قط ، من هذه المجالس ، راحت تخفف من القيود والتضييقات الموضوعة على اجتماعات هذه المجالس ونشاطاتها . فالاحتفال بعبادة الامبراطور، وتعيين الكاهن الذي يتولى باسم جميع المجالس رؤس الاحتفال المشترك ، بقي وحده غاية الاجتماع وهدفه الاوحد . فلم يمهّدوا اليها بأية مهمة ادارية كتوزيع الضرائب مثلاً بين البلديات ، او تنفيذ الاشغال العامة ذات المنفعة المشتركة . فاذا ما احتج احدهم ببعض شواهد فهي من الندرة ما يؤلف شذوذاً دعت اليه واقتضته ظروف خاصة . فاقترضوا على ان يسمحوا هؤلاء المندوبين بالاعراب عن وجهة نظرهم بشأن ادارة حاكم انتهت مدة حكمه ، على شرط ان يحمّلوا تفويضاً من قبل من انتدبهم للتكلم باسمهم في هذا الموضوع بالذات . وعلى هذا ، كان يحق للمجلس ان يتخذ اذ ذاك، حسباً تقتضيه الظروف ، قراراً بالثناء او بتوجيه الشكر للحاكم السابق ، أو إقامة تمثال له ، وإلا فإرسال قرار الى روما للمطالبة بحسابته حساباً عسيراً او بملاحقته امام القضاء .

وهذا النهج الذي برز وتبلور منذ القرن الثاني انما يتم ، ولا شك ، عن نزعة متحررة إلا انها ما تزال مترددة وستبقى خائفة مكبوتة لوقت طويل بعد . ولربما تجاوز المرء الواقع بعيداً وبصورة تدعو للاستغراب، اذا ما حاول ان يتخذ من هذا المسلك دليلاً على طلوع او بروز شيء من المركزية ، ان لم نقل صورة باهتة لنظام تمثيلي مر في الخاطر . وهذه الحاسبة العسيرة او بالاحرى هذا الحكم الجماعي لا يأتي إلا بصورة عكسية ، اذ ان الحكم الذي يعمل على رأس الادارة لديه أكثر من وسيلة ليوفر على سلفه ، إلا في الحالات الفاضحة التي لا يمكن طمسها ، إهانة تحقير بتوجيه اللوم اليه بصورة رسمية . غير ان محاكمته لا يمكن ان تقع او تأخذ مجراها إلا اذا سمح الامبراطور بذلك . فاذا رأى من المصلحة ان الأمر يمهّد ويستلزم المزيد من المعلومات،

فالطلب الذي جاءه من الولاية ليس سوى وسيلة من الوسائل الكثيرة التي تتوفر لديه لدرس القضية وتكوين فكرة صحيحة له عنها ، وإن لم تكن أفضل الوسائل وأقطعها . ومهما يكن من الأمر ، إن هيئة دينية في الأساس لا يصح أن تتحول إلى مجلس للمداولة والجدل الرصين ، ومن الصعب أن نتصور المدن تعتمد إلى تعيين مندوبيها ، قبل أن تقطع في مؤهلاتهم وصلاحياتهم للتشكي والتذمر لدى الامبراطور .

هذه النزعة التحررية عرفت مع ذلك ، إنما على نطاق آخر ، في نطاق الإدارة المحلية والمبادئ التي قامت عليها المدينة المتمتعة بالرعاية الرومانية ، وهي نزعة لم تنبثق عن أية نظرية فلسفية أو حقوقية حول الحرية والمساواة وما للإنسان من حقوق طبيعية أخرى . فقد أوحى بهذه النزعة اعتبارات عملية بحتة ، بعضها مادي الطابع والغاية ، والبعض الآخر على مستوى ارفع ، وعلى صعيد أعلى وأسمى .

فالرومان كالإغريق قبلهم ، رأوا في المدينة الإطار الأمثل ، لا بل الاوحد والممكن ، للانفتاح على الحضارة والاستبحار فيها ، وحرصوا كما حرص البطالسة من قبل ، على قطع السبيل أمامها في مصر وسد الطريق في وجهها إليها ، إذ جل مهمهم كان أن ينصرف الناس فيها للعمل الصامت ، والشعب للانتاج ، ليس إلا . ومع ذلك ، فامهات المدن في المحافظات المصرية وحواضرها ، استحالَت تدريجياً ، بفضل ما استجابت له من تطور بطيء لم يحاول ذوو الأمر مقاومته والحد منه ، إلى وضع قريب من وضع المدن المتمتعة بالرعاية الرومانية . أما في غير مصر ، فالامبراطورية تشجع الأهلين وترغبهم على الاخذ بأسباب الحياة في المدينة . فقد حرصت الحرص كله على المحافظة على وضع هذه المدن والاستمرار عليه ، كما حرصت على خلق ما يشبه هذا الوضع حيث لم يكن معروفاً . فإلى جانب هذا الدور المتعدد الوجوه الذي تستطيع أن تؤديه ، المدن التي تتمتع بمثل هذا الوضع ، وهو دور لا نود هنا الاستطراد في تفصيله وتبسيطه ، فقد كان من شأنه أن يسهل كثيراً مهمة الإدارة المركزية ويخفف من مسؤولياتها ، إذ يحررها من واجبات ومهام ومتاعب كان عليها أن تتربص بها . فالدولة كانت على أتم استعداد لأن تترك لرعاياها المؤهلين ، معالجة الأمور العادية المحدودة الأفق ، لا سيما والعهد الجديد ، لم يكن ثم له بعد ، لطراوته ، الموظفون الأكفاء للاضطلاع بالإدارة .

وكان لا بد ، بالطبع ، أن يبقى هذا الاستقلال الإداري محدوداً ، وفي نطاق تقسيمات بلدية صغيرة الحجم ، نادراً متوسطة ، تعجز عن النهوض بأود ثورة مسلحة . هذا هو بعينه تحديد المدينة . ففي البلاد التي لا يمكن إنشاء أكثر من ٦٠ مدينة فيها ، تتمتع بالرعاية الرومانية ، كمقاطعة غاليليا مثلاً التي تم فتحها على يد قيصر ، حيث حركة تجميل المدن البطيئة كانت تضطر الإدارة إلى توسيع الدائرة الجغرافية للمدينة الواحدة ، قضى التطور الحضاري والأخذ بأسبابه ، بتكوين مجتمعات مدنية لم تعدم أن رفعت إلى مستوى المدن المتمتعة باستقلالها الإداري . كذلك ، من الواضح أيضاً أن كل الوسائل كانت تتخذ لتصبح إدارة هذه المدن ، أينما قامت ووُجدت ،

في ايدي عناصر اجتماعية وحضارية توحي الثقة لروما وترتاح اليها ، كطبقة الارستوقراطيين والبورجوازيين ، وجنود دوماً على استعداد لكبت أية اضطرابات تنشأ في المقاطعة ، ورعايا رومانين قديمي العهد في رعييتهم ، وإلا فمن عهد حديث ، وجنود متقاعدین أَلِفُوا النظام ، وشابوا على روح الانضباط ، وأقاموا على الولاء للسلطة ، او سكان أصليين في البلاد ، أخذوا بالمثل الحضارية الرومانية ، وهم على اشد من اليقين بوجود التعاون مع الحكومة لنشر هذه المثل بالذات ، تحسباً منهم بالواجب المترتب على المواطن الواعي بوجود الاخذ بأسباب التمدن . وهكذا أصبحت الإدارة البلدية معيناً أمدت الامبراطورية باداريين أكفاء خدموها خدمات صادقة ، وبرهنوا ، أثناء توليهم الوظيفة ، عما أوتوا من مواهب مخبوءة تتفتح ، بينما يتدربون على اعمال الادارة ويتمرسون بها . كذلك من الواضح ايضاً ، ان السلطة المركزية كانت تمارس مراقبة شديدة لهذه الخلايا الاجتماعية الناعمة ببعض الاستقلال الاداري ، وذلك لتحول دون انتفاضها او تمرداها ، او لتحول دون انزلاق أمورها الى الفوضى ولتقوم منها العوج ، وتصحيح الاتجاه عند انحرافه .

وكان بالإمكان التعويل على الادارة الامبراطورية المحترزة والتي لم تكن لتلقي بالكلام على عواهنه والتي لم تكن لتتهاون بأمر التحذيرات الصادرة عن صميم الشعور بالسلطة ، والمستوحاة من تصرفات الدولة السلوقية ، فترضى بالتنازل لهذه المدن عن بعض صلاحياتها الادارية في القطاع المحلي . فحدثت الامبراطورية حذو سياسة خلفاء الاسكندر المقدوني في آسيا ونزلت عند الأسباب ذاتها التي نزل عندها هولاء الملوك ، فطبقوا سياستهم الجديدة على نطاق ارحب ، وفي اقاليم واقطار اوسع بكثير ، محتفظين فقط ، وبصورة استثنائية ، بادارة الأملاك التابعة لهم ضمن هذه الخلايا الاجتماعية شبه المستقلة ادارياً . فلو قيُص هذه التجربة ان تأخذ مداها الكامل ، لأصبحت الامبراطورية عبارة عن شبكة متصلة الحلقات من وحدات متجاوزة بعضاً من بعض ، متمتعة بحرية ، تعمل الادارة المركزية على توجيهها وتأمين التنسيق والانسجام بين جهودها في كل ما يؤول لخدمة المصلحة العامة ، وتأمين اسباب الدفاع عن الامبراطورية . غير ان هذه المحاولة لم تثو أكلها حتى في عهد الاسرة الانطونية التي كانت أقرب الى تحقيقها وتحيزها من سواها . ومن ثم راح تنظيم المدينة يخدم فيما بعد اغراضاً أخرى . فتعميم هذا النظام وانتشاره لم يكن ليكون خطراً يهدد الامبراطورية ، بل جاء على عكس ذلك تماماً في خدمتها ومصلحتها لأنه هياً لشيء يقرب من الوحدة الادبية فيها ، كالم يكن ، من جهة أخرى ، بدوياً من بدوات سلطة نزقة مستبدية . فقد تجاوز هذا الاستقلال الاداري للبلديات ، في مفهومه وكيفية تطبيقه على الوجه الذي جروا عليه ، طاقات هذه المدن وامكاناتها الصميمة .

المؤسسات البلدية
عرفت مدن الشرق الاغريقي ، منذ عهد بعيد ، النظم البلدية ومؤسساتها . فقد جاء تشكيلها مطابقة للطراز الذي اتبعتة روما في المدن التي كانت تعترف لها بحق الرعية . وبالرغم من مفارقات عديدة عرضية في تفصيلاتها ، تتعلق بالحكام ، فقد توصلوا

مع ذلك بيسر ، الى نموذج واحد مشترك بين الجميع .
اشتملت هذه التنظيمات فيما اشتملت عليه ، هيئة اولية للمواطنين في المدينة مهمتها ، في الدرجة الاولى ، تعيين الموظفين الاداريين ، واتخاذ القرارات التي تقتضيها ادارة البلدية ، بعد بحثها ومناقشتها . كذلك ضمت الى جانب هذه الهيئة ، مجالس الاختيارية ، ويضم الواحد منها مئة عضو ، مهمته مراقبة الموظفين وتزويدهم بالتوجيهات والارشادات والتوصيات التي يقتضيها حسن سير الادارة . كذلك تضمنت هذه التنظيمات عدداً من الوظائف يقوم عليها موظفان يُنتخبان في كل سنة ، ويتدرّجان تبعاً في سلم المراتب الفخرية . وكان الاعلى درجة بينهما يُكلّف ، في نهاية كل خمس سنوات ، باعداد جدول مفصل ، لشيخوخة البلدة ، حسب درجاتهم ومراتبهم ، تذكر فيه أسماء الموظفين القدامى ، كما تذكر في لائحة أخرى اعيان المدينة ووجوهها البارزين .

كل هذه الهيئات والمجالس كانت تخفي تفاوتاً بين مدينة وأخرى . إلا ان ما خضعت له من تطور مزدوج من قبل الحكومة ، عقوباً كان ام موجهاً ، أوجد بينها تجانساً كبيراً .

من هذا التطور ما تناول وضع هذه المدن بالذات ، على ما بينها من تفاوت بين واختلاف ظاهر . فبينما كان بعضها خاضعاً لارادة الحاكم المستبد ولشيئته ، كان ينظم البعض الآخر منها شيء من التحالف او الاتحاد وتنعم ، بفضل المواثيق والمعاهدات السابقة التي عقدتها ، بحق التمتع باستقلالها الاداري ، شريطة المحافظة على ولائها في الأمور السياسية والعسكرية . وهذا الوضع نزع ، اينما قام ووجد ، الى التوحيد ، سواء أكان على نظام « المستعمرة » او « البلدية » *Municipe* ، او بموجب « الحق اللاتيني » ، او ، في احسن الحالات ، « الحق الروماني » . وراحت المدن تلتبس من الامبراطور ، الإنعام عليها بمثل هذا الوضع وما استتبعه من مثل هذه الحقوق ، وان فقدت معه شيئاً من أصالتها ، لما في ذلك من ربح أكيد وفائدة كبيرة للمواطنين ، اذ يكتسبون ، باعداد أكبر ، وبصورة تلقائية ، الرعوية الرومانية ، فيصبح المواطنون ينعمون بالحق اللاتيني المألوف ، كما ينعم مجلس شيوخها ، بالحق اللاتيني « الأكبر » الذي اعطاه الامبراطور هدريانوس ، وجهرة المواطنين بكل الحقوق الرومانية .

أما الوجه الثاني لهذا التبدل أو التطور الذي لم يكن بد منه بعد ان أخذت روما بأسبابه منذ مطلع الامبراطورية ، فانه أحال شبه طيف أو خيال ، الهيئة البدائية ، مع استمرارها على عقد اجتماعاتها كمألوف عاداتها . كذلك راح مجلس الاختيارية يجردها من كل صلاحية ، بعد ان أخذ من الألقاب والكنى اعلاها وأسناها ، منها مثلاً : « النظام الإلهي » . وجرت العادة ، في عهد مبكر ، وهي عادة جاء نص رسمي يكرسها ، بالتبرع لصندوق البلدية ، بمبلغ من المال ، عندما يحظى المرء بترقية أو تعيين في رتبة : كالكهنة ، أو عضوية لمجلس الاختيارية اوالحاكمية . وكثيراً ما دعا حب الظهور المقرون بمحبة الوطن الأصغر ، للتنافس في التبرع والسخاء . وهكذا آلت الادارة البلدية الى أيدي الطبقة البورجوازية في المدينة ، تحت رعاية الاسر النبيلة ورعايتها

وفقاً للتقاليد المتوارثة أباً عن جد . أما الطبقات الوسطى ، فقد كانت دوماً بعيدة عن الادارة ، لأنها لم تحظ بحق الرعوية في المدينة ، هذا الحق الذي فقد عند الفقراء والمعدمين ، كل معنى ومدلول ، ما لم يتدرج الواحد منهم في السلم الاجتماعي ، قاطعاً درجاته عن طريق الاثراء .

كان باستطاعة الادارة المركزية ، والحالة هذه ، ان تتظاهر بالتسامح سير الادارة وبده الأزمة والتجاوز : فهي تترك للسلطات البلدية المحلية طائفة من الاعمال والمهام الصغيرة ، كالحفاظة على النظام ، وتأمين أسباب العدالة ، وتشديد الانبسية البلدية وصيانتها ، وتنظيم امور العبادة والطقوس الدينية ، وإدارة الاملاك البلدية ، وتنظيم موازنة المدينة ، حتى وجباية الرسوم والضرائب المباشرة العائدة للدولة ، وغير ذلك . وقد عرفت ان تحتفظ بحقوقها في التدخل بشؤون المدينة وان تمارس هذا الحق في كل مناسبة ، وتمارسه اكثر فأكثر ، وبصورة اوسع .

فقد نال هذا النظام رضى الفريقين ، وبالرغم من بعض الشكوك والصريف يتردد صده ، الفينة بعد الفينة ، فقد بدا للجميع انه نظام قابل للعيش والبقاء . فبفضل هذا النظام ، كثيرأما استطاعت مدن عديدة ان تزدهر ، كما عرفت ان تشيد المباني والصروح فتبرز في اطار مادي فخم ، كما انه أفسح المجال أمام التمثيل الحضاري ليحقق نجاحات عظيمة استطاعت الطبقة البورجوازية معها ان تنعم بالرعوية الرومانية . وبفضل هذا النظام ، عرف الأباطرة ان يختاروا من بين المواطنين الحديثي العهد بالمواطنة الرومانية ، ما هم بحاجة اليه من الموظفين الاداريين الذين اتصفوا بالرصانة ، وصدق الولاء ، والتجربة الواسعة . وهذا النظام عينه يفرض وجود أقلية مختارة في الولاية تباهي بما تتمتع به من مراتب ومراكز ، هي ابدأ على استعداد للاهتمام بالشؤون البلدية وتخصيص ما يلزم لها من الوقت والمال ، الى ان جاء وقت رأته فيه هذه الأقلية المتميزة أن تتوارى عن مسرح عملها ، بعد ان تبينت ان الغرم الذي فاهها يفوق الغنم الذي تنعم به وهو غنم لا يتفق ومنزلتها بين الجماعة ، كما ظهر لها انها لا تستطيع سد النقص الذي طرأ على ثروتها . وهكذا لم تعتم ان قامت الصعوبات . ومن الراجح جداً ان الادارة اضطرت حتى في عهد ترايانوس ، الى تعيين أعضاء مجالس الاختيارية ، غصباً عنهم وبغير رضاهم . ولعل ما هو أدهى من هذا وأنكى ، ما وقع في عهد الأسرة الأنطونية ، وهو عجز الأموال المحبسة محلياً عن تغطية نفقات العيش الرضي الذي سار عليه عدد كبير من المدن . فسحاء بعض أغنياء المواطنين وكرمهم الحاقمي لم يستطع سد العجز ، فراح الأباطرة يقدقون المساعدات لها ويتنازلون لهذه المدن عن متأخرات الضرائب المستحقة عليها ، الى ان اضطروا للذهاب الى أبعد من هذا ، بصورة فردية ، آنية أولاً ، ثم بشكل أقوى وأبقى ، وذلك بتعيين مندوبين ، وفي الغرب سموا مفوضين *Curateurs* ، وعند الاغريق مفتشي مالية *Logistui* ، بغية تحقيق التوازن بين المدخول والمصروف . وهكذا أخذ استقلال هذه البلديات بالزوال .

الخلاصة

عند انتهاء هذين القرنين لم يبق شيء من الأوضاع والاحوال التي لا بدت النظام الملكي وبناء الدولة الحياة السياسية والادارية في الامبراطورية .

فزوال عهد الجمهورية وحلول النظام الملكي محله ، هما ابرز هذه التطورات وأقربها للنظر . فمن المغالطة والخطل في الرأي ان يحاول المرء تجاهل هذا التبدل او الانتقاص من شأنه وأهميته . وهذا التغيير تردد صداه ليس في الخارج فحسب ، بل في النفوس والأذهان ايضاً . فقليل من الواقع السيكولوجي يمكن دوماً وراء التعابير والاصطلاحات والرموز الرسمية ، ولكي يستمر الأخذ بهذا التطور في عهد اباطرة كثيرأ ما صدم سلوكهم كما صدمت اعمالهم اعتقاد الناس وایمانهم انهم من جَبَلَة فوق جبلة البشر ، وانهم مسارّ الآلهة ، لا بد ان يكون أطلّ شيء جديد على العالم . وهذا الشيء الجديد الذي لا يمكن لأحد نكرانه او تجاهل ضرورته وجدواه هو الدولة ، دولة لها جماع الطاقة وجماع القدرة ، بعكس السلطة التي زالت وتوارت ، تستطيع ان تؤمّن الحد الأدنى لوحدة ادبية تشد العالم الروماني بعضاً الى بعض ، وتحافظ على اسباب الامن وتصونها من عبث العابثين والطامعين ، وتعرف كيف تستمد منه ما يلزم للدفاع عن كيانها ، وان توزع الضرائب بالعدل والسوية ، دون ان ترهق فريقاً او ترهق الآخر ، وموجز القول دولة لها من السلطة ما يؤمّن اشاعة نط من العيش شامل ، رتيب . وقد سارت النجاحات التي حققها تنظيم هذه الدولة جنباً الى جنب مع النجاحات التي حققتها السلطة الملكية بحيث لا يمكن لعمرى فهم هذه دون تلك ، لما بينهما من تفاعل وانفعال .

ليس ما يحول ، من الوجهة النظرية ، دون النظام الجمهوري لتحقيق مثل هذه الدولة التي تؤدي مثل هذه الخدمات . والامر الثابت الذي لا مراء فيه هو ان الجمهورية لم تتمكن من تحقيق مثل هذه الدولة ، مع ان العهد الذي جاء بعدها استطاع ذلك .

فالدولة الجديدة كانت لها نظمها ، ومؤسساتها المركزية التي عرفت ان تؤمن لها الاستقرار والبقاء بمعزل عن شخص الامبراطور ، كما كانت لها نظمها الاقليمية التي عرف الامبراطور ان يراقب منها النشاط وان يوجهه ، وكان لها موظفوها الاداريون وخبرائوها الذين تحلّوا ، على الإجمال ، بالزاهة والمهارات الضرورية ، لأنها عرفت ان تفوز من الطبقات الاجتماعية التي كانت تصطفي من بينها هؤلاء الموظفين ، بالاخلاص للمناهج والأساليب التي اخذت بأسبابها ، فراحت تطبقها لمصلحة الجميع .

فقد دفعت البلاد غالباً من حريات الرومانية والايطالية ثناً لهذا كله ، وهو ثمن مشروط لم يكن بد منه ولا يحيص عنه . فقد جعل ازدياد عدد المواطنين الرومانيين وانتشارهم في جميع اطراف العالم الروماني ، وجود المجالس البلدية امراً يدعو للبهز والسخرية . اما مجلس الشيوخ الذي اغجزه الحفاظ على روح الانضباط في الجيش ، فلم يكن اسعد وضعا ليؤمن بواسطته حكام ينتخبهم كل سنة - كثيراً ما تجلى خطلمهم - حسن سير الادارة المدنية مع هذه المشكلات

العويصة التي كانت تعترض سبيله . فالفوضى الكيانية التي كان لا بدّ لهذه المجالس التمثيلية ان تخلقها ، لم تشهد ابتداءها في هذه المجالس الاقليمية ذات الدور المتواضع الخاص . ولذا كان أكثر فعالية وأبسط للأمور ان يصار الى نظام ملكي .

وقد جاءهم بالفعل مثل هذا النظام ، واضطروا للإقبال عليه والايغال فيه أكثر فأكثر. اما ما طرأ من تغيير على استقلال البلديات الاداري ، فدل على ان كل خطر أطلّ منه تهديد لحسن سير اداة الحكم والادارة المركزية للدولة، أعقبه بصورة عفوية توطيد للسلطة الامبراطورية وترسيخ لها في النفوس . فمن يستطيع ان يتبين التقدم الذي كان بإمكان هذا النظام ان يحققه في البلاد لو لم تصدمه أزّ مات مفاجئة ؟

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

لا يمكن للوحدة الادبية في الدولة ان تكتمل ما لم يتحقق حد ادنى لوحدها الاقتصادية والاجتماعية تشد بين اطرافها جميعاً . فالجمهورية ليس انها لم تفعل شيئاً في سبيل تحقيق مثل هذه الوحدة ، بل لم تهيء لها الظروف لظهور عفوي ، اذ ان جل همها انصرف لاشباع حاجات روما المباشرة بالنهب والسلب ، والان توفر للايطاليين ، غالباً بغير رضى منها ، المنافع التي يتمتع بها المواطنون من سكان المدينة ، دون ان تعدّهم للوضع الحقوقي الذي ينعم فيه المواطن الروماني . اما الامر فقد تم على غير ذلك مع الامبراطورية ، تحت تأثير ارادة واعية ، مدركة لاغراضها ، ناشدة لاهدافها ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، بفضل هذا التطور الذي خضع له وضع الامبراطورية العام بعد أن عرفت ان تهيم له الأسباب . وأهم هذه التغييرات كان ، فعلاً : « السلام الروماني » وانتظام الادارة في الولايات الرومانية . وقد صاحب هذه التغييرات انقطاع دابر الارتكابات ، وتوقف استثمار هذه الولايات المفرط لصالح اقلية ضئيلة من اصحاب الامتيازات . صحيح انه بقي شيء من هذه الامتيازات في الدولة الجديدة انحصرت في بعض مقاطعات وفئة من الناس تميزت على غيرها من هذه المناطق والطبقات . الا ان الفارق الذي كان يميز وضع هؤلاء عن وضع اولئك ، لم يكن ليثير الحفاظ ويبعث الحسد والضعف في القلوب والنفوس ، بينما انتقاء اصحاب هذه الطبقات ، اقله فيما يتصل بالافراد ، اخذ يتم بصورة اوسع ، وبشكل ارحب ، ووفقاً لقواعد واصول جديدة . وهكذا أطلّ على الدنيا ، في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي ، طراز حيائي جديد ، شاع وعم ولم يلبث ان رسخ في الارض واعرق . وكان من اسباب هذا الوضع ومن نتائجه ايضاً ان روما لم تشارك فيه على قدم المساواة وبقيت محافظة على بعض ما كانت تتمتع به من امتيازات ، الا انها عولت الا يكون دورها فيه غير دور عاصمة تؤمن الانسجام بين الاجزاء المقومة وتجري بينها العدل بالسوية .

١ - الاقتصاد

والشعور الذي ساد الجميع ، هو ان الحياة الاقتصادية تميزت ، خلال هذين القرنين ، بالانطلاق والازدهار . هنالك ، لعمرى ، نقط سود في الصورة : أقول نجم ايطاليا ، وتشابك التبادل

والعطاء مما لا بد منه لتأمين شيء من التوازن المرغوب ، وعدم الاستقرار في ما كان عليه الوضع من سرعة العطب . الا انه لم يحدث شيء مهدد للآث ، والازمة الايطالية التي استشعر الناس قرب وقوعها وثقل وطأتها ، امكن ايجاد ملطف وقي لها ، اذا ما امتنع الدواء . فساد الهدوء والاطمئنان القسم الاكبر من القرن الثاني ، بحيث اصبح جائزاً القول بطلوع شعور عام بالرضى والارتياح .

راح معاصرو العهد يعزون الفضل في هذا كله للإدارة الامبراطورية ،
مهم الحكماء وهو اجسامهم : ولا سيما للإباطرة انفسهم ، وهم في ذلك انما يرددون ما تنفخ به ابواق روما والجيش
الدعابة الرسمية . الا اننا لا نستطيع ان نعزو ذلك اليهم الا بالمدح ،
نتيجة قرعية لسياساتهم الحربية والادارية . فقد احتزوا كثيراً من تطبيق سياسة اقتصادية ،
ولا سيما من وضع فلسفة اقتصادية . ولعل خير ما كانوا يرجونه الا يتدخلوا في امور وموضوعات كثيراً ما اعوزتهم الحيلة لمعالجتها بعلم واصول . وما كانوا أرغوا للتمرس بمثل هذه الأمور لولا اضطرارهم لمواجهة قضيتين عصيتين هما : تأمين تموين روما ، وتموين الجيش الروماني .

فقد كانت روما ، اذ ذاك ، مدينة ضخمة جبارة ، اختلف المؤرخون وتباينوا كثيراً فيما بينهم ، حول عدد سكانها ، وذلك لقلة المصادر الركيعة التي يصح الاعتماد عليها . فقد فرط بعضهم وراح يقترح ٢٠٠,٠٠٠ ، عدد سكان هذه المدينة ، بينما القول بليون لم يكن بمستغرب قط . ومهما يكن من الامر ، فهذه الجماهير المجمعرة التي تعمر بها العاصمة ، لم تكن لتنتج كبير امر ، منذ عهد بعيد . فقد اقتصر نشاط اليد العاملة فيها على بعض مصنوعات يدوية لسد الحاجات المحلية . فالمدينة قبل كل شيء مستهلك ، أكل ، دون اي بديل او عوض . وهي الى هذا ، مستهلك ، ألف منذ عهد سحيق ، ان يعيش حياة رخيصة ، نظراً للتدابير التي كانت تتخذها الحكومة لتبقى اسعار الخنطة رخيصة ، ولتوزع الطحين مجاناً على المواطنين الفقراء والمعوزين . ولما كان من المستحيل مجرد التفكير بقطع هذه التقاليد المرعية وضرب عرض الحائط بها : فروما سيدة العالم ، وهي في الصميم من هذه الفتوح الرومانية العريضة ، وما الى ذلك من مشاعر ومصالح واعتبارات تتعلق بهذه الجماهير التي ترى في الامبراطور الخليفة الشرعي للحزب الديوقراطي ، ويمثل التريبون حامي الشعب ونصيره .

فكان على الامبراطور ، والحالة هذه ، ان ينظم على احسن وجه ، مصلحة التجهيزات والتوريدات ، لتأمين أود العيش ، لما لا يقل عن ٢٠٠,٠٠٠ او ما ينقص قليلاً عن هذا العدد ، في عهد اوغسطس ، من رؤساء الأجناس القاطنة في روما ، الموزعين على ٤٥ دائرة ، يتلقون على مدى ايام الشهر ، مجاناً ، كمية القمح اللازمة لاعالتهم . اما الباقيون فكان على دائرة التموين ان تسعى جهداً لتأمين حاجاتهم بصورة منتظمة ، وبأسعار مقبولة . اما في اوقات الفاقة والمجاعات ،

كما حدث، سنة ١٩ مثلاً بعد الميلاد ، في عهد طيباريوس ، فكان الامبراطور يدفع مبلغاً للتجار لتأمين أسباب العيش للشعب .

كل هذا وما اليه ، الى جانب الاعياد والالعب المعدة للترفيه عن الشعب ، كالأعطيات التي توزع عيناً ، ومقدارها ٤٤٥ ديناراً في عهد اوغسطس وهو الرقم المألوف ، ثم ارتفعت الكمية في القرن الثاني بحيث تجاوزت ٦٥٠ في عهد ترايانوس ، وبلغت ١٠٠٠ في عهد هدرابانوس ، لتنزل الى ٨٥٠ في عهد مارك اوريل ، واستقرت على ٨٠٠ في عهد كومود ، وهي مبالغ كانت توزع على المواطنين ، الذين لا يستفيدون من المساعدة المجانية ، اثناء بعض الاعياد . هذا فيما يتعلق بالمساعدات النقدية . اما من جهة الادارة الفنية ، فكان ذلك انما يعني إنشاء مفوضية التموين *Annone* ، ومصادرة وسائل النقل البحري ، واعداد أرصفة نهر التيبر وتجهيزها ، الى جانب تجهيز مرفأ مدينة اوسيتي ايضاً .

اما امر تامين الجيوش ، وتجهيزها بالعدد والعتاد ، فقد وضع الدوائر المعنية امام مسؤولية ثقيلة، كان حلها مع ذلك ابسط واسهل من تامين الشعب . فمجموع افراد الجيش المطلوب اعالتهم كان اقل بكثير من إعالة هذه الجماهير الشعبية التي يجب مساعدتها في روما . ثم ان هذا الجيش لم يكن مجتمعاً او محتشداً كهذه الجماهير المتراسة في روما والتي تعجز اخصب السهول المجاورة عن إشباعها ، بل كان موزعاً على الحدود؛ حاميات تحمي حى الاراضي والمزدرعات التي كانت تستغل في المؤخرة . وكان يكفي لتأمين حاجته ان يحصل من الولايات القريبة منه فائضاً كافياً من محصول الارض ، وان يؤمن نقله بحيث يصل للمستهلكين بسلام . فالمشكلة الاولى كان يمكن حلها بواسطة الدراهم . اما المشكلة الثانية ، وهي ادق وأصعب لوقوع هذه الحدود في منأى بعيد عن البحر المتوسط وموانئه . وهذا ما دعا لشق طرق برية عندما يتعذر النقل النهري . وفي سبيل هذا التجهيز وتأمين اسبابه المزدوجة الغرض - اذ ان الطرقات كانت تستعمل لنقل الجيوش ايضاً - امكن توفير اليد العاملة ، وذلك بتسخير افراد الجيش وتشغيلهم في شق الطرقات وتوسيعها .

وهذه المسؤوليات الحكومية، تقتضي للنهوض بها المال والاختصاصيين .
العالم الروماني
وجهاً لوجه مع مسؤولياته
فاذا ما نظرنا اليها بنظار العالم الروماني ، والمستوى الحضاري المادي الذي حققته بعض اجزاء هذا العالم، فلم تكن هذه المهام والمسؤوليات التي توجبها ، فوق طاقته ، اذا ما توفرت له ادارة حكيمه رشيدة . فالمال الذي كان لا بد منه لتحقيق هذا كله ، كانت توفره موارد البلاد الاقتصادية ، ولم يكن ليكلف عبئاً ثقيلاً عليها .

فباستثناء مصر التي بقيت خاضعة لنظام خاص من الاستقلال والاستثمار لا رحمة فيه للفلاح المصري ، كان الوضع القائم مؤقتاً حياة اقتصادية ناعمة تعم جميع اطراف الامبراطورية ، لا سيما والاستقرار الذي تنعم به البلاد كان يشجع على القيام بهذه الجهود . فروما والجيش ألتفا في الامبراطورية ، سوقاً للاستهلاك لا حدود لها تقريباً ، اذ كان من اتساع هذه الحاجات وتنوعها

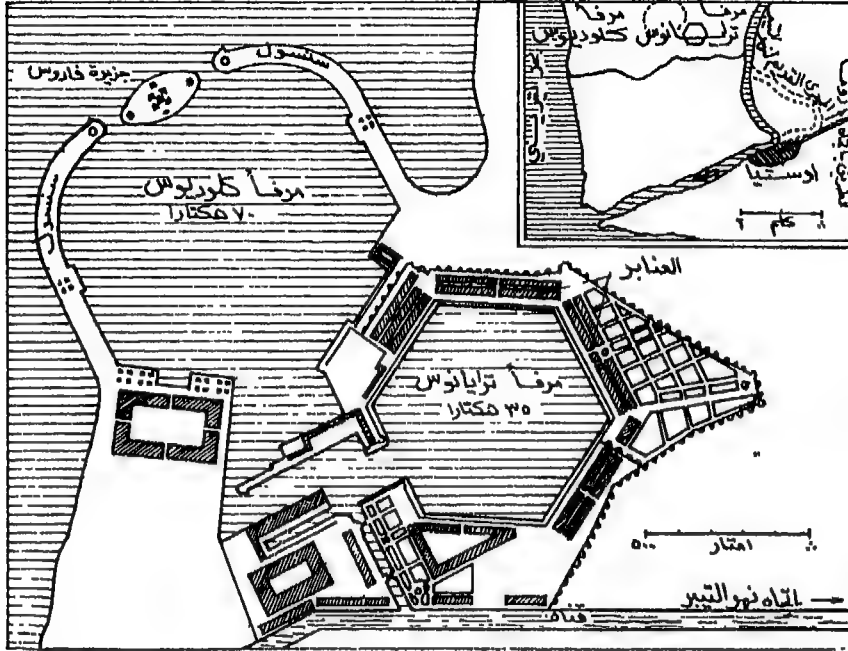
ما يتطلب المزيد من انتاج محاصيل الارض . فالى جانب الحنطة التي كانت تؤلف اساس الغذاء وقوام أَوَد العيش، يجب ان نضيف محاصيل غذائية اخرى متنوعة يطلبها الكثيرون من الزبائن والمستهلكين ، ومقادير هائلة من المنسوجات والمصنوعات المعدنية التي يمكن نقلها على الطرق القائمة في جميع اطراف الامبراطورية .

فقد كانت روما قطب جذب ومركز ثقل هائل، لكل ما يمكن ان يبلغ في طريقه الى موانئ البحر الابيض المتوسط ، حتى ما كان منها من الكماليات الغالية الثمن ، لوجود اصحاب ثروات طائلة في احيائها وصروحها . اما قيام الجيوش : حاميات على اطراف الامبراطورية وحدودها المتاخمة لشعوب البرابرة ، فقد بعث في هذه الاقطار المتأخرة في تطورها عن ركب الحضارة ، نشاطاً عارماً لم تكن لتعرفه ، كان من بعض نتائج الحيرة ، احياء موات الارض وإعمارها ، وحرثها وتزايد السكان فيها ، وانشاء المصانع والمعامل في ارجائها . ثم ان إنشاء شبكة اتصال منتظمة الحلقات ، بين هذه الحدود والاقطار الواقعة في مؤخرتها امتدت الى اطراف البحر المتوسط الذي كان ، مع ايطاليا ، واسطة العقد وملتقى الخطوط ، ساعد على إنشاء المجاري المائية او النهرية الكبرى والطرق الرئيسية ، ومهد السبيل امام حركة تجارية جبارة ، لم تقتصر المبادلات فيها على بضائع الاستهلاك وحدها .

وهكذا ، فالنتيجة المحسوسة الكبرى التي تهم الى حد بعيد المؤرخين اليوم كما همت المعاصرين لهذه الحركة الاقتصادية ، تبلورت عن تشعب العلاقات التجارية وتشابكها ، وضم الاقطار الشاسعة الواقعة على شواطئ البحر الابيض المتوسط الغربية الى الوحدة الاقتصادية التي اقتصرت ، من قبل ، على شواطئ البحر المتوسط الشرقية ثم ربطتها الفتوحات الرومانية بقلب ايطاليا ، واخذت هذه الوحدة تلسع لتضم في نطاقها : قطاعات الدانوب والرين ، وجنوبي ايكوسيا . وهكذا نرى البريطانيين يتجرون مع منطقة بوردو ، كما راح سكان مدينة آرل يتجرون مع لبنان ، في الوقت الذي كان فيه التجار السوريون يجوبون جميع اطراف العالم الروماني الذي كان قبل كل شيء وحدة سياسية وعسكرية ، لم يلبث ان اصبح وحدة تجارية واقتصادية ناشطة ، حية ، بفضل الروابط التي شددت دوانيه الى اقاصيه عبر البحر المتوسط .

وهذا الازدهار التجاري توفرت له عوامل تقنية في غاية الملاءمة . فمن التجارة وسائلها التقنية مقومات هذا الازدهار ، هذه الامبراطورية المترامية الاطراف ، ذات الانتاج المتنوع ، والغلال المتعددة ، والمحاصيل الزراعية المختلفة ، والاساليب الصناعية المتباينة . وكان السفر والتجوال والرحلة في جميع أطرافها حراً لجميع رعايا الامبراطورية ، لا يحد من امكانيات الرحلة إلا هذه الازدواجية في اللغة : اليونانية في الشرق ، واللاتينية في الغرب . ومع ذلك لم تؤلف هذه الازدواجية عقبة كأداء ، استعصى حلها . وانتقال المحاصيل الزراعية حظي بالحرية نفسها ، باستثناء الحبوب المصرية التي لم يكن الامبراطور يسمح بتصديرها لغير ايطاليا إلا في ما ندر . وكانت هذه المبادلات تخضع ، بالطبع ، لرسوم وضرائب لم تكن ابدأ رسوم حماية ،

معتدلة في أقدارها ونسبها . من هذه الرسوم ، مثلاً ، رسم الدخولية وهو رسم كان يجبي عند مداخل بعض المدن ومنها رسم اقليمي *Portoria* ، تجبیه الدولة عندما تجتاز البضاعة شبكة طرق مركزية، كما لو مرت في غالبا مثلاً، بما فيها المقاطعات الألبية التي تفصل بينها وبين ايطاليا، او في اقليم آسيا الصغرى. كان معدل هذه الرسوم المختلفة يوضع على نسبة قيمة البضاعة المستوردة او المصدرة . وقد بلغ الحد الأعلى لهذا الرسم في صقلية ٥٪ مع انه قلما تجاوز ٢،٥٪ عادة . وقد أنشأت الدولة شبكة من الطرق الممتازة وتمهدها بالصيانة والرعاية . وتبرز أهمية هذه



الشكل ١٠ - مرفأ أوسقي القديمة
في هذا الرسم تظهر القناة المؤدية الى المرفأ القديمة وتدعى الفيوميسيو

الطرق اذا ما قارناها بما كان منها ، من قبل ، اذ كانت مجرد معالم مسالك تسلكها حيوانات الجر . وقد حقق مهندسو الطرقات إنجازات هندسية جبارة تُعد بحق ، من المعجزات اذ ذاك ، لتخطي بعض النوائى الطبيعية ، من جبال ووديان ومنحدرات صعبة الاجتياز . كما ان هذه الأعمال الهندسية كانت مثلاً للجرأة . فكل عهد من عهود الإباطرة الرومانيين الذين تعاقبوا على الحكم ترك آثاره المعمارية البارزة التي تحدث الدهر في بقائها ، ولا يزال بعضها ماثلاً للعيان حتى يومنا هذا . ولكن حذار من ان نضخم أكثر مما يجب ، واقعاً متحيزاً ، لا نزال نطأطئ الرأس امام روعته . فالحرصانة الرومانية (الباطون) التي اقتضت من المهندسين جهداً كبيراً من الحيلة والتصور ، لم يعتمد عليها في رصف الطرقات ، فاستعاضوا عنها بالبلاط القوي المقصوب ، يرصفون

به الطرق رصفاً جيلاً. كذلك لم تأت وسائل استخدام الحصان كحيوان للجرح والنقل على مستوى النجاحات التي حققها الفن الروماني في مجال بناء الطرق. فبيطرة حيوانات الجرح بقيت عادة محدودة لم يشع استعمالها. وطريقة كدن الحصان الى العربى لم تعرف، على ما يظهر استعمال طوق المنكبين، بل استمروا في استعمال سيور يؤثر ضغطها على صدر الحيوان وحركة تنفسه. ولذا قلما زادت حمولة عربى يجرها جوادان على ٥٠٠ كيلو غرام، وهي كمية قليلة تبهظها تكاليف السفر والرسوم وترهقها. فالطرق الامبراطورية التي كانت تبعث في النفس الدهش والإعجاب لانسيابها في صراط قوم غير مباينة بالنوائى الطبيعية، كانت تصلح لتنقلات الجيوش والمسافرين الذين لم يكونوا ليحملوا معهم مهاباً كثيرة، كما تصلح لسير البريد الذي ينقل المخابرات الادارية. ولهذا راحت الحركة التجارية تعول بالأكثر، على النقل البحري. فقامت عمارات وأساطيل يقودها مجذفون، تذرع مجاري الأنهر ذهاباً وإياباً، حتى ما كان منها صعب المسالك، عسرو المرتقى كنهر الرون ونهر الأود. ولو اقتضى الامر جرح السفن بالليان او نقل البضائع على الظهر. فمن الغريب جداً ألا يعمد المهندسون الرومان، الذين عرفوا يجراتهم ومغامراتهم في مجالات التعمير ومرافق أخرى، الى حفر الترعى والأقنية. ومن الأقنية القليلة التي عرفت عنهم، قناة تتعلق بمجرى الرين الاسفل، ولا سيما القناة المعروفة اليوم باسم إيسيل التي كانت تربط النهر المذكور ببحيرة فليفو (Flevo) المعروفة اليوم ببحيرة زويدريزه.

وعرفت الملاحه في البحر المتوسط ازدهاراً غربياً، بعد ان قضى او كاد، على اغتيال القرصنة التي تعرضت لها، وذلك بفضل يقظة البوليس وحراسه الصارمة للطرق والمسالك البحرية. فالفئانه لم تسجل تقدماً ملموساً، وبقي حجم السفن على مثل ما وضعته عمارة السفن البحرية في تلك العصور، اذ كان، على الاجمال متوسطاً، باستثناء الاسطول الخاص يدائرة التموين ونقل الحبوب من مصر الى ايطاليا، اذ كانت هندسة هذه السفن تخضع لتصميم خاص اتي «بلين الأكبر» على وصفه، حتى ما كان منها معداً لنقل مسلة فرعونية او قاعدة تمثال لا يقل وزنه عن ٥٠٠ طن، بقطع النظر عن صابورة السفينة التي كانت تبلغ احياناً ٨٠٠ طن، وهي، على الاجمال، من العدى. اما الترعى التي شقت برزخ كورنثس لتفادي الدوران حول شبه جزيرة البيلوبونيز، والتي وضع تصميمها قيصر، وتابع نيرون العمل فيها، فلم يتم انجازها. وقد أدى إعداده المرافىء: البحرية منها والنهرية، وتهيئتها، الى اشغال عظيمة، حذا فيها المهندسون الرومان حذو اسلافهم المهندسين الاغريق، وبزؤم في اشياء كثيرة. ولم تبلغ هذه الاشغال من العظمة والجهد ما بلغه إعداده مرفأ مدينة اوستي وهو مرفأ روما المفضل. ولا تزال ماثلة للعيان معالم الإنشاءات الجبارة التي قام بها هؤلاء المهندسون على شواطىء ايطاليا والشرق الادنى، في مواقع على سيف البحر، مثل شنتوميليه، وتيراسينا، وترايزو واسكندرية-ترواد، ومبيوبوليس في كيليكية، وبقايا الارصفة الضخمة التي اقاموها لكسر قوة الامواج المهاجرة، والجزر الاصطناعية، والمناثر الكبيرة، والارصفة التي اقاموها في وجه الامواج العاتية. ولعل

غلظتهم الكبيرة هي انهم لم يفتنوا للحؤول دون غشيان الرمول لبحاوض السفن ، او لترسب مياه الانهر . فما من مرفأ من هذه المرافئ عرف مدى كالمدي الذي عرفه ميناء الاسكندرية ، اذ كان تيار مائي يحول دون غشيانه بطمي النيل .

قام في خدمة التجارة ، حتى اواخر القرن الثاني ، نقد روماني قوي ، سليم .
النقد الروماني
والعملات المستعملة
فقد ايجز لعدد من المدن الكبرى في الشرق نعمت بالرعية الرومانية ، سك بعض النقود من البرونز والفضة . ومثل هذا الامتياز الذي كان قابل الالغاء ، خضع بطبيعته ، لمراقبة شديدة من قبل السلطات الرومانية . والامام بهذه العملات التي وصفها علماء التميميات في عصرنا هذا « بالمسكوكات » الاستعمارية ، وكان التعامل بها في نطاق ضيق ، فتح المجال امام اعمال صرافة محلية عرفت الحركة التجارية العامة ان تتفادها بيسر ، لوفرة النقد الرسمي المتداول بين الناس اما كن سكتة .

فالعملة البرونزية كان سكتها حقاً محصوراً بمجلس الشيوخ ، ويخضع بالتالي ، لمراقبة شديدة من قبل الادارة الامبراطورية لانها كانت عملة رسمية للدولة . وهكذا عرفوا ان يتفادوا ، في آن واحد ، تضخم النقد وهبوط قيمته . اما هبوط قيمته ، فقد اعتمد في تفادها خليط من الرصاص والزنك مع النحاس والقصدير . فقطعة البرونز المثالية كانت قطعة الـ *Sesterce* ، التي كانت تساوي ربع دينار فضة . وهذه القطعة بقيت الوحدة الاساسية في التداول ، حتى في المبالغ الكبرى ، اقله في ايطاليا والغرب .

واحتفظ الامبراطور لنفسه بحق سك العملة الذهبية والفضية ، ممثلة بريال الذهب ، والدينار . وقد طبق دوماً ، خلال هذين القرنين ، القرار الذي صدر في عهد اوغسطس بحل قيمة ريال الذهب تساوي ٢٥ ديناراً ، بالرغم من التطورات التي لحقت ، فيما بعد ، بهاتين العملتين بنسبة الواحدة الى الاخرى ، وكان من جراء سيطرة الامبراطورية على مناجم الذهب في مقاطعة داسيا ، بعد فتحها على يد الامبراطور ترايانوس ، ان اضعف القيمة الشرائية لعملة الذهب ، التي بعد ان كانت ١٢ ضعف قيمة الفضة ، في عهد اوغسطس ، اذ بها تهبط الى ٩ اضعاف . وهذا بعينه يفسر لنا الهبوط الذي لحق بالدينار من حيث وزنه وعياره . فاذا ما بقي عيار ريال الذهب عالياً ، اي بنسبة ٩٦ ٪ ، واذا كان وزنه لم يهبط الا بنسبة عشرة في المائة ، فالهبوط الذي لحق بالدينار كان أشد ، لا سيما ما تعلق منه بالعيار ، اذ سقط من ٩٨ ٪ في عهد اوغسطس ، الى ٨٨ ٪ منذ مطلع القرن الثاني .

هذه المعطيات والارقام التي اتينا على ذكرها اعلاه ، تثبت بوضوح ، ان الابطارة ، عموماً ، باستثناء الامبراطور نيرون ، لم يلجأوا الى المضاربات والتلاعب بالنقد للتخلص من الصعوبات المالية التي كانوا يعانونها ، وهي صعوبات طفيفة ، غير ذات بال على الاجمال ، الى عهد مارك اوريل ، فصادت الامبراطورية الرومانية ، اذ ذاك ، من جميع الوجوه ، صعوبات ارغمتها على الاخذ بالتضخم المالي الذي صحبه هبوط مريع في عيار الدينار .

التجارة الدولية بالرغم من تنوع ولاياته وتباعدها وتناثرها ، بقي العالم الروماني قبل كل شيء ، عالم البحر المتوسط ، وإن أطلت بعض اقاليمه على المحيط الاطلسي . وهذا العالم الشاسع الفسيح كان اعجز من ان يشبع مطلب الطبقات الاجتماعية وحاجاتها لبعض المنتوجات والمحاصيل التي تصنع في الخارج ، وهي منتوجات ، استبدت باذواق هذه الطبقة المرفهة ، المترفة ، التي نما فيها هذا الترف خلال اتصالاتها الطويلة العهد بسررة الشرق الهليني وأغنيائهم ، فتطبعت باذواقهم وتخلقت باخلاقيهم وعاداتهم . هنالك لعمري ، اقطار ومدن عرفت الاتجار مع هذه الاقطار النائية فكان ذلك باعثاً على ازدهارها وغناها . فقطع هذه الاصناف عن رومانيا فيه ذهاب هذه الثروات عن اهلها . وهكذا اكتملت التجارة في الداخل بحركة تجارية في الخارج لم يكن ليستهان بها ، وإن كانت دون الاولى اهمية وشأناً . وهذه التجارة الدولية ، على نشاطها ، اكثر من دليل وبرهان ، في اكثر من مصدر ومرجع ، كما عليها اكثر من دليل ، في هذه الآثار المادية التي خلقتها ، اذ نجد في بعض النحاء الامبراطورية حاجيات اجنبية الصنع ، كما نجد نقوداً وعملات رومانية من جميع الفئات في بلدان اجنبية مختلفة .

وهكذا راح المؤرخون يدرسون اليوم ويبحثون قضية الميزان التجاري في الامبراطورية الرومانية . الأمر الذي لا شك فيه هو ان الميزان التجاري كان يشكو عجزاً تسبب في خروج المعادن الثمينة من البلاد والنسراها الى الخارج . ويرى بعضهم ان حركة نزوح الاموال هذه ، بلغت من الشدة بحيث نشأ عنها هبوط اقتصادي محسوس .

فالاتجار مع شمالي اوروبا وشرقيها لم يسجل اي هبوط من هذا الشكل . فبعد ان كان العنبر (الكهربا) يتبع في انتقاله ، طرقاً شتى ، كان ينتهي به المطاف الى ايطاليا عن طريق مدينة اكيليه التي بقيت ، حقبة طويلة ، عقدة للمواصلات التجارية مع بلدان الدانوب . وقامت في القرن الثاني حركة تجارية انطلقت رأساً من بلدان نهر الرين الاعلى باتجاه الدانوب ، كما ان بلاد غاليليا الشمالية كانت تصدر على نطاق واسع ملاقطها ومشابكها الموشاة بالمينسا . واخذ الغز او السكيثيون ، في جنوبي روسيا ، يصدرون عن طريق نهر الدانوب الاسفل ومرافئ البحر الاسود اليونانية ، الى جانب القمح والسمك المعد لاستهلاك الجيران الاقربين ، الفراء والرقائق ، ثم تنقل هذه السلع الى الموانئ النائية . وكان هؤلاء الاقوام يحرصون على شراء المشابك ومصنوعات الخزف والزجاج ، اذ نجد بعضاً منها في القبور والمدافن التي عثروا عليها في النحاء روسيا الجنوبية . كذلك نجد نقوداً رومانية السكة يجري التداول بها في القرن الثاني ، في اصقاع سكندنافيا اذ ان خروج مثل هذه العملات لم يكن يتسبب قط بنزيف مالي يهدد الامبراطورية الرومانية باي خطر .

وعلى هذا المتوال جرى الأمر مع اواسط افريقيا . فالتجارة عبر الصحراء الكبرى بقيت دوماً ، قليلة الشأن . فقد عوّلوا في النقل على الجمل ، مركبة الصحراء الاولى ، واتخذوا منه

الرواحل للتنقل بين الشرق والغرب ، فلم تبلغ هذه الحركة بعض الاهمية الا مع مطلع القرن الثالث . فالبدو الرحل في الصحراء ، كانوا قبل كل شيء ، اهل غزو وسلب ونهب ، ولذا لم يكن بالامكان تنظيم قوافل تعمل على مواعيد منتظمة . والاستيراد اقتصر على شراء بعض أرقعاء الزنج اذ كان اقتناؤهم من سمات الغنى والثراء ، يثير وجودهم لدى البعض الشهوة والرغبة عند البعض الآخر ، في اقتنائهم . كذلك كانوا يستوردون بعض حيوانات غريبة ، مرآها يثير دهش الجماهير وحيرتها . اما التجارة عن طريق صعيد مصر ، فكانت ناشطة ، كما ان الحبشة وبلاد اريتريا ألقت سوقاً رائجة لمصنوعات الاسكندرية تصدّر هي ، في المقابل ، الأخشاب الصلبة النادرة والعاج والذهب ، وغير ذلك من انتاج تلك البلاد ، الامر الذي جعل الميزان التجاري مع هذا الجانب من الارض حسناً .

اما الاتجار مع الشرق الاقصى ، فقد ألّف المشكلة الكبرى ، اذ كانت الطبقة الثرية في روما تسمى وراء محاصيل تلك البلاد النائية الثمينة . فإلى جانب الطيوب والعطور والروائح الزكية ، والبخور والمر والافاويه على انواعها ، والحجارة الكريمة ، والآلئ والماس ، وكلها مواد كانت تستورد ، منذ عهد بعيد ، من بلاد العرب والهند وأقطار آسيا الجنوبية الشرقية ، يجب ان نضبط الآن ، بالرغم من احتجاج المتزمتين من الاخلاقيين ونواهي الامبراطور بمنع الرجال عن لبسه وارتدائه ، الحرير الذي كان يستورد من الصين . وكانت هذه البضائع الخفيفة الوزن ، والغالية الثمن ، تدرّ ارباحاً طائلة اذ كانت تباع بأسعار لا تعرف حداً إلا ما يضعه لها المترفون ممن أليفوا اقتنائها وأطلقوا العنان في امتلاكها . ولذا كانت هذه السلعة الغالية تتحمل بسهولة ، نفقات النقل : رسوماً وضرائب متعددة وعمولة الوسطاء . ولذا نشبت منافسة شديدة حول استعمال الطرق التي تتبعها في سبيلها نحو الغرب ، والمشرّفين عليها والمتحكمين بها (راجع شكل ٣٠ : طرق المواصلات بين اوروبا وآسيا) وهي اصناف وبضائع من شأنها ان تثير أعنف الرغائب واقواها وان تسيل اللعاب في حلق طالبيها . فبعد ان رأت حكومة الامبراطورية نفسها ، عدم جدوى الحملة التي شنتها على هذه الكماليات ، راحت تترك الحرية لرعاياها والواقعين تحت حمايتها للاتجار بها ، ثم اخذت تشجعهم وتدافع عنهم ، ولو بقوة السلاح احياناً ، وهي الدولة التي لم يكن يهملها التدخل في الشؤون الاقتصادية .

وكانت مملكة الفارثيين التي خلفت السلوقيين وحلت بسيطرتها محلهم على بابل وقسم من ايران ، تهيمن على عدد من هذه الطرق التي تسلكها التجارة مع الصين . وكانت احدى هذه الطرق البرية تجتاز ايران من الغرب والشمال لتصل الى مدينة مرو في ولاية مراغا ، ومنها تتفرع الى مفترق يتجه احدهما نحو التركستان والآخر نحو الهند عن طريق كابل . وهنالك طريق بحرية كانت تنطلق من مصب دجلة والفرات (شط العرب) فتصل الى مصب نهر الهندوس . ولكي نفهم حقيقة هذه الحروب القاسية التي قامت ، غيباً ، بين الفارثيين وترايانوس على الاخص ، ثم تتابعت متواصلة بينهم وبين مارك اوريل ، يجب ألا نهمل من حسابنا الدور

الكبير الذي لعبه فيها اعداء الامبراطورية من وراء الكواليس الذين كانوا وسطاء هذه التجارة وعلماءها .

هنالك امبراطرة اكثر تمسكاً بأهداب السلام ، اهتموا بهذه القضية وراحوا يبحثون عن يغنيهم مؤونة هؤلاء الوسطاء ، فاتجهوا بأنظارهم شطر البحر الاسود بعد ان اهلل الاغريق امره ، غب قدويحهم لايران وفتحهم لها ، وما الكتاب الذي وضعه المؤرخ تيريان بعنوان : « رحلة حول البحر الاسود » سوى تقرير مفصل رفعه صاحبه الى الامبراطور هدريانوس ، هو حلقة في سلسلة من هذه البحوث حول هذا الموضوع ، سبقها كما عقبها محاولات اخرى . فبعد ان يبلغ التجار التركستان متجهين بحر قزوين شمالاً او عابرين له ، يتجهون منه شمالاً نحو مجرى نهر الاوكسوس القديم (اموداريا اليوم) ليلتقوا بالتجار الصينيين القادمين من لوب - نور . وهنالك سبيل آخر لتفادي طريق الفارثيين ، وذلك باتخاذ مسالك الجنوب . فقد اتاحت الرياح الموسمية ، منذ عهد بعيد ، قيام علاقات بين بلاد العرب والهند ، عادت عليهم بأرباح ومغانم طائلة . فقام اوغسطس بتجريدة كبيرة ضد العربية السعيدة بين المدينة وعدن . وبعد فشل هذه الحملة انصرف الرومان لتنظيم علاقات تجارية انطلقت من الموانئ المصرية الواقعة على البحر الأحمر ، مثل ميوس هورموس على مقربة من خليج السويس ، وبرنيكي ، الواقعة على موازاة اسوان ، فربطت هذه الموانئ مع الهند مباشرة ، او عن طريق الاسكلة التي قامت الى الجنوب من شبه الجزيرة العربية قبل الإيغال في مضيق باب المندب . ويُعزى الى احد البحارة الاغريق المدعو هيبالوس اكتشافه الرياح الموسمية في الصيف ، هذه الرياح التي عرفت بموسمية الصيف . اما تاريخ هذا الكشف الجغرافي ففيه نظر ، اذ يرجع بعضهم به الى اواخر القرن الثاني ق . م ، بينما يردّه البعض الآخر ، الى بدء ظهور النصرانية ، وهو الاصح على ما يراه الثابتون في العلم .

وعلى هذا الشكل استطاعت السفن الرومانية بلوغ الهند وسيلان والوصول منها الى الهند الصينية . ويذكر الجغرافي المؤرخ اليوناني بطليموس أقصى نقطة انتهى اليها البحارة الرومان : كاتيفارا الواقعة ما وراء كيرسونيز الذهب ، وهي شبه جزيرة الملايو ، ولعلها التونكين او الصين الجنوبية . فقد عثر على حوائج واغراض من صنع الرومان ، في ضواحي مدينة بُنديشري في الهند ، وعند مداخل « اوك - ايو » في الكوشنصين ، وفي هذا دليل على ان بعض التجار الغربيين بلغوا في رحلاتهم البعيدة ، هذه المناطق النائية ، وان لم ينشئوا لهم فيها مستعمرات ثابتة . ويحدثنا التاريخ عن وفادقين ارسلها احد ملوك الهند ، تحملان هدايا سنية لاوغسطس وهو غيم في بلدة تاراغون ، في اسبانيا ، وفي جزيرة ساموس ، عام ٢٥ و ٢٠ ق . م . وهنالك روايات تحدثنا عن سفارات اخرى وردت على تريانوس وبعض خلفائه ، كما تحدثنا الروايات الصينية عن جهة اخرى من بلاد : تا - تسين التي كانت تقع فيما يرجحون ، على شواطئ البحر المتوسط الشرقية ، وعن عاصمتها الكبيرة وصروحها الخمسة الشهيرة التي قد تكون مدينة انطاكيا بالذات وهي تنوه على الأخص بقدرم موفدين ، عام ١٦٦ ، أي في عهد الامبراطور مارك اوريل ، من

قبل آن - تون ، وبلوغهم الصين الجنوبية . والمعروف ان مارك اوريل الذي تبنّاه الامبراطور انطونين ، كان يحمل هذا الاسم عندما جرى تبنيه . وليس ما يمنع ان يكون هؤلاء تجاراً تكتسوا بهذا الاسم الرسمي .

فالحركة التجارية ، التي قامت على هذه الطرقات ، بلغت شأواً مهماً ، ولا شك . ويقول سترابون ان ١٢٠ سفينة كانت تنطلق كل سنة ، في عهد اوغسطس ، من مدينة ميوس هورموس في اتجاهات عديدة . والكتاب الذي ظهر تحت اسم : « رحلة في بحر اريثريا » (البحر الاحمر) ، كان يشير الى بعض السلع ، كالنبذ والزجاج ، ومصنوعات معدنية متنوعة ، ويذكر بلين الكبير ان المرجان كان نادراً في جميع انحاء الامبراطورية ، لانه كان يصدر الى الهند . وقطع الفخار والخزف الاحمر ، ذات الرسم النافر التي عثر عليها المنقبون في الاماكن الاثرية في الشرق الاقصى ، تشهد على تصدير الادوات الفخارية . غير ان الصناعات الهندية لم تكنوا من تقليد هذه الاصناف . كذلك عثر المنقبون في هذه المواقع الاثرية ، على بعض الحلي والمجوهرات وان جاءت على نطاق ضيق جداً . وكان الرومان يقبضون ثمن هذه السلع معادن ثمينة ويقدر بلين بـ ١٠٠ مليون سسترس (٢٥ مليون فرنك فرنسي من علة ١٩١٤) مبلغ ما يصدرونه من هذه الاصناف الى البلاد العربية والهند والصين ، كان نصفها يمر عبر البحر الاحمر . وكان سكان الهند ، يبحثون باهتمام ، عن النقد الروماني ، والعملة الامبراطورية ، ثم راحوا يقلدونها ويوزونها ايضاً ، اذ ان قطع الذهب الهندية كانت من نفس عيار الريال الذهب الروماني ، حتى ان كلمة دينار *Denarius* اللاتينية الاصل انتقلت الى اللغة السنسكريتية . واكثر العملات الرومانية التي يعثرون عليها اليوم في الشرق الأقصى ، يعود تاريخها الى مطلع العهد الامبراطوري ، اي الى هذا العهد بالذات الذي تموّه به كتابات بلين وسترابون . ولكن فلنحذر الاستنتاج بسرعة لنقطع جازمين بأن التجارة خفّت حركتها بعد هذا العهد . فساكن الشرق علقت نفوسهم بهذه السلع ، وكانوا يحرصون الحرص كله على الحصول على ذات البضائع والمصنوعات التي ألفوا تعاطيها .

وقد راح الأمباطور طيباريوس يتململ ، أمام مجلس الشيوخ ، من أن ثروة الامبراطورية وغناها يتسربان الى البرابرة ، والى الاعداء ، ثمناً للحريز والحجارة الكريمة ، والحلي والمجوهرات التي كان الأغنياء يسعون وراءها ويتيهون بلبسها . غير ان طيباريوس الذي عُرف بروحه التساؤمية ، كان من هؤلاء النفر المتزمتين المنقطعين عن معاشره الناس . ولكي يتمكن من تقرير الأذى الذي لحق بتجارة الامبراطورية الرومانية لا بد لنا من احصاءات دقيقة حول مقادير المعادن الثمينة المنتجة اذ ذاك ، ومقارنتها بما يتسرب منها للخارج . يبقى بعد هذا أن ليس بين هذه البضائع والسلع التي كانوا يتصيدونها بأعلى الاثمان ، ما كان ضرورياً ، فراخوا يسعون وراءها ترفاً ويتباهون بحملها . فقد حالت اخلاق العصر المتمكنة من النفوس ، دون امتثال الناس لتوصيات السلطة ونواهيها ، وفوتت على الامبراطورية ، امكانية الاكتفاء الذاتي

المتوفرة لديها، وهكذا راحت طبقة غنية ثرية في روما تستسلم بكليتها لتيارات البذخ والاسراف والتنعيم التي استبدت ، منذ القدم ، بالطبقات الثرية في الشرق .

هذا الاكتفاء الذاتي توفرت امكاناته ، من حيث المبدأ ، في المجال الزراعي .
ومع ذلك لم تستطع الامبراطورية ان تنسى يوماً ، او تناسى ، خطر المجاعة
الذي كان يطل عليها من وقت لآخر ، فيقلق منها الببال ويقض مضجعها .

الزراعة : قصور
وسائلها التقنية

ليس من الخطأ بشيء ان نرد اسباب هذا الخطر ودوافعه الى هذا الوضع الزري الذي كانت تنسكع فيه الاجهزة الزراعية وعنادها ، من الوجهتين العلمية والفنية . وتنقضي الأيام وتجري الأمور ، والزراعة ، كالصناعة ، في شبه دوامة تدور على نفسها ، ليس من تحسين او تكامل في الانتاج . وكيف تتطور ، وقد خيل الى المسؤولين وعلية القوم ومن بيدم الامر والتوجيه ، انهم انما يأتون إذأ ما هم خصوا شؤون الحياة الدنيا وضرورات العيش ومقتضياته ، ببعض الشيء من الجهد الكريم الذي بذلوه وجادوا به ، في هذه الانشاءات العظيمة التي اتوها بمثابة هذه الموانئ والمباني ، والطرق العريضة والصروح الشاهقة . وقد نظروا الى هذه الانشاءات ، ملوكاً كانوا ام نصراء للعلم ، كمان لا بد منها لتأمين حاجة المدينة بالماء والغذاء ، يخلدون بانشاءها ويبذلون في سبيلها ما أوتوا من قدرات وسخاء . فأمر عادية كاحياء موات الارض ، والفلاحة والزرع ومضاعفة الانتاج قحاً وحنطة ، أمور لا تضي على صاحبها الجاه ، ولا تعود عليه باي فخر ، ولا تجعله في مأى العين ، او تشرئب اليه الأنظار . فقد جهلوا او تجاهلوا ان في هذا كله خير ما يترقب عليهم من مهات ، وفي تحقيق هذه الامور ، اسمى المسؤوليات التي يضطلعون بها ، وان هذا الواجب يجب ان يعلو سواء من الواجبات المترتبة على ذوي السلطان . ولعل اقتنارهم للاحصاءات حال دون بروز هذه القضايا امامهم بوضوح وجلاء . غير ان الكرب المزمن الذي عانت منه بعض مناطق الامبراطورية كان من شأنه ان يفتح عيونهم ويزيل الغشاء عن نواظرم . وما لا ريب فيه البتة ، ان القضية ازدادت تعقيداً وارتباكاً نظراً لما كانت عليه اليد العاملة من ندرة في أكثر من ولاية ، غير ان أسباب هذه الازمة كانت اجتماعية اكثر منها ديموغرافية . ولم يكن المستوى العلمي ، اذ ذاك ، ليضيق ذرعاً عن الحد من وطأة الحاجة الماسة لليد العاملة ، عن طريق تحسين انتاج العامل .

ففي هذه الاقطار المترامية الاطراف التي تألفت منها الامبراطورية الرومانية ، كان مهم الاكبر ، وحرصهم الاشد ، الا يقع اي تغيير في محل كان . فقد هم الادارة الامبراطورية ان تعنى بمصر وان تسيج حولها . او ليست مصر اهراء روما الاولى ؟ فترمم اقينتها ، وتجفف غياضها . ومستنقعاتها في ضواحي الفيوم . كل ذلك واجب محبب في سبيل تأمين عيش روما . فقد اقتصرت عناية الادارة على الترميم والاصلاح ، دون التفكير في التعمير والاحياء . فلا عجب ان يرتفع محصول البلاد وانتاجها ، في عهد الرومان ، على ما كان عليه في ايام دولة البطالسة .

صحيح ، هنالك تطورات ملحوظة ، لا ينكرها إلا كل عنيد مكابر ، برزت معالمها للعيان في كل من اسبانيا وغاليا . ولذا يصبح من ناقل الامور التأكيد بان محاصيل هذه البلاد سجلت ارقاما لم تسجل مثلها من قبل ، لانه لم يسبق في تاريخها ان خطط احد لمثل هذه التنمية في الانتاج .

فأثارة هذه القوى والطاقات الطبيعية ، جاءت استجابة لوعي عفوي أكثر منها لتوجيه او تشجيع ، يبعثها من فوق ، وهو وعي مصدره الاستقرار والطمأنينة التامة ، وتحسين طرق المواصلات واصلاحها لتصدير السلع والبضائع الى بلاد بعيدة نائية ، ونمو المدن وتطورها الاجتماعي ، مما زاد من حاجاتها ومستلزمات العيش ، واخيرا هذا التفاعل السياسي والاقتصادي الذي مهد السبيل لتلاقي الحضارات والبلدان النامية . والشئ الذي افتقر اليه الجميع ، لعمرى ، في كل قطر ومصر ، مع انه كان من حق الجميع ان يروه ماثلا امام اعينهم ، محققا ، لو ان الاباطرة الرومان اهتموا بتطبيق الاساليب والمناهج التي سبق لبعض الدول الهلينية ، ان طبقتها في بلادها فأعطت بذلك المثل الصالح ، هو مساهمة الدولة ومعاوضتها لهذه الحركة ، قولاً وفعلاً ، نظرياً وعملياً ، على السواء . فالدولة حاولت دوماً ، انما يتردد ، وبشيء من الوجل ، ان تلتطف وتحفف من هول الخطر الجلل الجاثم على الصدور ، والفاغر ابدأ شذقيه ، للانقضاء . والشئ الذي كان الجميع بحاجة اليه ، هو رعاية هذه الطبقة الموجهة التي كان في مقدورها ان توجه عمل الفنين .

وهكذا لم يحدث ، على الاجمال ، أي تغيير جذري ولا أي انقلاب ثوري ، في مرافق الزراعة يتبلور عن طلوع مزروعات جديدة ، وبروز اساليب ومناهج جديدة ، وعدة فنية جديدة . فقلما نرى اعمالا واسعة لحياء موات الارض ، وان حدث شيء من هذا فندرته تعفو ذكره . وبدلاً من ذلك اخذت الطبقات الاجتماعية الممتازة ، ولا سيما الطبقة الارستوقراطية في مختلف الولايات ، بأسباب هذه الرياضة البدنية وهي الصيد والقنص . فلم نر أعمال تجفيف ولا اشغال تصريف في البلاد . فقد اقتصر معظم أعمال الري والسقاية ، على المناطق نصف الصحراوية الواقعة على تخوم الامبراطورية الخارجية ، وذلك بدافع من اعتبارات عسكرية وسياسية اكثر منها زراعية . فنظام تحويل الاراضي ، كل ثلاث سنوات ، لم يسجل اي تطور ، كما بقي على حاله ايضاً نظام فلاح الارض الموات . وهنالك لعمرى ، بعض النباتات او بالأحرى ، بعض الاشجار تدخل الغرب . والكرمة ، هذه الغرسة الخاصة ببلدان حوض البحر المتوسط ، راح الرومان يزرعونها في اقاليم لا تصلح كثيراً لها . وهكذا استبدت زراعتها في مناطق لا تزال زراعة الكرمة مزدهرة فيها اليوم ، كما هي الحال في مقاطعة بوردولي وبرغونيا ، مع ان هنالك من يزعم ، أن ظهور الكرمة في هذه الاقطار ، سبق عهد سيطرة الرومان عليها . كذلك ازدهرت زراعة الكرمة في وادي الرين والموزيل . فالحد الذي تقف عنده زراعة الكرمة في المانيا ، اليوم ، هو حد المقاطعات التي خضعت لسيطرة الامبراطورية وبيادتها . والكستنا انتشرت زراعتها في فرنسا ، كما أن شجرة الدراق أو « تفاح الفرس » ، كما يلقبونها ، دخلت ايطاليا ، في أواسط القرن الاول للميلاد ، بنوعها : الصيفي والخريفى .

وهكذا ، فالتطور الذي طرأ على الزراعة ، اقتصر ، في أجلي مظهره ، على الانتعاش الذي عرفته زراعة الاشجار المثمرة ، وعلى البستنة . وكلاهما مدينان بهذه الحركة لنمو الحياة في المدينة ، ولزيادة الاستثمار في مرافق الزراعة الاخرى ، انما استثمار قلما جاء مدروساً أو موجهاً ، اذ كان الاغنياء ينزعون ، اذا ما شغلوا أموالهم في الارض ، لكسب المباحة والجاه الاجتماعي والتأمين على أموالهم ، أكثر منه الى إنشاء مزارع يسخون عليها بالمال والجهد والعمال ، يتمهدونها بمرق جبينهم ، لتؤتي أثريها ، لهم ولذراريهم من بعدهم . ومهما يكن من أمر هذا التطور ، فلم يحدث ، ولم يكن في مقدوره أن يحدث أي تحسن في انتاج المواد الغذائية الاساسية ، أي الحنطة ، بل النتيجة الكبرى كانت في إشباع حاجات بعض الطبقات الاجتماعية على تنوعها ، ولا سيما ما قام منها في المدن . . . وبهذا يمكن مقارنتها ، الى حد ما - مع الاحتفاظ بالنسبة - بالتوسع الذي بلغته التجارة الخارجية .

كان من بعض نتائج هذا التطور الذي لمسناه في بعض مرافق الزراعة ،
المجاعة : خطرها وواقعا أن وجد العالم الروماني نفسه ، في مجبوحة من الاثوار والفاكحة ، من أي نوع كانت ، ومن الزيت والخبز على ألوانها ومذاقاتها . بينا بقي انتاج القمح على غير انتظام ولا استقرار ، لا يوحى للأهلين بأي طمأنينة للغد الطالع . ومعالجة لهذا الوضع المتأرجح ، أصدر الامبراطور دومتيانوس الذي ندين له بالكثير من التشريعات العصرية ، مرسوماً حذّر بموجبه انشاء كروم جديدة في ايطاليا ، كما قضى بوجوب إتلاف نصف الموجود منها في الولايات الرومانية . إلا انه عدل هو نفسه عن تنفيذ قراره هذا ، استجابة منه لما لقيه قراره من المعارضة ، ولما أثاره من الاحتجاجات الصارخة ، وهو لو أراد العمل به لامتنع عليه التنفيذ لتجاوزه كثيراً امكانيات الادارة التقنية . وابعداً ما يمكن ان نذهب اليه في الافتراض ، هو ان الادارة تسلمت بهذا القرار لتحول دون إنشاء كروم جديدة او لتحديد من توسيع رقعتها في البلاد . وهكذا لم تسجل أية نتيجة ملحوظة في هذا المضمار . فبالرغم من التحسينات التي أدخلت على اسباب النقل ووسائله ، عرفت البلاد ، خلال القرن الثاني ، ازيمات مزعجة جرت عليها الوبال لشدتها وتكرارها .

وخطر المجاعة كان أشد بالطبع ، على الولايات الشرقية في الامبراطورية منه على الولايات الغربية . فالولايات التي عرفت دوماً ، بنقص انتاجها الزراعي وعدم كفايته ، أو صدت في وجهها اسواق التموين التي كانت تعول عليها ، منذ عهد بعيد . فمناطق البحر الاسود كانت تمد جيش الدانوب بمحاجاته ، كما كانت بلاد ما بين النهرين تزج تحت سيطرة الفارثيين . واحتفظت روما لنفسها بمحصول مصر وانتاجها ، بعد ان كان هذا الانتاج ، في ظل دولة البطالسة ، نعمة الممالك الهلينية وبركتها . كذلك احتفظت ايضاً بقمح افريقيا ، مع انه سبق لهذه الولاية ان ارسلت ، في عهد مسينسّا ، شحنات من قمحها لمناطق بحر ايجه . وتتفق المصادر الادبية والنقاش الأثرية ، على التنويه بأخطار المجاعة التي كانت عرضة لها مقاطعات اليونان وآسيا الصغرى ، كما

تأتي على وصف التدابير المتخذة لتفادي مثل هذه الأزمات أو للتخفيف من حدتها . من ذلك ، مثلا ، ان تعهد الحكومة ، في أكثر الأحيان ، الى اغنياء القوم وكبار الممولين بينهم في المدينة ، بتدبير شؤون التموين والاعاشة بأسعار معقولة ، فتنعم عليهم باللقاب فخرية ورتب شرفية تضطرم عند احتفائهم بها للاتفاف بسخاء ، كل بحسب امكانياته . إلا ان الادارة كثيرا ما اضطرت للجوء الى المصادر .

بقطف النظر عن هذه الولايات التي كان انتاجها الزراعي يخضع لتقلبات الاقليم وتغيرات الأحوال الجوية ، عانت بعض مدن ايطاليا ، من وقت الى آخر من هذا الخطر الذي كان دوما مائلا ، وعرفت القلق فريسة لهذه الهواجس . وكثيرا ما تحدثنا المصادر التاريخية التي لدينا عن مندوبي مصلحة التموين *Curatores Annone* الذين يشبهون ، الى حد بعيد ، مراقبي الأسواق او مفتشي تجار الحبوب في الشرق الاغريقي . عرفت افريقيا ومصر ، هما ايضا ، مثل هذه الأزمات من القحط والمجاعة ، نشأت عندهما ، على ما يظهر ، ويرجح العارفون ، عن مصادرة كميات أكبر من انتاجها الزراعي . فالولايات الواقعة غربي الامبراطورية ، ومن بينها غاليا ، في مقدورها ان تكفي نفسها بانتظام فتسد مطلب الاهلين كما كانت تلي حاجات الجيوش المرباطة على مقربة منها وتمدها بالميرة اللازمة .

فاذا ما نظرنا الى وضع الامبراطورية في المجال الزراعي في كلا شطريها : الشرقي والغربي ، رأينا ان الحالة السائدة في كل منها لم تكن مؤاتية لايطاليا قط ، التي لبثت باجماع المعاصرين ، منذ عهد طيباريوس ، فريسة سهلة للمجاعة . فقد انخفض انتاج الحبوب فيها منذ عهد بعيد ، إلا ان ازدهار زراعة الاشجار المثمرة اتاح لها ، منذ عهد اوغسطس ، تصدير كميات كبيرة منها ، استطاعت معها ان تتلافى حاجتها الشديدة للحنطة . غير ان تكاثر انتاج الفاكهة والأثمار في كل مكان راح ينافس المحصول الايطالي ، حتى في عقر دار المدن الايطالية وفي روما بالذات . وهكذا اصبح المخطاط مرافق الزراعة في ايطاليا ، شغل الحكومة الشاغل ومبعث هواجسها ، لا سيما بعد ان اصبحت شديدة الحساسية لكل قلق ، او لأي رسيس اضطراب يلوح في البلاد المجاورة .

والواقع الذي هم الجميع هو وحدة العالم الروماني ، هذه الوحدة التي برزت على اشدها ، في هذه الحركة التجارية التي عمت جميع اقطار هذه الامبراطورية وشملت جميع ولاياتها واخذت بالاتساع والنمو . كانت مرافق الامبراطورية الزراعية ناشطة ولا شك ، على الاجمال ، غير انه ازدهار سريع العطب ، وسرعطة ناتج ، شيء لا يصدق ، عن ازدهاره بالذات . وهذا الازدهار قوامه وفرة انتاج البلاد من الزيت والخبور ، وبلغ الكماليات ونصف الكماليات . اما سر هذا الازدهار فيمكن ، قبل كل شيء ، في امكانية تصريف هذا الانتاج وتنفيقه . وهذا نفسه قائم على مستوى رفاهية العيش الذي يفسط الاستهلاك ، كما يكن في حسن شبكة المواصلات وأمنها . والذي زاد هذا الوضع سحابة ، القلق المستحوذ على النفوس في كثير من هذه الولايات ،

لمعجزها عن تأمين حاجتها من الحبوب . فحسن سير الجهاز الاداري ودقته ، مُرتهن دوماً ،
بمعامل متعددة ، غير مستقرة لا يمكن التحكم بها . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تؤدي
الحوادث المؤسفة التي ألمت بالامبراطورية ، منذ اواخر القرن الثاني ، فارزحتها واقعدتها ، لأن
تسبب لها بعض الشلل .

والصناعة كالزراعة ، عانت ، هي الاخرى ، أعراض ركود في وتقني ،
ارزحتها فاقعدتها . فقد تم لمهندسي العصر ، في هذا المجال ، من العلم
والمهارات ، ما لو حاولوا معه ، صادقين ، وضع هذه المعلومات الفنية ،
موضع التحيز والتحقيق ، بعزم واصول ، لكانوا احدثوا ثورة صناعية عارمة .

فقدان التجدد الصناعي
والعدمه

ويروي لنا المؤرخ «سويتون» كيف ان الامبراطور فسبسيانوس وعدهمهندساً ميكانيكياً قدم اليه
مشروعاً ادعى معه انه يستطيع نقل أعمدة ضخمة دون كبير كلفة ولا عناء الى ساحة الكابيتول ،
بإجزال سني العطاء ، بينما اعرض الامبراطور نفسه وضرب عرض الحائط باختراع او اقتراح
زعم صاحبه انه يمكن الامبراطور من « تدبير إعالة الشعب بيسر وسهولة » . قد يكون من
المغري والمحرك للشجون ان نضفي على هذه النادرة قيمة رمزية فنفرض بداهة او تصور عفواً ،
ان هذا الاقتراح انما دار على انشاء مشاريع انسانية من شأنها كسب عطف الطبقات الموجهة ،
او انه تبدى لصاحب الاقتراح ، بثاقب بصره ، ما يكن في بعض الآلة من قوة مدهشة تستطيع
ان تأتي بالمعجزات ، غير ان تفرد هذه الطريقة بمنعنا من ألا نرى فيها اكثر من رمز او بورية
للامكانات والطاقات الكامنة في بعض ميكانيكيات العصر ، اذ ذاك .

والحقيقة التي لا مراء فيها هي ان إعالة روما ومن فيها من طبقات كادحة ، يُرزع الدولة
ويُفدحها ويؤلف وضعاً استثنائياً خاصاً . فاليد العاملة في جميع انحاء الامبراطورية ، وفي كل
مراقق العمل ، لم تكن لتفويض عن الحاجة ، ناهيك عن ان حاجات السوق الداخلية ، بقطع
النظر عن الاسواق الخارجية ، كان يمكن توسيعها لو امكن تخفيض كلفة الانتاج بعض الشيء ،
وجعلها بالتالي ، في متناول زبائن جدد .

وهذا التفكير القديم الذي يكره انتاج البضائع التي يتوقف تنفيها على رغائب الزبائن
بقي مسيطراً على الناس ، وان خفت وطأته ، مع انه بقي متحكماً بالادهان في الشرق الهليني .
ولم يبلغنا انه دخل الغرب ، ولم يحل ، اقله في ايطاليا ابان العهد الجمهوري ، دون انصراف بعض
اصحاب رؤوس الاموال الى انشاء معامل لصنع القرميد والطوب والخزف . وقد تألفت هذه
المعامل من ورش او مشاغل ، قامت جنباً الى جنب ، لكل واحد منها نشاطه وشأنه ويتولى
ادارته والاشراف عليه مني يتمتع بثقة صاحب المعمل . ومها يكن ، فلم نر احداً يبذل صادقا ،
أي جهد موصول في هذا الصدد ، او يعول على رأس مال كبير ، جعل نصب عينيه اكتشاف او اختراع
آلات ميكانيكية جديدة ، او حاول ادخال تحسينات تذكر على ما كان منها قيد الاستعمال .

فعمل من هذا النوع كان جر على صاحبه ، لو وقع في بلاد اليونان ، العار والشنار ، ادبياً واجتماعياً .

فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تأتي النجاحات التقنية ضعيفة جداً ، ان لم نقل معدومة . فالطاحون المائي اخذ استعماله يطل على الناس ، مع ظهور المسيحية ، وانت تباطأ انتشاره . فتقارب الناس بعضاً من بعض بفضل هذا النمط الجديد من الحياة المشتركة ، وتواصل الاقطار بعضها من البعض ، على ما بينها من جهل الواحد للآخر ، بالرغم من تجاورها ، كل ذلك سهل ايضاً انتشار استعمال القوالب اليدوية والآلة . وقد عرفت التقاليد والاعراف المهنية المحلية ان تحافظ على نشاطها ، ولو جاءت مغايرة لكل منطق سليم . من ذلك ، مثلاً ، اختراعات تماً على يد بعض الغاليين ، في ايطاليا الشمالية ، هما : برميل الحشب ، والمحراث ذي السكة . فبالرغم من المنافع الجزيلة التي كان في مكنيتها توفيرها للناس ، فقد بقي القوم يعولون في شؤونهم المنزلية على الجرة السريعة العطب ، وعلى المحراث الحشبي الذي يكاد يחדش اديم التربة وسطحها البراني . فقد سجلت كل مهنة او حرفة على حدة ، تطورات مذهشة . فصناعة الزجاج ، مثلاً ، استطاعت ان تسجل تقدماً محسوساً عن طريق انتقاء احسن ، للمواد الاولية التي تستخدمها ، واستعمال طريقة جديدة في النفخ او الإفراغ في القوالب ، فأخرجت للناس زجاجاً شفافاً متنوع الاشكال . غير ان انعدام البحث العلمي ، وعدم طلوع طرق ومذاهب فنية جديدة ، كل ذلك حمل الناس على الاعتصام بالتجربة الشخصية او الاكتفاء باحتذاء ما يسير عليه العمال الصناع من عدة وأساليب .

ومع ذلك ، برز النشاط الصناعي في العالم الروماني ، اذ ذاك ، على شكل لامركزية صناعية . ترك اثره العميق في الخواطر . نرى ولا شك ، ما بلغته ايطاليا من المحطات صناعي ملحوظ ، منذ منتصف القرن الاول . فبعد ان كانت تصدّر ، في عهد اوغسطس ، الكثير من مصنوعات المعدنية والخزفية ، ان لم نقل النسيجية ، فقد فقدت كل قدرة صناعية وعجزت عن تقديم اي انتاج صناعي لتسويق السفن بعد تفريغ شحنها في الموانئ الايطالية . ومع ذلك ، فوضعها من هذا القبيل هو افضل بكثير مما كانت عليه مرافق الزراعة فيها ، اذ انها عرفت ان تحافظ على البقية الباقية لصناعة صغيرة تستطيع معها ان تلبي حاجاتها الاولية ، بينما نرى عدداً من الولايات الاخرى في الامبراطورية يعرض خدماته لاشباع مطالبها الاخرى . والمثير للعجب ، هو ، بالفعل ، هذا النشاط المتجدد او الجديد الذي نرى بوادره تطل على الولايات . فبعد ان نعم الشرق الاسيوي ومصر ، بالنظام ، وخيمت الطمأنينة على ربوعها ، انصرفت هذه الأقطار الى إنتاج هذه الكماليات التي عُرف بصنعها وانتاجها ، منذ القدم ، صناعات مهرة ، وفرت لهم اسباب التمدن ، ما يحتاجون اليه من الخامات والمواد الاولية التي ترد من الخارج . اما الغرب ، فقد عرف نشاطاً وحركة من الازدهار لم يسبق ان عرف لها ، من قبل ، مثلاً ، ولاسيا مقاطعة غاليا التي سرعان ما تعرفت الى اسرار الحرف البدوية عن طريق ايطاليا وقد توفرت لها اليد العاملة الماهرة والخامات الاولية . وخير مثل على ذلك ، صناعة الخزف ، اعرق صناعات ايطاليا واجدها طراً . فعند مطلع المسيحية ، كانت ايطاليا بلداً يصدر بكثرة مصنوعات

الفخار والخزف الموشى بالرسوم النائثة. وما ان انتصف القرن الأول حتى نرى غالبا تبز ايطاليا بهذه الصناعة فتبلغ فيها المرتبة الاولى ، ولاسيما مقاطعات الاقليم الجنوبي . فبرزت فواخير *La Graufesenque* (في مقاطعة افرون) فغزت مصنوعات ايطاليا واخذت تنافسها في عمر دارها . فقد عثر المتقبون بين انقاض مدينة بومبي التي انساحت تحت حمم بركان الفيروف ، في ثورانه التاريخي الفطيع ، عام ٧٩ ، على صندوق مليء بالمصنوعات الخزفية في غالبا ، لم يكن فتح بعد . ولم يلبث ان انتقل مركز انتاج الخزف والفخار الى شمالي غالبا وتركز في مقاطعة الازاس ، في رينانيا . وهذه اللامركزية الصناعية هي من المميزات العامة للصناعة اذ ذاك فقد شملت المقاطعات التي تم فتحها منذ عهد قريب أو أخذت حديثا بأسباب الرقي والتطور ، وراحت بدورها تساهم في هذا النشاط الصناعي الشامل . فافريقيا اخذت تصنع المصابيح وتصدها الى الخارج . وهنالك مشروع استغلال مناجم الرصاص والقصدير في بريطانيا . كما راح الناس يستخرجون الذهب والحديد من مناجم داسيا . وهكذا قابل هبوط ايطاليا الصناعي نشاط صناعي عم الحما الامبراطورية وزاد من انتاج السلع على اختلافها .

الانتاج ومشكلاته كل الدلائل والنتائج المسجلة تشير بوضوح الى ان هذا الانتاج كان ضخما . وكيف لا يكون ضخما ، ليستطيع العالم الروماني ان يجهز جيوشه الجارية ، ويُلَبِّي حاجات تجارة عريضة ناشطة ، مع ما تستلزمه من وسائل النقل ، ويحقق مثل هذه الانجازات والمشروعات العامة ، ويشيد مثل هذا العدد من المدن والصروح والفيلات ، التي تقيض رفاهية ، وترفل بالبذخ والجاه العريضين ، ويرفع مستوى الحياة لدى الطبقات المتوسطة ، اذا ما كان يفتقر للنخامات الضرورية والمواد الأولية اللازمة لمهنة الصناع ، فيخرجونها للناس ادوات وحاجيات ؟ والثابت فعلا ، ان نمو الانتاج وازدياده ، واللامركزية الصناعية يصحبه دوما هبوط في الجودة . فالمستوى الاجتماعي الوسط وذوق الزبائن المنحط وهبط بعد الذي بلغ من اتساع وانتشار . وعلى هذا يجب ان نقيس تجربة اليد العاملة الآخذة بالازدياد وحرصها المتزايد على التجويد والاتقان . ويكفينا دليلا على ذلك تناقص صناعة الاوعية المنمقة امام ازدهار صناعة الخزف المطلي المحلى بالرسوم البارزة . ومقابل هذا تضاعفت صناعة الفخار الغليظ الصنع ، ذي الطينة الدكناء ، الحالي من كل حلية ، او على الاصح اقتصر استعماله على الطبقات الاجتماعية الدنيا . وهذا شأن كل الحضارات المادية ، فتدفع غالبا ما يترتب عليها دفعه مقابل كاليات لم يعد استعمالها مقصورا على قلة ، او فئة صغيرة من الناس محظوظة .

ومع ذلك فالتوازن لا يزال غير مستقر ، اذ نرى ، منذ اواسط القرن الثاني ، تطل علينا بعض البوادر التي جعلت فريقا من الناس يستشعرون الخطر الطالع ويعمل جاهدا على تجنبه .

وبالفعل ، نرى الدولة تتدخل رسميا لتنشيط الانتاج وتوجيهه وتنظيمه ، بعد ان كان تبدي لها انه من الافضل ترك شؤونه للمبادرة الفردية . فقد اتسعت املاك هذه الدولة واطيانها . فبعد ان كانت دوما ، وازدياد مطرد من كبار الملاكين ، فقد رأيناها تصبح بالفعل ، المالك الوحيد

للمناجم والمقالع الحجرية المهمة، الموجودة في جميع اطراف الامبراطورية. فقد سارت من قبل، في استثمار الثروات الدفينة في بطن الارض، على تزيئها لعدد كبير من المتعهدين، بعد أن حددت مواصفات هذه الاستثمارات المتنوعة، وحددت منها الحقوق والواجبات، وذلك تسهيلاً منها لعملية مراقبة الملتزمين والمتعهدين، الذين ترسو عليهم العطاءات. ثم لم تلبث ان اعتمدت طريقة الحكر وانتهجت في ادارته نظاماً عسكرياً، اذ اسندت الى ضباط الجيش، ادارة هذه الاحتكارات ومدها بما يلزم من الموظفين. وفي الوقت ذاته، تطالعنا استثمارات عديدة للمقالع، كما نشهد تأسيس معامل وورشات عمل جديدة او استئناف العمل في ورشات قديمة، عهد بادارتها الى عسكريين. وهكذا اخذت مؤسسات و فرق تضطلع بمهام اضافية جعلت منها بحق دوائر استثمار في المجال الصناعي. فاتساع نطاق هذا النهج الجديد في الاستثمار لا يبرره عدم اطمئنان الحكومة لهذه الفئة من المتعهدين والملتزمين، بل هو امر طبيعي تلتزمه كل ادارة ترغب في ادخال تحسينات على مناهجها والموظفين التابعين لها، والاستفادة على وجه افضل، من اوقات فراغ اليد العاملة في الجيش، بل يجب ان نرى فيه وسيلة لتفادي النقص في طبقة المتعهدين، كما يشهد على ذلك، قانون صدر في عهد الامبراطور هديرانوس، عثر عليه المنقبون في منطقة للمناجم، تقع الى الجنوب من البرتغال.

والى هذا، اخذت الدولة بتنمية علاقاتها مع النقابات العمالية والجمعيات المهنية وتوطيدها. فقد وقفت، في البدء، من هذه التكتلات المهنية، موقف التسامح المتساهل الذي اعترف بوجودها، ثم اخذت تسبغ على بعض اعضائها انعامات خاصة انطلاقاً من الهيئات النقابية التي لها علاقة بتموين روما وتأمين وسائل إعاشتها، لتشمل، فيما بعد، اصحاب السفن المتخصصة بنقل الحبوب والحنطة، وذلك منذ عهد الامبراطور كلوديوس، واصحاب الأفران والخبازين، في عهد تراجانوس. فلا عجب ان تتقاضى بانتظام، بعد هذا، رسوماً خاصة من هؤلاء العمال، وهي رسوم اتسمت بالاعتدال في بادئ الامر. فاذا ما اضطرتها الأيام الى تعميم هذه الرسوم وزيادة وطأة هذه الضرائب، فقد كان لها من مثل هذه السوابق، حجة.

هنالك ايضاً ثورة اخرى تبرز بوادرها في هذه الحقبة بالذات، لم تعتم ان قويت بسرعة وتضخمت وبقي اثرها ظاهراً في الاجيال التالية. فقد عرف الشرق، منذ القدم، مصانع وورشاً صغيرة، قامت الى جانب الهياكل والمعابد الدينية المعروفة بوفرة غناها وبما تملكه من أملاك واقطان واسعة، عمل فيها العديد من الفعلة والعمال في وضع لا يختلف كثيراً عن وضع الارقاء تقريباً. وقد بقيت هذه المشاغل تعمل بعد زوال معامل الحرف التي يملكها متولون ايطاليون، او انخفاض نشاطها. وظهر في بعض الولايات الغربية، خلال القرن الثاني، كبار الملاكين، ينشئون لهم على مقربة من استثماراتهم الزراعية، مشاغل تعنى بصنع الاغراض والحاجيات الحديدية والانسجة، صدرت منتوجاتها الى مناطق نائية. فمن المشاغل الريفية التي انشئت في الشمال من غاليا، خرجت هذه المشابك او الملاقط التي جبرى تصديرها الى بلدان

وادي الدانوب ، بحيث استطاع العالم الاثري الفرنسي فرانز كومون ان يحددنا بحق ، ولو بصورة لا تخلو من الغلو ، عن « رئيس ورشة الحدادين » في مقاطعة الأردن . وكان من جملة أهداف هذه المشاغل ان يفيد صاحب الأرض من ايراد ارضه وخيراتها ، فيستعمل خاماتها لما فيه مصلحته ونفع السكان الواقعين تحت حمايته ورعايته . وقد ينتهي مثل هذا التصرف العام الى اللامركزية الصناعية . كذلك من المستحيل الا نرى في هذا ايضا دليلا على ان الصناعة في المدن لم تكن لتفي بمحاجات سكان الامبراطورية .

فعدم استقرار الوضع الاقتصادي في جميع أنحاء الامبراطورية كما تشير الى ذلك الحوادث التي أتينا على ذكرها والنظر في الاسباب التي هيأتها ، كل ذلك من شأنه ان يضع المؤرخ امام مشكلة يتعذر تناوؤها بالنقد الدقيق ، لعدم توفر الاحصاءات اللازمة . فعليه ان يقنع من ذلك بانطباعات واحاسيس دون البراهين والادلة القاطعة . فقد رأينا ما كانت تعانیه البلاد من ركود تقني في جميع مرافقها . كذلك نوهنا بالوهن الذي عرف به التوازن الزراعي ، وهي علة مرزحة لمدنية كل ما فيها يقوم على الزراعة التي تمد الانسان ليس بالمواد الغذائية فحسب ، بل ايضا بالمواد الأولية الضرورة له : كالنسوجات والجلود والخشب . ولا بد من الاشارة اخيراً الى ما كان عليه النظام العام من تشابك وتعقيد يتطلب انتظام المبادلات الدولية التي تتأثر بأقل الحوادث ، مهما كانت طفيفة . وبعد هذا الذي ذكرنا ، يبقى علينا ان نذكر أشياء أخرى كثيرة ، هي بالطبع أهم وأخطر ، بحيث نبحت عنها في غير النظام الاجتماعي الذي كان عليه المجتمع إذ ذاك .

٢ - المجتمع

جاءت الامبراطورية ثورية ، في نشأتها ودوافعها ، ولا سيما تلك التي أخرجتها من مصطرع الأحزاب التي مزقت روما شر ممزق ، وأقامتها بعضاً على بعض ، وراحت تحاول حمل الثورة ونقلها بقضها وقضيضها ، الى المجتمع الروماني . فقد قامت ، اصلاً ضد مجلس الشيوخ ، فجردته من كل سلطة سياسية فعلية كانت له ، ثم اخذت بمصانعة الطبقة المشيخية وبمآلاتها بعد ان أبقت على امتيازاتها الفخرية وما جمعت من ثروات طائلة ، ان لم 'تبق' على المرتبات التي كانت تدفعها لأصحاب هذه الطبقة . فهي لم تكن تتحسس ، من حيث الاساس ، بأي موجدة أو حقد عليها ، انما وجدت نفسها ، عندما أطلقت على الحياة ، امام وضع قائم شهد زوال الثروات المخزنة واضمحلالها ، ابان الحرب الاهلية الماحقة ، وقبلت بالامر الواقع لانها لم تكن لترضى بتجديد مثل هذه الثروات على حساب رعايا روما والمواطنين الرومانيين . وقد كان هما الاكبر ان تبقي الطبقات السفلى في روما ، ناعمة بالهدوء والسلام ، فلا تشكل لها عبئاً يهبطها ، طالما لا تستطيع التخلص منها ، فعلى الاقل ، الحد من خطرها باصطناعها . وهكذا بدا اوغسطس صاحب تجربة تشربت نفسه بنزعة محافظة . فما عسى ان يكون تصرف يوليوس قيصر لو كان محله ؟ شيئاً آخر ، ولا شك في ذلك ، مع الاعتراف بالمعجز ، على وجه التحديد ، فليس بين خلفاء اوغسطس من حاول

ان يحاريه او يبزه جراً في الاصلاح والتجديد ، فخفضوا في كل ما يتصل بالمجتمع الروماني ، لضغط الحوادث ، بدلاً من ان يعملوا وفقاً لتدابير حكيمة ، وخطة مرسومة .

وهكذا طلعت على العالم حركة تطويرية لم تبلغ قط حد الثورة أو الانقلاب الجذري . فهذا المجتمع الذي قام في جمهورية ارستوقراطية ، بقي هو نفسه قائماً ، في عهد النظام الملكي ، كما ان المجتمع الذي ساد مدينة فاتحة ، غازية ، اصبح هو نفسه ، مجتمعاً لدولة كبيرة سادها النظام والانضباط .

وهذا التطور الذي تم تدريجياً ، أعرق في الارض ، ورسخ وطيداً بالفعل ، ولذا تحتم علينا ان نعرف المدى الذي بلغه ، والحدود التي وقف عندها .

١ - النظام الملكي واقع اجتماعي

وعلى رأس هذا المجتمع الروماني القديم قام ملك . وهذا الحادث البارز الذي يوجز وحده التاريخ الروماني في هذا العهد ، استأثر لعمري باهتمام الكتبة والمؤرخين القدامى الذين اطلعتهم ارفع طبقات المجتمع الروماني ، او خاطبوها في كتاباتهم . الا ان اعترافهم بأهمية هذا الحادث لا يعني قط مقاسمة الاغلاط والمساويء التي شابتهم .

« الأول » بين المواطنين . فالامبراطور ، هو ايضاً ، الأول بين اشراف روما الامبراطور ورأس ارستوقراطيتها . وفي مقدمة هذه الارستوقراطية : آل يوليوس وآل كلوديوس الذين جمعوا المجد من اطرافه : حسباً ونسباً ونشأً . فالاسرة الامبراطورية التي توارثت الملك بعدهم وتعاقت عليه ، خرجت من الارستوقراطية الايطالية الوسطى ، كالاسرة الفلافية ، او من بين مواطنين سكنوا الولايات القديمة ، كمعظم افراد الاسرة الانطونية ، بمحاولة جهدها الارتقاء لبلوغ مستواهم ومصافهم . فالانتماء الى الارستوقراطية هو من حق كل امبراطور جديد . فالامبراطور ليس بالواقع ، سوى سري او نبيل من سراة القوم ونبلائهم اضطلع بواجبات ومسؤوليات تفوق بكثير المسؤوليات والواجبات التي يضطلعون بها . وهكذا نراه بالفعل يبرز سريعاً عن الارستوقراطية ويتميز عنها ، مع ان التقاليد والاعراف الرسمية تستمر على اعتباره واحداً منها . فهذا « الأول » لا مثيل له ولا كفاء البتة . فبدون ان نعود بالفكر الى ما كان عليه من تسام وما يتحلى به في طبيعته البشرية وشخصيته الدينية ، من افضلية على الناس طراً ، وبدون ان نأتي من جديد ، على تعداد رتبته ووظائفه وسلطاته ، وما كان يحف به من حرس وجنود ، وما يعمل في خدمته من موظفين ومأمورين ، فمن الجلي الواضح ، انه على الصعيد الاجتماعي ، لا يمكن مقارنته ولا تصح مقابله ، بأي سليل لهذه الأسر الأرستوقراطية ، مهما سما او تعالى . فالثروة التي له ، والتي هي دوماً في ازدياد وارتفاع مطرد من جراء الموارث والمصادرات العديدة والفتوحات الواسعة ، تبرز بكثير اية ثروة يمكن ان تتم لانسان ، اذ ان

خزنته الخاصة وخزينة الدولة التي يرأسها ويتصرف بها، لا تختلف الواحدة عن الاخرى بشيء، فهما تابعتان له . وهو الغني الاكبر ، والثري الامثل ، الذي يمكن بسخائه وجوده وكرمه ، ان يأتي المعجب المعجاب .

فهل من غرابة او دهشة ، بعد هذا ، ان تقوم حوله ، حاشية ، عريضة ، وان تلتف حواليه بطانة قوية ؟ ووجه المعجب الوحيد في ان لا يكون لهذا البلاط عند تكوينه ونشأته ، ما بلغه ، فيما بعد ، من مهابة وفخامة وعظمة . وقد قيل : اذا عرف السبب زال العجب . علينا ان نحسب حساباً هنا للأصول التي انطلق منها نظام الملك الجديد ، والاتفاق الظاهري الذي جاء عربوناً له او رمزاً اليه . « قبيل » الامبراطور ، لا يمكن ان يرتفع على غير غرار البيوتات الارستوقراطية العليا ، ليصبح بعد ان يخضع لحركة تطويرية تقدمية لا تقاوم ولا تضام « بلاطاً » حقيقياً ، شبيهاً من جميع الوجوه ، بالبلاطات الهلينية ، الا انه يحتفظ تقريباً ، في العهد الاول للامبراطورية ، بطابعه الاساسي . والى هذا ، فكلما المثاليين تجمع بينها اكثر من ميزة واحدة . فنجد ان راح عظماء روما يتصلون ، في القرن الثاني قبل الميلاد ، بهذه البلاطات الهلينية ، اخذوا يحتذون حذوها وينهجون على منوالها ، واضعين نصب اعينهم المستوى المادي لحياة ملوك الاغريق ، سواء لجهة رفاهية العيش ، او لجهة ما تحمله الملكية من رمز للرجل السوبرمان . فقد مثلت الملكية اليونانية في اعينهم الحضارة الرفيعة بالذات .

وكان لا بد من « بيت » للامبراطور ، في روما ، فشيذ اوغسطس له صرحاً متواضعاً فوق رابية البلاتين حيث كان سبق لفريق من سراة الرومانيين ، من بينهم شيشرون ، ان شيدوا لهم عليها من قبل ، الصروح والحدائق الغناء . وما عتمت ان زالت هذه البيوتات الخاصة ، عندما راح طيباريوس وكاليفولا وغيرهما من اباطرة الاسرة الفلافية ، يشيدون لهم صروحاً عليها ؛ ولذا صارت رابية (Palatin) رابية الصروح Palatium والقصور ، ومنها اشتق الاصطلاح الفرنسي Palais - او المدينة الامبراطورية ، داخل العاصمة روما . وكان هذا التوسع لم يكف اباطرة الاسرة اليوليو - الكلودية ، فقد توصلوا ، بطريقة او بأخرى ، الى امتلاك معظم الجنائن والحدائق الواقعة على هضبة الاسكلين . ثم اغتم الامبراطور نيرون مناسبة حريق روما ، عام ٦٤ ، فاستولى على الاملاك الواقعة عليها وأنشأ محلها ما عرف في التاريخ بـ « الصرح الذهبي » وزينته بأبهى حلل الزينة ، بحيث ان قبة الصالة الكبرى ، وهي صالة الطعام ، كانت تدور على نفسها كالقبة الزرقاء ، ليل نهار ، بينما أنشأ له ، في الحديقة المجاورة ، بحيرة حاكت البحر في موانئها ومواقعها ، احاطت بها المباني إحاطة السوار بالمعصم ، متخذة شكل المدن ، يلقيها منظر ريفي أخاذ ، تنسرب فيه الحقول والكروم والمراعي الخضراء ، وتصرح فيها وتقرح ، قطعان الغنم ، وانواع الحيوان والطير . وقد اتضح فيما بعد ، ان هذه البقعة كانت حائلاً دون انتظام شبكة المواصلات . وما ان صار الامر الى الاسرة الانطونية حتى بادر اباطرتها الى ذلك معالماً هذه المباني ، وشق طرقات فسيحة فيها قامت على جوانبها المؤسسات والمباني العامة .

والى جانب هذه الابنية الرومانية الفخمة ، لم تلبث ان قامت فيلات حرص اغنياء القوم في ايطاليا وسراهم ، على تشييدها وفقاً للتقاليد المرعية . وحرص كل امبراطور على ان يكون له صرحه الخاص، وبعضهم عدة صروح، يتفنتون في هندستها وعمارتها ما شاء لهم التفنن، حسب رغائبهم ونزواتهم ، ويشيدونها على شاطئ البحر او على هضاب منطقة اللاتيوم . وأشهر هذه الفيلات وأبهاها طراً ، الفيلا التي شيدها الامبراطور هدريانوس ، في تيبور (*Tivoli*) وراح يتفنن بمحادثات الغناء بأنشاء المناظر الطبيعية ، او المباني التاريخية التي ورد ذكرها على لسان الادباء والرحالة ، امثال الليسي ، والاكاديمي، ورواق بيكيل *Poecile* في اثينا، ووادي تمبيه في تساليا ، وكلوب في دلتا النيل ، والجحيم عند قدماء اليونان .

وعبثاً تبحث في روما او في خارجها، عن «القصر» الامبراطوري او الملكي بالمعنى الحديث، الذي يستوقف منك النظر بمظهره الخارجي ، وبفخامة رياسته من الداخل ، يصلح بما فيه من اثاث وحجر ، وصلات فسيحة ، لمظاهر الابهة والفخامة . فالامبراطورية لم تشيد بعد لنفسها ، مثل هذه المباني الفخمة . فهي لا تقيم منها إلا ما يؤمن راحة المالك سعيداً الفعلي او الرمزي معاً ، الا وهو الشعب ، فترتفع في طول البلاد وعرضها : الهياكل الضخمة ، والميادين الشاسعة ، والساحات العامة ، والحمامات والمسارح العظيمة . وأمثل هذه المسارح وأفخمها طراً « المسرح الفلافي » المعروف اليوم باسم الكوليزيوم ، فقد احتل قسماً من قطعة الارض التي انشأ نيرون فوقها « صرحه الذهبي » . وبدلاً من قصر منيف ، يفكر الامبراطور بأنشاء الحدائق الملكية التي تحاكي من قريب ، الحدائق التي قامت في العواصم الهلينية ، حيث كانت تطالعك المباني الفخمة ، تحيط بها الحدائق السندسية . فاذا ما انعمنا النظر ملياً في هذه المنازل او البيوت الملكية رأينا لكل واحد منها شبيهاً او مثيلاً يضاهيها حسناً ورواء في هذه الفيلات التي يروح اصحابها يتنافسون في فن يبز الواحد منهم الآخر ، في زركشتها وتحليتها وتزييقها من الخارج والداخل. والفارق الاكبر الذي يميز منزل الملك عن غيره من منازل سرة القوم وعليتهم ، هو عدد الفيلات التي يملكها ، وتعاقبها الواحدة تلو الاخرى ، على هضبة البلاتين .

كذلك بقيت على نطاق ضيق مراسم الاستقبال الرسمية في القصر الامبراطوري . فالوصول الى الامبراطور ، والدنو منه ، والمثول بين يديه ، ميسور كل يوم ، لاصدقائه الخلق وخصته ، ولاعضاء مجلس الشيوخ ، كما كانت ابواب قصره مفتوحة على مصرعها ، للاستقبالات بالجملة في ايام الاعياد ، بأعداد كبيرة من الزوار. فهو يدعو من يشاء لتناول الطعام على مائدته ، كما يقبل بدون صعوبة ، الدعوات للخارج ، ويحرص ، مع كلوديوس ، على ان يرافقه ، فريق من حرسه الخاص، بينما نرى الامبراطور تريبانوس يضرب بهذه العادة ، عرض الحائط. فاذا ما نال اعضاء الاسرة الامبراطورية إنعامات وألقاباً ومراتب ، فليس عملاً بقاعدة مقررة ، او اخذاً بعادة مرعية . فاللقاب : « سيد وسيدة » (باليونانية كيوريوس وكيريا) وباللاتينية دومينيوس ودومينا ، لم يجر العمل بها بصورة عامة ، مع وصول الاسرة الانطونية الى الملك ، عندما يوجه

الكلام الى الامبراطور او الى احد اقاربه . فلم تعدم هذه الالقاب ان عم استعمالها وانتشرت بين المجتمع المثقف . كذلك سرت بين هذه الطبقة عادة القبلة او التقبيل بعد ان ظهرت سوابق لها في البيئـة الامبراطورية ، شجـبها الامبراطور طيـاريوس لانها تنقل عدوى الامراض الجلدية ، شأنها في ذلك شأن تقبيل اليـد ، وكلا العادتين اغريقية الاصل والمنشأ . اما عادة ، السجود وتقبيل القدم التي شاء الامبراطور دومتيانوس فرضها على زائريه ، فقد زالت بزواله وموته لانها مُحِطَة من شأن المرء ومهينة له .

كل هذه الأمثلة والشواهد ، تدل صريحاً على أنه لم يكن هنالك أي فارق نوعي أو جوهري ، بين حياة الأمبراطور الخاصة وحياة سراة الرومانيين وأغنيائهم . فالشبه القائم بين الجانبين ، الذي يمكن ملاحظته بسهولة ، إنما يعود ولا شك ، لاعتباره نظرياً على الأقل ، بأنه واحد من الرومانيين . وتستمر هذه المحاكاة على أساس من الزلفى والملق ، فيسارع عليّة القوم الى الاقتداء بالمثل الهابط من فوق احتذاء حذوه ، فيعتمد الناس في مخاطبتهم نبرون ، مثلاً وتوجيه الكلام اليه ، على الصور البيانية والمحسنات اللفظية والتوريات الشعرية وعلى التنعيم ، كما يعتمدون ، مع مارك أوريل ، الأسلوب الفلسفي . ويأخذ الرجال بإرسال لحام تشبهاً بالامبراطور هدريانوس ، كما أن النساء أخذن تأتمن ، بزي الامبراطورة ، في لبسها وهندامها ، فيأخذن بتصفيف الشعر وعقصة وتقصيبه ، وغير ذلك من الازياء التي تعتمد عليها الامبراطورة . كل هذه العادات إنما تدل دلالة واضحة الى التطورات التي أَلَمَّتْ بنمط الحياة في البلاط . وقد ساعدت على بقاء الامبراطور على الصعيد البشري وعلى احتفاظه بأعلى مستوى حياتي لأرفع الطبقات الاجتماعية في الامبراطورية .

وهذا الامبراطور الذي يَأْتَمُّ الناس به في كل ما ينهج ويشرع ، هو بطانة الامبراطور أقوى الناس ، وأشدّهم بأساً ، وأوفرهم غنى وثروة . ليس في مقدور أحد أن يجاريه في ما ينهج ، وفارق الدرجة أو الرتبة بينه وبينهم ، يقطع النظر عما بينه وبينهم من قارق الجوهر ، أو الطبيعة ، يزداد بروزاً وظهوراً . وعلى شاكلة ملوك اليونان في العصر الهليني ، فهو قبله أنظار الارستوقراطية الرومانية ، وموضوع تقليدها ومحاكاتها له ، نرى الامبراطور الذي في مقدوره وحده أن يعدلّهم وأن يزيّنهم ، يأخذ تحت حمايته ورعايته شؤون الفكر ، وحلة الأدب ، فيحتاط بعدد كبير منهم ، بين فلاسفة وخطباء وعلماء ، ويحزل لهم المعطاء والتكريم . ويعين لامراء العائلة المالكة مهذّبين ومربين لهم شهرتهم الواسعة ، ويتشدد في انتقائهم واصطفائهم ، فيعين الفيلسوف سنيكا مهذباً للبرون ، والخطيب المفوّه كوتيليانوس مريباً لدومتيانوس ، كما يختار من بين مشاهير الاساتذة في عهد مارك أورل ، المريين : فرونتون وهيرودوس أتيكوس . وإلى هذا العدد العديد من الاطباء الذين أوكل اليهم السهر على صحة رجال حاشيته ، فالامبراطور لا يحجم أمام أية تضحية ليُلحِقَ ببطانته أشهر نطس الاطباء ، إذ ذاك . وعندما رفع الامبراطور كلوديوس ، الى ٥٠٠.٠٠٠ سسترس (١٢٥ ألف فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤) ، فقد ضاعف المرتب الذي يُعطى عادة لطبيب الامبراطور ، وذلك لكي

يحمل الطبيب اسكلابيازييس الكومي ليكون في عداد أطبائه الخاصة ، كما أصبح فيما بعد ، الطبيب المشهور جالينوس البرغامى Gallien الطبيب الاول للامبراطور مارك أوريل ، ثم للامبراطور كومود .

ومن باب التنويه بالفرق ، من حيث الرتبة او الدرجة ، بين ما عليه بلاط الامبراطور وبطانة اغنى ثري من اثرياء الرومان ، في اواخر العهد الجمهوري ومطلع العهد الامبراطوري ، هذا العدد الذي لا يحصى ، من اصحاب اللهو والتسري والحشم ، من كل لوث وصنف ، والسرايري ، والجواري ، والمهرجين والممثلين ، والمغنين والراقصات والقيمين على الالبسة الخاصة بالممثلين والممثلات . وكان السواد الاعظم من هؤلاء الحشم والخدم عبيداً ارقاء او من المعائيق ، الذين انتقلوا الى حاشية الامبراطور في جملة ما انتقل اليه من مقتنيات وخدم بالورثة ، او أهدوا اليه متاعاً من قبل اقارب واصدقاء . وبين هذا الحشد عدد كبير من الاغريق او المشاركة المتأغرقين ، صقلت طباعهم ، ورهفت اذواقهم ، فبزوا بعيداً هؤلاء الغربيين الخشوشين . فلاقاصيص والنوادر المستملحة التي نرى المؤرخ سويتون وواضعي كتاب : « تاريخ اوغسطس » يتنبذون بزواياتها ، وقصائد الهجو والثلب التي يتبارى شعراء البلاط القول في بعضهم البعض ، تملأ صفحات بكاملها مع . سماء الأشخاص التي قيلت فيهم هذه النوادر المضحكة . وبين سوانح الكلم هذه ما فيه عبرة وعظة ، اذ ان الفيرة على الاخلاق حيناً ، والحسد احياناً ، اتخذ اداة للحنق او للاستشاط ، لمراى هذه الشواذات أو لهذه البدوات يأتيها بحضور ملك أبطرته النعمة ، أو أسكرته الكأس ، فريق من الناس جرأهم الإغضاء عن الخروج على المألوف ، كما شجعهم على ذلك ، تساهل الامبراطور مع خلانه ومحظياته ، وهذه الأعطيات الجزيلة ، والالقاء الفخرية العريضة التي يُنعم بها عليهم ، وهذه الدناءات والزلفى يأتيها المتملقون المدلسون الذين يشترون بدناءتهم أو بذهبيهم مداخلات الملك لصالحهم . ونقرأ في هذه الكتب النوادر والنكات المستملحة حول بجل فسبسيانوس وخساسته ، اذ يرغم احد الاكارين العاملين في اسطبلاته ان يدفع له ، نصف ما قبضه من صاحب قضية ، تعويضاً لتسهيل مقابلة له مع الامبراطور ، او يصورونه لنا يبيع المقاعد ، بواسطة احدى محظياته ، هي انطونيا تشانيس ، وهي أمة أعنتها والده كلوديوس التي كانت ابنة انطونيوس من شقيقة اوغسطس .

في مقدورنا متابعة هذا السرد دون توقف ، الى ما لاحد له . فاذا ما أسقطنا من هذا القصص ، ما هو ثروة وهراء ، يبقى مع ذلك ، واقع مؤسف : هو هذا الدس ، وهذه الموبقات المحجلة والمجرمة احياناً . وكيف السبيل الى تجاهل هذا الزبد وهذه الرغوة الطافية التي تبرز في جو كل حاشية وبطانة ، حتى ما ليس منها بقديم ؟ والشيء المهم ، بعد هذا كله ، ان لا نقف عند هذا وحده ، بل ان نردّه الى مسبباته الحقيقية ، ألا وهو ضعف الطبيعة البشرية ، وعدم تدرع الناس بتنهيب صحيح ، وفقدان تقاليد ادارية في دولة حاول الامبراطور إنشاءها فراحوا يرتجلون لها ادارة قوية . وقد اضطروا ، بعد ان أرغمتهم الحاجة ، سيراً منهم مع العادات المريعة بين سرة القوم

في روما ، ان يلجأوا ، كما رأينا ، الى خدمات من لديهم من حشَم وخدم ، هم ، على الغالب ، ممن اعتقوهم من الرق . فلا نعرف في روما غير ثروة احد الخاصة المدعو نرسيس التي بلغت ٤٠٠ مليون سسترس والتي راح جوفنال يقارنها بثروة قارون او بكنوز ملوك الفرس . غير ان « حكم دولة المعتقين » الذي ازدهر في عهد كلوديوس ، زال وتوارى عن الأنظار عندما استطاعت الدولة ان تجهز نفسها بالأطر والملاكات الادارية التي كانت تفتقر اليها عند تأسيسها .

فلنعد الى ما هو أسمى من هذا وأهم بكثير ، الى هذا الجهد الموصول الذي اصل كلمة « نظام » انطلق من اوغسطس وبلغ ذروته مع الامبراطور هدر يانوس فاستهدف تنظيم الطبقات الاجتماعية العليا وفقاً لمقتضيات حاجات الدولة ، من جهة ، والخدمات التي باستطاعة هذه الطبقات ان تؤديها لها من جهة أخرى . وهذا الجهد كان الغرض منه تأمين الامتيازات والمنافع التي حُلِمت هذه الطبقات دوماً بها ، والمرتبات المعينة للوظائف العامة الموقوفة على اعضاء هذه الطبقات ، ودخلاً كافياً للحفاظ على منزلتهم الاجتماعية . فتحقيق تكافؤ من هذا النوع كان ابداً من المثل الرومانية القديمة التي دغدغت خواطر القوم منذ القديم . فجاءت الامبراطورية الرومانية تجعل من هذه الرغائب نظاماً ، كما ان اضطرارها لإنشاء دولة لها هيكلها الاداري القويم ، أوجب عليها ، توفير الأسباب التي تساعد على تحقيق هذه المثل . وهكذا باشرت مهمتها وسارت في عملها على بركة الرحمن وأخذت تكثله وتوسع فيه الى ان استقامت لها ادارة بزت ما عُرف من أمثاله من قبل ، فيها الكثير من أساليب مصر الفرعونية كما ابتسرت بعض عناصر الـ « تشن » *Tchin* الروسي .

وهذه الطبقات الاجتماعية العليا تتألف من « منطمتين » هما المنظمة المشيخية او السنا توس ومنظمة الشفاليه . فالمصطلح « منظمة » او نظام جروا على استعماله من قبل ، لا سيما عند التكلم عن الشيوخ الذين كانوا يسرون على نهج يستوجب بالفعل مثل هذا الوصف او التعت . ويستبد هذا التعبير مع الاستعمال ويجري تطبيقه على هاتين الطبقتين الاجتماعيتين او هاتين المنطمتين ، اذ يتضمن دلالة جديدة لا تتوفر في كلمة « طبقة » او فئة . فاللفظ يفيد معنى النظام والتنظيم ، وهو عنصر اساسي ، يميز في حياة المنضوين الى هاتين الطبقتين ، اتضح مدلوله ، وبرز وخلص مما علق به من غموض او لبس ، مع بقاءه مع ذلك ، مرناً مطواعاً . فاذا ما أُدخل عليه التنظيم والتقييد ، اصبح مفهوماً ، وسهل بالتالي ، على العقل ادراكه . وهكذا يجب ألا يتبادر الى الذهن من كلمة طبقة ، شيء وراثي ، ان لم يكن بالاسم فبالفعل ، ولكن مع شيء من القيد وبشروط معينة ، وعلى شيء من التسلسل او التابعية المسلسلة ، على أنساب محددة ، واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، بحيث لا يمكن لدخيل ان يندس بين الصفوف . او لصاحب درجة سفلى ان يندس بين أصحاب الدرجات العليا . وللدخول في هاتين المنطمتين او الطبقتين ، والبقاء فيها ، والترقي في معارجهما ، لا بد من رضى الامبراطور وموافقة ، وكثيراً ما يكون هو نفسه المرجع الصالح ، الأول والأخير ، للترقيع والانتقال من مرتبة دنيا الى مرتبة عليا . فاذا ما نظرت الى قيام النظام

الامبراطوري من هذه الزاوية وما كان له من نتائج اضافية على تنظيم الدولة ، برزت امامنا من جهة أخرى ، النتائج الاجتماعية الخطيرة التي ترتبت على هاتين المنظميتين .

ومع ذلك ، يجب ألا نجعل او نتجاهل ان الامبراطورية ، باعتبارها مثل هاتين المنظميتين ، قبلت مسبقاً ، أن تقيد حرية تصرفها ، من حيث اختيارها موظفيها الاداريين وترفيعهم . فقد التزمت الدولة بمراعاة المبادئ العامة المرعية الإجراء ، دون سخرها خرقاً فاضحاً ، هذه المبادئ التي ترمي وتصور هذه الممثل القائمة في احترام التسلسل الاجتماعي . علينا ان ننتظر طويلاً ، أي حتى أواخر العهد الامبراطوري ، قبل أن نرى الدولة تضرب بهذه المبادئ ، عرض الحائط ، أو أن تعبت كما تشاء بهذه الأنظمة المعمول بها .

الانتساب لهاتين المنظميتين يقتضي له الغنى الوافر ، أي مليون طبقة الشيوخ وطبقة الشفاليه
سسترس لطبقة الشيوخ ، و ٤٠٠ ألف لطبقة الشفاليه . وقد حرص العهد الامبراطوري الحرص الشديد ، على أن لا يدخل على هذا الترتيب أي تعديل ، مهما كان طفيفاً أو صغيراً . وقد حرص أوغسطس على الحفاظ على هذه التقاليد . وقد طلب من هذه الطبقات الموسرة أكثر مما طلب اليها في الماضي ، وبروح جديدة غير الروح القديمة ، أن تفرغ لخدمة الدولة ، وينقطع أفرادها لهذا الأمر . وتعويضاً لها على خدماتها ، وعربوناً للثقة التي يشرّفها بها الامبراطور ، فهو يحتفظ لها وحدها ، بهذه المنافع . فقد أصلح ببعض العطايا السخية التي جاد بها في مناسبات معروفة قسوة المبدأ وصلابته . فاققسام الإرث ، من جهة ، ونوازل الدهر من جهة أخرى ، كثيراً ما هددت أحد أعضاء هاتين المنظميتين بفقدان رتبته وباقصائه ، بالتالي ، عن العضوية . وكثيراً ما حدث أن أغضى الامبراطور عن مثل هذا الوضع ، وبادر لم يد المساعدة لمن ذهب فريسة الأقدار أو لمن عضه الدهر ، من ماله الخاص ، اذا ما رأى انه يستحق مثل هذه المساعدة . فما بلغ علمنا قط ، خبر أو ذكر احدى هبات امبراطورية أربرد بها رفع صاحبها للمستوى اللازم . غير انه لم يكن من الصعب على موظف يخدم الدولة بأمانة أن يوفر من مرتبه ما يلزم لإصلاح شأنه ، اذا ما عمل بحيد موصول ، وعرف أن يقتصد من نفقاته اليومية . كذلك لم يهملوا الأخذ بمبدأ التحوط المتبادل : فالغنى والثراء وحده لا يولي صاحبه الحق بالوصول تلقائياً ، الى هذه أو تلك المنظمة أو الطبقة . فالثلاثون مليون سسترس التي أنفقت على وليمة تيملكيون ، كما جاء في الرواية « ساتيريكون Satiricon » للمؤلف الروماني : بيترون لم تقيد صاحبها شيئاً ، ولم تقدم أو تؤخر في إيصاله الى عضوية احدى هاتين المنظميتين . وكيف تبلغ به هذه المرتبة ، وهو لم يستمع يوماً لفيلسوف ، ولم يسمع له شعر ولا روى شعراً لأحد . فهو جاهل لا ثقافة له . كذلك تنوء القصة بأصله : فقد طلع من العدم : كان رقيقاً فأعق ، ثم بسم له الحظ ، فجمع ما جمع بشق الطرق والأساليب الملتوية ، هذه الثروة الطائلة . فاذا كان وصول بعض المعتمدين الى مرتبة الشفاليه بعد خروجاً على المؤلف وشذوذاً عن القاعدة ، فقد أوصدت في وجوههم تماماً ، أبواب المرتبة المشيخية ، وحيل بينها وبينهم مطلقاً . وكان سبق

لأوغسطس أن حظّر عقد أي زواج بين معتق أو معتقة وبين أحد أعضاء مجلس الشيوخ .
فالعضوية في الطبقة المشيخية يقتضي لها العضوية في مجلس الشيوخ ، وإن يكون حاملها مارس
بصورة قانونية ، صلاحيات ومسؤوليات أدنى الوظائف الموقوفة ممارستها على أعضاء مجلس
الندوة ، وهي المراقبة *Questure* . ويحق له أن ينعم هو وزوجته وأولاده بامتيازات هذه
الطبقة ، وفقاً للدرجة التي هو فيها . وبالفعل ، فأولاد عضو مجلس الشيوخ يصبحون دونما
صعوبة ، مراقبين بعد أن يكونوا أدوا الخدمة في الجيش ، ضباطاً في بعض وحداته ، أو عملوا
موظفين في إحدى الوظائف الإدارية الصغرى . والتسلسل في داخل هذه المنظمة ، يجري وفقاً
لجدول أو لائحة يضمها مجلس الشيوخ ، ويأخذ بالتدرج صعوداً في سلم المراتب والدرجات .
فالمناصب عديدة أمام الامبراطور لإظهار عطفه أو عدم رضاه ، عن صاحب العلاقة . وقد
أخذ يمارس أكثر فأكثر ويطبق حقه المشروع ، في تعيين من يشاء من أعضاء طبقة الشفاليه في
العضوية المشيخية ، وفي المرتبة أو الدرجة التي يريد لها .

وهناك ما هو أغرب من ذلك وأوقع . فالانتماء الى طبقة الشفاليه مرتبط أبداً بإرادة
الامبراطور وحده ، دون سواه . فليس في الأمر أية عملية اقتراع أو ما يشبه ذلك ، في تعيين
المراقبين ، وتلقائية الإرث عند هذه الطبقة ، أقل بروزاً هنا ، منها في الطبقة الممتازة الأولى .
ولذلك ، فنشاط الشفاليه ، يُصرف ، منذ عهد أوغسطس ، في خدمة الامبراطور ، فيختار من
بينهم الوكلاء الذين يُدعون للخدمة في بطانته ، الى أن يلتحقوا الى الخدمة في الادارة العامة .
فهو يختارهم كما يشاء . ومن الطبيعي ان ينعم أبناء الشفاليه ، هم الآخرون ، بشيء من الاطمئنان
الى مستقبلهم ، انما لا بد من اختيارهم وبلور ولائهم . ومهما يكن ، فعدد لا يفي بحاجة الادارة
التي اتسعت وتشعبت كثيراً ، وأخذت تستوجب المزيد من الموظفين . وهكذا رأينا كيف انهم ،
خلال هذين القرنين ، تقننوا كثيراً في طريقة تزويد الإدارة بحاجتها من الموظفين . فوضعوا في
هذا السبيل ، القوانين اللازمة لاختيارهم وتدريبهم ، وفقاً للحاجات البادية . فبينما كان الامبراطور
يفرض ، في بادئ الأمر ، على المرشحين للعمل في الادارة ، الخدمة في الجيش : ضباطاً في الفرق
الاضافية ، وهم بعد في سن الشباب ، كثيراً ما نراه في القرن الثاني يختار من صفوف الادارة ، من
يحتاج اليهم للعمل في الجيش ، ويرفع الى الدرجات العليا قواد المئة ، أي هذا الفريق من الضباط
الذين خرجوا وبرزوا من بين صفوف الجيش . فاذا كان الامبراطور هو المتصرف الأوحده ،
والمهيمن الأول والأخير ، على الانتساب الى طبقة الشفاليه ، فمن الطبيعي جداً ، ان يكون
السيد المطلق في كل ما يعود الى ترقية وترقيتهم وترقيتهم في داخل هذه المنظمة ، فيعين مرتباتهم وفقاً
لدرجاتهم ، اذ كانت نهايات المرتب في السنة تتراوح بين ٦٠ ألف سترس للصغرى ، و ٢٠٠
ألف للكبرى .

فالمنظمتان المذكورتان ، هما بمثابة سلكين اداريين . فسلك الرتب الفخرية
السلك وامتيازاته
الذي عمل به في العهد الجمهوري استمر وبقي معمولاً به على نطاق اوسع في
السلك المشيخي . فالدرجات والرتب تكاثرت وتفرعت وتشعبت مع تنوع الوظائف في العهد

الامبراطوري وتكاثرها في الادارة الجديدة. والتجديد الأكبر في هذا المجال تمثل في انشاء السلك الشفاليه الذي كان يُفضي بصاحبه : اما للسلك المشيخي ، وإما لوظائف عالية أخرى كالولاية ، التي تأتي في القمة من هذه الوظائف ، وتليها النيابة ولا سيما نيابة مصر ، وادارة مصلحة التموين *Amone* . ومن بين الوظائف التي يؤلف التدرج فيها اساساً للسلك ، هي وظيفة الكهنة والقضاة الذين لم يكونوا ليتناولوا مرتبات ولا أجوراً، بينما اصحاب الوظائف العليا كالبروقنصل في آسيا وافريقيا ، كان الواحد منهم يتناول مليون سسترس مرتباً سنوياً . فما من احد ، بعد الذي ذكرنا ، حتى من كان من الموسوسين ، يقضي حياته معدماً في خدمة الدولة ، بل على عكس ذلك تماماً ، ففي استطاعة الموظف ان يكون ثروة له ويزيد من غناه . وعلاوة على ذلك ، يتمتع الموظف بامتيازات اجتماعية كثيرة هي سبيله الى الإثراء والفنى : كالاخلاص للمصلحة العامة ، والتمتع برعاية الامبراطور ، والنفوذ الذي يلزم الانتساب لذين السلكين . فقد احتفظنا بكل مراسم التشريعات الخارجية التي عمل بها منذ عهد الجمهورية ، كالطوغة الارجوانية التي يُخاط على الرداء طولاً او عرضاً ، والختام الذهبي ، والأحذية الخاصة بأعضاء الشيوخ ، والمقاعد التي تحفظ لهم في المسارح وحفلات الألعاب الرياضية . وقد نالوا ، مع الزمن ، امتيازات ومنافع جديدة لم تلبث ان أصبحت من مستلزمات السلك ، منذ منتصف القرن الثاني للميلاد ، اذ ان كل اعضاء الطبقة المشيخية ، بما فيهم النساء والأولاد ، وجب في مخاطبتهم وتوجيه الكلام اليهم ، استعمال ألقاب وألفاظ خاصة بكل رتبة ومرتبة ، منها مثلاً « السَّني او السَّنية » ، بينما اعضاء الشفاليه يُخاطبون بنعوت وألفاظ فخرية ، منها : نياقة *Eminentissimus* ، وهونمت يوجّه لمدير الشرطة او لقائد الحرس عنسد مخاطبته ، او « كلي الكمال *Perfectissimus* » لكبار النواب والمفوضين ، او « سامي *Egrejius* » . وهكذا فالتسلسل الاداري يقابله تسلسل بروتوكولي او تشريفاتي في المخاطبات الرسمية وفي المعاملات العادية. وهكذا أُطل على الادارة ، طبقة من النبلاء ، تألفت من زهرة الموظفين .

والشعب الروماني
ان نقف عند هذا الحد لتتابع النظر في الأثر الذي أحدثه في المجتمع الروماني
هذه الطبقات الممتازة تهمننا ايضاً من نواحٍ عديدة أخرى . إلا انه يحسن بنا
النظام الامبراطوري الجديد .

لنرَ ، قبل كل شيء ، أثر هذا النظام على سكان روما وشعبها . والشيء البارز في الأمر هو اضطلاع الدولة بمهمة ومسؤولية إعالة السواد الأعظم من مواطنين روما الفقراء ، وذلك بتوزيعات منتظمة من القمح والطحين على أقدار وأنساب معينة ، وتوزيع الدرام عليهم ، في بعض المناسبات البارزة ، لتوفير اسباب العيش لهم ، بينما توفر لهم الاعياد والاحتفالات الرسمية والألعاب كل ما يحتاجون اليه من وسائل الترفيه والسلوى . « الخبز والملاهي » *Panem et Circenses* كلمتان اوجز بها المؤرخ الروماني جوفنال الوضع الذي هينم على روما واستبد بها . ويكفي ان نشير هنا الى هذا الهوس الجنوني ، والاندفاع الحماسي ، والشعبية التي لا حد لها ،

التي كانت ترافق مجرد التلطف بأسماء الممثلين والمغنين ، والراقصين ، وسباق المركبات في حلبة المصارعة او حلبة الطراد اذا كان الميدان الكبير يضم أكثر من ٢٥ ألف مقعد في عهد الانطونيين ، والتنافس الحاد الذي كان يجري بين فرقاء يرتدون ثياباً من ألوان مختلفة للتمييز بينهم : احمر ، وازرق ، وابيض واخضر ، الى ان أضاف اليها الامبراطور دومتيانوس الذهبي والارجواني ، ومعارك المصارعين التي كان يحضرها ١٥٠ ألف متفرج جالسين على مقاعدهم في كوليزيه تيطس ، يشترك في احدى حفلاتها الضخمة ، وهي حفلة التدشين ، ٩٠٠٠ حيوان . فقد برهنت الجماهير ، في كل أين وآن ، عما تجيش به من نزوات الاستبداد والبطش والقوة ، كما برهنت دوماً ، من جهة أخرى ، عن عفوية حماسها ، وعن ثورة غضبها . ولذا ترتب على ذوي الأمر ان يعرفوا كيف يثيرون هذه ويتفادون تلك .

فما من امبراطور حاول جاداً ، ان يقاوم هذا الهوس حتى عندما كان يرجس شراً من نتائجه المالية وتأثيره الأدبي السيء ، بل على عكس ذلك ، نرى معظم الاباطرة يتلقون الجماهير ويتحجبون اليها محاولين ان يبرز الخلف منهم السلف في هذا المضمار . فقد أحيا الامبراطور تراجانوس ، بعد ان تكاثرت عدد الأسرى والعبيد ، إثر حروبه في مقاطعة داسيا (رومانيا اليوم) وقدويخه لها ، نحواً من ١٢٠ يوماً على التوالي ، من الأعياد الصاخبة وحفلات المصارعة اشترك ١٨٠٠٠ مصارع ، في هذه الأعياد الشعبية الضخمة التي أحياها عام ١٠٩ . غير ان هذه الامبراطورية لا يمكن ان تستمر على هذا النحو من الإنفاق والإسراف والاملاق . ولكن ألا يحق لهذا الشعب ان ينعم ، مقابل ما يقدمه للامبراطور ، من سلطة يولييه إياها ، وسمات ملك عريض عزيز ، وجيوش جرارة ، بالخبز واللحوم والمسرح ، وان ينال كل ما يطمح فيه او يطمح اليه؟ كما يقول جوفنتال . وبحقّ نَظَقَ وقال . كل هذا يمثل بالفعل الثمن الذي يدفعه النظام الجديد تزكية لوجوده وقيامه ، وهو ثمن زهيد جداً ، امام اعتزال الشعب الملك ، أي كل السلطة الفعلية وتخليه عنها ، طوعاً واختياراً للامبراطور . ففي تأمين أوّد عيش هذا الشعب ، وتوفير اسباب تسليته ، والترفيه عنه ، أمّن الامبراطور نفسه وسلامة النظام ، وصوّن له من أي انقلاب سياسي يقوم به الشعب ، ودون أية انتفاضة تخطر له على بال ، كما ان نهجاً من هذا النوع يجعل الطبقات الممتازة بمعزل عن كل ثورة اجتماعية . وبالفعل ، فالخطر عليه وعليها لا يمكن ان يطل من هذه الناحية .

غير أن البطالة داء قتال بالفعل ، وفيها الخطر كل الخطر على العاصمة روما . فالشعب فيها لا يتألف من هؤلاء المواطنين المسجلة اسمائهم في سجلات الاعاشة المجانية . فهناك حشود بين هذه الجماهير لا يتألفها شيء من هذه التوزيعات ، بينهم مثلاً : المواطنون القادمون من الولايات الاخرى ، القرية والثائية على السواء . فعلى هؤلاء ان يعملوا وابّ يشتغلوا ليكسبوا عيشهم اليومي ، عندما تبوء بالفشل محاولتهم الانضمام او الانضواء تحت حماية او رعاية أو تبعية بعض الزعماء والارباب المعروفين بالجود والسخاء . فقد كان ، في روما ما يوازي اصحاب المهن الحرة عندنا

اليوم . فالانصراف لهذه المهن لا يؤمن لاصحابها ثروات ضخمة أشبه بالثروات التي يستطيع تحقيقها نطس الأطباء، مثلاً . ويوجد الى جانب هذه الطبقة ، طبقة وسطى أخرى ، هي طبقة الشغيلة والمستخدمين وأصحاب الحوانيت والصناع . فبالرغم من كثرة المصادر الأدبية التي تصف لنا اخلاق العصر أكثر مما تستطيعه الرقعة والنقائش ، فهي تلتزم الصمت التام عندما تتعرض لذكر الطبقة البورجوازية المتواضعة . وهذه المصادر بالذات ، سواء أ أكثرت من النصح والموعظة ام راحت تقدح في الاخلاق، فهي لا تفرق بين هذه الطبقة وبقالة الشعب . فان لم تحل مدينة كبيرة او عاصمة مملكة من الممالك، من رعايا فتح منهم رائحة العطن والنتن، فمثل هذه الحالة كبيرة في روما الامبراطورية الى حد مدهش . فهي تجذب في جو الاغنياء والاثرياء مرتعاً خصباً لتنمو وتتكاثر ، شأنها في ذلك شأن المدن الضخمة التي لا حركة تجارية كبرى فيها ، ولا انتاجاً ضخماً لها فتحاول الدولة ان تجعلها، مع المواطنين العاطلين عن الاشغال، في مأمن من غصة الجوع أو لسعة الفاقة ، حوّلها منها دون المخدّرها الى ادنى دركات البؤس والتعاسة .

والبطالة عند هذا الفريق من الناس يجب ان يقابلها العمل عند الفريق الآخر .
 اليد العاملة
 في املاك الدولة
 فالامبراطور اعجز من ان يواجه هذه الاعباء المالية الضخمة ، لولا ما هو عليه من غنى ووفرة طائلة يستمدّها من استثمار أملاكه الواسعة واطيانه التي لا حد لها ولا حصر . فهو اكبر ملاك في الامبراطورية ، واملاكه الواسعة هذه لا قيمة لها ولا شأن الا بنسبة ما يستطيع استغلالها واستثمار ما فيها من خيرات دفيئة ، وذلك بفضل اليد العاملة التي يتصرف بها .

نحن نجعل تماماً، كم هو عدد العبيد الارقاء في حوزته . فهم ولا شك يتجاوزون بضع عشرات من الألوف بينهم قلة من الخدم والحشم . وترينا النقائش الأثرية التي عُثر عليها ، هؤلاء العمال موزعين الى فئات وطواوير، مكتّبين في كتائب شبه عسكرية، تحت أمرة عدد من ضباط صف أو بإشراف بعض المعتقين ، وقد توزعوا على أملاك الامبراطور في جميع أطراف الامبراطورية ، ليقوموا بجميع الاعمال التي يقتضيها استثمار هذه الأراضي ، بعضهم كتبه في الادارة ، وبعضهم يعمل في المناجم او المقالع . فالحياة التي يعيشونها ، والآمال التي قد تبتمس لبعضهم في المستقبل تختلف كلياً بين الواحد والآخر . اسعدهم حظاً وأقدرهم كفاءة لا يلبثون ان يُعتقوا من العبودية التي يرسفون فيها ، فينالون بذلك أولى خطوات الحرية . اما الباقون الذين يكدحون في المناجم والمقالع ، فوضعهم قاس ، مرير ، إلا ان وضع « ارقاء قيصر » ، كان أخف وطأة مع ذلك ، مما كان عليه وضع الذين كان يحكم عليهم بالاشغال الشاقة ، أولئك الأرقاء الذين كانوا يعملون في هذه الاشغال التي يتعهد بها ملتزمون . هنالك بعض تدابير خاصة كانت تتخذ مسكناً لهم بعض الشيء ، كاعفائهم من ثمن احذيتهم ورسوم الحمامات ، ورسوم غسل الثياب والحلاقة، كما يستدل من النظام المالي الذي عمل بموجبه في مقاطعة المعادن ، في بلدة فيباسكا ، في البرتغال ، مما عثر عليه مؤخراً . وفي هذا دليل على رسيس من عاطفة الشفقة والرحمة التي تجلت بصورة اجلى في اواسط القرن الثاني . وكان كم الادارة الاكبر في ان تتمكن من تجديد هذه اليد العاملة ،

وقد استفحل امرها بحيث أصبحت مشكلة كبرى في عهد الأسرة الأنطونية عندما خفت الحروب، وقلّ بالتالي ، عدد الأسرى الذين كانت تؤمنهم هذه الحروب .

ومع ذلك ، فهذا العدد العديد من الارقاء ، لم يكن ليكفي قط لاستثمار أملاك الامبراطور على الوجه الاكمل ، اذ ان جانباً كبيراً من اليد العاملة الممثلة بهؤلاء الأسرى ، لم يكن ليصلح للعمل في الحقول والزراعة . ولذا نرى الامبراطور يستعين بعمال أحرار . ومع ذلك فهو يجد صعوبة في توفير حاجته منهم . والطريقة التي كان يعتمد عليها عادة ، هي تلزيم استثمار أراضي الى متعهدين وملزمين *Condoctores* وفقاً لمقود خاصة يعقدها معهم ، على ان يترك أمر مراقبتهم لوكلاء يمينهم الامبراطور . فالكتابات الاثرية التي وجدت في مقاطعة المناجم في فيباسكا ، تبين المصاعب والمشاق التي كان يجدها هؤلاء المتعهدون قديماً بتمهدهاتهم الاستثمارية ، وذلك لقلة اليد العاملة . وقد أصدر الامبراطور هديرانوس قانوناً خاصاً بالمناجم ، أجاز بوجبه لاي كان، ان يستثمر لحسابه الخاص ، أي منجم أو مقلع أهل المتعهد الرسمي استثماره مدة ٦ أشهر متعاقبة . كما ان القانون المذكور ، حدد الواجبات المترتبة على كل من المتعهد القديم والمستثمر الجديد . ويدل عدد من الرقيم والتقايش التي عثر عليها في تونس ، ان تدابير من هذا النوع اتخذت بشأن أملاك الامبراطور المتروكة بوراً من قبل المتعهدين ، أوسع حرية من السابقة ، وهذه الاراضي هي عادة أراضي ممسكة ، لا تصلح لزراعة الحبوب ، ولا لها كبير مردود . والقانون المذكور ينصح بالاستعاضة عن الحبوب ، بزراعة الاشجار المثمرة كالزيتون مثلاً ، والكرمة والتين ، كما انه ينص على تأجيل جباية الرسوم عنها لعدة سنوات . وعلى الاعتراف بملكية الارض لمن يقوم ، من تلقاء نفسه ، باستثمارها فجعلها يجده وتعبه ، تثمر وتقل . وعندما لا يتوفر للامبراطور متعهدون نشيطون او يحتاج لليد العاملة ، نراه يستعين باناس يكونون بمأمن من السخرة او من تعسف الملزمين ، وهو يستجيب في ذلك ، ليس لعاطفة انسانية ، بل لضرورات اقتصادية ، حتى اذا ما أعجزته الحيلة ، التجأ الى وسيلة اخرى هي السخرة .

٢ - وحدة الامبراطورية والمجتمع الروماني

فاذا ما أثر واقع الامبراطورية على تطوير المجتمع الروماني ، وأحياناً بشكل قوي عنيف ، فهناك عامل آخر لم يقل شأنه وأثراً ، في توجيه هذا التطور وطبعه بميسم خاص ، يتمثل بهذه الاتصالات والعلاقات التي ربطت بين مختلف أقطار الامبراطورية وأمصارها ، فكان في آن واحد ، علة ومعلولاً ، في تكوين دولة ، ان لم نقل أمة ، من هذا اللبيف من الولايات التي كانت ، من قبل ، متجاورة متلاصقة ، غير متعارفة . وهكذا يبدو لنا ، مرة أخرى ، أثر هؤلاء الابطرة البارز في بناء هذه الدولة الرومانية وترسيخ أسسها . وليس بغريب ، قط ، ان نرى هذا التطور يأخذ مجراه ، على عكس ارادتهم ، بعد ان عجزت عن الصمود في وجه التيار المعاكس .

وهذا التقارب يجري بين مجتمعات متباينة أصلاً وفصلاً ولساناً، توافرت
روما مرآة الامبراطورية له عوامل كثيرة للالتقاء والاندماج والانصهار . وهذا الانصهار
ووجعها . حركة العتق والاندماج يتم في روما : عاصمة الامبراطورية ونقطة الثقل فيها ومقر
عظماء الرجال وأصحاب المال والأعمال ، وقبة انظار الطامحين والطامعين الذين راودتهم الحُلُم
الذكية والأحلام الأدبية والفنية ، وملتقى المغامرين والمتآمرين ، من رجال ونساء في سعيهم وراء
الشهرة وتصيد الحظوظ . وقد تلاقحت في هذه المدينة العظيمة جميع العناصر والأقوام والشعوب ،
ممثلة على أدنى حد ، في هذه الأعداد المتزايدة من الأرقاء والعبيد الذين يردفون الأسر الثرية
بحشود من الخدم والحشم تتجاوز الألوف ، هم غنى وثروة الطبقات الارستوقراطية من التوابع
واللواحق ، من كل عرق وصنف ولون . والمشاركة بينهم ، كثر ، حاذقون ، مَهْمَرَة ، دوماً على
استعداد لكل خدمة ، هم ، في الغالب ، على مستوى طيب من الثقافة والمعلومات العامة ، وعلى
أتم استعداد للقيام بالمهام المشبوهة ، وبكل أعمال الشطارة والخرقه حتى أحطها وأدناها ،
يارسون النجامة والعباقرة والقيافة والعرافة ، والسحر والكهانة ، ويشاركون في كل الطقوس
والحرفقات الملتوية ، ويتعجبون بكل شيء ، حتى بأنفسهم وبغيرهم من الناس ، وبالفنون
والألعاب حتى بأخس الأصناف . فلا عجب بعد هذا ، ان ينشد الشاعر الروماني قائلاً : « منذ
عهد بعيد راح نهر العاصي يدفق مياهه في نهر التير » ، ومثل هذا الانصباب لم يبتدىء بالطبع
مع الامبراطورية . إلا ان هذا الدفق تضخم مع الزمن وتجاوز الزبى ، بعد ان عم الرخاء وتشعبت
الادارة العامة وفروعها .

فلا عجب ان يوجس الاباطرة خشية من هذا التيار الجارف ، فيعهدون ، من حين الى
آخر ، الى الشرطة باخراج العناصر الطارئة واقصائها بالجملة ، كما حاولوا جهدهم ، ان يحدوا من
حركة العتق التي انتشرت عاداتها وأصبحت زياً ينتهجه كبار القوم ، ومادة دعائية يتنافسون بها
ويتبارون . ولذا قام اوغسطس يحاول ، بما عرف عنه من روح اجتماعية محافظة ، الحد من
حركة العتق هذه ، فأصدر عدداً من القوانين الرادعة ، فمنع العتق عن الرقيق قبل ان يبلغ
الثامنة عشرة من عمره ، كما حظر عتق الخس من العبيد ، دفعة واحدة ، وإصدار براءة عتق
رسمية كما كانت تقضي العادة المتبعة . كذلك شدد في تطبيق الأحكام القانونية الصادرة من قبل
التي لم تكن لتسمح إلا لحفيد المعتوق ان يتمتع بكافة الامتيازات الخاصة بالرعوية الرومانية .

وقد بقي معمولاً بهذا القانون في حياة صاحبه ، انما بصورة مخففة ، لأن المللك الذي يتمتع
بحق الاعفاء ، لا يستطيع ان يقاوم التماسات أصحابه والمقربين اليه من معتوقيه أنفسهم . ومهما
يكن ، فالحواجز التي أقامها ، لم تستطع سوى التخفيف نوعاً من سير هذه الحركة التطورية
العامة التي لا تقاوم . وبفضل حركة العتق الواسعة هذه ، استطاعت روما ان تآزج بين العناصر
المتباينة التي تألف منها السواد الأعظم من سكانها ، بعد ان قصبتها من جميع اقطار الامبراطورية
وأطرافها النائية . وهكذا اختلطت ذراري الفاتحين بذراري المغلوبين على أمرهم واندجت بعضاً

بعض . وهذا الانصهار العرقي ، صحبه ، من جهة ثانية ، حتماً انصهار أدبي وخلقى .

وقد تم في الولايات شيء من هذا القبيل ، أشد فاعلية ، وأعنى أثراً ، وإن استبدال السكان ونقلهم جاء على شكل أقل ظهور أو بروزاً ، لأنه لم يقتصر ، على العاصمة وحدها .

قلما عد الأباطرة الى نقل السكان بالجملة من بلادهم الاصلية واقتلاعهم منها لإسكانهم في قطر آخر . فلم يكن في أي من البلدان التي دسّحوها وكونوا منها امبراطوريتهم الشاسعة فائض بشري يصح استخدامه في إعمار أقطار أخرى قليلة السكان . فالاجلاء الجذري ، المنهجي ، لم يكن من الوسائل المحببة عندهم لتأديب الخارجين على السلطة او المارقين على القانون . فقد اعتمدوا بدلاً عنه ، الاستعباد والرق بالجملة . فالرعب والهلع الذي أنزلوه بفلسطين بعد سحقهم الثورة الدامية التي قام بها اليهود تحت أمرة شمعون بر كوكبا ، في عهد الامبراطور هدر يانوس ، أجبر اليهود على الهرب والجلء عن البلاد ، الامر الذي أدى الى إفقارها . وكذلك قل عن مقاطعة داسيا . فبفضل هجرة فردية موصولة ، خلواً من كل ضغط ، كما يبدو ، تكتّنت هذه الولاية بعد فتح ترايانوس لها . وهكذا نرى ان الامبراطورية الرومانية لم تلجأ حتى آنذاك ، لاساليب العنف والإرهاب التي سبق لبعض الدول الغاشمة ان عولت عليها من قبل ، وان اعتمدت على مثل هذه التدابير ، فيما بعد ، حتى أصبحت عندها تدبيراً مألوفاً . وهكذا نرى بعض الأباطرة يقتلمون من أقطارهم ، اقواماً من البرابرة ، غرباء عن الامبراطورية ، ليسكنوهم مقاطعات ايطاليا الشمالية ، كما فعل اوغسطس ، في منطقة الرين ، ونبرون في منطقة الدانوب ، ومارك اوريل في بعض الولايات الدانوبية . فكان هذا التدبير الذي لجأوا اليه ، ذريعة من الذرائع التي مكنتهم من توفير ما يحتاجون اليه من يد عاملة لاستثمار الاراضي التي استباحوها ، كما أتاح لهم ان يتفادوا الضغط الذي تعرضت له تخوم الامبراطورية من قبل شعوب وأمم استهواها فاجتذبتها الازدهار الذي نعمت به الامبراطورية ، لم يسبق ان رأت مثل هذا الازدهار أو ما يشبهه في بلادها . وكان وضع هؤلاء الدخلاء ، في بادئ الأمر ، وضعاً متدنياً لا يختلف كثيراً عن وضع الأرقاء تقريباً . إلا أنهم لم يعتنوا ان اختلطوا بالشعوب القائمين بينها او المجاورة لهم وانصهروا فيها واندجوا معها .

وقد تفاعلت عناصر أخرى بهذا الاندماج . فقد سبق واشترنا من هذا القبيل ، الى الدور الذي لعبه السوربون في الحركة التجارية ، بعد ان انتشروا في كل قطر وصقع ، وحلوا تحت كل سماء . والشئ الذي لا يمكن ان نمر به هنا في غير مبالاة ، هو هذا الاصطهاد الديني الذي أكتوى بناره مسيحيو مدينة ليون ، في عهد الامبراطور مارك أوريل . فقد بلغنا خبره من رسالة باللغة اليونانية أرسلها مسيحيو مدينة فيينا وليون الى أخوتهم في الايمان ، في آسيا وفريجيا . وهناك عامل غير عامل التجارة يجب الانسقاطه من حسابنا ، ساعد كثيراً في تعجيل خطى هذا التطور ، وهو يتمثل في هذه المناقلات التي استوجبتها مقتضيات الخدمة العسكرية وموجبات الادارة العامة . فمعظم طوابير الجيش وفرقه كان يجري تشكيلها ضمن المقاطعات

القريبة من معسكراته . غير ان دواعي الدفاع عن حدود الامبراطورية ، والذب عن حياضها كثيراً ما تسبب في نقل فرقة بكاملها ، من الشرق الى الغرب ، فيفضل من بلغ من أفرادها ، سن التقاعد ، عند انتهاء خدمتهم العسكرية ، ان يقيموا ويستقروا حيث هم ، منصرفين الى استئثار قطعة الارض التي كانت تُقطع لهم عند خروجهم من الجيش ، بعيدين عن وطنهم الاصلي . ومهما يكن فحياة الضابط في الجيش كثيراً ما تكون عرضة لمناقلات عديدة ، شأنها في ذلك شأن موظفي الادارة ، ولو كانوا من الدرجة الوسطى . فالازدواج اللغوي ، في الامبراطورية ما كان قط حائلاً دون ابناء الغرب الذين كانوا يحسنون اللاتينية ، في ما تلقوا من تربية . وهذه الازدواجية اللغوية ، لم تعد لتؤلف ، منذ القرن الثاني ، حائلاً دون الاغريق في شرقي الابيض المتوسط ، بعد ان صارت الامبراطورية ، منذ عهد هدريانوس ، تعتمد على خدماتهم ، فراحوا يستسهلون الصعاب في سبيل تعلم اللاتينية ، بعد ان انفتحت امامهم ابواب الوظائف ، سواء في الجيش أو في الادارة . وقد استتبع ذلك حركة مصاهرة وتزاوج ، بين بعض طبقات المجتمع ، بين قطر وآخر وبين هذه الطبقات بالذات التي كانت ذخراً للامبراطورية وعمادها ، قدما بالملاكات والأطُر الادارية ، فأدت هذه الحركة الى التخفيف من حدة الفوارق الدينية والتصديقات العقائدية ، وتصادم الافكار والآراء ، والتوحيد فيما بينها . وهي حركة ستقوى وتشتد في المستقبل الطالع .

فما من شيء أثير ، مع ذلك ، أكثر من انتشار نظام البلديات الذي كانت الاعتراف المتزايد بحقوق
تشوبه نزعة غلبة نحو المزيد من التجانس والتقارب ، علماً بالمُثل التي الرعوية الرومانية للمدن
جاش بها هذا النظام ، ونتيجة لهذه الانعامات التي كانت الامبراطور
يجود بها ويسخو ، ممثلة بحق الرعوية الرومانية التي كان يسبغها على بعض المدن .

فقد تباين الابطارة الأول سخاء في هذا المجال ، بين مُكثر من هذه الانعامات ومُقل . ولكن لا نستطيع التأكيد ، لثلا نفرط في القول ونغلو ، ان اوجسطس وطيباريوس قد « اوصدا باب المدينة » ، اذا صح القول ان غيرهما من الابطارة ، كالامبراطور كلوديوس مثلاً ، قد « فتحوا منها الابواب وشرعوها على مصراعها » . اما الشيء الثابت والأكيد ، فالقضية قضية نسبية ونزعة عامة ، اذ لم يتخلف احد من هؤلاء الملوك ، عن الإنعام بمثل هذا الحق ، ولمرات عديدة ، لعدد كبير من المواطنين الجدد . وحق الرعوية الرومانية يكتسبها بصورة تلقائية ، هذه او تلك من الطبقات الاجتماعية الوجيهة ، ضمن نطاق البلدية ، وفقاً لوضع مدينتهم الشرعي . ويستتبع هذا الحق امتيازات فردية وانعامات خاصة تُعطى لمن يتطوعون للخدمة في الجيش أو عند انتهاء خدمتهم العسكرية في فرق الجيش الاضافية . فاذا ما خفت الحركة أو تباطأت في عهد تراجانوس ، فقد استشرت واتسعت في عهد الأسرة الانطونية ، اذ انعم اباطرة هذه الأسرة ، على معظم المدن الكبرى وقواعد الولايات ، بحق الرعوية الرومانية ، بحيث ان كل المواطنين في المدينة يكتسبونها اذا لم يكن يتمتع بها بعضهم من قبل ، بصورة شخصية . وهكذا فالظهير

الامبراطوري الذي كان كركلا سيصدره عام ٢١٢ فيعترف فيه بهذا الحق لجميع الرجال الاحرار الذين ولدوا ضمن الامبراطورية ، كانت قد تهيأت له اسباب الإعداد وزكاه شمول الحركة .

من العيب أن يحاول المرء التقليل من شأن هذه الحركة الشاملة التي كانت ترمي لإقامة وضع شرعي قانوني، يساوي بين الشعوب المغلوبة على أمرها في الامبراطورية والشعب المظفر الغالب . وهذه الحركة تجري بالطبع تحت سيطرة ومشاركة امبراطور ، مطلق السلطة والارادة ، امتدت سلطته الى أقصى أطراف الامبراطورية ، لا تجرى على سكان الولايات 'عنماً مادياً ملحوظاً ، بل على عكس ذلك ، تعود عليهم ببعض 'الغرْم' ، إذ يصبحون بفضل ما كسبوا من حق جديد ، عرضة للضرائب التي لا تقع إلا على المواطنين ، إلا اذا كانت مدينتهم تتمتع - وهذا شيء نادر جداً - برعاية « القانون الايطالي » ، فيُعَفَقُونَ إذ ذاك من ضريقتي الأملاك والمسقّفات . ومع ذلك ، فهذا الحق كان يولي صاحبه امتيازاً كبيراً ، إذ يؤمن له المساواة القانونية والأدبية بالمواطنين الرومانيين . ولكي يقدر المرء هذا الحق قدره وفضله ، في المراحل التي قطعتها هذه الحركة في تطورها الصاعد ، عليه أن يرجع بالفكر الى ما كان عليه وضع سكان الولايات الرومانية في آخر عهود الجمهورية .

فالإنسانية لم تعرف في تاريخها القديم دولة كثيرة سارت الى النهاية ، على هذا النهج الذي سارت عليه الامبراطورية الرومانية .

وهذه الحركة التطورية ، لم يمكن لها أن تحدث لو لم تقتزن بحركة الواقع الاجتماعي في المدن :
البورجوازية البلدية تطورية مماثلة لها ، طلعت في المجتمع الريفي ولفته لفاً ، فتفاعلتا معاً وتكاملتا . فمثل هذه الحركة لم تكن بمستجدة ، في الشرق الهليني . فقد جاءت فيه تنمة لحركة بدائية ، انطلقت عنده من زمن بعيد . أما في الغرب ، فقد اقتضى لها التأسيس والتمهيد من الأصل ، وانشاء كل شيء من البداية ، أي من نقطة الانطلاق . فالأمر ، في نظر الامبراطور ، ليس بمجرد إنشاء هيئة أو منظمة محلية ، يتنازل لها عن مهام الادارة المحلية . فهي عنده بمثابة 'مَشْغَل' ، أو بوثقة 'تُطْلِع' طبقة اجتماعية يريد ان تتعاون معه وتخفف عنه بعض الأعباء . فالطبقة الارستوقراطية في هذه الولايات التي عانت ما عانت من حروب الفتح الروماني ، وتضرست بويلاته ، لم يكن في مقدورها قط أن تقدم له المادة البشرية اللازمة للادارة . وهو ، من جهة ثانية ، لا يثق بالطبقات السفلى المشاغبة ، غير المثقفة . ولذا ترتب عليه أن يشجع هنا ، وان يثبته هنالك ، طبقة وسطى ، عريقة ، رصينة ، مثقفة ، وبالاختصار ، طبقة بورجوازية . وهكذا ترتدي السياسة التي اتبعها في حل المدن على الأخذ بأسباب الحضارة ، طابعاً اجتماعياً له أهميته الكبرى .

ومها تنوعت طرائف تكوين هذه البورجوازية البلدية وثباينت وسائلها ، فهي لا تمثل مع ذلك ، من حيث عناصرها المقومة ، قطاعاً مصغراً لسكان الامبراطورية . فلم يدخل فيها ، إلا في القليل النادر ، عناصر من الطبقة الريفية الأكثر عدداً ، هي طبقة العمال الزراعيين ، اذ كانت

لا تملك ، في البدء ، سوى رأس مال متواضع ، فترغمهم الحاجة للعمل في الأرض عند الآخرين . ولم يدخل ابدأ في هذه الطبقة من كانوا يؤلفون اليد العاملة ، ولا سيما هؤلاء الذين كانوا يقومون بأحط الأعمال وأشقتها ، كالعمل في المناجم والمقالع الحجرية والأشغال الشاقة الأخرى . فقد كان وضع العيش عند هؤلاء واولئك ، على السواء ، على جانب كبير من الشظف بحيث لو أوتوا المعائب في ما كانوا عليه من تقير وتوفر وحرمان ، لما استطاعوا ان يوفروا الحد الأدنى من الكفاف الذي يسد بُلغتهم ، ولما كانوا ، من جهة أخرى ، خارج المدن ، لا سمي لهم ولا عسير سوى رفقة لهم في العمل والشقاء معاً ، يفصل بينهم وبين رؤسائهم هوة اجتماعية عميقة تنعدم معها كل علاقة بين الجانبين . ولذا لبثوا عاجزين ، متخلفين عن تحصيل أي قدر ونصيب من العلم او الثقافة حتى ولو رغبوا في ذلك ، حتى من نعم بينهم بحريته الشخصية . وقلما نعموا بحق الرعاية المدنية ، اذ كانوا في نظر الأحوال الشخصية مجرد « قاطنين » او مستوطنين لا غير .

وهذه الامكانات التي حرموا منها ، توفرت مع ذلك ، لعناصر اجتماعية أخرى من الاثرياء وكبار الملاكين وأصحاب الأقطان كبيرهم وصغيرهم ، وسكان المدن . وقد جاءت السابقة من الأغنياء من بين سكان الولايات الذين لم يلبثوا ان انضموا الى الطبقة الاجتماعية العليا ، وانصهروا فيها ، كما جاءت من المواطنين الرومانيين الايطاليين المنشأ ، او من اقدم الولايات الرومانية ، او من قدماء المحاربين الذين نالوا الرعاية الرومانية ، او عن طريق اصحاب الاراضي والاطيان او صغار الموظفين الذين اصبحوا فيما بعد ملاكين بعد ان أقطعوا بعض الاراضي واشتروها . وكثيراً ما شكّل هذا الفريق ، الى جانب سكان المدن ، مجتمعاً ثانياً واستقروا معه على وضع عرفوا به قانوناً *Conventus Civium Romanorum* الذين بالرغم من قلة عددهم ، كانوا اسوة طيبة لغيرهم . وهذه الشواهد تأتي على ذكرها هنا ، ألقت مثلاً احتذاء معظم سكان المدن ، وقد ساعدهم على تحقيق ذلك ، التسهيلات الاقتصادية والثقافية ، التي توفرت لهم من جراء سكنهم في المدن وحواضر البلاد الكبرى . وهكذا رأينا عمالاً وصناعاً من اصل متواضع جداً لا يختلف وضعهم عن الوضع الذي كان يرسف فيه سواد المعتقدين ، يصبحون من أشد الناس ولاءً للإمبراطور *Seviri Augustales* ويصبحون ، بعد لأي قصير ، اعضاء في هيئة نقابتهم ، ثم يباشرون وظائف البلدية ويتحملون مسؤولياتها . وبقيت أسمى هذه الوظائف وأعلىها مرتبة ، مع ذلك ، موصدة تقريباً امام الجيل الاول هؤلاء الناس ، الى ان انفتحت ابوابها على مصراعها امام ذرائعهم فيما بعد ، عند اول بسمه يفتن عنها ثغر الحظ ويرضى بالسير في ركبهم .

وهذه النجاحات جاءت تعبيراً عن يسر مالي متزايد ، كما كانت ، من جهة أخرى ، توجيهاً آخر للنشاط الاقتصادي . عمل الانسان بيده ، لا بد منه عند الانطلاقة الاولى ، وما ان يلبث الدكان الخشبي حتى يستحيل مشغلاً يعمل فيه بعض الارقاء والعبيد . فالتجارة ، هي ولا شك في ذلك ، اوسع يداً وأرحب مجالاً ، لا سيما اذا ما عرف صاحب المتجر ان ينظم عمله وان يقيم له عملاء ومراسلين في أماكن أخرى ، فلا يلبث ان يستوي في مرتبة اجتماعية أعلى . والفئة

المختارة بينهم كانت تحاول توظيف قسم من ثروتها في شراء الاملاك والاقطان ، وبذلك يتاح لأصحابها النهوض الى مرتبة الاعيان والوجهاء في الناحية او القضاء .

فالاعتبار الاجتماعي للمرء كان يختلف باختلاف طريقة استثماره لما يملك من رأس مال ، والدخل الذي يؤمنه ، كان يعود عليه بأشياء لا يقل تأثيرها بشيء عن نط الحياة التي يحياها ، والمظهر الخارجي الذي يظهر عليه ، كالعلاقات التي تربطه بمن هم عيال عليه ، او بمن هو دونهم ، وكيفية استمتاعه بأوقات الفراغ التي تتوفر له ، فيتصرف بها على هواه ، والتربية التي كان يحاول تنشئة بنيه عليها ، وغير ذلك من وجوه الحياة . فالاهتمام بأمور الفكر والادب احتل محلاً بارزاً بين المسائل التي دغدغت هذه البورجوازية . ولم تكن تتحرج من استقبال اصحاب المهن الحرة التي عرفت ان تؤمن لأصحابها السعة وراحة البال . اما اهل الادب ورجال الفكر وحملة الاقلام فكانوا ، اينما حلوا ، موضع التجلية والاكرام .

من بين المناقب التي لا بد للبورجوازية من الاتصاف بها : الكرم سخاء البورجوازية وجودها والجود ، الذي يدفع اليه مبدئياً ، حب الوطن الاصغر ، والرغبة في رؤيته اجمل وأبهى ، محتفلاً دوماً بالاعیاد ، يشارك بها الناس القادمون اليها من بعيد ، فيكتسب بذلك شهرة ويذهب صيته بعيداً في الولاية بين المدن والقرى والساكن . فلا عجب ان يحتاج صندوق البلدية للمال الوافر يستطيع معه مواجهة مثل هذه النفقات ، التي لا يمكن للرسم المجباة ان تؤمنها ، حتى ولا تلك التبرعات التي يجود بها ، نقداً او عيناً ، وفقاً للتقاليد المرعية والشرائع المعمول بها ، من ينال من ابناء البلد ، منصباً جديداً ، مها صغر شأنه أو دق وزنه . ولذا كانت ترد على صندوق المدينة ، رأساً او بالواسطة ، هبات شتى وتبرعات مختلفة . فلا غرو ان تشتد في مضمار التبرع ، منافسة سامية بين البورجوازيين القاطنين في الحلة ، وبين هؤلاء الذين أتاح لهم وضعهم المالي القوي ومنزلتهم الاجتماعية ، ان يعيشوا بعيداً عنها . فقد مهمهم بعد ان برزوا وترقوا في درجات السلم الاجتماعي ان يبقوا دوماً على اتصال وثيق بمنشئهم الاول ، او بالبلدة التي رأت نشأتهم الاولى ودرجوا صغاراً على دروبها ، ولا تزال تربطهم بها وشائج من القربى والمصلحة والاملاك ، وغير ذلك من المقتنيات ، وهي بدورها تفخر ببنيها المبرزين وتجليهم ، وتحرص على الاحتفاظ بهم ، وتحفل بهم عند حضورهم اليها ، فتسجل أسماءهم في سجل النابيين من أعضاء البلدة جذباً لهم واستمطاراً لأعطياتهم ومبراتهم .

وهكذا راح كل واحد من طلوعوا فلمعوا ، يتفنن كل على طريقته الخاصة ، بتشميل دور النصير ، تشبهاً منهم بالباطرة والملوك في حديهم على المواطنين ، والمعطف عليهم والبر بهم ، واكتساب محبتهم وولائهم عن طريق التبرع بسخاء . وهكذا نستطيع اليوم بفضل ما جُثر عليه من الرُقم والنقاشات التذكارية ، اعداد قائمة هؤلاء المحسنين لا آخر لها ولا حد . فلنتصر من ذلك على بعض شواهد وأمثلة لنكوّن فكرة صحيحة عن ماهية هذه الهبات ونوعها ومقدارها . من ذلك مثلاً المبالغ التي ضرب بها أصحابها الرقم القياسي بالسخاء ، والمآدب الحافلة التي أَدَبوها ، والولائم

السخية التي أولمها ، والتوزيعات التي قاموا بتوزيعها عيناً ، واقامة الانصاب التذكارية ، وتقديم النفقات التي أوجبها تشييد بناء ذي مصلحة عامة او تزيينه وتحليته بالاثاث والرياش ، او خدمة مثلى أداها لبلده او مدينته ، او محله او للامبراطور ، او تسليف الادارة المحلية ما تحتاج اليه من مال ، والاكتتاب بالمبالغ اللازمة لتموين البلدة ، او السعي لتوفير ما يلزمها من حنطة واستيرادها على نفقته الخاصة في اوقات الجذب ومواسم القحط ، والتركات التي يُوصُونَ بها لأغراض شتى ، وغير ذلك .

وغني عن القول ان بعض وجوه هذا السخاء كانت تذهب لبعض الفئات او الهيئات الخاصة ، فينتفع بها فريق معين دون أهل المدينة كلهم . فالحصول على ترفيع او تقدير او ترقية ؛ مهما كان صغيراً او متواضعاً ، يكفي وحده مبرراً لإبراز أريحية صاحب الانعام وكرمه ، وإلا لما مُدَّتْ أهلاً لرتبة أعلى وأرفع .

وكان الترفيع من رتبة دنيا الى رتبة أعلى يستدعي حتماً من صاحب الخطوة اظهار كرمه وجوده على وجه دخل معه الناس في شبه سباق يتبارون فيه ، ويتنافسون . فان فائقنا المصادر الوثيقة هنا ، فشيء من علم النفس يحملنا على الظن ، بأن ممارسة بعض الوظائف كانت تؤمن ولا شك ، لأصحابها ، بعض المنافع المادية . فالبورجوازية البلدية كانت تؤمن ادارة المدينة ، إذ كان عليها أن تسهر ، الى جانب الموظفين الامبراطوريين ، على تأمين الشرطة واستتباب الأمن والنظام فيها ، وهي امور حرصت على تأمينها الحرص كله . فهي تعرف كيف توفق بين مصلحتها ومصلحة الأشخاص التابعين لها ، في كل ما يتصل بتوزيع الضرائب ، حق البلدية منها ، وجبايتها . ولكن هذا الاحتمال الثاني ، لم يكن ليتوفر في المستويات الدنيا . ومهما يكن من مبررات هذه الشكوك ، فهي لا تمنعنا من أن نؤكد هنا بأن هذا النظام كلف الطبقة الوسطى غالباً . فقد كان هنالك حوافز اخرى تحفزها على العمل كالمُثُل التي تترسمها المدينة ، وهي مثل لا تعدى عادة ، المنفعة الشخصية المبنية على المباهاة والتفاخر في الخارج . فالواهب او المتبرع كان ينال ، لقاء سخائه وتبرعه ، مكافأة له أو تقديرأ لعمله ، قرارأ يأخذه أعضاء المجلس البلدي يشيد بسخائه وكرمه ، اذ كان خبر هذه التبرعات ينقش على الرقم والأنصاب تخليداً لاسم صاحبها ، او تُنصَب له ولذويه التماثيل . وكثيراً ما كان يأخذ هو نفسه ، على عاتقه ، تكاليف هذه الكتابات أو كلفة صنع التماثيل ورفعها . وعلى كل ، فالشاهدة التي توضع على قبره ، بعد الوفاة ، كانت تحدث القوم عن ألقابه وأخبار أياده ، ووجوه كرمه ، والأشياء التي ابتدراها لمصلحة البلدة .

فأمام هذا التنويه العالي والأماديج الفخرية التي تطالعنا بها كتابات الحياة البلدية عنصر من عناصر الرقم والنقاش التي لا تحصى ، يعترى الواحد من رجال هذا العصر شيء من الإشفاق والتصاغر عندما يرى هذه المباهاة والمنافسة ينبري لها المحسنون تخليداً لاسمائهم في اذهان مواطنهم . كذلك فهي تثير في النفوس غير هذا التأسف

ايضاً. فقد كان بالامكان، ولا شك، الافادة من هذه التبرعات في وجوه أفضل اذ كثيراً ما ذهبت جزافاً ، في سبيل شهوات ونزوات لا طائل تحتها ، لا سيما اذا عرفنا انه لم يكن من السهل دوماً جمعها ، الا بشق المرائر ، مستخرين في سبيل ذلك العديد من الناس .

ولكن، هل يجوز بعد هذا، ان نجعل او نتجاهل بان الولايات مدينة لهذه المشاعر والاحاسيس الكريمة بالكثير من هذه التبرعات والانعامات الجزيلة التي أسبلت عليها ، كما انها مدينة لها بالكثير من هذه المباني والزخارف الفنية المدهشة التي تتباهى بها اليوم ، والذي وحد بينها : ذوق مترف يتجلى على أتمه ، في هذه الزخارف ، بالرغم من تباعدها بعضاً عن بعض . فالادارة الامبراطورية التي عولت كثيراً على هذه البلديات في تحقيق رسالتها التمدينية ، واخذت بتشجيعها ومؤازرتها ، وجعلت من حياة البلديات ، اذ ذاك، عاملاً كبيراً وعنصراً قوياً مشتركاً في عملية دمج الأقوام التي تألف منها سكان الامبراطورية وصهرها ، وتأمين الوحدة بينها ، وذلك من جراء قيام مثل هذه المثل الفنية، في كل أطراف الامبراطورية ، والشكل الذي استقرت عليه في تحقيقها وبلورتها . فاينما دفعت حوافز الحياة ، المواطن الروماني ، وانى رمت به ظروف الوظيفة او المهنة او نزق الطبع ، فهو لا يحس نفسه غريباً عن بلاده، في كل ما يتصل بالمهام والمسؤوليات التي يضطلع بها كفرد من افراد المجتمع ، مهما كانت الولاية او المقاطعة التي ألقت به اليها الأقدار . فاينما هبط او حل ، طالعته ، في خطوطها الكبرى، نظم سياسية واحدة ، واعراف واحدة ، وتقاليد واحدة ، والقيم الاجتماعية ذاتها ، أدبية كانت او مادية ، والزخارف المعمارية الواحدة ، والاعباد ذاتها ، وغتصر القول ، الكثير من مقومات الحضارة الرومانية الواحدة. فلا عجب والحالة هذه ، ان يرى نفسه مأخوذاً بقوة هذه الحضارة وسطوها ايما برزت وكيفما تجلت ، فيقتنع في قرارة نفسه بأنه أمام الحضارة الوحيدة التي تستحق هي وحدها، دون سواها، هذا الاسم ، فتبعث فيه عاطفة نبيلة من الزهو والفخر والمجد عندما يرى نفسه جزءاً منها ، كما تمتلئ نفسه جليلاً لهذا النظام .

من الواضح ان التطور الخلاّق الذي تم من هذا القبيل ، خلال القرنين المنشأ الهليني لهذا النظام الاول والثاني ، كان تكملة واستطالة لهذه الحركة التطورية التي أخذ الاغريق بأسبابها ونهضوا بها منذ ان جعلتهم فتوحات الاسكندر أسياد العالم الفارسي ، وهي حركة لم تتعد في الشرق رقعة ضيقة ، حدها قيام دولة الفارثيين على الفرات ، بينما بلغ مداها الزبى في الغرب مع الفتوحات الرومانية . فاتساع المدن القديمة ، وإنشاء الحواضر الجديدة ، وتزيينها بالمباني ، وتجليتها بالزخرف ، والتطور الذي طرأ على الطبقة البورجوازية في المدن التي كانت تتمتع بيسر مالي مكنتها من ان تجود بما جادت به من تبرعات سخية دعائية ، وجمعت الى رغبتها في توفير المرفهات المنزلية الاجتماعية، اللذة في توفير ثقافة فكرية. كل ذلك جاء تعبيراً صادقاً لهذه النزعة التي حاول السلوقيون ، جاهدين ، وبكل ما أوتوه من قوة وسلطان ، تحقيقها . وأخذ الاباطرة بدورهم في تشجيع هذه الحركة ، اذ انهم ، بعد ان تبنوا المبادئ

الحضارية ذاتها ، راحوا يعملون على توسيعها والترحيب لها والدفاع عنها ، اذ وجدوا في هذا المسلك ، الطريقة المثلى لتوطيد السلام ، في الداخل ، ومقاومة هجمات البرابرة وغزواتهم ، في الخارج . فبعد ان عرفوا كيف يفيدون من اختبارات الماضي ومن إقبال الجنة في المدن على هذه المسئلة ، استطاعوا ان يبرزوا ملوك اليونان من هذه الناحية بكرمهم وروحهم السمحة ، فهاؤوا لخواضر الولايات ، في مصر اسباب الاخذ بهذه النظم التي رأيناها تطلع في ولايات رومانية أخرى ، باستثناء الاستقلال الاداري ، بالطبع .

هنالك ولا شك ، أكثر من وجه من وجوه التباين بين هذه المدينة التي المستعذات الرومانية :
انتشرت على هذا الشكل ، في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ،
المصارعون
بفضل العمل الاجتماعي الذي قامت به هذه المدن ، ضمن إطارها البلدي ،
وبين الحضارة الهلينية التي تقدمتها وسبقها الى الظهور . فالجديد ، في الاثر الروماني ، يبرز على الأخص ، في هذه القوة او الصلابة التي انمازت بها النظم الادارية عند الرومان ، وفي اهتمام أولي الأمر الكبير ، بالمصلحة العامة . فعندما تتأمل النظر في الموقف الذي وقفته الطبقات البورجوازية في الشرق من الامبراطورية الرومانية وأسيادها في روما ، لا نرى شيئاً يمكن مقارنته بهذا في الموقف الذي وقفته هذه البورجوازية من الدولة السلوقية والعراقيل الكثيرة التي أقامتها في وجهها . فلم تقتصر روما في عملها على إخضاعها وبسط سيطرتها عليها ، فراحت تغرس فيها شيئاً من كرامة الذات والمهابة الرومانية ، وذلك عملاً بفلسفة الرواقين وتعاليمهم .

من بين هذه التغييرات الأدبية التي تجلت بصورة أوضح من خلال المظاهر الخارجية ، لا بد من ان نذكر هنا ، بنوع خاص ، هذا الجديد الذي طلع به الزومان فلم يلبث ان احتل حيزاً كبيراً في حياة المدن في جميع أنحاء الامبراطورية ، وان آثار اليوم دهشة المحدثين من رجال هذا العصر وبعث فيهم النفور والاشمئزاز ، الا وهو ألعاب المصارعة . وكان سكان المدن يجحدون في معارك المصارعين ، منذ عهد بعيد ، سلوكهم المفضلة ، بعد النجاح العظيم الذي لقيته هذه الالاعاب أينما قامت . فاذا ما شيدوا في الشرق من المسارح اقل مما شيدوا منها في الغرب ، فلأنهم استعملوا لها ما كان قائماً من هذه المسارح والملاعب في المدن الشرقية . فالصفوة الثقافية والأدبية عند الاغريق قلما اظهرت نفرتها من هذه الالاعاب ، بل على عكس ذلك لقيت لديها الاستحسان ، بينما النخبة الاجتماعية التي رضيت طوعاً واختياراً بتحمل النفقات المالية التي أوجبتها هذه الملاهي ، راحت تزهو بها وتقفر ، كما تشهد على ذلك النقائش العديدة ، من يونانية ولاينية ، على السواء . فلم تثر هذه الملاهي الدموية التي طلعت علينا بها ايطاليا ، أية عاطفة نفور او اشمئزاز في هذه البلدان التي تعاقبت عليها عصور وعصور من الحضارة المرفهة .

فالظروف الواحدة والمطالب الملحفة الواحدة تلاقى متشابهة في كل مكان . فالمصطلح اليوناني *Munerarius* ، *Philodoxos* ، *Philotimos* ، *Philotimia* أصبح فيما بعد مرادفاً للمصطلح اللاتيني *Munus* ، وهو يفيد معنى : العطاء والبذل ، ثم اكتسب فيما بعد ، لدى كهنة عبادة

الامبراطور معنى المعركة والمصارعة ولا سيما المعركة بين البشر ، ثم تصارع أناس ضد البهائم والوحوش لإثارة حماسة الجماهير . وكان النظارة يحفلون بالمعارك التي يستعمل بها السلاح المثلوم وهو سلاح كان المصارعون يستعملونه . فالمعركة ، في نظرهم لا قيمة لها ان لم يتخللها عطاء او بذل شيء . كذلك لم يكونوا ليحفلوا كثيراً بالمعارك التي لا تساوي فيها ولا كفاء ، او تلك التي يلتقي فيها منافسان تنقصها الخبرة لأنها اعجز من ان تثير اللذة او الحماسة ، كما ان خلوها من الشجاعة والإقدام يُعطل عند المشاهدين كل عاطفة إعجاب وإكبار وإيثار . ومهنة المصارعة *Gladiature* كثيراً ما أعادت الينا وبمشت فينا صورة : « الجحيم في التاريخ القديم » ، وهي معارك فيها من اللهو البشري الوحشي ما تتضاءل دونه لذة مشاهدة مصارعة الثيران او سبق الخيل . ويكفي المؤرخ ان يسجل وقوع مثل هذه المصارعة وما كانت تثيره في النفوس من أحاسيس وانفعالات متهاجة ومهيجة . والحال ، فاذا كانوا يستخدمون لها أرقاء مدربين يتعهد بتقديهم ملتزم معين او يبيع خيول الاصطبلات ، فكثيراً ما كان يبرز لهذه المعارك ، رجال أحرار طمعاً منهم بالربح والجوائز التي كانوا يفوزون بها ، اذ كان يتقاضى المصارع المتمتع بحريته ، ربع قيمة الايجار ، بينما يأخذ المعتوق خمسها ، ناهيك عن التنويه بهذه الأجداد ، وذلك بحفرها على شواهد قبورهم .

ومها يكن ، فالنفقات التي كان يتحملها المتبرعون في هذا السبيل ، كانت باهظة ، مرهقة . وبلغ من شدة تنافسهم وهوسهم في التبرع ما أربى على الجنون ، بحيث اضطرب مجلس الشيوخ ، في عهد الامبراطور مارك اوريل ، الى إصدار قرار نظم فيه أصول هذه المصارعة وضبط أساليبها ضبطاً محكماً جعل من اللازم اخذ نصف المتصارعين في اليوم الواحد من الفئة الأرخص والأقل كلفة . وكان المصارع الواحد من هذه الفئة يؤجر نفسه بمبلغ ١٥٠٠ سسترس . ونرى في غرة القرن الثالث ، عيناً من اعيان الغاليين أصله من مدينة فيدوكاس (بالقرب من مدينة كان في نورمانديا) ، ترقى فيما بعد ، الى رئاسة الكهان في منطقة ليون ، يحافظ على أحكام هذا القرار ومنطوقه ، عندما يتعهد بتقديم ٣٢ زوجاً من المصارعين ، كل يوم ، ولدة أربعة ايام فقط ، بأجر بلغ ٣٢٢٠٠٠ سسترس . وهكذا نرى كيف ان مبالغ طائلة هدرت هدرأ في سبيل ترهات ومجد باطل ، كان بالامكان استخدامها في وجوه أكثر نفعاً ، وأبقى للمصلحة العامة من هذه الاسخافات والاستباحات التي لا طائل تحتها .

الطبقات المتارة :
 على المدن وحواضر البلاد الكبرى . فقد وجد فيها الأباطرة الرومانيون المعين الاكبر الذي أمدتهم بالعناصر الطبية التي ألتقوا منها طبقة الأشراف في الدولة . وكان من جراء هذا التغيير ، ومن طبيعة الحياة الاجتماعية التي طبعت نهج العيش في المدن ، ان جعل الامبراطورية الرومانية أكثر تجانساً وأشد صلابة .
 فعندما أنشأ اوغسطس نظامه الجديد ، تألفت الطبقة المشيخية ، في سوادها الأكبر ، من

أشراف روما وسُراتها ، بينما تألفت طبقة الشفاليه ، على عكس ذلك ، تماماً من أعضاء جري اختيارهم واصطفاهم من بين الطبقة البورجوازية في المدن الإيطالية ، ولعبت الوراثة دورها في كل من هاتين الطبقتين ، إلا أن دوافع عديدة متباينة حملت الأباطرة على توسيع النطاق الجغرافي في تشكيل هاتين الطبقتين . من ذلك مثلاً ، حاجتهم المحافظة على العدد المعين أو المحدد لكل منها . فإذا كان عدد أعضاء الشيوخ ٦٠٠ عضواً كما كان في عهد سيلا ، فرضت ظروف وصروف لا يمكن التحكم بها ، على الأباطرة أن يعينوا عدداً لا يحصى من الشفاليه الجدد ، سداً منهم لحاجة الإدارة ، وإملاء للنائب والمراكز المختلفة التي أنشأتها الدولة تبعاً . ولعل أهم هذه العوامل كلها : الضمور والانحلال الذي اعتري تدريجياً الأسر الممتازة القديمة .

فالمؤامرات والهلول الذي كان يزرعه الأباطرة في قلوب الناس ، للقضاء عليها ، حلمهم في القرن الاول ، على التخلص ، دونما شفقة أو رحمة ، ودفعة واحدة ، بعدد كبير من صفوف أعضاء مجلس الشيوخ . فجرد حوم الشبهة أو اخذ البعض بالتظن في محاولة اعتداء على صاحب الجلالة ، كان كافياً وحده ، لحلمهم على الانتحار ، امثالاً منهم للقدر الغائم ، وغيره منهم على شرف الرتبة بشكل يحرك مشاعر النفس ويشيرها . فليس من عجب أن يسيطر الهلع على أعضاء مجلس الشيوخ خلال ملك طيباريوس ونيرون ودومتيانوس ، ويدفع بالكثيرين الى الانتحار تحليلاً مما يحوم حولهم من شبهات . وعندما خفت خدة هذا الخوف وخفت وطأة هذا الهلع ، نوعاً ما ، في عهد نيرفا وترايانوس ، راح الناس يسلقون هذه العهود ، بالسنة حداد مستمطرين عليها وعلى أصحابها للعنات . فإذا ما كانت الأسرة الانطونية ، في مجموعها — باستثناء الامبراطور هدريانوس الذي لم يتردد بانتهاج سياسة البطش — عرفت ان تضع حداً لهذا العهد المرعب ، فرد هذا يعود بالأحرى ، للحلم الذي اتصف به افراد هذه الأسرة الحاكمة ، بل لهذه الروح الجديدة التي تجلت بين صفوف المنظمة المشيخية بعد ان جدت شبابها ونفضت عنها ما تراكم عليها من غبار الماضي ، وقطع أعضاؤها كل صلة لهم بالـ "دس" والتآمر . وهكذا قطعت الأسرة الانطونية ثمار سياسة الضغط والشدة التي انتهجها أسلافها من قبل .

والغرض من الإنجاب وعملية الفتك ، بالجملة ، بالعديد من أعضاء الطبقة المشيخية ، لم تكن بالطبع ، لتقضي وحدها عليها بالفناء والمحق ، كما أن هذه الأحكام بالاعدام لم تكن لتلحق الأذى المادي في أبناء المحكومين ، هذا إذا ما سلمنا بوجود اولاد لهم . والمفجع في الأمر ، هو أن معظمهم لم يكن لهم اولاد . ومما زاد الطين بلة والأمر حرجاً هو أن طبقة الشفاليه لم تصب ، على الاجمال ، بسوء في عهد الارهاب والهلل الذي سيطر على أعضاء مجلس الشيوخ ، لأن خطرهم كان دون خطر اولئك ، على الأباطرة . وكانوا ، على الغالب ، يموتون دون ان يعقبوا اولاداً . وقد لفتت ظاهرة الاضمحلال التي اعترت الطبقات الاجتماعية العليا ، نظر المؤرخ الروماني بوليب ، فسماها *Oliganthropia* ، وعرض للكتابة عن هذه الظاهرة في معرض حديثه عن المجتمعات اليونانية في العهد الهليني . وعندما راح يُحلل اسباب هذه الظاهرة ، ويُعلل الدوافع

التي أدت اليها، وقف في تحليلها عند الأسباب الخلقية والأدبية دون سواها ، بعد ان تدهورت الاخلاق العامة بين أبناء الطبقات الممتازة في روما ، خلال العهد الامبراطوري ، واتخذ هذا التدهور صوراً وأشكالاً من الفساد والشر . وقد تجاوز بوضوح عن ذكر أسباب أخرى ، محافظة منه ، ولا شك في ذلك ، على الاخلاق العامة ، مع ما استرسل اليه من اللوم ، والشجب والانتقاد ، ولو تعرض هو نفسه لتهمة الموعظة والارشاد .

كان المجتمع الروماني العالي يغص بالفنى ويرفل بالثراء . فقد بلغت اكبر ثروة بلغنا خبرها ، اذ ذاك ، ٤٠٠ مليون سسترس ، ملك احداها معتوق يدعى نرسيس ، من توابع الامبراطور . اما الثانية ، فخصت احد اعضاء مجلس الشيوخ ، في عهد اوغسطس . فلاعجب اذا ما راح بلين الأصغر يشكو امام مشاهدته هذه الثروات الهائلة ، زمانه وقسوة حظه ، ويقابلها بامكاناته المتواضعة ، مع العلم انه خلف ، وراه ، كما تنص عليه وصيته الأخيرة ، وفقاً لمنطوق احدى النقائش التي وصلت الينا ، ٢٠ مليون سسترس لا غير . وقد رأى بالطبع ، مجتمع على مثل هذا الفنى ، ان يستمتع بالحياة ، على ما يرغب فيه ويشتهي . فقد شهد القرن الاول للامبراطورية بذخاً لم يعرفه العالم مثله من قبل ، كما انه بلغ حداً من الترف لا مزيد عليه ، والكل يحاول ان يبرز غيره في لذائذه ، ويتفنن بالاستمتاع بها حتى الخروج على المألوف ، وذلك ببذخ واملاق تجلى في كل مظاهر الحياة المادية : في هذه القصور الشاهقة ، وهذا الجيش اللجب من العبيد والارقاء ، وهذا الاثاث والرياش والملابس الفخمة والحلى والمجوهرات ، والولائم المترفة ، وانواع اللذائذ على اختلاف طعومها والوانها . من السهل ان نورد على هذا ألف شاهد وشاهد ، هي من الواقع بحيث تبدو صعبة التصديق ثبعت الشك في النفوس لشدة غرابتها لولا اتفاقها مع النصوص الأدبية والتاريخية التي خلفها لنا الأقدمون فتجعلها فوق شبهة ومظنة . وهذه الشواهد التاريخية ، على صحتها ، هي من الكثرة والتوفر اوردها كتاب وشعراء أقدمون ، بحيث لا خوف قط من ان يعوزنا الدليل . وبالرغم من الأمثلة الكثيرة التي جمعها المؤرخ الألماني لودفيغ فريدلاندر ، في كتابه الضخم الموسوم : « تاريخ الآداب والأخلاق في روما قديماً »^(١) لا يزال هنالك مجال واسع لاضافات كثيرة من النقل والمأثورات . ومهما تكن الصورة التي تطبعها في النفس قراءة هذه الوقائع التاريخية التي أخرجت للناس حديثاً ، أفلاماً سينمائية تضؤل كثيراً أمام ما نقرؤه عنها في آثار كتبة الرومان ، أمثال بترون *Petron* ومرسيال وجوفنال ، فهي تبقى دون الحقيقة بكثير .

ومهما بلغ من زهو هذه الحياة التي عاشها اغنياء الرومان ، والبذخ الذي تجلّى في مآذيمهم ، والتفنن الذي بلغوا فيه القدح الملطى في ولائمهم ، بحيث انهم فاقوا كل ما عُرف من امثاله في التاريخ القديم ، فالذي يهمننا هنا ، من هذا كله ، هي النتائج الديموغرافية التي ادى اليه هذا المسلك . ففي روما ، كما في اليونان قديماً ، لم يكن الاب الذي يستطيع ان يورث أولاده ثروة بعد موته

يطرحهم في الشارع . غير ان الانصراف للحياة الحرة ، الطليقة ، المترفة ، جعل كثيرين من الشباب ، يفضلون البقاء عازبين حتى اذا ما تزوجوا في ما بعد ، لم يعقبوا ، هذا ان لم يتعرض زواجهم للطلاق ، وان أنجبوا ، فبعدد قليل وتعرض اولادهم للوفاة . وهذا النقص الفاضح في المواليد جاء يُتَمِّمُ ، من جهته ، عمل الفتك والتقتيل بالجملة ، الذي امتاز به عهد بعض الاباطرة .

فشل قوانين محاربة البذخ
والتشريعات الديموقراطية
حاول المسؤولون جهدهم ان يكافحوا ما أمكن ، اسباب الداء وان يحترزوا الداء من الاساس . واقتداء بالقوانين التي سبق لقيصر ان سنّها من قبل ضد بَطَرِ البذخ والاسراف والاملاق ، راح ابنه اوغسطس يشترع بدوره قوانين بهذا الصدد للحد من موجة الانفاق باملاق وأسراف جنونيين . فحدد بـ ٢٠٠ سسترس لليوم نفقة الأيام العادية ، و ٣٠٠ سسترس لأيام الأعياد ، و ١٠٠٠ سسترس ليوم الزفاف وللتالي بعده . ثم أصدر قانوناً جديداً ، لم يكن له اثرأ اكبر من غيره ، نظم فيه كيفية مراقبة المشتريات بصورة عملية . وقد رفض الامبراطور طيباريوس ، بما عرف عنه من سلامة المنطق ، الاستمرار في تطبيق هذه القوانين ، معلناً بان الاسراف على شؤون التغذية ليس سوى وجه من وجوه الاملاق والبذخ ، متسائلاً : « كيف نبتدىء الاصلاح وما الذي يجب تخفيضه ، في الدرجة الأولى ، للرجوع بالاخلاق الى البساطة الاولى ؟ هل نبتدىء بتخفيض مساحة البيوت التي نشيدها في الأرياف ؟ او هل نخفض هذه الجيوش الجرارة من العبيد والارقاء ؟ او هذه المبالغ الضخمة من القضة والذهب ؟ او بالاحرى هذه الاواني المنزلية البديعة الصنع ، من البرونز ، أو هذه الرسوم التي يعتني الرسام نفسه برسمها بصبر جميل ؟ أو هذه الثياب الفخمة الفاخرة ، أو هذه المقادير من الحجارة الكريمة والمجوهرات ؟ هذه القوانين التي سنّها السلف ، وغيرها مما اسنته اوغسطس وعفي العمل به او ما هو ادعى للخجل ، بما الغي احتقاراً للقانون ودوساً له . كل هذه القوانين والتشريعات ، ألم تشجع على الإثم وتدعو للشر . »

ومضى الامبراطور اوغسطس في سن القوانين الرادعة وتحسينها ، للحد من اسراف الطبقات الثرية ، ولحلها على الإكثار من الولد والبنين . وقد أوصت هذه التشريعات على املاء مناصب البروقنصل من بين اعضاء الشيوخ الذين لهم أولاد ، كما انها تصعبت في قضايا الطلاق . وفي مصلحة أرباب الاسر ، ولاسيما الاسر التي تضم ثلاثة أولاد واكثر ، راحت تفرض رسوماً على العازبين وتحول دون ان يتناولوا من إرث يأتيتهم من ثالث او من نسيب بعيد القربي ، اكثراً من مبلغ معين . وهذه القوانين التي كان من الصعب فرضها على الناس وتطبيقها ، ازعجت الى حد بعيد الطبقة الاجتماعية الراقية ، حيث كانت عادة التوصية بالارث تتبع بسخاء منذ عهد بعيد . ولكي يحولوا دون تطبيق هذا القانون راحوا يعقدون خطوباتهم مع بنات صغار ثم يلغونها بعد قليل ليعقدوا غيرها ، الامر الذي كان يستدعي إيقاف مفعول القانون . وكثيراً ما كانوا يرمون عقود تبنتي مزيفة . غير ان اكثر الوسائل استعمالاً اسهلها على الاطلاق : فقد اعطى اوغسطس نفسه المثل على ذلك ، اذ انه اعترف لزوجته ليفيا التي لم يكن لها غير ولدين ، بذات الحقوق

المستحقة لزوجة لها « ثلاثة اولاد » . وقد احتذى كثيرون من الاباطرة ، فيما بعد حذوه ، الى حد اساءة الاستعمال والتجاوز المفرط ، الامر الذي حدا بالامبراطور تراجانوس لان يُعين حداً اعلى للمنتفعين بهذا التحيّل على القانون . ولكن كيف يستطيع اباطرة عرفوا بقلة الولد ، ان يصمدوا ولا يلينوا امام اولادهم ، هذا ان كان لهم اولاد ؟ وعلى عكس القوانين الخاصة بمكافحة البذخ ، استمر العمل جارياً بالقوانين الديموغرافية ، اذ ان في المحافظة عليها مصلحة لصندوق الدولة التي كانت تضع يدها على الموارث الواهية او المشكوك بها . ومع ذلك ، بقيت عاجزة عن معالجة الوضع .

وهكذا لم تلبث الدولة ان وجدت نفسها امام عجز فاضح ، ألحق الاستعانة بالنخبة في الولايات الضرر بمصالح الحكومة وبالإدارة على السواء . صحيح ان الطبقة الاجتماعية الوسطى في ايطاليا عوّضت بعض الشيء ، إلا انها لم تكن تتجدد بالسرعة اللازمة بعد ان اخذت البلاد تشكو من تأخر الوضع الاقتصادي ومن هبوطه . فلم يكن بدّ ، والحالة هذه ، امام الدولة ، من اللجوء الى النخبة في الولايات والاستعانة بها ، وفيها معين لا ينضب ولا يحف من المادة البشرية ، بعد ان كانت هذه الولايات اخذت بأسباب الحضارة الرومانية واقبلت عليها تستمرها . وساعد الازدهار الذي نعمت به أسر عديدة ، على بلوغ هذا الوضع الاجتماعي .- وحياء هذا التدبير تنمّة او بالأحرى ، نتيجة لانتشار حق الرعية الرومانية للمدن ، لما بين هذين الاتجاهين من ترابط وثيق . فقد سبق للجمهورية ان أعطت المثل الاول ، وذلك بتعميم هذا الحق تدريجياً على كل المدن الايطالية والشروع بإيلائه للمدن القائمة في اقدم الولايات الرومانية ، في الخارج . غير ان الدولة سارت في هذا بتمهّل كلي ، كما برهنت من جهة أخرى عن إمساك مفرط في كل ما يتصل بالوظائف الكبرى ، اذ ان الارستوقراطية الايطالية استطاعت وحدها ، ان تبلغ مرتبة الشيوخ بعد ان امتزجت بالارستوقراطية الرومانية وانصهرت بها . وكان لا بد من حدوث الحرب الأهلية وما جرته معها من اضطرابات وويلات ، كما كان لا بد من ظهور دكتاتورية قيصر ، بالتالي ، لتشهد وصول سكان الولايات الى مجلس الندوة الروماني ، اذ نرى ، عام ٤٠ ق. م ، اسبانياً يُعيّن قنصلاً ، كما رأينا ، سنة ٣٥٥ رجلاً غالياً من ولاية ناربون ، يعين هو الآخر ، في مثل هذه الوظيفة . إلا ان هذه السياسة الجديدة لم يتسع الاخذ بها إلا في ظل العهد الامبراطوري .

وهذه السياسة الجديدة ، حريّ بنا ان نقف عندها ونتملّق فيها النظر ، اذ كان عليها ان تغلب على عاطفة النفور ، وأحياناً على المعارضة المكشوفة ، ان لم يكن من قبل الطبقتين الممتازين ، فأقله من الطبقة العليا . ففي عام ٤٨ ، وقف مجلس الشيوخ موقفاً عدائياً صريحاً من التأس رفعة وجوه «غاليا» وأعيانها ، بعد ان تم تدوينها على يد قيصر ، رجوا فيه إعطائهم حق الوصول الى الوظائف الرومانية العليا ، أي الى مجلس الشيوخ ، بعد ان نالوا حق الرعية الرومانية ونعموا بما توليه من امتيازات لحاملي هذا الحق . فاضطر الامبراطور كلوديوس نفسه للتدخل في الأمر ،

في خطاب ألقاه بهذا الصدد، عُثِر على موجز له في مدينة ليون، مكتوباً على لوحة من البرونز. وبالرغم من تحمسه للقضية، والحرارة التي أبدتها في تأييده هذا الطلب، فلم يستجب مجلس الشيوخ لهذا الالتباس إلا تدريجياً، وعلى مراحل، مبتدئاً من شعب الأدورين (أوتون اليوم) بوصفهم أقدم حلفاء روما في غاليا قديماً، ثم جاء تبعاً دور الولايات الأخرى. فولايات أفريقيا لم يطلع منها قنصل قبل عهد الأسرة الفلافية، والشرق الإغريقي، بعد ذلك بكثير. ثم قوي التيار وأصبح لا يقاوم. وعندما انقضت الأسرة الانطونية كانت مصر وحدها، بين الولايات الرومانية الكبرى، الولاية التي لم تُطلع قنصلاً رومانياً بعد. وسيصبح لها واحد في عهد أسرة سيفيروس *Sévères*.

ولم يستفد من هذه السياسة، حتى عهد الأسرة الفلافية، سوى الطبقة الأرستوقراطية العليا التي حاكمت، بما تم لها من غنى وثناء، الطبقة الأرستوقراطية الرومانية، إذ كان بإمكانها أن تقتني لها، أملاكاً طائلة في إيطاليا وأن تستوطن روما مع احتفاظها بمصالح واسعة لها في منشئها الأم، أي في الولايات التي انطلقت منها. إلا أن ما كانت عليه من قلة العدد أجبر السلطة على توسيع طريقة انتقاها العدد اللازم لها، وذلك على أساس النظام الاجتماعي دون الاقتصار على النطاق الجغرافي وحده. وقد باشر السياسة الجديدة الإمبراطور فسبسيانوس الذي خرج، هو نفسه، من الطبقة البورجوازية الصغرى. فقد كان، قبل ارتقائه العرش الإمبراطوري، الأول في مجلس الشيوخ كما كان أبوه، الشفاليه الأول من بين أسرته. وبعد أن تسلم مقاليد السلطة العليا، إثر أزمة ٦٨/٦٩، لم يتردد قط أن أدخل، إلى عضوية الشيوخ، عدداً من الشفاليه من أصل إيطالي أو اختارهم من بين الولايات الأخرى. وسار خلفاؤه من بعده على شاكلته، بحيث أن الطبقة المشيخية عدت بين صفوفها، أعضاء خرجوا من بين الطبقة الوسطى، ازداد عددهم مع الزمن.

أما طبقة الشفاليه، فلم يكثرث الإمبراطور يوماً بأي اعتراض أو مقاومة من قبل مجلس الشيوخ بما لم يضطره يوماً للدخول معهم في مساومات، إذ أنه كان السيد المطلق، والمشفرف الأوحده على تعيين أعضاء هذه الطبقة، يختارهم ويصطفهم كيفما شاء. وكان يكفيه أن يكون المرشح حاملاً للجنسية، مسجلاً في دائرة الإحصاء والنفوس، معروفاً بولائه للإمبراطور الذي لم يكن غير الولاء للدولة، له الحد الأدنى من الخبرة، وعلى استعداد لاكتسابها. وعندما أُطلت هذه البورجوازية في الغرب راح الإمبراطور يستفيد منها. ولكي يستفيد منها في الشرق حيث كانت طلعت وبرزت منذ عهد بعيد، ترتب عليه أن يتغلب على بعض الصعوبات منها حثق الشرق على الغرب اللاتيني، كما أن الأخذ بأسباب الحضارة الرومانية كان شرطاً لا بد منه في المرشح المتيد. ولكن هذه المحاذير لم تلبث أن فقدت شيئاً فشيئاً من حداثتها، ابتداء من عهد هدريانوس. فبعد أن كانت الولايات الغربية تقدم لهذه الطبقة، عدداً أكبر من العدد الذي كانت تقدمه الولايات اليونانية في الشرق، فقد خف هذا التفاوت كثيراً وأصبحت منظمة

الشفاليه ، من حيث تشكيلها ، تعبيراً صحيحاً لوحدة الامبراطورية .

لما راح الامبراطور 'برقي' الى عضوية مجلس الشيوخ من يرغب بتكريمه
وترفيعه من اعضاء منظمة الشفاليه الذين لا يرغب في الاحتفاظ بهم لتسلم
الوظائف والنيابات الكبرى ، كانت المنظمة المشيخية قد لحق بها ، منذ
القرن الثاني ، تغييرات جذرية من نتائجها المباشرة ، هذا الشعور العام الذي بدا على الجميع ،
بالتوازن والاعتدال والجدية وغير ذلك من المناقب التي ميزت «عصر الاسرة الانطونية» .

فالأسر التي برزت في العهد الجمهوري قد انقرضت وغربت أسماؤها عن جو مجلس الشيوخ .
فاذا ما عثرت واستمرت - وهذا أمر نادر للغاية - فبتدبير مصطنع أي عن طريق التبني . ولذا
ألّف الأعضاء الذين جرى انتقاؤهم من الولايات ، أكثرية ساحقة في المجلس المذكور . فقد طلّعو ،
على العموم ، من أسر برهنت ، على مر الزمن ، عن كفاءتها وتوصلت تدريجياً ، الى مصفّ
الأشراف والنبلاء ، غالباً وجهاداً ، بعد ان أُدْخِل على الادارة دم جديد من الموظفين المؤهلين ،
تم لهم ، مع الزمن ، خبرة واسعة في الأمور الادارية والعسكرية . وهكذا قُيِّض لهذه الطبقة
ان تقدم للامبراطور مساعدين أكفاء يعتمد عليهم في تصريف الأمور وتدير شؤون الامبراطورية .
ولما كان الامبراطور يتخرج من مجلس كثير الاعضاء ، نزاع المناقشات والمجادلات التي لا طائل
تحتها ، فقد آثر ان يكون تعاونه مع قلة منتقاة من بين أعضائه ، يختار من بينهم الموظفين الذين
يرى نفسه بحاجة الى خدماتهم . وعلى هذا ، فما في هذا الفريق ، الحس بالمصلحة العامة ، والوعي
الوطني أكثر من ذي قبل ، وأدركوا ان الامبراطورية هي غير روما ، وانها تشرّع وتعمل
للملايين من البشر موزعين بين ولاياتها .

وقد تبدلت اخلاقهم وعاداتهم . فكان اعضاء المجلس على جانب من الثراء ، انما اقل ثراء
من اسلافهم في المجلس . وقد جمع معظمهم ما تم لهم من ثروة ، من مصادر لا تمت بأي سبب
للمضاربات وأعمال الابتزاز والاعتصار او النهب ، بعد طول عناء وجهد موصول ، استمرت
عليه اجيالاً متطاولة . ولذا كانوا يستعملون هذه الثروة بفطنة وحكمة وتحفظ . فبلىن الاصغر
الذي كان يملك في عهد ترايانوس ، الى جانب صرحين له في مقاطعة كوم الواقعة الى شمالي ايطاليا ،
حيث مهبط رأسه ، يسمى الاول تراجيديا ، والثاني كوميديا ، امتلك ايضاً صرحين آخرين ،
في ايطاليا الوسطى ، هما : صرح لورانتس بالقرب من مدينة اوسقي ، وصرح توتشي ، عند
منحدر جبال الابنين ، كان يُمثل طبقة في سبلها الى الانقراض والزوال . ونهج الحياة الذي سار
عليه اعضاء مجلس الشيوخ ، اذ ذاك في روما ، كان اقل زهواً وفخخة مما مضى ، لأن معظم
اعضاء المجلس كانوا يقتنون لهم اقطاناً واسعة في المدن التي تعتبر محتداً لاسرتهم . فكان عليهم ،
والحالة هذه ، ان يحتفظوا بمجد أدنى من المبلغ المخصص لمصمتهم ، يستثمرونه في شراء عقارات
تقع في ايطاليا . وهذا الحد الأدنى تدنى وتناقص هو الآخر : فبعد ان كان الثلث ، في عهد
ترايانوس ، اصبح الربع في عهد مبارك اوريل . فلم يبق لهم من اثر ظاهر على محيطهم إلا عندما

يقطنون ، ولأمد قصير ، في إحدى فيلاتهم المحبة القائمة وسط املاكهم الواسعة في الولاية . وهذه البقية الباقية من النفوذ في محيطهم الزيفي ، يجب رده الى عوامل ادبية : فقد كان وليد إعجاب سكان المنطقة بالنجاح الذي حققه العضو الجديد من اعضاء المجلس ، وبالنفوذ او الحظوة التي كانت له عند اولي الامر في العاصمة .

بقي مع ذلك شيء هنالك : بالرغم من هذا التغيير الجذري ، وهذا الضمور الذي يلاحظ على هذه النخبة الاجتماعية ، وعلى الرغم من انقضاء عهد الدسائس والمؤامرات والاعتقالات واحكام الاعدام بالجملة ، فلم تكن أية أسرة مشيخية لتعمر أكثر من جيلين او ثلاثة اجيال ، اذ تكون جفت فيها وماتت هذه الحيوية المجاهدة التي برهنت عنها الاسرة قبل تحقيقها ما حققته من اهداف ، وما استشرفت اليه من مآت واجداد . وذلك على اثر انغماسها بموجة الترف والبذخ التي اجتاحت روما واغرقتها في لججها .

وهكذا فالسير الاجتماعي صُعُداً لم يكن ليقف او لينقطع . وهذا المد
الارتقاء الاجتماعي التطوري ، بما بلغه من اتساع ومع ما كان عليه من استمرار تنظيم ، يؤلف إحدى المميزات التي اتصفت بها مدينة الامبراطورية الرومانية في هذه الحقبة المتأخرة من تطورها ، وفردتها عن المدنات الأخرى التي تقدمتها .

ويمحس بنا مع ذلك ، ألا نجعل الحدود الجغرافية لهذا التطور وعدم تساوي الفرص التي وفرتها هذه المدينة ، للولايات التي تألفت منها الامبراطورية الرومانية . فقد كان من المسلم به اساساً ، ان باستطاعة المندم من الناس ان يتمكن من تكوين رأس مال له يكون ، على وضاعته ، نقطة انطلاق الأسرة في جهادها نحو الرقي والتطور ، يعمل اولاده من بعده ، على استناره وإغائه . ولم نكن لنشاهد في ايطاليا أي مصير من هذا النوع ، بالنظر لما كانت عليه من تأخر والمخطاط في اقتصادياتها ، ولا في مصر أيضاً (بالنسبة لما كانت تزج تحته اليد العاملة فيها من كابوس مرهق) . كذلك كانت ضعيفة أيضاً امكانيات الصعود الاجتماعي امام سكان الأرياف ، وفي الولايات ، إلا من جاشت نفوسهم بالطموح من أبناء الشعب ، فيُقدِّمون ، وهذا أبسر السبل ، على الانخراط في خدمة الجيش ، فيقطعون مراحل الترقى على مهل ، فتنتفتح امام صاحبنا ، عندما يرقى الى رتبة قائد مائة ، ابواب طبقة الشفاليه . فسكان مدن الولايات أتيحت لهم الافادة من مثل هذا الوضع عن طريق تدرجهم من مهنة يدوية الى طبقة البورجوازية البلدية ، ومنها يتدرجون الهويناء ، الى ابواب منظمة الشفاليه ، ليصلوا منها الى ابواب المنظمة المشيخية . وهذا الصعود كان يقتضي له عدة اجيال . فقد عرف العهد الامبراطوري ان ينظم هذه الترفيعات في محاولته تجديد طبقة الاشراف ، هذه الطبقة الآخذة بالانقراض والزوال ، مهما كان من الأمر . دون ان يحدث انقلاباً جذرياً في السلم الاجتماعي ، اذ عرف ان يحافظ على هذه المراحل ، تاهيك عن ان تنظم الحياة الاقتصادية ، اذ ذاك ، لم يكن ليساعد كثيراً على بروز أغنياء جدد . كل هذا يقتضي له جهوداً موصولة واخذ النفس باقتصاد صارم ، وحساً مرهقاً يعرف معه صاحبه كيف

يحافظ على التوازن بين الاقتصاد النظم والبذل الحكيم في المناسبات العارضة . كل ذلك ، الى شيء من تفتح العقل والذهن ، ومسحة من الثقافة المتوسطة ، والتمرس بوظيفة ادارية . كذلك اقتضى الأمر الاعتصام بشيء من التقاليد والاعراف المتبعة في القطاعين الاجتماعي والسياسي ، اذ ان بطء الارتقاء كان يساعد على التكيف واكتساب الخبرات . وكان على المعنى بالامر ان لا يظهر ، في أية مرتبة بلغها ، انه من حديثي النعمة ، كما كانت عليه ان يحتز من إثارة الشكوك بحول ولائه للدولة .

وهذه الطريقة التي قامت على الاختبار والتي اكتملت بفضل التجارب التي مرت بها عبر الأجيال ، وفقاً لمقتضيات الظروف خلال القرن الأول ، سارت سيرها النظم خلال القرن الثاني . فقد أمدت العهد الامبراطوري بهيكل اداري شغله أكفاء الموظفين ، كان خير ما عرفه التاريخ القديم من امثال هذه الملاكات ، وكان له فضل عظيم في تأمين هذا التجانس الذي ، وان لم يبلغ تمامه ، فقد فاق ، مع ذلك ، ما عرفت من أمثاله ، اكبر دولة قامت في التاريخ الى ذلك العهد . ومن بين الاشكال التي تبلورت عنها ، فكانت قواماً لها ، كما كانت تعبيراً صادقاً عنها ، بعد ان ربطت بينها مثل المدنية الواحدة التي كانت امتداداً لها ، هذه الوحدة العميقة الجذور ، الممثلة في هذه الطبقة النبيلة التي تتألف من كبار موظفي الدولة ، الذين جيء بهم من ولايات متباعدة ألتقوا معاً طبقة واحدة تهرست بهذه المناقشات التي خضعت لها وفقاً لمقتضيات الوظيفة . فالفروق بين اصل الاباطرة الرومانيين الطبقي ، سواء اطلعوا من هذه الارستوقراطية الرومانية القديمة ، كالاسرة اليوليو - كلودية ، او من طبقة البورجوازية الايطالية المتواضعة ، كالاسرة الفلافية ، او جاءت من بين هذه النخبة التي أطلعتها الولايات الرومانية القديمة كاسبانيا او مقاطعة ناربون الغالية ، كالاسرة الانطونية ، لا تبرز على نصابها الى جانب مع هذه الحقيقة . فننظر هذه الطبقات الموجبة ، كانت الامبراطورية الرومانية تؤلف امة .

غير ان حسن سير النظام الامبراطوري كان يستدعي استمرار الازدهار الاقتصادي ، مصدر كل ثروة واساس كل ارتقاء اجتماعي وكل حركة تقدمية . كذلك كان يستدعي طاعة الطبقات الاجتماعية الدنيا ، واقبالها على هذه النظم تستمرها وتمثلها .

٣ - الطبقات الاجتماعية الدنيا

والحال ، كان هذا الازدهار سريع العطب ، والطبقات الدنيا تتألم وتتضور . فغنى الطبقات الثرية يقوم على عمل ذوي الحرمان الذين لا حصر لهم ولا حد .

عرف الشرق ان يحافظ على هذه المشاغل والورش المهنية التي كانت تقوم في ظلال اليد العاملة الهياكل والمعابد ، وعلى من فيها من أيدي عاملة كادحة ، شبه مستعبدة . وعلى هذا سارت المدن فاجتفت بدورها ، بالمشاغل الصناعية واصحاب الحرف . ومعلوماتنا حول وضع هؤلاء العمال ، قليلة ، مُصرّدة ، لا تفي بالغرض . إلا أنه ، على الاجمال ، وضع لا يوحي بالرضى

ولا بالارتياح ، اذا ما اخذنا ببعض الظواهر العارضة . قد تكون المثل اليونانية القديمة التي اعتمدت بها النفوس فبعثت روح الثورة الاجتماعية ، بقيت تعمل في الازدهان وتختمر بها الارواح ، اذا ما كادت روما تبسط ، منذ عام ١٣٣ ق . م سيطرتها على اقطار آسيا الصغرى الغربية ، وترسخ نفوذها فيها ، حتى اضطرت لمواجهة ثورة هبت في وجهها بقيادة أرسطونيكوس قوامها هذه الطبقات الاجتماعية الدنيا في مملكة أقال القديمة . وبما لا ريب فيه قط ان مواسم القحط وارتفاع اسعار الحبوب ، في اواخر القرن الاول ، فعلت فعلتها في النفوس ، بالرغم من محاولات الحكام الاداريين للتخفيف من حدتها . فقامت في اواخر القرن الاول ، في هذه الاقطار الآسيوية إعتصابات أثارت شكوك الامبراطور تراجانوس وأهاجت حفيظته ضد الشعب في مدن مقاطعة بيشينيا *Bithynie* ، كما يبدو من مطالعة الرسائل المتبادلة بينه وبين صديقه بلين الاصغر ، حاكم تلك المقاطعة وممثل الامبراطور فيها .

وكان الأمر يتعلق ، في الدرجة الأولى ، بهذه النقابات المهنية المعروفة عندهم بـ *Colèges* ، وهي في الأساس هيئات دينية الهدف ، جنائزية . تألفت ، على الغالب ، من رفاق متواضعي الحال ، يتناهدون فيما بينهم بدفع رسوم معينة ، للاحتفال بمراسم بعض المبادات وتأمين جنازات محترمة لذويهم ، يدخل عضويتها ، بصورة طبيعية ، أصحاب المهنة أو الحرفة الواحدة ، بدافع من شعور التضامن والتكافل ، الذي يشدهم بعضاً الى بعض . وقد قام مثل هذه الهيئات أو النقابات في الشرق قديماً ، قبيل الفتح الروماني ، ونشأت مثيلات لها في روما ، خلال العهد الجمهوري ، وفي غيرها من حواضر البلاد الإيطالية . ولما كانت هذه الحركة النقابية أخذت تلعب دوراً شبيهاً بدور النوادي ، وأخذ اعضاؤها يشاركون بالمظاهرات السياسية ، راحت الامبراطورية ، في مطلع عهدها توجس شراً منها ، وتنتظر اليها بالتالي شذراً ، ولذا اشترطت عليها ان تأخذ علماً وخبراً بتأسيسها ، ووضعت لنشاطها حدوداً وسدوداً ، عرفت الشرطة البلدية ان تلتزمها بها فلا تتعداها . ولما تغير موقف السلطة من هذه الهيئات بعد ان أولتها رضاها في القرن الثاني ، أطلقت لها حرية العمل والاجتماع ، واعترفت بها رسمياً من الوجهتين القانونية والمالية . ومرد هذا التحول في موقف الحكومة من هذه الحركة النقابية ، انتشار الروح الانسانية والمبادئ التي تقول بها ، كما ان اعتبارات اقتصادية لعبت ، هي الأخرى ، دوراً فعالاً في هذا التطور . إذ راح أولو الأمر ، يتوقعون من هذه النقابة بعض الخدمات والقيام بدور حساس في تطوير الطبقات الدنيا من الوجهة الاجتماعية .

أما في الغرب ، فقد اخذ عقد هذه النقابات ينتظم مع مطلع العهد الامبراطوري ، فساعدت بما لها من نصراء يرعونها ، ومن مجالس ادارية تنتظم سلكها ، ومن أعياد تقيمها في بعض المواسم الخاصة ، في طلوع البورجوازية البلدية ، وتلقيح هذه الطبقة والمناطق الريفية بدم جديد . فاليد العاملة في المدن ، لم تكن أخذت تشكل بعد ، مشكلة اجتماعية في هذه المناطق ، وذلك نظراً لما كانت عليه التجارة والحرف المهنية والصناعية من ازدهار ، اذ كان كل شيء يتوقف على

استمرار مثل هذا الإزدهار، واستبدال الشغلة أو اليد العاملة التي لم تلبث ان برز شأنها في المجتمع.

أما وضع اليد العاملة في الريف فجاء على شكل آخر. فالملكية المقارئة اليد العاملة في الريف
الواسعة كانت دوماً آخذةً بالنمو والازدياد. وهنا تبرز لنا الكلمة
المأثورة التي جاءت على لسان بلين الأصغر، إذ قال: « كبار الملاكين، هم الذين جلبوا الدمار
لإيطاليا »، وهي عبارة يحسن تكلتها بالفقرة التالية: « وكذلك قل عن الولايات أيضاً، إذ ان
سنة لا غير من كبار الملاكين، كانوا يملكون نصف افريقيا (أي تونس اليوم)، عندما حكم
عليهم الامبراطور نيرون بالموت. أي ان نيرون صادر أملاكهم وضبطها، غير ان طريقة
استثمار هذه الأملاك الواسعة لم تتبدل، سواء أخضعت للامبراطور أو كانت ملكاً للخاصة.
والطريقة التي انتهجها نيرون في توزيع هذه الأراضي على الفلاحين، قطعاً صغيرة بعد ان
تم مسحها على أيدي مهندسين مساحين، جيء بهم من المدن، لم تخفف من تضخم هذه الملكية.
فأينما استمر الاختلاء بهذه الطريقة، كان استثمار الأراضي الصغيرة على أيدي اصحابها آخذاً
بالتدهور، قبيل طلوع النظام الامبراطوري، على البلاد.

واستثمار الأراضي بكاملها على يد فريق دائم من الارقاء يضاف اليهم عدد آخر من الاجراء
عند تمام المواسم ونضجها، يعملون جميعاً، جنباً الى جنب، تحت اشراف صاحب الارض المباشر
او وكيله، قل جداً بحيث. اصبح نادراً. ولم يكونوا يلجأون لمثل هذه الطريقة التي لم تكن
نتائجها مرضية إلا في هذا القسم من الارض الواقع على محاذة قصر رب الارض او على مقربة
منه، إذ يصبح الاشراف على عملية الاستثمار اذ ذاك، أسهل وأيسر، فيضحي ببعض المنافع
الاقتصادية. وكانوا يفضلون العبيد باعداد كبيرة كيد عاملة في المعامل والورش الصناعية القائمة
على مقربة من صروح الملاكين. اما الباقي من هذه الأملاك، فقد كان، على الغالب، يستثمر
مباشرة، من قبل صاحب الارض، او بالواسطة، عن طريق شركاء مرابحين، احياناً، لقاء
قسم من غلة الارض، يعود للمعمرين، الاجرار بالاسم، وان كانوا، بالفعل، خاضعين لارادة
صاحب الارض وهواه.

وهؤلاء العمال، احراراً كانوا ام عبيداً، اتسمت حياتهم بالبؤس والشقاء. ولدينا في هذا
الصدد معلومات دقيقة تتعلق على الاخص ببعض الاقطار. فقد قاست مصر، مثلاً من افراد
العبيد (*Anchorésis*) الذين كانوا يعملون في الأراضي الزراعية، ليختبثوا بين غياض
المنتقعات وأجوات الغدران الملتفة، في الوجه البحري (الدلتا) وهو امر شكت منه مصر،
في عهد البطالسة، واستفحل شأنه في القرن الثاني. وقطالغنا نقيشة عُثر عليها في افريقيا تحمل
نص عريضة دفعها المعمرون الى الامبراطور كومودو يتملكون فيها مما يرهقونهم به من اعباء
فيحملونهم اكثر مما يستطيعون ويسلطون عليهم الجيش لاجبارهم على دفع ما يترتب عليهم دفعه،
ويزجئون بهم في غياهب السجون مكبلين بالسلاسل الحديدية، ويقاصونهم بالجلد. ونطالع في رسائل
بلين الأصغر وصف الصعوبات والمشقات التي يلاقها الملاكون، إذ يرفض الفلاحون دفع المتأخرات

المستحقة عليهم . وإنشاء نظام الاعاشة في الارياف الايطالية وتوسيعه على مختلف الولايات فيها ، انما يدل بوضوح على أن صغار الملاكين الذين يعملون في اراضيهم واملاكهم يلاقون صعوبات جمة في تدبير امور معيشتهم . وقد جمع نظام الاعاشة هذا بين الاسعاف العام وبين التسليف الزراعي . فنذ عهد ترياينوس ، راح الامبراطور او بعض الخاصة من كبار الاثرياء ، يؤسسون شيئاً شبه ما يكون بالبنك الزراعي او مصرف تسليف ، برأس مال معين عند المباشرة بالعمل ، يستطيع معه المزارعون الاستلاف بفائدة ٥ ٪ بدلاً من ١٠ - ٢٠ ٪ كما هو المعتاد ، مبلغاً من المال ، لقضاء رهن ارضهم ، على ان تخصص هذه الفوائد في توزيعات شهرية ، الغرض منها مد يد المساعدة لأولاد الاسر الفقيرة . غني عن التنويه ان مثل هذا التدبير اقتصر على ايطاليا في الدرجة الاولى ، بعد المنافسة الشديدة التي لاقتها من الانتاج الزراعي في الولايات الاخرى المعروفة بخصب تربتها ، اذ كان انتاجها الزراعي آخذاً بالتدهور والانحطاط .

من الواضح ان العمل في الزراعة لم يكن ليكفل الغنى لصاحبه ، حتى في هذه المناطق التي لم نسمع يوماً ان ارتفع فيها اصوات شاكية او وقع فيها ما يثير الحفاظظ .

ومع ذلك نشاهد ان الشعور الانساني والانعطاف على المساكين والفقراء الشعور بالناطقة الانسانية اخذ يرقّ وينعم في المجتمع . والدليل على ذلك الاخذ بنظام الاعاشة ، وحركة العتق ، وتحرير الارقاء ، والاتساع الذي اتخذته ، على اساس من المباحة والدعاوة اكثر منه نتيجة تفكير سليم . ومع ذلك لم تخل هذه الحركة من تأثير طيب على حرية الفرد ، بالرغم من القيود القانونية والشرط التي قيدوا المعتوق بها بالنسبة لسيد القديم . ومن جهة اخرى نرى مجاميع التشريعات القضائية تأتي على ذكر نصوص كثيرة هي في صالح الارقاء والمعتوقين .

سار هذا التطور سيرته الاولى ، وثيداً في بادىء الامر . فقد استند أولو الامر ، في عهد نيرون ، على قانون قديم ، كما استنجدوا بالجيش ، لسوق فريق من العبيد ، بلغ عددهم ٤٠٠ رقيق ، كانوا تابعين لاحد اعضاء مجلس الشيوخ عُثر عليه مقتولاً ، وذلك بالرغم من احتجاج سكان روما ، بحجة انه كان عليهم ان يسهروا على سلامة سيدهم . وقد أخضعوا للتعذيب والتنكيل ، في عهد ترياينوس ، كل العبيد التابعين لاحد سُرّة القوم وجد مقتولاً ، وذلك لمهلهم على الإقرار والاعتراف بكل ما يعرفونه حول قضية مقتل هذا الرجل . وفي عهد خلفه على كرسي الحكم ، اقتُصر في عملية استجواب الشهود ، على من كان منهم على مقربة من مكان الجريمة . فالتعديلات التي أدخلت على التشريع القديم الذي كان يعترف لصاحب العبد بحق الموت والحياة ، لم تظهر إلا في القرن الاول ، ثم اخذت بالاتساع والانتشار ، منذ عهد هدرينوس ، اذ اصدر امراً حظر معه على مالكي الارقاء واصحابهم ، بيع أية أمة ما للمتجرين بالنخاسة او القوادين ، او بيع رقيق لأي من المتعدين حفلات المصارعة والمصارعين ، او باجراء عملية خصاء له ، او بالحكم عليه باسم ما كان يتمتع به سيد العبد من الحقوق المنزلية ، دون الرجوع في امره الي القضاء . وأوردت مدونة يوستينيانوس (*Digeste*) أكثر من ٧٠ نصاً او مرجعاً ، صدرت كلها في القرن الثاني ،

توصي بالدفاع عن الرقيق العامل في بيت صاحبه . والنزعة الواضحة التي تبرز ، أكثر فأكثر ، فيما بعد ، هي الاعتراف بشخصية الرقيق الفردية . وهنالك نصوص أخرى يجب وضعها بازاء النصوص التي أثرتنا إليها أعلاه ، تنقف الى جانب الحرية والعرق في الحوادث التي يشته فيها بوضع فرد ما : عبداً كان ام حراً . فالحرية والعرق هما من حق ابن ، نعمت امه بحريتها ، ولو ليوم واحد ، خلال حبسها به . ونشاهد ، في الوقت ذاته ، تطوراً يلحق وضع العتقاء ، اذ يحظر على كل منتفع من هبة او من وصية إرث ، من بين شروط تنفيذها العتق ، استعمال أساليب ملتوية للتهرب من الواجبات المترتبة عليه ، والاعتراف بصورة سريعة للمعتوق بالحقوق التي من حق الانسان الحر ان يتمتع بها *Natalium Restitutio* ، وفقاً للامتياز الذي طالما جاد به الامبراطور ، بعد عهد مارك اوريل .

وهذا التشريع الجديد لا يمكن فصله بالطبع عن هذه التدابير والاجراءات القانونية التي طالما اعتمدوا عليها ، فيما بعد ، وكان الغرض منها الحد من سلطة الاب الشرعية على زوجته واولاده ، او من سلطة الوصي الشرعي على الارملة واليتيم . ومنذ عهد مبكر ، لم يعد للأب الحق بأن يفرض على ابنته زوجاً لا ترغب فيه ، او لا ترضى عنه . فحوادث المقاومة لزيجات مبكرة تفرض على الاناث ، يجب اعتبارها خطوة لها معناها الرمزي عند الاخذ بهذا القانون والعمل بموجبه ، بالرغم من ندرة وقوعها . كذلك ، نرى الاب ، في القرن الثاني ، يجرّد من الحق الذي كان معترفاً له به ، نظرياً وعلياً ، بإلغاء زواج ابنه . وهنالك امثلة وشواهد عديدة يمكن الاثبات بها ، تكفي وحدها ، اذا ما ضمت الى زوال هذه الزيجات ، وفقاً للاعراف والتقاليد القديمة ، اذ كان للزوج فيها كل حق على زوجته واولاده ، لنتبين كيف تم القضاء على حقوق السلطة الوالدية *Patria Potestas* . فقد تطور هذا الحق في مفهومه ومدلوله ، واخذ أكثر فأكثر ، بعين الاعتبار ، قيمة الشخصية الانسانية .

ان وفرة هذه النصوص التشريعية والتوافق الكبير الذي نراه بينها ، تُعبّر مجتمعة ، عن تطور عميق لحق بالاخلاق والعادات المرعية ، اذ ذاك . فبدلاً من ان تحاول هذه النصوص والاحكام التي تنطق بها ، خلق عادات جديدة ، نزاها تقتصر ، بالاحرى ، على تكريس العادات والاعراف التي في السير عليها والاخذ بها ترسيخ لها بين الناس ، والتي كانت مخالفتها تثير الشكوك وتوجب ملاخفة المخالفين لانزال ما يستحقون من عقاب . فليس بغريب ، بعد هذا ، ان يعيش الرقيق والعتقاء . في روما ، منذ زمن بعيد ، وفي عهد الامبراطوية المتأخر ، على اختلاط مع الاحرار من سكانها ومعايشتهم . فهل من عجب ، بعد هذا ، ان تتقارب الاوضاع نصاً وروحاً ، بعد ان تشابهت بالفعل ! ففي الطبقة الاجتماعية العليا في روما ، حيث يتكاثر عدد العبيد والارقاء الشرقيون ، اخذ تأثير الاخلاق والافكار اليونانية التي عرفت بقلّة تصلبها وبانعطافها الانساني ، يتغلغل بين التقاليد الرومانية ، وينتشر بينها أفقياً وعمودياً . فقد لاقت الفلسفة الرواقية ، على الاخص رواجاً عظيماً بين سرة القوم من الرومان بحيث جعلت الفيلسوف سنيكا يتساءل بحق

قائلا : « أعبيد هؤلاء الرجال ؟ ، لا لعمرى ، انهم بشر - أعبيد هم ؟ - لا بل عسراء لنا وندامى ، ورفاق الحياة - أعبيد هم ؟ - لا بل اصدقاء جيمون ، أعبيد هم ؟ - لا ، بل إخوة لنا يرسفون في قيود العبودية اذا عرّفت ان الأقدار لها عليك كما عليهم ، مثل هذا السلطان . صحيح ان سنيكام يأخذ هو نفسه بتطبيق فلسفة الرواقين بصورة عملية ، لا بوصفه فرداً من أفراد المجتمع الروماني يهتم بإدارة ورعاية ثروة طائلة ، همه الوحيد أن ينميها وان يزيدها ، ولا بوصفه من رجال بطانة الامبراطور وحاشيته ، مهذباً لنيرون ومستشاراً له ، وكان على اتصال مباشر بهذه المؤامرات التي حيكت خيوطها ، وهدرت ما هدرت من دماء مطلولة ، كما اتصل عن كثب بالإدارة الحكومية . ومن كتاباته الفلسفية نرى جيداً ، كيف أن أغنياء الرومان ، رموا ، هم أنفسهم ، الحجر الأول ، ووجهوا الضربة الاولى لهذا الحصن الذي أقاموه من قضاظتهم الخلقية ، وما لبثوا ان انفتحوا لهذا التعاطف الانساني الخيّر ، والحذب على الفقراء والبائسين . فتطور هذه الأفكار التقدمية الذي اقتصر في بادىء الأمر على مجالات الفكر ، لم يلبث ان أدخل الى القانون الروماني القديم ، قانوناً « طبيعياً » يحمل الناس كلهم سواءاً ومتساوين .

مهما برزت مظاهر هذا التعاطف الانساني ، وتكاثرت الشواهد على
 حدود هذه النزعة الانسانية
 تجلي هذه المشاعر الرقيقة التي ألانت الأخلاق ولطّنت من حدة
 وقبردها
 القوانين الرومانية ، فلم يتجمع هذا كله في ثورة اجتماعية عارمة .

ولا يحسن بنا قط أن نتخذ من هذه الظواهر دليلاً على التحسس بالخوف ، فأوحى هذا الشعور بمثل هذه التنازلات : فلم نرَ فرداً واحداً بين كبار الملاكين وصغارهم ، رأى في هذه الظاهرة نذير خطر مدام . فاذا ما راح أحدهم يلبي لأسباب دينوية ، نداء عاطفة انسانية نحو الطبقة الفقيرة الكادحة ، فلم يبدُ لأحد منهم ، من قريب أو بعيد ، احتمال قيام ثورة في هذا المجال . إن اطلاع المؤرخين المحدثين على حوادث لاحقة لهذا العهد ، خلهم على الظن بأحقاد تتجمع وضاغائن تتكدس . إلا اننا ، من جهتنا ، لم نرَ سوى شكاوى وتذمرات وتقليلات لم تتبلور يوماً عن كلمة سر أو صرخة استنفار تدعو للثورة . فالفلاسفة المرشدون الذين عُرفوا ، في الشرق ، بدعوتهم للثورة ، كالفلاسفة الكليبيين مثلاً (*Cyniques*) لم يخطر في بالهم قط إهانة الجماهير وإثارتها ، بل على غكس ذلك تماماً ، دعوا لرذل الفنى واحتقاره . وعلى هذا الحال سارت الديانات الشرقية ومن بينها المسيحية الناشئة التي لم ترَ محلاً ولا زمناً تتم فيه المساواة إلا في الحياة الاخرى الباقية . وتناقص عدد العبيد والأرقاء جعل بدوره حروب الاسترقاق أثراً بعد عين . فالنظام الاجتماعي القائم ، هو في نظر المعاصرين جميعهم ، وباتفاق الرأي ، نظام قوي متين ، راسخ .

وهذا النظام ، عرف أن يقيم له مراكز دفاع تحسن صد العدوان ، والصمود في وجه المهاجمين . فليس في النظام الامبراطوري نفسه أي مغمز ضعف أو ممكن وهن . فالإدارة المركزية التي كانت تراقب بعين يقظة ، وعن كثب ، الهيئات البورجوازية القائمة في المدن ، لم تكن لتتهاون معها في التخفيف من شكيبتها على الشرطة . والعقوبات القانونية ، هذا السيف المصلّت فوق

الرؤوس ، بقيت على شدتها ولم تتخفف بشيء . صحيح ان الحُرَج الديني كان يوجب الحكم بالموت على مَنْ من كاهنات الفستال *Vestales* تعبت بنذر العفة أو تحدثها نفسها بالتحلل منه . ففي عهد دوميتيانوس مثلاً ، صدر الأمر بوأد رئيسة كاهنات الفستال حيةً لعُبتها بنذر العفة ، كما أن شريكها في هذه الفعلة النكراء ، وهو من مصاف الشفاليه ، لقي من الضرب الشديد والجُلْد العنيف ما قضى معه في العذاب . أما في ما يختص بالحق العام ، فالأحكام التي يصدرها لم تفقد شيئاً من قسوتها ولا فظاظتها ، بالرغم من المراحل التي قطعها الشعور الانساني . فالامبراطور هو نفسه بحاجة ماسة « لمن يحكم عليهم بالاشغال الشاقة في المناجم » ، فلا يستثنى منها إلا من عنده الدليل القاطع ، على انه يعاني من مرض عضال مزمن ، تنفيذاً منه لواجب يترتب عليه في الدرجة الاولى . وجاهير الشعب هي الاخرى بحاجة ماسة للمحكوم عليهم بالموت ، وتنفيذاً لهذه الاحكام ، تعرض اجسامهم للوحوش المفترسة فتتناهشها وتنهبها نهباً ، او بتعليقهم على الصليب إمعاناً في تحقيرهم واذلالهم ، أو يجلدون وتعذيبهم ، أو يحرقونهم أحياء أحياناً ، كما حدث لبعض المسيحيين الذين استشهدوا في روما اثناء الاضطهاد الذي رماهم به نيرون ؛ كل هذا ألوان من التنكيل تزيد في حماسة النظارة والمشاهدين الذين يتلذذون برأى هذه المظاهر الوحشية . وقام سنيكا يشجب بشدة بروقنصلاً عاملاً لروما على إحدى الولايات في آسيا ، لقتله ، دفعة واحدة ، ٣٠٠ من فجّاج الآفاق وقطّاع الطرق . ونرى موظفين في بعض المدن يبحثون جادين عن محكومين بالاعدام ، وعندما تعييهم الحيلة يلتمسون من مدن مجاورة لهم تزويدها بشيء من هذا .

فاذا ما رأينا ، من حين الى آخر ، بعض الملطّفات تُؤخذ في هذا المجال ، فليس بالطبع ، في مصلحة منكودي الحظ تبدل . فمراعاة المراتب الاجتماعية لها مقتضياتها ومستلزماتها ، وهي اعتبارات يشد التمسك بها ، لما يقوم بين هذه المراتب الطبقية من تضامن ووشائج تشدها بعضاً الى بعض . فأعضاء منظمي الشيوخ والشفاليه يحملون شارات مميزة ويُعرفون بألقاب شرفية وكنى فخرية . وتخطو الخطوة خطوة أخرى الى الامام ، في عهد الأسرة الانطونية . فالاشراف والاعيان يُستثنون ، من حيث المبدأ ، من التعذيب والتنكيل ، ومن الحكم بتعريضهم للحيوانات الضارية . ومنذ هذا العهد فصاعداً ، اخذ التشريع الروماني ، ببطء ، في بدء الأمر ، ثم بسرعة ، فيما بعد ، يميز بين الاحكام الواحدة ، من حيث شدتها او خفتها ، وفقاً للطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها المحكوم عليه ، فتشتد وتقسو ، ان كان من الطبقات الدنيا او السفلى *Humiliores* ، وتلطّف وتُخفّف ، ان كان من الطبقات المحترمة *Honestiores* . وهذه النعوت ، بما بينها من مفارقات ، تنتقل بدورها الى المعجم الرسمي . فهي تميز من جهرة الشعب ، هؤلاء الذين تجمع بينهم روابط شتى : كالمضوية في المنظمات ذات الامتياز ، او الهياكل البورجوازية في المدن .

من المعبت ان نحاول هنا التخفيف من حدة التضاد العنيف القائم بين هذه النزعة التي ترغب في ان تبرز على هذا الشكل ، والنزعة الاخرى التي لمسنا محاولاتها للتخفيف من حدة القوانين المتداولة ، في سبيل حماية الضعيف والدفاع عنه . . وهذه النزعات والميول كانت تعكس ، ولا

شك ، نظريات متضاربة ، متباينة : ادبية اخلاقية ، هنا ، سياسية هنالك . ويكفي ان تبين هنا انها ازدادتا شدة وقوة ، من كلا الجانبين ، لنسجل ان المعاصرين نظروا اليها نظرهم الى أشياء تكيلية .

٤ - الازمة الطالعة واسبابها القريبة

وهكذا نرانا ، من جديد ، وجهاً لوجه ، مع المشكلة الكبرى التي تثيرها المدنية الرومانية في عهد الامبراطورية المتأخر ، من الوجهة المادية ، وهي كيف ان هذا النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي بلغ ، ان لم نقل الكمال ، فأقله جانباً كبيراً منه ، عاد فظهرت عليه ، منذ اواسط القرن الثاني ، امارات الضعف والوهن .

بعبارة تستبد بالفكر لمعها ودقتها لانها تصدم دونما عنف ، هذه الأوهام
حضارة ذات طابع
مديني مفرق
التي وجدت طريقاً سهلاً الى الازدهار ، هي هذه التي تقوه بها انطوان البرتيني ، بعد ان أبى عليه علمه الا ان يرى في العالم الذي سيطرت عليه الأسرة الانطونية ، شيئاً آخر « أقل سوءاً بين هذه العوالم التي عرفها التاريخ قديماً » . وقد بنى حكمه بعد ان رأى بثاقب نظره ، الوضع الخطير المائل في هذه الازمات الاقتصادية المتكررة ، وما ألحقته مراراً ، في الطبقات الاجتماعية العليا ، في مناطق كثيرة تابعة للامبراطورية الرومانية ، من اوصاب وما جشمتها من مشاق . وهي حقيقة تبرز صحتها لكل عين باصرة . وليس من الغلو في الجرأة بشيء ، ان نبحث عن سبب آخر ، أعم واعمق لهذا الوضع ، وان نجد ، كما نعتقد ، في فقدان الانسجام بين البناء السياسي والحياة الاجتماعية لهذا العالم الروماني ، وبين الاوضاع الاقتصادية التي استبدت بها وهيمنت عليها .

فالنظام الجديد - وهذا هو دوره - فكثر ، قبل كل شيء ، بتأمين المقتضيات السياسية والادارية التي يستلزمها العهد . فقد شجع وناصر هذا التطور الذي تمناه والذي جاء معظمه عفواً ، واوجد روابط وثيقة بين الدولة وبين الحضارة التي ساهم في بنائها وتشبيدها ، متنكباً تارة ، عن العنف المنهجي ، ومتجافياً طوراً ، عن وسائل الضغط ، مقتصراً في اغلب الأحيان ، على توفير اسباب الاغراء ووسائله ، وعلى توزيع المكافآت بالتقتير . وهي دولة لقي العهد العنت في إقامتها وتنظيمها لفرط حاجتها للموظفين الكفاء ، وحضارة اتاحت لها النجاحات الجغرافية والبشرية التي حققتها ان تخفف كثيراً ، من وطأة هذه الحاجة بعينها ، فلم يطلع عليها من المثل غير التي تبينها الشرق الهليني من قبل بكثير ، والجمهورية الرومانية نفسها ، التي لا تزال نصب اعين الطبقات المتطورة . وهذا الترابط او المشاركة التي رُغِب فيها والتي لقيت قبولا لدى كل هؤلاء الذين دعاهم العهد للتعاون معه ، ليس من احد ينكر النجاحات الباهرة التي اصابتها ، ولا عظمة الإنجازات التي استطاعت تحقيقها ، فكانت موضوع اعجاب الجميع ودهشتهم .

ولكن ، هل كانت هذه الحضارة ضخمة ، واسعة ؟ فقد تجاوزت في محاباتها وتغرضها ،

واخذها بالوجوه ، حد المنطق ، اذ قصرت عنايتها واهتمامها على المدينة دون سواها ، وحرصت على تأمين وسائل التطور والتألق لها ، لتبرز زاهية ، مشرقة على حساب غيرها .

فانشاء المدن الجديدة في جميع ارجاء الامبراطورية ، والازدهار العجيب الذي عرفته هذه المجتمعات المدنية ، وإلباسها هذه الحلل القشبية من انواع الزخرف والنقش والتحلية ، بدا ، في نظر الجميع ، اكمل تعبير لهذه الحضارة واجمل صورة لها . والنخبة التي بيدها مقاليد الامور ، وهي بمعظمها من المدينة ، أصلاً ومنشأً ، كانت تنبه فخراً بهذا كله ، فلم يبق ما يدعو خيال الامبراطور وبخيلته للتفتق والخروج بشيء اكمل وأمثل ، اذ كان يحد في هذه المدن الادارات الثانوية التي تخفف عنه اعباء المسؤوليات التي يضطلع بها ، والاداريين الذين ينبرون لخدمته بعد ان يتمرسوا بالاعمال الادارية ويبرهنوا عن شديد ولائهم له . فبعد ان اهل هؤلاء الاباطرة ، عن سابق قصد وتصميم ، امور الريف وشؤون الولايات ، امعنوا في هدر مصالحتها في سبيل مصالح المدن التي اخذ عددها يتكاثر وينمو باطراد ، وافرطوا في تجميلها وتزيينها . فقام فيها من المباني الفخمة والصروح الجميلة الضخمة اكثر مما يجب ان يقوم ، وعقدوا فيها من الاعياد والحفلات واسباب اللهو ، اكثر من المألوف ، وأنفقوا عليها جزافاً ، بصورة تقرب من الجنون ، وبدون طائل ، ما انهمك خزانة الدولة فأرزحها ، وجمعوا لها من الحيوانات والسباع والرجال ، ما لا يقع تحت حصر ولا عد . وبعد ان اخذت هذه الحضارة بألقى هذا الغنى والدعة التي عرف العهد ان يؤمنها لها ، شأن غرّاً أخذ بثروة هبطت عليه بغير توقع منه ولا انتظار ، فلم تستطع العيش ، فكسبت بها الحياة بعد أن أعجزها . توفير مثل هذا الفياء العظيم الذي تم لها من قبل ، الا في ارتهان الحاضر ، وارتهان ما هو ادعى للخطر : ارتهان المستقبل .

ولكي تتمكن الامبراطورية من السير على هذا المنوال كان لابد لها سنوياً من تأمين حاجاتها محصول طيب من المواد الغذائية ومن الخامات الأخرى التي لا غنى لها عنها ، وان تؤمن المزيد منها ، منذ الآن على ان تضاعف هذا الانتاج فيما بعد ، بحيث يكفي كل مطلب طارئ . ولكن لم يحدث شيء من هذا في سبيل تحقيق هذين الشرطين .

فأدوات العمل وعدته لم يدخل عليها أي تحسين يذكر ، واصحاب رؤوس الاموال المتوفرة ، لم يحاولوا يوماً توجيهها في الصدد القومي والصراط المستقيم ، فأنفقوها في وجوه لا تجدي فتىلاً ، كما انهم أهملوا الافادة مما عرض لهم من عبقریات خلاقة ونوابغ مبدعين ، فواكبوا الحركة العلمية التي نشطت اذ ذاك وساروا في ركبها . هنالك مدنات عديدة قامت في التاريخ قديماً ، تكتسفت عن مثل هذا النقص القادح ، وعن مثل هذه الحاجات . غير ان التفوق الذي بلغته الحضارة الرومانية في ما قم لها من الوسائل المادية والذرائع العلمية ، جعلها وجهاً لوجه امام مسؤوليات أكبر وأخطر .

وهكذا ، فأمام عدم كفاء العدة ، وقصور الوسائل اللازمة ، رأينا الانتاج مرتبطاً الى حد بعيد ، باليد العاملة . ومهما كان من الغرور في ان يحاول المرء تكوين رأي له حول هذا الموضوع ،

عليه ان يعتمد على انطباعات محتملة التصديق بعد ان فاقت الاحصاءات العملية الدقيقة . والحال ، فاذا لم يكن من شك قط بأن سكان الامبراطورية زاد عددهم ، على العموم ، فليس من شك قط ايضاً ، في ان هذه الزيادة جاءت متفاوتة غير متعادلة ، بين الولايات المختلفة التي تألفت منها الامبراطورية ، وذلك باختلاف النشاطات التي تجلت فيها . فولاية غاليا ، كما يبدو ، أفادت أكثر من أية ولاية أخرى . هنالك عدد من المؤرخين يعزون اعتباطاً ، الى جميع ولايات الامبراطورية ما يجب إقصاره على ولاية غاليا وحدها . فالمدن ، اينما كانت ، هي التي استفادت بالأكثر من هذا التطور ، الأمر الذي أفصى الى المزيد من الاستهلاك . ومهما يكن ، فلم نر في أي محل كانت ، اليد العاملة في الزراعة او في صناعة التعدين ، مع انها عماد الانتاج في البلاد وعليها يتوقف تأمين مثل هذا المحصول الاساسي ، تسجل أي زيادة يمكن مقارنتها بالزيادة التي سجلها نحو عدد السكان في المدن .

ومن الثابت ايضاً ان عدد السكان تناقص ، هنا او هنالك ، في بعض الولايات . فالوضع الذي أحاط بالسكان لم يسؤ ، وقد يكون سجل ، مع ذلك ، بعض التحسن . ولكن عند معارضة هذا الوضع بالوضع الذي كان ينعم به سكان المدن ويتحملون هم ، أي سكان الارياف كل أعبائه ، فكيف لا يجدون وضعهم أثقل من قبل ؟ ومن هنا هذا التبطل ، وهذه التشنجات ، وهذا اليأس ، وحوادث الفرار المتكاثرة ، وهرب العمال المتزايد في مصر *Anachoréseis* الذي كان نذيراً بتأزم الوضع . اضع الى ذلك تناقص عدد العبيد والأرقاء . فحوادث العتق بالجملة جعلت عددهم ينخفض باستمرار . صحيح ان حركة العتق هذه أفادت كثيراً هذا الفريق العامل منهم في المنازل ، او الفريق الآخر الذي يتعاطى ، في المدن ، الحرف والمهن الصغيرة ، او يعملون مع مولايم فيهبهم العتق والحرية على حسابهم الخاص ، لقاء رسم يدفعونه له كل يوم ، ويحتفظون بالفائض لحسابهم ، وهي عادة جرى عليها القوم في اليونان ، قديماً . ولكن هذه النخبة من الارقاء كان يؤتى بها من الرق ، احدى نتائج الحروب ، الأمر الذي كان يوجب بقاء هذا المعين الأكبر للعبيد على معدل عالٍ . فاذا ما كان اسياذ العبيد واصحابهم ، عملاً منهم بالروح الانسانية ، او طمعاً في زيادة دخلهم عن طريق منحهم بعض الاعفاءات ، قبلوا بسخاء أكبر من الماضي ، قيام اتحادات لهؤلاء الارقاء ، فالمواليد بقيت نسبياً ، قليلة لأن الاشغال الكبرى التي كانت تستهلك العبيد وتستنفزهم ، لم تكن لتأخذ سوى الذكور منهم . ولعل ما هو افطع من ذلك ، هؤلاء المواليد الجدد من العبيد الذين يرضى مولى امهاتهم باعالتهم وإعاشتهم الى ان يبلغوا سن المراهقة . فلم نر مدنية واحدة من بين المدنيات القديمة ، رضيت بأن تضارب بتربية العبيد ، وذلك بالنظر لما يجنبه هذا النوع من التجارة من خطر . ومن جهة أخرى كانت اسواق الرق اقل ازدهاراً في هذا العهد منها في الماضي ، كما ان مادتها كانت تتجدد اليوم بصعوبة أكثر من الماضي ، وذلك بعد ان قلت الحروب وانقطع عن هذه الاسواق ، سيل هذه القطعان البشرية التي كانت تباع في اسواق النخاسة بيع السائمة . ومن جهة أخرى ، فاتساع حدود الامبراطورية جعل شراء العبيد أكثر صعوبة بعد ان راحت الامبراطورية تجاور شعوباً لا ترضى ببيع رجالها بيع النعاج .

واخيراً وليس آخراً ، فمعارك المصارعين ، ومصارعة الوحوش جاءت هي الأخرى ، ضغطاً على أبالة ، وثالثة الأثافي فتحصد صفوفها ، فتنتقص من عددهم ، وتستنزف دماهم في هذه المعارك الوحشية ، فأحدث هذا كله رد فعل سيء جداً . كل هذه الأسباب جعلت المورد الرئيسي الذي اعتمد عليه الرومان لتوفير ما هم بحاجة اليه من اليد العاملة يحفّ ، وينقطع بالتالي معينه . فإذا كان عدد اليد العاملة الحشنة ، لم يطرأ عليها أي نقص من حيث قيمتها المطلقة ، فقد سجلت ، مع ذلك نقصاً لا يستهان به من حيث قيمتها النسبية ، مع انه كان من المتوقع ان تزداد ، قيمة وعدداً ، بحيث تستطيع مواجهة الطلب وتلبية حاجات المدن والجيش معاً .

وهذه المدنية الرومانية المغرقة في حركتها الحضارية والتمدنية معاً والتي خطر الأزمة
ارادى مداخلات الدولة
انحصر كل هم السلطة في الدفاع عنها والعمل على بسطها ونشرها ، لم تهتم
هي ، الإهتمام الكافي ، بتأمين حاجاتها من الانتاج . فكانت النتائج ما لا
بد ان تكون ، وجاءت على الشكل الذي لا يمكن ان يكون سواء . فالاستقرار الغذائي ، في
اكثر من ولاية ، بقي تحت رحمة موسم رديء ، او مرتبطاً بعدم انتظام وسائل النقل في ارجاء
الامبراطورية . فإذا ما أضفنا الى الجهود التي كان لا بد للدولة من بذلها لمواجهة حرب تطل عليها
من الخارج ، والحرب الذي ينتج عن غزو طارئ او عن كارثة طبيعية ، مهما كانت محدودة ،
تبيّن الاضطراب الذي يلم بالبلاد ، والمدة الطويلة التي يقتضيها ليعود الاستقرار الى نصابه . فإذا
ما تضافرت كل هذه العوامل والمسيبات واتفق حدوثها معاً في آن واحد ، رأت البلاد نفسها
امام أزمة تهزها من الاركان .

فبعد ان كانت هذه الأزمة في الاساس أزمة انتاج ومواصلات ، كان من المتوقع لها ان
تستفحل ويتسع نطاقها بحيث تهدد بالخطر ، اكثر ما تهدد المدن الكبرى ، أي ، نقطة الثقل في
النظام الاجتماعي والاداري في الامبراطورية . وقبل ان يستفحل أمر هذه الأزمة كان الوضع الحرج
الذي تتخبط فيه المدن يبدو قائماً ، مقلقاً من خلال هذه الاعراض والمظاهر الخارجية التي تطبع
نمط الحياة فيها ، والتي يجب ردها الى هذا الغلو في الترف ، وهذا الاسراف والاملاق المتجاوز لحدود
العقل ، في البذخ والزهو ، الأمر الذي ارهق الطبقة الثرية في هذه المدن وارزحها . وقد رأينا كيف ان
بعض هذه المدن اخذ يعاني شديداً من الضيق المالي الذي اطبق على خناقها . كذلك رأينا كيف ان
هذه القصور التي كانت محل دعة واستحجام لسيد الأرض ، اخذت تصبح تدريجياً ، عالماً صغيراً
بإستطاعته ان يكفي نفسه بنفسه ، بفضل ما له من انتاج زراعي كاف ، وبفضل هذا الدخل
الطيب الذي تؤمنه له معامل وورش النسيج ، ومصانع الحديد القائمة على مقربة منه . واخذ
الاغنياء بهجر المدن الى الريف ليتفرغوا ، اكثر فاكثراً ، لاملأهم ويمنوا باستغلالها ، متفادين
بذلك مضايقات الجماهير التي اخذت تضايقهم بتبرعات شخصية . فامام هذه الحركة العفوية
الاقتصادية اللامركزية ، اخذت الصناعة والتجارة في المدن تفقد قسماً من زبائنها من سكان
الريف ، كما انها كثيراً ما وجدت نفسها امام منافسة شديدة مع الفيلات التي بعد ان كانت ،

مدة طويلة ، عيالا على المدن ، أصبحت اليوم مزاحمة لها . فاذا ما بدت هذه الاعراض وبرزت للعيان في اوقات الرفاه والطمأنينة ، منذ اواسط القرن الثالث ، فمأسى ان يكون الوضع ، والحالة هذه ، عندما تتمتع قضية تموين المدن وتصبح مشكلة خطيرة بعد ان تتمتع حركة المقايضات التجارية ، الامر الذي يحدد بانقطاع الثروة عنها ويساعد تدريجياً ، على تقلص الثروات الخاصة فيها ، كما يحدد بنضوب صندوق المدينة ، فتقف بذلك حركة العمران ، وتندم أسباب الترقى والتطور ، ويحال دون انتقال ، او بالاحرى ، دون استحالة الطبقة الكادحة ، الى الطبقة البورجوازية ، وانتقال هذه الاخيرة الى طبقة النبلاء والاشراف في الدولة .

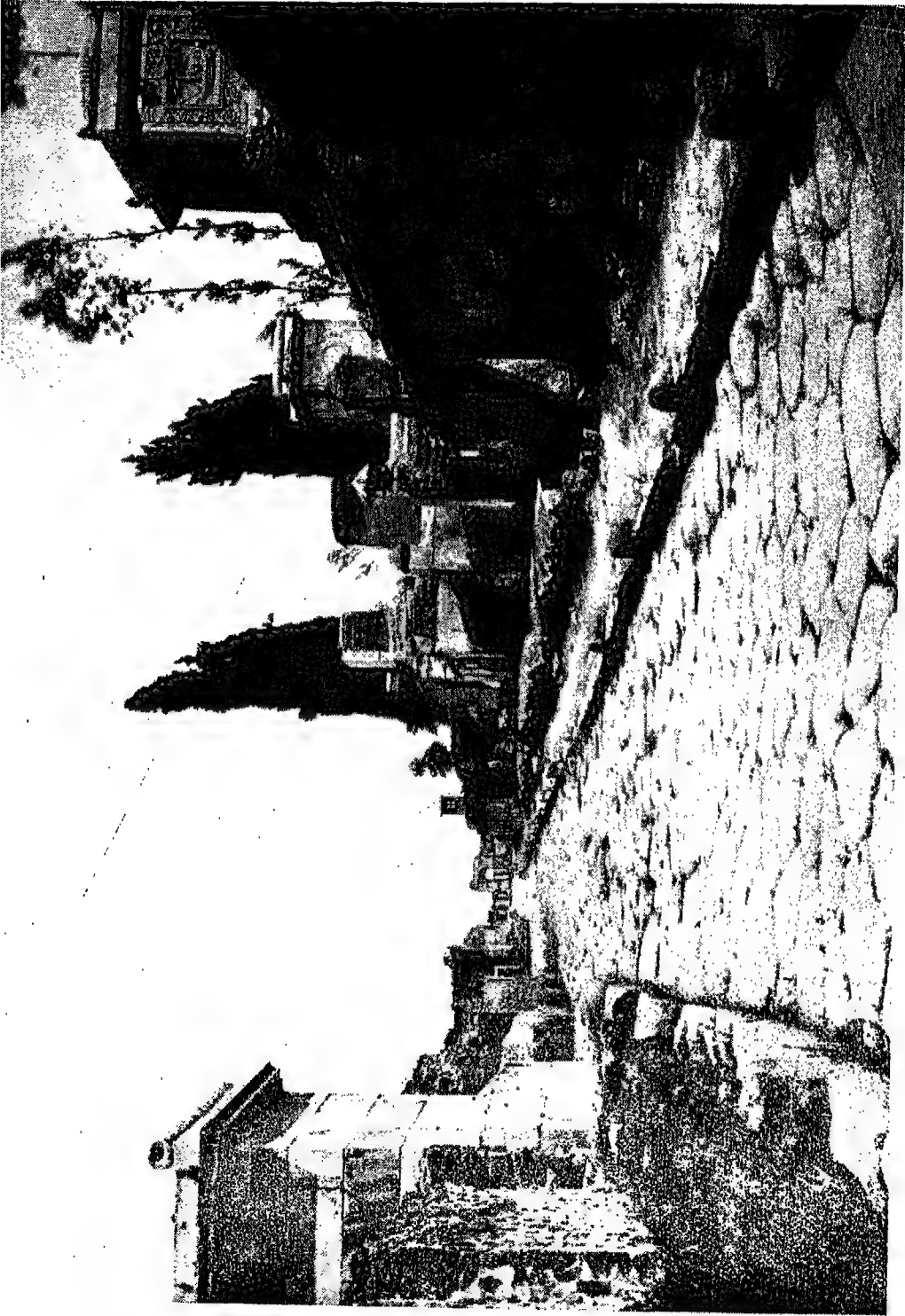
يشك المؤرخ في ما اذا كان الاباطرة الرومان تحسّسوا بمثل هذه المخاطر التي كانت تتهدد الامبراطورية في الصميم . فلم يسبق لهم ان خبروا او ترقّسوا بمثل هذه الازمات . وهب ان تمت لهم مثل هذه التجربة ، لكانوا أبوا ان يُذعنوا للواقع ويسلموا ، انهم ورعايهم ، أولوا بعض مظاهر الحياة في المدينة ، من العناية والاهتمام ، أكثر مما يجب : فهل في مقدور حضارة ما ، ان تقرّ وتعترف بأذى او بعدم ملائمة المثل التي راودتها فتمثلتها ؟ وهكذا ما كادت تصدمهم المصاعب الاولى حتى راحوا ، بشجاعة واقدام ، يعالجون الوضع ، بوسائل تجريبية ، خلوا من كل خطة ومنهجية ، محذوم الرغبة الصادقة لمعالجة وضع لم تقتهم نتائجه الخطيرة ، دون ان يتمكنوا من النفاذ الى اسبابه الحقيقية وتحليلها . فاذا ما كانوا اقوياء او ظنوا انهم أقوى بكثير ، بالنظر لما هم عليه من وهم او جهل ، راحوا يعتقدون ان ليس من صعوبات تعترض سير الدولة يستعصي حلها ، او لا يمكنهم التغلب عليها ، وذلك لأنهم لم يلاقوا ، حتى الآن ، سوى احداث بسيطة ، نافهة للغاية ، وبالأكثر ، ازمات محلية لا تذكر . فالتدابير التي تسلحوا بها لا تشير بشيء الى الاتجاه الذي سيفطر ضغط الحوادث ، خلفاءهم ، لاتخاذها عندما يجحدون انفسهم ، وجهاً لوجه ، امام أزمة عامة كاسحة : اهو التدخل المباشر او الشدة والعنف ؟

فالمبادئ التي تقوم عليها العاطفة الانسانية لا تكذب القول القائل : عندما تنصرف الدولة للتمكين للاخلاق والترسيخ لها ، تصبح بذلك حامية للمستضعفين ، وهو شيء لا يصعب علينا اليوم رده للزعة التي تدعو للتدخل . وستحتفظ الدولة بهذا الدور تلعبه الى نهاية التاريخ القديم ، مضيئة اليه ، ما لم تأخذ به من قبل ، الا وهو الشدة او الضغط ، وذلك حفاظاً منها على سلامة الواقعين تحت رعايتها ، اذا لم يدفعهم تحسن وضعهم القانوني للانصراف له .

فالقوانين والتشريعات التي سنّها هدريانوس بشأن الاراضي الموات ، واستثمار المناجم ، عنتت ، في الدرجة الاولى ، صغار الناس ، وذوي الحال المتواضع . غير ان ما اتسمت به من إرهاب ووقفها الى جانب القانون المعمول به ، يدل بأن الدولة كانت على استعداد لبذل كل شيء في سبيل المحافظة على الانتاج . كذلك ، فاذا كانت المنافع التي نالتها النقابات المهنية ارضت ، على السواء ، العمال ومتمهدي الاشغال في المدن ، فقد اخذت الدولة تفرض عليها رسوماً جماعية ألحقت الضرر

بالمنظمات البورجوازية في المدن وأصابتها في صميم حرياتها الاقتصادية ، كما اخذت من جهة ثانية ، تشدد على النبلاء والأشراف وتجبرهم على قبول الوظائف البلدية غصباً عنهم ، ولم يتورعوا من تجريدكم من حق ادارة شؤونهم المالية المحلية . إلا ان الامتيازات الجديدة ، من فخرية وقضائية ، التي أسندت الى الطبقات « الارفع منزلة » جاءت تعوض ، بعض الشيء ، عن هذه التدابير القاسية ، اذ كان لا بد من المحافظة على عامل الاغراء الملازم اصلاً للوظائف العامة ، والتي ، في السعي للفوز بها ، ما فيه من منفعة الدولة والحضارة معاً .

اما نحن الذين نعرف جيداً المصير الذي آلت اليه هذه التدابير ، فقد رمزت الى المستقبل وهيات له الأسباب . ولم يكن في وسع احد ، اذ ذاك ، ان يفهمها او يدركها على وجهها الصحيح ، اذ لم يكن يوسع احد ان يتصور أهمية المشكلات التي لا بد من إيجاد حل لها يوماً . هنالك شيء واحد أكيد ، لا يمكن الاستغناء عنه ، لأنه وراء كل دولة كما انه وراء كل حضارة ، ولا سيما هذه الحضارة المذنية بالذات ، فيفرض نفسه ، في كل الظروف وفي كل مكان .



١٧ - بومبيي : طريق المداقن خارج باب هرقل .

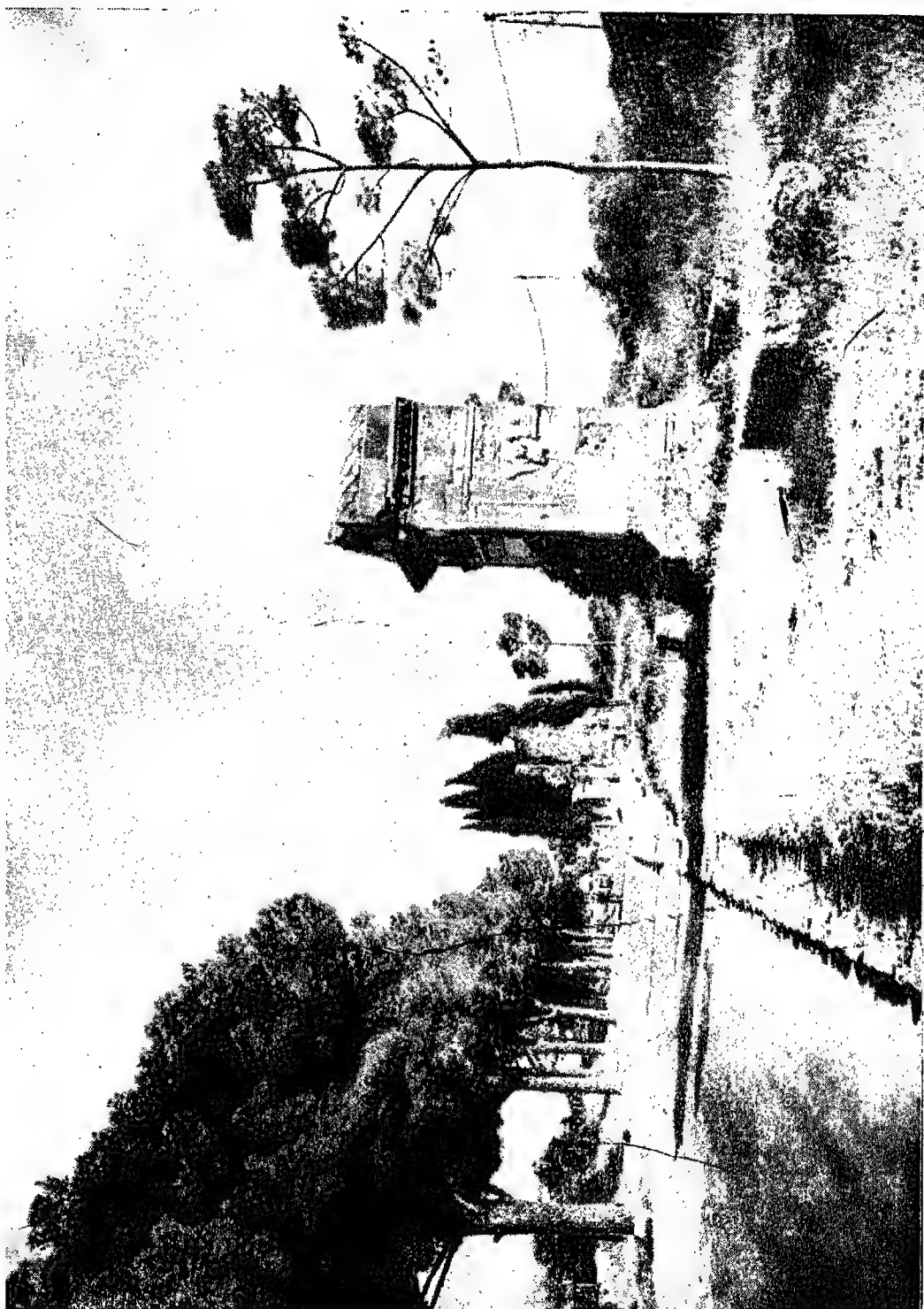
- روما وامبراطوريتها



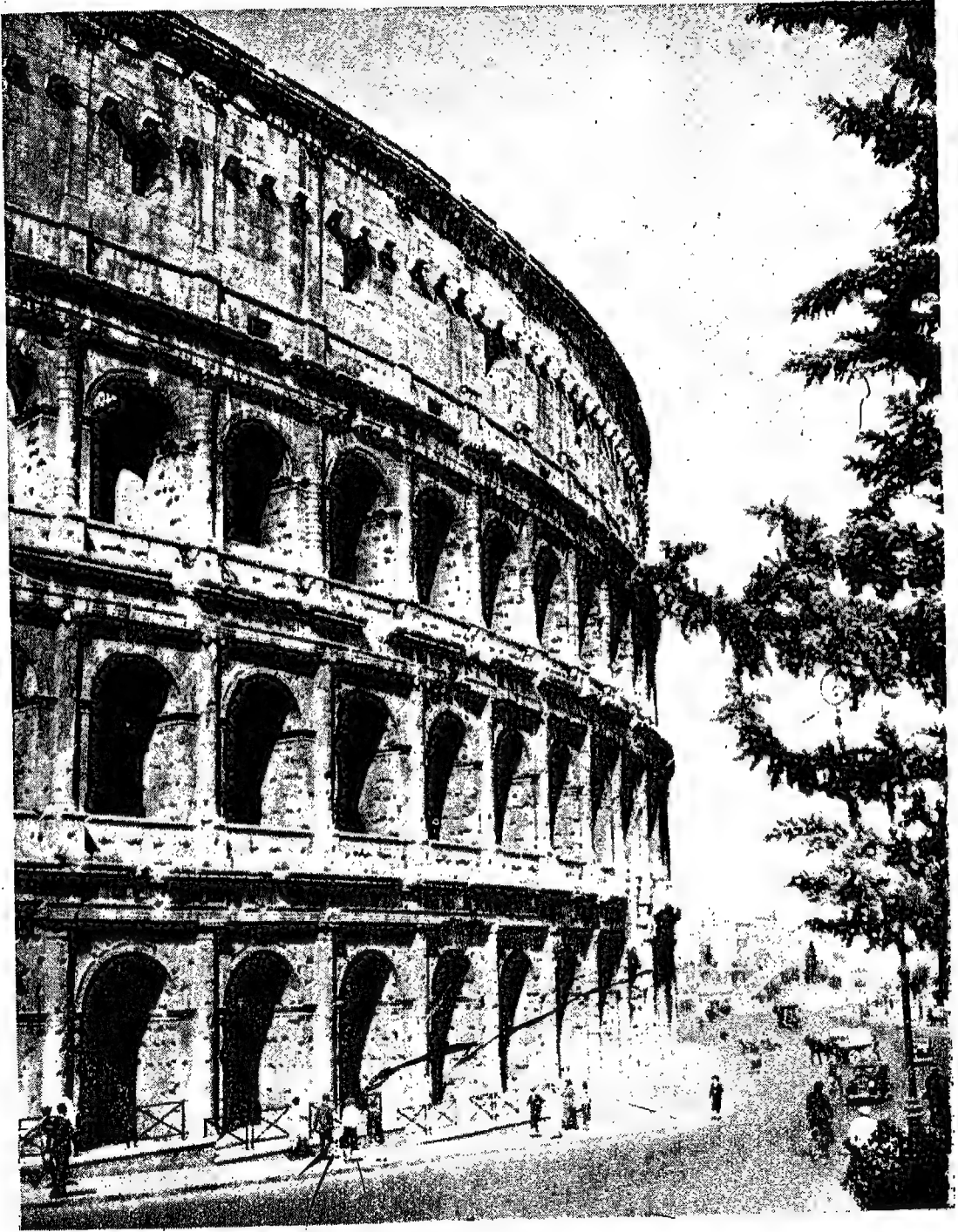


١٩- تعلّمه خنزیر و کیش و ثور . نقش رخامی





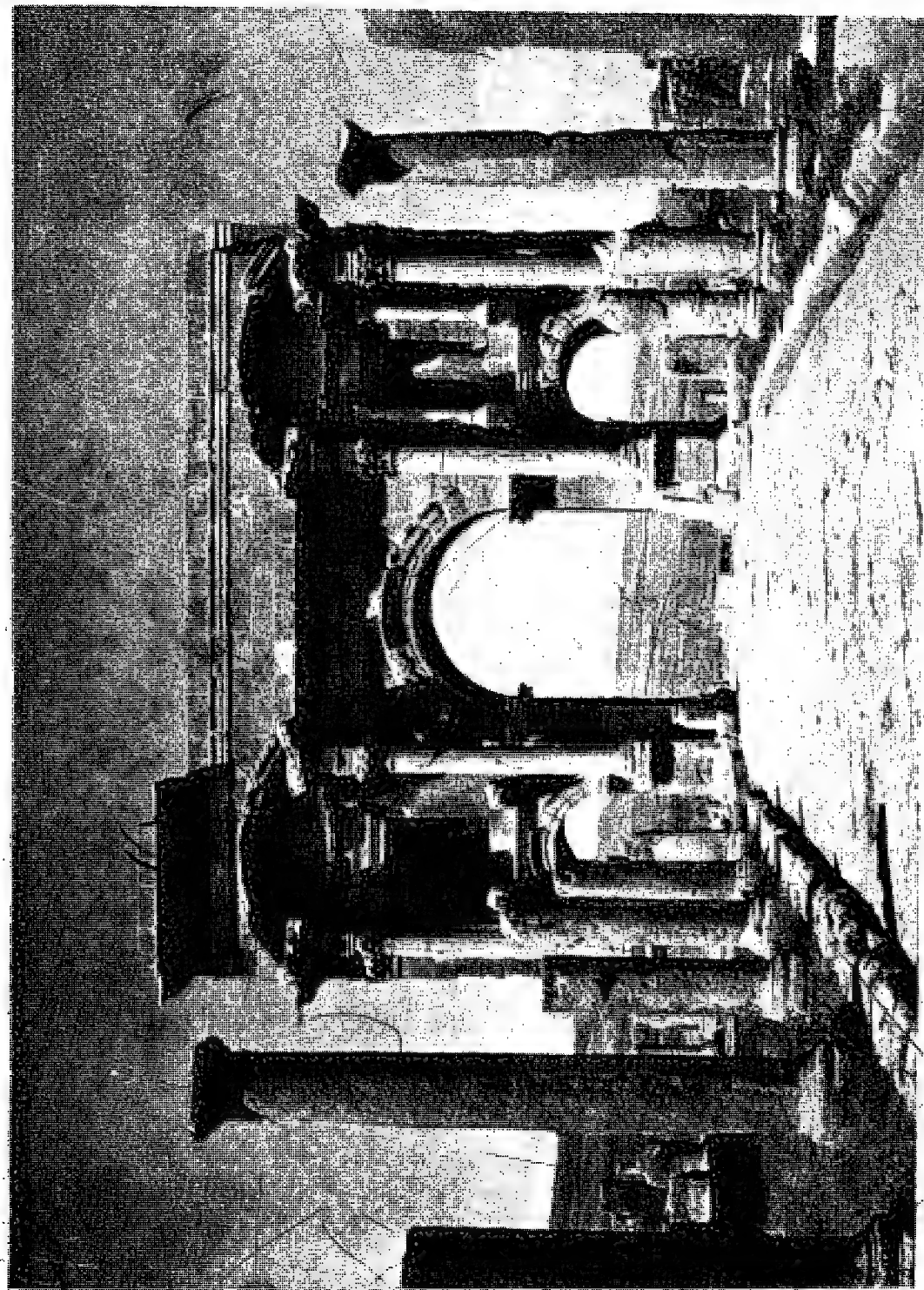
٢١ - أول الطريق الأتية من جهة روما



٢٢ - روما : الكوليزه



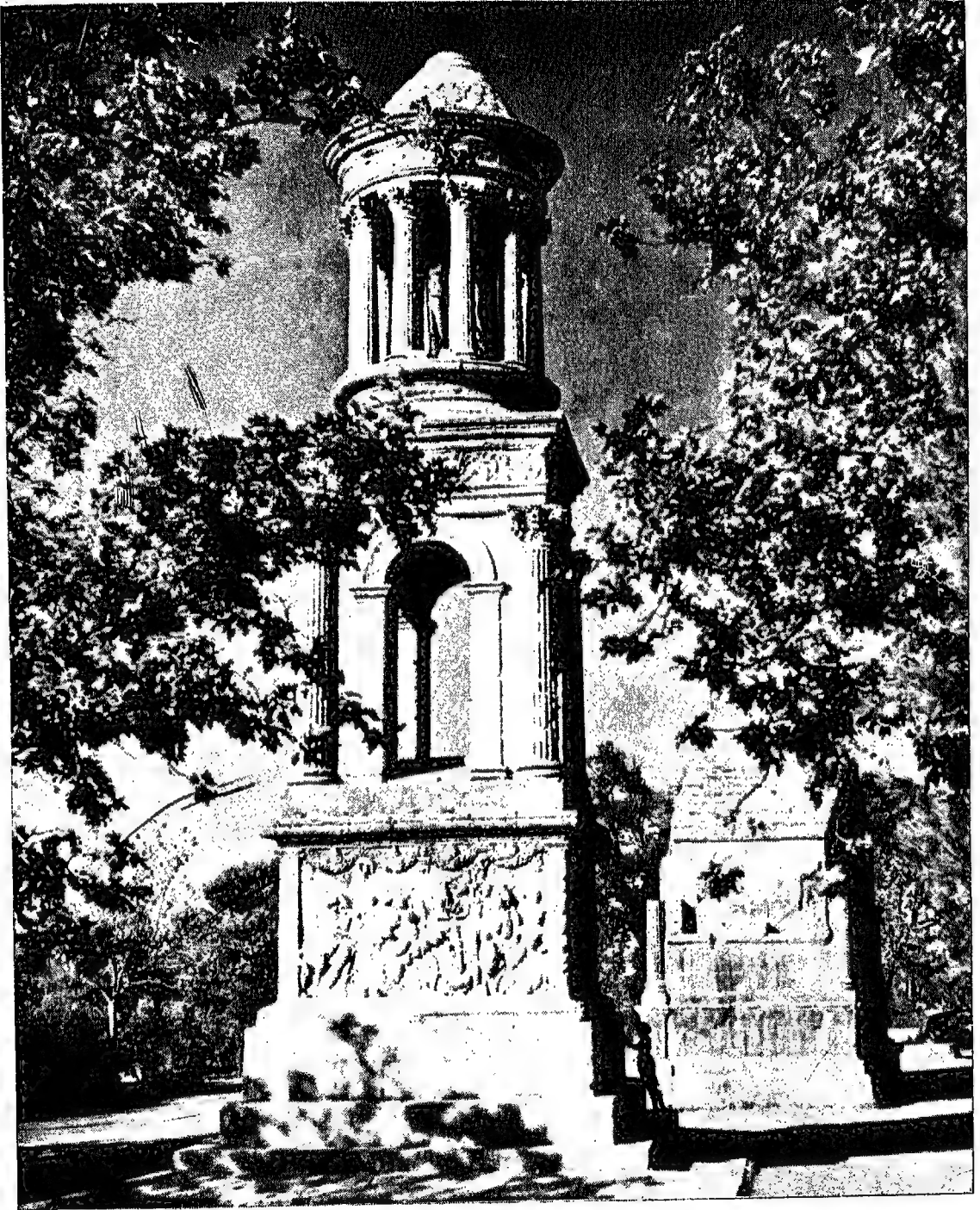
۲۳ - روما : عمود ترايانوس



٢٤ - القوس المعروف بـ «قوس ترياينوس» في تمغاد (الجزائر).



٢٥ - صورة عصفورية تمثل ماتم احد الزعماء



٢٦ - ضريح آل جوليس في سان ريمي في مقاطعة بروفنسا .



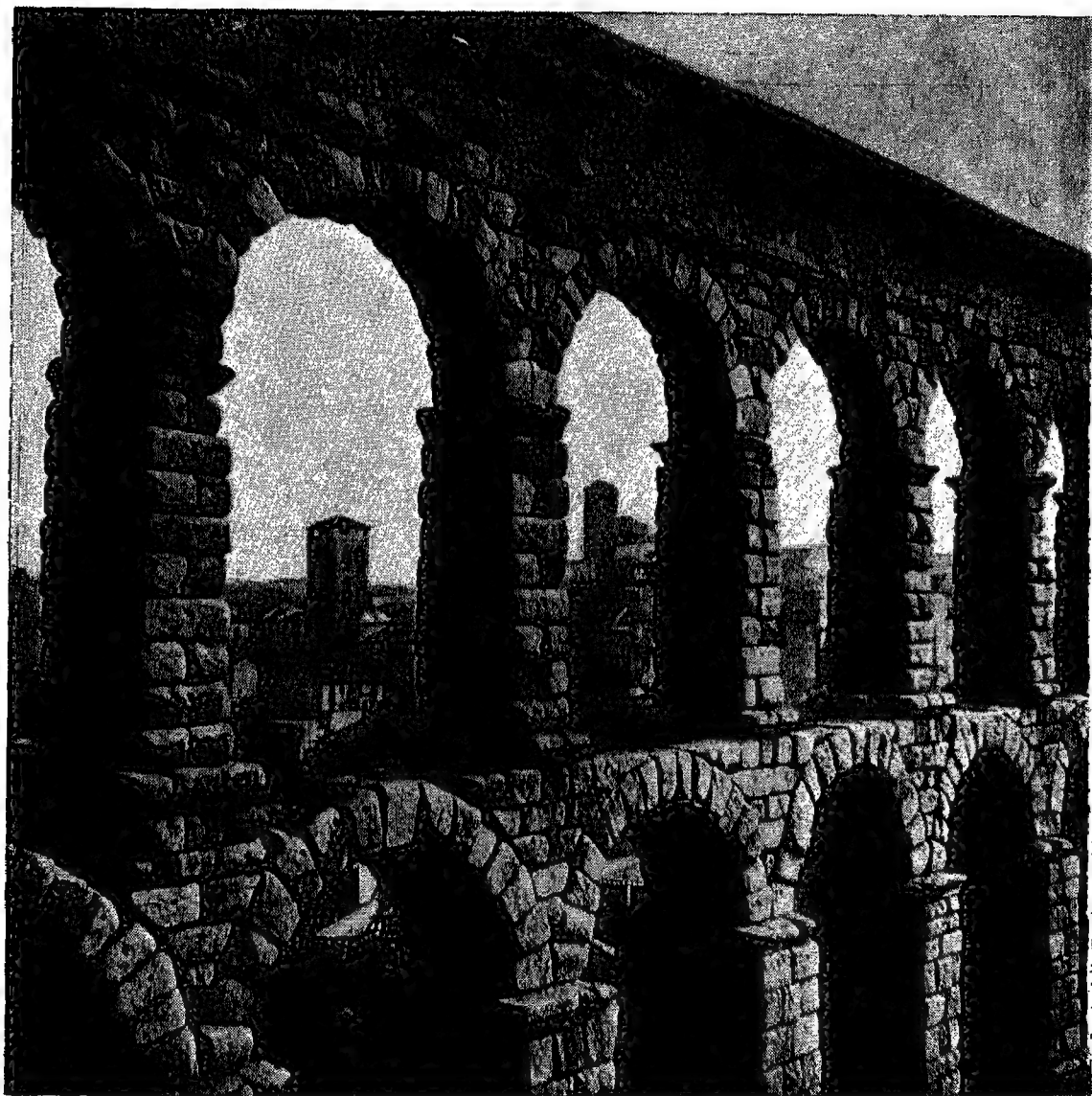
۲۷ - بقایا منبرج اوستیا



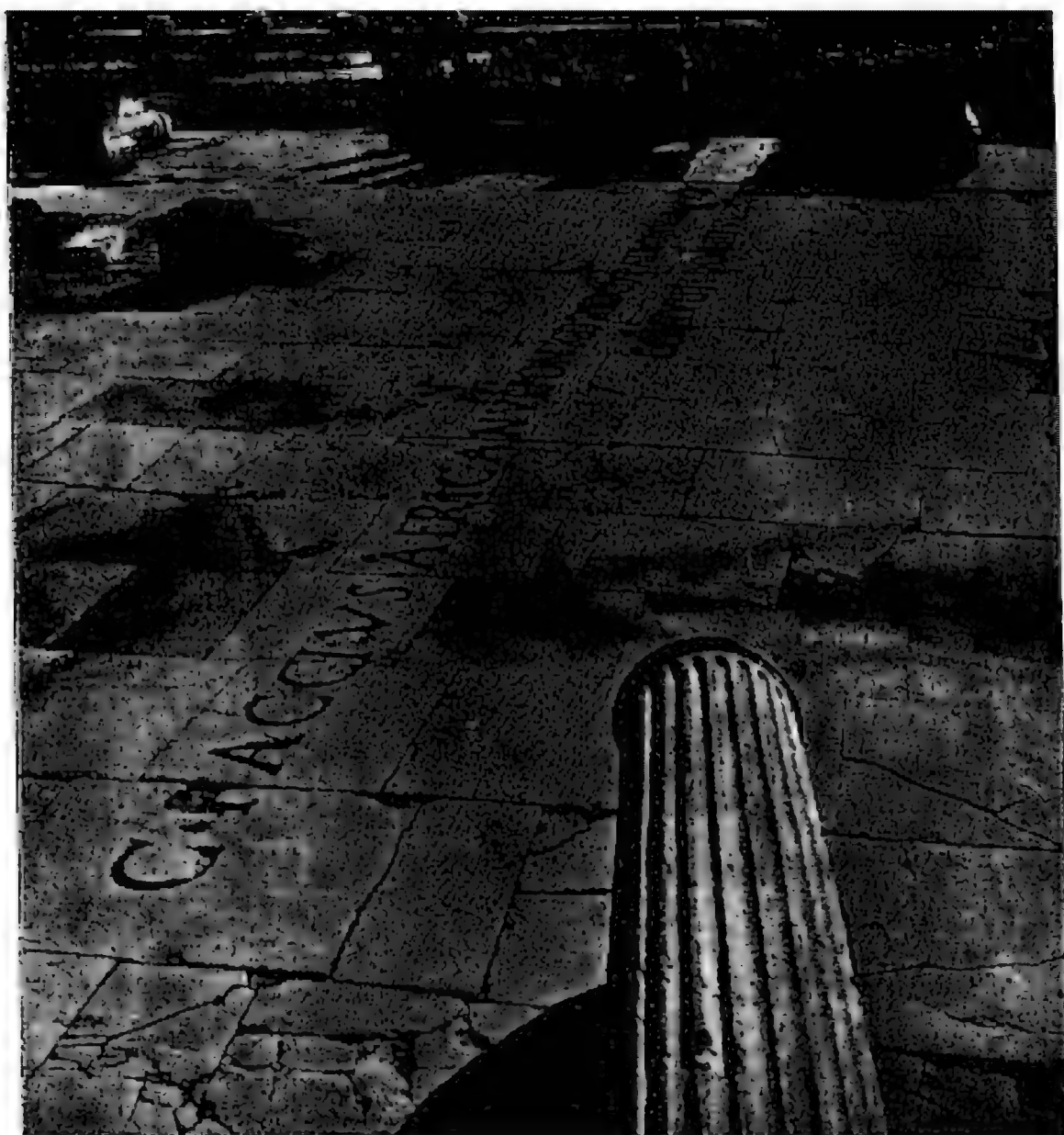
٢٨ - غنائم وأسارى اورشليم. نقش في قوس تيطوس في روما



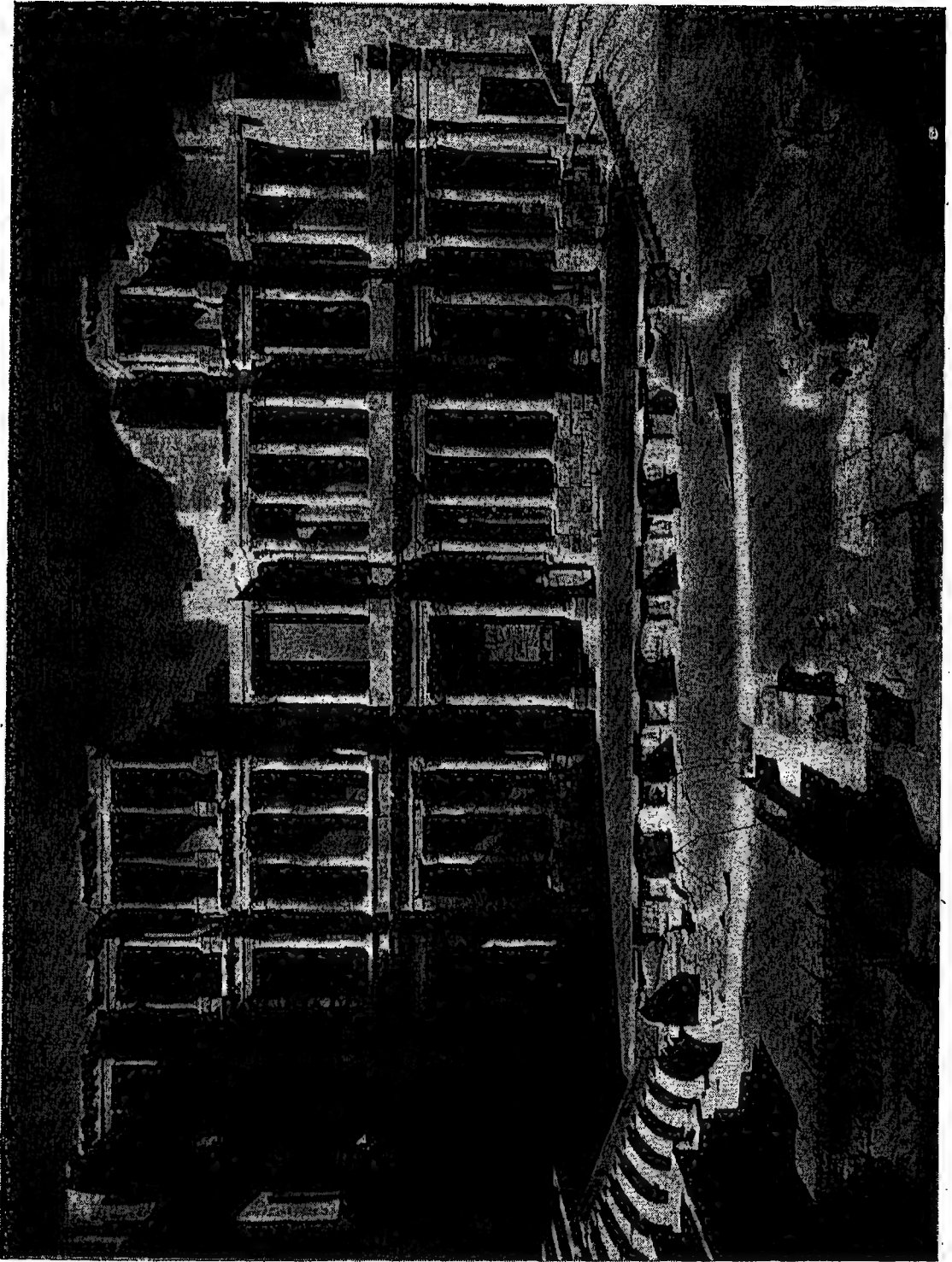
٢٩ - ميترا يقدم الثور قربانا



٣٠ - قنّاء ماء سبغوفيا (اسبانيا) .



٣١- الفوروم في هيبون (عناية - الجزائر) .



الديانات القديمة والجديدة

الوضع الديني في عهد الامبراطورية المتأخر كان أكثر دلالة على المستقبل من الوضع الاقتصادي والاجتماعي ، يكشف عنه بصورة اوضح واجلى . فالمعائد الدينية المتباينة ، قامت في هذا جنباً الى جنب بعد ان يسّرت الاتصالات بين الولايات المتباعدة ، وسهّلت سبلها ، وانفتحت منها الابواب على مصراعها امام الديانات والمعائد الأجنبية ، فأدّت المنافسات التي اشتدت بينها ، قبل نهاية القرن الثاني ، الى فوز المعائد التي حُوربت بعنف في الماضي ولاسيما مع مطلع الامبراطورية ونشأتها ، باعتبارها منافسة للنظام القائم في البلاد ومغايرة للتقاليد الرومانية . فبعد ان لقيت بعض الاعضاء والتسامح لم تلبث ان فازت بحق الرعية وأصبحت مهياة ليس لزعة الامبراطورية فحسب ، بل ايضاً لتنفخ روح جديدة فيها وبعثها من عثارها والركود الذي صارت اليه .

العاطفة الدينية

اتصفت النخبة التي تولت مقاليد الحكم في روما ، في اواخر العهد اوغسطس وموقفه من الديانة الجمهوري ، بعدم مبالاتها بالدين . فهذه الطقوس الدينية الرسمية التي ارتبطت مظاهرها بحياة الدولة ، والتي كانت تمثل بقية من هذه المعائد الايطالية الرومانية ، أضيفت اليها فيما بعد ، عناصر يونانية لم تكن تمثل في نظر هذه النخبة ، سوى مراسم لا بدّ منها للنظام العام القائم ، رمزاً بالاكثير ، لمبدأ ديني عانى ، هو الآخر ، من هذا القلق الروحي الذي استبدّ بالأذهان . فالاعياد تُهمَل جانباً ، ويعفو ذكرها ، ويُنسى أمرها ، والهياكل يتجافي الناس الدخول اليها ، والوظائف الكهنوتية يُزهد بها ويُعرض عنها فتبقى شاغرة ليس من يملؤها . وما ان أطلّ اوغسطس بعد ان تم له من الأمر ما تم ، حتى راح يصحح الاوضاع ويكافح هذا الإعراض ، ويُعيد من تدهور المشاعر الدينية . فقد تمنى ان يكون ، وأصبح بالفعل ، المصلح الحقيقي للديانة الوطنية حتى في اقدم مراسمها ، وأخذ يرمم المعابد ويعيد اليها رونقها ويضفي على هذه المزارات الدينية والاساطير التي تمثلها او ترمز اليها ، بهاء لم تعهد مثله من عهد بعيد ، ويملأ الوظائف الكهنوتية الشاغرة . كذلك حرص ان يعيد تشكيل المنظمات والجمعيات

الدينية وينفخ فيها نشاطاً جديداً بدخوله في عضويتها . هنالك حادثان يثقلان خير تمثيل سياسته الدينية : رفضه انتزاع لقب « رئيس الاحبار » *Pontifex Maximus* من لبيدس *Lépidus* ، زميله السابق مع انطونيوس في الحكومة الثلاثية *Triumvirat* . فقد آثر ان ينتظر حلول أجله حتى يُكرّس ، هو نفسه ، في هذه الوظيفة السامية ، وفقاً للقوانين المرعية لتتّم له بذلك أعلى سلطة دينية دون ان يسّ الشرعية بشيء . اما الثاني ، فاحتفاله بأبهة وجلال ، طوال ثلاثة ايام وثلاث ليال ، بالأعياد القرنية *Jeux Séculaires* التي كانت تحيي ذكرى تأسيس روما ، وذلك باستمطار البركات السباوية على المدينة الخالدة وعلى سكانها .

وبعد الجهود التي بذلها العلماء لسبر مشاعر اوغسطس الدينية ، وتحليل نوازع نفسه الدفينة ، من حيث حقيقة موقفه من الدين ، يبدو من المستحيل اليوم ، التشكك في اخلاص سلامة نواياه او الارتياح في صدق عواطفه الدينية الصادرة عن إيمان حي . فالعمل الذي انجزه في هذا المجال ينسجم كل الانسجام مع العمل السياسي العظيم الذي قام به والذي رمى منه الى اصلاح الدولة والنظام الاجتماعي القائم في الامبراطورية . غير ان النجاح الذي اصابته السياسة العامة التي انتهجها لا تسمح لنا بان نرى فيه غير مصلح واداري ماهر ، كما ظهر بالفعل رجلاً شديد الايمان برسالته . فاخلصه يبرز بهذا الاستمرار في العمل الذي اضطلع به ، وبمواصلة الجهد فيه ، والإستدامة عليه ، وفي مداخلاته المتكررة ، وفي سخائه وبذله على شؤون الدولة واصلاحها ، وفي هذا الاهتمام الذي برهن دوماً عنه والذي طالما نوه به وألح اليه باسهاب وبشيء من الرضى الذاتي ، في كتابه : « امور الحكم » ، وفي خطبه التي شدد فيها على هذه الامور وبالاخص على هذه العناصر الجديدة التي لقيح بها الديانة الرومانية في محاولته اصلاحها والرفع من شأنها . وقد ادخل على هذه الديانة التي كانت عبارة عن طقوس دينية تشير الى هذا الترابط بين الألوهية من جهة ، وبين المؤمن او جماعة المؤمنين ، من جهة اخرى ، شعوراً حياً اتصف بالعمق ، وصدق العاطفة ، وهذا الوقار والجلال الذي اضافه على الاحتفالات الدينية الرسمية . فاشدّه بالخرافات والاساطير جعله يستنتق الأحلام التي تراوده ، ويطلب تفسيراً لها ، ويعتمد على زجر الطير ، وتعليل الحوادث الطارئة التي تملأ النفس دهشاً : كالصواعق والالتقاءات المفاجئة ، والحوادث العادية في الحياة ، وكلها ظواهر طبيعية حاول الرومان ، منذ القدم ، ان يلبسوها معنى خاصاً ، وغيرها من الامور التي يعلقون عليها في الخارج ، مدلولاً رمزياً خاصاً ، كالطالع الذي اخذ له وهو بعد ، حدث يافع ، وبرج الجدي الذي ولد تحته ، وهي طوالع خلدوا ذكرها بنقشها على احدى قطع النقود الرومانية ، كما حُفرت حفرأ نائثاً ، على رصيبة عُرفت برصيبة « فيينا » . وقد تأثر هو وبطائنه تأثيراً عميقاً بالفيثاغورية الرمزية ، كما راح يستلهم بعض الطقوس المستمدة من الشرق الهليني وأبى ان يدخل يوماً ميكلا في مصر ليسجد للإله ايبس او هابيس (*Apis*) ويقدم له القرابين ، وامتنح حفيده لأنه رفض ان يقدم القرابين ، هو الآخر ، للإله اليهود في القدس ، وحظر الاحتفال بعيد إيزيس على ارض روما ، بينما أظهر مشاعره الدينية نحو الآلهة اليونانية المنشأ والمصدر ،

المشهود لها بالحسب وشرف المحتد . وقد علّق أهمية كبرى على اشتراكه بأسرار الفسيس ، والاعباد القرنية التي حدد وقوعها بدقة كلية ، هذه الاعباد التي لقحت التقاليد الرومانية بأشياء كثيرة استمدتها من الميثولوجيا عند اليونان وديانتهم وطقوسهم العبادية . كل هذه الامور تشير بوضوح الى انه صدر في الحركة الاصلاحية الدينية التي قام بها ، عن يقين صادق وايمان حي وطيدين ، وانه لم يرض او يقنع بنظام ديني ، حربي ، جامد ، بل اراده ان ينبض بعاطفة دينية مشبوبة .

ليس من يُنكر قط ان الحركة الاصلاحية الصادقة التي قام بها تركت اثراً عميقاً في التطور الادبي الذي طلع على المجتمع الروماني . فلم يستدع عمله الاصلاحى بين الطبقات الشعبية الوسطى والدنيا جهداً كبيراً ، لأنها كانت ، على الاجمال ، بمنزل عن موجتي الكفر والاحاد اللتين غرّتا الطبقات العليا ، ولأن مثل الامبراطور وسلوكه كان له أكبر الوقع كما كان أكبر مشجع لها . فالشواهد الكثيرة التي يمدنا بها علم الآثار ، والرّمق القديمة التي عثر عليها المنقبون في ايطاليا وفي غيرها من الولايات الرومانية ، تنطق عالياً بما كانت عليه هذه الطبقات من عاطفة دينية ملتبهة بالرغم مما شاها من خرافات صيبانية . اما الطبقة الاجتماعية العليا التي غر الكفر والاحاد معظم بنيتها ، فقد انقلب فيها الوضع فجأة . ويميل المرء الى الاعتقاد بأن طيباريوس ، وهو من أتباع مذهب العقلين ، كان خاتمة الملحدّين ، اذ ان استلطاف الامبراطورة بلوقين لتعليم الفلسفة الابيقورية ، كما تشهد على ذلك ، احدى النقائش التي عُثِر عليها في اثينا ، لا يستدعي قط ، تسليم ارملة الامبراطور ترائانوس بالنتائج التي تقضي اليها تعاليمهم . وليس من الحق ولا من العدل بشيء ان نزرو الفضل كله لنفوذ اوغسطس وسطوته . فالقلق النفسي الذي استحوذ على نفوس الناس خلال الحرب الاهلية الدامية كان له تأثيره الظاهر ، ولا شك ، هو الآخر ، اسوةً بهذه العقائد والفلسفات التي قدمت من العالم اليوناني . وليس من الصدفة بشيء ان يكون عهد اوغسطس الطويل الذي شهد مطلع الامبراطورية وزاقت نشأتها ، من هذه الناحية ، نقطة الانطلاق لتطور حاسم خلاق .

وهذا التطور الذي اخذت الامبراطورية بأسبابه ، مهّد لازدهار التعاليم والنظريات الفلسفة والدين الفلسفية الكبرى ، كما اسهم في النجاح الذي لقيه الناهضون بالدعوة لها والعاملون على نشرها ، بحيث لو اخذنا نبحت ، منذ الآن ، في تعاليم هذه الفلسفات وننعم النظر في مبادئها ، قبل ان نتفرغ لدرس الحياة الفكرية والادبية التي ازدهرت في ارجاء الامبراطورية اذ ذاك ، لكننا وقمنا في مقالة فاضحة ، ليس من حيث الشكل فحسب ، بل من حيث الاساس ايضاً .

بين هذه المذاهب الفلسفية ، يمكن ان نضرب صفحاً ، عن ذكر ، الفلسفة التشككية أو السفسطائية التي لم يكن لها أي صدى ، والفلسفة الكلبية التي اتجهت بالأخص من الجماهير والشارع وبقيت كلتاها شبه مجهولتين في روما . فالفلسفة الابيقورية (*Epicurisme*) وحدها ، كانت ملحدة 'معطلة' ، اذ أن الخوف والرجاء المرتبطين بالعمل الإلهي المتوقع ، يذهبان

بالهدوء التام الذي تتوقف عليه سعادة الانسان . فقد عرفت هذه الفلسفة ان تحافظ بكل دقة ، مصونة من كل تغيير أو تبديل ، على فكرة المعلم الذي وضع اسس هذه الفلسفة ، في مطلع القرن الثالث ق.م . كما عرفت أن تحتفظ بحب الناس له واحترامه . فقد اطلعت في روما ممثلاً الاكبر لوكريس ، اذا شئنا ان نضرب صفحاً عن هؤلاء الذين بعد ان شوّها تعاليمها وغيروا من مقالاتها ، راحوا يدعون ان فيها ما يبرر إشباع شهواتهم وملذاتهم . وقد خف تأثيرها ، أقله في روما ، بعد ذلك . أما في الشرق الهليني حيث راح أتباع هذه الفلسفة ينتظمون في نوادر وحلقات خاصة ، فقد تمكنت من ان تحافظ على نشاطها الى عهد الامبراطور مارك اوريل ، فأسند اليهم أحد الكراسي الأربعة التي أسسها في أثينا ، ولم يتورع اتباعها من اظهار كفرهم ووجودهم في هذه المناقشات والمجادلات ، وفي هذه المظاهرات العامة التي قاموا بها إذ ذاك ، فأثاروا تشكك الجماهير ، واستهدفوا ، نتيجة لهذه الأعمال ، لردود خصومهم المفحمة ولرشقهم بالشتائم وبأقذع الكلام أحياناً .

فراحت الشيع والمذاهب الفلسفية الأخرى تتكتل ضدها ، بعد ان تجند من رجال الفكر بينها من تصدى لها بالرد العنيف ، اذ لم يكونوا ليفرقوا بين الفلسفة والدين . « يا بني ، كن ورعاً تقياً » كما جاء في نص يوجز جيداً الكثير من مآثر الكلام في هذا المجال ؛ « فالتقوى هي رأس الحكمة ، كما ان ليس باستطاعة أحد ان يبلغ التقوى الحقيقية بدون الفلسفة » .

أما الفيثاغورية *Pythagorisme* ، فقد تقدمت من أذهان الناس ديناً جديداً أكثر منها فلسفة . فقد عاف الناس التحدث عن نظرية الأرقام والاعداد التي قال بها مؤسس هذه الفلسفة وعلم ، كما انها تخلت ، هي ايضاً ، عن تحرياتها وتقصياتها العلمية التي كانت يوماً ، سبب شهرتها ومجدها . وبعد مراسم عديدة من التطهير ، ومجادة النفس بالصبر وطول الاناة ، وشطط العيش والاعتصام بجبل الاخلاق الفاضلة ، راحت تعلل اتباعها بالسعادة في الحياة الأخرى . وقد راح بعضهم ينتحل القدرة على اجتراف المعجزات والتنبؤ بالكشف عن الغيب كالجوس . فقد نهج السواد الاكبر بينهم نهجاً ليناً في الحياة ، مفضلاً الانطواء على نفسه ، رحيماً ، حليماً ، وانقطع للتأمل والتجريد العقلي ، مرتدياً لباساً من الكتان الابيض وهو مسترسل الشعر .

فالاعمال التي قام بها في روما نيجيديوس فيفلوس ، في اواخر العهد الجمهوري وسكستوس ، وحفيده ، في عهد اوغسطس ، عادت على الفلسفة الفيثاغورية بنجاح عظيم ، كما يشهد على ذلك نشيد مبنى « الباب الكبير » *Porte Majeure* وقد أهمل هذا المبنى ، فجأة ، في اواسط القرن الاول ، لاسباب نجهلها . ولم تحافظ المدرسة الجديدة على حيويتها ونشاطها إلا في اليونان . فوقع بلوتارخوس (بلوتارك) نفسه تحت تأثيرها ، كما عدت لها ، في عهد الاسرة الفلافية ، ممثلاً كبيراً في شخص ابولونيوس دي تيان ، الملقب بصانع المعائب *Apollonios de Tyane* .

لم يتمكن الافلاطيون من كسب اتباع لهم في روما ، بينما تكاثروا عددهم في الشرق الهليني ، فقد عرفوا ان يقوّوا الدعوة الدينية التي بشر بها مؤسس هذه الديانة ، وجعلوا من فكرة الله ،

أكثر من أي وقت آخر ، محوراً لتأملاتهم ، وحاولوا ان ينقّوا هذه الفكرة من الشوائب التي علقت بها ، وان يعيدوا اليها صفاءها ورواءها ، فجردوها وأبعدوها عن صفاتية العالم المادي ، واقاموا بين الله والعالم وسطاء ممثلين بهؤلاء الالباسة الذين لا حدّ لهم ولا حصر ، وبذلك انفتح المجال للأخذ بكل صور الديانة وأشكالها بما فيها من الخرافات والاساطير الشعبية .

ولم يختلف الوضع كثيراً هنا عما كان عليه في الفلسفة التي سجّلت أكبر قدر من النجاح اذ ذاك ، هذه الفلسفة التي طلع بها زينون والمعروفة بفلسفة زينون *Stoïcisme* . فبعد ان كان زينون رقيقاً عند احد معتوقي الامبراطور نيرون ، وطرده دوميتيانوس من روما ليعود اليها من جديد في عهد هدريانوس ، تمكن أبكتيتس من مواصلة النهج ذاته الذي وضعه باناييتيوس وأكمله بوزيدونيوس . وهكذا استطاعت فلسفة زينون ان ترفع باسم الفضيلة صوتها عالياً في وجه الاباطرة الذين 'عرفوا' بشططهم ، في القرن الاول ، كما استطاعت ، في القرن الثاني ، ان تؤثر عميقاً في حلقات المثقفين ونوابههم وجمعياتهم ، قبل ان يساعد مارك اوريل بسلوكه على تكثير اتباعها ولو في الظاهر . وبقيت هذه الفلسفة ناشطة في الشرق طيلة هذين القرنين . فقد عرفت تعاليمها بعض التطور اثر وفاة مؤسسها زينون ، واحتلت القضايا الادبية او الاخلاقية محلاً مرموقاً من اهتمامها ، كما انها جعلت من الإله الذي آمنت به وحدة نظام هذا الكون وباعت الحياة فيه . فالقدرة بقيت قائمة كما بقي من واجبات الانسان ان يرتفع الى مستوى النظام العام ليصبح بطاعته وخضوعه « جندي القدر » . إلا ان تابع هذه الفلسفة لم يلبث ان تبيّن الضعف البشري الذي عليه الانسان ، والحافز الذي يحفزّه للتعلق بالالوهية ، الا وهو القلق المستحوذ عليه أكثر من دافع العقل . وكان بحاجة لمن يُقنعه بأنه في حراسة الالوهية التي تسهر كذلك على الانسان ، فكلّهما موضوع حبا . وقد برهن مارك اوريل عن تقوى مفرطة حتى حدود الخرافة ، مُعنيًا نفسه بتقديم القرابين والاضاحي وبطوال الغيب ، حتى ان بعضهم تهاوا وراء رمزية سقيمة .

تلاقحت هذه النظريات الفلسفية الدينية وتمازجت . ولم تبق على صفائها سوى العناية الإلهية الفلسفة الابيقورية ، وذلك بفضل ما عرفت به من صلابة العقيدة ؛ وقد قبست مقالات فلسفية أخرى كثيراً من تعاليمها . وقد تكاثرت أسباب التلاقي والاتصالات بين هذه المذاهب الفلسفية لكثرة ما بينها من تجانس وتقارب في نزعاتها الدينية . وزاد هذا الاختلاط فيما بعد ، لما قام من تجانس بين المبادئ الاساسية لتعاليمها وبفضل اتصالات الحياة العامة ، باستثناء الاتصالات التي قامت بين مختلف فئات هذه الشّيع . وقد تفادوا المهادلات الدينية ولا سيما بين اتباع هذه الفلسفات التي عرفت بمشاحناتها الشديدة في اقطار آسيا الصغرى المتهلّينة .

فلا عجب ان يوجد بينها في امور الدين ، من يقول بوجود عناية إلهية او ربانية ، وان اختلفت هذه التعاليم فيما بعد ، حول نسبة تدخل هذه العناية في تقرير مصائر الحياة على الارض ، ولا سيما حياة البشر ، اذ كان الاعتقاد السائد لدى العموم انها تتدخل في بعض الظروف الخاصة ، اما مباشرة أو بالواسطة . وقد توصلت الى عبيء يشبه الإجماع فيما بينها ، إذ سلمت بأن هذه

العناية هي عطفوفة على الانسان ، فيقف حياها موقفاً كله أمل ورجاء ، يستنزل بركاتها ، كلما أنيس من نفسه الضعف والتعاسة ، وهو ابدأ على استعداد ليعرب لها عن شكره وامتنانه بجميع الوسائل التي بين يديه .

ومع ذلك ، فهذه الفلسفة التي خضعت لتطور ذاتي ، هل بقيت صالحة لتكون هادياً أميناً ، أم انها اقتضرت على تطوير تعاليمها وفقاً لتيار عقائدي أو شعوري غلاب خارج عنها ؟ فبدون ان تقطع في الامر نفيًا أو اثباتاً ، يكفي ان نرى ، على الاقل ، كيف توفرت جميع الظروف الملائمة لقيام شيء من اتفاق المشاعر بين الاوساط المثقفة وبين الطبقات الجماهيرية التي سيطر عليها الجهل فوحّد بينها بقدر الامكان . وبالفعل ، لم نرَ بين كل المدنيات التي قامت قديماً وتركت وراءها ما يحدّثنا عنها ، مثل هذا الاجماع او الاتفاق التام . ومن الواضح جداً ان تحقيق مثل هذا الاجماع لا يتطلب ان يكون الشعب بلغ مثل هذا المستوى الرفيع المعقول . فالوضع ، على العكس من هذا تماماً ، اذ بقيت الاوساط المستنيرة في المجتمعات الهلينية ماضية في انطلاقتها الى الامام ، منذ عهد الاسكندر ، أي مُتَنَكِّبَةً عن النظرة العقلانية ، متوقفة عن تنقية الدين من المعطيات المادية . وهذا الانطلاق اشتدّ قوة واندفاعاً ، اذ انه انتهى عند الكثيرين ، ولكن ليس عند افضلهم مع هذا — مثال ذلك مارك اوريل — الى الاقتناع عن بذل أي جهد قوي . أو ليس من الاعتبار بمكان ، ان نجد في هذا كله ، اثرًا لنظام سياسي آسر ، سيطر على كل سكان الامبراطورية فخضعوا ، في مشارقها ومغاربها لرئيس او سلطان واحد ؟ فالصورة التي تجلّت لهم في سلطنة امبراطور كلي القدرة ، اوحّت ، ولا شك ، بأكثر من سبب لمقارنتها بفكرة العناية الإلهية .

وقد نتج عن مثل هذا الوضع ، في المجال الديني ، نتائج عدة . منها ما يتفق
النتائج المترتبة
على هذا الاعتقاد
لعمري ، مع هذه المشاعر التي تأثر بها أوغسطس نفسه ، الا انها تجاوزتها
بشكل غريب بعد ان اضفت عليها من إتساع وشمول كان شأنه ان يستمر
الخوف في قلب أوغسطس . من ذلك مثلاً ، هذه العاطفة الدينية المفرطة التي تغلّغت الى اعماق
شعور الانسان ، والتي ، ان قادته من جهة ، الى حلم معسول راودته فيه رؤى من الاماني
العذاب ، فقد عرضته من جهة اخرى ، الى مواقف مخزية من التسكع والتذلل . ومن ذلك مثلاً
الاعتقاد بما توجهه هذه الآلهة من وعد ووعد ، بحيث يرى المرء نفسه مضطراً للتصديق بالعجائب
والمعجزات تطالعه كل يوم لتفسير وتعليل ما يتعاقب عليه من بركات . ومن هذا الباب المسدوف ،
اي الذي فتحه أوغسطس قليلاً ، تدافعت الى الاذهان والنفوس والعقول اغرب العقائد تصديقاً
وأصدمها للعقل السليم ، فاستقرت فيها . واستبدّت بها . فكيف السبيل بعد الآن ، للابقاء على
هذه الحدود والسدود التي يعزّون اقامتها الى أوغسطس ضد بعض الآلهة ، وفي وجه بعض
العبادات والطقوس الغريبة المنشأ .

فقد سلموا ، بالفعل ، بوجود وسطاء او آلهة ثانوية ، بين العناية الالهية وبين عالمنا الهولي

هذا. وبين هؤلاء الوسطاء من هو مجرد فكرة، مجهول، غير معروف البتة. ومن الطبيعي جداً أن يُنزل الانسان، حتى من كان منه عالي الثقافة، جميع آلهة الوثنية، هذه المنزلة: فالنصرع اليها ليس فيه ما يضر او يسيء. وهكذا يحافظ الانسان على الطقوس والعبادات التقليدية، وعلى مراسم عبادة هذه الآلهة وتكريمها. كذلك يحافظ على الاعتقاد بهواتف الغيب، اذ يرى ان باستطاعة الجن او الالبسة تقديم النصيح لابناء البشر. ومهما يكن، فالتقليد الوطني او ما يزلونه منزلته، لم يعد في وسعه ان يقدم، في هذا المجال، ركيزة يمكن قبولها او التعويل عليها. فهذه العناية الإلهية التي تغمر الكون بأسره، لا تعرف الحدود والسدود. فالتمييز بين إله وإله، غريباً كان أم يونانياً أم رومانياً، مُتهليناً كان أم مُتلييناً، لا محل له على الإطلاق. فعلى نسبة استلطاف الناس لهذه الآلهة يأتي تأثيرها، مشروطاً بدرجة الاخلاص، وحرارة العاطفة، ونوع التكريم الذي يُرفع اليها. وفي هذه المنافسة الحرة، فلا عجب ان تحظى الآلهة الغريبة او الاجنبية، ولا سيما آلهة الشرقيين بينها، بالمرتبة الاولى، وذلك بفضل ما تتمتع به من طابع غير رسمي، وبفضل ما لها من غنى الرمز، وبفضل ما توحى من ثقة بالنجاة والخلاص.

ومع ذلك، ففوق الاسماء والكنى والالقب والجنسيات تُلاحظ المشابهات بأيسر مما تلاحظ الفروق، عند الذين لم تُعطل حرارة العواطف والرغبة في التمتع بالعطف والحماية، القوة العاقلة والناقدة في النفس. ومن هنا طلعت حركة التوفيق بين الاضداد المتباعدة التي ربما انتهت الى شيء من توحيد العنصر الالهي اينما وجد. وهذا بالذات ما حدا باديب بيشنيا، ديون ده بروس الذي لقب بحق: «فم الذهب» الى ان يكتب في اواخر القرن الاول ما يلي: «أخذ البعض يدعي ان ابرولو، وهيلوس (الشمس) وديونيسيوس هم واحد، وانت تقول القول ذاته. وأكثر من هذا بكثير يُجمع عدد كبير من الناس ببساطة كلية. على ان يروا، في كل الآلهة مجتمعة، قوة واحدة، وقدرة واحدة، بحيث لم يعد من فرق قط، بين تكريم هذا أو ذاك، من بينها».

وأخيراً أخذ الناس يعملون النفس ان باستطاعة الالبسة، اختياراً كانوا أم اشراراً، حتى الصغار منهم الذين يسمون فوق ضعف البشر بكثير، ان يرغبوا الناس، ببعض الوسائل المغرية التي لديهم، على التصرف حسب ما يريدونه منهم. وهكذا نرى بأشكالها المختلفة، اعمال السحر، والتعزيم والشعوذة آخذة بعضها برقاب البعض، في حياة الانسان.

وهكذا شهدنا طلوع ثورة دينية حقيقية، تجلت في الشعور الديني، بفوز الرمزية الفردية. اما الحياة الدينية فقد تلبست بمظاهر لا حصر لها ولا حد، لم يلبث بعضها ان زال ومات، تاركاً وراءه مغزى الطقوس الدينية التي تجلى بها ومعناها، بينما استأثر البعض الآخر بكل الشهرة. فالمراسم الميتة هي التي احياها اوغسطس وبعثها حية من جديد. اما الحية منها فهي التي أقصاها او وضع لها حدوداً لا تتعداها. والتطور السياسي الذي اخذت الحضارة الرومانية بأسبابه انما تم وفقاً للاتجاه الذي أراده اوغسطس واستطاع ان يوجهه. اما التطور الديني فقد تم بصورة معكوسة تماماً.

٢ - الوثنية وطقوسها

من الجائز ان نمر سريعاً على ما يسمونه بالعبادات التقليدية، أي هذه الطقوس التي العبادات سير عليها في الديانة اليونانية اللاتينية ، وفي عبادة الامبراطور . فقد ازداد عددها : فالاولى منها هي عبارة عن فلسفات جديدة انضمت الى الايديولوجيا الامبراطورية ، وفقاً لاعراف سير عليها في روما منذ عهد بعيد ؛ اما الثانية فتقوم في هذا التقليد المتبع عند الاباطرة وأعضاء أسرهم اذ يصبحون متألهين ومتألهات *Divi et Divae* عند وفاتهم . ولهذا الطقوس العبادية ميزة مشتركة تقوم في ارتباطها جميعاً بالدولة . وعلى الدولة تتوقف حياة هذه الطقوس واستمرارها وازدهارها ، والاحتفال بواسمها بكل انتظام ، اذ ان هذه القوى او الكائنات الالهية التي تتجه اليها مراسم العبادة ، هي الحارسة لروما ، وهي التي تلهم الحكام ، وتهديهم الصراط المستقيم .

ولهذه الاسباب ، كانت اجهزة الدولة تحرص الحرص الشديد على الاحتفال بهذه العبادات بكل دقة . فالامبراطور يعطي فيها المثل الصالح ، كما ان مجلس الشيوخ لا يمكن له ان يتهاون يوماً بأمرها . فليس من منصب ديني إلا ويُمَلَأ ، وليس من رتبة دينية إلا ومن يمارسها ، اذ لكل واحد دوره وعمله المحدد ، في هذه الرتب التي تتدرج صعوداً لتبلغ أعلى المراتب . فالوظائف الكهنوتية الصغرى والمحلية كانت تُتمهد الطريق لاصحابها الى البورجوازية ، بينما ينال الشفاليه درجات صغرى تحول حاملها ترؤس الاحتفالات الدينية التي تقام في ضواحي روما وأرباضها ، كما كان يؤخذ من بين اعضاء مجلس الشيوخ ، اعضاء الجامع الرومانية . اما الامبراطور فكان يرقى اسراً جديدة الى مرتبة الحاكمة وذلك لتوفير ما يلزم من الموظفين لإشغال بعض الوظائف الخاصة ، ككهانة المشتري وجوبيتر ، مثلاً . ولم تكن المعابد والهيكل يوماً ، أكثر منها عدداً ، ولا أبهى منها زينة ، كما لم تكن الذبائح والاضاحي أسمى منها وأبدل . والاعياد لا افخم ولا أبهى ، موزعة على ايام السنة . والرغبة في بمالة الشعب والتزلف الى الجماهير ، والظهور بمظهر السخاء والبذل والعطاء ، كل ذلك جعل سبابة القوم واعيانهم من الامبراطور الى حكام المدن الصغيرة يندفعون في هذا المضمار . وعبثاً حاول مارك اوريل تحديد عدد الاعياد الرسمية التي تقفل فيها ابواب المحاكم يجعلها ١٣٥ يوماً في السنة . فما كاد يتوارى عن المسرح حتى عادت الامور الى مجراها الاول باندفاع لا يقاوم . وكان إطار هذه الاعياد وجوهاً خالياً من كل تقوى او خشوع حقيقي ، إلا اذا رغب المرء ان يرى فيها تعبيراً خاصاً ومدلولاً يبتعد كثيراً عن الفكرة الاولى .

ولكن لم يكن في الامكان ان نرد هذه التقوى الى الرغبة في تقليد روما وذلك عن طريق تبني حضارتها ، ولا إضفاء شيء عليها من عواطف الشكر والولاء لها . وقد راحت المدن في كل مكان ، ولا سيما في الولايات الغربية التابعة للامبراطورية الرومانية حيث حركة الليتنة كانت

ترادف التقدم الثقافي والاجتماعي والقضائي ، تتبنى آلهة الديانة الرومانية . فالمستعمرات الرومانية واعضاء المجالس البلدية كان مهمهم جداً ان يشيدوا « كابيتول » أي هيكلًا خاصاً بعبادة جوبيتر « العظيم ، الخيّر ، الكبير » ؛ فكان ذلك التكريم موجهاً بالفعل لروما ولما ظهر حضارتها الخارجية أكثر منها لمقائدها . قد تكون عبادة الامبراطور في الاساس ، أكثر تعقيداً ، اذ انه حدث ، تبدو مظاهره ولا شك ، عفوية طوعية ، قامت بها جماعات من متوسطي الحال ، بحيث أصبحت هذه العبادة ، بالضرورة ، متشابهة بالنسبة لاستمرارها وللزيادة المطرد للجماعة المتألهين (*Diri*) الذين كان لا بد من تصنيفهم الى فئات حسب الأسر . زد على ذلك ان تكاليف هذه الطقوس الدينية الباهظة ، كثيراً ما أرهقت ، ان لم يكن في روما ، فأقله في البلديات والنواحي الاقليمية ، موازنة هذه الهيئات والمنظمات ، كما انهكت موارد الخاصة . وعندما ذابت هذه الثروات الخاصة امام النكبات والازمات الاقتصادية ، اخذ اصحابها يُعرضون عن الوظائف والمراتب الكهنوتية ويتحولون عنها . وهكذا زهد الناس بهذه الوظائف كما زهدوا بالوظائف البلدية الاخرى ، مما حدا بالحكومة على فرض هذه الوظائف بالقوة ، كما اجبرت البعض على قبول وظيفة رئيس العشرة *Décursion* . غير ان لجوء السلطة الى الاساليب ذاتها ، انما يعني ، ان هذه الوظائف ، في نظرها ، هي على مستوى واحد في كلا الجهازين الاداري والسياسي .

المعابد الاجنبية : الغرب
فالحياة الدينية الحقة لم تكن هنا في روما . فقد كانت خارج روما ، حيث كان باستطاعتها ان تجدد ، كما وجدت فعلاً ، الآلهات والعبادات التي لم يكن تبنيها من قبل الدولة والاعتراف بها ، ليجعل منها مؤسسات رسمية ، كما كان من شأنها ان تتحجر وتجدد من جراء إشراكها بالاحتفالات الرسمية . فباقتباس روما هذه العبادات : تارة من رعاياها ، وطوراً من الخارج ، جعلها تصدر عن تقليد عرفته من عهد بعيد ، وسارت عليه طويلاً . فقد عرفت ان لا تقصر نفسها على السلمية ، بل استقبلت باهتمام مكثف ، وبحسنة جادة ، عن مؤثرات دينية طلعت من ايطاليا واليونان . فرحابة الامبراطورية واتساعها وسّع امامها مجال القبس في امور العبادة والذين ، لم تقف الحدود الجغرافية حائلاً دون عملية الاختيار والاصطفاء . فالملاقات التجارية التي كانت تستأنف بسهولة في فترة ما بين حربين ، كانت تحمل مع السلع التجارية ، آلهة وعبادات جديدة .

فباستثناء افريقيا القرطاجية القديمة - وقرطاجة جزء لا يتجزأ من الشرق - كان من الطبيعي جداً ان يقل اقتباس روما من الديانات والعبادات المعمول بها في الغرب . فهي لم تقف موقفاً معادياً لهذه العبادات ، ولم تضطهدا قط ، انما تشددت في تحريم القرايين والذبايح البشرية ، كما راحت تجتث من الاساس ، في غالبا ، لاسباب سياسة محضة ، المنظمات الدرودية وتشكيلاتها الكهنوتية . فالمذنيات التي قامت فيها مثل هذه الطقوس الدموية ، هي من التأخر ، في نظرها ، بحيث لم يكن بين هذه العبادات ما يغري بالاقبال عليها . ورغبةً من الموظفين الرومانيين في اكتساب

عطف احد الالهة المحليين واستمالته ، وعملًا بإيمانهم بقوة إلهية شاملة تتجلى بكائنات متعددة الاشكال ، راحوا يقدمون ، هنا وهناك ، حتى من كان بينهم من أصل ايطالي ، وفقًا لظروفهم الادارية والتنقلات التي تفرض عليهم من جانب الادارة المركزية ، بعض القرابين والندور لبعض هذه الالهة التي هي موضوع عبادة محلية ، في اسبانيا او في غاليا . ثم ان طبيعة الجيش الروماني وطريقة تشكيله وتكوينه من عناصر عرقية متباينة ، وتنقل فرق هذا الجيش من مركز الى آخر ، كثيرًا ما تسبب في توطين احد الالهة الغريبة عن البلاد ، في المنطقة المرابط فيها الجيش ، فتظهر فيها طقوس وعبادات جديدة . ففي بعض فرق الحبال مثلاً ، نرى الإلهة إيبونا الغالية ، تزاخم بصورة غير متعادلة ، عبادة الإلهة التراقية الاصل « هيرون » التي انتشرت تكرمها والتعبد لها بين الاوساط العسكرية الهلينية ، وغير ذلك من الشواهد والامثلة التي تبقى ، مع ذلك حوادث فردية لا كبير شأن لها . فروما لم تقتبس من الغرب ، في الدين ، شيئاً يذكر . فهي ، على عكس ذلك تماماً ، اعطت الغرب كثيراً من طقوسها وعباداتها الاصلية كما اعطته عبادات اجنبية بعد ان اضفت عليها لبوساً رومانياً ، او انها كانت ممرًا لهذه العبادات في انتقالها من بلد الى آخر .

وقد حدث عكس ذلك في الشرق تماماً ، حيث نشاهد عملية إلباس تفوق الشرق وتساميه الديني
الالهة المحليين لبوساً رومانية . فالإله بعل ، الذي كانت موضوع عبادة في مدن سوريا كهليوبوليس (بعلبك) ودمشق ، والإله دوليخه الذي كانت عبادته تقام في مقاطعة كوماجين والذي اخذ الاغريق بتسميته زفس استحال المشتري « جوبتر » عند الرومان ، دون ان يجري تجريده من الصفات والمتاقية التي عرف بها في موطن عبادته الاصلية ، كما حاول الغرب السير على هذا النهج ذاته مع الالهة التي اقتبسها ، دون ان يبدل من عبادتها وطقوسها الدينية . فقد اقتبست روما الكثير ، دون ان تعطي الشرق شيئاً يذكر ، وذلك بالرغم من موقف اباطرتها المعارض ، الذين لجأوا ، للحد من هذه الحركة ، الى اساليب شتى من العنف والشدة كالنفي ، ان لم تقل الاضطهاد ، صاحبها حوادث اعدام بالجملة . فبعد ان تم لاوغسطس النصر على انطونيوس وكليوباترا ، اخذ على عاتقه إصلاح الديانة الرومانية وبعث مناسكها ومراسمها من جديد ، فوقف في وجه هذا التيار للحد منه . وسار سيرته طيبساريوس ونهجه نهجه بصورة اشد واعنف . ثم عقب ذلك فترة من التساهل والتسامح والقبس من جديد لم يكن الاباطرة قط بغرباء عنها .

هنالك دوافع كثيرة وبواعث عدة لهذا الاندفاع الشديد الذي لا يقاوم . فالشرق أمدّ روما بالكثير من الأفكار الجديدة والنظريات الفلسفية على اختلاف ألوانها من سياسية واقتصادية وفكرية ، كما أمدّها بالكثير من الرجال والأرقاء الذين امتازوا بمحبة الذكاء وبالمرونة ، وبالخدمات التي أدّوها لأسياهم ، كما أتاحت لهم حركة العتق التي نشطت بين صفوفهم ، مخالطة جميع الطبقات الاجتماعية . ومع هذا الدفق من المعجزات ، وهذه المحاري الفكرية التي دخلت روما ، دخلها في الوقت ذاته ، صدر كبير من آلهة الشرق وما لها من عبادات ومراسم وطقوس ، عرفت

ان تستبد بنفوس الرومان ، وتملك عليهم مشاعرهم ، وذلك بما أضفت على الحياة الدينية من أشياء لم تكن معروفة عندهم من قبل ، لقيت هوى في قلوب الرومان لإشباعها منازعهم الروحية ، وعرفت ان تحتذيه وان تغريهم على اعتناقها . وهذا الاغراء او الانجذاب خضع له الاغريق من قبل ، قبل ان تضعهم فتوح الاسكندر وجهاً لوجه مع الشرق ، فكان لها الوقع الاسر نفسه على الرومان ، للأسباب ذاتها . فهذه الطقوس الجافة والمراسم الباردة التي كان يحتفل بها رسمياً باسم الدولة وتجري برئاسة أولي الامر فيها ، كانت تتجه من الفرد دونما نظر الى وضعه الاجتماعي ، اذ كان يجد نفسه معها امام آلهة قريبة الى نفسه ، بعد ان احسن تجريدها مما أضفوا عليها من مسحة الخلود والجبروت والقسوة ، وهي آلهة جاشت مثله بالاحاسيس والمشاعر : كالخوف والقلق والحب ، تتألم وتموت ثم لا تلبث ان تنفض عنها غبار القبر ، تاهضة مشرقة ، جياشة بالحياة ، تشبه بالطبيعة . وكثيراً ما كانت هذه الطقوس تثير في نفسه الشجى والأسى ، كما تثير فيه الرجاء بالخلاص بعد قيامه ، بما توجب عليه من مراسم الوضوء والتطهير والنضج ، جسدياً وروحياً ، بعد ان زكت وطابت بهذه القرابين التي يرفعها لها عن رضى وطيب خاطر . ففي مشاركة القوم هذه الاحتفالات وما يجري فيها من طقوس العبادة ، وفي مشاركتهم الأسرار الدينية ، كانت نفوسهم تقع في شبه المخطاف وذهول روحي ، بعد ان خلصت من ادران المادة . وكانت هذه الطقوس في مراسمها المختلفة ، تفسيراً لهذا الكون وتعليلاً لأسرار الحياة ، وذلك باسراكها الفرد نوعاً ما ، في عمل القوى الغامضة التي تسيطر على مصائر الانسان ، كما تعطيه ، عن طريق السحر والنجامة ، مسحة من العلوم الطبيعية . وهكذا أشبعوا بهذه المراسم ، شتى الرغائب والمنى التي كانت تجيش في النفس البشرية ، بينا طقوس الاحتفالات الرسمية كانت تجري في جو بارد ، جاف ، عارٍ من الوقار الرسمي ، برئاسة وإشراف ممثلي السلطة .

ولكن هيات ان يأتي هذا الفوران الديني خالياً من الشوائب . فقد الغوران الديني في الشرق راح فريق من المشعوذين والممخرقين ، والسحرة والمنجمين ، والجوسية والمريدين الكلدان ، واتباع إيزيس ، ممن عجزت بهم روما افواجاً وفتراً لا حد لها ولا حصر ، يستثمرون سذاجة عاطفة هذه الجماهير الدينية ، بالرغم من سهر الشرطة واستعمالها الشدة احياناً ، وذلك بما يأتونه ، مأجورين ، من الأعيب تنزّي بالخداع والغش والتضليل . فاذا ما رأينا انفسنا عاجزين اليوم عن تحديد التبعة التي تقع على جوفنا في ما نتم به من الافتراءات التي غلف بها الشتائم التي كالمها ، فقد وجد في هذه الاعمال المشبوهة ما يغذي حقد الحقيين . ولكي يلهبوا الاخيلة ويهيجوا الأعصاب ، لم يكونوا ليتورعوا قط عن اللجوء الى أقذع الوسائل وان يفتعلوا الحوادث الغامضة . ليثيروا دهش الجماهير فيقيموها ويعدوها ، فينصبون في الأماكن التي تجري فيها حفلات الاشتراك بالأسرار الدينية ، التماثيل الناطقة او المتحركة ، وأطيان من الصوت والضوء ، والابواب التي تنفتح او تغلق من ذاتها ، والتنكر بالازياء والملابس الغريبة اثناء الحفلات الدينية ، والآلات الموسيقية الصائتة ، والهناتفات المستيرية والصياح المهتاج . فن الطبيعي جداً

ان تتحرك مشاعر الجماهير وان تهتاج ، وان يطفو عليها زبد الطفيليات و نزق المتطرفين والروافض وأعمالهم النكراء : فالحفلات الخاصة بقطع العنق *gui* ، وتمثيل بعض الاسرار الدينية المخالفة للأداب العامة ، او حفلة رش المؤمنين بدم الذبائح ، كلها أمور وشؤون من شأنها ان تثير في نفوسنا اليوم الانقباض والاشمئزاز. ولكن ، هل كانت بعض الطقوس الدينية الأكثر مراعاة للتقاليد ، بأقل إثارة لأذواق المعاصرين اليوم ؟ ان تاريخ الاديان المقارن يقدم لنا أكثر من مَثَل وشاهد على ان التقوى والورع كثيراً ما تلبسوا بظواهر انقبضت لها النفوس ، وأثارت المقت والكراهة ، ومع ذلك يجب ألا يغرب عن بالنا قط ، ان الطقوس الدينية الشرقية التي اقتبسها الرومان ، بعد اليونان ، غذت نفوساً وأعدت قلوباً عرفت بنبل الاخلاق والمبادئ السامية .

وقد زخر الشرق بمثل هذه الديانات وخصبت فيه العبادات . وهذا الخصب الذي افتر عنه منذ ألوف السنين ، لم يبد ما يشير الى انه أصيب بالنضوب والنزوح . فطلوع النصرانية ليس بالشاهد الوحيد على هذه الخصوبة . فلنقتصر هنا على الدليل الذي تمدنا به ، بكثير من التفاصيل المثيرة ، وان لم تكن كلها صحيحة ، الرسالة النقدية التي وضعها لوكيانوس *Lucien* بعنوان : « الكسندروس او النبي الكاذب » يقص فيها على لسان احد الملحدن الكفيرة ، مولد احد الآلهة المعنيين بالكشف عن طوابع الغيب ، في احدى مدن بفلاغونيا الصغيرة ، يُعرف باسم ابونوتيخوس ، في عهد الاسرة الانطونية . وهذا الإله تلبس صورة أفعى لها رأس انسان ، عُرِفَ باسم غليكون وهي تجسيد للإله أسكلابيوس . وقد راح الكسندروس بوحى من الآلهة يستقبل الإلهة وأحلها محلاً لانفاها ، في احد المعابد ، واخذ يحجب باسمها على الاسئلة التي يتلقاها او تطرح عليه ، ويرد عليها بهاتف صوتي يخرج من قعقة جهاز تألف من عدة مواشير او انايبب رُكبت على وضع خاص . ومثل هذا الهاتف كان يكلف طالبيه أغلى بكثير من الهواتف العادية الاخرى . وسواءً أصححت ام لم تصح ، تُهم التفضيل والخداع التي عزاها لوكيانوس للقائمين بهذه الألاعيب ، فالمهم في الامر تلاقي مثل هذه المعلومات وصهر هذه التقاليد والاساطير المتباينة الاصل والمنشأ في ألفة قائمة ، وذلك بفضل مذهب توحيد الآراء ، في الحقلين الروحي والطقسي الذي كان ضارباً أطنابه اذ ذاك . كذلك من المهم ايضاً هذا النجاح البعيد ، المستمر ، تلقاه هذه العبادة الجديدة ، وهو نجاح بلغ من الشدة والقوة بحيث ان احد اعضاء مجلس الشيوخ ممن تولوا منصب القنصلية في روما من قبل ، وأصر فيما بعد ، لالكسندروس المذكور أعلاه ، نقل الى الامبراطور مارك اوريل ، هاتف غيب ، يدعو الامبراطور للقاء أسدين في نهر الدانوب فيؤمن بذلك ، النصر على البرابرة . اما شاهد الاستمرار فيقوم في ان ، بالرغم من وفاة الكسندروس ، حوالي عام ١٧٠ ، نرى نقوداً تضرب في بلدة ابونوتيخوس التي اصبحت تعرف في عهد مارك اوريل بـ : إيونوبوليس ، وهو اسم مجهل وجه التسمية فيه ومعناه ، انما بقي باسمه الحديث : اينبولي ، وتحمل صورة غليكون ، بعد ذلك بخمس وسبعين سنة .

هذا المثل ضربناه ، يرينا الى اية درجة بلغ الاختار الديني في ربيع الشرق بعد الازدهار العظيم

الذي نعمت به الامبراطورية ، والسهولة التي كانت تتم بها اتصالات الناس بعضهم ببعض ، فجاء ذلك يكمل الفوران الديني والغليان الروحي الذي طبع العهد الهليني من قبل . فعبادة الإلهة تيسخه خسرت كثيراً من جراء الطابع الرسمي الذي اتسمت به عبادتها . ومثل هذا الأمر لم يخل من اثر بّين على طالع الامبراطور والمدينة او الجماعة . فالاهتمام بامر الخلاص ، وتوق النفس البشرية اليه ، كل ذلك أوجب حلولاً اكثر فردية وتحللاً من الرسمية الجامدة : فلم تلق يوماً الآلهة الصانعة العجائب ، والآلهة التي في ظقوس عبادتها اسرار ، من الزواج ، ما لقيته ، اذ ذلك . فقد تكاثرت انواع هذه الآلهة واصنافها ، وكانت تماثيل سيرايس وهي من الفئة الاولى ، تنافس اسكلابيوس ، كما نافست تماثيل ديونيسوس ، وهو من الفئة الثانية . كذلك انتشرت عبادة هذه الآلهة الشنيعة واقامت لها هياكل ومعابد في اماكن كثيرة : منها هيكل برغاموس على اسم اسكلابيوس ، حيث رأى والد الطبيب المشهور جالينوس حلاً أوحى فيه اليه بوجوب تعليم ابنه الطب ونال هذا الهيكل من سعة الشهرة ما وازى الشهرة التي تمتع بها هيكل أبيدور . فاینما يتجه المرء كان يطالع ناطقون بهوائف الغيب ، من كل شكل ونوع ، يتوافد اليهم ، للكشف عن طوابع الغيب واسرار المستقبل ، اكثر الناس اخذاً بأسباب الثقافة ، وتصديقاً منهم للغرائب والمدهشات التي طالما نمتوها بالمعجزات ، او سعيّاً وراء تفسير الرؤى والاحلام . وانتشرت بالتالي اعمال النجامة لاستطلاع طالع الأقدار المحبوبة أيما انتشار . وهذا الاتجاه العام الذي بلغ الجوس ، نحو القوى الخارقة للطبيعة ادى الى حركة شاملة من تبادل الطقوس والعبادات ومزجها بعضاً ببعض .

العبادات الشرقية
في الغرب
كل هذا السيل الجراف من عديد الآلهة ومناسك عباداتها وطقوسها الغربية الطابع ، سواء أصدرت من الشرق عامة ، او من هذا الشرق الخاضع لسلطة روما وسيادتها ، او من هذا الشرق الأبعد ممثلاً ببابل وايران ، الخاصتين للغاريين ، اندفع نحو الغرب ، فاغرق ايطاليا وروما بسيله ليتجاوزهما أبعد الى الغرب : الى الولايات اللاتينية اللسان واللغة .

فما من إله شرقي قط ، الا ونرى أتباعه ومريديه يروجون له لدى جميع الشعوب ، وفي كل صقع وناد ، جاهدین مجاهدين لكسب المزيد من المريدين . فمن المغرب الأقصى الى اصقاع بانونيا في شرقي اوروبا ، نرى افراداً في الجيش الروماني من اصل عربي يُحيون مناسك آلهتهم الوطنية وقيمون مراسم عبادتها ، كالإلهة ثياندروس ، ومنف . من الثابت كذلك ان بعض المواطنين الرومان من الافارقة اصلاً ، ادوا خدمتهم العسكرية ، في الفرقة « التدمرية » فادخلوا طقوسهم الدينية الى بلدة القنطرة في المغرب ، ومنها جنوباً الى لاغوات ، وقدموا نذوراً لإله بليريا : ملاغبيل . فمن غير ان نأخذ بتعداد هذه الطقوس والعبادات المختلفة ، نقصر منها على تلك التي لقيت عبادتها رواجاً اكبر . « فربة الآلهة » سيبيل ، الفريجية الاصل ، جرى توطينها في روما منذ نهاية القرن الثالث ق.م . الا ان عبادتها وتكريمها وفقاً للطقوس الشرقية ، لم تصبح رسمية الا في عهد الامبراطور كلوديوس ، عندما أدخل الى روما عبادة الثالوث الذي تألف من ابنها

وعشيقها أتييس . وقد احتاط الامبراطور للامر عندما راح ينظم هيئة الكهنة الذين عهد اليهم بالكهانة لهذه الإلهة . الا ان ام مادة في هذا التنظيم بقيت حبراً على ورق : ففي الحين الذي كان فيه القوامون (Archigalles) على هذه العبادة يُختارون من بين المواطنين الرومان وتجري تسميتهم في روما ، من قبل مجلس الشيوخ ، وفي الملحقات ، من قبل الادارة المحلية ليتولوا رئاسة خدمة المعابد ، كنا نرى مُعدداً (Galles) من الحصيان ، يمارسون ، بالرغم من الشرائع والقوانين التي كانت تمنع الخصاص وتحرمه ، هذه المراتب الدينية في بلدان لا تقع في آسيا ، وهي القطر الوحيد الذي سمح بقيام هؤلاء الحصيان بمثل هذه المراسم .

وكان هؤلاء الكهان يحتفلون بهذه الطقوس ، علانية في شوارع المدن خلال فصل الربيع ، في مواسم يستمر الاحتفال بها ١٣ يوماً متواصلاً . وكان يسبق هذه الاعياد مراسم من الصوم ، وطقوس من التطهير تشبه هذه الطقوس التي كانت تذكرنا بقصة أتييس وما اليها من نوح النائحين وندب الناديين ، وتشويه الرافضة اجسامهم بصورة وحشية تقشعر منها الابدان ، خلال حفلة الجنائز ، تمازجها قهقهات صاخبة من الضحك خلال تمثيل عملية قيامها من بين الاموات . والحفلة الوحيدة المعروفة تفاصيلها لدينا بالتدقيق ، هي تلك الحفلة التي كان يرافقها ذبيحة الثور Taurobole او الكبش Criobole ، اذ كانت ترمز الى انتقال عنصر الحياة من الضحية الى الانسان الذي يُنضح بدمائها ، فيكون ذلك عربوناً لخلوده ، ويُرمز الى دفنه في القبر بوجوده في حفرة ، والى تنقيته من ادران الخطيئة وتجدهه ثانية . كما ان في ذلك إشارة الى الولاء السياسي وان كنا لنجمل وجه الرمز في هذه الضحية التي كثيراً ما تقدمت لخلاص الامبراطور ، واحياناً لخلاص افراد أسرته .

وكان يشارك سيراييس في هذه العبادة ، الإلهة المصرية إيزيس التي ما لبثت ان تغلبت عليها . فبعد ان حظّر كل من اوغسطس وطيباريوس الاحتفال بمراسم هذه العبادة في روما ، راح كاليفولا يعترف لها بحق المواطنة . ومنذ ذلك الحين احتُفل بأعيادها وطقوسها بكل حرية دون ان يثير الاحتفال بها أية معارضة . وما ان أطلت سنة ٦٩ حتى كان لها هيكل ارتفع على هضبة الكايبيتول . واضطر يوماً الامبراطور دومتيانوس ان يتنكر بزي أتباع ايزيس لينجو من مطاردة جنود خصم ابيه له . وكانت مناسبة الاحتفال بأعيادها مجلى لحشود شعبية ضخمة ، ويقوم على مراسمها طغمة من الكهان بثيابهم البيضاء ، حالقي الشعور ، يسرون وثيداً ويقيسون خطاهم على وقع انغام الزمر والقيثارة . فتتمتعري الجميع هزة من الغبطة والفرح بعد بكاء ايزيس وذرفها الدموع سخينة على جثمان اوزيريس . وكانت تقام مع هذه الاحتفالات اسرار من شأنها تأمين الحياة في دار البقاء للريدين . واذا كانت هذه الطقوس تفرض على المؤمنين واجبات قاسية وفرائض شديدة من الوضوء والتطهيرات ، كالاستحمام في مياه نهر التيبر خلال فصل الشتاء القارص ، فقد كانت ، من جهة ثانية ، تعبيراً ، ولا شك ، عن كفارة تعيد الى الخطاة نقاءهم الروحي . وكانت ايزيس تبرز للناس : الإلهة المثلى بين اناث الآلهات ، وذلك حسبما تصورها

التقاليد المتوارثة، في حناها الأموي وضاعتها القوية. وكان أتباعها يقومون بعملية إزالتها هذه الفوارق في ما هو لصالح هذه الإلهة. «ها أنا ذا»، نراها تؤكد في آخر أسرار *Métamorphoses d'Apulée* ، قبل أن توحى إلى الحمار لوسيوس المسوخ ، بكيفية استرجاعه شكله وقوامه البشري ... «ها أنا ذا» القادرة ، الوحيدة التي تعمّ عبادتي الأرض كلها بأشكال مختلفة ، وطقوس متباينة، وتحت مسميات لا حد لها ولا عدد، بعد أن عُرِفَت بأسماء : سيبيل ، ومنيرفا ، والزهرة ، وديانا ، وبروسيرين ، وسيريس ، ويونون وبللونا ، وهيكاتا ونمزييس .

لنضرب صفحاً هنا عن الإلهة السورية أترغاتيس هيرابوليس ، وقد راحت زمرة من الحُصيان تطوف المقاطعة تجمع لها ، على نعم المزار ، التقادم والعطايا التي يحود بها المتعبدون لها . كذلك ، لنضرب صفحاً عن الإله الساميّ الاصل : بعل ، بأشكاله وصوره المختلفة ، منها بعل حص الذي رُفِع ، لفترة قصيرة ، إلى مصاف الآلهة العظام في الامبراطورية، وعقد قرانه على الإلهة شلستس ، أي الإلهة تانيت ، إلهة قرطاجة ، وذلك بفضل عبادة وغيره رئيس أحبارها : إيلاغابال *Elagabal* الذي تولى ، من سنة ٢١٨ - ٢٢٢ ، مقاليد الامبراطورية الرومانية . إلا أن التطور العظيم الذي عرفته هذه العبادة فيما بعد ، يحملنا على أن ننوّه هنا باسم الإله ميثرا *Mithra* .

هو إله فارسي المنشأ ومن المرتبة الثانية بين آلهة الإيرانيين القدامى . وقد تطورت عبادته فيما بعد بما أضيف إليها من لواحق وزوائد اقتبسها من الطقوس الآسيوية السامية . وقد تجلّى للناس كالنور والشمس ، وارتبط اسمه بالنظام الكوني ، يحمل بين يديه الظفر والخلاص كما يهب الفضائل الكبرى : للحقيقة ، والولاء ، والإخاء ، واحترام القسَم . وقد انتشرت عبادته فعمّت جميع أنحاء الامبراطورية ، وأقيم له ، بفضل العناصر الشرقية العاملة في الجيش الروماني ، من الهياكل والمعابد ما نعجب لكثرتها في ضواحي نهري الرين والدانوب . وقد كان له بالطبع أتباعه ومريدوه الكثر في روما ، بحيث أن الامبراطور كومود مّمّه أن يشترك في أسرار عبادته ويدخل عضواً في هيئاتها . وكثيراً ما كانوا يعبدونه في المغاور والمنحنيات المعزولة عن الناس ، فتبرز نافذة صور الإله الشاب مرتدياً ثياباً شرقية ومعتمراً قبّعته الفريجية بعد أن أرغم إلى الأرض ثوراً ضخماً وأدامه . وبعد مدة طويلة من الاختبار يمر بها المريد ، يخضع لمراسم أشبه ما تكون بمراسم العباد ، وإذا ذاك فقط يحق له الاشتراك عملياً بالاحتفالات الطقسية وما يتخللها من ولائم . وكانت عملية الاطلاع على أسرار المذهب لا بد أن تقطع سبع مراحل أو مراتب هي مرحلة : الغراب - الخاتم - الجندي - الأسد - الفارس - بريد الشمس ، إلى أن يصل في خاتمة المطاف إلى « أبي الآباء » . وكل مرتبة من هذه المراتب توجب على صاحبها واجبات أدبية ومراسم طقسية عليه أن يتقيد بها بدقة . وكان يترتب على الضالعين في أسرار عبادة هذا الإله أن يتحلّوا بالصبر ، وبخالدة النفس ، وطول الأناة بحيث يُسهمون في إعلاء الخير على الأرض ، لينالوا المثوبة التي عرفوا أن يستحقوها ، يوم الدينونة العظيم ، برئاسة الإله ميثرا .

وهذا النجاح العظيم تلقاه عبادة هذا الإله جاء صدمة عنيفة للعرف العام إذ جاء دليلاً ، إذا ما اعوزنا الدليل ، على مدى النوازع الدينية في الامبراطورية الرومانية وإقبالها بتوق ، على تجديد وتبني إله ، وتعاليم دينية اقتبستها من ايران وهي إذ ذاك أعدى اعداء الامبراطورية الرومانية ، واحاطته بمثل هذه المظاهر من التبجيل والتكريم ، وأحلتته من آلهتها مثل هذا المحل الرفيع . وقد حملت عبادة هذا الإله الاجنبي المنشأ الغريب الاصل ، معها ، للنفوس العطش وللقلوب الظمأى تقوى حية ، وسموا في الآداب والاخلاق لم نعرف له مثيلاً عند الرومان من قبل . ومنذ القرن الثاني اصبح الوثني شخصاً نكاد لا نميزه ولا نتبين معاملة . فهو انسان يختلف تماماً عما كان عليه في زمان كاتون ، حتى وفي عهد اوغسطس نفسه .

٣- البيانات الموحدة وأتباعها

هذه المستحدثات الدينية تمثلت في ديانتين رأتا النور في الشرق ، هما اليهودية والشرك والتوحيد المسيحية . فكيف نفسر ، والحالة هذه الموقف العدائي الذي وقفته منها الامبراطورية الرومانية ، بعد الموقف اللين ، المطوف ، الحليم ، الذي وقفته من الديانات الشرقية الاخرى ؟ فبعد ان وقفت منها هذا الموقف الحشن والعنيف احياناً ، عادت فألانت لها الجانب وتركت لها مجال العمل حراً طليقاً وعملت على تشجيعها . فبعد ان وقفت من اليهودية والمسيحية موقفاً متساهلاً في بادىء الامر ، عادت فقلبت لها ظهر المحن ولجأت الى القوة والعنف للحد من انتشارهما .

فالمنطق السليم يدعونا للظن بان ما امتازت به هاتان الديانتان من طابع التوحيد الذي فردتهما ، جعلهما غير مقبولتين لدى الوثني المشرك . فقد كان يسلم بآلهة غير الآلهة التي يعبدونها شريطة ان يسلمواهم بالآلهة التي يؤمن بها هو ويقول بوجودها ، اذ ان تعداد الآلهة وتتوعها من شأنه ان يفتح المجال اما للانتقاء والاختيار بين هذا العديد من القوى الفائقة الطبيعة ، ولكل منها قيمته ومنزلته ، يمكن التوحيد بينها في عملية إزالة الفوارق المتضادة وبالباسها شيئاً من الصفاتية المشتركة ، نسج خيوطها الاغريق من قبل ، ونسج على المنوال نفسه الرومان من بعد . فليس شيء من هذا مع التوحيد او عقيدة وحدانية الله ، وهو قول يجمع في نظر المشرك الخطل في الرأي ، والعناد المتشاوف والتعصب الشديد . ففي هذه المقالة نفي جذري وحكم قاطع ، لا استثناف فيه ولا تمييز ، في نظر القائلين بوجود آلهة اخرى ، فضلاً عن ان رفض عبادة الامبراطور من شأنه ان يخرج الحكومة عن موقف اللامبالاة تقفه ازاء الاديان .

فاذا ما اخذنا بهذا التعليل والتخريج نكون اعطينا أهمية كبيرة لمتناقضات متعاندة نظرياً . فالتاريخ السابق لليهودية وضع ملوكاً فاتحين امام مشاكل من هذا النوع ، قبل ان يواجه الرومان شيئاً منها ، وقبل ان يُعَمَّيَّ الاباطرة الرومانيون انفسهم بها ، كما ان أمثلة مستمدة من تاريخ الامبراطورية الرومانية تنطق جلياً بما تم من تساويات في مثل هذه الظروف العارضة . فالاصطدام

الاشد خطراً انما قام فعلاً ، على صعيد أدنى بكثير ، ونشأ من مواجهة وضع بعينه قائم في ماجريات الحياة اليومية . فالحقد والعداء ، كثيراً ما ظهر من الجماهير التي تنكرت لغرابة الطقوس الجديدة والتعاليم الاخلاقية فأحدثت فيها صدمة دونها بكثير الصدمة التي أحدثتها التعاليم الدينية المستحدثة . فالحكومة تستجيب عادة لردة الشعب وقل ان تسبق الجماهير الى الخطوات الاولى ، فلا يستحوز عليها القلق . ويضطرب منها البال بصورة عفوية وبغير حدوث سجنٍ او اضطراب الا عندما تأنس خطراً كبيراً يهدد مصالحها السياسية ، ومثل هذا الأمر لم يحدث الا ما ندر .

وعذر اليهود ، في نظر الرومانين هو انهم يعبدون إله آبائهم . فكان تمسكهم اليهودية واليهود العنيد بالناموس وبشريعتهم ، هو مثار فخارهم عبر التاريخ الذي ربطهم بروما منذ القرن الثاني قبل الميلاد . فقد عرف زعمائهم ان يؤدوا لهم خدمات تذكر وان يظهروا ولاءهم في الوقت المناسب : لقيصر اولاً ولاوغسطس ثانياً ، خلال الحرب الاهلية التي مزقت البلاد ، فقدّر لهم اوغسطس موقعهم هذا وبدا نحوهم متساهلاً ، لين الجانب أحياناً .

إلا ان خلفاءه من بعده احتلوا بلادهم واضطلعوا فيها بمسؤولية الادارة بينما حرص اوغسطس ان يترك شؤونها الداخلية للملك توابع . وقد جاء تعيينهم لبعض الولاة غير موفق ، لابل سيء الطالع ، كثير الشؤم ، اذ كان لا بد للحاكم الروماني من لباقة ومقدرة ادارية تقارب الاعجوبة ليستطيع معها تفادي الاحداث لكثرة الاسباب التي تولدها . وقد توزع اليهود الى شيع وانقسموا فيما بينهم الى طوائف عديدة متشابكة متداخلة ، اقامها بعضاً على بعض ما بينها من اختلاف في الرأي والنظر ، حول قضايا كثيرة تتعلق بالعقيدة والتشريع وطقوس العبادة لدرجة نعجز معها عن تعدادها والتعريف بها . من بين هذه الفرق : فرقة الفريسيين وفرقة الصدوقيين^(١) . فقد عرفت الاولى بتصلبها وتمسكها بتفسير الناموس وتطبيقه حرفياً بينما استمسك اتباع الفرقة الثانية بالناموس المكتوب ، ومنها كذلك فرقة الأسنين (الورعين - القديسين) الذين كانوا يعيشون هائثين ، جماعات معاً ، في عزلة تامة عن العالم ويخضعون لنظام وقوانين القت عليها اضاء كاشفة ، مجموعة المخطوطات النادرة التي عثروا عليها حديثاً بجوار البحر الميت . من بين هذه الفرق كذلك فرقة المغالين او الرافضة (Zélotes) التي عرفت بشدة طباعها وبجها للقتال ، الأمر الذي حدا بالرومان الى تلقيب اتباعها بـ القتل Sicares المشتق من كلمة Sica اللاتينية ومعناها : الخنجر ، اذ كانوا دوماً على استعداد لينتصوا لخنجر ويستعملوه للتخلص من خصومهم السياسيين . وقد بلغ من شدة هوسهم وضغائنهم ان راحوا يقدفون الكهنة باقذع التهم ويرمونهم بالخيانة ، والمروق عن جادة الدين اذا ما أنسوا فيهم ميلاً الى مصانعة الحكم الروماني في البلاد . ولعل ما هو ادهى من هذا كله المنازعات التي كثيراً ما شجرت بين سكان المدن خارج اليهودية ،

(١) نسبة الى صدوق رئيس الكهنة في القدس ، خلال عهد الملك داود .

بين اليهود والوثنيين أدت الى معارك دامية بين الطرفين . ولا بد من الاعتراف هنا ان المحافظة على الهدوء والنظام في فلسطين كان عبئاً ثقيلاً ومطلباً عسيراً ، فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تضطر الفياق الرومانية للتدخل في الامر واعادة الهدوء الى نصابه بدون رحمة او شفقة .

غير ان هذه القضية او قضية اليهود لم تكن مقتصرة على يهود فلسطين . ففي الخارج جوالي عديدة منهم بعد ان بدأ شتاتهم (*Diaspora*) باكراً منذ القرن السابع قبل الميلاد مع سبي العديد منهم الى بابل . وقد ازدادت حركة تشتتهم اتساعاً مع توالي الحكم الاجنبي على فلسطين وانتقاله تبعاً الى الفرس ، فالبطالسة فالسلوقيين ، فالرومان . ومنذ انتهاء العهد الجمهوري ، كان يوجد في معظم مدن الشرق الكبرى جاليات يهودية قامت منها في روما نفسها جالية مهمة تجاوز عدد افرادها الألوف ، مما حمل طيباريوس أولاً ثم الامبراطور كلوديوس على اتخاذ تدابير شديدة ضدهم ، منها النفي والاجلاء ، دون ان يكون لها تأثير يذكر . وبلغت هذه الجوالي شأناً كبيراً في عواصم الشرق الكبرى كإيطاكية ولاسيما الاسكندرية الواقعة على مقربة من فلسطين . وقد اخذت هذه الجوالي ، منذ عهد بعيد ، بالجانب الثقافي من الحضارة الهلينية حتى ان بعض افرادها وقعوا تحت تأثير الفلسفة والادب اليونانيين وهذا يبدو واضحاً في آثار فيلون الاسكندري الكتابية اذ راح في القرن الاول ، يفسر حوادث التوراة تفسيراً مجازياً ، منها ظهور يهوه ومدخلاته في شؤون بني البشر . وهكذا توصل بفضل ما اقتبس من نظريات افلاطون وزينون الفلسفية ان ينسخ كل اتصال مباشر لله مع العالم الخارجي . ومع ذلك بقي عدد المارقين والمعطّلين ضئيلاً جداً ، بينما راح السواد الاعظم من اليهود في الشتات يمتصون باهذاب الدين ويستمسكون بالناموس الاسرائيلي . ولذا لم تذب هذه الجوالي في الاوساط والمجتمعات التي عاشت بينها ، حتى في حال تمتعها بالرعاية المحلية والرومانية منها . فليس بمعجيب قط ، ان يشعر نحوها سكان المدن ، ولا سيما اليونان منهم بشيء من الكره والاحتقار ، بالنسبة لآخلاقهم وعاداتهم الخاصة ، دون ان نرى اثرأ لاي عاطفة او شعور تم عن قطيعة اقتصادية . حدث ولا شك في ذلك ، ارتدادات بين الوثنيين اعتنقوا اليهودية . ولكن ليس عندنا اية فكرة عن عددها : كثيرة كانت ام نادرة ؟ ولعل هؤلاء المرتدين قد اقتصروا إجمالاً ، بسبب الحتان ، على ان يكونوا في عداد « خائفى الله » بعد ان أخذوا بالديانة اليهودية ، فقتنوا منها ببعض التعاليم والوصايا ليس الا . وقد بقيت غالبية السكان في المدن تكن لليهود بغضاً وعداءً ، كثيراً ما ادى الى مشاجرات لم تكن بذات بال الا انها لم تلبث ان استحال الى اشتباكات دامية . فقد ارسلت كل من جوالي اليهود والاغريق في الاسكندرية ، وفوداً معاكسة ، الى الامبراطور كاليغولا ، يرأس الاولى فيلون ، ويرأس الثانية العالم اليوناني أبيون . وكم رأى ولاية الرومان انفسهم مضطرين للتدخل لاعادة السلام الى نصابه والأموال الى مجاريها بين الكتل والفئات اليهودية التي شجر بينها من الخلافات ما عكر صفو الأمن ، قام بعضها من جراء الكرازة بالنصرانية الناشئة حديثاً .

وبالاختصار ، فقد كان اليهود في نظر السلطات الرومانية شعباً صعب المعاشرة ، صعب

الانقياد والحكم، كما كانوا من جهتهم، برمين بسيطرة الرومانيين عليهم يستغلون ظلها ويتخفون الفرص السانحة للتخلص منها . فهل نعجب ، بعد هذا ، من هذا التكالب وهذا العناد يظهره كل فريق ضد الآخر ، في هذه « الحرب اليهودية » التي نشبت بين الفريقين . قام منها إثنتان في فلسطين نفسها، دامت الأولى منها من سنة ٦٦ - ٧٠ وانتهت بسقوط القدس بيد القائد الروماني تيطس ، بعد حصار عنيف ممتد بضعة أشهر، استسلمت بعده المدينة وراحت طعماً للسلب والنهب والحرق والهدم . اما الثانية ، فقد وقعت في عهد الامبراطور هدرانوس ، واستمرت من سنة ١٣٢ - ١٣٥ ، بقيادة « امير اسرائيل » شمعون بن كوزيبا الذي رأى فيه مواطنوه : المسيح المنتظر الذي يخلص شعبه . وقد حدث في فترة ما بين الحربين ان اضطر الامبراطور تراجانوس الى وقف حملته ضد الفارثيين ، ليتفرغ الى إخماد فتنة واسعة قام بها اليهود في جميع مدن الشرق ، بين سنة ١١٥ - ١١٧ . وقد جرى الدم أنهرأ في كل من هذه الحروب العنيفة . ويروي لنا ديون كسيوس كيف ان يهود القيروان ثاروا في عهد تراجانوس ، و « ذبحوا الرومان واليونان وأكلوا لحومهم ، وغنطقوا بامعائهم ، ونضحوا أجسامهم بدمائهم ، وصنعوا لهم ألبسة من جلودهم ، ونشروا من الوسط عدداً كبيراً منهم ، وعرضوا جماعات عديدة منهم للسباع والضواري ، وأرغموا بعضاً منهم على العمل مصارعين في حفلات وملاهي المصارعة » . وهكذا فقد فتكوا بأكثر من ٢٢٠ ٠٠٠ منهم ، بعد ان فقدوا هم في حروبهم ضد هدرانوس ٥٨٠ ٠٠٠ قتيلاً ، ما عدا الذين قضوا لمحبتهم « جوعاً او حرقاً بالنار » . ومهايكن من تجسيم هذه الاوقام ، فهي تعطينا، مع ذلك فكرة صحيحة عن هذه الوحشية والفظاظة التي اصطبغت بها هذه الحروب التي رأى العالم الروماني نفسه امام اليهودية ليس كديانة فحسب ، بل كقومية تمثلت في مثل هذا الشعب ، وهذه الامة ، وهذه المدنية الاسرائيلية .

اما النتائج فقد كانت خطيرة ، فادحة . فقد اتسع شتات اليهود ، ونجا كثيرون منهم بأنفسهم ورحلوا عن فلسطين . وحل محلهم فيها اقوام جديدة من عروق مختلفة . وقد قام على القدس التي حُطِّر على اليهود دخولها الا مرة واحدة في السنة ، مدينة جديدة عرفت باسم : « إيليا »^(١) كابيتولينا ، وشُيد فيها هيكل لجوبيتر ، في المحل الذي كان فيه هيكل سليمان . وأُحيوا في المدينة الجديدة عبادة الامبراطور ونصبوا تمثال الزهرة عشتارت فوق جبل الجبلجة . وأجبر اليهود في جميع أنحاء الامبراطورية على دفع رسم معين ، بدلاً من الرسم الذي كانوا يدفعونه مسن قبل للهيكل ، ويذهب لخزينة الدولة ، وهو رسم زهيد للغاية : لا يزيد على عُشر الدراخم الواحد أي ما يوازي لفرنكين فرنسيين ، في عام ١٩١٤ . وبذلك تمكنت الدولة من احصاء عدد اليهود في الامبراطورية ومن مراقبتهم مراقبة شديدة . وقد حُطِّر عليهم البطالة يوم السبت كما حُطِّر عليهم لاحتان ، وهي مراسم كثيراً ما أثارت حفاظ الناس عليهم وأهاجت الشعب ضدهم . إلا

(١) هو اسم اسرة الامبراطور هدرانوس قبل ارتقائه العرش .

ان الامبراطور انطونين رأى من الحكمة التخفيف من حظر الحثان - بالرغم من بعض الاضطرابات التي قام بها اليهود - وأقصر مراسمه على اليهود وحدهم الذين يستطيعون ان يبرهنوا عن صحة محتدم . كذلك حظر عليهم القيام بأية دعوة او دعاوة للدين اليهودي .

وهذه الدعوة كان قد امتنع عليهم القيام بها امام التوسع والانتشار الذي المسيحية واليهودية حققته ديانة جديدة أطلقت على العالم من بين 'قطب اليهودية' ، فاطرحت جانباً طقوسها المتعارفة وقطعت كل صلة لها او نسب مع اسرائيل .

وعندما قام يسوع يبشر العالم بالدين الجديد، في عهد الامبراطور طيباريوس، ظن كل من سمع بخبر الكرازة الجديدة ، بما فيهم الوالي الروماني بيلاطس البنطي الذي صادق على الحكم بالموت - هذا الحكم الذي أصدره عليه رئيس المجمع اذ ذاك قيافا - ان الامر لا يتعدى ظهور شيعة يهودية جديدة . وهو أمر لم يأت عندهم شيء جديد ، وطالما خبروا منه مثل هذه الدعاوات ، بين شعب حرص دوماً على بقاء العاطفة الدينية مشبوبة بين بنيه ، وحرصت كتبه المقدسة على تغذية نفوسهم بأمل مجيء المسيح ، وفي امة أطلعت على مر السنين ، مثل هذا العدد من الشيع والمثل . ولم تكن الشيعة الجديدة، لتختلف ، في مناهج دعوتها وانتشارها وفي اوليات تعاملها، ظاهراً ، كثيراً عما عرفنا من شؤون الشيع اليهودية الأخرى . وقد راح أولوا الامر والمسؤولون عن شؤون الشعب اليهودي ، يحكون بالصلب على المسيح ، تقادياً منهم لحركة انشقاق وقيام اضطرابات بين الشعب ، للحد من دعوة ناشطة رأوا فيها الخطر كل الخطر عليهم ، وقد فاتهم ، في تصرفهم هذا التصرف انهم يبتدعون جديداً .

ففي كل بساطة ودعة ، قام يسوع يعلن للناس من ذوي المسرة ، عواطف نبيلة : اقتراب يوم الدينونة ، مهاد الطريق امام ظهور ملكوت الله ، محبة الله ومحبة القريب ، الايمان الحي ونقاء القلب وطهارة النفس من كل رجس ، وكلها تعاليم افضل من التمشي على طقوس حرفية . وعلى هذه البشارة الجديدة والمبادئ التي عمل بها وعلم، وختم على صدقها بدمه وايدها بقيامته من بين الأموات ، اسس اتباعه إيمانهم ، وهو ايمان، اهل لمعري ، بان يغري على اعتناقه واتباعه، البشر من اي امة كانوا ، ومهما كانت تربيتهم السابقة . كل هذا كان يقتضي له بالطبع ، تحديد مفهوم بعض الاشياء وتوضيحها وإغنائها ، وان يوسع نطاق الدعوة والكرازة بالدين الجديد الى مجالات اوسع من اليهود ، بعد ان اقتصرت الدعوة في بادئ امرها عليهم وحدهم .

وفي سبيل هذا التطور ، قام پولس بالخطوة الحاسمة ، وهو يهودي من ابناء الشتات ، ولد في مدينة طرسوس من اعمال كيليكيا ، حيث كان ابوه ينعم بالرعية الرومانية . كان يزاول مهنة صنع المضارب او الخيام ولا يزال الجدل يرقع بين العلماء والمؤرخين حول نوع التربية التي تلقاها والمؤثرات التي تأثر بها قبل اعتناقه المسيحية ، ومما تدين له المسيحية من اثر الفلسفة والديانة الهلينية . ومهما يكن من الأمر ، فمن الثابت انه راح يبشر الامم، فرَدَّك في هذا السبيل، وحل

الناس على رَذَل الناموس اليهودي لانه لم يعد صالحاً للاستعمال ، لا يفيد بل يضر . فالقطيعة لم تتم دون ان تحدث مشاقات بين جماعة المؤمنين الاول والكنيسة التي انشأوها في القدس وملأتهم غماً . وقد سهل القطيعة ، الاضطهادات التي تعرض لها المسيحيون من قبل السلطات الدينية . وكان من جراء الحرب اليهودية الاولى ان حملت جماعة النصارى المتهودين على الفرار من القدس واللجوء الى بعض المدن الشرقية حيث بقيت جواليهم ، عدة قرون ، بين بين ، لانصارى معروفين ولا هم يهود . ولولا هذه القطيعة لبقى باب المستقبل موصداً امام الديانة الجديدة . وقد انفتح هذا الباب على مصراعيه بفضل النشاط الذي بذله بولس . ولم تعتم ان رستخت العقيدة الجديدة أقدامها في سوريا وآسيا الصغرى اولاً ، ثم في مقدونيا وبلاد اليونان ، وحملها الى روما مبشرون نجعل امرهم قبل ان يصلها بولس ، حوالى عام ٦٠ ، ويمثّل امام «قيصر» ليحاكم ، أي امام والي الولاية ، بناء على طلبه بعد ان ابرز رعيته الرومانية .

طبيعي ان تحتاج الحكومة الى بعض الوقت لتستطيع التمييز بين المسيحيين اضطهاد نيرون واليهود . فقد اختلط الامر على الامبراطور كلوديوس نفسه ، عام ٤٩ ، اذ راح يأمر بنفي اليهود من روما وابعادهم عنها لما « سببوه فيها من الاضطرابات بسبب المدعو المسيح » . اما خلفه نيرون فقد كان اكثر احاطة بالامر واطلاعاً عليه ، ربما عن طريق محظيته بوبيه *Poppée* التي تزوجها فيما بعد ، والتي قُبِضَ للمؤرخ فلافيوس يوسيفوس ان يلقاها في احدى وفاداته الى روما ، ووصفها بانها «تبارك الله» اي انها على عادات اليهود ، كما هو مرجح . وبالفعل فقد عرف نيرون ان يميز المسيحيين لما هم هليه من وضع متميز ، حتى جعلهم مسؤولين عام ٦٤ ، عن الحريق الذي شب في المدينة ، اذ ذاك ، والتهم جانباً كبيراً منها .

وشهرة الحوادث بعينه لا تمنع من بقائه غامضاً جداً . فكل محاولة لإلقاء بعض الأنوار الكاشفة عليه هنا ، لا تفيد شيئاً لا بل هي مضیعة للوقت . فالجماهير كانت تحمل البغضاء للمسيحيين لأنها كانت تجهل عنهم كل شيء . وكانت تحمل البغض ذاته لليهود الذين لم يكونوا احسن وضعاً بالنسبة لها ، حتى في عهد تراجانوس ، اذ راح المؤرخ تاسيت ، الذي كان في وضع يمكنه مع ذلك من الاطلاع على الحقيقة ، يأخذ بالأقاويل المفرضة والتهم التي يعزونها جزافاً الى هؤلاء واولئك على السواء دونما تمييز ، وينسب اليهم جميعاً «الحقد» الذي يحملونه على الناس أجمعين . ومع ذلك ، فقد كانوا يعرفون ان بين الجماعتين أكثر من فارق يميز بينهما ، وبالرغم من الجدل والمناقشات التي دارت حول الموضوع اذ ذاك ، وأكثر الاحتمالات اخذاً بالتصديق ، راح الامبراطور نيرون ، تفادياً لنقمة الشعب وغضبه من جراء الحريق الذي التهم روما ، والذي اتهم به هو نفسه ، ينسب هذه التهمة لأقل هذه الفئات عدداً . فاذا لم تأت المبادرة من الجماهير فقد عرف ان يستغل البغض الذي كانت تجيش به ضدهم .

ومن الثابت ، على كل حال ، ان الاضطهاد الذي اعلته انما اقتصر على روما وحدها ؛ وهذا

ما يقلل من قوة عبارة تاسيت عندما يؤكد : « العدد الصغير » من اکتوا بلبیب هذا الاضطهاد الدامي ، وهو اول اضطهاد يعلن عن سابق قصد وتصميم ، وينفذ بمنهجية ، تميزت بأساليب التعذيب وأفانین العذابات التي اخضعوا لها المسيحيين . وهل من بأس في الامر ، بعد ان اصدر الامبراطور مرسوماً اعتبر جنایة تستوجب الموت ، مجرد اعتناق المسيحية . وهكذا فقد كان قرار نيرون فاتحة عهد وبدء تاريخ طويل مديد ، من التعصب الديني عبر الاجيال .

الامرة الانطونية والمسيحيون
فالاتجاهات التي كان يعقدها المسيحيون سراً ، وإعراضهم عن المناصب الاجتماعية وبها راج هذه الحياة ، ومقاطعتهم العلنية لكل التقاليد المتوارثة ، والتأثير على الموعوظين من غير اليهود للنسج على منوالهم ، وعدم اشتراكهم بعبادة الامبراطور ، والدعاية التي كان يشنها بعضهم ضد الزواج والحياة العسكرية ، كل هذه الأمور وما إليها ، أدخلت القلق على أولي الأمر ، في عهد الأسرة الانطونية . فقد كان متوقفاً من واحد من أتباع الفلسفة الرواقية ، كمارك أوريل مثلاً ، ان يقدّر عالياً قوة ارادة الشهداء وحماستهم ، ومع ذلك فلم يستطع ان يرى في مثل هذا التصرف سوى مظهر من مظاهر التعصب الذميمة ، وطريقة دعائية ليس إلا . « أي نفس هذه ، يا ترى ، التي تأنس من ذاتها القدرة على الزهد بالحياة والتخلي عنها في الحال ؟ قلت القدرة ، وعن سابق قصد وتصميم ، لا عن عناد او اصرار ، بل عن طيبة خاطر ، كما يفعل المسيحيون ، بحيث يؤثر اقناعهم ويقتنهم الوطيد ، على الآخرين ، بدون زهو منهم او مباهاة » . كما جاء في مذكراته ، بالحرف الواحد . فالمسيحيون لم يأتوا بحركة اثنان « الحروب اليهودية » ؛ هنالك ، الى هذا شعور ، بالعدالة والكرامة الانسانية ، كان يجول في خاطر الحكومة ويجعلها على سلوكها هذا المسلك . وفي هذا ما يكفي لملحها على التحلي باللين والحلم .

فاذا صح ان الامبراطور نيرون استند في المرسوم الذي أصدره الى الجريمة التي عزوها الى المسيحيين كما يؤكد ترتليانوس ذلك ، وان دومتيانوس تأثر بهذا المرسوم الى حد بعيد ، فقد ألغت الأسرة الانطونية المرسوم المذكور وأبطلت كل مفعول له . وعندما راح بلين الاصغر يستفتي صديقه الامبراطور تريباليوس ، الموقف الذي يترتب عليه وقوفه حيال المسيحيين الموجودين في ولاية بيشنيا ، بلغه رد الامبراطور بالآي يسمى اليهم ، وألا يكثرث بالسعايات الغفل التي ترده ضدهم ، وألا يصدر أي حكم على من لا يرضى منهم بالصلاة للآلهة . فاذا ما راح ، بعد هذا ، يحتاط لسلامة الاجراءات القانونية فلأنه بقي يرى في اعتناق المسيحية جرماً يعاقب عليه القانون . إلا ان مثل هذه الحيلة زالت في عهد هدر يانوس ، عندما أصدر امره لوالي آسيا بالآي يحكم إلا اذا وجّه بعضهم اتهاماتهم الى أشخاص بالذات ، وجاؤوا بالدليل على مخالفتهم لقوانين البلاد ، كما حرص على ان يأتي القصاص معادلاً « لأهمية الجرم » المقترف عمداً وعن سابق تصور وتصميم . وقد حافظ الامبراطور انطونين Antonin على هذا المبدأ ، وان لم يكن لدينا أي برهان حسي بخولنا الجزم بأن مارك أوريل ألفاه بالفعل .

ومع ذلك ، فالأحكام بالموت لم تقل في عهد الانطونيين . فالتقليد المتبع في إحصاء سيّر

القديسين الذين استشهدوا في عهد كل من الاباطرة ، هو أن يصار الى وضع قائمة متصلة بهم ، لا يستطيع النقد الصارم ، مهما تشدد واقتطع من نوافل الاوصاف والاستطرادات التي زينوا بها قصة استشهادهم ، ان يدعي بطلانها او يقول بعدم صحتها . وقد اكتظت القوائم التي وضعت في عهد مارك اوريل بأسماء الذين بذلوا حياتهم في سبيل دينهم واستشهدوا من المسيحيين . فقتل ٤٨ شهيداً في مدينة ليون ، عام ١٧٧ ، بينهم الاسقف بوتيئ الذي مات في زنانيه ، وله من العمر ٩٠ سنة ، بينا الأمة الشابة بلاندين التي عرضوها عبثاً ، لقتل الاسود الضارية ، أجهزوا عليها بضربة سيف وهي في الحلبه ، ثابت بفضل وثيقة تاريخية لا يمكن دحضها او تجرييحها ، هي الرسالة التي بعث بها شهود عيان هم خدام المسيح ، القاطنون في مدينتي فيينا وليون ، في غالبا الى اخوتهم بالرب ، في آسيا وقرييها . ولا سبيل الى الانكار ان الامبراطور مارك اوريل وافق على هذه المجزرة وأقرها بعد ان عرض حاكم المدينة الامر عليه ، اذ كان بين المحكوم عليهم واحد يحمل الجنسية الرومانية ، أجلسوه على صاج أحبي على النار ثم اجتزوا رأسه .

فهل يحمل الامبراطور الفيلسوف انطونين ، كما يلقبه التاريخ ، وزر الجريمة والمسؤولية المترتبة عليها ، كما يحمل خلفاؤه جريرة الشهداء الذين قُتلوا في عهودهم ؟ لا شك في ذلك ، إنما بنسبة ما سمحوا ، لدى مراجعتهم واطلاعهم على إنزال ما أنزلوه بهم من آلام مُبرّحة ، ومثلوا بهم مثل هذا التمثيل الوحشي ، دون ان يأمرؤا بلاحقة الذين اتوا . غير ان معظم تراجم هؤلاء الشهداء تردّ ، في معرض وصفها لعملية استشهادهم بكل إسهاب وتفصيل ، هذا كله ، لحاسة الجماهير وهيجانها وهي تطالب ، بالحاح ، ملاحقة المسيحيين . فلم يتمكن الحكام ، امام هذه المظاهرات العدائية الصاخبة إلا ان يرضخوا ، على اقدار من التواطؤ معهم ، ثقل او تكثر ، حتى اذا ما رُفِع الامر الى الامبراطور وجد نفسه مسوقاً تحت ضغط الشارع ، للتزول عند الطلب . فالرأي العام بقي ، في كل مكان تقريباً ، معادياً للمسيحيين . ويطالع المرء بشيء من الدهول ، التهم الدنيئة يلصقونها بالمسيحيين ، وما نسبوا اليهم من اعمال الفسق والفجور ، التي لم يتورع أناس مستنيرون امثال الكاتب الروماني فرونتون ، وهو من مشاهير رجال الفكر ، اذ ذاك ، ومن اقرب المقربين الى الامبراطور انطونين ومن جاء بعده ، من الأخذ بها وتأكيداها . فأمام الكوارث والتهديدات التي اخذت قترام على الامبراطورية ، في النصف الثاني من عهد الامبراطور مارك اوريل ، لم يستطيعوا ان يقاوموا الاغراء بعزو هذه الامور ، الى غضب الآلهة واستيائها من كفر خصومها ، وعدم اعترافهم بها واحتقارهم لها : هنالك قوى مجتمعة ، مادية وسيكولوجية على السواء ، لا يستطيع اشد السلاطين والملوك استبداداً وبأساً ، ان يوقفوها او يحدوا منها ، لا سيما عندما يرون في مسابقتها والتزول عندها ، المثال الصوري للتقوى والتقرب الى الآلهة والتسليم بالاساطير المحكية عنها .

وهكذا لم نلبث ان رأينا ترتليانوس ، يكتب في سنة ١٩٧ ، في اسباب هذا التقدم والنجاح كتابه : « ابولوجيا » او الدفاع ، العبارة المشهورة : « دم الشهداء بزار المسيحية » (*Semen est sanguis Christianorum*) . فللاستشهاد سيكولوجية خاصة هي

واحدة في كل زمان ومكان ، خالدة . فالاضطهادات الدامية التي أنزلوها بالمسيحيين تلقى نوراً ساطعاً على هذه القضية وتضفي عليها ادق المعلومات ووسعها . فالنخبة بين المسيحيين كانت تنظر الى العذابات التي يزلونها بها ، نظرتها الى معركة يخرج منها الشهيد ظافراً ، مكلاً بالكيل المجد ، لانه « فاز برضوان الله » وثال الغفران الكامل عن كل خطاياه ، وتأكد عنده الفوز بالحياة الابدية الخالدة . فلا عجب ان نرى بينهم من يحدون راضين مرضيين ، بارواحهم في سبيل هذا الشرف المؤثل ، وفي سبيل هذه المغام ، أمثال هؤلاء المسيحيين الذين تقدموا ، في عهد كومود ، من الحاكم الروماني ، في آسيا ، باعداد غفيرة للشهادة ، حتى اذا ما حكم بالاعدام على فريق منهم ، رد الآخرون بعنف ، داعياً لهم الى شق انفسهم والى الانتحار ، مع العلم ان تعاليم الكنيسة الصحيحة كثيراً ما شجبت مثل هذه الغيرة الزائدة . اما في نظر الذين لم يعتنقوا بعد المسيحية ، فالاستشهاد وبذل الحياة رخيصة في سبيل الدين هو « شهادة » حق لصحة دينهم ، كما يدل على ذلك الاشتقاق اليوناني لهذه الكلمة ، اذ كان الاستشهاد حجة على صحة العقيدة وعلى الشجاعة التي يبعثها الايمان الصحيح ، في نفس الشهيد وقلبه ، وبالتالي لصدق الرسالة التي أوثمنوا عليها وراحوا يحملونها .

علينا مع ذلك ، ان نحذر من ان نولي ، اكثر من اللازم ، أهمية كبرى على العامل النفساني والحافز السيكولوجي لتعليل انتشار المسيحية في الامبراطورية الرومانية وتكاثر عدد النصارى ، بالتالي ، فيها . ومع انه لا سبيل لاحصاءات دقيقة ، يبقى امر عدد الشهداء ، مع ذلك ، قليلاً نسبياً . ثم هنالك أقطار بكاملها لم تعرف الاضطهادات الدينية لمدة طويلة ولم تتعرض قط بالشدائد التي انهالت على المسيحيين في غير مكان . ومع ذلك فقد انتشرت فيها المسيحية بسرعة ، وعلى نطاق واسع ، فقد كان بلغ عدد المسيحيين في افريقيا حداً بعيداً ، عندما أهرقت فيها دماء الشهداء لأول مرة ، عام ١٨٠ .

والحقيقة التي لا تماري ولا لبس فيها ولا غموض ، هنالك عوامل كثيرة أثرت بعيداً في هذا الأمر . فقد هنا ان نعرف ، على الوجه الصحيح ، المناقب التي ميزت شخصية كبار المبشرين بالديانة الجديدة ، والصفات التي وفرت لهم للقيام بمطلب الكرازة الدينية ورسالة حملها الى اطراف العالم الروماني ، اذ ذاك وكلها عوامل واعتبارات ساعدت جديداً في نشر الدين الجديد وتأمين النجاحات الباهرة التي حققها بين شعوب الامبراطورية واقوامها المتباينة عرقاً ولغة . نحن نجهل كل شيء عنهم تقريباً حتى اسماء الذين نهضوا بهذه الكرازة بعد الرسل . ولذا كان لا بد من ان نعول هنا على الاسباب العامة والمميزات المفردة التي تميزت بها النصرانية من الداخل اي من ذاتها ، طالما لم تكن الوحيدة ، في الميدان ، لتتخذ يوماً وحدها ولتستفيد دون غيرها ، من إعراض الناس عن الشعائر الدينية ، وموقفهم موقف اللامبالاة والاستهتار بالطقوس الرسمية . فقد جمعت الديانة الجديدة جماع الصفات التي وفرت للديانات الشرقية الكبرى فأمنت نجاحها وانتشارها : قوة التأثير المنبثقة من حادث موت المسيح وقيامته ، وتعاليم ادبية واخلاقية رفيعة

سامية ، ووعد اتباعها بخلاص الابرار منهم ، واحتفالات مهيبه تحرك مشاعر النفس في المؤمنين . ومع ذلك ، وبالرغم من هذه العوامل المتشابهة المشتركة ، فالتوحيد الذي علّمت به وعملت ، صانها من كل مضاعفة خطيرة . فقد عرفت ان تنفادي كل حركة التفاف ، او محاولة انصار او ذوبان ، يقوم بها مذهب توحيد الفروق الذي تغفل في كل الديانات المعمول بها اذ ذاك ، محاولاً التلطيف من حدة الفروق التي تباعد بينها . فبعد ان عرفت كيف تكسب مؤمناً جديداً ، قلما خشيت من ان تفقده . وهكذا بحرية رأي واستقلال فكر ، راحت تمكّن بصورة اقوى لشرعية مبادئها ، وتنمي ثقتها الوطيدة بالفضائل التي تعمل بها وتعلمها . زد على ذلك ، ان ابوابها كانت مشرعة دوماً للجميع من رجال ونساء ، وكبار وصغار ، دون ان يخضعوا لدور شاق ، صعب ، من الوعظ والارشاد ، فتقدم لهم مجموعة متناسقة من التعاليم العقائدية ومبادئ الايمان ، مبسطة ، تستطيع إشباع كبار الحُجج ، ويستمرئها ذور العقول الحسيفة .

فماذا كان من امر هذه الديانة الجديدة ، في اواخر عهد الاسرة الانطونية ،
النتائج الثابتة
يا ترى ؟ يؤسفنا واهم الحق ، الا نستطيع الحكم الا على انطباعات ترتبط بصحتها ، الى حد بعيد ، بنسبة ما تؤيدها وثائق ونصوص ادبية محفوظة ومصونة تعود لذلك العصر ، واكتشاف الرقم والنقائش القديمة التي تتعلق ، من قريب او بعيد ، بهذه الامور . ولعل ما هو ادهى من هذا واطهر ، هو ان نخرج من هذا بما ينفي وجود مثل هذه الوثائق . هنالك لعمرى ، مُعَامِل شك او ارتياب يلبس المسح الجغرافي الذي لا بد من ان نستعرض له فيما يلي .

دون ان تكثرت المسيحية للحواجز الجغرافية التي انتصبت في وجهها ، فلم تلبث ان تجاوزت بسرعة ، من الشرق ، نهر الفرات . وليس ما يشير قط انها رسخت اقدامها في المقاطعات الفارسية الاصل ، إلا انها تغلغلت بعيداً في اواسط بلاد ما بين النهرين ، وفي مملكة *Osrhoène* ، حتى ان الملك أيجر التاسع كان على وشك اعتناق المسيحية ، وعاصمة ملكه اذ ذاك ، الرُّها ، وهو اسم مقدوني الاشتقاق والاصل ، أطلق عليها ، بعد الاسكندر بقليل ، بعد ان عُرفت ، من قبل باسم *Oshoe* او *Orrhoe* والعربية اورفة ، التي أصبحت مركزاً لإحدى الكنائس الكبرى في الشرق ، ومنها شَعَت اللغة السريانية ، احد فروع الأرامية ، وانتشرت في هذه الأرجاء من الامبراطورية أيما انتشار . ومن الرها تسربت المسيحية الى الشرق ، لتدخل عبر التركستان ، مشارف الشرق الاقصى ، دون ان تتمكن ، مع ذلك ، من تتبع الصيوى التي قطعتها ، والمراحل التي سجلتها .

ومع ذلك ، فقد بقيت ، اساساً ، احدى ديانات الامبراطورية الرومانية وان اقتصر انتشارها على بعض ولايات منها لا غير .

اما من هذه الناحية من الفرات ، فقد غزت النصرانية مدن سوريا الكبرى دون الأرياف ، بعكس بلاد الاناضول حيث نرى كرازة الرسول بولس تلاقي نجاحاً كبيراً بين اهل فريجية واهل

غلاطية وانتشرت المسيحية بينهم على نطاق واسع ، ولا سيما بين سكان الأرياف . وكان الوضع على عكس ذلك تماماً في الأقسام المتبقية من الشرق حيث بقي انتشار الديانة الجديدة ضيقاً ، باستثناء مقدونية .

أما في الغرب ، فأتنا نشاهد عناصر عديدة من المسيحيين تقوم في العاصمة روما ، ملتقى جميع الملل والطوائف ومحجة الشعوب على اختلافها ، إذ ذاك . فلا عجب أن تتجه إليها ، في تاريخ مبكر ، أنظار أتباع الديانة الجديدة . هنالك مسيحيون انساحوا وتغلغلوا بين طبقات المجتمع الروماني العالية ، حتى أننا نراهم يفشون البلاط الإمبراطوري نفسه . أفنسم يحكم الإمبراطور باللوت ، على قنصلين سابقين ، ويأمر بنفي ابنة أخيه التي كانت زوجة لأحدهما ، هو في الوقت ذاته ابن عمه ؟ هنالك دلائل قوية تحملنا على الظن بأن اتهامهم « بالاحاد » والعادات اليهودية ، التي رموم بها لم تكن في الواقع سوى الأخذ بالمسيحية وتبني مقالها العقائدية . مسيحية أيضاً مارسيا ، محظية الإمبراطور كومود ، التي حاولت أن تقدس له السم . ومع هذا فالأكثرية من أتباع الدين الجديد تتألف من صغار القوم وضعفائهم .

وهذا الدين الجديد ، لم ير في مكان ما من النجاح الذي حققه ما رآه في ولاية أفريقية . لا ندرى كيف وصل إليها ، ولا كيف تغلغل فيها ، إذ تطلع علينا فجأة ، في أواخر القرن الثاني ، جماعة كبيرة من المسيحيين ، ناشطة في المدن والأرياف ، جعلت من قرطاجة مركزها الرئيسي ، ومقرها الأكبر . وعندما يقوم ترتليانوس يعتز مفاخرأ ، عام ١٩٧ بعدد المسيحيين ، فهو بالطبع يتصور عددهم في هذه الولاية التي شهدت مسقط رأسه . فاسمعه يقول : « نحن أبناء امس الغابر ، ومع ذلك فقد ملأنا الأرض ... بوسعنا أن نحصى أفراد جيوشكم ، أما عدد النصراري في ولاية واحدة من ولاياتكم ، فقد تبرز أكثرهم عدد جيوشكم بكثير » . فهو في حماسه يعمم كثيراً ويفلو ، إذ لا يمكننا أن نذكر خارج نطاق أفريقية ، بالاستناد إلى اضطهاد عام ١٧٧ ، سوى جماعة المسيحيين في وادي الرون . ثم انه يصف عدد الذين استشهدوا في سبيل إيمانهم في مدينة ليون ، هم أغارقة شريقون — وليسوا قط من أهل البلاد — اعتنقوا فيها الديانة الجديدة . فإذا كان بولس ، بين دخوله روما لأول مرة وموته فيها ، قد وصل في تنقلاته إلى إسبانيا وتوقف عند ساحل غالبا ، فمروره في تلك الأرجاء لم يترك بعد ، أثراً يذكر .

وعلى هذا ، فقد سجلت المسيحية نجاحات تذكر . علينا هنا أن نأخذ بعين الاعتبار ، عدد الولايات التي تدخل في نطاق الإمبراطورية الرومانية ومساحتها الشاسعة ، التي لم تكن وطنها بعد ، أقدام المبشرين . ففي مطلع القرن الثالث ، نرى الأسقف الفريجي أبيركيوس يذكر في رسالة له نقشت عبارة منها على شهادة ضريحه ، تعبر بصورة مجازية وبثوريات قوية ، عن الانطباعات التي عاينها من سلسلة من الأسفار والرحلات ، حملته تباعاً إلى روما وسوريا وبلاد ما بين النهرين ، جاء فيها : « أينما حللت ، ألفت الإيمان المسيحي قد سبقني . فقد وجدت أخوة لنا أتى نزلت وأينما هبطت » . بالطبع لم يحط أسقفنا هذا بحاله ، إلا في المدن .

نحس جيداً دون الحاجة للإفصاح عنها ، اسباب هذه الحماسة وأسباب
حياة الكنائس الاولى النشاط العارم ، تجيش بها الديانة الجديدة . فهي لا ترى نفسها غريبة عن
وتنظيماها الداخلية
أي بلد دخلته مها كانت اللغة المحكية فيه .

فاللغة الوحيدة التي عولت عليها المسيحية دون سواها هي اللاتينية . فلا يوجد للكتاب
المقدس ، في مكان ما ، ترجمة لاتينية ، حتى في افريقيا نفسها التي أطلعت اول كاتب مسيحي
تجرباً ، ان يعالج ، في مثل هذا الوقت بالذات ، باللغة اللاتينية ، قضايا لاهوتية بحتة ، هو
ترتليانوس . فجاعة المؤمنين ، في روما ، لا تستعمل في طقوسها ، غير اليونانية . وكذلك مسيحيو
وادي الرون يكتبون باليونانية ، الرسائل التي بعثوا بها الى اخوتهم في الايمان ، في آسيا الصغرى .
فاللغة اليونانية هي وحدها اللغة الطقسية في جميع البلدان . فالمبشرون الاكفاء الذين يحسنون
اللهجات الوطنية الشعبية لا يزالون قلة يبقى معها أثر الكرازة التي يقومون بها ، وفعلها في النفوس ،
محدوداً ضيقاً . فأحادية اللغة ، كانت الى حد بعيد ، وراء تأخر انتشار المسيحية ، في الشطر
الغربي من العالم الروماني ، إلا أنه تأخير أفاد ، من جهة أخرى ، مع ذلك ، في الحفاظ على اولوية
اللغة اليونانية بين اللغات واللهجات المحكية ، اذ ذاك .

تبرز وحدة الكنيسة ، على الأخص ، في مراسم العبادة والطقوس . هنالك عشاء مشترك
يجمع بينها عرف باسم *Agape* . والكلمة يونانية الاصل ، إنما تعني « انعطاف » او مقاسمة عاطفية
في اجتماعات مسائية . وبالفعل ، ان كلمة « كنيسة » إنما تعني : جماعة . وبعد ان وقع مجيء
المسيح وظهر على الارض بمجده ، صار من المتوجب ، على أتباعه ان ينتظموا وان ينظفوا ذاتهم .
ومنذ ذلك الحين ، اخذ التسلسل الوظيفي ينمو ويتطور على مر الزمن ، وفقاً للحاجة العارضة .
فقد نزعوا الى تأخير سر العباد او التنصير ، عن الموعوظين ، أي عن الذين بلغهم الصوت وتردد
فيهم « الصدى » ، أي من « لفتوا الايمان بالصوت الحي » فأخروا العباد عن مواعده سنتين او
ثلاث سنوات . وقد برز عن جبهة الشعب (*Laos*) فريق الاكليروس ، لفظ اشتق من كلمة
يونانية (*Clèros*) عَسَتْ في بادىء الأمر : حصة او نصيباً ، ثم اخذت في الترجمة السبعينية
معنى اكليروس او طغمة الرهبان ، وهي طغمة تألفت من رُقب ومراتب عديدة . ومن هذه
المراتب برزت كلمات : « كاهن » ، و « شماس » و « اسقف » . فالكنيسة *Presbyteroi* او الشيوخ
(المتقدمون في السن) يتألف منهم مجعاً يتولى وضع القرارات ، والشمامسة *Diaconoi* الذين
يتناط بهم تأمين مهام الطقوس المادية . ولم تلبث ان تفرعت مهام اعمالهم الى شماس رسائي ،
وقاريء ، ومُعزِّم ، وحارس الابواب ، ثم الاسقف او المشرف على التعليم وعقائد الايمان ، وعلى
سلوك المؤمنين . وقد اخذ النظام الجديد ، بالنظر للخطر الخارجي ، وبالنظر لقتضيات تأمين
خُدَمة الهيكل مما يؤثر على النوع او الكيفية ، ينزع الى الحكم المطلق . ففي كل مقاطعة ، يقوم على
رأس الجماعة ، بدون استثناء ، اسقف واحد . فالشعب يصطفيه ويختاره ، بدون ان يخضع لمراسم
خاصة ، من بين اشخاص يقترح أسماءهم الكنيسة . فله وحده حق القطع او الجزم في القضايا التي

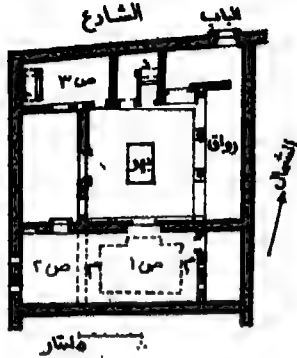
يتناقش الكهنة حولها ويتبادلوا فيها الآراء . وعندما تتكاثر أمكنة العبادة يصبح الكهنة مجرد خدام لها ، يرعون جماعة المؤمنين فيها ، تحت اشراف الأسقف . فهو وحده يقوم بكسر الخبز وتقديس القربان ، وبدونه تنعدم الحياة المسيحية .

وهكذا نصان وحدة الجماعة وتحفظ . وهي وحدة لا تذهب ابعد من ذلك . فبالرغم من وحدة العقيدة والطقوس فلا توجد كنيسة بل كنائس . ولكل منها إطارها الخاص ، له حجبرته الادارية الاساسية ، ممثلة بالمدينة التي تمثل في المنطقة ملء الحياة المحلية في مختلف مظاهرها . وهذا الأسقف يمارس سلطته على الجماعات المسيحية في المدن القريبة طالما عدد الأتباع فيها لا يسمح بوجود أسقف خاص يتولى رعايتهم . وعندما يصبح هذا العدد كافياً تنشأ كنيسة جديدة مساوية في وضعها للكنيسة التي انفصلت عنها ، مع الاعتراف لها بأولوية ادبية . فليس ما يدعو الاساقفة لإقامة علاقات فيما بينهم ، غير ان المصلحة العملية المشتركة تحددوهم لتبادل الرأي : إما عن طريق رحلات فردية يقومون بها ، او عن طريق تبادل الرسائل او موفدين خصوصيين . ثم لم يلبثوا ان أخذوا يعقدون « سينودساً » بالعربية مجعاً إطاره الطبيعي الولاية ، هذه الوحدة الادارية الكبرى في البلاد .

كل هذا اولى أساقفة بعض الكنائس الموجودة في حاضرة الولاية او في مركزها الإداري ، او في القواعد الحضرية التي تؤلف قطب جذب فكرياً او اقتصادياً ، نقوذاً خاصاً ، فهو بالفعل والواقع وليس شرعاً اسقف المدينة . فالسلطة التي يتمتع بها اسقف روما لم تكن لتوازي سلطة بعض الاساقفة في مدن مثل انطاكية او افسس مثلاً . فترتليانوس يعرف جيداً شأن السلطة التي يتمتع بها صاحب الكرسي التي اسسها بطرس في روما عاصمة الامبراطورية . ولكن هذا الاسقف لا يستخدم الحق الذي اولاه اياه شرف الانتساب الى هامة الرسل او رئيس الحوارين ، إما لانه لا يرغب في ذلك او لانه لا يستطيع الى ذلك سبيلاً . فهذه الادارة التي تتصف بنظام مطلق يتوزع بين مدينة واخرى ، لا يبدو عليها ما يشير قط انها في سبيل التكامل ، حتى اننا اخذنا نشاهد بعض الصعوبات والعراقيل تعترض سبيلها الى هذا التكامل .

من غير الممكن ان يخفى مثل هذا الوضع على فطنة الادارة المسؤولة او ان تتجاهله ، لا سيما بعد ان تكاثرت عدد المؤمنين في الكنيسة بين الطبقات الاجتماعية المتواضعة واخذت تتكون الاوقاف الكنسية وتنشأ . وتكوين هذه الاوقاف لم يلبث ان أثار مشكلات قانونية اخذ الجدل يرتفع بشأنها ، كما اخذت الآراء تتضارب حولها . ومهما يكن بالفعل الحل المقترح في تبريرها : سواء أنُسبت الى هيئات جنائزية او الى جمعيات غير شرعية ، فجماعات المؤمنين لم تلبث ان رأت نفسها مالكة لعقارات وأملاك على وجه يختلف عن ملكية الفرد ، او لمسان . يستخدمونها في اجتماعاتهم الخاصة او يتخذون منها مدافن لهم . فمن بين الفئة الاولى من هذه العقارات ، لم يُتَسَخ لمعلم الآثار ان يدرس خرائب اقدم عهداً من خرائب كنيسة دورا يورويوس ، هذه المدينة التي كانت قائمة على نهر الفرات ، في الوضع الخاص الذي كانت عليه ، في الربع الثاني من القرن الثالث . فنبني هذه

الكنيسة القديمة لا يتعدى ان يكون منزلاً قديماً خاصاً ، كانت الغرفة الخاصة باقامة شاعر العبادة فيه تضم مقعداً مستدير الشكل وقد زينت جدرانها بنقوش مختلفة يبدو بينها زمّارات لتقليد الأصوات ، ومساخر للوجه . كذلك نرى غرفة العباد مزدانة برسوم مستمدة من احداث المهدين القديم والجديد . اما الفئة الثانية ، وهي فئة المقابر ، فقد اتاح لنا درس النواويس الموجودة تحت روما ان نتتبع توسعها وامتدادها عن طريق الدهاليز والممرات التي نُشِئت تحت الأرض انطلاقاً من مدفن اسرة من الأسر . وقد أنشئت مثل هذه النواويس ، في المدن الكبرى ،



الشكل ١١ - كنيسة دورا يورويوس.
د ، درج يفضي بصاحبه الى الدور العلوي
المهدوم؛ ص ١، صالة لمراسم العبادة جرى
توسيعها باضافة ص ٢ اليها وذلك بين ٣٣٢
- ٣٣٨ م ؛ م ، مقاعد من القرميد ؛
ص ٣ ، جرن المعمودية .

منذ ان شاع عنها خبر احترام بقايا الاموات المدفونين فيها . فوجود نواويس اليهود ونواويس اخرى في مدينة الاسكندرية يدل على ان عادة النواويس لم تكن محصورة على المسيحيين ولا على الرومان . ففي هذا العهد كانت روما الجوفية لا تزال في بدء امرها . وقد اقتضى تطورها واتساعها ان تكون الشرطة قد أغضت عن هذه الأعمال التي تجري في الخفاء او تحت الأرض ، كما انها غضت للنظر ، ولا شك ، عن هذه الاجتماعات التي كان يتكرر عقدها في الكنائس .

والحياة العادية للجماعات المسيحية لدى تكوينها ، قامت ، مثلها في ذلك مثل انتشار الديانة المسيحية على التسامح الضمني الذي أبدته السلطات العامة ، كما تنطق بذلك الشواهد التي استعرضنا لها وكما يعلمنا تاريخ الاضطهادات نفسه .

كانت المسيحية قد أصبحت ، في مثل هذا الوقت بالذات ، واقعاً روحياً الجدل الديني والبدع عظيم الشأن والخطر ليقبى بدون صدى في مجالي الفكر والنظر .

وقد استهدفت لهجمات جاءتها من أوساط مستنيرة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالوثنية ، هي من مجلى الحضارة نفسها ، اذ ذاك . فبقطع النظر عن الافتراءات والسعايات التي ألصقوها بالدين الجديد فتركت أثرها ولو الى أمد قصير ، فقد وجدوا فيها مادة ثرية لمؤلفات لم تحل من الأهمية ، وان لم يصلنا منها شيء يذكر عن طريق الكتبة المسيحيين انفسهم الذين لم يحفلوا بجمعها ولم يأتوا على ذكرها إلا بنسبة ما أتاح لهم هؤلاء الكتبة من غبطة ورضى في دحضها والرد عليها . وخير ما تمثل هذه الكتابات ، الكتاب الذي وضعه ، حوالي عام ١٨٠ ، أحد اتباع الفلسفة الافلاطونية المدعو سئس Celse بعنوان : «خطاب حق Discours vrai» والذي يمكن اعادة تكوينه وجمعه من جديد عن طريق الاستشهادات التي ضمنها أوريجينس ردوده عليه في كتابه الموسوم : «رداً على سئس» . والطعون التي يحاول فيها الكاتب الوثني مهاجمة تعاليم الدين الجديد ، انما تصدر كلها عن نظريات فلسفية ، كما انها ترتكز الى نظرات سياسية واجتماعية حرة

بالنظر . فهو يرمي المسيحيين بغيرية تمسكهم بالوعود التي يقطعونها ، اكثر من محافظتهم على « الإيمانات المغلظة » كما يأخذ عليهم ، من جهة اخرى ، مخالفتهم وتجاوزاتهم لشرائع البلاد والقوانين المعمول بها ، وإعراضهم بسخرية ، عن « التعاليم والمقائد التي غذت عقولهم يوماً وشبوا عليها » . فكتابه هذا هو عبارة عن مستودع أسلحة ، كثيراً ما عوّل عليها وصدر عنها ، واتخذ لهم منها يداً الكتب الجدليون من الوثنيين الذين تنطّحوا ، فيما بعد لدحض المسيحية .

فليس من عجب قط ، والحالة هذه ، أن يهبّ المسيحيون للرد على خصومهم . فها هو القرن الثاني يمدنا بطائفة من أصحاب الردود الأول الذين لا يكتفون بدحض الاتهامات التي يحاول خصومهم إصاقتها بهم ، بل راحوا يهاجون بعنف الديانات الرسمية المعمول بها في الامبراطورية . فأسماءهم تؤلف قائمة طويلة ، واصحاب هذه الردود معروفة اسمائهم لدينا جيداً بعد أن وصلت آثارهم الينا بينما عفت آثار خصومهم من الوثنيين ، بعد ان جرى تعقيبها وراحوا يتصيدونها للقضاء عليها وإتلافها . وببساطة كلية وجراً لا يخشون معها لومة لائم ، نراهم يوجهون ردودهم للأباطرة أنفسهم ، كما فعل اسقف أثينا كوادراتوس مع الامبراطور هدريانوس ، وكما فعل أيضاً الأسقف ارستيدس الاثيني مع الامبراطور أنطونين ، وغيرهما . ويوستينوس ، هذا الفيلسوف الافلاطوني المنتصر ، السامري الاصل ، يطلب يجرأة من الامبراطور مارك اوريل ، وهو ايضاً فيلسوف مثله من اتباع المدرسة المذكورة ، ان يوافق على نشر كتابه المعروف باعتدال لهجته ، يرى نفسه مدينًا باستشهاده مثلاً لحقد زميل له منافس . وتليانوس « الذي رأى النور على ارض الأشوريين » في مدينة نصيبين من اعمال ما بين النهرين ، قد يكون اشدّهم تهكماً وسخرية . ولكي يكون القارىء فكرة له عن عنف ردوده وشدة اتهاماته للديانة اليونانية - الرومانية ، وتعاليمها الادبية والاخلاقية ، يستهجن مستنكراً تمثالاً يُشيدونه في روما لأم النجبت ثلاثين ولداً ، عشرون منهم كانوا احياء عند وفاتها . يجب ان نشير هنا بنوع خاص الى ترتليانوس القرطاجي ، وهو اول كاتب مسيحي باللغة اللاتينية ، وضع ، في اواخر القرن الثاني ، كتابه المعروف : « دفاع » عن المسيحية ، وجهه لأولي الامر في الامبراطورية ، كما وضع كتابه الثاني : « الى الشعب » . وهذان الاثران الادبيان ينطقان عالياً ، ببلاغة هذا الكاتب وفصاحته ، ووقاره ومقدرته ، وكلها امور تثير الاعجاب .

إلا ان ترتليانوس اشتطّ في تعليمه وانتهى به الامر الى الهرطقة . فقد عرفت المسيحية في القرن الثاني شقاً وجدلاً حول شؤونها الداخلية ، وهي امراض ملازمة للطفولة رافقت نموها وسيرها نحو التكامل ، فعانت منها وتضرّست بها ثمناً للنجاحات التي حققتها ، وللمقدرات الفكرية والعملية التي وفرت لعدد من كبار اتباعها ، وللوهم الذي رافق تنظيمها في البدء ، فأوجب عليها إكمال هذا التنظيم وتقويته ، ولطراوة إيمانها وتعاليمها . وكان لا مندوحة من هذه الهرطقات لتدفعها على تقوية النظام الداخلي لكنائسها ، ولتحديد قضايا الايمان وتفسيرها وتبسيطها ، وهي بعد في مستهل تاريخ وحركة تطورية طويلين ، خصبين بالحوادث الجسام التي تخللتهما .

بقيت الهرطقات قليلة نسبياً ، في ذلك العهد ، اثنان منها طلع بها داعيتان تميزا بالفردية . اما الاول ، فهو مونتائوس الفريجي الذي راح يثبأ مدّعيًا نزول الوحي عليه . وقد تأثر توتليانوس بتعاليمه ، قبل ان يؤسس هو نفسه شيعة مستقلة ، عاشت بضعة قرون في افريقيا ، انتهج لها نهجاً صارماً مجافياً لكل الاوضاع البشرية المعمول بها ، حتى الزواج منها . اما مارسيون الذي رذله ابوه ، اسقف سينوب وحرمه وقطعه من شركة المؤمنين ، فقد راح يعلم طريقة لم تقلّ زهداً وتقشفاً عن سابقتها . ولم يلبث أتباعه ان ألفوا منهم جماعة لعبت ، مدة طويلة ، دوراً بارزاً ، في امور الشرق . وعندما راح يعارض العهد القديم ، صنيعاً غير مكتمل لباري الكون *Démiurge* ، بالعهد الجديد ، صنيعة المسيح المرسل من الإله الحقيقي ، حل المسيحيين على الشروع بتحديد قانون الكتب المقدسة ، وهكذا امتد أثر هذه البدعة واستطال .

هنالك بدعة ثالثة هي بدعة الغنوسية التي راحت تعمل على إيهان شأن العهد القديم ، بالطريقة ذاتها التي اعتمدتها البدعة السالفة ، كما انها رأت في المسيحية نفسها ، وجهاً خاصاً من وجوه «الغنوس» ، أي المعرفة الحقيقية التي أضفت على اللاهوت تفسيراً رمزياً للكون . وكانت هذه البدعة أدهى الهرطقات التي عرفتها المسيحية ، الى هذا العهد ، لما حوته من سحر وإغراء ، وللنتائج التي أودى اليها انتشارها السريع ، اذ يصبح المسيح معها كائنًا إلهياً بالطبع ، انما يلبث عن إله أكبر ، ابدعته الفلسفة اليونانية ، كما أضفت على حياة المسيح تفسيرات رمزية او مجازية ، وجعلت حياته وموته امراً صورياً وليس حقيقياً . ومن هذه المقالة المشاقة ، برزت منذ القرن الثاني ، تعاليم أخرى ، لمحارب الواحدة منها الأخرى . ولو ان المسيحية انزلت الى واحدة منها لكانت راحت ، هي الأخرى ، فريسة لمذهب توحيد الفروق . إلا انها أظهرت ، منذ الاساس مقاومة كان عليها ان تزيدها أكثر صلابة على مر الاجيال ، وأكثر حيوية ويقظة .

الانجازات الأدبية والفنية

حدودها ونجاحاتها

يشعر المؤرخ بشيء من الارتباك عندما يحاول وضع صورة اجمالية لما كانت عليه الحياة الادبية والفنية في الامبراطورية الرومانية . فقد كانت تؤلف هذه الامبراطورية ، عندما أُطلِّ عليها النظام الجديد عالماً قائماً بذاته ، تباينت منه الشعوب ثقافة ، واختلفت عروقاً وأخلاقاً وعادات . فهو عالم شاسع ، رحب ، مترامي الأطراف والنهايات ، تمت له مع ذلك من اسباب المواصلات وانتظامها ما قرب قواصيا الى دوانها . وهذا العالم متنوع المظاهر في أقسامه وأجزائه المقومة ، بالرغم مما يشد بينها من عوامل مادية تقرب بين أشتاتها ، وتسهل لها جميعاً عيشاً مشتركاً ، وإدارة حكومية واحدة ، وتؤمن العلاقات المتنوعة بين هذه الأقاليم والمناطق التي يتألف منها ، وتبني الطبقات الموجهة كمثل مشتركة فيما بينها ، كما تبني لها هذه الوحدة الروحية التي يقوم عليها التطور بعد ان اخذ بأسبابه . فليس ما يذهب بهذا التفاوت القائم بين المدينة والريف ، وهذه الفروق التي نراها بين أنماط الحياة التي يحياها الأهليون في المناطق الزراعية المتحضرة ، ونهج الحياة التي ينهجها سكان المناطق الصحراوية الواقعة على حدود هذه الامبراطورية ، في الشرق والى الجنوب الشرقي من البحر الابيض المتوسط . وليس ما يسد او يملأ ابدأ هذه الفجوة والهوة التي قامت بين الشرق الهليني والغرب اللاتيني . فالعامل الوحيد الذي يجمع بين هذه المفارقات المتضادة ، ويؤمن لها نوعاً من الوحدة الادبية ، هو هذا الشيء الذي يؤلف في صميمه معجزة ، لأن لا مثيل له في التاريخ ولا كفاء ، اذا ما تعدينا النتائج لنقف عند نقطة الانطلاق . فالفوارق لا تزال قائمة بالرغم من ان التطور الذي ينبع من أفكار مشتركة ، وينزع لأهداف واحدة ، ويتجه من غاية واحدة ، هي العامل المقوم لهذه الحضارة ، حسباً تتبلور في مظاهرها العامة اذ ذاك ، عند مقارنتها بهذا العالم البربري المتوحش القائم على اطرافها ، وهو عالم أعجز من ان يصل الى خط سوي ، لأنه لا يجري على حركة منسقة واحدة مؤتلفة بين جميع الأطراف . ومهما يكن ، فهذه النزعة نحو الوحدة لا تبدو للعيان في مطلع العهد الامبراطوري . فاذا ما استشعرها بعضهم ، فلم يخطر قط على بال احد انها قريبة المثال ، دائية القطوف . وعلى نسبة

ما يتصف هذا الجهد البناء بالوعي ، فهو يستهدف شيئاً آخر ، لا مندوحة عنه في نظر أولي الأمر . وهذا الجهد الذي اقتصر سواده الأكبر على روما ، لقي النجاح الكامل وتكامل بالفوز الأتم .

١ - عصر أوغسطس

هذا النجاح يصيبه العهد هو السبب بعينه الذي لأجله اصطلاح المؤرخون على تسميته بـ : « عصر أوغسطس » ، على غرار ما فعلوا بعهد آخر شابه من وجوه عدة ، وإن جاء بعده بوقت طويل ، هو : « عصر لويس الرابع عشر » .

فالوضع القائم ، كما تبلور في روما من حيث تعبئة الجيوش البرية رومنا منافسة
والاساطيل الحربية في السنوات العشرة الأخيرة من أزمة الحرب الأهلية للمواضع الهلينية الأخرى
كان تعبيراً رسمياً لا يختلف كثيراً عن المدلول الظاهر للعبارة . ففي أكتيوم ، جمع أوكتاف أو أوغسطس الذي سيكونه ، حوله كل قوى الغرب ، وانتصر على انطونيوس وكتليوباترا المسيطرين على موارد الشرق الهليني وطاقاته الضخمة وموارده التي لا تنضب . ولما كانت روما قد نالت الفوز بقوة السلاح ، كان لا بد لها من أن تأتي بالدليل القاطع على أن لها من الأهمية والشأن ، في المجالات الأخرى ، ما لا يقل بشيء عما تم لها في الميدان الحربي ، وإنها ليست على استعداد قط لتسيء استعمال تفوقها البارز في جميع الميادين . فالشيء الذي كانت الاسكندرانية تمثله أو ترمز إليه ، لم يخرج عن مظاهر خارجية ، دعائية ، ممثلة بهذه الديانات الفاسدة ، التي طالما عبثت بالأخلاق والآداب ، وهذا البذخ المحلل ، وهذا الترف الفكري والفني الذي يوهن النشاط ويضعفه . فإن عبز هذا العالم الشرقي عن أن يرفع رأسه عسكرياً وحربياً ، فهو ، بالرغم من الازدراء له والاستهانة به ، له ، مع ذلك وقعه في النفوس واغراؤه للعقول والقلوب ، ويجب بالتالي ، اللحاق به والتساوي معه .

وقد رغب أولو الأمر في روما ، دون أن يبدو عليهم شيء من هذا ، أن يحققوا لوطنهم ، هذا التجلي الفكري والادبي والفني الذي اكسب الأدب الكلاسيكي : الإغريقي والهليني ، هذه الشهرة البعيدة التي تتمتع بها ، وهذه التربية التي تمت له ، هذه التربية المشبعة بالفلسفات والتعاليم اليونانية الأصل التي عكست على مرآتها هذا التسلسل الأسر للقيم البشرية التي لم يكن ليخطر على بال أحد الانتقاص منها لثلاث تصاب هذه التربية بشيء من رذاذ هذا الانتقاص ، فيخدش من رواء أديمتها ويتنزل بها إلى منسوب البرابرة . فالكل رأى أن تسير القوة في ركاب الحضارة وخدمتها . ولكي تزكي روما انتصارها الباهر وفوزها المؤثل ، كان لا بد لها من أن تظهر ، عندما تم لها الأمر ، على ما ظهرت به أثينا وبرغاموس ، وانطاكية والاسكندرانية . وكان عليها أن تسير على النهج الذي نزعت إليه منذ نحو من قرنين واحتضنته باحتضانها الأدب ، وإن تشجعه ، وإن تزدان بالمباني الضخمة الجميلة والصروح الفخمة . فالإعراض عن مثل هذا المطلب إنما كان يفسر بالتخلي عن تفوقها ، والاعتراف ضمناً بعدم أهليتها ، والتنازل عن حقها الشرعي في الدفاع

عن الحضارة والثقافة ، وفقدان كل أمل بالتفاف الطبقة المستتيرة وسكان الريف حولها ، والالتقاء معاً في محرابها ، والسير بهديها .

كان هنالك ولا شك ، احتمال لا يخلو من خطر ، لم يفُت بصر النخبة المستتيرة من الرومان وبصيرتهم ، وهو ألا يُقتصر على جعل روما مجرد عاصمة هلينية ، على شاكله العواصم الهلينية الاخرى ، بما يحف بها من جيران مزعجين ، ومن فيض فكري وفني لا ضابط له ولا وازع فيه ، يزرع الخوف في القلوب وينزل الرعب في النفوس . كان عليها ان تستلهم مثل العالم اليوناني بحيث تتغادى السقوط في المساوىء التي انتهى اليها هذا العالم . كان عليها ان تقتبس من هذا العالم ما حققه من وسائل تقنية بشرط استخدامها بعقلية جديدة وروح جديدة ، وان تعمل بهدي الأمور التي استبدت بخاطره على ان تصطفي منها أفضل ما توصل اليه . كان عليها انتهاز السبيل الذي انتهجه شريطة ان تعرف كيف تتجنب هذا السبيل عند الاقتضاء ، فتضع هي لنفسها ، سبلاً جديدة تتفق والتقاليد الوطنية بما ينسجم مع الوقار والرصانة التي عُرف بها الرومان وبها تميزوا .

هذه هي الخطة او المنهج الموضوع تحت الانظار ، وهو منهج لا بد من النهوض به ، والسير معه الى آخر الشوط ، وفقاً للخطوط العريضة التي وضعها له قيصر قبل موقعة أكتيوم ، ولجبل قيصر فضل السبق على اوغسطس في وضع مثل هذه الخطة وترسمها . وقد باشر قيصر نفسه وشيخرون وغيرهما كثيرون من النخبة لدى الرومان تحقيقها . وكان من نصيب جبل اوغسطس ان ينهض بهذا المنهج ويحققه على نطاق اوسع وارحب .

« عصر ، في صميمه »
التبجيلية من هذا النوع التي اعتاد المدلسون إغداقها على بعض الملوك والعهود .
ولكن ما من شيء يحمل من العرف قانوناً او يقيم منه قسطاً . وهذا أمر يجعل التدقيق في الاماديح التي تكال لرئيس دولة كيلاً ، عملية عسيرة للغاية . كذلك ، ليس بين المقاييس التي يمكن ان تخطر على البال ما لا يصح تطبيقه على وضع اوغسطس بالذات ، فهي مدة حكمه المديد التي تدر إطلاق كلمة «عصر» عليه ؟ فقد مرت اربعون سنة ، منذ ان أطلقوا عليه ، لأول مرة ، هذا اللقب ، في غرة كانون الثاني (يناير) ، من سنة ٢٧ ق . م ، مع انه كان منذ عهد بعيد ، سيد روما المطلق ، وبقي سيدها الأوحده حتى وفاته في ١٤ من آب (اوغسطس) سنة ١٤ للميلاد .

أهو لعمرى ، الدور الذي لعبه ؟ فالسلطة المطلقة التي تمت له في الحقل السياسي ضاعفت من شأن الدور الذي لعبه في عالم الفكر والادب . صحيح ان عمله في هذا المجال لم يكن كله مجرداً : فقد عمل جاهداً في سبيل المجد ، وفي هذا السبيل وجّه رجال الفكر والفن ، واوحى اليهم بالموضوعات التي يهيم ان يراها مجلوة . فاذا ما اخذهم تحت رعايته واجرى لهم العطاء ، فمن الغلو القول بأنه أوعز او تقدم بطلبات ، إلا ما تعلق بالمباني والانشاءات العمرانية . فلا

بفرجيل ولا يهوراتيوس بمستكتبين عنده. وقد قام بهذا كروماني من ابناء زمانه ومن ابناء طبقته،
 "حفي" بالآداب والفنون الرفيعة. وكلمة «هوي» Amateur يقصر مدلولها عن التعبير تعبيراً
 صحيحاً، كما لا يحسن التعبير عن كثيرين من اسلافه او خلفائه الذين عنوا، من قريب بشؤون
 السياسة. فاسم صديقه وخدينه «مكيئي» اصبح رمزاً لنصراء العلم والادب بما اغدقه من
 مكرمات وأعطيات وهبات كان من شأنها ان تحمل كبار القوم على الاهتمام بامور ابقى وأخلد.
 الا ان الاكتفاء بالتنويه، والاقتصار على استعمال نفوذ مكيئي وكرمه وسخائه على هذا الوجه
 من شأنه ان ينتقص من قيمة النشاط النير الذي تفرد به نصير من اكبر نصراء العلم والادب في
 كل زمان ومكان. فقد راح يحرب، هو نفسه حظه ويدي بدلوه بين الدلاء، فيكتب، ويؤلف
 في كل موضوع، على شاكلة كتاب ذلك العصر، وعلى مثال الملوك الهلنيين، فراح يُقصّد
 القصائد ويدير المحاورات ويضع كتباً في التاريخ الطبيعي. والحال فالمثل مُعَدِّ، ولذا لم يبق
 وحده في الميدان، فتطلع علينا وجوه عديدة تخلق بصورة ابرز بينهم اول نصراء فرجيل المدعو
 أزينيوس بوليون. فهو ايضاً يأخذ بنصرة العلماء والادباء نظير مكيئي ويرعاهم برعايته، مع انه
 كان في عداد المعارضين للعهد وإن اعترف به ومالاه، فاعترافه هذا لم يتعدّ طرف لسانه،
 بعد ان كانت من انصار انطونيوس ومن مريديه. فراح يهتم بجمع التحف والأعلاق الثمينة،
 وينشئ لافراد الشعب مكتبة عامة، في الوقت الذي انقطع هو فيه للتأليف المسرحي ووضع
 التمثيليات، وكتابة تاريخ عام للحروب الاهلية. واليه يعزى الفضل الاول في اطلاق الناس
 على المؤلفات التي يضعها اصحابها، وذلك بقراءات علانية منها، امام الناس، تعريفاً بها
 وبوضعها.

وقد عاصره، في الوقت ذاته، في موريتانيا، الملك يوبا الثاني، احد ملوك النوميدي المعروف
 بخصومته لقيصر. فقد جيء به يافعاً الى روما وسار في ركاب قيصر عند دخوله روما مظفراً.
 اعاده اوغسطس الى ملكه هو وزوجته الشابة، كليوباترا سيلانية، ابنة كليوباترا وانطونيوس
 التي كانت في المركب الحافل الذي رافق دخول اوغسطس ظافراً الى روما، بعد معركة
 أكتيوم. وهذا الملك الهزيل الشأن، البربري المحتد، الذي ملك على قبائل بربرية استنكف
 اوغسطس من ان يضمها الى الادارة الرومانية مباشرة، ونشأ في روما تحت إشراف عائلة
 الامبراطور نفسه، يبرز، في غير مغالاة ولا زهو، من كبار نصراء العلم والفن اليوناني: كاتباً،
 عالماً، عرف ان يُضفي على عاصمته قيصريّة (مدينة تشرشل، اليوم، في المغرب) سناءً بها
 وإشعاعاً عالياً، بما شيّد فيها من المباني والصروح الفخمة، وبما حشد في قاعدة ملكه هذه من
 الآثار والتحف والمباني بحيث بدت كأنها متحفاً رائعاً، ضمت فيما ضمته، قصرأ منيفاً، عثر
 المتقنون في خرابته في فولوبليس، على مقربة من مدينة مكناس، ما وجدوا من الاواني البرونزية
 التي تثير الدهش بدقة صنعها. وقد وضع هذا المليك، في الوقت ذاته، عدداً كبيراً من
 المؤلفات باللغة اليونانية، بشتى المواضيع: كالتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعي وغير ذلك، وهي

كتب اعتمد عليها ومنها عبّ ، فيما بعد ، بلين الاكبر .

فالاستشهاد ، في معرض الحديث عن أوغسطس ، بمثل هذا الملك الغريب الهزيل ، قد يبدو من الهزل بمكان ، وهو ، مع ذلك ، استشهاد لا بد منه لتدرك جيداً ، الى أي حدّ طبع أوغسطس عصره ، وانسجم محيطه به . وهكذا نرى بصورة حيّة مُشرقة ، كيف ان أثرىاء الرومان وعظماهم تبنّوا المثلّ التي نهض بها من قبل ، الفاسيلفس الهليني ، ومنهم امتد الى مثل هذا المثلّك النوميدي الذي كان مديناً بكل شيء ، لسراة القوم في روما . وراح أوغسطس نفسه يقرض الشعر ، ويضع المسرحيات التمثيلية ، ويكتب مفكراته ، ويتعهد بالتهذيب والتشطيب مذكراته : « امور الحكم » ، احتذاءً منه بقيصر الذين كتب هو الآخر ، مذكراته التاريخية *Capitulaires* ، وألّف ما ألّف بما عرف عنه من مقدرة . وعندما زيّّن روما وحلاّها ، وعندما أنشأ فيها مكتبتين عامتين ، وعرض على هوراتيوس وظيفة كاتب سره ، وعندما يأخذ ببساطة ومفاكحة المؤنخ تيت - ليف الذي رأى النور في مدينة بومبيي ويتعهد اليه بشرف تهذيب حفيده كلوديوس الذي اصبح فيما بعد ، امبراطوراً ، وتوجيهه وجهة علم التاريخ ، وعندما يأمر باتخاذ جميع الوسائل لتأمين نشر الانباده *Enéide* لفرجيل بعد ان أوصى هذا عند موته ، باقتلافها ، راح يحقق ، على مثل هذا النحو من الشمول والرحب الذي تتسع له نظرة الامبراطور الواسعة ، والمقدرة التي اشتهرت عنه ، وبوسائل أوسع وأشمل بكثير مما تمّ منها لمعاصريه ، هذا المثال الذي تبرز صورته الحقّة والمثلّي في خلفاء هوميروس وطفلة بلاد اليونان القديمة . وهذه الصورة التي نرسم هنا قسماها الكبرى ، تفاعل على تركيزها وتحيزها نوازع ودوافع عدة . من المحال ان ننكر مثلاً ، رغبته في التلّهي والتفريغ عن مهام الحكم ، والرغبة في استشارة إعجاب الناس والفوز منهم بالثناء العاطر والأماديح المستملحة ، والميل الشديد لاكتساب المجد والعظمة والفخار يخلد ذكرها الدهر . والى هذا ، ارادة صادقة في ان يبرز للناس رجلاً مثالياً لا يُقصر أطعامه على تأمين نجاح زمي . والى جانب هذا كله - كما يشهد بهذه العظمة النخبة الرومانية التي يكفيها شرفاً ان تكون تسامت في تقديرها للرجل الى مثل هذا الحد - الارادة الصادقة في ان يطلع على الناس برجل نموذجي المثال لا يُقصر طموحه على نجاح زمي زائل .

كل هذه النظريات وما بثّيره من ملاحظات ، لأعجز من ان تستنفذ مدلول كلمة « عصر » . ولكي تستحق حقبة من الدهر ان توصف بمثل هذا الوصف ، يجب ان تشهد ازدهاراً عجبياً من الروائع الفكرية والادبية والفنية ، ومثل هذه الأجيال من العظماء والمشاهير في كل علم وفن ، وتجلياً منقطع النظير من التوابغ والمباقرة لم يسبق لروما ، في تاريخها المديد ان رفلت بمثلهم . كذلك من الواجب ، ان تعبر هذه الآثار الادبية والفكرية ، ربما بنسبة اكبر ، وعلى قدر اوفى ، عن نزعة نفسية ليست عادية فحسب ، بل ايضاً وبالاكثر ، كلاسيكية ، إتباعية ، أي تصلح مثلاً ، في خطوطها الكبرى ، لاجيال اخرى وعصور اخرى . فجاء ازدهار الآداب والفنون ، في عصر أوغسطس يحقق ، الى حد بعيد ، هذا المطلب المروم . فاني أجعلنا النظر ، طالعنا ،

هنا وهناك ، توق عارم : للنظام والانضباط ، والاتزان والوضوح ، وكلها مطالب عقلية او بالاحرى عقلانية ، تهيمن على المشاعر وتضبط انطلاقتها والتعبير عنها ، وتمحصها وتنقيها مما يشتم منه العنف او العرض ، فتترك فيما بعد دويًا بعيداً ، خالداً ، يتردد صداه على مر الزمن . فوضع هذه الروائع جنباً الى جنب مع روائع الادب الكلاسيكي الاغريقي ، واتخاذها غذاءً روحياً لنفوس الاجيال الطالعة ولاذواقها ، منذ عهد النهضة والانبعاث الى يومنا هذا ، في كل المدنيات التي توالى على مسرح التاريخ ، ليس فيه ما يدعو للدهش او للعجب . ففي ذلك شهادة حق ، تنطق عالياً بما فيه من جهد كريم حاولنا معه تجاوز نطاق الهواية ، وإيمان رشيد قويم بصحة ما يقول ويعمل للوصول الى طريقة صورية ميسرة لا تستحيل لعبة مع نبوغ عارض ، لتمكين العقل من مراقبة تصادم الاهواء والنزعات ، ولاخضاع الشعورية الفردية لمعايير العقل ولقسطاس مثالي من التناسق والانسجام المشرق .

وهناك ملاحظة اخرى تُركّس أيضاً ، اذا كان ثمة حاجة بعد للتزكية ، اطلاق اسم اوغسطس على هذا العصر ، تقوم في هذا التوافق البين بين تفجر هذه النزعات الكلاسيكية وازدهار الآداب والفنون ، وبين السياسة العامة التي انتهجها الامبراطور . فعندما راح يعيد تشكيل الدولة والمجتمع الروماني ، بعد الفوضى التي رزحت فيها البلاد إثر الحرب الاهلية ، استوحى مبادئ النظام والاتزان التي هي قوام الأدب الكلاسيكي بالذات . فالسلام الذي نشر لواءه على الامبراطورية ، في الداخل والخارج ، شاده سلاماً لا يقوم على الضغط والإكراه ، بل على العقل والاقناع لدى من توخى تهذيبهم ، وحذر عليهم السير مع الفتنة ، وهو سلام يعكس تماماً روح الانضباط والنظام الذي طبع الروائع الادبية التي طلع بها ذلك العصر وميزها . وهذه الانضباطية التي حققها في المجالات السياسية والاجتماعية والعسكرية كان لا بد لها ، لكي تقوى وترسخ في النفوس ، من ان تقترب بانضباط الناس في اهوائهم ونزعاتهم وطبائعهم . فقد كان يشوقه ان يرى القلوب والأفكار تنعم بجو روحي ملؤه الدعة والطمانينة بحيث ترسخ وتتوطد الانجازات التي حققها للامبراطورية . فكما ان العنصر الديني لعب هو الآخر دوره البارز في هذا البناء ، وفي هذا البعث الروحي ، ترتب على الآداب والفنون التي يشدها الى الدين اكثر من رابطة وآصرة ان تلعب هي الاخرى ، دورها الفعال في هذا البنيان القومي .

فلا عجب بعد ، ان يستجيب أهل الأدب ورجال الفن لهذا المطلب ، وان يبادروا لتحقيق رغائب الامبراطور على النحو الذي خطط وصمم . فقد تألموا كثيراً هم ايضاً ، روحياً ومادياً ، من هذه الأحداث الدامية التي اصطلحت على البلاد وانزلت بها ما أنزلت من الإحن والحزن ، فزعزت روما وهزت منها الأركان ، وهددت حضارتها بالدمار والزوال . وقد راحوا في زكائهم يستجيبيون لهذه الرغائب ويحققون هذا الانسجام المرتجي بين نزعاتهم الشخصية وبين مقتضيات السياسة الرشيدة التي انتهجها الامبراطور . فتجاوبت مشاعرهم عميقاً لما تبينوا الأسس التي ستقوم عليها عظمة روما ، والرسالة التمديدية التي تضطلع بها لرؤية لواء السلام يرفرف خفاقاً فوق الجميع .

فقد أتاح لهم حاضرم المائل ان يدركوا جيداً ماضيهم المجيد ، وألا يقبعوا متغنين بالاجساد مجترين ذكريات الماضي البعيد . ولذا راحوا طوعاً واختياراً ، يتبينون بعفوية ظاهرة ، المطالب القومية الكبرى ومستلزماتها الركينة : حب الوطن ، والتمسك بالتقاليد والاعراف الوطنية التي هذبها وصقلتها النظريات الفكرية المقتبسة من الخارج ، ولم تعتم ان انصهرت بها وتمازجت معها ، والتحدث بفضائل السلف الكريم بعد ان تعرّت من شوائبها الحشنة ، والاعتداد بهذه الاجساد الحربية التي حققها لخير المغلوبين على امرهم . من هنا ايضاً هذه الأماديع والتقاريط العطرة التي ضفّر لها القوم للتليك المنقذ ، المخلص ، حبيب الآلهة ، الذي أعاد الى الامبراطورية : هذا الأمن وهذا الانسجام وهذا التناغم الذي كادت تفقده الى الأبد . وروح هذه الكلاسيكية نفسها ، كانت تأبى ان تنطلق عاطفة الامتنان المتأججة في صدور القوم ، بعبارات نابية تشدّ عن الصدء لتتنزل الى الزلفى المخزية . وهذا الأمر الناهي ، المطلق ، الذي كانه اوغسطس ، لم يأت آيةً أفضل على ما تم له من مهابة ووقار ، وعلى ما كنّه من احترام عميق لهذه المثل التي عيل بها وعلم ، لو لم يكن على جانب عظيم من المقدرة الفائقة ، بعد ان استعصى على الناس النفاذ الى أغوار نفسه وقلبه ، اذ لم يرض قط ان يوعز ، ولو من طرف خفي ، أو ان يُلصع ولو من بعيد ، الى خاصته ، وصحبه المقربين من رجال بطانته ، وهم بشر كثيرهم من الناس ، وله في أعناقهم ما له من أياذ بيض وغُرُ الفعائل ، ودانوا له بكل ما لديهم من نعمة ورخاء ، وجاه ونفوذ ، بشيء من هذا الثناء أو من هذا التدليس ، يحسنه أهل البطانة . فكلما الجانبين عرف أن يتفادى مثل هذا الإفراط ومثل هذا الاتزلاق الذي كان من ميزات البلاطات الهلينية . وبذلك صوّن لكرامة الرجل وعزته وإيائه .

ولكن هذا التوافق لم يعمّر طويلاً ، وقد تجلّى ذلك على أتمه ايضاً في الجيل الذي عاش لويس الرابع عشر وعرف بالتالي سيطرة غير سيطرته . ولد كل من فرجيل وهوراتيوس قبل اوغسطس بسبع سنوات الاول ، وبسنتين ، الثاني ، وماتاً قبله بـ ٣٢ سنة و ٢١ سنة . وبين كبار رجال الادب في هذا العصر ، كان المؤرخ تيت — ليف وحده أصغر من اوغسطس بأربع سنوات ، كما عاش بعده ثلاث سنوات . فقد عمّر اوغسطس طويلاً ، وعاش في مجتمعات كبرى مفكرية فكرة الملكية وتبنوها بعد ان نسوا او تناسوا الاضطرابات العنيفة التي هيات لها اسباب الطلوع ، كما تناسوا ، على ما يبدو ، مدى المشاغل التي جاشت في صدور اسلافهم .

وهذا السلف اهتم كثيراً لهذا الوضع الذي نجم عن إنشاء النظام الملكي . التاريخ : تيت - ليف ولكي نقف عند أبسط هذه النتائج ، لننظر ملياً الى فن واحد من هذه الفنون الادبية الذي راج من قبل أيّها رواج في روما ، هو الخطابة فنهم كيف به ينحط ويهبط بعد ان انقطعت مناقشات الهيئات والمنظمات السياسية والجدل الذي كانت تثيره ، اذ لم يعد مجال لهذا الفن يتغذى منه . فالتاريخ والشعر استأثرا وحدهما باهتمام الجميع ، وهو اهتمام له ما يبرره اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الصفات التي تحلّت بها المؤلفات التي وصلت الينا من هذا العهد .

هنالك بالطبع ، مؤلفات مانت وضاعت وعفا أثرها ، بعد ان لاحقها النظام القائم وجدّ في اثرها لتجاوز أصحاب القنود والحدود التي فرضتها السلطة على حرية المؤرخ . فقد أمر مجلس الشيوخ مثلاً ، بحرق آثار كاتب من المتحمسين للعهد الجمهوري ، لما تبين فيها من نقد جارح للعهد الجديد .

فالتاريخ يتمثل هنا على أحسنه بالمؤرخ تيت ليف ، كما تبدّى في نظر معاصريه وكما نراه نحن في يومنا هذا ، تشيل كفته عالياً اذا ما قارناه بمؤرخي العصر من اليونان امثال ذيوذوروس الصقلي وديسيوس الهالكارناس ، كما ان المؤرخ الغالي تروغ ببيوس الذي لا نعرف من آثاره التاريخية سوى مقتطفات ذكرها يوستينس ، ليس بشيء يذكر تجاهه . صحيح انه لم يصلنا تاريخه الضخم الذي أرّخ فيه لروما منذ تأسيسها الى منتصف عهد أوغسطس ، وهذا التاريخ الذي جاء في ١٤٠ جزءاً ، لم يصلنا منه سوى ٣٥ جزءاً لا غير ، تقسم الى قسمين متميزين . يتألف الاول من ١٠ اجزاء ، بينما يضم الثاني ٢٥ جزءاً ، يقص علينا حوادث الحقبة الممتدة من سنة ٢١٨ الى ١٦٨ ق . م . وفي هذا لعمرى ما يكفي لتتعرّف الى هذا الكاتب ، وتبين مناهجه وأسلوبه والطرق التي اتبعها في وضع هذا التاريخ الضخم ، وميوله الفكرية ، ونزعاته الشخصية ، ومقدرته الفنية وغير ذلك من العوامل التي تقوم عليها كتابة التاريخ .

علينا ألا نتوقع منه أي جهد كبير يبذله في البحث الشخصي وفي التحري عن الحقائق ، او أي نقد متدبر للمصادر التاريخية التي عوّل عليها واستقى منها ، ولا أي تحليل لأغوار النفس البشرية عندما تعرض للحديث عن الاشخاص والجماعات التي يحدّثنا عنها ، ولا الاطلاع الكافي ، لا نظرياً ولا عملياً ، على عوامل التاريخ والمبادئ التي يخضع لها تطور المجتمعات البشرية . فبينه وبين ثوقيديدس اليوناني ، وبوليب الروماني ، بون شاسع من هذه الناحية ، فهو يفتقر اصلاً الى تربية الرجل السياسي وحنكة القائد العسكري المحرّب ، كما ينقصه ما قد يكون فيه بديلاً عنها : النظرة السديدة المحلّة في آثار السلف ، والتفهم العميق للصفات التي تحلّوا بها . فهو يرغب ، تشبهاً بمن سبقه من بعض المؤرخين ، ان يقدم خدمة نصوحة للقارئ من باب تزويده بأخلاقية صحيحة دون ان يهيئه للعمل ويسلمه له . « فالمفيد في علم التاريخ والمثمر معاً هو ان يرى المرء وكأنه على قمة بناء شامخ ، كل الامثال الصالحة التي يجب عليه الاقتداء بها لخبره وخير وطنه ، كما عليه ان يتجنب كل ما من شأنه ان يجرّ الحزني والعار ، في هذه الامثلة ، من مفاتيحها الى مغالقتها » . فبين المؤرخين الذين سبقوه في هذا الفن يطالعنا بالطبع بوليب الذي أرّخ لفتوح الرومان في الاقطار الواقعة حول حوض البحر المتوسط . ويشقّ علينا كما يؤذينا في الآن ذاته ، ان يستعمله ، في الحين الذي عثر عليه ، على نسبة واحدة ، مع بعض الرواة الرومان ، دون ان يتبين ما تفوق به بوليب : من جمع مصادره والاستيثاق بها ، والمقدرة الفكرية التي عالج بها الاصول التي عوّل عليها ، كما ان تيت ليف لم يأبه بشيء الى ما تحلّى به تاريخ بوليب من تناسب في معطياته ، وما فيه من دقة ملاحظة وتدبر ، حتى انه يبدو عليه وكأنه لا يهتم كثيراً بفهم النص الذي بين يديه .

فهو ، اذا ما اشتطّ وغلط ، فليس عن سوء قصد او نية ، اذ ان اتساع المهمة التي يضطلع بها ، وبرحابة المدى التاريخي الذي وضعه نصب عينيه ، كل ذلك يرغمه على العمل بسرعة . فالإغلاط التي تنزّي بها شقّ قلبه لا توهم بشيء نزاهته ، هذه النزاهة التي هي في الصميم من هذه الفضائل السامية التي تشكل ، في نظره هذا التراث القومي المجيد . فهذا المواطن البدواني الاصل ، والغاليّ المحتد ، الذي رأى النور في منطقة قاومت الفتح الروماني وحاولت صدّه ، بلغ منه التمسك برومانيته والشد عليها بنواجذه بحيث راح يقول : « فلما انّ حيي للمهمة التي نذبت لها نفسي يعينني ، واما ما من دولة فاقت روما : عظيمة ونقاءً وغنىً بهذه العظائم البليغة الحيرة التي يحيش بها تاريخها المديد » . ولكنه يتحرّز من الوقوف موقف المبرّر دوماً لروما ، ويتألّك عن حمل الحقد والبغضاء ضد خصومها الألداء او الأكثر خطراً عليها . كذلك ، كتاباته عن القلاقل والاضطرابات الشعبية التي وضعها ، لا تتنزّي بأيّ حقد او ضغن . فهو يقف منها موقف اللاتم ، الشاجب ، انسياقاً منه مع الولاء الذي يحمله لروما . قد هتّز لأمر ما وتتحرك نفسه بماطفة الاعجاب نحوه . إلا انه يتورع عن البغض والكراهة ، ليس رغبة منه بفهم الأمور ، بل انسياقاً لما عرف به من اعتدال ومن نصّفة .

وكانت وطنيته خير مُسْعَف له ، وهي وطنية قوامها الانعطاف النابض والاستلطاف الذي يحمله على تقدير الحُقب التاريخية الحاسمة ، وتقدير رجالات روما الذين نهضوا بالامر فيها . واشد ما تجيش هذه المواطن في صدره عندما يروح يقص علينا حروب هانيبعل الذي يجعل منها ملحمة وطنية تتعاقب فيها الولايات والابحار ، الى ان أقبل اخيراً النصر المظفر ، مكافأة لهذه الروح الوطنية التي تجلت على أتمها في هذه المحنة التي جشمت على صدرها ، وهذه التضحية والبذل السخي الكريم تجود بها الدولة دونما حساب ، وهذا الإباء في النفس والعزة والكبر ، ومكارم الاخلاق يتعلّق بها الشعب وافراد الرومان على السواء ، واحترام الآلهة الذي ، استبد بالنفوس . فبدلاً من ان ينطلق في عظائم ملة مُتَفَرِّة ، نراه يعرب عن اسفه الشديد لفقدان هذه الفضائل التي تُعرف بها السلف الكريم ، وراح يكشف عن جذورها الاصيلية بهذه الامثلة التي يضر بها لنا وبهذه المواعظ التي يسترسل فيها . وهكذا ، بفضل هؤلاء الرومان الذين يجلو لنا تاريخهم ، والذين قال فيهم لابروبير انهم « أشد رومانية » بما يمكن ان يكونه بالفعل اي إنسان ، يضع امامنا تاريخاً لروما ملؤه الجلال والعظمة . فليس من غريب قط ، انه بالرغم من تعلقه الموصول ، بالنظام الجمهوري - أقله في المرحلة الاولى منه ، طالما انه يسلم بالجلال الاخلاق فيه في المرحلة الاخيرة - يرى فيه اوغسطس عاملاً من العوامل التي يمكن الاعتماد عليها في عملية الاصلاح العام الذي نهض له . كذلك ليس بمستغرب قط ان يعتمد عليه كورنايل ايضاً كما اعتمد على كثيرين غيره من مؤرخي الرومان ، لجلو هذه الصورة البديعة التي رسمها عن روما والرومانين .

وبالفعل فقد استطاع المؤلف ان يحافظ ، بعد سقوط روما القديمة على ما في فنه من قوة

الاعراء والتشويق ، وإلا لما تمكن ان يزوي لنا قصصه بشكل جمع فيه بين الحساسية المرفهة ودقة الوصف مع المحافظة على ما فيها من حيوية وجاذبية ، متنكباً في الوقت نفسه ، عن التصنع والتكلف . فلما نراه يرمس لنا شخصيات كاملة ، ومع ذلك فشخصه متنوعة ، لكل منها فروقها المميزة ، تتحرك على أقدار وتساهم في الاحداث التي يعرضها ، فتمر امامنا سراعاً دون أن نشعر بها أو ان تدب حركتها ، ومع ذلك فهي تلفت اليها النظر . وهذه الشخصيات تعرف بنفسها في هذه الخطب والاحاديث التي يضعها على ألسنتهم ، وهي من الكثرة والوفرة بحيث تصدم ذوق أهل هذا العصر ، ولذا رأت برامج التربية الحديثة ان تخفف من المناهج التعليمية بالغاء تقارير الخطابة في منهاج اللغة اللاتينية التي نرى طائفة طيبة منها في المجموعة المعنونة *Contiones* ، والتي منها استمد واضعو المناهج المحفوظات النموذجية . وهذه الخطب تخلو مع ذلك ، من كل قيمة تاريخية ، اذ أنها من نسيج خيال تيت ليف ، كتبها هو بنفسه أو أعاد كتابتها ، وقد سار فيها ، ولو من بعيد ، على نهج شيشرون ونسج على منواله ، وان كان دون شيشرون بكثير ، جزالة ونصاعة مهما أكثر من استعمال المحسنات اللفظية . وقد استطاع هذا المؤرخ المتخمس كثيراً لتاريخ روما القديم ان ينوع فنه بحيث يضيف على عبارته قوة تعبيرية اكبر ، لها من قوة الانحاء والابانة ما مكن من إلهاب خيال العديد من الأجيال التي جاءت بعده .

وبزّة قوة في شدة تأثيره وبلاغته الأسرة ، شاعر العصر الاكبر : فرجيل الذي الشعر : فرجيل اطلق الشعر من عقاله وألهب بحماسة أخيلة الشعراء . فهو ايضاً من مواليد مقاطعة غاليا ما قبل الألب ، وأخذ على غرار تيت ليف ، بعظمة روما وسمو فضائلها . نزع نفسه دوماً للعيش في الريف والابتعاد عن محيط المدينة ما امكن ، فبقي ريفياً في قراره نفسه . ولم يقل حبه لايطاليا ، هذه الأرض الثرية ، منبت عظام الرجال والابطال ، عن حبه لروما ، فسكب نفسه الشاعرة على سبيلها في ذوب كلي مع هذا النشيد الكوني ، الشجي ، الخفي ، يطلع علينا من اغوار نفسه .

وقد تم لهذا القروي من صاحبة مدينة مانتو ثقافة أدبية وفلسفية معرقة ، يونانية ولاينية ، على السواء . ولا نخاله يغلو عندما يروح فيؤكد لنا انه استمر يشهد هذه الثقافة بالنماء والغذاء الموصول . وهذا الشاعر الفنان ، المفتن ، اللبق والظريف ، النحيل البنية والقوام الذي تأثر الى حد بعيد ، بشوكريوس ، كما يبدو من قراءة قصائده الرعائية *Bucoliques* ، عمل دوماً على صقل قريحته وشحذها . فقد تعهد عشر سنوات متواصلة ملجمته الخالدة الإنياذة ، ومع ذلك تبدت له ، وهو يحتضر ، انها غير خليقة بالحياة ، فأمر باحراقها وإتلافها . خضعت فلسفته هو الآخر للتطور . وهذا الفيلسوف الابيقوري الذي نستشف قسامته من شعره الرعائي ، نراه في «قصائده الزراعية» *Poésies géorgiques* «يطوّب سميداً محظوظاً من استطاع التفاض الى اسرار الطبيعة ، ووطى تحت قدميه الخوف من القدر الذي لا يرحم » . نراه يأخذ ، في ملحمة الخالدة ، بقدرة وفن عظيمين ، وعلى نسبة متساوية ، بين الفيثاغورية وبين الرواقية . فكل أثر من آثاره

الفكرية يكشف لنا عن نوع المطالعات والقراءات التي أقبل عليها بتدبر ، يتمثلها ويستمرؤها . فقد استلهم الفكرة الاولى لقصائده الزراعية من ملازمته قراءة هزيردوس ومنظوماته في علم الفلك ، ولم تبلور في وضعها الاخير الا بعد ان قرأ ما كتبه فاروون . عن الزراعة . من ينعم النظر ملياً في الإنياذة ، ير ان الشاعر اتخذ له يدأ من كل ما اتصل به او بلغه خبره ، من آثار التاريخ القديم الفكرية ، منذ هوميروس الى معاصريه من علماء الآثار الرومانية . وهذا الطابع الموسوعي الذي يبرز في الانياذة ليس سوى إلفة متناغية من آداب اليونان والرومان وكانت له فضل كبير في النجاح الذي اصابته هذه الملحة الخالدة خلود الدهر ، اذ كانت تعبيراً بليغاً ، ولقاء جميلاً لهذه الروائع الفكرية التي تنائر نضيد درهما على لججين التاريخ القديم .

غير ان فرجيل لم ترُضه هذه الثقافة الكتابية التي تمت له من عشرة موصولة للكتاب . فبالرغم مما عرف عنه من « دماثة » ولين الجانب ، فقد عرف ان يتحامى عن شقشقة هذه المجادلات التي ارتقع عجيجها في عصره . ومع ذلك ، فلم يحل ما عرف عنه من استسلام للأحلام المسولة ، دون الاهتمام بما يجرى حوله من شؤون السياسة وتصرفات رجال عصره ، حتى ولو شاء ان يتجاهلها بالكلية لما استطاع الى ذلك سبيلاً ، بعد ان أقلقه ومته كثيراً ، أمر مصادرة أملاكه في الوقت الذي كان فيه منقطعاً لنظم قصائده الزراعية . ومعظم قصائده هي رجع صدى احداث زمانه ، وصدى الاحداث البارزة التي ماج بها تاريخ روما . فها هو في احدي قصائده الرعائية يغني السلام الذي أمكن تحقيقه ، ولو الى حين ، في مدينة برنديس ، بين انطونيوس واوكتافيان ، كما غنى في احدي قصائده الزراعية الجهد المبرور الذي بذله اوكتافيان لتركيز مكانة ايطاليا الزراعية والأدبية ، على أسس ركنية قوامها حياة الريف . وفي الإنياذة ، نراه يربط اوغسطس عن طريق أسلافه الذين غبروا ، وعن طريق المآتي الغر التي حققها ، بتاريخ روما ، هذا التاريخ الذي ملك عليه جماع عقله ولبه ، فراح يكتشف لأينه *Enée* أسرار المكنونة بأسلوب ساحر ، خلاب ، كما راح يعظم هذا التاريخ ويمجده ويرسم لنا التطور العظيم الذي أخذت روما ، منذ البدء ، بأسبابه ، وفقاً لما قدرته لها ، إرادة جاعحة لا ترد . وهكذا نراه يتحزب لأوغسطس باكراً ، وفقاً للخطة الموضوعية التي دغدغت امانى اوغسطس العذاب . واذا ما راح ينافح عن رسالته بمثل هذا التسامي ، فقد عرف مع ذلك ، ان يتنكب عن كل خسة او دناءة ، او يميل مع القرض او الهوى . كل ذلك بدافع من نفسه دون أي وازع من اوغسطس ، مدفوعاً بعامل الشكر والمينة لإعادة أملاكه المصادرة اليه ، ولا سيما بهذه العظمة التي تتجلى بهذا السلام وهذا النظام الذي عرف ان يؤمنها للامبراطورية . وهب ان فرجيل كان مدفوعاً ، فقد عرف كيف يتعالى كثيراً بما أوتي من نبل الأحاسيس والمشاعر السامية .

هذه الميزة طبعته شعره وأضفت عليه ما فيه من السحر الحلال والروعة المثيرة . فاذا ما وقفنا عند المعنى الاشتقاقي لكلمة « مبدع » ، نرى ان فرجيل لم يكن قط شاعراً مبدعاً ، اذ كانت تنقصه الشاعرية الخلاقة . فقد ألبس « إينه » شخصية معقدة تثير البسمة على الشفاه ، وعلى

هذا ، برزت ايضاً من شق قلعه ، شخصية جويتير المهيبة . وبالرغم مما تم له من حدة الذكاء ، فهو أعجز من ان يحرك العواطف في النفوس ما لم تحول عاطفته قراءاته ومشاهداته الى أحاسيس حية نابضة . وقد منعه طبعه الحيي عن إظهار خوالج نفسه بصورة بارزة إلا ما ندر ، وهي خوالج من الدعة والحنان تشويها سحابة من الحزن أكثر منها عاطفة مشبوبة . فاذا ما عرف ان يسمو بعواطفه الى الأوج ، فأمام رهبة الموت وامام البؤس البشري والاصاب التي تترصد للانسان . وبهذا يُدَوِّي الصدى الذي أحدثه اثره الادبي العظيم ولا سيما ملحمة الخالدة الإنياذة . فكل شيء روماني فيها ، يبدو ، في ظلال هذه الملحمة ، مع الدهر وكرّ السنين ، موعظة بليغة في الوطنية وحب الوطن .

فالإنياذة والالياذة فرسا رهات ، لا بل صنوان في عملية صقل العقول وتهذيب الارواح . فليس من عجب ان تُنقل الى اليونانية ، وفي هذا النقل الباكر شهادة حق على قيمتها الكبرى ومنزلتها السامية . فحاول الشعراء القدامى ان يتهجوا دوماً على منوالها ، وان يترسموا ما فيها من أصالة في الشعر وعفوية . فها هم المسيحيون أنفسهم يقفون حياها وقفعة الخاشع امام الخشوع والتقوى التي شغّت من أغوار النفس عند هذا الشاعر الوثني ، وما تحلى به من وقار ديني يبعث النفس على التأمل . ولا يزال يزداد كل يوم عدد المعجبين بهذا الشاعر الملهم لما يألسون فيه من خصوصية العاطفة ، ومن انعطاف الساني وترصن ظاهري ، وحذب شغوف على كل ما ينبض بالحياة في الطبيعة ، وبهذه الابيات الشعرية العامرة التي تبعث الكبر في النفس والاعتزاز بالقيم الانسانية .

هوراثيوس نفسه يبدو دونه منزلةً شعرية ، إلا انه في نظمه الملك
هوراثيوس
والشعراء الوجدانيون
للصناعة الشعرية من فرجيل . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تبرز للنظار قدرته الواعية على قرض الشعر . فهو مشبوب العاطفة ، فياض الشعور ، صادق في تعبيره ، متحمس للتغني بأعجاد أوغسطس العسكرية ، ملتهب الخيال لا سيما في القصيدة التي نظمها بمناسبة الاحتفالات بالسنة القرنية تعبيراً عن بهجة الجميع للإصلاح الديني والأخلاقي الذي جنّد له أوغسطس ملكه العريض وعمره المديد . هو ابن رقيق أعيدت اليه حريته السليب ، ودخل الجيش ورقي صدقة ، وهو يخدم في اليونان ، الى رتبة عالية في جيش قنكس قيصر ، ثم طارت شهرته بعد ان عانى ما عانى من مشقات وآلام ، وقد عرف كيف يصون نفسه من العاطفة التي استسلم لها صديقه فرجيل . وقد نحت لنفسه نوعاً من الأبيقورية جاءت على هواه : مزيجاً من هذه الحساسية الناعمة ، واللذة المترفة الرقيقة على شيء من نفاذ البصيرة والتهكم الساخر حتى من نفسه ، واللباقة التي عرف معها أن يحافظ على فرديته في تشابك هذه التيارات التي أخذت بتلايب حياة العصر ، اذ عرف ان يقف موقفاً وسطاً بين إرضاء مسراته والابتعاد عن سحر المدينة ومفانئ العيش فيها ، يفرغ أيامه في دارته ، المدين بها لكرم نصيره مكيني وأريحيته . فلم يفته به تجرده الى المذهب التشكيكي وصانه من الاستعلاء والكبر . وكان يصدر في سلوكه عن حكمة واعية ، وهي حكمة تجردت من كل عاطفة وحرارة بحيث أدت به

الى الاثرة وحب الذات. فلا عجب أن تلقى عقلية من هذا النوع الكثيرين من المريدن والمعجبين حتى بين مجتمعاتنا العصرية . الا انه يبدو اليوم بارداً بعض الشيء . فالأهمية التي يتمتع بها جاءته من الدور الذي لعبه في تطوير مدينة روما من الوجهة الجمالية . فقد أغنى الآداب اللاتينية بأهاجيه *Satires* وبأغانيه وأناشيده وبرسائله الشعرية ، وكلها روائع اتصفت بالاتزان بين قريحته الفياضة وبيانه المقتضب ، ناهياً في ذلك منحى المثلث اليونانية والروائع الكلاسيكية التي صدر عنها ، دون العَبِّ كثيراً من شعراء اللاتين القدامى أو من الشعراء الاسكندرانيين المتحذلقين .

وقد تأثر به كثيراً، أكثر الشعراء المعاصرين لأوغسطس ، ممن وصلتنا آثارهم الفكرية، أمثال: تيبول ، وبروبيرس ، وأوفيد. ولا شك في أننا نظلمهم كثيراً وننزل بهم حيفاً كبيراً اذا لم نصفهم بأكثر من مقلدين ماهرين لهوراتيوس ، نهجوا نهجه وساروا على منواله . فقد امتاز شعرهم بالرقّة والجزالة كما امتاز بالعاطفة المشبوبة وبهذه الحساسية المرفهة والخيال المجنح ، والنكتة المستملحة ، وبمقدرة الفنى في التعبير عن خوالج النفس الدفينة التي يعلوها تارة الفرح ، وطوراً مسحة من الألم الشاكي الباكي. فقد عاجلوا، باستثناء تيبول بينهم ، الموضوعات العزيزة على قلب اوغسطس ، وطنية كانت أم دينية . ومن مطالعة شعرهم يبرز أمامنا مجتمع دنيوي ، زاه ، ثقيف رقيق بلغ في تألقه حدود الحقة ، وفي أدبه الأناقة والهيام .

هذا هو المجتمع الذي خرج منه أوفيد بعد ان حز الحرمان شديداً في نفسه وهو في بلدة تومي (كولستزا اليوم) الى الجنوب من مصب نهر الدانوب ، حيث كان اوغسطس امر بنفيه وإبعاده بعد ان اشترك في مؤامرة دبرتها بطانة الامبراطور . وهكذا نرى ان الادب اللاتيني في روما الامبراطورية اخذ يتسم بطابع الصالونات الادبية .

كان على الفن ان يلعب هو الآخر، اسوة بالادب، دوره البارز في الحطة التي وضعها الفن الرسمي اوغسطس للنهوض بالامبراطورية ، وحرص على الافادة منه الى ابعد حد . فهو يتبجح بأنه قسّم مدينة من اللين وسلم مدينة من المرمر . في الامكان الاعتماد على كتابه : « امور الحكم » لتنظم قائمة طويلة من المباني والصروح الضخمة التي شيدها ، او ربما ، والمبالغ التي تبرع بها افراد أسرته او بعض اصدقائه الخالص لترميم او إنشاء عدد آخر من هذه المباني . ان رفيقه الاول في الجهاد ، أغريبّا الذي اصبحت فيما بعد صهره ، كان عنده بمنزلة وزير الاشغال العامة او التعمير . فالانشاءات العديدة التي شيدها في روما كانت غاية في الامية ، فجعلت من هذه المدينة عاصمة تليق بعظمة العهد الجديد ، ثم راح كل الاباطرة الذين تعاقبوا على الحكم من بعده ، يتنافسون في تجميلها وتزيينها واستبدال الكثير من معالمها الاولى . ففي هذا المجهود العمراني الموصل الذي كان يوليوس قيصر نفسه اول من أخذ به، والذي استمر العمل به طويلاً، كان ملك اوغسطس حلقة طويلة في سلسلة الحلقات التي استمر الاخذ بها قروناً ، بحيث لا يجوز التغاضي عن التنويه هنا بهذا الفضل ونحن في معرض الحديث عن عصر اوغسطس .

اما في النحت والنقش ، فكان الامر بعكس ذلك ، اذ ان بعض آثار هذه الفترة ، ولا سيما تلك النقوش التي تزين « هيكل السلام » او تلك التي ازدانت بها تماثيل اوغسطس وعلى الاخص تلك التي قامت منها في قصر زوجته ليفيا في برما بورتا ، على مقربة من مدينة روما ، فقد جاءت كلها منسجمة تماماً مع السياسة الثقافية والحضارية التي انتهجها الامبراطور ، كما جاءت متفتحة تماماً مع روح ادب العصر . الا ان هذه النقائش لا تتم بعد عن بلوغ روما ، في هذا المجال درجة من الاستقلال تستطيع معها البروز والاكتفاء الذاتي . وهذه الآثار هي لغريقية في معالمها الفنية كما هي اغريقية في طريقة صنعها وانجازها ، لسبب وحيد بسيط جداً هو وجود الفنانين الاغريق بكثرة في روما اذ ذاك ، ولهم فيها القيد المعلن من هذا القبيل ، اذ ان بقاء هذه الآثار غفلاً من اسماء الفنانين الذين تولوا صنعها ، انما يدل صراحة على وضعهم الاجتماعي المتواضع ، اذا ما قيسوا ، من هذه الناحية ، بالادباء الذين كانوا روح الندوات الادبية وراحا . فلم يكن من الصعب قط على اولياء الامر ، ان يرحلوا لهؤلاء ، بما يرغبون فيه ، بعد ان يقيدوهم بالموضوع ، ويوجهوهم في انجازهم وتحيزه الوجهة التي يرغبون .

وتبدو على هذه الآثار الفنية نزعة ظاهرة نحو الواقعية ونحو الحقيقة المجردة ، كل ذلك بما يلسجهم مع اصدق التقاليد الرومانية . كذلك يبدو عليها نزعة الى التجريد البطولي ، والى الرمزية الميثولوجية انسجماً مع هذه التقاليد ايضاً . غير ان النزعتين الفنيتين هما في خدمة المشاعر الوطنية ، ملكية كانت ام دينية ، وتؤولان معاً ، وفقاً للروح المسيطرة على النظام الجديد بحيث تؤول الواحدة الى تقوية الاخرى ودعمها . فتمثال اوغسطس لا يصدم الحقيقة الا بعري الرجلين ، وهو آخر آثار الباقية من العري الكامل الذي لازم ابطال اليونان ، بينا تفاصيل التلوغ تظهر بوضوح كلي وتبدي الدقة الكلية التي لازمت صنعها . فهامة التمثال ، بالرغم مما يبدو عليها من المثالية المصطنعة ، استطاعت ان تحافظ ، مع ذلك ، على قسمة الشبه ، والتشدد في الحفاظ على المهابة والوقار يبرز واضحاً في النظرة التي تفيض بالوقار ، وبهذه المهابة الهادئة التي تستشف من الوقفة . فرسوم الدرع النافرة تبرز قسمة هذه الوقار هي الاخرى ، لانها تستحضر في الذهن حدثاً تاريخياً ، هو إعادة احد ملوك الفارثيين ، العلم الروماني بصورة سلمية بعد ان استولى عليه العدو اثر هزيمة نزلت بفرقة رومانية ، في اواخر العهد الجمهوري ، على الحدود الشرقية للامبراطورية . والرموز المجازية تطالعنا من كل مكان في هيكل السلام . فالاجزاء المتقطعة التي وصلت اليها من افرز هذا الهيكل ، تمثل هي ايضاً حدثاً تاريخياً آخر : موكب حاشد من جمهرة الشعب الروماني من شيوخ وحكام ، وموظفين وقضاة ، وعائلة اوغسطس يرافقون الامبراطور في مسيرة كبيرة لتقديم الشكر للآلهة ، عند رجوعه مظفراً ، بعد غياب طويل عن روما . فالواقعية التي تشع من خلال الملابس والوجوه والمواقف لا تمس بشيء الفكرة الاساسية الا وهي التفاف المدينة بامرها حول الامبراطور ، اذ ان الخاطرة الاولى التي تنط الى ذهن المشاهد هي القيام بعمل ديني هو تقديم الشكر .

ويمكن بنا ان نقارن هذه النقوش الفخمة بهذه التحف الثمينة المثلة بنفس الحجارة الكريمة ،

كالحجر المعروف بـ : « حجر فيينا » الذي نُقش ، ولا شك ، في حياة اوغسطس ، بيد النحات
الأسبوي الاصل ذيوسقوريدس . والحجر الكريم الآخر المعروف بـ « حجر فرنسا » - وهو دون
الاول منزلة ، من الوجهة الفنية - والذي اختلف المؤرخون حول تاريخ حفره ونقشه ، ليس
ببعيد كثيراً عن موت اوغسطس . وهذه التحف الفنية ، هي بدون شك ، من وحي الفن الهليني
والهامه المباشر ، لتأييده فكرة الوراثة السلالية ، اذ شدد الفنان فيها على بعث فكرة تأليه
الامبراطور . وفي حجر باريس صورة امير مسجي على سريره .

اما النقوش التي تتجه من نظارة واسعة فيبدو عليها تحفظ كبير ، اذ هما الأكبر هو ان
تبرز الجلال الامبراطوري منسجماً مع العظمة الرومانية ، وان توحى للرأي بأن كليهما من
مشيئة الآلهة وصنعا ، ولذا توجب على البشر التقدم نحوها بالشكر . وهذه الموضوعات تتخلل
بكثرة ، الادب والفن الرومانيين . فليس من المنتظر ان يسكب فيها لمحات غير رومانين ،
روح التقوى والخشوع التي سكبها فرجيل مثلاً ، في قصائده . ان تشبيه مقاطعة غاليا ما قبل
الألب بروما هو شيء آخر يختلف عن الخضوع ، حتى ولو كان خلواً من كل فكرة « مضرة »
للشرق الهليني . فقد قام هؤلاء الفنانون بتنفيذ هذه الطلبات بشيء من المرونة والتفهم
السيكولوجي الذي فيها دليل على ما أوتوا من مهارة فنية ، وعلى انهم الورثة الخليون لهذه
السلسلة لموصولة الحلقات من هؤلاء الفنانين الذين أنجبته الكلاسيكية اليونانية .

٢ - الظروف والاضاع العامة

فاذا كان العهد الامبراطوري استهل بمثل هذا الازدهار البديع للآداب ، فلا بدع ان ينتهي
عصر اوغسطس بمثل هذه الكلاسيكية الإتباعية التي عرفنا . فذروة المرتقى برهة وتنقضي .
فالحياة لا تتسمر مكانها . فاذا كان من التقاليد المتوارثة التكلم عن رومانطيقية نيرون ، فلا حرج
قط من التحدث ، والحالة هذه ، عن حركة انتكاس ورجعة الى الوراء في عهد هدرانوس . غير
ان هذا النوع من التصنيف يصح تطبيقه ، على ما يبدو ، على روما بالذات ، وعلى هذه النزعات
التي عملت الدولة على تشجيعها . فالنتائج المسجلة ليست في نتائجها على شكل تازمنا ، وفقاً
للوضع القائم في عهد اوغسطس ، الاخذ بهذه النظرية الضيقة .

فالتيار الحضاري راح يتسع ويرحب جغرافياً واجتماعياً ، والمظاهر التي تلبسها لم تكن لتصدر
عن رجل فرد او عن بطانته التي واجهت مشكلة سياسية ترتب عليها حلها على اساس ادبي وطيد .

هنالك بعد ، ولا شك ، نغبة تردفها بدم جديد ، وتغذيها الطبقات
العليا في المجتمع الروماني ، على نطاق أوسع من ذي قبل ، اذ تبقى
ابوابها « مشرعة » أمام فريق طيب مختار ، قائم في الولايات . والتربية التي
تلقاها هذه النخبة تصقل فيها الذوق الذي تحمله للآداب والفنون الرفيعة ، كما تدكي عاطفة جيشة

الثقافة والطبقات الاجتماعية
العليا .

مستمدة من مبادئها ، وان لم يلازم النجاح والتوفيق نتائجها ، في كل ما يتصل بنتائج الفكر والفن . وهذه النخبة هي مناصرة للعلم ، مشجعة له ، تتمتع بحكمته ورجاله ، وتحنو عليهم وتغمرهم بوابل من سخي الوجود وكرم العطاء ، وقد وقفت من رجال الفكر موقفاً مشرباً بالعطف والرعاية دونها نظر الى فوارق الحسب والنسب ، والعرق والدين ، وان بدت الفنون نوعاً ما ، دونهم رعاية وعطفاً ، فأمنت لهم الشهرة الواسعة ، والصيت الحسن والحال الرضي .

فرتيال *Marzial* يؤلف وحده استثناء للقاعدة ، اذ بقي ، طوال حياته ، في كرب وعسر ونصب ، أصاره الى بسط الكف والاستجداء ، بينما تنفتح أمام الكاتب ابواب الرزق الحلال ، فيعيش من شق قلعه ، فيدخل عدد كبير من الكتاب الادارة ، ويساعد نجاحهم الادبي على الارتقاء سريعاً في درجات السلم الاجتماعي ليلبغ بعضهم مرتبة القنصلية . فقد لعب الفيلسوف سنيكا هنا دوراً سياسياً مرموقاً ، وتأسست عهد اليه بمنصب بروقنصل آسيا ، كما ان بلين الأصغر عُيّن حاكماً لولاية بثينيا ، وقال فرونتون القنصلية مرتين .

ويهم الامبراطور كثيراً ، ألا ينأى أو يعزل نفسه عن هذه النخبة المثقفة . فأباطرة هذا العصر كلهم من كبار البناء ، وقليلون جداً بينهم من لا يتذوق الأدب أو لا يرمي لرجاله وحكمته حرمة . فالامبراطور كلوديوس نفسه مؤرخ كبير ، فقيه باللغة وعلومها ، بينما أخوه جرمانيكوس قد شمل بعطفه صاحب القصائد الفلكية : الشاعر أراتوس ده سولس *Aratus de Soles* .

ونثرون نفسه ، ألم يكن ذواقاً ، موسيقياً ، مغنياً ، وشاعراً . والامبراطور فسبسيانوس الذي لم يسمع أحد نعتة بالكرم ، هو اول من عيّن شخصات ومرتبات عالية ، بلغت أحياناً ١٠٠ ٠٠٠ سترس ، في السنة ، أي ما يوازي مبلغ ٢٥ ألف فرنك فرنسي من العملة عام ١٩١٤ ، تدفع من خزينة الدولة لأساتذة ، أحدهم استاذ الخطابة والبيان اللاتيني ، هو كوتيليانوس ، والآخر استاذ البيان اليوناني ، ودومتيانوس نفسه الذي طالما استهدف لألسنة حذادفهتكت منه كل ستر مغطى ، أسس الى جانب المباريات الموسيقية ، مباريات لفن النثر باليونانية واللاتينية ، لم تلبث ان استبدلت بمباراة للشعر تقام على شرف جوبتير الكابيتولي ، كل اربع سنوات . والامبراطور هدريانوس الذي كان هو نفسه كاتباً مجيداً ، عالماً ، فناناً ، امتاز بثقافة عالية ، مكنته من معالجة موضوعات موسوعية ، بينما عُرف الامبراطور الفيلسوف مارك اوزيل بنزغته الروحانية ، العميقة التي شرفت ليس الامبراطورية بحسب ، بل ايضاً البشرية جمعاء .

وفي مثل هذه الاوضاع والظروف المسعفة ظاهرياً ، والتي توفرت لروما ، راح مؤرخو الفلسفة والادب والفنون ، يتساءلون بحق ، ومنذ عهد بعيد ، عن الاسباب التي جعلت الحضارة الرومانية التي بلغت الأوج في السياسة والحرب لم تبلغ مثل هذا التسامي في المجالات الاخرى . فاذا كان العقل السليم يأبى الأخذ بهذه الأقاويل الفارغة ، وهذه الآراء السفسطائية التي اجاؤوا بها ، باسم العلم لتليد لهذا التقصير ، فلا بد من التسليم مع ذلك بأن هنالك سراً لا تزال لنجهل . فلا تفتش الروائع الفكرية او فشلها الذريع بمرتبط بسببية يمكن تعليلها على مثل هذا الشكل المبسر .

النظام الاستبدادي
كثيرون رأوا ، وما زالوا يرون ، على أنساب وأقدار متباينة ، ان النظام الاستبدادي الذي عُمل به اذ ذاك ، هو المسؤول الاول عن هذا التنافر . فكل الذين حاولوا ولا يزالون يحاولون تحليل هذا الشذوذ ، يُقصرون تكبيرهم على الامبراطورية الرومانية وحدها . فاذا ما لاقت هذه الطريقة ارتياحاً كبيراً لدى احرار الفكر في منتصف القرن التاسع عشر ، فهي تبدو مبتسرة جداً في نظر احرار الفكر ، في منتصف القرن العشرين . لا مراد بأن نظام الحكم في العهد الامبراطوري كان نظاماً مستبداً ، وكان من بعض نتائج ان يحول دون قيام أية معارضة صريحة ، حتى ولو اقتضرت على مجال الفكر . من الثابت كذلك ان هذا الضغط الفكري تلبّس ، في بعض الاحيان ، ولفترات طويلة ، ولعدة مرات ، في نظر كل من يقيم وزناً بعد ، لحرية الفكر ، مظاهر فظة ، وحشية ، حتى درجة التحقير . كذلك من الثابت اخيراً ، وليس آخراً ، ان علم التاريخ — هذا التاريخ الذي عُرف بأخذه بالوجوه والسير مع الهوى والغرض ، بما لا يتفق ومقتضيات العلم الحديث اليوم ، آثار هواجس السلطات العامة وشكوكها . فقد رأينا اوغسطس ، في اواخر ملكه ، يأمر بحرق كتاب في تاريخ الرومان وضعه مؤرخ عُرف بنزعته الموالية للعهد الجمهوري . وفعل الفعلة ذاتها الامبراطور طيباريوس مع مؤرخ آخر ، للسبب نفسه ، فأوذي صاحبنا واضطر ان يلتجئ متخلصاً بما استهدف له من اذى وضرر .

ومع ذلك ، فقد عرف العهد فترات خف فيها الضغط الفكري ، ان لم يكن ارفع . فالامبراطور فسبسيانوس يهزأ بالهازئين وتنكيت المنكئين . وكثيراً ما سلق النقاد بالسنة حداد ، تصرف وسلوك المتوفين من اباطرة هذا العهد . فسليكا ، مذهب ابن الامبراطور كلوديوس بالتبني وخليفته على العرش (نيرون) ، تهكم بسخرية لاذعة على الامبراطور كلوديوس ، في قصة لا تعني كبير شيء ، وضعها عنه بعنوان *Apokolokyntosis* ، أي المستثنى من شراكة الآلهة ، اذ نرى الـ *Divus* الحديث العهد لا يستحيل يقطينة ، أطلق فيها القاص الفيلسوف العنان للسانه السليط وقذف الامبراطور الراحل بقواذع الكلم . وعندما تستلم اسرة ملكية زمام الحكم ، كالأسرة الانطونية ، مثلاً ، تسترسل في قذف سابقها في الحكم بأبشع التعموت . فلم يقف الأمر عند حد الهجو ، كما فعل جوفنال ، بل راح المؤرخون امثال تاسيت وسويتون يكشفون ، بكل صراحة وحرية في التعبير ، مساوى القياصرة الراحلين ، وعوراتهم .

ولم تقف في استعراضنا هذا عند التاريخ وحده ؟ فأسوأ عهود الارهاب يفتح الباب على مصراعيه امام التامين والنفاقين ، فاذا ما جاؤوا من فنون الحسة والدناءة ما يجعل النفوس تتقرز لسماعها ، فلدى البعض من افانين البلاغة والبيان ما يؤهلهم للتنويه بالفضل في تاريخ الخطابة . فالقضية هي اوسع من هذا بكثير وارحب ، اذ انها تتعلق بجميع مظاهر النشاط الفكري والثقافي ، حيث يمكن لبعض القطاعات ، ولا سيما لقطاعي الفن والعلوم ، ان تنعم برعاية صاحب الامر دون ان تخشى شيئاً على نفسها من رعاية ضاغطة او خانقة ، ولا من نزواته المنتقمة . كان لا بد

من بوالو ليوجه ، الى شخص لويس الرابع عشر ، كلمة جاءت على لسان مرتيال بشأن نصراء العلم من شاكلة مكيني قالها إلهاماً لساميه ، بأنه : « سهل على اوغسطس ان يخلق رجالاً على مثال فرجيل » ، فهو حكم تصدده الحوادث ويكذبه الواقع . كذلك من الجرأة بكان ان يذهب المرء الى عكس الآية ، مهما كش من كان على شاكلة شيشرون ، لدى التأكيد بأن باستطاعة اشخاص على مثال طيباريوس ونبيرون ان يحولا دون بروز او ظهور اشخاص من عيار فرجيل ومنع تجليهم . فاذا ما حاول المرء اطلاق مثل هذا القول على الحفّارين او على علماء الفلك ، او على علماء التاريخ الطبيعي ، على نسبة ما كان يسمح العلم اذ ذاك بظهورهم ، فيكون مثله مثل من يتشبث بالخال او يتعلق بجبال الهواء او بمخاط الشمس .

يعمل بعضهم هذا الوضع بنظرية أخرى ، لا حرج عليهم قط باعتمادها اكثر فأكثر ،
 الشعوبية
 شريطة أن تكون على جانب من الاقتناع او تعيد الفكرة الأساسية التي عالجها الكونت دو غوبينو *De Gobineau* في كتابه الموسوم : « بحث حول التفاوت القائم بين العروق البشرية » . وتشدّد النظرية المشار اليها بنوع خاص ، على الشأن الخطير الذي لعبته الشعوبية في روما من جراء توافد سكان الولايات اليها ، من كل جلس ولون ، وما سببته هذه الظاهرة الاجتماعية من فقدان التوازن على الصعيد الاجتماعي في روما ، وما ألحقت بالوقار الروماني من انتقاص ، بعد أن كان هذا الوقار من السهات البارزة التي طبعت الحضارة الرومانية وفردتها .
 ان علم الأجناس ، شأنه شأن علم تاريخ الحضارات ، يشجب بشدة الرأي القائل بأن التهجين أو الخلاسية مدعاة للانحدار والهبوط ، يجمع بين الشوائب أكثر مما يوحد بين المناقب . ففي هذا الانبساط أو التوسع العرقي والخلقي الذي شهدته روما والذي انتقصوا كثيراً من قدره بعد ما ألصقوا به من ابعش النعوت وأحطها ، لم يكن كل شيء ، بالطبع ، عاطلاً أو سيئاً . فالهليلينية حملت معها ثمرات جهادها وجهودها الطبية . وهذه الفلسفات والديانات التي حملتها معها ونقلتها بما انمازت به من طابع شرقي أجنبي ، على ما بينها من فروق أصيلة او عرضية ، مكتسبة او مستوردة ، أغنت ولا شك ، عقول القوم ، وأخصبت قرائنهم ، واطلقت مشاعرهم . وليس ما يدل قط على ان فلاسفة اللاتين ومفكرهم وكتابهم فسدت منهم حياها النفوس والاذواق . وعلى عكس ذلك تماماً نرى ، بشيء من الغرابة ان ما من واحد منهم ، باستثناء « اوليه » لا غير ، تأثر بما انطوت عليه من جمال ، ولا حاول باي حال من الاحوال ان يعبر عن الخشوع الذي بمثته في قلوب اتباعها . فالفن نفسه ، باستثناء روما بالذات ، لم يجد فيها اي معين يساعده على التجديد والانبعاث .

اما الغرب ، فقد قدّم لروما ، عدداً من الكتاب وحلة الاقلام الذين بالرغم من اتخاذهم اللغة اللاتينية ، ليعبروا عن آرائهم ومشاعرهم ، كتابة وتكلماً ، لم يتخلوا قط عن ميولهم الفردية الخاصة ونوازعهم النفسية ، مع العلم انه ليس من اللائق ولا من الجائز قط ان يبادر المرء للاستنتاج ، بصورة لا تخلو من الاساءة ، استمرار الخصائص الاقليمية فيهم ومحافظتهم عليها .

فالامر لا يتعدى نزعات فردية ، شخصية ، لا يصح تعميمها الا اذا افترضنا فيهم اعتباطاً ، مهارة وقدرة خفي علينا خيطها الممدود . فقد كشف ، احد المعاصرين ، على ما قيل ، في لغة المؤرخ الروماني تيت - ليف ، تمايز ومصطلحات لغوية ، إقليمية او محلية اللهجة ، من العسير جداً على العلم اليوم ان يلحظها او ان يتبينها لما نحن عليه من جهل مطبق لهذه اللهجة البدوانية التي رضعها تيت - ليف في حديثه . ولم نرَ احداً قط يدعي انه وجد في عبارة فرجيل او عبارة بلين الاصغر - مع العلم ان تاسيت تشده الى ايطاليا الشمالية وربما الى غاليا الجنوبية وشائج متينة - ما يدل او يشير لغوياً ، الى ازقباط هذين الكاتبين ، بمقاطعة غاليا قبل الألب . فلقد كان لروما من قوة التمثيل والامتصاص ما استطاعت معه القضاء على هذه الخصوصيات . فلماذا يريدونها ، اذاً ، ان تفتشل هنا ، وفي هذا المجال بالذات ، برسالة ومهمة قامت بها على الوجه الأمثل ، في جميع اطراف ايطاليا ؟

وقد راح بعضهم يتذرع بذرابة اللسان التي عُرفَ بها الخطباء اللاتين الذين انحدروا من مقاطعة غاليا . فقد عدت منهم روما ، اذ ذاك ، عدداً كبيراً اصابوا فيها شهرة واسعة . اما ان نرميهم بجنا ، بثثرة سطحية ، فافتراء رخيص لا يستند الى دليل ، ولا يمكن ان يستحقه ، لا «دوميتيوس أفير» الذي ينحدر اصله من مدينة نيم *Nimes* ، في فرنسا ، اذ تمت له في اواسط القرن الاول مكانة عالية في الخطابة عادت عليه بالصيت الحسن ، ولا الآخر يوليوس الافريقي الذي ينسب اصلاً الى مقاطعة سانتونج ، ولا هؤلاء الاساتذة الذين يصورهم لنا تاسيت في كتابه : «حديث عن الخطباء» امثال : يوليوس سيكوندوس الذي كد وجد ، وماركوس أبير الذي كان خير من مثل الخطابة والبلاغة في زمانه والذي جمع اليجاز الى الاعجاز واشتهر ببيانه المنطلق الذي يفيض حماسة واندفاعاً . كذلك ليس من الغلو في شيء ان نرى سنيكا وابن اخيه لوقين ، وكلاهما من مواليد قرطبة ، في اسبانيا ، يبدلان جهداً ظاهراً للتبريز في صقل اسلوبها البياني للفت النظر والبروز للعيان ، وهي من مفارقات الاسبان ، كما يدعون ، اذ عبثاً نحاول العثور على هذا الاسلوب عند غيرهم من الكتبة المنتهين الى مقاطعة اسبانيا الشمالية ، امثال كوتيليانوس ومرتيال . وهذا القول يمكن إطلاقه ايضاً على هذا الفريق من الكتبة المعروفين بالكتبة الافريقيين ، امثال فرونتون من بلدة سيرت (قسنطينة اليوم) ، وابوليوس مادور ، وترتليانوس القرطاجي ، مع ان الأول بينهم استثمر ما عرف به من بلاغة ومقدرة خطابية في روما ، بينما لم يُقم الآخرون فيها الا لماماً . ولا يسع المرء الا ان يأنس عندهما ميلاً ظاهراً للغلو ، والعبارة المعقدة البناء ، المتعاطلة التركيب . اما حماسة ترتليانوس المناضل عن المسيحية بجرارة وإيمان ، فيقابلها ، من جهة اخرى ، المقدرة البلاغية التي يبديها مواطناء الآخرون دونما طائل ، اذ تستحيل عند ابوليوس ، الى شيء من هذه الرمزية المخلخلة . فهذه الاحكام العامة لا يؤبه لها ولا يؤخذ بها ، بعد تسليط هذه الاضواء الكاشفة عليها . ومهما يكن من الامر ، فليس من يعتقد ان هؤلاء الكتبة الذين وردوا على روما من الولايات ، اسأؤوا بشيء الى هذا التجلي الذي تفتتح عنه النبوغ الروماني ، بما تم له من طاقات وقدرات كامنة فيه .

ولكي نصل الى صميم القضية ، علينا الان نسيء فهم الشجب المبطن الذي تخفيه كلمة «شعبوية» التي اطلقوها هنا ، وبهذه المناسبة بالذات ، ضد السياسة الثقافية التي انتهجتها روما . والتهمة الصريحة التي يوجهها اليها الناقدون هي أنها استقبلت بالترحاب الحار ابناء هذه الولايات التي سبق لها ودودتها وضمتها الى سيطرتها . لا يستطيع المرء ، على عكس ذلك تماماً ، الا ان يقدر عالياً هذه الروح الطليعة التي تميزت بها روما فراحت تحتفي بحرارة ، بهذه العلوم والافكار ، والآراء والاذواق التي حملها معهم من ورد عليها من الخارج ؛ وهذا النداء الذي وجهته لجميع الناس ، الى اي عرق او جنس او طبقة اجتماعية انتموا ، وعلى اي مستوى كانوا ، وهذه القابلية التي برهنت عنها في استيعاب هذه المؤثرات وتمثلها ؛ وهذه الحفاوة التي احتفظت بها للشرق الهليني ، والعمون المؤزر الذي بذلته للغرب المتخلف ، اذ ذاك ، عن ركب الحضارة فساعدته على قطع المراحل حثيثاً وللحاق بالمستويات المسجلة ؛ ففي هذا كله ، تتجلى على أتمها امثل الفضائل التي حققتها الحضارة الرومانية فكانت ماثراً مجدها. المؤثر ، بالرغم من بعض الشوائب التي اعتورتها ، فضفرت لها اكليلاً من المجد الابلج الذي لا يجبو له سناء ، مهما تراكت عليه الدهور .

وبدلاً من ان يصبح المرء أذنًا صاغية لهذه التعليلات المحمومة التي ظاهرها رمافة الذوق عند النخبة الرومانية حق وباطنها بطل ، يحسن بنا ، ونحن نسجل توقف ، ان لم نقل افول ، هذا الازدهار الذي شرف عهد اوغسطس ، من الوجهة الفكرية والفنية على السواء ، ان نتبين ما كانت عليه النخبة في المجتمع الروماني العالي من ذوق ريف ، بعد ان اصبح البحث عن اسباب هذا الوضع الجديد والدوافع اليه ، بمنأى من مناهج التاريخ وأساليبه . وهذه النخبة القليلة العدد نسبياً ، التي هي وقف على العاصمة روما او تكاد ، والتي تنعم بما تنعم به من ثراء عريض ، وبما هي عليه من ظرف عال وثقافة عريضة ، والتي تهفو منها النفس الى المتعة العقلية والمادية على السواء ، كما تهفو الى كل ما يزيد منها الحياة بهجة وبهرجاً من حلي في الخارج ولذة في الروح ، وكلها أمور هيأت ، على ما يظهر ، هذا المجتمع لعبث النوادي وطيش الحلقات ، رأت نفسها مفضومة من كل غذاء ، ومقطوعة عن كل اتصال بدافع الحياة . صحيح هذا كله . ولكن ، ما الذي جعل الكلاسيكية تشيل في فرنسا وتنتصر على تيار التصنع والتحذلق ، دون ان يطراً أي تغيير على المجتمع الفرنسي اذ ذاك ؟ والى هذا ، فليس من ميزة واحدة من بين هذه المميزات التي توفرت لعصر اوغسطس ، بقي معمولاً بها او متوفرة حتى نهاية الامبراطورية الرومانية العليا . فالارستوقراطية القديمة زالت وتوارت من الوجود ، بينما الارستوقراطية : الجديدة كانت تغتذي دوماً ، وبدون انقطاع ، بمناصر جديدة طلعت من مجتمعات طبقية مدنية او اقليمية اوسع . ولم تكن اذواقها المكتسبة لتصدر عن نوازع وراثية ، كما لم تكن ميولها ميول اصحاب الذوق الرفيع من أبنائها . وهذا البذخ الجنوني عند الخاصة ، استبد مرة واحدة ، في منتصف القرن الاول ، وفي عهد الاسرة الانطونية ، بينما لم تحدث هذه النخبة في ما نعمت به من غنى وثراء ، كان ولا شك ، على الاجمال ، دون ما تم من أمثاله للنخبة

السابقة مثل ، ما أحدثت هذه حولها من جَلْبَة وقرقرة . غير ان ما تميزت به من نشاط فكري وثقافي وتهاقت على كل المظاهر الجمالية ، والاستمتاع بكل ما يتم عن ذوق رقيق في تعبيره اللفظي والفني ، كل ذلك لم يطرأ عليه تغيير يذكر . وليس من اقل فضائل هذا العهد وإخلاصه ، وهو شيء لازمها حتى نهاية التاريخ القديم ، ان تحافظ هذه النخبة من نبلاء الدولة ، نزولاً منها عند رغائب الأباطرة ، وان تقدم الدليل دوماً ، على تمسكها بهذه المناقب ، كما تحافظ على هذا المستوى الثقافي والحضاري الذي نُحِيلُ لها انه بلغ سدة المنتهى .

من الظلم الفاضح ، وأيم الحق ، ألا يقدرُوا هذه الحضارة حق قدرها ، كما انه من العمّة ألا يلاحظ المرء هذا الصفات التي شابت هذه الحضارة والتي لا يمكن الاشارة اليها كلها لكثرتها .

ليس من أقل هذه الصفات شأنًا ، سوء الاستعمال في المعرفة او الافراط فيها
الاعجاب بالماضي الذي أدّى الى تفضيل آثار العهود الماضية العقلية باعتبارها أقوى وقماً ، وأوفر متعة في النفوس . ولقد كان سبق لبعض الاغريق في العهد الهليني ان نسحوا هذا المنحى . ألم ينشئوا في مدينة «برغاموس» شيئاً يشبه المتاحف الفنية؟ وهذه النزعة العارمة نحو القديم والحرص على جمعه والاحتفاء به ، ظهر اول ما ظهر ، في روما بالذات ، اذ راحت تحفل بأدب الاغريق وتقبل على تلقفها واستمرارها ، اذ لم يكن يوجد بعد آثار رومانية قديمة سحرية بالاهتمام . وقد رغب اوجسطس بنقاش الاغريق وهذه النقوش التي كانت سبب شهرة مدينة كورنثس ، منذ القرن السادس ق . م ، ودفع طيباريوس ثناً باهظاً لصور ورسوم من ريشة الفنان اليوناني براسيوس . من مشاهير رجال الرسم عندهم في القرن الخامس بعد ان نزلت من نفسه منزلة عالية فضلها على رسوم أبيل الاغريقي الذي عاصر الاسكندر . وهذا التصنيف لم يلبث ان استبد بالنفوس فاتخذوا منه منوالاً نسجوا عليه ، بحيث ان آثار بوليكليت وميرون صادفت تقديراً أعلى مما صادفته نقائش فيدياس . ومع ذلك ، لم يظهروا أي إعراض او ازدراء بالعلاق الادبية الكلاسيكية ، حتى ما عاد منها للقرن الثالث . وراح كل روماني على جانب من الثروة والغنى ينشئ له منها مجموعة شخصية ، فذهبوا في ذلك كل مذهب وغالوا فيه حتى خرجوا عن حدود العرف والمعقول ، واستهاموا بالآثار القديمة حتى حدود الهوس والجنون بحيث ان المهندس قفوف خطط في التصميم الهندسي الذي وضعه لمنزل نموذجي ، محلاً لحفظ مجموعة خاصة من الرسوم والصور يأتيها النور من الشمال ، كما عثروا في جميع أنحاء الامبراطورية على مخابى المجموعات من المجوهرات ، بينها مجموعة من ١٠٠ قطعة وجدوها في بوسكوريال ، على مقربة من مدينة بومبيي ، وعلى مجموعة أخرى من نحو ٦٠ قطعة ، في مدينة برتروفيل ، على مقربة من برثاي ، من اعمال مقاطعة نورمانديا . ومما بلغ انتاج الاغريق قديماً من الآثار الفنية ، ومما بقي هذا التراث الفني متوفراً بالرغم مما تعرض له على مر الدهر ، من سلب ونهب ، وتكليف وعيب ، فلم يكن بالطبع ليسد او ليكسب رغائب الهواة . ففي الحين الذي نشطت فيه حركة الاتجار بهذه المصوغات والمصنوعات الفنية القديمة منذ العهد الهليني ، راح النساخ والمقلدون يزيفون الكثير من هذه

النفائس لتلبية شدة الطلب لها وإشباع نهم الطامعين فيها، المتحرقين لجمعها بعد ان اشتدت حولها رغائب القوم واقتنوا بها دونما حساب . والى جانب هذه القطع المزيفة التي بلغ الزيف منها درجة من الدقة والاتقان ، بحيث اختلط على أهر خبراء العصر اليوم ، التمييز بين الزائف منها والأصيل ، كما نشاهد ذلك ، مثلاً ، في صورة هرمس لبراكسيثل التي عُثر عليها في مدينة اولمبيا . فقد كانت معظم الآثار الفنية الجديدة تستلمهم القديم . من هذه النقائش والأعلاق فيها ، احتذاء بالامبراطور هدريلانوس الذي اقتتن بهذه الهواية الى درجة الهوس . غير ان الانجذاب نحو الماضي أتى فعله السيئ على الجهود التي لا بد منها لتأمين مقومات النجاح لكل حركة تجدد وانبعثت تروم الانفتاح وتسعى الى الانتشار لتبلغ النضج والتمام .

شيء من هذا الهوس ظهر في عالم الادب على اختلاف مجالاته وقطاعاته . فالى جانب روائع الأدب اليوناني الذي كان محط آمال وانظار من يحسنون اللغتين اليونانية واللاتينية ، توفر للادب اللاتيني محصول طيب سهل الحصول عليه لمن يرغب فيه . وقد أخذت المكتبات العامة وخزائن الكتب الخاصة يزداد عددها في روما ، بعد ان طلعت على الناس اول ما طلعت في عهد يوليوس قيصر بحيث اصبح عدد المكتبات العامة فيها ، في القرن الرابع للميلاد ٢٨ مكتبة . ومن ناحية اخرى ، اتاح توفر الارقاء والنساخ ، استنساخ الكثير وتضعيف العديد من الآثار الفكرية القديمة التي كانت من الكثرة والوفرة بحيث راح الناس يختصرونها ويؤلفون مجاميع من مقتطفاتها الأثيرة ، واكثروا من هذه المختصرات الأمر الذي اقضى الى إهمال المطولات وتعرضها بالتالي للزوال ، كلياً او جزئياً ، وبذلك فقدنا الامكانية للتعرف عن كتب ، الى آثار الآداب اليونانية واللاتينية . ولكن لم يكن الوضع ، اذ ذاك ، بلغ مثل هذا الحد من الخطورة . وعلى عكس ذلك تماماً راح الناس يتدارسون هذه الآثار وينعمون النظر فيها ملياً بشيء من الاحترام تجاوز التقديس الى الوثنية ، أفسد منهم الروح ، وبهم المعنى المقصود بحيث اضطر المعنيون بأمرها الى استنباط المعاجم الخاصة ، ووضع الشروح والتفسيرات والتعليق الايضاحية ، للاساليب البيانية والتعبيرية ، بدلاً من ان يستوحوا منها موضوعات جديدة ، في معناها ومبناها ، والتعبير عن الاحاسيس التي يجب ان تفيض بها . وقد بلغ منها التبذل في التقليد والمحاكاة بحيث انتحلت شعراء وكتاب العصر الكلاسيكي . ونسج كثيرون على منوال الإنياذة عدداً من الملحم الاسطورية ، فوضع سيليوس إيطاليكوس ، في عهد الاسرة الفلافية ، ملحمة أدارها على تاريخ الحرب البونيقية الثانية ، كما يقص لنا تيت - ليف خبر ذلك ، و اضاف اليها اضافات كنزول شيبو الافريقياني الى الجحيم رغبة منه في استشارة ابيه والعمل بنصحه وهديه ، تشبهاً بإبائه الذي راح من قبل يستلقي اباه أنكيز . وقد اوغل بعضهم بعيداً في هذه الحركة بحشاً عن غذاء اكثر استساغة لاذواقهم . نرى ، منذ اواخر القرن الثاني ، كونتيليانوس ، وهو على ما اشتهر به من تعصب للكلاسيكيين يتساءل عما اذا كانت دواوين الشعراء الاقدمين تفيد في تربية النفس الجديدة وصل اذواقهم . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان يطرحوا على بساط البحث مثلاً كتاباً بشهرة شيسرون وفرجيل ايضاً . ولم يتورع هدريلانوس من ان يفاضل بهم كلتون وأنتيوس . ففي

الرسائل التي ارسلها فرونتون الى تلاميذه من امراء الاسرة المالكة والتي لم يبخل لهم فيها بالنصح والارشاد حول الكتب المستحسن مطالعتها وقراءتها ، لم نره يأتي ، ولومرة واحدة ، على التنويه باسم فرجيل . وفي النصف الثاني من عهد الاسرة الانطونية ، كان أنتيوس موضوع تقدير الجميع كما كان له الكثير من الانصار المتحمسين والمريدين الاشداء . ويروي لنا «أولوجيل» وهو من المتعصبين لأنتيوس ، كيف كان يثير حماسة سامعيه في احدى المدن الايطالية عندما يقرأ لهم في مسرح المدينة قصائده القديمة .

الانحرافات الدينية القراءات العلانية، هذا ما يطالعنا من مستحدثات العصر ومن عادات المجتمع التي أطلت علينا من شيوع هذه الثقافة الادبية وانتشارها بين الطبقات الرفيعة من المجتمع الروماني ، اذ ذاك ، والذي يشير بحلاء ووضوح الى الاتجاه الذي اتجهته هذه الثقافة . وهذه القراءات العلانية *Recitationes* التي ادخل اسينيوس بوليون استعمالها في روما ، لأول مرة في اواخر عهد الحروب الأهلية ، والتي جعل منها الرومان بديلاً لنظام المحاضرات التي عرفها الاغريق منذ عهد السفسطائيين ولقيت نجاحاً منقطع النظير بما أثارت ، لمدة طويلة من حماسة وأهبت من مشاعر . فقد عرفت ان تجمع بين المتعة العقلية وبين لذة اللقاءات الاجتماعية ، كما وجدوا فيها عوضاً عن هذه المناقشات والمجادلات التي عفا كل أثر لها في المجتمعات والمؤسسات الادارية ، ولا سيما في جلسات مجلس الشيوخ . وسواء تناولت هذه القراءات الشعر او النثر ، فلم يبق مؤلف إلا وراح يقرأ تبعاً ، على حلقات من المستمعين والمستمعات يتحلقون حوله ، كلما انتهى من وضع فصل او جزء من كتاب يعمل على وضعه ، فيحاولون ، بشيء من التمثيل المسرحي الرخيص ، كالتصفيق الداوي المأجور واللقاء المتصنع المصحوب بالاداء ، ان يثيروا إعجاب القوم ، فينطلق الحضور والنظارة بالثناء والمدح الرخيصين ، قبل ان يكتمل نشر الكتاب ويرى فيه المتمكنون من العلم . ولا يخفى ما في هذا الاسلوب من أذى يقع على فكرة التأليف المنهجية في الكتب الطويلة النفس ، كما ان هذه الطريقة أفضت من جهة أخرى ، الى اضاءة وقت الكاتب وهدره نجزافاً في البحث عن النكتة المستملحة والتعابير المستظرفة ، والكلمات المثيرة ، والمجازات الغريبة ، والتوريات النابية ، والاستدارات المستهجنة والمفارقات الصارخة ، والتراكيب المعبر عنها بالمعادلات ، وغير ذلك من حوشي الألفاظ والاضاع التي تلبو عن الذوق السليم . كل هذا ظهر في ادب العهد الامبراطوري ، فصبغه بهذا البهرج الزائف وبهذا الطعم التافه الذي يمجج الذوق .

وهكذا ساعد هذا النمط من القراءات العلانية على تقوية هذه النزعات الجديدة التي طرأت على المجتمع الروماني ، فاستسلم لها منذ عهد بعيد . وهذا الانزلاق الى هذا المنحدر الأدبي ، هل نسأل عنه المرأة الرومانية التي وضعت افوايق هذه الثقافة وحلبت أشطرها فلعبت دوراً بارزاً في هذه الحلقات والصالونات الادبية ؟ انه لفخر أثيل لروما ان تسهل عتق المرأة بتحريرها اجتماعياً وفكرياً وثقافياً ، سيراً منها مع الحركة التي وجدت منطلقها في المجتمعات والمنظمات

الهليينية. ومهما يكن، فاذا كان الامبراطور هدريانوس هو خير من يمثل هذه الهواية التي استبدت برجال العصر، اذ ذلك، فليس المسؤول عن هذا التدهور او الانحدار الأدبي هؤلاء النسوة الدعيّات المتحلقات من شاركن حياة البلاط، كهاتين الشاعرتين: بلبيلا *Balbilla* وتريبولا *Trébulla* اللتين اشتركتا في الرحلة الى مصر عام ١٣٠، وفيها ماتتا ونقش احد اشعارهما على حافة تمثال ممنون *Memnon* الى جانب أسماء الامبراطور وزوجته وعشرين غيرهم ممن اشتركوا في هذه الرحلة.

وهذه الهواية التي كانت تتم في الصميم عن فضول عام وحب اطلاع، حلت الناس على السفر والقيام بالرحلة الى الأماكن والأقطار التي كانت مثاراً للخيال بما يرافق تاريخها السحيق من أسرار، كانت ملهمة لعدد من الكتب والأبحاث في مجالات الفن والادب، حتى ان بعض الأباطرة راحوا هم أنفسهم يستعملون ريشة الرسام ومنقش الحفار. وهكذا اخذت تدفع الناس الى الاكتفاء بالسطحي من العلم والثقافة، او الى التصنع في هذه الفنون التي هفت اليها اذواق القوم اذ ذلك، كالادب مثلاً. فالظهور بالظرف وتكلف الذكاء في الصالونات، وقرض بعض القصائد من مجزوء الشعر، وتتميق بعض الرسائل او صقلها ببهرج الكلام والمحسنات البيانية والمجازية، كل هذه السمات الصغيرة اخذت حق التقدم والصدارة على غيرها من الصفات الاصلية في صناعة القلم. ولئلا نستفيض في هذه الشؤون ونسهب في تفاصيل لا كبير جدوى منها، يكفي ان نحيل القارئ الى الاجزاء العشرة الأولى من رسائل بلين الاصغر، اذ ان العاشر منها يؤلف مجموعة رسائله الرصينة مع الامبراطور تراجيانوس. ففي كل صفحة من صفحات هذه الرسائل مثال حي لسخافة هذا الاسلوب الذي ينم عن اغراف الذوق الذي تثير قراءته مع ذلك، اللذة لما فيها من رقة ومتعة.

من التقاليد المتعارفة ان نجعل نظام التربية التي خضعت لها الشبيبة، اذ نظام التربية اذ ذلك؛
ذلك، والتي كانت تعنى، قبل كل شيء، بالبيان والخطابة، مسؤولاً
الخطابة
الى حد بعيد، عن الاتجاه الفكري بالمجتمع الروماني الرفيع،
في ذلك العصر.

بالفعل ان ايثار البلاغة والبيان، كما نصح بذلك ايزوكراتيس، منذ القرن الرابع ق. م، وتفضيلهما على سواها باعتبارهما قوام الفلسفة الحقيقية وخير المناهج التربوية وامثلها يكوّن، ولا شك في ذلك، احد هذه الاقتباسات التي تعترف الحضارة الرومانية صراحة بنقلها عن الحضارة الهلينية.

فظهور النظام الامبراطوري في روما اوجد شروطاً جد ملائمة لازدهار البلاغة والفصاحة والبيان، فجاء هذا الظرف شبيهاً بالظروف ذاتها التي هيأها لها منذ عدة قرون، الاخذ بالنظام الملكي في البلدان الواقعة الى الشرق من البحر الابيض المتوسط. فقد انقضى عهد هذه المبادلات والمناقشات التي كانت تدور امام المجالس والهيئات البلدية، كما زال وانقضى عهد هذه الدعاوى

التي كثيراً ما تخللها قضايا سياسية كبرى . فعلى الخطيب ، الآن ، ان يلقي دفاعه في نطاق ضيق وحول قضايا خاصة ، او ان يقصر دفاعه على خطب وهمية ، تقرأ ولا تلقى ، كما فعل ايزوكراتيس ، مع وجوب التقيد بالمبنى او المعنى أو الشكل والصورة ، او ان يسهم مع غيره من الخطباء في ما يلقي في بعض المناسبات كالاعياد والحفلات يضمنها الشئ الماطر للملك والتغني بآتيه وأعماله . وهكذا يبدو من غير المعقول ، كما يبدو مخالفاً للعرف والتقاليد المرعية في العالم الروماني والعالم اليوناني ، على السواء ، الا تتم الخطابة بمثل هذا الشأن الخطير في النظام التربوي المعمول به ، اذ ذاك ، في العالم الروماني ، في الوقت الذي فقدت الخطابة كل اهمية عملية لها .

وكانت الخطابة والبلاغة والبيان خاتمة المطاف في النظام التربوي الذي بقي على ما كان عليه دون ان يطرأ عليه اي تغيير ، وكما انتقل الى البلاد اللاتينية كما هو ، وعمل به فيها على علاقته . وقد أهمل في هذه التربية شأن العلوم ففنعوا منها باولييات الحساب بينما كان تدريس العلوم وفقاً على بعض الخاصة ، ينصرفون اليه بعد انتهاء فترة التعليم العام . والمنهج التربوي المصمم لم يكن ليهدف الا لتكوين ادباء وحكمة اقلام ولا سياخطباء ورجال بلاغة . وبعد التعليم الابتدائي الذي كان ينحصر في الأجرومية ، من صرف ونحو ، كان الطالب يلقن بعض مبادئ الادب عن طريق تعريفه الى مشاهير الشعراء وآثارهم البارزة ، امثال هوميروس وقرجيل ، يحفظها الطالب عن ظهر قلبه مع بعض الشروح والتفسيرات والتعليق . والى هذه المبادئ في اللغة والادب كان الطالب يلقن دروساً في المعجمية والشعر والنحو ، كما يلقن دروساً في الاخلاق والميثولوجيا . وعندما يبلغ سن المراهقة يأخذ الطالب بدرس الخطابة وما اليها من بيان وفصاحة وبلاغة ، في شروح وتفسيرات تتناول كبار الكتاب والخطباء ومشاهير المؤرخين ، وأمثلة من الخطب التي ينحلونها والامثلة العديدة التي يتمثلون بها أو يأتون بها شواهد ، مع ذكر طائفة من النوادر والنكات المستصلحة التي تدل على سرعة الخاطر وحضور الذهن ، كان على الخطيب ان يطلع عليها ليستشهد بها . وتدريباً للطالب على فنون الادب ، كان يطلب اليه معالجة موضوعات غير واقعية ، فيعد لها مذكرات تؤيد او تدحض ، كما يقوم بمذاكرات ومناقشات ، أو ان يقوم باعداد دفاع عن أمر ما *suasoriae* . ولكي يلهوا من طالب الخطابة الخيال ، وبعثوا في 'حياته' النشاط ، كثيراً ما كانوا يضعونه ، عن سابق قصد وتصميم ، امام مواقف خيالية أو اوضاع يواجه فيها صعوبات معقدة ، مستعصية الحل من الوجهتين الادبية والقانونية . ولم يكن ليهول الحكومة او ليحررها ما كان يبلغ مسامعها او ما يُنقل اليها من الدعوة الى الحرية أو التغني بها ، او تحبذ من يدعون للطفان والاستبداد في الحكم وغير ذلك من المبادئ الهدامة في ظاهرها مما تتجاوب ارجاء المدرسة أو المعهد باصدائه ، اذ لم يكن ليخطر على بال احد ان هناك من يستجيب لهذه الدعوة أو ينهض عنها ، اذ لم يقصد من هذا القول سوى الارتياض العقلي والذهني ، والتخرج باقننين البيان .

وكان السواد الاعظم من الشبان الذين باستطاعة والديهم ان يكفلوا لهم اسباب التعلم يقتصر

على مثل هذا المنهج الدراسي ، وقليل بينهم من ينهض لدراسة الفلسفة . إلا ان التطور الذي رافق الحركة العلمية والتربوية أوهن كثيراً من الوشائج التي شددت طويلاً ، عند الاغريق قديماً ، بين الفلسفة ، من جهة ، وبين الرياضيات وعلم الفلك ، من جهة أخرى . فقد ازداد عدد مدارس الطب غير ان فريقاً كبيراً من الأطباء كان يتخرج بهذه المهنة عملياً ، بالمراس والمران ، وذلك بالتحاقه ببعض الأطباء فيلازمهم ويأخذ عنهم . ومن فضل الرومان على تطوير التربية والتعليم ، سبقهم غيرهم الى تدريس الحقوق والشريعة بمعاهد خاصة أنشأوها لهذا الغرض ، بعد ان تبينوا الأهمية الكبرى لهذا العلم . فدرجوا على إعطاء شهادة تخرج في الحقوق لمن أنهى دراسته القانونية ، وهو أمر لم يجز ما يشبهه في الطب . فاذا كانت هذه الشهادة تفتح امام حاملها ابواب الوظائف ، فلم تكن مع ذلك بشرط أساسي لولوج الادارة ، كما ان ممارسة المحاماة بقيت دوماً حرة من كل قيد .

فليس بغريب قط ان تحتل فنون البلاغة والخطابة ، في مثل هذا البرنامج الطويل المهادف لتأمين الاختصاص ، محلاً هاماً أكثر من اللازم ، لا سيما وقد خصصوا البيان والفصاحة بدروس ارادوها على مثل هذا الشكل من التقعر والتطويل ، بعيدة عن الحياة العملية ، وهي دروس ادنى الى ادب الخيال والتخصص لا تقيم وزناً إلا للقدرة البيانية والصياغة الحرفية ، بعد ان قضت الظروف بإبتعاد هذه الدروس عن واقع الحياة العملي ، مما لم يغيب يوماً عن أعين ايزوكراتيس .

وكانت هذه الدروس تهدف ، في الاساس ، للبحث عن الأفكار والكشف عنها والتسليق فيما بينها ، وفقاً للسلسل المنطقي ، والتعبير عنها بأناقة ووضوح ورشاقة ، اذ تمكن من تلقاها من مواجهة أدق المواقف وأصعب المهام التي تعرض له . فهل حققت ، يا ترى ، الاهداف التي رُسمت لها ؟ ومهما يكن ، لا بد من الاعتراف هنا ما كان للتربية والتعليم عند الرومان من فضل ، اذ زودت الامبراطورية بالأطُر والملاكات التي شغلها افراد تسلحوا بالعلم والمعرفة ، بالرغم من بعض النواقص التي شابتها والأمور المستهجنة التي اعتورتها ، وسلحتهم بفضائل ومناقب تمثلت على احسن وجه بهذه النخبة التي قامت على خدمة الادارة ، ونهضت بأسبابها .

هنالك ملاحظة لا بد من ابدائها هنا تتعلق بالسهولة التي يأخذ بها البعض في نقد هذا النظام التربوي فيرمونه بكل قريئة . فاذا ما انتسخ هذا النظام مع روما القديمة ، فقد كُتب له ان يُبعث حياً فيما بعد . فعندما نرسم الخطوط الكبرى التي سارت عليها هذه التربية فاننا نلحظ ، ولو من طرف خفي ، الى النهج الذي تبنته الدول الكبرى في غربي اوربا ، منذ القرن السابع عشر حتى اواخر التاسع عشر . فقد نسجت روماني هذا المضمار على المنوال الذي تسلمته من الحضارة الهلينية . فسلكتها هذا انما يعني السير معها على المثل السامية التي سارت عليها الانسانية ، وليس مجرد التزام تقليد متبع ، وعرف مستبد . ويدون ان نحسب بان هذه المثل قد زال عهدها وانقطع ، فبالامكان ، مع ذلك ، التزام مناهج اخرى تضمن تحقيق هذه الاهداف . فاذا ما راحت مدينة هذا العصر تتنكر لهذا الدين الذي تحمله في عنقها والذي طوقها به الاقربون من الأنساب ، فتكون بذلك قد أتت أمراً إداً واستهدفت بحق لتهمة العقوق ونكران الجليل .

المدرسة وأثرها في نشر الثقافة من الانصاف ألا نهمل هنا التنويه عالياً بهذه الجهود التي بُذلت اذ ذلك ، لنشر الثقافة عن طريق المدرسة . فالاصطلاح الاداري نَحَت من عهد قريب كلمة : التعليم المدرسي *Scolarisation* ، وهو مصطلح يحمل بنا استعماله تنويعاً بالحاجات المشتركة ، من جهة ، وبالحلول المتشابهة التي يعتمدونها لسد هذه الحاجات ، من جهة أخرى ، اذ لو صح ان المبادرة جاءت من افراد يكلفون بالتعليم ، فالادارة الحكومية استجابت بدورها لهذا الشيء الذي طلع حديثاً وشجعتة .

ولا بد من ان نردد هنا ما سبق وقلناه من قبل وهو ان الفكرة ، ليست في الاصل ، رومانية ، بل هيلينية . وقد قطعت الطريقة الجديدة شوطاً بعيداً في تطويرها نحو التكامل ، سواء في الشرق او في الغرب الذي راح يضاعف الجهد ويلهب الخطى ويحث السير ، اذ كان عليه ان ينشئ كل شيء وان ينطلق من الاساس . فباستمرار الأمر الكبيرة على الاستعانة بمرتين خصوصيين أخذ عدد المدارس يزداد ويتسع باطراد . وكان التعليم في معظم هذه المدارس يُعَمِّن له رسوم وأجور كما يعين للمعلم مرتب لا بأس به ، ان لم يوفر لمعلم الصغار مستوىً كريماً من العيش ، فقد أمّن للمعلم المدرسة الابتدائية دخلاً محترماً . أما أساتذة البيان والبلاغة فكانوا ، على الاجمال ، من اصحاب المقامات المحترمة في البلد . وكثيراً ما كان العبء الذي يقع على الوالدين يخف او يزول تماماً من جراء هبة او تبرع يقوم به احد الخاصة يُسبِّلُها على إنشاء مدرسة او مكتبة ، او يقفها على اقامة احتفال تذكاري ماء ، او يخصصها لبناء نصب او مؤسسة من المؤسسات . وكان الاهتمام بهذه الوقوفات وتأمين ادارتها يقع على المجلس البلدي فيخصص لها من الاعتمادات ما يكفل لها حسن سير العمل ، ولذا راحت السلطة المحلية تضطلع بالاشراف على هذه المدارس ، وتختار لها المدرسين الاكفاء ، كما انها كانت تعين لها طبيباً تدفع له المرتبات لقاء سهرة على الصحة العامة في المدرسة او المؤسسة .

وكثيراً ما كانت المدن الصغرى تضطر أكثر من الكبرى لبذل مجهود أكبر من التضحيات ، في هذا السبيل بالنظر لما للأخيرة من عدد السكان وشهرة المعلمين ما يؤمن حاجتها من الاساتذة والمدرسين والطلاب . وهذا الوضع بعينه يفسر لنا كيف ان الادارة الامبراطورية لم تتدخل حالياً في الأمر إلا بعد تاريخ متأخر . فالباطرة الذين لم يكن يستطيعوا الاهتمام بكل المدن الصغيرة اقتصر اهتمامهم على شيء بسيط جداً في المدن التي كانت تدبر شؤونها بنفسها . ولكن إيانا ورميهم بالتهاون او عدم الاكتراث . فنذ ان ضُمَّت مصر الى الامبراطورية أُرصدت في باب الموازنة الاعتمادات التي اقتضاها حسن سير المعاهد الثقافية والعلمية التي رأت النور في الاسكندرية في عهد البطالسة : كالمكتبة والمتحف اللذين أُلِّقا معاً معهداً عالياً للآداب والعلوم والفنون جعل منها مجتمعة ، جامعة الاسكندرية التي طبقت شهرتها الآفاق ، في التاريخ القديم . وانصرف الاباطرة ، في عهد مبكر من النظام الامبراطوري ، الى تأسيس المكتبات في روما . وعندما اخذت هذه الامبراطورية ، في عهد الدولة الفلافية ، على عاتقها تخصيص مساعدات مالية ليس

للشؤون الثقافية فحسب ، بل أيضاً للمدارس الخاصة ، فقد استجابت في ذلك ، لرغبتها الصادقة في إظهار عطفها وتشجيعها أكثر منها لواجب مفروض . فلم يكتف الامبراطور فسبسيانوس بتخصيص مرتبات ضخمة لاستاذين من اساتذة البيان والبلاغة في روما ، بل عهم مكرمه هذه على اساتذة الصرف والنحو والخطابة ، كما جعلهم يستفيدون من الاعفاءات التي تمتع بها الأطباء منذ عهد اوغسطس . وعلى هذا سار أيضاً اباطرة الأسرة الانطونية . فقد حث الامبراطور مارك اوريل خزينة الدولة مرتبات أربعة اساتذة للفلسفة ومرتب استاذ للبلاغة والبيان ، في اثينا ، وهذه المرتبات كانت دون المرتبات التي كانت تدفع لاساتذة العاصمة ، إذ كانت معد لها يتراوح بين ٦٠.٠٠٠ و ٤٠.٠٠٠ سترس (١٥ - ١٠ آلاف فرنك فرنسي من عملة ١٩١٤) ، بينما كان يتقاضى الاستاذ في روما ١٠٠.٠٠٠ سترس . صحيح ان الدولة لم تذهب الى ابعد من هذا الحد في امر تمويل التعليم ، إلا انها اخذت تحت المدن على مضاعفة البذل في هذا الحقل . وهكذا لم تلبث المدرسة البلدية ان أصبحت المدرسة النموذجية .

وكانت الدولة تضع نصب اعينها في هذا كله تأمين تربية الذكور بنوع خاص ، وقد ساعد تطور الاخلاق على التوسيع من الحريات للمرأة . وهكذا فلم تلبث ان قامت مدارس خاصة بالاناث ، حتى ان المربي الفيلسوف موسونيوس روفوس اخذ يتبنى ، منذ اواسط القرن الاول ، لوسير في تربية الاناث على الخطة التعليمية او المنهج الذي تخضع له مدارس الذكور . ومن النادر جداً ان نرى المدن او بعض نصراء العلم يولون مثل هذه المدارس اهتمامهم او يخصصونها بمكافئهم .

لم تكن قضية تعليم الذكور لتخفي وراءها أو لتبطن اية فكرة سياسية .
بين الثقافة والسياسة :
الاهداف والنتائج
فلم يبد اي مسعى أو أية رغبة ، من اي نوع للالتزام بتفسير معين للتاريخ
او لفرض أية نظرية او فلسفة ملكية ، استبدادية ، على المدرسة . وعلى

عكس ذلك تماماً ، كان العرف ، التشديد عموماً ، على موضوعات تتصل اكثر بطبيعة النظام الجمهوري . فابننا أجلنا الطرف وجدنا هيئات وجمعيات للاحداث *Juvenis* تشبه الى حد بعيد ، ما عرف عند الاغريق بمنظمات الفتوة *Ephèbes* . واقتصر نشاط هذه الهيئات على احياء حفلات واقامة اجتماعات تكريمية تتجه من الامبراطور ، باستثناء الجمعيات أو المنظمات التي قامت في مناطق الحدود ، اذ كان نشاطها يُصرف في وجوه الرياضة البدنية والتربية العسكرية . وفيما عدا ذلك ، كانت هذه المنظمات تخوف لأعضائها أسباب اللهو والتسلية والتفريج . وتبدو هذه المنظمات اذا ما قارناها بشيبتها في عصرنا اليوم ، بدائية للغاية ، عدا عن انها اقصرت عضويتها على شباب الطبقات الرخية . وموجز القول ، فالامبراطورية لم تكن لتصدر ، في التربية كما في غير قطاعات من شؤون الفكر ، عن نزعات اجماعية ، دكتاتورية ، عرفنا منها نماذج عدة خلال التاريخ الذي يحدثنا بشيء من الاستفاضة عن التربية في سبارطة قديماً بحيث لم نعد نجعل شيئاً من اسبابها بعد اليوم . فاذا ما حاز هذا النوع من التربية رضى البعض وفاز باعجابهم ، فقد اعتُبرَ مع ذلك قاسياً ، منفراً بحيث كان الاغريق اول من اعرضوا عن هذا النهج ، بحيث لم يخطر في بال احد ، في روما ان يتبنى مثل هذا النهج أو ان يقبل منه ، لعدم صلاحه .

من الخطأ في الرأي الظن بأن المؤازرة التي بذلتها السلطات العامة في جميع درجاتها ، لتطوير الأسرة انما صدرت عن اهداف مجردة . فقد انطوت حتى عند اكثرهم اخذاً بالبادئ السامية من اصحاب مذهب الرواقين من تحسوسوا بسمو واجباتهم ، على أمر مروم ومنفعة يُسعى إليها ، فهي تقوم وترتكز على هذه المعطيات الاولى التي تمكّنهم بأن الامبراطورية الرومانية والحضارة امران متلازمان مترابطين لا يمكن فصل الواحد عن الآخر ، بعد ان اخذت الامبراطورية على نفسها صيانة هذه الحضارة والحفاظة عليها من عوادي الدهر وعيث البرابرة ، كما ، انه اصبح مترتباً على كل مواطن روماني ان ينعم باسباب هذه الحضارة عن طريق التربية وان يُخلص لها الولاء ، وان يكون دوماً على اتم استعداد للمناصرة الامبراطور والشدة منه الازر في كل ما يبذل له من الجهود للدفاع عن المصلحة العامة وتأمين الخير للجميع .

من يعرف الى اين انتهى الامر بهذا التطور يدرك جيداً ان هذا الحسبان كان باطلاً اذ ان النجاحات التي حققها التطور لهذه الامبراطورية لم تحل قط دون تفسخها وانهارها . وهذا التفسخ والانيار الذي أتأتمته جاء نتيجة منطقية لاسباب خارجية تمثلت في هذه الغزوات المتلاحقة التي شنها عليها البرابرة في أمواج متتالية ، ولاسباب داخلية ايضاً ، ولا سيما لسبب سلمي يبرز من خلال قلمي النظر في هذه السياسة الثقافية التي سارت عليها الامبراطورية ، بالإضافة الى الاعتبارات الاخرى التي طالما اثرنا فيها في تضاعيف الفصول الماضية .

فالتعليم اقتصرت على سد حاجات الادارة ، ومتطلبات الحياة الاقتصادية ، والبنیان الاجتماعي الذي ساد المجتمع اذ ذاك . فهو ان اشبع ، أو سد مطلب المدينة فقد قصر كثيراً عن اشباع حاجات الولايات والريف . هنالك امثلة فردية قليلة جداً على قيام بعض مدارس في الاقاليم التي قامت فيها المناجم والمعادن . ويستدل من نصب رسمي ان هنالك مدارس قامت ايضاً في ما اصطلمحوا على تسميته بـ *Vici* ، وهي كلمة اطلقوها على بعض مجتمعات او اوساط اختلفت شأناً واهمية فيما بينها ، فلم يكتب لها ان ارتفعت الى مرتبة حاضرة او قاعدة القضاء . ومهما يكن من امر هذه المدارس ، فهي لم تؤمن سوى تعليم ابتدائي متواضع ، ولم يكن لها ، بالتالي ، اي شأن في القضاء على اللهجات المحكية المباعدة أو التخفيف من حدتها . صحيح ان باستطاعتنا ان نشاهد بعض اسانذة اعلام للصرف والنحو والبيان في مدن الغرب المتواضعة ، اذا ما قارناها بالوضع الذي قام في الماضي . ومهما بلغ من اتساع الجهد المبذول في هذا المجال ، فهو لم يتناول سوى قسم ضئيل جداً من سكان الامبراطورية . وكانت التوسيع من نظام التعليم بحيث يتناول اكبر عدد ممكن يقتضي له مبالغ طائلة لم يكن بوسع الامبراطورية ولا في مكنتها منظمتها تقديعها ولا تحملها ، كما كان يقتضي ، على الاخص مفهوماً آخر للمجتمع ونظرية جديدة للحضارة لا تحتل فيها المدينة روما مركز الصدارة الضاغطة . فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان تبقى جهرة السكان في الريف غير مبالية ولا بمكثثة لمصير حضارة اهلهم فاسقطتهم من حسابها وكادت لا تشعر بوجودهم .

وهكذا باء بالفشل الاماني العراض التي دغدغت خيال احسن الاباطرة وراودت خواطرهم

ولم يكن معدّ من هذا المصير المحتوم ولا محيص منه ، مع انه لم يكن لعمري ، في الأمر شيء عسير او بمستحيل ، اذ يكفي ان تذكر النجاح الذي حققه لدى قسم من سكان الامبراطورية . فالعناصر المدنية ، أينما كانت ، انضمت صادقة لهذه الحركة . فالتطور التدريجي الذي اخذت هذه العناصر بأسبابه وتبدأ ، جيلاً بعد جيل ، من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية ، وطلبها الثراء والغنى وانصرافها نحو الوظائف البلدية وهو الباب المفضي الى طبقة الأشراف الجديدة ، رافقه تطور ثقافي وفكري . وهذه الحركة التطورية عولت على التربية واتخذت منها عماداً لها ، ومكثت لها الاسباب في المدن اذ كان في مقدور هذه المدن وحدها ، بسبب ما لها من موارد طائلة ، ان تؤمن وسائل التعليم والتربية ، اذ ان التعليم كان الشرط الاول الذي لا بد منه لمن يعني دخول الوظيفة والتدرج الى أعلى درجاتها . وهذا يعينه أفراح للنخبة المثقفة التي بيدها قصر يف الامور ان تنصهر بعضاً ببعض ، وان تقيد ، على نطاق واسع ، بالرغم من اختلاف مصادرها وتباين المناطق التي خرجت منها ، من مصدر واحد يغذيها . ولذا رأت الامبراطورية نفسها مدينة لهذا الوضع القائم بكل ما اتصفت به من اتحاد وتضامن ، من الوجهة المادية والادبية على السواء .

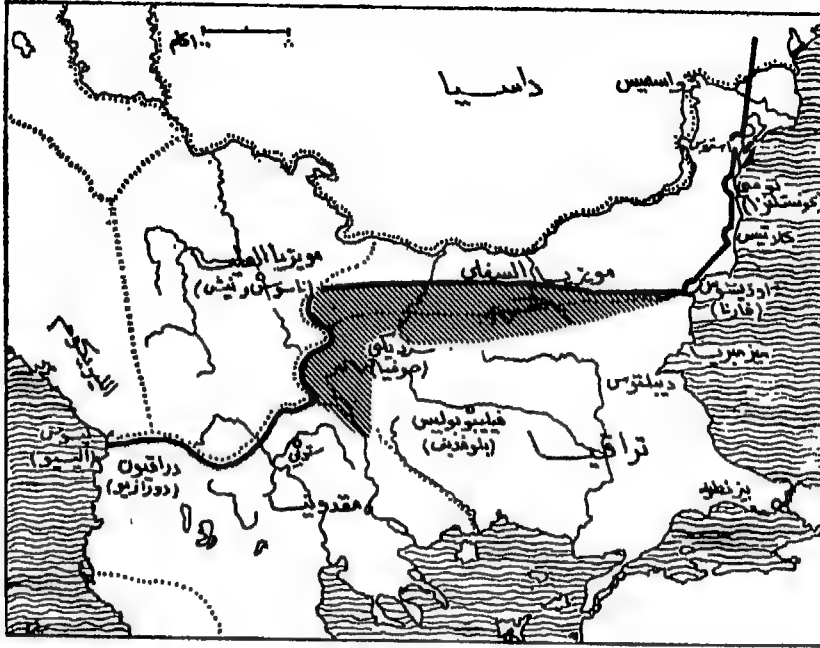
فوحدة اللغة كانت أمثل رمز لهذه الوحدة . غير ان حكومة الامبراطورية لم تجعل من الوحدة اللغوية هدفاً الاول لأنها كانت امام لغتين مختلفتين للثقافة اذ ذاك ، ولم يُدر في خلدها قط ان تعتمد الواحدة منها دون الاخرى . فاللاتينية كانت اللغة القومية ، وكل شيء كان يؤهلها لتصبح اللغة الرسمية الوحيدة التي لا بد منها لوحدة الامبراطورية . غير ان اللغة اليونانية كانت هي الاخرى ، تنعم بنفوذ فكري وتكون قطب جذب لا يستهان به . فمُنذ القرن الثالث ق . م ، كل الذين كانوا على شيء من النفوذ في روما ، كانوا يدرسون اليونانية ويحاولون تجويدها منذ حداثتهم الاولى بحيث كانوا يحسنونها كلغتهم الام ، مستجيبين في ذلك لمقتضيات الادارة والثقافة ، على السواء . وهذا ما حدا بالجماعة للبحث عن طريقة واحدة للعيش المشترك . وفي هذا السبيل ، قام الرومان بتوضيحات واسعة تجاوز بعضها المعقول ، وفي ذلك دليل على ما كانت روما مستعدة لبذله في سبيل الحفاظ على هذه الحضارة التي كانت تشد عليها بالنواجز .

وقام في الامبراطورية حد لغوي انشطرت معه الى شطرين متناظرين ، وان تعادلا تقريباً ، هما : الشرق الهليني والغرب اللاتيني . اما الى الجنوب من البحر المتوسط ، فقد وقع هذا الحد بين مقاطعة القبروان وبين ولاية افريقيا التي تبعتها مقاطعة طرابلس الغرب ، ولم تلبث اللاتينية ان غزت صقلية واطاليا الجنوبية بعد ان كانت ارضاً يونانية اللغة من قبل . اما في البلقانات ، فالحدود بين الشطرين انطلقت من شمالي مقاطعة أبيروس ممتدة نحو الجنوب من مجرى نهر الدانوب الى سواحل البحر الاسود . واستقرت على هذا الشكل بفضل مرابطة الجيش في المنطقة ، باستثناء بعض تغييرات طرأت فيما بعد .

وكل من هاتين اللغتين: اللاتينية واليونانية، راح بدوره يعمل على كسب مجالات جديدة محاولاً السيطرة على اللهجات المحكية محلياً . وبدلاً من ان تحاول روما الحد من اللغة اليونانية ، راحت تعمل على تأمين انتشارها ، اعتقاداً منها ، وبحق ، ان كل كسب تحققه في البلدان المتخلفة في تطورهما الفكري والثقافي انما يعود عليها هي بالمنفعة والخير العميمين . وهكذا استطاعت اللغة اليونانية ان توسع من نطاق النجاحات التي حققتها منذ العهد الهليني . وبفضل هذه المؤازرة من جانب روما تمكنت اليونانية من ان تكمل ما ابتدأت به قبل الاسكندر بكثير الا وهو السيطرة ، لغة وثقافة ، على مقاطعات آسيا الصغرى . اما في سوريا ومصر ، فقد شهدت طلوع مدن لم يكن عددها ، مع الأسف ، كافياً بحيث تتغلغل بصورة قاطعة في الريف . غير ان ترك اهل الريف وشأنهم أظهر لنا واضحاً الدور الذي لعبته كل من اللغة السريانية ، احد فروع الآرامية ، واللغة القبطية احد فروع المصرية القديمة . اما اللاتينية في الغرب ، فلم يأت نجاحها نهائياً كاملاً ، في كل مكان ، للاعتبارات ذاتها . فقد غزت اللاتينية شبه الجزيرة الايبيرية واستبدت بها . اما في غالبا ، فقد زالت اللغة الكلتية من الاستعمال ، الى ان اعاد اليها شيئاً من النشاط الرهبان الارلنديون في مقاطعة الارموريك ، وبقيت جارية الاستعمال في بعض مناطق الريف حتى القرن الرابع للميلاد . اما في افريقيا فقد اندرست اللغة البونيقية كلغة محكية ، على الاقل ، منذ مطلع القرن الثاني . ولعل آخر استعمال لها يبرز في هذه الكتابة الثنائية اللغة ، المسماة *Leptis Magna* المؤرخة عام ٩٢ للميلاد . إلا ان اللاتينية لم تصبح لغة الريف الدارجة ، ولا عبرة قط هنا للنعت : « بونيقية » عندما يشير القديس اوغسطينوس ويقول ان اللغة المحكية في عهده في ضواحي هيونة كانت البونيقية ، فالاصطلاح يجب ألا يؤخذ هنا بحرفيته . وبقيت البربرية الليبية قيد الاستعمال في ليبيا الى يومنا هذا . وهكذا ، فكل توسع تسجله احدى هاتين اللغتين ، يجب رده ، في الدرجة الاولى الى الإشعاع الثقافي الذي انطلق من المدن وحواضر البلاد الكبرى ، في هذا الوقت او بعده بقليل .

ومؤازرة السلطات العامة الرومانية لليونانية في تأمين انتشارها وتوسعها ، انما يدل بوضوح على ما اتصف به اولو الامر في الامبراطورية ، من عمق التفكير والتفهم الصحيح للاوضاع القائمة ، وهي مؤازرة تبدو على وجهها الصحيح في موقف السلطة من هذه اللغة وسلوكها معها . كل الدلائل تدل على ان الادارة الرومانية أبت ان تلزم الاغريق الأخذ بتعلم اللاتينية واستعمالها في معاملاتهم اليومية ومخاطباتهم كأنما يخشون فرض شيء ينتقص من كرامتهم ، تحط لهم . كذلك لم يكن بالامكان ، من جهة ثانية ، ان يتخلى الرومان عن هذه الإزدواجية اللغوية التي قامت عليها ثقافتهم ، وعوضاً من ذلك راحوا يفتشون جاهدين عما يؤول الى تأمين حياة مشتركة وتعايش تعاوني . ففي هذا القسم اليوناني من الامبراطورية الرومانية ، كانت اللاتينية وحدها اللغة الرسمية في الجيش والقضاء ، مع العلم ان المناقشات والمرافعات القانونية التي كان يقوم بها المحامون كانت تجري باليونانية مباشرة دون ترجمة . وفي ما عدا ذلك ، عوّلت الادارة دوماً على اليونانية ، كما ان الديوانات الامبراطورية في روما ، كانت فيه دوماً دائرة يونانية لتضعيف

النسخ بهذه اللغة ايضاً . فمن كان يرغب بين الشرقيين في احترام مهنة ما في روما كان عليه ان يتعلم اللاتينية ، وهو امر لم يقبلوا عليه الا متأخرين ، أي منذ القرن الثاني فقط . وعلى عكس ذلك ، فقد وجدت روما في الشرق ، منذ مطلع الامبراطورية ، موظفين اكفاء احسنوا اللغتين وجودهما ، كما ان نوع التربية التي سادت في البلاد اذ ذاك ، أمتن لها دوماً حاجتها من هؤلاء الموظفين . ففي الاسر الثرية ، كان المربون الخصوصيون من اهل الشرق ، من الكثرة والوفرة



الشكل ١٢ - مواطن اللغات وحدودها
الخطوط المنعكسة تشير الى المناطق التي انتشرت فيها اللاتينية في القرن الثالث . اما في الجنوب ، فالمستعمرات التي أنشأها الاباطرة للمعمرين اللاتين ، امثال ديراكيوم ، وستوبي وديبلتوس ، فقد اقتبست اللغة اليونانية أداة للتعبير .

بحيث لم يقلوا بشيء عن المربين اللاتين . وفي روما بالذات احتل الشعر والبيان باليوناني ، في المدارس وفي المباريات الادبية ، المتزلة ذاتها التي كانت للشعر والفصاحة والبيان باللاتيني . وكان مدرسون اغريقي يعلمون الصرف والنحو والبيان في كل الولايات الغربية . وكان من يرغب من الشبيبة في متابعة دروسه العالية ، يذهب لمرسيليا التي كانت تفخر بحفاظتها على نصاعة اللغة اليونانية ، وعلى الثقافة الهلينية التي عرفت ، في هذه الحقبة بالذات ، حركة تجديد عادت عليها بالازدهار والاشاع ، او يذهبون لاثينا كما فعل ابولييه الافريقي وغيره كثيرون . فانتشار هذه الحركة واستمرارها طويلاً عاد بالثناء العاطر على هذه المجتمعات الغربية التي كان معظمها من اهل البلاد وكان عليها ان تجد في السير وتقطع المراحل بسرعة في سبيل تحقيق التطور المرغوب.

ومن المستغرب ، وأيم الحق ان يقتصر الاتصال مع الحركة العلمية الهلينية إجمالاً ، على نتائج جاءت في معظمها سطحية . فما مثل هدر يانوس ومارك أوريل سوى نجاح يمكن اعتباره استثناءً من القاعدة . غير ان الجهود والنشاطات التي بذلت في هذا المجال ادت ، على الاجمال ، الى نتائج لا يجوز الانتقاص منها او مقابلتها بحدّ طرف اللسان . فليس نرى بين المدينات الحديثة ما استطاع ان يعطي على مثل هذا القدر من العطاء ، وعلى مثل هذه النسبة من العظمة او اعطت بالفعل شيئاً يصح مقارنته بما اعطته روما في هذا المضمار .

ثقافة ووحدة ، كل هذه النتائج التي سجلناها هنا تثبت كيف ان قسمة الامبراطورية من الوجهة اللغوية ، لم يُفص الى انقسامها ، وهو انقسام تم بعد ذلك بكثير . فالحدود اللغوية التي قامت الى الجنوب من البحر المتوسط ، أصبحت بعد وقت طويل ، حدوداً سياسية . وهذا الفارق اللغوي لم يؤلف في هذا الإنقسام ، سوى سبب فرعي او عذر ثانوي افادت منه واستثمرته ، على نطاق واسع ، القوى الدافعة عن المركز ، كما يفيد الصقيع من تخاريب الصخور حتى اذا ما جمد الماء فيها عمل على تفسخها وفلجها ، والا لبقى بدون أذى . اما في شبه جزيرة البلقان ، فالحدود اللغوية الفاصلة لم تكن لتلتقي . وهكذا نرى ان استعمال اللغتين معاً طيلة اجيال متطاولة لم يؤد الى شيء من خلخلة وحدة الامبراطورية .

ولهذا السبب ، فالمشكلة اللغوية ، لم تكن سوى وجه من وجوه مشكلة الثقافة العامة . والحل الذي لاقتته هذه الاخيرة ترك اثره في حل القضية الاولى وزادها تعقيداً . فاذا كانت لزدواجية اللغة ، والحالة هذه ، وضعاً لا مندوحة لسكان الغرب ، في الامبراطورية الرومانية ، للاخذ به ، فلأنهم رأوا في هذه الازدواجية عاملاً يشد من وحدتهم ويزيدها تماسكاً ، وذلك توخياً منهم الوصول للمستوى الثقافي الذي بلغه الاغريق في الشرق . وهذه الوحدة اخذت تتحقق في المجالات الاخرى من الحضارة ، تارةً وتبدأ ، وطوراً بصورة سريعة ، حيثة . وكانت تنهج ، فيما يتعلق بالدين مثلاً ، سبلاً حاول الاباطرة صدها أو الحد منها ، بينما راحوا كلهم يناصرون هذه المساعي ، عندما كانت تتعلق بأمور الفكر والذوق الفني ، وكلها من توابع الكلاسيكية اليونانية ومن مشتقاتها ، التي لم تكن مستوردة كهذه العبادات والطقوس الدينية التي وردت على الغرب من الشرق البعيد ، والتي اقبل الشعب الروماني يتلقفها ويتبنها ، بينما تلك كانت من صميم الثقافة التي لم يكن احد ليجرؤ على الانتقاص من كرم محتدها أو الخط من منزلتها السامية . والحقيقة ان الكلاسيكية اليونانية بعيدة لم يطلع عليها الرومان الا من خلال الشروح والتفسيرات والتعليقات التي وضعها كتاب العصر الهليني . واي ضرر او بأس من هذا ، يا ترى ؟ فالكل رأى في هذه الثقافة الفنية والفكرية التي طلع بها العالم اليوناني ، الثقافة الحقبة التي يتوجب على روما اقتباسها وتبنيها ونشرها كعنصر ضام ، موحد لهذه الامبراطورية المترامية الاطراف التي انشأتها .

فاذا ما تعرّف الغرب الى هذه الثقافة وأقبل عليها ورضع أفاويقها فالفضل كل الفضل في

ذلك لروما وحدها . فقد أشرنا مراراً الى النجاحات التي حققها انتشار هذه الثقافة في الغرب . كذلك نوهنا بخواء الابحاث التي تنطّح للقيام بها بعض المفكرين من رجال هذا العصر ، وعدم جدواها . كذلك لا بد من بعض التحفظات التي لا بد من الاعراب عنها هنا والتي لا تتعارض ، مع ذلك ، مع الشيء الذي جئنا به أعلاه ، إلا بصورة ظاهرية ، لأن الخطر المزدوج الناتج عن تجريد النخبة ، من جهة ، ومن سخافات الجماهير من جهة أخرى ، يكون خطراً على الثقافة كما عليها خطر من هذه التفاهات وهذا الاطراد والمحاكاة والفوضى على أشكالها التي تتحالف عليها . وهنا كما في اي ثقافة أخرى في أي زمان ومكان ، فإلى جانب انتاج النخبة المثقفة ، نرى الانتاج العادي جيء به طبقاً لأذواق زبائن يؤلفون الغالبية التي لم تُصقل منها الاذواق : فكان ان الحط المعدل الوسط ، لا سيما في ما يتعلق بالانتاج الفني . ومن جهة أخرى ، فهذه الثقافة التي جاءت من فوق ، ومن بعيد ، لم تكن لتمثل سوى ثقافة جماعة اقتلَعوا من بيئتهم وانقطعوا عن كل اتصال مباشر بالجماهير ، حيل بينهم وبين كل غذاء دسم تؤمنه تربية أصيلة . فلا يجوز ، والحالة هذه ، إلا ان تنصور ، ولو بالخيال ، ما عسى ان تكون عليه النتيجة لو استُعْمِلت وسائل أخرى . والشيء الذي لا يختلف فيه اثنان هو ان هذه الوسائل كانت ستفضي الى وحدة مملّة في السياقة دون ان تتمكن من انتاج أي رائعة من روائع الصف الاول .

وهذه الملاحظات التي لم يكن بد من إبدائها هنا والتي أبديناها بالفعل ، لا تمس بشيء عظمة هذا المشهد الذي يستبد بنظر المؤرخ ، الا وهو هذا الاجماع ، وهذه المطابقة التي اتصفت بها جهود الطبقات الموجهة ، العديدة ، والقابلة للنمو والازدياد ، والاستجابة للتلقائية التي لقيتها نداءات الاباطرة ، لدى النخبة بين رعايا الدولة في جميع الولايات . وهذه الامبراطورية الضخمة التي تألفت في البدء من أشتات متباعدة ، متنافرة ، وعلى جانب كبير من البربرية ، أقله في مطلع أمرها ، والنازعة الى الوحدة عن طريق نشر وتعميم ثقافة واحدة ، مؤلفة ، هي أعلى وأمثل ما عرفه الانسان او ما حلم به عبر التاريخ حتى الآن ، وهذا الايمان الذي اعتلج في صدور الجميع بأن هذا العمل كفيل بأن يؤمن الهيكل اللازم لهذه الوحدة السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية ، ويضفي عليها ما يلزم من زينة وحلية ، وهذا الحلم بالذات الذي راود خيال الاسكندر من قبل ، وأثار في وجهه معارضة معاونيه ومساعديه ، وسبب موته الباكر وعجل في اجهاض الفكرة قبل ان تلد وأدى بالتالي الى فشلها ، فهل من يشك بعد انه كان باستطاعة الامبراطورية الرومانية ان تخرج او ان تأتي بما هو دون ذلك ؟

٣- العمل العقلي والادبي

هذه الازدواجية اللغوية تتلبس بها الامبراطورية الرومانية ، أفضت الى اديبين مختلفين لا بد من درسها هنا ، على انفصال الواحد من الآخر ، غير ان الحياة العقلية والادبية لا تنطبق ، بالضرورة ، الواحدة منها على الأخرى . هنالك مظاهر في النشاط الفكري والعقلي لا تؤثر ازدواجية اللغة فيها كثيراً على الوحدة ، في مجتمع كالجمتمع الروماني ، حيث اجادة اللغتين معاً ، أقله في

الغرب ، وعلى مستوى واحد ، لم يكن من الأمور النادرة قط . وهكذا يحسن بنا ان ننظر فيها دون ان نهتم بشيء بإداة التعبير اللغوي التي استعان بها من انقطع لمثل هذا العمل .

١ - انحطاط الروح العلمية

هذه الروح العلمية التي طلعت في الشرق المتوسطي ، تجلت بزخم عارم ،
بين النقيضين :
خلال العهد الهليني . ثم بلغت روما حيث وجدت من الظروف التي
توقف هنا وانحراف هناك
هيأتها لها الامبراطورية ، ما اتاح لها الانشاء وتوسيع الفتوحات التي
حققتها في هذا المضمار . وتهيأت لهذه الروح العلمية اسباب جديدة اتاحت لها التوسع والافادة بما
تم لها من هذا العلم العريض الذي امكن لها جمعه وتحصيله والتحكم به وضبطه . فانتشرت في
البلاد دور للكتب ومكتبات ، وانشأت لها الادارة الحكومية دوراً للمحفوظات ، وادوات
للبحث والتقصي ، بحيث استطاع البعض الوصول الى هذه الذخائر الفكرية والاطلاع على ما فيها
من اسرار مكنونة . والعالم المعروف اذ ذاك ، والذي امكن قياسه واستثمار موارده ، اخذ
هو الآخر ، في الامتداد والتوسع ، بعد ان توفر له ، بنسبة اكبر بكثير ، فريق من حملة العلم ،
تم لهم من اوقات الفراغ ، ومن الوظيفة التي كانوا يشغلونها ، ما حملهم على الرحلة والطواف في ربوعه
ومجالاته شرقاً وغرباً . وهذا العالم الذي تعددت منه المناظر وتنوعت بين طبيعية ، ومناخية ،
وحيوان ونبات وعروق بشرية ، تهيأت له اسباب المواصلات ويسرت بينه وبين اقطار متنوعة
واقعة الى ما وراء حدوده المتناهية . ومختصر القول فقد توفر كل ما يساعد ذوي العقول العطشى
الى مناهل المعرفة وحياض العلم ، الافادة من امكانات لا حصر لها ولا حصر ، معظمها جديد
مستحدث ، باستطاعة جميع العلوم والفنون ان تفيد منها الى أقصى حد . وهذه الروح الواقعية
التي عرف بها الرومان وأخذوا بها على نطاق واسع ، كان بإمكانها ان تسخر العقل اليوناني المنطقي
الذي انساح في هذه النظريات والتجريدات الفلسفية وهام فيها ، فينصرف بدوره يعلم الرومان
كيف يعللون شؤون هذا الكون ويحللونها على وجه يبين ما بينها من ترابط وانسجام . ويحللو
للرء ان ييم بالفكر فينطلق مع الخيال الجموح ليتصور ما عسى ان يكون تمّ او خرج من اشخاص
كأرسطو واپراتستينس لو عاشا مثلاً ، في القرن الثاني للميلاد .

فلم يكن لأحد منها قرن او منافس . فقد ظهرت بوادر انحطاط الروح العلمية التي ما لبثت
ان اشتدت وازدادت باستمرار . صحيح ان الكفاءات لم تنب قط ولا القدرة على العمل ، ولا
هذه الروح العلمية الطليعة . كنا نرى ، كما في السابق ، عقولاً تهتم بكل ألوان المعرفة البشرية
وتطمح في ان يتم لها علم موسوعي ، دائري ، في كل شيء . وباستثناء بعض حالات ، نادرة للغاية ،
فما من أحد يطلع بعمل جدي أصيل في أي قطاع من قطاعات العلم . فالعصر الذهبي للروح
العلمية التي تجلّت قديماً انقضى وذهب دونما رجعة ، وكذلك عصر البحث العلمي والتحري عن
أسرار العلم الباقية . كل ذلك ذهب وذهب معه هذا الاندفاع ، وهذه الحماسة ، وغابت عن

الوجود الروح المحددة في اهدافها ووسائلها ونتائجها وقطوفها ، ويبدو لكل عين باصرة ان الشجاعة العقلية قد زالت، أقله من حيث ترضى بالخضوع لقواعد العقل والمنطق. فما هي الاجيال الوسطى ، بقضتها وقضيضها ، تطل علينا ولو من بعيد .

والذي يهمننا من الأمر الآن ، وفي هذا الوقت بالذات ، هاتان النزعتان التي سبق للعالم الهليني ان عرفها من قبل وأخذ يتربص بها أكثر فأكثر ، فيما بعد ، إلا انه استطاع التغلب عليهما بشخص أكبر رجاله ومثليه . فبدلاً من ان ينصرفوا نحو الواقع ويخضعوا له اتجهوا كلياً نحو الكتب يجمعون منها ما رأوا فيه خير ما يُمْتَلِل علوم الاقدمين او توهموا انه يجمع ما سجلوه او رأوه. هذا هو عهد « الموسوعات » بالذات . فما من احد يحفل منافع هذه المجموع التي لا تخلو من ان تعطل التفكير اذا ما اقتصر المرء عليها . قدّم لنا عهد الامبراطورية المتأخر أمثلة من هذه الموسوعات التي بقيت غذاء للعقل البشري حتى اواخر القرن الخامس عشر . وقد أسأؤوا من جهة ثانية ، استعمال الفلسفة ولا سيما هذه النظريات الفلسفية التي تثير الشك والريبة ، اذ انقطعوا لكل ما يثير العُجب والغرابة ، او يشجع على الرمزية التي كثيراً ما آذت المجهود العقلي ، ان لم تكن حوّلته عن غايته . فاذا ما كانت هذه النزعة التي اعتبرت بديلاً عن الروح العلمية لا تقبل كُفّة الميزان ، فهي ، مع ذلك لا تلين إلا لاعتبارات اخلاقية ، او ادبية لم تكن لتشجع قط على تحصيل العلوم ولا على تبسيطها .

ومها يكن ، فان لم 'نفسر بعد أمام القطيعة التامة ، فنحن أمام بوادر فقدان الاهتمام التام تدريجياً بالروح العلمية واصبحنا بالتالي أمام نهاية الحركة العلمية التي ميزت العهد الماضي وطبيعته . وكـم نتمنى لو نستطيع الكشف عن الطريقة التي اتبعها هذا التطور ، والغاية التي هدف اليها . فهي بالطبع تتصل بمجواث لمسناها وأثرنا اليها من قبل : ضغط العقائد الدينية الاكثر رمزية والاشد إمارة للعواطف ، واحترام مآتي الماضي والمجازاة حتى حدود التعصب والعبادة ، والشغف بالعلوم اللسانية والبيانية كالخطابة والبلاغة والفصاحة والإستمساك بالمحسنات اللفظية . ولكن هذه الأمور نفسها لا تلين كثيراً للدرس والبحث والتحليل ولا تقع تحت الموضع . فالتيارات التي تتجاذب الافكار والعقول بين كر وفر ، واقبال وادبار ، تبقى دوماً ببناءى عن البحث لانها غامضة ، خفية ، سرية .

سعة الاطلاع المحصورة في تجميع المعلومات وحشدها من بين الكتب ، الاستبحار العلمي والتخصص وبذلك تتنكر من ذاتها قبل ان تحتفي لمطلب المعرفة الحق دون ان تقيم وزناً للاسناد العلمي والمرجع الأصيل وكلها امور تولى المصدر العلمي القوة والحياة .

وهذه الحركة نعمت ببعض الاهمية في مطلع الامبراطورية وظهرت في كثير من المجالات الفكرية على اختلافها ، وتغلغلّت بين مناهج علماء اليونان وفي هذا التوافق بين الفيلولوجيا وعلم الاركيولوجيا . وعلى هذه المناهج بالذات ، سار في روما : فارون من معاصري قيصر ،

والنفوي ويروس فلاكوس ، احد النحاة المشهورين في عهد اوغسطس . وقد طبقا طريقتها هذه والجهود التي قاما بها في هذا الصدد ، على اللغة اللاتينية وعلى تاريخ روما ، وبذلك قاما بعمل مجيد . وقد صدر بروبيرس واوفيد عن المؤلفات التي وضعها هذان الكاتبان ، وهي مؤلفات لم يعد يوجد منها شيء اليوم ، واليهما يعزى الفضل في معرفة ما اصطلح عليه الرومان قديماً في امور اللغة والقضاء والدين بفضل الاقتباسات التي أخذت من هذه الكتب .

فالكثبة اليونان الذين سكنوا روما لمدد طويلة ، في عهد اوغسطس ، وألفوا فيها ، هم كتاب من المستوى الواطي ، بينهم سترابون الذي جاء من مقاطعة اماسيا في الشمال من آسيا الصغرى . فقد كان مؤرخاً وجغرافياً وترك لنا مذكرات تاريخية لم يصلنا منها شيء ، ومزج في كتابته بين التاريخ والجغرافيا ، الا ان بحثه عن التاريخ القديم بقي موجزاً مقتضباً . ومنهم كذلك ذيودوروس الصقلي الذي وضع كتاباً بعنوان : المكتبة التاريخية *Bibliothèque historique* ، وهو تاريخ عام ، واسع الهدف بعيد المرمى ، اذ انه تناول التاريخ القديم الى فتح غالبا على يد يوليوس قيصر . وما تبقى من تاريخه هذا لا يفيد مؤرخي العصر الا بنسبة ما يفتقرون اليه من مصادر تخلو من النقد التاريخي والأفكار البناءة . ومنهم ايضاً دنيسيوس الهاليكرناسي وهو معلم للبيان والفصاحة ، تنقصه دقة النظر ، والناظرة اللاقطة في هذه المؤلفات التي وضعها حول النقد الادبي ، بينما حشا كتابه : « التاريخ الروماني » خطباً مملة ، جوفاء .

ومع ذلك ، فقد عرف ان يحافظ هؤلاء الكتاب اليونان ، على شيء من هذا التفوق الذي تحلى به الكتبة الاسكندريون ، وعلى حبهم للعلم وقمعهم ليه ، وهي رغبة لم تلبث ان خمدت شعلتها سريعاً وانطفأت بعدم بقليل . وفي منتصف القرن الاول نرى رئيس بلغاء العصر واستاذ البيان والفصاحة الاشهر اذ ذاك ، كوتيليانوس يتمتع بسمعة ادبية طيبة لتمكنه من العلوم اللسانية ، كما انه امتاز بمقدرة على التعليم والتربية تستحق التنويه بها عالياً . إلا انه يحتاج الى فهم صحيح للتاريخ . فقد أمده تدرسه الطويل للبلاغة بمنهجية وأصول راح يطبقها على كل شيء . ونرى فرونتون ، في عهد الاسرة الانطونية ، يهيم بالكتاب القدامى اهتمام فنان يرغب في ان يجد في آثارهم ومخلفاتهم الكتابية ، الكلمات المات ، يتذوقها ويتدبرها كعلم حاذق للبيان ، دون ان يبالي قط في صوابية وجوه استمالتها ومدلولها وتعبيرها ، عن الواقع الانساني ، مادياً كان ام ادبياً .

وهذا الاستاذ المتكلف الصناعة اللفظية والمتحذلق في الاسلوب ، كان بدوره استاذاً لأولوجيل *Aulu - Gelle* الذي أعجب كثيراً ، باستاذة ، ومع ذلك تنكّب عن خطاه ، ولم يحفل ، على شاكلته ، بالهرج اللفظي الخارجي ، وعرف ان يعود بجنسي عقلي ، وغذاء ادبي ، أكثر تركيزاً . فقد عاش هذا الكاتب الروماني على مقربة من اثنينا ، وهذا ما حمله على تسمية كتاب له : « الليالي الاتيكية » *Nuits Attiques* وهو عبارة عن مجموعة له من الامسيات واحاديث السمر ادارها بين نخبة مصطفاة من الخلائ المشهود لهم بذراية اللسان ، وبغيرتهم

الشديدة على الثقافة العالية ، وقد قرأ كثيراً وقبّد الكثير من الاوابد والشوارد . قام بهذا كله كذوّاقاً ، انتجع خير المجاميع الادبية ومختارات القطوف والمنتقيات الماثورة ، فتدبرها بنظر صاقب ، ورأي ثاقب ، وشرحها بعد معارضتها ، وعرضها على محك النقد . وقد تناول في إبحائه الصرف والنحو والنقد الادبي ، والنُظُم السياسية والتاريخ . كل ذلك بعناية وتدبر وتفهّم في طول أناةٍ وجلد . فاذا ما رأيناه يوسّع من مطالعته وينوّع بينها ويفغوص مستبحراً فليس حبا منه أضلاً ، بهذا الايفال ، ولا اخذاً منه بنهج العصر ، ولكن اشباعاً لفضوله العلمي ولزغته التشككية . فنحن مدينون له كثيراً بمعرفة الشيء الكثير من تاريخ الرومان بعد ان عرف ان ينقل الينا الكثير من النصوص المهمة لعدد محترم من كبار حملة الادب اللاتيني في ذلك العصر ، وهكذا تمكّن من صيانتها . فلو قدّر له وجاء قبل زمانه ببضعة قرون وان يسير على منهجية بعض الكتاب اذ ذاك ، ويتمتع على شاكلتهم ، بروح الانضباط التي كانت صاتته عن الخوض في هذه الموضوعات وتعرض لها في بحثه أكثر من مرة ، كما لو عرف ان يفيد من هذه المصادر الوفيرة التي كانت تحت تصرفه وتناوله ، لأمكن ان يكون ، بالنسبة لما تجلّى به من قدرة وكياسة وطلاوة صاتته عن الادعاء والاعتداد ، مساوياً لأكبر العلماء الذين عرفهم التاريخ القديم ، بعد ان تمّ له ما تمّ لهم من رجحان العقل وتفهّم للواقع .

وهذه الكياسة الادبية افتقر اليها معاصره الكاتب الفريجي بوزانياس كما افتقر الى صفات اخرى صاحب الكتاب الموسوم : « وصف اليونان » . وهذا الكتاب وصف لليونان ، مقاطعة مقاطعة ، ومدينة مدينة ، فذكر لنا ووصف بالتدقيق والتفصيل النادرين ، المباني والمؤسسات القائمة فيها بعد ان زارها في الرحلة الطويلة التي قام بها . وكثيراً ما لقّب المؤرخون هذا الرحالة بـ « الدليل » *Péripète* ، او بالوصاف . ويمكن مقارنة كتابه هذا بكتب الأدلة التي يحملها معهم السوّاح في هذا العصر ، إلا ان دليله يبدو جافاً ، مهما تحلّى بالوضوح . كذلك يفتقر للنظرة الناقدة الممعة البعيدة ، إلا انه معين لا ينضب لعالم الآثار وللإختصاصي بأمور الطوقس الدينية . فقد قام ، من هذه الناحية بعمل غاية في المتعة والافادة ، وذلك في عهد قدرّت الأقدار ان تتوفر له النماذج الطيبة ، والوسائل المسعفة للبحث العلمي ، فبرز نموذجاً للعالم الجماع ، هذا النموذج الذي كان في سبيله الى الزوال ، فلم يُلْهِم عمله هذا ، احداً ليطلع لنا أدلة من هذا النوع في بلدان اخرى .

لم يكن حظ الجغرافيا بأفضل من غيرها من هذه العلوم الانسانية . معرفة العالم والنظام الكوني كان لا بدّ لها بوصفها علماً بأصول من دقة ملاحظة ، بعد ان عجز العلم اذ ذاك عن ان يسجل أي تقدم في العلوم الرياضية وعلم الفلك . وباعتبارها علماً يقوم على الوصف فقد رأت تحت تصرفها تسهيلات عظيمة . فلأول مرة في التاريخ القديم نرى الدولة تُعنى رسمياً بهذا العلم ، منذ ان طلع علينا العهد الامبراطوري . فقد عهد اوجسطس الى صهره أغريبّا ان يرسم على احد جدران الرواق المعروف برواق أغريبّا ، خريطة كبيرة للعالم ، مات قبل ان

يفرغ من رسمها فأكملت بعد وفاته . ولم يصلنا عملياً شيء من هذا قط . فهذا الرسم كما بدا سواداً على بياض لم يتصف بالدقة ، وذلك للفرق القائم بين طول الجدار وعرضه . غير ان النص الذي امر اوغسطس بنشره إثر وفاة أغريبّا - وهو نص قام على احصاءات ومقاييس رسمية - ضم ولا شك كثيراً من المعلومات المفيدة . وهذا مثال جديد آخر من عدة أمثلة ، تدل كلها على ما توفر من الظروف المؤاتية الجديدة التي كان من شأنها ان توسع معلوماتنا الصحيحة حول الارض . وهذا النجاح لم يحصل او يتم بالقدر المرجو . فلم يقيم سترابون باي جهد شخصي ملحوظ لاستكمال معلوماته المقصورة على الكتب ليتجاوزها الى ما هو احسن واكمل ، اذ كان همه الاكبر ان يضع لنا كشفاً او ثبوتاً دقيقاً للسفن الهوميرية ، كما رأى ان لا فائدة من ان يتخطى في رحلته إيطاليا الى الغرب والتعرف الى معالنه . من الممكن كما انه من المؤسف جداً من جهة اخرى ان نضع قائمة طويلة بهذه الاغلاط التي وقع فيها كثيرون كانوا في وضع يسمح لهم ان يجمعوا معه معلومات هامة . فالملك يوبا الثاني ملك موريتانيا ، ومن نصراء العلم في عهده ، توم النبل ينبع من ضواحي المحيط الاطلسي ثم يفور تحت الأرض في اتجاه الشرق ، ليظهر ، من وقت الى آخر ، في بعض معالنه ، في بحيرات الشط وغدرانه . وفي اواسط القرن الاول ، راح الجغرافي الاسباني بيبونيوس ميلا ، وهو من المتخصصين بعلم الجغرافيا ، اذ ذاك ، يسلم ويعتقد بهذه الخزعبلات والتلفيقات التي يرددونها حول العنقاء ، والنساء المسترجلات ، وغير ذلك من الغرائب والكائنات المعجبية . كذلك كان يرى علاقة بين نهر الدانوب والبحر الادرياتيكي . وفي هذا العصر بالذات ، كان بلين الاكبر ينظر الى بحر قزوين ، خليجاً من هذه الخلجان التي يرسمها الاوقيانوس المحيط بالأرض ، ولم يخامر من جهة ثانية ، اي شك بان اوروبا اكبر بكثير من افريقيا وآسيا .

فالتقدم الصحيح الذي امكن تحقيقه على نطاق ضيق في علم الجغرافيا تناول هذه المناطق التي اخذ بارتياحها بحارة متاجرون . ففي القرن الاول استطاع المؤلف المجهول للكتاب الموسوم : « رحلة حول البحر الاريثري » (اي البحر الاحمر) ان يمدنا بمعلومات جديدة طريفة تتعلق بسواحل الهند حتى وبسواحل الصين الجنوبية . كذلك نرى كثيرين يضعون رحلات يصفون فيها أسفارهم وتنقلاتهم في البحر الاسود ، منها « رحلات الى البحر الأسود » . وقد برهن اريانوس الذي كان حاكماً لولاية قبادوقيا في عهد الامبراطور هدرانوس ، عن اهتمامه الكبير بمقاطعة القوقاس . هذه وما اليها احداث فردية طارئة ، ولا نرى قط اريانوس نفسه الذي كتب عن الهند ، قد افاد كثيراً من المعلومات المستحدثة التي كانت في متناوله . فبعد ان كانت الروح العلمية على اشدها في العصر الهليني نرى هذه الروح التي كانت تشرئب بانظارها الى المجهول تحاول الكشف عنه ، لم تعد لتسهد العلماء ، ولا لتؤرق المثقفين ، ولا تراود خواطرهم . فلم نعد نشهد رحلات كبيرة بعيدة يهدف القائمون بها للكشف الجغرافي الواسع . وبالرغم من الطرقات الجديدة المريضة التي امكن شقها ، والاسفار البحرية المتواترة التي حصلت ، نرى هؤلاء الجغرافيين يقعون في اغلاط سمجة ، ويقتربون هفوات لا تغتفر لهم عندما يريدون تحديد المسافات والاتجاهات . فما عاد الانسان ليكثر كثيراً ، ولا ليهتم بامه الأرض : موطنه ودار سكناه .

ففي ظروف وأحوال كالتى ذكرنا ، ليس من العجب قط ألا يتقدم البحث العلمي ، وألا يسجل أية خطوة ملموسة الى الامام . لم يعد لدينا شيء يذكر من آثار مارينوس الصوري ، احد حملة العلم في القرن الثاني . ولعل أكبر علماء هذه الحقبة وأسيرهم ذكراً واسماً هو معاصره بطليموس الذي رأى النور في مدينة بتولميس في صعيد مصر ، وعاش على مقربة من مدينة الاسكندرية . كان اختصاصياً بالرياضيات وعلم الفلك ، فوضع في هذا المجال كتابه الخالد : « المجسطي » حول نظام النجوم وعلم الفلك ، وبقي كتابه هذا معمولاً به طوال الأجيال الوسطى حتى وبعد هذا العهد . و « المجسطي » كلمة منحوتة من اداة التعريف العربية الـ ، ومن الكلمة اليونانية *Megistos* ومعناها « العظيم » . والحق يقال ان هذا النجاح النسبي يحققه بطليموس منحول ، مختلس ، لأن بحثه هذا كثيره من الابحاث الاخرى التي وضعها هذا المؤلف ، عول بالاكتر على ما تقدم من العلماء الهلنيين دون ان يعتمد على مجهود او تحصيل شخصي . فقد أقصر عمله على نقل المبادئ والنظريات التي عثم بها وعمل هيبارخوس ، كما انه أهمل الأخذ بالنظرية التي قال بها وعثم ارستارخوس الساموسي التي جعلت من الشمس او من النظام الشمسي محور الكون ، كما رذل ، باعتبارها مضادة للعقل ، نظرية دوران الكرة الارضية على محورها عند قطبيها .

اما جغرافيا بطليموس فلا تستحق ان يطلق عليها هذا الاسم لأن غرضها الاول هو كيفية رهم الخرائط . فالمعلومات التي تتعلق بمادات الشعوب وأخلاقهم ، وبالحاصل الطبيعية لا يأتي على ذكرها إلا بالعرض ، ولما . فبعد ان تناول بالبحث النواتج الطبيعية نراه يضع منطقة بعد منطقة ، قوائم بأسماء الجبال القائمة فيها ، وأسماء الانهر ، والشعوب والمدن ، ويحاول ان يحدد او ان يشير ، بكثير من الدقة ، إجمالاً الى خطوط الطول والعرض . فهذه الجغرافيا ليست سوى جريدة أسماء ومسميات حاول صاحبها ان يكسوها ما يزينها فأضاف اليها بعض المعلومات والمعطيات الجغرافية ، جمع فيها ، بعد جهد مبرور من المقارنات والتصويبات ، كل ما استطاع علماء عصره جمعه من معلومات . وما كان أسرع ما يتسرب الغلط على يد اللسان الذين تعاونوا على نسخ هذا الكتاب ، الى هذه القوائم الطويلة من المسميات الجغرافية ، الأمر الذي أثار جدلاً ونقاشاً بين علماء هذا العصر حول الشكل الصحيح الذي أورده بطليموس ، لم يخفت صوته به ، حول شكل اوروبا الشمالية وافريقيا ، والشرق الاوسط . ومها يكن ، فهب ان هذا الكتاب لم يخرج عن كونه كشفاً دقيقاً وليس بعمل أصيل ، ومها شابه من نقص او شكا من فراغ ، فلقد لعب ، مع ذلك ، في التاريخ ، دوراً كبيراً .

ومها بدا بطليموس صغيراً ، اذا ما قارناه بكبار الجغرافيين في العالم القديم ، فهو يمثل مع ذلك ، آخر حلقة من كبار العلماء الذين اطلعهم التاريخ القديم . وهو الذي اوجزت واختصرت مؤلفاته لمدة قرون متتالية ، وسلمت للأجيال التالية ، النتائج التي أدى اليها البحث العلمي في هذه المجالات . فالترجمات العربية واللاتينية التي عرفت ان تؤمنها الأجيال الوسطى لهذه الكتب ، اعتبرت كحقائق مقررة ، ثابتة المعطيات التي فيها حول علم الفلك والجغرافي ، مع

كثرة الاغلاط التي انزلق اليها في كتابه الآخر . فاذا كان مارينوس استطاع ان يحصي ، بين جزر الخالدات *Iles Canaries* والصين الجنوبية ٢٢٥ درجة من خطوط الطول ، فقد احصى منها بطليموس ١٨٠ درجة أي نصف خطوط الطول في الكرة الارضية ، وليس الثلث . فاذا ما استطاع رحالة الاجيال الوسطى ، ان يحسنوا معلوماتهم حول الصين واضطروا ان يدوا خريطتها اكثر نحو الشرق ، فقد لاح الأمل الذي حدا بكريستوف كولومبوس للقيام بمغامراته الجغرافية .

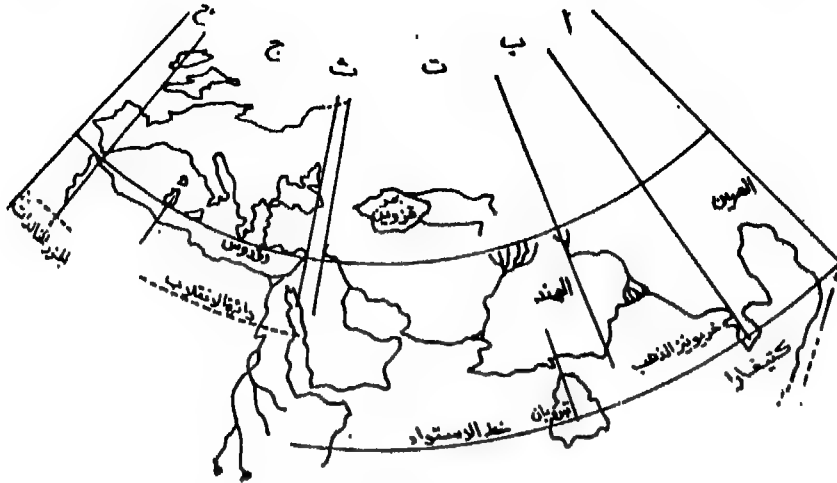
التاريخ الطبيعي وعلمه ليس ما يستحق الذكر في العلوم الرياضية . فالرصد العلمي للنجوم كان أهمل أمره واستعاضوا عنه بهذه الحدسيات والافتراضات المحتملة الوقوع التي انصرفت اليها النجامة ، وعليها اقبل في عهد اودسبس واليهما انقطع ، الروماني مانيليوس الذي وضع ارجوزة شعرية في النجوم وعلموها ، اسماءها : « علم الفلك » . أما العلوم الرياضية الأخرى ، فقد اقتصر على اجترار ما سبق للعلم ان يحققه من قبل ، وبقي العمل به محصوراً ضمن محافل خاصة ، في أثينا أو في الاسكندرية .

وعلى عكس ذلك ، انصرف الاهتمام اكثر فأكثر نحو الظواهر الطبيعية ، وبرز للأنظار في مجالات التاريخ الطبيعي شخصيتان ، هما : سليكا وبلين الأكبر ، وان كانت آثارهما العلمية ذات قيمة ضعيفة .

فاذا لم يتعرض سليكا للعلوم إلا لياماً ، من خلال بعض آثاره العلمية ولا سيما الأدبية منها ، فباحثه في « العلوم الطبيعية » وهي التي وصلت اليها من بين مؤلفاته العلمية ، تعطي الدليل على سعة المعلومات التي تمت له ، وعلى تنوعها ، ان لم تدل على الهواجس العلمية التي جاشت في صدره . فهو لم يعالج هذه الموضوعات ، بما تستحق من استعداد فكري وتهيئة سابقة . واذ كان يفتقر ، أساساً ، للاستبحار في العلم ويهزأ بفكرة البحث عن اصل بعض أسماء الاعلام الرومانية ويتساءل من ظهر قبل الآخر : الإلياذة او الاوديسة ، فقد كانت تنقصه اصلاً الروح العلمية . فقد كان فيلسوفاً ، وأكثر من ذلك ، عالماً اخلاقياً . وبالفعل ، نراه في أبحاثه عن العلوم الطبيعية يستطرد كلما سنحت له الفرصة لبحث القضايا الأدبية التي فيها موعظة للناس ، ويشجب بشدة ، الذوق المترف بمناسبة التحدث عن المرايا ، او هواية الاسفار عندما يتحدث عن زهب الأرياح . ومع ذلك ، فقد برهن عن نظرة صافية ورأي صائب عندما يأخذ بتقويم النظريات المتضادة او المتعادلة . وقد استطاع بما أوتي من نفاذ البصيرة ان يأتي بنظريات تقرب من التنبؤ ، عندما استشعر التقدم العظيم الذي سيحققه العلم في المستقبل . إلا انه توقف عند طائفة من الحوادث والوقائع ، ناقصة وغير متناسقة ، التي تم للعلم اليوناني درسها دون ان يزيد عليها شيئاً يذكر من ملاحظاته الشخصية .

ومع ذلك فقد كانت بحوثه العلمية خطوة كبرى لدى علماء الأجيال الوسطى .

ولم يتم ، من جهة ثانية ، لبين الاكبر ، ما تمّ لسنيكا من قوة الفهم وتوقّد الذهن وصدق النظر . إلا ان ما عُرف عنه من نشاط حمله على بذل الجهود في جمع ما أمكن له جمعه من المعلومات ، اّبان خدمته في الجيش الروماني ضابطاً ، ثم أثناء عمله في الادارة ، واخذ فيها يرقى سلم الدرجات الادارية حتى عُيّن أميراً للبحر . ومن آثاره الفكرية الكثيرة - وهي عديدة



الشكل ١٣ - خطوط الطول عند بطليموس

- أ و ب - التتخوم التي يسميها بطليموس « الاراضي المجهولة » يصعب جداً تحقيق مواقع المدن التي يذكر اسماءها وهي كتيغارا ، وتبليه ، وسيرا .
 ت - من الفرات الى تشخورغان (برج الحبر) في مقاطعة سريكول الى باير ، ٦٠ درجة (٣٤ درجة)
 ث - من البحر المتوسط الى الفرات درجتان ونصف .
 ج - من الجزر الخالدات (كناري) الى جبل طارق ١/٢ ٧ درجات ، والحقيقة ١٢ ونصف .
 ح - البحر المتوسط ٦٢ درجة (٤٢ درجة)

متنوعة تناول فيها القضايا الحربية والتاريخ الطبيعي والاجرومية - لم يبق سوى ٣٧ رسالة من كتابه « التاريخ الطبيعي » *Histoire naturelle* وهو كتاب ضخم وحصيلته جهد موصول من المطالعات ، جمع المعلومات التي أفاد منها ، على عدد كبير من الجزازات او البطاقات برؤوس الموضوعات ، وضعه في اوقات فراغه . ويحكى عنه انه كان يطالع وهو الى مائدة الطعام ، وفي الحمام . وعالج بذهن يقظ متفتح كل الموضوعات : من الجغرافيا ، الى الفنون الجميلة ، الى علم النبات ، الى علم الحيوان ، فعلم المعادن . والمؤسف من هذا كله ، هو جعل هذا العطش الى المعرفة مشدوداً الى المطالعة المادية ، أي مربوطاً بالكتاب او المطالعة الحرفية ، دون ان يكثر او ان يهتم بما وراء الحادث والواقع الهيز ، لا نلنس عنده أية نظرة ناقدة ، مفلسفة ، معلة ، إلا ما ندر ، وان فعل ، فبتردد كلي وبشيء من الوَجَل . وقلما رأينا الشك يخامرهم او ان يستنكر لما كتبه عن الرُفخ ، وعن المنقاء ، وغير ذلك مما أثبتته من الخرافات المحكية ، والأساطير المتناقلة . وهو يؤكد

في معرض حديثه عن التّمّ أو الاوز العراقي الذي يغتني وهو محتضر ، بأنه لم يتفق له قط ان سمعه . وفي هذا ما فيه من تفويته الفرص للتقصي عن الحقيقة العلمية ، فقد تبنّى ، دون ان يختلج له طرف عين ، هذه الخرافات المضحكة المبكية حول ساحر يعيس ليلاً ويطوف متنكراً بهيئة ذئب ، وخلاف ذلك من احاديث أدارها على حيوانات اسطورية . ان ما عُرف به من سرعة التصديق المفرطة ، أضرّ كثيراً بعمله العلمي ، وأساء اليه كثيراً بحيث نرى فيه ، جنباً الى جنب ، الحسّيس والممتاز . إلا انه لا يجوز للمرء ، من جهة اخرى ، ان يمر مرور الكرام ، بما تقع عليه العين ، الفينة بعد الفينة ، من قوة الفراسة ، وصدق الملاحظة التي لا يمكن ان يتصف بها كاتب بين بين ، حيث تطلع علينا ، من وقت لآخر ، شطحات فيلسوف من المذهب ، شديد التشاؤم بما يشاهد من بؤس البشرية وتعاستها . كذلك ، يجب ألا يغيب عن ذهن القارئ قط ان هذا الكاتب ، يجب ان يلام لحصر البحث عن الحقيقة والتحري عنها في الكتب . فقد قضى حياته في خدمة العلم وجمع المعلومات ، وتصييدها وطلبها أينما تجلّت له . فبدلاً من ان ينجو بنفسه من الخطر المائل امامه والذي يهدده بموت زؤام ، اذ خف مسرعاً ليشاهد عن كثب ثورة الفيزوف الكبرى ، عام ٧٩ لليلاد ، فكان احد ضحايا العلم ، وهلك في عداد من هلكوا في هذه الكارثة الرهيبة .

اشد اهتمام الناس دوماً بالطب وبالاطباء . فليس من عجب ، بعد هذا ، ان يزداد الطب عددهم في كل مكان وينمو بعد ان حرصت كل مدينة على ان يكون لها ، على الاقل طبيب واحد ، فدرّت هذه المهنة على اصحابها الكسب الوافر وتم لبعضهم ثروات طائلة . وقد عرف الطب ان يسجل تقدماً محسوساً في هذه الحقبة ، فأدخلت على الجراحة وادوات الكعالة تحسينات جمة ، وتوصل الأطباء لاجراء عملية السادة (الماء الازرق) في العين ، كما امكن تسجيل بعض التقدم في جراحة التجميل لبعض اعضاء الجسم كالأنف مثلاً ، وتوصلوا الى اكتشاف بعض الحدرات الموضعية . وليس بغريب قط ان نرى نيطس الأطباء المتخصصين بأمراض العين والاذن ، والانسان وغير ذلك ، كما رأينا ، من جهة اخرى ، نساء يتعاطين مهنة القبالة . واتضحت للعيان بعض الطرق العلاجية التي استنبطوها ، كالاستنشاق او التطبيب بالتعرض لأشعة الشمس مثلاً ، والسكنى في المناطق الجافة الهواء للمصابين بالامراض الصدرية . كذلك وصفوا لبعض الأمراض العصبية المعالجة بالمياه المعدنية وراحوا في هذا السبيل يحصون ما يصلح منها للاستعمال . فاذا ما راح علم الاقرباذين يدرس ويتبحر بخصائص بعض النباتات الطبية فما زلنا نرى بعض الاطباء يصفون زرق الحمام وبول الحمير للعلاج ، وقرن الأيل بعد حرقه . وعلى اثر توافد الاطباء الدخاليين والعقائد المتناقضة من الأقطار الشرقية ، لم يكن من النادر قط ان يلجأ البعض لطرق التعزيم والسحر والرقية ، في الطبابة واللجوء الى وسائل التنجيم . فكم من طبيب ، مثلاً رفض المباشرة بمعاينة مريض ما ، إلا بعد ان يستطلع مواقع النجوم وطليح الابراج ، ومواقعها في مداراتها ، وتوافقها في المكان والزمان . فالبشرية المتعذبة ، راحت تنبسط رجاءها في هذا العصر وتتطلع ،

أكثر من أي وقت آخر ، نحو القوى الفائقة الطبيعة التي تتحكم بمصائر البشر ، ويدها الخلاص والنجاة وتشرف على توزيع الحظوظ .

كل هذه النجاحات والتطورات التقنية التي حققها الطب ، إنما تمت عن طريق التجربة والاختبار ، ولم تأت نتيجة منطقية لمبادئ علمية . فقد اقتصر الطب باعتباره علماً بأصول ، على التقيد بالفتوحات العلمية التي أمكن لأطباء الإغريق تسجيلها ، من بعد أن تهيب إلحاق بهم في هذا المضمار . فلم يكن ليَجْروا أحد على الظن ، بالرغم من التجارب والاختبارات الهلينية ، بأن الأوردة الدموية تصلح لغير نقل الهواء . ففي عهد طيناريوس ، وضع سلس *Celse* موسوعة تناول فيها ما تناوله من علوم : البيان والبلاغة والزراعة وفن الحرب ، والحقوق ، كما أفرد للطب في زمانه بحثاً مستفيضاً امتاز بالدقة والجزالة وأوضح أن هذا العلم لا يخرج ، في عصره ، عما كان عليه في العصور السالفة ، باستثناء بعض ذرائع وطرق جديدة أتبع في العمليات وفي منتصف القرن الثاني للميلاد توصل الطبيب اليوناني جالينوس البرغامي إلى أن يستبطن بعض الوصفات الطبية التي لقيت نجاحاً واطلقت شهرته بعيداً في الأرض ، بحيث أصبح الطبيب الخاص لا واهراً اباطرة الأسرة الانطونية . من العسير جداً أن يتمكن المرء من تبيان الأشياء العلمية الجديدة التي ابتكرها . فقد كتب كثيراً ووضع تأليف امتازت بالانسجام بين علم التشريح والنظريات الطبية والطرق العلمية التي اختلفوا نظراً حولها وتباينوا رأياً فيها . فقد كان يعترف عنه من نبوغ طبي واختصاص ، شأنه في ذلك شأن بطليموس ، آخر عالم أطلعت العصور القديمة . وعلى شاكلة بطليموس ، حافلة الحظ بأن ينقل إلى الأجيال الوسطى ، عن طريق المؤلفات التي وضعها بعد أن آمن لها ما أمكن من إتساق وانسجام ، هذه الكشوف والابتكارات العلمية التي أمكن تحقيقها بفضل ما بذله من جهود طائلة وتقنيات لا تنقطع ، فريث من العلماء ظمئت نفوسهم إلى المعرفة وجاشت صدورهم بحب الإطلاع ، وهفت عقولهم إلى العلم ، فهبطوا موارده في الأجيال السالفة بروح طليعة لم تهتم أن خبت شعلتها وكن نشاطها .

الحقوق يتضح من خلال الاستعراض العام للنشاط العقلي والفكري في شتى مجالاته ، الدور المتواضع الذي لعبه الكتبة اللاتين في هذا الميدان . فقد حرص الشرق الإغريقي أن يحتفظ لنفسه بالسبق الذي سجله على الغرب ، في هذا المضمار . فالدور الذي قام به هؤلاء الكتاب يبرز على أنه إذا ما أمعنا النظر في بعض العلوم التقنية . فعمل الفلاحة اللاتينية لا يزال مع فارون ومع زميله الأسباني كولوميل الذي جاء بعده بقليل ، عيلاً على الأساليب والطرائف الهلينية . فالهندسة المعمارية تزداد وضوحاً وواقعية في البحث الاصيل الذي وضعه فثرف حول هذا العلم ، والأبحاث الأخرى التي وضعها فرونتون ، والمهندسون الآخرون . ولكن ليس من العدل بشيء أن نقصر على هذه الآثار وحدها حصيلة روما في هذا المجال . فقد استطاع أبناؤها من أن يستبطنوا وأن يبتكروا علماً قائماً بذاته .

والمقصود من هذا العلم هو الحقوق . فالطابع الفارق الذي يميز عمل روما في هذا المجال

ويؤمن لها مرتبة الصدارة هو استعمال اللغة اللاتينية ، دون سواها ، في معاهد ومدارس الحقوق التي فتحت ابوابها في الشرق ، امها على الاطلاق واشهرها طراً، المدرسة التي طلعت في بيروت ، في مستهل القرن الثالث . ان استعمال اللاتينية دون سواها من اللغات المستعملة في الامبراطورية الرومانية ، كان لا بد منه ، في مختلف مراحل القضاء ودراجه ، اذ ان اللاتينية كانت ، أكثر تهيؤاً من اليونانية ، وأكثر قابليةً منها للتعبير عن مفاهيم وافكار قامت في روما ، وفيها تحددت وتناسقت . وهذا الواقع لم يحل مع ذلك ، دون ان يردف الشرق العالم الروماني ويمده ، منذ منتصف القرن الثاني ، بجمهرة من اعلام الفقهاء والمتشرعين ، بينهم : غايوس ، دون ان يطبعوا الشرع الروماني بطابع الفلسفة . وقد صرف الأخير همه الى توسيع نطاق البحث العلمي في هذا المجال ، وعمل على تطبيق مناهج كانت روما اول من وضع أسسها .

وقد امتازت نخبة من رجال القانون باهتمامها الشديد بأمور القضاء ، والاقضية ، التي صدرت عن المحاكم في روما ، كما ان فريقاً منهم عُرف بتضلعه العميق وباستبحاره في هذا العلم فاعتبروا بحق فقهاء *Jurisprudents* أي « حكام » متضلعين بالحق الروماني . وبهذه الصفة كانوا يتقدمون بالنصح والارشاد ، ويفتون في الأمور القضائية التي تعرض عليهم فيتحدثت حولهم اساتذة وطلاب هذا العلم ورواده دون ان يحمل هؤلاء الاساتذة اية شهادة تخصصص او دون ان يكون لهم أي عمل رسمي في الادارة الحكومية . وقد تألف من اجتهادات هؤلاء الفقهاء ، منذ عهد اوغسطس ، مدرستان عُرفت الواحدة منها باسم رئيس كل منها ، هما : السابينيين والبروكوليانيين . وعلمنا ان نقر هنا بأن ما كان يباعد اذ ذاك ، بين هذا وذاك ، من التيارين المذكورين لم نعد نرى بوضوح ما يبرره الآن . فاذا كان الفريق الاول منها تميز في الاساس ، بقبول النظام الاستبدادي ، أي الامبراطوري ، فلم يبق في القرن الثاني ما يباعد ، نظرياً ، بين الفريقين او التيارين المذكورين . وقد عمد الامبراطور هدريانوس الى تعيين البارزين من مشاهير هاتين المدرستين ، اعضاء في مجلس الامبراطور الخاص ، وكان يجعل من اتفاقهم رأياً واحداً حول موضوع معين ، قانوناً له حق الإلزام . وهكذا برز بوضوح الشأن الكبير الذي مثله من اصطلاحوا على وصفهم بالفقهاء *Jurisconsultes* ، كما برز ما لرأيهم من قيمة قانونية . وهذا الشأن تبلور عن عملية توحيد عامة للحقوق ، اذ نشر هدريانوس ما يُعرف عندهم بـ : القرار الدائم *L'Edit perpétuel* الذي حل محل القرارات التي بقيت منذ عهد سحيق ، بدون تبدل تقريباً ، والتي بموجبها كان القضاة يعلنون لدى مباشرتهم وظائفهم ، المبادئ التي يقضون بموجبها . كذلك برز التأثير في تهذيب الحقوق باضفاء العاطفة الانسانية عليها ، وما كان لهذه النزعة من شأن بعيد على التطوير الاجتماعي ، اذ ذاك . وفي الاساس من هذا التصرف المزدوج ، أطلت ظاهرياً مثال واحد انبعث من صميم تعاليم الفلسفة الرواقية ، الا وهو استواء الناس في خضوعهم جميعاً لقضاء واحد شامل .

وسيطرق اسماعنا خلال هذين القرنين اسماء عديدة من الفقهاء ورجال القانون واول من وصلنا من بينهم اثرهم ، هو غايوس احد معارضي مارك اوريل ، ممثلاً بكتابه المعروف *Institutes* . وما ان تميل شمس القرن الثاني للغروب حتى نرى من ألزم ميزات علم الحقوق : التحليل الاصولي ،

والدقة والعدالة والمنطق ويأخذ هذا العلم بالازدهار. وهكذا 'يهيء الجو ليشرق في سماء ليهنات هذا الاشعاع الحقوقي الذي تتمثل في عهد الامبراطور ساويروس ، خير تمثيل باسماء لمعوا عالياً في الفقه الروماني ، أمثال بابنيانوس وبولس واوليبيانوس . وحرري بالتنويه هنا ان هذا العلم الذي هو من وضع روما ، ومن هذه الأشياء التي حملتها معها الى الشرق بقي ناشطاً في هذه الحقبة . فساعة الموسوعات القانونية التي في الرجوع اليها غنى عن البحث والتقصي ، لم تدق بعد ، مع انها دقت ، منذ زمن بعيد ، لغيره من المجالات العلمية الاخرى .

٢ - الآداب اللاتينية

لا مشاحة قط ان الآداب اللاتينية اخذت تظهر عليها بوادر الانحطاط غداة عصر اوغسطس . فلم تعد تتسم بهذه الوحدة العميقة الجذور التي تألفت من هذا الاتزان بين العاطفة والعقل ، ومن هذا التجانس والانسجام البديعين ، ولا من هذا الجرس الانساني النبرة والصدى ، في ما نقرأه لفرجيل وويت - ليف ، من هذه الآثار الخالدة التي حفظت ذكراً الى الابد . ولكن ايانا مع ذلك من ان نبذ جانباً الآثار الخالدة التي خلفتها في هذه الحقبة . فاختلاف النزعات وتباينها ، والاهتمام الزائد بالشكل والمبنى وخفة الروح ، وتأثير الصياغة البيانية والمحسنات اللفظية من انواع المجاز والبديع ، كل هذا وما اليه ، يجب الا ينسينا بعض ما فيها من روائع جميلة ومقطوعات بديعة .

وهذه النجاحات تحقّقها الآداب اللاتينية هي ، كالألوف والمتعارف دوماً ، افراد ، فنون ، مراحل انجازات افردية نوعية . فقد تمعددت مناحي العبقرية عند فريق منهم ، وعرفوا ان يبرزوا في اكثر من فن من الفنون الادبية . ولعل سنيكا هو خير مثل نضريه على ذلك ، اذ طلع علينا بأثار فلسفية وبإبحاث علمية ، كما وضع عدداً من المسرحيات ، ورسالة قدح وذم ضد كلوديوس . وتاسيت نفسه كان خطيباً ، مؤرخاً ، واثنوغرافياً ، كما ان بلين الاصغر كان خطيباً مفوهاً ، وكاتب رسائل له شهرته . فقد رأينا بعض هذه الفنون يزدهر فجأة ويشع ثم تنطفئ شعلته ويخبو ضوءه ، كعلم الاخلاق ، مع سنيكا ، والشعر الملحمي مع لوقيين . وعلى عكس ذلك ، لا نجد شيئاً يذكر في الفنون الاخرى كالمسرح مثلاً ، بعد ان أهمل شأنه ، عقب ان حكمت العاب المصارعة وألعاب الاوبرا التعبيرية محله ، بما فيها مسرحيات سنيكا ، التي وضعها لتقرأ ، وليس لتمثيل على المسرح .

وفوق هذا كله ، تطل علينا فكرة ' تطور ' او عهد ، وهي فكرة جديدة ، لا بد منها في مثل هذه الحقبة التي استطالت قرنين بكاملهما ، ألتفوا خلالها وكتبوا كثيراً ، ووصلنا من هذه الآثار الفكرية الشيء الكثير ، بالرغم من ضياع وفقدان جانب كبير منها . فسهولة التعبير التي تميز بها ، لم تحل دون بقائها مبهمه ، غامضة ، فكانت بالتالي ، سبب ارتياب وتشكك المؤرخين . ولعلها مع ذلك ، تبرز أقل غموضاً وتظهر بوضوح اكبر في تاريخ الادب . ولذا امكن قسمتها من هذه

الزاوية الى ثلاث مراحل او ثلاثة اطوار متباينة ، يتميز الواحد عن الآخر بوضوح .

فالطور الاول يتفق وعهد الاسرة اليوليو - كلودية ، وفيه بلغت الآداب اللاتينية الاوج ، لا سيما في عهد ملك كلوديوس ومطلع عهد نيرون . فيه برز سنيكا ولوقين ، وبترون وبيرس . وهذه الحقبة امتاز كتابها : برهافة الحس وتنوعه واتساعه ، ولو جاء ذلك على حساب قوة السبك والترابط المنطقي ، في هذا الفوران المزعج الذي أطل علينا من اختلاط الفنون بعضها ببعض ، وانطلاق النزعات السياسية نحو واقعية تفتقر حيناً ، عن جمال رائع ، وحياتياً ، عن مظهر قاس متجههم ، قد يبرر وصفها بـ « الرومنطيقية » ، مهما كانت هذه النعوت التي طالما وصفوا بها الحركة الادبية في هذا الطور ، تقريبية ، وبالتالي مقصرة عن اداء التعبير .

ويلي هذا الطور ، طور ثان يمتد فوق اسرتين ، ويوازي عهد دومتيانوس وترايانوس ، فيه حلق كونتليانوس ومرتيال ، وجوفنال وناسيت وبلين الاصغر . فالآداب تسبق النضج والتوازن السياسي للذين ميزا الامبراطورية ، اذ ذاك . فهي تزهو وتزدهر بطولع كونتليانوس وتجليته ، وفي هذا الطور رجعة الادب الى العهد الكلاسيكي ، بعد ان تخفف وتحلل من هذه الطفح والزبد الذي لصق بالادب من قبل . فاذا ما ارتضت الحركة الادبية ، اذ ذاك ، ان تخضع نفسها للانضباط فقد عرفت مع ذلك ، الا تفقد شيئاً من طعمها اللدسم ولا من الجرأة التي اتسمت بها .

وبالرغم من ان الامبراطورية بلغت الأوج سياسياً واجتماعياً في عهد الاسرة الانطونية ، فقد انتابت الادب ، اذ ذاك ، اعراض ذبول وتأخر . وأخلق الوجوه الادبية بالذكر والتنويه ، هي اسماء : سويتون ، وابولييه ، وترتليانوس ، وهم عدد ضئيل جداً لعمري ، لفترة امتدت اكثر من ٥٠ سنة ، مع العلم ان سويتون هو رجل ادب اكثر منه رجل فكر وعلم . فقد اضى ، هو وامثاله ، على هذه الحقبة ، مستوى علمياً رفيعاً ، مع العلم ان فضل الاثنين الآخرين يتصل بالادب الديني وبالتعبير عن المشاعر الدينية بصورة مغايرة للتعليم الرسمي . والظاهر ان الآداب اللاتينية لم يكن في مقدورها ان تتجدد الا بنسبة ما تتنكر لروما وللفضائل التقليدية التي عرفت بها .

افراد وفنون واطوار : ثلاث نقاط رئيسية على مستوى واحد من الاهمية والقيمة ، في هذا العرض الذي نقوم به والذي يجعله صعباً معقداً ، ما بينها من اختلاف وتباعد وتنافر . لنختار واحدة منها ، هي الثانية ، وكلنا أسف ان يضطرنا الاختصار ، الى ترك النقطتين الباقيتين .

الفلسفة ام خطابة ؟ لا بأس من ان يتردد المرء ويتساءل بمن يتبدى : بهذه او بتلك من الاثنين . صحيح ان الخطابة هي الميزة التي تطبع بصورة اعسق ،

وبصورة اوسع على كل حال ، العقول والاذهان في هذا العصر . ولكن الفلسفة تؤثر بدورها عليهم وتطبع انتاجهم ، كما ان علم التوقيت الخاص بتاريخ الادب يكفي وحده لايلاها حق الأولية . فأكبر فيلسوف روماني لمع اسمه في هذه الحقبة ، هو الاول ايضاً بين كبار الادباء اللاتين الذين لمع اسمهم بعد عهد اوغسطس : هو الفيلسوس سنيكا . قليلون جداً بين اصحاب

العقول من أوتوا ما أوتي سنيكا من المواهب العقلية ، كما انهم قليلون جداً ، من تم لهم ما تم له من خصب الانتاج الفكري ، وسهولة العمل ويسره ، مكنه من وضع ما وضع ، من آثار فكرية ، مع ان هذا القرطبي ، بعد ان انتقل مع والده الخطيب الى روما ، أضعاف فيها جانباً كبيراً من وقته في هذه الحياة الاجتماعية التي استسلم لها . وفي هذه المؤامرات والدسائس التي شهدناها في البلاط بعد ان عُتِن مهذباً لنبيرون ومربياً له ، وفي شؤون الدولة ومهامها السياسية ، بعد ان تربع تلميذه على أريكة الملك . ولعل اسوأ ما نلسه في انغماسه بهذه الحياة وفي اقباله عليها ، حياة سَيرتها ووجهتها فئات اجتماعية ضيقة ، لم يظهر ما يدل على انه تعرف الى غيرها ، برهن فيها ، الى جانب الوقت الثمين الذي هدره سدى ، عن وصولية وانتهازية المحذر معها الى درجة الانحطاط الخلقي ، فلولاً هذا الهدوء والطمأنينة التي تلقى معها خبر حكم الاعداء يصدره عليه تلميذه المتوج ، الكثير الشكوك والظنون ، لا غتظنا كثيراً لهذا التناقض يطالعنا به رجل من بطانة الامبراطور ، اصبح بفضل منصبه من كبار اثرياء زمانه .

فعلم الاخلاق هزّه اكثر من الفلسفة . فلم يتحمس يوماً لعلم المعقولات او علم ما وراء الطبيعة ، وقد ابى ان يوضح لنفسه ، العلاقات القائمة بين الالهية والعالم والانسان ، مقتصرأ على المذهب الروماني الذي صادف من الرواج اذ ذاك ، ما اتاح له ان يمدد طويلاً ، مريدين متحمسين بين المسيحيين انفسهم . والمهم عنده هو علم الاخلاق الذي دعا دوماً الى الاخذ به ، حتى في بحوثه العملية ، وفي مسرحياته التي حذا فيها حذو يوربيدس ، والى هذا ، ان ام واكثر آثاره الفكرية تتألف من مباحث روعيت فيها قواعد الفن ، او تؤلف مباحث بشكل رسائل الى اصدقائه . وهو يتصرف كأنه معلم ذمة لمن هم من طبقة من سعداء هذا العالم الذين يعانون ، مع ذلك ، من آلام هذه الدنيا . فهو يوحى بقبول ما لا سبيل الى تقاديه من شرور هذا العالم بما فيها الموت ، وذلك بمثابة ، من يديه ملاك امره ، وبشيء من الحكمة المدروسة ، على ضوء من التحليل النفساني الدقيق الذي يليق جيداً بأسلوبه البياني الأسر وبهذه الطواعية الفكرية التي عرف بها .

وهذه المثالية ، التي وضعها نصب عينيه هي ، مثالية الرواقيين التي لم تكن بعد أطلت على روما والتي لم يكن تأثيرها قارب الزوال بعد . وهذه المثالية ، تبرز اكثر تشدداً وقسوة عند بيرس *Perse* ، كما تبرز عند لوقين ، اشرق بياناً وأكثر وضوحاً . فالفلسفة بمعناها الصحيح ، لا تستأثر بأحد من مفكري اللاتين في هذه الحقبة ، والوحيد من يخصص لها ، بين هؤلاء المفكرين ، ثلاثة أو أربعة كرايس ، هو أبوليه ، تناول فيها بالبحث ، بعض تعاليم الفيشاغورين أو الفلسفة الارسطوطالية . وهكذا نرى اخلاقية المدرسة الرواقية ، تتفاعل على أقدار تختلف دقة ، في نفوس الكثيرين ، كما توحى ، في القرن الثاني ، ليس فقط الموقف العام الذي يقف أباطرة هذا العهد ، بل ايضاً بعض القرارات التي اتخذوها . فان كان اسلوب سنيكا البياني ما لبث ان تناساه الناس ، فأفكاره بقيت رائجة بعد موته بكثير .

الخطابة
لا شك في ان الخطابة واسلوبها، طبعت الأدب اللاتيني في العهد المتأخر، من
الامبراطورية الرومانية اكثر من الفلسفة. فقد أتيح لنا ان نتعرض للحديث عنها
سابقاً، وان نتبين ازدهارها، والشواثب التي اعترتها. ولذا يكفيننا هنا ان نشير لهما، الى ابرز
من يمثلونها، أقلمهم هؤلاء الذين وصلت إلينا آثارهم.

كثيراً ما أتينا، في معرض الحديث، على ذكر كوتيليانوس، والكتاب الوحيد الذي
وصلنا منه، هو: «فن الخطابة»، فيبرز من خلاله، مريباً كبيراً، وعالمًا سيكولوجياً
نبيهاً. فللطفل مُثلٌ، تختلف كلياً عن مُثل الخطيب، ولذا يحرص على ان يوجهه في كل شيء. فهو
يوصيه بالبساطة، وهام هذه البساطة، يتناول بالنقد اللاذع، سنيكا ويتهمة بالخراف الذوق،
بينما يمتدح عالماً شيشرون وذوقه الرفيع الذي يجب ان يكون قدوة الطالب وقاعدته. إلا انه
لا يحرؤ على شجب التصنيفات، وهذه الأساليب الملتوية التي راجت ايام رواج في عهده، مع انه
رأى ولمس لمس اليد التعقيد الذي لحق بصناعة الكتابة، فلم يكن، على ما عُرف عنه من
وَجَل، بالرجل الذي يكيل الضربات بعنف للتجاوزات المغالية التي وقعت فيها الخطابة،
اذ ذاك، بعد ان وقع هو نفسه، تحت امرها وأخذ بها.

لم يلبث النقاش والجدل الصاحب الذي قام بين المعاصرين حول التوقيت الزمني لكتاب
تاسيت المعنوث: «حديث الخطباء»، وعمله من مؤلفاته العديدة. فالكتاب بما فيه من
إستدارات بيالية تشبه الى حد بعيد اسلوب شيشرون، هل كان بين اوائل الكتب التي وضعها
تاسيت، او انه اختار له هذا الأسلوب الإنشائي الذي يليق بالموضوع؟ وراح بعضهم يشك في
ان يكون الكتاب المذكور من وضع تاسيت. ومهما يكن، فالكتاب هو من وضع ناقد يملك،
بعكس كوتيليانوس، معنى علم التاريخ. فما غاب عن ذهنه قط ان المخطاط الخطابة يخرج عن
نطاق الأدب، وراح يعمل ذلك ويرده الى التطور السياسي والاجتماعي في البلاد اكثر منه لفساد
الذوق، وسوء اساليب التربية اذ ذاك.

وكان في مقدور هذه الحقيقة، لو فهمت على وجهها الصحيح، ان تخفف من الاهتمام بفن
تقادم عهده وزال اوانه. الا اننا لا نرى شيئاً من هذا البتة. فقد استمروا طويلاً في البحث
بجاسة، شؤون المعجم والانشاء، والجزالة التي تأتي وليدة قناعة: «صارمة»، «عابسة»،
«دقيقة»، واستعمال المحسنات اللفظية والافصاف الدالة على رهاقة الذوق: «ناعم»، «مشرق»،
وهو جدل انتقل إليهم من الاغريق قديماً، حول الاسلوبين البيانيين المعروفين ب: الاسلوب
«الاتيكي» والاسلوب «الاسيوي». فالعلم الأتم هو ان يعرف الكاتب ان يستعمل، عند
الاقضاء، الاسلوبين معاً على ما يقتضيه الموضوع والمناسبة العارضة. وقد أريق المداد مدراراً
وجزاقاً، حول طبعية الاسلوب الخطابي واهمية الموضوعات التي يجب معالجتها في المرافعات
القضائية او في الخطب التي تلقى في بعض المناسبات العارضة كالحفلات الرسمية. وهكذا نرى

الكثير من الفن المتصنع المزهر يبذل هدرًا ولو أضر بالحد الأدنى من الشعور العميق الذي لم نعد نرى أحداً يتحسس به .

ففي : « رثاء ترايانوس » ليس أحد يشك في صدق عاطفة بلين الأصغر ، صاحب هذا الرثاء الذي عُده مع تأسيس أكبر خطباء هذا العصر . كان المجتمع الروماني الرفيع يحمل كرهاً شديداً للطاغية الرهيب دوميتيانوس كما كانت ، على عكس ذلك تماماً ، شديد الإعجاب بخير الملوك وامثلهم على الإطلاق ترايانوس . فقد رأى كيف تحقق على يده ، كما يقول تأسيس ، واقمان برزا متضادين من قبل : الملكية والحرية ، كما ترك لهم « حرية التفكير بما يشاؤون ، والتعبير عن افكارهم كما يريدون » كما راعه ما رأى ، بتأثر بالغ ، من قوة روما وعظمتها ، ومما من بعض افضاله عليها . وهذا الرثاء ليس سوى نسخة منقحة ، مزيدة ، « لفعل الشكر » الذي رفعه بلين للامبراطور ، عملاً بالعرف المعمول به ، اذ ذاك ، عندما رقاہ قنصلاً ، في غرة ايلول سنة ١٠٠ ، وقد اتاح هذا التعديل للخطاب إضافة ما لا بد من اضافته من المحسنات الشعرية ، وما فيها من اماديع وعبارات تفخيم أضمت ما فيه من عاطفة مغلصة مشبوبة . ومما لا شك فيه قط ان رسائله التي أدخلت عليها بعض التعديلات لتصلح للنشر ، تحمل الكثير من سحر البيان ورشاقة التعبير ، وان كانت دون رسائل شيشرون بداهة وطبيعة ، بالرغم مما يدعيه بلين نفسه بأنه كفاء عدل لشيشرون . فقد كان الافراط في تعمد الامر الأدبي ، أبداً مفسدة له ، كما ان الافراط في الثقافة يسيء احياناً الى رهاقة الذوق .

فالتاريخ القديم لم ير ، على كل حال ، في هذا كله سوى فضائل وحسنات ، وعلى نسبة الشهرة التي تمتع بها فرونتون في عهد مارك اوريل ، برهنت الشهرة التي تمتع بها بلين الأصغر ، ما كان عليه وما صار اليه ، الذوق العام اذ ذاك . و « رثاء ترايانوس » امكن حفظه وصيانتها لانه كان نموذجاً لفن ادبي راج كل الرواج في العهود التالية : فقد جاء الاول في مجموعة من ١١ رثاء ، قيلت في عدد من الاباطرة حتى اواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع ، فكونت مجموعة من قطوف الخطب اللاتينية القائمة على اساس تاريخي . ولم يحدث ان يجد التاريخ مصلحته في الكثير من هذه المحسنات اللفظية التي عمل بها اذ ذاك ؟

المثقف هو من عرف ان يضع خطاباً وفقاً للاصول ، كما هو من عرف ان يقرض الشعر وينظم القصائد . ومثل هذه الرياضة العقلية اقبل عليها كثيرون وحاولوا ان يتقنوها . وهذا المران على القريض والتمرس به من عهد التلمذة ، يفسر لنا كيف ان كثيراً من الاساليب ، والالفاظ الشعرية والصور البيانية جرت على اقلام الكتاب والسنتهم في النثر . غير ان صناعة الشعر كانت أبعد من ان تموت أو تضحل ، ولذا لا تزال آثار شعرية كثيرة تلفت النظر وتستأثر بالخطاير ، في هذا الانتاج الادبي الضخم الذي ليس كل ما فيه خليق بالحفاوة . وهذه المسرحيات التي وضعها سنيكا واتخذ مادتها ، ليس من الاسطورة رأساً ، بل من الآثار الفكرية اليونانية الفنية ، واللبس شخصها لبوساً هي من نسيج خياله الفلسفي ، تتناوح بين سماجة الذوق

والجزالة ، و'فجاءة الأحداث التمثيلية والمواقف المؤثرة ، ورقص الاموات المربع والرشاقة الناعمة ، وضغط العاطفة الرواقية ودقة التحليل السيكلولوجي ، والاستدارات البيانية والوصفية الطويلة ومتانة السبك والحبك . وبالأجمال كل هذه المتناقضات او بالأحرى هذه الفروق وغيرها من المفارقات التي تتسم بها هذه المآسي ، ساعدت بالفعل كورثاي على ان يفيد من بعض التغييرات التي ادخلها (سنيكا) على آثار يوربندس .

وعندما قتل ابن اخته لوقين ، وهو ابن ٢٦ سنة تنفيذاً للحكم بالاعدام صدر عليه من نبيرون ، فقد كان كتب وألف كثيراً . فلم يبق لدينا منه سوى ملحمة : « فرسال » ، دمه الموث قبل ان يكملها ، وهي ملحمة تدور حول الحرب الاهلية في عهد قيصر ، وقد امتدح فيها ، بعد ان فقد كل حظوة لدى الامبراطورية ، بمبيوس وانصاره ، ولا سيما كاتون عتيقة ، كما راح يتغنى ، بعد ان اطلق العنان لحقده ، بالنظام الجمهوري الذي عاشت البلاد في ظله قرناً عديدة . فللموضوع عظمتة وجلاله . وقد عرف لوقين ان يحافظ على هذه العظمة ويصونها ، اذ جعل الآلهة تتحمس لحروب البشر وتشارك في معاركهم . فقد كانت معلوماته كذلك على جانب من الصحة والدقة . فاذا ما قنع باليسير من سيكلولوجية الفرد والغوص في أغوار النفس ، فقد اظهر من جهة اخرى تفهماً صحيحاً لتفاعل العوامل التاريخية المشتركة . ولذا راحوا يلومونه بمعالجة موضوعه بصورة زقاقية ، اي خالية من عنصر الجمال والسمو ، وبذلك قد يكون خان فرجيل وابتعد عنه . عندما اطلق العنان لانفعالاته الشخصية باندفاع شديد ، بعد ان استسلم لخميلة جامحة تستبد بالخواطر حق في ما طلعت به من غريب او تخيف . فنبهه للخطابة ، ومحاولته التأثير بأقانيها والأعبيها واساوبها البياني يكشف عن مبلغ تأثره بأساتذته من علماء البيان والخطابة . وقد عرف مع ذلك ان يتفادى اسوأ لواقصهم الا وهو تقليد الماعى المناهج الكلاسيكية .

كذلك عرف ان يتفادى هذه النقيصة ، ثلاثة آخرون من كبار شعراء هذا العهد ، مع الاعتذار الى ستاس ، اذ لا يمكن ان ننسى رواياته « المرتجلة » *Silves* ، ان لم يكن ملاحه ، ولا الاشياء الجديدة التي طلع علينا بها . فاذا كان الأدب اللاتيني لم يجهل منذ لوكيلوس وهوراتيوس المذهب الواقعي ولا الهجو ، فقد أتيح لهؤلاء الثلاثة ان يعالجوا هذه الفنون بجرأة ظاهرة ، وحاسة قوية جذبة بالانتباه .

كان تيرس معاصراً للوقين ، ومثله توفي وهو في شرح الشباب وميعة العمر . فقد عالج الهجاء واتخذ منه أداة للتعبير عن خواجه ، والتفريغ عن ضواغط نفسه . من هذه الضواغط التي كشف عنها ، التقزز الذي سببه لمشكلة الرواقية ، مشهد المجتمع القائم . فقد عبر عن شعوره بصراحة تامة ، دون مداورة او مداراة لأحد : لأهل القلم ، والشعب ، والاشراف النبلاء ، حتى وللإمبراطور نبيرون ، الذي ورث عنه وألح اليه باسم ألقبياديس . وقد قال ما قال ، بشيء من صلابة العقيدة ، دون ان يكثرث او ان يهتم بحسن الاسلوب ، بل على عكس ذلك ، أرادته جافاً ، قاسياً ، وعلى شيء من الغموض ، بعد ان يترك القارئ تحت وطأة المشاهد الجارحة التي رسمها بما هي عليه من واقعية وعري .

اما مارتياى فلم يكن تم له شيء من هذا النقاء الادبي ولا من هذا العنف ، وعلى عكس ذلك ، فقد رموه بالملكى والتدليس والتزلف الى النبلاء ، والامبراطور ، حتى ولو كان دومتيانوس ، فلم يرض ان يكشف عن أسماء من تناولهم بالنقد . فاذا كان هذا المتسول اللجوج الذي لا يكل ولا يمل ، معذب الضمير لوضعه مثل هذه الروايات التي وضع ، وضفره مثل هذه الأماذيح التي يمجها الذوق السليم ، فهو مع ذلك خير من يمثل وخير من يعالج فن القصائد اللاذعة والاهاجي القارصة . وهي ، على الغالب مقطوعات شعرية وجيزة ، مقتضبة كالمعتاد ، انما تنضح بالهزة والسخرية اللاذعة . وها نحن نراه يبذل أقصى ما أوتي من حذق ومقدرة ، ليطلع علينا بالكلمة الجارحة التي تنفذ الى الصميم فتجرح وتدمي . فقد كان أكثر من هازىء او ساخر متهمك . فقد رمى ، بما تم له من روح ساخرة ومن دقة في التعبير لا بد منها في الهجاء ، الى أن تتعرف الحياة الى ذاتها وان تتطلع الى ما انحدرت اليه الاخلاق . ولذا تسبح بالملاحظة الدقيقة الناعمة . فالسرعة التي يرسم بها الصورة البشعة التي ارادها ، ويصور لنا فيه شخوصه تنبض وتتحرك وتعمل بحيث تبعث فينا الضحك ، وابرار ما يلسه فيها من عيوب ومساوى طبيعية او اخلاقية نمتى كثيراً معلوماتنا حول مظاهر الحياة الخارجية عند الرومان في ما تميز منها وبرز . إلا انه اقتصر دوماً على القسبات البرانية للشهد او للشخص الذي يستحضره امامنا ، ويهتم بما فيه وله من عورات ونواقص خارجية ، أكثر مما يهتم بالأشياء الاخرى الحرة بالذكر والتنويه ، بحيث لا يستطيع المرء إلا الشعور بالأسف لأنه لم يهتم لنفوس الناس إلا بقدر ما يمتورها من صفائر ودنات ، او ما تصرف اليه من سفاسف هذه الحياة .

اما صديقه جوفنال ، فقد أوتي على شاكلته ، قوة غريبة على الاستحضار ، فلم يراجع ، هو الآخر ، امام ما وقعت نواظره على غزاز من العري والصلاف . فقد كان أطول منه نفساً ، وهذا الطول في قصائده الهجائية مكّنه من ان يتجاوز بعيداً ، هذه المشاهد الصغيرة التي رسمها مارتياى . أوتي من عمق النظر ونفاذ البصر ما لم يتم بعضه للآخر . فن الغلو ان نقف مشدوهين حيال شجاعته . فهما بلغ من تفكيره ، فلن يذهب به بسط اليد الى تدليس مارتياى وتلقاته . فالذي هاجهم وسامهم بأسمائهم قوم زالوا وأصبحوا في عداد الموتى ، فلم يكن ليخشى شراً من الاخذ بتلايب دومتيانوس مثلاً ، بعد ان طلعت على العرش أسرة جديدة راحت ترمي سابقتها بالالواح . ومها يكن ، فالسخرية الفكية لا تهمة بقدر ما تهمة الثورة . وكلمته الماثورة لا تزال على كل شفة ولسان : « فاذا ما رفضت الطبيعة انطلق السخط شعراً » . فكلية « سخط » هنا لا تفني بالغرض ، فهي ضعيفة ، ليس لها من القوة ما يجب . فهو الحق ، حقد رجل ، عاش على مقربة من متوسطي الحال ، ضد اغنياء قلما فقهوا للاحسان معنى ، او بالاحرى ، ممسكين ، قليلي العطاء ، اذ لم يُعرف عنه انه حمل يوماً بين ضلوعه حباً للفقراء او كن لهم شيئاً من هذا ، حقد مُعجَب بالماضي بعد الذي رأى وشهد من انحدار الاخلاق وتفسخها ، حقد مواطن روماني ، عمر قلبه بحب الوطن ضد هذا اللعيم من هؤلاء الأغارقة ، وهذا الشتيت من المشاركة تفص بهم شوارع روما وأحيائها . لم تكن هذه النبذة لعمري ، وهذه المواضع الجديدة . غير ان

«الطبيعة» أي التبوغ، شيطان الشعر هذا، لن يبخل عليه بشعر كالحلم، لاذع، لاسع، زاده الماران والبيان وضوحاً، وحرافة. وفخامة، أضف الى ذلك لساناً ذرياً، ولغة غنية، عامرة، قوية، ملوثة في خدمة خيال مجنح جوح، خصب، لا يلين. وكثيراً ما سلسط هذا اللسان السليط، الحديد، ما يعيدنا بالذاكرة الى هيفو، في ديوانه *Les Châtiments*. فالشعر اللاتيني، بعد جوفنال، لن يحود بشيء يستحق الذكر: فقد أغناه وأخصبه. فكفى بذلك امراً له.

فن الرواية اذا كان الشعر اقوى تعبيراً عن مشاعر الغضب، فالتنثر، من جهته، أطوع على تصوير الحياة في واقعها المتحيز في الزمان والمكان. واذا كان سبق للكتبة الهلنيين ان استعملوا في رواياتهم شخصاً لا وجود لهم الا في الخيال، فالقصص التي وضعوها، انما هدفت للتسلية والتفريج، بعد ان اضعوا عليها من نسيج الخيال والوصف الأخاذ ما يشيع البهجة والسرور في النفس. وهكذا لم يلبث الكتبة اللاتين ان كشفوا في فن الرواية، عن طاقات جديدة وقدرات في حبك الرواية وسوقها كان للخيال في ذلك شأن واي شأن.

فن بين الآثار الادبية الاقرب الى الرواية الواقعية مما طلع به الكتاب في التاريخ القديم، الرواية المسماة: «ساتيريكون» التي وصلنا منها بعض نتف، وقد وضعها الروائي الروماني بترون احد المقرئين الى نيرون، والذي يروي لنا ناسيت (تكيثوس) خبر انتحاره، بشكل يتفق تماماً وما اشتهر عنه من طرف. وهذه المقطوعات تفيض بالتعليقات الادبية، وتعرض بنوع خاص لفن الملاحم واورد فيها مقتطفات شعرية، منها واحد، لا ندرى ما الغرض منه، أهو نقد للوقين او نقد لخصومه — اعاد فيه النشيد الاول من ملحمة فرسال، بعبارة فرجيلية تومر بالميثولوجيا والحكايات الاسطورية. ولا يخفي من جهة اخرى، رغبته في التهكم: فهو من نعومة الخلق بحيث اذا رأى الاقتصار على واقعها، فلا يتورع، مع ذلك من اللجوء الى التصوير الهزلي الصارخ، فالفن الزواني يبقى معه والحالة هذه، فناً كثير التشابك والتداخل. والصفة البارزة التي تتسم بها آثاره العلمية تقوم في سهولة السرد التي تمت للقاص، كما تقوم في هذه الاضواء الكاشفة التي يسلطها على شخوصه فيبرزون في عورتهم المضحكة المبكية، او في هذه الزقاقية التي يبدو عليها، وفقاً للمواقف والاضاع التي يهيئها لهم. وهذا الكاتب الديني الذي عُرف بمقدرته على الكشف والتحليل، استطاع ان يلاحظ اشياء كثيرة خارج الجو الذي عاش فيه واحاق به، حتى بين ثنايا الطبقات الاجتماعية السفلى. فن الطبعي جداً ان يتناول بالتهكم الساخر: هذا الفريق من حديثي النعمة الذين وصلوا الى الفنى في غفلة من الدهر، فراحوا يسخرزون بوقاحة، ما أوتوه من ثروة وثناء، للتنعم بلذات الطبقة الاجتماعية العليا، على مثال بطل روايته المدعو تريملكيون، احد هؤلاء العتقاء الاثرياء، الذي تكون «مأدبته» العامرة، خير الوان هذه الرواية، على الاطلاق. فقد اضعى عليه من زهو الألوان ومن بهرج الوصف ما يحمل على الهزل والتفريج، ينطلق من كلامه وأقواله، وحركاته وسكناته. وهذا المزاح يضفي على الحقيقة سمات تتجاوز بكثير المعقول او المحتمل، تجعل من بترون، بالفعل المبدع الاول لصورة «حديث النعمة».

اما الواقعية في الادب فستَمَثَلت ، في بعض المناسبات ، بالكاتب الافريقي أوليه الذي قضى معظم حياته الادبية ونشاطه العارم ، في مدينة قرطاج ، في النصف الثاني من القرن الثاني . فقد ترك لنا هذا المحاضر المتعدد الاثر ، انتاجاً متنوعاً ، خصباً ، وضع بعضه باللغة اليونانية ، كما يبدو لنا ذلك واضحاً من بعض النماذج التي وصلت إلينا منه . وأشهر مؤلفاته وامثلها على الاطلاق هي الرواية التي وصلت إلينا تحت اسماء مختلفة : التحول *Métamorphoses* والحمار الذهبي ، ولوكيوس . فهو يقص فيها علينا الحوادث والاختبارات والمشاهدات التي تمت لشاب استحال حماراً لدى استعماله مرهماً اخذه من يد ساحرة ، واستطاع بعد فترة طويلة ان يسترجع شكله الاول ، بفضل تدخل الإله ايزيس التي نصحته بأكل نوع معين من الورد . وهذه القصة المليئة بالغرائب والعجائب ، ذات المبنى المتخلخل والتي تحتل فيها قصة : « الحب وبسببه » اكثر من ربع حجمها ، تفيض بالافاقيص الماخنة وبقذع التعابير ، كما تفيض بحكايات قطاع الطرق وشذاذ الآفاق ، والمآسي الغرامية والهزلية من كل نوع وجنس ، نسجت مادتها من كثير من القصص اليوناني القديم ليس من السهل علينا تبين خيوطها ، كما كانت بدورها معينا ، ورده كثير من واضعي الحكايات بينهم لافونتين في مجموعته *Contes* . وقد اضفى عليها مؤلفها ثوباً فضفاضاً من اللغة والبيان افقدها شيئاً من قيمتها لما شابهها من التصنع والتعذلق . غير ان وصفه لمشاهد الحياة الشعبية في الريف والمدن الصغيرة القائمة في الولايات يبعث في النفس السرور والحبور . ومع ذلك فهذا كله ليس بشيء يذكر امام هذا الشريط من المشاهد الدينية الذي امامنا في الجزء الاخير من روايته هذه ، حيث يستسلم أوليه ، بعبارة تفيض حرارة وحاسة ، لشطحات من الرمزية والتقوى والخشوع لا ترتبط بشيء باجزاء الكتاب ، سوى انها تدور حول بطل الرواية . فالصفحات التي حبرها والتي تلقي بعض الاضواء على مؤلفاته الاخرى ، لا مثيل لها في الادب اللاتيني الذي تقدمه . كل ذلك ساهم على جعل روايته هذه *Métamorphoses* من بواكر الادب الواقعي تنطق عالياً بهذا الغلق ، وبهذه الآمال ، وبهذه الاعراف والعادات التي تلازم دوماً الآثار الفكرية الخيالية التي صدرت عن الشرق .

هناك مناهج واساليب عديدة لكتابة التاريخ وتدوينه . ورغبة منهم في توجيه التاريخ نحو النقد ، حاول بعض كتاب الاغريق من العصر الهليني ان يفصلوا التاريخ عن الادب . وهذا المنهج التاريخي قد يكون نال رضى اصحاب المذهب الواقعي الذي تميز به الرومان ، لو ان الروح العلمية التي تعتبر الاستبحار في العلم (*Erudition*) ، مظهراً من مظاهرها المفرّدة ، عرفت ان تزيد هذا المنهج قوة واندفاعاً او ان تحافظ على مستواه . ولكن لم يحدث شيء من هذا قط . فالاهتمام بالتاريخ كعلم بقي على قوته ، ولكن لأسباب بعيدة عن الرغبة في الاطلاع ، كهذه المؤلفات العديدة ، يضعها وفقاً للاسلوب الهليني ، اشخاص من الصف الاول ، من بينهم اباطرة امثال اغريبين والدة نيرون ، او امبراطور كهدريانوس صاحب المذكرات ، فقد أوحى بها اعتبارات سياسية وأخلاقية . وهكذا يبقى التاريخ قطاعاً من

قطاعات الادب . وما هو أكثر من ذلك ، فالكاتب اللاتيني الذي يعلو اسمه باقي الأسماء من بين المؤرخين اللاتين ، يجعل التاريخ هوايته المفضلة ومسلكه المحبب ، هو تاسيت أو تكييتوس .

بينه وبين تيت — ليف من كتاب اللاتين ، كثيرون تفرغوا لهذا العلم وانقطعوا له . وقد فُتِدَت معظم مؤلفات أكثرهم ولم يصلنا منها شيء خليق بالذكر . والذي وصلنا ليس له كبير شأن . « فتاريخ الاسكندر » المنسوب الى كوانت — كورس يثير مشكلة تتصل بصميم تاريخ الادب . وراح بعضهم ، امام جهلهم التمام لهذا الكاتب ، يردّونه الى اواخر القرن الرابع . فالافتراض الذي يجعل منه معاصراً للإمبراطور كلوديوس لا يستند إلا على اقتناع شخصي . كذلك يثير هذا الكاتب قضية اخرى تتعلق بالأدب . ففي الوقت الذي يُشَنَّع فيه المؤرخون الكلام على كوانت — كورس ، نرى بعض مؤرخي الادب اللاتيني ، يكتنون له ، بعكس اولئك ، بعض التقدير . فاذا ما اخذت بقراءته ، فلا يعتريك أي حس بالملل ، إلا عندما يأخذ بإيراد بعض الخطب التي لها اول وليس لها آخر . يرضينا منه هذا الحس بالفراغ يحدثه فينا ، بسبب أسماء الاشخاص التي يذكرها ، والاخلاق التي يروح يصفها . فشخصية الاسكندر تتحرك سيكولوجياً امامنا بصورة مشوقة . والحزّ للنفس ان كل هذه العوالم التي يحركها امامنا لا تنهض على سند تاريخي يخلو من الشك ، كما انه يلبذ جانباً ويهمل كلياً ، بصورة منهجية ، جذرية ، العنصر الآخر ، الذي يتوفر ، مع ذلك . فلم لم يضع لنا ، والحالة هذه ، رواية واضحة ؟

فاذا كان كوانت — كورس لا يعني غير اسم وكتاب ، فتاسيت (تكتوس) ، معروف لدينا جيداً بفضل الانوار الكاشفة التي تلقينا مؤلفاته . اقبل على كتابة التاريخ ومعالجة قضاياها وهو في الاربعين من عمره ، بعد ان كان عنى ، من قبل ، بتحصيل الخطابة والبلاغة التي تركت فيه طابعها ، مع ان اسلوبه وانشاء بعيدان كل البعد عن التفتيح والاستطرادات البيانية . أحبّ الخطب فذكر الكثير منها في كتابه ، عدا عن تلك التي نحتها من وحي الخيال ، كهذه التارين التي يقوم بها الطلاب . من ذلك مثلاً ، إثباته مرافعة الامبراطور كلوديوس امام مجلس الشيوخ بشأن طلب القائلين بقبولهم في وظائف الحكام والقضاة ، معتمداً في الاساس ، على نص الخطاب الاصيل ، فتوسّع فيه كما شاء له خياله . كذلك أفاده تمرسه الطويل بشؤون الخطابة في صقل أحاسيسه وتهذيب مشاعره الشخصية فترك لها العنان واطلقها على السجية . ان أكثر الخطباء ابتذالاً لم يستطيعوا ، بعد ان أخذوا بسمو عواطفهم ، إلا ان يشددوا على ما تحلى به من الصفات الاصيلية ، من ذوق مرهف في التحليل الادبي ، والرغبة في الإعراب عن التشاؤم الذي سيطر عليه ، حتى باهتمامه بهذا العالم البربري الذي جهلوا عنه كل شيء ، مع انه عالم له جمالاته مها خشن ، فاضل لا بتماده عن هذه الحضارة المفسدة المخلخلة ، وفيها كل الخطر على روما المتحللة .

هنالك عوامل أخرى أثرت على تفكيره وروحه ، يرجع أكثرها لهذه الاضطرابات التي سببتها تصرفات دوميتيانوس فسببت هلاكه فنجم عنها هذا التحالف الذي تم عقده بين مجلس الشيوخ وبين ممثلي الأسرة الانطونية ، فقد قوّى فيه هذا كله الشعور بصدق اخلاصه واندفاعه .

في المصلحة العامة، والامتعاض الذي اعتراه من مشاهدة هذا التناقض بين المثالية والواقع المتحيز. كذلك، تم له الاطلاع على بعض القضايا العامة وما كان لها من ردة شعورية في النفوس. فقد تألم في قرارة نفسه كثيراً، من أمور لا تتعلق به شخصياً ولا بأقاربه أو أسبائه بشيء، بل به، باعتباره عضواً في مجلس الشيوخ ومواطناً رومانياً. فقد رغب ان يفهم ويدرك، وان يجعل غيره يدرك ويفهم أيضاً، بعد ان أمّن الامبراطور « نروه »، وترايانوس من بعده، حرية الكتابة والكلام لمن يروم الكتابة عن الماضي ويؤرخ له. وهكذا قرر ان ينقطع لكتابة التاريخ وان ينصرف للتحرير والتقصي، أكثر فأكثر، وجمع المعلومات التي يرغب فيها. فابتدأ عمله بالترجمة لمحبه أغريكو لا، ثم عقد بحثاً مستفيضاً حول جرمانيا من الوجهة الجغرافية والاثنوغرافية، ثم انصرف الى وضع مؤلفاته الكبرى: « التواريخ » و « الحوليات » التي لم تصلنا بكل أسف، كاملة، والتي أرتخ فيها للحقبة الواقعة بين موت نبرون وطلوع الأميرة الفلافية، ثم انصرف لمعالجة الحقبة السابقة الممتدة من تبوء طيباريوس أوريكة العرش. وقد اعرب هو نفسه عن رغبته بالسير القهقري الى الوراء؛ إلا ان الوقت لم يتوفر لإكمال بحثه من التأريخ لعهد اوغسطس. وعندما راح يعلن عن رغبته في ان يترك التأريخ للحقبة التي عايشها، للوقت الذي يبلغ فيه سن الكهولة، فكان به أراد ان يتخلص بلباقة، من تلبية طلبات ورغبات جاءت من فوق. فقد هتم كمؤرخ يحترم نفسه، ان يعبر عن آرائه بحرية تامة، كما رأى نفسه مضطراً، من جهة أخرى، للتوسع بالرجوع الى المصادر والمراجع الأصلية، للوقوف جلياً على بواطن الامور، ودوافعها الدفينة، ومسبباتها.

كان مفهومه للتاريخ، وطريقة الأخذ به، يؤلف، من الوجهة العلمية المنهجية، ومن ناحية اصول كتابة التاريخ، بتهقراً، بالنسبة لبعض مؤرخي اليونان، أمثال ثوقيديدس وبوليبي. فقد استقى معلوماته من أقواء معاصريه والتقليد المتواتر على ألسنة الناس، وذلك بالرجوع الى آثار ومذكرات من سلفه، والوثائق والأوراق الرسمية، التي كان في مقدوره الاستفادة منها. فنحن أعجز من أن نلبين اليوم، المدى الذي بلغته تحقيقاته العلمية، والعناية التي وفرها لها وأحاطها بها، وكلاهما جدير بالتقدير والثناء. ولعل الشيء الوحيد الذي تأخذه عليه في جمعه معلوماته: هو قصر نظره، اذ انه اقتصر، في جمعها على حاشية الامبراطور وبطائنه، وعلى ما تلبّد به جو مجلس الشيوخ وروما من شؤون وشجون. فلم يهتم كثيراً بأمر الولايات، ولا بأمر الجيش الا بالقدر الذي كانت امورهما، مداراً ضيقاً للبحث في قاعات مجلس الشيوخ وموضوع مناقشاته. فادارة الامبراطورية الرومانية والحياة في أرجاء هذه الامبراطورية، تختلف تماماً عما ارتسم من صورها في ذهن اعضاء مجلس الشيوخ. فالبحث الذي اقتضته معرفة هذه الامور لم يجر بأكمله، والارجح انه لم يستفد كثيراً من الأسفار والاتصالات العديدة، والاقامة احياناً في الريف مما كان يقوم به بوصفه عضواً في مجلس الشيوخ. كذلك لا بد من بعض التحفظ لجهة الطريقة التي استخدم معها هذه المصادر. ولكي يستطيع التمييز والانتقاء بين عدة روايات

مختلفة كان عليه ان يختار بينها، راح يستعمل بنجاح، مقياساً لها، ما هو محتمل الوقوع او الحدوث. وقلماً نراه يحاسب ذاته في تقويمه المصاعب التي تعترض بحته، الامر الذي يثير فينا شيئاً من القلق والاضطراب. ففي تعليقه وتفسيره للتطورات والاحداث التاريخية التي استعرض لها، يترك بعض الحلول للقضاء والقدر، ويعزو الحل الى شيء من تدبير الآلهة. فاذا ما كان في عقائده الدينية وتصديقاته الايمانية، بارداً جامداً، فموقفه هذا يعكس موقف الدولة الرسمي، مشوباً بشيء من النزعة الفلسفية. فقد عوّل في بعض التعليقات التي طلع بها على طوابع الغيب والقول بالاعاجيب. ولعل ما هو اهم من هذا كله، فلم نراه التزم دوماً، كما يدعي، جانب النصفية. فقد كان له من الآباء، ما صانه عن المصانعة والكذب، حتى ما جاء او اندس تحت قلمه، من باب الامهال، والاحكام التي اصدرها على الافراد والملك والدولة، صدرت كلها عما رسم لنفسه من مُثُل، وهي احكام صادقة لا يشوبها، على الاجمال، الغرض او العاطفة، فلا تلبث ان تبرز بعد صدورهما والتعبير عنها، على غير ظاهر الأمور.

ولكي نضعه في الصف الاول بين كبار الأدباء، ليس في روما الامبراطورية فحسب، بل ايضاً في كل البلدان والازمان، علينا ان نلقي نظرة متمليّة على ما أوتي من معرفة نادرة لأغوار النفس البشرية، وما تم له من فن، كمؤرخ ومؤلف، اذ لم يعدله، في الاولى، غير المؤرخ اليوناني ثوقيديدس، وان اختلفا وتباينا منهجاً ونتائج. فقد راح ثوقيديدس يحلل الأهداف والآمال والمخاوف التي ساورت الاشخاص الذين تكلم عنهم او أرّخ لهم، كما أخذ بتحليل الحوادث وتعليلها بحيث يدرك القارئ الاوضاع السياسية العارضة، ويبعث فيه التحرز من الناس دون ان يدع احداً يشمر بأنه يقوّمهم. اما تاسيت، فقد رأى في التاريخ وسيلة لموعظة الناس وارشادهم: « فقد حاولت دوماً ان أبحث عن الاشياء والافكار التي تتصف بالتسامي او بالدناءة، وانا وطيد الاعتقاد بأن الغرض من التاريخ الا تُنمط الفضائل والا يُزهد بها، وان يحسب الانسان حساب الاجيال الطالعة، وان يتبين الضرر والاذى الذي ينجم عن الكلام الفارغ والاعمال الشريرة ». من الغلو الزعم هنا ان محاولته هذه أدت به الى التفور من الناس ومجافاتهم، مع انه عرف بينهم حكاء افاضل، وشهد لهم بذلك عالياً وهو ملشرح الصدر، وان كانوا قلة، بحيث ان نفاذ نظراته التحليلية التي لم تكن لتتأني او لتهاذن، اضفت على تشاؤمه، حدة أكبر وعمقاً ابعد. ففي سبّره لنفوس الافراد والجماعات، تقززت نفسه بهول ما وقع عليه بصره او صدم سمعه. فهذه الحقائق المرة من شأنها ان تصدم القارئ اذا لم يتضاعف الكاتب الفنان، بعالم نفساني يُضفي على مشاهداته وعلى المرويات التي سمعها... لغة جميلة، وعبرة كريمة، عصماء، غنية بالشواهد الادبية والشعرية، ولو خفض من حدة ما وقعت عليه عينه، او ما اصطكت له أذناه، في عبارة مقتضبة وجيزة، مفتولة العضل، معجزة المعنى والمبنى. فكل شيء عنده يتضافر ليضفي على عمله الادبي قوة من الاغراء تلقي على القارئ درساً قاسياً يجمع له يتشكك بأمر هذه الانسانية، ما لم يسعفه التفكير فيرجع بالذهن، للزمان والمكان الضيقين، في

النطاق الذي عاش فيه هذا المؤرخ وعمل .

بعد تاسيت ، يمكن لنا ان نضرب صفحاً عن ذكر بعض صغار الشأن من كتّاب هذا العهد ، لنحتفظ من بينهم باسم سويتون لا غير ، الذي عالج نوعاً او فناً آخر من فنون التاريخ ، فوصف بالعالم المتقّصي ، كما اصطلاح البعض على تسميته ، والشرف الذي ناله من ذلك ، لا يقلل منه ان تعرف ان علمه استأثر بالدرجة الاولى بالنكتة اللاذعة ، والتفاصيل السطحية الطفيفة الشأن غالباً ، والملحة التي تثير الغرابة . اشربأب ذهنه بما ركّز فيه من فضول وحب الاطلاع ، الى آفاق ومجالات متنوعة : فتناول اللغة ، والصرف والنحو ، والنظم السياسية وعلم الآثار ، وغير ذلك من ابواب العلم . فقد مال لمعالجة فن السير ، وانقطع لتراجم الرجال ، وأرخ لكثير من رجالات الادب ، ولأباطرة زمانه . وهذه السير التي وصلتنا ، وعددها ١٢ سيرة مختلفة ، تمتد من قيصر الى دومتيانوس . فالوظائف التي شغلها في الديوان الامبراطوري ، في عهد هديانوس ، أتاحت له البحث والتقصي في محفوظات الدولة والمستندات الرسمية والوصول الى وثائق من الدرجة الاولى في أصلاتها . عُرف بالدقة ، واهتم بضبط الوقائع مجردة عارية ، وعرف ان يحجب الهوى والغرض متنبكاً عن المحاباة . والاخذ بالوجوه . وكان بعيداً عن الادعاء الفارغ والغرور ، وتسليح بلغة ناصعة ، واضحة ، بسيطة ، وحرص على ان يعرض الوقائع ، كما هي ، جنباً الى جنب ، دون الاهتمام بسوقها على ترتيب زمني ، غير مبال بالفكرة الرئيسية ، بحيث يرسم لنا صورة ، كيفما كانت . وهكذا يتميز في نظرنا عن تاسيت ويكمله من بعض الوجوه . إلا ان كتابة السير والتراجم ليست من صميم علم التاريخ ، والاخذ بهذا الفن من شأنه ان يضعفه . فقد عرف سويتون ان يفيد شأناً ومنزلة من وضاعة شأن الذين نسجوا على منواله ، وحذوا حذوه ، فراحوا يكتبون ترجمات للأباطرة بعد تراسيانوس ثم جمعت في ما بعد ودخلت بمجموعتها في الكتاب المسمى *Histoire d'Auguste* .

الخاتمة
يجدر بنا ان ننهي هذا البحث عن تاريخ الادب اللاتيني في الحقبة الممتدة من وفاة اوغسطس حتى اواخر القرن الثاني ، بكلمة مقتضبة عن ترتليانوس ، مع ان الفرصة سنحت لحصّه بكلمة وجيزة ، في معرض حديثنا عن المسيحية اذ كان الكاتب الذي تصدى للدفاع عنها والنضال دونها . فهو مدين بما هو عليه من مقدرة خطابية وجدلية ، لروما ولهذه الحقبة التي عايشها ، ومنها استمد حبه للجدل وحرصه على الدقة القانونية واللهجة الخطابية التي تطبع دفاعه ، وهذه الاستدارات البيانية الايقاعية ، وهذه التفخيمات وهذه الاستفهامات . فالشعلة التي تتأجج في صدره لا تمده بسلاح جديد يستعمله ضد خصومه من الوثنيين المشركين ، هذه الاساليب الجدلية التي طالما اتخذ منها اداة وعدة . ومع ذلك فترتليانوس هو كاتب كثير ما هاجم الحضارة القديمة : « فأي شيء مشترك بين اثينا والقدس ، وبين الاكاديمية والكنيسة ؟ » . ومهما يكن من أمر هؤلاء الكتاب الذين ناضلوا في سبيل الدفاع عن المسيحية ، وبالرغم من الطابع الثوري

لعقيدتهم ، فهم خريجو معلمي الخطابة والبيان ، تتلمذوا عليهم وقبسوا منهم . فالمسيحية ستفوز بروما ، إلا انها تحذر من قتلها : فتتورع وتلتد .

ولكن الامر لم يصل الى هذا الحد بعد ، ونحن لسنا الا في اواخر القرن الثاني ، وفيه اصبحت روما عاصمة جميلة بديعة للادب اللاتيني . وعرفت بعد ما تم لها من ازدهار ، في عصر اوغسطس ، ان تحافظ ، بعد عهد الأسر الامبراطورية الثلاث التي تعاقبت على الحكم ، على هذا الاشعاع الثقافي ، وان تنفادى الجذب والقحط الادبي . فقد اطلعت عدداً من كبار الكتاب اغنوا تراث اللغة اللاتينية . فضياع الحرية السياسية نهائياً لم يقعدهم او يشل منهم النشاط ، كما ان اعجابهم بالماضي لم يحل دون اصالته . ومع انه سبق لبعض هؤلاء الكتاب ان نعوا المخطاط الادب في عهدهم ، فعلياً ان محترز جداً من الاخذ بتدمرات المعاصرين حول تدهور الادب ، وهي شكايات لا بد منها بعد عصر اوغسطس الذهبي .

ليس من يتجرأ ، مع ذلك ، فينكر ، بان المخطاط ذر بالفعل قرنه ، ولكن ليس بعد موت اوغسطس رأساً ، بل بعد ذلك بنحو قرن تقريباً ، عند وفاة ترايانوس او عقب ذلك بقليل ، عند موت المؤرخ الروماني الكبير تاسيت . ولكن لا بد من اشارة عابرة توضح وضع الحركة الفكرية بعض الشيء . فالادب اليوناني ، بعكس الادب اللاتيني يسجل نهضة ادبية جديدة بالملاحظة والتقدير . فالادب اللاتينية هي وحدها التي تشكو من اعراض هذا المخطاط ، ولكن على نسبة ما هي رومانية ، اي تمثل مدينة روما العاصمة ، حيث نشأت وترعرعت .

فاذا ما عرفت هذه المدينة ، مدة طويلة ، ان تجتذب اليها حملة الأقلام ، في الولايات الغربية ، على الاقل ، فقد خسرت شيئاً من منزلتها كعاصمة للفكر في الامبراطورية ، ومناطق رحال اهل القلم حيث تختمر الميول الادبية ، وتنضج النوازع الفكرية ، وتبرز الكفاءات لتعود فتنتطق منها . وتشمع في جميع الجهات . فالكاتبان اللاتينيان الجديران بالذكر ، في القرن الثاني : ابوليه وترتليانوس ، ولدا في افريقيا وفيها قضيا معظم سني حياتهما ، ولا سيما في مدينة قرطاج . وما هو اجدر من هذا بالذكر ، هو ان الكاتب الروماني ، الصميم الاصل والمحدث ، اولو - جيل ، نزع عن روما وجاء وسكن على مقربة من مدينة أثينا . وهكذا ما لبثت روما ان اصبحت من الوجهة الادبية ، مدينة من هذه المدن الحواضر ، لا تتميز كثيراً عن غيرها من الوجهة الفكرية .

كذلك حري بنا ان نلاحظ هنا ان هذه اللامركزية التي اتسمت بها الحركة الفكرية ، برزت في مجالات اخرى . فقد اخذت الولايات تنزع الى اشد اواصرها وروابطها الاقتصادية بعضاً ببعض ، دون ان تلوي على روما العاصمة بشيء ، حتى ان اعضاء مجلس الشيوخ انفسهم كانوا يشعرون ، وهم يضطلمون باعباء مسؤولياتهم الادارية ، بشيء من الغصة ، ازدادت مع الوقت ، لفصم علاقاتهم مع الولايات التي ولدوا فيها وترعرعوا في اجوائها . فهل في ربط هذا الشعور بالحركة اللامركزية التي بدت بوادرها ، ما يلقي ضوءاً على الوضع ؟ قد يكون ذلك ، اذ ان الجزم والقطع إثباتاً للرأي ، يقتضي له حل بعض الأمور النظرية ، والتوقيت الزمني لما بين هذه

القضايا من ترابط وتماسك بعضها ببعض، اذ كل هذه الأمور تكشف عن تطور عام انطلق بوضوح منذ مطلع القرن الثاني واخذ يتسع ويتضخم مع الزمن .

٣ - الآداب اليونانية

منذ هذا الانبساط الفكري والتفتح العقلي الذي مر على الشرق ، إثر فتوح الاسكندر ، عرف الشرق الهليني ان يفيد من هذه اللامركزية الادبية التي أخذت بوادرها تدب ، هي الاخرى ، في الغرب اللاتيني . فقد كان لأثينا منزلة رفيعة ، في كل ما يتصل بالادب والفنون الجميلة ، او ما يتعلق بتعليم الخطابة والبلاغة والفلسفة . فقد كانت قبلة انظار يؤمها مع رواد المعرفة وطلبة العلم ، كل من جاشت نفسه بالعظام واشرب الى العلى ، او رغب في ان يستمتع بعشرة هذه المجتمعات التي صقلت منها الازواق وحملت العقول . فقد اتخذ منها داراً ، في النصف الثاني من القرن الاول ، وفي القرن الثاني ، كل من الكتبة والمفكرين ، كالفيلسوف الفيثاغوري ابولونيوس ده تيان ، القبادوقى الاصل والنشأة ، والخطيب المفعوه ديون الملقب بالذهبي الفم ، من مدينة بروس من اعمال مقاطعة بيشينيا ، والمؤرخ اريانوس النيقوميدي ، والهجاء السليط اللساني لوقيانوس السيمساطي . وبين هؤلاء من أصهروا في أثينا ، واستوطنوا فيها ودخلوا الوظائف الادارية وقولوا ادارة الاكاديمية امثال امونيوس المصري الاصل ، كما سكن غيرهم فيها وقالوا حق الرعوية ، ورقثوا الى منصب الاريوباغوس ، امثال فيلوباغوس الكثير البذخ ، وهو حفيد ملك صغير على مقاطعة كوماجين ، جرّده الامبراطور فسبسيانوس من الملك . وهذا الاشعاع الفكري ينطلق من اثينا ، يبرز على أشده في كل من عواصم الشرق الهليني الكبرى : كالاسكندرية وانطاكية ، وأفسس وبرغاموس . زد على ذلك ان الشرق الهليني ، ألفت منطقة ممتازة لفريق من الاساتذة والمحاضرين المتجولين ، ينتقلون من مدينة الى أخرى ، يلقون فيها من الخطب والمحاضرات ويعالجون من الموضوعات ، ما يثير حولهم لفتاً ، قد ينتهي ببعضهم الى شيء من الشهرة والى بروز كفاءات مخبوءة . وهكذا أمكن للأدب اليوناني ان يزدهر ويحظى ببعض الألق في أماكن مختلفة ، وهي حبكة كانت روما وغيرها من حواضر البلاد في الغرب تحفل بها وتشجعها : وهكذا استقطبت روما عدداً من كبار ممثلي الثقافة اليونانية ، في هذا العهد ، امثال : سترابون وذوذوروس الصقلي وديسيوس الهاليكرناسي ، كما ان الامبراطور فسبسيانوس رحّب احسن ترحيب ، بمقدم المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسيفوس الى روما ، وأنعم عليه بالرعية الرومانية بعد ان استسلم ، عام ٦٧ ، للقوات الرومانية التي قمعت ثورة اليهود بقيادة تيطس . وفي روما وُضع يوسيفوس تاريخه المعروف عن الشعب اليهودي ، كما أرتخ لثورة اليهود الكبرى التي أخذها تيطس بالنار والدّم .

هؤلاء الادباء الاربعة الذين ألعنا الى أسمائهم أعلاه ، كان إشعاعهم ضعيفاً بين المخطاط ونهضة بحيث لا يتألك المؤرخ ان يرى الثقافة الهلينية ، خلال هذين القرنين ، تصاب بالعجز والقصور ، اذ لم تعرف ان تسجل بين حجلة الفكر ، اذ ذاك ، من يفضلهم اثرأ ، بعد ان لم

يُحسبوا لقيمتهم الادبية حساباً، في عملية تقويم القيم الفكرية. والصحيح ، انه لا بد من الاعتراف هنا بوضاعة الانتاج الفكري الهليني خلال القسم الاكبر من القرن الاول للمسيح . فالكشف عن الاسباب التي أفضت بالادب الى مثل هذا الوضع الزري ، قضية أخرى ، لا يمكن ردها ، بحال من الأحوال ، لهذا الموقف السياني والاداري المتسم بالحذر وعدم الثقة ، يقفه الاباطرة اذ ذلك ، من الشرقيين ، الذي لا يمكن ان يحير لوحده الى مثل هذه النتائج .

ووضاعة الانتاج الادبي هذه ، اتخذت ذريعة او ازادة يستتر بعض مؤرخي الادب وراءها لينجأهوا او ينكروا هذا الانبعث أو اليقظة الفكرية التي ظهرت بوادرها ، منذ أواخر القرن الاول وشملت القرن الثاني بكامله . فكلمة « إنبعث » ، لا تبدو هنا ، فضفاضة ، يا ترى ؟ ومها يكن ، فهي الكلمة التي اصطلح مؤرخو الادب على استعمالها تعبيراً منهم عن هذه الظاهرة الفكرية ، وان راح البعض الآخر منهم يُورّي عنها بكلمة : ازدهار رجيمي او رجيمي . وسواء كان هذا ام ذلك ، فالامر سيان عندنا . فالنشاط العلمي يبذله بطليموس الاسكندري وجالينوس البرغامي ، يصحبه انتاج ادبي أخذت قيمته تبرز أكثر فأكثر وتوضح . ففي الحين الذي اخذ الهبوط أو الانحطاط يدب بالآداب اللاتينية ، نرى الآداب اليونانية ، تأخذ من جهتها ، بالإشعاع بعض الشيء . وهذه اليقظة دليل قاطع على انتعاش الحياة في عالم اخذ ، في هذا الوقت بالذات ، يد الامبراطورية الرومانية بقناصل من أصل اغريقي ، بانتظار الساعة التي يزودها فيها بأباطرة اغريق او متهلينين ، ويبعث ، الى الغرب ، ما لم تكن سبقت ونشأت فيه من قبل ، بعقائد دينية جديدة . فالتأكيد هنا بان الثقافة الهلينية بقي لها سطو شديد ونفوذ قوى في روما ، خلال الاسرة الانطونية ، لا يفيد شيئاً . فلم تتمتع هذه الثقافة يوماً في روما ، برعاية وكفالة مثل التي نعمت بها في عهد هدرانوس مثلاً ، الذي كان بثقافته يونانياً اكثر منه رومانياً ، وعندما راح الامبراطور مارك اوريل يميز بنات افكاره ويسجلها سواداً على بياض ، قرر كتابتها باللغة اليونانية .

بين رجال الفكر في هذه الحقبة ، لا بد من التنويه عالياً ببلوتارخوس ، بلوتارخوس *Plutarchus* لانه أسبقهم في الزمن ، ولانه لا يمكن ان نفرق بين المفكر وبين الكاتب الذي كانه هذا الاديب الخصب بعد ان تناول في كتاباته شؤوناً عدة من شؤون الفكر . ليس أبسط لعمرى ولا اكثر وحدة ، من هذا المساق الهادي الذي انتظم سلك حياة هذا السيد الاغريقي ، الرخي البال ، الذي رأي النور في مدينة بيوتيا ، في غرة القرن الأول . فبعد دروس عالية ناجحة في اثينا ، واسفار عديدة القى خلالها محاضرات في الفلسفة الأدبية ، نالت استحسان روما ودويماً بين منتدياتها وصالوناتها الادبية ، استقر ، وهو في الاربعين من عمره ، في وطنه الام ، في اليونان ، الغافية تحت السيطرة الرومانية ، يتولى منصباً ادارياً في مسقط رأسه ، ويقوم بوظيفة كهنوتيه في دلفي ، يعيش ايامه في عشرة موصولة بين صحبه ورفاقه ، يتناقشون ويتذاكرون ، يتفرغ للكتابة ، ولهذه الاعمال الموكولة اليه ، مدة اربعين سنة . فساعدت

مناقشاته ومجادلاته مع صحبه وخلانه ، على توضيح افكار هذا الرجل الوداع ؛ وهذا الحليم الذي استنكف عن ان يستخدم ثقافته العريضة الواسعة ، وكفاءاته ككاتب لامع ، لتوفير اسباب الشهرة له ، فأنته صاغرة طائفة ، دونما صخب أو لجج ، على اجنحة من اعجاب الناس وتقديرهم العالي له .

تقسم مؤلفات بلوتارخوس الى مجموعتين ، اطلق مؤرخو الادب على الاول منها نعت : « الآثار الاخلاقية » ضمت ٨٠ بحثاً مختلفاً في موضوعات ادبية شتى ، ساق بعضها احاديث حية ، مرحلة ادارها بينه وبين صحبه وخلانه . ومع ان معظم هذه الابحاث تناولت قضايا فلسفية ، أدبية ، دينية ، ، فلا نرى بينها ، مع ذلك ، ما يمكن اعتباره مذهباً عقائدياً خاصاً به . افلاطوني النظر والمنهج ، فقد تفاعل ، بعض الشيء ، بتعاليم بعض المقاتلات الفلسفية الاخرى ، مما عدا الابيقورية منها . وقد تركت الرواقية فيه بعض اثرها ، مع انه تناولها بالنقد والجرح ، اذ قام بينه وبين هذه الفلسفة ، من الوجهة الدينية ، هوة عميقة الغور ، حالت دون قيام تقارب بينهما . ويمكن لنا وصفه بعبارة وضعها هو على لسان احد جلسائه : « هدف الفلسفة اللاهوت . » ، واستطاع بما وضع من تفسيرات وشروح رمزية المعنى والمدلول ، ان يوفق بين اهتمامه بهذه العقائد الشرقية — اذ له بحث يفيض بالمعلومات الدقيقة حول « ايزيس واوزيريس » — وبين احترامه العميق للطقوس الدينية القديمة في اليونان . وهذه النزعة ينزع بها نحو الوثام ، جعلته بالفعل ، يفيض ، بوصفه مرشداً دينياً ، بنصائح وارشادات تتناوح بين التشديد والتسامح . فقد عرف ، بما تم له من نفس مستقيمة ، صافية الاديم ، ان يجانب الضغط القاسي الذي لا يرحم ، وان يعتصم بلهجة كل ما فيها جديد .

اما مجموعته الثانية ، فلنحذر ، في تقويمها ، الاخذ بالشهرة التي اضفتها على : كتاب الابطال ، الثورة الفرنسية . فقد وضع في كتابه هذا ٢٥ زوجاً من السير المتوازية ، اذ يضع تباعاً حياة رجل دولة يوناني ثم يردفه بحياة روماني . وفي سبيل وضع هذا الكتاب ، لم نره قام لأجله ، بتحريات وتقصيات دقيقة من الدرجة الأولى . فقد راجع ، في هذا السبيل ، كثيراً ، وخير ما وصلت اليه يده في الموضوع ، بحيث ان المؤرخ لا يزال يجد فيها اليوم ، مادة طيبة له . صحيح انه يتمهل في سرده ، بحيث يورد لنا ملحاً مستظرفة صغيرة ، ودقائق وتفصيل يرى فيها ما يفرّد الرجل ويميزه ، من خلال عمله او وظيفته . وهذا المرشد الاخلاقي الذي كانه ابداً ، والذي يتخذ له من التاريخ وحده كتاباً ، ينتصب امامنا ، بلحمه ودمه ، في هذه الملاحظات الشخصية والتعليقات التي يبديها بشيء من الافاضة والاستطراد . فالاستقامة التي اتصف بها تصونه من زيف التاريخ . فهو يرفع ابطاله الى مصاف العظماء ، تقوم قدرته الحقيقية باشاعة الحياة في شخوصه فينبهون بها بصورة دراماتيكية ، بفضل ما اضى عليهم من الوان واقياء ، وانوار وظلال . وبفضله استطاعت اجيال متطاولة ، ان تفهم ، كل على هواها ، التاريخ القديم حسناً تريده . فاذا ما زينت للبعض نفوسهم ان يروا في هذه الابطال او العظام ، الفضائل المثالية التي يهفون اليها ،

او ان ترى سيدة ، كدمام رولان ، في هذه التراجم : « زخراً للنفوس الكبيرة » ، فليس بلوتارخوس بمسؤول عن ذلك .

والطريف والليذ معاً عند بلوتارخوس ، هو انك لا ترى عنده أي أثر خطابة ، تاريخ ، فلسفة
للاسلوب الخطابي إلا ما وضع منها في شرح الشباب ، هذا الاسلوب الذي راج أيما رواج ، هنا في هذا العالم اليوناني ، وهناك ، في العالم اللاتيني ، مع ما رافق ذلك من جدل ونقاش بين مختلف التيارات الادبية ومذاهبها ، وان كانت النزعة الاتيكية هي الغلبة ، اذ لم تحل تمسك انصار هذه النزعة بالشكليات اللسانية واللفظية ، من تذوقهم الاسلوب البياني الخطابي . بعض هؤلاء الخطباء تبلغ منهم البلاغة ، شهرة واسعة ، فتطير اسماء اصحابها بعيداً ، بينهم مثلاً : ديون ، الذهبي الفم ، الذي ابعده دومتيانوس عن روما ، ثم اعتنق مقالة الرواقين فراح يدعو لها متنقلاً بين مدينة واخرى ، وايلوس ارستيدس الذي يُعدّ من هؤلاء الكتاب الاسيويين الذين طارت شهرتهم في عهد الأسرة الانطونية ، والذي راح في خطابه : « الى روما » يشيد عالياً بما في هذه المدينة الخالدة ؛ وهيرودس أتيكوس ، صديق الامبراطور هدريانوس ، ومعلم مارك اوريل ، من نصراء العلم الاغنياء الذي همّه ان يزّين اثينا وغيرها من المدن اليونانية بأبدع الحلي ، ويبني عدداً من المعابد والهياكل . ونراهم ، في القرن الثاني ، يفاخرون مباهين بتسمية أنفسهم : « سفسطائيين » وهي تسمية تكالب افلاطون على تحطيمها وانها كها . فاذا ما تمت لهم جميعاً هذه المقدرة الخطابية التي عرفها السفسطائيون اثناء حرب البلوونيز ، وعرفوا ان يثيروا ، على شاكلتهم وأكثر ، الفضول والحماسة ، أينما حاضروا او خطبوا ، نسبة لما كان عليه اهل العصر من تذوق البيان الرفيع والثقافة العامة ، فلم يكن في مقدور أي واحد بينهم ، باستثناء جورجياس وزملائه ، ان يطلع ، على اهل زمانه ، بأثر خليق بالذکر ، بالفريق الآخر الذي لُقّب نفسه بـ « السفسطائية الثانية » ، او ان يتحدثوا ثورة روحية .

اما التاريخ ، فلم تكن قسمته ضئلي ، اذ اطلع لنا اريانوس Arrien من مدينة نيقوميديا في بثلنيا .

فنصل قبادوقيا وحاكمها في عهد هدريانوس ، جاء أريانوس ، اثينا ، بعد انتهاء مهمته ، واتخذ منها دار سكنى له ، وانصرف فيها يكتب ويؤلف ، ويضع بضعة اجاث في موضوعات شتى . وأهم آثاره على الاطلاق : « تاريخ الاسكندر » الذي لم يكفه ان حدا فيه حذو كسينيفون في بساطة الاسلوب والعبارة ، بل راح يسميه كما سمي كسينيفون نفسه كتابه : « اناباز Anabase او « الرحلة » . ومن فضله البارز انه عرف ان يفيد كثيراً من هذه المصادر الاصلية التي رجع اليها — ومعظمها مفقود اليوم — المتعلقة بفتوحات المقدوني الكبير ، هذه المصادر التي أهملها كوانت — كورس . والمؤرخان المعاصران له : بوزنياس البريحييت ، وأبيانوس الاسكندراني اللذان لم يبرهنّا قط عن روح نقدية في ما وضعاه من كتب : الاول في الوصف الجغرافي لليونان ، والثاني

في تاريخ حروب روما : مع السمينيين والاسبانيين وقرطاجة . وبعدهما بقليل ، يطل علينا ديون كسيوس ، حفيد ديون الذهبي الفم ، الذي بعد ان نال القنصلية مرتين في عهد اسرة ساويرس ، وضع لنا كتابه : « تاريخ الرومان » الذي يمور بالاسلوب الخطابي ، مع انه جمع كثيراً من المصادر الاصلية . ومع هذا ، وبالرغم من التحفظات التي لا بد من ابدائها بحق الآثار التي خلفها لنا هؤلاء المؤرخون اليونان ، تجدر الملاحظة هنا ان الكتب التي وضعوها في تاريخ روما ، تفضل بكثير ، هذه التواريخ التي وضعها لها ، معاصرون لهم من مؤرخي اللاتين ، في هذه الحقبة .

فالافكار الفلسفية المنتشرة في جميع أرجاء الامبراطورية الرومانية ، هي هيلينية الاصل والمنشأ ، وبقي العالم الروماني يحتل المرتبة الاولى في تعهده لهذه الفلسفات الدينية . ويكفي ان يُحيل القارئ هنا ، على ما ورد بهذا الشأن في البحث المعقود حول الوثنية واليهودية ، لنذكر لماذا لم تلق الرواقية ، وهي أكثر التعاليم الفلسفية نفوذاً وشيوعاً ، من كشف عنها ، في بعض مؤلفات خاصة مهمة للغاية . فقد حفظ اريانوس في كتابه : « خواطر » *Entretiens* ، وفي كتابه الآخر : « الدليل » *Manuel* ، اللذين لا يخلوان من مقاطع لها سحرها وفتنتها ، اثبتنا بوضوح ، هنا وهناك من مظان الكتاب ، حول تعاليم هذا الرقيق القديم ابيكتيتس . وقد وضع مارك اوريل في « الافكار » وهو المعروف بالنشائه المتقطع المتفاوت — كأن به مجرد رؤوس اقلام وضعت على عجل — وهي مفكرة يومية لأحد الاباطرة . فالتعليم واحد هو : الخضوع الاداري للعناية الإلهية ، التي بدلاً من ان تقضي على نشاط الانسان ، تحرّكه وتوجبه . إلا ان الامبراطور ، في ما تم له من مجد وعظمة ، يلاقي من المشقات والعناء في تطبيقه هذه التعاليم ، ما لم يفرض هذا الرقيق تنفيذه ، من قبل . وهذا لا يعني ان مارك اوريل كانت تموزه القوة ، انما يبدو عليه انه أكثر تصنعاً ، واقل قسوة ، كما انه اقل وثوقاً بنفسه . وبدون أية شفقة على نفسه ، وببصيرة شحذتها ارادة قوية ، وُضِعَ التكامل النفسي نصب أعينه ، نراه يدون شكوكه ومجاذلة النفس وكبح ميوله ، ومقاومته للضعف البشري ، ووقوفه في وجه المؤثرات الخارجية التي تجرّب اخراجه عن سعادة الحق والرشد . فما من أدب من آداب العالم ، وما من أثر فكري بلغ مسامعنا ، يشهد بأعلى واحسن ، على هذا الاخلاص الصافي في غناسة النفس ، عند شخص خليق بالاحترام والحب ، وجدير بأن يشفق عليه لأنه وضع نصب عينيه ، طوعاً واختياراً ، راضياً مرضياً ، بلوغ مثل هذه العظمة .

لا بد من ان نختم بحثنا هذا بكلمة حول لوقيانوس الذي يحتل مرتبة خاصة . لوقيانوس *Lucien* فبين مؤلفي الحقبة الموافقة لعهد الاسرة الانطونية هو أكثر هؤلاء الكتاب فردية ، ولذا يخرج على كل تصنيف وعلى اية صيغة ترابط . فبقدر ما يمكن ان نعتبر رسائل المهجو *Pamphlet* فناً من فنون الادب ، فهو خير من يمثل هذا الفن ، وخير من اتخذ منه أداة لجلد الآخرين ولنقد الناقدين انفسهم .

سوري الاصل والمحدث من مدينة سيمساط ، في مقاطعة كوماجين ، فقد تأغرق ثقافة وعقيدة ،

فبعد ان بلغت شهرته الخطابية أرجاء غاليا ، نراه يقاطع السفسة ليقم طويلا ، في اثينا ، قبل ان يعين لوظيفة ادارية في مصر . فالادب اليوناني مدين له بعدة آثار كتابية ، بعضها رصين ، رزين ، وهي ليست قط بأجودها ولا بأفضلها ، والبعض الآخر ، ادب سليط ، هازى ، ساخر ، متهم ، بشكل محاورات ، له منها مجموعة تعرف بـ « محاورات الاموات » . سدد سهام نقده للماذب الفلسفية اجمع من خلال نقده للفلسفة ، فلا تقلت من لسانه شيعة او ملة او مذهب ، أو مقالة ، حتى الفلسفة الابيقورية والفلسفة الرواقية او الكلبية . فاذا لم يُثر كل مذهب في نفسه الامتعاض والقرف ، فقد يسبب ما يقرب من ذلك إذ ان العقل الفلسفي والروح الدينية هما ، في نظره ، اعدى اعداء المثالية الهلينية على الاطلاق بما يضيفان عليها من رمزية غائمة ، هذه المثالية التي كانت تتمثل بهذا المنطق الجلي ، الواضح المعالم ، الذي كان في نظره ، ابرز خصائص الحضارة الاثينائية ، ومن اظهر سماتها المفردة . الا انه على شيء من قصر النظر ، اذ فاتته ، على ما يظهر ، ملاحظة قوة التجريد التي جاءت تكمل عند أمثل رجال الفكر الاغريق ، في القرن الخامس ق . م ، فلسفة العقليين الجافة . فلم تضعه التربية التي تلقاها ، وجهاً لوجه امام مشكلات العلم وقضاياها . نراه يصول ويحول عندما يخطر له ان يسلط سياطه ، على هواة الخطب الهوائية الجوفاء ، والاساطير الرمزية ، وهؤلاء المدجلين ، المدلسين الذي يهيمنون على معرفة اسرار الغيب وفوائحه المطبقة ، واتباع مذهب زينون وتعاليمه . الكالحة الجافية ، واتباع الفلسفة الافلاطونية ، المتظاهرين بالعظمة . فخياله الحصب الولود يستنبط دوماً اوضاعاً تبعث على الضحك وتثير المجون ، يسري بها على القارىء ، لا يتهب من التعريض بالآلهة ويسلقها بالسنة حداد ، كل ذلك بلغة عامرة ، بليغة ، وعبارة رشيقة ، وتعبير دقيق ، واسلوب يمور بالحياة والحركة ، والتهمك . ففي عصر من سماته الفارقة التشبه بأساليب الاقدمين ، فهل ألتبق من لوقين لتمثيل اصحاب التيار « الاتيكي » ؟

للقيانوس مقلدون كثر ، حذوا حذوه ، فلا عجب . ان يشك ، والحالة هذه البعض ، في بعض الآثار الفكرية المنسوبة له . وعلى كل حال ، فهذا الكاتب اللامع الذي اسلوبه يلسع وينفذ الى الصميم ، لا يمكن إلا وان يترك له في الارض تلاميذ يلسجون على منواله . فلم يكن ليعالان المستقبل بكفاحه المرير ضد التيارات الجارفة التي كانت تجر معها الحاضر . فاللشاط الادبي والفكري في العالم الاغريقي ، بقي على سيره المطرد الذي حاول لوقيانوس ان يزحزحه عنه ويخرجه منه . والحق يقال ، فهذا الكاتب السوري الاصل ، الذي استهواه سناء تاريخ اثينا في قرونها الكلاسيكية العظمى ، والذي راح يكافح ، وينافح ضد النزعات والتيارات التي انبثقت من هذا التآلف بين اليونان والشرق ، فادى الى مثل هذا الازدهار ، يُعد ظهوره أكثر من مفارقة ، فقد جاء في غير اوانه وزمانه .

٤ - الانجازات الهندسية والزخرفية

اذا ما اردنا ان نقف عند المدلول الحرفي لهذين المصطلحين ، كان لزاما علينا ان نأبى الاعتراف

بأي فضل لهذين القرنين ونرفض التسليم بأي يد لهما على الانشاءات والانجازات الفنية . فما من انشاءات فنية جديدة فيها ، وان حدث وتم شيء من ذلك ، فأمر نادر جداً ، والنادر لا يقاس عليه . فليس من الغلو بشيء ، والحالة هذه ، ان نرى في هذه الانجازات ، أية قيمة فنية جدية بالذكر . غير ان من واجب تاريخ الحضارات ان ينظر اليها من ناحية اخرى . فالعمل البنائي الذي أنجز وتم ، باعتباره واقعاً تاريخياً حدث في الزمان والمكان ، هو تعبير للنشاط 'مجتمع' تحيز في دور معين من أدوار التاريخ الروماني ، وهو عمل ضخم ، لم يفقد شيئاً من قيمته بزوال الامبراطورية الرومانية . فاذا كانت هذه الخلفات ليست اليوم بالوحيدة ، كما بدت عليه في عصر النهضة والانبعث لتعطينا فكرة صادقة عما كان عليه وضع الفن في التاريخ القديم ، فبإمكان هذه الآثار الباقية معروضة في المتاحف او منتصبة تنطق وتحدث ، في هذه المشاهد التاريخية القديمة ، يستطيع المعاصرون اليوم بواسطتها ان يتصلوا بهذا التاريخ . ولذا تبقى لها ، على الأقل ميزة واحدة الا وهي تزويدنا بفكرة عن عالم تم لهن اسباب الغنى والثروة ، وجاش بمثل هذه الاماني العراض ، لا يمكن ان يشيد له الحضارة التي راودت خياله ، بدون ان يبذل مجهوداً فنياً ما .

والحق يقال ، لم يبدُ على الفن ، في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ما يدل قضية الأصالة على انه حاول التجديد في كل ما يتصل بالبحث والكشف . فجل ما طمع فيه وطمع اليه ، هو ان يواصل وان ينشر على الملأ ، المجهود الذي بذله الفن الهليني الذي عرف ان يحافظ على نشاطه ، وعلى قدرته على الانتاج . فكانت هذه الآثار التي ينتجها تنج مع الفنانين أنفسهم صوب روما ، التي لم تكن في ما مضى معارضة لمثل هذا التيار . ومها يكن ، فقد كان للاغريق من المرونة ، والطواعية والقدرة ، ما استطاعوا معه ، تكييف أنفسهم وفقاً لمتطلبات الذوق الروماني ، وتطويع ما يقتبسونه من عادات القوم وأعرافهم ، لينالوا حظوة لديهم وليزدادوا منهم تقرباً وثقة . قليلون جداً هؤلاء الفنانون الذي بلغتنا أسماؤهم ، ممن عاشوا وانتجوا في هذه الحقبة ، حتى من كان منهم في روما وعمل فيها . معظمهم اغريق بالطبع ، عني بعضهم بالحفر والنقش ، امثال ستيبانوس ، ومينلاوس ، والمهندس ابولودوروس الدمشقي الذي كانت موضوع ثقاة الامبراطور تراجانوس . وليس بغريب قط ان يُخلِّقوا لهم ، في الغرب ، تلامذة ومساعدين ، بحيث تثبت سبب هذا الانتاج الوافر الذي ظهر ، اذ ذاك . وقد نشأوا ، على شاكلتهم ومثالهم ، وفقاً للقضايا والمشاكل التي استبدت بتفكيرهم . فما من شيء هام ظهر في الغرب ، اذ ذاك ، كان يعمل وحده في الميدان مستقلاً إلا وتنتقل عدواه الى الشرق . فليس من الغلو بشيء ان ننظر الى الفن في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ، في ما تم من مظهره العام ، اذ ذاك ، كحقبه من حقب الفن الهليني ، بلغ فيها هذا الفن ، جميع اطراف العالم الروماني .

من المعلوم ان كل تحديد هنا يبقى تحديداً مقتضياً ، مبسطاً ، فهو يحتاج الى بعض الايضاحات التي يتباين الاختصاصيون حولها ، رأياً وقولاً ، وبمعنف احياناً ، من حيث تحديدها وتقييمها .

هنالك فريق كبير بينهم ، يؤكد باصرار ، أصالة الفن الروماني ، في هذا العهد ، بينما يحاول فريق آخر ان يميز ، بنوع خاص ، الفنون التي تجلت في الولايات . كل هذا يتطلب اجرائاً وتحريات دقيقة ، مكنت لها النجاحات التي حققها علم الآثار ، إلا ان بحثنا هذا لا يتسع لها ، بكل اسف . علينا ان نقصر هنا ، فيما يتعلق بفن النقش والهندسة المعمارية ، على أهم العناصر التي تقتضيها كلمة تكميلية عامة للتعريف ، تبقى مع ذلك عرضة للنقاش ، اذ رأينا ان لا مندوحة من التقدم بوحدة منها .

فن النحت والمذهب الواقعي
تحرّز الرومان انفسهم من كل اعتداد او مباهاة لم يستحقوها . فقد كتب فرجيل بهذا الصدد في ملحمة الانياذة الخالدة قائلاً : «لننحت سوانا ، بمهارة أكبر ، كما اعتقد مخلصاً ، تماثيل من البرونز تستنشق الهواء ، وليحفروا لنا في المرمر وجوهاً تطفح بالحياة ، بينما يحتفظ الرومان بفن حكم الشعوب وادارتها » . ولكن هذا التواضع الذي يخفني وراء هذا الاقرار العلني ، لا يصح إلا في المجال الفني الاستثنائي او عندما يُطبّق على جلوسية هؤلاء الفنانين ، اذ ليس من ينكر ان النحاتين اليونان الذين كانوا يعملون في خدمة الرومان ، اضطروا ان يكتفوا بجائهم وفقاً لمقتضيات الفن الاغريقي ، التي وان لم يكونوا يحلوها - وهل كان الفنان الاغريقي يميز لنفسه ان يجعلها بعد ان أوتي مثل هذه الروح الطليعة التي لا تتي ولا تمل - أهملوا مع ذلك ان يقيّدوا بها ، او اسقطوا العمل بها بالكلية .

وقد استعان الفنان الاغريقي في انتاجه هذه الآثار الفنية التي ظهرت في عهد اوغسطس ، بهذا الوقار الديني وهذه الأنفة القومية ، وقد يكون حدث ذلك بعد ان كانت ضعفت لديه هذه المشاعر ، في بعض الاحيان ، وخلال بعض المهود . فهي تظهر في اوقات اخرى ، في هذه النقوش النافرة التي طلعت علينا في عهدي ترايانوس ومارك أوريل لدى ترؤسهم احتفالات دينية رسمية . فقد كانت جزءاً لا تتجزأ من فلسفة الحكم ، لازمته وفرضت نفسها عليه ، عندما كان يشترط ان تأتي وفقاً لمشاعر المواطنين واحساساتهم وتقديراتهم . ولكن لات ساعة الانجازات الفنية العظيمة التي تمت في عهد اوغسطس . فتماثيل الاباطرة وهم مرتدون التوجة (La Toge) او الدروع المعلمة ، وهذه المواضيع التي ترسم لنا تقوى الاباطرة وكرمهم ، كلها غامت في التقاليد والاعراف التي استبدت ، وفقدت من جبراء تمتعها المفرط بالحرية ، ما لها من قوة التعبير والمدلول ، التي كانت تشع منها .

فالزعة الواقعية استمرت مدة اطول وظهرت في اكثر من شكل وصورة اولها على الاطلاق تحيز قسبات صورة الشخص . فهذا العدد العديد من التماثيل والتماثيل النصفية ، وهذه الانصاب الجنائزية ، كلها تم وضعها ، اذ ذاك ، وقد افرغت معظم رسوم الرجال والنساء في وقفة تظهر منهم الملابس وملامح الوجوه ، حتى في عريها ، اذا ما اقتضى الامر ، وفقاً للنماذج التقليدية

وجدوا منها الشيء الكثير بين هذه القوالب التي تم صنعها على يد الفنانين الاغريق، وزادت عليها روما الكثير ، بفضل المثالية التي طلع بها صديق الامراطور هدر يانوس المهندس انطينوس . غير ان اشتداد الطلب على هذه الآثار ، اضطر رجل الصنعة ، بنسبة اكبر مما عرف عنه في مصر الفرعونية وفي الحضارة اليونانية ، على صنع تماثيل شبه جاهزة ، يضيفون اليها ، عند الطلب او التقدم بشرائها ، رأساً يُصنع على عجل ، يمكن استبداله احياناً ، حتى ولو كان التمثال لاستخدام الاباطرة انفسهم . الا انه في بعض الحالات ، كان النحات يتفانى في نحت قسمات الوجه بدقة معجزة ، فيرسم اسارير الوجه ، وما ارتسم عليه من سمات وعلامات فارقة او شوه طبيعي ، وغضون الجبين او بثرة ظاهرة ، او خال ، مع موقع الشعر ومفرقه على الرأس . من النادر جداً ان تتجاوز هذه الروح الواقعية الفرد او الحادث ، فيحاول النحات ابرازها بصورة تعبيرية تبرز مكنونات النفس البشرية ، وبعض الانطباعات والاحاسيس الداخلية ، وكلها امور لم تتم الا في هذه التحف والروائع الفنية المشهورة التي قلما جاد العهد بمثلها . وهذه الدقة المعجزة ، أتاح لنا اليوم ، ان ننعم برسوم فنية تعبيرية ، واحياناً ، عند تغيير الازياء النسائية (الموضة) ، ببعض مواقف نابية للزينة النسائية ، فيتوفر للمؤرخ بذلك ، قواعد للتأريخ وتحديد الأزمنة بصورة ادق . وهكذا لا بد لفن نحت التماثيل الرومانية ، من ان يثير اهتمام المؤرخ ، مع انه كثيراً ما يجعل هوي الفن الروماني جامداً لا يتحرك .

وعلى هذا قس عدداً من الرسوم الناتئة التي تمثل حوادث تاريخية بلغ من دقة نحتها وشدة مطابقتها للواقع ان كونت مستندات ثمينة للغاية ، لا يتوفر مثلاً في النصوص الادبية التي وصلتنا ، او تبقى هذه النصوص حياها مقتضبة موجزة . بالامكان الاتيان بأمثلة عديدة . من ذلك مثلاً ، قوس النصر الخاص بالامبراطور ترايانوس ، والمسيرة المظفرة مع الاسلاب المأخوذة من القدس . وفي صورة ناتئة تقوم على فوروم ترايانوس ، في روما ، او على احد الاعمدة التي يقوم عليها قوس النصر الخاص بترايانوس ، في مدينة بنيفانت حيث تبرز مؤسسة الاطعمة *Alimenta* . لا بد من ان نذكر هنا ، بنوع خاص ، الرسوم الناتئة ، على اكليل اعمدة المرمم المعروفة بأعمدة ترايانوس ومارك اوريل ، اما الصور التي تمثل المعارك التي تقع في وقت واحد مع غيرها من الحوادث ، فشيء معروف في الفن الهليني ، كما يظهر على افريز جداري . وصورة البرقع المتدلى بشكل حلزوني ، شيء جديد على الفن في روما ، وان كانت له جذور في مشاهد سابقة ، في الشرق ، وفكرة التعبير عن متابعة السير مع مرور الزمن ، مع مشاهد متنوعة من مفاوضات ، ومعارك وحصار مدن ، ومذابح ، وصور استسلام ، كلها صور ترسم سلسلة من الحملات العسكرية تشير هنا ، الى حروب ترايانوس ضد قبائل الداس - وهي ١٢٤ مشهداً يشترك فيها ٢٥٠٠ شخص منحوتة صورهم على حائط طوله ٢٠٠ متر - كما يشير هنالك ، الى حروب مارك اوريل على الدانوب . وقد ابى الضمير المسيحي عند الفنانين ان يتأثر بعدم استطاعة المشاهد ، التقاط هذه المناظر ، بالدقة المطلوبة ، اذ يوجد بعضها على ارتفاع ٣٠ متراً . فابنا وقع نظر الانسان ، طالعت هذه الدقة تبرز على أتمها في مشاهدة الملابس والاسلحة ، وكلها متشابهة ،

والمباني وإنشاءات المهندسين الرومان تبرز بدقة كلية وكأن بهذه الرسوم الناتئة على هذه الاعمدة مطروفاً (ألبوم) من الصور الحية ، لا بد للمؤرخ من الرجوع اليها ، ليس فقط للتمييز بين البرابرة والجيش الروماني ، بل ايضاً ليستحضر في ذهنه سلسلة من الحوادث تبقى حيالها المصادر التي عول عليها ، شبه صامتة ، لا تثبت ببنت شفة .

وليس بغريب قط ان يسير الفن الخاص على منوال الفن الرسمي ، اذ كثيراً ما نجد الرسوم الناتئة على القبور والمدافن ، تمثل حوادث ومشاهد حياتية تمت للمتوفى او للبيئة التي عاش فيها بصلة وثيقة . من ذلك مثلاً ، المشاهد المأخوذة من المقاطعات الغالية حيث لم يستنكفوا قط ، كما سبق وأشرنا الى ذلك من قبل ، من تمثيل مزاولة المهنة بشيء من الفخر والمباهاة ، اذ اخذ الفنانون يعنون عناية خاصة ، بالحوادث اليومية وحاولوا ابرازها على شكل يبدو عليهم تقصيرهم الفني ، ومع ذلك فمنظرها يبعث الارتياح . وهكذا نرى المجموعات العامة للرسوم الناتئة ، في غالبا الرومانية وجرمانيا الرومانية ، تؤلف مصادر ثمينة جداً لمن ينبغي من المؤرخين درس المجتمعات البشرية في هذه الحقبة وما كانت عليه اخلاق القوم ، اذ ذاك ، ووسائل النقل التجاري وأدواته المستعملة ، والاساليب التقنية والعمل المهني . ولكي يعثر المرء على شيء شبه بهذا في الفن اليوناني ، عليه الرجوع الى الرسوم الموجودة على بعض الآنية التي يعود صنعها لقرون الفن الكلاسيكية ، مع الفارق الناجم عن ان الفنان اليوناني لم يكن ليستوحى عمله من الوضع الحياتي للزبون الذي يوصي بصنع التمثال بل يستلهم فنه ، من ماجريات الحياة الخارجية . كذلك ، كثيراً ما استمد الفنانون موضوعهم من العمل في الارض وهو شيء لم يخطر يوماً على النحاتين الغالو - الرومانيين الذين لم يتقدم يوماً اليهم احد من سكان الريف الاثرياء بطلب من هذا النوع .

فن النقش عند الرومان هو دوماً مجرد نسخ او تقليد أعمى للنقش عند الاغريق . فالآثار التي استعرضناها وأتينا على ذكرها هنا تؤلف جزءاً صغيراً من هذا الانتاج الفني الذي تم اذ ذاك . على كل هي المجازات فنية تميّزت ، يبدو منها ان روما عرفت ، في بعض الحالات والمهود ، ان تضيف لونا جديداً الى هذا الفن الذي برهن الاغريق في مزاولتهم على له انهم اربابه وأسأذته .

الهندسة المعمارية : مناج وناذج
من حق المرء ان يتوقع من الهندسة المعمارية أصالة أكبر مما وجد عند الرومان ، في النحت والنقش . فالاصالة هنا ، بالفعل هي أعمق وابرز . فكما ان المذهب الواقعي هو من التقاليد الرومانية المتوارثة في فن النحت الذي أفسح العهد الامبراطوري له المجال للتجلي والبروز ، في المناسبات الكثيرة ، فالانجازات الهندسية الرومانية ظهر الكثير منها قبل العهد الاخير للامبراطورية بكثير . كل ما قام في الامبراطورية او أطل عليها كان يدعوها للتجديد والابداع : هذه التقنية التي توفرت للمهندس ، وضخامة الموارد والامكانات المتنوعة التي وجدها تحت تصرفه او متناوله ، وهذه الجدة والاهمية التي طبعت الطلبات والتوصيات تصدر عن عالم اخذ ينظّم ذاته على نطاق لم يألّفه من قبل لا سيما

وأحد نصفيه خال من كل شيء تقريباً ، مع الملاحظة ان التجديدات الاولى ظهرت في العهد الجمهوري . فالامبراطورية لم تستنبط نماذج جديدة للباني ، فاتجه خيال المهندس بالاحرى للتفاصيل وعني بالمقاييس بالنسبة لما كانت عليه في القديم .

ولما كانت الضرورة تقضي عليهم بأن يبنوا بسرعة . فقد اضطروا ان يهملوا استعمال الحجر المقصوب الذي طالما عول الاغريق على استعماله ، بالرغم مما يقتضي اعداده من وقت ، وراحوا يستعملون بديلاً عنه حجارة غير مقصوبة تختلف شكلاً وحجماً ، كما انهم استعملوا احياناً ، الطوب ، يُعشقونها بعضاً ببعض بللاط يصنعونه من الشيد وكسارة الحجارة ، نال شهرة واسعة ، مع ان هذه الطريقة افقدت فن العمارة شيئاً من الجمال الاستثنائي ، جربوا ان يعوضوا عنها بالزخرفة من الداخل . وهذه الطريقة اتاحت لهم استعمال القنطرة والقوس والقبعة ، وكلها عناصر كادت الهندسة المعمارية عند الاغريق تهملها تماماً مع انها اقتبستها من الشرق . وعلى هذه الطريقة تحولت قضية السطح ، وهي طريقة عرفوها في العهد الجمهوري ، إلا انهم طبقوها على نطاق اوسع فيما بعد . وخير مثال على ذلك هو مبنى البانتيون ، احفظ مباني روما القديمة ، جدد بناء هدريانوس ، وهو اليوم احدى كنائس روما ، ورفعوا على مبنى اسطوانتي الشكل قطره ٤٣ متراً ونصف المتر ، قبة على ارتفاع ٤٣ متراً ونصف المتر ، هي الاخرى عن سطح الارض ، تركوا فيها فتحة قطرها ٩ امتار ، ينفذ منها النور الى كل المبنى . ولا بد من الملاحظة هنا ان سماكة الجدار بلغت ٦ امتار وذلك لتحمل ثقل القبة وشدة ضغطها . وهكذا راح وقع تأثير القبة من الداخل يعوض عن غلاظة المبنى من الخارج . وهذه الجراة في تشييد سقف هذا المبنى لم تتكرر بعد ذلك ابداً .

والبانتيون هيكل مستدير الشكل ، اذ انه لا يؤلف ، من حيث تصميمه الهندسي ، شيئاً جديداً ، لا في العالم اليوناني ، ولا في روما . هنالك ابنية كثيرة قامت في كلا المدينتين لم يُدخِل عليها الرومان سوى تعديلات طفيفة . فالطراز الهندسي المتعارف عند الاثروسك ليكسل كلاسيكي ، هو الشكل الدائري ، وليس كما كان عليه عند الاغريق ، قائماً على ثلاثة سطوح ، وكذلك الأمر مع المسرح ، اذ جعلوا القسم الخاص منه بالاوركسترا على نصف دائرة ، بعد ان انقضى تماماً وزال ، العهد الذي كانت فيه الجوقة (الكورس) يتغير مكانها وفقاً لمتطلبات الفن ، وينتهي بحداد عالٍ قد يبلغ ارتفاعه احياناً ١٥ متراً ، تُنشأ امامه شرفة ومشكاة من شكل خاص ، وركيزة مستطيلة ، وصف من الاعمدة على شاكلة ما يقوم امام القصور .

فقد قام الى جانب هذه الاشياء ، إنشاءات رومانية بحثة : هي المدرج *Amphithéâtre* وهي كلمة مشتقة من كلمة مقعد باليونانية ومن الزائدة *Amphi* التي تعني : حول ، وهذه المقاعد تقوم حول حلبة أو ساحة ميدان ، إهليلجي الشكل ، حيث كانت تجري معارك المصارعة . اما البعض من اصحاب الاختصاص ، فقد يرى في هندسة مثل هذا المبنى تصميماً اثروسكي المنشأ ، جرى اقتباسه من الشرق أو اليونان ، وهو رأي لا يزال العلماء يختلفون حوله

ويتناقشون ، إلا ان الرومان أدخلوا عليه من التعديلات الأساسية بحيث يصح معها اعتباره من مستنبطاتهم الخاصة . وهذا الطراز المعماري ، برز في هندسة السرك ، اذ لا يختلف تصميمه الهندسي لدى الرومان عنه عند اليونان ؛ وجعلوه كله من البناء ، بدلاً من استخدام سفح جبل أو منحدر هضبة . كذلك برز في تصميم البازيليك *Basilique* المستوحاة هندسته من هندسة الأروقة الملكية الهلينية ، التي أصبحت على مر الزمن صالة كبيرة مستطيلة ، تنقسم من الداخل ، طولانياً الى ثلاثة صفوف ، بواسطة صفين من الأعمدة ، وفيها كان يجلس قضاة العدل للنظر في القضايا المعروضة للنظر . وقد برز ذلك أيضاً في وضع الحمامات التي لم تلبث ان اتخذت ، فيما بعد ، مساحات كبيرة (راجع الشكل ٢٥) فضمت من الداخل العديد من الغرف والحجر وفقاً للفرض : هذه للحمام البارد ، وتلك للحمام الفاتر ، وثالثة للحمام الحار أو الساخن ، ورابعة لحمام البخار *Sudatorium* ، مع ابهاء وساحات للالعاب الرياضية ، وما الى ذلك من غرف اضافية للمكتبة ، واروقة للرسوم والصور . وبرز هذا التصميم كذلك في قوس النصر يتكون عادة من ثغرة او فتحة تعلوها قنطرة ، تفتح في سور المدينة ، ثم اصبح شكلاً من اشكال الزينة ، او تذكراً يعيد الى الازمان عهد اسرة ملكية أو عهد سلطان ، كما برز في هذه المدافن والاضرحة التي اتخذت في روما اكثر منها في اليونان ، شكل بناء شامخ ، او هرم من الأهرام ، اسطواني الشكل ، أو مكعبه ، مع حجرات واسعة من الداخل تحمل جدرانها كوى لوضع جثث الموتى . وهذا التصميم يبرز في وضع المنازل الخاصة التي سنخصصها بكلمة على حدة ، بعد قليل . ولا بد من الملاحظة هنا ان انماط هذه المباني في اشكالها المختلفة ، جرى استنباطها او الحققت بها تعديلات كثيرة ، في اواخر العهد الجمهوري ، او في مطلع عهد اوغسطس . فالهندسة المعمارية في الطور المتأخر من تاريخ الامبراطورية ، لم تطلع باي تجديد ولا استنبطت شيئاً في هذا المضمار .

السيطرة المعجبة على الطبيعة
من اهداف هذه السيطرة على الطبيعة والتحكم بها ، التأثير على أخيلة الناس وادهانهم ، في مجتمع ترفل الطبقات العليا فيه بالمال الوفير والغنى الجزيل . فالتحسينات التي ادخلتها الوسائل التقنية ، وفاعلية الادوات والعدة المستخدمة مكنت بالفعل من تحقيق انجازات جبارة . فالتمثال الضخم الذي تجاوز علوه ٣٠ متراً ومثل الامبراطور نيرون مرقدياً شعار الإله الشمس ، ارتفع على مقربة من « البيت المذهب » عرف عندهم باسم *Colosseum* اي التمثال الضخم ، وهي كلمة تحولت الى كلمة كوليزه وبها تعرف اليوم ، اذ لا تزال تطلق على المدرج الذي شيده اباطرة الاسرة الفلافية . وكان هذا المدرج من الضخامة بحيث كان يتسع لـ ٣٠٠٠٠ مشاهد جلوساً ، بينما ذكرت المصادر القديمة انه كان يتسع لـ ٨٠٠٠٠ مقعداً طول دائرته ٥٢٧ متراً وعلو جدرانه ٥٧ متراً ، وفي هذه المقاييس ما يضيف عليه هذه الضخامة دون رده . بتمثال نيرون القائم على مقربة منه . والهرم الذي تكوّن من مدفن المقدم تشستيس الذي توفي سنة ١٢ ق . م ، ارتفع ٣٧ متراً . اما ضريح اوغسطس الذي

تركزت عليه صروف الدهر وتقلباته أثرها الظاهر، فيُعرف اليوم بقصر سانت أنج، وهو يتألف من مبنى قطره ٨٩ متراً، يرتفع على أربعة طوابق من الأروقة، يحف به صف من السرو والشربين كأنها ثلة من الحرس شاكي السلاح تقدم التحية العسكرية، تتوسطه دعامة علوها ٥٥ متراً، ارتفع فوقها تمثال الامبراطور، ونُصبت امام مدخل الضريح مسلتان فرعونيتان، وعمودان عُلفت عليهما لوحات من البرونز تحدث الناس بأعمال الالهى اوغسطس، بينما لا يزال ضريح الامبراطور هدر يانوس قائماً بعد ان أُدخلت عليه ترميمات عديدة ترجع الى الاجيال الوسطى.

لا نجد في أي محل آخر، غير هذا المكان، ولا تقع العين على ما تقع عليه هنا من عناصر الفن الشرقي: من هرم ومسلات فرعونية وقبور ومدافن مخروطية الشكل وكلها عناصر جوي بها خصيصاً لتوحي للرائي فكرة الضخامة والعظمة. ولكن هذا الشعور بالعظمة كان بالامكان اشاعته في النفس بواسطة اشياء اخرى لا تخص. فقد آثروا الاستعانة بمثل هذه العناصر الشرقية لما فيها من قوة إيماء وتأثير بالغ على النفوس. فالهندسة اليونانية التي مهما دوماً الاتصاف: بالاعتدال والاتزان والانسجام لم تتنازل عما تم لها من وقع إلا بصورة عابرة.

هنالك نزعة اخرى كانت تميز المهندس الروماني عن زميله الاغريقي. تصرف المهندس الاغريقي بعدد اقل من الشغيلة واليد العاملة، كما كان تحت يده القليل من المواد الاولية. ورغبة منه في دمج عمله بالاطر الطبيعي المحيط به، فقد حاول ان يفيد الى أقصى حد من طواعية الطبيعة لمساعدته بتكييفها وفقاً لرغائبه، على عكس المهندس الروماني الذي جعل من مبانيه الهندسية انجازات ضخمة هي من صنع يديه ومن ثمة تحكمه بالطبيعة وسيطرته عليها بقوته وبأسه وعلمه. فقد اثرتنا لما أعلاه، الى ما من فرق بين السيرك وميدان السباق، وهو فارق يبدو على اشده ايضاً في مفهوم المسرح هنا وهناك. والجدار المنتصب عند مؤخرة المسرح، والذي يعدل ارتفاعه بارتفاع اعلى صف من المقاعد، لم يكن ليحد بشيء من مدى النصر. فاذا لم يتوفر لكل مسرح « الجدار » الذي توفر للمسرح مدينة اورانج وكان سبب شهرته، فكل المدرجات كانت تضم، على شاكلة مسرح نيم، كل المشاهدين يشاهدوا الالعب، وقد مدّت فوق رؤوسهم، سحائب من الستائر ترد عنهم وطأة حرارة الشمس وان حالت، الى حين، بينهم وبين منظر السماء. وهكذا كان المهندس يسيطر معاً على المدنى فيتصرف، على هواه، بقسم منه، معطياً بذلك، الدليل على سيطرته على الطبيعة وهيمنته عليها. ففي مدينة برغاموس الهلينية التي شُيّدت على منحدر هضبة متدرجة السطوح، لم تبلغ سيطرة الانسان على الطبيعة ما بلغت عند الرومان، اذ ان هذه المدينة رتبت مبانيها على مستويات متباينة، وفقاً لانحدار التل.

وهذه الارادة التي روتت الطبيعة، وسيطرت عليها ان لم نقل طوّعتها بالعنف والقوة،

تبرز على شيء من الكبر والتعالي والتهية ، في عدد من الانجازات الفنية التي نثر حباتها المهندسون الرومان في جميع أرجاء الامبراطورية . من هذه الاعمال الانشائية الجبارة ، تغيير معالم طوبوغرافية بعض الاماكن ، بعد ان نقلت مقادير هائلة من التربة والحجارة بعمق يوازي علو عمود ترايانوس وتمثاله الذي بلغ ارتفاعه ٣٨ متراً ، فأتاح للمهندسين انشاء ميدان (الفوروم) المعروف بفوروم ترايانوس ، بين هضبي الكابيتول والكويرينال ؛ وانشاء مثل هذه المرافق الضخمة على شاطئ البحر ، كما نشاهد عند مدينة اوستي (الشكل ١٠ - ص ٣٤٣) واقامة جسور وكباري فوق الانهر ، كجسر القنطرة على نهر التاج ، الى الشرق من البرتغال ؛ وانشاء أقنية لجر المياه مارة فوق الوهاد والوديان ، بين هضبة واخرى ؛ وانشاء الجسور كجسر نهر الغار الممتد بطول ٢٧٥ متراً وبارتفاع ٥٠ متراً فوق النهر المذكور ، أو جسر غاردون على مقربة من مدينة نيم ؛ وشق أنفاق لمرور الطرقات في الصخور أو بين الغياض والآجام والمستنقعات . كل هذه الاعمال وما إليها ، قام بها المهندسون الرومان ، وأمنوا المجازها بنجاح عظيم . فلم يسبق ان خطر للانسان من قبل تحقيق مثل هذه المشاريع ، كما لم يسبق له ان انجزها على مثل هذا النطاق الواسع . والذي يبدو لنا ان الانسان أخذ يشعر بما تم له ، اذ ذاك من غلبة ، بفضل ما أعطي من قوة وبأس ، سخرها في سبيل الدفاع عن الفتوحات التي تمت على يده ، فأحال جانباً منها وسائل ترفه من عيشه وتبعث فيه الطمأنينة والسلام .

عدد كبير من هذه الانجازات ، يؤلف بحق ، نجاحات تثير الإعجاب ،
 سواء من الوجهة الفنية أو من الوجهة الزخرفية والجمالية . ولعل سر ذلك
 الفن الزخرفي
 من الداخل والخارج
 كله يقوم في هذا الاتقان الذي بلغه في نسبة تكييف الفن للغاية التي أريد لها . فهذا التناسق العظيم ، بين ارتفاع طوابق الجسر الثلاثة وبين عرض فتحات القناطر ، ومقاييس العواميد ، أضفت على الجسر القام ، فوق نهر الغار ، هذه الصفات التي تميزه ، وعُرف بها . وهذا الانسجام له أثره العميق في النفس ، يزيده وقعا فيها انسياب هذه القناطر وتتابع انسجامها . فما من زخرف أو نقش أو حلية اخرى ، من أي نوع كانت ، تخفف من حدة عرى هذه الخطوط والمساحات والحجوم الجافة التي لها وقعها البعيد في الخاطر ، بما يتم لها من تناسب واتزان وتعادل ، وكلها صفات تشير بذاتها الى تاريخ الجسر وتجعله من عهد اوغسطس .

ويبرز في المهندسين ، اكثر فأكثر ، ميلهم للزخرفة ، بعد ان اتضح للجميع ان الزخرف يرفع من تأثير المبنى ويزيد من أثره في النفس ووقعه عليها ، اذ لم تكن هذه المباني معدة للاستعمال أو كانت نفعية ، او عندما تكون أنشئت على عجل ، او استعملوا لها مواداً اولية بقيت على خشونتها الاولى . فيروح المهندس يضيف عليها ، من الخارج ، اشكالا ورسوماً يستعمل الاغريق مثلها من قبل . فالجدران 'فرشت بالرخام من الداخل ، كما تحلّت وتزخرفت على الوجه ذاته : بالركائز والأعمدة ، والتأثيل والأفاريز والأضابير المنحوتة نحتاً ، ولم يلبث ان تغلب استعمال الطراز الكورنثي ، وعمّ استخدامه ان تبيّن ان زهرة شوكة اليهود (Acanthe) البارزة

على أكليل العمود يفيض منظرها في النفس ارتياحاً وبهجة امام افترار الطبيعة، كما تخفف من حدة نشووة وجفاف الخطوط الهندسية التي تنبعث من الاطرزة الهندسية الاخرى (الإيوني والدوري). واخذ الميل للزخرف يزداد ويتسع بتأثير الفن الهليني المنطلق من أرجاء آسيا الصغرى وسوريا، يصحب ذلك شيء من الطباق والمجانسة، بطلوع الادب الزاهر المشعشع الذي أطل علينا في عهد كل من الامبراطوريتين كلودوس ونيرون . ومنذ ذلك الحين ، لم نأنس أي رجوع الى البساطة الاولى . وقد تتشابك هذه الرسوم الزخرفية الناتئة التي تطل علينا من عمود تراجانوس، أكثر مما تطل من النقوش الظاهرة على عمود مارك اوريل .

حمل الرومان في جنباتهم ميلاً شديداً للرسم. فقد وفقت وضاعت هذه الآثار التي تم وضعها على المسند ، إلا انه بقي منها نماذج ، بعضها على الجدران تغطى بملاطها برسوم نافرة ، ناتئة . وقد عثر على بعض هذه الرسوم في روما ولا سيما في مدينة بومبيي . فالصور التي كانت تزدان بها جدران المنازل في هذه المدينة الريفية الصغيرة ، لا تخص لكثرتها . فالهوس الذي تملك الناس فيها، فجعلهم يقبلون بداعي مام عليه من غنى ورفاه، على الزخرفة والاكتثار منها في منازلهم ، ليس ما يمنع ان يكون هو نفسه الهوس الذي تملك الطبقة البورجوازية في القسم الأكبر من ايطاليا، فراحت ، اسوة بسكان مقاطعة كمبانيا ، المعروفة برخاء سكانها ، تقبل باندفاع كلي ، على الزخرف الهندسي . جرى العرف على تمييز اربعة أطرزة من الصور والرسوم التي وجدت في بومبيي ، اقدمها جميعاً طراز اسبق لعهد سيللا ، اقتصر فيه على تقليد الرخام المرقق . اما الثاني ، فهو الذي ظهر مع مطلع الامبراطورية ، اذ تألف معظمه من أشكال من الصور الديني والاسطوري الى جانب رسوم هندسية ومناظر طبيعية مع اهتمام ظاهر بالمدى . ويحدثنا فتروف في بعض كتبه عن « زخارف المسارح » ، وليس من النادر قط ان نرى صورة حديقة مرسومة على الجدار الامامي في حديقة صغيرة . اما في النماذج الاخري ، فالصورة تتألف من عناصر زخرفية لا ترمي الى بعث أي إيهام في خلد الراي او الناظر ، بل هما الاكبر، ان تراعي الذوق والانسجام بين الألوان ، حتى ما كان منها وميماً . وهكذا نرى الفن الروماني يستلهم هنا اقل نزعات الفن الهليني اعتدالاً .

وفن الفسيفساء الذي عرفه الشرق منذ عهد بعيد ، ازدهر في جميع انحاء الامبراطورية ، أيما ازدهار ، بما اقتضى له عدداً كبيراً من الصنّاع المهرة . ففي مدينة بومبيي التي انساحت تحت انهيار حم الفيزوف ، في ثورته الكبرى عام ٧٩ للميلاد ، تمثرت معاول المنقبين بعدد كبير من هذه الفسيفساء في اقبية المنازل او على جدران البيوت حتى المتواضع منها . والاكتشافات الاثريّة التي تمت في انطاكية تثبت بصورة لا تدع مجالاً للشك ان سوريا كانت اذ ذاك ، من اكبر المراكز لهذا الفن الزخرفي ، مع انه لم يرجع ، منذ القرن الثاني ، في أي مكان من الامبراطورية، رواجه في افريقيا . فقد انصرفوا مدة طويلة لتقليد هذا الفن عن طريق استعمال مكعبات ملونة صغيرة . وقد وجدوا في بومبيي فسيفساء تمثل اندفاع جيش الاسكندر في هجومه الساحق على

داريوس (دارا) في معركة اسوس ، بحيث نستطيع معها ان نكون لنا فكرة عما كان عليه فن الرسم الهليني على السيرة . وهكذا رسموا ، محاطة بأشكال هندسية ، مناظر ومشاهد ريفية من شتى الانواع وصور الافراد . ثم اقتصروا ، عقب ذلك بكثير ، بعد ان بسطوا الألوان والرسوم على زخارف خالية من صور الاشخاص ، وهو نمط او طراز أقصروه على الفسيفساء المستعملة في فرش الأرضية . وهذا الانتاج الوافر من زخرف الفسيفساء ، اقتضى له من الفنانين ، مقدرة عجيبة على الخلق والابداع ، كما اقتضى له صبراً طويلاً وطول أناة . ففي فسيفساء معركة اسوس ، في مدينة بومبي ١٥٠٠٠٠ مكعب صغير موزعة على اربعة ألوان .

والى هذه الفنون الزخرفية الخاصة بتزيين المسطحات وتحليتها ، يجب ان ننضيف تلك التي تتعلق بزخرفة المفروشات والاثاث بما كان يستعمله الرومان بين اغراضهم المنزلية . فقد اقبل القوم على استعمال الخزفيات المطبّعة او المحلاة بتزاويق حمراء بعد ان يدمغوها بطوابيع 'تقرغ' في قوالب خاصة . وهذا النوع من الخزف حل محل الخزف المحلي بالرسوم ، عند الطبقة المتوسطة كما اتخذوه بديلاً عن الآنية المعدنية المنقوشة . اما الطبقات الرخية الحال والوضع فقد كانت تفضل الحلي والمجوهرات ، بما حدا ببعض الاسر الثرية ، الى تكوين مجموعات ثمينة منها . من اشهر هذه الكنوز على الاطلاق المجموعة المعروفة باسم : « كنز بوسكوريال » التي ضمت المرايا والاقنوح والكؤوس . واستمرت صناعة الزجاج في انتاج قطع منه غاية في الروعة والجمال ، ثم اخذت تنتشر في الغرب حتى بلغت ضفاف نهر الرين . وهذه الحبايا التي عثروا عليها بين انقاض مدينة بومبي المصنوعة من الرخام ، والآنية البرونزية ، من جميع الاشكال والمقاييس ، والتأثيل الكبيرة والصغيرة ، والمصابيح والشعدانات ، والوجاقات والمدافئ ، والسّيَب والأسيّة المتخذة من الابنوس المطعم ، كلها تشير الى ما اعتلج به صدور القوم من 'مثل فنية' ، جمالية ، في مدينة صغيرة من مدن الريف . كل ذلك يعطينا فكرة عما كانت عليه منازل سراة القوم وعليتهم ، او منازل هؤلاء الاغنياء الذين رفلوا باوسع ما يرفل به مجتمع من رفاهية في تلك العهود .

ففي كل هذه الفنون يبقى العنصر الابداعي الروماني قليل الشأن . فالاشكال والموضوعات والاساليب الفنية او التقنية كلها مستوحاة اصلاً من العالم الهليني . وهذه النزعات الخفيفة التي ادخلت عليها مراعاة لذوق الرومان ، كليليل للذهب الواقعي مثلاً ، لم يلبث الفنانون ان تكييفوا بها وراحوا ينفذونها ويتفننون بها حتى حدود الغرابة احياناً ، وكلهم اجانب اغراب اصلاً في عهد اوغسطس ، اذ قد وفدوا من الشرق المتوسطي . وقد قصر هذا الشرق ، فيما بعد ، عن تلبية الطلبات المنهالة عليه ، وتقديم العدد الكافي منهم ، انما راح يدمم بالمعلمين ورؤساء الورش ليبقى محتفظاً بهنيمته وسيطرته ، حتى اذا لم يرض انتاجه كل الاذواق ، صدر نماذج به الى الخارج ، حيث يأخذ الناس بتقليدها والسير على نخطها . وهكذا نرى تطور الفن الهليني يمتد ليلبغ دوغماً تعديلاً يذكر ، جانباً كبيراً من الامبراطورية الرومانية . الا ان هذا الفن يراعي مقتضيات الاذواق المستبدة بالاهلين في الولايات الاكثر ازدهاراً ، اذ ذاك ، والاكثر نشاطاً ،

اي في آسيا الصغرى وسوريا . وهذا الفن الشرقي اخذ يتصل رأساً بالغرب دون المرور باليونان ليسيطر على روما ، في القرن الثاني ، اي في هذه الحقبة بالذات التي تسجل الطقوس والديانات الشرقية فيها ، انتصاراتها ونجاحاتها الكبرى ، بحيث تم الظاهرتان معاً وبحركة تعاونية ، في وقت واحد . ففي كل المجالات يبرز الاعتدال المنطقي ويتغلب على كل ما من شأنه ان يحدث صدمة في الاذواق .

المدينة
مركز الانصهار الحضاري
ففي هذه المدن وبواسطتها ، تمت في هذه الحقبة بالذات ، هذه الإلفة ، وحدث الإنصهار بين هذا الازدهار المعماري والانطلاقة في فن الرخرف الذي استعرضنا تطوره في مختلف المجالات التي تجلى فيها .

وهذه الحضارة تبرز مرة أخرى ، وفقاً للفكرة الهلينية التي جاءت حاجات الامبراطورية تشد من أزرها ، وهي حضارة لها سمة المدينة وطابعها . فالمدينة تسهل الروابط بين الافراد والجماعات ، وتنظمها وتقيتها . فعندما تعمل على تيسير الاتصالات واللقاءات بينهم ، فهي تستدرج بالتالي ، ما يؤمن بالنجاحات التي لا بد منها في الحقلين الاقتصادي والفكري وتساعد على التطور والنمو والتكامل . واذا كانت لها القدرة والطاقة لتدرك عنها تعديلات شذاذ الآفاق وكيد الطامعين وغزو البلاد ، فقد عرفت ان تبعث روح الانضباط بين الجماعة ، وتؤمن العدل والعدالة في دولة تشرب بعناقها للعيش الكريم . من الاعتقاد السائد هو ان ما من دولة قوية تتوطد لها الدعائم بدون بورجوازية تأخذ بأسباب الحضارة وترسخ لها في القلوب والنفوس ، وتهتم لاكثر من تأمين اسباب العيش ووسائله المادية ، وتنزع ، دونما ضعف منها او استجداء ، للسلام ، لانها لا ترضى عن هذه الاشياء كلها بديلاً ، لانها عماد النظام ولبه وصميمه ، هذا النظام الذي لا بد منه للخير العام ولمصلحتها الخاصة . ولكن ليس من بورجوازية بدون مدينة ، اي بدون مجموعة من المنازل والمساكن ، ومن ادارة تجهيز وتكوين ، ومبان عامة تطلع وفقاً لمتطلبات الحاجة والذوق في الفرد والجماعة . فالحكومة تشجع ، اذاً ، مادياً وادبياً ، حركة تنظيم الامبراطورية وتجميلها . وهذه البورجوازية التي تهيأت لها اسباب الظهور والانفتاح ، او اقله اسباب التطور ، تنصرف بدورها ، لتهيئة مثل هذه الانطلاقة . وهكذا ، فالمدينة تمثل اكثر من اي شيء آخر ، واكثر مما تمثله الفنون ، هذا التأليف والانصهار الحضاري ، لا بل ، هي بالفعل ، هذه الإلفة الحضارية بعينها ، اذ ان الواقع المدني الذي يأخذ مثل هذا الاتساع ، وهو واقع سياسي وعسكري واداري ، واقع اقتصادي واجتماعي بقدر ما هو واقع ثقافي . ولما كانت قد سبق ودرسنا ، في الفصول السابقة ، هذا الواقع ، من وجوهه العديدة ، بقي علينا ان ندرسه هنا ، في اطاره المادي .

المدينة الامبراطورية
زينة المدائن وعروسها ، هي بالطبع روما ، التي تؤلف في كيانها وواقعها : ومبانيها العامة استثناء ومثلاً .

اما الاستثناء ، فلأنه لا يمكن لها ان تأتي مدينة بورجوازية او ريفية . فلو حدث ، مثلاً

وصح هذا الاقتراض وبرزت على هذا الشكل او الطابع ، لما كانت سوى مقر نبلاء الدولة ومجتمعهم الامثل ، أي هذه النخبة الرسمية في هذه الامبراطورية جمعاء . فالامبراطور لا يترك لمجلس الشيوخ سوى الاضطلاع بالمهام الصغرى في الادارة البلدية ، وهي مهام تقع مع ذلك ، تحت اشرافه ، بواسطة المفتشين والمراقبين الذين يلتفتهم لهذه الغاية . والحقيقة ان روما هي المدينة الامبراطورية ، مقر الامبراطور ، شاهدة على عظمتة وعلى كرمه وسخائه ، وجبروت سلطانه . فما من مدينة اخرى ترتبط بها ، تستطيع مزاحمتها في هذا المجال .

اما كونها مثالا ، فلأنها ملتقى ممثلي كل الولايات وكمبنتهم ، وقبة كبار الموظفين الذين يتولون زمام الادارة في هذه الولايات حيث أقاموا وقاموا بوظائف ادارية او عسكرية . فهي فتنة لهم جميعا ، تجتذب هؤلاء واولئك ، بما تم لها من سحر وجاذبية ، وهي الوطن الاكبر للجميع ، وان كانت لهم اوطانهم الصغرى ، فينظرون اليها لعمرى ، نظرم الى المثال الذي لا يرام ، ويرون فيها الصورة المثالية للمدينة ولكل مدينة . فكل ما سواها من مجتمعات وتجمعات لا تستحق ان تسمى مدناً إلا بقدر ما تحاول الاقتداء بها والسير على منوالها ، ومحاكاتها .

وهذه المدينة التي يفاخر اوغسطس بأنها تسلمتها من لين وطين فسلمها رخاماً ومرمرأ ، لا يزال مجال العمل بعدُ فيها واسعاً ، ومجال الانشاء رحباً ، ولذا راح كل من الاباطرة الذين تعاقبوا على الحكم بعده يحاول ان يترك له فيها اثرأ يحدث بما شئت فيها من مباني وما ترك عليها من نظم ومؤسسات تبرز بمقاييسها وضخامتها كل ما عداها . كل من فيها يتذوق الفن ويسعى اليه ويفخر بمناصرته ومناصرة سمكته ، كما يحاول فريق من بينهم ، ممارسته والانتقطاع له . وكل هؤلاء الاباطرة ، يدركون جيداً ، بفضل دروس التاريخ التي لفتتوها ، وعلى ضوء عظات عهد الطفافة من اليونان قديماً ، ومن سلوك فراعنة السلالة الرابعة في مصر ، ان سبيلهم الوحيد للبقاء حديثاً بعدم ، هو إلهاب خيال الناس ، بما يشيدون من المباني والمؤسسات الضخمة . ولذا كان لا بد من ان نضرب صفحاً هنا وان نمر سراعاً عن سرد ووصف ما قام من هذه المباني ، وبينها ما اقتضى انجازة أكثر من عهد واحد .

وهكذا ، فالفوروم الذي شرع دوميتيانوس ببنائه ، حمل اسم الامبراطور نروه *Nerva* لأنه هو الذي أكمله وأنجزه ، نكاية وتشفيأ بسلف بفيض ، كرية الاسم ، ترك من سوء الذكر بحيث تفاضوا عن اغتصاب الشرعية وجعلوا من اللاشرعية شرعية . والى هذا هنالك مباركة تمهدوها اجيالاً طويلة بالتعديل والتحوير ، والتوسيع والتجميل ، منها مثلاً السيرك الأعكبر *Circus Maximus* الذي كان يقع بين مضبتي البلاتين والافنتين في المكان الذي خصص له منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، وخضع مراراً للتوسيع بحفر جنبات المضبتين المذكورتين ، بحيث اتسع في عهد قيصر لـ ١٥٠.٠٠٠ مشاهد ، فاذا به يستوعب في عهد تراجانوس ٢٥٠.٠٠٠ منهم ، طوله ٦٠٠ متر وعرضه ٢٠٠ متر وطول ميدانه ٢١٤ متراً وعرضه ١٨٠ متراً . فتعداد هذه المباني الذي لا ينتهي ، من شأنه ان يسبب ، ولا شك ، الملل ، اذا ما اخذنا بذكر عمليات الترميم

آخر من الميادين الامبراطورية ، تتالت من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، منها : فوروم فسبسيانوس مع هيكل السلام ، وفوروم نروه *Nerva* ، وفوروم اوغسطس مع هيكل مريخ - أولتور *Mars - Ultor* (أي « مارس المنتقم » لموت قيصر ، الذي قتل في ١٥ آذار) ، واخيراً الفوروم الذي يحمل اسم ترايانوس . وهذا الفوروم كان يؤلف جزءاً من وحدة هندسية فخمة أشرف على تخطيطها المهندس ابولوذوروس ، بعد ما توفر له من الموارد الطائلة ، إثر وضع يده على كنوز داسيا وما فيها من مناجم الذهب الغنية . وقد اشتملت هذه الوحدة ، فيما اشتملت عليه ، ما عدا ميدان فسيح ، سوقاً تجارية (هال) تألفت من خمسة ادوار ، ومنتدى ومكتبتين : إحداهما للغة اليونانية ، والثانية للغة اللاتينية ، قامتا في طرفي الساحة التي ارفع فيها عمود ترايانوس . وأضاف هدريانوس الى هذه الوحدة ، هيكلًا يحمل اسم ترايانوس ، بعد ان أرسى الحجر الاساسي وأودع قاعدة العمود ، مُحققاً يضم رماد الامبراطور الراحل .

وجاءت بعد هذا ، باتجاه نهر التيبر ، الحدائق المعروفة باسم : شان ده مارس *Champs de Mars* وهي حدائق غناء : طليقة ، مفتوحة ، اخذوا ، منذ العهد الجمهوري ، يقيمون عليها المباني والعائير ، زيد عليها ، في العهد الامبراطوري ، الشيء الكثير ، ابتداءً من اوغسطس الذي انشأ فيها ، هو نفسه ، مسرحين واربعة أروقة ، والمخيمات الأربعة الفخمة الاولى التي عرفتها روما ، والتي عرفت باسم أغريبا ، وبضعة ميكل ، بينها هيكل البانتيون ، أي هيكل السلام ، ثم ، وابتعد الى الشمال : ضريحه . وحذا خلفاؤه حذوه ، فربطوا بالجسور العديدة التي أقاموها فوق نهر التيبر ، ضفته اليمنى بحدائق شان ده مارس . وهكذا تم دمج هذه الوحدة بالشبكة الهندسية التي انتظمت مباني العاصمة .

أتينا على الكثير من اسماء هذه المباني ومسميات العائير ، وقد كان من الممكن إبراد المثات منها . وهذه الشواهد والأمثلة ، نضربها هنا ، فيها ، على ما نعتقد ما يكفي من دليل لنذكر معه مدى ما تناوب على هندسة المدينة من تعديل وتحوير وتغيير بدلت منها العالم ، خلال قرنين من الزمن . وهكذا تمت لها صورة ولا اجل ازداد بها منظر العاصمة ، بهاءً وسناءً بما تعهدوها به من تزاويق وتحلية ، في الاجيال اللاحقة ، جعلتها خليفة بعاصمة العالم .

نوف عدد سكان هذه العاصمة على المليون ، فبزت بهذا العدد سكان اية مدينة التجميل والنازل
اخرى قامت في ذلك العهد ، وهو عدد لم يكن ليكفي وحده ليؤمن لها مثل هذا المرتبة اذ كان من الضروري ان يتمكن مثل هذا العدد من السكان ، يقطنون في مثل هذا الاطار وفي ظروف مثل التي تحيط بهم ، وسائل العيش الكريم ، خليق بشعب دوخ الكثير من الشعوب وبسط عليها سيطرته وسيادته .

فهل من عجب ، بعد هذا ، ان يخلق قيام مثل هذا الحشد الحاشد من السكان وتأمين اسباب معيشتهم ، مشاكل طائلة تتعلق بتنظيم المدينة وادارتها ؟ فكان على المسؤولين ان يضطلعوا بها ،

وهي مشكلات عرفت عواصم الشرق الهليني الكبرى ما شابهها ، كما عرف اباطرة روما انفسهم ان يفيدوا ، على نطاق واسع ، من الحلول التي وضعت لها . وقد رأينا كيف ان هؤلاء الاباطرة ، أنشأوا ، في سبيل تيسير اعمال الحكم ، مصالح ادارية وبلدية رئيسية ، عهدوا بمهامها وادارة شؤونها ، الى حكام وولاة يؤمنون لها حسن سير الاعمال ، كمصلحة التموين ، والشرطة ، ومصلحة مكافحة الحرائق . واقتضى حسن سير الاعمال في بعض هذه المصالح وانتظامها ، القيام ببعض اشغال عامة ضخمة . من ذلك مثلاً ان اخذ الامبراطور كلوديوس ، ومن بعده تراجانوس ، بإنشاء مرفأ ضخم في مدينة اوستي (راجع الشكل ١٠ - ص ٣٤٣) تسهيلاً منها لرسو السفن التي كانت تقوم بنقل الميرة والسلع من مختلف الولايات لتغذية هذا الجيش اللجب من السكان ، حاملة على الاخص ، القمح من مصر . وهكذا قام على ضفاف نهر التيبر ارضفة طويلة كانت تقضي الى روما ، وهي ارضفة لا تزال مجهول ، لليوم ، الكثير من اوضاعها ، كثيراً ما تعرضت المدينة من جرائها ، ولعدم توفر الانشاءات الفنية اللازمة ، لآخطار الفيضانات . كذلك أنشئت في المدينة ، مصلحة تسمى بشبكة المهارير وتسهر على صيانة وحراسة ونظافة المدينة ، كما أنشئت فيها قناطر عديدة لجر المياه تلبية لاشتداد الحاجة المتزايدة لها ، ولا سيما بعد ما قام من هذه الحمامات الكثيرة . فقد انشأ أوغسطس لوحده ، اربعة من هذه القناطر المائية ، وانشىء غيرها ، فيما بعد ، بحيث بلغ عددها ١٤ قناة لتأمين مقطوعية المدينة ، من الماء التي بلغت في اواخر القرن الاول للميلاد ، مليون متر مكعب ، في اليوم الواحد .

ويصاب المرء بشيء من الحبل والدعش امام ضخامة الانشاءات التي اضطرت ادارة المدينة ان تقوم بها ، لتأمين حسن سير الاعمال ، وهي اعمال والمجازات كانت ، مع ذلك ، اعجز من ان تحل كل مشكلات روما من هذه الناحية ، أو ان تحول دون ما كانت تتعرض له من الإحزن والحن ، وما يهددها الفنية بعد الفنية ، من اوبئة وافدة . فحالة الطرقات أقل من ان تفي بالحاجة ، وهي في الغالب ، طرقات ضيقة ، متعرجة . قليلة جداً بينها ، الجادات العريضة التي تفضي الى قلب المدينة لتتصل منه بالشبكة الرئيسية التي تنطلق في مهاب الارياح الاربعة لتتغلغل في جميع ارجاء الامبراطورية ، اذ كان اكثر هذه الطرقات عرضاً لا يتجاوز ستة امتار ونصف . وتفادياً للازدحام ، سبق ليوليوس قيصر ان اصدر امره بمنع دخول العربات والمركبات اليها . وكثيراً ما ارتفعت عقيرة مرتبالي وجوفنال بالشكوى والتذمر من قرعة وجلبة اصوات العربات ليلاً ومن عرقة السير نهاراً ، كما كانوا يتأففون ويتبرمون من تراكم الاوساخ والاقذار والنفايات في الشوارع غير المرصوفة يلقون بها في جادة الطريق . صحيح ان الانشاءات الصحية ، كالمراحيض العامة كانت جميلة بما تحلت به من المقاعد الرخامية والتأثيل والانصاب ، انما استعمالها لم يكن بالمجان اذ يترتب على من يستعملها دفع رسم طفيف ، في حين لم تكن نرى اصحاب المباني والعمارات الخاصة ينشئون شيئاً من هذه المرافق ، في سبيل المستأجرين عندهم . وكانت المنازل خلواً من المداخل بحيث ان استعمال المواقد والمدافئ ، شتاء ، كثيراً ما تسبب عن حرائق

ساعد ضيق الشوارع ، على امتدادها بسهولة فتنزل بالمدينة اضراراً جسيمة لا تلتئم ان تتحول الى نكبة نكباء لا يحتاج معها ليد أثيمة توسع من نطاقها . كما راح الرأي العام يشتم نيرون بذلك ، وهذا ، المسيحيين ، في الحريق الهائل الذي التهم جانباً كبيراً منها عام ٦٤ للميلاد .

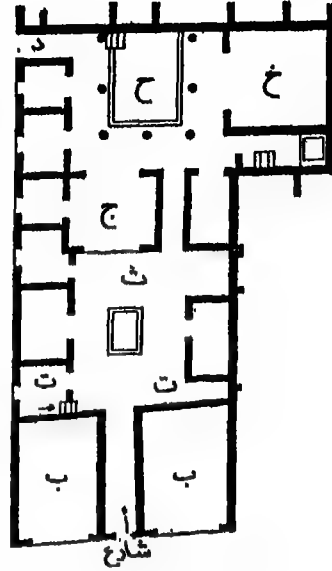
يجب ان نعزو السبب الحقيقي لهذه المصائب الى ضيق المساحة وقلة المكان بالرغم من توسيع حدود المدينة الادارية ، في عهد اوغسطس . فلتشييد هذه المباني الضخمة في قلب المدينة شغل منها المساحة المعدة للسكن ، وهي عمائر لم تقم مكان الحدائق العديدة الواسعة التي توفرت لها في مطلع الجمهورية والتي لم يبق منها فيما بعد شيء ، إلا ما جاء منها في الضواحي والارباح ، او حول القصور الامبراطورية . فانشاء ضواحي جديدة لم يؤلف حلاً للمشكلة بالنظر لبعدها عن المدينة ، فاضطروا والحالة هذه ان يزيدوا من ارتفاع البناء ، الامر الذي فتح المجال واسعاً امام المضاربات المالية ، من جراء غلاء الاراضي او من ارتفاع اسعار الايجارات . فقد وضع اوغسطس حداً أعلى لارتفاع المنازل ٢٠ متراً ، خفضه ترايانوس ، فيما بعد ، الى ١٨ متراً ، ثم راح المسؤولون يفضون النظر ، كما يبدو ، عن بعض التجاوزات هنا ، والمخالفات للقانون ، هنالك . وكان الطابق الارضي يؤلف عادة مسكناً ثرياً او يتخذ منه مخازن ودكاكين للاستثمار . ويقوم فوقه خمسة او ستة طوابق يرقى اليها بواسطة ادراج من الخارج . ولم يكن من النادر حدوث انهيار بعض هذه المباني ، لانعدام المراقبة من قبل السلطة او من اصحاب العلاقة . وكان كل دور من هذه الدور يتألف عادة من بضعة مساكن ضيقة ، قلما تتفصل نوافذها ، وان أقفلت فبستائر شفافة ، فيها يحتشد المستأجرون بعضاً على بعض ، ليموتوا شتاءً ، دنقاً من وطأة الزمهرير ، وليخنقوا ، صيفاً ، من شدة وطأة الغيظ . فمن المعقول جداً ان يقضي السكان ، نهراً ، معظم أوقاتهم في الخارج ، وهذا ما اوجب على الاباطرة الاكثار من الساحات العامة والاروقة والحمامات العامة ، حيث تحتشد جماهير عاطلة عن العمل ، تؤمن لها الدولة ، ما فيه أود العيش والكفاف ، تنلهى بالتفرج على بعضها البعض ، ان لم تذهب لمشاهدة الالعاب في المدرج والمسارح .

وهذه المنازل العالية ، المشتركة السكنى ، توصف عندهم بـ « الجزر » *Insulae* او « مربعات » لأنها كانت تقوم عند مقاطع اربعة شوارع . ومن هذه المنازل كان يتألف معظم المساكن في روما وفي مدينة أوستي ، كما دلت على ذلك الحفريات ، اذ عثروا على جدران بعضها قائم على ارتفاع الدور الثاني ، بينما لا نعرف عن اوضاعها في روما غير ما جاء عنها في الكتب الادبية .

ومع ذلك فقد كان تحت تصرف الطبقة الثرية في روما — وهي طبقة ازداد عدد افرادها ايضاً في المدن الإيطالية الاخرى — منازل *Domus* او دارات خاصة (فيلاها) من طابق واحد بالأكثر ، ابرزت النماذج الاولى منها ، اثر الفن الهليني . فقد سيطرت العادات والاخلاق اليونانية في مدينة بومبيي ، حيث يمكننا ان ندرس هذه المنازل او الدارات ، كما كانت عليه في هندستها الاولى ، وتتبع التعديلات التي خضعت لها فيما بعد . ففي أبسط النماذج كان المنزل يتألف بعد رواق مركزي ضيق يُفضي الى الشارع ، من حجرة رئيسية هي الدار او فناء البيت *Atrium* كان يقوم على سطحه حوض لجمع ماء المطر شتاءً . وفي هذا الفناء او الدار كان رب

البيت يقضي معظم ساعاته يستقبل الاتباع و «الازلام» ، ويلي الدار حجرة هي حجرة الأسرة *Tablinum* ، وفيها تحفظ ، كما يدل عليها اسمها ، الاوراق والوثائق والقراطيس الخاصة ؛ ويقوم الى جنبها غرفة اخرى هي غرفة الطعام *Triclinium* . ويلي ذلك ، الى الراء ، مساحة غير مشغولة هي من اثر النموذج الهليني ، حديقة تحت رواق يقوم على أعمدة *Péristyle* مقسمة الى مريمات واحواض ماء ، بينها فستقية ، وثمانيل ، وغير ذلك مما يبهج منظره العين . وهذا

النموذج المبسط ، الثعاري ، هو بالطبع عرضة للتغيير والتبدل ، كلما استطاع صاحب الدار الى ذلك سبيلا ، فيضاعف مثلاً عدد الغرف والحجر تسهيلاً لعملية تهوية البيت وتعميره لأشعة الشمس ونورها ، او باضافة حدائق جديدة حول المسكن . وعندما كانت تتوفر لصاحب الدار الوسائل المادية كان يضيف الى منزله جهازاً خاصاً للتدفئة ، تقيّد منه كل الغرف ، يُعرف عندهم بـ *Hypocaustes* ينقل البخار بواسطة قطع قرميد، مثبتة تحت ارض الدار او يمر داخل الجدران اذا كانت مزدوجة ، وهو تطور جديد لم تعرفه منازل الاغريق من قبل ، وجهزت به بعض المنازل في روما . فايطاليا الجنوبية لم تعرفه ولم تستعمله ، اذ ان استعماله اقتصر على بعض الولايات المعروفة بقسوة شتائها وبردها القارص .



الشكل ١٦ المنزل المعروف : « بمنزل الشاعر المسرحي » في مدينة بومبيي ؛
أ - المدخل ؛ ب - مخازن ؛ ت - الدرج ؛
ث - دارمع فستقية ؛ ج - حجرة الأسرة ؛
ح - رواق بأعمدة ؛ خ - غرفة الطعام ؛
د - مدخل فرعي ، مزين بفسيفساء ورسوم ، منها على المثبتة رسم يمثل كلباً مربوطاً بسلسلة ، مع الكلمات : احذر الكلب . في غرفة اخرى حوائج تتعلق بالتمثيل ، ومنها عرف المنزل بهذا الاسم.

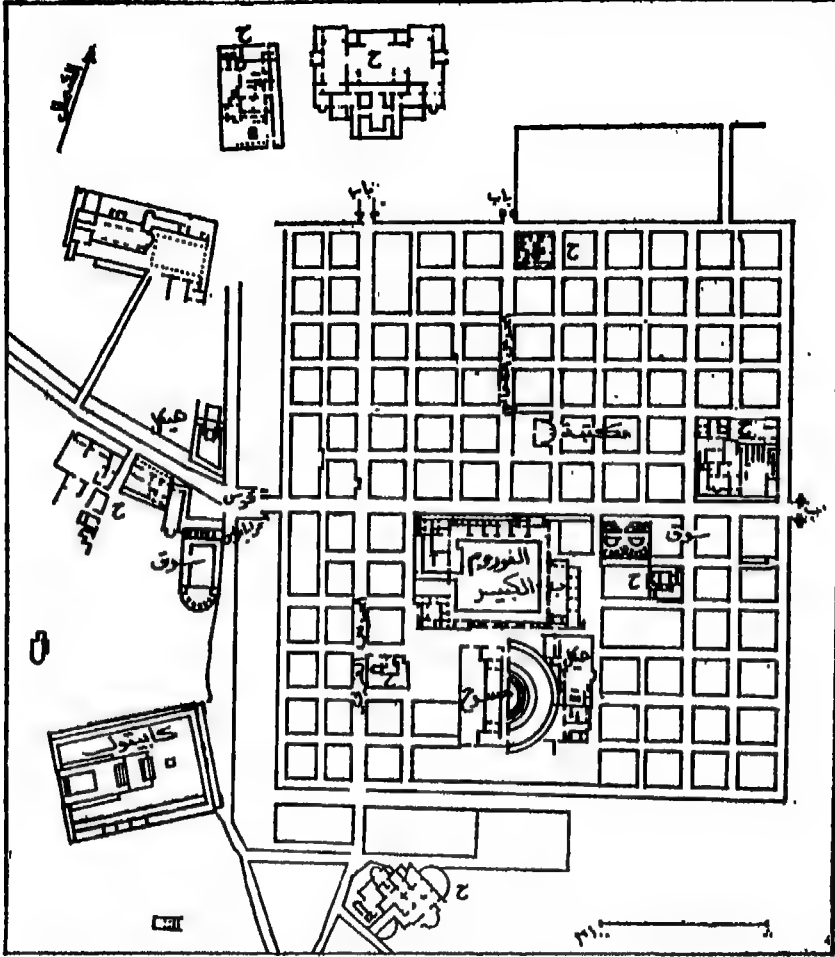
حتى بدون هذا الجهاز ، كانت الدائرة تختلف من جميع الوجوه عن المسكن العادي المتواضع .

وما لا شك فيه قط ، تناقص عدد الدارات في روما ، خلال هذه الحقبة التي امتدت قرنين ، بعد ان بلغ الغنى ذروته في عهد الأسرة اليوليو - كلودية ، ثم اخذ بالانحدار تدريجياً . فالاحصاءات الوحيدة التي لدينا تعود للقرن الرابع . فهي تجعل عدد هذه الفيلات نحواً من ١٨٠٠ مقابل ٤٦٠٠٠ مسكن . كان يوجد ، بالطبع ، اذ ذاك ،

طبقة من النبلاء ، يعيش افرادها على المرتبات التي يتناولونها من الدولة ، او من ريع ما تدره عليهم املاكهم في الولايات خارج روما ، حيث كانت تجد راحتها ومتعة العيش ، بعد لم تعد السكنى المترفة في روما ، في متناول الخاصة .

اذا ما وضعنا المدينة - العاصمة جانباً ، فكم تعد الامبراطورية من المدن ، يا ترى؟
مدت الولايات
أينما اجلنا النظر وقعت العين على مدن جديدة تخرج الى النور بدافع من الحكومة بعد ان تفاضت عن المدن القديمة وصردت لها تصريداً ، المؤازرة والمساعدة ، مفضلة الاحتفاظ بهما

للمدن الناشئة تتعمدها بالتخطيط والتجميل والتوسيع .
وهكذا نرى الامبراطورية تستعيد ورشة عامة للاشغال . وكلما اتاحت طبيعة الارض
للمدن التفلت من القلعة الضيقة ، حيث كانت تجثم منكفئة على نفسها ، ضمن اسوار تحد من انطلاق

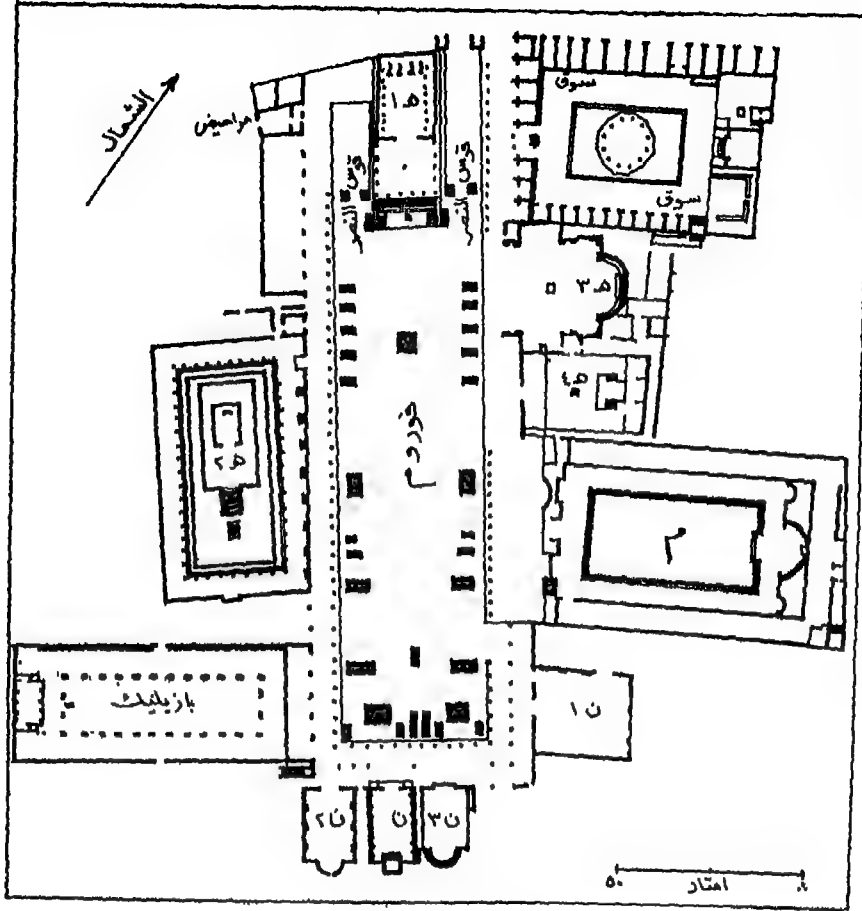


الشكل ١٧ - مدينة تفاد في جورجيا

ح - حمامات ؛ ب - بازيليك ؛ ت - هيكل صغير في الفرورم مع منبر للخطابة عند واجهة المبنى - مستعمرة
المحاربين القدماء انشأها ترايافوس ، انما القوس المدعو بقوس ترايافوس ، هو بعد ذلك بقرن .
وقد اتسعت المدينة وتجاوزت كثيراً السور القائم حولها ، دون أي تخطيط هندسي .

البصر الى الافق البعيد ، او من الحصن الذي كانت فيه والذي طالما رد عنها عاديات الدهر وطوارئ
الزمن ، او من المعقل الذي كثيراً ما اعتصم فيه القائمون بانقلاب عسكري ، لتبسط في السهل حيث
تقوم ساحاتها العامة ومبانيها ومنازلها . اما المدن التي لا سبيل لديها لتغيير موقعها ، فقد قنعت
باقامة احياء سكن جديدة لها . وكل هذه المدن كانت بحاجة ماسة للفراغ تشيد عليه من

المباني ما فيه حليتها وزينتها ، والدليل على ما تنعم به من يسر وازدهار ، والشاهد على سخاء وأريحية كبار المواطنين وسراة القوم فيها ، بعد ان تحققت منهم المنى والرغائب المادية وبالتالي الحضرية .



الشكل ١٨ - ميدان بومبيي

م - مبنى على اسم كونكورديا وعل اسم التقوى ، شيدته اوماخيا ، رئيسة نقابة القصارين ؛ كان يستعمل مقراً لهذه النقابة .

ن - الندوة ؛

ن ١ ، ن ٢ ، ن ٣ - مباني أخرى لاستعمال الادارة .

هـ - هيكل ؛ ١٨ - الكابيتول ؛ ٢٨ - ابولون ، ٣٨ - الآلهة المنزلية (؟) ؛ ٤٨ - فسبسيانوس .

وقد يكون النموذج المثالي لهذه المؤسسات « المستعمرة » مدينة خططت وفقاً لترتيب هندسي فوق اراض طليقة استوحوا مقومات تخطيطها من الطراز المستوحى من معسكر للجيش . وهذا التخطيط الهندسي المربع الاضلاع ، يستلهم عموماً ، المبادئ العامة التي انتهجها الاغريق في

هندستهم ، منذ القرن الخامس ق . م اضاف اليها الرومان ، بدافع من عقائدهم وتقاليدهم الدينية ، هاجس او ضاغوط الاتجاه ، بحيث يستطيع المرء ان يحدد ، في مدينة كمدينة ليون ، في غالبا ، مثلا اليوم الحقيقي لتأسيس المدينة ، وذلك بملاحظة النقطة التي يلتقي عندهما خط ينطلق من نقطة تقاطع الخط الرئيسي من هذه الطريق ، *Decumanus maximus* مع الخط الرئيسي للطريق ذي الاتجاه الشمالي الجنوبي ، حيث يجب ان تقوم الساحة العامة في المدينة او الفوروم . وعلى موازاة هذه النقطة المركزية تنطلق خطوط كبرى وصغرى بحيث تتحدد معها مواقع القطاعات الاخرى . فالمباني العامة ذات الشأن تحتل من هذه المواقع مراكز غير قابلة للتغيير ، بحيث لم يعد موجب ليتكئ المسرح على منحدر هضبة او سفح تلة . وهذا النموذج القياسي تولى وضعه بالطبع مهندسون يعملون في مصالح حكومية خاصة .

الا ان تطبيق هذه الهندسة لا يمكن ان يأتي كاملاً ، على الوجه الاحسن ، الا في حالات المدن التي تنشأ دفعة واحدة يجمع مقوماتها وقطاعاتها . اما تلك التي تنشأ حول معسكرات للجيش ، فتأتي عادة ، على غير نظام وانتظام وان كانت قيادة الجيش تسهر على هذه الضواحي وتنظيمها . فالتشويش لا يوجد الا في المدن القديمة ، او بالاحرى ، في الاحياء القديمة من هذه المدن ، اذ ان الجديدة منها تضطر للزول عند قواعد التنظيم المعمول بها . وهكذا ، فالمدينة المعروفة بمدينة « هديرانوس » التي تقع الى الشرق من قلعة أثينا ، تسجّم غاماً مع قلعة مدينة تيزيه *Thésée* .

ونجد في معظم الاماكن ، اكثر من جو عائلي لاننا نواجه مباني من نموذج واحد لا بد منه ولا مندوحة عنه لكل مدينة . في اي مدينة كانت ، نجد ميداناً (فوروم) هو قلب المدينة ، وباحتها المركزية ونقطة الجذب منها . وقد يشاد فيها ، احياناً منبر للخطابة يسمى عندهم *Rostres* ، كما هي الحال في روما ، مع ان المواطنين انقطعوا ، منذ زمان بعيد ، عن عقد مثل هذه الاجتماعات . ويقوم الى جانب الفوروم ، عادة ، ادارة المدينة (*Curie*) حيث يعقد المجلس البلدي جلساته ، كما تقوم البازيليك او النادي ، وعلى مقربة من الفوروم تقوم ايضاً السوق التجارية (هال) التي تتألف من مجموعة من المحازن ودكاكين الباعة ، في صف واحد . وفي الاحياء ، تنتصب هياكل ومعابد على شرف آلهة متنوعة . والمدن التي تود ان تأتي بالدليل على رومانيتها وتحرص على المباهاة بهذه العاطفة ، تقيم لها في مكان تختاره لهذا الغرض « كابيتول » اي هيكل على اسم الإله جوبيتر الكابيتولي ، او اكثر من واحد ، لعبادة : « روما - اوغسطس » او « اوغسطس » ، ولهذا وذلك من هؤلاء المؤلفين (*Divi*) . والحاجة للعلاهي تقضي بإنشاء مسرح تكاد لا تخلو منه مدينة ، وكثيراً ما مدرج . ولا بد في كل مدينة من حمامات ، وملعب للالعاب الرياضية . اما المكتبة ، وأن كانت اقل انتشاراً من غيرها من هذه المؤسسات ، فهي موجودة ، مع ذلك ، في مدن عديدة . ويكتمل العقد التنظيم اذا ما اصفنا الى هذه السلسلة القناطر المائية . والفارق الاكبر بين مدينة وأخرى ، والمميز بينها هو ما فيها من المباني الرسمية ، وما هي عليه

هذه المباني الرسمية من العظمة وغنى الزخرف والنقش . وعندما أُصِبت مدينة بومبي بالخراب التام ، عام ٧٩ للميلاد ، كانت تعد ميدانين (فوروم) ، أحدهما مثلث الاضلاع او الشكل ، وهو شيء غير عادي ، وعشرة هياكل ، بينها اثنان لعبادة الامبراطور ، وصالة للحفلات الغنائية (أوديون) تسع ٩٠٠ مقعد ، ومسرحاً يضم ٩٠٠٠ مقعد ، ومدرجاً يتسع لـ ٢٠٠٠٠ مشاهد ، وثلاثة حمامات ، وملعبين وغير ذلك من الانشاءات العامة . وبالفعل ، فقد كانت بومبي مدينة غنية . غير ان القرن الثاني ، الذي هو عهد الأسرة الانطونية ، يؤلف العصر الذهبي للمدن ، التي راحت اذ ذاك ، تتنافس فيما بينها لتجميل معالمها ، كما كانت تحت مواطنيها على ان يتبرعوا ، في حياتهم او ان يوصوا ، بعد وفاتهم ، نقداً او عيناً ، بما يساعد على تشييد المباني . وهكذا راحت الميادين تزدهر بأنصاب التماثيل ، كما راحت تمتد وتتسع ، وترفل بالرخام والمرمر ، وبأقنية لتصريف المياه ، حجارتها من المرمر ، شريطة ألا تكون مقالعه بعيدة كثيراً عن المدينة ، وبالأروقة القاغة على العمود بحيث يأمن المارة حرارة الشمس صيفاً والأمطار شتاءً . وهكذا لا تلبث حصون المدينة وقلاعها ان تزول وتختفي معالمها . وقد يقوم احياناً اقواس النصر مع ما لها من أرتاج ضخمة . كل هذا حدا بأحد الخطباء في آسيا الصغرى — مع ان مثل هذا المنظر ليس بغريب عن النظر في مدن الغرب — هو ايليوس ارستيدس ان يهتف قائلاً : « والظاهر ان العالم كله في شبه عيد ، فقد نزع عنه أثمانه البالية ومبازله الرثّة المصنوعة من الجديد ليستسلم بكليته للحرية ولذة العيش . كل المدن تناست منازعاتها بعضها مع بعض ، او بالأحرى اخذت تتنافس بعضها مع بعض بحيث تحاول الواحدة منها بز الاخرى جمالاً وبهاءً وسناءً . أينما وقع الطرف ، وجد ملاعب واحواضاً للماء وادراجاً ضخمة ، وهياكل ، ومصانع ومشاعل ومدارس . وبالفعل ، لا نجد مدينة من بين مدن الامبراطورية لا ترتدي ، بين عهدي ترايانوس ومارك اوريل ، حلة جديدة وزينة جديدة — كأنها تسهم من جهتها في تجميل للعالم الروماني ، بهذه الانصاب البيضاء من تماثيل وعواميد وملاعب بيضاء ... لا — كان ينقصها كما نقص الكاتدرائيات ، في زمانها ، هذا اللون الزجاجاري الذي تضيفه الاجيال والعصور على المباني .

استمرت حركة اتساع المدن وتجميلها ناشطة في عهد اسرة ساويرس . ومع الدارات Villas ذلك ، سيراً مع سُنّة التطور التي تقتضي أن يهيء الحاضر المستقبل ، وألا يطلع شيء بالطفرة ، أطل منذ عهد الأسرة الانطونية شيء جديد . فقد وجدت المدينة نفسها ، وجهاً لوجه ، مع منافسة عرفت حظاً كبيراً ، هي « الدارة » . فقد جاء الحديث عنها في معرض الكلام عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية : فالملكية العقارية الضخمة اخذت تنتظم وحدة متكاملة متكافئة ، كما اخذ كبار الملاكين يناون عن المدينة هرباً من هذه المراسم والاعراف والعادات وما تجره من مضايقات ، وتقادياً منهم للتفقات الباهظة التي كانت تفرضها عليهم مستلزمات الحياة في المدينة . فلنلقِ الآن نظرة دقيقة على جوهر الوضع الذي قامت عليه « الدارة » في الاساس .

بالطبع ليس المقصود هنا المنزل الريفي Villa rustica الذي كان يضم المباني اللازمة لاستئجار

الاقطان مع مساكن الشغيلة والعمال ، وغير ذلك من اصطبلات وصيدية ، ومزارب الخيل والخرائب ، والاهراء والمشاغل . فليس في هذه كلها مجال لمراعاة الذوق الفني والأخذ بأصوله ، والتقييد بقواعده : من عمارة وترتيب وتنظيم . فالشيء الذي يستبد بالانتباه ويستأثر به هومسكن صاحب هذه الاقطان . فهذه الدارة ، عند قيامها ، كانت تقع على مقربة من البيت الريفي ، بحيث يتيح لرب الارض مراقبة الاستثمار والاشراف على ما يجري فيه من اشغال واعمال . ليس من المفروض قط ان يقوم مثل هذا النزل في كل الاملاك والاقطان الكبيرة . ولكن لكل من هؤلاء الملاكين الكبار دارة واحدة ، على الاقل ، وقد يكون له أكثر من دارة أحياناً . أفلم نَرَ كيف ان بلين الاصغر كان له منها اربع : منها اثنتان في غاية الابهة والفنى ، احدهما بالقرب من مدينة اوستي ، والثانية في مقاطعة توسكانا .

عرف الشرق دوماً مثل هذه الدارات التي كانت عادة تقوم في وسط الاملاك الواسعة الشاسعة التي يملكها كبار الاقطاعيين ، اذ كان صاحب الارض يحرص دوماً على إقامة دارة له في قلبها ، يعيش فيها عيش السراة والنبلاء الإقطاعيين . وهذه النُزُلُ الريفية كانت تبدو كأنها حصون حصينة ، تحيط بها الحدائق الغناء حيث يتوفر القنص والصيد على انواعه ، تملؤها الابراج والقلاع . ليس عندنا فكرة قط عما كانت عليه بالفعل هذه الدارات في عهد الامبراطورية ، ولعلها قد تكون على شاكلة هذه الدور الافريقية المرسومة في بعض النقيشات .

واكثر النماذج شيوعاً وانتشاراً هو النموذج الذي أطل علينا في مكان آخر من ايطاليا . فاذا كان على الملاك الكبير في شبه الجزيرة الايطالية ان يسكن بين املاكه واقطانه ، فقد اتخذت الدارة ، قبل نهاية العهد الجمهوري ، طابعاً مستقلاً عن استثمار الارض . وقد اخذ الناس بالزي المستبد بالعرف : فراحوا ينشئون لهم مراكز للاصطياف ، بالقرب من شواطئ البحر او في بعض المواقع الجبلية ، ذات المناظر الطبيعية الفتانة ، من جبال اللاتيوم ، او في نقاط معينة مشهورة ، مثل توسكولوم وتيبور . ففي عهد الاسرة اليوليو - الكلودية كان كل ابناء الطبقة الارستوقراطية العليا قد انشأوا لهم ، في هذه المراكز ، بيوتاً جميلة للغاية حيث تتوفر كل اسباب الراحة واللبو . وهذا النمط بعينه انتشر في الولايات الغربية اكثر من اي نمط آخر ، لما يوفره لاصحاب الدارة وسكانها من هدوء وطمأنينة وسلام ، ولسيد الدارة ، من نفوذ وشأن بين سكان الريف ، حيث كانت تتم للسيد : المشاركة على مزارعه ومزروعاته ، وتوفير له كل اسباب الاستجمام والراحة . فالدارة السكن ، وحدها مشروع قائم بذاته ومنهاج . والذي يتوق اليه صاحب هذه الدارة ويرغب فيه هو تقليد المنزل الثري في المدينة ، بحيث لا يلبث ان يصبح هذا المنزل الدارة المفضلة . بالطبع ، ليس من المتوقع قط ، ان يكون عدد الوافدين والزائرين ، من ضُحْبٍ وخلان ، على نسبة ما هم عليه في المدينة ، كما تنقص بالتالي وتقل ، علاقة سيد الأرض برجال الادارة والبرسميين من ممثلي الحكومة . ولذا تصغر مساحة البهو أو صالة المنزل ، ويقتصر فيها على ما يؤمن لصاحب الدار ولذويه ، متعة الحياة وهناءة العيش الرخي ، كالاروقة المنتصبة على البواميد ، والحدائق

والرياض الغناء بعد ان اتسعت الأرض ورحبت منها الارحاء ، وعلى نسبة الموارد والدخل الذي يؤمنه الاستثمار لتوفير اسباب الراحة واللذة . ينفرج الرئاج عن غرف يزداد معها المنزل طولاً ، كما يزداد عرضاً بما يضاف عليه من اجنحة جانبية تقوم بينها افنية واسعة رحبة ، وأروقة مستطيلة . ويأخذ بعض سراة القوم بمضاعفة الغرف بحيث يتوفر بينها اكثر من ردهة للاستقبال ، واكثر من غرفة للطعام ، والعديد من الغرف ، لفصلي الصيف والشتاء ، تجهز الاخيرة منها بشبكة للتدفئة على الهواء الحار . وكثيراً ما نرى في الدارة مكتبة عامرة بالكتب والمؤلفات مع كوى في الجدران ، لاقامة الانصاب والتماثيل ، كما نرى الحمامات . وتقرش ارضية الحجر بالفسيفساء كما يتبدل من الجدران رسوم وصور فنية . وكثيراً ما كانت الجدران والعواميد تغطي بانواع فاخرة من الرخام الجليل كالبرفير ، كذلك كانت تقام في الحدائق أكشاك تلتف حولها الاغراس المتعرجة يتخللها منزهات وملاعب وميادين ، لضروب الفروسية على انواعها وسباق الخيل ، واحواض للسباحة وفستقيات تنطلق منها المياه واحواض لتربية الاسماك على أشكالها . ويقوم تحت تصرف سيد الدارة الكثير من العبيد والارقاء لتأمين أعمال الفلاحة والزراعة والاشغال الاخرى التي يتطلبها حسن استثمار الارض ، تحت اشراف وكلاء ورؤساء ورش ، مما يزيد من نفوذه وعلو شأنه في المنطقة حتى وفي المدينة القريبة ، فينصرف بعد انتهاء عمله الرسمي في الوظيفة ، أو بعد إحالته على التقاعد والمعاش ، الى العيش الرخي يستمتع بما تم له من نعمة سابغة وبما يوفره له غناه وثروته الطائلة من متع ذهنية ، ومسرات مادية .

وقد تختلف هذه الدارات التي عرفت منها ايطاليا عدداً كبيراً ، بعضها عن بعض بنسبة غنى اصحابها واخدم باسباب الحضارة . ومن هذه الدارات الفخمة : دارة آل لورنتس ودارة آل توشي ، التي خلد بلين الاصغر ذكرها من خلال الوصف الأخاذ الذي تركه لنا في رسائله المشهورة التي وضعها في عهد الاسرة الانطونية . اما في الغرب ، فالحفريات الأثرية التي جرت هناك ، كشفت لنا عن العديد من هذه الدارات في مقاطعات بريتانيا ، ورينانيا وغاليا ، ويعود معظمها للقرن الثاني ، وهي بعد ، لم تبلغ الذروة في تطورها نحو التكامل ، كما لم تبلغ هذا البذخ الذي تم لها بعد ذلك . وهذا البذخ وهذه الابهة التي تجلت في الدارات الريفية يؤلف تكديباً لمن يدعي وقف الحضارة وإقصارها على المدن دون سواها ، انما يبدو في الريف اكثر فردية واثرة ، واقتصر على طبقة معينة من الناس اقامت رخاءها على بؤس الشعب وشقائه .

خاتمة المطاف

يجب ان نوسع من نظرتنا الى الافق . فعندما لا تفرض الانجازات الفنية التي طلعت بها مدينة ما ، نفسها بنفسها ، بما لها من قيمة جمالها ، فالن يبقى لا قيمة له إلا بنسبة ما يؤلف عنصراً زخرفياً للبناء القائم . ليس من عجب قط ان نختم بحثنا هذا عن المجهود البنائي الزخرفي بملاحظات تتناول كل حضارة الامبراطورية الرومانية ، في طورها الاخير .

بين هذه الملاحظات ، ملاحظة ليست جديدة ، طالما سبق وأبديناها من قبل حضارة نبلاء أكثر من مرة. فبالرغم من هذه النزعة الانسانية التي انبثقت عن هذه الفلسفات اليونانية بقيت هذه الحضارة ، قاسية ، لا ترحم ، شديدة الوطأة على الطبقات الاجتماعية الدانية ولا سيما على هذه الطبقات الريفية منها ، فسخرتها بلا رحمة لتأمين حاجاتها ولما نعمت به من كاليات. والحال ، فالكاليات استنفذ انتاجها قدرأ كبيراً من الوسائل التقنية المعروفة اذ ذاك ، وفي سبيل تأمين هذه الكاليات ، هدر جانب كبير من ثروة الدولة ، وقدر كبير من الجهد البشري لتأمين رفاهية أقلية ضئيلة ولتوفير ما يضيف على حياتها : البهجة والغبطة والسرور ، او ما يؤمن لها زينة الدنيا ، دون ان يعود هذا الجهد وهذا الانفاق بشيء يذكر على تطوير وسائل الانتاج ، كما ان هذه الطبقات الكادحة لم تقدر ، حتى في أكثر الحالات ملائمة لها ، سوى شيء يسير من هذا كله. وبأحسن الحالات ، لم تجد هذه الطبقات سوى درس ثقافي لم يؤثر فيها على الصعيد الديني اية عاطفة او شعور يعوض عليها ما سَخَتْ به من عمل شاق. ففي مدينة بومبي المزدهرة كما في روما الامبراطورية ، نرى السواد الاكبر من المساكن والمنازل في حالة مدقمة من الفقر والقدارة . فهاذا نقول عن أكواخ الفلاحين التي تكاد تخلو من الضروريات ، فلم يبق او يصلنا منها شيء ؟

مشكلة التوازن لم تكن مشكلة النظام الاجتماعي الوحيدة . فنتى يا ترى ، وحدة اطراد فقدت هذه الوحدة قيمتها وأصبحت اطراداً ؟

فن أشتات هذه الولايات المتباينة ، كونت الامبراطورية دولة ، تولى الامر فيها رجل فرد ، كان من أولى واجباته نحو روما ، تحقيق مثل هذه الامبراطورية او السعي نحو هذه الغاية بعد ان تنكبت العهود الماضية عن تحقيق مثل هذا الامر ، او باءت المحاولات التي بذلت في هذا السبيل بالفشل ، فكان ذلك كله مبرراً في نظره لمعاودة الكرة وتحقيقه. ولكي يؤمن لهذه الدولة ، ما يلزم من قوة وسلطان ، راح هذا السيد المطلق يحاول ، عن سابق قصد وتصميم ، افراغ هذه الولايات الاقليمية في قالب واحد. فكتب له النجاح في ما يتعلق بالادارة وما يتصل بها ، وتدخل شخصياً لكي يزيد من قوه التطور الذي اخذت الامبراطورية بأسبابه في المجالات الاقتصادية والاجتماعية ما لا يمكن لاحد نكرانه. إلا انه باء الفشل عندما راح يحاول تحقيق الوحدة الدينية لهذه المراسم وطقوس العبادة الرسمية ، وهي وحدة تمت فيا بعد لغير هذه الطقوس والعبادات . اما في المجال الفكري ، فالوحدة تحققت بالرغم من الازدواجية اللغوية . ولكن ماذا من الفن بعد هذا ؟

لا يستطيع احد ان ينكر ما تم من وحدة في هذا المجال . كذلك لا يصح اطلاقاً لاحد ان يتجاهل بعض الفروق والنزعات الاقليمية التي طبعت مظاهر هذا الفن. فاليونان وآسيا الصغرى وسوريا ومصر ، لم تكن اراضي جديدة او شبه جديدة ، كما كانت افريقيا واسبانيا او غالبا . ففي مصر ، الامبراطور هو فرعون ، ولذا لا نراه يتنكر للفن المقدس . ففي عهد تراجانوس ، أقيم

الكشك الذي اشتهر به هيكل فيليه . فبعلبك المشهورة باسم هليوبوليس ، وتدمر بما تم لها من العماير الفخمة، ومن الاعمدة الضخمة وما فيها من وفرة الزخرف ، لا تشبهان بشيء، مدينة تمغاد او كولونيا. ومع ذلك ، فهذه الفروق زالت وانتفت امام هذه المثل المشتركة التي هدفت كل المدن الرومانية لتحقيقها .

اما المشكلة الصميم ، فشكلة هذا الغرب المتخلف عن ركب الحضارة. فلو عرف هذا الغرب ان يتدرج في اقتباسه ، بتؤدة وتمهل ، حضارة ادبية ومادية ، أقل ضغطاً وعنفاً من تلك التي فرضها عليه فاتح غاز ، بقوة السلاح ، انما كان استطاع ان يحقق مثل هذه الحضارة ، بالاعتماد على ما فيه من طاقات اصيلة كامنّة ؟ فالفضل في إثارة مثل هذا الشك يعود لكيل جوليان الذي عرف ان يقف وحده ويعارض نظرية تقليدية استبدت بالمؤرخين . وعلى شاكلته ، يمكن لنا ان نفترض طلوع حضارة اسمى بكثير من هذه المدنية الغالو - الرومانية ، كما يجوز لنا ان نفترض طلوع مدنية اسبانية واخرى افريقية .

ولكن ، هذه كلها افتراضات من وحي الخيال ، واحلام خطرت في البال .

الكتاب الثاني

حضارة العهد الأمبراطوري الثاني

(القرنان الثالث والرابع)

لقد أطلق على هذا العهد اسم العهد الامبراطوري الثاني : ولا يعني هذا الاطلاق سوى التوقيت الزمني فقط .

ليس هذا العهد محدوداً بتواريخ واضحة . وليس في بدايته وفي نهايته ما يتصف بجلاء تلك الوثبات السياسية - الحروب الميذية ، حملة الاسكندر ، الحروب الاهلية التي لقب اوكتافيانوس عنده نهايتها بـ « اوغسطس » - التي تعين او ترافق احياناً ، اتجاهاً جديداً في الحضارة العامة يراه المعاصرون أنفسهم . فمتى ينتهي العهد الامبراطوري الاول يا ترى ؟ كثيراً ما يلحق به عهد سلالة ساويروس (١٩٣ - ٢٣٥) ، مع ان التعديدات التي حققها هذا العهد أعظم عدداً وتأثيراً ، في نظرة هذا المجلد الشاملة ، من ان لا تؤثر على هذا الحلّ حلاً آخر . ولكن الاخذ بهذا الرأي لا يعمي بصيرتنا عن الاعتراضات التي يثيرها . وهناك سؤال أكثر دقة ايضاً لأن الهامش فيه أعظم اتساعاً: أين ينتهي العهد الامبراطوري الثاني ، أي الامبراطورية نفسها ؟ هل في السنة ٣٩٥ ، تاريخ وفاة آخر امبراطور مارس وحده السلطة على مجموع العالم الذي احتلته روما في ما مضى ؟ ام في السنة ٤٧٦ حين فقد الغرب آخر امبراطور له الحق في هذا اللقب ؟ ولكن تواريخ أخرى قد اقترحت ايضاً ، منها ما يسبق هذين التاريخين ومنها ما يتوسطهما ومنها ما يتأخر عنها . واذا ما اقتصرنا على التاريخين الاولين اللذين يجمعان حولهما العدد الاكبر من الانصار ، فالمجاذلات ابعد من ان تهدأ حول الأهمية الحقيقية او الرمزية للحديثين الاول والثاني وحول وعي المعاصرين لهذه الأهمية فوراً او بعد حين . لذلك فبالفضل ألا نختار حتى نحفظ بجزيلتنا ، عند الحاجة ، في ان نتخطى قليلاً او كثيراً حدود القرن الخامس .

وليس هذا كل ما في الأمر ولا أخطر ما فيه . فما هو مفهوم العهد ؟ هل هو المصور القديمة المتأخرة ام هو مقدمة القرون الوسطى ؟ غالباً ما يختار كل مؤرخ بحسب أصوله الشخصية ، وكل مؤرخ على حق في ما يفعل : فتفكك المصور القديمة تدريجياً وتشتد الاسس ، الزمنية او

الروحانية، لما سيفقد القرون الوسطى ، لا سيما اذا ما درسنا هذه الاخيرة في بيزنطية . كل ما هو بشري ينطوي، في كل آن، على بعض القديم وبعض الجديد . بيد ان العهد القديم ، في ما يعنينا ، هو الذي لا يزال حياً في جوهر مفهومه للانسان والمجتمع الذي يحاول التكيف حتى لا يدركه الفناء .

نحن نسلّم جدلاً ان في ذلك تجاوزاً زمنياً . ولكن المهم ليس في ذلك . فمن السهل جداً ، لا بل من الفطري جداً ايضاً، ان نرى في هذه الامبراطورية، «التأخرة» زمنياً ، وفي حضارتها، الاشكال الذابلة والمريضة وحتى الميتة لحقائق سابقة سليمة . بيد ان هذه الحقائق ليست سليمة بهذا المقدار ، واما « روماني الانحطاط » فلا وجود له إلا في نخيلة الرّسامين والشعراء . فهو ليس براء من المعاضل الجديدة او المتزايدة خطورة التي عليه ان يواجهها فحسب ، بل انه لا يندو أقل نشاطاً ولا اقل ابتكاراً من أسلافه في محاولة حلّها . اجل ان من يدرس العهد القديم ويراه ينتج هذا القدر من الآراء التي لا يزال العالم المعاصر يتغذى بها ، لا يستطيع الامتناع عن ابداء حكم اذدرائي امام اهمالها التدريجي . ولكن من يرى آنذاك ايضاً كل تعلقه بالحياة ومقاومته لهجوم القوى المضادة لا يستطيع الامتناع عن ابداء شعور اعجاب بهذه الحيوية المستمرة . اما نحن فلنحاول تجنب حكم الاول وشعور الثاني، فالرؤية والفهم هما اهم بكثير من توزيع المديح والمذمة .

الفصل الأول

أزمة القرن الثالث

في شهر نيسان من السنة ١٩٣ أعلن جيش بانونيا سبتيموس ماووريوس امبراطوراً؛ وفي شهر ايلول من السنة ٢٨٤ ، نادى الجيش الذي حارب الفرس بديوكليسيانوس امبراطوراً ايضاً . ان هذين التاريخيين يحددان عهداً — هو القرن الثالث اجمالاً — مليئاً ببنوادر ازمة متعددة الاشكال ينجم عنها العهد الامبراطوري الثاني . فليست الوثبة السياسية والعسكرية اذن نادرة الحصول بين هذا العهد الاخير والعهد الذي سبقه . غير ان استطالة هذا العهد النادرة وحدها قد تهيّب بنزع هذا الطابع عنه ، فليس من معاصر عاشه كله ؛ وليس من معاصر ذاق آلامه النفسية المبرحة كلها ، الموزعة في الزمان والمكان . وليس من معاصر استطاع التخلص من خداع الوقفات المضحكة التي تخللته ، وليس من معاصر استطاع بالتالي استخلاص معناه الحقيقي . ولكن اكتشاف وحدة العهد يسهل امره اليوم على من لا يتلهى بالاحداث العارضة ، وللمجموع هذه الحوادث من الاهمية في تطور الحضارة العام ما جعل هدف هذا الكتاب بالذات يفرض تحديده مظاهره الرئيسية .

نحن لم نحفر قط ان التوازن الذي حققه العهد الامبراطوري الاول كان توازناً مترجحاً ؛ وان الصعوبات التي برزت في القرن الثالث هي بالضبط ما اتاح في اغلب الاحيان استقصاء وتبيان جرائمها في القرنين الاولين . كانت مجرد جرائم آنذاك وكان بالامكان ان تجهض . ولكنها نمت شيئاً فشيئاً . وجاءت الظروف والإعدادات تعطي الأزمة اتساعها الفائق . فبدا العالم الروماني ، بعد أن عاش عدة قرون عيشة مشتركة ، وكأنه يتفتت جاراً في انهياره الحضارة التي وفر لها الاطار .

ان اول جرثومة اختمرت وخلقت البلية التي افادت منها كافة الجرائم الاخرى
الفوضى العسكرية هي الخطر العسكري الداخلي . وهي اخطر جرثومة حقاً لانها استهدفت القاعدة نفسها لنظام نشأ عن انتصار الاقوى خلال الحروب الاهلية . وهي اقل ما جبهه الرومان من الجرائم : فقد سبق وبرهنت عن مفاسدها خلال ازمة السنتين ٦٨ - ٥٩ . لذلك اتخذ ضدها

المزيد من الاحتياطات : وكان تلاميذ شرها السبب الموجب للنظام الذي اعطته سلالة الانطونيين طيلة قرن تقريباً ، دوام الحياة وسنى العظمة .

اقلع الرومان ، منذ ترايانوس ، عن سياسة الفتح حادتين جهد المستطاع من دور الجيش . واتخذوا حينذاك ، بنوع خاص ، من الخلافة بالتبني ، مبدأ وعقيدة واعتمدوها مستفيدين من ان بعض الاباطرة قد ماتوا دون ان ينجبوا اولاداً . فاباح ذلك اختيار الاجدر بغية التأثير على القادة قبل الجنود .

غير ان الاحداث اخذت على نفسها ، حتى قبل وفاة مارك — اوريل ، اظهار ركافة هذه الاحتياطات . فعلى الرغم من تصميم روما على السلم ، جدت مبادرة العدو الخارجي عهد الحروب الكبرى التي اعادت للجيش شعوره بقوته الحقيقية . فبرهن اقدام اوفيد كاسيوس على اغتصاب السلطة ان القادة ما زالوا معرضين للتجربة وقضى اخيراً انتقال السلطة الى كومودوس على ما في نظام التبني من ايها : كان من شأن الوراثة ان تبرز ، وقد ابرزت فعلاً مرة اخرى ، اباطرة غير جديرين جازت ضدهم ، بعد قطع اي امل آخر ، كافة المؤامرات .

وهكذا فان اغتيال كومودوس قد اعاد الى الجنود ، منذ السنة ١٩٢ ، حتى اختيار الامبراطور . فاسرع رجال الحرس ، لاسيما وهم في خير مركز بفعل وجودهم في روما ، الى وضع لقب الامبراطور ، في مزايده علنية بين طامعين : يختارون بينهما ذاك الذي يعتلي جدار معسكرهم ويعدمهم باعظم عطاء ، اي ما يعادل ٦٠٠٠ درهم للجندي الواحد . ثم جاء دور جيوش الولايات التي تعلن قائدتها امبراطوراً ثم تحارب احداها الاخرى وتتجه نحو العاصمة لفرضه فيها . خرج سبتيموس ساويروس منتصراً من المباراة الاولى وبدا انتصاره بشيراً بتنظيم المستقبل . فخلفه ابنائه ، ودامت سلالته ، ببعض الصعوبات احياناً ، اربعاً وعشرين سنة بعد وفاته . ولكن اغتيال آخر انسابه ، في السنة ٢٣٥ ، كان فاتحة نصف قرن من الفوضى العسكرية نصبت الجيوش فيه وعزلت عدداً كبيراً من الاباطرة . فعدد هؤلاء اكثر من ان يحصى ، وان المصادر الادبية التي حاولت احصاءهم لم تأت على ذكر بعضهم : ولولا بعض النقود المضروبة باسمهم ، لجهلنا وجود بعضهم . فنادرون لعمري الاباطرة الذين استمروا في منصبهم بضع سنوات . وان غالينوس الذي اعترف به امبراطوراً في روما لمدة ١٥ سنة ، منها سبع بالاشتراك مع والده ، قد تفوق على كافة الاباطرة الآخرين بطول ولايته ، ولكن اقاليم كثيرة لم تخضع له . اما اسعدهم حظاً بعده ، اوريليانوس وبروس ، فلم يتجاوزا خمس او ست سنوات . وكان نصيب الاكثرية الساحقة بضعة اشهر فقط ، ولم يمش احدهم ، بعد المناداة به امبراطوراً ، سوى ثلاثة ايام . اما موتهم فقد كان ما يجب ان يكون . فمنذ كومودوس حتى ديوكليسيانوس مات احداً لاباطرة . اسيراً في بلاد اجنبية ؛ وآخر متأثراً بضربات العدو ؛ واثنان ، احدهما سبتيموس ساويروس ، مصابين بمرض خلال العمليات الحربية ، وسمح اوريليانوس بتنازل منه لا نظير له ، للعطاء الذين استعاد منهم تدمر وغاليا بان يعيشوا ويموتوا بسلام في ايطاليا ؛ ولكن الباقين دون استثناء ماتوا

ضحايا اقرارهم او ضباط اركانهم أو جنودهم او جنود احد منافسهم

ان الفكر بكل والعقل نفسه يتيه حين نحاول جمع وترتيب التفسيرات التي توفرها المصادر - ويحدث ان تستغني عنها - لاختيار وزوال خطوة هؤلاء الاباطرة المتعاقبين ، والحاكين غالباً في آن واحد . فالجيوش تنتخب طامعاً سخيّاً بالأعطيات الحقيقية الفورية ، او بالعود ، وقائداً يوحى لها الثقة بان يقودها الى النصر ، واي شخص آخر تقريباً في بعض الاحيان ، كما لو كان ذلك بدافع اناني ، رغبة منها بالاقتراء بالجيوش المجاورة . ثم تقتل بمثل سرعتها في الانتخاب ، بسبب فشل أو خيبة أمل ، أو شدة قصوى في النظام أو مجرد هوى ، حتى توفر لنفسها اللذة والكسب في انتخاب الخلف . والانتخاب يوازي الحكم بالموت : فاذا امسل البعض في التغلب على القدر ولم يتراجعوا امام الدسيعة ، فان البعض الآخر ترتعد فرائضهم خوفاً ولا يقبلون الا تخلصاً من الموت الفوري . ويحدث احياناً ، في هذه السلسلة الطويلة من الاغتيالات ، ان يتغلب الوجه المضحك الغليظ على الوجه المسرحي المنفر : فهي توفر ، لو ان المصادر اكثر تصريحاً ، حقلاً دراسياً واسعاً للشغفين بالسيكولوجيا الخاصة بالجماعات .

لنفرض الطرف هنا عن أوجه الزيفان ، مقتنة كانت ام غير مفتنة . ان هؤلاء الرجال ، المحشوشين بفعل مشاهم ، يسكرون بقوتهم ولا يتقيدون بالنظام في غالب الاحيان . ولكن انفلات هيجانهم الصاخب والاولي يمتد ، كما نرجح ، عن اندفاع قوى عميقة سنحاول فيما يلي تحديدها . ولا يجوز ان نفعل ان هؤلاء الرجال انفسهم ، وفي الوقت نفسه ، يرضون بالقيام بيوهر واجههم . انهم يتحاربون بين جيش وجيش ، ولكنهم يحاربون العدو ايضاً . ويعرف رؤساؤهم عند الحاجة ، وهم المستفيدون من هذه الهتافات والمقدمون على هذه الاغتيالات ، كيف يعطون المثل في الحزم الانساني وفي القسوة على السواء . وهو الجيش ، في آخر المطاف ، من يختص الامبراطورية بعد ان اسهم في ايصالها الى شفير الهاوية . وتكفي هذه الملاحظات لاقصاء النظرية الساذجة القائلة بمنحون جماعي لا يعقل ، على كل حال ، ان يدوم بهذا الاستمرار طيلة قرن تقريباً .

ان الخطر البربري ، الذي شجعتة فوضى حولت الجيش عن مهمته الحقيقية والذي
الخطر البربري
شجعها بدوره لأن تهديده ربط السلامة العامة بنحس ارادة الجنود ، قد ارتدى بسرعة فائقة طابعاً خطيراً خفيفاً . كان العهد الامبراطوري الاول قد حى العالم المتمدن منه : فوقف في وجه الغزوات ، وحرس الحدود بديقظ ، وطوق وراقب نقاطاً نادرة برزت فيها وادر انشقاق داخلي . فجاء هذا الحل منطبقاً على عالم بربري هادئ نسبياً . ولكنه ما لبث ان أثبت عدم فعاليته حين اخذت تهز هذا العالم ، مرة اخرى ، تيارات عنيفة ، منذ عهد مارك اوريل : ففي السنة ١٦٧ ، اتاح اختراق خط الدانوب لبعض جماعات تهم ، في ما تهم ، كواديين وماركوماثيين ولومبارديين ، اجتياز جبال الألب وبلوغ منطقة فينيتيا . فكتب

ذلك ، اذ ما استثنينا بعض عهود مصر الفرعونية ، نهاية أمتن وأثبت أمن عرفه مجتمع قديم :
نهاية « السلام الروماني » الذي تفتحت في ظله ، طيلة قرنين ، حضارة العالم الروماني .

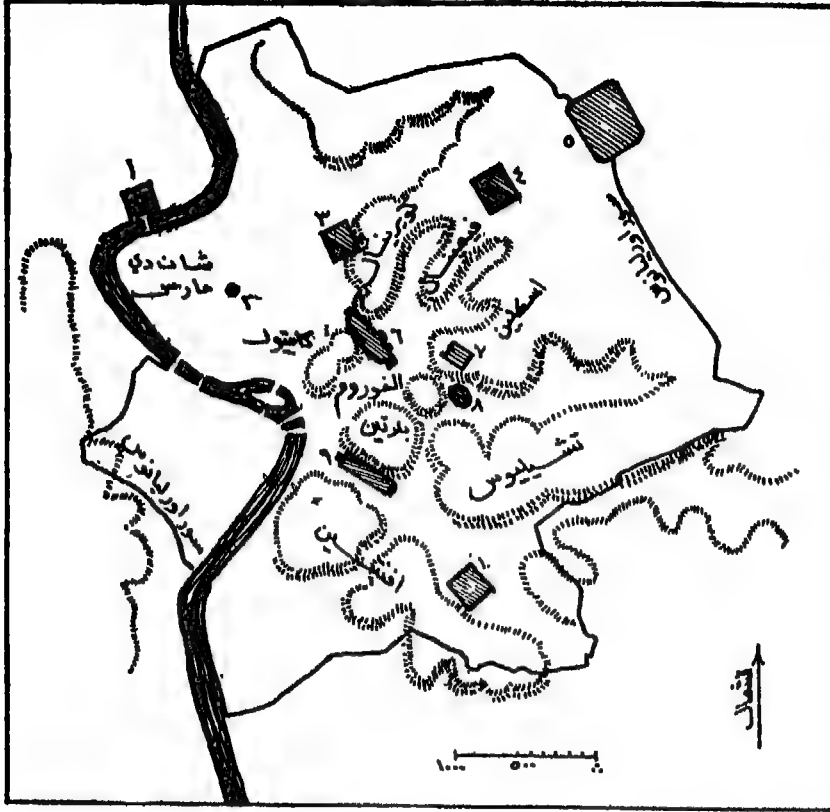
اشدد ساعد شعوب صغيرة ، أهملت عن قصد حتى ذاك العهد لأن احتلال جبالها او صحاريها
بدا باهظ الثمن قليل الفائدة . وفي داخل الامبراطورية نفسها تجمع واهتاج بعض المستائين ممن
أثقلت كاهلهم الحياة النظامية التي ارادت الادارة فرضها عليهم ، وبعض الريفين البؤساء ممن
ضحي بهم لأجل عظمة المدن . وaban الحروب الأهلية التي اسندت السلطة الى سبتيموس ساويروس ،
خلق اشتراك قائد جيش بريتانيا في التنازع واستعانت به بأفضل جنوده بغية تحقيق آماله في غاليا ،
وضمناً أسرع الجبليون الشماليون الى استغلاله على الفور ؛ وتوفي سبتيموس ساويروس في ايبوراكوم
Eburacum (York) اثناء حملة لم تنجح في استعادة سور انطونين بشكل حاسم : فاعتبر
الرومان انفسهم سعداء اذا استطاعوا الاحتفاظ بسور هديانوس . وارتدى مثل هذا
الطابع من السرعة التطور في افريقيا ايضاً حيث قطع البرابرة العصاة خطوط المواصلات بين
الموريتانيين بموازة جبال الريف وغامروا بغزوات بحرية حتى على الشواطئ الاسبانية . وما
لبث البليميون كذلك ان هددوا مصر العليا عند عالية الشلال الاول ، وايزوريو جبال
طوروس ، آسيا الصغرى الجنوبية .

ولكن ما ذكرنا ليس سوى مناوشات لا شأن لها بالنسبة للأخطار الجديدة الكامنة في
اوربا الوسطى والشرقية من جهة ، وايران وبلاد ما بين النهرين من جهة ثانية .

فقد أخذت تحركات بعض الشعوب ، وهي تحركات واسعة وغامضة ،
اوربا الوسطى والشرقية
تقلق السهول الاوروبية الشاسعة . ويغلب على الظن ان مصدر هذه
التحركات لم يكن آسيا الوسطى بعد ، بل يبدو بالتفصيل ان ما بعثها ، في القرن الثالث ، هو نزوحات
انطلقت من سواحل بحر البلطيق ، فافضت بالقوط *Goths* جنوباً حتى نهر الدون ، وبحر أزوف .
فغلى العالم الجرمانى ، بفعل تجمعه في الغرب ، طامعاً بثروات العالم الروماني ، وعاجزاً ايضاً ،
في ارض امسيء استثمارها ، عن تغذية شعوب يستنهضها مثل اعلى قاس هو مثل المحارب المرتبط
إقتساماً لرئيس اختيار طوعاً ولا تقبل بالتنظيم الا في سبيل الحرب .

نحن نجعل التفاعل الذي حدث . فقد زالت قوميات قديمة وبرزت اخرى جديدة . وحدثت
انصهارات لمصلحة شعوب كانت وضيفة جداً في الماضي . وتعلم سكان الامبراطورية ، بذعر يبرره
الاختبار ايماء تبرير ، معرفة اسماء جديدة لشعوب لا يهدتها ولا ينهكها شيء : الساكسون ،
المستوطنون جوار مصب نهر الإلب ؛ والفرنك *Franks* المستوطنون ضفاف نهر الرين السفلي
والاوسط ؛ والألامان *Alamans* المستوطنون ضفاف الرين العلوي والدانوب العلوي ، وقد
دفع بهم الى الامام البورغوندي والفاندال ، بينما اهتاج الكارب والساومات الإيازيين ، على طول
نهر الدانوب وحدود آسيا ، بعد ان حرّكهم القوط والهيرول *Hérules* .

اختل اذ ذاك حبل الأمن في كل مكان ، وباستمرار تقريباً ، حتى داخل الحدود ، منذ موت سبتيموس ساويروس . فقام الساكسون بأعمال القرصنة ، حتى في بحر المانش ، وعلى شواطئ المحيط . وحدث ان اجتاز الفرنك غالبا ووصلوا حتى اسبانيا . ودخل الألمان ايطاليا ولم يهزموا الا في بافيا . واجتاز القوط تكراراً نهر الدانوب بغية غزو تراقيا تارة ومويسيا واليونان



الشكل ١٩ - روما في القرن الرابع

احاط سور اورليانوس بمساحة ١٣٧٢,٥ هكتاراً ، في حال ان مساحة مدينة ارغسطس قد بلغت ١٧٨٣ هكتاراً . ١ - ضريح هديانوس ؛ ٢ - الزون ؛ ٣ - حمامات قسطنطين ؛ ٤ - حمامات ديوكليسيانوس ؛ ٥ - معسكر الحرس ؛ ٦ - ساحات عامة امبراطورية ؛ ٧ - حمامات ترايانوس ؛ ٨ - مسرح فلافيانوس (كوليساوس) ؛ ٩ - ميدان سباق العربات ؛ ١٠ - حمامات كراكلا .

تارة اخرى . واندفعوا نحو البحر الاسود ايضاً وعاثوا فساداً في البوسفور وبحر مرمرية وبحر ايجه نفسه ونهبوا المناطق الساحلية : فاحتلوا افسس وحاصروا تسالونيكي ، ولكن اثينا قاومتهم . عتباً بذل أباطرة كثيرون مزيداً من الجهد او لاقوا حتفهم في مقاومتهم . اجل غالباً - لا دائماً - ما حققوا النصر في المعارك بين الجيوش وحملوا الالقاب الجميدة ، ولكن زمن ماريوس وقيصر ، حين كان باستطاعة روما افناء الجرمانين ، قد ولّى . وقد توجب اكثر من مرة ،

منذ ذلك العهد التخلي عن بعض الحقوق وشراء الانسحاب بالمال ويوعد باطل بالهدوء لقاء فريضة سنوية . ثم عمت طريقة أعطى مثلها العهد الامبراطوري الاول : فمن حيث ان اليد العاملة الزراعية تصبح نادرة في المناطق التي تحتاحها الحرب ، اقيم البرابرة في الاراضي الرومانية وأخضعوا لنظام عطوف نسبياً . واستخدم بعض الاباطرة زمراً أجنبية مأجورة بغية تقوية جيشهم . ولكن كل ذلك لم يحد فتيلاً . استمرت العاصفة حتى ديوكليسيانوس ، فاقفرت الأرياف ، واضطرت المدن الى الانزال داخل اسوار محصنة أسرع الى بنائها أو الى ترميمها ؛ وأحييت روما نفسها ، في عهد اوريلييانوس ، بالأسوار ، متخفية عن بعض الضواحي التي ضمها أوغسطس الى تنظيمها الإداري ، ومستندة في تحديد مكان الأسوار الى أبلية سابقة . وحين عاد بعض الهدوء ، في اواخر القرن الثالث ، كان الثمن تضحيات اقليمية ملموسة : فقد أخليت أقاليم الحدود الملحقة بأملاك الدولة ، كما أخليت داسيا نهائياً . وتراجع الدفاع عن الامبراطورية من ثم الى الرين والدانوب ، حيث ركّزه أوغسطس : فحدث للمرة الاولى ان اجلي ، على غير أمل بالعودة ، عن اراض راسخة الاحتلال .

ربما كان من الممكن أن تبدي الامبراطورية مقاومة أجدى ، لو لم تضطر
 الشرق
 الفرس الساسانيون
 في الوقت نفسه الى مقاومة عدو رهيب : وهي لم تغار قط ، خلال القرنين الاولين ، في خوض عدة حروب كبرى في آن واحد لأنها كانت عالة بمعجزها عن تعهد الجيوش التي تفرضها هذه الحروب . وها هي منذ الآن مرغمة على ذلك . كان عدوها على الفرات ، حتى ذلك العهد ، المملكة الفارسية : جارسجس ، قادر على شن الغارات الجريئة ، وعدو يصعب اللحاق به في فلولات يسهل فيها هرب فرسانه ، ولكنه قليل العناد في الهجوم والعداء العقائدي للحضارة اليونانية التي أخذت روما على نفسها الدفاع عنها في هذه المناطق ، وخضع ضعيف ، خصوصاً بفعل السهولات التي يوفرها للدسيسة الأجنبية تراخي أجهزته ، وجنوح امراء العائلة الملكية وكبار الأشراف . وقد أحرز عليه سبتيموس ساويروس ، بعد جهد عسكري عظيم ، انتصارات مدوية ، واحتل في اعقاب ذلك ولاية ما بين النهرين ، أي ما يقارب نصف البلاد المنبسطة بين منعطف الفرات ودجلة .

تبدل الوضع بعد ذلك بزمان قصير . فقد برز تيار قومي ، يستغل زوال الخطوة الذي استحقته السلالة الارساسية بفعل هذه الهزائم ، ويساند تمرد نبيل فارسي يدعي انه حفيد الاخمينيين . جاء النجاح كاملاً في السنة ٢٢٤ : زالت المملكة الفارسية من الوجود وحلت محلها المملكة الفارسية بقيادة السلالة الساسانية . فطمعت هذه الاخيرة في استعادة امبراطورية داريوس الاول ، من الافغانستان حتى المتوسط . اجل انها لن تبلغ ما تصبو إليه . ولكن المملكة الجديدة اعظم قوة الى حد بعيد من سابقتها . لجأت الى حصرية حقيقية ، ارغم الأشراف بموجبها على الاخلاص وازدادت موارد الملك . أضف الى ذلك ان الديانة المازدية التي اعتمدت بتصلب متعصب قد وفرت للروح الوطنية قوامها وكيانها . وتمتع كهنوت الجوس بتنظيم رسمي

وبامتيازات ، فقدم للملكية عضداً فعالاً . وغدت الملكية من ثم متحدة بذات حضارة هي العدو الدود للحضارة المتوسطية .

لم يلبث الرومان ان ادركوا خطورة التبدل . فقد تعرضت بلاد ما بين النهرين لهجمات متكررة ؛ واخضعت ارمينيا حيث استطاع أحد الارساسيين المقاومة اولاً ؛ واجتيز الفرات اكثر من مرة ، وغزيت سوريا ، وسقطت عاصمتها انطاكية . وجاء دور كيليكيا وقبادوقيا *Cappadoce* اخيراً حين حدثت ، في السنة ٢٦٠ ، الهزيمة النكراء النادرة : انكسار وأسر فاليريانوس ، الامبراطور منذ سبع سنوات بالاشتراك مع ابنه غالينانوس ، على يد « ملك الملوك » سابور الاول (شاهبور الايرانيين) . فأمر هذا الاخير باعداد نقوش تاتئة ضخمة تمثل الامبراطور متصاغراً ، جاثياً أمام الظافر . وتوفي فاليريانوس في الاسر . ويروي التقليد المسيحي ، الذي حقد عليه حقدأ شديداً ، ان جثته حشيت بالتبن وصبغت باللون الاحمر ، وعلقت في احد المعابد ؛ غير ان الرواية غير مقبولة ، أقله فيما يتعلق بهذه الناحية ، لأن المازدية لم تشهد معابد حقيقية . ومهما يكن من الامر ، فقد كان للكارثة الرومانية دويها البعيد في الشرق ، ولم تتمكن الامبراطورية من استعادة بلاد ما بين النهرين إلا قبيل جلوس ديو كليسيانوس على العرش .

ان الحكومة المركزية ، أو بالاحرى الحكومة التي اطلقت على نفسها هذا
أخطار الانقسام الاسم ، لانها سيدة روما ، قد عجزت ، بفعل مواجهتها الصعاب العديدة والخطيرة ، وبفعل الانقلابات العسكرية المستمرة التي شلتها ، عن الوقوف في وجه الخطر الخارجي المائل ابدأ في كل مكان . كان عجزها من ثم عاملاً جديداً من عوامل الفوضى . فضعف تضامن الامبراطورية الضروري للدفاع عنها على يد مسؤول واحد يقدر المهام اللازمة نسبياً بغية تكييف توزيع الموارد عليها . وملت بعض الجيوش والمناطق تقديم المساعدة لغيرها بالرجال والضرائب ، بينما احدثت بها الاخطار من كل جهة . وبرز زعماء عليون متفاوتون جسارة في البدء ، يغيروهم التحرر باستثمار الخدمات التي يؤدونها للسكان والهزائم التي يمنى بها الامبراطور المعترف بسلطته في غير مكان . فدب الانقسام الى جسم الامبراطورية في تقفت الدفاع الاثاني وفي استقلال الاقاليم الدائرية المتروكة لأمرها .

ومما يدعو الى الدهشة ان هذا الانقسام لم يكن أشد بروزاً بفعل قوة الاسباب ومؤاتاة الظروف التي من شأنها تطوير هذا الانشقاق بسرعة . فان النطاق الضيق الذي برز فيه ، اذا ما قورن باتساع الاراضي الرومانية ، لدليل على فعالية عمل الالتحام الذي قام به العهد الامبراطوري الاول . وللمقاومة مثل هذه الازمة ، يجب ان يكون العالم الروماني قد حقق في السابق وحدة أدبية مستقلة عن الوحدة المادية التي أصبحت الآن أثراً بعد عين . فهو قد اجتاز دونما انقصاص مرحلة الحروب الأهلية التي طبعت آخر العهد الجمهوري بطابعها الخاص . ولكن العاصفة كانت أقصر زمناً ولم تلابسها الفوضى العسكرية ولا الهجمات الخارجية الجدية . فعند نهاية القرن الثالث بالذات يمكننا حقاً تقدير متانة مركب متعدد الاجزاء اوجده الفتح وألمه ملاط وحدة الحضارة .

أُصِفَ إلى ذلك ان ما يلفت الانتباه هو ان الدولتين الهامتين اللتين قامتتا على اساس اقليمي واسع ودامتا بعض الوقت ولعبتا دوراً غير عرضي لم تقوما بمحاولات انفصالية حقيقية .

يطلق عادة اسم « امبراطورية الغاليين » على تلك التي حكمها بوستوموس ثم قيتريكوس ، خلال خمسة عشر سنة تقريباً ، في اوائل النصف الثاني من القرن ، في جو سلام عكسه أكثر من حادث خطير . وينطبق الاسم عليها ، لعمرني ، مع انها تمتد الى بريطانيا ، والى اسبانيا مؤقتاً ، ومع انها لا تشمل غاليا الناربونية التي لم تنفصل عن ايطاليا . فهي تكرر القوى التي تجمعها للدفاع عن خط الرين والساحل الغالي غير مبالية باجتياز نهر الرون وجبال الألب . ولكن هذه الامبراطورية تبقى رومانية ، ومن المحال البحث عن أي أثر للقومية الكلتيية في أسيادها الذين يمينون القناصل ويحملون الألقاب الامبراطورية التقليدية ويدونون على نقودهم الاساطير الغائلة بأزلية روما .

اما الدولة الاخرى التي قد تثير الشبهة فهي تلك التي قامت في جوار واحة عربية سورية ، تدمر السامية ، او بليرا . جمعت ثروتها بفضل تجارة القوافل . وكانت في القرن الاول تابعة للامبراطورية ثم ضمت الى ممتلكاتها ، ثم انعم عليها هدرابانوس بنظام تطور مع الزمن حتى غدت مستعمرة . وكانت تختار مجلس شيوخها بين افراد ارستوقراطية من التجار المضطرين للدفاع عن قوافلهم ضد غزاة الصحراء ، والطامعين الى حق المواطنة الرومانية . وفي القرن الثالث احدث فيها الخطر الفارسي القريب تطوراً نحو الملكية . فكان الاباطرة سعداء جداً بتشجيع هذا التطور لأنهم اكتشفوا في زعماء احدى العائلات الكبيرة مواهب عسكرية اسرعوا الى استخدامها لاسيما غداة هزيمة فاليريانوس وسقوطه في الاسر . وفي الواقع قام اذينة بنجاح بهجوم معاكس على ساور : فاستحق اللقب الملكي وحظي باللقاب رومانية على بعض الغموض . وفي السنة ٢٧١ اخيراً ، صمدت ارملته زنوبيا على القطيعة ، بعد ان اقتصحت لها استحالة كل تسوية ، فحملت اللقب الامبراطوري وحملت ابنها الذي كانت تحكم باسمه . فسيطرت تدمر آنذاك على الشرق الروماني أي على سوريا ومعظم آسيا الصغرى ومصر . في هذه المدينة التي أتمت تشييد أبنيتها الفخمة في قلب الصحراء ، ازدهرت في ذاك العهد حضارة مختلفة ، هلينية وسامية في آن واحد ، وبجملتها بالحياة الفكرية بفضل وجود الفيلسوف والخطيب لوجينوس في بطانة زنوبيا ، الذي سيموت ضحية القمع الروماني ، وعاطفة على مذهب توحيد الآراء الدينية الذي شجعه ، على ما يبدو ، مستشار الملكة الثاني ، مطران انطاكية ، بولس الساموزاطي الذي حكم عليه اخيراً بجرم الهرطقة . فمن ذا الذي سيستطيع يوماً كشف سر الاحلام التي راودت زنوبيا ، احد تلك الوجوه النسائية التي يحيطها الشرق بسرابه والتي تسحر الخيالات المعجبة ، على غرار « الجواهر المفقودة في تدمر القديمة » ؟ ولكن يكفي ، لاثبات قوة الطابع الروماني على « الملكة الشهيرة والتقبة سبتيميا باتراباي » - او على مواهبها كمثلة مهازلة - ان نلفت النظر ، وفاقاً لما جاء في « التاريخ الاوغوستي » الى انها كانت تخطب في الجماهير على طريقة الاباطرة الرومانين معتمرة الخوذة

ومرتدية المعطف الأرجواني ، وانها كانت تفهم اللغة اللاتينية دون ان تتكلمها ، « فأرادت ان يتعلمها ابناؤها ، حتى انهم تكلموا اليونانية بصعوبة ، او نادراً على الأقل ، . اضيف الى هذا ، من جهة ثانية ان الشرق كان قد قدم لروما احدى سلالاتها ، اعني بها سلالة ساويروس التي انتقل احد اعضائها ، ايلغايل من كهنوت إله حمص الى حكم الامبراطورية الذي استولى عليه طيلة اربع سنوات .

ندرك من ثم بعض الشيء كيف ان مجدد الوحدة ، اوريليانوس ، بعد انتصاره على تدمر وتخريبها واقصاء قائد جيش امبراطورية الغاليين ، وبعد ان اشرك في موكب نصره زنوبيا وتيتريكوس وأبناءهما على السواء ، اسكن ، في احد مقاصف « تيبور » ، التدمرية التي سئى احقادها في روما بعد مرور قرن كامل ، وأعاد الغالي الى مجلس الشيوخ والى الادارة ايضاً . ويتم هذا الحلم ، على الأرجح ، عن شعوره بأن فائدة عمل هذين الملكين ، بعد كل حساب ، املم وهن السلطة المركزية ، فاقت اضراره للقضية الرومانية .

اعار المؤرخون القدماء هذه الحلال السياسية والعسكرية ما تستحقه من التضخم النقدي الاول أهمية . ولم يقف منها مؤرخ معاصر موقف اللامبالاة . وليس من ريب في ان الجماهير قد تأثرت بها من خلال انعكاساتها الاقتصادية . واذا كانت مسؤوليتها واضحة من هذا القبيل ، فان البلبل التي نزلت حينذاك بحياة الامبراطورية وسكانها المادية تدخل في مجموع هو اعظم اتساعاً الى حد بعيد . فالخلل الاقتصادي في القرن الثالث يشكل ظاهرة تادرة الاهمية بفعل خطورته وشموله وطابع الجدة في بعض مظاهره .

للمؤرخ اليوم عذره اذا ما شدد على ظاهرة التضخم النقدي الذي زاد الازمة خطورة ، فبعثته هي بئساً مستمراً ايضاً . وهو ليس اول تضخم يمكن تتبع تطوره المتزايد باطراد فحسب ، بل هو ايضاً اول تضخم عرفته البشرية . واذا لم تستطع ضحاياه تحليل اسبابه وجوهره ، فان عاقبته كانت قاسية جداً .

برز الخطر باكراً جداً بوقائع نقدية . ومنشأ هذه الوقائع قديم العهد لان العهد الامبراطوري الاول ، لا سيما فيما يعود للقطع الفضية ، لم يستطع المحافظة على استقرار تام . فنند سبتيموس ساويروس ادى المجهود العسكري الى زيادة النفقات . فزادت باستمرار بينما كانت الواردات الاميرية آخذة بالتناقص . وقد احدثت الحاجة ، لسد العجز ، على الرغم من المصادر ، الى تقرير التضخم يشكله البدائي أي بافساد معدلات المعادن المركبة الذي حتمه فيما بعد انخفاض الانتاج في المناجم ثم الانفصال الذي قطع الولايات الغربية ، وهي اغنى الولايات بالمناجم ، عن باقي الامبراطورية . وتمزق المصادر الى كركلا ، ابن سبتيموس ساويروس وخلفه ، مبادرة هذا التطور الكارثة . ولعل مقتصر ، كما نرجح ، على اتخاذ قرارات رسمية ، بدلاً من التدابير الخفية ، فمنذ عهد والده انخفض عيار الدينار الفضي بمعدل الثلث . ومها يكن من الامر ، فان كركلا قد انقص ١١ ٪

من وزن الـ « اوريوس » ، وحدث قطعة فضية جديدة ، الـ « انطونيانوس » ^(١) الذي ما لبث وضرب بكميات كبيرة وحل أخيراً بصورة نهائية محل الدينار القديم : فقد خفض عياره ٥٠ ٪ بالنسبة للدينار وكان ضعفه وزناً ، اي أكثر من خمسة غرامات بقليل ، وضعفه قيمة . وقد بدأ الافساد ببعض السرعة ثم ازدادت هذه السرعة ازدياداً فائقاً منذ السنة ٢٥٠ بنوع خاص . اما عيار القطع الذهبية فلم يفسد ، ولكن ما ضرب منها كان قليلاً ومتفاوت الوزن جداً . وانخفض وزن « الانطونيانوس » حتى ثلاثة غرامات تقريباً ولم يتوقف انخفاض عياره عند حد : فتمصر الفضة لا يتجاوز الـ ١ ٪ في بعض قطع النقود المضروبة باسم غالينوس أو باسم كلوديوس الثاني . ولما كان النحاس نفسه غالي الثمن فقد اتجهوا الى الاستعاضة عنه بالخارصين والقصدير والرصاص .

نتيجة لذلك ، تعددت اصدارات هذه القطع الفضية المزعومة ، لا سيما وان ارتفاع الاسعار قد فرض مضاعفة وسائل التسييد وان كل امبراطور جديد ، مهما ضاقت رقعة سلطته ، كان بحاجة الى سك النقود بغية تأمين الموارد . فارتفع عدد المصانع النقدية ارتفاعاً كبيراً ، مما جعل الرقابة عليها امرأ صعباً وافسح المجال امام الكثير من الاختلاسات . وقد اكتشفت ، ولا تزال تكتشف ، مئات الالوف من قطع القرن الثالث هذه التي تم عيوبها عن السرعة في انجازها . ولم تتحسن السياسة المالية بعض التحسن الا في عهد اوريليانوس الذي اضطر ، من جهة ثانية ، الى قمع ثورة ضاربي النقود في روما حين اقفل مصانعهم ، والذي توفر له المعدن الثمين بعد استعادة تدمر وغاليا .

الف العالم المعاصر ، منذ اربعين سنة ، التضخم وتناثجه التي لا يستغريها احد : غير ان ما لم تتوصل التقنية المحكمة الى التغلب عليه قد ناء بثقله على مجتمع غر واعزل .

بدى ان انخفاض وزن وعيار القطع النقدية الجديدة قد ادى الى اختفاء القطع القديمة الجيدة التي جمعتها السلطات للصهر او خزنها الافراد . وعندما اختل الامن ، املت هذه الكنوز المكدسة في مخابئها بعد وفاة مكديسيها : وتساعدنا خريطة المكتشفات التي تنظم اليوم ، وتواريخ طمرها ، التي يمكن تعيينها على التقريب بواسطة احدث القطع عهداً ، على استعادة تاريخ تنقل زمر الغزاة ، لا سيما الفرنك والالامان منهم ، في غالبا ما بين السنة ٢٧٥ والسنة ٢٧٨ .

بدى ايضاً ان التضخم قد افضى الى ارتفاع الاسعار بسرعة . بدأ هذا الارتفاع في عهد مبكر ، وقد فرضته اسباب اخرى اهمها انخفاض الانتاج العام . ولكن هبوط النقد الى الحضيض قد اسهم في ذلك اسهاماً عريضاً . غالباً ما فسرت النصيحة التي يقال ان سبتيموس ساويروس قد اسداها الى اولاده تفسيراً حرفياً - « اغنوا الجنود واسخروا من الباقين » - بقية نسبة زيادة الاجر العسكري ، بمعدل النصف ، اليه ، في حال ان كركلا هو الذي حققها . غير انها في

(١) ارتبط سبتيموس ساويروس ، بثن صوري ، بسلالة الانطونيين ، وقد دعي كركلا رسمياً « مارك اوريل انطونين » . - وينكر بعض العلماء ان يكون « الانطونيانيوس » قد سواى دينارين .

الواقع تكاد لا تعوض عن انخفاض النقد ، ويغلب على الظن ان الغاية منها كانت اعادة القيمة الشرائية للاجر القديم . ثم ارتفعت الاسعار باستمرار . وتوفر لنا البرديات المصرية ، وهي في العهد الروماني اكثر منها في العهد اللاجي ، ابلغ ايضاحات بهذا الصدد: فقد ارتفع سعر الحبوب عشرين ضعفا بين السنة ٢٥٥ والسنة ٢٩٤ . وقبل التسليم بمرسوم الحسد الاعلى الذي اصدره ديوكليسيانوس ، حاولت زيادة الاجور والهبات عبثا للحاق بهذا الارتفاع . فوزعت بعض القطع الذهبية حين يكون ضربها امراً ممكناً . ثم املت الحاجة بتسديد اجور الجنود والموظفين عينا . ولكن الاختبارات المعاصرة تحملنا على الاستنتاج ان اية حيلة من هذه الحيل لم توفر لذوي المصالح ما يعادل النقد الثابت .

وبديهي ايضاً ان المضاربات النقدية قد رافقت تضخم النقد وانخفاض قيمته الذاتية . عبثاً حاولت السلطات ايقاف تيارها قسراً ومعاقبة تجارة النقد في السوق السوداء والمحافظة على السعر الرسمي . وماذا تستطيع الدولة عمله ، في عهد الفوضى هذا ، ضد تيار على مثل هذه القوة ؟ فقد حدث ، في مصر نفسها ، ان المصارف المرتبطة بالادارة ارتباطاً وثيقاً ، قد رفضت احياناً النقد الامبراطوري . وتهافت الناس على القطع البرونزية الصغيرة على الاقل التي لم تباع بأكثر من قيمتها . ولكن مجلس الشيوخ والمدن الذين كانوا قد احتفظوا بحق ضربها اوقفا الاصدار الذي غدا باهظ الاكلاف بسبب ندرة المعدن . فكانت النتيجة ، مع فقدان السمات النقدية التي توحى الثقة ، تجميد التداول وتهديم الأسس الاولى لحياة اقتصادية ترتكز الى شيء آخر غير المقايضة .

وبديهي اخيراً ان التضخم قد قضى على كل ما بني منذ قرون على امتلاك واستثمار رؤوس الاموال المنقولة: يسار الطبقات الوسطى ، ومؤسسات عديدة ذات صالح جماعي .

وهكذا ، فان التضخم النقدي ، في موجة معقدة من الاحداث وانعكاساتها الكثيرة ، قد لاشى موارد الدولة في الوقت الذي ازدادت فيه نفقاتها ، وحكم على نفسه من ثم بتصاعد دائم لا حد له ، وغدى الفوضى ، وقلب المجتمع ، وألقى على الارض ، في انهيار عام ، ينجيات كاملة من حضارة درج الناس على الاعتقاد بأنها الحضارة المتينة الوحيدة التي باستطاعتها اسعاد البشر .

ولكن الازمة الاقتصادية برزت في ذاتها ، مستقلة عن التضخم النقدي الذي
الازمة الاقتصادية فرضته الضائقة المالية على الاباطرة . وان اسبابها ونتائجها أكثر من ان
وعواقبها الاجتماعية تعد ، وغالباً ما تكون نتائجها اسباباً ثانوية تسهم في زيادة خطورتها . واذا
ما شعرنا هنا بمرارة فقدان الاحصائيات ، فان ذلك لا يمنعنا من مشاهدة تشابك البلية العظيمة
التي تجتاح العالم الروماني الشاسع .

انخفضت كثافة السكان بفعل تطور الاخلاق السابق ، وبفعل الغزوات ، والحروب الاهلية ، واعمال السلب ، والابوثة التي تعقب كل هذه الشرور . اجل لم يبرز هذا النقص ، في بعض المناطق ، إلا في عهد متأخر . ولكن افريقيا ، التي نجت منه حتى آخر عهد سلالة ساويروس ،

قد منيت به أيضاً ابتداء من الاضطرابات التي انفجرت في السنة ٢٣٨ .

كانت النتيجة نقصاً في اليد العاملة النشيطة برز اثره في الارياف والمناجم بنوع خاص ، فكان كارثة شاملة لأنه أفضى الى هبوط في انتاج يمول عليه . فانتهاز الأشقياء فرصة الفوضى وخرجوا من الامكنة المحددة لهم : وقد حدث أكثر من مرة في صقليا وغاليا ومصر ان عاثت زمر الفارين والفلاحين والعمال الهاربين في المناطق الريفية فساداً . وزادت في الطين بلة المصادر الوحشية بغية سدّ حاجات الجيوش ، او حاجات سكان المدن حين يكون عضدهم ضرورياً . فنزلت الكارثة بمناطق الحدود خصوصاً : فأسكن البرابرة فيها ، في البقاع الخالية من السكان . ولكن الغزوات الموهلة وتنقلات الجيوش وهجوم الواحد منها على الآخر خلقت القلق المضرب بالانتاج : فان بعض الفرنك المستوطنين في تراقيا مثلاً قد نجحوا بجرأ ولجأوا الى المنطقة الريمانية .

وبوجه أعم أيضاً، توقف تداول المصنوعات . فلا مجال من بعد ، عملياً ، لقيام تجارة دولية . اما التجارة بين مدينة ومدينة ، وولاية وولاية ، ومنطقة ومنطقة ، فتقهقرت أيضاً امام اللصوصية مرة أخرى في البر والقرصنة في المتوسط وبحار اخرى نجح البرابرة في التسرب اليها ، وامام خطر المصادرات وما تستتبعه من تخريب في مواد النقل وانقاص في عدد الزوامل . فعرفت المدن العاقبة ، حتى تلك التي لم تعرفها قط في سالف الزمان . وانقطع اتصال روما احياناً بمصر او افريقيا اللتين تؤمنان لها ، في الظروف العادية ، معظم مؤنّها . ثم أصاب الشلل نشاط الصناعة اليدوية والتجارة الذي هو نشاط المدن في الدرجة الاولى .

أضف الى ذلك ان كافة مظاهر الحياة البلدية ، التي كانت مزدهرة من قبل ، قد اخذت في الهبوط والسقوط . وانخفض دخل الضرائب البلدية ، كما تناقص سخاء البورجوازية التي كانت تستنفد رؤوس أموالها دون امل بتجديدها ، والدخل العقاري ايضاً . فكان ذلك نهاية التحسينات التي تنشط الاقتصاد وتوفر الاجور للطبقات العاملة . ولم تبأ آنذاك سوى الاسوار تقريباً بغية الدفاع عن المجموعات السكنية التي غدت قليلة السكان .

وهكذا ، بتجمع هذه الاسباب ، ليس الازدهار الماضي وحده ، على تفاوت توزيعه ، ما انتهى الى الزوال . فان ما زال ايضاً هو العناصر الجوهرية للجهاز الاجتماعي في العهد الامبراطوري الاول : تنظيم اليد العاملة للمشاريع الكبرى والانتاج الزراعي ؛ نظام الرقي البشري التدريجي الذي يقابل الرفاهية في المدن ، وهو المثل الأعلى للحضارة المتوسطة . لذلك فان الازمة الاقتصادية تمثل احد العوامل الرئيسية للاضطراب الذي سيطر آنذاك على المجتمع .

كانت نتيجة هذا السيل من خيبات الامل والبلبلية والمصائب العامة أو الخاصة إثارة الازمة الدينية التي اخذت بالظهور منذ القرن الثاني .

الاضطرابات الدينية
الاضطرابات العامة الاولى

ابتعدت النفوس عن العبادات الرسمية ، ولم تكن لتفكر بالعودة اليها . فقد غدت وعود هذه

العبادات ، امام واقع النكبة ، موضوع هزء وسخرية . للسلطات حريتها في تأدية الایماءات التقليدية ، التي تناقصت ایهتها من جهة ثانية ، وفي توزع القاب « إلهية » جديدة ، ولكن كل ذلك ليس سوى طقوس باطلة بعد اليوم . واخذ قلق البشر ، فرديا كان ام جماعيا ، يبحث عن ضمانات اخرى في تعزيات اخرى . فوجدها حيث قام بالبحث عنها من قبل ، اي في العبادات الشرقية ، بما فيها النصرانية ، وفي مذهب توحيد الآراء الذي يعبر عن نزعة واخزة الى حماية اعظم لانها توفق بين كافة القوى الفاتئة الطبيعة . ولكن البلبلة الدينية قد اتخذت ايضا ، في الصراع ضد النصرانية ، اشكالا سلبية وحاقدة .

لا ريب في ان اكثر من مسيحي ، آنذاك ، قد فسر على طريقته الخاصة واستغل احوال هذه الحياة . ومال الوثنيون بالفطرة الى جعل اتباع هذه الديانة المنشقة مسؤولين عن هذه الاحوال : ان القوى الالهية ، ايا كانت ، تتأثر من عموم السكان ، انتقاماً من جساسة الملحدین . فحدث من ثم ، احيانا ، وعلى غرار ما حدث في العهد السابق ، ان طالبت الجماهير بالتدابير العنيفة ، واذا هي لم تطالب بها فانها تستصوبها وتهلل لها ابدأ .

بيد ان غضبها ، في الواقع ، لا يفضي ، في حال تدخلها ، الا الى خلق الحوادث المحلية او تجسيمها . وان الاضطهاد ، على الصعيد العام ، ابعدها عن ان يكون مستمرا . اجل اتصف هؤلاء الاباطرة الكثيرون بالشدة ؛ فقد قدروا ثمن الوحدة الادبية ، وكانت غريزتهم كافية لان توقفهم في وجه عقيدة بدت لهم وكأنها تثني مؤمنياها عن واجباتهم نحو الدولة . الا ان المصاعب الخارجية والداخلية ، بصرف النظر عن تنوع ميزاتهم الشخصية التي يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار ، قد حدثت من حريتهم في العمل .

استفاد المسيحيون اذن ، في اغلب الاحيان ، من تساهل السلطة . وتساهلها لامبالاة مقسورة ، وعطف في بعض الظروف الاستثنائية فقط . فقد استدعت احدى الاميرات السوريات ، ابنة شقيق سبتيموس ساويروس ، الى انطاكية ، المعلم السابق في مدرسة الاسكندرية المسيحية ، اوريجينوس وبادلته اطراف الحديث . وقد وضع ابنها ، الامبراطور ساويروس ألكسندروس ، صورة يسوع في مُصَلَّة ، الى جانب صور ابراهيم واورفيوس وغيرهم من عظام الرجال . وربما كان فيلبوس الاول « العربي » مسيحيا — اول امبراطور مسيحي — كما نلاحظ او نقدر بعض العطف على المسيحيين في بطانة بعض الاباطرة . ولكن العداء المستحكم واقع يتكرر غالبا .

وقد برهنت الاعمال عن هذا العداء احيانا . فان سبتيموس ساويروس ، الذي كان مسائرا تقريبا ، انتهى الى منع ومعاقبة الارتدادات الى اليهودية والمسيحية . وصدرت آنذاك احكام عدة بالوت ، تحت ضغط الجماهير ، في كل مكان تقريبا : فان « آلام القديستين بريتوا وفيليشيتا » اللتين نفذ الاعدام بهما في قرطاجة في السنة ٢٠٣ مع مسيحيين آخرين كثيرين ، واحد من اعظم النصوص تأثيراً في سير الشهداء .

ولكن الحوادث كانت متفرقة آنذاك ولم تتناول التداير ، في أسوأ الحالات ، سوى منطقة واحدة . اما التجديد العظيم فقد ظهر في منتصف القرن الثالث . ففي السنة ٢٥٠ أولاً ، ثم في السنتين ٢٥٧ و ٢٥٨ ، دشنت بعض البراءات الاضطهادات العامة النظامية : ارغم داسيوس المسيحيين على تقديم الذبائح للآلهة او اقله على تقديم شهادة تثبت القيام بذلك ، ثم جدد فاليريانوس هذا الأمر وحدد سلّم العقوبات للمخالفين ، الموت لاعضاء الاكليروس والنخبة اطلاقاً ، والاشغال الشاقة للآخرين . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى ديوكليسيانوس ، على ان العمل بالبراءات لم يدم طويلاً . فان هوماً اخرى كثيرة قد شغلت بال هؤلاء الحكام وخلفائهم : مات داسيوس في حربه ضد القوط منذ السنة ٢٥١ ؛ ولم يسر غالينوس على سياسة ابيه الذي اسره الفرس منذ السنة ٢٦٠ . ومع ذلك فقد كان الاضطراب عميقاً وكانت الضحايا كثيرة بين الطوائف المسيحية . لا نستطيع هنا اثبات ما اذا كان نحو هذه الطوائف قد تأثر بهذه الاضطهادات التي لم توقفه على كل حال : فمشاهد وآلام الحياة الارضية تقوي بالضرورة الامل بمكافآت الحياة الأخرى . ومنذ قبل نهاية عهد الانطونيين ، كانت جذور الديانة المسيحية أعمق من ان يستطيع العنف اقتلاعها . فهي ، من حيث عدد اتباعها ، ومن حيث مزاييم الاجتماعية غالباً ، تمثل قوة لا يستطيع احد ، في ايام تلك المنافسات ، ان يهملها .

غير ان وجودها وانتشارها في قلب الامبراطورية قسداً زاداً في اضطراب وتصعد مجتمع انقضت عليه آنذاك كل هذه الأعاصير .

فالأزمة من ثم واقع راهن متعدد الأشكال ، وقد شدتنا الكلام عن الثورة الاجتماعية وداعي المصلحة العليا قصد ، في تحليلنا اياها تحليلاً مستفيضاً ، على ما فيه من ايجاز ، بالنسبة لواقع الحال ، على تعدد وتشابك مظاهره وأسبابه . ومن العبث محاولة رد هذه وتلك الى الوحدة .

من الواجب ، والحق يقال ، ان نغير اهتماماً كبيراً التفسير العام الذي قدّمه منذ ثلاثين سنة مؤرخ روسي الأصل ، هاجر بلاده بعد ثورة السنة ١٩١٧ - وكأنه معد لفهم اشياء كثيرة - هو ميخائيل روستوفتزييف *Michaël Rostovtzeff* . فقد عبرت الفوضى العسكرية في القرن الثالث ، من وراء احداثها اليومية ، عن ثورة اشد الطبقات الفلاحية خشونة ، التي ينتمي إليها الجنود ، على كبار الملاكين العقاريين والبورجوازيات البلدية ، أي على كافة المنتفعين بالنظام الاجتماعي والسياسي السابق الذين دانوا بسلطتهم وترفهم لاقتسار واستئثار الوضعاء . فهي من ثم ثورة اجتماعية شبيهة بكل الحركات الماثلة ، يرافقها انفجار الاحقاد وفضاعة الانتقام وانفلات الفرائز البدائية . ونحن نلص الدافع اللاواعي الذي خضع له منفذوها الرئيسيون بفضل بعض الدلائل : معاملة قاسية نادرة عوملت بها بعض المدن التي رافقت احتلالها اعمال التقتيل والنهب ، (بيزنطية) في السنة ١٩٥ ، و (ليون) في السنة ١٩٧ ، و (قرطاجة) في السنة ٢٣٨ ، و (أوتين) في السنة ٢٦٩ مثلاً ؛ الارهاب ، لا سيما في عهد أباطرة سلالة ساويروس الأولين ، الذي استهدف

الطبقة المجلسية ، فتعرضت لأحكام بالموت ، ولمصادرات لا تحصى ؛ التدابير السياسية والإدارية التي حصرت دور المجلس والشيوخ ؛ التدابير التي فرضت على العناصر الميسورة من سكان المسند أعباء مالية واقتصادية ثقيلة جداً .

ولكن كلاً من هذه الأحداث ، أو مجموعات الأحداث ، إذا ما استجاب لنزعة عامة لا شك في وجودها ، يستجيب أيضاً لضرورات ملحة مباشرة : معاقبة وتقويض كل مقاومة ؛ المعجز المالي والضائقة الاقتصادية ؛ التصميم ، مهما كلف الأمر ، على تسيير الدولة ، كيفما كان التسيير ، على الرغم من الحروب الأهلية والخارجية التي تشل حركتها . لذلك ، فإن التفسير الاجتماعي ، مهما بلغ من اتساعه ، يبدو محدوداً ، ولا يعالج سوى ناحية واحدة : وإن ميخائيل روستوفتزييف ، بعد أن قدمه في السنة ١٩٢٣ ، قد ادخل عليه بعد ذلك ، أكثر من تصحيح ومفارقة .

إن ما يلخص الحركة العامة ويرمز إليها جيداً ، على ما فيها من تعقيد وتشويش ، في هذه السنوات المظلمة ، هو طابع الأباطرة المشترك وعلمهم الذي أفضى إلى تفريغ الأزمة . أجل ، لقد تم اختيار الرؤساء المتأثرين ، بحسب قاعدة مطردة ، عن تفضيل اجتماعي : فقد كانوا رؤساء عسكريين ، لا شك في ذلك ، ولكنهم ، أتوا عن طريق غير عضوية المجلس التي اكتسبت فسبسيانوس ، أو ترائانوس قيادة توكليها . ولم تكن الجيوش ، شأنها في ذلك شأن ملهميها ، حين ترضى بالسير وراءهم ، لتقدم على عمل دام ، يقوم به أشخاص عادمو الحزم يثيرون السخرية ؛ فهي تبحث ، برجفات محيرة ومتناقضات وتقلبات في الرأي يفسر انفلات الفرائز وجه الغرابية فيها ، عن زعيمها ، أي عن ذاك الذي يشاركها الميول الصاخبة ، ثم يكون سعيداً في تحقيقها . وهكذا يبرز ، ويتعاقب في كرسي الحكم ، خلال الثلث الأخير من القرن الثالث اجماً ، ذاك الجيل المدهش من « الأباطرة الأثريين » ، الذي بشر به داسيوس ، ومثله كلوديوس الثاني ، وأوريليانوس وبروبوس *Brobus* وكاروس خير تمثيل ، قبل ديوكليسيانوس الذي فرض نفسه مدة طويلة . فزالت مع هؤلاء ، بانتظار قيام غيرها ، سلاسل الأباطرة المثقفين ، هواة الفن والآداب الجميلة والفلسفة ، وتلاشى احترام صيغ التسوية المدهانة التي تراعي الظواهر وترسخ في المناصب أفراد النخبة المستنيرة . أجل ، لقد حدث ، منذ اغتيال كومودوس ، أن تسلم الحكم أباطرة ينتسبون إلى الطبقات الشعبية في إيطاليا أو في الولايات ؛ ولكن ذلك لم يتعدّ العرض قط . وهأنذا أمام سلسلة من رجال وضعاء المنشأ ، متوسطي الثقافة ، ولدوا في *Illyricum* ، أي في الولايات الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة البلقانية ، حيث توطدت حضارة لاتينية فظة ، لم ينخرطوا سوى في الجيش ، منطلقين من أدنى مراتبه ومرتفعين ، بفضل أهليتهم وحدها ، إلى المراكز الهامة .

فاذا ما جاز لنا أن نتنظر منهم التحلي بضمير نطلق عليه اليوم صفة « الطبقي » ، فإن هذا الضمير أبعد من أن يلهمهم وحده ، وحتى أن يكون الغالب فيهم . لا ريب في أنهم احتقروا تسلسل المراتب القديمة وجعلوا مفاتيح الحضارة الرقيقة . ولكن ما يشجعهم قبل كل شيء هو

وطنية شبه متعصبة ، وحزم لا يثنيه أي وأزع ، وتصميم فولاذي ، لا يرحمهم ولا يرحم سواهم بعنفه ، على انقاذ الامبراطورية وعمل روما التي يشعرون بانهم ابناؤها . وقد شجعهم ، في الوقت نفسه ، بما فيه الكفاية لمقاومة الميل الى العطف على ثورة دائمة يقدم عليها الوضعاء ، الاقتناع بان ما من شيء يتحقق دون اعادة نظام شديد : فان هذا النظام ، الضروري للجيش في الحروب التي ينهض بها ، يشكل ايضاً العلاج الوحيد للصعوبات الداخلية .

بفضل المجهود العنيد المتواصل الذي بذله هؤلاء الاباطرة وكلفهم حياتهم ، انتهت الازمة الكبرى اخيراً ونجم عن الاطلال التي كدستها نظام جديد يكاد يكون مستقراً . ومع ذلك ، فان الجنود والطبقة التي عبروا عن غضبتها ، لم يحققوا اهدافهم . فاذا كان المحطون القدماء قد تواروا ، فقد حل محلهم محطون آخرون : ولم تقض الثورة الاجتماعية الى تحقيق المساواة . وبما لا شك فيه ان قوى اخرى كثيرة ، غير تصميم الريفيين ، الثملين بامكاناتهم ، على الانتقام لبؤسهم ، قد فعلت فعلها في هذا الاعصار الغريب . ولعلمهم افتقروا الى قادة الفكر الذين لم تفتقر اليهم بعض الحركات الثورية اليونانية ، وحتى الرومانية في عهد الجمهورية . فهل كان ممكناً ، بما اشتهروا به من خشونة وفظاظة ، ان يفهموا هؤلاء القادة ويسيروا وراءهم ، لو انهم توفر لهم بعد قرنين من النظام الاجتماعي والادبي ؟ ومهما يكن من الامر ، فان موانع كثيرة قد اوقفت وحبت وحولت عملاً لم يخضع لبرنامج .

وهكذا فان المصلحة العليا ، التي تفقدها انتهازيتها معنى الرحمة ، قد أفلحت في اعادة نظام مادي يتيح للجماعة العيش ، مساكراً نزعاتها الروحية ، ومضحياً بها عند الحاجة .

الفصل الثاني

تجدد الأخطار والاضطرابات خلال الأصلاحات الهزيلة في القرن الرابع

انقذ حزم الإبطرة الاتيريين الامبراطورية من الغزو والثورة الفوضوية. وأعادوا في الوقت نفسه تنظيمها بسلسلة من التدابير املتها عليهم ذهنية العهد وحاجاته الملحة. ثم جاء ديوكليسيانوس وهو اوفرهم مواهب في حقل الادارة ، على الرغم من انتهازيته ، فوسّع هذه التدابير وأعاد النظر فيها طيلة عشر سنوات على الاقل ، قبل ان ينظم عملاً اكمله قسطنطين بدوره . وعلى الرغم من بطء ومشقة هذا الاصلاح ، فلم يفت المعاصرين ان يتذكروا اوغسطس . فقد بدا ، فعلاً ، في اوائل القرن الرابع ، ان انطلاقة جديدة قد حدثت ، في القوة والوحدة المستعادتين ، قوة خارجية شبيهة ، اقله فيما يعود لسلطة الامبراطور والمركزية ، بتلك التي استطاع اوغسطس تأمينها للامبراطورية الحديثة ، ووحدة تفوق الى حد بعيد تلك التي اوجدها . وليس من ريب في ان حضارة قد برزت آنذاك من الخواء : هي تلك التي يجب ان نعتبرها حضارة العهد الامبراطوري الثاني لانها وحدها بلغت درجة كافية من التلاحم العضوي ، حين لم تعد مجرد مظاهر عرضية متلاصقة .

فهل اعطت جميع امكاناتها الكامنة يا ترى ؟ مهما يكن من الأمر ، فان فترة ازدهارها كانت قصيرة جداً . ومهما يكن من الأمر ايضاً ، فانها قد اصطدمت بعقبات شديدة ، يجدر بنا ان نعددها منذ الآن ، حتى ندرك شوائبها وقصر مدتها .

١ - الجهود الباطلة ضد البرابرة

ان اشدّ خطر تعرضت له جاءها من الخارج .

توفي القادة العظام في اواخر القرن الثالث ، باقل تضحيات اقليمية ممكنة ، الى استمادة مناطق الحدود وقمع حركة المنشقين في الداخل . وقد حدث في عهد ديوكليسيانوس وقسطنطين ان اجتازت جيوش رومانية نهري الرين والدانوب اللذين نظم عليها مرة اخرى ادفاع متين . واستعاد ديوكليسيانوس بلاد ما بين النهرين ، لا بل ارغم الساسانيين على التخلي عن بعض الاقاليم

وراء دجلة : ولم يسبق لروما ان حققت مثل هذا التقدم في الشرق . وفرت هذه الانتصارات والتنظيم الدفاعي الذي وطدها سلفاً نسبياً استمر ثلاثة أرباع القرن . أجل كانت هذه القوة وهذه الطمأنينة سريعاً الزوال . ولكن المجهود العسكري الذي نهض به العهد الامبراطوري الثاني ، على الرغم من ان الانهيار الاخير قد برهن عن عدم جدواه ، ليس بمجهوداً يجوز اهماله ، وما من امبراطور ، حتى وفاة ثيودوسيوس Théodose في السنة ٣٩٥ ، إلا وفاقم بواجبه العسكري خير قيام .

١ - الجيش في العهد الامبراطوري الثاني

أثبت الاختبار قصور الجيش القديم ، وعدم انطباقه على ظروف الحرب التي يفرضها الاعداء الآن . فزيد عدد المهندسين وعُدّل تنظيم الجيش .

تنظيم الحدود ما زال المثل الأعلى مثل كل دولة عرفت الاستقرار ، أي حماية كافة الأراضي الرومانية : وهو يوجب عدم اهمال مناطق الحدود . ولم يتغير طول الحدود قط ، اذ انه ازداد بفقدان المناطق الملحقة بالأملاك الأميرية ، ونقص بفقدان داسيا . ولكن حدوداً محصنة كثيرة قد زالت ، وعلى الرغم من الجهود المبذولة لم يتوفر الوقت لاعادتها الى مثل ما كانت عليه من متانة . ويبدو ان العمل الذي انجز على طول نهري الرين والدانوب ، لاسيما في عهد فالنتينيانوس الأول كان أهم عمل نظامي . فقد املت الحنادق المتصلة واستعيض عنها ، انطلاقاً من أهمية الطرق والانهار ، ببناء المزيد من الابراج والقليعات والحصون والمعسكرات ، وفاقاً لتقنية غدت أعظم مهارة بفضل العلائق بالفرس : فاقتبست في الغرب بعض النماذج الشرقية . واعتني كذلك بأسوار المدن فأدخلت التحسينات عليها : فكانت المدن ، أمام البرابرة الذين ما زالت وسائلهم بدائية ، معاقلة تكاد لا تقهر .

بفضل هذه الأشغال ، حدث تطور بطيء جداً ، بدأ منذ نهاية عهد سلالة ساويروس على الأرجح ، وبلغ الذروة في عهد قسطنطين . أضيف الى ذلك ان لا مجال للخيار : فالافتقار الى العدد الكافي من الجنود الممتازين اقتضى ابقاء أقلهم نشاطاً وقوة في مناطق الحدود التي تسهل التحصينات فيها المهمة العسكرية بمعناها الحصري . وقد حُدّدت لهم اجور أقل ارتفاعاً ، وخصصوا بقطع ارض يتولون زراعتها لتأمين معيشتهم ومعيشة عائلاتهم . ووكل إليهم امر المراقبة في الدرجة الأولى وأمر رد الهجمات في الدرجة الثانية ، وأمسى الكثير منهم ، في الواقع ، جنوداً لا كفاءة عندهم يلجأون الى التحصينات أثناء الغزو ، فكانوا من ثم يتلقون الصدمة الأولى ولا يفلحون في مقاومتها إلا نادراً . أجل ، لقد بلغت الصدمات اتساعاً وعنفاً لم يضطر جيش العهد الامبراطوري الاول ، الذي لعب كله تقريباً جوهر هذا الدور ، لتحملها إلا في ظروف استثنائية . ولكن رجال وحدات الحدود ، قد أعوزهم آنذاك ، كما يبدو ، التدريب والناورات التي انقطعت القيادة عن فرضها عليهم .

ليست هذه حال الوحدات الأخرى . في فترات الهدوء تؤلف هذه الوحدات جيش الريف حاميات تقيم على مسافة كبيرة من الحدود ، وحتى في قلب الأراضي الرومانية في اغلب الأحيان . ويفرض الأمن الداخلي احتياطات تفوق بعددها الاحتياطات السابقة . فقد رغب المسؤولون بنوع خاص في ان تمبأ هذه الوحدات بمعرفة تامة ، وان تجمع أولاً حتى يؤلفوا منها جيشاً ريفياً . واخضعوها لهذه الغاية الى تنقلات هامة احياناً ، من طرف الامبراطورية الى طرفها الآخر ، وقد ازداد تكرار هذه الحركات بفعل الاغتصابات التي تستلزم حملات داخلية .

تألف هذه القوى ، في الدرجة الاولى ، شأنها في الماضي ، من الحرس الامبراطوري . ولكن فرق حراسة القيصر ، التي مقتها الوحدات الأخرى على الدوام ، بسبب امتيازاتها ، زالت من الوجود على اثر الهزيمة التي انزلها قسطنطين بـ « مكسانس » عند جسر ميلفيوس في السنة ٣١٢ . فحلت محلها تدريجياً فرق من الجرمانيين الذين قدموا منذ اوغسطس حرس الامير الخاص ، وابقى ايضاً على وحدة « المظاهرين » التي انشئت في القرن الثالث والتي استجابت وجودها في الوقت نفسه لاهداف أخرى .

يحمل الجنود الآخرون في الجيوش الريفية اسماء تم عن ميزة وربما عن اصل وحداتهم ، كـ « البلاطيين » و « المرافقين » مثلاً : والمقصود بذلك الاشارة الى فصلهم عن الجيش او اقله التذكير بانهم يؤلفون الوحدة التي يتولى الامبراطور قيادتها شخصياً في زمن الحرب . وقد عسكر بعضهم ، في الواقع ، في الولايات ؛ بينما كان طبيعياً ان يقيم عدد كبير منهم على مقربة من المقر الامبراطوري .

بيد ان الصعوبات التي واجهها العهد الامبراطوري الاول في ادارة حرب هامة لم 'تحل' بفعل هذا الفصل بين جنود الحدود وجنود الإحتياط . فقد ثبت ابدأً خطر إخلاء منطقة كاملة من فرقها الريفية . وليس من ريب ، حين جهز ليسينيوس ١٦٥ ٠٠٠ رجل في السنة ٣٢٤ ، وقسطنطين ١٣٠ ٠٠٠ لمهاجمته ، في انهما كليهما تصرفا بكل امكاناتها في فترة استثنائية من الهدوء الداخلي . ثم تبدلت الأمور تبداً هاماً بعد انقضاء اربعين سنة تقريباً : فان جوليانوس على الرغم من اهمية الاعدادات ، لم يستطع قيادة اكثر من ٦٥ ٠٠٠ رجل في حملته على الفرس . وفي السنة ٣٧٨ ، لن يجمع فالنس منهم سوى ٣٠ ٠٠٠ جندهم في الحقيقة من الشطر الشرقي في الامبراطورية فقط .

كانت هنالك اذن ، على غرار ما حدث في العهد الامبراطوري الاول ، حاجة الى التجنيد الرجال ، على الرغم من الجهود المتزايدة ، من حيث قيمتهم النسبية — بسبب نقص السكان — وقيمته المطلقة على السواء .

ليس لدينا اية دلالة يوثق بها لتحديد عدد الجندين الاجالي وتنبع ما طرأ عليه من تغييرات . ولكن ما لا ريب فيه هو ان ديو كليسيانوس قد تعهد جنوداً اكثر منهم عدداً في عهد سبتيموس

ساويروس الذي سبق وحدث ثلاث جوقات جديدة من الطراز الكلاسيكي ، وان قسطنطين قد رفع عدد وحدات الجيش ايضاً . وقد تكلمت وثيقة نظرية عن عدد يبلغ ٥٠٠٠٠٠ رجل تقريباً ، في اواخر القرن الرابع . ومهما يكن من الأمر ، فان العدد يفوق الى حد بعيد ما بلغه في القرن الثاني .

مهما يكن من الامر ايضاً ، فان هذا العدد لا يزال غير كاف ، لان المهام الواجب تنفيذها امست ، من جهتها ، صعبة جداً . فخمسمائة الف رجل لا يفون بحاجة دولة عليها آنذاك ان تمسبى كل قواها ، ولديها موارد بشرية عظيمة لم تستطع ، لابل لم تحاول ، تجنيدها . اجل يجب ان لا تحكم عليها بمقياس الجمهوريات البلدية القديمة ، ولا بمقياس الدول المعاصرة : فمئذ العهد الجمهوري ، استبعدت روما مبدأ الخدمة الاجبارية . ولكن ما هو اخطر من كل ذلك هو ان مبرر الاعتبارات المالية الذي خضع له اوغسطس في اكتفائه بجيش محدود ، قد توارى الآن امام مبرر آخر هو فقدان الاعتبار الملازم لصفة الجندي بالذات .

يبدو ، اقله في بعض المناطق ، كالتيريا مثلاً ، ان الدعوة للتطوع الاختياري كانت تؤدي الى نتائج حسنة في القرن الثالث . ثم غدت نتائجها العملية دون جدوى في القرن الرابع فتعرض اللجوء الى الاجبار عن هذا المعجز ؛ ولكنه زاده خطورة ايضاً ، لان هذا الانتساب لمهنة الجندية قد فقد طابعه الطوعي .

تناول الاجبار في الدرجة الاولى ابناء الجنود . منح سبتيموس ساويروس هؤلاء حق عقد الزواجات الشرعية : فكان ذلك بمثابة تعميم واقع راهن يجعله قانونياً . وكذلك ، فان الدولة ، بتخليها عن قطع الارض لجنود الحدود ، قد عممت نظاماً قديماً لم يستفد منه الا بعض جنود الحصون فقط . ثم فرض مبدأ الوراثة في المهنة الوالدية على كافة الطبقات الاجتماعية ، فطبق بكل شدة في الجيش . فاضطر ابناء الجنود الى الانخراط فيه ، ما لم يكونوا ضعفاء البنية ؛ وخلفوا بالتالي آباءهم في الانتفاع بالاراضي التي كان يستثمرها هؤلاء .

غير ان ارتفاع لسبة الوفيات جعل هذا المورد غير كاف . ولم يفكر احد بمراعاة المساواة في قيد الشبان البالغين سن دخول الخدمة العسكرية . بل اقتصروا على جعله وفقاً على الملكية المقارية . فقد فرض على الملاكين ، منفردين اذا كانت املاكهم على بعض الاتساع ، ومجتمعين ومكتتبين اذا كانت املاكهم على عكس ذلك ، ان يقدموا الجنود . وهم يختارونهم حيث يستطيعون ، في أدنى طبقات السكان الريفيين وحدها تقريباً ، محاولين استمالة المتطوعين بالمال ، او بين العبيد ، محاولين استمالتهم بالإعتاق : وقد ظهر بعض التجار الذين سهلوا هذه المهمة . وحاول الامباطور احياناً حماية الضعفاء الذين يقدمون مرغين ، وفي أغلب الاحيان معاقبة المتمردين : وصدر اخيراً قانون اقرت بموجبه عقوبة الاحراق لمن يبترون احد اصابعهم . فكانت نتائج طريقة التجنيد هذه من الضعف بحيث ان الحكومة فضلت ان يقدم لها الخاضعون مالا لارجالاً : فهي تستطيع عن طريق المال تأمين حاجتها في غير مكان .

ويعني « غير مكان » البرابرة الحشنيين ، المعتبرين جنوداً ممتازين ، لا سيما لمحاربة برابرة آخرين ، وأقل ميلاً إلى التمرد على الامبراطور الشرعي . وقد سبق للامبراطورية الاولى ان أدخلت بعضهم في خدمتها ساحة لهم بالاحتفاظ بعاداتهم القومية . وبسبب الافتقار الى نظام احسن ، انتشر هذا النظام في القرن الثالث وزاد انتشاراً في القرن الرابع . وبديهي ان الرومان قبلوا بتطوعهم الفردي كما قبلوا بهم في المجتمع ايضاً . ولكنهم نظموا في النهاية تجنيدهم . ثم أسكن عدد كبير من الاسرى واللاجئين في اراضي الامبراطورية بغية تعمير واستثمار المناطق التي تنذر فيها اليد العاملة : وتقوم مهمة الادارة في مراقبتهم ، ويفرض على أبنائهم ، على غرار ابناء الجنود ، الانخراط في الجيش . ونعم آخرون بنظام « الحلفاء » وقدموا وحدات منظمة بحسب عاداتهم يرئسها ضباط قوميون : وقد حدث في الواقع ، تدريجياً ، ان الذين دخلوا الامبراطورية عنوة تمدر طردهم منها وسمح لهم ، لقاء معاهدة ، ان يعيشوا في منطقة معينة كشعب غريب الى جانب من بقي فيها من الرومان .

من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن اللجوء الى هؤلاء البرابرة لم يخبئ سوى الغيوم للامبراطورية : فلولاهم ، لحصل انبهارها قبل موعده بزمان بعيد؛ اصف الى ذلك انهم ، بفعل اخلاصهم للامبراطور الذي يدفع لهم اجورهم ، قد منعوا او قمعوا كثيراً من الاغتصابات ، وبالتالي من الاضطرابات التي طالما أثارها الجيوش المدنية في القرن الثالث . ولكن وجودهم قد أسهم في اقضاء المواطنين عن الجيش ، وربما كان الخطر يقضي باعادتهم اليه . فهم يمثلون حلاً سهلاً قد تكون عواقبه ، وستكون ، خطيرة جداً . فبصرف النظر عن الرغائب التي قد يبعثها فيهم الشعور بقوتهم وبالخدمات المؤداة ، لم يعد الجيش الروماني المزعوم ، الذي انتهوا الى تشكيل أكتريته الساحقة ، تلك الأداة الممتازة لنشر الحضارة الرومانية كما كان في القرنين الاولين : بل غدا أداة للشر البربرية . وكان كل شيء ، في الحقيقة ، قضية تقدير ونسبية . ولكن من ذا الذي استطاع ، في ما يتعلق باللجوء الى غير الرومان ، الاستشهاد بسوابق قديمة جداً تظهر فيها حدود الخطر ؟ وفي أي وقت ، خلال القرن الرابع ، اجتيزت هذه الحدود ؟ فأولى بنا من ثم الاكتفاء بأن نلاحظ ان الآراء الحاططة القديمة ، ذات الطابع الاجتماعي والثقافي معاً ، التي دفعت الى إلقاء مهمة الدفاع عن المصلحة العامة على أشد عناصر السكان فظاظة ، تحمل عبء مسؤولية هذا الوضع وازدياد خطورته .

التنظيم وفن الحرب تأثر الجيش بأعدائه وتسليحهم وأساليبهم الحربية فأثره بانخراط البرابرة فيه . فميزته فروق عظيمة عن جيش العصور السالفة .

عرفت الجوقة التقليدية البقاء . ولكنها كانت كثيرة العدد بطيئة الحركة . وما كانت لتستطيع العمل إلا بضم وحدات مساعدة متنوعة محصورة العدد اليها . وقد صنف التجنيد الرجال ، بينها وبين هذه الوحدات ، وفاقاً لنظامهم القانوني ؛ غير ان هذا التمييز قد زال ، منذ براءة كركلا في السنة ٢١٢ ، بفضل شمول حق المواطنة الرومانية كافة الرجال الاحرار

العائشين في الامبراطورية باستثناء المعتقين ؛ فلن ينظر الجيش بعد الآن الى الفئات القانونية ولن يرفض سوى المبيد. لذلك فان تكرار استخدام فصائل الجوقات ، منذ العهد الامبراطوري الاول ، قد أفضى بالنتيجة الى تجزئة هذه الجوقات - لا يزال الاسم يطلق عليها ، ولكن نادراً ما يتجاوز عددها ألف رجل في ذاك العهد - والى مساواتها عملياً بالوحدات المساعدة . وقد ارتفع العدد الاجمالي لهذه الوحدات المختلفة ارتفاعاً كبيراً .

وتبدل التسليح على طريقة البرابرة . فأهل المشاة الاسلحة القومية ، البيلوم ، والمفصل ، والترس الكبير ، والدروع المعدني ، واعتمدوا الرمح ، والسيف ، والخنجر ، والقوس نفسها احياناً ، والترس المستدير ، والدروع الجلدي . وتسلمت بعض وحدات الفرسان ، على غرار الفرس ، بالاقواس الجبارة ، وحدث في بعضها ان ألبس الرجال والخياد صفائح حديدية او زروداً .

منذ القرن الثالث ارتفع عدد الفرسان ارتفاعاً عظيماً مطرداً . ويعود ذلك الى ان الجيش يجب ان يكون سريع الحركة . كما يعود الى ان الفرسان الثقيلي التسليح ، القادرين على الانتفاض على العدو ، فرقاً متلاحمة في المناورة ، قد أحدثوا اتجاهاً جديداً في التاريخ العسكري وأثبتوا مجدداً تفوقهم على المشاة . ويمكننا القول ، دون مبالغة في أهنيئتها - لأن هنالك سوابق ، ولأن هذا المثل لا يحدث تقليداً - ان معركة اندرينوبولس (ادرنه) في السنة ٣٧٨ ، التي ربحت بفضل كرم الفرسان القوط ، يمكن اعتبارها مقدمة للفن الحربي في القرون الوسطى . ولكن الرومان ما زالوا يتلمسون طريقهم . فان اوريليانوس ، قبل استلامه الحكم ، كان قائداً لكافة وحدات الفرسان في الجيش ، المكونة فرقة مستقلة للنهوض بحركات جماعية : غير ان هذه الوحدات الهامة لن تظهر في القرن اللاحق . ومع ذلك فقد أصبح الكر مهمة الفرسان الرئيسية الذين حملت وحداتهم اسم « الاسافين » المميز .

وتحسنت القيادة اخيراً تحسناً كبيراً . وقد لعب الحذر السياسي دوره في ذلك لأن القيادة الرومان ما زالوا يخشون ، في القرن الثالث ، طموح اعضاء الطبقة المجلسية الذين كان لهم وحدهم الحق ، دون المرور بالدرجات الدنيا ، في تولي قيادة جوقة او جيش . ولكن الاهتمام بالنوع قد لعب دوره ايضاً الذي أمسى في النهاية أهم دور : فقد ارادوا ، بعنادهم في إلغاء امتياز النسب ، اكتشاف الافاضل وتخصيصهم في دورهم العسكري . فحدث من ثم تطور مزدوج . أقصى الشيوخ من جهة عن القيادات . وقد سبق لسبتيموس ساويروس ان وضع فرساناً من الأشراف على رأس الجوقات التي أحدثها . ويمزو التقليد الى غالينوس براءة تجعل من هذا الاقصاء مبدأ . اجل هنالك وقائع ثابتة تناقض هذا التقليد ؛ ولكن الغلبة في النتيجة للنزعة التي تكلم عنها هذا التقليد . وارسمت من جهة ثانية ، وبصورة اجدى ، ثم انتصرت ، مع قسطنطين ، النزعة الى فصل الوظائف المدنية عن الوظائف العسكرية .

وهكذا ، فان تعيين المراتب ، وترفيه ذوي الأهلية دون غيرهم ، اللذين يمثلان التجديد

الاجتماعي الرئيسي في القرن الثالث قد عمل بها في القرن الرابع أيضاً . فبينما لم يكن الجندي من قبل ليتجاوز الـ "استثناء" ، درجة قائد المائة ، أي درجة صفار الضباط ، أصبح الآن من شأن جدارته أو حظه ، ان يقوداه الى أعلى الوظائف في سلم المراتب ، وبما ان هذه التمييزات الاجتماعية ، فقدت أو كادت تفقد كل أهمية سياسية ، فانه قد احتل مع الزمن مرتبة الفارس الشريف ، ومرتبة عضو مجلس الشيوخ بعد ذلك . ويرافق هذا الوضع ذيله الطبيعي : فكافة القادة العسكريين ضباط متمنون لا يخدمون طيلة حياتهم إلا في الجيش .

بفضل زوال كل تمييز قانوني ، غدا التدرج ممكناً للبرابرة انفسهم . وكثيرون هم الذين أفادوا منه . وقد أخذ بعض المعاصرين على قسطنطين انه خصّ القرنك بحبته ، ووجه اللوم عينه الى ثيودوسيوس بصدد القوط . وباستطاعتنا فعلاً وضع لائحة طويلة بالقادة البرابرة الذين اشتهروا ولعبوا دوراً خلال النصف الثاني من القرن الرابع ، ناهيك عن القرن الخامس . بيد اننا نقصر على الاشارة الى وجود القوطيين غيناس والاريك والفاندالي ستيليكون والفقاسي باكوريوس على رأس وحدات الجيش الرئيسية التي اتاحت لثيودوسيوس ، في السنة ٣٩٤ ، الانتصار على جيش المقتصب اوجينيوس بقيادة الفرنجي اريوغاست . فالاريك وحده بين هؤلاء ، وهو ملك الفيزيقوط الحلفاء ، لم يكن ضابطاً رومانياً ، في حال ان جميع الآخرين قد كسبوا القيادة في خدمة الامبراطورية .

مر كثيرون من هؤلاء الضباط ، الرومانيين او البرابرة ، في اوائل خدمتهم ، في وحدة «الحماة» . وقد تشكلت هذه الوحدة ، منذ احداثها في القرن الثالث ، من صفار الضباط ذوي المناقب والكفاءات فقط . ثم اجيز الانحراط فيها ، في القرن الرابع ، لابناء الشيوخ ، ولكن دون ادخال تغيير جوهري عليها . وكانت هذه الوحدة تؤلف جزءاً من حرس الامبراطور الخاص ، حتى ان افرادها لقبوا اخيراً بـ «المنزليين» فالقوا البلاط . وكيفوا عليه تصرفاتهم . ولكنهم لعبوا دور الاركان العامة ايضاً واسندت اليهم المهام الخطيرة . واختير بينهم قواد الجوقات الذين اتيح لهم بعد ذلك تسنم مراتب اعلى . فان هذه الوحدة ، التي اوجدت لاعداد النخبة ، قد حققت هدفها : ومن عناوين فخر العهد الامبراطوري الثاني انها لم تعرف الانحطاط .

فرضت تجزئة الجيش وحدات محصورة العدد تنظيم حشود لم يكن الفصل بين الوظائف المدنية والعسكرية ليسمح بوضعها ، كما في السابق ، تحت امرة حكام المناطق . وانما احدث لقب «القائد» ، في القرن الثالث ، لرؤساء هذه الحشود بالذات . فمنذ ديوكليسيانوس رئيس من يحمل هذا اللقب ، مبدئياً ، كافة الجنود في احدى ولايات الحدود ، التي اصبحت اراضيها ، من جهة ثانية ، من جراء التقسيمات النظامية ، اضيق منها في السابق . وقد حدث احياناً ان مارس بعض القادة سلطتهم على اقليم اوسع ؛ فاطلق عليهم آنذاك لقب «الكونت» (رفيق) ، ولكن هذا اللقب لا ميزة نوعية له . اما جيش الريف ، فقد عين له قسطنطين «معلمي جنود» *Magistri militum* احدهما للمشاة والثاني للفرسان : وقد راعت هذه الازدواجية سلطة

الامبراطور بكل عناية . ثم وزع هذا اللقب على نطاق اوسع ، فعين « معلون » لجيشين . ولكن مالنا وهذه الاصطلاحات التي يكفي ابتذال الألقاب تدريجياً لأن يجعلها غامضة جداً . فالمهم هو اننا نادراً ما نرى احد هؤلاء الموظفين الكبار متهماً بعدم الاهلية . اجل كان هؤلاء الرجال نقائصهم ، وقد لجأوا الى الدسيسة . ولكنهم لم يبلغوا في ذلك ما بلغه شيوخ القرن الاول . وهم قد عرفوا مهنتهم خير معرفة .

وفي القمة اخيراً كان الامبراطور وحده الذي ما زالت صفته العسكرية مسيطرة عملياً ، ان لم يكن نظرياً . وما زال الجنود يهتفون للأباطرة ، الذين غدت سلطتهم ، في القرن الرابع ، سريعة الزوال ، ان هم لم يعنوا بواجبهم : وغالباً ما دانوا بالمنادة بهم اباطرة ، كجوليانيوس وفالنتينيانوس الاول وثيودوسيوس ، للبراهين التي أعطوها من قبل عن أهليتهم العسكرية . ولا يقبلون بالتواري لتسليم القيادة العليا الى القادة ؛ بل يشتركون شخصياً في الحملات ولا يترددون في المخاطرة بحياتهم ، وحتى في التضحية بها . فولايتهم سلسلة متواصلة الحلقات من الجولات يفرضها عليهم الصراع ضد الأعداء في الخارج وفي الداخل .

ونلاحظ بالتدقيق في عداد التبدلات المموسة التي أفضى اليها موت ثيودوسيوس نهاية النشاط العسكري الشخصي الذي كان يقوم به الامبراطور . فهذا الأخير ، منذ السنة ٣٩٥ ، ينزوي في قصره في القسطنطينية او في رافيننا ، « جلّسة ومنفرداً » تاركاً لبعض القادة ممن تقف لهم دسائس البلاط بالمصاد امر قيادة الحملات العسكرية . وفي حين ان المزيد من الصعوبات يدعوهم للعمل ، نرى في اعراض هؤلاء الرجال الذين لا يشكون من ضعفهم بل من بعدهم عن عامة البشر بفعل عظمتهم ، - لن يظهر أي امبراطور شرقي في الجيش قبل السنة ٥٩٢ - مقاطعة للتقليد الامبراطوري الروماني . ولعل هذا الاعراض سبب آخر لنهاية الامبراطورية او دليل عليها على الأقل .

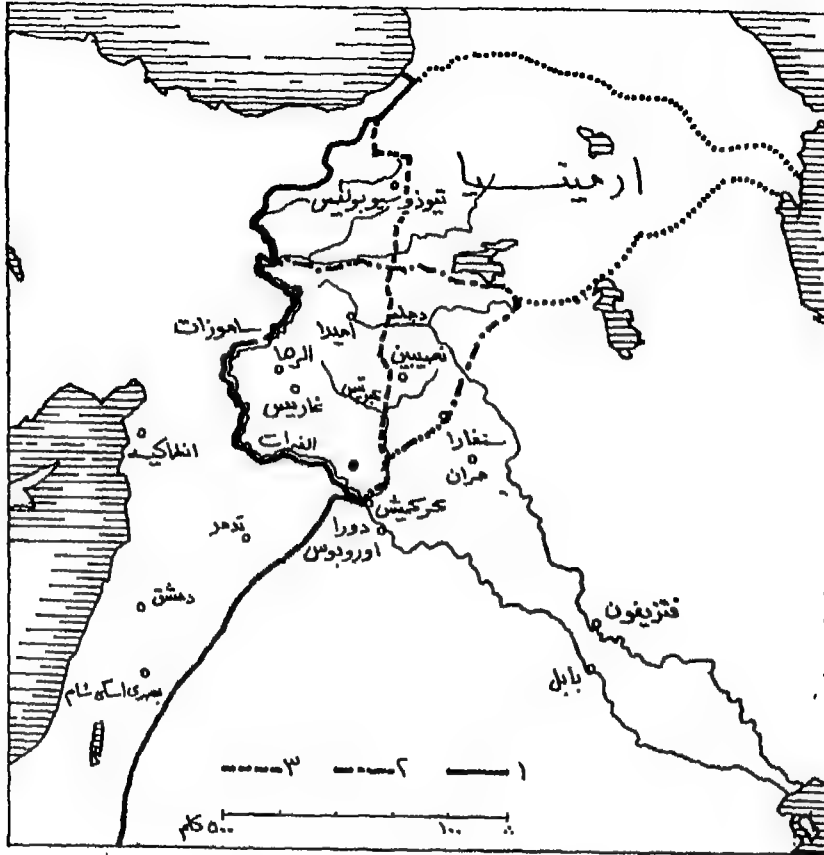
٢ - هجوم البرابرة

ذاك هو جيش العهد الامبراطور الثاني في خطوطه الجوهريّة . آمن سلامة الاراضي الرومانية حتى منتصف القرن الرابع . حينذاك ، ودون ان نتمكن من رؤية التراخي فيه او بداية انحطاط داخلي ، اخذ يبرهن عن انه دون المهمة الملقاة على عاتقه . والحقيقة هي ان هذه المهمة قد أصبحت اعظم ثقلاً : فمن كل جهة ، جدد العدو هجومه ، بحيث لن يترك الامبراطورية تذوق طعم الراحة حتى انهيارها .

لا ريب في ان الفرس شعب اتصف بالصلابة ، ولكنهم لم يكونوا مع ذلك أكثر الفرس
الاعداء اقلاقاً للرومان .

كانوا الاول في الانتقال الى الهجوم حين بلغ ملكهم الشاب ، شاهبور الثاني ، سن الرشد ، في اواخر عهد قسطنطين : وبقي شاهبور هذا حتى مماته (٣٧٩) عدو الرومان العنيد . توفرت

لديه الوسائل القوية والفيلة الهندية والآلات لمحاصرة الحصون . ولن تواجه الامبراطورية ، في أي مكان آخر ، عدواً على مثل هذا التنظيم وهذا التصلب توفيق في السنة ٣٥٩ ، بعد ثلاثة وسبعين يوماً ، الى دخول « اميدا » عنوة (ديار بكر الحالية على دجلة) . وكانت ضرباته قاسية . فصمم جوليانوس على وضع حد لهذه التعديلات بشن هجوم على الطريقة القديمة ، وسار على



الشكل ٢٠ - حدود الامبراطورية شرقاً في القرن الرابع
١ - الحدود بعد هزيمة فاليريانوس في السنة ٢٦٠؛ ٢ - بعد حملات ديوكليسيانوس؛ ٣ - بعد الاتفاق الذي عقد في عهد ثيودسيوس .

كثريون ، وأصيب ، أثناء انسحابه ، بجرح مميت . فاضطر خلفه ، بغية إنقاذ الجيش ، للتخلي عن جميع الأراضي الواقعة وراء نهر الخابور : وهي لن تستعاد بعد ذلك .

بيد ان الفرس لم يدخلوا سوريا قط كما فعلوا في القرن السابق . فهم أيضاً واجهوا مشاغل أخرى : الغزاة الرحل في تركستان والقفقاس ، والنصرانية التي لم يفلح تصليبهم في استئصالها من مملكتهم ، والهيجان في ارمينيا التي ارادوا اخضاعها او فرض حمايتهم عليها على الاقل . وكان

خلفاء شامبور الثاني دونه حزمًا وتدبيراً . فارسل احدهم الى ثيودوسيوس وقدأ قدم له الهدايا ،
وتخلى اخيراً للرومان عن الجزء الغربي من ارمينيا حتى كارنا (ارزروم الحالية) التي اطلق عليها
اسم « ثيودوسيوبوليس » .

اما الخطر الحقيقي ، الخفيف ، فقد اتى من مكان آخر .

برزت المصاعب مرة اخرى على نهر الرين منذ السنة ٣٥٠ حين نودي بالقائد ماغنانس
الرين امبراطوراً . فدفع آخر ابناء قسطنطين ، كونستانس الثاني ، الذي ما زال على
قيد الحياة ، احد ملوك الألامان الى اجتياز النهر في عملية تلبية ، بينما توجه المغتصب على
رأس خيرة فرقه الى بانونيا وايطاليا كي يستطلع حظه فيها : فشمّل الغزو كافة انحاء غاليا
الشمالية الشرقية .

استعبدت الحدود بعد ذلك ببعض المشقة لا سيما على يد جوليانوس الذي سحق الألامان على
مقربة من سترا سبورغ في السنة ٣٥٧ . ولكن كونستانس الثاني كان مشغولاً بالدس حين
انتقل اللقب الامبراطوري الى جوليانوس الذي توجه هو ايضاً الى البلقان على رأس خيرة جنوده .

توجب من ثم بذل المزيد من الجهود ، وعلى الرغم من الهمة القعساء التي برهن عنها اسياد
الغرب المتعاقبين ، فالنتينيانوس الاول وغراسيانوس ، فان امد سلامة الدولة لم يطل قط . ومنذ
نهاية القرن الثالث سمحت الامبراطورية لبعض القبائل الجرمانية ، ولا سيما الفرنجية منها ، بالاقامة
عند مصاب نهر الرين ، مسندة اليها مهمة المحافظة على هذا الجزء من الحدود . فأتسع آنذاك
نطاق التعديات الجرمانية حتى شمل المنطقة الشمالية الشرقية من بلجيكا الحالية . ويعود تاريخ
آخر حملة رومانية اجتازت نهر الرين من جهة كولونيا الى السنة ٣٨٨ ، وقد انتهت بهزيمة منكورة .
ولن يلبث الغزو ، على طول نهر الرين ، ان يقذف بالبرابرة الى كافة انحاء غاليا .

كان تصدع خطّ الدانوب ، بفعل حصوله قبل تصدع خط الرين ، أدهى خطورة
وصول الهون
وتعدي القوط
ايضاً ، لأنه عرض البلقان وايطاليا مباشرة للخطر .

جاءت الهزة من بعيد ، من قلب آسيا الوسطى ، التي اتجه منها نحو اوربا جمهور
غفير من الهيونغ - نو (أي الهون) الذين أقلقوا الصين زمناً طويلاً : دفعة لا تقاوم تعاضمت
باستمرار بين البدو المحتلّفي الاجناس الذين تغلبت عليهم وجرتهم ، بقيادة رؤساء نجمل كل شيء
عنهم ، مع اننا مضطرون للاعتراف بانفطارهم على قوة عزيمة نادرة ، وتحت ضغط ظروف بشرية
واقتصادية ملحة ، وبدافع الاحتقار للحضريين وجاذب الثروات التي ينتظر استلابها رجال
الاخبية . دفع هؤلاء المغول جنوباً بقبائل التركستان ثم ضموا اليهم الـ « ألين » وبلغوا روسيا
الجنوبية حيث واجهوا القوط . فقدموا ، وسبقدهم طيلة قرن وأكثر ، اول مثل تاريخي
معروف - يتيح تصور هجرة الهنود الاوروبيين على غرار الغزوات التي غرت مصر وبلاد ما
بين النهرين في الالف الثاني واول الالف الاول - لجولات وصولات شعوب وامبراطوريات

السباسب الشاسعة التي كان انهيارها النهائي صاعقاً على غرار نجاحها .

لم يكن القوط حينذاك جيراناً مقلقين للامبراطورية . فقد عرفوا الاستقرار ، ويقسمهم المعاصرون فئتين^(١) . ويبدو ان فئة الاوستروقوط الشرقية قد ألقت دولة حسنة التنظيم فرضت حمايتها على بعض قبائل السباسب الروسية : فوُضع بذلك حدّ لأعمال قرصنتها . اما فئة الفيزيقوط الغربية فقد كانت أكثر احتياجاً . اقام احد افرادها ، اولفيلا ، مدة طويلة في آسيا الصغرى في عهد قسطنطين . اعتنق الديانة المسيحية على المذهب الآري وسم اسقفا وعاد الى موطنه وشرع يبشرهم بالانجيل : وفي سبيل ذلك نقل الكتاب المقدس الى اللغة القوطية التي اضطر لأن يضع لها أبجدية . بيد ان تبشيره قد اثار بعض الهيجان . فاضطر ، بعد سبع سنوات قضاه واعظاً ، الى الالتجاء الى الاراضي الرومانية ، مع جمهور من المؤمنين ، في السنة ٣٤٨ . فاستقل الامبراطور فالنس ، الذي شك من الغزوات ومن العضد الذي لقيه احد المعتصمين ، هذه الاضطرابات الداخلية لبعث منافس مسيحي للزعيم الوثني . وبالاختصار ، لم يكن القوط ، بعد ان تأثروا بحضارة اعظم تطوراً ، ليشكلوا وحدهم خطراً ذا شأن .

ولكن هاهم الهون يحتازون نهر الفولغا حوالي السنة ٣٧٥ وينطبق عليهم آنذاك ، لا على ما سيكونون عليه بعد قرن ، وصف اميانوس مرسلينوس الشهير : « هذه الحيوانات المفترسة السائرة على قدمين » ، هؤلاء الفرسان المزدرون بالتعب ، المختلفون شكلاً خارجياً عن الاوروبيين ، المرتدون الالبسة المرعبة ، المتمشون على عادات تقز منها النفس ، الزارعون الحريق في كل مكان . قضوا على مملكة الاوستروقوط ثم قطعوا نهر الدنيستر ودنوا من الفيزيقوط الذين ما لبثوا ان انهزموا وطردوا نحو ترانسيلفانيا أو الدانوب حيث التحق بهم الاوستروقوط الذين لم ينصهروا في زمر الهون .

استجار المسيحيون بالامبراطور . فسمح لهم فالنس باجتياز النهر املاً منه بالاستفادة من رجالهم . ولكن القطيعة بينه وبينهم وقعت منذ السنة ٣٧٧ ، ومع ان عدد محاربيهم لم يتجاوز الـ ١٠٠٠٠ ، فانهم قد حطموا ، في التاسع من شهر آب من السنة ٣٧٨ ، الجيش الامبراطوري في الشرق امام اندرينوبولس على الرغم من تفوقه عدداً ، وهلك فالنس نفسه ، واستحال العثور على بجته . سار الظافرون حينذاك نحو القسطنطينية . واذا هم لم يستطيعوا دخول اية مدينة ، فانهم قد نقلوا الخراب الى الارياف . فلم ير ثيودوسيوس بُدأً ، على الرغم من بعض الانتصارات التي ابعدت اسوأ الاخطار ، من ان يتفق معهم بادخالهم في خدمته ، وبإغداق الوعود عليهم بالخدمات ، وبالسماح لهم بالعيش بين الدانوب والبلقان .

امسى القوط منذئذ في الامبراطورية ، على غرار الفرنك ، ولكنهم توغلوا فيها توغلاً ابعد ، والفوا كتلة اعظم تراساً وبرهنوا عن مزيد من الجسارة . وبمكنتنا هنا ان نستعيد تعبيراً

(١) « اوستروقوط » لا تعني « القوط الشرقيين » بل اللامعين . وكذلك « الفيزيقوط » هم « القوط المعتدلون » .

لارنست ستاين ونقول ان يوم اندرينوبولس يحدّد « بداية نهاية » الامبراطورية الرومانية
كامبراطورية العالم المتوسطي .

فان المثل الذي اعطاه القوط والضربات التي سدّدت لقوة الامبراطورية ونفوذها
المهجم الشامل قد دفعت باعدائها الآخرين الى التآدي في جسارة مطامعهم ومحاولاتهم : فانتقلوا
الى الهجوم في كل مكان بمزيمة متزايدة واحرزوا انتصارات كثيرة .

قام بهذا الهجوم أصغر الشعوب عدداً : الازوريون في آسيا، والاسماعيليون في الصحراء
العربية والبيميون في مصر العليا . وفي افريقيا ، خرج البدو من الصحراء الكبرى ، والمنشقون
من جبالهم ، مستغلين البلبلة التي اوجدها الاضطراب الاجتماعي في البلاد تحت ستر الهرطقة
الدوناطية (نسبة لدوناط اسقف قرطاج) ، والثورات التي نظمها بعض زعماء البرابرة او بعض
الموظفين . وفي بريطانيا أكثر البكتيون والسكوتلنديون والاييرلنديون من هجماتهم على الحامية
المسكينة الرومانية التي عجزت عن المحافظة على سور هديانوس ؛ ثم جاء السكسون عن
طريق البحر الشمالي ؛ وفي اوائل القرن الخامس جرّ احد المفتصبين فرق الجيش وراه الى غاليا ،
فأخلت الجزيرة التي لم يبق فيها ، في السنة ٤٤١ ، أي بعد اربع وثلاثين سنة ، أي اثر السيطرة
الرومانية .

ما كان كل هذا ، باستثناء الانشقاقات الافريقية الكبرى التي أوقفت تصدير الحنطة الى روما ،
ليرتدي طابع الأهمية العظمى لو لم تنتقل العدوى ، في الوقت نفسه ، الى قلب الامبراطورية .
فالبرابرة ، القدماء والجدد منهم على السواء ، شنوا الغارات على حدود الدانوب والالب وغاليا .
فحدثت انتقاومهم اسلافهم ، ولكنهم توقفوا اخيراً الى شق طريقهم . ولم يبق للحكومة
الامبراطورية نفسها ، التي انقسمت ، بعد موت ثيودوسيوس ، الى بلاطين ، متعادلين غالباً ،
منشقين بالذرائع ابدأ ، من مورد آخر سوى محاولة استغلال المناقشات بين الزعماء والزمير
والشعوب .

ستتوقع القسطنطينية ، بفضل استنادها الى آسيا الصغرى ، الى ابداء مقاومة اجدى .
ولكن شبه الجزيرة البلقانية كانت الاولى التي تعرضت للخراب في كل اتجاه : بعد وفاة ثيودوسيوس ،
اجتاز الفيزيقوط « الاريك » تراقيا واليونان حتى البلويونيز . فلنصنع الى الاحصاءات المحزنة التي
ذكرها القديس ايرونيوس في السنوات الاخيرة من القرن الرابع : ها هو الدم الروماني يسيل
كل يوم منذ عشرين سنة وأكثر بين القسطنطينية وجبال الالب الجوليانية . فبلدان سكيثيا
(بلاد الغز) وتراقيا ومقدونيا ودردانيا وداسيا^(١) وتساليا واخيا والابير ودماتيا والبانونيتان

(١) توافق ولاية سكيثيا آنذاك منطقة دوبرودجا الحالية تقريباً . وبعد اخلاء داسيا الحقيقية ، اطلق اسمها
على ولايات جديدة جنوبي الدانوب توافق ، مع دردانيا ، القسم الشرقي من سربيا القديمة .

أضحت فريسة القوط والسارمات والآلين والهون والفاندال والماركومان الذين اجتاحتوها ومزقوها واستلبوها .

بعد ان عم الخراب البلقان ، جاء دور الغرب الذي لم يتردد بلاط الشرق في ان يحوّل اليه الغزاة المتكالبين على الثروات السليمة البكر . استهوتهم ايطاليا بنوع خاص قبلغوها بعد ان داروا حول الادرياتيک . وفي الرابع والعشرين من آب من السنة ٤١٠ ، دخل « الاريك » روما ، التي كانت تحت رحمة طيلة الستين السابقتين ، وأخضعها لسلب دام ثلاثة ايام . ثم جاء دور غاليا واسبانيا حيث تدفق غزاة آخرون سبقوا اليها القوط عن طريق الرين . وجاء دور افريقيا نفسها اخيراً . ففي السنة ٤٥٥ دخل الفاندالي جنسريك ، المستقر في قرطاجة ، الى روما التي أباح سلبها طيلة اسبوعين . ولكن مراكبه ، في السنوات الاخيرة ، غزت السواحل والجزر اليونانية : وهذا دليل على ان الشرق لم يحصل على سلام حقيقي بتخليه عن الشرق .

لنقف هنا في عجالتنا الخاطفة هذه : فلم نقصد من ورائها سوى ان نبين كيف نشأت الفوضى وبأي عنف انفلتت عاصفة فوضوية ليس من هدف هذا الكتاب تتبع تطورها وعواقبها من قريب او بعيد .

وفي الواقع ، عبثاً يبحث المؤرخ ، في هذه الفوضى ، عن حدث او تاريخ يستطيع ان يربط بها عرضه ويكتشف منعطفاً حاسماً في التطور . فاحتلال روما نفسها ، في السنة ٤١٠ ، قد أذهل المعاصرين . ولكن الرمز الذي يشكله هذا الاحتلال يستخلص قيمته الوحيدة من ماضي المدينة لا من حاضرها آنذاك — لا يستطيع الاريك ان يختطف شخصية رسمية سوى غالاً بلاسيديا ابنة ثيودوسيوس وشقيقة الامبراطور هونوريوس ، التي تزوج منها صهرها وخلفها اتهولف بعد سنوات ، باهة عظيمة في ناربونا — ولا من مستقبلها . والفكرة التي يوحياها اليوم هي تلك التي ادلى بها القديس ابرونيوس على الفور : « من كان يستطيع الاعتقاد بان روما ، التي يؤلف سافاتها هذا العدد الكبير من الانتصارات المحرزة على العالم بأسره ، ستنتهار يوماً ؟ » ولكن في هذا الذهول بعض السذاجة ، اذ ان شيبون اميليانوس قد عرف ، قبل ذلك بخمسة قرون ونصف ، ان هذا الانهيار سيحصل يوماً بصورة محتومة . ولكن ما هو اقرب للصواب الدهشة التي يبعثها تدقيق يسمح به بعد الاحداث في التاريخ : فان هذا الحدث ، الذي يستهونا وصفه بالعظيم ، ليس نتيجة أو بداية لاي شيء ، بل مجرد عرض في مركّب ابتدأ قبل ذلك بكثير ، وسيتمد الى ما بعد ذلك بكثير ايضاً .

كيف لا نعتبر ان هذا البطء وهذا الاندراست بالذات هما من عناوين مجد روما ايضاً ؟ فلم يقتض لهدم ما شيدته مدة طويلة فحسب ، بل كانت هي نفسها منتشرة في عالم اصبحت سكانه ابناءها ايضاً : وكان باستطاعتها الاستمرار في الحياة خارج الاسوار التي دخلها السلايون غنوة . قضى الانسجام مع تقاليد ماضيها ، بالضبط ، ان يمسي هؤلاء البرابرة ابناءها بدورهم . وقد

خدمها اكثر من واحد باخلاص حتى ضد بني جنسهم . وأوحت ، حتى بعد سقوطها ، الاحترام للعدد الاكبر منهم فركت لهم إرثاً ما . ولكن الاستساغة لم تحدث . فهم كانوا كثيري العدد وهي لم تظهر امامهم ، كما في الماضي ، مزدانة بفتنة النصر . فهي قد ماتت ، لمعري ، لانها لم تستطع متابعة عملها التربوي .

لم يحل طول نزاعها دون موتها في القرن الخامس . واذا ما استطاعت القسطنطينية البقاء حينذاك ، فانها قد عاشت حياة حقيرة قبل ان تعرف ، في زمن لاحق ، ايام عز جديدة .

٢ - الصعوبات الداخلية

اذا كانت عودة الاخطار الخارجية واستمرار تجسّمها بعد منتصف القرن الرابع يفسران اموراً كثيرة ، فيجب الا يعملنا على امال الصعوبات الداخلية التي بلبلت مجهود الامبراطورية بلبلة دائمة وشلته شلاً احياناً . كانت القسم الاكبر من هذه الصعوبات قديم العهد . وقد حاولت الامبراطورية ان تضع حلولاً جديدة لعدد منها دون ان تتوفق مع ذلك الى السيطرة عليها .

بديهي ان كل الصعوبات لا تستحق ، منذ الآن ، ان ندرس كلا منها على حدة . ولم تخل جماعة بشرية من المهوم الكثيرة التي اعاقها كل منها في تفتحها . بيد ان تسلسل هذه الصعوبات بحسب اهميتها يتضح للاجيال اللاحقة ، ان هو لم يتضح للمعاصرين . فلنقتصر اذن على الخطرين الاعظمين .

١ - انتقال السلطة والحروب الاهلية

سنفكر دون ابطاء ، بسبب الاضطرابات المادية التي تجرّ اليها الحروب الاهلية ، بأزمات الخلافة في الامبراطورية وبالاعتصابات ، تلك الامراض المزمنة في العهد الامبراطوري الذي لم يتوصل قط ، طيلة مدته ، الى وضع وتطبيق قواعد ثابتة لانتقال السلطة . بيد انه أفرغ كل مجهوده ، آنذاك وقبل ذلك ، وبصورة مبتكرة جداً احياناً ، و ببعض الفعالية اخيراً ، وفي ظروف دقيقة جداً ، بقية سدّ هذا النقص .

فالصعوبة ، في العهد الامبراطوري الثاني ، مصدرها الاول دروس الفوضى التي الظروف العامة لقنتها ازمة القرن الثالث . واذا ما قدّر لبعض هذه الدروس البقاء آنذاك ، فانها قد مزقت كافة الحجب : ولم يشك احد ، بعد رؤية هذا العدد الكبير من الاباطرة السريعي الزوال ، في ان رضى الجنود ، الخاضع نفسه لكل تقلب مفاجيء ، يتيح تسلّم السلطة والحفاظ عليها . فأسمى السمي وراء السلطة ، على ما في ذلك من مغالطة ، أكثر من طموح عادي بالنسبة للقائد : فهو احياناً حظه الاخير في النجاة من الموت الفوري الذي قد يجرّ اليه زوال حظوته . ففي السنة ٣٥٥ مثلاً ، حاول الفرنجي سيلفانوس ، الذي سبق له وأدى خدمات جلّى لم تنفع

أعداءه الشخصيين من ان يقدموا لكونستاس الثاني كل وشاية كاذبة عنه ، تخليص حياته بحمل أنصاره على المندادة به امبراطوراً في كولونيا: غير انه ارتكب خطأ فادحاً، اذ ان الامبراطور، الذي اكتشف ، في هذه الاثناء ، ما انطوت عليه هذه الوشايات من تجنّ واقتراء ، قد اضطر مع ذلك الى اعدام المغتصب قبل مرور شهر على المندادة به . نحن امام حادث لا طائل تحته في حدّ ذاته ، ولكنه يكشف عن المحاولات التي كان يدفع اليها الاتصال الدائم بالجنود .

نجحت الصعوبة ايضاً عن ثقل وشمول المهام المنوطة بالامبراطور . فمن حيث ان وجوده في كل الجبهات أمر مستحيل ، قضي عليه بأن يرى باستمرار بروز منافسين جدد ، حيثما يتجمع جيش وتسنع فرصة لاكتساب مجد ما او شعبية ما لدى الجنود . واذا ما اضطر للتغيب لمحاربة عدو داخلي او خارجي ، فان غيابيه يكون كافياً لبروز منافسين آخرين . اجل كان بالامكان اشراك امبراطورين او أكثر : فهناك سابقة مارك اوريل ولوسيوس فيروس (*Lucius Vèrus*) في العهد الامبراطوري الاول . ولكن هذا الحل يفرض اختيار الشركاء والمحافظة ، باتفاقهم ، على وحدة الدولة .



كان من شأن هذا الحل ان يبدو مغرياً جداً لأنه يوافق نزعة فطرية الى الاستمرار السلافي . فممن ان كان بشر وملكيات ، كان اشراك الابن في سلطة أبيه طريقة دارجة جداً لأنها تحول دون شغور السلطة عن طريق تأمين الوراثة . وقد اعتمدت الامبراطورية الاولى هذه الطريقة أكثر مرة غير مكثفية حتى بلقب الامبراطور للخلف المعين على هذه الصورة : فان مارك اوريل قد منح ابنه كومودوس لقب « اوغسطس » محتفظاً لنفسه بالجزيرة العظمى دون شراكة وبالتفوذ الذي يوليه اياه فارق السن . ومن جهة ثانية ، كان هذا الفارق حجب العثرة ، اذ ان هذا النظام ما كان ليسير سيراً حسناً إلا اذا بلغ الابن ، عند وفاة أبيه ، سنّاً تسمح له بفرض نفسه . ولذلك فقد استفيد ، في عهد الانطونينين ، عملاً بمبدأ اختيار « الأجدد » ، من عدم وجود ابن شرعي للامبراطور ، طيلة أجيال عدة ، للجوء الى التبني .

وبالاختصار ، كان باستطاعة الملكية في العهد الامبراطوري الثاني ، التي أُلجئت الى تعيين مساعد ، بل عدة مساعدين ، للامبراطور ، بقية تأمين المهام الحكومية ، لا سيما العسكرية منها ، والتي نزعت مع ذلك ، على غرار سواها ، الى الوراثة السلافية ، ان تستند الى سوابق كثيرة . وهي قد عملت ، وفاقاً للظروف والبشر ، بهذه السابقة تارة وبذلك السابقة أخرى ، لا بل أدركت خير ادراك ، غداة موت قسطنطين ، صعوبة تكاد تكون جديدة — فقد سبق مثل نيرون وبريتانيكوس ، ومثل ابني فسبسيانوس ، وخصوصاً مثل ابني سبتيموس ساويروس — بل لمهي جديدة على كل حال بمجدة المنازعات التي أثارها ، اعني بها تلك التاجمة عن امبراطور يترك عدة أبناء لا يفصل بينهم أي فارق كبير سنّاً او نفوذاً . فلا عجب من ثم اذا كلّفها الافتقار الى حق ملكي صريح وثابت ثمناً باهظاً من الحروب الاهلية .

نظام ديوكليسيانوس
الرباعي
قد يكون من المملّ حقاً استعراض كافة الحلول التي جرّبت آنذاك. ففي القرن الثالث وحده نماذج وافرة عنها . وقد حدث في السنة ٢٣٨ ان اختار مجلس الشيوخ اثنين من اعضائه ومنحها بالتساوي الالقب نفسها والسلطات عينها بما فيها الخبرة العظمى التي أسندت للمرة الاولى الى شخصين في آن واحد . دام هذا التدبير الثنائي تسعين يوماً وانتهى ، شأن غيره ، بقتل المستفيدين منه . لنهمل اذن هذه المحاولات الفاشلة حتى نتوقف عند محاولة ديوكليسيانوس التي تنطوي على أهمية أعظم واقعية . فهي لم تكن سريعة الزوال - دامت أربع سنوات - وامتازت بأنها كاملة ومبتكرة ، اذ انها اضافت عنصراً جديداً ، هو الاستقالة في موعد محدد ، الى غيره من العناصر التي اوجدتها الاختبارات السابقة .

كان نظام « التتارشية » ، أي الحكومة الرباعية ، منذ زمن بعيد ، موضوع جدل ونقاش . ف منذ قرن ، فسرها يعقوب بوركارت ، بأنها نظرية عالم ، ربما انتسب الى « اسرة سيييس *Sieyès* » على حد قول احدهم . ولكن هذا القول ، لم يعد له من قيمة كبيرة في هذه الأيام : فان ديوكليسيانوس لم يتوصل الى هذا النظام إلا تدريجياً ، بخضوعه لشتى ضروب الضغط وتعديل مقررات املتها انتهازية عملية . ولكن ما لا ريب فيه مع ذلك ، هو ان نظام حكومة رباعية قد قام بعد تسلمه الحكم ، وان واضع هذا النظام قد اعتقد بأنه وضع حداً بواسطته للأزمات التي غالباً ما تعرض لها العهد .

قضى هذا النظام بتعيين امبراطورين في آن واحد ، يكون أحدهما ، رسمياً ، شقيقاً للآخر ، ويكون لهما الصلاحيات نفسها والألقاب عينها ، على ان يعتبر احدهما بمثابة البكر اي « الأقوى » و « الاول » بغية تحاشي كل خلاف بينهما . كما قضى بأن يعين ، الى جانب هذين الامبراطورين « قيصوان » يكون كل منهما مساعد الامبراطور الذي اختاره لجدارته دون أي اعتبار للنسب الطبيعي - فقد أقصي بعض الابناء - وتبناه حين اختياره . أضف الى ذلك ان كل قيصر كان يخلف امبراطوره حين وفاته او استقالته . ولم يتردد ديوكليسيانوس في اصدار قرار يقضي على كل من الرؤساء الاربعة بالاستقالة في مستهل السنة العشرين لممارسته السلطة . وقد استقال هو نفسه في اول ايار (مايو) من السنة ٣٠٥ ، متجاوزاً الأجل بسبعة عشر شهراً فقط بغية إرغام « اخيه » مكسيميانوس على احترامه ، ومتيحاً بذلك ارتقاء القيصرين الى مصف امبراطور ، واختيار قيصرين جديدين .

أمام هذا النظام ، لا نعلم في الحقيقة ، ما هو الأجدر باعجابنا : الابتكار ، أم الصرامة ، أم السذاجة . فهو قد استلزم مبدئياً المحافظة الدائمة على الاتفاق ، أقله بين الامبراطورين . وقد أهمل بعض العواطف الفطرية : الرغبة في الاستمرار عن طريق الابناء والأحفاد ، النفور من الاستقالة ، وجزع القياصرة بالتبني ، ويأس الابناء المحرومين من الإرث الوالدي . اجل قضى الاختبار بأن لا يستسلم لهذه الأوهام امبراطور استقال في سن الستين . ولكنه استطاع التأكد ،

قبل ان تدركه المنية في السنة ٣١٣ ، من فشل نظامه ونجلي المسؤولين عنه نهائياً . فقد سددت له الضربة الاولى منذ السنة ٣٠٦ ، حين سارع الجيش المربط في بريطانيا، الذي توفي الامبراطور كونستانس كلور بين وحداته ، بالمناداة بابن الفقيد ، قسطنطين ، دونما اكتراث لقيصره . ومنذ السنة ٣١٠ كان في العالم الروماني عشرة اشخاص يحملون لقب امبراطور ، لا يدخل في عدادهم ديوكليسيانوس الامبراطور الشرقي : فأخذت الفوضى تخيم مرة أخرى .

بعد حروب طويلة باهظة الثمن ، استعادت الامبراطورية السلم الداخلي حل قسطنطين المترجرج بقيادة سيد فرد ، هو قسطنطين الذي لم يأبه للعودة الى النظام الرباعي . واذا استحال القول بأنه لم يفكر بأمر الخلافة ، فمن غير المعقول ان المقررات الوحيدة التي اتخذها تقابل مشاريعه النهائية . فهو قد اقتصر ، قبل وفاته بسنتين ، على تقسيم الاراضي الامبراطورية خمسة اجزاء ، أسندت ولاية ثلاثة منها ، وهي الاجزاء الكبرى ، الى ابنائه الثلاثة ، وولاية الجزئين الآخرين الى اثنين من ابناء اخوته .

فهل هذا حله الحقيقي يا ترى ؟ اذا كان الجواب ايجاباً ، فمعنى ذلك انه كان ، قبل الميروفنجيين *Mérovégiens* والكارولنجيين *Carolingiens* ، بزمان بعيد ، اول من ذهب حتى المحال في تطبيق مفهوم غريب هو مفهوم الدولة الملكية كإرث عادي . ولكن ذلك يعني اما تصديق الدولة واما الالقاء بها في منازعات جديدة ، في حال انه يستحيل الاعتقاد بإمكان وجود مثل هذا العمه عند ذلك الذي صادف صعوبات كثيرة في اول عهده . فالأجدر بنا ، من ثم ، الاعتقاد بأنه احتفظ لنفسه ، بعد امتحان الامراء الخمسة ، بحق الاختيار وتعيين الامبراطور الحقيقي الذي يخلفه في دور التنسيق . ولكن الموت لم يترك له الوقت اللازم لذلك .

لنضع حداً لهذه النظرة التاريخية التي لم تضعنا ، على كل حال ، امام اي حل جديد . اما الجديد الذي نحقق ، فعملي اكثر منه قانوني ، وفي ذهنية حكم الجماعة في استمرار الوحدة المسؤولين والرعايا اكثر منه في المقررات الامبراطورية .

فمن جهة ، ما عادت السلطة العليا لتتجسد الا استثناء في امبراطور فرد . فقد ملك قسطنطين وحده ثلاثة عشر سنة ، من السنة ٣٢٤ حتى وفاته . ومنذ السنة ٣٥٣ ، تعاقب طيلة عشر سنوات الاباطرة : كونستانس الثاني وجولييانوس وجوفيانوس . ولكن الملك الفردي ، لن يعود بعد ذلك ، إلا خلال الاشهر الاربعة التي سبقت موت ثيودوسيوس في شهر ك ٢ (يناير) من السنة ٣٩٥ ؛ ولا وجود له مع ذلك الا عملياً ، لا قانوناً ، اذ ان اخوين ، هما ابنا الإمبراطور ، قد حملاً حينذاك لقب امبراطور ايضاً . فمدة عودته قصيرة جداً : اذ ان الشراكة كانت ضرورة ملحة لأسباب عملية .

بيد انه يجدر بنا ان لا نخطيء في فهم هذا الواقع : فالمتصود شراكة وبجمعية لا تقسيم اقليمي ، او دستوري اذا جاز التعبير . الامبراطورية واحدة نظرياً مع ان كل امبراطور ، سواء عين

معه قيصر ام لا ، او امبراطور آخر أقل نفوذاً ، كان مكلفاً عملياً ادارة قسم منها او الدفاع عنه . ولم يكن أي امبراطور جديد ليُقبل رسمياً في هذه الهيئة إلا بعد موافقة زميله او زملائه ، ولم تكن وحدة التشريع شيئاً نظرياً فحسب -- دون ان نرى حتى اليوم ، على كل حال ، كيف توصلوا الى الابقاء عليها . والمصير المختلف الذي قرره البرابرة « لشطري » الامبراطورية هو وحده بالنتيجة الذي أفضى الى التمييز بين امبراطورية شرقية وامبراطورية غربية ، وقد تكرر هذا التمييز في الوقائع زمناً طويلاً قبل الاعتراف به رسمياً . لا بل ان الاعتراف الرسمي لم يحصل قط في العصور القديمة مهما تجاسرنا في اطالة هذه العصور . ففي السنة ٤٧٦ ، حين اعاد « الاسكير » اودواكر (ابن اتيلا) الى القسطنطينية ، التي كان متربعاً على عرشها الايزوري تاراسيكوديسا باسم زينون اليوناني ، الشارات الامبراطورية الموجودة في إيطاليا ، اعتبر رجال القانون الشرقيون ان وحدة الامبراطورية ، التي ما زالت قائمة في نظرهم ، قد توطدت في الواقع : وهذه المزاغم هي التي سيستند اليها جوستينيانوس في وقت لاحق قريب . ولكن « الاجماع » ، وهو موضوع تغن دأثم ، قد فقد معناه منذ زمن بعيد .

قبل ان يتحقق كل ذلك ، أضرت تعدد الاباطرة بالامبراطورية . وكان عجباً ان يسود الاتفاق فيما بينهم بصورة دائمة . وجرت اقامتهم في مقرات بعيدة الى ازدواجية البلاطات والاجهزة المركزية . وقد اصطلح تصميم الملوك على الاتفاق ، حتى ولو كان مطلقاً وحازماً ، بشق بواذر البطة او اقله باثانية مستشاريهم ودوائهم وحتى الاهالي انفسهم . اضيف الى ذلك ان العمل العسكري ، الذي يستلزم وحدة القيادة ، قد تجزأ أو تقهقر أو ارتدى طابع السرعة بفعل الجبل أو الحساسة : فان فالنس مثلاً ، رغبة منه في احراز النصر منفرداً ، قد هاجم القوط امام اندرينوبولس دون ان ينتظر وصول الامبراطور الآخر الذي كان متوجهاً لنجدته . وهكذا فان العهد الامبراطوري الثاني ، الذي الجأته الظروف الى الحكم الجماعي ، قد تأثر بمساوئه .

هناك جدة اخرى لامراء فيها ، الفكرة السلالية . لم يعرف القرن الرابع الفكرة السلالية
ما عرفه القرن الثالث ، وحتى القرن الاول ، من اضطرابات . فبعد ان شهد وفشل الاغتصابات
سلالة قسطنطينية وسلالة فالنتينيه ، ترك للقرن الخامس سلالة ثيودوسية . أجل لم تكن الجدة في اشتراك الابن أو الابناء مع ابيهم ، ولا في استمرار حكمهم ، زمناً طويلاً أو قصيراً ، بعد وفاة هذا الاخير ، بل في لجوء الامبراطور نفسه الى عائلته : فقسطنطين قد فكر ببناء اخوته ، وفالنتينيانوس الاول قد اشرك اخاه فالنس معه . وبلغت الفكرة العائلية من القوة ما حلهم على ايجاد رابطة زواجية بين سلالة واخرى : حين بلغ غراسيانوس السادسة عشرة من عمره زوجته ابوه فالنس من حفيدة قسطنطين البالغة من العمر ١٣ سنة ، ولم يتزوج ثيودوسيوس من ابنة فالنتينيانوس لمجرد جمالها فقط .

لا يعني كل هذا ان تاريخ هذه السلالات قد استمر هادئاً ابداً . فان تاريخ العائلة القسطنطينية

بنوع خاص يقدم لنا امثلة متعاقبة وافرة عن مآسي البلاط والاعتقالات والخصومات بين الاخوة التي ادت الى الحرب الاهلية . وحدثت ايضا ثورات واغتصابات رافقها اغتيال الامبراطور الشرعي . بيد ان اية حادثة من هذه الحوادث العنيفة ، على نقيض ما جرى في القرون السابقة ، لم تنته بانتصار المقتصب . ولعله من حسن طالع جوليانوس ، الذي نادى به جنوده امبراطوراً في لوتيسيا ، ان مات ابن عمه قسطنطين الثاني قبل ان يصطدم بالجيشان . وهو التأثير الوحيد في ذلك العهد الذي نجحت محاولته ، وليس انتاؤه الى العائلة القسطنطينية بغريب عن نجاحه .

يبدو جلياً من ثم ان شعوراً بالاخلاص للسلالة قد بدأ يظهر ويؤثر حينذاك على الرغم من موانع كثيرة . ولعل افضل دليل على ذلك ان عدم كفاءة أعقاب ثيودوسيوس سياسياً وعسكرياً لم تحل دون موتهم موتاً طبيعياً . ولم يحدث ان اغتيل احد حفدته إلا في السنة ٤٥٥ : ومنذ نشأة الامبراطورية لم يقدر قط لأباطرة على مثل هذا الهزال ان يستمروا في الحكم هذا الوقت الطويل . والدليل الآخر هو عدد القادة البرابرة الضئيل - ثلاثة او اربعة - الذين حاولوا ، على الرغم من القوة التي تمتعوا بها ، اغتصاب اللقب الامبراطوري . فقد اقترب الهدف الذي كثيراً ما طمح اليه دون جدوى كافة الاباطرة منذ اربعة قرون : ان احترام الارجوان الامبراطوري كان سائراً ، تدريجياً ، في طريق الاستقرار . ويحوز لنا ، بهذا الصدد ، ألا نجزم بعدم جدوى جهود الملكية في العهد الامبراطوري الثاني في تنظيم انتقال السلطة .

ومع ذلك ، فمهما يكن من ضالة عدد الاضطرابات بالنسبة استمرار داء الامبراطورية المزمع لمقتضيات منطق تخلخل النظام ، فان الاضطرابات قد قامت ، ويعرضنا اهمالها لعدم فهم حضارة هذا العهد . اجتاحت الامبراطورية حملات داخلية تصادم فيها جيشان تتمدهما الامبراطورية للدفاع عنها . وقد عرفت الامبراطورية ايضاً مذابح الحروب الاهلية وشدة وطأتها بالاضافة الى ما عرفت من وطأة وعنف الحروب الاهلية . وقد رافق هذه النزعات ، أكثر من مرة طلبات التدخل الاجنبي التي شكلت خيانات حقيقية . فهي قد حولت الجنود ابدأ عن القيام بواجبهم ، وخدمت ، باضعاف حراسة الحدود ، العدو الذي كان يتحين الفرصة للاعتداء عليها ؛ فادت كل حرب اهلية الى تجسيم الخطر الخارجي .

قام النظام بما لم يحم به أسلافه لمعالجة داء الامبراطورية الوراثي هذا . ولكنه لم يتوفق إلا الى تخفيف ضرره فقط . ولكن هذا الضرر ما زال كافياً لأن يلحق بالناس إساءة فوق إساءة في ممتلكاتهم وألماً فوق ألم في أجسادهم وحزنًا فوق حزن في نفوسهم .

٢ - النزاعات الدينية

كان باستطاعة الديانة وحدها ، امام هذه الاحزان ، ان توفر التعزية والسلاوة . وسنبين في الصفحات التالية انها لم تتخلف عن القيام بهذا الواجب : فان الآلام النفسية المبرحة والمستمرة

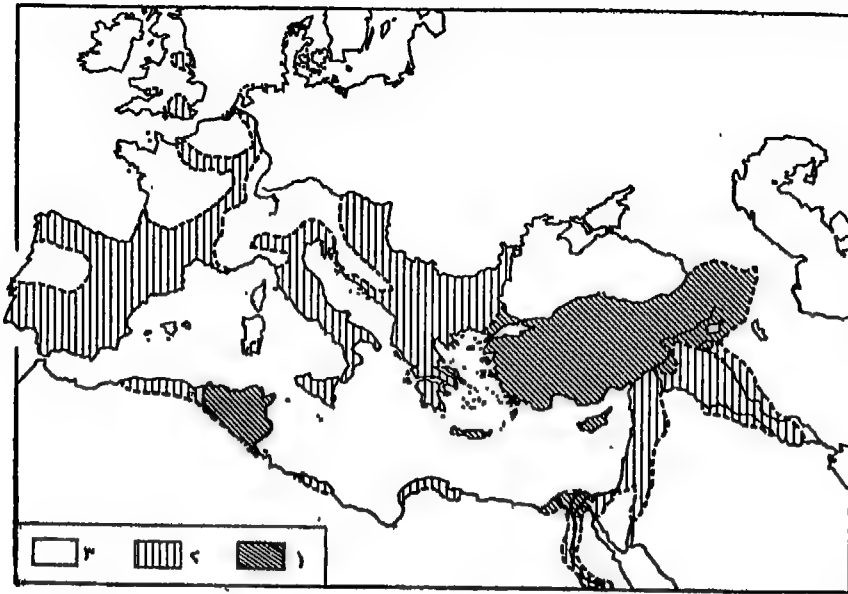
قد ساندت الانطلاقة التي أحييت الشعور الديني ووطدته منذ القرن الثاني . ولكن الحرارة التي رافقت هذا الشعور قد أثارت بدورها بعض النزاعات التي غالباً ما تشابكت بالنزاعات الأخرى ، الحروب الأهلية وحتى الخارجية ، التي زاد هواها عنف التعصب الديني .

إذا كان القرن الثالث قد دشّن الاضطهادات الكبرى ضد المسيحيين ،
فان هذه الاضطهادات ، قد توقفت في السنة ٢٦٠ وعرفت الديانة
المسيحية حينذاك اربعين سنة تقريباً من السلم الخارجي أفادت منها
افادة كبيرة .

ما كانت الحكومة لتستطيع تجاهل وجودها أو انتشارها العلتين . فلم يتستر رؤساءها واتباعها بل عملوا على مرأى من الجميع : فقد شيدت الكنائس الجديدة وأحدثت المدافن . وبعد ان استعاد اورليانوس انطاكية من التدميرين اضطر للفصل في نزاع قسم المسيحيين في هذه المدينة : ففصل فيه لمصلحة اولئك الذين يؤيدون أساقفة روما وإيطاليا ضد اسقف انطاكية السابق ، بولس الساموزاتي الذي عزل بسبب الهرطقة المنسوبة اليه . لا ريب في ان علائق بولس بزنوبياً ، كان لها أثرها في القرار الامبراطوري . ولكن في هذا القرار ، مع ذلك ، اثباتاً لتساهل رسمي لم يدخل عليه ما يمكنه طيلة النصف الاول من ولاية ديوكليسيانوس . فلا عجب من ثم اذا تكاثرت الارتدادات التي حصل بعضها في بطانة الامبراطور نفسها . ومنذ القرن الثالث أصبح المسيحيون اكثرية في آسيا الصغرى وفي جزء من تراقيا ؛ وفي الأماكن الأخرى ، لا سيما في الشرق ، كانت الديانة المسيحية آخذة بالانتشار . ورغبة في الاختصار نقول ان افسقيوس ، اسقف قيصرية ، ربما اعتمد المغالاة في « التاريخ الكليسي » رغبة منه ، عن طريق المقابلة ، في اظهار فظاعة الاضطهاد القريب ؛ بيد ان اللوحة المعطوفة التي يرسمها حينذاك عن علائق المسيحيين بالاجتماع العلاني تبدو ، في خطوطها الكبرى ، منطبقة على الواقع .

اضطهاد ديوكليسيانوس
وفجأة ، تبدل كل شيء .
فما هو سبب هذا التبدل يا ترى ؟ لكل مؤرخ تقريباً تعليله الخاص . فدون أن ندخل في التفاصيل ، نرى أن أقرب الأدلة للعقل والمنطق هو ذلك الذي يربط بين اضطهاد ديوكليسيانوس والنظام السياسي الديني الذي انتهى الى إقراره : وسنرى ان الانحراف عن الوثنية كان معناه ، في نظر المسؤولين ، التباهي بعدم الإخلاص وعدم الموالاة . أضف الى ذلك ان بعض الحوادث قد جرت في الجيش ، أقله في افريقيا : كإقدام بعض الجندين الجدد او القدماء ، وحتى الضباط ، على رفض القيام بالخدمة العسكرية . ولم يبرهن المسيحيون جميعهم عن انهم رعايا خاضعون تماماً للموجبات المدنية . وما زالت الهرطقة المونتانية ، التي رأى رأيها تروتيانوس Tertullien الافريقي في البداية ، تنبت فروعاً على الرغم من حكم الكنيسة عليها . فقد يكون ديوكليسيانوس ، ذلك الجندي الذي أصلح الدولة ، قد رغب في إعادة الوحدة

والنظام الادبيين بمثل النشئة التي اعاد بها الوحدة والنظام في الحقول الاخرى. ولعله ، اخيراً ، بحسب التقليد المسيحي ، تأثر بالحاح قصيره غاليريوس ، الوثني النشط ، وبآراء العرفيين . ولكننا مضطرون للاعتراف بأن هذه التفسيرات كلها لا تشبع نهم العقل ، لأن كلا منها يقابله تفسير آخر يضعفه . ولا تزال معضلة أسباب الاضطهاد ، دون حل منطقي. ولكن الامبراطور نفسه ، بصرف النظر عن كل الاعتبارات ، لا يخضع دائماً للمنطق وحده .



الشكل ٢١ - النصرانية في اواخر القرن الثالث
١ - مناطق تضم نسبة مرتفعة ، وربما اكثرية ، من المسيحيين ؛ ٢ - مناطق دخلتها النصرانية ؛ ٣ - مناطق لم تدخلها النصرانية بعد .

ولكننا ندرك ادراكاً أفضل التدبير المتعصب الاول الذي استهدف المانويين في السنة ٢٩٧ . فقد اشعت عقيدتهم بنوع خاص من اراض خاضعة للمملكة الساسانية ، أي من اراض عدوة . وان البراءة ، التي ساوت بين ممارسات تقوالم وممارسات السحر والتي قضت بنفيهم أو بموتهم ، قد صدقت في الاسكندرية في اعقاب استعادة مصر حيث ساند الملك الفارسي أحد المفتصبين . فكانت من ثم تدبير حرب وتدبير سياسة دينية معاً .

وكان ما صمم ديوكليسيانوس على تنظيمه ضد المسيحيين تدبيراً لا يعرف للشفقة معنى ايضاً . ولكن عمله هذا قد نفذ في عهد متأخر وبصورة بطيئة ولم يصل إلا تدريجياً الى تدابير مماثلة لتدابير داسيوس وفاليريانوس بشمولها وعنفها . فتقرر في الدرجة الاولى تطهير البلاط والجيش والادارات واقضاء الذين يرفضون تقديم الذبيحة . ثم جاءت المراسيم . فتعاقب اربعة

منها خلال السنة ٣٠٣ وفي اوائل السنة ٣٠٤ ، وارتدى كل منها ، بالنسبة لما سبقه ، مزيداً من الشدة بسبب اشتداد الصراع : وبنوع خاص ، عزيت الى المسيحيين الحرائق التي اندلعت في قصر نيكوميديا الامبراطوري حين اقامة ديوكليسianos وغاليوريوس فيه . اقتصر المرسوم الاول على حظر الاجتماعات واقرار هدم الكنائس ومصادرة الكتب المقدسة واثلافها . ثم أرغم العلمانيون أخيراً ، على غرار ما حدث قبل ذلك بخمسين سنة ، على تقديم الذبيحة ، تحت طائلة عقوبات متفاوتة الصرامة قد تصل الى الموت احراقاً .

يعتبر التقليد المسيحي هذا الاضطهاد أقسى الاضطهادات شدة . ومما يكن من الامر ، فانه أطولها امداً . ولكن مدته وشدته قد اختلفتا كثيراً باختلاف مناطق الامبراطورية . وبسبب ازدياد عددالمسيحيين الذي زاد من المخالطات في الحياة العامة ، لم تنفجر الاحقاد الشعبية انفجارها في الماضي ، على ما يبدو ، بغية ارغام الموظفين والقضاة على استعمال الشدة . فقد خضع كل شيء بالتالي لميول هؤلاء الشخصية ، الحليمة جداً في أغلب الاحيان ، وفي الدرجة الاخيرة للتعليقات المتفاوتة شدة التي يتلقونها . وقد صدرت هذه التعليقات عن الامبراطور او عن القيصر الذي ترتبط به الولايات . ففي غالبا وبريطانيا المرتبطتين « بكولستانس كلور » ، أرفق بالأشخاص وأسماهم الى الممتلكات أدنى إساءة يفرضها احترام سلطة ديوكليسianos : ومال كولستانس شخصياً الى التساهل لا سيما وقد بدا ضعف الديانة المسيحية في ولاياته خلواً من أي ضرر ممكن . اما في أنحاء الغرب الاخرى فقد كان الاضطهاد عنيفاً ولكنه كان قصير الامد ايضاً لأن مكسيميانوس قد استقال منذ السنة ٣٠٥ . ولم تشد وطأته اشتداداً طالت مدته إلا في الشرق حيث توقف في السنة ٣١٣ وتجدد حوالى السنة ٣٢٠ ولم يلقه إلا بانتصار قسطنطين على ليسينيوس في السنة ٣٢٤ .

اعاد هذا الانتصار وحدة الامبراطورية تحت سلطة سيّد فرد ، سيد مسيحي تنصر قسطنطين ؛ هذه المرة . هكذا انتهى — بعد ان أصبح قسطنطين مسيحياً — العهد اقتناع ومصلحة المضطرب الطويل الذي ابتدأ في السنة ٣٠٦ ، حين نادى به امبراطوراً ، في بريطانيا ، جنود أبيه المتوفى . ولا مجال للدهشة امام الأهمية التي ترتبها هذه الأحداث وهذا الارتداد ، اذا ما نظرنا الى نتائجها بالنسبة لتطور الانسانية جمعاء في العصور اللاحقة . وقد أثارت هذه الأهمية شتى المناقشات منذ زمن بعيد .

وان ما سهّل هذه المناقشات الصفة التاريخية الركيكة والتحيز الواضح في المصادر الأدبية المسيحية التي تعظم قسطنطين على حساب أعدائه المتعاقبين . اصف الى ذلك ان العوامل المختلفة الكثيرة التي كان لها أثرها حينذاك قد زادت في البلبلة والغموض . ثم ان الخصومة قامت بين أشخاص عديدين . ولم يتظاهر أي واحد منهم باللامبالاة الدينية ، لا بل لم يشعر بها : فقد كان العصر مندفعاً بالكلية ، ومن الجهتين ، نحو الحرافات بالتفضيل على العنادية . ومع ذلك فقد جاش في الجميع طموح وحشي ايضاً بحيث يتمدّد معرفة أية عقيدة أو أي طموح قد سيطرا على

كل منهم في هذه الفترة او تلك وفي هذه الدرجة او تلك من المنافسة بينهم ، ما لم تتوصل الى الوقوف على سرّ كل نفس على حدة . ولنصف هنا ان كلا منهم قد استند الى اقليم وطمح الى أقاليم أخرى . ولكن المسألة الدينية ، في كل مكان ، قد عبرت عن وجه خاص متميز من أوجه الظروف المحلية . فقد كان بالامكان الاعتقاد بأن لباريس قيمة قداس ، او قيمة براءة فانت على الاقل ؛ غير انه كان بالامكان ايضاً ، من جهة ثانية ، القنوط من الحصول على مساعدة طائفة تسير وراء منافس ، او على حيادها ، وبالتالي القنوط من القضاء عليها . لذلك فان تبدلات السياسة الدينية قد أملاها آنذاك ، في وقت واحد ، الهوى والمصلحة ، بنسبة تختلف باختلاف الطبائع ، والظروف ، والمعلومات والتخمينات حول واقع الرأي العام ، ووحى وحتى رهان الساعة . ولا يمكن لمنازعات متعددة المعطيات كهذه إلا ان تكون معقّدة جداً : فكيف لا تبقى حتى اليوم على جانب كبير من الغموض ؟

انها لمنازعات غامضة ولكنها خلاصة . ويعترينا الحجل لاننا لا نستطيع هنا ان نقدر ، الا بإيجاز هزلي ، اهم قضية تنجم عنها: قضية ارتداد ، أو بالأحرى ، تنصر قسطنطين . فقد وجدت لها حلول كثيرة وان قريحة المؤرخين من علماء النفس لم تنته بعد ، في الارجح ، من اكتشاف حلول اخرى جديدة . والجدل قائم اليوم ، انطلاقاً من المصادر المختلفة ، التي يولي النهج النقدي فيها مركزاً ممتازاً للمسكوكات ، حول تاريخ هذا الارتداد ، واسبابه ، ونتائجه المباشرة ، وبالتالي حول صدقه وحتى حقيقته . يفسره البعض بوحي الهي نزل على قسطنطين في احدى الليالي التي سبقت المعركة التي شنّها على مكسانس ، على ضفة النهر اليمنى ، فوق جسر ميلفيوس ، الى الشمال من روما ، في الثامن والعشرين من شهر ت ١ (اكتوبر) من السنة ٣١٢ ، وهؤلاء يرون عادة في الامبراطور مسيحياً مقتنعاً . وعلى نقيض ذلك فإن غيرهم يفسرونه كتظاهر املته ، دون اي اقتناع ، انتهازية سياسية مدروسة . وهناك ، بين هذين الحلين المتطرفين ، حلول اخرى كثيرة لن نتولى تحديدها أو درسها . فيكفي قولنا اعلاه ان اللامبالاة لم تتمكن من النفوس آنذاك للدلالة على اننا نصرّف النظر عن كل حل تستلزمه : فعلى غرار اوغسطس من قبل ، تصرف قسطنطين تصرفاً آخر . ولكن يبدو من المستحيل ايضاً ان ننكر انه قد اعتقد ، باقدامه على تخليص شخصه ، الذي لم يفصل بينه وبين الامبراطور ، بأنه انما يختص الدولة ايضاً : وان الاله الذي كان قد اولاه النصر على مكسانس ، ثم على ليسينيوس بعد مرور اثني عشرة سنة ، لن ينقطع عن ارشاده وحمايته وارشاد وحماية خلفائه . فكان الارتداد بهذا المعنى ، بالنسبة لقسطنطين ، عملية سياسية ايضاً : واذا اعوز تنصره الرقة ، وبقي « خشناً » ، كما قال المطران دوشين ، فقد اعوزه التجرد ايضاً .

تمهل وامتيازات
مها يكن من الأمر ، فقد كان سيد الامبراطورية مسيحياً : فهل تسير
الاضطرابات في اتجاه آخر ؟

تمشى قسطنطين على مبدأ التساهل . وهو قد ورث التساهل عن والده ، ذلك التساهل الذي

بدا ، خلال هذه الحروب ، لكثير من الناس ، وكأنه الحل الوحيد . وقد اضطر غاليريوس نفسه ، عدو النصرانية اللدود ، الى القول به . فحين أصيب بمرض عضال ، قبل وفاته بأيام معدودة ، في ربيع السنة ٣١١ ، سلم بنشر براءة اعترف فيها صراحة بفشل الاضطهاد وأعاد للمسيحيين حرية عبادتهم : « عليهم أن يبادلوا حملنا بالصلاة لأجل خلاصنا ولأجل الدولة ولأجل نفوسهم ، حتى تنعم الدولة بازدهار تام ، وحتى يستطيعوا العيش في بلادهم بطمأنينة » . ولم تلغ هذه البراءة قط من بعده . وفي اوائل السنة ٣١٣ ، قبل ان يصطدم ليسينيوس « بمكسيمينوس دايا » ، الذي لم يعمل بها في الشرق ، اجتمع ليسينيوس هذا في ميلانو بقسطنطين ، الذي سبق له وانتصر على مكسانس واصبح سيد الغرب . فاسفر هذا الاجتماع عن تعليمات بمكنتنا ان نحفظ لها ، اصطلاحاً ، اسمها التقليدي « براءة ميلانو » . وقد اصدر ليسينيوس امره فيها باعادة الممتلكات المصادرة من المسيحيين ونادى بالتساهل حيال كافة المعتقدات : « بعد البحث بكل عناية عما يمكن ان يكون نافعا لحير وسلام الدولة ، وعما يمكن ، في جملة ذلك ، ان يؤدي خدمة لاكثرية الناس ، رأينا قبل كل شيء آخر وجوب تسوية كل ما هو مختص بالاحترام الواجب للذات الالهية ، بغية اعطاء المسيحيين وكافة المواطنين حرية التمشي على الدين الذي يختارونه » . ولم يصف قسطنطين شيئاً الى ذلك بعد ان انتصر على ليسينيوس في السنة ٣٢٤ واصبح مضطهداً بدوره ، حين اعلن ، محاولاً طمأنة وثنيي الشرق : « ليسر كل منكم على الرأي الذي يفضل » .

غير ان هذه التصريحات لم تحل دون فقدان توازن كان من المستحيل على كل حال المحافظة عليه اذ ان الرجل والامبراطور كانا شخصاً واحداً .

انه لمن الشطط لعمرى ، على الرغم من بعض الحوادث النادرة ، الكلام عن الاضطهاد ضد الوثنية . فقد استمرت طقوسها في الحياة الرسمية ؛ وهي الضرورات المالية التي اوجبت جرد ممتلكات المعابد ، دون ان يكون لدينا اي دليل على المصادرة . ولم يقصد كذلك سوى ايجاد المساواة من ترميم الكنائس القديمة ، وتشيد الكنائس الجديدة ، واعفاء الاكليروس المسيحي من الموجبات المالية الذي تتبع به الكهنة الوثنيون من قبله والذي لن يلبث الكهنوت اليهودي ان يحصل عليه . وكان من الطبيعي ايضاً ان تبدل الشرائع التي لا تأخذ الاخلاق المسيحية بعين الاعتبار : بالغاء العقوبات القانونية التي اصابته منذ اوغسطس ، في مادة الارث ، إلغازين والمتزوجين الذين لم يرزقوا اولاداً .

ولكن قسطنطين ذهب الى ابعد من ذلك . فان بعض الذبائح على الاقل - ونحن لا نعرف ايأ منها - قد حرمت . وغدا يوم الأحد يوم الراحة القانونية وحظر القيام فيه باي عمل رسمي غير الاعتاق . واعتبر القانون الاعتاق الذي يحصل في الكنيسة ثابتاً شرعياً كذاك الذي كان يحصل بحسب الاجراءات السابقة . وتقلد الاساقفة حق السلطة القضائية على اعضاء اكليروسهم . واعترف بتحكيمهم المبرم في الدعاوى المدنية بين العلمانيين حتى ولو لم يطلب هذا التحكيم سوى احد الطرفين فقط . وقد بلغ من افراط هذه الامتيازات ان فرض احد خلفاء قسطنطين رضى

الطرفين وانت الاعتراض على السلطة القضائية الجنائية على الكهنة قد توالى حتى اواسط القرن الخامس .

ان مثل هذه التدابير تتخطى إطار الاقتناع الشخصي . وليس لها من تفسير سوى الرغبة في جعل الكنيسة جهازاً رسمياً واشراكها في حياة وسير الدولة وتقوية الدولة بما لرؤساء الكنيسة من تأثير على المؤمنين . وهكذا فان الديانة المسيحية ، بفعل انقلاب الوضع انقلاباً غريباً وشبه محتوم ، اصبحت تدريجياً دين دولة بعد ان كانت في الأمس القريب ديناً محرماً .

نهاية الوثنية
ومع ذلك فان الديانة المسيحية كانت ابعد من ان تحرز غلبة نهائية عند وفاة قسطنطين . فما زالت الوثنية محتفظة بمراكز قوية جداً . كان الجيش ، باكثريته ، متمسكاً بها . وما زال ينتسب اليها كافة رجال الفكر المشهورين تقريباً . وما زالت تمتنقها ، بنسبة كبيرة ، لاسيما في روما ، العائلات المجلسية التي تمتلك ثروة عقارية طائلة وتقدم للدولة عدداً لا يستهان به من كبار الموظفين . وكان من الممكن ، لو قدر لامبراطور وثني ان يتولى السلطة بعد قسطنطين مباشرة ، ان يبدل الاتجاه الذي سار فيه قسطنطين تبديلاً دائماً .

أخفق جوليانوس لأنه تأخر في الهجيء وزال بسرعة . وارتسمت ردة فعل وثنية بعده بثلاثين سنة ايضاً ، غذاها فيريوس نيكوماخوس فلافيانوس الاديوب والموظف الكبير ، بعد ان استفاد المجتمع الروماني الرفيع ، حيث نشأت ، من فتور الشعور الديني المسيحي في المقتصب اوجانيوس الذي أصبح امبراطوراً بفضل الفرنجي « اريوغاست » وأخذ يبحث عن عون على ثيودوسيوس الذي رفض الاعتراف به . فهبت «الريح الشمالية» بعنف في وجه جنود اوجانيوس وشلت جهودهم على ضفاف «النهر البارد»^(١) ، ووضعت حداً لردة الفعل في شهر ايلول من السنة ٣٩٤ . وهكذا فللمرة الثانية كانت الغلبة «للجليلي» بتوجيهه الريح الشمالية كما سبق له ووجه الرمح الفارسي الى جنب جوليانوس . انتحر فلافيانوس ؛ فارتد ابنه البكر وحصل بذلك على استعادة ممتلكات أبيه كما حصل ، مرتين متواليتين ، على وظيفة « حاكم المدينة » التي سبق له ممارستها في أيام المقتصب .

اذا ما استثنينا هذه الفترات القصيرة التي لم تجد فتيلاً ، فان السلطة قد بقيت في أيدي المسيحيين منذ قسطنطين . وبديهي ان كل امبراطور قد تصرف بحسب مزاجه الشخصي ، وبحسب الظروف احياناً . فعاد بعضهم الى فكرة التساهل ؛ فأشهرها فالنتينيانوس الاول واخوه فالنس في قانون سنائه في السنة ٣٩٤ وجعله بعد ذلك بسبع سنوات . ولكن التطور جاء على العموم متصلباً : فقد سيطرت التقوى على الجميع يدفع اليها تكاثر الارتدادات والخوف من التوسلات السحرية وتشجيع هاتفي الغيب للمتأمرين . ولا تفسير لاحتفاظ الامبراطور بلقب الحبر الاعظم سوى رغبته في مراقبة الوثنية مراقبة اجدى . وكان ثيودوسيوس اول من انقطع

(١) يعرف اليوم باسم « فيباكو » وهو احد زواقد الـ « ايسوتزو » .

عن حله حين اعتلائه العرش.: فجاء انقطاعه هذا اثباتاً لفصل الدولة عما حاول مكسيمينوس دايا وجوليانوس تنظيمه كنيسة وثلية مع ما يستلزمه ذلك من مراتب كهنوتية . وقد سبق لكونستانس الثاني ان امر بأن ينزع من قاعة جلسات مجلس الشيوخ الروماني المذبح المنصوب امام تمثال إله النصر الذي كان الشيوخ الوثنيون يحرقون عليه بعض البخور ؛ بيد ان جوليانوس اعاده في وقت لاحق ؛ ولكنه ازيل في السنة ٣٨٢ ، ولم يظهر مرة اخرى ، ولفترة قصيرة ، على الرغم من الاعتراضات المتكررة ، إلا في عهد اوجانيوس . ونحن نعرف تمام المعرفة قضية «مذبح النصر» هذه بفضل الجدل الادبي الذي أثارته ، ومن الجائز ان نولي حوادثها قيمة الحوادث الرمزية .

ولكن الأخطر من ذلك هو خنق الوثنية اقتصادياً بمصادرة او تدمير ممتلكاتها وبتحريم تقديم الذبائح واستشارة هاتفي القيب والعرافين وزيارة المعابد ، أي كل ما يدر دخلاً عارضاً . ولعل ما هو أدهى من ذلك ان هذه التجريعات قد استهدفت مثل هذه الاعمال بالذات كمظاهر الايمان الفردي . فسنت شرائع صريحة وقاسية في السنة ٣٥٦ قضت ، تحت طائلة عقوبة الموت ، بالكفّ عن « الاحتفال بالذبائح » ، و « عبادة الأصنام » ، و « الدخول الى المعابد » . كانت هذه التدابير سابقة لأوانها ، فاضطر المسؤولون الى تعديل هذه القوانين . ولكن ثيودوسيوس قد نشر في ٨ ت ٢ (نوفمبر) من السنة ٣٩٢ قانوناً سرى مفعوله هذه المرة قضى بفرض غرامات ثقيلة على المخالفين والموظفين المهملين وحظر كل عمل عبادة ، ولو لم ترافقه الذبائح ، حتى داخل المنازل والاملاك الخاصة . ففضي منذئذ على الوثنية التي ما لبثت ان زالت عملياً خلال القرن الخامس .

فلا ريب من ثم في ان مساندة الدولة القوية قد خدمت انتشار الديانة المسيحية الكنيسة والدولة التي ما كانت ، لولا هذه المساندة ، لتنتصر بمثل هذه السرعة . وهل كانت من المقدّر ان تنتصر يا ترى ؟ ان هذا الاعتقاد لجائز . اما تبياناه فأمر آخر ، وليس باستطاعة التاريخ ان يفصل في هذه المسألة . وكذلك فان التاريخ لا يستطيع البت فيما اذا كانت الكنيسة ، في النتيجة ، قد رضيت حقاً عن هذه المساعدة . فالارتدادات الحاصلة تحت الضغط الرسمي تمثل في نظرها مكاسب قد تكون ظاهرة أكثر منها واقعية : وان نفوساً كثيرة لم تتناولها حينذاك عملية التطهير المسبقة الضرورية . اضاف الى ذلك انها ، من حيث علاقاتها بالدولة ، قد فقدت بعض استقلالها بمسارعتها الى طلب مساعدة « السلطة المدنية » على الهراقة والحصول على هذه المساعدة : ففي الشرق حال استمرار السلطة الامبراطورية دون افلاتها من قبضة رضيت بها في السابق ، ولكن اصدار الحكم في كل ذلك منوط بالمفهوم الشخصي الذي نكوّنه عن المسيحي والديانة المسيحية والكنيسة .

يختلف الأمر عن ذلك فيما يتعلق بالدولة ، اقله من زاوية نظرنا اليها في هذا الفصل . فقد رغبت الدولة ، بشخص قسطنطين ، في توطيد سلطتها ، ان لم يكن بالوحدة الأدبية التي قد يوفرها لرعاياها ، في أجل قريب ، انتصار ايمان يحل محل الوثنية الخائرة ، فأقله بالعهد الذي قد تجده

في الكنيسة بغية تأمين اخلاص المؤمنين الكامل . ورضيت ببعض التضحيات سعياً وراء هذه الغاية . ولكن لن يتجاسر أحد على القول بأنها حصلت على المكافأة المرتقبة : فهي ، على نقيض ذلك ، قد اصطدمت ، بفعل هذا الواقع ، بعراقيل جديدة .

خسرت هي أيضاً بعض استقلالها . وقد سبقت الإشارة الى اعطياتها وتنازلاتها الاميرية والقانونية . واضطر الامبراطور من جهة ثانية لأن يحسب حساباً ، لا لأخلاق فحسب ، بل لنصائح أيضاً قد ثبتت له قيمتها منذئذ ، بحجج جديدة ، رجال يتصفون بالتصلف احياناً ، وقد حدث أكثر من مرة ان الرجل السياسي ، في ذاته ، قد خضع للمؤمن . وان في مجزرة تسالونيكي التي أدّت في السنة ٣٩٠ الى استحكام الخلاف بين ثيودوسيوس وأسقف ميلانو القديس امبروسيوس أشهر مثل عن هذه الحوادث التي نرجح انها لم تكن مكدرّة فقط لكبرياء الامبراطور . ففي أعقاب شغب انطلق من الملعب وأدى الى قتل موظف كبير ، اصدر ثيودوسيوس ، تحت تأثير الغضب ، أمراً لم يرجع عن رأيه فيه إلا بعد فوات الأوان : طوّق الجنود الملعب ثم قتلوا ، طيلة ساعات ، ألوفاً من المشاهدين . أنذر امبروسيوس الامبراطور آنذاك بأنه لن يحتفل بالقداس ، بحضوره ، قبل ان يكفّر عن عمله . تردّد المذنب طيلة ستة أشهر على الاقل ثم تواضع اخيراً ، فاعترف بخطيئته علناً وسمح له ، في عيد الميلاد ، بتناول جسد الرب . يستحيل علينا هنا لسوء الحظ ان نبين بالتفصيل في أية مجموعة معقدة من القوانين المنشورة والمُلغاة تدخل هذه القضية . ولكن لما اوردنا عنها ، على الاقل ، فضل اظهار مدى السلطة الادبية التي تعرض سيّد الدولة المطلق للخضوع لها منذ الآن . فعلى الرغم من العطف الذي قد يشيره فينا موقف الاسقف من هذه القضية بالذات ، علينا ان ندرك حقيقة مغزاها : ان مبدأ السلطة المدنية نفسه في خطر ، وان لمنازعات مقبلة كثيرة أصولها في ما أوجزناه .

على ان ذلك لم يند ، على القور ، أسوأ ما تعرضت له الدولة . وما كان الدولة والمهرطقات قسطنطين ، بعد ان جعل من الكنيسة نصيراً له ، ليرضى بأن تنقسم على نفسها ، فادارة النفوس يجب ان تكون واحدة على غرار ادارة الاجساد ؛ ويجب بالتالي منع كل انشقاق . ولكن المصادفة قضت بأن يصبح الامبراطور مسيحياً . في فترة قيام مشادات عنيفة خلقت البلبلة في صفوف الاكليروس وبين المؤمنين .

نشأت احدى هذه المشادات عن الاضطهادات . فقد اخذ على بعض الاساقفة وقوفهم موقفاً مرناً جداً من السلطات او قبولهم ، بزيد من الحلم ، بعودة الملحدين . انفجرت مشادة من هذا النوع في مصر ولكنها بقيت محصورة ولم تدم طويلاً . وانفجرت اخرى أشد خطورة في افريقيا ، زادت في حدتها المخاصبات الشخصية والخلافات حول أصول الاجراءات ، فافضت منذ السنة ٣١٢ الى تعيين اسقف منشق في قرطاج . كان هذا الانشقاق ، المعروف بالدوناتية نسبة لباعته الرئيسي ، دوناط ، معداً ، طيلة أكثر من قرن ، لأن يعرف نجاحاً كبيراً لا سيما في نوميديا ، متعهداً في مدن كثيرة اساقفته وكهنته وكنائسه ؛ وكان لا يزال مستمراً

في اواخر القرن السادس ، مستعداً للاستفادة من كل فرصة مؤاتية .

اضفت المشادة الاخرى خطورة خاصة على المحادلات الكبرى حول المسيح التي يحذر بنا ان نعود اليها فيما بعد رغبة منا في تبيان التقدم الذي حققته في ايضاح العقيدة . منذ كان ليسينيوس حاكماً في الشرق ، اقدم كاهن اسكندري اسمه آريوس على اتهام اسقفه بالهرطقة . بقي عليه الحرم ، فذهب الى آسيا حيث استفاد من قوة حجته وتضلعه في اللاهوت وحتى في الفلسفة واستمر في المحادلة موضحاً بقوة منطق حقيقة العقيدة التي دعت بالآرية نسبة لاسمه . كان لدعاوته صداها البعيد حتى بين الاساقفة ، وحين استولى قسطنطين على الشرق بغد انتصاره على ليسينيوس ، علم واجماً بقيام هذه المشادة التي اوجدت في كل مكان انقسامات عميقة .

امام هاتين المشادتين ، رأى قسطنطين التدخل ضرورياً لاسيما وقد طالبه الجميع بذلك . فلجأ الى الجامع اعترافاً منه بعدم الاختصاص : بجمع « آرل » في السنة ٣١٤ لمعالجة الهرطقة الدوناتية ؛ وجمع نيقيا في السنة ٣٢٥ لمعالجة الهرطقة الآرية . بيد انه لم يسمح لهذا الاخير بالمذاكرة بحرية كاملة ، فضغط الامبراطور ، الذي كان مستشاره الاول هوسيوس اسقف كوردوبا حتى تعتمد الصيغة التي اصبحت « قانون نيقيا » . ولس من نفسه القدرة على اعتمادها فنفي آريوس وانصاره الرئيسيين . وهكذا تدخلت الدولة في خلافات النصرانية الداخلية حتى تلك التي لا علاقه لها بها .

وليس هذا كل ما جرى . ففي كلتا القضيتين لم يثبت قسطنطين على قراراته الاولى . فعني طوعاً او قبل باعادة النظر فيها ، واصغى الى الاعتراضات ونزل عند تأثير اعضاء عائلته أو اهل البلاط . حله ذلك على اجراء تبديلات دائمة . فلوحق الدوناتيون ثم اغضي عنهم ثم لوحقوا مرة اخرى . ومُنذ السنة ٣٢٧ ، بعد ان استدعى آريوس للتحدث اليه ، اعتبر قسطنطين عقيدته عقيدة قوية ، اما اسقف الاسكندرية الجديد ، اثناسيوس ، الذي رفض الانحناء امام اعادة الاعتبار هذه ، فقد عزل واقصي . وقد رافق كلا من هذه التقلبات ضغط على مجامع الاساقفة وتعليمات الى الموظفين .

ان هذا التصرف المستبد يتصرفه قسطنطين اوجد تقليداً سار عليه خلفاؤه الا القليل منهم ، فوضعوا هم ايضاً القوة العامة في خدمة وحدة الايمان والنظام . وقد جرّم ذلك الى التحزب بحسب اقتناعهم الشخصي الذي غالباً ما تمليه تربية تلقوها او دسائس تحاك من حولهم . اجل لقد لمسوا إعادة ان رأيهم تعوزه السلطة الادبية . ولكنهم كانوا يحاولون حينذاك اثباته شرعاً عن طريق مجامع تتفاوت شمولاً وتحضر وتراقب وتوجه بكل عناية . وزغت الادارة ، من جهة ثانية ، في فرض الطاعة . فاستنفدت الدولة جانباً كبيراً من قوتها باستخدام هذه الاساليب . واصطدمت بمقاومات افقدتها الاعتبار احياناً . وما زاد في الطين بلة ان تدخلها نفسه ، الذي اعوزه الاستمرار ، قد زاد في امد وخطورة اضطرابات كان بالامكان تهدئة بعضها في وقت مبكر قصير .

لم يتبدل موقف الأباطرة المبدئي من الدوناتية الافريقية : ولم يساندها أي منهم علناً . ولكن أكثر من واحد ، ابتداء من قسطنطين ، قد سلكوا بتخفيف أعمال القمع . أضاف الى ذلك أن الانشقاق قد استمر لأنه جسد استياء وهياج الريفيين البائسين الثائرين على النظام القائم . فتضررت الكنيسة ، بهذا الصدد ، من جراء الحماية التي رغبته الدولة في توفيرها لها .

بيد ان المشاهدات حول الآرية بنوع خاص هي التي اظهرت المساواة المتبادلة الناجمة عن التدخل الامبراطوري في الشؤون الروحية . فلم تعرف هذه الهرطقة عالياً انتشاراً واسعاً في الغرب . وقد اصطلحت في الشرق نفسه اخيراً بالشعور الشعبي الذي اثاره وغذاه تصلب اثناسيوس ، ولكنها مدينة بقوتها وديمومتها الى انها حصلت تكراراً على ايد الامبراطور : كورنستانس الثاني ، سيد الشرق وحده اولاً وسيد الامبراطورية جمعاء آخرأ ؛ وفالانس ، في الشرق ؛ واخيراً جوستينا ارملة فالنتينيانوس الأول والوصية على ابنها ، في ألتريا وايطاليا وافريقيا . فنشأت عن ذلك منازعات ملتوية لانهاية لها تعذر درس طغوراتها الكثيرة . وقد انتقلت المشادة الدينية بين الأباطرة الشركاء أو بين الأباطرة الشرعيين والمغتصبين الى الصعيد السياسي احياناً فراقت تبدلات وحوادث لا يحصى لها عا . ويكفيها لاعطاء فكرة عن تصلب بعضهم فيها ممن بلغت جسارتهم حد إهانة السلطة الامبراطورية ، ان نذكر ان اثناسيوس ، الذي عاد عن المنفى بعد وفاة قسطنطين مباشرة ، ارغم ، قبل ان تدركه المنية في السنة ٣٧٣ ، على مغادرة الاسكندرية ثلاث مرات يضاف اليها نفيه ، في هذه الاثناء ، بسبب مقاومته لجولييانوس الوثني .

بعد اخفاق الآرية في الغرب ، بفضل الحرب الشعواء التي شنها عليها هيلاريون اسقف بواتيه والقديس امبروسيوس ، كان الفضل لحزم ثيودوسيوس في القضاء عليها اخيراً في الشرق . ففي السنة الثانية من ولايته ، اي في السنة ٣٨٠ ، اصدر براءة تنص على ان لمستقيمي الرأي دون غيرهم حق حمل لقب « المسيحيين الكاثوليكين » . ثم استند الى مقررات مجمع القسطنطينية الكبير الذي انعقد في السنة ٣٨١ وانتزع من الاساقفة الآريين كنائسهم . فلم يبق عملياً ، عند موته ، آريون في الامبراطورية سوى البرابرة . ومرد ذلك الى ان المسيحيين بين هؤلاء - وعددهم كبير - قد تنصروا على يد القوط ، الذين تنصروا على يد اسقفهم اوليفسلا ، الذي تنصر هو نفسه على يد اسقف آري في آسيا الصغرى . وما كان الامبراطور ليستطيع اتخاذ اي تدبير ضد البرابرة .

كانت الآرية اهم هرطقة عرفها القرن الرابع . غير ان الدولة ساعدت الكنيسة على الوقوف في وجه هرطقات اخرى كثيرة . فنند قسطنطين حكمت براءات عديدة بالزيف على مذاهب قد لا نعرف عنها شيئاً تقريباً . ولكن اول حكم باعدام الهرطقة المسيحيين لم يصدر الا في عهد متأخر نسبياً . وفي براءة السنة ٣٨٠ ، التي خطأهم جميعاً ، اكتفى ثيودوسيوس باستردادهم ، مضيفاً : « ان الرب سيأثر منهم ، ونحن ايضاً » . ولن يذهب الى ابعد من ذلك . سوى احد المغتصبين ، ففي السنة ٣٨٦ ، حين حكم مجمع بوردو على تعليم بريسيليانوس اسقف لوزيتانيا

بالزيف ، اعدم الاسقف مع بعض انصاره : وقضت الضرورة ، تبريراً لهذا العمل بتشبيهم
بالمناويين ، الملاحقين بكل شدة منذ ديوكليسيانوس ، والمصنفين ، منذ قسطنطين ، بين المراطقة
المسيحيين المقيتين . وقد احتج اسقف تور القديس مارتينوس على تقتيل اليريسيلانيين ، ولكن
احتجابه لم يلق اذناً صاغية . فقد سلم الجميع بتدخل السلطة المدنية حتى ولو ادى الى نتائج
القصوى . ونحن سنرى ان ضحاياه كانت كثيرة جداً .

وهكذا فان الدولة ، بتحالفها مع الكنيسة ، قد اوغلت في الخلافات الدينية ، وان في
تاريخ القرن الرابع لدلالة كافية على انها ، في عملها هذا ، قد زادت في الاضطرابات التي
هزت الامبراطورية .

الفصل الثالث

الملكية المطلقة والبيروقراطية

لقد أطلق بعضهم على العهد الامبراطوري الثاني اسم « الخراب المرمم » . ولكن هذا التحديد غير منصف . فهو يهمل الاخطار التي كان على هذا العهد مواجهتها ، والهزات التي خلخلت ركائزه باستمرار . ويهمل بصورة خاصة تحقيقاته الجديدة ، اذ انه لم يكتفِ بالترميم لا في المقصد ولا في الواقع . شعر هذا العهد ، بحنين الى الماضي ، لا سيما الى « السلم الروماني » . ولكنه اضطر ، في محاولة استعادته ، على الرغم من تبدل معطيات المسألة ، الى اكتشاف واعتماد أساليبه الخاصة التي رافقتها بالضرورة بعض الذبول . أضف الى ذلك ان الزمن ، مهما طال أمده ، يعمل عمله في خدمة اولئك الذين يجرّهم وراءه . فما هو شأن مدى التطور الملازم للحياة ، حين يتعرض لأزمة على مثل ديمومة وشمول أزمة القرن الثالث ، ولثورة روحية على غرار انتصار المعتقدات الجديدة ؟ ان صرح العهد الامبراطوري الثاني يمثل بناءً متميزاً ، مشيداً ، شأن اكثرية المساكن البشرية ، وفاقاً لتسويات شاقة ، تعدل باستمرار ، بين التقاليد القديمة ومقتضيات العصر والمثل المتناقضة .

وتمثل تقوية الدولة ، أهم تبدل على الصعيد السياسي : فقد غدت الملكية الامبراطورية مطلقة وبيروقراطية .

سبق للامبراطورية الاولى ، ان أخذت تتطور في هذا الاتجاه . ولم تسلك أسباب تحول الدولة هذه الطريق ، كما رأينا ، بدافع الميل أو اللذة ، بل بحثاً عن الفعالية والتلاحم في العمل . لقد بقي النظام ، في عهد الانطونيين ، خاضعاً لمثل أعلى في الحرية . وكان جل ما يتمناه ، ان تحكم المدن نفسها حكماً ذاتياً مستقلاً ، محتفظاً للحكومة المركزية ولممثلها الاقليميين بدور التنسيق فقط . وبدلاً من ان يحاول خنق هذه الحياة البلدية ، حيث قامت من قبله ، بذل جهده في إيقاظها ، حيث لم تستند الى أي تقليد . فهو قد آثر ، بسبب اقتقاره الى الرجال ، أي الى الموظفين الأكفاء ، عدم الاهتمام للشؤون الصغرى . ولكن ضغط الأحداث القاهر ، لا سيما الصعوبات المالية التي تعرضت لها المدن ، قد أرغمته على التدخل ، في سبيل المساعدة أولاً ، واحتكار السلطة اخيراً . وحدث الشيء نفسه لمجلس الشيوخ ، اذ ان التطور الذي يعيننا قد

قرضه بسرعة ، منذ البدء ، الحذر السياسي ؛ ولكن ، اذا كان لهذا الحذر أثره العظيم ، فان الضرورات التقنية كان لها أثرها ايضا . وهكذا فقد ازدادت سلطات الامير ، علياً او قانوناً ، ازدياداً مطرداً ، جرّ بالضرورة ، تحت اشراف هذا الاخير ، الى تنظيم جهاز دولة ازداد تقيده وتكاثر اجزائه باطراد ايضا .

انطلقت الحركة اذن . ولعله كان باستطاعة ثورة أدبية ، او « فلسفية » ، بحسب مفهوم القرن الثامن عشر الفرنسي ، ان تقضي على هذه النزعة بأن تعيد الى مثل الحرية قوته الاولى . ولكن هذه الثورة لم تحدث . فان التيار العقلي ، الذي برز من قبل في العهد الامبراطوري الاول ، قد جرّ النفوس الى حيث اجتذبتها الوقائع ايضا . ثم ان الشرق قد قدم ، بالاضافة الى دياناته ، ذكرى ومثل ملكياته المطلقة ذات الحق الالهي : وكانت مصر بينها دولة لا تزال الادارة فيها تراقب كافة مظاهر حياة ونشاط الرعايا ، ان لم توجهها توجيهاً كما فعلت في زمن الفرعنة والبطالسة . وجاءت من الشرق ايضا مثل محبة البشر والعطف على الضعفاء التي تسربت تدريجياً الى النفوس : وجلي ان هذه المثل مرتبطة بمثل الملك الكلي القدرة المطالب ضميرياً باستخدام قدرته الكلية لسعادة رعاياه ، والقادر وحده على ان ينشر بينهم عدالة انسانية تفضل العدل في معناه الحضري . وقد صادفت هذه الاختبارات والآراء والمشاعر عضداً قوياً لدى سلالة ساويروس التي كانت مؤسسها ، المولود في افريقيا ، متزوجاً من سورية : فطيلة أربعين سنة تقريباً ، في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ، كان للشرق أثره البعيد عن طريق الإباطرة أنفسهم ونساء عائلتهم وكثير من الموظفين .

علينا ألا نتجاهل هذه السوابق وهذه التأثيرات . ومع ذلك ، لم يكن لأي عامل ، في تكوين دولة العهد الامبراطوري الثاني ، فعالية الظروف التي أرغمت هي على العيش فيها . فطيلة قرن كامل هددت وجودها بالخطر أزمة فريدة ، ولم يحل تغلبها عليها دون الاخطار والاضطرابات التي كان من حسن طالع الامبراطورية الاولى أنها لم تحدث في آن واحد . فهناك البرابرة على الحدود ، وفي قلب الاراضي الامبراطورية احياناً . وهناك ، في الداخل ، الاغتصابات والحرب الاهلية والفوضى ؛ وفي الداخل ايضا ، المعجز المالي والازمة الاقتصادية وزوال الازدهار والامن في المدن التي كانت حتى ذاك الحين مراكز اولى للحضارة . لم يكن من علاج لهذا الواقع ولهذا الخطر الدائم ، سوى جمع كافة السلطات في ايدي الامبراطور والاعتراف بحقه في مصادرة كافة الموارد البشرية والمادية ، ووحدة العمل في مجهود متزايد وحازم . اجل ان الحرية قد ماتت منذ زمن بعيد ، أي منذ آخر العهد الجمهوري . ولكن ما زالت هنالك بعض الحريات : فهذه هي التي زالت ، وكأنها بذخ غدا مستحيلة .

١ - اموال الدولة

يتوجب علينا ، انطلاقاً من هذه الملاحظة ، ان نستهل هذا البحث بمطالب الدولة من رعاياها . سبق ورأينا كيف أمنت الرجال لجيشها . ولا تزال اماننا المطالب التي لا مفر من تسميتها

بالمالية ، في مفهومها الواسع ، مع ان الدولة غالباً ما تحاول تحصيلها عن طريق غير طريق النفد .

التنفقات
جر ازدياد الاعباء الى ازدياد المطالب . وقد نشأ هذا الازدياد خصوصاً عن ارتفاع عدد المجندين وعن ارتفاع اعظم في عدد الموظفين . وتلقى اصحاب الحقوق القسم الاكبر من اجورهم او من مرتباتهم عيناً ، اي حصصاً غذائية أو البسة : وفي ذلك ضماناً ضرورية ضد ارتفاع الاسعار ، وظرف مؤات ، كما لا يخفى ، لتبذير وخسارة تثقل وطأتها بالنتيجة على المكلفين . اضاف الى ذلك ان تجهيز الامبراطورية المادي ، تحقيقاً لهذه الغاية او غيرها ، يتطلب تمهيداً وتحسيناً : فالضرورة تقضي بايجاد المخازن للمحاصيل والمكاتب للادارات ، والطرق ووسائل النقل وسعاة البريد ، الخ . فالجيش والبيروقراطية يمثلان عبئاً ثقيلاً جداً ، لعله اثقل عبء اطلاقاً على الرغم من افتقارنا الى الاحصاءات المالية .

غير ان كل شيء يحملنا على الاعتقاد بان النفقات الاخرى لم تتدن قط . فلا باطرة ، على غرار اسلافهم ، ارادوا ربط اسمهم بالانشاءات الكبرى . وبما ان هنالك عدة بطائر في اغلب الاحيان ، فهناك عدة بلاطات ايضاً . فهم يتركون روما وينتقلون بسهولة ، مما يؤدي الى تشييد وتمهيد قصر لكل منهم . انفق قسطنطين اموالاً طائلة حين شيد على البوسفور روما ثانية والى خلفاؤه تجميلها من بعده . ولا يعني ذلك ان سكان العاصمة الساقطة من مرتبتها قد حرموا نعم الدولة ؛ وقد اسرع قسطنطين الى شمل سكان القسطنطينية بها ايضاً . ولم يكتف اوريليانوس بتوزيع القمح مجاناً ، بل شرع في توزيع الخبز ايضاً ، ثم عمد خلفاؤه الى التوفير بتخفيض نوع الطحين ، ولكن فالنتينيانوس عاد فاقر الخبز الأبيض ، واقر اوريليانوس نفسه توزيع الزيت والملح ولحم الخنزير في بعض المواعيد ، كما اقر توزيع القمصان الذي لم يعمل به قط . ولم تفقد الألعاب شيئاً من سناها ، لا بل ادخلت زيادات على ايام الاعياد .

الموارد
اقتضى من ثم زيادة المجهود الجبائي . اجل كان الاقتصاد اقل ازدهاراً منه في الماضي . ولكن كركلا* منح المواطنة الرومانية كافة الرجال الأحرار في الامبراطورية ؛ فمن حيث انهم أصبحوا كلهم متساوين قانوناً امام الدولة ، أصبح ممكناً اخضاعهم للموجبات الاميرية ، واستطاعت الحكومة ، دوغماً اهتمام للامتيازات القديمة ، ان تأتي بشيء جديد .

اما هذا الجديد فقد حققه ديوكليسيانوس الذي توصل في اوائل القرن الرابع ، بعد ان تلمس طريقه ، كما فعل حين اقام النظام الرباعي ، الى اعداد ما أصبح منذئذ الضريبة الرئيسية ، أعني بها الضريبة الشخصية (الاعناق) . ان المعاضل الكثيرة التي تثيرها هذه الضريبة والتي يدور حولها جدال عسير لا تسمح بأن نعطي هنا سوى فكرة موجزة عن مبدئها ، لا سيما وان تطبيق هذا المبدأ قد تفاوت شدة بحسب المناطق . كان الهدف منها استبدال الضريبة العقارية المتنوعة الاشكال والمعدلات ، والضرائب على الفلاحين او على المواشي ، بضريبة موحدة يكون مطرحها ثابتاً وعادلاً . يجري لهذه الغاية مرة كل خمسة عشر سنة ، تقدير مبني على مسح الاراضي

والاحصاءات، تجمع بموجبه العناصر المختلفة الضرورية للانتاج الريفي ، أي الاراضي والشجار والمواشي واليد العاملة ، وتُرد ، بالاستناد الى معدلات محدّده بحسب جنس الاشخاص ، وطبيعة المواشي ، والاقليم ، ونوع التربة ، والمزروعات ، الى عدد معين من الوحدات الاصطلاحية المعتبرة متساوية بين بعضها، ومن ثم قابلة للجمع. هذه الوحدة الجبائية الاصطلاحية هي « النير » ، او « الرأس » كما درجت تسميتها. تقف الادارة بهذه الطريقة على مجموع الرؤوس المحصاة في الامبراطورية وتوزيعها بين الولايات والمناطق والملاكين . ويكفيها من ثم ان تقدر حاجاتها السنوية حتى تحدّد تدريجياً ، بصورة آلية ، الفريضة المطلوبة من كل مكلّف .

تجسّ الضريبة الشخصية عيناً بكليتها تقريباً؛ وتتشعب منها رسوم عدة أهمها الضريبة العينية السنوية التي تخصص لتموين الجيش والمدن الكبرى. ولكن الدولة بحاجة الى مداخيل نقدية ايضاً، ولا يمكن ، من جهة ثانية ، ان تبقى الزراعة وحدها حقل نشاط السكان . لذلك أبقى على بعض الضرائب غير المباشرة ، المحدودة الدخل ، على الرغم من ارتفاع معدلها . ولذلك ، خصوصاً ، أحدثت قسطنطين ضرائب تدفع ذهباً او فضة وتتناول بالتالي أعضاء بعض الطبقات الاجتماعية . وفرض على أعضاء الطبقة المجلسية ، وجلّهم من الملاكين الاثرياء ، ان يدفعوا ذهباً رسماً عقارياً اضافياً تراوح معدله بين ١ و ٤ خلال القرن الرابع، بحسب ثروتهم . ودفعت العائلات الكهنوتية في المدن ضريبة « ذهب التاج » : والمقصود بها مبدئياً تقديم تاج للامبراطور لمناسبة حدث سعيد ، ولكن فالتيانيانوس نزع عنها الطابع الاختياري دون ان يجعلها دائمة على كل حال . وكان على التجار ، والصناعيين ، والبغيات أنفسهم ، والفلاحين الذين يقصدون المدينة لبيع محاصيلهم ، ان يدفعوا ، ذهباً وفضة ، مرة كل أربع سنوات ، رسماً لنجل معدله .

تضاف الى كل ذلك إيرادات الدولة وممتلكات الامبراطور الخاصة ، وقد ميز بينها سبتيموس ساويروس . ان هذه الممتلكات ، التي كانت واسعة جداً في العهد السابق ، قد ازداد اتساعها بفعل المصادرات التي كان ضحيتها أعضاء الطبقات الغنية خلال أزمة القرن الثالث . ثم ازداد اتساعها في القرن الرابع ايضاً ، إذ وضعت الدولة يدها على أملاك المدن ، ولم تتنازل لهذه المدن اخيراً إلا عن ثلث إيرادات هذه الأملاك وثلث المكوس المفروضة عليها . وعلى الرغم من الاعطيات الامبراطورية التي تكاثرت في القرن الثالث وما بعده، ما زالت هذه الممتلكات شاسعة جداً . وعاش البلاط ، اجمالاً ، من مداخيل الممتلكات الخاصة التي أوكل أمر استثمارها الى القيمّين . بينما سلت الادارة الممتلكات الاخرى الى بعض الملتزمين .

واكتمل النظام المالي في العهد الامبراطوري الثاني بما فرضه على الافراد من خدمات كثيرة مجانية أو شبه مجانية ساعدت على تخفيض نفقات الدولة دون ان تساعد على تخفيض العبء الحقيقي الذي يتحمله الرعايا . وهذه الخدمات هي ما ندعوه اليوم بـ « السخرة » وما أطلق عليه الرومان اسم *Munera* . وكان لهذا التعبير ، منذ البدء البعيد ،

التسخير

مفهوم مبهم اذ انه قد استخدم للدلالة على المهام الممارسة وعلى النفقات والموجبات الاخرى. التي تستلزمها ، هع فارق سخاء يتجلى في القبول بـ « معارك المسافين » التي يقدمها للشعب اولئك الذين ينالون شرفاً ما . اما الآن فقد انتفى عنه أي معنى من معاني التلقائية ، بحيث ان تطور معاني المفردات يعكس تطور العلائق بين الجماعة والفرد بالذات : فقد غدا الواجب يقضي بتنفيذ ما كان يقام به في السابق شكراناً او غيره او مجرداً باطلاً . وتجدر الاشارة الى ان طبيعة « التسخير » واطار الخاضعين قد عرفا في الوقت نفسه اتساعاً عظيماً : فليس المقصود به بعد اليوم المهام الشريفة فقط ، التي تستهوي الاثرياء او الميسورين .

تتنوع المهام تنوعاً لا حد له كما تتنوع لائحة الخاضعين لها بحسب مرتبتهم الاجتماعية و ثروتهم ، ومهنتهم ومكان اقامتهم أو مكان أملاكهم ، مع ان هناك نزعة جلية الى فرضها على كافة الاهالي بغية التخفيف من وطأتها عن كل فرد . قد نحاول عبثاً وضع لائحة كاملة لهذه الخدمات أو وضع نبذة تاريخية عنها لتحدد تاريخ ظهور كل منها وتتبع تطورات تطبيقها : اننا في اغلب الأحيان نفتقر الى المعطيات . فالدولة تفرض ايواء رجالها من موظفين أو مجندين ، وتلزم المكلفين بنقل الضريبة العينية السنوية الى المخزن القريب ، ومن مخزن الى مخزن احياناً ، وتصادر اليد العاملة وادوات العمل والمواد اللازمة لتعهد ابنتها والطرق والجسور ، وتلزم بتقديم الزواجل وحيوانات الجر تأميناً لخدمة البريد العام الذي اعسف المقيمين على جوانب الطرق بعد ان اثقله تقدم الادارة . ولكن « التسخير » يطلق على موجبات متنوعة ايضاً : كاستئجار الأملاك العامة التي لم يستأجرها احد ، وتسليم كميات تعينها الدولة من المصنوعات أو من المواد الغذائية بأسعار محددة ، وتأمين وظائف عامة ، وضبعة جداً احياناً ، في المدن ، واخيراً وخصوصاً — وهذا اقل تسخير — جباية الضرائب اي تحمل مسؤولية ايرادها .

هذا هو النظام باجزائه المختلفة اصلاً ومفهوماً ؛ لم توحه اية فكرة نظرية ، بل النواقص الحاجة فقط . وهو لا يختلف بذلك عن اكثرية الانظمة في كل البلدان وفي كل الازمنة . فان التجديد الرئيسي نفسه فيه ، أي إلزام كافة المواطنين ، بمن فيهم اولئك الذين يقيمون في ايطاليا التي اعفيت اراضيها من الضريبة منذ السنة ١٦٧ قبل المسيح ، ليس نتيجة لبراءة كركلا الا جزئياً . فقد سبق ، قبل هذا الاخير ، ان دفع الضريبة العقارية مواطنون كثيرون جداً ممن يقيمون في الولايات . وقد افضى الغاء الامتياز الايطالي الى اغتصاب ، اذ ان مكسانس قد استفاد في السنة ٣٠٦ ، من الاستياء العام . ولكن الدولة تصلبت بسبب حاجتها الى الضرائب الايطالية . وكذلك فان الاعباء الاميرية المفروضة على الطبقة المجلسية لا ترد الى عداء استهدف هذه الطبقة . ولو ان هنالك نزعة الى ايجاد المساواة ، وراء السياسة المالية ، لظهرت في امكنة اخرى حيث لا نفس لها أثراً . ولكن من الطبيعي ان تطلب الدولة المال حيث هو متوفر .

لا مرأى في ان هذه الضرورة قد اتاحت تحقيق بعض التقدم اقله نحو توزيع الاعباء توزيعاً كثر انصافاً . ولكن ، ما اكثر الشكاوى ! فهناك ، كما هو طبيعي ، شكاوى المكلف المزمعة .

وقد اعترض لاكتانس بقعة ساذجة على دقة مأموري الاحصاء في تنفيذ عملهم . ومع ذلك فان سير النظام سيء ، واذا لم تعرف الدولة في القرن الرابع الضائقات التي عرفت في القرن الثالث ، فانها كثيراً ما تتخبط في العسرى وتضطرب في مدار السنة لزيادة رسم اضافي على الضريبة الشخصية التي حددت هي نفسها قيمتها في اول السنة . وقد يحدث احياناً ان تتكدس المتأخرات الاميرية بحيث يجب الغاؤها ، فتسمح لموظفيها ، اقله لصفار موظفيها ، ذوي الدخل المحدود ، بأن يؤمنوا لأنفسهم دخلاً عارضاً بتقبل هبة ، لا يحددها قانون ، من المكلفين المرتبطين بهم .

ثبتت جميع هذه الدلائل عدم انطباق النظام على الحاجات . وتقوم سيئته الكبرى في تعذر ضبط جدول الضريبة الشخصية يومياً بتتبع تقلبات مطرحها . اضاف الى ذلك ان حسن سيره يفرض ألا يمنح أي إعفاء ، وألا يتهرب أي مكلف من واجباته . ولكن كلا هذين الشرطين لم يتوفرا : فهناك إعفاءات رسمية من هذا المطلب او ذاك ، كما ان هنالك شخصيات كبيرة كثيرة لا تدفع الضريبة الشخصية المتوجبة على املاكها الى جباة لا يتمتعون حيالها بأية سلطة . فتزداد من ثم أعباء الجيران ازدياداً مرهقاً احياناً ، اذ ان الدولة تتمسك بمطالبها من كل مدينة وتوجه ، في سبيل الحصول عليها ، الى المأمورين البلديين دون غيرهم .

لو ان الدولة ، التي أنمت الأجهزة الادارية القديمة وأحدثت العديد غيرها ، اوكلت الى موظفيها ، بمساعدة القوة العامة أمر تحصيل الضريبة المباشرة ، لخضعت لعمري لمنطقها الخاص . اما ما اعوزها فهو الجرأة على التخلص من عاداتها المتأصلة ، او بالاحرى ، على ما نرجح ، الرجال الاكفاء المستعدون للخدمة . والدليل على ذلك ان فالنتينيانوس الاول قد حاول الاصلاح وأوكل الى مكاتب حكام الولايات امر جباية الضريبة الشخصية ، ولكن وجب العدول عن هذا الاصلاح ، بعد مرور عشرين عاماً ، امام اعتراضات هذه المكاتب نفسها : فالقيت الجباية مرة أخرى ، شأنها في السابق ، على عاتق المأمورين في كل مدينة .

ولكن هذا العمل الذي اضيف الى أعمالهم الكثيرة قد أنهكهم ، فأضاعوا وقتهم في الجولات والمساعي . ومن حيث هم مسؤولون جماعياً عن ايراد الضرائب ، فانهم تعرضوا لشتى ضروب الضعف والانهيار . فكانت النتيجة انهم انتهوا الى الافلاس .

٢ الادارة المحلية والاقليمية

ويقودنا ذلك ، عن طريق اموال الدولة - ولكن العامل الرئيسي هو نقص التنظيم المخطط للمدينة الجبائي - الى احد الفوارق الحقيقية العظيمة النتائج بين العهد الامبراطوري الثاني والعهد الذي سبقه . فلم يعد هنالك من بورجوازية بلدية تتبرع بإدارة الشؤون المحلية ، بل « قواد عشرة » ، « مرغوم » ، كما حدث بين حين وآخر في عهد الانطونيين تفرض عليهم الدولة القيام بدور الموظفين المجانين المقوتين في نظر مواطنيهم ونظر انفسهم . فلم يعد بالتالي

من مدينة بالمعنى الذي أطلقه الاغريق والرومان على هذا الموصوف في السابق . فزال بزواها ،
عنصر مقوم جوهرى من عناصر الحضارة التي تباهى بها العالم المتوسطي ، ذاك العنصر الذي تعلق
به الناس ايماء تعلق بسبب قربه في الزمان وحيويته .

على الرغم من الصعوبات التي بدأت تعرفها الموازنات البلدية والتي حملت الاباطرة على توسيع
جهاز الاوصياء ، فان عهد سلالة ساويروس الامبراطورية ما زال عهداً خيراً بالنسبة للمدن
— لا بل عهداً ذهبياً ، كما يبدو في بعض المناطق ، كإفريقيا التي ينتسب اليها مؤسس السلالة والتي
خصها برعاية خاصة . وقد برهن سبتيموس ساويروس عن تنازل هام بادخال النظام البلدي الى
« قواعد الولايات » في مصر وباعطاء الاسكندرية الـ « بولي » ، اي مجلس الشيوخ الذي طالب
به سكانها دون جدوى منذ زمن بعيد . ولكن سرعان ما قامت الأزمة الكبرى التي لم تنهض
اكثريية المدن العظمى ، بعدها ، نهوضاً حقيقياً .

انكشفت المدن آنذاك داخل اسوارها ، ومات قسم من سكانها أو صفروا من المال ، ومع
ذلك فقد بدت للسلطة الامبراطورية درجات ادارية مريحة من حيث ان سكانها يؤلفون
الجماعات الوحيدة بين الرعايا التي تتقيد بانظمتها وتسهل مهمتها . وما زالت هناك في الظاهر
بعض الاجهزة البلدية . فاذا ما زالت جمعية الشعب من كل مكان ، فهناك العائلة (Curie)
والقضاة الذين تنتخبهم . وقد يقوم في المدن الكبرى ، التي حافظت على نشاطها التجاري أو
استعادته ، متطوعون يطمحون الى هذه المراكز ويبسطون يدأ سخية امام الجماعة . اما في المدن
الاخري فليست هذه المراكز سوى ضرب من « التسخير » . فغدت وظيفة ممثل العائلة — الذي أخذ
اسمه محل تدريجياً محل اسم « قائد العشرة » ، على ما بينهما فوارق — واجباً تفرضه الدولة
على كل من يملك حداً ادنى من ثروة زهيدة نسبياً .

سنعود الى المظهر الاجتماعي الذي ينطوي عليه هذا التبدل العميق ، مقتصرين هنا على المظهر
الاداري . فلا تزال اجهزة المدينة مستقلة . ولا تتعهد الدولة الى جانبها اي موظف أو ممثل دائم .
فان الوصي (Curateur) نفسه الذي عينه الامبراطور في السابق ، تنتخبه اليوم عائلته انتخاباً .
ولكن هذه الاجهزة تتلقى الاوامر وكافة اعضائها يتعرضون للعقوبات اذا لم ينفذوها . فالبقاء
الظاهر على الاستقلال ليس بالتالي سوى حيلة تستهدف ارغام ما تبقى من الطبقة المتوسطة على
التكسر لخدمة الجماعة المحلية والدولة ، ليس بالمجان فحسب ، بل بالمجازفة بالثروة ايضاً . فهم ملزمون ،
على الرغم من كل العراقيل ، بتأمين المهام البلدية العادية ، المحافظة على الامن ، والعناية بالابنية
والشوارع ، والتموين ، والاعيان ، الخ . ، وتلبية الاوامر الحكومية بتولي جباية الضرائب ،
وجمع المهندسين ، وتنفيذ اعمال « التسخير » المختلفة . فهل ما يدعش والحالة هذه اذا لم يحسنوا القيام
بجميع هذه الاعمال ، حتى بمساعدة « حامى المدينة » الذي لن يلبث ان يسي واحد منهم ؟
بدد اغتصابات تقوم الحياة الحقيقية خارج نطاق ادارات المدن التي تسير نحو الزوال ولا يبقياها
الاملاك الكبرى سوى القسر .

اخذت هذه الحياة تنتقل الى املاك الاثرياء الذين تهزأ سلطتهم العملية من الاوصياء ، ومن

الموظفين انفسهم ، مع ان الانظمة لم تعترف لهم بعد بآية سلطة قانونية . ان ارتباط الفلاح (المستعمر) بالاملاك ارتباطاً شرعياً ، الذي اقرته الدولة حينذاك للحيلولة دون فرار البد العاملة ، لا يولي الملاك اية سلطة ادارية . ويصح القول نفسه في الحماية التي يمنحها الملاك بعض الفلاحين الاحرار في الجوار . ولكن الواقع غير ذلك . فالأقرباء يوزعون ويجمعون الضرائب كما يطيب لهم في الاراضي العائدة اليهم دونما اكتراث منهم لتسديد حصة الضرائب . ولما كالت الشرطة لا تتجاسر على التعرض لهم ، فانهم يمارسون حق الحماية ، ويحصلون حقهم بأيديهم ، ويستولون على ممتلكات واشخاص مدينينهم . ويعود تحريم السجون الخاصة لأول مرة الى السنة ٣٨٨ ، ثم يعقبه تحريمات عدة في القرن الخامس ، وسيصدر في الوقت نفسه امر بتحريم تعهد الزمر المسلحة . فبدأ من ثم القضاء على حقوق الدولة ، بفعل اغتصابات يستحيل قمها ، لمصلحة ذوي الاملاك الكبرى .

بيد ان كل ذلك ليس سوى تباشير تطوّراً سيقود الى نتائج بعيدة جداً . وانت البيروقراطية أجهزة الدولة ، على نقيض ذلك ، لم تعرف يوماً مثل هذا العدد ومثل هذه القوة . فالمركية ، مع ما تستتبعه من ادارات وموظفين ، احدى الميزات الخاصة بالعهد الامبراطوري الثاني . ليس لدينا ، بصدد العهد السابق ، مصدر افضل من « لائحة الوظائف » ، التي تضع امام امام اعيننا « بياناً بالوظائف » والقوات العسكرية في كل من « شطري » الامبراطورية ، الشرق والغربي ، في اواخر القرن الرابع . ومع ذلك فلا يجوز لنا ان نشك دققة واحدة في النمو العظيم الذي طرأ على المصالح الاقليمية والمركية . فالواجب يقضي على الحكومة ان تواجه اعباء لا تسمح لها نواب الدهر بعد اليوم باهمالها . اضع الى ذلك ان تقسيم العمل غداً ، الى حد ما ، فرضاً واجباً : فهي ، بدافع الحذر ، وحرصاً منها على الكفاءة والفعالية ، فصلت فصلاً نهائياً بين الادارة المدنية والقيادة العسكرية . واضطرت اخيراً الى احداث درجات وسيطة بغية تخفيف عملها الخاص وتنسيق النشاطات المحلية تنسيقاً افضل . ولكن ، اذا طرأت هذه الزيادة العظيمة على عدد المصالح ورؤسائها من موظفين كبار ومتوسطين ، فاننا نلمس هذه الزيادة في عدد صفار الموظفين في المكاتب ايضاً : في اواخر القرن الرابع ، كان لكل حاكم ولاية ١٠٠ مستخدم ؛ ولكل نائب ٣٠٠ ؛ ولكونت الشرق (القائد العسكري) ٦٠٠ ؛ ولكونت الاعطيات المقدسة في الغرب ٨٥٠ ؛ ولرئيس الحرس الامبراطوري في الشرق أكثر من ١٠٠٠ .

خضع صفار الموظفين هؤلاء لتنظيم عسكري على الرغم من صفتهم المدنية . فوزعوا فرقاً فرقاً ، لا بل سجلوا اسماً في وحدة عسكرية احياناً . فقد اعتبرت الوظيفة العامة ، في حد ذاتها ، *Militia* أي « خدمة عسكرية » . وخضعت لتسلسل داخلي دقيق ، ولنظام خاص ، وقواعد ترفيع ؛ وحق عادة للموظف ، بعد قضاء عشرين او خمس وعشرين سنة في الخدمة ، التمتع « بالشرفية » أي الاحتفاظ باللقب والامتيازات الشرفية . لم يبق كل ذلك دون نتيجة على الصعيد الاجتماعي ، وأسهم ، على الصعيد الاداري ، في توفير التلاحم الشديد لما يجب تسميته

بالبيروقراطية الامبراطورية ، وهي الاولى ، بوضوح معالمها ، بعد البيروقراطية المصرية . هذا واقع لا شك فيه ، ولا أبسط منه ايضاً . ولكن ما هو جوهري ، على استحالة تحقيقه ، هو التمكن من تقدير قيمة هؤلاء الموظفين تقنياً واخلاقياً . فللوراثة دورها الاول في تعيينهم ، وللدسياسة ، الى جانب الاستحقاق والاقدمية ، دور في ترفيعهم . وعلى الرغم من ان كافة التعيينات منوطة بالامبراطور الذي يتحرر ، حتى عند ملء المراكز الرفيعة ، من الواجب القديم القاضي باختيار الموظفين بين اولئك الذي شغلوا هذا أو ذاك من مناصب القضاء ، فانه يشعر بالحاجة الى مراقبة موظفيه . وهو يستخدم لهذه الغاية « موظفي الشؤون » الذين يكلفون تنفيذ مهام تستوجب الثقة ويقومون بأعمال التجسس في المصالح ايضاً . ونحن نرجح ان هذا الجهاز كان ضرورياً ، اذ انه ، بعد اقدام جوليانوس على إلغائه ، قد أعيد مرة ثانية ، وضم في النهاية عدّة ألوف من هؤلاء الموظفين . بيد اننا لا نستطيع الفصل في فعالية هذا الجهاز . فما هي الأهمية التي يحدر بنا ان ننسبها ، لأجل الحكم على هذه الادارة ، الى القرارات الامبراطورية في سبيل تقويم الاعوجاجات والى شكاوى المكلفين ؟ ان البيروقراطية لا تنتظم دون تلتس وتردد ، ولم تنظر الطبقات الاجتماعية ، التي تعبّر مصادرها عن آرائها ، نظرة رضى الى تسلط الدولة الثقيل على الممتلكات والاشخاص . ومهما يكن من الامر ، فيجب التسليم للمستأثرين من النظام انه يفضي الى البطء ويقضي على روح المبادرة ، ولكن الانتقادات تتلاشى امام هذه الحقيقة : لولا هذه الادارة لصارت الدولة الى انهيار سريع .

ما زال اسم « الولاية » قائماً ؛ ولكن مفهومه قد تبدل تبدلاً كبيراً . وها نحن
الولايات
نشير الى التبدلات الرئيسية دون ان نغامر في ردّها الى اطارها التاريخي ، وهي مغامرة مملّة لا تفضي بنا الى الحقيقة الثابتة على كل حال . لم يعد هناك من تمييز بين الولايات وايطاليا : باستثناء روما التي قسّمت منذ ديوكلسيانوس الى دوائر شبيهة كل الشبه بالولايات ، دون ان يطلق عليها هذا الاسم الذي قد يثير النزق والانفعال . ولم يعد من تمييز كذلك بين الولايات المجلسية والولايات الامبراطورية : فالامبراطور وحده ، دون مداورات ، يعين الحكام أجمعين ويشرف على الادارة جمعاء . وليس هناك عملياً ، باستثناء حالات نادرة جداً ، من قيادات عسكرية يمارسها الحكام : فقد عادت هذه القيادات الى الرؤساء العسكريين . وتجزأت الولايات القديمة خصوصاً ، بدافع الحذر السياسي ، وتخفيفاً من العبء الملقى على كاهل الحكام ايضاً . كان عددها يناهز الخمسين تقريباً حين تولى ديوكلسيانوس الحكم . فرفعها هذا الأخير الى ضعف هذا العدد تقريباً وأحدث سبع ولايات في ايطاليا . وعند وفاة ثيودوسيوس أضيفت سبعة عشر ولاية ايطالية الى أكثر من مائة ولاية .

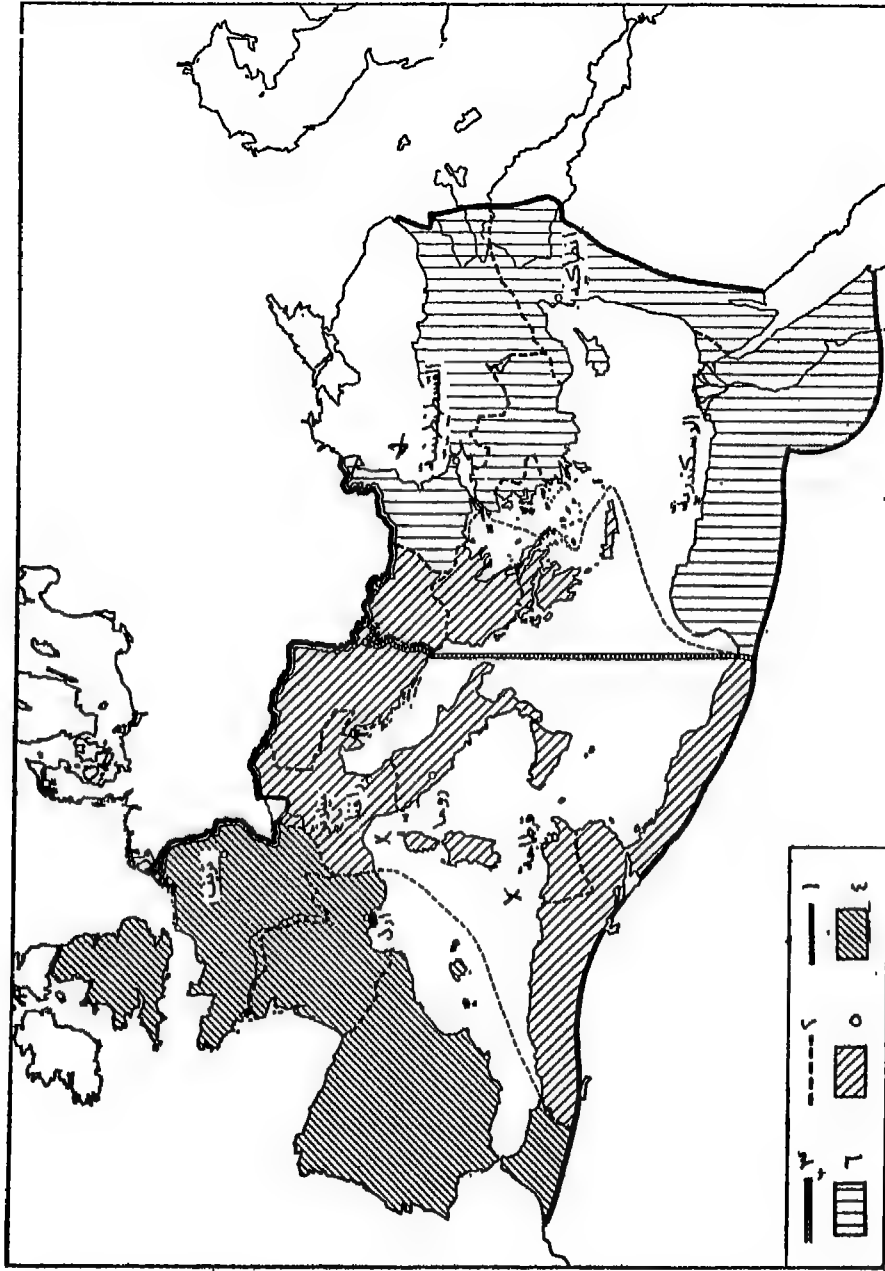
لم تتساو هذه الولايات ، لا أهمية حقيقية ولا مرتبة ، وتنعكس منزلتها في لقب حاكمها . ولا يزال ثلاثة من الحكام ، بقوة استمرار غربية ، يحملون لقب « بروقنصل » القديم : وهؤلاء هم ، بحسب تقليد العهد الامبراطوري الاول ، حاكما آسيا وافريقيا اللذان أضيف اليهما ، احتراماً

لماضي اليونان ، حاكم آخيا ، ويقسم الآخرون ثلاث فئات . ولكن أهمية هذه التمييزات الوحيدة محصورة في تحديد درجة الحاكم في سلسلة مراتب الموظفين . وتتفاوت حرية الحكام في العمل بنسبة قريبهم من الرئيس او بعدهم عنه ، او بنسبة أهمية الرئيس العسكري الموجود في ولايتهم . وكان عليهم ، قبل أي شيء آخر ، حتى اذا ما نجحوا من مثل هذه القيود ، تأمين تنفيذ الاوامر الصادرة عن رؤسائهم . وما كنا لنرى فيهم خلفاء الحكام القدماء لولم يتعاطف دورهم القضائي في أعقاب المخطاط المدن : فدرجت تسميتهم كلهم « قضاة » . ولكن أحكامهم قابلة الاستئناف .

ان نزعة العهد الى السلطة المطلقة ، بما تنطوي عليه من تناقض ظاهر أكثر منه حقيقي ، لم تقض به الى إلغاء الجمعيات في الولايات : فهو على نقيض ذلك قد احدث جمعية في كل ولاية . والاغرب من ذلك ان اعتناق الامبراطور للديانة المسيحية لم يبلغ واجب هذه الجمعيات ، حتى في عهد متأخر ، في القيام بطقوس العبادة الامبراطورية : فهي تعين ، شأنها في الماضي ، كاهن الولاية ، والعبادة الامبراطورية هي الوحيدة بين « أجماد » التنظيم القديم ، اقليمياً ومحلياً ، التي حافظت على ملء روثقها . واستمرت الحكومة المركزية في السماح للجمعيات بتهنئة كبار الموظفين ومحاولة افقادهم الخطوة ، ولكن نجاح هذه المحاولة ما زال عسيراً كما في السابق . لا بل سمحت لها آنذاك بأن تتقدم منها بتمنيات ، جريئة جداً أحياناً : وهكذا في السنة ٣٩٩ لم تتردد جمعية ولاية « المدن الخمس » *Pentapole* الافريقية في اثارة النقاش لمعرفة رأي الاعضاء في ارفاق مقدمة تاج ذهبي للامبراطور ارКАДيوس والثاس تخفيف الضرائب بطلب إلغاء القيادة العسكرية التي تخضع لها . وان هذا التساهل ، الذي لم ينجم عنه أي خطر ، قد اتاح للامبراطور الحفاظ على حد أدنى من الاتصال بالرأي العام في المواضيع ذات الصالح المحلي : وهو حد يحتاج اليه كافة الانظمة ، حتى المطلقة منها .

لم يكن بمكنة حكام الولايات ، بسبب كثرتهم ، الاتصال اتصالاً مباشراً دائماً
الابرشيات
والوكلاء
بالحكومة المركزية . لذلك احدث ديوكليسيانوس درجة وسيطة هي « الابرشية » اسندت السلطة فيها الى « وكيل قائد حرس القيصر » . كان عدد الابرشيات في البدء اثنتي عشرة ثم أمسى خمسة عشر في اواخر القرن الرابع . ضم كل منها عدداً معيناً من الولايات في وحدة اقليمية كبرى . بيد ان مدينتي روما والقسطنطينية والولايات الثلاث التي اسندت السلطة فيها الى بروقنصل فلم تدخل في هذا التقسيم ، بل ارتبطت مباشرة بالحكومة المركزية . فالفت بريطانيا ابرشية ؛ وغاليا ابرشيتين ، احدها للنصف الجنوبي والثانية للقسم الشمالي ، وكانت مدينتا « تريف » وفينا مقر الوكيلين ؛ ومصر وكيرينا ابرشية ؛ الخ . وقامت في هذه الابرشيات جمعيات على نط الجمعيات في الولايات .

راقب الوكلاء عمل الحكام ومارسوا سلطة قضائية استثنائية . واستفاد « كونت الشرق » ، وهو وكيل الابرشية التي ضمت الولايات حول سوريا ، من مركز استثنائي بسبب جوار بلاد



الشكل ٢٢ - الإبرشيات وقيادات الحرس في السنة ٣٩٠ .
 ١ - حدود الامبراطورية؛ ٢ - حدود الابرشية؛ ٣ - الحد الفاصل بين شطري الامبراطورية الشرقي (اركاديوس)
 والغربي (هونوريوس) في السنة ٣٩٠ ؛ ٤ - قيادة حرس غاليا ؛ ٥ - قيادة حرس ألبانيا وإيطاليا وأفريقيا ؛
 ٦ - قيادة حرس الشرق .

فارس . اما في الابريشيات الاخرى فلم يحظ الوكلاء بهذا المركز الهام . كانوا يرسلون الامبراطور مباشرة ، ولم تحدث وظائفهم الا لاضعاف قيادة حرس القصر ، ولكن التنظيم الجديد الذي ادخل على هذه الاخيرة اخضعهم لها في النهاية . وما لبثوا ان اصبحوا مجرد جهاز للتحويل ، وما عثمت بعض المراكز ان بقيت شاغرة . فتغلبت النزعة الى المركزية ، مع ما تستلزمه من تسلسل دقيق في المراتب ، على النزعة الى النظام الاقليمي التي لم تبرز يوماً بقوة على كل حال .

ادخل قسطنطين تعديلات عظيمة على قيادة حرس القصر . منذ العهد
قيادة حرس القصر
الامبراطوري الاول تعدت صلاحيات هذا الجهاز ، الى حد بعيد ، قيادة
فرق الحرس التسع : فقد مارس قادة الحرس سلطة قضائية وتوصلوا من جهة ثانية ، لاسيما منذ
القرن الثالث ، بفعل اشرافهم على توين الجيش ، الى فرض رقابتهم على كل الادارة المالية تقريباً .
ومع ذلك ، لم تحدث تجزئة اقليمية قط ، على الرغم من ازدواجية الحكم غير النادرة . بيد ان
النظام الرابعي قد ادى الى هذه التجزئة عملياً بتخصيص كل امبراطور ، ان لم يكن كل قيصر ،
بقائد حرس . ومع ان قسطنطين قد اعاد الوحدة الامبراطورية في شخصه ، فقد رجع تدريجياً
الى تقسيم الامبراطورية دوائر اقليمية كبرى اسندت الى قادة حرس مختلفين . اجل كان هؤلاء
القادة ، لمدة طويلة ، معتبرين وكأنهم هيئة واحدة . ولكن مبدأ التجزئة الجغرافية قد سيطر
في النهاية . اما بصدد التجزئة نفسها ، فالتردد والفوضى امران غير نادرين ، ومرد ذلك الى
اختلاف عدد الابطرة و « الحصص » المخصصة لكل منهم . قامت في اغلب الاحيان ثلاث
قيادات : واحدة للشرق ، من كيرينا حتى تراقيا ، واخرى لاطاليا وافريقيا والمناطق الباقية
من شبه الجزيرة البلقانية ؛ وثالثة لبريطانيا وغاليا واسبانيا ومراكش . اما المعضلة ، التي
برزت منذ قبل وفاة ثيودوسيوس ، فكانت في التوصل الى التوفيق بين هذه التجزئة وتقسيم
الامبراطورية الى شطرين بفعل ازدواجية الابطرة التي افضت الى ازدواجية الامبراطوريات . وقد
طالب الشرق بزيادة حصته في شبه الجزيرة البلقانية ، فجر ذلك الى نزاع حول ابرشيتين .

بعد ان ألغى قسطنطين فرق حرس القصر ، ألغى سلطات القادة العسكرية وجعل منهم موظفين
مدنيين فقط . كانت صلاحياتهم واسعة ومتنوعة ، ويتناول اهمها ، بالاضافة الى البريد العام
والتعليم والتسمير والحفاظ على النظام بصورة عامة ، الخ ، الضرائب والقضاء . وهي في الحقيقة
صلاحيات هامة جداً ، على الرغم من ان عطف ثيودوسيوس وحده يفسر مكانة قائد الشرق العالي
روفينوس الايلوزي - من بلدة ايز في مقاطعة الأكيتين - ، وقد تركه لابنه اركاديوس في السنة
٣٩٥ . وروفين هذا هو الذي عرف كيف يسوّي قضية تسالونيكى بالاتفاق مع القديس
امبروسيوس . اما القادة الثلاثة الذين اقاموا في القسطنطينية وميلانو وتريف - نقل هذا المركز
الاخير الى « آرل » في السنوات الاخيرة من القرن الرابع - فقد اشرافوا على التشريع واقترحوا
كافة تعيينات الموظفين في الولايات وسيروا الادارة ، ومارسوا سلطة قضائية تمييزية اصدرها
بوجوبها احكاماً مجرمة ، فكانوا ، اذا ما وضعنا قيادة الجيوش جانباً ، شبه بنواب الملك : لذلك

ارتأى الامبراطور احياناً اسناد منصبهم الى هيئة مؤلفة من قائدين .

تتضح بالتالي ، في الادارة المحلية والاقليمية ، حتى تلك التي ابقى فيها على الاسماء القديمة ، الخلاقات العميقة بين العهد الامبراطوري الثاني والعهد الذي سبقه . ويوضح القول نفسه في العواصم ، على الرغم من ان رواسب العهد السابق تبرز فيها برونزاً على جانب اقوى .

الماستات

روما والقسطنطينية

يجب الا نخطئ في صيغة الجمع هذه : العواصم . فليس لاي من قادة الحرس مكاتبه في روما . ولا يقيم الامبراطور فيها الا استثناء وفترات قصيرة . ففي الغرب نفسه ، نراه ممضياً ايامه في تريف ، أو ميلانو - ولأن يلبث ان يمضيها في رافنا التي تتصل بالبحر ويسهل الدفاع عنها - أو سيرميوم (ميتروفترا الحالية على نهر الساف) الخ . ولكن ليست هذه كلها سوى مراكز اقامة ، لا عواصم ؛ فلا تزال روما هي « المدينة » ، ولا تزال الامبراطورية « رومانية » .

غير ان قسطنطين قد احدث روما ثانية ، خاضعاً لاعتبارات لا يزال الخلاف قائماً بين المعاصرين حول طبيعتها وأهميتها . ليس باستطاعة احد ان ينفي رغبته في تخليد اسمه بمشروع هندسي عظيم : فان قسطنطينوبولس ، « مدينة قسطنطين » ، المبنية في موقع يضمن له قدم بيزنطية الأهمية الاقتصادية ، ستكون مدينة تختلف عن سيرة النوميديّة التي رمت وأطلق عليها اسم قسطنطينة . وليس باستطاعة احد ايضاً ان ينفي الاعتبارات العسكرية : مناعة الموقع الطبيعي ؛ أهميته الاستراتيجية عند مصب البوسفور الذي اجتازه القوط في القرن الثالث ؛ قربة من الدانوب السفلي الذي يهدده خطر البرابرة ؛ جوار الولايات الشرقية التي يهددها الخطر الفارسي والتي خضعت لسلطة ليسينيوس الذي هزم في شهر ايلول من السنة ٣٢٤ ، بينما تقرر اختيار الموقع منذ شهر تشرين الثاني . ولكن الاتفاق حول اعتبارات روحية ممكنة ليس أمراً بسيطاً . قد يكون قسطنطين اراد عاصمة مسيحية غير روما المتسمة اتسماً عميقاً بالطابع الوثني ؛ ولكنه ، اذا لم يدرك مسبقاً ان توارى الامبراطور ، في عداد اسباب اخرى ، سيفضي الى جعل روما عاصمة النصرانية الغربية ، لم يفته مع ذلك ، في القسطنطينية ، ان يوعز بالقيام بكافة الطقوس الوثنية المعدة للتأسيس ، ثم للتدشين في السنة ٣٣٠ ، وبتشيد أكثر من معبد . ومن جهة ثانية ، اذا كان هذا الامبراطور الذي لم يتقن اليونانية قد فرض اللاتينية لغة رسمية في القسطنطينية ونقل اليها كثيراً من العائلات الرومانية ، فانه قد ارتكب خطأ فادحاً اذا كان قد اعتقد بأنه يوطد ، بهذه الطريقة ، الحضارة اللاتينية في البلاد اليونانية : فما لبثت مدينته ، في الواقع ، ان باتت حصن الحضارة اليونانية في وجه روما نفسها .

لقد خاب امل قسطنطين في هذا المقصد او ذاك من مقاصده ، ولكنه مع ذلك قد حقق منها ما هو جوهري : فالقسطنطينية ، التي استلمت منه صدارة العاصمة والتي اشركت فيها مع روما قبل ان تغدو عاصمة الشرق الوحيدة ، لم تفقدها قط إلا في القرن العشرين . وقد آثر الامبراطور نفسه الإقامة فيها على الإقامة في روما . فكثيراً ما أقام قبل تأسيسها في نيكوميديا

او انطاكية حين كان يقصد العيش في الشرق . وما زال ، بعد السنة ٣٣٠م يقيم في هذه او تلك من هاتين المدينتين : ولكنها اقامة قصيرة في مجموعها ، إلا اذا انصرف الى اعداد الحرب ضد الساسانيين ؛ ولكننا لا نرى ، على كل حال ، الى جانب القسطنطينية ، مدناً توازي ميلانو ورافنا .

ان روما مدينة لماضيها بالابقاء على أنظمة خاصة ، كما ان القسطنطينية الرواسب الشرقية في العواصم مدينة لمساواتها لروما نظرياً بالتمتع بأنظمة مماثلة . ولكن هذه الأنظمة ما لبثت ، في الاولى كما في الثانية ، ان فقدت سلطتها كلياً بفعل تطور ظهرت بوادره منذ أمد بعيد .

في كلا العاصمتين مجلس شيوخ ، منظم على غرار مجلس الشيوخ في العهود السابقة ، أي خاضع لسلم المراتب وفقاً للوظائف التي يمارسها القضاة او يسندها الامبراطور اليهم اسماً . اما مجلس روما فقد فاق مجلس القسطنطينية عزاً ، لأن باستطاعة ايطاليا ان تنتدب اليه ممثلين عن العائلات الكبيرة أكثر من الشرق البلقاني . وقد بقي ، لمدة طويلة ، المجلس الوحيد الذي يبلغه الامبراطور جلوسه على العرش ، فكان يسرع ، كما هو بديهي ، الى الاعراب عن استحسان هذا الجلوس . الى هذه البادرة انتهت النظريات والمشادات الكثيرة المختلفة حول تعيين الامبراطور ، او أقله تثبيته ، من قبل المجلس : فالامبراطور الاخير الذي اختاره هذا المجلس هو تاسيتوس الذي ملك عدة أشهر في السنة ٢٧٥ . وهكذا دواليك : فليس بعد من ولايات مجلسية ؛ وليس من خزنة باستثناء الصندوق البلدي ؛ وليس من ضرب نقود ؛ وليس من احتكار في ممارسة بعض الوظائف ؛ وليس من سلطة قضائية . ولا تتناول مناقشات الجمعيتين سوى المواضيع العادية . ولا يأخذ الامبراطور امانها بعين الاعتبار إلا كما يطيب له شخصياً : فلم يفلح المجلس الروماني مثلاً في استصدار قرار باعادة مذبح إله النصر الى قاعة جلساته الخاصة .

لم يحافظ اي من مناصب القضاء الجمهورية القديمة ، على نقيض ما حدث في العهد الامبراطوري الأول ، على أهمية اثره في الحصول على الوظائف العامة : فهذه قد غدت مستقلة عن «سلم الاجاد» . لا يزال الامبراطور يسند الى بعضهم مناصب قضاء اسمية ، لا سيما القنصلية ، ولكنه يفعل ذلك بغية مكافأة الذين خدموه خدمة صادقة ، اثناء تقاعدهم على العموم ، لا سعيّاً وراء مزيد من الحرية في العمل ، عند اختيار وترقيع الموظفين ، كما في السابق .

اصبح ارفع هذه المناصب القديمة لقباً على مستوى الامبراطورية دون روابط عملية بالعواصم . فعلى الرغم من ازدواجية هذه الأخيرة ، لم يبق هناك سوى قنصلين اثنين يعود أمر تعيينهما للامبراطور دون سواء . وفي حال تعدد الباطرة ، لا يتم الاختيار ، الذي يحاول ايجاد المساواة بين الشرق والغرب ، الا بالاتفاق بينهما . ورغبة في تلافي المحاصمات ، قرر الرأي منذ السنة ٣٩٦م ، ان كان الامبراطوران ، ابنا ثيودوسيوس ، قنصلين في آن واحد ، على ان يعين كل منهما القنصلين مناوبة ، كما قرر الرأي ، بعد فترة قصيرة ، على ان يعين كل منهما احد القنصلين . غير ان هذا المنصب لم يبق لمن امتياز سوى تنظيم الالاب العامة . ولما كان الامبراطور بغنى عن

« القناصل » ، بما لهذا التعبير من مفهوم قديم ، فلم يقدم الا نادراً على تعيين القناصل القضاة . فازدادت من ثم قيمة اللقب الشرفية ازدياداً كبيراً ، واحيط باهية عظيمة . ونحن لا نعرف ، الى جانب الاباطرة ، سوى حالة واحدة حصل فيها قنصل قديم على قنصلية ثانية في القرن الرابع ، هي حالة قائد فرنجي .

لم يدم عملياً ، بين المناصب الأخرى ، سوى وزارتي المالية والعديلية . وهما قد نظمتا في القسطنطينية ايضاً . وكانت وزارة العديلية بنوع خاص كثيرة النفقات بسبب الالعب التي تقع اكلافها على كاهل شاغلي هذه الوزارة . فانتهوا الى تعيين هؤلاء قبل موعد الاستلام بعشر سنوات : حين عين ابن سيمناكوس وزيراً للعديلية ، اقيمت الالعب استمرت سبعة ايام واستلزمت نفقات باهظة ، مع ان البذخ فيها كان عادياً - انفق آخرون ضعف ما انفق عليها ، اي ما يزيد عن اربعة ملايين فرنك ذهباً بسعر الفرنك في السنة ١٩١٤ - غير ان الوقت قد توفر لسيمناكوس حتى يطلب من اصدقائه الحيوانات المفترسة والآلهي . اما بالمقابلة فالصلاحيات شبه لاغية لا تتعدى واجب القيام ببعض الاعمال القانونية . فنحن اذن امام « تسخير » حقيقي ، ولن تلبث التعيينات ان تصبح من نصيب الذين يضبطون حسابات ثرواتهم لاجل الضريبة الخاصة المتوجبة على اعضاء الطبقة المجلسية . ولكن هؤلاء القضاة ، على نقيض ممثلي الوحدات العائلية في المدن العادية ، لا يكسفون وجوههم لانهم قادرون على تحمل ضخامة مثل هذه النفقات .

ان الشخصية الاولى ، في العاصمتين ، هي « حاكم المدينة » الذي احدثت وظيفته في روما في العهد الامبراطوري الاول ، وفي القسطنطينية في أواسط القرن الرابع . فهو يمثل الامبراطور الذي يعينه ، وكثيراً ما يستبدله . يرأس مجلس الشيوخ ويفصل في دعاوى المدينة والمحققات المحددة في روما بنطاق المائة ميل التقليدي . يسهر على النظام والتموين متغلباً بذلك على حكام الامن والضريبة العينية السنوية . فيكسبه كل ذلك سلطة حقيقية لا سياً في روما التي لا يقيم فيها الامبراطور : ويختاره هذا الاخير ، بالتالي ، في صفوف الارستوقراطية الوثنية ، كسيمناكوس مثلاً ، حين يكون ساعياً وراء اظهار رغبته في تحقيق الوثام .

يتضح لنا ان حياة العاصمتين ، بفعل التوزيع المجاني على الشعب وسخاء الاغنياء ، أعظم بهاء منها في المدن الاقليمية . ولكنها ، على الرغم من الرواسب ومظاهر المراعاة المعدة للحفاظ على نفوذها ، لا تتمتعان ، بالنسبة لها ، بمزيد من الاستقلال الحقيقي . ومهما يكن من الامر ، فان التقليد يرغب في ان تسهم اجهزتها المحلية ، وهي وريثة أسماء مجيدة ، في شؤون الدولة : ولكن هذا الموضوع اقل وروداً آنذاك منه في الماضي .

٣ - الحكومة المركزية والامبراطور

أنيطت شؤون الدولة هذه ، بالاضافة الى رقابة الادارة والدفع بها الى الامام ، بالامبراطور دون سواه .

الدولة والنظام الشخصي
اقتضى لمثل هذه الدولة ، التي ترى توسع أعمالها وتعتمد ، بغية تنفيذها
تنفيذاً أفضل ، أساليب مركزية ضيقة ، تنظيم حكومي قوي . لم
يخل العهد الامبراطوري الثاني من هذا التنظيم . لا بل بلغت النظر انه توصل ، على الرغم من
قصره ، الى تحقيق تنظيم يمثل هذه القوة ، ويمثل هذا الاستقرار نسبياً ، أقله بصدد المصالح ،
ان لم يكن بصدد الرجال . وقد توصل ، في بعض المواضع ، الى التمييز بين مفهوم الدولة
ومفهوم الامبراطور .

بيد ان مفهوم الامبراطور ما زال يسيطر على مفهوم الدولة ، ويلاشيه ملاشاة في أكثر
الاحيان . ولكن هذه الظاهرة ليست نتيجة الطابع البدائي الذي تنسم به دولة في طور التكون ،
كما حدث في العهد الامبراطوري الاول ، بقدر ما هي نتيجة السلطة المطلقة التي تفسح مكاناً
كبيراً لأهواء الامبراطور الشخصية وللتأثيرات الخاصة التي قد يخضع لها . وكان تجنبها يستلزم
ملكة عقلية ووضوحاً منطقياً يسيّرهما نهج فكري ساد في عهد الانطونيين ، ولكنه أهمل بعد
ذلك . ومتى ميزت الدول العصرية بين هذين المفهومين يا ترى ؟

قامت ، في ما يعيننا ، مصاعب أخرى أيضاً : تعدد الاباطرة أولاً ، وتبدل عددهم ثانياً
وخصوصاً . فقد وجب لكل منهم حكومته ودوائره المركزية المحدثة تقسيماً او دمجاً بحسب
التقلبات السياسية . ولحسن الطالع ، انتهى هذا التعدد في أغلب الاحيان الى نظام ثنائي قسمت
الامبراطورية بموجبه الى شرق وغرب . وسها يكن من الأمر فان هذا النظام هو الذي وظله
وجود ابني ثيودوسيوس في اوائل القرن الخامس ، واذا ما زالت حكومة الغرب بعد ذلك ،
فان حكومة الشرق قد استمرت في الامبراطورية البيزنطية .

الكونتية
ان للتقدم الذي احرز في مثل هذه الظروف أهمية يزيد من شأنها ان النزعة التي
يمكسها لقب الـ *Comes* ، أي « الرفيق » الذي اشتقت منه كلمة « كونت » ،
كانت قادرة على إيقافه نهائياً .

لم تجهل الامبراطورية الاولى هذا اللقب الذي عرف باسم « الصديق » آنذاك ، ولكنه لم
يفض قط الى ما يشبه الرتب البلاطية في الملكيات الهلينية . أعاده قسطنطين ، بعد فترة زوال ،
بنحه موظفين او كلت اليهم في البداية مهام خاصة تحل بالنظام السائد . ولكنه لن يلبث ان
يفرط في توزيعه ، فيحتدي حدوده خلفاؤه . وعلى الرغم من ان اللقب ، في بعض الحالات ، —
سبق وأشرنا الى كونت الشرق — لا يتميز عن اسم الوظيفة الرسمي ، فانه قد أصبح سمية تزيينية
قبل كل شيء آخر استلزم احداث ثلاث درجات اطلق عليها اسم « الرتب » .

ان الكونت ، نظرياً ، لا يخدم الدولة بل الامبراطور الذي تربطه به صلة شخصية قوامها
المودة والشكران والاعجاب ؛ كما ان مجموع الكونتية يؤلفون « معيته » نظرياً ويرافقونه في
تنقلاته . ولكن ليس لهذه النظريات من نتيجة عملية : كانت هذه المثل ، منذ أمد بعيد ، اساس
التنظيم الحربي عند البرابرة الجرمانيين . وليس ما يمنع الاعتقاد بتأثير هؤلاء على قسطنطين .

ومن المحتمل جداً أيضاً ان تكون هذه المثل حينئذ الى العادات والاعراف الهلينية والرومانية على السواء : فما زالت الملكية الامبراطورية ، في جوهرها ، ملكية شخصية مبنية على مفهوم الانسان المتفوق . ويغلب على الظن ان ما اوجب الاخذ بها ، في البدء ، هو واجب حل بعض الصعوبات حلاً سريعاً . ثم فقدت جدواها ، في التطبيق العملي ، بفعل حتمية صيرورة الانقلاب البلاطية الى الابتذال والحاجة الى المحافظة على الآلة الادارية العادية . ومهما يكن من الأمر ، فان « معية » قسطنطين وخلفائه ليست مسؤولة قط عن انقسام الدولة في القرن الخامس ، وانما اقتصر الـ « معية » التي كانت لها الغلبة بعد ذلك ، والتي كانت ابعد تأصلاً جرمانياً ، على استخدام مفرداتها .

بعد اجهاض هذا الخطر ، قامت على رأس الدولة ، بغية ممارسة أهم صلاحياتها ،
المجمع
المصالح الكبرى
 اجهزة وظائف ثابتة . واذا ما كان بعضها ، من هذا القبيل ، موروثاً عن
 العهد الامبراطوري الاول ، فان التقدم في الطريق التي شقها هذا الاخير ،
 واقع رامن .

يطلق على « مجلس الامير » القديم ، بفعل متطلبات آداب المجتمع ، اسم « الموقف » (المجمع)
 اذ ان اعضاءه يشتركون فيه وقوفاً . تعود رئاسته ، في غياب الامبراطور ، الى « وزير مالية
 القصر » . يدرس شتى الشؤون ، ويشارك كبار رؤساء المصالح في جلساته . وللموقف ، بالإضافة
 الى ذلك ، امناء سره الذين يؤمنون استمرار اعماله بواسطة الاختزال .

اما اولئك الذي يمكن تسميتهم بالوزراء فلا يزالون قليلي العدد جداً . فهناك « رئيس امناء
 السر » الذي يضبط يومياً جدول الموظفين والرؤساء العسكريين ويمارس بالتالي وظيفة على
 بعض الاهمية . ويدير الخزنة ، بحسب مصدر الواردات ، « كونت الاعطيات المقدسة »
 و « كونت الاملاك الخاصة » . ويرئس دوائر المستشارية « سيد الدوائر » الذي تتعاطم اهميته
 باستمرار ، كما يبدو ، ولعل السبب في ذلك انه رئيس « موظفي الشؤون » أيضاً ، الذين يمارسون ،
 بفعل انتشارهم في كل مكان ، عملاً اتهامياً لا يختلف عن الجاسوسية احياناً . ويحذر بنا ايضاً ان
 نضيف الى هذه القائمة قائد حرس القصر المعين على رأس الادارة الاقليمية .

تجدر الاشارة هنا الى ان الحكومة المركزية خلو من وظيفة وزير اول . وربما كان « وزير
 مالية القصر » مؤهلاً قبل غيره لشغل هذا المركز . وربما اسندت الوظيفة الى رجال لم يعرفوا كيف
 يستثمرون طاقاتها : ومهما يكن من الأمر فقد فقدت اهميتها . ولكن السبب الرئيسي ، في الأرجح ،
 هو ان اباطرة القرن الرابع كانوا حذرين فقسما السلطة بين مساعدهم حفاظاً على سلطتهم الخاصة .
 ونشر مرة اخرى هنا الى فصل الوظائف العسكرية عن الوظائف المدنية : « سيد الدوائر » هو من
 يرئس الجنود البرابرة في الحرس الشخصي ، ولكن « للحامين » رئيساً خاصاً هو « كونت المنزلين » ،
 كما ان « اسياة الجنود » يرئسون الجيوش ، حتى تلك المقيمة في جوار المقر الامبراطوري . فقد
 فرضت امثلة العديد من الاختبارات المؤسفة اللجوء الى التبصر والحكمة . ولن يحدث الا بعد

وفاة ثيودوسيوس ان يبرز اشخاص يصبحون اسياد الحكومة الحقيقيين، على الرغم من تعرضهم الدائم لفقدان الخطوة بصورة مسرحية مفاجئة : القائد ستيليكون في الغرب ، وقائد الحرس روفينوس واقثريوس مدير غرفة الامبراطور في الشرق ، الذين سيبرز بعدهم كثيرون سواهم . بيد ان تنوع الوظائف الرسمية التي يشغلونها يبين ان لا صلة عضوية بين اية وظيفة منها وسلطتهم . فهم لا يدينون بهذه السلطة الا لعطف الامبراطور الشخصي ولعدد الزين ، وحتى للقرابات اللامعة التي اتاح لهم هذا العطف تكوينها : تزوج ستيليكون من ابنة عم الامبراطور في السنة نفسها التي ولد فيها هذا الأخير ، فعين وصياً عليه ثم زوجه ابنته على التوالي . ولكن الملكية ، حتى في زمن اباطرة ضعفاء من امثال اركاديوس وهونوريوس ، لم تسمح بقيام وظيفة قد تعطي صلاحيتها الرسمية دور تنسيق ، وبالتالي دور ادارة حقيقية لمن تسند اليه .

دسائس البلاط
كان للامبراطور مفضلوه المقربون : وهل خلا منهم اي حكم مطلق ؟
قام هنالك بلاط اقل فجوراً منه في العهد الامبراطوري الأول - ومرد ذلك الى ان النصرانية ، بعد ارتداد قسطنطين ، قد تركت اثرأ قوياً في الاخلاق - ولكنه ليس دونه بطانة أو حقلأ خصبأ للدسائس . وقد يحدث فيه ان تتدخل النساء في السياسة . ولكن ذلك لم يبلغ قط ما بلغه في بلاط سلالة ساويروس حيث تذكرنا الاميرات السوريات جوليا دومنا امرأة سبتيموس ساويروس والدة كركلا وشقيقتها جوليا ميزا ، وابنتا هذه الأخيرة جوليا سوامياس وجوليا ماميا ، والدتا ايلغابال وساويروس اسكندر ، بطموحين وعزمهن اللذين لا يقفان عند حد ، باكثر الملكات السلوقيات او اللاجيات افتناناً وتهيبجاً . ومع ذلك فاذا كان من الطبيعي ان تتوارى النساء في فوضى القرن الثالث ، فانهن قد ظهرن مجدداً في القرن الرابع . فقد ادمت بعض المآسي البلاطية ملك قسطنطين الذي اعز بقتل ابنه كريسبوس بتحريض من امرأته الثانية فوستا التي ما لبثت ان اعدمت الحياة بعد اشهر معدودة . وافاد جوليانوس افادة جلي من عطف الامبراطورة افسافيا عليه لدى كونستانس الثاني . وجعل موت فالنتينيانوس الاول من ارملة جوستينا ولية العهد ، واسرع ثيودوسيوس في ترفيع ستيليكون بعد ان وافق على زواج ابنة شقيقه منه . ويمكننا الاستشهاد بمزيد من الامثلة التي يوفرها لنا خلفاء ثيودوسيوس .

كان للرجال ايضاً تأثيراتهم ولم تكن دون تأثيرات النساء طابعاً شخصياً . فانت « للقصر المقدس » ، بالضرورة ، مصالحه التي يحتل رؤساؤها مركزهم في تسلسل الموظفين . وقد وفرت احدى هذه المصالح بنوع خاص ، « الغرفة المقدسة » ، لمن ينتمي اليها ، تقرباً شخصياً وحميماً من الامبراطور . فعلى نقيض كافة المصالح الاخرى التي أقفلت في وجه العبيد او المعتقين ، إلا في بعض المراتب الدنيا ، ما زالت هذه المصلحة مخصصة بهم تقريباً : لا بل كان بينهم شريكون كثيرون ، وخصيان كثيرون ايضاً بحسب عادة يفسرها منشأهم . وعلى الرغم من هذا الدل ، وربما بسببه ، فقد حدث احياناً ان توصل بعضهم الى التأثير على الامبراطور نفسه . اجل قامت

سوابق مماثلة في عهد سلالة كلوديويس، ولكنها سوابق غير مشينة. اما الآن فاننا نشاهد خصياناً « يتولون شؤون الغرفة المقدسة » ، أي مدراء غرفة كباراً يسند اليهم القيام بالمهام الدقيقة والدورات التفتيشية وبأكثر من ذلك . تلك حال افسيفيوس الذي أوحى بأكثر من قرار من قرارات كونستانس الثاني ، ثم اعدم في اوائل ملك جوليانوس . وتلك خصوصاً حال افثروبيوس الذي كان متقدماً في السن حين دخل في خدمة ثيودوسيوس وتوصل بسرعة الى احدى الوظائف العليا ، فتركه ثيودوسيوس لابنه الذي كلفه بعد ذلك القيام بحملة عسكرية ورفعته الى رتبة القنصلية .

نعتقد بأن هذه الأمثلة كافية للتكهن بما عزم به بلاط القرن الرابع من دسائس وبما سيكون من امره في القرن الخامس حين ينقطع الامبراطور عن العيش مع الجيش حيث كان ينجو من بعض هذه التأثيرات . واذا ما انجز في القصر عمل حكومي واداري جدي ، فقد حيك فيهِ ايضاً مؤامرات مظلمة تنزع منها النفس احياناً ، فاهيك عن الوشائات والحيايات وما تجرّ اليه من تحاسد وما تثيره من تنافس حاد بين موظفين يساندونهم اقرباؤهم او زبائنهم .

كان كل هذا ثمن الحكم المطلق . بيد ان الامبراطور لم يتمتع يوماً ، في الواقع ،
الامبراطور : بمثل هذا الحكم .
الرئيس العسكري

فهو لا يزال رئيس الجيش ومختاره . وقد سبق وألحنا اعلاه الى حقيقة اعتراف مجلس الشيوخ به ؛ اما اتصالات الشعب الوحيدة به فلا تجري ، كما هي الحال منذ امد بعيد ، إلا في الملعب أثناء الالعاب . بيد ان الأمر على خلاف ذلك مع الجنود . فالحادث الرئيسي ، الفعلي والنظري معاً ، الذي يوافق جلوس امبراطور جديد على العرش هو تقديمه الى فرق مختارة تنادي به امبراطوراً ؛ ثم يلي الاحتفال اعلان توزيع الهبات . هذه هي الحال حين يجري كل شيء في ظل النظام ، فماذا نقول اذن عن الاغتصابات ؟ ان خير ما نعرفه عنها في أصوله الاجرائية هو ذاك الذي استفاد منه جوليانوس في لوتيسيا في اوائل السنة ٣٦٠ . فحين خضع للتمرد ، الذي اعدته الاركان خير اعداد على كل حال ، رفع على ترس احد المشاة ووضع على رأسه ، عوضاً عن التاج ، عقدٌ احد حملة الاعلام الكلتيين . وعد حينذاك بتوزيع الذهب والفضة (ما يعادل ١٤٠ فرنكاً بسعر السنة ١٩١٤ لكل جندي) . وفي اليوم التالي ألقى خطبة في ميدان مارس فصفق له الجنود وأعربوا عن استحسانهم بضرب تروسم بالرمح . ظهرت للمرة الاولى في هذه المشاهد طقوس بربرية ، أهمها اعتلاء الترس الكبير ، تدل على التطور الذي طرأ على التجنيد ، ولن تستقر إلا في عهد لاحق على الأرجح . وبقي اخيراً دور الجيش كجيش ، الذي يتفق وأعرق تقاليد النظام : والجدّة الوحيدة هي ان الجيش قد غدا وحده منذئذ صاحب الحق في منح السلطة .

ان هذا الطابع العسكري لا يزول يجلوس الامبراطور على العرش . فالموظفون الذين يعتبرون جميعهم ممثلين للامبراطور او معاونين له يعتبرون جميعهم جنوداً ايضاً . بنتمهم تستلزم النجاة . والنجاة يدخل كذلك في بزة الامبراطور الاعتيادية مع المعطف الارجواني الذي يرتديه الرئيس

الحربي . واذا ما ندر الاحتفال بواكب المنتصرين ، فان فكرة النصر تدخل في الاحتفالات التي حلت عملياً محل هذه المواكب في اعياد الجالوس التي تقام برونتى خاص كل عشر سنوات : فكان هنالك الذكرى العشرية الاولى والذكرى العشرية الثانية ، وحتى الذكرى العشرية الثالثة لجالوس قسطنطين . واستمرت هذه الفكرة . في النعوت التي ما زالت تضاف الى الالقاب الامبراطورية .

مثل الاله إلا ان الجيش ، الذي هو القوة فحسب ، لا يستطيع ان يعطي السلطة إلا مرتكزاً أديباً خشناً اذا ما اكتفى به . وقد ساد الاعتقاد ، تصريحاً او تلميحاً ، بأن الجنود ، الذين لا ينتخبون باختيارهم ، يكتفون بأن يعترفوا وينادوا بذلك الذي أسماه تيممستوس « الكائن السباوي » و « رسول السماء » . وسين كان الجيش الجمهوري ينادي بقائده امبراطوراً بعد النصر ، كان يحبي فيه حبيب الاله . وكان للامبراطور منذ القدم ارتباطات خاصة بهذا الإله . ولكن طابع الملكية الديني ومظهر الامبراطور الإلهي قد برزا بقوة منذ الامبراطورية الاولى التي حرصت على ألا تنقل الى روما مثالية الملكيات الهلينية كاملة .

برزت قوة هذه النزعة منذ اواخر القرن الثاني بنوع خاص حين احرزت التأثيرات الشرقية غلبة حاسمة . ولم يبلغ النظام يوماً ، في سلوكه هذه الطريقتين ، ما بلغه قبيل جالوس ديوكليسيانوس . ولنهمل هنا تجاوزات ايلغاغال التي ليست سوى حدث عابر . ولكننا نلاحظ ، طيلة القرن الثاني ، التقدم المستمر في العلاقة بين فكرة « الاله الشمس » ، سيد الكون ، وفكرة الامبراطور بمثله على الارض ، بل أقنومه البشري . لقد رغب بعض الاباطرة في السابق بأن يمثلوا على قطع النقود حاملين تاجاً مشعاً يرمز الى الشمس : اما الآن فيظهر هذا التاج على رأس كافة الاباطرة . وقد بلغ هذا التطور ذروته في عهد اوريليانوس . فقد درجت منذ سلالة ساويروس عادة غير رسمية تقضي باطلاق لقب « الاله » على الامبراطور . اما اوريليانوس فقد أرفق اسمه ، على النقود ، بالصيغة الرسمية « المولود إلهاً وسيداً » : ويستلزم هذا التحديد عبادة شخصية تؤدي فروضها للامبراطور وهو على قيد الحياة .

لا مراء في ان ديوكليسيانوس قد خطا خطوة الى الوراء . بيد ان الحل الذي اعتمده أبعد تقدماً من ذلك الذي اعتمده أباطرة القرنين الاولين . اقتصر هؤلاء على اعتبار أنفسهم أبناء سلفهم « الاله » . اما ديوكليسيانوس فقد أطلق على نفسه اسم « جوفوريوس » وأطلقه على قيصره ، بينا اختار الامبراطور والقيصر الآخران اسم هرقلوس . ومعنى هذين الاسمين « ابن جوبيتر » و « ابن هرقل » ، أي ابنا إلهين هما أوسع آلهة الزون الروماني شهرة آنذاك ، الاول كسيد العالم والثاني نظراً لوضع قوته في خدمة سعادة البشر . تسلم أبناء هؤلاء الآلهة النعمة الالهية من آبائهم . فكانوا وسطاء بين الآلهة والبشر يحفظون إلهام وعضد أولئك ، بينا يقدم لهم هؤلاء الطاعة والاحترام الديني دون ان يستلزم ذلك العبادة بالذات .

قد نجد أحياناً ، حتى ابان الاضطرابات التي عقيبت اعتزال ديوكليسيانوس الحكم ، استمرار عرف اعتقاد هذه الالقاب الرسمية في كلا السلالتين . وعلى كل حال فان مفهوم الطابع الإلهي في

الاباطرة قد امتد حتى ظفر الامبراطور المسيحي قسطنطين . على ان هذا الظفر لا يكون ثورة من هذا القبيل . فقد سلت النصرانية على الدوام ، كما قال القديس بولس ، بأن « لا سلطان إلا من الله » ، ولا يعقل ان يسمح قسطنطين بزوال الاساس النظري لسلطته في نظر الوثنيين من رعاياه . ولا يلزم لذلك سوى حد أدنى من التوفيق بين الاتجاهين ، أي إلغاء الابوة الالهية ، وأسمي جوبيتر وهرقل دون ابدالهما بأي اسم آخر : وقد درجت الوثنية نفسها ، منذ زمن بعيد ، على الكلام عن « الالوهة » و « الإله » بمعناها الواسع . فجوهر الفكرة من ثم لا يزال باقياً لخير الجميع : الله يختار الامبراطور نائباً عنه ؛ يده تمد له الصولجان ؛ يقويه ويلهمه .

الحقوق والواجبات يستتبع ذلك واجبات على الامبراطور لا يجد الوثنيون من امثال ثيميستوس وسينيزيوس - الذي لم يكن بعد أسقفاً على بتوليايس في كيرينا حين وجه الى اركاديوس ، في السنة ٣٩٩ ، خطابه « حول الملكية » - او المسيحيون من امثال افسيفيوس أسقف قيصرية ، صعوبة في الاتفاق عليها . ولا تختلف هذه الواجبات ، في الواقع ، عن تلك التي حددها أكثر الفلاسفة منذ اواخر القرن الرابع قبل المسيح . وقد انطوت عليها كلها تقريباً مثالية الملكية الهلينية نفسها ، كما انها لم تكن بعيدة عن مثالية الامبراطورية الاولى . غير ان الامبراطورية الثانية تتكلم عنها بمزيد من التشديد وتضفي عليها طابعاً يتسم بمزيد من الصوفية . لن يتميز الملك عن المستبد اذا هو بنى سلطته على الخوف لا على المحبة ؛ واذا هو لم يمارس كل الفضائل ، لا سيما العدل ومحبة البشر ؛ واذا هو لم يقدم لزعاياه مثل الخير بغيّة ارشادهم وتخليصهم ؛ واذا هو لم يقتد بالاله ، « مثاله الاول » بالنسج في بناء الدولة وادارتها على منوال المدينة السماوية . عرف الاباطرة جميعهم هذه الواجبات ؛ وقد سمح كثير منهم للخطباء بتوضيحها وتفسيرها امامهم بلهجة تعليمية لا تخلو احياناً من درس ضمني على الاقل ، دون ان تنقلب يوماً الى انتقاد صريح . فقد قال سينيزيوس لاركاديوس : « اما انت فعليك ان لا تسقط من المرتبة التي عينت لك ، وان لا تحط من لقب الملك الذي تحمله على غرار الله ، وان تتقيد ، على نقیض ذلك ، بهذه القدوة ، وان تغمر المدن باحسانات لا تحصى ، وان توفر كل سعادة ممكنة لكل من رعاياك » . وليس من امبراطور ، على كل حال ، يعترض على تبني هذه الافكار . فان بياناتهم الرسمية وبراءاتهم تستوحي باستمرار هذه الفضائل التي يعرفون ان من واجبه التحلي بها . فلنكتف ، بين نصوص كثيرة مماثلة أخرى ، بأن نقرأ هذا المقطع من مقدمة براءة ديوكليسيانوس حول الحد الأعلى : « فإلينا نحن الساهرين ، نحن آباء الجنس البشري ، يعود واجب احقاق الحق حتى تجد الانسانية ، التي لم يحالفها الحظ في الدفاع عن نفسها ، انفراجاً يؤول الى الخير العام ، بفعل تدابيرنا الاحترازية » . وان في التشريع ، الذي يتميز ، في القرن الرابع ، بالقسوة في مكافحة الزنى والخطف ، لتعبيراً عن تصميم المسؤولين على الزام الرعايا بالتقيد بالانظمة الاخلاقية . بيد ان هذا المفهوم يمنح الامبراطور سلطات غير محدودة أيضاً . عرف الملك ، في العهد الهليني ، بأنه « الشريعة الحية » ، فرُجع اليه غالباً آنذاك ، وهو يقبل تفسيرين : اما الانسان الذي

يعطي الشريعة حقيقتها الحية بفرض التقيد بها ، واما الانسان الذي تكون ارادته الحية الشريعة بالذات . ويتجنب كثيرون توضيح فكرهم ويحتمون وراء تأكيدات مطمئنة ، فقد قال ثيمستوس : « الملك هو شريعة حية ، شريعة الهية آتية من العلاء ، هبة زمنية من الكرم الازلي ، انبثاق من طبيعته ، ... لا بد له ان يتجه اليها وينزع الى الاقتداء بها » . ولكن ثيمستوس هذا نفسه لا يتردد في مكان آخر في ان يقول للامبراطور : « انت الشريعة الحية ، ودونك الشرائع الكتابية » . غير انه لا يلبث ان يضيف بان واجبه يقضي عليه ، والحالة هذه ، بتفسير الشرائع وتخفيف صرامتها .

مهما يكن من الأمر ، فمن ذا الذي يستطيع الحكم في استعمال الامبراطور لحقوقه وفي طريقة قيامه بواجباته ؟ فليس سوى القديس امبروسيوس ، الذي يهول امام المؤمن بالسلاح الروحي الذي تعطيه اياه الاسقفية ، من يستطيع حمل ثيودوسيوس على الاعتراف بخطيئته . ولذلك فالامبراطور عليا هو « الشريعة الحية » بكل ما لهذا التعبير من معنى .

ينعكس كل ذلك في اصول الاحتفالات . ابقى الاباطرة المسيحيون على الكثير العادات الجارية مما خلفته لهم الوثنية . حملوا حتى ثيودوسيوس لقب الحبر الاعظم الذي تخلى عنه غراتيانوس في السنوات الاخيرة من ملكه . وفي الولايات استمر الاحتفال بالعبادة الامبراطورية باستثناء تقديم الذبائح فقط . وما زالت طقوس التأليه ترافق الجنائز الامبراطورية في القرن الرابع ، كما ان النصوص الرسمية ما زالت تلقب كل امبراطور ميت بـ « الالهي » .

اضيفت الى ذلك عناصر اخرى خالية من اي طابع مسيحي أو وثني يميز ترمز كلها الى سلطة الملك النظرية واشتراكه في طاقات لا تتوفر للبشرية العادية . وانه لمن الصعب ، في الحقيقة ، توقيت ظهور كل منها وتحديد أصلها وتفسيرها الحقيقيين . فالوراثة الهلينية واضحة في كثير منها . ولكن ما هي السوابق المتفرقة التي قدمتها الامبراطورية الأولى ؟ وما هي العناصر المنتقلة من التقليد المستمر في الشرق ، داخل حدود الامبراطورية ، الذي ازداد رسوخاً آنذاك بفعل الفيلان الشرقي ؟ وما هي اخيراً نسبة امتيحاء مثل الملكية السامانية التي انتقل اليها ايضاً بعض الارث الهليني وقسم كبير مباشر من الارث الايراني ؟ تبدو بعض المصادر المعادية لديوكليسيانوس ميالة الى المغالاة في الكلام عن ابتكاراته وتقليده للاعداء . اما نحن فيكفي ، دون الدخول في هذه المجادلات ، ملاحظة اتجاه ملموس نحو غاية واحدة :

حلت الكلمة (« سيدنا ») ، اخيراً ، في اعلى لائحة الالساب الامبراطورية ، محل اللقبين التقليديين (« الامبراطور القيصر ») . وكانت كل ما يعود للامبراطور « مقدساً » : قصره ، غرفته ، مجمه ، صوانه ، الخ . يحمل التاج ، رأسه يحاط بالهالة في صورته . تمارس « العبادة » امامه بالسجود وبتقبيل اسفل معطفه . يسك الكرة بيده رمزاً للقوة الكونية .

اخذت اصول آداب المعاشرة تنظم حياته . غير انها لم تحرمه الملذات الشاقة . فهو يتعاطى القنص حتى ولو انقطع عن التوجه الى الجيش . وتعد المآدب في البلاط حيث تؤدي معاورة

الحجرة الى المشاجرات . ولعل وجود القادة البرابرة قد ساعد على استمرار هذه الاذواق الخشنة . ولكن الالهة تتجلى في ايام الاحتفالات باحمرار الارجوان ، وللمان الذهب والميناء ، واشعاع عرق اللؤلؤ والحجارة الكريمة والجواهر ، بما وصفه سينيوس ، في السنة ٣٩٩ ، بـ « سطوع الوان متقلب شبيه بسطوع الوان الطواويس » ، يأتون من بعيد بالرمال الحاوي الذهب ويندرونه على طريقه ، من رأسه حتى قدميه – اذ ان الحجارة الكريمة تثبت في وشاح التاج والالبسة والنجاد والاحذية نفسها – يحمل الامبراطور بيتاً ثقيلاً وزاهياً يحمله على العرش الذي يستقر فيه وراء طنفسة تزاح في البرهة الأخيرة ، بينما يراقب « الصامتون » القاعة . واذا وصف يوحنا الذهبي الفم ، حتى في السنة ٣٩٩ ، في كلامه عن الامبراطور حين يخرج الى المدينة ، « الجنود المجلدين بالذهب ، والزوامل البيضاء المزينة بشتى انواع الزينة الثمينة ، والعربات المنزلة بالحجارة الكريمة مع اغطيتها الناصعة البياض وصفائها المعدنية المترججة ، والتنانين المطرزة على الملابس الحريرية ، والتروس المزدانة بالسرر الذهبية ، والحجارة الكريمة المنشرة على الخماثل .. » ، والاحصنة المتوشحة بالذهب مع حكمايتها المذهبة ، « فانه يسارع الى القول ان زينة الامبراطور الفاتنة تفوق بذخ الموكب .

ان مدينة بيزنطية القديمة أصبحت القسطنطينية . ولكن الأبهات البلاطية في بيزنطية القرون الوسطى انتقلت ، منذ ذاك الحين ، الى روما الجديدة .

الحكم المطلق سبق ورأينا ان دسائس البلاط وحظوة المقربين غير المستقرة قد لازمت هذه الابهات بالضرورة . ويصح القول نفسه في الحكم المطلق الذي أوحى بهذه الابهات دون ان يفيد منها افادة تذكر .

لنعد اليه في آخر هذا الفصل الذي دار كله حوله . بديهي ان قانون الجلالة القديم لا يزال يحمي العرش وتسهر على تطبيقه محاكم عادية او خاصة برعت الشرطة في توينها بالدعوى مع ما يرافقها من اعمال تعذيب ماهر في الاستجواب وتنفيذ الاحكام . فقد زال مفهوم « المواطن » منذ زمن بعيد ، عملياً . اما الآن فالتمبير نفسه يتلأش امام التعبير « رعايا » وتبرز في اللغة اليونانية كلمة *Douloi* « العبيد » . والحقيقة هي ان سلطة الدولة ، التي يحسدها الامبراطور ، تلجأ الى الاقتسارات الكثيرة : فهو يتولى ، كما رأينا ، فرض معتقداته على غيره ، ويدعي ، كما سنرى ، بحق فرض العمل والمنزلة الاجتماعية على الغير .

الفصل الرابع

التجديدات الاقتصادية والاجتماعية

تتسم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العهد الامبراطوري الثاني بثلاثة طوابق رئيسية .
هنالك في الدرجة الاولى تدخل الدولة . فالدولة لم تتمش على مذهب جديد اخذت على
على نفسها تطبيقه ونشره ، بل زعت ، بتأثير أرسخ المفاهيم قديماً ، وعلى غرار كافة الدول ،
الى اعتبار حقها النظري في التدخل في هذه الحقول غير محدود تقريباً . ولكنها شأن النظام
السابق أبعد من ان تفكر باستخدام هذا الحق استخداماً تلقائياً . اما التشريع الذي توحى به
لها ، خدمة للضعفاء ، آراء الفلاسفة حول محبة البشر والتعاليم الاخلاقية المسيحية ، فلم يؤمر
تأثيراً حقيقياً في التطور العام . فالى أية نتيجة كان من الممكن ، في الظروف العادية ، ان يؤدي
التيار الذي يعبر عنه هذا التشريع ؟ ليس باستطاعة احد ان يجيب على هذا السؤال . والحقيقة
الثابتة هي انه اصطدم منذ القرن الثالث بحاجات مباشرة اعتبرتها السلطة السياسية اعظم إلحاحاً .
وهذه الحاجات هي بالضبط ما أدركته السلطة . فطبقت في معالجتها حلولاً بدت لها غاية في
البساطة — وهي غاية في البساطة فعلاً — ، ولكن هذه الحلول ، المعتمدة في البدء كحيل فقط ،
كان نصيبها الاستمرار والشمول ، اذ ان شئنا ونهجا قد تكوّننا ، مما شئنا ونهج التدخل
المستبد اللذان كان الخوض لهما امراً محتوماً : ان بعض الآلات المتشابهة ، اذا ما اخضعت
للحركة ، لا تتوقف بل تلتقف الجسم بكمليته .

وهناك رسوخ الحضارة بين الأغنياء والفقراء وبين المقتدرين والضعفاء ، ليس على الصعيد
الاقتصادي فقط ، بل على الصعيد الاجتماعي والقانوني ايضاً ، وان في ذلك لعمري مغالطة بل
مغالطات . فواجب الدولة ، وفقاً للمثالية المسيطرة ، يقضي عليها بحماية الضعفاء . وتقضي
مصلحتها والمخطط العام لسياستها المستبدة بالحوول دون تعاضل قوة الأقوياء القادرين أكثر من
غيرهم على الوقوف في وجهها . ولعل مهمتها السلبية اخيراً تجد تسهيلات فادرة في اضمحلال القسم
الأكبر من النخبة الاجتماعية القديمة الذي تحقق في القرن الثالث . ولكن شيئاً من كل ذلك لم
يحدث . فقد برزت ارسوقراطية جديدة كان قوامها ، حتى ولو حملت أسماء اعرق العائلات ،
حفدة جامعي الثروات اiban الاضطرابات ، ولاسيما حفدة كبار الموظفين الذين جمعوا بفضل المعطف

الامبراطوري ممتلكات عظيمة جداً في غالب الاحيان . وقد بلغت في الواقع من القوة ما أرغم الدولة على ان تحسب لها حساباً . فلم تقدم على التدخل ضد تجاوزاتها إلا نادراً وبدون جدوى . لا بل انها كثيراً ما شجعت التطور لا سيما بصدد العلائق بين الملاك الكبير والعاملين في اراضيه . فكانت النتيجة محاولة المقتدرين التوسط بينها وبين الطبقات الدنيا . اما الطابع الاخير فهو تنظيم مجتمعات خاص ، أعنى به الكنيسة ، داخل الجسم الاجتماعي . كان للكنيسة ممتلكاتها وتنظيمها وتعاليمها الاخلاقية . فشكلت بفضل هذا الاستقلال قوة يزيد في عظمتها ان الدولة لم تقدم جدياً ، لأسباب مختلفة ، كجمل الخطر او تقوى المسؤولين مثلاً ، على الحد من انتشارها .

فماذا كانت النتيجة ؟ صحيح ان تسلط السلطة السياسية على الحياة الاقتصادية وعلى التنظيم الاجتماعي لم يواجه بعد مقاومة جدية . ولكن بعض القوى اخذت تتكون وستتسي مستمدة لأن تخلف الدولة حين تضعف سلطتها .

١ - تكييف الاقتصاد

لم تتوفر للنشاط الاقتصادي السهولة التي توفرت له في العهد الامبراطوري الاول ، ولكنه في القرن الرابع لا يقتصر على الاشكال البدائية . قد يلقي الصعوبات بعد ان فقد حريته السابقة ، ولكنه يلبس لكل حال لبوسها ويبلغ توازناً معيناً ، بل درجة معينة من الازدهار .

نترامى لنا هذه التسوية اذا ما القينا نظرة على الوضع النقدي الذي هو ميزان الوضع الاقتصادي والذي تركت تقلباته اكثر الآثار المموسة ، على ما يكتنفها من غموض . افضى اختلال الأموال العامة ، في القرن الثالث ، الى هبوط النقد . فكان توطيد سلامة النقد شرطاً من شروط الاقتصاد المنتظم . ولكن الإباطرة ، على الرغم مما بذلوه من جهود ، لم يتوصلوا الى تحقيق هذه الغاية تحقيقاً كاملاً .

عاد ديوكليسيانوس الى ضرب النقود الجيدة . فلم يطرأ اي تغيير على عيار الذهب ، اما وزن القطعة الأصلية فقد بقي على ما حدده قسطنطين : ٤,٥٥ غرامات ، وهو الوزن الذي ابقت عليه الامبراطورية البيزنطية ، بينما سينتهي الغرب الى ١,٥١ غرام . وضربت النقود الفضية الجيدة ايضاً ولكن باوزان مختلفة . وتبدلت نسبة القيمة بين المعدنين لصالح الذهب : فانتقلت من ١٢/١ تقريباً في البداية ، كما في زمن اوغسطس ، الى ١٣,٧١ في زمن قسطنطين ، و ١٤,٥٤ في السنة ٣٧٩ ، و ١٨ في السنة ٤٢٢ ؛ وسيعود بها جوليانوس ، بعد مرور قرن الى ١٤,٥٤ . ولكنها تغييرات غير مزعجة في الحقيقة : ولم تؤد الا الى حل العالم الروماني على اعتماد الذهب قاعدة ، وهذا ما لم يفعله حتى ذلك الحين ، كما لم يفعله العالم اليوناني من قبله .

قضت الضرورة باصدار كميات وافرة من هذه القطع تأميناً لحاجات التداول . ولكنهم لم يستطيعوا ذلك . فراجت قطع نحاسية ادخلت عليها نسبة ضئيلة من الفضة ، وقطع برونزية ايضاً :

بواسطة هذا النقد غطت الخزانة عجزها دونما حاجة الى التقيد بالوزن القانوني. لذلك فقد هبطت قيمة النقد مرة اخرى . وباستطاعتنا تتبع هذا الهبوط في مصر بفضل مصادرها من البرديات؛ غير ان هذه البلاد خضعت لنظام نقدي خاص بحيث ان ملاحظتنا فيها قد لا تكون ذات قيمة بالنسبة لمجموع الامبراطورية . ومهما يكن من الامر ، فاننا نرى قيمة الذهب ، خلال القرن الرابع ، تزداد فيها ١٨٠٠٠ مرة على الأقل ^(١) بالنسبة للنقد العادي .

كانت نتيجة هذا الانخفاض في سعر النقد المحصاراً شديداً في العلائق الاقتصادية، على ما نرجح. ومع ذلك فهي دون ترجيحنا. فالنقد الذهبي قد بقي ثابتاً . كما ان النقود الجيدة المتداولة كانت قليلة ، وكان باستطاعة اي كان من الناس ان يكتسبها . ولكنها ، قليلة او كثيرة، كانت نقداً متداولاً، وقد ازداد في ايام ثيودوسيوس ضرب القطع الذهبية والفضية الصغيرة والصغرى؛ ولم يكن القصد من ذلك ، في الأرجح ، سوى تسهيل تداولها .

لم تكن المعادن الثمينة ، في الحقيقة ، وافرة كما في الماضي ، ولكنها لم تنضب . وما اشد دهشتنا امام الكميات الضخمة من الذهب المضروب التي استطاع جمعها اثرياء افراد : فقد انفق سيميناكوس مثلاً ما زنته ٦٥٥ كيلوغراماً ذهباً على الألعاب التي اقامها لمناسبة تعيين ابنه قاضياً. وقد حصلت الدولة على المعادن : فقد استثمرت المناجم المتبقية في الامبراطورية بعد فقدان داسيا ، ورافق اقفال المعابد أو تخصيصها لغاية جديدة مصادرة كنوزها ؛ وجمعت بعض الضرائب اخيراً ذهباً وفضة . غير انها لم تحصل على الكفاف منها .

كان من ثم لازماً عليها ، بفعل حاجتها الى النقد الثابت ، ان تلجأ الى التحصيل والدفع عيناً : كما جرى ذلك في استيفاء الضريبة الشخصية ودفع معظم الأجور العسكرية ومرتبات الموظفين . واعتمد الناس اقتصاداً مختلطاً ايضاً بني على المقايضة تارة وعلى الدفع النقدي اخرى . فحين حاصر أأريك روما للمرة الأولى في السنة ٤٠٨ ، أرسل اليه وفد من المحاصرين يقدم له ٥٠٠٠ ليرة ذهباً و ٣٠٠٠٠ ليرة فضة و ٤٠٠٠ قميص حريرية و ٣٠٠٠ جلد مصبوغ بالأرجوان و ٣٠٠٠ ليرة من التوابل : وقد اقتضى جمع هذه القدية ، من جهة ثانية ، بالإضافة الى ما طلب من الاغنياء ، تذويب تماثيل ذهبية وفضية اخذت من المعابد . وان في هذا المثل لدلالة كافية على ما كان يفرض عليهم من تساويات .

واضطروا كذلك الى تعود ارتفاع الاسعار ، وهو النتيجة الحتمية للاسعار : « الحد الاعلى » لانخفاض قيمة النقود الرائجة .

لسنا نعلم حقيقة أسباب الارتفاع الذي حاول ديوكليسيانوس الحد منه في السنة ٣٠١ مع

(١) وهناك من يتكلم عن ٤٥٠٠٠ وحتى ٦٦٠٠٠ مرة. نحن نجعل التحديد الصحيح لما عرف به « الدرهم » في مصر ولما عرف قديماً بـ « الدينار » الذي يختلف عن الدينار الفضي في العهد الامبراطوري الاول . وجلي ان الدولة كانت عاجز من ان تضرب نقوداً برؤزية كافية بهذا السعر ، فما هو الحل الذي اعتمدته يا ترى ؟

انه قد وضع في التداول قبل هذا التاريخ نقوداً ذهبية وفضية جيدة . غير ان هذه المحاولة لا ترد الى رغبته في التنظيم فقط ، اذ ان في المقدمة الطويلة لما يعرف بحق بـ « مرسوم الحد الأعلى » وصفاً لوضع خفيف . فهي تذكر بالصلحة العامة ومصلحة الجنود المحرومين من مكاسبهم الشرعية ، وتعنتف التجار المحتكرين والمضاربين « المصمتين على الاثراء » ، ليس خلال سنوات او أشهر ، ولا خلال يوم واحد ، بل خلال ساعات وفي برهة واحدة ، الذين ينزلون الى الاسواق ، حين تثقل وطأة القحط ، مواد غذائية مجموعة في السنوات السابقة . وهذا ما يبرر التدابير المتخذة : عقوبة الموت لمن يخفي البضائع المخزونة ولمن يفرض او يدفع سعراً أعلى من الحد الأعلى القانوني . وبلي هذه المقدمة جدول يعين هذا الحد الأعلى لأكثر من ألف صنف : المواد الغذائية ، والحامات ، والمصنوعات ، وأجور النقل ، ومرتبات المهن الحرة ، والاجور ، وقد رافقت هذا التعمين تمييزات دقيقة جداً تناولت الكمية والنوع .

ان هذا النص ، الذي أتاح مكتشفات كتابية كثيرة جمع القسم الأكبر من متنه ، ينطوي على أهمية عظيمة بسبب هذه التمييزات وبسبب المقارنة بين الاسعار : وهكذا فان الأجر اليومي الأعلى لمامل ريفي ينفق على ما كسبه من جيبه يوازي على وجه التقريب السعر الأعلى لكيلو غرام واحد من لحم المعجول او لنصف كيلو غرام من لحم الخنازير او الضأن او لحمسة ليرات من الحنطة . ويكون هذا النص أول تجربة تحاول في ارض على مثل هذا الاتساع وينطبق على مثل هذا الشمول بغية تحديد الاسعار التفصيلية . غير اننا ، مهما كان من أمر عظمة الجهود ، لا نشعر بحاجة الى التشديد على عظمة خرقه ايضاً : اذ انه لم يأخذ بعين الاعتبار تقلبات الاسعار الاقليمية ، التي لا نشك في ما يمكن ان يكون من أمرها في داخل هذه الامبراطورية الشاسعة ، بل اقتصر على لفت انتباه الشارين الى ضرورة حساب أكلاف النقل وغيرها مما يسهم في رفع سعر كلفة المحاصيل التي يرغبون في بيعها . ولم يتكلم عن تدبير ديوكليسيانوس هذا سوى مصدر أدبي واحد : ويفلج انه أفضى الى اراقعة دماء كثيرة ولم يؤد إلا الى اختفاء المحاصيل وارتفاع أسعارها وفي النتيجة الى إلغاء المرسوم . وليس هذا المؤلف سوى لاكتانس ، وهو مسيحي اشتهر بعدائه للامبراطور المضطهد . فيجوز لنا بسبب تحيزه ان نشك في أمر الأحكام بالموت . بيد انه لا يجوز لنا الشك في الغشل الكامل . فمنذ السنة ٣٠٤ ، حين ألزمت الحكومة الأثرياء المصريين بأث يتخلوا لها عن الذهب ، عرضت عليهم ثمناً له ، كما يبدو ، عشرة أضعاف سعره المحدد في المرسوم . لم تحدث ، على ما نعلم ، سوى محاولة ثانية مماثلة . في السنة ٣٦٢ أدت الاستعدادات للحرب ضد الفرس الى ارتفاع عظيم في الاسعار غذى نقمة الانطاكين على جوليانوس الوثني . فأصدر هذا الأخير مرسوماً يحدد السعر الأعلى ايضاً . لا نعلم شيئاً واضحاً عن نصه ، ولكننا نرجح انه لم يكن سوى تسعير محلي فقط . اما الشيء الثابت فهو انه لم يعط أية نتيجة .

ليس افضل من مصر ، بالاستناد الى بردياتها ، لتتبع ارتفاع الاسعار هنا ايضاً . لننتقل من سعر الحنطة في السنة ٢٩٤ ، اذ انه قد تمجد أعلاه بالنسبة للأسعار السابقة . فمنذ السنة ٣١٤ ، ارتفع ٣٠ ضعفاً ؛ وفي السنة ٣٣٤ ، ٢٦٠ ضعفاً ؛ وبُعِيد السنة ٣٤٤ ، ٦٦٨٠ ضعفاً ؛ الخ .

وطالب لبعضهم اجراء حساب المال اللازم ، مبدئياً ، لشراء الحنطة في آخر القرن ، فتوصلوا الى ان ثمن ٢٥ كيلو غراماً قد بلغ آنذاك ١٦ طنّاً من النقد البرونزي . ولكننا نجعل كيف حلت ، عملياً ، الصعوبات التي أوجدها مثل هذا الوضع . كما نجعل نسبة أثر هذا الوضع في خلق وضع مماثل في الأقاليم الاخرى من الامبراطورية . ولكن هنالك قاعدة ثابتة هي الذهب الذي يوزن وزناً او يمدّ قطعاً نقدية . فقد سمح ثباته باجراء المفايضات ، وقولت سلطة الدولة كل أمر آخر .

مطالب الدولة الاقتصادية كانت الدولة مستعدة لاتخاذ أي تدبير يقتضيه بقاء وتسليم الانتاج الضروري للحياة العامة . وليس من ريب في أنها اتخذت فوق ما نعرفه من تدابيرها ، ولكن ما نعرفه كافٍ لإزالة كل ريبية حول اتجاه سياستها . فالأولوية المطلقة ، حتى ولو لم تنفذ أعمالها بالأمانة المباشرة ، مضمونة في كل مكان لمقتطعاتها ومصادراتها ومشترياتها وطلباتها على أساس الضريبة او بأسعار تحددها هي ، ولا تخضع رأسمالية الدولة إلا الى اقتصاد توصلت الى تصميمه واقراره ، عن طريق ما فرضته من مِيرَ وخدمات ، وراقبت العديد من نطاقاته .

كان عليها تأمين الغذاء للعناصر المحظية من السكان . فامتنته الضريبة المستوفاة عيناً ، التي اتاحت تسديد أجور الجيش والموظفين . وخصصت احدى ابرشييتي ايطاليا لتموين ميلانو ، كما فرض على مصر تموين القسطنطينية ، على ان تصل ضريبة الحنطة العينية الى الاسكندرية قبل العاشر من ايلول . اما روما فقد احتفظت بافريقيا بسبب عجز ابرشية ايطاليا الثانية عن سد حاجتها . وهكذا تتضح التدابير الشديدة المتخذة تأمينا لاستيفاء الضريبة واستثمار الاملاك العامة ووجود اليد العاملة الريفية في الاملاك الخاصة .

ليس كذلك من نقص ممكن في انتاج الخامات والمصنوعات . فالمناجم والمهاجر بكليتيها تقريباً ملك للدولة التي تمتلك من جهة ثانية مصانع يدوية مختلفة . لا بل انها احتكرت بعض الصناعات ايضاً . فقد اخضعت الاقمشة الثمينة على الدوام لتنظيم قاس تناول بصورة خاصة اللون الامبراطوري ، اعني به الأرجوان : كان على صيادي « الموركس » ان يسلموا كل حصيلة صيدهم التي لا يجوز ان تنقص عن حد ادنى معين ، وحظرت صباغة الحرير ارجواناً كما حظر انتاجه في غير المصانع الامبراطورية ، الخ . اما المصنوعات التي لم يتناولها الاحتكار ، فقد نزعَت الدولة ، بصددها ، الى تعميم نظام « الهيئات » الذي ظهر في أيام الامبراطورية الأولى . فكانت التعاونيات الاولى المنظمة تلك التي تتولى تموين روما بالمواد الغذائية : الخبازون ، والقصابون ، الخ . وكان ثمن الاحتكار والامتيازات الممنوحة لها التقيد بموجبات عمل قانوني مستمر . ثم شمل النظام تدريجياً المهن الاخرى في كل مدينة : فكان على كل هيئة — والهيئات كثيرة جداً بسبب تجزئة العمل — ان تلتج حداً ادنى من المصنوعات .

يصح القول نفسه في النقل البري ولا سيما البحري . فتتظيم اصحاب المراكب الذين يموتون روما عن طريق اوستيا قديم قدم تنظيم الخبازين . ثم عم هذا التنظيم تدريجياً . فصودر مجهزو

المراكب في كل مكان وجمعوا شركات ذات مسؤولية جماعية وتوجب عليهم ان يؤمنوا في الدرجة الأولى ، وبسعر محدد ، عمليات النقل التي تفرضها الدولة .

تتألف مستنداقنا ، بنوع خاص ، من قرارات رسمية تهدف الى دعم اقتصاد الدولة هذا بتوسيع نطاق تطبيقه ، وتلافي الصدوع ومعاقبة الغش وانذار الموظفين الفاسدين أو المهملين . وتشتمل كذلك على شكاوى الرعايا الكثيرة من وطأة الاعباء عليهم ومن تجاوزات المنفذين . ولكننا لا نعرف دولة في التاريخ لم تدخل تحسينات مستمرة على نظمها ولم يستثقل الرعايا أو المواطنون مطالبها . أجل ان هذه السيئات حتمية : ولا تنجو منها الدول المعاصرة نفسها عندما تنهج النهج نفسه ، على الرغم مما يتوفر لديها من وسائل عملية أقوى . ولا يميز النقد النزيه ان تستوقفنا هذه السيئات وقتاً طويلاً . فنتائج النظام الاجتماعي كانت في الحقيقة اعظم خطورة من نتائجها الاقتصادية .

فهو لم يؤد الى الخراب ، اذا ما نظرنا الى الناحية الاقتصادية فقط . ولعل مرد نظرة عامة ذلك الى ان تنظيم الدولة قد تمتع بصفات لم يمن أي مصدر معاصر يلفت انتباهنا اليها . وقد قام من جهة ثانية ، في جميع حقول النشاط ، ما يعرف اليوم بـ « النطاق الحر » الذي يموت التهريب والفائض الذي لا تضع الدولة يدها عليه : وليس من شك في واقع هذا النطاق على الرغم من عجزنا عن تقدير أهميته . ومهما يكن من الامر ، فان القرن الرابع يخلق فينا شعوراً — لأن الاحصاءات تعوزنا — مختلفاً جداً عنه في القرن الثالث .

لا يزال السكان ، واليد العاملة اذن ، اقل عدداً ، كما ان توطين البرابرة ، الذي لم يحدث في كافة أنحاء الامبراطورية ، لم يسد هذا العجز إلا جزئياً . اجل هنالك ميل الى اهمال الاراضي المهدبة . ولكن الاراضي الاخرى تزرع خير زراعة . وقد يجذب الاهالي احياناً ولكن جديهم أقل خطورة منه في العهد الامبراطوري الاول ، باستثناء روما حين يوقف المغتصبون عنها المستوردات الافريقية . وانتشرت بعض التحسينات التقنية . فالعربة الحاصدة ، وهي اختراع غاللي أشار اليه « بلين القديم » ، يصفها مرة أخرى مهندس زراعي في القرن الرابع ويؤكد آنذاك ان استخدامها أكثر رواجاً في السهول الغالية . وكثرت المطاحن المائية . وفي السنة ٢٨٠ ، ألغى الامبراطور بروبوس كافة موانع زراعة الكرمة ، أقله في الاقاليم الغربية . لا بل يغلب انه اصدر اوامره الى الجنود بزراعة الكرمة في منطقتي الساف والدانوب . وفي الواقع انتشرت هذه الزراعة وتحسنت انواع العنب في ألبانيا وغاليا : فقد امتدح « اوزون » عنب منطقتي بوردو والموزيل . وغدا انتاج المناجم والتعدين وافرأ . اما مصانع الزجاج الرينانية ، التي كان مركزها كولونيا ، والتي حققت نجاحات تقنية هامة ، فقد صدرت مصنوعات الى الاسواق البعيدة لأن التجارة بين الاقاليم قد استعادت نشاطها . وقد لفت الانتظار ، في اواخر القرن الرابع واولئل القرن الخامس بنوع خاص ، وجود التجار « السوريين » في كل مكان . فلم يرض احد الجغرافيين الاغفال ، في ما كتبه حوالي السنة ٣٥٠ عن غنى المصنوعات وتعددها ونوعها ،

باعجابه ومدحه ، إلا على مصر وشبه الجزيرة البلقانية . وقد جاء علم الآثار يؤيد تحفظه حيال مصر حيث أدى النقص في سكان الأرياف ، الإهمال في تمهيد الأفنية الى اختفاء بعض القرى القديمة في القيوم تحت الرمال المتراكمة . ولكنه يؤيد أقواله في اماكن أخرى أيضاً بصدد الأبنية الجديدة او الموسعة وبنوع الأشياء المنقولة .

برزت نهضة الازدهار في أكثر من ولاية ، ولكن الشرق استفاد منها أكثر من الغرب . فهي قد بلغت الذروة ، اقله بعد الفتح الروماني ، في بعض مناطق آسيا الصغرى ، ولا سيما في سوريا . استعادت التجارة مع الشرق البعيد نشاطها وحركتها . ويبدو ان العالم الروماني ما انفك يصدر اليه المعادن الثمينة بنوع خاص ، وما زال يستورد منه المصنوعات البذخية والعمائم التقليدية والتوابل والجواهر والحجارة الكريمة والحريير الذين ازداد طلبه في الاسواق . واذا احتفظ بالحريير للقصر الامبراطوري حين تتخلله الخيوط الذهبية أو حين يصبغ باللون الأرجواني ، فانه ما زال ضالة الاغنياء المنشودة حين يكون مطرزاً بالرسوم أو مصبوغاً بالألوان النباتية . وقد املت بصدد هذه التجارة العلائق المباشرة عن طريق المحيط الهندي . ولكن البضائع ، والتجار احياناً ، يمرون في المملكة الساسانية التي عقد معها صلح دائم في اواخر القرن الرابع . وحين تبلغ البضائع نهر الفرات حيث تتولى الدولة اعمال رقابة جركية شديدة في سبيل استيفاء الرسوم ، تتجه الى الموانئ المتوسطية ، كما تتجه اليها صموغ الجزيرة العربية الجنوبية وعطورها التي تتولى نقلها عبر الصحراء السورية قوافل يقف لها الاسميليون السجسون بالمرصاد . لذلك فان انطاكية ، والمدن الفينيقية ، والاسكندرية التي ما زالت تتمون عن طريق البحر الأحمر ، قد حافظت على صناعاتها الفنية الخاصة .

غير اننا نخطئ ان نحن غالبنا في تجميل هذه اللوحة . ليس من ريب ، اذا ما نظرنا الى الامبراطورية في مجموعها ، في ان الانتاج الزراعي والصناعي كان كافياً لسد حاجات السكان . اما المقايضات فلم تتجاوز قط مستواها السابق ، لا بل لم تبلغه الا في مناطق معينة . فهناك ظاهرة كافية لابرار الفرق بين هذا العهد والعهد الامبراطوري الأول : ان اكثرية المدن الصغرى والمتوسطة قد تقهقرت وتأخرت . ويرد ذلك الى منافسة « المقاصف » حيث نمت المصانع التي باعت مصنوعات من الريفين المجاورين . كما يرد الى منافسة المدن الكبرى أيضاً التي تميل الادارة بدافع طبيعي الى تشجيعها بسبب سهولة الرقابة فيها . أجل كان انهيار روما الاقتصادي ، بين هذه المدن الكبرى ، عميقاً جداً ؛ فهي لم تعد ، بعد انتقال البلاط منها ، مركز الجذب العام ، كما كانت في القرون الأولى . ولكن العواصم الاقليمية ، قرطاجة والاسكندرية وانطاكية ، قد احتفظت باهميتها ، حين لم تستطع انماها . اما بين المقرات الامبراطورية الجديدة ، فان « تريف » قد نمت نمواً كبيراً . ومع ذلك فليس من تقدم يمكن مقارنته بتقدم القسطنطينية ، العاصمة الجديدة للامبراطورية . فهنا تنطلق كل التجارة البحرية في الشرق المتوسطي . والطريق البرية التي ربطت بين البوسفور ونيكوميديا ، مروراً بآسيا الصغرى ، قد شهدت حركة سير ناشطة جداً . ويمكن القول نفسه عن طريق الغرب أيضاً . فليست « الطريق الاغناطية » القديمة ما يقود ، كما

في السابق ، الى الأديراتيك ، مروراً بمقدونيا والايبر ، بل تلك التي تحتاز سيرميوم وتتجه مباشرة الى غاليا أو إيطاليا الشمالية دون ان تمر بروما .

ليس من السهل وضع ميزان هذه العناصر المختلفة ، والمتناقضة في أغلب الأحيان . غير ان الامر الثابت هو ان الامبراطورية لا تشكو من فقر الدم في اواخر القرن الرابع ، وان شطراً كبيراً من الشرق يعرف ازدهاراً حقيقياً . فمن ذا الذي يستطيع التكهن بمصير كل ذلك لو لم يحدث ما حدث في القرن الخامس ؟ مهما يكن من الأمر ، فان احداث القرن الخامس ستكرس أولوية القسطنطينية التي حلت منذ الآن محل روما كمقدمة المواصلات بين اقاليم الامبراطورية .

٢ - المجتمع العالمي

ما كانت الدولة لتستطيع توطيد سلطتها على الاقتصاد لو لم توطدها في الوقت نفسه على المجتمع ، او لو لم توطدها بقوة على بعض الطبقات على الأقل .

لم تقف الامبراطورية الاولى نفسها موقفاً حيادياً على هذا الصعيد . مرسوم كركلا على الرغم مما انطوى عليه سلوكها من اعتبارات اخرى ، فان باستطاعتنا القول ان انعامها بالمواطنة الرومانية على عدد مطرد الزيادة من الاقليميين ، أي من المغلوبين السابقين ، هو نوع من التدخل . وقد حصل على هذه المواطنة كل الذين رضوا بالاحتكاك بالحضارة . فهم قد انضموا بذلك الى روما التي استطاعت من ثم توجيه واستخدام ارقائهم الاجتماعي وارتقاء أنسأهم من بعدهم . أفضى هذا السخاء المفيد للنظام ، في السنة ٢١٢ ، الى مرسوم كركلا الذي انعم بالمواطنة على كل الرجال الاحرار المولودين في ارض رومانية ، باستثناء البرابرة الذين اقاموا آنذاك في الامبراطورية واخضعوا لنظام ادنى خاص . ولعل مرد هذا التدبير الى اسباب جبائية كان الهدف منها فرض بعض الضرائب على الجميع دون استثناء . ولكن المرسوم كان نهاية تطور بدأ منذ زمن بعيد واستجاب بعد ذلك لمقاصد اخرى .

جاءت الامبراطورية الثانية تعمل به ايضاً . فشملت مفاعيله آنذاك البرابرة الذين يدخلون في خدمتها من غير « الحلفاء » . ولم تحاول الامبراطورية الثانية قط فرض نتيجته المنطقية ، اعني بها تطبيق القانون الروماني الخاص على كافة المواطنين الجدد ، بل سمحت بارتبقى بعض القوانين البلدية سارية المفعول في الشرق . اما نتيجة المرسوم الرئيسية فكانت تبسيطاً لعمل الدولة بايجاد المساواة في الخضوع لها : فلم يعد من اهمية عملية للتمييز بين المواطن والاجنبي الا عندما يتوطن البرابرة جماعات منظمة .

قامت السياسة الاجتماعية الحقيقية في العهد الامبراطوري الأول على تنظيم جودة السياسة الاجتماعية الارتقاء من درجة الى درجة في السلم الاجتماعي ، دونما قسر ، ووفقاً لما ترى فيه خيرها . ارادته تدريجياً يمتد على عدة أجيال رغبة منها في تجنب الغوضى . كما ارادته

مدرّجاً بحسب عدد من العوامل كانت الثروة والتأثر بالحضارة اليونانية أو الرومانية بينها عاملين رئيسيين ، و ارادته مفيداً للدولة أخيراً يبعث طوعاً تكوّن وتجدد النخب التي تنتقي كبار موظفيها من بينها .

هذه هي السياسة التي اضطرت الامبراطورية الثانية الى التخلي عنها تحت تأثير الظروف . فاحتفظت لنفسها ، من جهة ، بحق اختيار خدامها حيث تريد ، وبترفيهم كما يطيب لها ؛ ورأينا فيما سبق ما كان من هذا الأمر في الجيش ؛ وقد الغي ، في السنة ٣٦٤ ، بتأثير الذمينة نفسها ، تحريم دخول مجلس الشيوخ على ابناء المعتقين . ولما كانت بحاجة الى ان تنفذ جميع المهام الاجتماعية ، فقد عمدت من جهة ثانية الى محاربة فرار الموظفين واقرت انتقال المهن بالوراثة ؛ وبجحت عن مسؤولين غير الأفراد المتفرقين والزائلين ، فارغتهم على التجمع وحثت ارزاقهم مسؤوليتهم حتى بعد انتقال هذه الارزاق الى ايد غير ايديهم . فشجعت الطريقة الاولى الارتقاء الاجتماعي السريع ، اما الطريقة الثانية ، التي طبقت على نطاق أوسع ، والتي ما انفك التشريع يحسنها ويكملها ، فقد لاشت الطريقة الاولى بتنظيم الطبقات وبفرض حقوق الارتفاق على ممتلكات اعضائها . وان في التناقض الصريح بينها لدليل على فقدان كل برنامج مدروس : تمتعت الدولة بسلطة مطلقة على رعاياها فاستخدمت هذه السلطة استخداماً انتهازياً .

اضرت هذه السياسة في الدرجة الأولى بالطبقة الوسطى ، تلك البورجوازية
البلدية التي ادت مزيداً من الخدمات الجلي في العهد الامبراطوري الاول ، والفت
درجة وسيطة بين الكادحين المدنيين وطبقة الفرسان ، وامنت حياة المدن التي
شعّت منها الحضارة .

درجت العادة تقليدياً على ان تقدم نخبه هذه الطبقات الموظفين الذين يشغلون «الأمجاد البلدية» :
اذ ان أعضائها يمثلون العائلات الصغرى . وقد سبق لنا وتكلمنا عن وطأة مطالب الدولة المالية عليهم وعن مصيرهم الى الافلاس في تنفيذ هذه المطالب . ولذلك فان القانون يفرض عليهم هذه الوظيفة ويعند في منع تهريبهم او فرارهم . فان الانتساب الى « الجماعة » التي يؤلفونها في كل مدينة الزامي لكل شخص لا ينتمي الى الطبقة المجلسية والادارة او الجيش ويمتلك ، مع ذلك ، في ارض المدينة ، ارزاقاً لا تقل مساحتها عن ٦٠٢٥ هكتارات على الاقل . وقد يحدث في حال ملء بعض المراكز الشاغرة - مراكز المثليين المحليين - ان يقفوا عند حد أعلى ، او ان يعينوا حداً أدنى من هذه المساحة . ومهما يكن من الأمر ، فلا يجوز بيع ممتلكات الممثل دون مبرر . وترث « الجماعة » ممتلكات الممثل الذي يموت دون ان يخلف ابناً او وصية . وعلى الوريث ان يتحمل أعباء هذه الممتلكات . وبديهي ان الابن يخلف أباه في وظيفته ؛ وكان في النهاية ان النساء أنفسهن قد استفدن من هذا الحق ايضاً . ولا يستطيع أي ممثل الانتقال الى الطبقة المجلسية اذ لم يمرّ مسبقاً في كافة «الأمجاد البلدية» واذا لم يخلف ابناً يتوجب عليه ان يكفله ايضاً ، كما لا يستطيع ان يصبح كاهناً اذا لم يجد من يحل محله او لم يتخل عن ممتلكاته . وعلى الفار ، اذا حاله الحظ في

قراره ، ان يعود الى صفوف الممثلين حال اقصائه عن الإدارة أو الكنيسة . لذلك فقد رثى الجميع لهذا الوضع الذي يؤدي بأفراد هذه الطبقة الفاضلة الى الافلاس ويدفع بهم الى الحرب . ويزيد بذلك مساحة الاراضي المهملة التي يتوجب على الممثلين الباقين تأمين زراعتها او اقله تحمل أعبائها . اما وجه المأساة في ذلك فهو ان هذه النخبة ما كانت لتتجدد ، كما في السابق ، بارتقاء رجال توصلوا الى اليسار عن طريق ممارسة الصناعة اليدوية او التجارة . فقد استلزمت حاجات اقتصاد الدولة تنظيم المهن المختلفة في كل مدينة وفقاً لتشريع دقيق مماثل يلجأ الى التدابير نفسها . ونحن لن نحاول هنا تعداد كل التعاونيات التي احدثتها السلطة العامة بغية تأمين ممارسة المهن وتقديم الخدمات الجماعية ، بل نكتفي بالقول ان المناجم نفسها قد اعتبرت « ضرورية » في آخر المطاف ؛ ولم ينبج من اعتبار « الضرورة » هذا سوى المهن الحرة ، كالطب والتعليم والحمامة ، التي تتمتع ببعض الحصانات ، ولكن الذين مارسوا هذه المهن ، ممن تفرض عليهم طبقته ممارسة مهنة أخرى ، قد تعرضوا للعطارد الشديدة . ولن نحاول ايضاً تعداد كافة الاقتسارات التي استهدفت الحيلولة دون تدني أهمية هذه الهيئات ، فهي متشابهة كلها وتوحي بها الذهنية نفسها ، وتدور جميعها حول ثلاثة مواضيع رئيسية : خطر الحرب من الوظيفة ، الوراثة ، المسؤولية عن الممتلكات التي تتفاوت الشدة فيها وفقاً للحالات النوعية وطابع الاضطراب النفسي فيها . وليس أهم ، كما هو بديهي ، من شؤون النقل والتغذية . لذلك فلا أسهل علينا من ان نختار ، بين الأنظمة الكثيرة حول هذه المهن ، بعض امثلة تقارب الغرابة بتعقيدها وتحكمها . فالهبات التي يتقبلها الخباز ، ومهر زوجته والهبات التي تتقبلها ، تضاف الى مجموع ممتلكاته وتخضع الى حقوق الارتفاق نفسها التي تخضع لها ممتلكات الخباز . وماذا يحدث من ثم اذا كانت هذه الممتلكات الجديدة نفسها مرتبطة قبل ذلك بهيئة أخرى يا ترى ؟ فالبنجار الذي يرث خبازاً مثلاً يرتبط بهيئة البعارة لجهة بعض ممتلكاته وهيئة الخبازين لجهة البعض الآخر . لذلك نكتفي بهذا القدر من الدلائل التي تبين بوضوح كاف ما يمكن ان تتوصل اليه الدولة تدريجياً .

ان هذا العدد الكبير من القوانين الدقيقة والصارمة يتم عما ينطوي عليه النظام من شوائب . ولا يؤخذ على الامبراطورية الثانية وحدها ان تتقلب مساعي المخالفين المبتكرة على احتياجات المسترع حين يكون موضوع المخالفة مغريباً . فقد توفق كثير من الصناعيين اليدويين وممثلي العائلات الى الحرب مثلاً واستقبلت الحكومة نفسها بعضهم وعييتهم في وظائفها على الرغم من الجهود التي بذلتها لاعادة الفارين الى مراكزهم الاولى . وقد وضعت جداول بالطلاب الذين ورد ذكرهم في مراسلات ليبانيوس الذي درس الحقوق طيلة اربعين سنة تقريباً في النصف الثاني من القرن الرابع : فمن أصل ٦٢ بينهم من عرف منشأهم الاجتماعي واتجاههم الاول اللاحق ، أصبح ٢٢ من أبناء ممثلي العائلات ممثلي عائلات كآبائهم ، وسلك ١٨ طريقاً أخرى تمكنه او ٦ منهم السير فيها دون صعوبة .

اما عاقبة هذه المضايقات فيمكن معرفتها بسهولة . فمن حيث ان الطبقة الوسطى قد توزعت فرقاً أسند لكل منها خدمة عامة او سد حاجة اقتصادية ، ومن حيث ان كلا من

أعضائها قد ألحق بشخصه وممتلكاته بأحدى هذه الفرق ، ومن حيث انها ترغم قسراً على القيام بواجبها الأول حين تحاول المخالفة ، ومن حيث انها حرمت المبادأة الحرة وامكانات الارتقاء التي هي سبب وجودها ، فقد اعرضت عن القيام بالدور الذي عينته لها السياسة الاقتصادية ، وحتى العامة ، في العهد الامبراطوري الاول . لذلك فان ضرراً كبيراً قد لحق بالحياة البلدية التي هي جزء أساسي لا يمكن فصله عن حضارة لا يتنكر احد آنذاك لمثلها الاعلى . فقد توقفت التبرعات الخاصة بغية سدّ عجز الميزانيات المحلية . وتضاءلت الحركة العمرانية بسبب الحاجة الى المال وعدم توفر المكان داخل الاسوار التي يكفي تعهدها لاستنزاف الموارد . وتدنى عدد الأعياد لأن المسؤولين اقتصروا بصدها على « التسخير » المقروض . بديهي ان تفاوت النشاط الاقتصادي يفتر بعض الاستثناءات . فما زال البذخ مسيطرأ في المدن الكبرى ، وما زال حكامها أسخياء نحو عامة الشعب . وقد وصلت الينا تفاصيل مدهشة حول عظمة انطاكية بنوع خاص والملاهي المتوفرة لسكانها : فالشوارع تضاء ليلاً ؛ وقد فوجئ السكان ، وهم في المسرح ، بهجوم الفرس في السنة ٢٦٠ ، كما فوجئوا أثناء مشاهدتهم لسباق عربات ، في السنة ٢٧٢ ، بوصول اوريليانوس على رأس جيشه ، في طريقه الى تدمر ؛ وقد ازدادت هذه الملاهي طيلة القرن الرابع وحتى في اوائل القرن الخامس . ولكن هل نستطيع تعميم ازدهار انطاكية وسوريا على كافة أنحاء الامبراطورية ؟ فان الحضارة المدنية القديمة ، لا سيما في الغرب ، قد فقدت سناها وفقدت بالتالي جاذبيتها : وهي لم تعد للتستجيب لأية بداهة بعد ان غدا استمرارها مصطنعاً في اطار ضيق ومفتقر .

وقد أبرز انعكاسها على حياة المدن وكثرة القوانين والشكاوى العائدة لحالة الاشراف الرسميون
البورجوازية البلدية هذه المضادة بين مجتمع الامبراطورية الثانية ومجتمع القرنين الاولين . وحدثت تغييرات هامة ايضاً في الطبقات الاجتماعية الاخرى لم تبق الدولة غريبة عنها ، على الرغم من ان تدخلها فيها أصبح نادراً وأفسح مجالاً لعوامل أخرى تتفق تارة وتتنافس اخرى . اثبت تدخلها جدواه في تنظيم طبقة الاشراف . مال المجتمع الرفيع منذ زمن بعيد الى ان يصبح طبقة شرفاء رسميين . وقد حقق التطور في هذا الاتجاه تقدماً حاسماً بفضل الاقتطاعات والمصادرات التي رافقت الأزمة الثورية في القرن الثالث ، وبفضل حاجات الجيش والادارة من جهة ثانية . فزال الفروق المبنية على النسب والثروة . ورفعت الضريبة عن طبقة الفرسان . ولم يعد للضريبة المجلسية من وجود قانوني . فاستطاع عبد قديم ان يصبح شيخاً وقنصلاً ؛ ولم تقدم حكومة هونوريوس في الغرب ، احتجاجاً على قنصلية افثروبوس ، سوى خصاء مدير الغرفة هذا . وكان على الدولة ، لو انها كانت منسجمة مع نفسها ، الاعتراف الا بالنبل الذي تنعم به على خدامها من مدنيين وعسكريين والذي تخضعه لتسلسل يوازي التسلسل في وظائفها .

غير انها اكتفت ، في ما يعيننا ، باقتفاء اثر نظام الانطونيين الذي تقررت في ظله سلسلة

اللقاب رسمية . فانتهت ، منذ احداث المرتبتين العليين في ٣٧٢ ، الى الدرجات الاربع التالية ، من اعلى الى اسفل : المجيدون ، المحترمون ، اللامعون ، الكاملون . وقد وزعت عليها الموظفين المنظورين والمرموقين وفاقاً للوظيفة المشغولة . وتمثل الدرجتان الاخيرتان إرثاً من القرن الثاني . اما الاوليان اللتان اقرهما الانطونيون فقد نشأتا عن الاستعمال : وعادةً اساساً الى طبقة الفرسان التي زالت دون ان تترك اثرأ سوى لقب « الكامل » .

بديهي ان مثل هذه الألقاب مصيرها الابتذال لان كل وظيفة تحاول الارتقاء في سلمها . ولو اننا تتبعنا مراحل التوزيع ، لوقفنا على امثلة كثيرة تثبت ذلك . فلنكتف هنا بالإشارة الى ان الحكام الوحيدين الذين بقوا في فئة الكاملين هم حكام أقل الولايات شأناً . ولما كان هذا الانزلاق محتوماً فقد جبر بالضرورة الى احداث القاب عليا جديدة والى قبول صفار الموظفين في الدرجات الدنيا : وقد عمدت الامبراطورية الى استخدام هاتين الطريقتين استخداماً متكرراً .

يقضي منطق النظام اساساً بهذه الموازنة الدقيقة بين التسلسلين ، تسلسل الألقاب وتسلسل الوظائف : وهذا هو المثل الاعلى للتشن (Tchén) الروسي . ولكنه قد اصاب في الواقع ببعض الالتواءات .

من هذه الالتواءات أولاً وجود لقبين آخرين لا يدخلان في تسلسل الألقاب ويمنحان مستقلين عن وظائف معينة . أولهما لقب الكونت الذي سبق الكلام عنه ؛ والثاني لقب *Patricius* . استخدمت هذه الكلمة في السابق للدلالة على رتبة الاشراف (بطريق) بمفهومها الديني . ولكن هؤلاء الاشراف قد زالوا ، ولم يعد للدولة ، التي لا تهتم للتقاليد الوثنية ، من حاجة لتعيين سوام كما سبق لها وفعلت في العهد الامبراطوري الأول . فاعاد قسطنطين هذا اللقب الجاهز الذي درج المؤرخون منذئذ على ترجمته بـ « بطريق » وانعم به على شخصيتين كبيرتين . وضمن خلفاؤه في القرن الرابع بمنح هذا اللقب ، فحافظ من ثم على سحره ونفوذه : وقد تكلم المعاصرون بصدد البطاريق ، عن « آباء الامبراطور » .

ومنها ايضاً ايهام لقب « اللامع » . احدث هذا اللقب في العهد الامبراطوري الاول واطلق على جميع اعضاء الطبقة المجلسية ، وما زال وفقاً عليهم وحقاً وراثياً للغاية منه اكرام هذه الطبقة الشريفة القديمة ، على انه فقد من اهميته بعد احداث لقب « المجيدين » و « المحترمين » . لذلك يستطيع بعضهم حله دون القيام باية وظيفة ، بينما يحمله آخرون بسبب الوظائف التي يمارسونها . غير ان هؤلاء اكثر عدداً الى حد بعيد من اولئك الذين ينحدرون كلهم تقريباً من موظفين سابقين ايضاً . فليس من ثم للطبقة المجلسية ، وشأنها في ذلك شأن مجلس الشيوخ ، من كيان مستقل عن الدولة .

ومنها اخيراً التعيين في وظائف اسمية غير نادرة اطلق على المستفيدين منها لقب « المشرفين » أو « الشرفيين » كما ندعوم اليوم . وغالباً ما يكون ذلك في الترفيع ، حين الاحالة الى التقاعد ، الى مرتبة اعلى من تلك التي تستحقها آخر وظيفة مارسها المتقاعد . وقد يحدث احياناً ان

يستفيد منها فرد من الافراد ، ولا سيما ممثل العائلة ، مما حمل الامبراطور ، احتياطاً من سخائه بالذات ، على وضع نظام عام يحدد الشروط المفروضة على « الممثل » قبل الخروج من اطار « جماعته » .

يتضح من ثم ان النظام ، اذا ما نزعت الدولة وتوصلت في الغالب الى الجمع بين الوظيفة والنبيل ، يحافظ مع ذلك على بعض المرونة . والهدف الاول من هذه المرونة توفير مزيد من السهولة للامبراطور في توزيع احساناته : ويمثل الحكم المطلق ، في ذلك ، بين الامبراطور والدولة . بيد ان هذه المخالفات لا تنطوي في الواقع على أهمية تذكر : فقد نظم الاشراف في الامبراطورية الثانية وفقاً لتسلسل الالقب ، فهم بالتالي اشراف دولة او اشراف رعيون .

لقد نجم عن صفتهم هذه أعباء وامتيازات . وكانت الغاية من هذه التمييز اعباء وامتيازاتهم عن تلك ولكنها فاقتها الى حد بعيد لأنها استهدفت في الوقت نفسه مكافأة الخدمات المؤداة والحث على طلب الوظيفة والتفاني في ممارستها .

يدخل في عداد الأعباء ، مثلاً ، الضريبة الخاصة المفروضة على الطبقة المجلسية ، وربما أعفي منها الاعضاء الموظفون . ويدخل في عدادها ايضاً ، اذا اراد هؤلاء الاعضاء قطف ثمار الاجاد المجلسية ، واجب الانفاق على الألعاب عند تعيينهم في منصب القضاء ، ما لم يعين الامبراطور دراكماً ، في مجلس الشيوخ ، قضاة او قناصل سابقين .

ويدخل في عداد الامتيازات امتياز هام هو اعفاء كل من يحمل لقباً ما من « التسخير القدر » ، أي من المصادر الشخصية . وبديهي ان الاشراف معفون من واجبات « الممثلين » ايضاً . اجل لا يزالون يقدمون الحماية للندن ، ولكنهم لا يهتمون لصعوباتهم المالية ، وقلماً يهتمون لمعيشتهم . فهم يفلحون في تسجيل اراضيهم على حدة لأجل تحديد الضريبة الشخصية بغية تجنب المسؤولية الجماعية المترتبة على الاراضي البلدية . وقد عين « محامون عن المجلس » ، بمعدل واحد او اثنين في كل ولاية ، أسند اليهم أمر السر على مراعاة امتيازاتهم الجبائية .

أبطلت المساواة ايضاً لمصلحتهم في الحقل القضائي . وكان الانطونيون سباقين هنا ايضاً في فرض عقوبات مختلفة على « الاشراف » و « الادنين » . أحصي « قواد العشرة » في الفئة الاولى آنذاك ، فأقصى الممثلون عنها الآن . ولكن الفرق في العقوبات ما زال قائماً : فقد استبدلت عقوبات المحظيين الجسدية والعمل في المناجم بالغرامة النقدية او النفي ؛ كما منع عنهم التعذيب والموت المشين إلا في حال الخيانة العظمى . ولم يكن للحكام اخيراً حق النظر في دعاوى الاشراف . وما القول عن الوراثة ؟ فهل كانت عبئاً عليهم . ام امتيازاً من امتيازاتهم يا ترى ؟ اقرها قسطنطين للموظفين قاطبة : فالذلة بحاجة الى ابنائهم كما هي بحاجة الى ابتناء الجنود و « الممثلين » والتجار والصناعيين . ولكن ليس من مهنة انقع من مهنة الموظف : فالحامون انفسهم . يتوقون اليها كما يتضح من مراسلات ليبيانيوس . لذلك فنحن لا نرى وجوباً ، فيما يتعلق بهذه الطبقة الاجتماعية ، لان نرى في مبدأ الوراثة اي جزاء

الثروة العقارية
ومعيشة الاغنياء في املاكهم
بيد ان كثيراً من الاشراف اثرياء ، اذ ان مرتبات عالية ، تنميتها
الانعامات الامبراطورية ، تخصص للوظائف الرفيعة . ولا تتكلم
مصادرها البتة عن مخالفات لواجبات الوظيفة ، ولكنها غالباً ما تتكلم
عن زواجات موفقة . فكان باستطاعة هؤلاء الاشراف ان يعيشوا عاطلين عن العمل لو أرادوا .
ولكن الذين يرضون بهذه الحياة قليلون : اذ ان الميل الى الاجساد والرغبة في العمل اللذين كان لهما
ابداً مكانهما في المثل الاعلى الروماني ، يجذبانه نحو خدمة الدولة . ومهما يكن من الأمر ،
فان الاغنياء جميعهم اشراف ، ان لم يكن بسبب عملهم الشخصي ، فأقله لان احد جدودهم
قد رفع العائلة الى الطبقة المجلسية .

بلغت بعض الثروات نسبة عالية جداً وفاقت اعظم الثروات التي جمعت في عهد سلالة
جولوس - كلوديوس . ويؤكد احد مؤلفي اوائل القرن الخامس ان املاك عدة عائلات في
روما تؤمن لها ٤٠.٠٠٠ ليرة ذهبية (١٣١٠ كيلوغرامات) دخلاً سنوياً ، يضاف اليه دخل
عيني يوازي ثلث هذا المبلغ . فكيف يجوز لنا ، على جهلنا الايراد الوسطي للاملاك العقارية ،
الشك في ضخامة مثل هذه الثروات ، لا سيما وان تقديرها يجب ان يأخذ بعين الاعتبار ما تهمله
هذه الأرقام : مساكن الاسياد وممتلكاتهم المنقولة . وما نحن نورد مثلاً من شأنه اعطاء فكرة عما
يمكن ان تمثله هذه المساكن : حين تولت القديسة ميلانيا وزوجها فاليريوس نينافوس ، في السنة
٤٠٤ ، رغبة منها في تكريس كل ما يملكانه لآعمال البر ، بيع « بيت » عائلة فاليريوس في حي
شيلديوس ، لم يجدا ، على الرغم من مساعدة الامبراطورة ، مشترياً مستعداً لدفع قيمته الحقيقية ،
الا في السنة ٤١١ ، اي بعد ان نهب جنود ألاريك من القوط .

لسنا نستطيع الكلام عن مراحل تكون اية ثروة من هذه الثروات . ولكننا على نقيص
ذلك نعرف وجهة استخدامهما . فمن البديهي انها لم توظف في مشاريع صناعية أو تجارية خوفاً
من اقتصاد الدولة ، بل في ابنية تدر دخلاً محترماً في المدن الكبرى ، كما نرجح ، مع ان هذه
الابنية لم يشر اليها قط في مصادرها . وعلى نقيص ذلك ، فهناك ، بكل تأكيد ، الى جانب
الحلي والمصنوعات البديعة ، كثير من الذهب المسكوك او غير المسكوك : ولكن الذين يتعاطون
المراباة قليلون جداً . فلا يبقى من ثم سوى الأرض . وكان جميع الاغنياء في الواقع اصحاب
ثروات عقارية طائلة . فكان لعدد كبير منهم ، بفضل الهبات الامبراطورية والارث والزواج
والمشتريات التي تجري حين ينقل الموظف من مركز الى مركز آخر ، أملاك موزعة على عدة
مناطق في الامبراطورية . وان في هذا التوزيع في المكاتب لتعبيراً ملموساً عن وحدة هذه
الامبراطورية : فقد كان على القديسة ميلانيا وزوجها مثلاً ، عندما باعا قصرهما في روما ، ان
يبيعا في الوقت نفسه املاكهما في ايطاليا وصقلية وافريقيا واسبانيا ، الخ .

امتلك ثري القرن الرابع اذن ، بالإضافة الى قصره الخاص في المدينة ومنتزهاته في مناطق
الاصطياف - وقد اختارها الروماني ابدأ في مرتفعات اللاتيوم وشواطئ كيبانيا - المقصف
الذي يتوسط املاكه الكبرى والذي علمه ثري القرن الثاني كيف يؤمن فيه كل اسباب الراحة

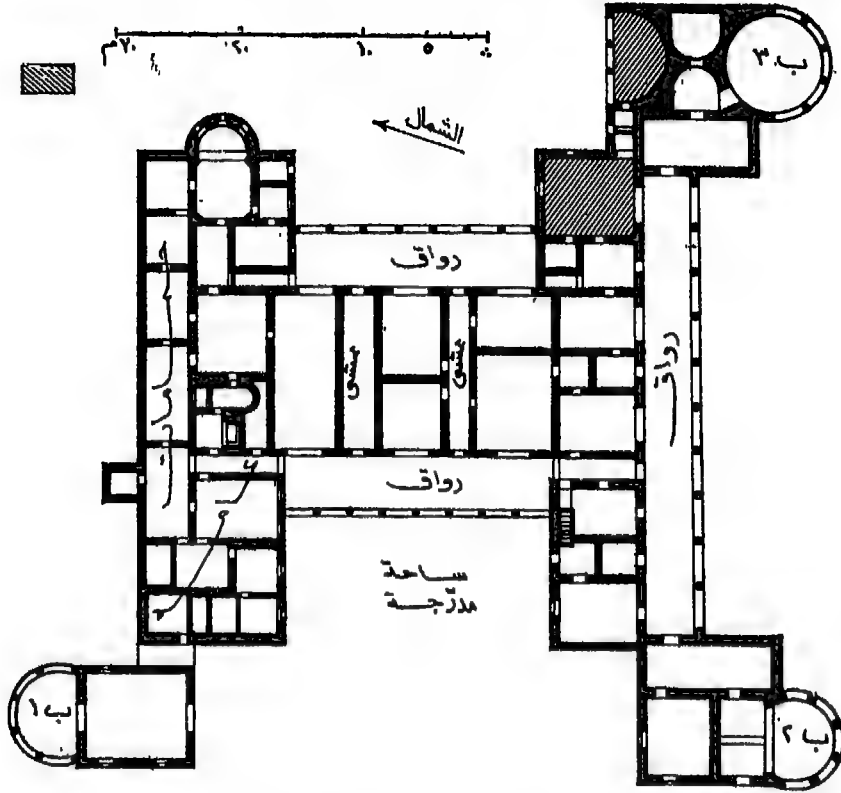
المادية والألاهي الضرورية للمجتمع الرفيع . فتوجب عليه إعادة بنائه لأنه قد تهدم في هذه الاثناء . واستفاد من هذا الظرف لتوسيمه وتجميله ، كما استفاد منه أحياناً لتقوية جدرانها الخارجية ولتحصينه ببعض الابراج لجعله بئاً من من هجمة قد يفاجئه بها قطاع الطرق او فرسان البرابرة . في هذا المقصف يطيب له تمضية اوقات طويلة ، وإلى هذا المقصف يجيء ، بعد صرفه من الخدمة ، ليقضي شيخوخته في هناء وسعة عيش . ولنقرأ هنا وصف حلم السعادة الذي استسلم له « بولين دي بيللا » حفيد اوزون : « لم اتق يوماً إلا الى حياة متوسطة تقارب سعة العيش وتبعد عن الطمع . انتهيت بيتاً مريحاً واسع الغرف صالحاً لقضاء فصول السنة المختلفة ، وطاولة لامعة وملأى بالاصناف ، وخداماً كثيرين في سن الشباب ، وأثاثاً متنوعاً يستخدم لأغراض مختلفة ، وفضية ثمينة بصنعها لا بوزنها ، وفنانين في شتى الحقول قادرين على تنفيذ الطلبات بسرعة ، واصطبلات ملأى بالخياد ، وعربات متينة وأنيقة للنزهة » . حين نظم بولين هذه الأشعار في السنة ٤٥٩ ، كان في سن الثالثة والثلاثين ، ولعله كان معتمداً على حسنات المحسنين لتأمين معيشته في جوار مرسيليا ، بعد ان قضى البرابرة على ثروته . ولا شك في ان هذا الحلم الذي يصفه بالتواضع كان متواضعاً حقاً اذا ما قورن بواقع البذخ الذي عاشه ، خمسين سنة من قبل ، وسط الكروم المحصنة في منطقة بوردو ، مسقط رأسه . ويجب ان نضيف الى هذا الحلم ، اجتماعات الاصدقاء ، والاحاديث العلمية او المازحة ، والملابس الحريرية المطرزة ، وميدان السباق والمسرح في الحديقة ، وقصص الطيور في الاملاك المحيطة بالمقصف وألف تسلية وتسلية أخرى ، كلعبة الكرة التي كان بولين يستحضر لوازمها من روما .

وهكذا فان مثل الارستوقراطية القديم ما زال قائماً . ففي الوقت الذي فرضت الدولة التضحيات على الجميع ، لا يزال هناك محظيون لا تؤثر موجباتها في طمأنينتهم وهناءة عيشهم .

استلزم هذا المثل وهذا الواقع عنصراً جديداً ، أعني به سلطة كبيرة وواسعة على العبيد
أناس آخريين لا نعرف لها مثيلاً في السابق .

اجل كان هنالك عبيد في السابق . وما زال هناك عبيد في ذاك العصر . ولا يسع المؤرخ البت في ما اذا كان عددهم قد تدنى ، اذ انه يفتقر الى الاحصائيات فيما يعود لهذا العصر ولما سبقه . فالرق لا يزال قائماً ولا يزال يتمون من المصادر نفسها ، أي من الحرب خصوصاً ، كما في السابق . يلقي الرومان القبض على البرابرة : وقد أكد سينيكيوس الذي عاش في كيرينا ، في منطقة بعيدة عن العمليات الحربية ، ان في كل بيت عبداً من القوط . ويلقي البرابرة بدورهم القبض على رعايا الامبراطورية ويحدون بسهولة من يشترى مغائهم . وما زال العبيد — يقدرهم القديس يوحنا فم الذهب بين ألف وألفين — يدخلون في خدمة كبار الأثرياء . واذا كانت الكنيسة قد سهلت الاعتاق باجراء مبسط اعترفت الدولة بشرعيته منذ قسطنطين ، او اذا هي شجعه اخيراً ، فانها لا تلتزم نفسها ولا أتباعها به ، بل تصدر حكماً قاسياً على العصاة والمهيجين منهم . « اذا اقدم شخص ما ، بداعي الشفقة ، على حث العبد على احتقار سيده والتحرر من

العبودية والاعراض عن الخدمة بحسن نية واحترام ، فليكن مُبَسَّلاً : ان هذا القرار الصادر عن مجمع «غانغر»^(١) سيلقي تأييداً دائماً. وبالاختصار، كان المنطق يقضي بأن يتدنى عدد العبيد الى حد بعيد . ولعل هذا التدني يفسر نحو استخدام الطاحون المائية ؛ كما ان الصعوبات الكثيرة التي واجهتها الطبقة الوسطى في المدن لم تبق ، في الأرجح ، دون نتيجة أيضاً . ومع



الشكل ٢٣ - « مقصف » اودرانغ شمالي تريف
ب. ١ - المدخل؛ ب. ٢ و ب. ٣ - كشكان؛ كانت بعض أقسام المقصف، على الأقل، تستأجر طبقة عليوية.

ذلك فنحن مضطرون، ربما بسبب النواقص في مصادرنا ، للاعتراف بأن الوقائع لا توفر لبرهاننا الاثبات الحاسم الذي نود لو نكتشفه فيها .

كان من حقنا أيضاً ان نتوقع تشريعاً أقلّ صرامة بصدد العبيد . ولكن الديانة المسيحية لم تعمل ، كما يبدو ، على تقوية النزعة التي أوجدها الفلسفة الانسانية في عهد الانطونيين والتي لم تبرز تقدماً يذكر . فان قسطنطين قد منع ملاحقة السيد الذي يموت عبده المذنب متأثراً

(١) مدينة بافلاغونيا *Paphlagonie* . التأم هذا المجمع في القرن الرابع في تاريخ يتعذر تحديده .

بالعبودية المفروضة عليه ، ولن تلغى قبل القرن السادس الشروط التي قيد بها أوغسطس حق الاعتاق .

ثم ان للأخلاق أهمية دونها أهمية الانظمة والقوانين . لم يتبدل مصير العبيد المزلزين تبديلاً كبيراً ، بل بقي مُطابقاً شأنه في السابق؛ بيد ان التطور في الاخلاق الجنسية قد كبح جماح أهواء السيد في الارجح . ولم يطرأ كذلك تبدل يذكر على مصير العبيد المدنيين: تدنى عدد مصارعات المسايقين ، وغدا بعض العبيد يمارسون صناعة يدوية في حوانيت خشبية . ألفت المصانع في المعابد الشرقية ، ولكنها ختمت الى مجموع المصانع الامبراطورية ، وليس ما ينبئنا بمصير العمال الذين تستخدمهم هذه المصانع . وعلى نقيض ذلك، فنحن نرى الدولة جاهدة في توفير اليد العاملة لمشاريعها الكبرى ، ولا سيما لمناجها ، بواسطة الأسرى والحكوميين من البرابرة ، الذين ينهضون بأعمالهم الشاقة دونما أمل بتحسين حالهم . اما التبدل الرئيسي ، كما نرجح ، فهو زوال «عائلات» العبيد العاملين فرقاً في الاملاك العقارية الكبرى . وليس ذلك سوى نهاية تطور طويل بدأ منذ زمن بعيد، اذا صح ان طريقة الاستثمار الريفي هذه قد اعتمدت في غير بعض المناطق الإيطالية . ومع ذلك فان حياة العبد الريفي العملية ، اذا ما وضعنا نظامه القانوني جانبا ، تشبه حياة الفلاح الحر قديماً .

وان لهذه الظاهرة تفسيرها ، من جهة ثانية ، في التبدل الذي طرأ على مصير الفلاح الحر .

لا نتوقف عند الكادحين المدنيين . فنحن لا نشاهدهم إلا في الكادحون الريفيون ؛ القطافون
المواصم لمناسبة التوزيعات المجانية والألعاب ؛ فهم ، من هذا القبيل ، ما زالوا كما نعرفهم : عاطلين عن العمل ، متطلبين ، سذجين ، سريعى الاحتداد والتشيع ونزع الثقة . فان ما يهمننا هو تطور الكادحين الريفيين .

كان بين هؤلاء ، منذ القدم ، أجراء كثيرون - وافريقيا هي المنطقة الوحيدة ، في هذا العهد بالضبط ، التي يلقى فيها بعض الضوء عليهم . اطلق عليهم آنذاك اسم « Circoncillions » الذي يعني بالتدقيق « القطافين المتنقلين » ، أي العمال الذين يتوجهون نحو الشمال في اواخر الربيع وينتقلون من بستان الى بستان عارضين خدماتهم المأجورة للقيام بالقطاف . اما مصيرهم فيزداد سوءاً ، او يتميزون بمزيد من الجراءة عندما يشد أزهرم العبيد الهاريون وصغار الملاكين المفتقرين والبلديون الثائرون على كل ما هو روماني . وعندما حدثت الاضطرابات الدينية بفعل مقاومة الدوناتيين للكنيسة الرسمية التي تساندها الدولة بصورة عامة ، سئحت هؤلاء المستائين المتكتلين فرصة الانتفاض على النظام القائم فأطلق عليهم مستقيمى الرأي اسماً واحداً هو « القطافون المتنقلون » الذي وازى ، في نظرهم ، اسم « قطاع الطرق » . فجعلوا منهم « لصوص نخامر » يعمدون الى اشعال النار واعمال العنف في كل مكان ويوقفون العربات ؛ ويحلبون فيها العبيد محل السيد الذي يرغمونه على الهرب سيراً على الاقدام ، وينشدون في كل أعمالهم الأناشيد الدوناتية ، ويصيحون صيحة التجمع الخاصة بالهراطقة . ويساعد هذا الغليان على تفسير محاولات

الاغتصاب المتكررة في افريقيا . اما اعمال القمع ، التي لم تعرف للشفقة معنى ، فلم تتغلب على هذا الغليان إلا في النصف الاول من القرن الخامس .

كانت هذه الاضطرابات محصورة في افريقيا . فاللصوصية المسلحة المتفرقة ، الفلاحون الشركاء في المناطق الاخرى ، لم ترتد هذا الطابع من الخطورة ، لا بل ان وطأتها قد خفت في مصر نفسها — سنرى بعد ذلك ما سيحل محلها — أقله في أشكالها التقليدية . ولعل السبب في ذلك ان العمل الريفي المأجور شيء نادر في المناطق الاخرى : ففي كل مكان تقريباً تألفت طبقة الفلاحين ، بصورة عامة ، في اواخر القرن الثاني ، من صغار الملاكين الاحرار ومن فلاحين شركاء ، أي من مزارعين يتقاضون أجورهم حصة من الاثمار .

غير ان تطور الامبراطورية الثانية ، الذي شجعت الدولة حيناً وحاربت حيناً آخر ، قد ربط الفلاح بالارض وحدت في الوقت نفسه من حرية الملاك الصغير لمصلحة جارة القوي ، ومال بالتالي الى تعميم نظام المشاركة الزراعية الذي يختلف كل الاختلاف — باستثناء الاسم — عن العقد الحر نظرياً والملمى ، في عهد الامبراطورية الاولى ، بين الفلاح الشريك وصاحب الملك . ولنحاول هنا اعطاء فكرة عن هذا النظام دون اخفاء صفة التحكم في عرضنا الموجز السريع . ولكن هل يجوز لنا التفكير ، على ما في ذلك من فائدة نظرية وعملية ، بالتطرق الى مسائل معقدة وشائكة يثيرها هذا التطور الشرعي الذي يفوق بقرته القوانين والذي يتحول وفقاً للوضع الزراعي وكثافة السكان في المناطق التي تتألف منها الامبراطورية ؟

في الاصل كانت الصعوبة ، في كل مكان ، مماثلة لتلك التي تؤدي الى وضع نظام سكان المدن . ففي سبيل تأمين الغذاء للجماعة وجمع المطلوب للدولة ، يجب ان يعهد باستثمار الارض الى يد عاملة مستقرة ، جهد المستطاع . وبما انهم قد اقتصروا على استثمار الاراضي الجيدة المخصصة ، بسبب الافتقار الى اليد العاملة ، فقد ازدادت المساحات البائرة ازدياداً مطرداً . لذلك سارت الدولة على تشريع هدريانوس الذي يميز لأي كان الاقامة فيها . ثم أدخلت بعض البرابرة الى الامبراطورية وفرضت عليهم واجبات متفاوتة شدة وليناً بحسب نسبة القوى المتقابلة . ولكن هذه التدابير كانت غير كافية ، فاضطرت الى معاملة رعاياها أنفسهم معاملة قسرية .

من الطبيعي ان تهدف هذه المعاملة الى خير الاملاك العامة في الدرجة الاولى . فأفضت الى عقد اتفاقات تأجيرية طويلة المدى ، او دائمة احياناً ، وانتهى الامر ، عملياً ، الى الاعتراف ، قبل سن قانون بذلك ، بأن اقامة تدوم ثلاثين سنة تكفي لاعطاء حق دائم . ثم اعتمدت هذه التدابير لمصلحة كبار الملاكين ، بانزلاق تفسره توزيعات الاملاك الامبراطورية ، ولا سيما واجب الملاكين في تنفيذ المطالب الاميرية . فصدرت حينذاك سلسلة من الأنظمة متفاوتة تاريخياً بحسب المناطق ، وأهمية قانونية بحسب بدء الاقامة في الاملاك ، وتربط الفلاح الشريك بالارض وحتى بالملك . وقابل هذه الأنظمة نظام آخر يحول دون فصله عن الارض التي يزرعها . ولكنه لا يستطيع مغادرتها ، كما لا يستطيع ابناءؤه الابتعاد عنها إلا لأجل الخدمة في الجيش او بموافقة

السيد . واذا جاز له اقتناء ملك خاص خارج هذه الارض ، فانه يحظر عليه بيعه بدون اذن السيد الذي قد يكون له بعض الحقوق عليه . وهكذا يمكننا القول ان وضعه يتوسط وضع الرجل الحر ووضع العبد . اجل ما زالت هنالك بعض الانظمة الاخرى في اوائل القرن الخامس . ولكنها تميل كلها الى الانصهار في نظام المشاركة الزراعية . كان المشارك الزراعي في السابق خاضعاً لسيطرة الملاك الاقتصادية فقط ، فخضع الآن لسيطرتة القانونية ايضاً .

الحماية شجعت الدولة هذا التطور بقدر تعلقه بالاملاك التقليدية ، ولكن موقفها منه قد اختلف حين كان يتناول الفلاحين الاحرار . ولا يرد ذلك الى ان هؤلاء قد ضايقوها ، بل الى انها قد لاحظت ان التطور قد حصل آنذاك يرافقه تصميم على مقاومة مطالبها الاميرية بالذات . يسمى الفلاح ، في أغلب الاحيان ، وراء « حماية » الملاك الكبير ، هرباً من دفع الضرائب مباشرة ومن مطالبات الجباة ، فيتخلى له عن ارضه ، ولكن ملاكاً كبيراً واحداً لم يفكر بانزعاجها منه فعلياً . فيبقى فيها ويستمر في استثمارها . ولكن هذا الامتياز يستلزم واجبات مختلفة تميل في الواقع الى تمثيله بالمشارك الزراعي والى أكثر من ذلك احياناً . فيحصل من معمله ، بالمقابلة ، على حماية امام القضاء وامام السلطات .

لم يكن انتقال الرجال الاحرار هذا الى مزارعين يحميهم ملاك كبير ليروق لأي مسؤول ، لا للممثلين ولا للدولة الذين أصبح عليهم التعامل مع فريق اعظم قوة . لذلك حاول بعض الاباطرة مقاومة هذا التطور . وعلى هذا الاساس ، كما يبدو ، يجدر بنا تفسير ما اقدم عليه فالنتيليانوس حين احدث في كل مدينة وظيفة « المدافع عن عامة الشعب » الذي وكل اليه امر انصاف المساكين ، لا سيما في حقل الجباية ، بغية صرفهم عن اللجوء الى الحماية القوية ، ولكن هذه الوظيفة ما لبثت ان انحرفت عن غايتها الاولى ، فلم تتميز في النهاية عن وظيفة « محامي المدينة » الذي ما كان ليهم لأمر عامة الشعب . وصدرت كذلك عدة قوانين بمنع الحماية ، تفرض العقوبات على الفلاحين والملاكين على السواء ، يعود اولها الى السنة ٣٣٠ . ولكن الحركة أقوى من القوانين التي نجد الدليل على عدم جدواها في عددها وتكرارها . ستلجأ الامبراطورية الشرقية اليها زمناً طويلاً بعد ذلك ، اما الامبراطورية الغربية ، الضعيفة ، فقد عزفت عنها منذ اوائل القرن الخامس .

أفضى التطور أحياناً الى المغالطة ، أي أنه جاء ضد الملاك نفسه . فإن الدولة ، منذ عهد مبكر ، بغية تحديد المسؤولية الاميرية الجماعية في القرية ، قد شجعت وأوجبت أحياناً انشاء الجماعات الريفية ، على غرار الجماعات المدنية ، ولكنها منحت الجماعة امتيازاً على ممتلكات أعضائها . فأخذ الفلاحون الاحرار وغيرهم في بعض المناطق ، لا سيما في الشرق ، يتجمعون على أساس القرية ، حتى ولو عادت كافة أملاك القرية الى ملاك واحد . ولكن هذه الجماعات ، التي بحثت عن سيد جماعي يحميها من الدولة ، قد بحثت أحياناً عن يحميها من الملاك نفسه ، هادفة الى أن تفرض عليه تخفيف اعبائها . وهكذا فان ليبانيوس قد رأى نفسه

وجهاً لوجه أمام قائد يحمي فلاحيه بالذات . أما نحن فنميل الى الاعتقاد بأن مثل هذه الحوادث كانت نادرة حين يكون الحماية أقوىاء حقاً . ولكن الدولة شعرت بالخطر يهددها فسمعت الى منع هذا النوع من الحماية الجماعية في الوقت نفسه الذي سعت فيه الى منع الحماية الأخرى ، ولكنها فشلت في المحاولتين .

الاسياد والاتباع كل ذلك يتيح لنا ادراك التزايد العظيم في القوة والثروة العقارية ، والمنقولة احياناً ، اللتين استغاد منها الملاكون في القرن الرابع . وقد سبق لنا وأشرنا الى الحقوق التي يحصلون عليها او يدعون بها في الحقل الاداري : فالاملاك تصبح غريبة عن المدينة التي تمتد هي في أراضيها ، وسيدها يتصرف فيها على هواه تقريباً . لا يهتم إلا لان يؤمن ، بإشرافه أو إشراف قهرمانه ، أفضل استثمار لاملأكه . وقد توفرت لديه منذئذ تسهيلات متزايدة لبلوغ هذه الغاية . فهو لا يتخلى عن استغلال « الاحتياطي » استغلالاً مباشراً يعود اليه محصوله الكامل . لا بل يبدو بصورة عامة ان مساحة هذا الاحتياطي تتسع باطراد . ولكنه يعتمد في زراعته طريقة اقل كلفة من تمهده ، على مقربة من مقصفه ، عبيداً كسالى لا يقومون بعمل مشر ، لانه يستحيل مراقبة عملهم مراقبة مستمرة . فيعامل عبيده معاملة الشركاء الزراعيين ويسكنهم في اراض يكل اليهم أمر زراعتها . وبالمقابلة ، يفرض على كافة محمييه أو مزارعيه ، وشركائه أو عبيده ، اعمال تسخير مختلفة تتيح له استثمار احتياطيته . وهكذا ، بعد تطور طويل الامد ، حلت المسألة الاقتصادية التي أوجدها قيام الاملاك الواسعة في ايطاليا ، اعني بها مسألة افضل طرق الاستثمار ابراداً : فمن جهة ، قطع ارض مستقلة يستثمرها الاتباع بإشراف سيدهم لقاء حصص من الاثمار ، ومن جهة ثانية ، احتياطي يستثمره السيد مباشرة بفضل خدمات اتباعه الشخصية . وسيتم هذا الحل ، ببعض المرونة ، طوال قرون عديدة .

ان استخدام كلمة « اتباع » ، في هذا المجال ، امر واجب لانها قد تنطوي على انظمة مختلفة يجمع بينها انها تولي احد الرجال سلطة على شخص رجال آخرين . ان مصير العبد الريفي ، في الواقع ، سائر نحو التحسن : فالعبد منذ ذاك التاريخ يعيش وحده مع عائلته لا يمنع احد من تأسيسها لانه يتعهد وحده باعمالها . ولكن القانون ، مع ذلك ، ابعد من ان يعتقه . وعلى نقيض ذلك ، اذا لم يتبدل وضع الآخرين تبديلاً عملياً يذكر ، فانهم قد فقدوا النظام الذي جعلهم يتمتعون بحريتهم الكاملة : اذ انهم قد تخلوا عن بعض حريتهم القانونية للملاك الذي اصبح سيدهم . فيتضح من ثم ان تطوراً هاماً جداً قد تحقق ، وسيسير هذا التطور طريقه بفعل احداث وتأثيرات أخرى . ولكن النظام السيدي ، منذ اواخر القرن الرابع ، قد تأصل وتوطد في الأراضي الامبراطورية .

وهكذا فقد رسخت المضادة الاجتماعية في الأرياف . وصفنا اعلاه حياة الاغنياء في مقاصفهم . اما منازل الفلاحين الوضيعة فلم تترك لنا سوى آثار حقيرة ، وقد ترفع كافة المؤلفين عن ان

يتكلموا عن حياتهم . ولكنه ليس من الصعب تصورها جانحة ابدأ الى الأرض في عمل يومي متكرر . فهل هم سعداء مادياً يا ترى ؟ كلا ثم كلا : فالنظام قد أوجد لغايات اخرى . ولكن آلامهم ، في الأرجح ، أخف من ان تحملهم على الثورة ، اذ انهم لم يحذوا حذو القطافين الافريقيين . أجل لقد ذكر ثيميستوس ، في السنة ٣٦٨ ، ان بعضهم قد تمّنوا مجيء البرابرة . ولكن حين جاء هؤلاء في السنة ٣٧٧ ، لم ينتهز الفرصة سوى عمال المناجم في تراقيا ، وكان كثيرون منهم من البرابرة ، كي يثوروا على اسيادهم . ولعل هؤلاء الكادحين الريفيين ، عندما دقت الساعة ، شعروا بانهم رومان على الرغم من بؤسهم . ولعلمهم شعروا بنوع خاص ان مجيء البرابرة لن يعود عليهم بفائدة ، لا سيما وان هؤلاء الغزاة لم يهتموا للقيام باقل اصلاح اجتماعي . ولكن ما تجدر الإشارة اليه ايضاً هو ان الدولة لم تأخذ على نفسها أمر البحث بين رعاياها والفلاحين وغيرهم عن جنود يتبعون لها الدفاع عن نفسها دفاعاً افضل : ولعلها ، في ذلك ، ما زالت تتذكر أزمة القرن الثالث وتحشى الاخطار التي قد تعرضها لها الاستعانة بالطبقات الفقيرة .

٣ - المجتمع الكنسي

قامت بين المجتمع الكنسي والمجتمع العلماني روابط كثيرة على الرغم من تميز الاول . فهو آنذاك في طور التنظيم ولا يجوز اماله .

ازدياد الاهتمامات ليس من ريب في ان العقيدة الجديدة ، منذ تنصّر قسطنطين ، قد وجدت في السلطة السياسية خير معوان لتوسيع عدد أتباعها . فقد أدى العطف الحكومي ، في الامبراطورية ، أقله الى تقريب ساعة انتصارها ، واذا لم تلتظر النصرانية هذا الانتصار وهذا العطف حتى تتخطى الحدود ، فقد حالها الحظ احياناً ، حتى في الخارج ، واستألت بعض الملوك ، الشيء الذي سهّل لها نجاحاتها .

منذ اواخر القرن الثاني ، اعتنق النصرانية ملك « اوسروينا » وراء منعطف الفرات ، وبعد مرور قرن اعتنقها ملك ارمينيا بدوره . فسار الرعايا هنا وهناك على خطى ملوكهم . اما في المناطق النائية شرقاً ، فلم تحدث على يد المبشرين سوى اهتمامات قليلة : فقد تم بعضها في القفقاس وحتى في آسيا الوسطى ؛ وقام الساسانيون دون جدوى ، لا سيما في بلاد ما بين النهرين ، باضطهادات عنيفة في اواسط القرن الرابع ، خلال الحروب التي قامت بينهم وبين روما . اما الاسماعيليون ، على نقيض ذلك ، فقد تولت شؤونهم فترة من الزمن ملكة مسيحية اختطفوها من بين رعايا الامبراطورية . وفي عهد قسطنطين بلغ الهند بعض المسافرين المسيحيين واستألو بعض الاتباع على الرغم من قتل رئيسهم . وقد عاد احد هؤلاء المبشرين من الشرق الأقصى وقصد مصر ثم سافر عن طريق البحر الأحمر الى مملكة « أكسوم » عند أعالي النيل ؛ ونصّر الملك ، ثم أسس كنيسة الحبشة بعد ان سامه اثناسيوس الاسكندراني أسقفاً . ودخلت النصرانية الى اليمن نفسها . اما في اوربا فقد سبق وتكلنا عن دور اوليفلا عند القوط وعن نقل هؤلاء

الهرطقة الآرية الى الجرمانين : غير ان أكثرية الفرنجة قد حافظت على وثنتيتها حتى كلوفيس .
واخيراً ، في القرن الخامس ، تنصّر البريطانيون على يد القديس جرمانوس الاوكسيري وتنصرت
ايرلندا بعد سكوتلاندا على يد القديس بطريقيوس وبالاتديوس - إلا اذا كان هذان الاسمان قد
أطلقا على شخص واحد هو « اسقف السكوتلانديين » نفسه .

حظي كثير من هذه الرسائل الخارجية بأيد الحكومة الامبراطورية التي شجعت تشجيعاً
خاصاً شبه مستمر ، بقوانينها وعملها الاداري اليومي ، نشاط الرسائل في داخل الامبراطورية .
ومع ذلك ، فان الارياة ، لا سيما الغربية منها ، قد بقيت بعيدة عن هذا النشاط حتى اول
القرن الخامس . وما لبثت كلمة *Paganus* أي الفلاح ان اتخذت ، على الصعيد الشعبي ، ثم على
الصعيد الرسمي ، معنى « الوثني » الذي ما زالت منطوية عليه في كلمة *Païen* . ولا يزال مصدر
هذا التحول موضوع مجادلات كثيرة ؛ ولكن أبسط تفسير لذلك ، كما نرجح ، هو مقاومة الفلاح
للتخلي عن عباداته التقليدية . ومهما يكن من الأمر ، فان الارياة الغربية كانت ، في الزمان ،
آخر ما انتشرت فيه الديانة المسيحية . اما تطور هذا الانتشار فلننا نعرفه إلا في غالبا حيث
قام القديس مارتينوس بعمل مجد حاسم . أسس هذا الضابط السابق ، بمساعدة أسقف بواتيه ،
دير ليغوجيه ، ثم سيم أسقفاً على مدينة تور فأسس ، في السنة ٣٧٣ ، دير مارموتيه ايضاً . فكان
هذان الديران منبئين حقيقيين للرسائل تربي فيها وخرج منها وعظا ساروا على خطى المؤسس .
ولم يمت هذا الاخير إلا في السنة ٣٩٧ . فاشتهر طيلة قرون عديدة بـ « رسول غالبا » بفضل
تقشفه وجولاته المستمرة والمعجزات التي اجترحها وتعلق تلاميذه به والترجمة التي وضعها له
سوليبس ساويروس . ولكن عملاً مماثلاً ، يتفاوت شهرة او سرعة ، قد تم في كل مكان آخر . ولم
تحتفظ الوثنية في اوائل القرن الخامس ، إلا ببعض النقاط المتشتتة داخل الامبراطورية .

لقد رافق كسب النفوس هذا ، بصورة طوعية اجمالاً ، كسب
قوة الكنيسة الاقتصادية
الممتلكات الزمنية . فقد اخذ الأنفاق يتزايد تزايداً عظيماً : تشييد
الأبنية ، والعناية بها ، والعناية بالمدافن ، ونفقات العبادة ، وحياة الأكليروس المادية ، ومساعدات
المعوزين . ولكن الاعطيات اخذت تنهر من كل جهة ايضاً ، من الدولة والافراد . وفي السنة
٣٢١ اعترف قسطنطين للكنيسة بحقها القانوني في تقبل الهبات بواسطة الوصيات (الاوقاف) .
ولم ينتظر المؤمنون ، في غالب الاحيان ، ساعة الموت ليبرهنوا عن سخاء مدهش أملاه التقشف
والتصميم على الزهد بخيرات هذا العالم : فقد سبق القديسة ميلانيا وزوجها أكثر من سلف ،
الشيخ بوماخيوس مثلاً او بولين النولي الذي أصبح اسقف نولا ، مسقط رأسه في كيبانيا . غير ان
فالنتينيانوس الاول ، ذلك الحاكم العبوس ، ما لبث ان اغتاز من بعض ضروب الضغط المريبة
والنفعية : فحظر على الكهنة مساعدتهم لدى الاوانس والارامل ، وألقى الهبات الوقفية التي قد
يقدمنها لهم . ولكنه أغضى ، على ما يبدو ، عن اعطياتهن وعن هبات الرجال الوقفية ، وليس
هؤلاء دون النساء حرصاً على خلاص نفوسهم .

وهكذا باتت الكنيسة على جانب عظيم من الثروة. ولم تصدر حكمها على الثروة عند الفقراء، لا بل لم تقل، كما كانت تقول بصدد الزولج والتبتل، ان الفقر خير منها. ولم يشذ عن موقفها هذا سوى اصوات معدودة لا شأن لها امتدحت اشتراكية الممتلكات: فأقضى اتفاقها مع المجتمع العلماني، على غرار ما جرى بصدد الخدمة العسكرية والتبتل، الى تخفيف حدة بعض الحميات. ولكنها قد أوصت بتجنب الجور في جمع الثروة وتجنب التمتع بها بأنانية وبخل. وقد أعطت المثل في هذا الصدد بتوزيع الاحسانات وتشديد المآوي للعجزة والملاجيء للأرامل وتربية اليتام. فألقت الدولة على عاتقها عمل برّ لم تعره يوماً أهمية جدية: اذ ان مشروع «التغذية» نفسه الذي تحقق في عهد ترائانوس كان يستهدف غاية أخرى. وقدمت النصرانية للعالم القديم مفهوماً جديداً هو مفهوم التقوى الفاعلة، فجعلت منه الكنيسة حقيقة واقعة في مجتمع شكا من جروح كثيرة: وقد قدر القديس يوحنا فم الذهب مسيحيي القسطنطينية، دون المهرطقة، بـ ١٠٠.٠٠٠ كان نصفهم من الفقراء، أي ممن تؤدي لهم الكنيسة المساعدات.

كانت هذه الثروة متنوعة الاشكال. فقد ضمت العبيد. أجل لم تبتعهم الكنيسة ابتغاءاً، ولكنها كانت مسكة في اعتاق من تحصل عليهم من اسيادهم أو من يولدون في كنفها. فهي قد اصدرت حكمها، كما رأينا، لا على الرق كنظام، بل على اولئك الذين اغضبهم وجودها؛ وقد حاول القديس اوغسطينوس تقديم الدليل على ان الشريعة الموسوية، التي أوجبت تحرير العبد اليهودي في اول السنة السابعة من عبوديته كابعد حد، لا يمكن تطبيقها على المسيحيين. وامتلكت الكنيسة كثيراً من الأراضي ايضاً: وما لبثت ان اصبحت اهم ملاك عقاري في الامبراطورية، بعد الامبراطور والدولة. غير ان وجود هذه الممتلكات قد خلق معضلة الواجبات نحو الدولة. فلما كان من غير المعقول ان تضعف الدولة، اخضعت الاملاك الكنسية للموجبات العامة التي تناولت الاملاك الامبراطورية نفسها. وقد برز في كثير من المدن «المدافع عن الكنيسة» وهو مماثل «للمدافع عن المجلس» و «المدافع عن المدينة»، الذي يتولى المشورة والدفاع في علائق الكنيسة بالادارة. وقدمت الكنيسة المجندين للجيش. ورفضت الدولة الاعفاء من الضريبة الشخصية وحتى من الحجز لمصلحة الجماعات حين تكون الممتلكات موضوع مثل هذا الحجز: فقد تخلى القديس اوغسطينوس باسم كنيسته عن هبة محمول احد الزوارق خوفاً من الكوارث التي قد يترتب عليه الاشتراك في تحمل مسؤوليتها. واكتفت الدولة بالاعفاء من التسخير الذي سبق للاشراف والاكليروس ان افادوا منه.

لا يظهر دور الكنيسة الاقتصادي في مصادرها الا بوجود موازنة البر والقوانين الجبائية. ويوسفنا في الحقيقة الا نعلم عنه اكثر من ذلك، اذ ان هذه القوة لم تبق دون اثر في المجتمع العلماني كما نرجح. بيد انه يجوز لنا التساؤل عما اذا لم يسهم سوء ادارة هذه الاملاك، كما نقدر، في تدني انتاج عام لم يكن يوماً فائضاً. ويغلب ان نتائجها قد انضمت الى ما هو طبيعي وعادي دون ان يستطيع احد تحديده عددياً: اعني به الاقتطاع الذي حصل، بفعل تزايد عدد افراد الاكليروس، - في الوقت نفسه الذي رفعت فيه ادارة الدولة عدد موظفيها - من مجموع الطاقات

البشرية المنتجة الموجودة في الامبراطورية ، وهو مجموع لم يكن قط فائضاً ايضاً .

ان هذه الملاحظة ، التي قد تظهرنا بمظهر من يعود الى رأي طلعت به الفولتيرية ،
التنسك والترهب
وأفاد منه بعض المسؤولين المستبدين ايا افادة ، تؤدي بصورة طبيعية جداً
الى بحث بعض مظاهر الحياة الدينية التي ابعدت بعض المؤمنين ابعاداً تاماً عن النشاط العام :
التنسك والترهب .

ظهر كلاهما في مصر في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع وعرفا في البداية نجاحاً
عظيماً في الشرق . ليس من السهل تحليل اصولها واسباب انتشارهما . بيد انه يستحيل الا نرى
فيهما نتيجة لحرارة صوفية راسخة في هذه المناطق : وقد سبق للنصرانية ان اكتشفت فيها ،
لدى سكان الأرياف ، بيئة انتشار مؤاتية قل نظيرها ، حين خرجت من المدن في القرن الثالث
واعتمدت في وعظها اساليب الكلام البلدية الغريبة عن النخب المثقفة . غير ان الصوفية والتكشف
لا يستوجبان مغادرة المنزل : فقد عاش الكليونيون اليونانيون في المدن . فنحن نرجح ان بعض
الاعمال التي حققها « مصارعو الايمان » بتسابقهم في هذا الحقل كان من شأنها ، لو اتسمت بمزيد
من الصعوبة ، ان تتسم بمزيد من الروعة . اما الحقيقة فهي ان هذه الحركة ، التي انطلقت من ادنى
الطبقات الاجتماعية ، كانت بمثابة احتجاج على التسويات الرسمية والزمنية التي فرضها على
الكنيسة انتصارها . فيجب من ثم ان نحتز من اسم « الفارين » الذي اطلق بسرعة على
المنفردين : فهو يمثلهم بولئك الهاربين الذين حاولوا في مصر ، منذ القرن الثالث قبل المسيح ،
التخلص من الاقتسارات الادارية بالابتعاد عن المجتمع العادي . بيد ان فكرة الثورة الفردية
والسلبية نفسها ، وهي تتجلى في التضحية بكل ما يعلق عليه الرجل المتوسط تلك القيمة
العظمى ، قد أوحى بهذه الاحتجاجات التي لم تختلف عن الاحتجاجات الاخرى الا بايمانها الذي
اعطت عنه برهاناً باهراً . وما هي ، بهذا الصدد ، بين اليأس والأيمان ، العاطفة التي تنبثق من
الاخرى أو العاطفة التي تساند الاخرى ؟ وباية نسبة يحل الأيمان محل اليأس ، اما في التطور
الداخلي لكل شخص ، واما في اساس قراره بالذات ، بفضل قوة المثل ؟ فيتضح بالتالي ان كل
حالة تشكل مسألة خاصة ، كما يتضح ايضاً ان هؤلاء الرجال لم يهتموا لايضاح سيكولوجيتهم
الفردية للأجيال الطالعة : اذ ان كثيرين منهم ، ابتداء من القديس انطونيوس ، كانوا اميين .
أعطى المثل القديس انطونيوس الذي قصد ، حوالي السنة ٢٧٠ ، الصحراء الى الجنوب
الشرقي من الدلتا حيث عاش حياة حرمان وصلاة مقاوماً تجارب الشيطان . ثم أرغمه اقبال
المقتردين به من المعجبين على الابتعاد نحو البحر الاحمر بحثاً عن خلوة هادئة . وعندما ادركته
المنية ، بعد ان تجاوز سن المائة ، في اواسط القرن الرابع ، كانت معجزاته وتقواه قد أعطته
قداسة احترمها واعترف له بها قسطنطين واولاده انفسهم ؛ وقد كتب ترجمته القديس اثناسيوس
الذي كان هو قد ايدته في صراعه الحاد ضد الآرية ، فانتشرت في جميع أنحاء الامبراطورية
وقراها الكل بشغف . ولكن الصحراء ، منذ قبل وفاته ، قد أهلت بالنسك ، اما في جوار

انطونيوس ، واما غربي النيل في وادي نيتريا . فكان فيها ، حتى قبل وفاة قسطنطين ، عدة آلاف من النساك لا يجتمعون إلا يوم الاحد للخدمة الإلهية ، ويعيشون في قلال صغيرة ، متبارين في الاعمال التقشفية الرائعة : فان مكاربوس مثلاً ، الذي كان يقضي الليالي منتصباً على قدميه ، لم يقفل عينيه طيلة اربعين يوماً ، وبقي سبع سنوات دون ان يأكل غذاء مطبوخاً . كان هؤلاء رهباناً بكل ما في الكلمة من معنى ، أي اشخاص « منفردين » لا يخضعون إلا للالهام الشخصي في مسلك حياتهم . وقد أسس مصري آخر هو القديس باخوميوس ، قبيل هزيمة ليسينيوس ، ما أطلق عليه خطأ اسم « الدير » بينما هو « الحياة المشتركة » بالضبط ، وذلك الى الغرب من طيبة في مصر العليا . وما لبثت هذه المؤسسة ان ضمت أكثر من ٢٠٠٠ رجل . ثم تأسست لها فروع في أنحاء مختلفة : فعند وفاة باخوميوس في السنة ٣٤٦ ، كان هناك تسع جمعيات للرجال واثنتان للنساء . اما النظام المكتوب الذي وضعه المؤسس لهذه الجمعيات ، اذا ما استثنينا منه بندي الانفراد والفصل بين الجنسين ، فلم يكن صارماً جداً : الزام باستظهار العهد الجديد والقيام ببعض الاعمال ، وحرية في المأكل والمشرب . ولكن أنظمة أخرى ، في مصر نفسها ، كانت اشد صرامة .

اقتدي بهذه الممارسات التقوية في كل مكان ، وفي آسيا في الدرجة الاولى . فكان هنا ايضاً زهاد أثاروا الدهشة بتجدهم وابتكاراتهم التقوية . ولكن واحداً منهم لم يتفوق على القديس سمعان الذي ترك ، في اوائل القرن الخامس ، احد الاديرة حيث طلب اليه الاعتدال في امارة نفسه ، وارتأى ان يقيم على عامود مبني ، على مقربة من انطاكية ، لم ينزل عنه إلا ليعطي عواميد اخرى تزداد كل مرة ارتفاعاً ، آملاً بذلك تجنب مضايقات الجماهير الآتية بأعداد غفيرة بغية التطلع اليه والتأمل به : وهكذا ارتفع ، خلال ٣٧ سنة ، من ثلاثة امتار الى ١٨ متراً عن الارض . واقتدى به « عاموديون » آخرون ، كما قام « الشجريون » الذين اعتلوا الاشجار ، و « البشريون » الذين اقاموا في قعر الآبار ، الخ . اما في الاديرة فان القانون الذي وضعه القديس باسيليوس حوالي السنة ٣٦٧ هو الذي عرف أكبر نجاح : وقد أخضع فيه الجمعية لسلطة الرئيس المطلقة وقسم اوقات الرهبان بين العبادة والقراءة والعمل ، لا سيما العمل الزراعي . ثم انتقل هذا القانون الى البلقان حيث لا يزال معمولاً به في اديرة العالم اليوناني والسلافي .

وأسس بعض اقبية الغرب ، من امثال القديس ايرونيوس في بيت لحم ، والقديسة ميلانيا القديمة ، عدداً من الاديرة في فلسطين . وفي النصف الثاني من القرن الرابع ، ظهرت فيها الحياة النسكية ايضاً ، وكانت الغاية منها تنظيم الحياة المشتركة للاكليروس أولاً ، وابتعاد رجال الدين عن اهواء الجليل ثانياً . ولكن سيطرة هذين النظامين لم تحل دون تنوع الحياة النسكية كما يتضح من الجمعيات التي أسسها القديس مارتينوس .

يبدو ان الاهالي قد نظروا ، في كل مكان ، بعين راضية معجبة الى هذه الحركة وما رافقها من قضايات طوعية دائمة . وفي مصر وسوريا بنوع خاص ، اسهم الرهبان ، الذين انتموا بمعظمهم الى اوساط ريفية وضيفة لم تتسرب اليها اللغة اليونانية ، في نهضة اللغات القومية

المنحطة . فبرزت في اللغة القبطية ، وريثة اللغة المصرية الشعبية القديمة ، معالم ادب جديد كان باعته الاول شنودي ، زئيس « الدير الابيض » الذي كان قد اسسه في منطقة طيبة واخضعه لنظام اشد صرامة من نظام باخوميوس . وكانت الحياة النسكية عوناً للغة السريانية ايضاً ، وهي وريثة اللغة الآرامية ، التي كانت صائرة الى الزوال في مناطق الغرات . لذلك فان الحياة النسكية هذه ، اقله في هذا العهد ، لم تخدم قضية الحضارة التي كان على الامبراطورية الدفاع عنها . وفي اغلب الاحيان ايضاً ، عبر الرهبان عن الفطرة الشعبية وخدموها بمساندتهم النصرانية على الوثنية وعقيدة جمع نيقية على الآرية . ولما كانوا سريعي التأثير والانفعال ، فقد كانوا يتركون عزلتهم أو يخرجون من بعض الأديرة ، بالاتفاق مع رئيسهم أو بأمر منه احياناً ، ويحتمعون زمراً في المدن . فقد اشتركوا ، لاسيما في الاسكندرية حيث جعل منهم الاتفاق بين انطونيوس واثناسيوس ادوات طيبة في يد الاسقف ، في اكثر من عمل شغب عنيف . وكانوا في مثل هذه الظروف يتسلحون بالعصي وينشدون الاناشيد .

لذلك لم يكن باستطاعة الدولة ان تشعر لمحوم باي عطف . ولكنها ، على الرغم من ذلك ، قلما تجاسرت على محاولة اخضاعهم لقانونها . وقد وجب ان يستلم الحكم امبراطور آري ، هو فالنس ، كي يأمر بالبحث بينهم عن « الممثلين » الهاريين لاعادتهم الى مدنهم الاصلية وبفرض الخدمة العسكرية على نساك نيتريا بعد اصطدامهم بالجنود : ولكن هذا التدبير لم ينفذ . ولم يبسط ثيودوسيوس نفسه ، بعد اصلاح ذات البين بينه وبين القديس امبروسيوس ، في الغناء قانون يحرم على الرهبان الاقامة في المدن ، كان قد اصدره منذ اشهر قليلة .

كان امبروسيوس ، في عاربة الآرية ، حليف اسقف الاسكندرية الذي كان يعرف كيف يستخدم سجنهم نفسه . لذلك فقد نظر اليهم بعين راضية . ولكن اساقفة آخرين كثيرين قد وقفوا منهم غير هذا الموقف لانهم لم يرضوا عن سجنهم وعن احتقارهم للسلطات الكنسية الرسمية . وفي اعقاب حوادث متكررة - لم تخل منها غالباً نفسها بعد وفاة القديس مارتينيوس - في الشرق اولا ثم في الغرب ، التأمت بعض المجالس في اواسط القرن الخامس واخضعت الاديرة لرقابة الاسقف الشديدة : فحلت بذلك معضلة كانت مدعوة لأن تثار مراراً فيما بعد . لا ريب في ان الحياة النسكية قد زخرت باعمال تقوى تثير الاعجاب ، ولكن المسؤولين عن السلطة قد شعروا بحاجة الى ضبط هذه الحرارة التي كانت تخفي رواسب كثيرة من الفوضى التي ميزت عامة الشعب في السابق .

هؤلاء المسؤولون هم الاساقفة . فالكنيسة ما زالت منظمة كنائس مختلفة الاسقف وكنيسة توافق كل منها مدينة من المدن . وقد أدت الى هذا النظام قرون من الحضارة والادارة افرغت في هذا الاطار حياة رعايا الامبراطورية . اما عند البرابرة الذين حافظوا على تنظيمهم القبلي ، فالاسقف يعينه رئيس القبيلة ، لا المدينة . وقد تقوم في ارض هذه الاخيرة معابد كثيرة ، وقد حدث ذلك بسرعة بسبب ارتفاع عدد المؤمنين . ولكن كل هذه

المعابد تخضع له وحده . اجل لقد حصلت بعض الخلافات بين الاساقفة وبعض كبار الملاكين الذين يخصصون في املاكهم بناء للعبادة ويحاولون ، شأنهم في شؤون ادارية كثيرة ، تجاهل المدينة ، ولكن الغلبة كانت للأساقفة في النهاية .

فهم يمينون ويدبرون اكليروساً مطرد الزيادة يضاف اليه عالم اكليريكي أكثر عدداً ايضاً غير واضح المعالم احياناً : فان قراء العزائم مثلاً ، الذين يلعبون دوراً في الاعداد للعمودية ، قد اعتبروا اكليريكيين في الغرب دون الشرق . ولهم ديوانهم وكتائبهم الشرعيون ورجال أعمالهم وقهارتهم . يستشيرون سوامهم ولكنهم ينفردون في اتخاذ مقرراتهم ، والكاهن الذي لا يخضع لهم انما يرتكب خطأ معترساً . يحظون بأيد الحكومة ، أي الادارة ، إلا في بعض الحوادث الفردية . ونحن لن نعود هنا الى تدخل السلطة المدنية ضد الهرطقة والملاحدين ، ولا الى تنازل قسطنطين عن قسم من السلطة القضائية للأساقفة . ولكن هذه التدابير قد رفعت من شأن سلطتهم الادبية التي كانت عظيمة جداً على المؤمنين والتي أيدتها سلطة اقتصادية متزايدة . فلا عجب والحالة هذه اذا أصبح الاسقف رئيس المدينة حين اضمحلت الامبراطورية في الغرب . لم يلف هذه السلطة المطلقة إلا الرأي العام . فهذا الأخير يبرز حين تعيين اسقف جديد ، وهذا الحدث ، بفعل سلطة الاسقف بالذات ، اهم من ان يقص عنه المؤمنون . يقترح على « الشعب » احد الاسماء بعد التشاور بين أساقفة الجوار والاكليروس المحلي ، فتقوم المناداة به مقام الانتخاب ويسام المنتخب اسقفاً على يد احد الاساقفة الحاضرين . ولكن فقدان الانظمة القانونية يثير احياناً منازعات تؤدي الى الانشقاق والاصطدامات الصاخبة ؛ فقد سقط قتلى كثيرون حين عين داماز اسقفاً على روما .

لم يفرض أي شرط لشغل هذه الوظائف . اجل لقد تكلم البابا ، في عهد متأخر ، عن ٣٠ سنة لمنصب الشماس الانجيلي ، و ٣٥ للكهنة ، و ٤٠ للأسقفية ووجب التبتل في هذه الدرجات الثلاث . ولكن الخلافات كثيرة حتى في الغرب ، وهي أكثر منها في الشرق حيث اقتصر على تحريم الزواج بعد الحصول على درجة الكهنوت دون ابطال الزواج المعقود سابقاً . ولا يجوز القول بأن هنالك تالفاً في المناصب الكنسية . فاذا كان الاسقف قابلاً للعزل بقرار من احد الجامع ، فهو لا يستطيع مبدئياً مغادرة مدينته الى مدينة اخرى ؛ فقد حرّم ذلك مجمع نيقية ، وقد اضطر غريغوريوس النازينزي ، امام الانتقادات التي أثارها نقله من أسقفية أسبوية صغيرة الى أسقفية القسطنطينية ، الى تقديم استقالته والالتجاء الى خلوة قضى فيها ايامه الاخيرة . إلا انه يجوز اختيار الاسقف ، مهما كانت مرتبة اسقفية ، حتى من بين العلمانيين ، وحتى من بين العلمانيين غير المعمدين ، على الرغم من مقررات مجمع نيقية ومن اندثار العادة القديمة التي كانت تؤخر المعمودية حتى وقت الاشراف على الموت . فهذا الاسقف كان شماساً انجيلياً . واوغسطينوس ويوحنا فم الذهب كانا كاهنين ، ولكن الاول سم اسقفاً في هيبونا حيث كان كاهناً ، بينما انتقل الثاني من انطاكية الى القسطنطينية . وكان امبروسيوس حاكماً على ولاية ميلانو حين انتخب اسقفاً لهذه المدينة . اما الريني الكيريني سينيوس ، فان كثيراً من العلماء يشكون في انه

كان مسيحياً حين نزل عند الرغبة العامة ورضي بأسقفية بتوليبيدس . غير ان الشعب ، في أكثر الاحيان ، اعظم تأثراً ، لا سيما في الغرب ، بتقشف المنتخب وتقواه ومحبهه للقريب منه باستقامة إيمانه . ثم فعلت التأثيرات الاجتماعية أو السياسية فعلها بصورة تدريجية . فغدا حظ أبناء العائلات الكبرى في الفوز بمنصب الأسقفية عظيماً جداً . ولم تكن السلطة السياسية بالتدخل تدخلاً فقط في بعض الانتخابات ، بل فرضت فيها رأياً أحياناً ، كما فرضته دائماً تقريباً بصدد تعيين أسقف القسطنطينية بنوع خاص . فيوحنا فم الذهب مثلاً مدين لأفثروپوس ، مدير غرفة الامبراطور ، بوصوله الى هذه الاسقفية في السنة ٣٩٨ ، كما انه أقصي عنها بعد مرور خمس سنوات ، بتأثير من الامبراطورة .

بيد ان الكنائس ، صغيرة كانت أم كبيرة ، لم تكن منعزلة في حياتها الخاصة التي يشرف عليها اساقفة يتمتعون بسلطة مطلقة . فهي ، من حيث المرور كافة علائقها الخارجية بالاساقفة ، تعي انتماءها الى جسد واحد هو الكنيسة . أجل لقد جمع بينها ، منذ القديم ، الاتحاد في الايمان . ولكن العهد الامبراطوري الثاني قد أتى بشيء جديد هو احداث تنظيم تدريجي . لم تجمع القوانين بصورة نهائية بعد ، ولا يزال سير الآلة الطرية العود عرضة لصعوبات كثيرة . غير ان التطور التنظيمي قد ابتدأ ، مهما كان من غموضه ومن تقلب اتجاهه .

سلكت الكنيسة طريقاً تعودت سلوكها منذ القدم هي طريق المجامع : اذ ان الهيئة الأسقفية فوق كل اسقف . فالتأمت مجامع كثيرة متنوعة جداً من حيث السلطة التي تدعو اليها ، ودائرة الاختصاص التي توجه الدعوات في اطارها ، وعدد الاساقفة الذين يشتركون في هذه المجامع . وكان اهتمام الامبراطور فرصة لعقد المجامع المعروفة بـ « المسكونية » ، وهي قليلة على كل حال : مجمع نيقية في السنة ٣٢٥ ، ومجمع القسطنطينية في السنة ٣٨١ ، ومجمع افسس في السنة ٤٣١ ، ومجمع خلقيدونيا في السنة ٤٥١ . فهو الامبراطور الذي يدعمها لأنها بحاجة اليهم للفصل في مسائل عقائدية ، او للحكم على اسقف ذي نفوذ كبير . ويشترك في هذه المجامع أساقفة من خارج الامبراطورية : كالوفيل الذي توفي في القسطنطينية ، وبعض أساقفة الارمن والفرس ، الخ . ولكن هيات ان يجتمع كافة الاساقفة : فلم يضم مجمع القسطنطينية منهم سوى ١٥٠ فقط ، لم يكن بينهم أي اسقف غربي ، حتى ممثل البابا نفسه . وقد التأمت ايضاً مجامع اقليمية كثيرة متفاوتة أهمية . ولكن صغار الاساقفة لم يرضوا عادة عن مثل هذه المجامع ، لأنها تتدخل أحياناً في شؤونهم . إلا ان التثامها ما لبث ان اصبح تقليداً راسخاً . فاذا اخذنا بعين الاعتبار بعض التغييرات اللازمة ، اتضح لنا ، على الرغم من شتى ضروب الضغط ، ان شكل الحكم الجماعي هذا ، كان آنذاك ، في الكنيسة ، بفعل انتخاب الاساقفة ، أشبه بالحكم البرلماني : والفارق الهام بينها هو ان هذه المجامع لم تكن دورية .

وقد رافق شكل الحكم هذا شكل آخر غير جديد تماماً عرف آنذاك رؤساء الاساقفة والبطاركة انتشاراً عظيماً : سلطة فعلية وقانونية يمارسها بعض الاساقفة على أساقفة آخرين يصبحون مرووسيم . اما صلاحيات هذه السلطة فهي تصديق الانتخابات ، والتوبيخ ، والقضاء الاستثنائي ، والدعوة الى المجمع ، الخ . واما اصولها فمختلفة جداً ، وهي عرضة لتبدلات كثيرة بفعل حزم او ضعف الافراد ، وبفعل التطور في أهمية المدن ، ولا سيما أهميتها الادارية ، اذ ان للحكومة مصلحتها في إحكام تسلسل السلطة التي تسهل عمل رقابتها وضغطها اذا اعتمدت تقسيماتها الادارية الجغرافية نفسها . فلا سبيل من ثم لأن ندرس هنا هذا التطور المرتج ؛ لذلك فنحن سنقصر الكلام على نتائجها الرئيسية .

اخضع المجمع النيقاوي اساقفة كل ولاية لأسقف مركز هذه الولاية ، « رئيس الاساقفة » . غير ان هذه الدرجة لم ترد طابع الأهمية آنذاك ، بسبب تجزئة الولايات ، إلا في آسيا الصغرى . وكان هنالك تقسيم اداري آخر هو الأبرشية : وقد استطاع اسقف مركزه هنا وهنالك ان يحظى ببعض النفوذ ، وقد أطلق عليه احياناً ، في الشرق ، اسم « اكسارخوس » ؛ بيد ان كل ذلك لم يخرج في الواقع عن نطاق المصادفات والملاءمات .

اما المراكز الاسقفية التي انفصلت حقاً ، أي تلك التي اطلق على أساقفتها اسم « البطاركة » ، فمدينة بنفوذها وأولويتها الى أسباب اخرى . فكان الباعث الى ذلك في أغلب الاحيان ، أهمية المدينة المادية ، واشاعها على منطقة كاملة ، وقدم كنيستها ، وتأسيسها على يد أحد الرسل ؛ ولكن الرجال كان لهم أثرهم أيضاً . فان أسقف قرطاجة الذي لم يفز قط بلقب « البطريك » قد مارس مع ذلك سلطة لا جدال فيها على افريقيا . واعترف المجمع النيقاوي بمرتبة خاصة لاسقفي الاسكندرية وانطاكية : فكان الاول سيداً مطلقاً حقيقياً في مصر ، وبدا في بعض الظروف وكأنه يسيطر على الشرق بأكمله . وفازت اورشليم ، في القرن الخامس ، بالبطريركية . اما النجاح الذي يلفت الانتباه ، فهو نجاح القسطنطينية ، التي حالت بعض الأسباب دون ايراد ذكرها في نيقية في السنة ٣٢٥ . حرص الامبراطور على رفع مقام عاصمته . فاعترف لاسقفها ، منذ السنة ٣٨١ ، بالمرتبة الثانية ، مباشرة بعد اسقف روما ، ولكنه لم يفز بها ، في مجمع خلقيدونيا ، إلا بعد جهود شاقة وسلسلة من الأحداث الصاخبة .

لا يبقى أمامنا سوى اسقف روما .

البابوية

لم يكن ممكناً ان تنافس هذه المدينة ، بسبب أهميتها الواقعية ، أية مدينة اخرى . فان عظمتها التاريخية ، المرتبطة بفكرة الامبراطورية نفسها التي لم يزعمها غياب الامبراطور ، كانت آخذة بالازدياد : أضف الى ذلك ، على الصعيد الديني ، ان وجود مدفي القديسين بطرس وبولس ، والوعد الذي قطعه المسيح لبطرس مؤسس الكنيسة الرومانية ، قد أوليا هذه الكنيسة حقوقاً اخرى . فحق طالب أساقفتها بهذه الحقوق يا ترى ؟ ان المسألة موضوع

جدال . غير ان النصف الاول من القرن الثالث ، هو التاريخ الفاصل في هذا الموضوع ، ولا يعني ذلك ان مطالباتهم كانت شديدة دائماً . ولم ينكر أحد في الحقيقة اولوية البابا الشرفية - درجت العادة على اطلاق هذا الاسم عليه ، بعد ان اطلق على كافة الأساقفة في البداية - فقد اعترف له بها اعترافاً صريحاً المجمع النيقاوي وكافة المجمع المتعاقبة . ولكن شتان بين هذا الاعتراف وبين الخضوع له في العقيدة والنظام ، كالسماح له بأن يمارس فعلاً سلطة قضائية استثنائية : فكان هنالك ميل طبيعي الى الاستعانة بسلطته ، حين يرتقب المستعين وقوفه الى جانبه ، والى انكار قدرته على الفصل ، في الحالة المعاكسة . لذلك ستهز ، في وجه سلطته منازعات لا يحصى لها عدد .

برهن الشطر الاكبر من الغرب عن لين قياده بصورة عامة . ففي شبه الجزيرة الايطالية بنوع خاص شابهت سلطة البابا بقوتها سلطة اسقف الاسكندرية في مصر . أما في المناطق الاخرى ، كغاليا واسبانيا واليريا ، فقد تميزت العلائق ، من كلا الطرفين ، بمزيد من الدقة . ولا تعود اول براءة بابوية اصلية ، في المجموعات التي وضعت في القرون الوسطى والتي تتضمن نصوصاً مزورة كثيرة ، الى ما قبل السنة ٣٨٥ . وقد انطوت هذه البراءات ، وهي في الغالب اجابة على سؤال يتقدم به أحد الأساقفة ، على أنظمة عامة مبدئياً . ولكنها قد بقيت نادرة - ١٧ حتى آخر القرن الخامس - ولم يهتم بعض الأساقفة الغربيين للتقيد بها .

اما المسيحيون الافريقيون ، بقيادة رئيسهم اسقف قرطاجة ، فلم يترجعوا امام مشادات على بعض العنف في القرن الثالث أولاً ، ثم في القرن الرابع مرة اخرى . وقد أاثحت احدى هذه المشادات للقديس اوغسطينوس كتابة كلمته المشهورة : « تكلمت روما ، اذن انتهت الدعوى » . ولكنه ما كان ليكتبها لو ان البابا زوسيموس لم يحكم له في ما كان يدافع عنه ، ناقضاً حكمه الاول ونازلاً عند القرار الامبراطوري .

اذا كانت هذه حال الغرب ، فباستطاعتنا ان نتصور حال الشرق بسبب وجود البطريكيات العظمى والعناد الذي رافق المشادات العقائدية . فقد جرت حوادث مؤسفة جداً . وقد اعترضت البابوية عوائق كثيرة ، فكانت نجاحاتها بطيئة جداً ايضاً ، لا بل ليس من الجسارة انكار واقع هذه النجاحات . ومهما يكن من الأمر ، فان شيئاً نهائياً لم يتقرر في العهد الامبراطوري الثاني . وأكثر من ذلك ، فان نفوذ أسقفية القسطنطينية المتزايد قد اقام اخيراً ، في وجه اسقفية روما ، منافساً كانت القطيعة معه ، في غد قريب او بعد ، امراً محتوماً .

يرد ذلك الى العامل السياسي . فان امبراطور الشرق ، الذي اقام في القسطنطينية ، ومارس حيال الكنيسة ما درجت تسميته بـ « بابوية القيصر » ، لم يترك لأسقف عاصمته مزيداً من الحرية ، ولكنه ، بالمقابلة ، سيساند مقاومته لروما . وعلى نقيض ذلك ، فان ضعف امبراطور الغرب وبعده عن عاصمته ، حتى قبل زواله ، قد أعطيا البابا استقلالاً عملياً عظيماً : فان حزم القديس

ليون مثلاً (٤٤٠ - ٤٦١) قد صادف بالتالي ظروفًا مؤاتية . فهو انما فاوض اتيلا في السنة ٤٥٢ ، وجنسر يك في السنة ٤٥٥ ، بناء على طلب الحكومة ومجلس الشيوخ : وكان من سلطته الادبية انها فرضت نفسها حتى على البرابرة الوثنيين او الآريين وانه قام مقام الامبراطور الخائر . فغدا البابا رئيس روما في الوقت الذي غدا فيه الاساقفة رؤساء مدنهم .

لا ريب من جهة ثانية في ان تطورا مقابلا قد قلل من سلطته على الكنيسة في الشرق حيث لم تكن قوية في يوم من الايام ، وفي الغرب حيث ذهب اقتسام الامبراطورية بين عدة ممالك بربرية بالسهول التي وفرها له وجود ادارة مركزية .

ولذلك فان مستقبل البابوية لم يكن بعد واضح المعالم عند نهاية العصور القديمة .

الفصل الخامس

الفكر والفن

ان المقومات الثقافية في حضارة الامبراطورية الثانية ، اذا ما نظرنا اليها ككل ، لا تتسم في الحقيقة ، من حيث قيمتها المطلقة او النسبية ، بأهمية شبيهة بتلك التي تتسم بها حضارات أخرى في العالم المتوسطي القديم . ولكن هذا التفاوت محصور في الحقلين الفني والفكري . فالفكرة الدينية تم عن قوة حياة مدهشة ، ولا حاجة بنا للتشديد على الامة التي ترتبط ، في التطور العام ، بعهد يتسم بانتصار ديانة لا تزال حية في مئات ملايين النفوس حتى ايامنا هذه . وقد بلغ خلال هذين القرنين ، من المركز الذي احتله الواقع الديني ، ومن الدور الذي لعبه في الحياة الفردية وحتى الاجتماعية ، انه اتحد بيوهر مظاهرها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . فلا سبيل لادراك أي من هذه المظاهر بدونه . ولذلك فقد توجب علينا فيما سبق ، عند الكلام عنها ، ان نتطرق اليه وندرس بعض شؤونه وبعض نتائجه . وقد آن الوقت لأن ندرسه في حد ذاته .

١ - الفكر الديني

سنحت الفرصة أكثر من مرة ، في الفصول السابقة ، للاشارة الى التأثيرات التي كان الشرق مصدرها آذند . ولكننا اشرنا اليها في عداد تأثيرات أخرى دون ان نلحها في المرتبة الاولى . اما الحقيقة فهي انها تحتل هذه المرتبة دون منازع على الصعيد الديني . فقد كانت شرقية العبادات التي اضطرت النصرانية لمناهضتها حتى تتحقق لها الغلبة . وكانت شرقية الديانة المسيحية نفسها . ونشأت في الشرق المجادلات الدينية وما رافقها من مشاقات أرغمتها على التعمق في عقيدتها بالذات . وهل من سبيل ، والحالة هذه ، لأن نستغرب هذه الاولوية ؟ فلم يبق الشرق ارضاً دينية ، شأنه في السابق ، فحسب ، بل تغلب من جهة ثانية على الغرب بالحدافة الفكرية والسحر الجمالي ، والنشاط الاقتصادي ، أي بكل ما يجعل البشر جُسراً ومغامرين ومستميلين ومقنعين .

١ - الوثنية

لقد ظهر اثر الشرق ، فيما يعود للوثنية ، بصورة قوية جداً ، منذ العبادات الشرقية
الامبراطورية الاولى ، ونحن لن نرجع هنا الى الدلائل التي قدمناها على
ومذهب توحيد الآراء اسباب وميزات التيارات الكبرى التي احدثها فيها . ولكننا نقول انها
برزت في القرن الثالث بمزيد من القوة .

فالقرن الثالث هو الفترة التي عرفت فيها عبادات الآلهة الشرقيين منتهى نجاحها . ونذكر
على سبيل المثل أن عبادات ايزيس وسيبيل ولا سيما ميترا ، وهي العبادات الرئيسية ، قد بلغت
آنذاك أوج انتشارها الذي سهله لا تساهل الاباطرة فحسب بل مشايعتهم الشخصية ايضاً . ففي
السنة ١٩٧ أحيا سبتيموس ساويروس ، في مدينة ليون ، بتضحية ثور عظمى ، ذكرى انتصاره
على كلودئوس ألبينوس ، وشيد ابنه كركلا ، في روما ، هيكلًا لسيرايس ، وجهز معبدًا لميترا
في دياميس حماماتها العامة . وغدا لقب ميترا (المنيع) لقبًا من الالقاب الامبراطورية ، ويتضح
من كتابة رسمية تعود الى عهد ديوكليسيانوس انهم جعلوا من هذا الإله شفيع الامبراطورية .

وقد برز في القرن الثالث بمزيد من القوة ، ميل الى مذهب توحيد الآراء حظي بمساندة
السلطة . فمجسده ايلغا بال تجسيداً يستدعي السخرية باحتفاله بأبهة بزواج يعل حمص ، الذي
كان هو كاهنه الاكبر وحمل اسمه ، من سيلستيس أي تانيت التي استحضرها من قرطاج .
وكذلك فقد نقل الى المعبد الذي شيده لإلهه نارفيسا ، وتروس مارس المقدسة ، وكمبة الأم
العظمى ، أي سيبيل ، التي أتى بها مجلس الشيوخ من بستانوته الى روما ، في اواخر الحرب
البونيقية الثانية ، الخ . ولكن الواقع ، اذا ما وضعنا المستهجنات جانباً ، هو انهم قد رغبوا
في التقريب بين الآلهة فوق رغبتهم في الابعاد بينهم . ولعلتهم شعروا ايضاً بميل فطري الى ان
يقيموا ، في وجه إله المسيحيين ، إلهاً واحداً يجمع في ذاته كافة الطاقات الكونية . وبحسب
الفكرة التي كونوها عنه ، كانت الغلبة لهذا الإله الخاص او ذاك : كالشمس مثلاً ، اما باسم
ابولون ، واما مباشرة باسمها اليوناني هليوس ، او اسمها اللاتيني سول ، او كجوبيتر وسيرايس
وميترا . وقد يحدث ان تطلق عليه جميع هذه الأسماء في آن واحد . ومهما يكن من الأمر ،
فقد انتقلت الصفات الإلهية من لمعان وسيطرة على العالم كله ، ومناعة ، دون أي تمييز ، من هذا
الإله الى ذاك ، ونسبت في آن واحد الى الامبراطور نفسه الذي غدا تجسيداً لهذا الإله الكلي
القدرة على الارض .

لقد سبق ورأينا ان الحركة الفلسفية قد جارت هذه الحركة الدينية منذ زمن افلاطونية افلوطين
بعيد ايضاً . فقامت في القرن الثالث بآخر خلق عظيم طلعت به العبقرية
اليونانية في حقل برهنت فيه عن اخصابها : اعني به الافلاطونية الحديثة التي
رسم خطوطها في الاسكندرية امونيوس ساكس ، في اوائل القرن الثالث . وقد اتقنها ودرسها

في روما ، ما بين السنة ٢٤٤ والسنة ٢٧٠ تقريباً ، اغريقي من مصر هو افلوطين . فبرزت فيها نزعات العصر بالذات ، اي الحرارة المتهوسة والدعوة الى الرفق واشتراك عناصر نظريات اخرى بالجواهر الافلاطوني ، اي البيثاغورية والارسطوطاليسية والرواقية .

استحث افلوطين الفكر على ان يتصور ، بفعل جهد تجريدي جريء ، وحدة مطلقة تنبتق عنها كل الموجودات ، العقل والنفس والجسد ، وكأنها سلسلة انعكاسات يزداد ضعفها تدريجياً . ولم يكن للواقع الظاهر من اهمية ، في نظره ، الا بالترتيب الذي يدخله عليه كائن اول تنصهر وتنسق فيه كل الاشياء . فيمكن القول ، من ثم ، ان دافعاً داخلياً قد حدا به الى الوحدة الالهية . ولكن نظريته في وحدانية الكون قد انطوت على الوهية الكون ايضاً ، لا بل انها لم تتناف ونظرية تعدد الالهة . افليس الالهة جميعهم منبثقين عن الكائن ؟ اصف الى ذلك ان بين العالم الإلهي الذي تنتسب اليه الكواكب وبين العالم الأرضي جماً غفيراً من الالباسة ليس باستطاعة الانسان اهماهم .

انتهى تعليمه عملياً الى الحث على قهر النفس والتكشف أمام المحسوسات . فاذا ما اخفق الانسان في ذلك ، فان هذه النفس الخالدة تتجسد في الحيوانات ، لا بل في النباتات احياناً . واذا ما نجح ، فانها تشارك الكواكب نورها وتتلاشى في النهاية بذوبانها في الاله . ولكن النجاح منوط بالاختطاف الصوفي الذي يعطي وحده الالهام السماوي ويوفر رؤية السعادة الاخيرة الاكيدة ، ويتيح بالتالي الفوز بهذه السعادة . وهكذا فان الافلاطونية الحديثة قد صرفت العقل عن البرهنة ولم تلجأ اليها الا لدحض فعاليتها

لم يرض افلوطين الاعتراف بديانة لا تكون داخلية . غير ان الافلاطونية الحديثة ،
السحر بما انطوت عليه من تعليم حول الالباسة ومن تحللٍ عن العقل ، قد افضت الى نتائج بعيدة الاثر . فقد انضمت الى نزعات اخرى قديمة وكثيرة تمهدا واستغلها بمخرقون عديدون . ولم يؤمن الانسان يوماً ، اقله في العالم اليوناني الروماني ، بمثل ما آمن به في هذا العهد من تأثير القوى الخارقة عليه تأثيراً مباشراً يومياً ، اي العرافة والتنجيم والسحر والرقية .

بين المؤلفات الادبية التي عرفت مزيداً من النجاح حتى اواسط القرن الرابع ، « حياة ابولونيوس التيباني » التي وضعها معلم البيان فيلوستراتوس بناء على طلب جوليا دمنه امرأة سبتيموس ساويروس . فقد أظهر هذا البيثاغوري ، الذين عاش في عهد نيرون وسلالة فلافيانوس ، ليس فقط كزاهد يطبق المبادئ التي وضعها مؤسس المدرسة وعززها احياناً بالانقطاع عن أكل اللحم ، وارقداء الكتان الذي لا يداخله أي خيط من أضل حيواني ، والسير محتفياً ، وارسال لحيته وشعر رأسه ، والامتناع عن الكلام طيلة خمس سنوات ، والتجول في آسيا الصغرى وايران والهند ومصر قبل ان يقيم في روما حيث دعا الى عبادة الشمس وتعاليم حكمته ، بل كعجائبي ايضاً يجتريح المعجزات المدهشة وينفذ الى أفكار البشر الخفية ويفهم لغة البهائم وينبئ بالمستقبل ويشفي العرجان والعميان والمخلعين ويوقف الاوبئة والزلازل .

لنحو هذا الاتجاه انحرفت الافلاطونية الحديثة بتأثير من خلفي افلوطين في ادارة المدرسة ، بورفوريوس الصوري ، ولا سيما جبليكيوس السوري (من خلقيس) في عهد قسطنطين . فقد صادق جبليكيوس ممتنني علم « هتافات الغيب الكلدانية » . ودرجت عادة الكلام عن « السحر » بدلاً من « اللاهوت » الذي لم يف بالرام ، لأنهم لم يكتفوا بمعرفة الآلهة بل طمعوا بالعمل معهم وبواسطتهم وعلى غرارهم . فبرز كهنة أنشأوا « مختبرات » اخرجوا فيها مشاهد خادعة أذهلت المبتدئين بما تخللها من أشباح نورانية وموسيقى وأصوات غير مألوفة وروائح عطرية وأبخرة ، وظلال وتماثيل متحركة ، وأضواء متقلبة . ونحن نعرف أسماء بعضهم ممن كانوا ، في آن واحد ، فلاسفة وسحرة يتمتعون بكل سلطة وجاذب . ففي افسس ، علم مكسيموس ، في اواسط القرن الرابع ، أوليات اسرار هيكات التي تأثر بها الامبراطور جوليانوس ساعة إلحاده ، كما تأثر بالتفسيرات التي قدمت له عن هذه الطقوس وهذه الرموز . وقد عرف جوليانوس في اثينا ، بعد مرور عدة سنوات ، بريسكوس الذي كان شبيهاً بمكسيموس . وربطته بكليهما ، عندما أصبح امبراطوراً ، علائق صداقة كانت له جلية الفائدة : فعندما علم بدنو اجله اخذ يتحدث اليها ، من على فراش موته ، عن سمو عظمة النفس .

مارس جوليانوس عبادة ميترا ايضاً ؛ ففرش بالدم لمناسبة تضحية ثور ، وأشرك في اسرار ايزيس . يتضح من ثم ان الوثنية التي تخلت من أجلها عن المسيحية لم يجمع بينها أي جامع تقريباً — تقريباً فقط ، لأن اسرار الفسيس التي أشرك فيها ايضاً لم تخل من الانصار القدماء — وبين وثنية القرون الكلاسيكية العظمى التي ادعى هو الاعتزاء اليها . فقد كان قوام وثنيته دافعاً عاطفياً امام سر الطبيعة العظيم ، وقلقاً حيال خلاص نفسه واندفاعاً نحو سعادة الخلود السماوي . فستان بينه وبين بريكيليس واوغسطس وحتى مارك اوريل الذين اعتقدوا بالخرافات ، ولا ريب في ذلك ، ولكنهم وجدوا التهدة بالخضوع لنظام الكون ا غير ان وثنية جوليانوس هي وثنية عصره . فقد غدا اولو الفضائل العقلية ، من أمثال الابيقوريين ، نادرين جداً ، واخذ الناس ينظرون اليهم نظرم الى الملحدن .

الحضارة اليونانية والوثنية بيد ان جوليانوس والوثنيين المثقفين قد طمحوا الى الدفاع عن الحضارة اليونانية ، حتى بالخضوع الى هذه النزعات وباللجوء الى علوم السحر والتنجيم . ففي لغة الانجيل نفسها تظهر المضادة بين « هليني » و « يهودي » : ولم يكن المقصود آنذاك تعدد الآلهة والتوحيد بقدر ما كان جهل شريعة موسى او التقيد بها . فلم تقم المعادلة بين هليني ووثني إلا في العهد الامبراطوري الثاني ، وكان من استمرارها ان صفة « هليني » قد بقيت ازدرائية ، في البلاد اليونانية وفي لغة العهد البيزنطي وما بعده ايضاً ، حتى تحقق الاستقلال اليوناني في القرن التاسع عشر . وتأثر جوليانوس بنوع خاص على اعطائها هذا المعنى الذي اعتبره تقريباً اذ انه درج على تسمية المسيحيين بـ « الجليليين » قاصداً بذلك « البرابرة » بكل ما في الكلمة من معنى محقر .

غير ان قانونه حول المدارس ، الذي سنعود اليه ، قد أعطى فكرة واضحة عن هذا الاستعمال لكلمة « هيلني » . فليس هناك من مدلول عنصري او لغوي ، بل مدلول ثقافي فقط . وان ما ابتغى اثباته الوثنيون هو اخلاصهم لمجموع تراث اضطر المسيحيون لأن يميزوا فيه بين المبني الذي قد يثير اعجابهم والمعنى الذي يرغبون على ايماله . ومرد ذلك الى ان الميثولوجيا المبنية على مذهب تعدد الآلهة قد اشبعت الروائع الادبية والفنية ، مفخرة الحضارة اليونانية التي نشأت في اليونان وتبنتها روما . وكان باستطاعة الوثنية ، مها طراً عليها من تبدل ، ان تقبل بهذه الميثولوجيا التي هي جزء لا يتجزأ من تراث فريد لم ترفض منه شيئاً واعتبرت من ثم انسه وقف عليها .

وهذه لمعري هي الفكرة الوثنية بعد موت جوليانوس وبعد اخفاق آخر محاولة سياسية للتف الوثنيون فيها حول المقتصب أوجانيوس . غير ان الحكومة الامبراطورية اخذت على نفسها ، منعاً واضطهاداً ، - فقد صدرت في عهد فالنيس بعض احكام الاعدام - القضاء على هذه الفكرة . فبينما لا يزال الوثنيون المثقفون الاخرون مكبين على علم اللغات في الغرب ، نراهم ، في الشرق ، متغنين بماضي اليونان العلمي والفلسفي المجيد ، ولا سيما بافلاطون ، وبارسطو عرضاً . بيد ان الافلاطونية الحديثة قد واصلت تعاليمها ، بصورة علنية ، في مدرستين مشهورتين هما مدرسة الاسكندرية ومدرسة اثينا . ويندو ان الاولى ، وهي وريثة متحف البطالسة ، قد حادت عن المحرافات جبليكوس واهتمت بالعلوم ، اقله الرياضية منها . وخير من يمثل هذه المدرسة هيباتيا الحسنة والفاضلة ، ابنة الرياضي ثيون ومؤلفة بعض الابحاث الرياضية . فقد تعلمت عليها سينيزيوس ، الذي ما انفك ، على الرغم من سياسته اسقفاً ، يعتبر نفسه « فيلسوفاً » . ولكن شهرتها اغضبت زعيم المسيحية في مصر ، الاسقف كيرلسوس المتجبر . فحدث في السنة ٤١٥ ، في اعقاب اشتباكات لم يلعب الوثنيون فيها اي دور ، ان قبض عليها بعض المتجنين وقتلوا ضرباً بالقرميد ومزقوا جثتها واحرقوها ، فقرر هذا الاعتداء مصير مدرسة الاسكندرية . اما مدرسة اثينا فقد عاشت حياة اطول ، ولكنها لم تنفرد بشيء يميزها ، بل اكتفت بشرح اراء عظام المعلمين : امر جوستينيانوس باقفالها في السنة ٥٢٩ فلجأ اساتذتها الاخرون الى بلاد الساسانيين .

٢ - المسيحية

كان جوليانوس في عالم الأموات حين استجوبه غريغوريوس النازينزي قائلاً : « فما هو المبرر الذي يعطيك الحق ، دون غيرك ، في اعتبار نفسك هيلنياً ؟ » والواقع هو ان المسيحية نفسها قد أفادت من الفلسفة اليونانية نفسها .

كان على المسيحية ، كلما اتسع شعاع انتشارها ، واذا هي حرصت على ارضاء اوريجينوس ، طلبات المثقفين ، ان توضح وتنظم لاهوتها ، الشيء الذي يعني عملياً ادخاله في الاطارات الفكرية المحددة منذ زمن بعيد .

كانت المحاولة الجديدة الاولى في هذا الاتجاه محاولة مدرسة الاسكندرية التي انتصبت منافسة للتحف في اوائل القرن الثالث . دانت بنفوذها وأهميتها ، بعد القديس اكليمنضوس ، الى اوريجينوس الذي درس على امونيوس ساكس ووقف على دقائق الفكر اليوناني . كان ايمانه عظيماً ، فحاول ، انطلاقاً من تفسير الكتب المقدسة ، ان يدخل على العقيدة المسيحية عبارات توافق عادات الفلاسفة العقلية . وقد انطوت المحاولة على مزيد من المخاطر بسبب اطلالها على مذهب المعرفة وبسبب ايهام العقيدة في اول عمرها ايضاً . فاضطر اوريجينوس للدفاع مراراً عن وجهة نظره . وأرغمته الصعوبات المسلكية التي باعدت بينه وبين أسقفه لأن يقضي السنوات العشرين الاخيرة من حياته خارج الاراضي المصرية ، لا سيما في قيصرية فلسطين . اجل لم يصدر الحكم على بعض تعاليمه إلا بعد وفاته بزمان طويل ؛ ولكنه قد صدر اخيراً .

ما لبثت هذه الجهود التي بذلت لتحديد اللاهوت المسيحي وتنظيمه ان اسفرت
مسألة المسيح
عن مسألة عقائدية خفيفة هي مسألة العلائق بين الآب والابن اللذين هما اقنومان الهيان متحدان ومتميزان في آن واحد .

اوقفنا بعض البرديات المنشورة حديثاً على الخطوط الكبرى لجدال حاد اشترك فيه اوريجينوس ، حوالي منتصف القرن الثالث ، في الولاية العربية في الارجح . وقد بلغ منه في حثي الجدال ان قال : « نحن نعلم بأن هنالك إلهين » . وكان قصده في ذلك الوقوف في وجه آراء مختلفة صادفت نجاحاً كبيراً في آسيا كانت تستهدف ، قبل أي شيء آخر ، الحيلولة دون تهشم الوحدة الإلهية . اما سابيلوس فقد اعتقد بأن الإله واحد وبأنه كل ، وبأن الروح القدس والمسيح ليسا سوى خاصياته ، وبأن هذا الاخير بنوع خاص ليس سوى الاسم الذي أطلق على مجيئه وعلى ما صنعه على الارض لأجل خلاص البشر . وعلى الرغم من الحكم على تعليمه بالهرطقة ، فقد ترك هذا التعليم أكثر من أثر في بعض الازدهان في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع . أضف الى ذلك ان حلولاً أخرى كثيرة وجدت من يناصرها ؛ ويكفي ان نذكر بينها ، على سبيل المثال فقط ، مذهب التبني الذي رأى في المسيح انساناً تبناه الله وأسكن فيه كلمته . كانت هذه فاتحة الجدال حول مسألة المسيح ؛ وسيقتضي لا قفاله قرون عدة .

وهكذا فقد قدم آريوس ، قبيل فتح قسطنطين للشرق ، وخلال الجدال الذي قام بينه وبين اسقفه الذي اتهمه هو بنصرة مذهب سابيلوس ، الخطوط الرئيسية لمذهب وضحه في وقت لاحق حين التجأ الى آسيا ، حيث تابع مجادلة التي لا تزال معروفة باسمه : ان المسيح الذي دتسه الجسد ، وخضع للموت ، أبعد من أن يكون إلهاً أزلياً ؛ فقد خلقه الله وسيطاً بينه وبين الأرض من مادة تختلف اختلافاً كلياً عن مادته . تلقى هذا الكاهن الاسكندري علومه في انطاكية . وتميز بعارف لاهوتية وفلسفية غير عادية ؛ وباستطاعتنا أن نظهر أوجه التشابه بين حلّه والحل الذي قدمته الافلاطونية لمسألة العلائق بين الكلمة والإله الخالق . ومهما يكن

من الامر ، فانه قد برهن ، في الدفاع عن آرائه وفي بثها ، عن حذاقة جدلية ، وقريحة رشيقة ، جعلتا منه ابناً للحضارة اليونانية ايضاً .

القضية الآرية حين أعيد له اعتباره ، بعد الحكم عليه في مصر ، بقرار من مجمع محلي التأم في آسيا الصغرى ، كان ذلك تكريساً لقيام المشادة الآرية الكبرى . فطوال القرن الرابع كله تقريباً ، مزقت هذه المشادة الكنيسة ، بل مزقت الامبراطورية نفسها أحياناً ، كما سبق وقلنا ، اذ ان تهور قسطنطين قد جعل السلطة العلمانية تشترك في النزاع . ويبدو راجحاً على الأقل ، من جهة ثانية ، ان تدخل الدولة ، الذي أضر كثيراً براحتها ومصالحها ، قد خلّص في النهاية وحدة الكنيسة التي كانت آنذاك أعمق انقساماً من ان تتغلب على انقساماتها بوسائلها الخاصة . وقد رافقت هذه المشادة الطويلة حوادث ذات طابع سياسي أو اداري لا يحصى لها عد . أما تلك التي أثارها تحديد العقيدة تحديداً ملزماً ، فلا ريب في انها أقل عدداً ، ولكنها على كل حال ، اكثر عدداً واشدّ تعقيداً وأعمق بحثاً لاهوتياً من ان نتعرض لها هنا ببعض التفصيل .

بدا التحديد الذي أقره المجمع النيقاوي في السنة ٣٢٥ وكأنه تسوية نهائية : الإبن مولود غير مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر (جوهر واحد *Homoousios*) : ولكن مقاومة الآريين ، جدّدت النقاش وأطالته ، لا سيما بعد ان حظوا بمعضد الامبراطور قسطنطين الثاني . وانتهى الأمر بهم الى الانقسام شيعاً عديدة . فقبل البعض منهم ، وهم المعتدلون ، بتحديد المسيح « مساوياً للإله في الجوهر » ، لا سيما وان الصفة اليونانية *Homoios* نفسها تحمل تفسيرين : اما « مماثل » وإما « شبيه » . أما البعض الآخر ، وهم المتطرفون – وقد عطف عليهم قسطنطين في النهاية – فقد رفضوا التشابه ، وقالوا بدونية المسيح المطلقة . فالتأمت بعض الجوامع في سيرميوم في السنتين ٣٥٧ و ٣٥٨ ، وأقرت على التوالي ، تحت ضغط الامبراطور ، ثلاث صيغ تتفاوت تطرفاً ، ثم ابتدعت صيغة رابعة في السنة ٣٥٩ . ولعل الارثوذكسية (الرأي القويم) لم تحقق الغلبة في النهاية إلا بفضل اغتصاب جوليانوس الذي أتاح لها أن تتنافس الصعداء على الأقل .

المهرطقات الاخرى عاد المجمع المسكوني الثاني (القسطنطينية ، في السنة ٣٨١) ، في جوهر مقرراته ، الى قانون المجمع النيقاوي . وهكذا غدا هذا القانون قانون إيمان الكنيسة الكاثوليكية . ومع ذلك فلم يكن الفصل في مسألة المسيح الا فصلاً جزئياً ، فقد برزت فيها نواح اخرى وما لبثت ان تعمقت بمسألة مريم « والدة الاله » وكان المجمع نفسه قد حكم على مذهب انكر كمال ناسوت المسيح الذي لا يمكن ان يتفق وكال الوهيته . فأنشأت مناقشات ستفضي في القرن الخامس الى نشأة مهرطقات كثيرة نكتفي بذكر اهمها : النسطورية المدعوة لحياة طويلة ، ان لم يكن في الامبراطورية ، فاقلة في سوريا وبلاد ما بين النهرين ، وحتى التبت ومنغوليا ، ومذهب الطبيعة الواحدة . فيتضح بالتالي ان توضيح العقيدة كان آخذاً بالتقدم البطيء في وسط المنازعات الحادة .

اجل حادة ، ولكن في الشرق خصوصاً ، حيث امتدت الى الشعب نفسه مثيرة في بعض الاحيان ، بفضل تأثير الرهبان ، اضطراباً على جانب كبير من السجس . اما الغرب فقد كان

أكثر هدوءاً . فعلى الرغم من الدور الذي لعبه في النزاع الآري بعض البابوات واسقف بواتيه ،
القديس هيلاريون ، واسقف ميلانو القديس امبروسيو ، فمن الجلي ان المعنى الحقيقي لهذا
النزاع قد فاق اكثرية المؤمنين ومعظم الاساقفة تقريباً الذين اعوزتهم قرون من الحداقة الفلسفية
التي اعطت ثمارها آنذاك في ذهن الشرقيين .

لم تبرز حينذاك هرطقات كثيرة في الغرب . برزت اثنتان منها حول قضايا مسلكية
واخلاقية : الدوناتية التي نجمت عن آراء متباعدة في السلوك الواجب اعتياده حيال اولئك
الذين تراخت عزيمتهم أمام الاضطهاد ، وتحولت بسرعة الى نزاع اجتماعي الطابع ، والبريسليانية
التي نادى بصوفية متقشفة . ولم تداخلها الا في عهد لاحق ، اي في اوائل القرن الخامس ،
المسألة العقائدية : مسألة الخطيئة الاصلية والنعمة ، وقد وقف القديس اوغسطينوس فيها موقفاً
شديداً ضد البلاجيانية التي حكم عليها في النهاية . فجلي ان هذه الهرطقات ليست شيئاً يذكر
اذا ما قورنت بالمناقشات حول المسيح التي اتصفت بمزيد من الحرارة والعنف في الشرق . اضعف
الى ذلك ان الشرق ، على تحمسه لقضايا العقيدة ، قد عرف في الوقت نفسه ، اكثر من الغرب ،
شيئاً تتصرف في حياتها اليومية تصرفات تتفاوت تشدداً في الأمور الأخلاقية : فظهرت قوة
نسفه الديني في النصرانية ، كما ظهرت من قبل في الوثنية .

من النافل تعداد هذه الشيع : اذ ان واحدة منها لم تنتشر انتشاراً واسعاً . اما
المانوية فقد عرفت انتشاراً اوسع . ولكنها لم تكن مسيحية المنشأ ، واذا
احصاها اباطرة القرن الرابع بين الهرطقات التي حكموا عليها في قوانينهم ، فرد ذلك الى انها
قد جمعت اتباعها من بين المسيحيين ايضاً .

تأسست حوالي السنة ٢٤٠ في بلاد بابل على يد ماني - اما مانيشه فتعريف للتسمية
السريانية « ماني الحلي » - احد رعايا الملك الساساني الذي عاقبه بالموت في السنة ٢٧٧ وربما
علق جثته المحشوة مؤصفاً عند مدخل احدى المدن . اقتبست هذه العقيدة عن المادية الايرانية
فكرة ثنوية اساسية هي التضاد بين الخير والشر . ولكنها جمعت الى هذه الفكرة عناصر
اخرى بوذية ومسيحية ومعرفية . قالت بنهاية العالم وأوصت ، انسجماً مع هذا القول ،
بالامتناع عن خدمة الدولة وبالعفة عن طريق رفض الزواج . وقد قام على ادارة شؤون اتباعها
كهنة منظم المراتب يضم « المختارين » الذين « يصنعون الخير » ، و « الكهنة » و « الاساقفة » ،
و « الرسل » ، ورئيساً اعلى .

منذ عهد باكر جداً ، وحتى قبل معاوية ماني بالموت ، انتشرت الدعاوة المانوية خارج المملكة
الفارسية . فمن جهة بلغت الهند وآسيا الوسطى حيث اصبحت المانوية في تركستان دين الدولة
في القرن الثامن ، وانتقلت من جهة ثانية ، بواسطة العرب ، الى مصر حيث كانت نجاحاتها امراً
واقعاً حين قام ديوكليسيانوس بمحلمته . وامتدت بعد ذلك الى آسيا الصغرى وافريقيا واسبانيا
وابطاليا ، على انها لم تعتمد في هذه المناطق اطارات ضيقة من المطلعين على اسرارها . فأصدر

الاباطرة المسيحيون ، بعد قانون ديوكليسيانوس ، اوامر عدة باضطهادها . ولكن الاضطهاد لم يسفر عن نتيجة في البداية : والدليل على ذلك ان القديس اوغسطينوس ، قبل اعتدائه ، كان مانويا في افريقيا وفي ايطاليا بكل طمأنينة . الا انه اصبح اعظم فعالية منذ اواسط القرن الخامس ؛ وعلى الرغم من ذلك ، فلعل حياة المانوية كانت اطول من حياة الامبراطورية من حيث انها وجدت وريثاً لها في هرطقة الانقياء الأليبيين (*Cathares albigensis*) .

على الرغم من الاضطرابات التي هزت المسيحية ، فقد انضم اليها باطراد
تكييفات العبادة
مسيحيون جدد كثيرون . غير ان تهافت هؤلاء لم يبق دون نتيجة .
والتحولات الاخلاقية
لا سبيل الى انكار الرواسب الوثنية في العبادة المسيحية . اجل لا يجوز
ان نجسمها او نعتقد خصوصاً بالابقاء عليها عن سابق قصد وتصميم . وبما لا ريب فيه ان
الاساقفة ، منفردين او مجتمعين ، قد قاوموها جهـد المستطاع ، واصمى اخفاءها والعود اليها
بالعار . ولم يكن القديس مارتينوس ، المتصلب جداً ، ممن يتساهلون مع الاصنام والخرافات .
ومع ذلك فان خير دليل على قوة العادات التي لم يستطع المسيحيون الجدد التخلص منها هو
التسليمات والتخيلات التي وجب القبول بها .

فرض هؤلاء المسيحيون اعياداً . فأحدث المرفع بتأثير من أعياد ساتورن واحتفل به بتاريخ
أعياد اللووبرك . ولما كانت بعض العبادات الوثنية تحمي ذكرى ولادة إلهها ، فقد توجب
احياء ذكرى ميلاد المسيح . وقد حصل بعض التردد في تحديد تاريخه . فاختاروا في البداية
اليوم السادس من شهر كان الثاني (يناير) الذي يوافق في مصر عيد ولادة الله ابن عذراء
ايضاً . ثم ما لبث هذا التاريخ في القرن الرابع ان اصبح تاريخاً لعيد الظهور (العباد) لأنت
الرومان فرضوا على كافة المسيحيين اليوم الخامس والعشرين من كانون الاول (ديسمبر) تاريخاً لعيد
الميلاد: فان هذا اليوم يوافق في نظرهم ، منذ القرن الاول قبل المسيح ، انقلاب الشمس الشتوي ،
وقد ارادوا ان يكرسوا للمسيح العيد الذي يحتفل به في هذا اليوم احياء لذكرى مولد الشمس .
وفرض الايمان الشعبي الابقاء على الاماكن المقدسة بما فيها الينابيع والبقع الجرداء في الغابة ،
النخ . كما فرض الملائكة والصور والتماثيل وتوبييع عبادة الشهداء وذخائهم .

ومن حيث ، ان عبادة الديانة الظاهرة توجهت منذئذ الى الجماهير ، بات من غير المقبول
احياؤها على غرار عبادة الفئات الصغيرة المزعمة على التخفي خشية من الاضطهاد . فأفضى ذلك
الى الفصل بين المؤمنين والاكليروس . وأحيطت العبادة خصوصاً بأبهة وفرتها لها ثروة الكنيسة .
فشيدت الكنائس الملكية ووسعتها وجلتها . واعتمدت طقوساً أكثر تدقيقاً . وأضافت الى
الصلاة والقراءات الروحية والتناول بعض العادات الخارجية ، كالآياعات والترانيم والموسيقى ،
القيمة بتغذية وتحريك حرارة الايمان في النخبة والسذج على السواء .

وهكذا استطاعت المسيحية ، بسنى مساكنها الالهية ونبل طقوسها وعظمة اعيادها ، ان
تقدم لمؤمنها فوق ما قدمته لهم الوثنية . واذا ما أتى بعض الآلهة بعود خلاص مماثلة لعودها ،

فان تعاليمها قد انطوت على شيء جديد على الاقل ، هو المحبة ؛ فما من قيمة للايمان ، في نظرها ، بدون الاعمال ، وقد سبق لنا ورأينا ان هذه الاعمال ، بفعل دعوتها ، قد تكاثرت بغية محاولة تخفيف الشقاء البشري . « فليبرهن كهنتنا عن محبتهم للقريب بأن يضعوا ، بطيب خاطر ، القليل الذي لديهم تحت تصرف المعوزين » . بهذا الأمر الذي اصدره الى الكهنوت الوثني ، أتى جوليانوس ببذعة جديدة اقتبسها عن المسيحية واعترف اعترافاً ضمنيّاً بتفوق الكنيسة التي ابتعد عنها . وانطوت بالاضافة الى ذلك على شيء جديد آخر دفع الى تمجيد البتولية ، ان لم يكن الى الحكم على الزواج ، هو جحد الدعارة والفجور . وأدت كذلك ، بعد فشل محاولة الاسكندر في ذلك الى نقصان مبارزات المسافين تدريجياً . ولا يمنع الابقاء على الرق من الخلو الى استنتاج واجب ، الا وهو ان الثورة الدينية قد رافقتها ثورة اخلاقية .

٢ - الحياة الفكرية

لا يسمنا القول ، على نقيض ذلك ، ان ثورة فكرية قد رافقتها ايضاً .

١ - الظروف العامة

ان التصميم على الاستمرار ، في شؤون الفكر ، يبرز بقوة في استمرار سحر الثقافة التقليدية تصرفات النخبة الاجتماعية .

غالباً ما ينحدر الاباطرة من طبقة أكثر اتضاعاً منها في السابق . ولكن هذا القول يصح خصوصاً في الكلام عن جنود سعداء وخشنيين هم الاباطرة الاليريون في النصف الثاني من القرن الثالث . فكلهم ، بعد غاليريوس ومكسيمينوس دايا ، ابناء اباطرة أو اقله أبناء ضباط من المراتب الرفيعة نسبياً . واسوة بما جرى في العهد الامبراطوري الاول ، كان مهذبو الامراء الحديثي السن من الاساتذة الذائعي الصيت . فقد طلب قسطنطين الى لاكتانس تهذيب كريسبوس ، وأتى فالنتينيانوس الاول بأوزون من « بوردو » الى « تريف » لتهذيب ابنه غراسيالوس ، ووكل ثيودوسيوس الى ثيمستسيوس أمر تهذيب ابنه اركاديوس . وأسوة بما جرى في العهد الامبراطوري الاول ايضاً ، توصل بعض الادباء الى المراتب الرفيعة وحتى الى مناصب الادارة . وخير مثل ، من هذا القبيل ، هو اوزون : عينه والد تلميذه كونتاً ووزير مالية البلاط ، ثم عينه تلميذه ، الذي أمسى امبراطوراً ، قنصلاً وقائد حرس في غاليا التي ضمت الى ايطاليا بهذه المناسبة ، بينما عين كافة أعضاء عائلته في وظائف مرموقة . واذا ما تركنا حالة جوليانوس طابعها الاستثنائي ، وهو من يستهويننا القول بأنه كاتب قبل كل شيء آخر ، لو لم يكن فوق ذلك فيلسوفاً صوفياً ، فاننا نلمس عند جميع اباطرة القرن الرابع عطفاً حقيقياً على النشاطات الفكرية . ولم يعبروا عن هذا العطف بأعمال يفيد منها بعض المحظيين دون غيرهم : فهم ، بدون استثناء ، قد أعفوا الاساتذة من فريضة التسخير ، غير انهم لم يدخلوا في عدادهم المعلمين الابتدائيين .

ليس الخطأ خطأ النظام اذا ما بدت لنا هذه النشاطات متوسطة الصفات . اجل كان للنظام مطالبيه ، ولم يترك مزيداً من الحرية . ولكن نظام الامبراطورية الاولى نفسه قد دعا الى امتداح الملك في خطب رسمية ، وبرع في اذلال المقاومة على صعيد الفكر اذا لمس ان لها أدنى انعكاس سياسي . فحدث الشيء نفسه آنذاك ، ولكنه اتصف بمزيد من القسوة في استجواب المشتبه بهم وفي اعدام المحكوم عليهم . ولعل نفوذ علماء البيان أتاح لهم اسداء النصائح العلنية بمزيد من الحرية ، وغالباً ما يخفي ذلك نقداً ضمنياً . فلنرى شيئاً ، « في تأبين تراجانوس » ، مما يستشف من الخطب التي وجهها ثيميستوس الى فالانس . وقد يشعر ليبيانوس ببعض المخاوف الشخصية في بعض محاولات الاغتصاب ، ولكن ليس ما يشغل منه الفكر حين يدافع عن المعابد الوثنية او ينتقد حق الحماية . اما في التاريخ ، حتى القريب منه ، فيبدو ان اميانوس ومرسلينوس يتمتع بحرية تامة في النقد والمديح .

لا يزال المثل الثقافي الاعلى ، في الحقيقة ، مماثلاً له في السابق . فعلى غرار ما حدث في النطاق السيامي والاقتصادي والاجتماعي ، تابع التطور سيره في الاتجاه الذي يمتد منذ زمن بعيد . أضف الى ذلك انه لم يطرأ عليه ، تحت تأثير صدمة الكوارث الزمنية ، ذلك الاستعجال العنيف الذي أفضى الى تصلب السلطة المطلقة وشجع الدولة على توجيه الاقتصاد واختار المجتمع . فالنبلاء المجلسيون ، في المقاصف ، ما زالوا يملأون أوقات فراغهم بالنوادر الفكرية والادبية ، على غرار ما كان يجري في عهد الانطونيين ، وكأنهم استمرار للعائلات الكبرى التي قضت عليها أعاصير القرن الثالث الثورية ، ومرد ذلك الى ان حداثة عهدهم في الغنى قد جعلتهم يتجهون بالاستئثار بأفضل التقاليد . وانا لنجد بين « اللامعين » ، كفتة الشيوخ الرومان التي شكلت في النصف الثاني من القرن الرابع ، حصن الوثنية المنيع في ايطاليا ، عقولاً رزينة وأدباء ظرفاء ومفسرين لروائع الادب اللاتيني يتحلون بعلم واسع . ولكن السيئات نفسها متاثلة ايضاً . فاننا نجد المتكلفين الذين يعتمدون طريقة الأشعار القصيرة وطريقة التقليد ، بصنعية هي أشبه بصنعية عهد هدرانوس . أضف الى ذلك ان المجتمع الرفيع كله قد اولع بالبيان . اجل ان الميل اليه قديم العهد ولكنه قد ازداد قوة . ولم يحتل في يوم من الايام المركز المرموق الذي احتله آنذاك : فليس من احتفال امبراطوري بدون خطبة أهبة ، وقد درجت الولايات على هذا التقليد بغية الاحتفاء بكبار الموظفين الذين يسارعون الى توزيع هذه المدائح . ولجأت الادارة احياناً ، لملء المراكز الفنية ، الى تعيين قدامى تلامذة معلمي البيان ، بعد عدة سنوات على الأكثر يقضونها في الحماية ويتعودون خلالها معالجة الشؤون المختلفة : وهذا دليل على الاعتقاد السائد بأن البيان هو مادة التربية الاساسية التي تعد الانسان لتولي شتى المناصب . وبحلولنا الاستشهاد بكلمة مشهورة لأحد خطباء أوتين : « ان علم اجادة الكلام هو علم اجادة العمل ايضاً » .

التعليم
ان لهذا الاستمرار تفسيره في استمرار التعليم ، كما انه بدوره يفسر استمرار التعليم ايضاً .

تواصلت الجهود في سبيل فتح المدارس وقضاء غفوت واستازمت تضحيات يتوجب علينا ان

نصفها بالبطولية اذا ما فكرنا بالصعوبات التي اعترضت آنذاك سبيل الطبقة المتوسطة. ويبدو في الواقع ان الدولة لم تبذل مزيداً من الجهد : فهي لم تنظم التعليم العالي في القسطنطينية قبل السنة ٤٢٥ . ولكن المدارس البلدية توفرت منذئذ لكافة المدن تقريباً ، على تفاوت في العدد وفي درجة التعليم . اما انتقاء المعلمين فمنوط بالعائلات المحلية التي تنظم مباريات حقيقية - في الفصاحة ، طبعاً - بين المرشحين ، والتي كثيراً ما تخضع لضغط الادارة : فكبار الموظفين ، وحتى الامبراطور نفسه ، قد أعاروا هذه التعيينات اهتماماً خاصاً في المراكز الكبرى. ودفعت المدن للاساتذة مرتباً رسمياً ما لبثت الحكومة ، بوحى من اوزون الذي ما زال يتذكر عمله التدريسي في بوردو ، ان حددت قيمته في النهاية . ولكن هذا المرتب ليس سوى كسب مضمون لا يكفي لتأمين المعيشة ، يضاف اليه مجموع الرسوم المدرسية المستوفاة من التلامذة . لذلك فقد لجأت المنافسة ، بين مدينة ومدينة ، وبين معلم ومعلم ، الى أساليب مضاربة تخلو من اللياقة احياناً . ويمكننا التأكيد بأن معلم بيان ذائع الشهرة ، كـ «ليبانيوس» في انطاكية مثلاً ، ابعد من ان يتوفر له يسار مالي دائم . ولذلك ايضاً فان تدني المنتسبين الى البورجوازية مرده الى سبب غير نقصان المدارس : فهي في المدن أكثر منها في أي وقت مضى ، ولكنها ما زالت نادرة في الارياف كما في السابق .

المسيحية والمدرسة :
قانون جوليانوس
لم يتبدل النظام التربوي اذن منذ العهد الامبراطوري الاول . فما زال ينطلق من دراسة الشعراء ، والخطباء ، والمؤرخين الذين ينظر اليهم ابدأ من زاوية البيان ، وبكلمة من دراسة الروائع الكلاسيكية العظمى موضوع الاعجاب العام : وما زال الولد ، حتى في ذاك العهد ، يتعلم القراءة في مؤلفات هوميروس وفرجيل .

لم يحاول المسيحيون أنفسهم تغيير هذه العادات على الرغم من الانتقادات التي وجهها اليهم أشدهم تصلباً في امور الاخلاق ، كـ «تروتوليانوس» مثلاً . لقد سلموا هم ايضاً بأن التربية الكلاسيكية ضرورية لتهديب العقل ، اذ انها تجمله بالذوق والادراك ومعنى الجمال وقواعد البرهنة . فهي بالتالي ابعد من ان تقف في وجه أي نمو لاحق ، لأنها بدت وكأنها تجيز وحدها كل نمو . فكان كافياً للديانة الجديدة ان تحذر من عبادة الاصنام وان تستخدم ما هو أمامها بأثر تضيف اليه تعليمها الخاص بواسطة العائلة او الكنيسة . ومنذ القرن الثالث كان الفوز حليف هذه التسوية ، كما نرجح . فمارس بعض المسيحيين ، دون تنازل منهم عن أي من معتقداتهم أو أي من التقاليد المدرسية ، مهنة التعليم في مدارس الاولاد ، حتى الوثنيين ، أولاً ، ثم في معاهد التعليم العالي من بيان وفلسفة ، بينما تابع تلامذة وطلاب مسيحيون دروسهم على أيدي معلمين وثنيين : وقد سلم الطرفان بكل ما استلزمه هذا الوضع الراهن من تساهل متبادل .

لم يبرز الخلاف ، وهو قصير الامد على كل حال ، إلا ببداهة من جوليانوس . فلم يرض هذا الاخير ان يميز ، في الثقافة اليونانية التي اراد الدفاع عنها جملة ، بين المبني والمعنى ، بين التعبير الجمالي والعقيدة . ولذلك فقد اصدر في السنة ٣٦٢ قانوناً مدرسياً قيد السلطات البلدية بشروط

اخلاقية في انتقاء المعلمين المطلوب منها تعيينهم وألحقه بكتاب دوري يوضح ان هذه الشروط لا تتوفر في المسيحيين لأنهم لا يستطيعون تفسير الروائع الكلاسيكية تفسيراً نزيهاً: «يا للعجب! أفلم يعترف هوميروس وهيزيود وديموستينس وتوسيديد وايزوقراط وليزياس بالآلهة هداة لكل تربية؟ ... فمن الخرق في نظري ان يلجأ مفسر روائعهم الى احتقار الآلهة الذين أكرمهم ... وإذا ما نسب احد الناس الحكمة الى من يفسر روائعهم ، فالواجب يقضي عليه قبل كل شيء باقتفاء تقوam نحو الآلهة. اما اذا تصوّر انهم أخطأوا بصدد أعظم الكائنات احتراماً ، فلينذهب الى كنائس الجليليين كي يفسر فيها متى ولوقا». بديهي ان هذا الاقتراح تهكمي في نظر جوليانوس بسبب ركافة الاناجيل الادبية. وهكذا ارتأى المسيحيون ايضاً ، وقد ثار ثائرم بعد ان أقصوا بذلك عملياً عن التعليم ، على ان بعضهم قد سارعوا الى نظم الكتاب المقدس شعراً والى تأليف المآمي والمهازل في مواضيع مستوحاة من العهد القديم والى ا فراغ الاحاديث بين يسوع ورسله في حوارات على الطريقة الافلاطونية .

غير ان قانون جوليانوس المدرسي قد مات بموت واضعه : فقد فتح باب التعليم مرة اخرى للمسيحيين الذين عادوا الى النصوص التقليدية وما تنطوي عليه من ميثولوجيا ولتى عهدا . وسيتقضي زمن طويل حتى تظهر المدارس وأصول التربية المسيحية بالذات . وليس اللاهوت نفسه آنذاك ، على الرغم من بعض المحاولات ، كمحاولة اوريجينوس في الاسكندرية مثلاً ، موضوع دراسات نظامية: وليس امام الكهنة والمؤمنين ، للوقوف على مبادئه ، سوى المناقشات لتي يحضرونها والعظات التي يسمعونها والقراءات التي قد يقومون بها . اما المدرسة الابتدائية فقد انتظمت في بعض الاديرة فقط بغية تعليم الرهبان الاميين. لذلك فسيكون نموها بطيئاً في هذه الاديرة ، على غرارها في المدرسة التي سيرغم الاساقفة في الغرب على احداثها ، لأجل تعليم كهنتهم ، اختناق الحياة في المدن ..

اقتبس النظام المدرسي في العهد الامبراطوري عن النظام الذي وضعه الاغريق خلال العهد الهليني ودام ما دامت العصور القديمة . وهو لم يضمحل في تاريخ معين بل تلاشى تدريجياً . وبما ان المدرسة هي التي توجه او تسيّر الحياة الثقافية في مجتمع ما ، فان ديمومة هذا النظام هي التي تدعو الى القول بامتداد العصور القديمة نفسها حتى النصف الثاني من القرن الخامس ، دونما بحث عن ربط نهايتها بحدث سياسي معين .

على ان تبديلاً قد حصل منذ العهد الامبراطوري الثاني: فالمدرسة لم تحسن الحفاظ،
الوضع اللغوي كما في السابق ، على الوحدة التي وفرتها اللغة بل اللغات للامبراطورية ما دام الشرط الذي قامت عليه هذه الوحدة هو ازدواجية اللغة .

استمرت هذه الازدواجية أساساً ومثلاً أعلى للتربية التي يتلقاها الشباب . وقام الشرق ، من هذا القبيل ، بمجهود حقيقي لتعلم اللغة اللاتينية . فقد تعاطم شأن دور الادارة ، وتعاطم بالتالي شأن اللغة اللاتينية التي بقيت اللغة الرسمية. الوحدة لقيادة الجيش والوثائق التشريعية وأحكام

القضاة . القسطنطينية مدينة يونانية ؛ ولكن الموظفين فيها يكتبون باللاتينية تاركين للسلطات المحلية أمر تأمين الترجمة . ولم يبدأ استخدام اللغة اليونانية في الاحكام ، إلا في اواخر القرن الرابع ، وفي التشرية ، في عهد جوستينيانوس . أضيف الى ذلك - على نقض ما حدث في السابق - ان بعض الشرقيين قد استخدموا اللغة اللاتينية في نشاطهم الادبي : كالمؤرخ اميانوس مرسلينوس الانطاكي في القرن الرابع ، والشاعر كلوديانوس الاسكندري في اوائل القرن الخامس ، وغيرهما ايضا ممن هم دونها شهرة . وكان كل ذلك نتيجة لاولوية الغرب السياسية والعسكرية ولاعجاب بعض الشرقيين بروما وبماضيها المجيد . فلا يجب من ثم ان نرى في ذلك دليلاً على تفوق الحضارة اللاتينية فكراً على الحضارة اليونانية . واذا حققت اللغة اللاتينية آنذاك ، كلغة رائجة ، بعض التوسع الاقليمي في البلقان (انظر الشكل ١٢ - ص ٤٦٣) ، فمرد ذلك ، في الأرجح ، الى وضع احصائي مجهل معطياته والى وجود الجيش على الدانوب ونزوح العناصر اللاتينية عن داسيا المتخلى عنها .

اما في الغرب فقد مال استعمال اللغتين الى الزوال . فقد انطوى انتشار هذا الاستعمال ، في الحقيقة ، خلال العهد الامبراطوري الاول ، على عمل بطولي متناقض لانه سبق للغة اللاتينية ان أثبتت اهليتها كلغة ثقافة . وبعد ان اعتمدت الكنيسة الغربية اللغة اللاتينية كلغة طقسية ، لم تعد معرفة اللغة اليونانية ضرورة للكليروس . ومنذ القرن الرابع اكتنف الغموض المجادلات اللاهوتية بسبب الجهل المتبادل لدقائق اللغتين : فمع ان تركيب الكلمة اللاتينية *Substantiu* (جوهر) مماثل لتركيب الكلمة اليونانية *Hypostasis* ، فليس للكلمة اللاتينية المعنى نفسه قط ، الشيء الذي اثار اكثر من سوء تفاهم بين انصار القانون النيقاوي . وما زال بعض الاساتذة اليونانيي الاصل يعلّمون اللغة اليونانية في المدن اللاتينية . وقد عرفنا منهم ، بواسطة أوزون ، خمسة في بوردو . ولكن المجهود قد صعب على التلامذة فنفروا من هذه الدروس : وقد اعترف اوزون « بانه ارتكب في حداثته سنة خطأ فادحاً صرفه عن الدروس اليونانية » ، واضطر القديس اوغسطينوس ، لتقتضيات لاهوته ، الى تعلم اللغة اليونانية في شيخوخته ، ولكن الأمر لم يكن سهلاً عليه ، فلم يتمكن قط من اتقانها جيداً . ولم يدم استعمال اللغتين الا في اوساط الارستوقراطية الرومانية الواسعة الثقافة التي ما زال باستطاعتها استخدام المربين الخصوصيين . على الرغم من استمرار الوحدة السياسية ، جاء التطور مماثلاً في الواقع لذلك الذي ظهر في الشرق بفعل نهضة اللغتين البلديتين ، القبطية والسريانية . بيد ان نجاح اللغة اللاتينية ابعد رسوخاً في الغرب على الرغم من يقظة اللغة الكلتيّة آنذاك واقيان القديس اوغسطينوس على ذكر اللغة البونيقية ، الذين قد يفسرهما نشاط جديد استعادته هذه اللغات القديمة . ولكن تقهر المدن وضعف البورجوازيات البلدية قد رافقها بالضرورة بعض الانكماش منذ ذاك الحين ؛ فكانت النتيجة المحتومة ظهور اللهجات الاقليمية الخصوصية تحت تأثير الفطرة الشعبية ، التي ستزداد قوة في العهود اللاحقة بفعل تأثيرات اخرى . واذا ما اقتصرنا على اليونانية واللاتينية ، جاز لنا التأكيد ، حين تفضي الاحداث السياسية وغزوات البرابرة الى انفصال الامبراطوريتين ،

ن هذا الحدث سيسهله الحد من استعمال هاتين اللغتين .
لا يجوز ان نغالي في نتائج هذا الوضع على الصعيد الفكري . فنذ قبل نهاية العهد
الامبراطوري الأول كان لكل من اللغتين تراث قين ، بثروته وتنوعه ، بتهديب العقل وتوجيهه
في اية طريق يسلكها . اصف الى ذلك ان كل كتاب ينطوي على بعض الامة لا يلبث ان يُنقل
اقله من اليونانية الى اللاتينية .

٢ - المؤلفات

ليس والحالة هذه من تبدل يذكر في الظروف العامة . ومع ذلك فان النتائج المحققة ، اذا ما
نظرنا اليها ك مجموع ، ليست من الامة بكان . فالانحطاط الذي نلسمه في القرن الثالث بنوع خاص
— والذي يحتمه الاضطراب العام — قد توقف بعض الوقت في القرن الرابع ، ثم عاد الى الظهور
متسماً بحركة حثيثة .

ان هذا التقهقر لمحزن على الصعيد العلمي . فان بعض التقدم في التطبيقات العملية ،
التقهقر العلمي الذي لا يجوز ان نقدره فوق قدره ، أبعد من ان يخفي ما هو أعظم خطورة :
تأخر الروح العلمية وانصرافها عن الملاحظة والبحث بشغف مجرد ووفقاً لقواعد المنطق . فهل
من ريب في ان المسؤولية الكبرى في ذلك تقع على الاولوية التي سلم بها الانسان آنذاك للمشاكل
الدينية ؟ شقت الوثنية هذه الطريق بفعل سيطرة الصوفية عليها . فهي قد شعرت قبل أي شيء
آخر بالميل الى دقق عاطفي وبالحاجة الى الاتحاد بالكائن المطلق : لم تبد لها معرفة أسرار الكون
أمراً مرغوباً فيه إلا اذا قادت الى يقين راسخ حول الحكمة الإلهية ؛ بل تصبح محزنة اذا صرفت
النفس عن العبادات التي تشكل واجبها الرئيسي وعزاءها الاوحد . غير ان هذا الموقف المنافي
للعلم قد صادف انصاراً أشد حماساً ايضاً عند المسيحيين الذين حصلوا على الوحي الاعظم الذي آتاهم
اياه الكتاب المقدس فتوجب عليهم بالتالي ان يستغرقوا في درسه . وليس من العسير علينا ان
نجمع ، لدى آباء الكنيسة ، تصريحات مبدئية تصدر حكماً مبرماً على كل مجهود يبذل في سبيل
غايات أخرى . ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى القديس باسيليوس الذي رضي بالبقاء على بعض
التحقيقات السابقة بمقدار ما تتيح ادراك عمل الخالق العجيب ادراكاً افضل . اما النظرية التي
عرفت ألراج فهي تلك التي حددها القديس اوغسطينوس باعلانه نافلاً كل ما هو خارج اطار
الكتاب : « كل ما يستطيع الانسان تعلمه خارج الكتاب يخطئه الكتاب اذا كان مضراً ، ويحتويه
اذا كان مفيداً » .

ليس بكاف من ثم ان نتكلم عن ركود العلم : فهناك تقهقر يرثى له على كل صعيد . ولتقتصر هنا ،
دونما استشهاد بأسماء المؤلفين والمؤلفات ، على الإشارة الى اهمال الرياضيات التي انحصرت تعليمها في
الاسكندرية ، وتأخر علم الفلك الذي طما عليه علم التنجيم ، والذي مقتته المسيحيون اسوة بهذا
الاخير ، بصورة غير مباشرة ، وذوبان العلوم الطبيعية في الكيمياء المفقوتة ايضاً ، بسبب اتصالها

بالسحر ، وفي التلهيات المعجبة ، واندثار المعارف الجغرافية التي كان تحصيلها في السابق امراً عادياً ، وذلك على الرغم من وجود البرابرة الآتين من المناطق النائية ، ومن المحافظة على العلائق التجارية بالشرق الأقصى . انتحلوا بلدين القديم وبطليموس دونما اهتمام للحفاظ على ما جمعه هذا الأخير . أنكروا ان تكون الارض كروية الشكل وان يكون بحر قزوين بحراً مقفلاً ، كما أنكروا شمس نصف الليل وتفسير المد والجزر بمحاذاية القمر . وأضيفت « الطريق البحرية » الى فهرست « طريق انطونيوس » (أي كركلا) وأحصى فيها البارناس في عداد الجزر .

فلا أهمية من ثم للتراث العلمي الذي تركته للعصور الوسطى ، بصورة مباشرة ، عصور قديمة تلتظف أنفاسها الأخيرة ، وسيكون للقرون الوسطى الفضل أقله في العودة الى مؤلفات القرن الثاني العظمى .

اما القانون ، وهو علم روماني دخل الشرق في العهد الامبراطوري الأول ، فلم يزدهر في هذا العهد ، بل في عهد سلالة ساويروس . وقد بلغ رجال القانون من الشهرة آنذاك ، وهم في معظمهم من السوريين ، ما جعل هذه السلالة الشرقية تستدعيهم الى روما ؛ فاصبح الثلاثة المشهورون بينهم ، وهم بابليانوس وأولبيانوس وبولس ، قادة لحرس القيصر ، ولم يكن ذلك لحيرهم على كل حال اذ ان وظيفة الاولين قد انتهت بها الى موت فاجع . اتصفت مؤلفاتهم بالقوة والاقناع وحاولت التوفيق بين النظام والعدالة . وامت وضع تنسيق وتسلسل المبادئ وميزت المفارقات الضرورية لتطبيقها . فرفعت القانون الروماني ، بعد مؤلفات كلويس ، الى مستوى فكري لن يتجاوزه فيما بعد .

فاذا ما حافظت بعد ذلك مدرسة بيروت ، التي اشتهر بها رجال القانون ، على اولوية لن تتغلى عنها للقسطنطينية قبل القرن الخامس ، فان هؤلاء لم يهتموا للمنطق النظري اهتمامهم للتطبيق العملي . اضاف الى ذلك ان غزارة القرارات التشريعية والادارية انما رسمت لهم هذا الاتجاه . وقد غدت مهمتهم الرسمية محصورة في الحفظ والتلسيق . فظهرت حينذاك ، في اواخر القرن الثالث واولائل القرن الرابع ، « مجموعات الدساتير » الامبراطورية ، اي النصوص الرسمية التي تحدث او تحوّر القانون ، مرتبة ترتيباً منطقياً وزمنياً بحيث يعمل باحدثها عهداً اذا كان مناقضاً لما قبله . جاءت هذه المجموعات في البداية ثمرة مجهود خاص ، ثم غدت عملاً رسمياً في القرن الخامس حين تألفت لجنة ، باتفاق الامبراطورين ، عملت طوال تسع سنوات في القسطنطينية وانتهت في السنة ٤٣٨ الى نشر « مجموعة القوانين الثيودوسية » التي اطلق عليها هذا الاسم اكراماً لامبراطور الشرق ثيودوسيوس الثاني . وقد عادت اللجنة فيها الى قسطنطين لجمع وتلسيق الدساتير الحقيقية . ولكن صدور الدساتير الجديدة لم يتوقف سبله . فظهرت حينذاك « دساتير اباطرة الشرق » المتعاقبة ، الخاصة بهذا الملك او ذاك ، بانتظار مجهود اجالي جديد سيقوم به جوستينيانوس . هذه المجموعات عمل مفيد حقاً لا سيما للمؤرخ ، ولكن اهميتها علمية اكثر منها علمية .

في السابق وجد الميل الهليني الى علم اللغات ارضاً مؤاتية جداً في روما حيث الصلح الواسع
اسفرت الابحاث العلمية الواسعة في حقل الصرف والنحو، والابحاث الاثرية، في
حقلي القانون والدين، عن مؤلفات هامة.

اضمحل كل ذلك، في القرن الثالث، في الشطر الغربي من الامبراطورية، ولم يسفر في الشطر
اليوناني الا عن مؤلفات صغرى خالية من القيمة الفكرية أو اقله من الايضاحات المفيدة للعلماء
المعاصرين: وليس في الحقيقة ما هو جدير باستيقافنا هنا في كتاب «السفسطيون في المأدبة»
لاثيناوس، وكتاب «تراجم مشاهير الفلاسفة» لديوجينيس لايرس، وكتاب «تراجم السفسطيين»
لفيلوستراتوس، وجميع هؤلاء المؤلفين من معاصري سلالة ساويرس.

لم يتوصل خلفاء هؤلاء المؤلفين، في الشطر اليوناني، الى التفوق عليهم. اما في روما فقد
حدثت نهضة حقيقية في النصف الثاني من القرن الرابع رافقت المقاومة الوثنية التي شجعها
جوليانيوس. فليس من باب المصادفة ان ينكب مشاهير الشيوخ، الذين حاولوا الدفاع عن الوثنية
آنذاك، بريكتستاتوس وسيمناكوس وآل نيكوماكوس فلايانوس، على نشر وشرح الروائع
الكلاسيكية الكبرى، ولا سيما مؤلفات فيرجيل وتبت - ليف. واعتبروا الحفاظ على هذا
التراث الادبي، المدين بالبقاء لهم الى حد كبير، واجباً من واجبات المواطن الروماني والمقيم على
اخلاصه للديانة القديمة. وقد دون «ماكروب» احاديث هذه الندوة الفالقة الثقافة في كتابه
«اعباد ساتورن» الذي اطلق عليه هذا الاسم بسبب العيد الذي درجوا على اختياره للاجتماع
عند هذا أو ذاك من اعضاء الندوة. تناول هذا الكتاب في الدرجة الاولى مؤلفات فيرجيل
وفضله، واننا لنجد فيه كما في الشرح الذي يكرسه ماكروب لـ «حلم شيبون» الذي اختاره
من احد ابحاث شيشرون، شتى المعارف الدقيقة التي تفرض مطالعات كثيرة وجَّهها تفكير صائب
تحلّى به هذا الفيلسوف الوثني الصوفي. ولكن ما يدعو الى الاسف ان هذه الشعلة الاخيرة لتقليد
طويل قد انطفأت بسرعة خاطفة.

وما يدعو الى الاسف ايضاً ان شعلة مماثلة لم تتقد في المعسكر المقابل، لا تقليداً ولا تصميماً
على المجادلة، مع ان الطريقة القديمة ممكنة التطبيق على مسادة جديدة. وليس بمكتننا ان
نستشهد، من الجانب المسيحي، الا بالقديس ايرونيμος الذي تتلمذ في صباه على دوناط، ناق
الى الوضوح والدقّة في تفسير الكتاب المقدس فدرس العبرية كي يترجمه: وستصبح ترجمته
«فولجاتا» (أي الترجمة العامية) الكنيسة اللاتينية. نهض بعمل تفسيري عظيم تطلب منه
جداً وجهداً لا سيما في الاسفار النبوية، وقاده الى ترجحات وابحاث عديدة. ولكن عمله الذي
لم يقدره مسيحيو عصره حق قدره لن يصبح نهجاً لغيره الا في عهد لاحق.

سار التاريخ سيراً موازياً تقريباً.

التاريخ
فقد برزت في الشطر اليوناني، في القرن الثالث، بعض الاسماء المحترمة كـ «ديون
كاسيوس» و «ديكسيبوس» و «هيريديانوس»: ومع ان واحداً من هؤلاء الكتبة لم يكن

عبرياً ، كما يبدو ، فإن ما وصل إلينا من مؤلفاتهم يحملنا نأسف لتشويهها أو لا يحازها .
 أما من الجانب اللاتيني فليس آنذاك ما يستحق الذكر سوى مجموعة ممقوتة صدرت في القرن
 الرابع تجب الإشارة إليها رغبة في اظهار فساد لون من الالوان الادبية ، هي المجموعة المعروفة
 بـ « التاريخ العظيم » . فنحن هنا امام تراجم الاباطرة ما بين هديرانوس وديوكليسيانوس . اما
 مرد المقت فليس في عددهم الذي ضاعفته الفوضى ، وبالتالي في فقدان الوحدة العضوية . وليس
 كذلك ، الى حد ما ، في تقليد فاسد لـ « سويتون » واثار الاماليح وعفونات الحياة الخاصة .
 فإن شر ما هنالك ، وما لا يمكن ان تموت عن أية صفة من صفات الكتابة ، انما هو عدم
 الاستقامة الفكرية . فقد زين كثير من هذه التراجم بكذب مفتعل لا ينطلي على احد . يتضح
 لنا منها ان واضعها مؤلفون تجهل عنهم كل شيء وانها مقدمة اما لـ « ديوكليسيانوس » واما لـ « قسطنطين » .
 ولكن تحليل النزعات السياسية والمستندات الكاذبة يرغمنا الى استبعاد هذين التاريخين . وتقوم
 « معضلة التاريخ العظيم » اليوم ، التي لم يفصل فيها بعد ، في تحديد تاريخ آخر لوضع هذه التراجم
 او عدة تواريخ اخرى للتحويلات المتعاقبة التي أدخلت عليها .

وصلت إلينا هذه المجموعة كاملة ، في حال ان الاجزاء الثلاثة عشر الاولى - المكرسة
 للانطونيين في القرن الثالث والنصف الاول من القرن الرابع - من مؤلف اميانوس مرسلينوس
 المشهور قد اصبحت بأجمعها ايضاً . اجل ان الاجزاء الثمانية عشر التي قدر لها البقاء هي أهم
 اجزاء هذا المؤلف لأنها تتناول السنوات الخمس والعشرين التي سبقت موت فالنس : فمن حيث
 ان اميانوس قد عاشها اما ضابطاً واما مراقباً مقرباً متحمساً ، فقد تجمع لديه عنها أصدق
 الاخبار وادقها . لقد أثر هذا الاغريقي الكتابة باللغة اللاتينية ، واذا ما حالف التوفيق بمجوده
 احياناً ، فان طريقته الكتابية غالباً ما تتصف بالحشونة والصلابة . بيد ان هذا العيب يتضاءل
 امام صفات الفكر والمبنى . سار اميانوس على خطى « تاسيت » وبدأ تاريخ الامبراطورية حيث
 توقف هذا الاخير . وهو ليس دون حدة في السيكولوجية ولا حياة نابضة في الرواية ، ولا
 اصطفاً في المشاعر . بل هو يتفوق عليه بخبرته العسكرية ، وباهتمامه لحياة الولايات وحتى حياة
 الشعوب الغريبة ، وبعدم تحيزه في الإشارة الى سيئات بطله جوليانوس وصفات كولستانس الثاني
 او فالنس . ومن دواعي الاعتزاز لروما ان القرن الاخير في تاريخ عظمتها قد اجتذب إليها
 رجل عمل وفكر من امثال هذا المواطن الانطاكي .

غير ان اميانوس مرسلينوس كان آخر مؤرخ كبير ، ولن يبرز مؤرخ سواء قبل مرور فترة
 طويلة . فلم يكن بمكنة المسيحيين آنذاك ان يكتبوا التاريخ إلا عرضاً لأجل الدفاع عن ايمانهم
 والدعابة له . وكانت هذه ، في اوائل القرن الرابع ، حال لاكتانس الذي روى « موت
 المضطهدين » ، وحال افسيفيوس القيصري الذي وضع مؤلفاً تاريخياً قيمياً هو « التاريخ الكنسي » .
 وهذه ، بعد ذلك ، حال واضعي التراجم الكثيرين الذين قلّدوا لون الترجمة القديم بغية تقديم
 قدوة للمؤمنين . قد يجد المؤرخ المعاصر ما يفيد في كل هذه المؤلفات . ولكن شتان بينها وبين
 ذلك النظام الفكري الذي أوحى في اليونان وفي روما بذاك القدر الكبير من الروائع .

البيان لقد جرى اميانوس مرسلينوس على النهج القديم فنثر الخطب في تاريخه . وورد ذلك الى ان البيان لا يزال يحتل مركز الصدارة ، ويمتد بصلته الى كل المواضيع . فالعالم بأصول البيان يفضل الخطيب المحترف من حيث انه الانسان المثقف بالذات الذي تقتقد صفاته العقلية والكتابية والفكرية واللغوية المتلازمة ، في كل مكان : الى جانب الخطب ، توفر له الابحاث القصيرة ، والمقالات الانتقادية ، والرسائل ، وسائل تعبير متنوعة جداً .

يثبت لنا اسما فيلوستراتوس ولونجيتوس ان البيان لم يضمحل من العالم اليوناني في القرن الثالث . أما من الجانب اللاتيني فان هذا القرن صفر وخاو ؛ بيد ان بوادر نهضة قد رافقت فيه العودة الى النظام الامبراطوري . فقد لمس اذ ذاك نجم مدرسة (اوتين Autum) ووضع بعض اساتذتها أفضل الخطب الاحدى عشرة التي جمعت ، مع « تأبين ترايانوس » ، في مجموعة « التأبينات اللاتينية » . واشتهر بعد ذلك المؤلف سيميناكوس الذي تحلى بثقافة عالية وامتاز بالأناقة والظرافة ، وبرهن أحياناً عن صدق طوية مؤثر . ومع ذلك ، فقد بقي البيان اليوناني اكثر لمعانا في القرن الرابع : فقد برز فيه أربعة محترفين ذائعي الشهرة هم بروهييريسوس وهيميريوس في اثينا وتيميستيوس في القسطنطينية وليانيوس في انطاكية ، وقد اتقنوا جميعهم رخامة دوائر الكلام التي زاد في ابرازها فنههم في الإلقاء ؛ ولكننا نؤثر على هذا الاتقان مادة أعمق جوهرأ . ويجب ان نضيف اليهم جوليانوس الذي تتلمذ على الأولين وأعجب بهم جميعهم ونافسهم في مؤلفات حالت هموم حياته ومنيته دون الاكثار منها .

هذا هو مظهر النشاط الأدبي الذي فاق المظاهر الاخرى استمراراً . فقد تأثرت به بعض مؤلفات سينيذوس نفسه ، كما تأثر به مباشرة اكثر من واحد من آباء الكنيسة .

الشعر أما اللون الاخير من الألوان الأدبية الدنيوية ، فهو الشعر .

كان الشعر اليوناني في مظهره الكلاسيكي ، متهدماً ، ان لم يكن ميتاً ، بيد انه يجدد بنا الاشارة الى طرفة قريبة هي استمراره حتى اواخر القرن الخامس في « القصائد الديونيسية » ، للشاعر (نونوس Nomnos) الذي ولد في بانوبولس في مصر العليا . فقل في ذلك : ان تومبوكتو أنجبت آخر مقلد لـ « راسين » ؛ وقيل في ذلك فكاهات أخرى يصعب تبريرها ؛ ولكن هذه الفكاهة تلفت الانتباه الى ما ينطوي عليه الفكر اليوناني من قوة استساغة مدهشة دائمة . اما الشعر اللاتيني فلا يزال ينبض بالحياة في اواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس ، تغذيه الذكريات ويسانده التقليد . ومع ذلك فهو قد استعاد بعض التميز . ولنقتصر هنا على اسمين لا يستحق الذكر سواهما . فان استاذ البيان اوزون يحسد الاعتدال ، بعد ان تاه فترة من الزمن في حياة البلاط والسياسة ؛ والدليل على ذلك ان مسيحته لا تترامى في قصائده القصيرة التي تتجلى فيها سهولة الاتقان ؛ واذا ما شعر بعواطف صادقة واتسم شعوره بالنضارة امام جمالات الطبيعة ، فانه يقتصر على التعبير عن مشاعره تعبيراً مازحاً ورقيقاً لأنه يمتق المغالة والافراط ؛ ولكن هذا الاعتدال يضيف على أشعاره بعض السحر احياناً . وعلى نقيض ذلك فان القوة الفاعلة

التي اعوزته تفيض فيضانا عند كلوديانوس، وهو اغريقي من أتباع ستيليكون الذي جمع قصائده بعد موته ونشرها في شتى الاوساط . اجل لقد تملقت هذه القصائد القائد الحامي . ومع ذلك فقد ألهم كلوديانوس يقين حاد . فهو يجمع ، باعجاب واحد ، بين عظمة روما وعبقريته حاميه ، كما يجمع ، بكرامية واحدة لا تتراجع امام أية اهانة ، بين الثائر الافريقي والبرابرة والحضي الحقيير افثروبوس الذي يسيّر حكومة القسطنطينية على غير ما ترى ميلانو . وترغنا متانة اللغة التي توصل هذا الاسكندراني الى اتقائها ، ومهارة صناعته الشعرية ، ونضارة استعاراته ، وحيثا وطنيته ، على ان تذكر ، في الكلام عنه ، اسماء فيرجيل ولوكان وجوفينال .

والى جانب الشعر الدنيوي ، ظهر آنذاك الشعر الديني : فلدفق الروح مطالبه الموسيقى ايضا . فبعد ان كانت الشعر فلسفياً ، بما انطوى عليه مفهوم هذه الكلمة آنذاك في اناشيد الاغريقي سينيزيوس ، غدا مسيحياً صريحاً في مؤلفات اللاتينيين برودانس والقديس بولين النولي ، احد تلامذه أوزون . ولكن افراغ المشاعر الجديدة في قالب كلاسيكي كان مهمة شاقة : وقليلون جداً هم المسيحيون الذين توفقوا الى النهوض بها قبل زوال الثقافة القديمة .

يبقى امامنا ، في القرن الرابع ، انتاج رائع هو انتاج آباء الكنيسة اليونانيين والآباء الكنيسة واللاتين على السواء . افليس مغايراً للباقة ان نتوقف عندهم هنا وننظر اليهم من زاوية الأدب يا ترى ؟ لا ريب في انهم كتبوا وان بعضهم كتبوا بغزارة ، وغالباً ما اصفى اليهم بعض المستمعين واختزلوا كلامهم نفسه بغية تأمين نشره . ولكن هذا المظهر الأدبي لنشاطهم يبقى ثانوياً في نظرهم . فهم قد اهتموا ، بالاضافة الى دورهم كاساقفة ، ومن ثم كساسة زمنيين ، انفسهم وللنفوس الموكول امرها اليهم في الدرجة الأولى . ولا حياة ، من جهة اخرى ، بدون صراع : فقد ناضل المؤلفون المسيحيون الاولون ضد الاعداء الخارجيين ؛ ثم توجب عليهم ، بعد احراز الغلبة ، الدفاع عن الايمان ضد الهرطقة ، وتعليم المؤمنين وتوجيههم في الحياة الأرضية الملأى بالمكائد . فالعقيدة والتعليم والاخلاق كانت من ثم مواضيع ابحاثهم المذهبية وعظاتهم ورسائلهم .

بيد انهم ، على الرغم من كل ذلك ، وبما صرح به بعضهم ، كتبة يمثلون عهدهم . استمجلهم الوقت فاقتصدوه . وانسجموا عن قصد احياناً مع من يستمع اليهم من عامة الشعب . ولكنهم لا يستطيعون احتقار مستمعين او قراء آخرين . أضف الى ذلك انهم تلقوا تربية تطبع الانسان بطابعها الخاص ، وتخرجوا من مدارس تعلمت الآداب الجميلة وألقوا فيها الدروس احياناً . فالقديس باسيليوس ، الذي كان ابن معلم بيان ، وعلم البيان هو نفسه حيناً ، كان رقيقاً في التلمذة لغيرغوريوس النازينزي - ولجوليانوس ايضا - في اثينا ؛ ولعله تتلمذ على ليبيانيوس على غرار فم الذهب ؛ ودرس القديس اوغسطينوس البيان في قرطاجة وروما وميلانو . ولذلك فقد توجب عليهم الاعتناء بالمبنى .

فاذا غذى الكتاب المقدس يقينهم وشحذت الافلاطونية جدلهم احياناً وغمرت التقوى الحارة

كل وجودهم ، فقد توفى بعضهم ، في مخالطتهم الطويلة لروائع الادب الكلاسيكي ، الى امتلاك وسائل التعبير التي روضها كتبة العهود السابقة . فيحق للكنيسة ، بفضلهم ، ان تعتبر نفسها ، على هذا الصعيد ايضاً ، وريثة الحضارة المتوسطة .

لنقتصر على ذكر اثنين منهم فقط من الجانب اليوناني : القديس غريغوريوس النازينزي ذو الفطرة الشعرية والخيال الفاتن والتأثر الحزين ، والقديس يوحنا فم الذهب الذي يكفي لقبه للدلالة على فصاحة ذائعة الشهرة تبررها مواعظه الانجيلية الرشيقة وأماليجه التي تهدىء ، بتأثير من قوة سحر كلامه ، غضبات الجماهير الهائجة ، في انطاكية والقسطنطينية .

ولنقتصر ، من الجانب اللاتيني ، على ذكر عظيم واحد فقط هو القديس اوغسطينوس . انصف الرجل والاسقف فيه بقوة لا تجارى : كان في مدينته الصغيرة ، هيبون (عناينة) ، الرئيس الروحي للعالم المسيحي الاقريقي ، وحتى الغربي احياناً . لا ريب في انه مدين بهذه القوة الى عمله التنظيمي ونضاله الذي لا يعرف الكلل ؛ كما انه مدين بها ايضاً الى علمه اللاهوتي الذي لا يحاربه علم في الغرب آنذاك . ولكن كتابين فقط ، من اصل مؤلفاته الكثيرة التي يصعب مطلب معظمها على غير الاختصاصيين ، ما زالا ينبضان بحياة دافقة : « الاعترافات » و « مدينة الله » . كلاهما يفيض فصاحة وشعراً مطرباً ، وصوراً وأسلوباً غنائياً ، واحساساً مصطفقاً وحرارة حماسية . الاول هو التاريخ الداخلي الخاص لانسان ولروح قائما في ضلال الخطيئة وبحثا عن الحقيقة يغلث حتى الاستنارة النهائية : فالعصور القديمة لم تترك لنا أي أثر سيكولوجي تناول تحليلاً مؤثراً على مثل هذا العمق . اما الثاني فبحث فلسفي في تاريخ العالم الغاية منه اثبات النزاع القائم بين مدينتين موجودتين معاً ، احدهما تمارس « محبة الله حتى نكران الذات » بينما تمارس الثانية « محبة الذات حتى نكران الله » . وهو لا يكثرث بالمحطاط روما حين ينظر الى الأشياء بهذا المنظار . فالثاني المهم الوحيد في نظره هو انتصار المدينة الالهية الذي هو معنى الحياة الحقيقية ومبرر وجود العالم : هذا هو المثل الاعلى الذي ستتغذى به القرون الوسطى والذي ستحييه قوة تعبير مذهشة .

أجل القرون الوسطى : ولكن المبني ، مهما كان من طابعه الشخصي ، قد بقي قديماً . فما هي مدة هذا البقاء يا ترى ؟ توفي القديس اوغسطينوس في السنة ٤٣٠ ، ولم يأت بعده خلف بكل ما للكلمة من معنى . فعرف الأدب المسيحي بعده ، بمقدار تمادي الأدب الكلاسيكي فيه ، الانحطاط البطيء العميق الذي دبّ في هذا الأخير بعد نهضة القرن الرابع لا سيما في الغرب

٣- الفن

ان الحياة الفنية في العهد الإمبراطوري الثاني أشد تعقيداً من الحياة الفكرية ايضاً . فهي شأن هذه الأخيرة تخضع لبعض التقاليد . ولكنها أسرع تأثراً بالصعوبات المادية وأقل خصباً ، بالتالي ، منها في العهود السابقة . أضف الى ذلك ان الذوق العام يتطور فيها تطوراً سريعاً ،

أو بالأحرى ان متطلبات الحياة الروحية الجديدة تتخذ فيها طابعاً أشد إلحاحاً: هذه المتطلبات هي ما يجب النزول عنده في الدرجة الاولى ، وقد زاد في وضوح الاتجاه الذي فرضته ، ان الموارد لم تتوفر للمحافظة على انتاج وفيّ للأشكال التقليدية .

لم يفكر أحد قط بالاقدام عن قصد وتصميم على التنكر لتراث القرون السابقة قسط الماضي الذي ما زال يثير إعجاباً شمل الوثنيين الذين اعتبروا المثل الكلاسيكي الأعلى أحد نظم الحضارة الوحيدة الخليفة بالانسان ، والمسيحيين الذين ما كانوا ليقفوا من هذه العظمة موقف اللامبالاة .

كان كولستانس الثاني امبراطوراً منذ عشرين سنة حين جاء في السنة ٣٥٧ للمرة الاولى الى روما ، وقد روى اميانوس مرسلينوس زيارته في احدي اشهر صفحاته : انتقل الامبراطور ، كما يقول المؤرخ المسرور بتفصيل عجائب المدينة الأزلية ، من اقتتان الى اقتتان « معتقداً كل مرة بأنه لن يشاهد شيئاً أجمل مما شاهده » . ولكنه ، ما ان بلغ ميدان ترايانوس ، « حتى وقف مشدوهاً .. وحين شعر بمعجزه عن تحقيق شيء مماثل ، صرح بأنه يريد ويستطيع الاكتفاء بتقليد تمثال ترايانوس على صهوة جواده المنتصب في وسط الميدان » . فأوحى رغبته هذه نصيحة خبيثة أسداها اليه امير فارسي لاجيء الى البلاط الامبراطوري : « باشر ، اذا استطعت ، بناء اصطبل من هذا الطراز ، حتى توفر لجوادك الإقامة المتوفرة لهذا الجواد » .

على الرغم من نوايا اميانوس السيئة الواضحة ، ليس ما يبرر الشك في واقع هذه النادرة . انها تحدّد خير تحديد موقف رجال ذلك العصر امام تحقيقات الماضي . فكما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، سارعوا الى العودة الى هذا الجمال والاقتداء به . وما زلنا ، حتى في اواخر القرن الرابع ، نشاهد نهضة كلاسيكية في الفن موازية لتلك التي شاهدناها في الادب . وقد دبت هذه النهضة في الاوساط نفسها ، أي في عائلات مجلس الشيوخ الرومانية الوثنية الكبرى : فهذه اللوحة العاجية مثلاً ، التي درج القناصل على نقشها احياء لذكرى الوظيفة المسندة اليهم ، تستوحي ، بموضوعها واختيار نقوشها التزيينية وطريقة صناعتها ، نزعات ترقى الى قرب اوغسطس على الاقل . اجل نحن هنا امام حالة قصوى ، وقد حدثت تبدلات عظيمة حتمية . غير ان التبدلات الهامة لم تقتل الى مقاطعة شاملة ومفاجئة وواعية . فلكل منها أكثر من جذر في العهد الامبراطوري الاول . ولم يتناول احد التقاليد بالنقد المنظّم . ولم يعتقد المعاصرون يوماً بأنهم « عصريون » . فقدوا « عصريين » على كره منهم .

اننا نشاهد هذا الاستمرار ، بصدد اطار الحياة المادي ، في تلك الاماكن بالذات المقاصد التي تبدو فيها الظروف العامة مؤاتية جداً للتميز والابتكار ، ولا سيما في « المقصف » . المقصف هو نموذج مساكن كبار الملاكين المقاريين الذين أشرنا الى أهمية دورهم الاقتصادي والاجتماعي . وُسّع في هذا العهد وحُسّن وجّه بغية تأمين الرفاهية والتسلية لضيوفه ، ففي

معظم مناطق الامبراطورية - ومنها ما استحال فيها ترميم اطلال القرن الثالث بسخاء - حين توصل المنقبون الى التمييز بين التحويرات المتعاقبة في هذه الابنية ، يبدو ان أعظم بذخ قد تحقق في القرن الرابع . وان تاريخ المقاصف الغالية - الرومانية ، وهي أشهر المقاصف باتساعها وزخرفها ، في مناطق نهر الموزيل ، (نينسغ ، اودرانغ الخ .) ، يعود ، وفقاً لوضع ترميمها اليوم ، الى ذاك العهد الذي اقام فيه ملك وبلاط في تريف ، ما بين ديوكليسيانوس وثيودوسيوس . ولكن نموذج المقصف كان قد ظهر في وقت سابق ، ومن النافل اعادة الوصف الذي أعطي عنه في الكلام عن القرن الثاني : فقد اقتصرت حضارة القرن الثاني على تحقيق عدد كبير منه وعلى توسيعه وتحسينه .

لم يحل هذا التطور ، على الرغم من ارتباطه بالتطور الاجتماعي ، دون الحفاظ استمرار المثل الاعلى
على الوفاء للمثل الاعلى القديم الذي استلزم في الدرجة الاولى الابقاء على
لمدينة : روما
مظهر المدن الفخم وتحسينه . استقرغت الامبراطورية الثانية مجهودها على هذا الصعيد دون ان تحدث تغييراً جوهرياً في النماذج التقليدية . بيد ان المعبد قد تضرر من جراء اعتناق السلطة الرسمية الديانة المسيحية ، مع ان قسطنطين نفسه قد أمر بتشييد بعض المعابد في القسطنطينية . لذلك فقد أتى الفن البنائي المدني هنا وهناك بتحقيقات عظيمة .
في عهد سلالة ساويروس ارتدت المدن الافريقية أبهى حلها ، لا سيما مدن منطقة طرابلس الغرب ، لأن سبتيموس ساويروس الذي ينتسب الى لبثيس العظيمة قد غمر هذه المنطقة باعطياته : فالأبنية المدنية التي احاطتها أعمال التنقيب الايطالية ، ما بين الحربين العالميتين ، بشهرة حلال ، يعود الى هذا العهد .

غير ان روما لم تهمل ، اقله خلال فترة طويلة نسبياً (راجع الشكل ١٩ ص ٥٩٣) . فبالاضافة الى قومي نصر ، جهز سبتيموس ساويروس قصراً منيفاً على أكمة البالاتين ، وحجب أساساته بيجبة كاذبة مائلة ، بطبقات أعمدها الثلاث وجدرانها المتعرجة ومشاكها ، للجبها الكاذبة التي ازدانت بها الجدران الخلفية في المسارح . وقام كركلا في حي الافنتين ببناء حمامات لا تزال أطلالها تحدث تأثيراً قوياً في نفس الزائر المعاصر . فبينما بلغ مجموع مساحة الميادين الامبراطورية في القرنين الاولين تسعة هكتارات ، بلغ آنذاك ١٤ هكتاراً ، واتسعت الحمامات المبنية في وسط الحدائق لألف وستائة مستحم ، لا يدخل في عدادهم اولئك الذين كانوا يمارسون التمارين الرياضية في ميادين الرياضة الجسدية او يترددون الى دار الكتب وأروقة التصوير والنقاشة : في هذه الحمامات وجدت التحف الهلينية المعروفة باسم « هر كول فارنيز » و « ثور فارنيز »

من البديهي ان اضطرابات القرن الثالث قد أثرت في هذه الحركة . ولكن الحركة لم تتوقف يوماً توقفاً تاماً : فقد حرص غوردانوس الثالث وداسيوس وغاليانوس واوريليانوس ، على الرغم من قصر عهد ملكهم او صغوراته ، على ان يبرزوه بتشييد الابنية . وما ان استتب النظام حتى بدت الحركة وكأنها عادت الى حالتها السابقة . فان متحف الحمامات الوطني ، في روما الحالية ،

قد أنشئ في جزء ما زال قائماً من اجزاء حمامات ديو كليسيانوس التي تجاوزت مساحتها البالغة ١٥ هكتاراً مساحة حمامات كركلا . وأكمل قسطنطين الكنيسة الملكية التي شرع ببنائها ماكسانس وشيد قوس نصر ورواقاً وحمامات .

بيد ان هذا المجهود لم يدم طويلاً . فليس باستطاعتنا ، بعد قسطنطين ، ان نذكر سوى قوسي نصر وبعض الاعمال الترميمية : ومرد ذلك الى ان الاباطرة قد أقاموا في غير مكان ولم يهتموا لتزيين العاصمة التي لم تعوزها مظاهر التزيين . فانطفأت حياة العمران في روما التي أمست مدينة - متحفاً قلت العناية بها تدريجياً : لا بل أخضعت ، بما انتزع من روائعها الفنية وأعمدها ومسلاتها لتجميل القسطنطينية ، لعملية استلاب ماثلة لتلك التي جمعت بها هذه الثروة من التحف . فبدأ الهبوط في الافق شيئاً فشيئاً .

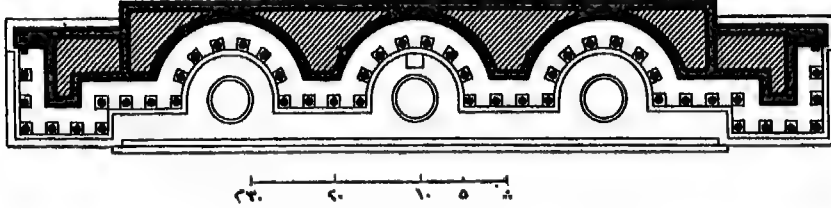
على نقيض ذلك ، استأثرت بالعناية الامبراطورية ، منذ ديو كليسيانوس ، المقرات الامبراطورية : المدن الاقليمية التي اختيرت ، لاعتبارات ادارية او عسكرية ، مقرات القسطنطينية للأباطرة والقيصرة . فتوجب تشييد الكنائس الملكية والحمامات والمسارح والملاعب في نيكوميديا وسيرميوم وميلانو وتريف وفي مدن أخرى أيضاً . وتوجب كذلك تشييد القصور التي يبدو انها اختلفت شكلاً عن مساكن اللو التي هواها في روما أباطرة القرنين الاولين . ألحقت بها الحدائق كما في السابق ؛ ولكن قاعات الالهة ، انسجماً مع تبدل النظام ، غدت أعظم روعة ، كما ان الابنية العسكرية أمست أكبر عدداً . وألف القصر ، داخل السور المحصن ، مدينة حقيقية : اما نموذج هذه الابنية الجديدة فهو القصر الذي قضى فيه ديو كليسيانوس أيامه الاخيرة بعد تنازله عن العرش والذي لا تزال اطلاله حية حتى اليوم في مدينة سبالاتو على شاطئ الادرياتيک .

بذل أضخم مجهود ، في سبيل تجميل المدن ، في القسطنطينية التي أرادوها منذ البدء مساوية لروما . غير ان اعمال التنقيب الأثري ، لسوء الحظ ، كانت محدودة فيها حتى تاريخه ، اذ ان آثار القرون الوسطى العظيمة تحجب ما تركته فيها العصور القديمة : ولا يمكننا اليوم سوى تكوين فكرة اجمالية عما كانت عليه المدينة في القرن الرابع واول القرن الخامس .

نمت المدينة بسرعة بفعل ارادة اسياد الاقاليم الشرقية وبفضل النشاط الاقتصادي الذي ظهر فيها . كانت البقعة التي خصصها لها قسطنطين اربعة اضعاف بقعة بيزنطية القديمة ؛ ولم يمر قرن واحد حتى أبعد السور كيلومتراً الى وراء . لم يدخل على الاحياء القديمة ، في الشمال الشرقي ، تحوير يذكر ، ويبدو انهم لم يعتمدوا في المدينة الجديدة تصميم المربعات المتساوية الذي اعتمدته التجميل اليوناني ، والروماني من بعده ، في التحقيقات الماثلة . إلا انهم اتخذوا احتياطات بنائية ، بتحديد ارتفاع البيوت مثلاً ، وبارغام الملاكين على تجهيز القسم الاسفل من هذه البيوت بأقواس تطل على الشوارع الهامة . لم يكن هناك في القسطنطينية سوى « جزر » سكنية نادرة ، ولعلها لم توجد فيها اطلاقاً . ولكن السكان تكدسوا فيها تكديساً ولم تنج المدينة من الحرائق .

تم تزيين المدينة جزئياً ، رغبة في السرعة ، على حساب مدن او معابد أخرى . وهكذا فقد نقل قسطنطين ، من دلفي ، مشجب «بلاتيه» في ميدان السباق ، ومن روما ، العمود المنتصب في وسط ساحتها العامة ، الذي وضع في أعلاه مثلاً ذا رأس شعاعي الشكل كان يمثل في الأرجح . واقتفى أثره عدد من خلفائه . وعلى الرغم من ذلك فقد توجب تشييد أبنية كثيرة أنهكت الخزانة الامبراطورية .

توسط المدينة الرسمية ميدان الاوغسطيون الذي قامت الى الجهة الجنوبية منه ثلاثة قصور



الشكل ٢٤ - السبتيونيوم او صرح سبتيوموس ساويروس

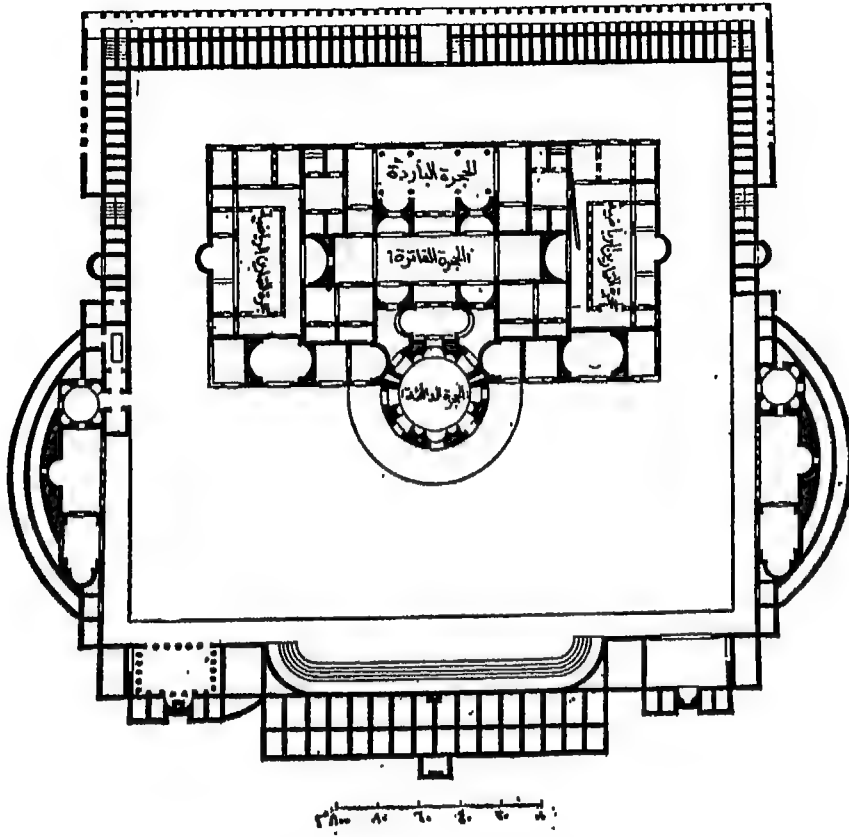
في اتجاهها نحو الشرق ، ازدانت هذه الواجهة بتأثيل الكواكب السبع ، وأما جميعاً تمثل الشمس الذي رمزوا به الى الامبراطور سبتيوموس ساويروس ، وكان يقوم في المشكاة الوسطى . وهذا المبنى شاهد على تأثير النجمة والنزعات التي تأثرت بها الايديولوجيا الامبراطورية .

تؤلف غالباً على حدة . كان باستطاعة الامبراطور ان ينتقل مباشرة من احد هذه القصور الى مقصفه في ميدان السباق الذي شيد في عهد سبتيوموس ساويروس ثم وسع حتى يساوي ميدان سباق العربات في روما . من هذا الميدان انطلق الشارع الرئيسي الذي ينقسم بعد ساحة طوري التي أعدها ثيودوسيوس ، الى شارعين فرعيين : يؤدي الشمالي منها الى كنيسة الرسل القديسين التي جهز سردابها قبل وفاة قسطنطين وأعد لاستقبال جثمان الاباطرة المتوفين . وقد حرص جوليانوس على ان ينقل اليه بأبهة عظيمة جثمان كونستانس الثاني الذي كان هو قد اغتصب منه الحكم في لوتيسيا .

لن تستطيع القسطنطينية ، اذا ما استثنينا قصورها ، مضاهاة روما بعظمة أبنيتها وستنحصر مظاهر الأبهة والبذخ فيها تقريباً في حياة البلاط والاعياد التي تقام في ميدان السباق . ولكنها وفرت للامبراطور ، منذ اواخر القرن الرابع ، اطاراً لانفاً بنفوذ عظمته .

ولكن ، ما هو شأن مدينة ، بل عدة مدن ، في جانب أعمال لا تحصى حققتها المخطاط التقنية الامبراطورية الاولى؟ فالجهود البنائي قد توقف عملياً في المدن الصغيرة والمتوسطة التي انحصرت في طوق من الأسوار . وفي سبيل تشييد هذه الاخيرة استخدمت الأبنية القديمة محاجر أو مساند . ثم ان الخزائن البلدية قد أفقرت ، والعطاء الخاص قد انضب ، فأعوز المال حتى لتعهد الأبنية الباقية . قدنى من ثم طلب البناء ، ولم يعوض عنه بتجديد المقاصف وتوسيعها ، فأفضى ذلك الى كارثة حقيقية ، نزلت في القرن الثالث مهندسى العمارة والنقاشين والمزنيين واليد العاملة الماهرة . وقد دام هذا التدني الى ما بعد استعادة الاستقرار . فلم يكن باستطاعة

الامبراطورية ، اذا ما نظرنا إليها كمجموع ، ان تقدم على ما أقدم عليه الانطونيون .
لذلك ، فنحن لا نكون مسلمين بنظرية مادية ، اذا ما حاولنا أن نفسر بذلك واقعاً واقعاً ؛
أعني به التدني الصريح في تقنية المنفذين المتوسطة . فهؤلاء قد غدوا أقل عدداً ، وقلما مارسوا
مهنهم أو تعلموها تعلماً فقط ، فقد معظمهم سر الحارط اليدوية ، والحيل الصناعية . لقد



الشكل ٢٥ - حمامات كركلا

شكا الفن الامبراطوري الروماني ابدأ من الحاجة الى انتاج كثير وضخم وسريع ؛ ولكنه برهن في
السابق عن مهارة تلفت النظر في تحقيق ما يطلب منه . أما الآن فيتوجب عليه انتاج ضخ
وسريع ؛ يرغمه عليه نفوذ النظام والامبراطور . ولكن التدني العظيم في كمية الانتاج ، قد رافقه
تدني أعظم في النوعية ؛ فلا أثر للاتقان ، وحتى للمهارة احياناً . وليس من الصعب علينا ان
نرى بين الملاحظتين نسبة العلة للمعلول ؛ فقد تدنى عدد المحترفين الممتازين ؛ وخف انتقال
الصناعيين الماهرين في الامبراطورية ؛ وأصبح من المسير وجود العمال المتمرنين محلياً وتأليف
الفرق من بينهم .

عديدة من القرميد . ولكنهم ، لم يترددوا أحياناً في استعمال الحجر دون ملاط : فهذا هو « الباب الأسود » في تريف قد سخر من الزمن ، ولا تزال ضخامته ، التي تتفق وغايته كحصن ، تفرض اعجاب الزائرين المعاصرين .

نهاية النقاشة ، بالمقابلة ، فتتصف بمزيد من الغلاظة . وليست هذه الغلاظة ، لسوء الحظ ، احتقاراً للاصطلاحات او عودة الى طوية أكثر بهيمية ، بل مجرد خرق مرده الجهل . وها نحن نختار قليلاً من كثير من الأمثلة المحزنة على ذلك . فالتشيم الذي تعرض له قوس نصر غاليريوس في تسالونيكي لا يخفي دونية تنفيذه . اما قوس قسطنطين في روما ، فان القطع المنتزعة من بعض أبنية القرن الثاني والمثالة فيه تبرز بمزيد من الوضوح ركائز القطع التي نقشت له . وكيف لا نذكر هنا جهود الامبراطورين والقيصرين المتعاقبين الذين تمثلهم المجموعات الارجوانية في كنيسة القديس مرقس في البندقية ؟

تحسنت النوعية في اواخر القرن الرابع . ولكن بعض المكاسب التي حققتها النقاشة منذ اواخر العهد اليوناني القديم ، فقدت نهائياً . فقد فقدت في الدرجة الاولى معرفة الجسم البشري : فتوارت قسامته تحت الثياب الكثيفة والخطوط الایجازية . وفقدت في الدرجة الثانية ، بنتيجة مباشرة ، ايماء الحركة وحتى تمثيلها : فجمدت الاجسام وبدأت متصلبة ، هندسية ، مبسطة ، جبهية ، موزعة بتناسق في النقوش الناقشة على النواويس وغيرها . فكان ذلك نهاية المطابقة والحياة في الحجر ، أي نهاية النقاشة كما فهمتها الحضارة اليونانية الرومانية التي أنتجت ذاك القدر العظيم من الروائع .

ولكن كل هذه المصطلحات ، من جود كهنوتي وجبهية وتناسق ، مصدرها التأثيرات الشرقية شرق بعيد جداً في الزمان خنقت نظرتهم الجمالية القديمة او اخذتها ، منذ الحروب الميديّة ، قوة النظرة الجمالية اليونانية المعديّة ، فأحييتها الآن تأثيرات عديدة مختلفة ومتشابهة . لم تترك في الفن الهليني ، وفي فن الامبراطورية الاولى من بعده ، سوى عناصر ثانوية قليلة ، كبعض المواضيع التزيينية مثلاً ، او بعض النزعات العريضة ، كالليل الى ما هو عظيم وما يفوق الانسان . اما الآن فنحن وجهاً لوجه امام نهضتها العلنية والجريئة والتوسعية التي شجعها رجوع الملكية الساسانية القومية ، كما شجعها ، داخل الامبراطورية ، نشاط الولايات الشرقية على الصعيد الاقتصادي وعليناها الديني ويقظة تقاليدها البلدية .

الشرق : كلمة غامضة ونطاق شاسع تتراءى فيه أكثر من نزعة خاصة . فدراسة الفن في العهد الامبراطوري الثاني هي اليوم احد أعظم نطاقات علم الآثار نشاطاً ومستقبلاً باسم بالآمال . ولا يرد ذلك الى أهميتها الخاصة بقدر ما يرد الى انها تحضير للفن البيزنطي . وبفضل تقدم هذه الدراسة ، اخذ العلماء يلقون بعض الضوء على اسهامات مختلفة ، القبطية والسورية والارمنية . ولكن غالباً ما يجدون أنفسهم امام شرق هو نفسه معقد التركيب اذ ان ماضيه التاريخي قد اوجد

اتصالات قوية بين مختلف اجزائه . فليس باستطاعة بحثنا ، والحالة هذه ، ان يتناول سوى الخطوط الكبرى .

فللشرق يعود الافراط في التزيين الذي أظهر الفن الامبراطوري نفسه ميلاً إليه ، رغبة منه في اخفاء المواد السيئة المستعملة في البناء : وقد برز هذا الافراط في عهد سلالة ساويروس ، ولا سيما في اواخر القرن الثالث ، كما يمكننا التأكد من ذلك في بقايا قصر ديوكليسيانوس . وأضاف هذا التزيين ، الى الافراط ، الغنى المادي المعد للتأثير في الخيلة ، وذلك عن طريق استخدام الألوان اللامعة ، لا سيما الذهبي منها ، والحامات النادرة الثمينة : كالأرجوان المصري مثلاً للنواويس الامبراطورية ؛ والعاج ، والجواهر ، ومكعبات معجون الزجاج ، ومينا الفسيفساء ، والخيوط الذهبية في الحرائر المطرزة ، للفنون الصغرى ؛ الخ . ثم نزع هذا التزيين ، الذي لم يترك سوى حد أدنى من المساحات المكشوفة ، الى فرض نفسه بنفسه ، مستقلاً عن المشاهد المصورة ، مع ما يستلزمه ذلك من ابتكارات غريبة قوامها الخطوط المحبكة . فبرزت آنذاك مواضيع تزيينية يعود أصلها الى ما قبل التاريخ . ونحن نكتفي بتقديم مثل بسيط عن ذلك : صفوف القلوب التي تزين اطارات صور « روزنامة السنة ٣٥٤ » ، وهي مخطوط نفيس جداً متقن الخط كتبه وزينه فيلو كالوس ، أحد فناني روما المشهورين في ذاك العهد . فارت هذا الموضوع التزييني موجود على الفخاريات النبوليتية في بلاد ما بين النهرين . ثم زال بعد ذلك ولن نراه إلا في الفن اليوناني - البوذي في القرن الأول لليلاد ، وفي فن روسيا الجنوبية في القرن الثالث ، وعلى بعض الأقمشة القبطية في القرن الرابع ، واخيراً في هذا المخطوط الروماني .

كانت نتيجة أهمية التزيين نقصاً في الرسوم الحية ؛ وغالباً ما انتهت هذه الأخيرة الروحانية الى الزوال نهائياً في الموشيات والأقمشة والفسيفساء مثلاً . وحين لا تزول ، فانها تفقد حياتها وحركتها وتجمد في تصلب نقلته النقاشة عن الفنون الاخرى ، ولا سيما عن التصوير ، ولكن الفنان يسعى الى جعل اوضاع اليدين والوجوه تنم عن تعبير باطني خالص . ولهذا الاوضاع ، في معظم الحالات ، معنى طقسي ، كالتقدمة والصلاة والبركة . وفي معظم الحالات ايضاً ، لا يتوفى خرق التنفيذ الى اخفاء المقصد الذي يجب ان يعبر الوجه عنه . وترسم في الأعين بنوع خاص ، وحتى في غضون الشفاه ، روحانية كانت آنذاك مشتركة بين الوثنيين والمسيحيين : فان هذا العصر عصر صوفية ، ويحمل الناس جميعهم بخلاصهم في حياة ثانية .

لقد سبق وظهرت مثل هذه النزعة في الفن الهليني : ولم يجهلها الفن الروماني نفسه كلياً . ولكن ذلك لم يتعد المفارقات الطفيفة . أما فن العهد الامبراطوري الثاني فقد اندفع عن قصد ، وبعاطفة ساذجة مؤثرة ، على ما فيها من خرق ، في استقصاء الخيال الذي يستسلم له الآدميون ، ملقياً عليه أحياناً ضوء اليقين الواثق . فهل هذا هو الشرق ايضاً ؟ أجل ، أقله بقدار إيجائه بهذا القلق الديني ، الذي لم يعرفه فن اليونان الكلاسيكية المستندة الى العقل ، ولا فن روما الظافرة المستندة الى القوة .

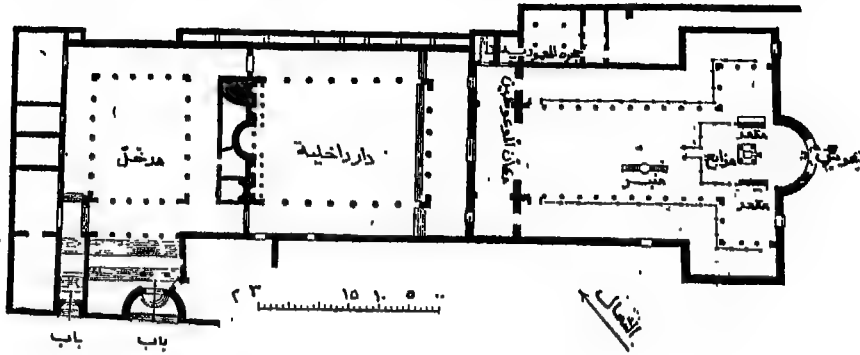
وجدت هذه النظرة الجمالية الجديدة ، في الكنيسة ، خير حقل تطبق فيه ،
الكنيسة :
بالاتفاق مع الظروف التي أوجدها انتشار المسيحية . فالمسيحية ، على نقيض
البناء والزخرف
الوثنية التي تبقي جمهور المؤمنين خارج المعبد ، تفرض حضورهم الى الكنيسة

حيث تقام مراسم العبادة ويلقن التعليم الديني .
ألحت الحاجة من ثم الى أبنية أكبر من المعابد ، لا سيما وإن المعابد ، حتى في حال اتساعها ،
كانت مقسمة الى عدة حجر . فمن النادر جداً ان يحول معبد الى كنيسة ؛ أضف الى ذلك ان
هذا الحدث ، ويصح قولنا في الابنية العالمية الاخرى ، لا يمكن ان يحصل إلا في عهد متأخر ،
لأن المسيحية تستقر الى جانب مجتمع وثني ومجتمع علماني يستمران في ممارسة حياتها الخاصة .
فتوجب عليها البناء . ولكن الموارد الكثيرة التي وفرها لها سخاء الأباطرة والمؤمنين أتاح لها
احداث أبنية عديدة : فمنذ اوائل القرن الرابع برز النشاط البنائي في تشييد الكنائس
بنوع خاص .

اعتمدت في هذه الكنائس نماذج مختلفة جداً : فلم يكن هنالك من تقليد يفرض نموذجاً معيناً .
ولا يزال الغموض ، على كل حال ، يكتنف مدى تأثير هذا النموذج في ذلك ، او هذه المنطقة في
تلك ، او هذه المدينة في تلك المدينة الاخرى . وليس من سبيل الى جلائه إلا بمعرفة تلك الابنية
المسيحية الاولى ، في حال ان معظمها قد اندثر او قامت على أساساتها أبنية احدث عهداً ، كما
لا سبيل الى ذلك ايضاً إلا بتحديد التواريخ . لذلك فمن التحكم في الايجاز ردّ جميع الكنائس الى
نموذجين رئيسيين .

قد يكون منطلق النموذج الاول مدفن شهيد يقوم في وسطه ويرغب العدد الأكبر من المؤمنين
في الاقتراب منه . اما بصدد السقف فقد لجأ نموذج الكنيسة هذا ، عادة ، الى القبة ومشتقاتها .
واعتمد النموذج الثاني وهو أكثر تطبيقاً ، في الكنائس الكبرى . وهو لا ينطوي في الحقيقة ،
على أية ميزة خاصة ، اذ انه حوّل للاستعمال الديني ، بأقل تغييرات ممكنة تقتضيها حاجات
الطقس ، طرازاً بنائياً قديماً غير غريب عن هندسة العمارة العلمانية الرومانية ، كان الطراز
الوحيد الذي صمم بغية استقبال جمع كبير نسبياً . و « الكنيسة الملكية » المسيحية – التي لم
يتبدل اسمها – بناء مستطيل يستند سقفه الى هيكل خشبي ويقسمه في أغلب الاحيان الى ثلاثة
صحنون صفان من الاعمدة ، او الى خمسة صحنون احياناً أربعة صفوف من الاعمدة في الكنائس
الكبرى ، كما في روما مثلاً (كنيسة القديس يوحنا ، كنيسة القديس بطرس ، كنيسة القديس
بولس) وفي القسطنطينية يقوم المذبح ، كما يعد عرش الاسقف في حنية شبيهة بتلك التي كانت يحتلها
القاضي جالساً على المنبر في الكنائس الملكية العلمانية . ثم وسع البناء تدريجياً وأحدث طبقة
ذات منصات لاستقبال المزيد من المؤمنين . ثم ادخل على هذا التصميم البسيط ، تدريجياً ، مزيد
من التعقيد : فأحدث النارتكس عند المدخل لجلوس الموعوظين (غير المعمدين) وظهر في بعض
الكنائس ، بين صحن الكنيسة والخوروس ، رواق أفصى الى توسيع هذا الصحن . اما نشأة هذا
الرواق فلا تزال موضوع جدل بين علماء الآثار وقد تكون تغيرت وفقاً للحالات المختلفة . ومنها

يكن من الأمر فان هذا الرواق ما زال نادراً ولم ينتشر انتشاراً واسعاً .
ليس بالتالي من ميزة هندسية تذكر ؛ وليس ايضاً ، باستثناء المواضيع التي عالجتها الرسوم
المصورة ، من ميزة زخرفية . فالنزعات العامة لفن الامبراطورية الثانية ، انما برزت ، بكل
لمعائها ، في الكنيسة والكنيسة . أجل لم تجمل الكنيسة ، مؤقتاً ، بأي تزيين خارجي . ولكن
داخلها يعوض عن هذا العري بغنى زخرفه . فاستخدم المرمر للأعمدة ولتلييس الأرض وتلييس



الشكل ٢٧ - كاتدرائية مدينة فيلبي
في مقدونيا (أواخر القرن الخامس)

الجدران حتى علو معين . أما الأقسام العليا في الجدران ، لا سيما في صدر الكنيسة ، فتغطى
بالرسوم والفسيفساء التي تمثل العقيدة وبعض المشاهد الانجيلية . وهكذا يجد المؤمن في بيت الله
القصور القيمة بإكمال التعليم الشفهي ومساعدته ، بينما تتعاقب الاحتفالات الطقسية المؤثرة في
جو فخفخة من الزخرف والآثاف الفاتنين ، وانسجام بين الأناشيد والموسيقى . فوفرت المسيحية
لجميع المؤمنين اطمئنان النفس ، وللفقير بهجات جمالية استأثر الفن ، حتى ذاك العهد ، بالنصيب
الأعظم منها خارج الكنيسة : ساعدته عن طريق الاحسانات الزمنية ، ولكنها لم تبخل عليه
بالجمال ايضاً .

استخدم الفن المسيحي تقنيات الفن الديني نفسه ، وخضع لنزعاته عينها ، فلم يلبث أن
ساواه ؛ ولن يمر وقت طويل حتى يزول هذا الأخير ، أقله في الغرب ، ويبقى الفن المقدس وحده .

الفصل السادس

موت روما القديمة وإرثها

هل كان من شأن حضارة الامبراطورية الثانية هذه التي استعرضنا استمرار العهد الامبراطوري
مظاهرها الرئيسية ان تعطي انتاجاً اوفر وأجل لو قدر لها أن تعيش حياة أطول ؟ يجيب بعض المؤرخين على هذا السؤال بالإيجاب ، ولكنهم قليلون جداً . اما الآخرون ، وهم السواد الأعظم ، فيكتفون بملاحظة دونيتها امام الحضارات القديمة الكبرى والمحطات المفاجيء في اوائل القرن الرابع : فيستندون الى هذين الواقعين لإصدار حكمهم المطلق على الحضارة التي شيدها القرن الرابع كيفما استطاع الى ذلك سبيلاً .
بيد ان في طرح السؤال خطأ كما يبدو . فلم تمت حضارة الامبراطورية الثانية ، بموت الامبراطورية نفسها ، سوى في الغرب : اذ انها قد استمرت في الشرق . فقد تبادت روما في بيزنطية . ولم تفتصب هذه الأخيرة اسم « روما الجديدة » اغتصاباً . فاذا ما اخذت الكلمة « هليني » آنذاك ، بتبدل غريب ، ولأسباب بيتنها جوليانوس ، المعنى الذي تنطوي عليه كلمة « وثنى » ، فإن كلمة « روماني » قد اطلقت طيلة العهد البيزنطي وحتى بعده ، - رومي - على كل مسيحي دونما اعتبار للأصل العنصري : وهذه المفارقة الدينية هي التي سيستفيد منها السلافيون حين يلقبون موسكو ، الوريثة الارثوذكسية للقسطنطينية ، بـ « روما الثالثة » . ولكن الارث الذي تركته الامبراطورية الثانية لبيزنطية يتخطى النطاق الديني فخطياً بعيداً ، يستحيل هنا ان نضع به بياناً مفصلاً .

وغالباً ما يحدث ان تنكر أهمية هذا الإرث . والحقيقة هي ان الحضارة البيزنطية ليست حضارة الامبراطورية الثانية . فعلى غرار ديانة هذه الأخيرة ، لم تبق نظمها وأساليبها وأخلاقيها ومثلها الفكرية والجمالية دون تبدل في القسطنطينية ، حين حافظت عليها هذه العاصمة وحدها ، منذ القرن الخامس . وقد تأثر التطور المحتوم الذي تناولها بظروف البيئة الخاصة التي حدث فيها . وقد تفوق الشرق آنذاك على الغرب في الحقل الاقتصادي بفضل تجارته الدولية وصناعاته البذخية : فاستطاع الحفاظ على اشكال حياة كانت في طريق الزوال في الغرب . فكان بصورة خاصة الشرق المستقل ، دونما نظير في الغرب ، تسيطر عليه حضارة يونانية لا تخشى سوى

التأثيرات البربرية ، ولا سيما التقاليد الشرقية ، التي عادت آنذاك الى الظهور بعد ان ساد الاعتقاد بأنها أثر بعد عين . ولو ان اطار التطور الجغرافي والبشري كان اكثر اتساعاً ، كما في السابق ، لسلك هذا التطور سبيلاً آخر ، ولبدأ نسبة الروماني بسهولة .

أما في الغرب ، فقد زالت حضارة الامبراطورية الثانية ، وحدد زوالها نهاية زواله في الغرب
عهد تاريخي عظيم . فهي قد مثلت التجسيد الأخير ، ان لم يكن الذروة ، للحضارة الوحيدة التي احتفظت ببعض الحياة ، منذ ستة أو سبعة قرون ، في العالم المتوسطي . بل مثلت في الحقيقة حاصل العصور القديمة كلها ، اذ ان الاغريق والرومان لم يتأخروا ، في تشييدها ، عن أن يضموا إليها كل ما بدا لهم ، في أرسخ الحضارات قدماً ، مفيداً وملسجماً مع نزعاتهم الخاصة ، ومع حاجات العصر . فقد جهل الغرب منذئذ ، وطيلة قرون عدة ، ما استمر الشرق في معرفته ومحبه . وقد حدث في القرن التاسع نفسه ، كما جاء في املوحة رواها بسلوس Psellos ، ان رجلاً من حاشية الامبراطور في القسطنطينية قد اكتفى ، كي يعبر عن اعجابه باحدى النساء ، باستعارة الكلمات الاولى مما ورد على لسان الشيوخ في الالياذة حين مرت هيلانة أمامهم . فهل كان باستطاعة أي رجل بطانة في الغرب ، آنذاك ، ان يستشهد ببيت شعر من أشعار هوميروس ، وحتى من أشعار فرجيل ؟ يجب ان تحدث النهضة ويبرز (رونسار Ronsard) ، حتى تجتمع مرة اخرى العاطفة الشخصية والتذكريات الهوميروسية . ليس طمس الثقافة الكلاسيكية سوى مظهر من ظاهرة أعظم شمولاً . بيد انه يستهون ان نعطي قيمة الرمز . فكما تعذر تعداد كل ما تسلمه العصر الوسيط البيزنطي من الامبراطورية الرومانية الثانية ، كذلك يتعذر الآن تعداد ما رفضه العصر الوسيط الغربي من هذه الامبراطورية . اجل ان الخطوط المعيزة لحضارة العصر الوسيط ، اذا ما وضعنا الديانة جانباً ، اخذت ترتسم ، في أكثر من نطاق ، في حضارة القرن الرابع ، وقد اقتضت الاشارة ، عندما حاولنا تحديد هذه الاخيرة ، الى بذور ، بل الى أسس تلك التي ستغدو حضارة المستقبل . وعلى الرغم من ذلك ، فالفاصل كبير جداً بين الحضارتين ، فما هي قيمة الرواسب امام التخلّيات ؟ ونكتفي هنا بذكر أبسط هذه التخلّيات الماثلة للعيان ، وهو تخلّ يستتبع اموراً اخرى كثيرة ، أعني به انهيار النظام السياسي والوحدة الامبراطورية ، أي نهاية دور التوجيه الذي لعبته روما ، طيلة قرون ، في مصائر العالم المتوسطي .

كان موت حضارة الامبراطورية الثانية في الغرب ، في الدرجة الاولى ، انحطاطاً لروما كعاصمة . وقد مرّ زمن طويل قبل ان تعوّض لها اولويتها الدينية عن خسارة اولويتها السياسية نهائياً . وفي هذه الأثناء تجزأ الغرب ، الذي كان واحداً من قبل ، أجزاء حققت كلها استقلالاً تاماً في تنظيمها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . وقد بقي لإحياء الامبراطورية الغربية في يوم عيد الميلاد من السنة ٨٠٠ مشوياً ابدأً بالنقص . أضف الى ذلك ان روما لم تكن يوماً مركزها الزمني الحقيقي . وما عسانا نقول عن الحياة ، الحقيرة غالباً ، التي عاشتها هذه الامبراطورية حتى

تنازل فرنسوا الثاني الذي أصبح ، في ٦ آب (اغسطس) من السنة ١٨٠٦ ، فرنسوا الأول ، امبراطور النمسا فقط ؟

أسباب الانهيار
فنحن اذن امام تبدل كبير في مصير الانسانية ، تساءل المؤرخون - وغيرهم - عن أسبابه منذ زمن بعيد . ولا سبيل الى انكار ما قدمه احدهم حديثاً بقوله ان الحضارة الرومانية لم تمت « موتاً طبيعياً » بل « اغتيالاً » بأيدي البرابرة : وان في استمرارها في شرق لم تتل منه الغزوات إلا في عهد متأخر لدليل قوي جداً . - غير ان الاكتفاء بهذه الصيغة ، أي بهذا السبب الخارجي ، ليس سوى تبسيط لقضية معقدة يدعون تحليلها الى تحمل قسطنطين من مسؤولياتها . فلا سبيل كذلك الى انكار الحقيقة التالية الاخرى : كان لدى الامبراطورية ، وهي اطار هذه الحضارة ودعامتها الطبيعية ، موارد بشرية تجعلها قادرة ، لو استخدمتها ، على ابداء مقاومة اقل ضعفاً في وجه مفتاليها . وتجدر الاشارة هنا ، دون ادعاء منا بقول كل شيء ولا بتقديم كافة الايضاحات اللازمة لما سنقوله ، الى ان هنالك ملاحظات لا تسمح لنا أهميتها بامحائها . ولكن لن يدعش احد ، بعد هذه الابحاث التي غالباً ما شددت ، في العهود المختلفة ، على اقتباسات الحضارة الرومانية عن حضارة الشرق اليوناني ، اذا ما بدت المسؤوليات ، من وراء الامبراطورية الثانية ، منعكسة على الحضارة الرومانية بصورة عامة ، وغالباً ، من وراء هذه الاخيرة ، على الحضارة الهلينية التي هي امتداد لها بألف حجة ودليل . ولعل بعض المسؤوليات ، في الحقيقة ، تنعكس على التاريخ القديم كله الذي جاء وانصهر في الامبراطورية الرومانية .

لنبدأ بانكار ترغنا عليه انتقادات عرفت انتشاراً واسعاً : ليس من الانصاف ان يستوقفنا هنا ، بين اسباب الهبوط ، التطور العاطفي والديني الذي بعثته الحضارة الهلينية واقتصرت الحضارة الرومانية على مواصلته بمزيد من السرعة منذ القرن الثاني . فان هذا التطور ، بعد كل حساب ، وعلى الرغم من زيفان مؤسف ، قد جعل الانسان باقصائه عن تجريد عقلي جاف لم يكن إلا باستطاعة نخبة مثقفة قليلة بلوغ ذراه . وبعد كل حساب ايضاً ، لم ينزع من الجندي ومن الدولة سلاحها ، بل اضاف ، بمثل الملكية ذات الحق الإلهي ، طابعاً دينياً الى واجب الطاعة السياسية والعسكرية : فأفضى الى مبدأ سلطة الملك المطلقة ، من حيث هو إله او نائب إله ، وكان من شأنه ، بالتالي ، ان يوطد متانة الدفاع .

يجدر بنا هنا ان نفكر بالتحيز الذي أفادت منه المدن افادة دائمة . كان لا بد من الوحدة الادبية كي يسهم كل فرد طوعاً في الجهود المشتركة ، ولكنها لم تتحقق . اما سبب هذا الاخفاق فيجب البحث عنه في احوال سكان الارياف باعتماد سياسة هدفت الى استئالة العناصر المدنية ، فعلاً او قوة ، دون غيرهم تقريباً . فنتج عن ذلك ان الأعباء التي استتبعتها الطابع العمراني والمدني للحضارة كما نظروا اليها قد سحقت الفلاحين سحقاً : فحال البؤس الذي كان يصيبهم بفعل هذه الاعباء دون التفافهم المخلص ودفعهم احياناً الى اللصوصية المسلحة والتمرد ، ودائماً الى السلبية .

اجل سبق للملكيات اليونانية الشرقية ان تأملت من هذا الداء . ولكن روما لم تستخلص أي درس من امثلة مصير هذه الملكيات . بل قوّى فيها اتصالها بالعالم اليوناني مثل المدينة الذي كان مثلها منذ البدء ، فخدمت هذا المثل في نطاق جغرافي أوسع بمزيد من الثبات والوسائل المادية ، وبالتالي بمزيد من النجاح الظاهر . فقطعت من مجهودها الطويل الثمار المرة نفسها : وهل يعقل ان يتفانى الريفيون بحماس ، او اقله بخضوع ، في سبيل قضية ما زالت غريبة عنهم ؟

وعلى غرار الحضارة الهلينية ايضاً ، لم تحاول الحضارة الرومانية استخدام المعارف النظرية التي توصل اليها العلماء لصناعة الآلات المتقنة . وليس من الاهمية بمكان هنا ان لا يحقق العلم أي تقدم في روما . فان روما قد وقفت على العلم اليوناني ولم تستفد منه عملياً ، كما لم تستفد منه العالم اليوناني من قبل . ولعل النخبة الاجتماعية الرومانية تفوقت على النخبة الاجتماعية اليونانية ، لا سيما في اواخر الجمهورية ، على صعيد استثمار رؤوس اموالها ، كما تفوقت عليها في الاهتمام لاستثمار أملاكها وبيع مصنوعات . ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، اذ ان نشاطها الاقتصادي الرئيسي ، حتى في هذه الفترة ، قد تناول الربا على أشكاله . وهي لم تحدث ، على كل حال ، مصانع كبرى تقوم الآلات فيها مقام اليد العاملة وتؤمن انتاجاً صناعياً أوفر بكلفة أدنى : فبقيت الآلة أداة حرب او طرفة غريبة . ومع اننا لا نستطيع اجمال قسوة الحكم القديم على العمل الصناعي ، فان وجود الرق يفسر جزئياً هذا الاحجام . ولكن هذا الاحجام بدوره يفسر استمرار الرق : اذ ان شخصاً واحداً لم يفكر بالغائه لأن شخصاً واحداً لم يتصور امكان تنفيذ الأعمال المادية الضرورية بدون ارقاء . ويمكن القول ، من ثم ، بسبب التنافس بين الارقاء وكلفة الانتاج المرتفعة ، ان هذا الاحجام يفسر ايضاً استمرار بؤس الطبقات الاجتماعية الدنيا ، الريفية منها والمدنية .

لم يحسّن الانتاج الزراعي والتعديني والصناعي اذن طرائقه القديمة . فقد أنيط ، في مجموعه ، بيد عاملة متألمة وغير راضية بمصيرها ، لا يستميلها الى عملها شيء ، ويميل عددها الاجمالي - اقله بسبب صعوبة الحصول على ارقاء جدد - الى الانخفاض ، بينما يزداد عدد السكان العاطلين عن العمل . فهل من عجب اذا ما هدد هذا الانتاج خطر عجز دائم ؟ لم يعرف التوازن الاقتصادي في العالم الروماني أي استقرار : فكان تحت رحمة موسم سيء ، او اضطراب ، او حادث يخشى منه ان يتطور الى أزمة .

لذلك فان الدولة التي تتوقف مواردها في النتيجة على الانتاج العام قد عرفت المزيد من الصعوبات المالية . ولم تنج منها الجمهورية إلا بفضل اسلاب أفقرت المناطق التي احتلتها ، كما لم تنج منها الامبراطورية إلا خلال فترات قصيرة جداً ، بعد وضع يدها على الكنوز التي كدّتها أفراد أثرياء صادروا الامبراطور ثروتهم او شعوب غرباء كالدايسين الذين هزمهم تراجانس . ثم ألحت الحاجة بأن تصبح الدولة بيروقراطية وتستلم زمام الاقتصاد وتسبب نظام جبائية مرهقاً : فلفقتها .

الدرس هنا ايضاً ملكية هلينية على الاقل هي ملكية البطالسة في مصر .

نشأ الخطر الأشدّ أخيراً من ماضي روما الجمهوري الذي اوجب عليها تأمين الغذاء للشرط الأكبر من الكادحين الرومانيين ، ومن النظرية الملكية التي فرضت سياسة البذخ في البناء ، فكان للعجز المالي صدهاء في القوى المسلحة بنوع خاص . ولم يكن المجندون يوماً يكفون للقيام بالمهام المطلوبة منهم . فقد ورثت الامبراطورية من الجمهورية جيشاً محترفاً باهظ النفقات . ومن حيث انها ملكية قامت على أشلاء الحريات السياسية ، لم يسعها إعادة خدمة عسكرية اجبارية ألفاها النظام الذي سبقها : فتوجب عليها ، والحالة هذه ، استمالة المتطوعين بالوعود المادية . وتوجب عليها ، بسبب اقتقارها الى المال ، اللجوء الى اقل العناصر البشرية تطلباً ، أي الى غير المواطنين ، وتدرجياً ، الى البرابرة : فكان وقت فقد فيه الجيش الامبراطوري صفته الرومانية . غير ان هذا الجيش لم يبلغ عدداً مرتفعاً في يوم من الايام : فكان التوازن العسكري متضعاً على غرار التوازن الاقتصادي . فمنذ ان أضافت الثروات الناتجة عن الفتوحات ، خلال القرن الثاني قبل المسيح ، الى اجر حقير يتقاضاه مواطن يخاطر بحياته لأجل وطنه ، الغنيمة والمكافآت التي توفر له اليسار ، صدر الحكم على روما بهذا التضعع . ولن يلبث هذا التضعع ، عاجلاً ام آجلاً ، ان يعود عليها بالشؤم .

بعد قولنا هذا ، او بالاحرى بعد جمعه ، - لأن عناصره كانت موزعة على اجزاء هذا الكتاب - يجدر بنا الاعتراف بأن هنالك مجهولاً لا يجوز نكرانه . لنتمسور حضارة اقل طابعاً مدنياً ، تبذل جهداً لتحقيق المزيد من الانتاج ولتوفير المزيد من اليسار للمساكين ، وتقدم للدولة المزيد من الموارد ، وتليح لها تعهد جيش أكبر عدداً ، وتلجأ الى خدمات مواطنيها على مدى اوسع : فهل كان من شأن كل ذلك ، الذي يبدو ممكناً نظرياً ، ان يسمح لروما بوقف موجات البرابرة المستمرة التي يدفعها نحو الرين والدانوب شعوب أخرى تتدافعها من وراء آتية من عوالم نائية ؟ ان في الاجابة على هذا السؤال ، اثباتاً او نفياً ، لجسارة كبرى : لا سيما وان الطريقة الاختبارية لا يمكن تطبيقها للتأكد من مثل هذه الافتراضات . فلنكتف بالقول ان هذه الشوائب قد أضعفت دفاع روما حين احدقت بها كل هذه الاخطار : فالداء مزمن ولم تستطع الامبراطورية الثانية معالجته على الرغم مما انطوت عليه انتهازيتها من حزم .

لقد ماتت روما القديمة اذن . في السنة ٤١٧ ، اي بعد مرور سبع سنوات على انهيار حضارة غارة ألاريك ، عاد روثيلوس ثاماتيانوس ، الغالي الوثني ، الى مسقط رأسه ، ورغب في الرد على تصريحات القديس اوغسطينوس اللامبالية في « مدينة الله » ، فأعرب آنذاك ، في ابيات شعرية كلاسيكية مؤثرة عن اليقين الواثق الذي اوحى به اليه مستقبل « المدينة » الزمني : « ان القرون التي ستعيشينها لن تعرف نهاية ما دامت الارض ارضاً والكواكب ساجدة في السماء . انت تستمدن قوة جديدة مما يهدم الممالك الاخرى . فالبحث في المصائب عن مبدأ النمو هو سنة الانبعاث » . ولكن الوقائع لن تلبث ان تناقص هذا التفاؤل . فماذا بقي من الامبراطورية الغربية مائة سنة بعد ثيودوسيوس « الكبير » ؟ او ماذا بقي من الحضارة الرومانية

التي هي الأم في منظار هذا الكتاب ٩

لا شيء يذكر مما هو حي. لا شيء تقريباً سوى المسيحية التي لا تزال تحمل في تنظيم كنيستنا وفي الفكرة المسكونية التي تجيش فيها طابع الامبراطورية الذي لا يمحى . ولكن المسيحية ديانة تبنتها روما وشاركتها دون ان تصدر عنها اساساً : لذلك فالمسيحية أثر عظيم بحد ذاته ، هزيل بالنسبة للوقائع السابقة . اما ما تبقى فأطلال وأطلال : ممالك بربرية مستقلة ؛ مناطق تنكش على نفسها انكشافاً بدائياً وتعيش حياة خاصة ولن تلبث ان تنفصل ، حتى في لغاتها ، عن جذع الحضارة اللاتينية المشترك ؛ مدن مشلولة تعاني سكرات الموت تتداعى ابنيتها شيئاً فشيئاً ؛ مجتمع ريفي بنوع خاص يسيطر عليه سيد تنازلت له الدولة عن حقوقها .

إرث روما
بيد ان هذه الانقراض المتراكمة لم تحل دون بقاء ارث غير مادي . ولا نعني بقاءه في القلوب : لأن لنكران الجميل ، الذي يفرضه النسيان ، مزية تسمح للانسانية بأن لا تذوب أسفاً على الماضي المفقود وتتطلع الى المستقبل . بل في الكتب التي ما زال بعضهم يستنسخونها ، ولو لم يفهموها دائماً ، والتي سيوجد في عهد لاحق من يعرف كيف يجمعها ويحيي تعليمها .

فروما لم تكثف بأن نقلت الى الغرب العناصر الهامة في الحضارة اليونانية بعد ان استساغتها لاستعمالها الخاص . بل أضافت اليها إسهامها ببناء القانون وبناء دولة غير المدينة الصغيرة . اجل ، وضعت الملكية الهلينية الرسم الايجازي لهذه الدولة . ولكن روما هي الاولى التي سوّت ، امام السلطة الموكول اليها امر ادارة المصالح المشتركة ، الوضع القانوني لكافة الرجال الاحرار . وهي الاولى التي تخطت انتصارها وألفت التمييز بين غالب ومغلوب باحلال قوميتها محل كافة القوميات . فقد أطلق المعاصرون على الامبراطور فيلبوس اسم « العربي » ، وهو الذي احتفل في السنة ٢٤٨ بأعياد الذكرى الالفية للمدينة التي أسسها رومولوس : وهو في الواقع قد ولد في ما وراء الاردن ، وان صفته الامبراطورية في مثل هذه الذكرى لرمز الى اعظم المظاهر تميزاً في السياسة الرومانية . وكذلك فان روتيلوس ثاماتيانوس قد كتب ، لمناسبة « عودته » الى غاليا هذه الأبيات الشعرية المشهورة ، موجهاً كلامه الى روما :

« صنعت وطناً واحداً من شعوب مختلفة ،
... وصنعت « المدينة » مما كان العالم من قبل »

وتحمل شهرتها الحلال ، احياناً ، على اهمال التحفظات التي تستوجبها : فان لقب « المواطن الروماني » ، حين وزعته الامبراطورية الرومانية بسخاء ، كان خالياً ، منذ زمن بعيد ، من جوهره السياسي ، كما ان « المدينة » التي أصبح حامل هذا اللقب ابناً لها لم تعد هي نفسها مدينة الاخوين غراكوس ، او حتى مدينة شيشرون . بيد ان « المواطن » الجديد قد انتسب الى دولة تسهر على سيادة النظام وتفرض الطاعة على الجميع وتمنع تجاوزات السلطة وتحيط النشاط الجماعي

بإدارة منظمة . فهذه المفاهيم لن تلتظر عهد النهضة حتى تنهض ، اذ انها في الاساس من كل جهاز سياسي معاصر .

وهل يجوز للمؤرخ اخيراً ان يبتعد عن روما دون ان يعبر عن دهشته وذهوله امام مصيرها الذي هو واحد من اعجب المصائر التي رسمها التاريخ؟ ولدت ولادة مغمورة كمرکز لناحية ريفية صغيرة ، فأصبحت سيّدة عالم بأسره ، ثم عاصمته ، قبل ان تنحني امام هجوم فوضوي انطلق من عالم آخر . عرفت كل الانظمة على التوالي : الملكية التي حلت محلها جمهورية ارستوقراطية ، والديموقراطية المترنحة التي انتهت الى الدكتاتورية العسكرية ، والملكية المعتدلة التي انتهت الى الحكم المطلق ذي الحق الإلهي . كما عرفت ، في داخلها ، شتى الانظمة الاقتصادية والاجتماعية : الاملاك الريفية الصغيرة والاملاك الواسعة ، والشركة المالية القوية ، والصناعة اليدوية الفردية ، والفن التعاوني القاسي الذي فرضته السلطات العامة ، وملوك الثروة ، والعاطلين عن العمل الذين تغذيهم الدولة ، والمصارعين الذين تقدم معاركهم ودمهم وموتهم لألهي للجهاير . وحققت بجهودها المتواصلة واقتباسها عن الاجانب ، ثقافة عقلية وكلاسيكية ما لبثت ان طفى عليها تدريجياً التصنع والإسفاف والرمزية . فما هي الجماعة البشرية التي قطعت مثل هذا الخط المنحني الطويل وجمعت هذا القدر من المظاهر المختلفة في ديمومة تطورها المنطقية ؟ ان من يرغب في تكوين فكرة عن التناقضات والتحويلات التي يمكن ان يطلع بها مجتمع ما ، لن يجد في غير مكان امثلة ومواضيع تأمل ام عظيمة ووفرة وافادة علمية .

القسم الثالث

آسيا الشرقية من مطلع المسيحية حتى أواخر القرن الرابع

تخصيص مجلدين لهذا القسم اضطررنا لأن نقوم بعملية انقطاع او توقف في اواخر القرن الاول قبل الميلاد . فقد سبق ونوهنا ، في المجلد الاول^(١) ، (ص ٦٠٤) ان ما من تغير ملحوظ حري بالانتباه طراً على تطور الحضارة في الهند والصين ، يبرر مثل هذا الانقطاع . قد يكون له ما يبرره نوعاً ما ، من الوجهة التاريخية : فسقوط عهد سلالة الكنوا ، حوالي سنة ٥٠ ق.م. قد يكون مهتد الطريق لظهور سلالة اخرى ، في الهند ، ابعد الى الشمال ، هي سلالة كوشانا . الا ان هذه الاسرة الجديدة ، رغبة منها في تيسير الاتصالات بين شمالي الهند والمناطق الهندھارية ، اخذت بعد هذا التاريخ بمدة تحرص على بقاء طرق المواصلات هذه ، قائمة بين الطرفين لتأمين تسرب المزيد من النفوذ الهندي وتقلقله نحو الجنوب ، ولكن هذا الامر لم يعطل قط الاخذ بأسباب التطور الحضاري . وهكذا الامر مع الصين . فاستبدال فرع هان السابق ، عام ٢٥ بعد المسيح ، بفرعها اللاحق ، لم يترك له اثر يذكر في مجال الحضارة التي لن يطرأ عليها اي تغيير ملحوظ الا بعد هذا العهد بنحو مائتي سنة .

ولكي نفهم جيداً ، وعلى وجه اتم ، الاحداث التي هي موضوع بحثنا هنا ، قد يبدو ن الضرورة بكان ان نعالج ، من جديد ، احداثاً تاريخية ، سبق ان عالجنها في السابق .

(١) الشرق واليونان القديمة - منشورات عويدات.

الفصل الأول

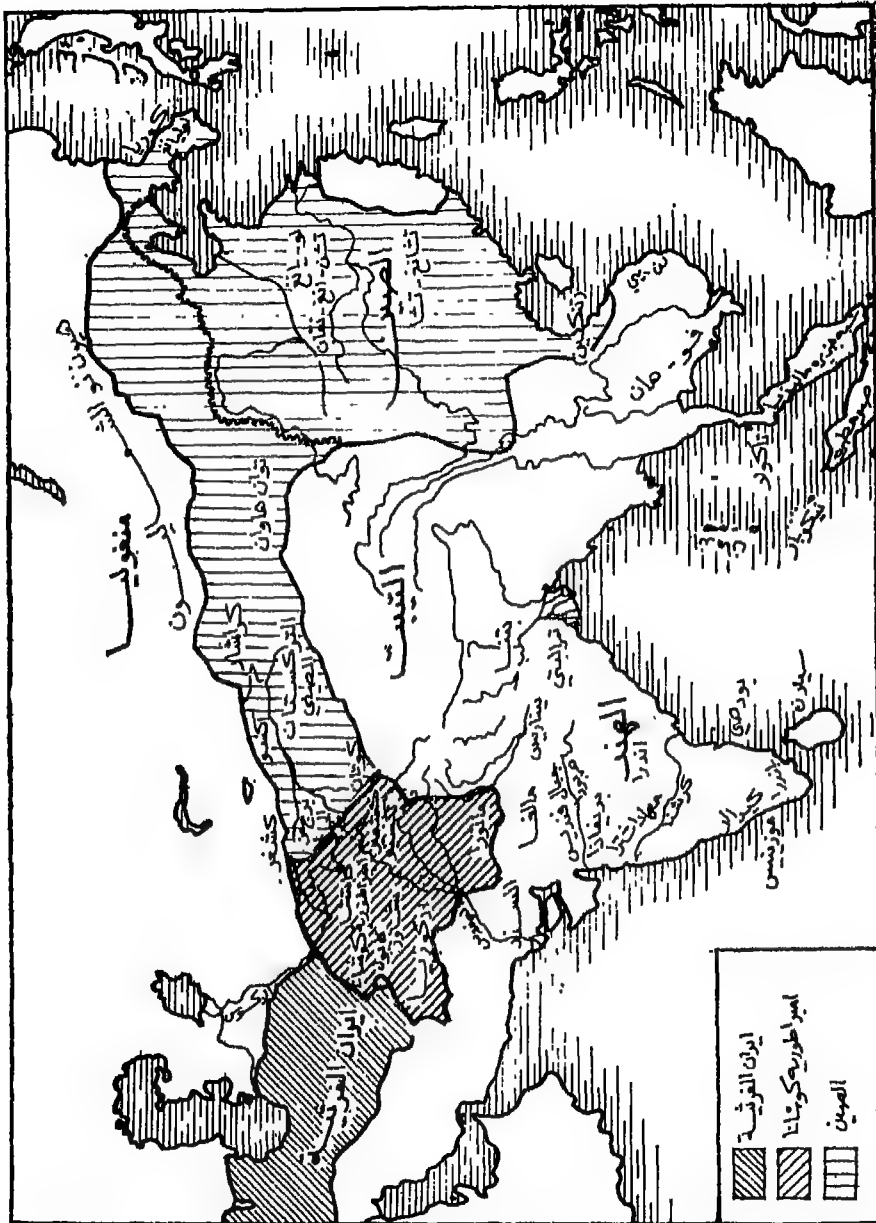
وصف عام لآسيا الشرقية

١ - ثلاثة اقطاب للاشعاع الحضاري

بلغت المراكز الحضارية التي تألفت من قبل ، في تطورها الصاعد ، درجة من النضج بحيث تمت لها سلطة مركزية واشعاع ديني متقدم ومواصلات تجارية منتظمة . وعلى كل ، فميزة هذه الحقبة ليست الازدهار المازن السوي - بل شيئاً اشبه ما يكون بهذا الغليان الفكري الذي عرفته الاجيال الوسطى حيث كان يحيش ، تحت ستار من التوازن الظاهر ، فكر غلاب ، مبدع ، خصب ، نذير فيض من الحيوية التي تسبق حقبة من الانجازات التي تتسم بالنضج والكلاسيكية .

فكل ما في هذه الحقبة يدل على انها حقبة اختار وانتقال - حقبة تركيز للعناصر التي لا بد منها لكل نظام ، وتأکید للسيطرة المكتسبة .

حقبة الانتقال هذه ، تتميز بسلسلة متصلة الحلقات من الغزوات الحقت تغييراً
ايران من الخارج كبيراً في الممالك الهند - اليونانية التي قامت بين الهند وايران ، في الحقبة السابقة . فهؤلاء الغزاة الجدد : الساكاهم اقوام من الغز أو السكيثيين ، في شبه حركة دائمة منذ عدة قرون ، فاضطروا للرجوع القهقري بمد ان اصطدموا بشعوب هيونغ - نو (الهون ، فنكصوا على اعقابهم الى بكترينان ومنها ارتدوا بموجات متتالية حتى مشارف الهند ، في القرن الاول قبل الميلاد ، واستقروا في دلتا نهر الهندوس ، فاتخذوا منه ممراً ليهاجوا بممالك اليونان في غندهارا ، وما لبثت هذه الممالك الهند الاوروبية ان تفتتت وزالت تبعاً من الوجود . وما عمت اقوام الساكاهم التي استقرت في هذه المنطقة واتخذت منها موطناً جديداً لها ، ان راحت تقتبس الكثير من الحضارة الهلينية التي نقلها معهم الهند - اليونان . وقد جاشت هذه القبائل بالاطماع ، واشترأت باعنائها الى الفتح ، فاتجهت باحدى نواظرها نحو ايران الواقعة تحت حكم الاخمينيين ، وبالاخرى نحو الهند تحاول اقتباس الكثير من عناصر حضارتها . فالنقود التي خلفوها توضح تماماً هذا الاتجاه ولا تدع مجالاً للشك قط . فهي كالعملة اليونانية ، جميلة المظهر ،

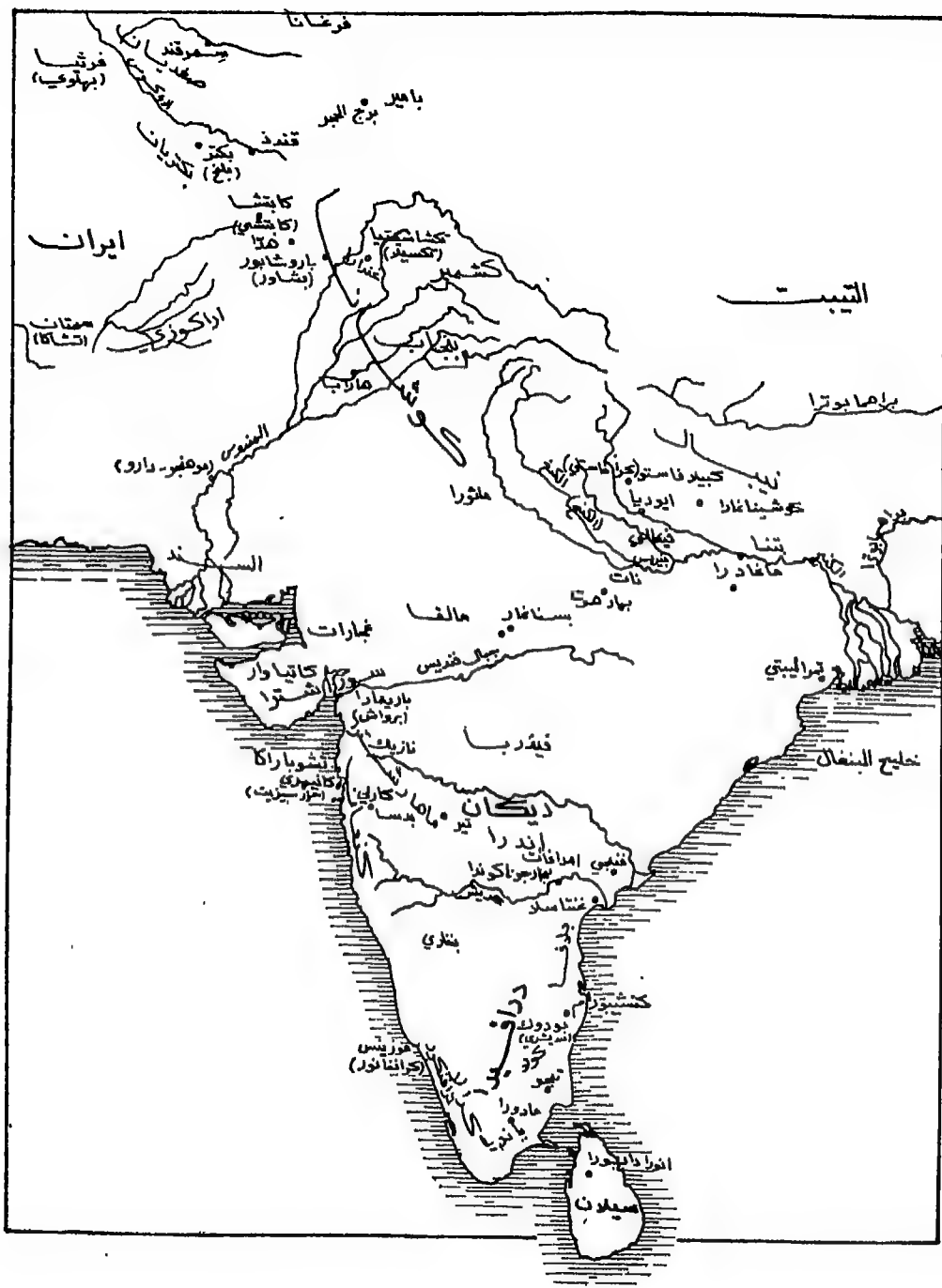


الشكل ٢٨ - آسيا في القرنين الأول والثاني
بعد الميلاد

فقد اسقطت اسم الفارزفس واستبدلته باسم ملك الملوك ، وهو لقب ملوك الدولة الاخمينية ونقشته بالحرف اليوناني من جهة ، وبالحرف الكاروشي ، احدى لهجات الهند ، من الجهة الاخرى . وتمثل السلطة المركزية في الولايات بمرزبان ، كما يتولى امر الجيش فيها قائد يحمل لقب ستراتيج *Stratège* ، كما عُرف عند الاغريق ، ولو حملوا اسماء هندية . ومن جهة اخرى نرى رابطة قريى بين قبائل الساكا وبين الفارثيين (فهلوى) ايران .

فالآثار الهلينية التي تزداد وتنمو في عهد السيطرة الهندو - اليونانية ، تتسرب بدورها بمؤثرات ايرانية ، وان شئت ، فقل تنتقل عن طريق ايران التي سبق لها وتهلنت نوعاً . ولا يلبث مثل روما ان اصبح مثلاً يحتذى ، لدى ملوك الشرق . وبهذا تحتل روما محل اليونان في مجال التأثير . وهكذا نرى الشعوب المجاورة للهند ولايران لا تلبث ان تقع تحت جملة من المؤثرات الاجنبية فتعملان على تمثلا واستمراثا وتكييفها ، طبقاً للتقاليد المرعية عندها . ويظهر ذلك كله بوضوح في هذا الفن المعروف بالفن اليوناني البوذي ، حيث نرى عناصر فنية هلينية ، رومانية وتدمرية ، ثم بيزنطية ، بعد فترة قصيرة .

في القرن الاول للمسيح ، نرى سيطرة قبائل الساكا والهلوى في خطر من جراء غزاة أطلقوا من جديد لم يلبثوا ان قضوا عليها واطاحوا بها ، هم الكوشا ، الذين يتون بنسب وثيق لقبائل يوه - تشه الذين يرجح العارفون انهم من التوخاريين سكان منطقة خوتان ، من هذه العروق الايرانية الشرقية . فقد مرت عليهم عهود كانوا فيها من البدو واهل ظعن ، يهيمنون في فيافي نهر الاوكسوس والبيكتريان ، وبقيادة زعماء محنكين (حمل اولهم اسم كويولاكاسا وباليونانية : كوزولوكادفيزيس ، وبهذا اللقب عُرف ايضاً ابنه وخليفته على رئاسة القوم ، المسمى : فياكاثيزا) ثم اقتطعوا من الفارثيين ، مقاطعات كابول واراكوزي وكل البنجاب . واستطاعوا ، خلال القرن الاول والنصف الاول من القرن الثاني ، ان يصلوا بغزواتهم الى مدينة بنارس ، ومنها جنوباً حتى مقاطعة نربودا ، ومنذ ذلك الحين اخذ هؤلاء الملوك يلقبون انفسهم : بـ « ملوك العالم اجمعين » وهو لقب مستمد من الالقاب التي كان يحملها ملوك الفرس قديماً . واستطاع الثالث بين ملوكهم ، وهو المدعو كانيشكا ان يوسع حدود سلطانه ، اذ جعل عاصمة ملكه ، شتاء ، مدينة بشاور ، كما جعل من مدينة بغرام عاصمته خلال فصل الصيف ، جامعاً تحت سيطرته المباشرة : مقاطعات غندهارا وكابل . كذلك بسط سيطرته على كشمير والبنجاب ووادي نهر الغنغ حتى مدينة بتنا وقد يكون اخضع لسلطانه مقاطعة ماهاراشترا ، كما يرجح بعضهم . وكان مركز الثقل في امپراطوريته ، بالنسبة الى دولة موريا بلسنغ ، من الشمال الغربي ، كما تدل اتصالاته العديدة على الحدود الشمالية الغربية ، مع الفارثيين (فهلوى) الذين يعملون على نشر المؤثرات الهلينية والايرانية ؛ ومع الصين والتركستان الشرقي ، الذي ضرب عليه الجزية ، وان لم يتمكن من بسط سيطرته على هذه المنطقة . وفي عهده ، كما يرجحون ، ارسل عدة وفادات هندية ، الى الصين فسارت اليها متبعة



الشكل ٢٩ - الهند في عهد السكورشانا والأنندمرا

طريق بحار الجنوب (١٤٧ - ١٦٧) .

ومع اننا نجعل بالتدقيق حدّي حكم كانيشكا، فالارجح انه حكم مدة اربعين سنة ، في النصف الثاني من القرن الثاني (اي كما يرجح غرشمان: من ١٤٤ - ١٨٥) . فهو يمثل ، على شاكلة موريا اسوكا ، العهد الذي بلغت فيه امبراطورية كوشانا ، الذروة من المجد والسلطان ، وراح يعمل على نشر البوذية بعد ان اعتنقها ، كما اخذ تحت حمايته ايضاً الجانية والبراهمانية ، واذا كان الاول بين ملوك الهند يضرب السكة حاملة صورة بودا ، فقد حرص كذلك على سك بعض عملات تحمل آلهة الايرانيين . « سيد المفترق الكبير لهذه الحضارات الناشطة التي عرفها عهده » . فقد تمت لهذا الملك شخصية ممتازة تحدثنا عنها التقاليد البوذية المرعية في شمال الهند والتيتب والصين حتى ومنغوليا . ومع انه سيطر على جانب كبير من الهند ، فهو يبدو ، في الصور التي أخذت له في المناسبات الرسمية ، مرتدياً الزي الدارج في قبيلته وبني قومه بلحية كثة . وهو شيء لم تعرفه الهند ، مع عمة طويلة وقفطان مسترسل ، وجزمة ضخمة من اللباد ، وهو لبس قائد حملة ، يقطع الفيافي على صهوة حصانه ، يطاء على حين غرة ، ما تناءى من البلدان . ومع هذا ، فالفن البوذي في ذلك العصر ، الممثل خير تمثيل في ماتورا ، يستمر في تطوره وفقاً للنماذج المعروفة ، دون ان يبدو عليه اي تأثير من الخارج .

فهذه الوحدة السياسية التي تمتعت بها الهند جزئياً ، في عهد كوشانا ، وهذا الاختار الفكري الذي سببه اتصالها بالخارج ، هيا لها ازدهاراً فكرياً وفنياً انبثق من تقاليدها الوطنية المتوارثة . والراجح لدى اهل العلم ، ان الملحمة الهندية الرميّانا اكتمل وضعها في هذه الحقبة ، كما ان الملحمة الاخرى : المهبهراتا ، كانت ، هي الاخرى ، في سبيل الانحياز . ومن المظنون كذلك ان هذه الحقبة شهدت ايضاً وضع البهاغافات جيتا . فان صح هذا الرأي ، فالقضية لا تخلو من اهمية ، لانها تعني ظهور نظرية البهاكتي وهي النظرية التي تقول بإمكان وصول الانسان الى الالهية ، ليس فقط عن طريق التضحية والزهد والتنسك ، والمعرفة الروحانية ، بل ايضاً ، ولا سيما ، عن طريق التبعّد والتهجّع ومحبة الله . كل هذا انما يعني وجود اله واحد احّد ، ويسجل تقدماً ملموساً وتطوراً محسوساً بالنسبة للحقبة المنصرمة . ونظراً لاختلاط الشعوب وتمازجها بعضاً ببعض ، في هذه الحقبة ، ولظهور المسيحية واقترايحها من الهند ، راح البعض يتساءل ما اذا كانت هذه العقيدة الدينية تأثرت ، من قريب او بعيد ، بالتعاليم المسيحية الناشئة ، كما تشير الى ذلك بعض الدلائل . من الامور المسلم بها ، حسب التقليد المسيحي ، ان الرسول القديس توما هو اول من حمل الكرازة بالانجيل الى هذه الناحية الشمالية الشرقية من الهند ، وبدون ان نأخذ بهذا التقليد الذي لا ينهض على اساس تاريخي ثابت ، قد يكون في التنويه به ، اشارة من بعيد او دلالة ما ، على شيء من هذا التفاعل الممكن .

وهذا النشاط يبدو على الآداب الدينية يقابله ، من جهة أخرى ، ظهور أقدم محاولات فن الدراما في الهند ، ممثلة بما وصل إلينا من بعض آثار أسفاغوشا *Asvaghoshu* التمثيلية ، الذي كان ، حسباً ترويه التقاليد المتوارثة ، وزيراً للملك كانيشكا ، وغيرها من هذه المسرحيات

الكاملة التي وضعها بهاشا ، (اواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع) ويمكن ان نتبين في هذا الانتاج ، كما يبدو ، اذ ذاك ، أسس المسرح الكلاسيكي ، الذي سيبلغ ازدهاره ، الذروة في عهد الاسرة الملكية الغويوتا . كذلك يمكن ان نرد الى هذا العصر ، ظهور مجموعة من الحكايات على لسان الحيوانات ، هو كتاب المكائد الخمس ، وهو كتاب أريد به الموعظة ، وعليه عولت البوذية كثيراً في الحقبة السابقة . ومن النتائج التي أدت اليها هذه الغزوات والفتوحات ، نشر اللغة السنسكريتية وتعميمها ، وذلك باطلاقها من حيز البرهمانية الضيق واستعمالها ، على نطاق واسع ، ليس فقط في الأدب العلماني او الديني ، بل أيضاً في لغة العلم والثقافة ، واللغة الرسمية ، شاهد على ذلك هذه النقوش والكتابات الحجرية . وقد استخدمت البوذية هذه اللغة في المناطق الغربية الشمالية من الهند ، واتخذتها بديلاً عن اللهجة الهندية الوسطى المحكية في المناطق الاخرى . اما الأسباب التي جعلت السنسكريتية ، هذه اللغة القديمة المقدسة ، لغة حية ولغة علمانية ، فهي ، من جهة ، ردة الفعل التي قابلت بها الهند الغزاة ، فواجهتهم باداة تعبير لها احترامها في النفوس ومزلتها في القلوب ، مفهومة لدى الهنود جميعاً ، ومن جهة اخرى ، أنفئة من هؤلاء الدخلاء الأجانب الذين لم يتورعوا عن استخدام هذه اللغة المقدسة لأغراض دينوية . لم يكن للمتأخرين من ملوك دولة كوشانا ، من السؤدد والشأن ما كان للمتقدمين منهم ، فقد أثارت الدولة الساسانية في ايران امامهم مصاعب كأداء ، تعثروا بها وتضرسوا بويلاتها فجلبت نهايتهم ، اذ توالى عليهم في منتصف القرن الثالث للميلاد ، انكسارات تقلصت معها سيطرتهم ، وانكسحت سيادتهم على آسيا الوسطى والسند . واذا كنا لا نزال نرى ، في القرنين التاليين ، بعض ملوك دولة كوشانا ، يحكمون في بعض مناطق الهند الغربية الشمالية ، فلن يعمتوا ان يطويعهم التاريخ ، ويدخلوا في خبر كان ، بعد ان اقتطع الايرانيون ، خلال فترة غامضة ، طويلة ، ولو تعذر علينا تحديدها ، بعض ممتلكاتهم . وهكذا انتقلت نقطة الثقل ، قليلاً ، ابعد الى الشرق ، مع ان نفوذ ايران بلغ اشده في الهند في هذه الحقبة ، واستمر فيها حتى عام ٤٥٠ .

واستجابة منها لهذا الازدهار الذي تألق سناه في مناطق الهند الشمالية ، شهدت المنطقة الدرافيدية طلوع عدد من الممالك على ارضها ، أخذ بعضها يظهر للوجود في الحقبة السابقة ، ثم ما لبث ان ازدهر وتآلق . من اشهر هذه الممالك ، بالنظر للآثار الفنية التي خلفتها ، مملكة أندورا ، التي قامت بين المجرى الأسفل لنهرى غودافاري و كريشنا . ومع أن الأحداث التاريخية التي ميزت عهد شاناكارني أحد ملوك هذه الدولة ، لا يزال الغموض يكتنفها ، فالآثار الباقية تشهد عالياً على قيام مدينة وطيدة الاركان ازدهرت في هذه المنطقة ، كانت مدينة أمارافاتي حجر العقد فيها . والذي يبدو لنا ان ملوك هذه الدولة ، اضطروا مراراً ، للدفاع عن مملكتهم ضد تعديات ملوك تشاكا واليونان (يافانا) والفارثيين ، وبعبارة اخرى ، ضد كبار المرازبة ، خلال القرن الاول ومطلع القرن الثاني . ولعلمهم اضطروا ايضاً لصد غزوة جاءتهم من الكوشانا . بعد هذا حدثتهم أنفسهم بالفتح ، فاستولوا تباعاً : على مالفا (وحلوا فيها محل آخر ملوك دولة كانغا) ،

وعلى منطقة الكونكين الشالية ، ومقاطعة فيدرها وعلى قسم من بلاد كنارا ، ومدينتها الكبرى فيجاياتي ، ونرى عدداً من الكتابات التي خُلفتها ، عُثر عليها في نازك وكارلي وكنهاري . الا ان هذه الدولة اصبحت بالانحلال ، في اواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث ، ولم تلبث مملكتها ان تشتتت بدداً ، بين شعوب الفنجي والبلافا الذين كُتِب لهم ان يلعبوا دوراً بارزاً في التاريخ (عاصمتهم كنشيبورام) .

أما في اقصى الجنوب من الهند ، فقد قام في بلاد التامول ، ثلاث ممالك تقاسمت مقاطعاتها فيما بينها ، منذ عهد أسوكا ، وربما قبل ذلك : اما هذه الممالك فهي مملكة : بنديا - التي دعاها بطليموس : بنديون - وعاصمتها مادورا ، ومملكة كيرالا ، في ولاية ترافنكور اليوم ، ومملكة تشولا ، على ساحل كورومانديل ، ومن حواضرها الكبرى تنجور ، الواقعة على حدود اندراه . اما حقيقة تاريخ هذه الممالك ، فسللة متلاحقة من الحروب مع بعضها البعض او ضد ملوك سيلان . كان القسم الجنوبي من الهند في منأى من المؤثرات الخارجية مبدئياً ، ومع ذلك فقد تعرض لبعض منها جأته من الغرب وانتقلت اليه ، بجرأ ، عن طريق العلاقات التجارية التي شدت هذه المنطقة بروما وآسيا ومصر . فقد قامت حركة من التبادل التجاري مع غندهارا ، وبذلك تمهد السبيل للاتصال ، عن طريق البحار الجنوبية ، بما قام من الممالك المتهددة ، منها : فو - نان ، في الكوشنصين ، اليوم ، ولن - بي في مقاطعة شمبا ، على ساحل الهند الصينية الشرقي ، ودول : شبه جزيرة الملايو ، وبعض نقاط في الانسولاند ولا سيما في سومطرا .

الى جانب هذه الكتلة الهندية قامت ، في الشمال ، الصين التي عرّفت هي الاخرى الصين عهداً عظيماً استتب فيه السلام ، هو عصر الهان اللاحق الذي كان تنمة او استطراداً لعهد الهان السابق . اما الحاجز الذي انتصب حداً فاصلاً بين فرعي هذه الاسرة ، فقد وقع سنة ٨ للميلاد ، عندما اغتصب ونغ منغ ، العرش واستأثر بالسلطة . وكان ونغ منغ هذا ، احد مشاهير مثقفي عصره ، عميل وزيراً في البلاد كما كان احد فلاسفة الكونفوشية . وعندما تم له الأمر واعتلى العرش ، راح يحاول اصلاح النظام المعمول به في المملكة اذ ذاك ، كفيلسوف كونفوشي اشتراكي . وقد لقيت محاولته الاصلاحية هذه مقاومة قوية من قبل الذهنية المستبدة بالوضع الاجتماعي اذ ذاك ، منذ اجيال . فقد استطاعت طبقة كبار الملاكين منذ عهد بعيد ، ولا سيما في عهد اسرة هان ، ان توطد نفوذها وأن تنميه وترسخه ، وان تزيد كثيراً من ثروتها المقارية على حساب صغار الملاكين ، وعلى هذه الفئة من الافراد الذين تمتعوا بحرياتهم الذين ما لبثوا ان أصبحوا من التوابع او من الارقاء . وكما كان السيد المسيح ، في فلسطين يرفع عقيرته عالياً ضد الاغنياء ، هكذا راح معاصره : المصلح الاجتماعي الصيني ونغ منغ ، يهاجم بعنف ، نظام الرق والمبودية الذي وقعت البلاد تحت وطأته الشديدة . وفي هذا السبيل وضع نظاماً اشتراكياً زراعياً وتشدد في تطبيقه . فقام بعملية توزيع الاراضي من جديد ، وفرض نظاماً من الاقتصاد الموجه رمى منه ليس الى توحيد الاسعار فحسب ، بل ايضاً ، الى تكوين احتياطي من غلال

الأرض ومحاصيلها للسنين المجاف . فلا عجب ، والحالة هذه ، ألا يلاقى عمله الاصلاحي هذا معارضة قوية من قبل المحافظين ودعاة الشرعية ، فنشبت في البلاد ، من جراء هذه الاجراءات اضطرابات ونزلت بها قلاقل اجتماعية ، قامت على أثرها ، في مقاطعة شان تونغ ثورة لاهبة دامت ثلاث سنوات حاولت المعارضة استغلالها وتحويلها لمصلحتها ، مما اضطر ونغ منغ ، الى اعتزال الحكم . فأعاد الموالون للعهد الماضي وانصار الشرعية ، الأمر الى أسرة هان من جديد ، في شخص احد أبناء فرعها الاصغر . وقد امتد عهد هذه الدول الجديدة ، من سنة ٢٥ للميلاد حتى سنة ٢٢٠ ، فعادت معه الامور سيرتها الاولى ، دون ان يترك هذا الانقطاع في الحكم الذي استمر ١٧ سنة ، أي تغيير يذكر في سير تطور الصين . وفي عهد أسرة هان اللاحق عادت الصين الى سابق سيرها المألوف نحو التطور ، سواء في الداخل ام في الخارج ، كأن شيئاً ما لم يحدث . فقد استقرت فيها الامور ، من الوجهة الفكرية والروحية على ما عرفت به من تقاليد المحافظة ، كما تابعت في المجال الفني ، الاخذ بالاساليب والمناهج ذاتها التي كان سبق للبلاد ان اخذت بأساليبها ، في الماضي ونهجت فيها نهجاً سوياً ، أصبح معه من الصعب التمييز احياناً ، بين آثار هذا العهد والآثار التي تعود الى عهد الملوك المحاربين .

تمكن الفرع الثاني لأسرة هان من ان ينشئ له امبراطورية واسعة في الصين . فلم يقنعوا بانجاز فتوحاتهم في آسيا الوسطى ، بل راحوا يفرضون عليها نظاماً شديداً ، استحالت معه هذه البلاد الى حماية فعلية ، بفضل الجهود الحربية التي قام بها نابغة الحرب الصيني بان - تشاو ، *Pan Tchao* ، الذي راح بين سنة ٧٢ - ١٠٢ ينظم ويدبر الواحات القائمة في صحراء غوبي ، فأحسن بها العناية وتمهدها ، واستثمرها على أحسن وجه ، منشئاً فيها ومتخذاً منها : مراحل يأتى بها تجار الحرير في ما يسلكون من طرق تربط عبر جبال بامير ، الصين بالعالم الهندي ، والصين بروما في عهد الدولة الانطونية ، احتذاء بالتقاليد التي اتبعت في الحقبة الماضية ، اذ بلغ فيها الغرب ، الصين بواسطة علاقاته التجارية . وقد حاول بان - تشاو ان يقيم ، كما يقال ، على أسس قومية ، علاقات تجارية وسياسية مع روما بالذات ، إلا ان محاولته هذه فشلت . غير ان الحركة التجارية بقيت ناشطة على طول هذا الطريق ، وذلك بفضل السلام الصيني ، كما يلاحظ المؤرخ الفرنسي رنيه غروسيه ، هذا السلام الذي تلاقى مع السلام الروماني ، عبر ايران الفارثية . نظر الصينيون ، في القرن الثالث ، الى الامبراطورية الرومانية وسيادتها ، نظرة ملؤها التقدير والاعجاب ، كما يبدو لنا ذلك من خلال ماتم لهم من معلوماتهم المصدرة جمعوها بالتواتر ، أي بالنقل عن ألسنة الناس ، لا تتسم بالضبط والدقة . وقد يكون من المثير للفضول أن نورد هنا تنقلاً من هذه المعلومات : كانت تا - تسن ، أي تسن الكبيرة - وهذا الاسم عُرِفَت الامبراطورية الرومانية في الصين قديماً - تضم ما يزيد على ٤٠٠ مدينة ، وان عاصمتها كانت تقع عند مصب أحد الأنهر ، وان أسوار المدن كانت تقام من الحجارة . في هذه البلاد ، ينمو السرو والشربين ، والشوح والخور والصفيرا ، والصفصاف وشتى اصناف الحشائش والأشجار . معظم الناس يعنون بالزراعة ، فتدر عليهم الأرض الحبوب على أنواعها . بين الحيوانات الأليفة عندهم :

الحصان ، والحمار ، والبقل والبعر . في البلاد عدد من المشعوذين والممخرقين ، يُخرجون النار من أفواههم ، لهم من الشطارة والقدرة ما يستطيعون معه من تقييد أنفسهم بأنفسهم ، وائب يرقصوا على عشرين كرة . ليس لهذه البلاد سيد أو ملك دائم ، فالأهلون يختارون لهم ملكاً كفؤاً عندما يتهددهم خطر طارئ ، دون ان يثير ذلك أي اعتراض من قبل الملك المستبدل ؛ (في هذا تلميح الى النظام الجمهوري ، الذي سارت عليه روما قبل العهد الامبراطوري ، ولا سيما للنظام القنصلي) . والناس فيها فارعو القامة ، معروفون بالعدل والنصفة كالصينيين ، وهم يرتدون ملابس كملابس الأغراب ، ينظرون الى بلادهم نظرتهم الى صين ثانية ، دون ان نجمل هذا الاسم : تا - تسن . وقصور الملوك مكرمة لدرجة التقديس . يستعمل الناس فيها الأعلام ويقربون الطبول ، ولركباتهم سقف أبيض . في البلاد كذلك مراحل البريد وفيها محطات كالصين تماماً . ويقوم عند كل لي علامة وعند كل ٣٠ لي ، يقوم مركز هام للبريد . ليس في البلاد سرقة ولا لصوص . تسرح في بلادهم السباع والضواري ، وكثيراً ما تهاجم المسافرين ، ولذا كان السفر والتنقل في قوافل . وللكل عشرة ملوك تابع ، ودائرة مقره تزيد على ١٠٠ لي ، وللكل خمسة قصور . يقضي الملك في شؤون الناس ويتول القضاء في إحدى سراياقه ويجلس للافتاء والقضاء من الصباح الى المساء . اما قواده فعدد ٣٦ قائداً (رقم ٣٦ هو رقم مقدس عند الصينيين) ، يرجع اليهم الناس في كل ما يتصل بشؤون السياسة . فاذا ما تخلف أحدهم عن الحضور في الوقت المضروب ، رُفِعَت الجلسة ولم تُعقَد . وعند خروج الملك يصحبه مرافق يحمل حقيبة من الجلد يُلقي فيها أصحاب القضايا مطالبهم وتشكياتهم مكتوبة ، حتى اذا ما عاد الملك الى مجلسه في القصر ، نظر في كل قضية ، على حدة . اما اعتاب القصر فن البلور . والناس يعرفون القوس والنشاب ، وعملتهم من الفضة والذهب بنسبة واحد لعشرة . عندهم أقنعة ينسجونها ، على ما يقال ، من صوف الغنم . ويزعم البعض بأنهم لا يكتفون بأصواف الغنم ، فهم يستخدمون غزولاً نباتية او من الحرير الخام المحلول . ويحسون صنع السجاجيد .

يتضح من هذه الفقرة ، التي نقلها الى الفرنسية بول بيليوه ان بين التا - تسن والصين شبه كبير وميزات مشتركة . نقد علق في ذهن الصينيين في ذلك العهد ، ان هذه الامبراطورية الرومانية التي يجهلونها ولا يعرفون عنها إلا اسمها ، هي واحدة من هذه الامبراطوريات الأربع التي ينقسم اليها العالم بنسبة واحدة من الاتساع . ففي العالم اربعة أبناء السماء : احدهم في الشمال هو ملك الحصان (الهندو - الغز) والثاني في الجنوب هو ابن سماء الفيلة (الهند) ، والثالث في الشرق هو ابن البشر لأنه يحكم على احسن ناس في العالم (الصين) ، ويقوم في الغرب ابن سماء الثروة والغنى (التا - تسن) .

كانت الصين قد أقامت ، منذ القرن الثاني ، علاقات لها مع أسرة كوشانا ، في الهند ، عبر جبال البامير ، إلا انها فشلت في ربط سيطرتها على أرجاء آسيا الوسطى وقنعت منها بالجزية صاغرة . ففي الصين ، كما في الهند ، نرى الشعوب في هرج ومرج ، والأفكار ابدأ في غليان محوم . فنجم من جراء ذلك ان تسربت البوذية ، الى داخل البلاد بعد ان سلك القائون بالدعوة

لها ، الطرق نفسها التي سلكتها التجارة . وقد تابع ملوك اسرة هان في الشرق ، المهمة التي بدأ بها أسلافهم من قبل ، فرسّخوا اقدامهم في كوريا حيث كانت الحضارة الصينية دخلت واستقرت ، منذ عام ١٩٤ ق. م . ويُستدل من الآثار الكثيرة التي عُثر عليها في شمال تلك البلاد وفي الشمال الغربي منها ، ان حضارة عالية ازدهرت فيها ، خلال عهد اسرة هان ، أساسها هذه المدارس الفنية التي زهت في عدة مناطق منها ، فتطالغنا ، كما في الصين ، مدافن وأقبية قبرية تحلت جدرانها بزخارف مختلفة غاية في الدقة ، كما تطالغنا مصنوعات ، كالمشابه البرونزية ، والحلي والمجوهرات وججر اليشب والآلء ، والتماثيل المصنوعة من الخزف . والحفريات التي قام بها علماء الآثار من اليابانيين ، تنطق عالياً بما بلغته حضارة الهان ، في هذه الحقبة من الازدهار كما انها تساعدنا كثيراً على درس شأن الفنون في هذه الحقبة . ومن بين هذه الآثار التي عثروا عليها : حُبيبات من الزجاج الملون ، جيء به ، كما يقدررون ، من الشرق الروماني ، وفيها الدليل الناصع على هذه الحركة التجارية التي نشطت ، اذ ذاك ، قبلت أقاصي الصين ، متبعة في تنقلها طريق تجارة الحرير . ونشطت الصين كذلك ، علاقاتها مع الشرق ، قبلت اليابان . ويمكن تحديد اول اتصال بين البلدين ، حوالي عام ٥٧ للميلاد ، ممهدة بذلك الطريق امام علاقات انتظم حبلها واتصل ولم ينقطع إلا بعد ذلك بكثير .

وقد توطد فتح الصين لمقاطعة التونكين ، في الجنوب ، ولم ينقطع حبل هذه المواصلات بينها إلا بعد قرون ، لتعود للرسوخ من جديد بعد تغلغل الصين في الشمال من بلاد الانام . ويقابل الازدهار الفكري ، في الهند ، خلال اسرة كوشانا ، حركة من الركود الفكري والعقلي في الصين . وقد راح بعضهم يفسر ذلك باعتبار الادب الكلاسيكي الذي ميز عهد دولة الهان السابقة ، ككل متجانس ، بالرغم من اختلاف المصادر وتباينها . وهذا المجموع الكلاسيكي هو الر كيزة التي قام عليها اذ ذاك ، واقع البلاد السياسي والاجتماعي . ويمكن اتخاذه مثلاً لما اتصف به هذا العهد من الاخلاقية والتمسك بالتقاليد المتوارثة . ومن بين الفنون الادبية التي اشتهرت بها الصين ، فن التاريخ بحسب تتابع الازمنة . وهذا الفن راج أياً رواج في عهد دولة هان . فقد اشتهر فرعها السابق بتجلي المؤرخ سوما - تسن ، الملقب بحق : هيرودوتس الصين (١٤٥ - ٨٦ ق . م) فترك لنا أثراً تاريخياً وثيق الاصول ، دقيقها . اما في عهد الفرع الثاني واللاحق فقد اشتهر بهذا الفن شقيق القائد بان - تشاو وشقيقته ، وما : بان - كو (٣٢ - ٩٢) وبان - تشاو التي توفيت بعد عام ٢٠٢ للميلاد . فقد أرتّخا للأسرة بمهارة فائقة .

وعندما انهارت دولة الهان ، عام ٢٢٠ ، انقسمت الصين على نفسها وظهرت فيها ثلاث دول وطنية متنافسة . وعند مطلع عام ٣١٦ ، أطلّت على البلاد الغزوات الكبرى فزقتها شراً ممزق ، ولم تسترجع البلاد وحدتها من جديد إلا في عام ٥٨٩ . فالحرب الاهلية والفوضى والغزوات والاحتلال الاجني ، كل هذه المآسي تتكالب على البلاد وتنوخ عليها بكلّكلها ، فتجر عليها الفقر . ويرافق هذا الانهيار حركة دينية انبعثت من هذا القلق الفكري الذي سيطر على عقول الناس وقلوبهم . فالديانة التاوية Taoïsme تبدو للناس بمظهر جديد وتتقدم منهم كأنها خشبة

الخلاص ومناطق الأمل، وتغلغل بين طبقات الشعب وقويت شكيمتها بحيث أصبحت دولة ضمن الدولة. والادب نفسه اصطبغ بالزعة الدينية الجديدة، واستلهم موضوعاته من أحداث الفروسية والبطولة، ومن حياة البلاط وروحه، فسيطر الدين على عقول الناس وأذهانهم في عهد اختلط فيه الحابل بالنابل، وتلاحمت المعارك وسيطرت حوادث الحب الفج. اما الفن فقد سار في ركاب التقاليد المرعية في عهد اسرة هان ففسدت مزايه. اما النحت المضلّع، النافر، فقد سيطر واستبد. فنحن في حقبة انتقال: فبعد هذا الازدهار والاشعاع الذي عرفه الادب في عهد دولة الهان، وبعد الحقبة المضطربة المترججة التي ميزت ادارة السلالات الملكية الست التي تناوبت على الحكم، بين سنة ٢٢٠ و ٥٨٩، انفرجت غمة البلاد وكربتها عن وحدة جديدة لمبت الشعث، وضمت الاوصال، بعد تقاطع طويل، وخيم السلام من جديد على الصين في عهد الاسرة الملكية الجديدة هي اسرة سوي *Souei*.

٢ - التبادل التجاري والثقافي

ان استتباب الأمر، ورجوع السلطات المركزية الى نصابها، في العهد السابق، والازدهار الذي لاقته، والتوسع الجغرافي الذي بلغته بعض الدول الكبرى: كالهند والصين، والتألق الذي بلغته فتجاوز حدودها الى ما حولها من بلدان وأصقاع، كل هذا وما اليه، كان له أكبر الأثر في تشجيع مرافق التجارة وتنشيطها. والدور الذي كانت ايران من جهة اخرى، على أتم استعداد لتلعبه، كوسيط ناقل، والسطو الادبي الذي كان للصين على روما فاجتذبتها وحرك منها الفضول، كل ذلك زاد في أوار الحركة التجارية، كما ان اتصال الصين المباشر بالاقوام الهند - الاوروبية التي ماجت بها آسيا الوسطى، والعلاقات التي شدت كذلك الهند بالشعوب الهندية العرق مما يقع في نهاياتها، والحركة الخلاسية الواسعة النطاق، وما استتبع ذلك من تبادل الافكار واحتكاك الآراء، اقتضى الآن، أكثر من أي وقت مضى، قيام علاقات دولية فامية على أساس وطيد من الاستقرار.

وفي سبيل هذا كله، وتيسيراً لهذا كله، قامت طرق سار عليها الناس واستخدموها منذ عهد بعيد. من هذه الطرق، طريق انطلق من شمالي البحر الاسود وبحر قزوين عبر منغوليا ليُفَضِّي بِسَالِكِهِ الى منطقة بكين. إلا ان هذا الطريق كان دوماً تحت رحمة الايرانيين والغز، يتحكمون به كيفما شاؤوا. وهنالك طريق آخر سلك جنوبي صحراء غوبي *Gobi* او شمالي الجبال السماوية.

فطريق الحرير وفروعه المتشعبة بقي الطريق الرئيسي بين هذه المسالك، ان لم يكن أكثر الطرق التي شدت العالم الروماني بالعالم الصيني، وما اليه من قوابع ولواحق. وهذا الطريق الذي امتد من انطاكية الى سي - نغان - *Si - Ngan - Fon* عبر بكترين، والذي سلكه التجار منذ أقدم العصور، كان ملتقى القوافل المنطلقة من سوريا او القادمة من الصين، فتتلاقى في احد

أودية جبال بامير ، في مكان يُعرف باسم « برج الحجر » ، هو اليوم تاش كورغان ، على مقربة من يارقند . وكانت مدينة كابيشي - بگرام ، عاصمة كوشانا الصيفية ، تقع على قارعة الطريق ، كما كانت مركزاً هاماً للتبادل التجاري ، كما دلت على ذلك ، الحفريات الأثرية التي قامت بها بعثة فرنسية اشترك فيها كل من الاساتذة : جوزف وريا هاكين ، وجان كارل ، حيث عثروا على آثار مهمة تدل على ما بلغت الحركة التجارية في هذه المدينة من نشاط . فقد كشفت هذه البعثة الأركيولوجية عن « حجرتين » حرصوا على تعميتهما بكل عناية ، ضمنا مجموعة مختلفة من الأغراض والحاجيات المستوردة من روما وسوريا والاسكندرية ، أو من الهند والصين . وهذا الاكتشاف الأثري العظيم ساعد كثيراً على تنمية معلوماتنا حول الحركة التجارية التي شدت ، اذ ذاك ، الغرب الى الشرق ، كما تثبت بصورة لا تدع مجالاً للشك ، ما بلغت المقايضات التجارية من نشاط . فقد صدر العالم الروماني موازين وعبارات من البرونز بشكل صورة نصفية للإله اثينا ، من ذات الطراز الذي كشفت عنه حفريات مدينة بومبيي ، وقوالب مفرغة من الجبس كان يستعملها من يتولون صبها وإفراغها ، وصوراً هليلية الصنع ، يقوم بإفراغها فنانون من الغرب . كذلك من بين الأشياء المستوردة من الاسكندرية ، حاجيات ملونة ورسوم وصور كلاسيكية ، منها مثلاً : حادث خطف يوروثيا ، وحادثة خطف غانيميذيس على يد رب الأرباب زفس بعد ان تلبس بصورة نسر ، ومعارك المتصارعين ، وأعمال فروسية من الطراز القديم ، وغير ذلك . أما بين مصنوعات الهند المصدرة ، فقد وجدت : كراس ومقاعد تقوم على قوائم ، وخزائن وغير ذلك من قطع الأثاث والمفروشات ، اتخذت مادتها من الخشب المطعم والمكثف ، أو المصقح بصفائح من العاج المنقوش أو المحفور ، لا تزال تظهر عليها بعض الألوان والتزويق ، أو « لبست بالميكال » أو الطلق . فاذا كانت أشكال هذه القطع وصورها المتنوعة معروفة لدينا الآن ، فالفضل يعود لما وصلنا من رسوم ذلك العصر ، واذا كنا نعرف اليوم ، ان العاج كان يستعمل في المفروشات ، كما نقرأ ذلك في ادب ذلك العصر ، فلم تتوفر لنا الفرصة من قبل لمشاهدة بعض آثار هذه المفروشات بعينها ، لأن اقليم الهند أو تربتها لم يكن ليساعدا قط على حفظها ، وكان يقتضي لبقائها وصيانتها ان يتولى احد من سكان المقاطعات الشمالية التابعة لامبراطورية كوشانا ، جمعها وحفظها في محل امين يكون بنأى عن غزو طاريء مفاجيء ، قام به الملك سابور الاول ، على ما يرجحون . أما الصين ، فقد كانت تصدر طوساً من صمغ اللك ، تزينها رسوم خاصة ، مما استقرت عليه الإذواق في عهد دولة هان . وفي هذا الكشف ما فيه من دليل على الحركة التجارية التي كانت تعتمد على مصنوعات يستوردها التجار من الشرق والغرب على السواء .

فاذا كان هذا الكشف هو أهم الكشف التي تعثرت بها معاول علماء الآثار في نقطة كانت تمر بها تجارة الحز والحبر ، من حيث طبيعة المقايضات التجارية والحضارية التي كان يتبادلها الطرفان ، فهناك ، الى جانب هذا ، أدلة كثيرة على مبلغ نشاط المقايضات التجارية بين الطرفين ، في هذا العهد . من ذلك مثلاً ، وفرة قطع النقود الرومانية التي عثر عليها في عدد كبير متلاحق ، من الأقطار الآسيوية ، سواء في الهند أم في الصين . فقد كانت الصين تستورد

عدداً كبيراً من البضائع المصنوعة في الغرب ، كالزجاج الروماني او الاسكندري ، والعنبر او الكهريا (الملقب بروح النمر) الذي كان يؤتى به من شطآن بحر البلطيق ، والمرجان المستخرج من مغاوص البحر المتوسط في عرض جزيرة صقلية ، اذ كانت السفن تنهول نقله الى مدينة بومباي ، في الهند ، ومنها تنقله القوافل البرية ، عبر التركستان الصيني حتى الصين ، وحجر الفتييل ، وهو ايضاً من محاصيل بلدان البحر المتوسط ، والارجوان والطيوب ، والعطور على أنواعها وتختلف ألوانها ، وأنواع الديباج الغالي الثمن المزركش بأسلاك من الذهب والفضة ، وغير ذلك من الانسجة والمجوهرات كالسجاجيد ، والمصنوعات الهلينية التي عُثر عليها في قبور تومين - أولاً المغولية .

وهذه الطرقات العابرة القارات ، لم تكن وحدها السبيل التي سلكتها التجارة ، في ذلك العصر . ويدعوننا اكثر من سبب للظن والاعتقاد ، ان عدداً كبيراً من هذه الحاجيات التي وجدت في عدد من الأماكن الآسيوية ، تم نقلها عبر البحار على متن قوافل من السفن . علينا ان نؤمل هنا على مصدرين يونانيين ، اولهما : « رحلة في بحر أرثريا » ، وهو دليل مقتضب للتجار الذين يتجرون مع الهند ، يعود تاريخ وضعه للنصف الثاني من القرن الأول . أما الثاني منها ، فهو القسم الخاص بالهند ، من جغرافية بطليموس التي يعود تاريخ وضعها الى حوالي سنة ١٦٠ ، ويكوّن هذا الجزء ، قائمة طويلة لأهم المراكز الجغرافية المعروفة ، اذ ذاك ، في الهند ، وقد اعتمد صاحبه في وضعه على مؤلف سابق ، هو من تأليف مارينوس الصوري . وتقدمنا مصادر لاتينية أخرى بالزيد من المعلومات ، بينها الكتاب الذي وضعه بمبونيوس ميلا ، بعنوان « De Chorographia » ، ومنها « التاريخ الطبيعي » الذي وضعه بلين الاصغر (الكتاب السادس منه) ، وكلاهما من القرن الاول للميلاد . وبعض معلوماتنا بهذا الصدد مقتبسة من مصادر أخرى ، منها : *Nidessa* ، الذي يعدّ من الكتب القانونية *Canonique* في اللغة بالي ، يعود تاريخ وضعه الى القرن الاول للمسيحية ، ومنها ايضاً : « الحوليات الصينية » ، وهي ثمينّة جداً لما تتسم به من دقة وضبط .

وقد انتظمت حركة النقل البحري ، في هذا العهد ، وبلغت فيه درجة من الانضباط والدقة لم نعرفه من قبل . فنحن ان اتضح للرومان ، في مطلع القرن الاول للميلاد ، الفوائد والمغانم التي تعود عليهم من الاعتماد على نظام الارياح الموسمية لبلوغ الهند ولبارحتها في الوقت المناسب ، رأينا (راجع ص ٣٤٩) كيف ان حركة الرحلات البحرية أخذت بالتحسن . فقد كانت تغادر في اوقات معينة من كل سنة ، قافلة قوامها ١٢٠ سفينة ، سواحل البحر المتوسط متجهة نحو الهند . وكانت السلع تنطلق من موانئ النيل ، عابرة البحر الأحمر ، مستعملة مرافئ شبه الجزيرة العربية لتبلغ منها موانئ الهند ، بعد رحلة تستغرق ثلاثة أشهر تقريباً . وكانت هذه السفن تفرغ شحنها في موانئ « معينة » متفق عليها من قبل ، أشهرها على الاطلاق ، ميناء موزيريس وباريغازول ، الواقعتان على ساحل بومباي . أما السلع التي كان على الهند ان تقدمها بالمقابل ، فكانت تودع عنابر وحواصل « معينة » هي الأخرى ، بحيث لا يمتد بقاء البحارة الغربيين في

الهند ، طويلا ، اذ كان عليهم ان يغادروا الهند قبل ان تحول الرياح الموسمية دون ذلك. وكانت الرحلة ، ذهاباً وإياباً ، تستغرق نحواً من ثمانية اشهر . ومن المرجح ، ان قسماً من هذه البضائع كان يشحن ، فيما بعد ، عن طريق المجاري النهرية ، وعن طريق القوافل البرية ، لتبلغ أطراف البلاد في الداخل ، حيث كانت تلتقي بطرق تجارة الحرير . ولم تكن هذه السلع دوماً من المواد الغالية الثمن . فقد كان بينها كائنات بشرية : فقد كانت الاسكندرية تتولى تصدير الراقصات والمغنيات والقيان والسراري ، والمهرجين والراقصين على الحبال . وقد تلقت الصين منهم عدة دفعات ، منها دفعة وصلتها عام ١٢٠ ، تألفت من فرقة من الموسيقيين والبهالين ، بلغت بلاد بورما والصين : كذلك كانت الهند تستورد باستمرار ، فرقاً من الراقصات والنساء « المحاربات » عُرِفْنَ باسم « يافاني » مؤنث يافانا ، وهو المصطلح السنسكريتي الذي أطلقوه على الإيانيين ، والذي اطلق ، فيما بعد على كل غريب أو أجنبي عن البلاد، ولا سيما على أهل الغرب دون تمييز بين عروقهم واجناسهم ، وكانوا يُستخدمون لعدة قرون ، حراساً للأمراء في الهند يسهررون ، بالأخص ، على سلامة « الحريم » وهم مسمكون بمقابض الرماح .

والطريق البحري الذي كان يفضي الى ساحل مدينة بومباي ، في الهند ، لم يكن بالوحيد ، اذ كان هنالك طريق أطول وأبعد بكثير ، يفضي الى هذه المنطقة من سواحل الهند ، ويوصل على الاخص ، الى جوار مدينة بُنْدِشْري التي ورد ذكرها عند بطليموس ، تحت اسم « بودوكيه » . فقد جمع هواة المسكوكات والاختصاصيون بعلم النُصَيَّات ما يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف قطعة من النقود الرومانية ، يرجع معظمها الى عهدي اوغسطس وطيباريوس ، كما عثروا على بقايا مركز تجاري يقع على مقربة من القرية المعاصرة اليوم فيرمباتنام . وقد ذهب الظن عند البعض ، قبل العثور على هذا الاكتشاف الهام ، الى ان تجارة الرومان مع هذه المنطقة كانت تتم مباشرة . فقد جاء الكشف الجديد يؤيد هذا الظن الى حد بعيد . فقد اطلعت الحفريات التي قامت بها بعثتان : انكليزية وفرنسية ، في هذا الموقع بالذات ، مستودعاً هاماً من الخزف الأحمر والاسود ، من مصنوعات ايطاليا ، يحمل طابع الخزافين وهو خزف اشتهرت مدينة أرزو بصنعه ، بين سنة ٢٠ - ٥٠ للميلاد ، ولا سيما فواخير فيبياني *Vibienli* . كذلك ، وجدوا ، بين محتويات هذا المستودع ، جراراً وخوابي من الشكل الكلاسيكي المعروف ، لا تزال تحمل معالم الراتنج المستعمل زاووقاً للنبذ المستورد من مناطق مختلفة من بلدان البحر المتوسط ، لحفظه في هذه الخوابي . أضيف الى ذلك عدداً كبيراً من حبيبات وكسرة الزجاج الملون ، كُأَنَّها « لآلئ » ، رومانية الصنع ، وهي زجاجيات ، هام بها وراح يقتنيها ، سكان هذه المناطق الآسيوية ، كما وجدوا كذلك ، قطعاً من العقيق الأحمر ، حفر عليها رسم اوغسطس وصورة شخص صغير على الطراز الهندي ، منقوشة على قطع من الزجاج وفقاً لطريقة الحفر الرومانية .

ولكن هذه الاسفار والرحلات الطويلة لم تكن لتتوقف او لتتوقف عند مجال الهند ، فما كانت الهند سوى مرحلة او حلقة في سلسلة هذه المحطات ، لأسفار ورحلات قام بها البحارة الغربيون ، أبعد من الهند نحو الشرق الأقصى ، اذ اجتذبتهم ثروات الهند الصينية واندونيسيا ولا سيما كنوز

هان الاصفر الرنان والافاويه على اختلافها. ومع انتظام توقيت هذه الأسفار والرحلات، لا بد من ان تنوّه هنا بالتحسينات الفنية التي أدخلت على وسائل النقل البحري فزادت الحركة التجارية نشاطاً في بحار الجنوب. ولدينا الآن معلومات هامة عن السفن الشراعية، التي درج استعمالها في الصين وأعدت للاستخدام في عرض البحار والسير في عباب اليم في القرن الثالث. وهذه السفن الشراعية، سواء أكانت ايرانية الصنع او هندية او صينية، فقد تناوح طولها بين ٤٥ - ٥٠ متراً، بينما بلغ ارتفاع جانبها من ٤ - ٥ أمتار فوق أديم الماء. فكانت تصنع من ألواح تُشد بعضها الى بعض بواسطة حبال من ألياف الكوكو دون ان يضربوا فيها مسباراً من الحديد، وكانوا يحلفطونها بنوع من المِلَاط او الورنيش، ويجهزونها بقلوع أربعة وينشرونها عمودياً بالنسبة لمحور السفينة، اما منحنية او مائلة بنسبة الواحد منها الى الآخر، فتستلقى تبعاً، هبات النسيم او هبوب الريح، فيكسرهما الواحد ويحولها للآخر. وتجهز السفن بهذا النوع، جعلها تستغني عن الصواري العالية، كما زادها ببرعة وجرياً، كما كان يسمح لها عند الاقتضاء بتخفيف السرعة بطيئها. وهذه السفن الشراعية التي كانت تستخدم لنقل الركاب والبضائع على السواء، كانت طاقتها من الشحن تبلغ ٧٠٠ راكب او مسافر و ١٠٠٠ طن من الشحن.

وَرَدَتْ طُرُقُ النقل البحري، ووسائل أخرى كثيرة، ممثلة بالنقل النهري، وهذه القوارب المعدة للعمل في مجاري الأنهر. ففي مقاطعة فو - نان، كانت هذه القوارب، في القرن الثالث، عبارة عن جذوع شجر ضخمة جرى تجويفها، يتراوح طول الواحد منها بين ٢٢ - ٢٤ متراً بعرض متر ونصف تقريباً، يقص مقدمها ومؤخرها على شكل ذنب سمكة، يقوم على العمل في كبرياتها مائة مجذّف، وقد جهّزت بجذّاف طويل للمدى البعيد، وبآخر قصير لحفظها في مكانها، وبعثاف للاستعمال في المياه القليلة العمق. وكان المجدّفون يأتون حركاتهم بانسجام كلي « كأنهم يصرخون بصوت واحد ».

كانت هذه السفن تنطلق من عدد كبير من الموانئ التي تخدم الملاحة في بحار آسيا الجنوبية. فالجانب الوكالات التجارية التي جاء بطليموس على ذكرها مراراً، غير بودوكيه، قامت كارا، المعروفة باسم خباري اليوم، وهي عند مصب نهر كافرت *Kavert*، ومرفأ *Sopatma* القريبة من الأولى. والسفن التجارية الكبرى المسماة باليونانية *Kolandia*، وبلغت التامول *Kalam* وبالصينية: كوان - لوان - نان كانت تسير باتجاه إقليم خريزيه (او بلاد الذهب) الواقع وراء دلتا نهر الفنج. ويقع على مقربة شيكا كول، الى الشمال، مرفأ يعتمده المسافرون القاصدون مقاطعة خيرسونيز الذهب، وهنالك مرفأ آخر، على مقربة من مصب نهر الفنج، عند تمرالتي (تملوك اليوم) عُرف بنشاط حركته التجارية. يعتمده سكان وادي الفنج، الراغبون في السفر الى بلاد الذهب وبورما. اما على الشواطئ الغربية، فالوانىء كانت تتناثر حباتها على خليج بمباي، مؤمنة الاتصال مع الانسولاند (اندونيسيا)، منها بهاروكاكا (اليوم: برواش)، وتشورباراكا (*Suppara* او *Sopara*) او مرفأ موشيري (وباليونانية *Muziris*)، واليوم تُعرف باسم غرانفانور.

وأياً كانت نقطة الانطلاق هذه ، فقد بلغت التجارة البحرية اقطار جنوبي شرقي آسيا ، على نطاق واسع ، بحيث أمكننا العثور على بقايا مهمة من هذه المبادلات التجارية ، وعلى الاخص في مقاطعة الكوشنصين الغربية حيث كانت تقوم بملكة فو - نان ، في القرن الاول للميلاد . فالحفريات التي جرت في نقطة أو ك - أير ، توصلت للكشف عن مركز تجاري يتولى ادارته اجانب أغراب عن البلاد . فقد كان من بين هذه الآثار المكتشفة ، العدة والادوات الخاصة بأحد العاملين في صناعة الصب ، واحدى الصفائح الذهبية تحمل رسم الامبراطور انطونين التقي ، مؤرخة عام ١٥٢ للميلاد . كذلك وجدوا بعض قطع من العقيق الاحمر عليها رسوم ونقوش رومانية الطابع ، ورأس من الزجاج الازرق الفاقع ، عليه حفر نائى يمثل صورة احد ملوك الدولة الساسانية او احد امرائها . والى جانب هذه المصنوعات المستوردة من الغرب ، او من ايران ، عدد كبير من الحلى الذهبية من صنع الهند بينها طوابيع 'نقش عليها بالسنسكريتية' ، وخواتم 'حفر عليها صورة ثور ، وغير ذلك ، وكلها تشير الى هذه الحركة التجارية التي نشطت بين فو - نان والهند ، والى ما كان يصادفه من رواج ونجاح ، التجار الذين يتعاطون بيع المصنوعات الرومانية والايرانية . وهناك دلائل أخرى تتناثر معالمها في طول البلاد وعرضها حتى تصل الهند الصينية وجزر الانسولاند ، كما توجد على سواحل الهند الصينية الشرقية : في مدن شبا ودونغ - دو - ونغ ، حيث تتمثل بتمثال لبوذا من البرونز ، من أصفى طراز أمارافاتي ، هو خير نماذج وأمثلها على الإطلاق . وهناك صور من الطراز نفسه ، انما اقل مهارة واقتان صناعة ، وُجِدَت في جزر السليس وجافا الشرقية وسومطرة .

والملاحه البحرية التي وصلت الى أقصى النهايات التي بلغها الاستعمار الهندي ، اتخذت كلها مسالك مختلفة : بين بحرية ونهرية وأرضية . انطلق احد هذه المسالك من خليج البنغال شرقاً ، يجتاز الممر البحري الضيق الواقع بين جزر أندمان ونيكوبار ، او بين نيكوبار ورأس أشين ، ليفضي بالسفن الماخرة في عباب اليم الى شبه جزيرة الملايو ، فترسو السفن في مرفأ تاكوا - بوا ، او في كيدا . وبعد ان يجري نقل البضائع برأ ، عبر برزخ كرا - كان باستطاعة المسافرين ان يأخذوا سفينة تقلهم شمالاً باتجاه الصين ، او باتجاه جزر السوند . اما نقل البضاعة برأ فكان يتم بسهولة كلية ، نظراً لما كان عليه البرزخ من ضيق العرض ، وتكثر من كلا جانبيه المرافىء ، كما دلت على ذلك الحفريات الاثرية التي أجريت في بعض الاماكن ، في جايا مثلاً .

هنالك طريق آخر ربط ، على الطريقة ذاتها ، الهند بالبلدان المطلة على بحار الجنوب . وكان هنالك طريق ثالث ينطلق من واسط الهند ويسير مع الشاطئ حتى مدينة تانوى ، ومنها تجتاز سلسلة الجبال لتبلغ خليج سيام ودلتا نهر مينام عن طريق نهر كانبوري ، حيث كشف علماء الآثار عن مناطق قطعت شوطاً بعيداً في استنهاها واقتباسها الحضارة الهندية ، منها بونغ-توك ، وبراباثوم . والظاهر انه تم فيما بعد ، وصل نهر كانبوري الصغير الشأن بنهر ميكونغ ، وذلك بطريق بري ، مرّ عبر سهل كورات ، المرتفع وبلدة شيرندب ، وهي نقطة قديمة ، ثم بوادى نهر مون فتفضي بالمسافرين الى مقاطعة تشينلا التي ستصبح في ما بعد مهد حضارة الخير *Klimer* . وأخيراً

طريق بورما القديم الذي كان معروفاً منذ القرن الثاني ، قبل الميلاد ، وكان لا يزال مطروقا ، ولا شك ، في القرن الثاني بعده . وهذا الطريق كان ينطلق من شمالي الهند ماراً بمقاطعة أسام وشمالي بورما ويو - نان حتى يفضي بسالكه الى الصين .

وهكذا نرى كيف ان الصين كانت تقع ضمن شبكة المواصلات البحرية والبرية على السواء ، التي كان يعتمد عليها التجار في مقايضاتهم بين الشرق والغرب . وحوالي القرن الثاني ، وربما قبل ذلك ، ربطت هذه الشبكة اليابان وكوريا . وهكذا ، فمن مشارف حوض البحر المتوسط حتى اطراف الشرق الاقصى ، كان العالم اليورو - آسيوي مرتبطاً أطرافه وأجزأه بعضاً ببعض . وشبكة طرق المواصلات هذه ، في شتى شعابها وفروعها ، كانت تهدف لتيسير التجارة وتسهيل سبلها ، بالرغم مما اعتورها من تقلبات على مر العصور وكر الاجيال ، وفقاً للدول التي قامت في تلك العهود وما اعتراها من تغييرات ، وقد تحكمت بها ايران بما تم لها من موقع جغرافي ممتاز ، لوقوعها من الصميم في هذه الشبكة الدولية للطرق البرية والبحرية ، كما يعترف بذلك الكتبة الصينيون ، في ذلك العهد ، اذ ورد بالحرف الواحد عند بعضهم ما يلي : « ان سكان تا - تسين (الامبراطورية الرومانية) رغبوا دوماً في إيفاد سفارات وبعثات دبلوماسية الى الصين ، إلا ان ملوك الدولة الارشاكونية او الفارثية ، رغبةً منهم باحتكار فوائد التجارة مع الصين ، حالوا دوماً دون ذلك » . فقد حاولت ايران ، في مناسبات عديدة ، ان لم نقل بصورة مستمرة ، ان تبقى مهيمنة على تجارة الحرير والطرق التي تمر بها ، وقد نهجت هذا النهج بعد الدولة الارشاكونية ، الدولة الساسانية ، بالرغم من المحاولات التي قام بها الاسكندر لكسر هذا الاحتكار ، ومن بعده بيزنطية اذ كلوا يعلقون أهمية كبرى على حرية التجارة مع أصقاع آسيا الشرقية .

كل الدلائل تشير الى ان الحركة التجارية كانت ناشطة ومزدهرة في القرون المبادلات التجارية الاولى للمسيحية . فالطريق الذي شقه الاسكندر المقدوني ، بين العالم الغربي والشرق الاقصى ، عرف عهداً عظيماً من نشاط الحركة التجارية ، لأسباب شتى ، منها قيام دول في كل من الهند والصين تميزت بحسن تنظيمها الاداري واستتباب الامن فيها ، كما ان شدة احتياجات الامبراطورية الرومانية ، من جهة أخرى ، وشدة طلبها لهذه الكاليات الغالية الثمن ، ساعد جديداً على بقاء الحركة على هذه الطرق ناشطة للغاية . وهذه الكاليات الغالية الثمن والتي رغب الرومان في الحصول عليها بأعلى الأثمان ، لم يكن لتيسر لهم الحصول عليها إلا من الهند والصين ، أو من الاقطار الواقعة الى الجنوب الشرقي من القارة الآسيوية ، وكان من مصلحة الهنود والصينيين معاً ، تأمين وصول هذه البضائع والسلع وغيرها من المصنوعات التي كانت تصنع في البلدان او المقاطعات التابعة لها أو الواقعة تحت نفوذها او الدائرة في فلكها ، اذ ان مواداً تجارية كثيرة كانت تزد من البلدان الواقعة ما وراء نهر الغنج ، كالماس والافاويه والند والصندل والمنديل Bois d'aigle والكافور ، والكركم ، والبخور الجاوي واللبان ،

والفاقلّة او حب المال ، والعاج والخز، والديباج وغير ذلك من الانسجة الغالية الثمن، وكلها من صنائع الهند والصين ويران ، او من محاصيلها . أضف الى ذلك ما كان للأصقاع الواقعة في بحار الجنوب من قوة الجذب ، لما فيها من الذهب ، بعد ان حالت الصين ، قبل ظهور المسيحية بقرنين ، دون حصول الهند ، كما في السابق ، على الذهب الوارد من الشمال ، أي من سيبيريا وجبال الألتاي . ولذا راحت الهند تحاول استيراد الذهب من الامبراطورية الرومانية بشكل نقود رومانية ، وهذا ما يفسر لنا جيداً وجود النقد الروماني من الذهب بكثرة في الهند . وقد شعر اولو الأمر في روما بتسرب الذهب من البلاد، فراح الامبراطور قسبسيانوس (٦٩ - ٧٩) يصدر مرسوماً يحظر فيه خروج الذهب من الامبراطورية، بأي شكل كان. ولهذا اخذت الهند تحاول ان تستعوض عن هذا المورد الذي نضب او كاد ، بالاقطار الجنوبية الشرقية من القارة الآسيوية التي اشتهرت مناجها بانتاج الذهب ، والتي لم يكن يصح ، مع ذلك ، مقارنتها بوجه من الوجوه ، بما بلغه انتاجها منه في العصور الحديثة .

وكان استيراد الغربيين لهذه السلع والمحاصيل يكلفها غالباً وينهك ثروة البلاد اذ كان الاستيراد يكلفها أكثر بكثير مما يدره عليها التصدير ، بعد ان قلت قيمة هذه الصادرات ، وهي تتألف ، على الغالب من العنبر (الكهريا) والمرجان وحجر الفتيل ، والازجوان وبعض الانسجة (التي بقي منها بعض النماذج في منغوليا) وصحائف من البرونز، والزجاج والعقيق المنقوش، والمصابيح الرومانية وغير ذلك . فاذا كانت حركة التبادل التجاري تدر كثيراً على تجار الاسكندرية وسوريا ، فقد كانت روما ، على عكس ذلك ، تتكبد كثيراً من جراء تجارتها مع البلدان الآسيوية ، الامر الذي حدا بالمصلحين الاجتماعيين والفُيُور على الاخلاق ، الى شجب السعي وراء هذه السلع والتكالب على اقتنائها ، في القرن الاول لليلاد .

وهذه الطرقات المائية والبرية تسلكها القوافل البحرية ومواكب التجار ، كانت المؤثرات الفنية بدورها خير أداة وخير مسعف على تسرب المؤثرات الفنية والادبية وانتقال القصص الشعبي والاساطير والعقائد الدينية. والافكار .

ان استيطان الهندو - اليونان في شمالي غربي الهند ، والهندو - الغز ومجاورتهم لايران الفارثية، وعلاقاتهم النامية بقاطعات وأصقاع آسيا الوسطى والصين، وتكوين هذه الامبراطورية الشاسعة الاطراف على يد قبائل الكوشانا بعد ان وحدوا بين الاقوام التي تألفت منهم ، وكلهم آريون ، وبين اقوام غندهارا وكابيتشا المتهلينة ، كل هذا وما اليه ، ساعد كثيراً ، على انتشار الافكار الغربية في آسيا الوسطى . وقد عزّ الدليل على اثبات العكس ، مع العلم ان البضائع والسلع الآسيوية كانت تصل الى الغرب هي الاخرى . شاهد على ذلك مقبض مرآة مصنوع من العاج عليه نقوش من طراز سانشي ، عثر عليه المنقبون بين أنقاض مدينة بومباي .

فبمعزل عن هذه الاتصالات المباشرة التي شددت الغرب الى الشرق ، قام عنصر آخر هام جداً مكن لها ورسخ لأسبابها ، وشجع عليها ، يتمثل في البوذية . فعلى عكس البراهمانية ،

جاشت البوذية بروح قبشيرية ، فراحت تدعو لمقاتلتها وتعمل على بثها ونشرها ، ولذا حاولت الاستفادة من الطرق البحرية التي عول عليها التجار لتحمل رسالتها ودعوتها بعيداً ، فأصبحت بذلك من أهم العناصر للاشعاع الهندي في الخارج . وهذا المركب المزجي اليوناني البوذي الذي نشأ في غندهارا والبكتريان ، بعد حركة بعث الممالك الهندو - اليونانية ، اخذ بالنمو على نطاق واسع ، يتقبل رويداً ويتمثل بصورة لاشعورية ، المؤثرات الرومانية ، سواء أصدت عن العاصمة روما نفسها ام عن ولايتي مصر وسوريا ، فتألف من هذا المركب ، الفن الهجين الذي استبد بالأذواق اذ ذاك .

وقد خضعت البوذية البدائية في هذا العصر ، لتطور ملحوظ من الداخل تميز ، من الوجهة الفنية بالايكونوغرافيا (فن رسم الصور) الخاصة ببوذا ، اذ أخذت بوادر هذه الحركة بالظهور والتجلي في منطقة غندهارا الشمالية الغربية في الهند ، وفي مدرسة ماتورا . ويوحى الطراز الذي سيطر على غندهارا أثر الغرب عليه ، اذ يحمل كل سمات النظريات الفنية الهلينية والمميزات الاصلية للفن الشرقي الاصيل (راجع صفحة ٧٠٣) . ففي طراز صناعة التماثيل الذي سيطر على مقاطعة كابتشا بالغرب من كابول ، نرى تتجمع حول هذه الشخصية اليونانية البوذية ، كل النماذج الفنية التي عرفها العالم اليورو - آسيوي اذ ذاك ، فأقبلوا على تمثيلها بكل حماسة ، كالتي نجدها في تناغرا . وحول هذه النواة الهلينية ، ظهرت نماذج فنية تحمل الكثير من سمات هذا الطراز ، أشهرها على الاطلاق ، الطراز الفني الذي ساد ميران القائمة في احدى الواحات الجنوبية في آسيا الوسطى . فالمتقادات والتقاليد البوذية نراها مرسومة على الجدران وهي تحاكي ، من قريب ، بفنها وألوانها ، معالم الرسوم الرومانية في سوريا .

من الحيف ان يحاول المرء الانتقاص من شأن التطور الذي مرت به نماذج الطراز الفني الهليني الذي ظهر في أقصى حدود الهند . فقد عاش فيها طويلاً حتى الى ما بعد زوال النظم السياسية التي أوجت به ، فدخلت على أنساب مختلفة ، الفن البوذي ، فانتشرت في جميع أرجاء الهند ، وبلغت ، بعد بضعة قرون : الصين واليابان والانسولاند والتبت ، مُتِجَةً ، الى حد ما ، امتداد الحياة للفن البيزنطي ، في هذه الانماط الفنية التي درجت عليها البلدان الصقلية والبلغانية . ويمكن ان نعزو اليها الفضل في بقائها مستعملة لأجيال طويلة في هذه البلدان حيث خلّدت حتى عصرنا هذا ، ذكر تلك المحاولة الجبارة التي أريد بها ، جمع العالمين الشرقي والغربي ، في وحدة تامة .

وهناك آثار غربية ، رومانية الطابع والسمة ، يمكن ملاحظتها بسهولة في آثار المدرسة الفنية التي سيطرت على القسم الشرقي الجنوبي من الهند ، ولا سيما في منطقة أمارافاتي حيث توجد احسن النماذج . فهي تبرز بهذا المظهر او الوقفة التي تبدو على بعض صور بوذا ، في هذه المقاعد على شكل كراسٍ ، لها قوائم تشبه قوائم السباع والضواري .
ففي الحين الذي تأخذ فيه امبراطورية الكوشا بالتفكك والتفتت فالانهار ، تحت الضربات

التي انهارت عليها من الدولة الساسانية ، في إيران ، نرى النفوذ الإيراني يبرز في هذه المناطق الشمالية الشرقية بالذات التي فيها رأى الفن اليوناني - البوذي النور ، قبل ذلك بنحو قرنين تقريباً . والعنصر الجديد الذي انضم الى هذا المركب الفني ، الذي أُلْمِنَا إليه اعلاه ، فرض سماته المميزة على المجموع . وهكذا يطل علينا طراز فني جديد ، هو الطراز الإيراني-البوذي ، الذي ذاع وانتشر في مقاطعة كابتشا ، وفي آسيا الوسطى . فبوذا يبرز مرتدياً حلة من الأرجوان (بدلاً من القفطان الأصفر الذي يرتديه الكهنة البوذون) ، ويتربع على ارض نثرت عليها الازاهير حلقات في وسطها رؤوس خنازير برية ، او صور من البط تحمل في منقارها لآلىء . اما راهبات بوذا فيحملن في شعورهن أهلة في وسطها لؤلؤة . فيعيد هذا المنظر الى الخيال ، هندام الشعر الذي عُرف عند الساسانيين ، ويلوح فوق أكتافهن اطراف مناديل درج الناس على استعمالها في إيران قديماً . ومثل هذه المناديل تُشَدُّ حول الأعمدة ، وترتبط حول الآنية التي تتدفق منها المياه ، وحول اشكال الستوبا *Stupa* . أما العلمانيون فيرتدون ملابس من الزري الإيراني يتألف من سترة مشدودة الى الخصر ، لها ثنية مربعة تُرَدُّ الى الوراء ، وفي الوسط زنار او نطاق ، وسراويل مع جزمة للرجال . اما النساء فيلبسن تنورة جرسية القطع والشكل . كذلك يبرز الفن الإيراني في هذه الاشكال الهندسية . وأسوة بالفن اليوناني البوذي ، نرى العالم الهندي يبرز جنباً الى جنب مع العالم الروماني : شخوص نصفية عارية ، تحمل الكثير من الحلي الى جانب رجال ونساء بكامل ثيابهم يمثلون أسياد ذلك العصر . وعلى الشكل نفسه نرى النظريات الفنية الإيرانية تعيش طويلاً في الهند ، حتى بعد زوال الدولة الساسانية ، وتنتشر بعيداً في جميع أرجائها . وهكذا نرى لبس الأحذية (الجزمات) ، يتفشى في الايقونوغرافيا الهندية ، ولا سيما في صور الإله الشمسي « سوريا » ، وسيبقى على مظاهره هذه حتى العصر الحديث .

وهذه العناصر الفنية اليونانية - الهندية وبعض الاشكال الفنية الإيرانية الأخرى ، شاع استعمالها في جميع أطراف آسيا ، ودخلت الهند رأساً ، كما وصلت الصين واليابان بالواسطة . فقد اهتمت الهند بنقل بعض هذه النماذج الفنية الى بعض ممتلكاتها في الخارج ، وبلغ من شدة تأثير هذه المقاطعات بالفن الهندي ، ولا سيما الهند الصينية والانسولاند منها ، ان أخذت تترسمها وتستوحي نماذجها لأكثر من ألف سنة . ففي العصور الاولى للميلاد ، يصعب كثيراً ابداء حكم صائب بهذا الشأن لندرة الآثار التي ترجع الى هذا العهد . ويمكن للانسان أن يصل بصورة جازمة للحقيقة ، عندما يتبين ، من جهة ، القطع المنتشرة في أرجاء مقاطعة أمارافاتي التي بلغها بحارة هنود ، ومن جهة أخرى ، القطع المقلدة ، الموجودة في تايلاند الشمالية والوسطى منها . غير ان الصعوبة تبدو أكبر عند التكلم عن المؤثرات الفنية في الصين . فنحن هنا امام مدارس فنية تطبع عدداً من الولايات ، اكثر مما نحن امام انتاج محلي متأثر بفن البلاد الأم . ولعل كوريا هي أشد هذه المقاطعات صموداً ، وأثبتها قدماً في وجه هذه السيطرة . ومع ذلك ، فالطراز الكوري الذي فيه هذا القرמיד المطبّع ، وهذه التزاويق الجدرانبة هو الذي يجعل عميقاً اكثر من غيره اثر الفن الصيني . اما المصنوعات الخزفية التي نراها في التونكين ، فهي

صينية الطابع ، في الصميم .

وعلى هذه الشبكة من الطرقات التي استعرضنا لها على اختلافها ، من بحرية .
ونهرية وبرية ، تمت هذه الاتصالات الدبلوماسية والدينية والفكرية ، وتيسار
المبادلات بين شرقي آسيا والامبراطورية الرومانية الذي نشط خلال القرن
الاول للميلاد ، بقي على أشده مدة قرنين ونصف القرن ، أي من مطلع النصرانية حتى عام
٢٥٠ تقريباً . ومع ان خريطة لجغرافية الامبراطورية الرومانية ، في القرن الثالث معروفة
باسم : جدول بوتنجر *Table de Peutinger* ، تشير الى وجود هيكل لأوغسطس في مدينة
موزيري او موشيري ، فاهتمام آسيا بالغرب خف وتحول ليقصر على الممالك الجديدة التي أطلت
في الجنوب الشرقي من آسيا : في الهند الصينية وفي الانسولاند . فطريق المواصلات بين الشرق
والغرب انقطع وتعمل لمروية في ايران ، والامبراطوريتان العظيمتان اللتان تألفتا في عهد الهان
وكوشانا ، قد زالتا من الوجود ، والعوامل التي مهدت لسلام دائم ، ساعد على قيام مثل هذه
الحركة التجارية والمبادلات التي رافقتها ، زالت هي الاخرى وانقطعت .

هنالك اكثر من اشارة لهذه العلاقات الدولية ، وردت اكثر من مرة ، وفي عدة مناسبات .
خلال هذين القرنين والنصف . فمذ غرة القرن الأول ، حتى وقبل ذلك بكثير ، نرى اسم آسيا
يُرد على لسان سترابون ، كما ان مصطلحات فلكية ، يونانية واسكندرانية ، دخلت المعجم
الهندي والصيني ، وربما وصول الدعوة للمسيحية والكراسة بها على يد احد الخواريين هو القديس
ثوما الذي يقال أنه بشر بالانجيل في هذا القسم الشمالي الغربي من الهند ، كما ان جزيرة سيلان
ترسل عام ٢٧ للميلاد ، بعثة دبلوماسية الى الامبراطور اوغسطس . ويشار الى هذه العلاقات
في مصادر عديدة ، ولا سيما في هذه الحوليات السلاية الصينية . ويأتي سترابون على ذكر بعثة
دبلوماسية أرسلها الى اوغسطس نفسه ، أحد الملوك المدعو « بانديا » وباللوانية *Pandionos*
وهو من ملوك التامول الذين سيتمكنون ، فيما بعد ان يحققوا لهذه المنطقة الجنوبية ، من الهند ،
المعروفة بالبلاد الدرافيدية ، إشعاعاً كبيراً . وفي سنة ٧٩ ، وهي السنة التي لقي فيها بلين
الاكبر الموت الزؤام ، تختنق بالغازات الحارقة المتصاعدة من حمم بركان الفيزوف الذي أهلك
بومبي تحت الرماد المتصاعد ، دفنت هذه المواد المصهورة تحت الانقاض ، مقبض مرآة من العاج
يحمل نقوشاً هندية ، كل هذا وما إليه شهادات متواضعة على هذه العلاقات المباشرة التي قامت
مع آسيا الشرقية . وقد حاولت الصين ، من جهتها ، انما عبثاً ، ان تقيم بواسطة قائدها الحربي
الكبير بان - تشاو ، علاقات دبلوماسية مع روما ، (حوالي عام ٩٠) ، ومع ذلك فالأورخون
الصينيون ، ينوهون ، عام ١٢٠ ، بوصول فرقة من الموسيقيين واللاعبين على الجبال ، من
الرومان الى بورما والصين . وقد اتسمت المواصلات في هذه الفترة بالدقة والانضباط .
وفي عام ١٦٦ ، وصلت الى البلاط الامبراطوري ، في الصين ، بعثة من التجار السوريين ،
يَدَّعون انهم مرسلون من قبل الامبراطور مارك اوريل . قد يكون هذا الادعاء من باب

التمويه والتزيير ، إنما فيه دليل قاطع على هذه الاسفار الطويلة لا يحجم معها تجار أغنياء من القيام بها ، وتجشم المشقات في سبيلها . وفي سنة ١٧٠ ، كان باستطاعة بطليموس ، ان يصف الهند بأوصاف جمعت من الدقة بحيث اعتمدت عليها الحفريات الأثرية التي قامت فيها .

وفي القرن الثالث ، يقدم لنا التاريخ صورة لما يشبه جسراً ، ارتفع فوق القسرة الآسيوية ، يتمثل في حياة المصلح الديني ماني . ولد ماني في بابل عام ٢١٦ للميلاد ، وابتدأ رسالته الدينية التبشيرية برحلة الى ضفاف نهر الهندوس ، وهي رحلة تمت بين سنة ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٣ ثم اشترك فيما بعد بمهمة عسكرية قام بها سابور ضد الامبراطورية الرومانية ، أي بين ٢٤٢ - ٢٤٤ ضد الامبراطور غوردانوس الثالث أو بالأحرى ، كما يرجحون ، الامبراطور فاليريانوس ، بين ٢٥٦ - ٢٦٠ . فلوحظ الافتراض الأول ، فلقد كان ماني موجوداً في الجيش الذي كان فيه أفلوطين مؤسس الأفلاطونية الحديثة ، اذ كان يحارب ، بصفة جندي متطوع ، بحيث يستطيع إشباع فضوله بالتعرف الى الديانات القائمة في ايران والهند. فقد كانت حياة ماني ، فيما بعد سلسلة من الأسفار ، قام بها عبر الامبراطورية الرومانية ، ثم أوفد من قبله مبشرين الى مصر (عام ٢٤٤ و ٢٦١) كما أوفد غيرهم من المبشرين الى المناطق الواقعة حول ضفاف نهر الأوكسوس . وفي عام ٢٦١ - ٢٦٢ ، أرسل فريقاً منهم الى المنطقة الواقعة جنوبي نهر الزاب الصغير . وهذا المثل ليس بالطبع حادثاً فردياً ، إلا أنه كانت له نتائج بعيدة جداً . ألم نشهد ، بالفعل ، في انتشار آخر مدرسة فلسفية رأت النور في الاسكندرية ، وهي الأفلاطونية الحديثة ، مع أفلوطين وبورفيروس التي أفضت الى هذه التعاليم الباطنية ، الموقوف الاطلاع عليها ، على بعض قلة من المريدين ، كما أفضت الى هذه الأعمال التي تتعلق بالنجامة والسحر ، وكلها أعمال وأفعال هي في النقيض من الروح اليونانية ؟ فالحقيقة الأخيرة ، النهائية ، والواحد الأحد ، والجوهر الفرد ، التي قال بها أفلوطين وعلم ، لا يمكن أن تفهم إلا اذا رددناها الى علم الوجود الهندي ، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار الفراغ المطلق الذي تقول به البوذية ، أي الوجود المطلق الذي تعلم به الفلسفة البراهمانية *Vedanta* ، كما يعلل ذلك ويفسره المؤرخ المشهور غروسيه . وهكذا نشهد عملية غسل العقول ، من الروح الهلينية ، في ذلك العصر ، وهي عملية تمت في هذه المنطقة التي كانت دوماً ملقاة للعروق والاجناس والمعتقدات ، من العالمين ، الايراني والهندي . ومن المحتمل جداً أن تكون هذه الظاهرة ليس ردة فعل وحسب ، بل أيضاً صدمة هزت هذه المؤثرات الشرقية في الهلينية ، أو بالأحرى ، هجوماً تشنه الديانات الباطنية الآسيوية ضد العقل اللاتيني المتميز بالاتزان والانضباط . ويمكن ان نجد دليلاً على هذا في الكتاب الذي وضعه ، عام ٢٣٠ القديس هيبوليت (١٧٠ - ٢٣٥) في روما ، بعنوان *Réfutation de toutes les hérésies* « دحض كل الهرطقات » ، وفيه عرض دقيق لتعاليم البراهمانية ، في الدّخَن (الكتاب الأول ، ص ٢٢٤) . وهناك مصادر يونانية كثيرة ، تتعلق بالفلسفة والتاريخ والجغرافيا ، تشيد كلها بالمكانة التي أحرزتها حكمة الهند في الغرب ، تَبَسَّط ، بكثير من الإفاضة ، كل ما يتعلق ببراهما ، وفلسفة الهند وحكائها ، والسامان *Samanes* أو كهنة بوذا . ولا بد هنا من التنويه عالياً باسم برديسان (القرن الثاني)

السرياني ، وفيلوستراتس (غرة القرن الثالث) ، الذي يقص علينا خبر رحلة ابولونيوس ده تيان المعجائي ، الى كهنة براهما .

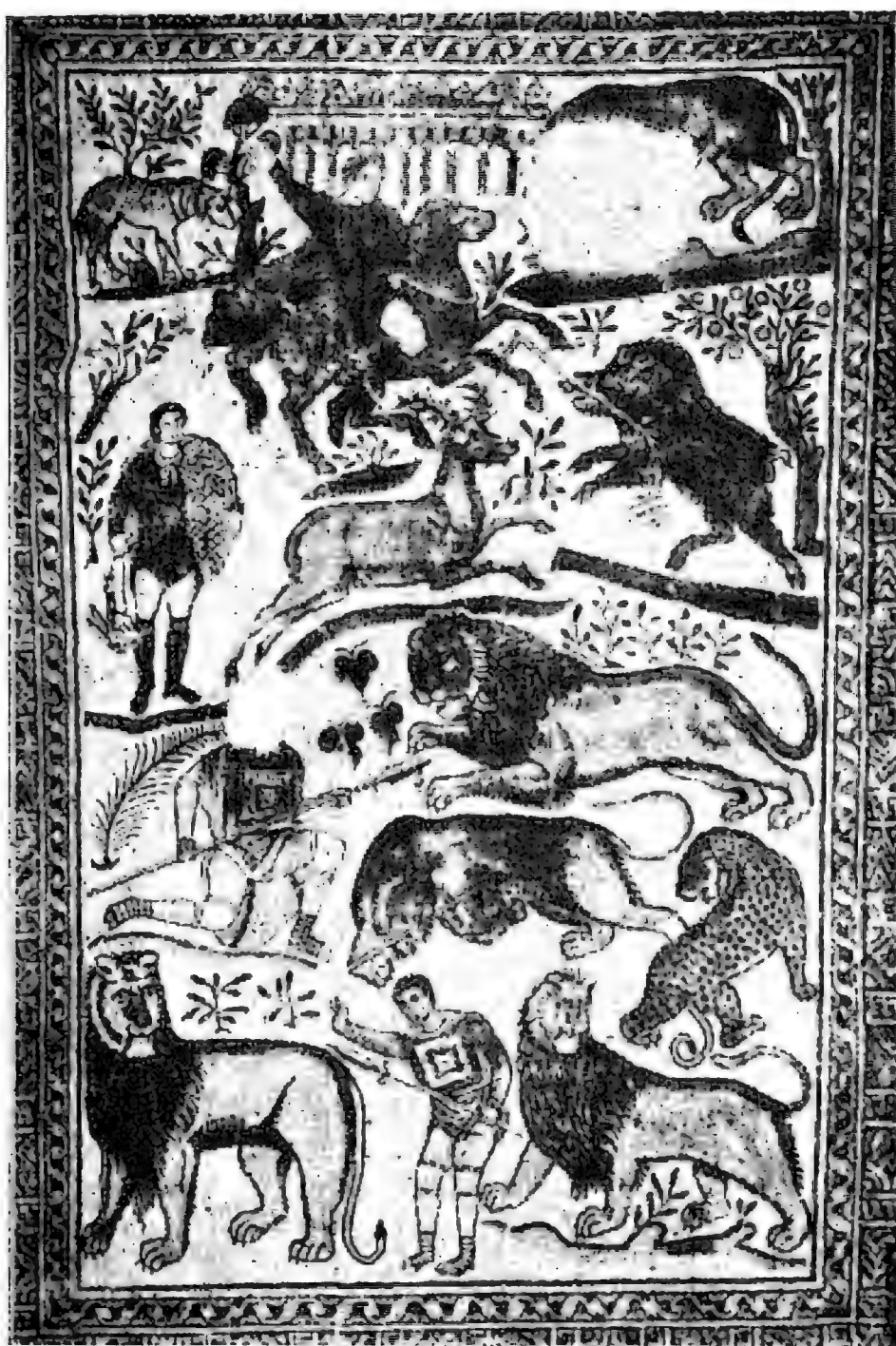
وعلى عكس ذلك ، فالعلم الهليني ، والعلوم الربانية - الروحانية ، والتعاليم المسيحية ، والمانيّة ، ونظرات ايران السياسية ، وغير ذلك من عوامل هذا التراث الحضاري في الغرب ، بلخ الأقطار الآسيوية ، ولا سيما الهند منها ، وساعد بدوره على إثناء إرثها الحضاري . وعلى هذا يجب أن نقيس هذه التيارات وهذه المجاري ، التي حملت في ثناياها هذا القصص الشعبي ، وهذه الحكايات كلها التي اتبعت ، في انتقالها وتقلها ، شبكة المواصلات التي أتينا على ذكرها ، وغير ذلك من الأدب المحكي أو الشفوي ، المتوارث خلفاً عن سلف ، انتقل من أقصى الغرب الى أقصى الشرق . وهذا التيار ساعد الهند على ان تعي حقيقة حكمتها وتقيم حضارتها ، وان تصون تقاليدها ، وان تنشط من حيويتها العقلية والشفافية ، والروحانية والفنية ، وذلك بشكل من الحس اللاشعوري .

إلا ان طريق الاتصال بين العالم المتوسطي وأصقاع آسيا الوسطى ، منذ أواسط القرن الثالث وربما قبل ذلك بكثير ، فيما يتعلق بالصين وما اليها من الارضين ، انقطع تماماً من جراء قيام الدولة الساسانية في ايران . واذا وجدتاً نفسها منقطعتين عن الغرب ، ارتد كل من الهند والصين الى مملكتيهما ، مهتمة كل منهما بتجارتهما الخاصة ، تصدر اليها فلسفاتهما ، في كل ما يتصل بالسياسة والاجتماع ، والدين والفن ، بعد ان تمهدت السبل أمام ذلك كله . فمنذ القرن الاول نرى الصين تعين حكماً لها في واحات آسيا الوسطى ، كما أدخلت مقاطعة التونكين ، في الجنوب ، تحت تابعيتها . كذلك استطاعت الهند ، بما تم لها من قوافل التجار والرواد المغامرين ، من اعادة بعض الممالك ، الى الوجود ، في الهند الصينية : من ذلك مملكة لن - يي ، عام ١٩٢ ، التي عُرفت فيما بعد ، باسم مملكة شмба *Shampa* ، وهي مملكة أسسها احد المواطنين على حساب ولاية جي-نان الصينية ، ثم أخذت هذه المملكة تتمثل حضارة الهند منذ تأسيسها . كذلك ، تأسست مقاطعة فو - نان التي لم تلبث ان تصبح مركز مملكة الخمير على يد مغامر يدعى كوندينيا *Kaundinya* ، الذي دخل البلاد اما من جنوبي الهند ، او من شبه جزيرة الملايو ، او من احدى جزر بحر الجنوب . وقد قام في شبه جزيرة الملايو ، عدد من الممالك الصغيرة المستهددة الطابع ، منها مملكة لانغ - يا - سيو (مطلع القرن الثاني) ومملكة تمبالنفا (حوالي القرن الثاني) ومدينة تاكولا (في القرن الثاني) ، وكيداه ، وبيراك ، بعد ذلك بقليل .

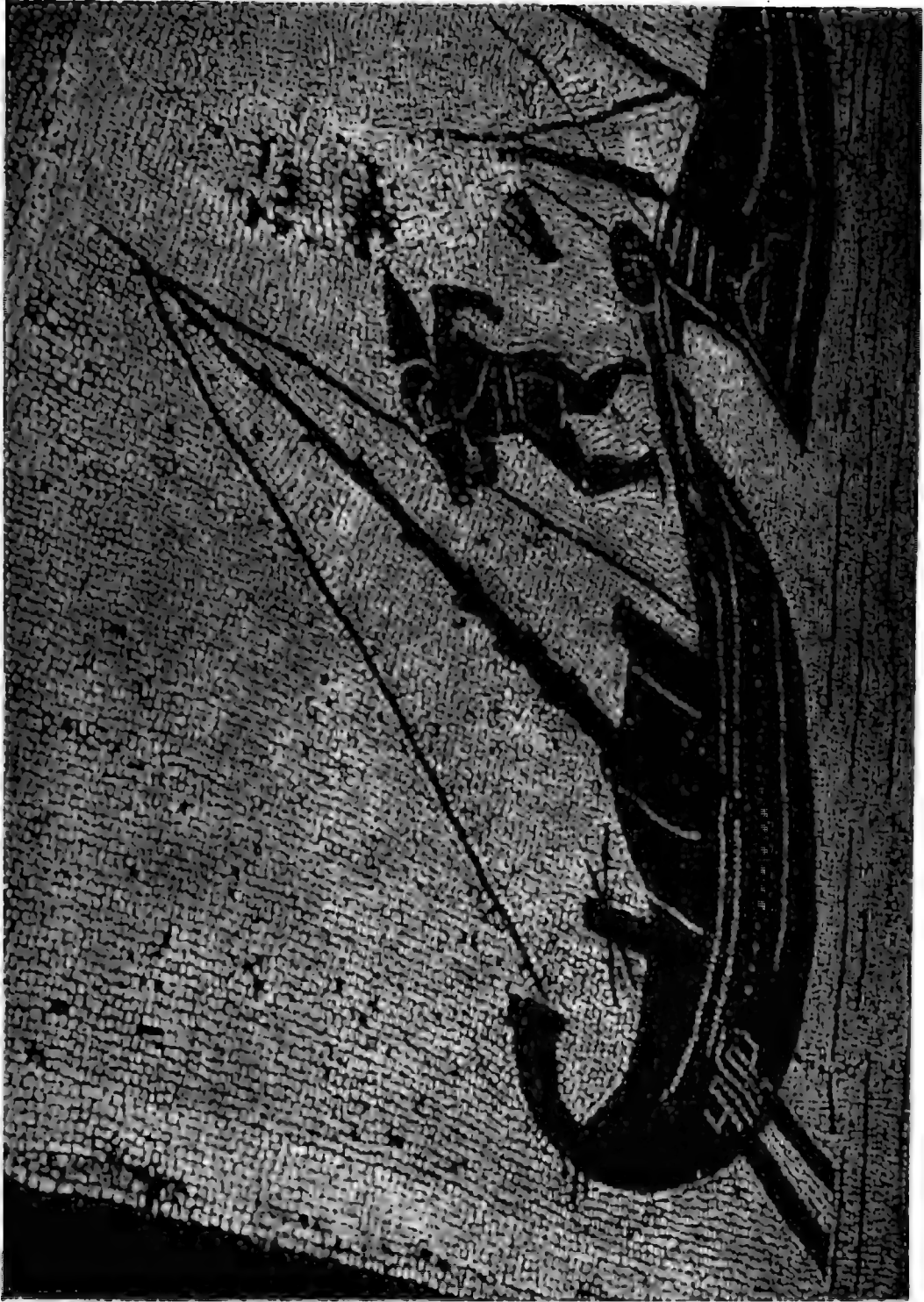
وتميز القرن الثالث الذي عرف ان يستغل هذه الاجراءات ، بقيام تبادل البعثات والسفارات وبعلاقات دبلوماسية اخرى . ففي الحين الذي كان فيه ملك من اواخر ملوك كوشانا ، ان لم يكن آخرهم بالفعل ، هو الملك فازوديفا ، يوفد ، عام ٢٣٠ ، بعثة دبلوماسية الى بلاط ملك الصين ، كنا نرى ممالك الجنوب الشرقي من آسيا ، يقيمون لهم علاقات سياسية مع الهند والصين على السواء . وبين ٢٢٠ - ٢٣٠ ، ارسلت مملكة لن - يي الى حاكم مقاطعة التونكين ، بعثة اهتمت لها ايضاً مقاطعة فو - نان .

وبين ٢٢٥ - ٢٥٠ ، قرر ملك فو - نان ان ينشئ له علاقات دبلوماسية مع الهند ، وذلك إثر ما سمعه وقصه عليه شخص قدم من مقاطعة تقع الى الغرب من الهند ، والذي سبق له ان زار الهند قبل قدومه الى فو - نان . وكان المتقدم في البعثة الدبلوماسية احد أنساب الملك نفسه ، فركب البحر من مدينة تاكولا . (شبه جزيرة الملايو) كما يرجعون ، وبلغ مصاب نهر الفنج وصعد مجراه حتى اذرك عاصمة شعب موروندا *Murunda* ، وهم أقوام يمتون بصلة الى كوشانا والساسانيين . ورتحب الملك الهندي بالقادمين وأتاح لهم زيارة مملكته ، وقدم لهم عدداً من الخيول المطهية هي من خيل الغيز ، وعين لهم دليلاً هندياً من رعاياه ، رافقهم الى بلادهم ، وعادت البعثة من حيث جاءت ، ووصلت فو - نان ، بعد غياب أربع سنوات . وفي سنة ٢٤٣ (وقد تكون السنة نفسها التي التقى فيها افلوطين وماني) ، أوفد ملك فو - نان ، بعثة دبلوماسية أخرى الى الصين ، هذه المرة ، مقدماً للملك الصين هدايا من محاصيل البلاد ، معها فرقة من اهل الطرب والغناء والعزف . وحوالي عام ٢٤٥ - ٢٥٠ ، أوفد اليه ملك الصين بدوره ، وفادة من شخصين هما : كنغ - تاي وتشو - ينغ ، فقاما بزيارة المملكة ، واجتمعا في البلاط بمثل ملك موروندا الذي كان لا يزال باقياً هنالك ، منذ رجوع البعثة الدبلوماسية من الهند الفنجية . واخيراً ، في سنة ٢٨٤ ، كررت مملكة لن - يي محاولة أولى قامت بها بين ٢٠٠ - ٢٣٠ ، فأرسلت الى بلاط الصين بعثة رسمية .

غير ان الوضع الحرج الذي آلت اليه أسرة هان ، في الصين ، وانهار امبراطورية كوشانا ، في الهند ، وما كان لذلك من صدى وردة فعل ، وطلوع عهد الغزوات الكبرى ، كل ذلك تألب وتجمع ليضع حداً ، الى حين ، لهذه الاتصالات الدبلوماسية التي لن تستأنف سيرتها الاولى ، إلا في القرن الرابع .



- روما وأمپراطوریتها ۲۳ -- اعیان مشاهد التیید



٣٤ - شعب سفينة - فيلصاه في رواق القبابات في اوستيا



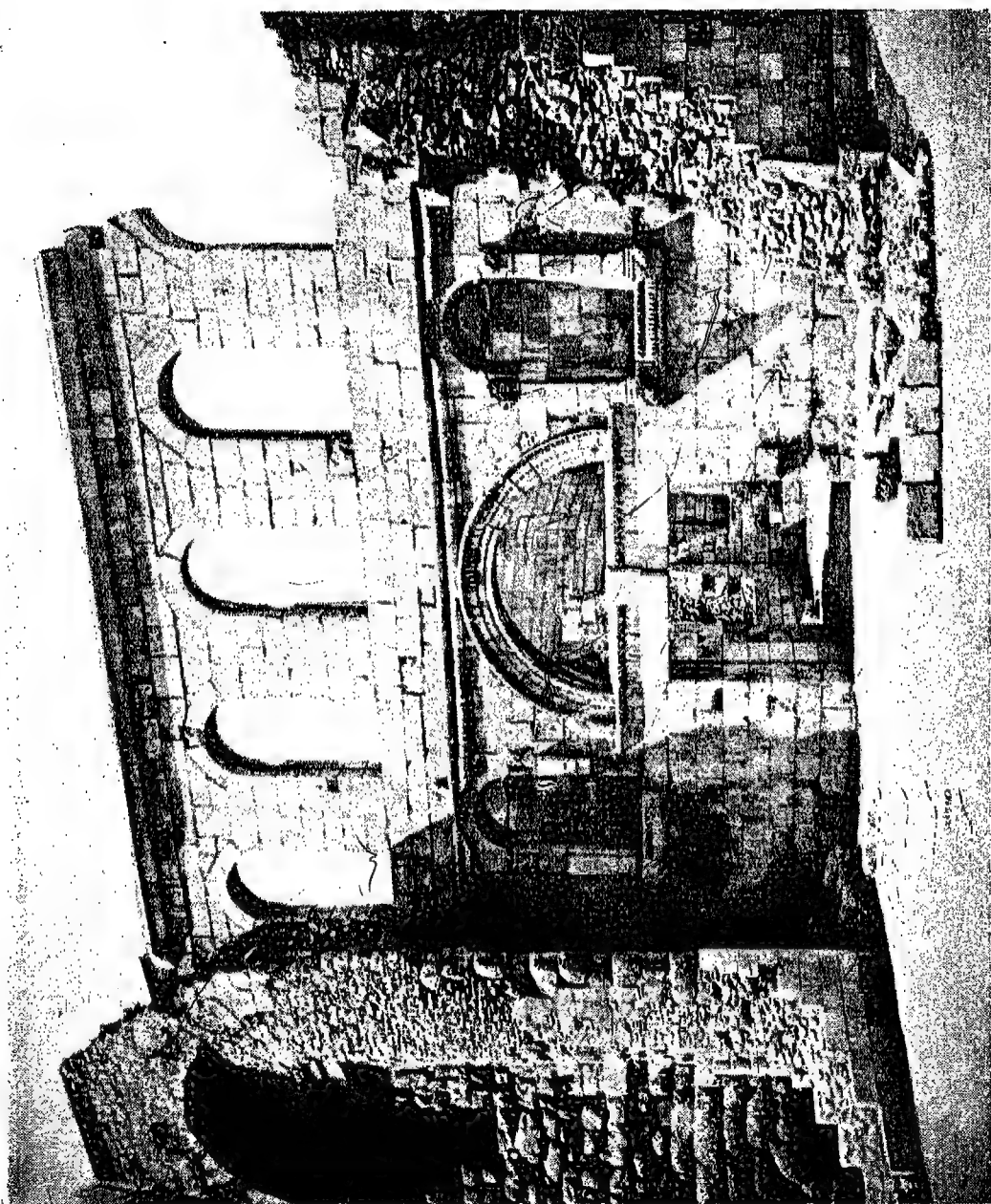
٣٥ - عربية سفر . نقش في كنيسة القديسة مريم .



٣٦ - اورشليم: مقبرة اليهود والمدافن المعروفة بمدافن الانبياء.



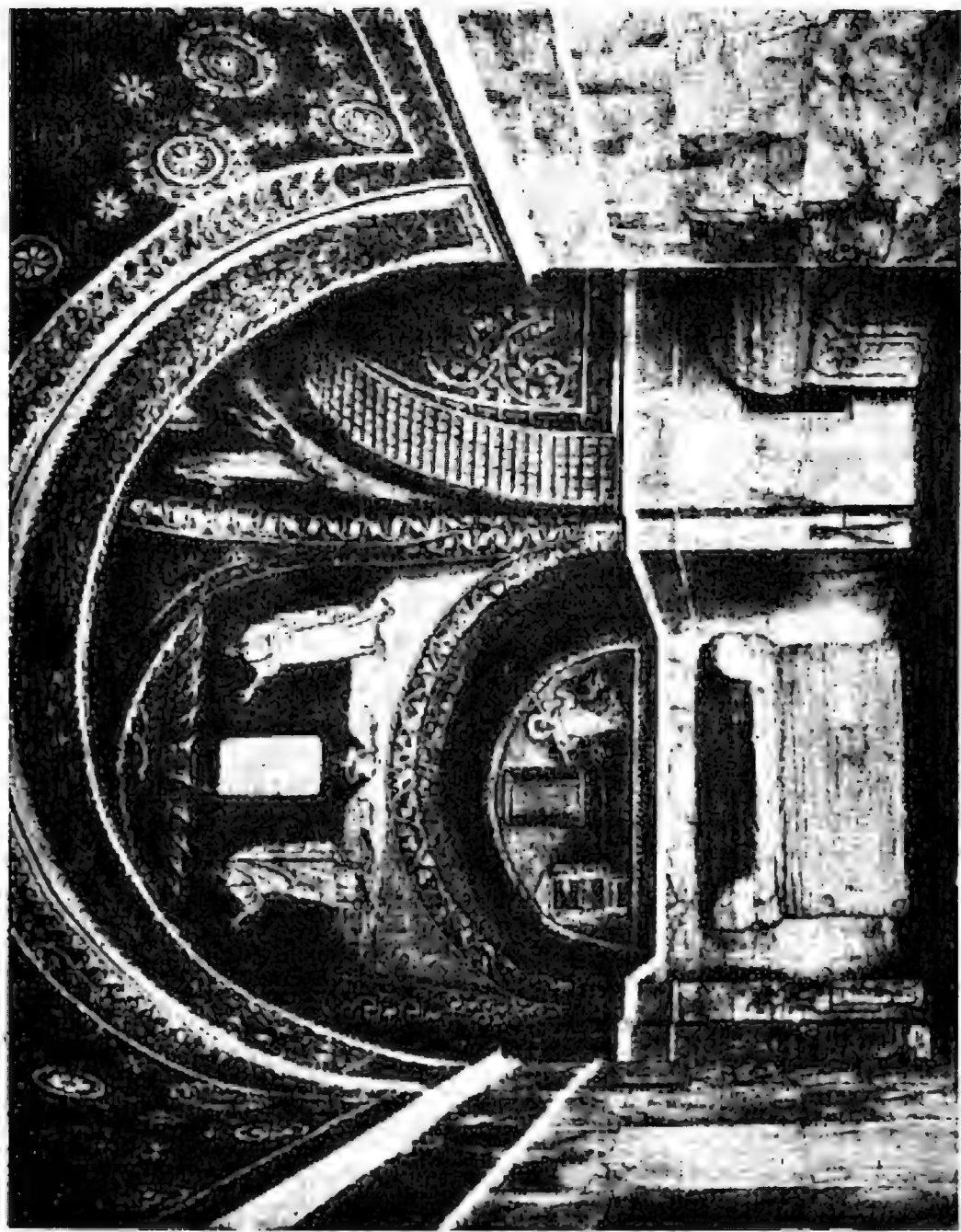
٣٧ - روما . نقش وصورة جدارية ، في ديلاميس القديس
ميتاسميثانوس



٣٨ - قصر ديوكلتيانوس في سبليت (يوغوسلافيا) .



٣٩ - أباطرة الحكم الرابعي : ديوكليتيانوس ومكسيميانوس ،
غاليريوس وكونستانس كلور (القرن الرابع) .



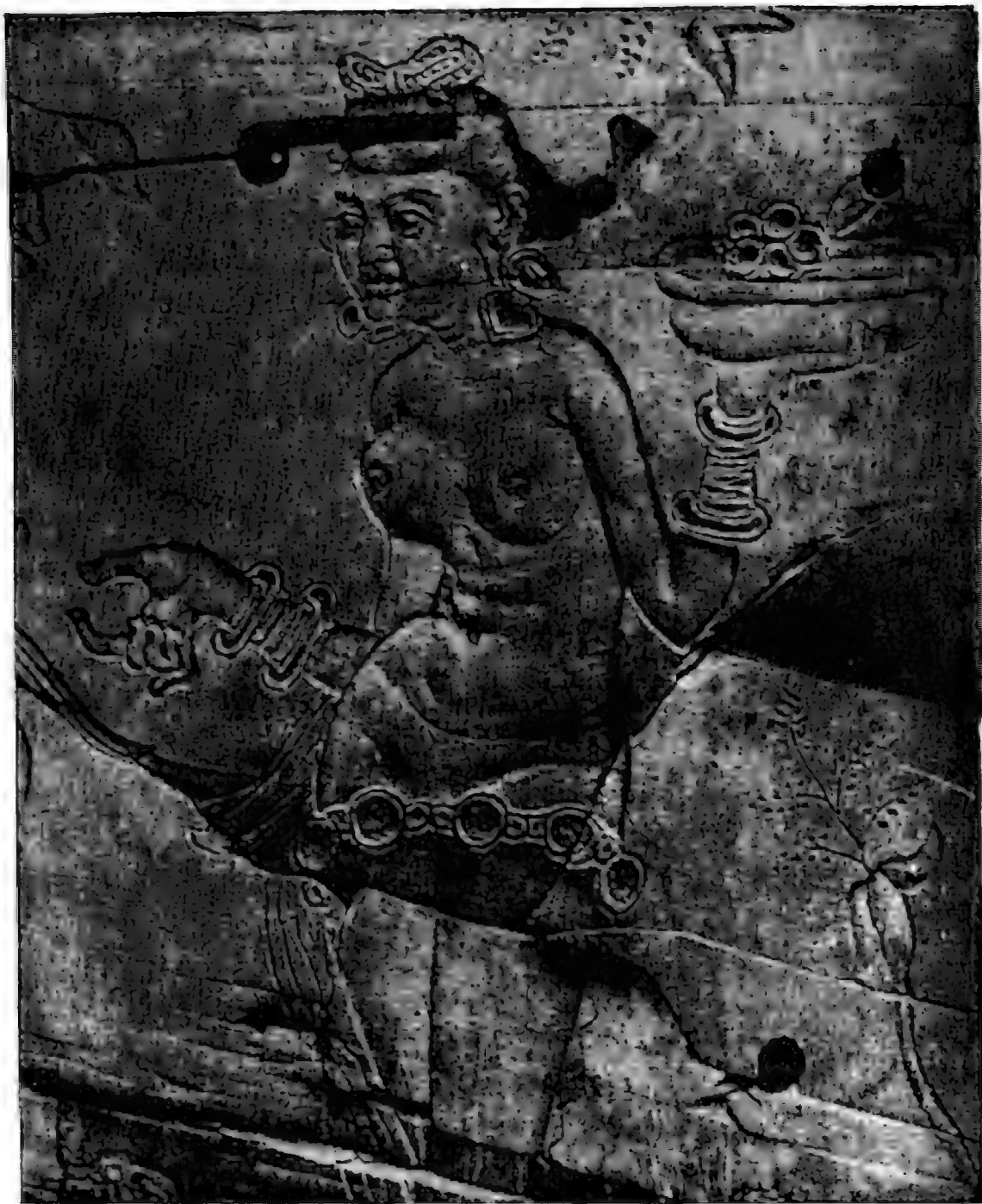
٤٠ - ضريح غالاً بادسيدياني رافينا (النصف الاول من القرن الخامس) .



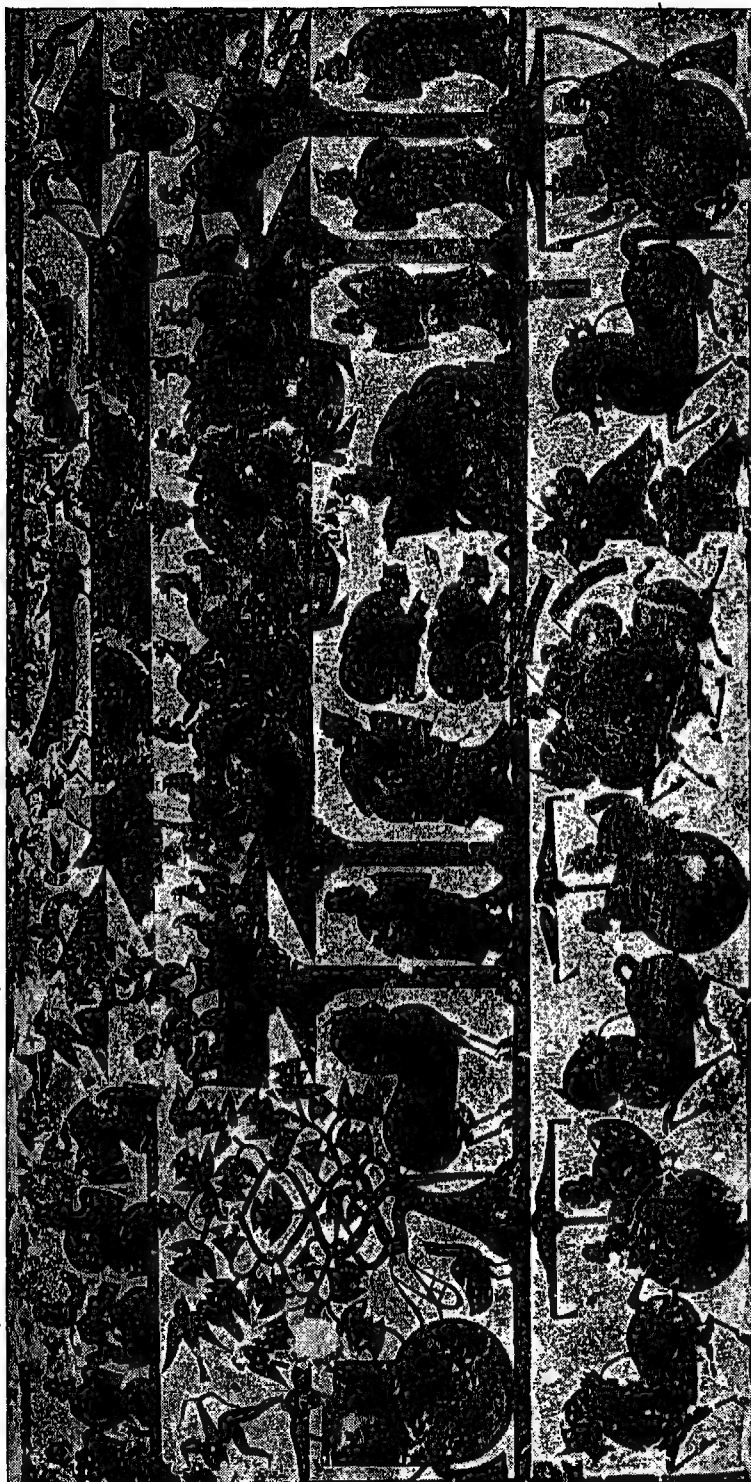
٤١ - بودھيساتفا . مدرسة غندهارا الفنية (حوالي القرن
الثاني بعد المسيح) .



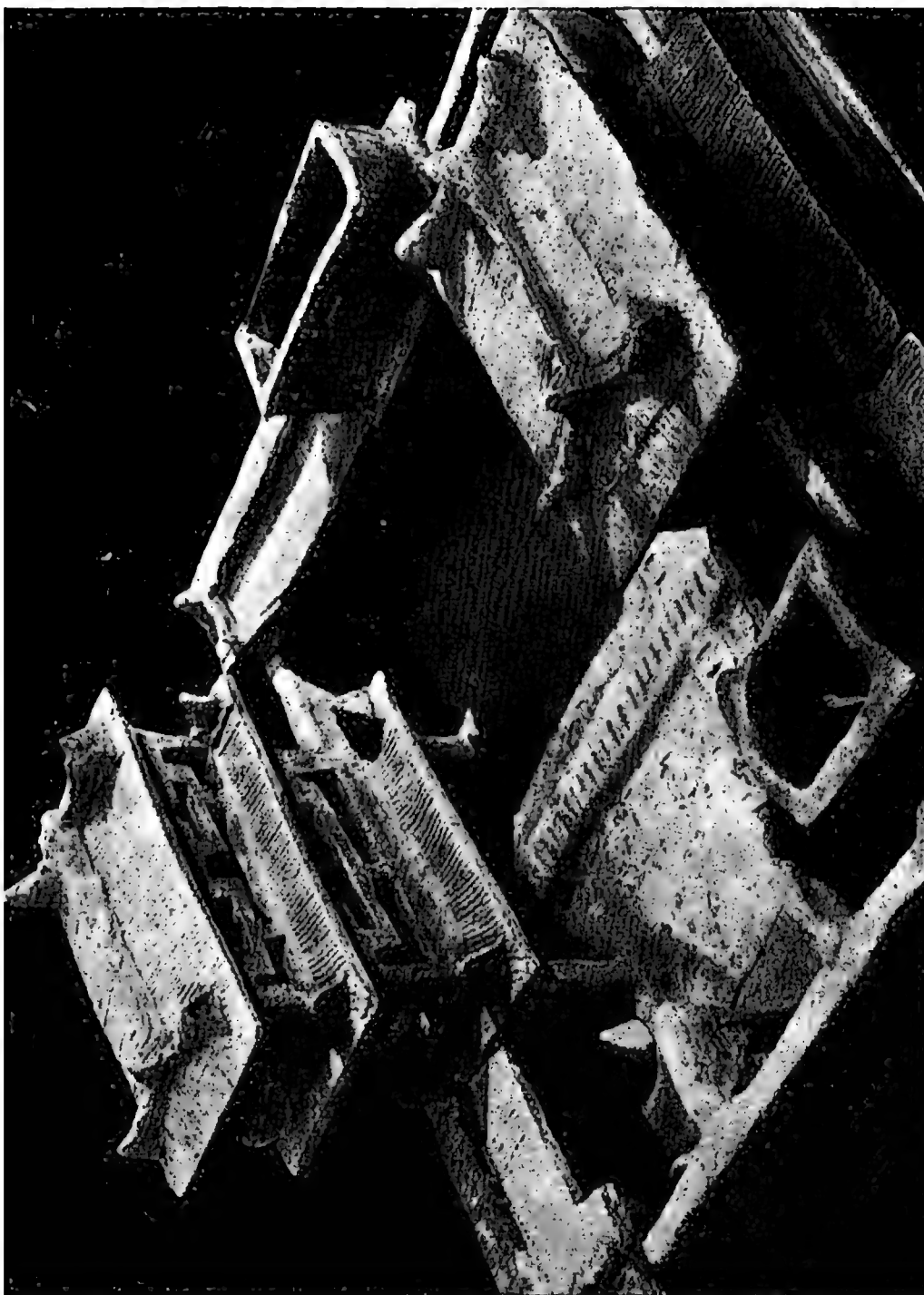
٤٢ - ملك - حية (ناغاراجا) .



٤٣ - نقش عاجي اكتشف في أفغانستان (حوالي القرن الثاني
بعد المسيح) .



٤٦ - بلاطة مدفن وو - لينغ - تسو (١٤٧ - ١٦٧ بعد
المسيح) . ساداة الحان . نقش حجري .



٤٧ - صورة مصفورة لمدفن خزفي في بيت صيني اكتشف في مقاطعة تونكين (القرن الثاني أو الثالث بعد المسيح) .



٤٨ - تمثال « هانيوا » من الخزف . اليابان (القرن الرابع ؟)

الفصل الثاني

تطور الهند (الهندية)

عندما أطل هذا العهد ، موضوع بحثنا هذا ، كان من المحتمل جداً الظن إطار المدينة والريف بأن نقش الأروقة التي تزين درابزونات الستوبا رقم ١ Stupa كان في طريقه الى الاكتمال . فنحن امام مناظر ومشاهد تساعدنا كثيراً على تكوين فكرة صحيحة عن الوضع الذي برزت عليه كل من المدينة والريف ، عندما كان المجتمع الهندي ، في حقبة ما بعد عهد الموريا Maurya اتخذاً بالتطور . كانت باستطاعة المرء ان يرى ، من جهة ، انه لم يقم ، اذ ذاك ، أي فارق بين هذه الحقبة والعهد الماضي ، كما انه لم يحدث ، من جهة اخرى ، أي انقطاع او أي فاصل ، بين هذه الحقبة والحقبة السابقة التي تألفت من القرنين الماضيين . فاذا ما حصل شيء من ذلك ، فبالأكثر ، بعض تفاصيل طفيفة دخلت على الرسم الهندي ، كما حدثت سهولة أكبر في تصوير الاشياء ، وبالتالي ، في تبسيط دراستها .

هنالك شيء يستبد بالفكر عندما يلقي المرء نظرة محلية على مختلف المظاهر التي طلعت في القرون الاولى من ظهور المسيحية ، الا وهو هذه الوحدة ، وهذا التلاحم الذي اتسم به المجموع ككل . فاذا ما قام بالفعل حدود سياسية بين مختلف الممالك ، واذا ما وقعت ماتورا Mathura وكابلشي بين ايدي الكوشا ، واذا ما وقعت امارا فاتي وقنھاري Kanhari ، وكارلي بين ايدي تشاناكارفي ، فالفروق التي نلاحظها في قطاعي الحياة العامة والخاصة ، وبين الشمال والجنوب ، او بين الشرق والغرب ، في الهند ، هي بالحقيقة فروق طفيفة للغاية . فالفضل كل الفضل في هذه الوحدة يعود ، اولاً واخيراً ، للبوذية ، اذ ان معظم مصادر هذه الحقبة هي بوذية في سوادها الاعظم ، وتتألف من رسوم وصور بوذية الطابع .

فالمدينة الملكية او الامبراطورية التي تتخذ مثلاً للوصف الادبي او موضوعاً للتصوير والرسم هي ، مبدئياً ، مريعة التخطيط ، يقوم في وسطها القصر الملكي يحيط بها ، كما في السابق ، سور كبير حصين ، تتخلله بوابات ضخمة يعلوها عدد من الطوابق للسكن . وهذه البوابات تتألف من مصراعين كبيرين يدوران على نفسها بواسطة رزمة . اما الشوارع الكبرى في قلب المدينة ، فتتقاطع عمودياً وتصل بين مختلف الاحياء والجادات المخصصة للطبقات الاجتماعية الازبع :

الصناع والتجار ، ورجال البلاط والبطانة والحاشية ، ورجال الفن والموسيقى . ويقوم في قلب المدينة أنباءٌ كبيرة عديدة : للرسم والتصوير ، للموسيقى ، للقراءة ، والمطالعة ، والمستشفيات ودور حضانة ، ومؤسسات البر ، والجامعات وغير ذلك . فالحي الإداري يسكنه كبار الموظفين ورجال الحاشية وفيه يقع بيت المال ، ومكاتب الموظفين وكتبة السر ، وكلهم على مقربة من القصر . أما الأسواق التجارية وما إليها من المحازن والدكاكين والمستودعات ، والمصانع ، فتقوم في حي واحد ، أما البساتين التي ترتفع فيها الأشجار المقدسة ، فهي تقع على الغالب ، في قلب المدينة . ولكل حي من أحيائها هياكله الخاصة به . كذلك تنوّه هذه المصادر بوجود مخارج سرية ، تحت الأرض يستطيع معها الناس الخروج من المدينة أو الدخول إليها ، دون أن يشعر بهم أحد .

فالقصر الملكي أو الإمبراطوري ، هو مدينة بذاتها تحتل منها القلب ، تحيط به الأسوار العالية ، وبضمّ المئات من الغرف والحجر والأياء والصالات التي يزداد طابعها سراً مطبقاً كلما اقترب الداخل من جناح الملك الخاص . وعلى مقربة من البوابات التي يقوم الجيش على حراستها الصارمة ، تقع الاصطبلات ، وصير القبيّة ، ومرائب المركبات الحربية . والميادين الموقوفة على مصارعة الطواويس والديكة والأكباش . ويأتي بعد ذلك ، الاجنحة الخاصة بولي العهد وغيره من الأمراء ، والوزراء ، وأكابر رجالات البلاط ، وصالات للمقابلات العامة . ثم يأتي الجناح الخاص الذي تقوم فيه مراسم تنصيب الملك ، ودار الأسلحة ، ومستودعات الاغذية والمؤن ، وغرف الخلى والمجوهرات ، واخيراً دائرة مطبخ الملك وما فيها من غرف الطعام ، ودار الحرّيم ، والغرف الخاصة بزوجة الملك الشرعية ، وغرفة المجلس الخاص ، وحدائق الملك الخاصة التي تسرح فيها جميع الحيوانات الأليفة : كالقطط والطواويس ، والبيغاء والآيّة والغزلان والثمّوس ، والبط ، وغير ذلك ، مع أحواض وبرك تشيع حولها الطراوة والرطوبة ونعومة الهواء العليل . والجناح الخاص بسكنى الاسرة الملكية يتألف من عدة أدوار يُصعد إليها بسلام وأدراج من الداخل . أما القسم الخاص بالنساء ، فقد كان محظوراً على أي كان ان يدخل اليه او ان يقترب منه باستثناء الحارس الخاص الذي يقوم بنوبة الحراسة .

وكل منزل خاص هو صورة مصغرة ، من حيث المبدأ ، للقصر الملكي ، يشاد على الغالب ، بالقرب من بئر ماء أو ينبوع ، ويقسم الى قسمين . فالقسم الخارجي منه ، هو خاص برب المنزل يقوم عادة بقربه ، حديقته جمعت ما طاب منظره ولذ طعمه من الازاهير والثمار الشهيّة ، والخضروات ، وأرجوحة . ويدخل في بناء المنزل مواد عديدة ، منها الخشب على أنواعه والقرميد والقراب والحجارة ، والقش وغير ذلك .

أما القرى ، فكل واحدة منها عادة ، وقف على أصحاب مهنة أو حرفة واحدة . فالقرية ، في مظهرها الخارجي أقل متعة للعين من منظر المدينة . فالمنازل ، فيها ، بسيطة ، مبنية من اللبن المكسوة بالقش ، وفيها مباني عامة للإدارة المحلية ، كما فيها ما يجب من المعابد والهيكل . وقد تكاثرت المؤسسات الدينية في البلاد ، فقد كانت تقام عادة ، في الريف أو في وسط

الغابات والاحراج . فالواحدة تتألف عادةً ، من عدة مباني معدة لسكن الرهبان والاساتذة ، والمريدين والطلبة ، يقوم في كل منها ما يلزم من الانشاءات الخاصة بالمساكن والمطابخ وغرف الطعام ، وصالات الاجتماعات ، والمطالعة ، والحمامات ، وحواصل للمواد الغذائية ، والاهراء ، وغير ذلك من الاقسام . وينشأ فيها احواض مقدسة وأماكن للوضوء والاغتسال والتطهير . ويقوم في الجامعات ، ليس الرهبان وتلاميذهم ، بل ايضاً علمانيون من كل الاعمار ، ونساء ، وامراء ، حتى والاولاد . ويقصد الناس هذه الاماكن للتبرك بالزيارة والحج اليها او لعقود الزواج . وقد أنشأت البوذية ، ديارات كبيرة لسكنى الرهبان تضم في ما تضمه ، كل مستلزمات الحياة المشتركة : من مساكن وحجور للطعام والمطابخ والمتنزهات ، وغرف للحمامات يصلها الماء الساخن من موقد خاص له من وطأة الحرارة والوهج ما يحمل المستحمين يسترون وجوههم بأيديهم ، او يطلونها ببعض الاتربة ، للتخفيف من وطأة اللهب ، ومعامل تحاك فيها ملابس الرهبان الخاصة ، والمراحيض ، وبئر ، وحواصل للمواد الغذائية وتخزينها ، ومخزن للعقاقير والادوية الطبية ، واخيراً منتدى يقوم على أعمدة ، خاص بالاجتماعات المشتركة .

اما قليات الرهبان ، فقلما طرأ عليها أي تغيير اخرجها عما كانت عليه من قبل ، أي في العهد الماضي ، فهي ، في الغالب ، عبارة عن أكواخ مصنوعة من القرميد او الطوب وكثيراً ما من القش والحشائش ، تستخدم عادة لسكنى المساكن ، ومزودة بخدمات ومناقع ، منها حجرة تحفظ فيها النار المقدسة . ويقوم في الحدائق والاحراج ، وعلى الطرقات ، ملاجئ يأوي اليها الحجاج والزوار ، في طريقهم اليها او ذهابهم ، بعضها محفور في الصخر الصلب .

فالمعابد بقيت على ما كانت عليه في العهد الماضي ، قلما طرأ عليها أي تغيير او تبديل يذكر ، انما زاد عددها في البلاد ، كما زاد بعضها اتساعاً . فمعبد امارافاتي كان يغطي مساحة ، قطرها ٥٠٠ متر . وكان بناؤها يتم وفقاً لطراز هندسي مرعي الاجراء . فبدلاً من مبنى ضخم ، قليل النوافذ ، نشاهد في هيكل سانشي (الذي يعود للقرن الثاني ق . م .) وفي هيكل امارافاتي (القرن الاول او مطلع القرن الثاني للميلاد) مبنى مجهزاً بفتحات بشكل عجّل له عوارض جانبية . وهذا النوع من البناء كان يساعد ، من جهة ، على تحمل ضغط القسم العلوي بشكل نصف دائري ، كما كان له ، في البوذية رمز خاص ، اذ ان العجّل يرمز ، عند البوذيين لتعاليم ناموسهم . وكان منظر الهيكل *Stupa* قد طرأ عليه بعض التغيير ، فأصبح أكثر ضخامة ، من قبل ، والاساس الذي يقوم عليه ، أعلى كذلك . اما الداربزون فكان يزداد زينة وزركشة ، كجسم الهيكل نفسه ، اذ كانوا يفرشونه بمربعات من الحجارة وببلاط عليه نقوش نادرة . اما الاروقة *Torana* التي كانت تقام امام المعابد والهيكل او عند الممر الذي ينتهي الى الباب الرئيسي للمدينة ، فقد لحقت بها بعض التغييرات ، بحيث أصبحت ، في أواخر هذا العهد ، قريبة من شكل القوس الذي سيعم استعماله فيما بعد ، كل أقطار الهند الغربية .

وقد استمروا في تشييد المعابد من الخشب ، او ينقرونها في الصخور الصماء المطلّة على الوديان ، بشرط ان يحمل الخشب الذي يستعمل فيها رسوماً فائقة . وكانت هذه المعابد تقسم في وسطها

الى ثلاثة صحنون يفصل بينها صفان من الأعمدة ، أكبرها أو سطها ، وينتهي المعبد بشكل حشبي . ويزينون جدرانهم بالنقوش والحفر النافز ، ويقوم في الجدار الامامي ، ثغرات على شكل أمطية ، كما نرى ، بعض الاحيان ، (في معابد كنهاري وكارلي ، مثلاً) رسوماً وصور أشخاص محفورة حفرأ نائماً . اما أكاليل الأعمدة فتزدان بصور حيوانات متشابهة يعلو صهوتها اناس ، ولعل ذلك آخر أثر من آثار الدولة الأخينية .

والهندسة الممازية العلمانية ، تبنت ، هي الأخرى ، الكثير من هذه العناصر . فالأبواب صار يعلوها طنّب او إفريز بشكل نصف دائري ، كما أكثروا فيها من الدرابزونات وأكاليل العواميد ، وهي عناصر توفز وجودها في القصور كما وجدت في المنازل الخاصة . ويتعاقب ، في هذه المباني ، امام الابواب ، الرواق ، ونصف الدائرة . والابواب ، هي عادة ، من مصراعين ، كذلك النوافذ والفتحات وتتخذ شكل قوس هندي تشبهاً بطراز العهد الماضي . وتطالعنا ، أكثر فأكثر ، مبانٍ ، تحيط بها الاروقة القائمة على الأعمدة بحيث يشتد الاقبال عليها في العصور التالية ، وفيها تعقد ، عادة ، الاجتماعات العامة او الخاصة . وصالة الاجتماع هذه ، تزدان من الداخل بالنقوش والدرايزونات والأعمدة ، أسوة بما هي عليه من الخارج . وفي غرف النوم ، تتدلى ستائر من السجاد ، شدّت أطرافها بمسامير دقّت في الجدار او في العواميد .

اما الأثاث والمفروشات ، فهي ، في هذا العصر ، أكثر زينة وزخرفاً منها في العهد الماضي . وهويتألف ، على الغالب ، من أسرة ومقاعد وكراسٍ ، لها متكأ للظهر او للساعدين ، وقد تغلّو منه أحياناً ، ألبست أغطية ، كما نرى اسكالات وخزائن اتخذت في صنعها مواد كثيرة متنوعة : كالخجر ، والمرمر ، والخشب ، على أشكاله ، ألبس بعضها صفائح ورقاق من العاج المنقوش او المحرّم ، رُكزت في الخشب بواسطة مسامير صغيرة من النحاس . ونرى بعض الاحيان ، مقاعد ، حلّ فيها العاج محل الخشب ، وقد حُفرت من كلا وجهيها . وتبرز أحياناً للعيان بعض معالم ألوان الرسم الذي كان عليها (ابيض واسود) ، او صفائح من اللك أُنزلت في الأماكن المحرّمة . والغالب على الظن ان مقاعد هذه الحقة كانت تشبه ، الى حد بعيد ، المقاعد التي وجدت في غنبا بغرام ، كما يستدل من رسوم الشخصوس المحفورة ، او من الصور المرسومة على الجدران . وكان يبدو على بعضها ، بصورة واضحة ، تأثير هذا الفن الغربي ، ولبعضها قوائم تشبه اقدم الحيوانات .

اما المصوغات والمجوهرات والحلي وكل المصنوعات المتخذة من المعادن ، فقد سجلت في هذه الحقة ، تفوقاً قنياً ، لم تعرف مثله في العهد الماضي . فالصندوق الخاص بحفظ بقايا الاولياء ، والكؤوس ، والكعوب العريضة الفتحة التي عثر عليها في تاكسيلا ، تقلّد كلها ، أشكالاً هلينية ، بعضها غني ، فاخر ، سني ، من الذهب المنقوش او المرصع بالحجارة الكريمة والفصوص الثمينة الكبيرة ، والبعض الآخر اتخذت مادته من الفضة او النحاس . اما ادوات المطبخ العادية ، فتتألف من أشكال وأنواع مختلفة : فالكؤوس تبدو أحياناً شفاهة ، وكأنها من هذه الزجاجيات الاسكندرانية الصنع ، تشبه الى حد بعيد ، منذ الشكل الإنسي وجد في بغرام

وكابتشي . وراجت صناعة السلال أيما رواج . فالى جانب مقاعد الزينة تختلف اليها السيدات لتصلح من هندامهن ، نجد كثيراً من الاسكمالات تصنع من الخيزران ، كما تصنع منه صوان وأطباق تستعمل لتقديم الفاكة : كالسلال ، والمراوح ، وكلها تصنع من الخيزران المحبوك . اما ادوات الزينة ، فهي الادوات ذاتها التي كانت ، قيد الاستعمال في العهد الماضي ولا سيما المرايا منها . فالمنذبة ، والمظلة ، والعكس ، هي من سمات الاشراف الذين يؤلفون حاشية الملك وبطانته ، في حله وترحاله .

وللموسيقى ، في هذا العهد شأن لا يقل عن شأنها في الماضي . فحفلات الطواف ، والمسيرة والمواكب الاحتفالية والزياحات تجري كلها على انغام الموسيقى تنطلق من اجواق الغنين والمطربين والمطربات ، يسرون كلهم على وقع الانغام . فالامراء والملوك ، في خدورهم يقيمون حفلات راقصة تشترك فيها نساؤهم . اما القانون فهو آلتهم المفضلة .

في المنزل العادي ، كما في القصر ، غرفة خاصة بالاسلحة ، عدة الحرب والقتل ، ولكل من هذه القطع رمزها الخاص ، وهي تمثل دوراً هاماً في حياة الملك وحياة النبلاء وسراة القوم . فعلى كل محارب ان يقتني له خمس قطع ، لا مندوحة له عنها : السيف والقوس ، والفأس الخاص ، والنبوت ، والرمح او المزراق ، والمجن . فهي كلها تستعمل وفقاً للهدف وعلى نسبة بعده : ابتداءً من أسلحة الرماية وختاماً بالسلح الابيض . بعض هذه الاسلحة جميل الصنع ، غالي الثمن ، له مقابض متخذة من عظام وحيد القرن والجاموس ، او من العاج والخشب المطعم بالحجارة الكريمة . وهي تختلف شكلاً ونوعاً . والى جانب هذه القطع المحس يمكن لرجل الحرب ، ان يقتني له أشياء أخرى ، منها خطاف مثلث الشوكات ، وسيف قصير ، عريض النصل ، وخنجر وحرية . ويقتني هواة الصيد شباكاً وأحابيل وأنشطة من أنواع شتى تلائم طبيعة الطرائد المنوي صيدها . ويستعملون في نشر العاج أنواعاً شتى من المناشير .

اما وسائل النقل وعدته ، فهي اوسع واوفر مما كانت عليه في العهد الماضي . فهي تعمل على الحصان والفيل والجمال ، في المناطق الشمالية الغربية ، يصنعون لها اسرجة بسيطة للغاية . فسراج الحصان لا ركاب له ، على ما يظهر ، فيستعبدون عنه بالرباط . ويتخذ في سوق الفيلة سن معقوفة ، وللحصان : اللجام والسوط ، والمركبات ذات العجلتين يجرها زوج او زوجان من الخيل يفصل بينها عريش العربّة او مَجَرَّها . والعربة عرف استعمالها العهد الماضي انما احتفظ بها للملك ، وهي تحاكي ، في صنعها ، المركبات التي جرى الرومان على استعمالها ، وقد زُهد بها منذ القرن الثاني وسقط استعمالها ، إلا في الايقونوغرافيا الخاصة ببعض الآلهة ، كإله الشمس وسوريا Sūrya . ونرى في المقاطعة الواقعة الى الشمال الغربي من الهند عربات تجرها الخراف . اما العربات التي تبدو بشكل صندوق مربع ، والمغطاة بالهوادج فتجرها الثيران المكشونة تحت النير ، وهي تستعمل لنقل الأسر والعائلات ، وفي النقل التجاري ، كما هي الحال معها اليوم . وبعض الاتقال والاجال ترفع ، معلقة على القضبان ، وتحمل على الاكتاف او في قفاف وسلال الجمالين . والملاحه التي اتسعت مرافقها كثيراً وتشعبت ، استخدمت قوارب كبيرة والسفن ، يقوم على

صنعها نجارون ، شأنها في ذلك ، شأن المركبات والعربات . هيكلها يتخذ من قشر الخشب السميكة او من جذوع الشجر بعد تفريقها ، واطرافها في المقدمة والمؤخرة مرتفعة ، تستخدم في تحريكها المجاذيف .

الحياة الاجتماعية واقتصاد الهند نهض ، في هذا العصر ، كما في الماضي ، على التجارة والصناعة والزراعة والحياكة ، وصناعة الحديد وجمع العاج وتوضيبه ، كل هذا كان موضوع حركة تصدير عرفت ازدهاراً كبيراً اذ ذاك . فصيانة الطُرق ، وقيام المحطات والملاجيء على جنباتها ، ومراقبة المجاري النهرية وتنظيمها ، وانشاء الموانئ البحرية ، كل ذلك وما اليه ساعد على تنشيط الحركة التجارية في الهند التي عرفت في هذه الحقبة عهداً من الازدهار لم تعرفه من قبل ، أقله بين الطبقات الحاكمة .

فالملومات التي تمدنا بها مصادر العصر في الادب والفن ، لا تصف لنا سوى حياة الملك وحاشيته : فالحياة الاجتماعية التي تنطبع ، أكثر فأكثر ، بالتسلسل الطبقي ، بحورها الاولى والاخير ، نهج الحياة الملكية . فالملك هو النموذج الاكمل ، والمثل الاعلى للمجتمع اذ ذاك ؛ كل شيء مرتبط به او متوقف عليه ، وكل شيء وُجد او صُنع لأجله او للصفة الملكية التي له . فكل الاصداء التي وصلتنا من هذا العهد ، تعكس تماماً هذه الذهنية او العقلية التي تربط كل شيء بالملك وتردّ اليه كل شيء . فالشعر يعبق بيجو البلاط . فالملاهي والالعاب الرياضية هي من نفحات الآلهة التي يمثلها خير تمثيل وأتمه : والعلاقات الدبلوماسية والمبرات الخيرية والدينية لا وجود لها بدونها ؛ والفنون الصناعية والموسيقى هي من وحي رغائبه واستجابة لطلباته ، و « العلوم » والمعرفة لم يُعلن عنها الا لخدمته . ولهذا راحوا يصورونه بطلاً من الأبطال ، تمت له أسباب العلوم والفنون ، واستبحر في أفانين المعرفة البشرية ، يمارس أشرف الهوايات وأمثلها ألا وهو الرمي بالقوس والنشاب ، واقف على مكنونات السياسة وأسرارها ، لا تفوته خدعة من خدع الحرب ، مطلع على كل ما يؤمن سير امور مملكته ، مشرف على ادارتها ، ابتداءً من التجارة ، يهيمن على نظام « الكون » ، فهو منه المحور ، وقطب الدائرة .

حاكم فرد مطلق ، أوتي الكمال ، وبطل أمثل ، وسياسي محنك ، وقائد حرب مجرّب ، هذا هو الملك كما يبدو من خلال الصورة التي ترسمها له النصوص الأدبية ، وهذه هي الشخصية المثالية التي تتمثل على أتم وجه من خلال الـ *Kshatrya* . فهو الى هذا كله ، وبعد هذا كله ، ممثل الالهية على الأرض وتجسيمها الحسي . ومع ان انتقال الحكم هو أمر وراثي ، فالملك شخص قدّرت ظهوره الآلهة منذ الازل ، وهياته الأقدار ، يحمل تكوينه علامات مفرّدة ، مميزة ، منها الحجب ، او العقل ، وهو من ألزَم صفات الكهنة ، أو ان خارقته من الخوارق الطبيعية تظهره للأبلاك بكونه الوحيد ، الخلق بأن يجلس على عرش الملك . وعندما يتم الإعلان عنه بمسح بالدهن ، ويكرّس ، وينصب في حفلة رسمية ، فيها من المراسم والطقوس ما فيه الكثير من الكنايات والتوريات الرمزية . وهذه المراسم توليه ليس فقط السلطة العليا ، وتؤمّن له استقرار

الأمر بين يديه، بل أيضاً تجعل منه شخصاً إلهياً، مساوياً لرب الأرباب، ومملك الملوك، كفاً عدلاً لأنندرا *Indra* ، والذي يعادل كرامة ويحسمه بصورة حسية، على الأرض كما هو اندرا في السماء . فالملك هو قبل كل شيء الـ *Kshatrya* ، يتفرد عن غيره بقدرته الفائقة ، ومهارته على الرمي بالقوس والنشاب . فهو يعلو الجميع ويتربع دسّت الملك عرشاً رفيعاً ، ويرتدي خفاً (صندالاً) يرمز إليه في غيابه ، وينوب عنه في حكم المملكة . فهو وحده يملك « الجواهر السبع » التي هي من حق الملك وحده ؛ وهي : زوجة ، ووزير ، وحصان ، وعرش وعَجَل *Chakra* ، ومِظْلَة بيضاء ، ومِذْبَنَة تنتهي بذنب القُطاس (بَقَر وحشي له ذنب الفرس) .

كل ما حوله ينمّ عن البذخ والزهو الشرقي . فهو في بلاطه بين بطانة كبيرة وعدد لا يحصى من الحشَم والخدم . فحياته مليئة بالأعمال المجيدة ، كما في العهود السابقة ، وطريقة استعماله الوقت وتوزيعه على ساعات النهار ، موضوع طالما تعرض له الكتاب ووصفته آداب العصر . فيومه مقسم الى ثمانى ساعات ، لكل من الليل والنهار ، يضبط تعاقبها بالدقة اللازمة ميزوكة وساعة مائية ، من السهل أن نكوّن لنا عنها فكرة صحيحة من خلال وصف « علمي » وصلنا من أدب ذلك العصر ؛ فهذه الساعة ، تتألف أساساً من طشت أو جنطاس كبير من النحاس يُملأ ماءً تطفو على وجهه حبات صغيرة من حجم واحد ، دقيقة للغاية ، مثقوبة من الأسفل ، وفقاً لبعض المعادلات الحسابية ، فالماء يدخل في الوقت المعين في الحبة من الثقب الذي تحمله ، وعندما تمتلئ من الداخل تهبط الى أسفل الحوض فتحدث فيه رتة ، وعندئذ يقرع الحارس أو الخادم الواقف بإزاء الحوض ، طيلة على مقربة منه إشعاراً منه للحضور بالوقت الذي عبر وانقضى .

يستيقظ الملك في آخر هزيع من الليل ، أي عند الساعة السادسة صباحاً ، وهي ساعة شروق الشمس في كل الفصول ، ويقوم حالاً ، ببرامم التطهير ، ويقدم القرايين للنار المقدسة ، ثم يستقبل حاجبه والقيّم على أمور منزله ، ثم يتجه الى ديوان مظالمه ، حيث يستمع الى شكاوى رعاياه ومطالبهم وقضاياهم ، ليخلو بعد ذاك ، الى محل سرّي مُنزَوٍ ، مع وزرائه ، للتداول وتبادل الرأي . على قراراته يتوقف خير الملكة ورفاهها ، وبعد أن يكون نظر ومعه وزرائه في شؤون الدولة ومهام الحكم والادارة ينصرف ليقوم بقسطه من الألعاب الرياضية ، وعند الظهر يستجم ويعود الى جناحه الخاص ، فيتناول وجبة الطعام الذي يهيأ له بكل عناية ، تحت مراقبة خدم مجريين ، دوماً على أتم استعداد لتذوق الأطعمة قبل تقديمها للملك ، تسيباً حول صحته ليكون في مأمن من السموم المدسوسة . وبالرغم من هذا التحفظ ، والاحتياطات المشددة ، ينصح له الاطباء بتناول الترياق ضد السم ، ويحمل الحلي والمجوهرات لكي تمنع عنه فعل السموم . وبينما هو منهمك في تناول الطعام ، تقد عليه نساؤه وزوجاته ، بعد ان يخضعن لتفتيش دقيق ، لئلا يخفين تحت ملابسهن سلاحاً أو سموماً ، ويأخذن بالترويح عنه بالمرح ، وينضحنه بالماء والطيوب والعطور . وبعد تناول الطعام يترك له فرصة لمداعبتهن ، ثم يعود للديوان يتابع النظر في شؤون الدولة والرعية . وبعد ان يرتدي ثياب الميدان ، ويتخذ عدته ،

ينصرف لاستعراض حرسه ، وما لديه من فيلة ومركبات وأسلحة وعتاد . وعند المساء يقوم بواجباته الدينية ، ثم يخلو الى جناح خاص يجتمع فيه الى عيونه وأرصاده ، يستمع الى تقاريرهم السرية ، ثم يعود الى جناحه الخاص ، حيث تنضم اليه زوجاته فيتناولوا معاً وجبة العشاء . وبعد العشاء يحضر حفلات موسيقية تنظمها الفرق الموسيقية التابعة للبلاط ، ثم ينصرف للنوم والراحة ليستيقظ في صباح اليوم التالي ، وهو على خير ما يكون من نشاط .

وهذا النهج التنظيم لحياة كل ظواهرها تم عن الانتظام ، يفرغ في جو ومحيط ملؤها البذخ الشرقي والزهو المعروف . فالقصر هو محور النشاط في حياة الدولة . يوج بالعديد من الناس ، لكل فرد منهم مهمته الخاصة ودوره المعين . بعضهم يعمل بمعية الملك مباشرة ، بينما ينصرف فريق منهم لتأمين اسباب العيش الرغيد والرفاهية والطمأنينة للجميع ، وهي طمأنينة تبعثها في النفس ما يقوم على مداخل القصر ومخارجه من الحرس ، والحرس المؤلف من النساء الذي يحفّ دوماً بالملك ، والذي يذكرنا بهذه النساء المسترجلات (Amâzones) اليونانيات الاصل اللواتي كثيراً ما جاء ميغاستينس على ذكرهن ، في القرن الثالث ق . م . أكثر اقسام القصر الملكي ازواؤه هو قسم الحريم حيث تعيش نساء الملك وسراريه . فالملكة وحدها زوجته الشرعية ، ولها جناحها الخاص ، ولا يسمح لأي رجل بدخول دار الحريم إلا للملك وللحارس القديم الذي يتخذ دوماً من الحصيان ، ذي الشعر الذهبي ، ويرتدي قفطاناً أبيض ويحمل بيده خيزرانة . فهو يسير الهويناء بين شقق الحريم يندب فعل الشيخوخة ويلتجب لسوء حظه وقسمته الضئلي ويشكو من ثقل المسؤولية التي تقع عليه في السهر على راحة هذه الحسان الجميلات . اما شغل هؤلاء النسوة الشاغل ، فالاهتمام بهندامهن وزينتهن والتخضب والتضمخ بالطيب والعطر ، والظهور امام المرايا واسترقاق النظر الى بعضهن البعض ، والى جانب كل واحدة ، عدد من الوصيفات يأتمرن بأقل اشارة تبدو منهن . ولكل من هذه الوصيفات عمل خاص : هذه تعنى بذلك جسم سيدتها وهي مستلقية ، نائمة على سرير من الرياش الوثير ، تحمر لها أخص الاقدام وتقدم لها الحلوى والمجوهرات وتساعدنها على لبسها وارتيادها ، وتقدمها بما هي بحاجة اليه من التئبل والافاويه ، وتقام المرامح والمساحيق ، ولال الاقمشة الحريرية ؛ بينما فريق آخر منهن يعمل على ترطيبهن بالمنعشات والمربطات ، والترويح عليهن بالمراوح والمذبات ، في حين تقوم جوقة من الزاقصات برقص إيقاعي على انغام الموسيقى الصادرة ، ونرى في قسم الحريم ، احياناً ، نساء أقزماً بثياب الرجال . وبعد ان تطمئن هذه النسوة الى زينتهن بالرضى عما تعكسه المرايا منهن ، يتجهن الى حديقة القصر والى ما فيها من أفناء عديدة بصحبة وصيفاتهن ، فيختلفن الى الاكشاك الظليلة وافياء اشجار الموز ، يرتشفن بعض المشروبات او يتناولن أقراص الحلوى ويتلهين باقتسامها مع أسراب البط والبيغاء والاوز الاليف . وهذه المرايا تتألف من اقراص من المعدن الصقيل تنتهي بمقبض من الباج البض . ثم يأخذن بضفر باقات من أغصان الكوكو ، رمز الحب المشبوب والربيع الأفيع ، او يلعبن بالكرة . وكثيراً ما يأخذن بالترطيب والتبريد عن أنفسهن بالاستسلام للأراجيح المنصوبة في الظلال الظليلة ، يأخذن باللعب ، ويستسلن للمبت البريء بعيدات عن

كل عين او رقيب ، يقوم على حراستهن من بعيد ، فرق لا حصر لها ولا عد من الحرس يسهر على امن القصر وسلامة من فيه . وكثيراً ما ترافق الملكة وغيرها من نساء الحريم ، والسرايري والمغنيات والقيان والمطربات ، الملك في غدواته وروحاته ، خارج القصر . وتعرض مناسبات كثيرة يخرج فيها الملك من قصره ، يحف به عدد كبير من رجال الحاشية والبطانة والخدم ، في طليعة سرية غزو يقوم بها ، او حفلة صيد كبيرة او في زيارة حج للتبرك لدى بعض المعابد والمزارات المشهورة ، او لزيارة وليّ اشتهر بالتقوى والخشوع ، ولترأس حفلة تأسيس معبد او هيكل . وقد يخرج الملك سيراً منه على الاقدام ، او ممتطياً صهوة جواده ، او راكباً على ظهر الفيل ، يتقدمه حامل سلاحه ، وفوق رأسه مظلة تردّ عنه وطأة الشمس المحرقة ، تحيط به حاملات المذابح ، وامرأة عهد اليها بحمل سيفه المضمّد ، ورجل يحمل ، مشدوداً الى صدره ، خيف الملك ، وغيرهم من الخدم تحمّل الاعلام والبيارق ، ويسير في اثره ، موكب طويل يتألف من رجال حاشيته وأعضاء أسرته ، ترافقهم جوقة من اهل الطرب والعزف ليشنفوا آذان الملك وصحبه ، حاملين آلات الطرب على أنواعها ، ولا سيما القانون منها والطبل .

فالأعياد ، في هذا العهد ، كما في السابق ، عديدة ، يحتشد الناس لحضورها ومشاهدتها . بينها الأعياد الدينية والمدنية ، يضاف اليها الاعياد التي تفرض إحياءها ، بعض ذكريات خاصة في حياة الملك : كعيد مولده ، وذكرى ارتقاء العرش ، وولادة ولي العهد ، والفوز بنصر مبین ، وفتح أغر ، كل ذلك على نطاق واسع من الزهو والبذخ ، فتنتصب السرايدات الثمينة لمناسبة العيد او الاحتفال ، وتقام الأروقة المزدانة بالاعلام ، وينصب العرش العاجي ، وتهبّ المراوح والمظلات والمذابح المتألّثة بما فيها من اللآلئ والمجوهرات . ومن المشاهد المستحبة لدى الجماهير ، مواكب العربات والمركبات تخرج في عرض عام ومُسيرة طويلة ، وحفلات الكرنفال .

وبمعية الملك ، يسير الحاجب ، والوزراء ، والخصي المعجوز الذي يتولى حراسة جناح الحريم ، وحرسه من النساء ، و فرق الشرطة ورجال السر والمباحث ، وهذه الحشود من الخدم والخدم الذين يمهّد الى كل واحد بينهم مهمة خاصة ، فيحمل هذا صناديق الافاويه والمطور وذاك المرايا ، وآخر علب المجوهرات ، وآخر المذابح والمظلات ، وبينهم فرقة الاقزام والحُدب والقزيمات . كذلك في رفقته دوماً صياد هو دوماً على أتم . استعداد لنصب الافخاخ والشباك والاحابيل . هنالك حراس مدججون بالسلاح يقومون على حراسة الغرفة التي يعقد الملك فيها مجلس وزرائه . وفي الموكب الملكي سائق عربية الملك ، وقائد الفيل الملكي وسائسه الذي يتم كذلك بجواده ويجعله دوماً على أهبة الاستعداد ، ومهمتهم في هذا كله لا تعدو مهمة خدام الملوك في الاجيال الوسطى . فالقصر هو قطب الحياة ورحى الحركة الناشطة في البلاد ، يحتشد في باحاته الخارجية الصاغة وتجار المجوهرات وما اليهم من صنّاع ومساعدین الذين يقومون باستمرار بفحص مجوهرات الملك واختبارها وعجم عودها . يقضون نهارهم في تركيب الحجارة الكريمة واصلاح ما يطرأ من خلل على الحلي ، وصنع الجديد منها ، او يُصدّون للملك المجوهرات التي يحملها او يعدها لحفلة قريبة . وعلى مقربة منهم : الخدّام في حركة دائمة ، يغدون ويروحون لتأمين غلف الماشية والحيوانات من

أفيال وخيل وأكباش المصارعة ، والعصافير والحيوانات الأليفة .

والحرف والمهن ، كالوظائف الحكومية ، تنوعت هي الأخرى ، وتخصصت ، واخذت الطبقات الاجتماعية تتميز أكثر فأكثر ، الواحدة عن الأخرى وتتفرّد عنها . فطبقة فيكيا تضم بين ثناياها : الفلاحين والتجار والصيارفة ، وأخذت تنعم بالامتيازات التي كانت وقفاً من قبل على الـ *Kshatrya* وأصبحوا ، على شاكلتهم ، قادرين ان يقدموا الذبائح ، ويدرسوا الكتب المقدسة ، ويقدموا القرابين للبراهمان . كذلك كان من واجبات الـ «شودرا» ان يقوموا دوماً بخدمة البراهمان ، وان لم يكن لهم نظرياً أي حق ديني ، فهناك دلائل واضحة تشير الى اندماجهم تدريجياً في الطبقات الثلاث الأخرى التي كانت وحدها ، في العهد الماضي ، تمثل العرق الآري الاصيل . فالى جانب الفلاحين والارقاء المشدودين الى الارض ، نرى قوماً يحترفون الصيد وتربية الماشية ، يؤمنون معيشتهم كما يستطيعون ، من الأعمال اليومية ، التي يقومون بها ، وسكان الادغال ، ونصف العريانيين ، وقاطعي الحشائش ، وقادة المركبات والعربات ، وحاملي الأسلحة ، وسائقي الفيلة ، وسوّاس الخيل ، وحَمَلَة الاعلام والمظلات ، والمذبات ، وحملة سيوف الملك وخدمة القصر الامبراطوري ، وسراة القوم والموسيقيون ، والمهرجون ، والراقصون والمطربون . ويدخل في هذه الطبقة الدنيا من السلم الاجتماعي ، في الهند ، الاغراب والاجانب .

فاذا كانت معلوماتنا قليلة ، فادرة ، حول هذه الطبقة الاجتماعية السفلى في الهند ، فنحن أوسع احاطة بوضع الطبقات الاجتماعية العليا . فالجَبَل يحتفل به عندهم براسم وطقوس عديدة ، لا سيما عندما تدخل الحامل شهرها الخامس . وعلى مثل هذا ، تنعم حوادث الولادة ، وخروج المرضع لأول مرة بعد الوضع ، واختيار الاسم للمولود الجديد ، والحفلة التي تقام بمناسبة قص الشعر ، ومراسم الزواج والمآتم والدفن التي أصبحت منهجية أكثر من ذي قبل . كل مظاهر الحياة العادية ترافقها مراسم وطقوس دينية . فعبادة النار تستبدل بعبادة الـ *Sandhya* ، أي بعبادة الشمس المشرقة في الصباح ، ومراسم الوضوء والتطهير ، وغارين التنفس والاستسلام للتأمل والتجريد . كل يوم يجب تقديم خمس تقادم تكررّس تبعاً : للنار والبراهمان ، والآلهة ، النخ . والمراسم المتعلقة بالضيافة ارتدت طابعاً مهماً كمراسم الخاصة بالغذاء والطعام . فعملية التغذية تكاد تصبح عملية دينية طقسية : تبتدىء بتلاوة البركة على الاكل وتنتهي بصلاة الشكر . ومواسم الصوم هي كفارة عن الذنوب والمعاصي والخطايا ، وفرائض الصوم والقطاع الموقته يراد منها تأمين بعض الاغراض والاهداف الخاصة . فالمنع الديني يحرم بعض اللحوم والبقول والثوم والبصل وبعض المشروبات ، بينها مشروب الـ *Sûrā* .

حياة البراهمان والكشاتريا والفيكيا تتوزع كما في العهد الماضي بين أربعة أدوار او مراحل : مرحلة الطالب ، مرحلة رب البيت ، مرحلة الزاهد ، مرحلة المتنسك (راجع المجلد الاول^(١) ، ص ٦١٩) . لم يتبدل شيء من هذا كله ، ولن يطرأ عليه أي تبدل في القرون التالية ، وقد راحت البوذية تقتبس ، هي الأخرى ، من التنظيم البراهماني ، وهي ظاهرة جديدة طريفة . فبعد ان مرّت بطور تاريخي تميز بهذا التضامن الذي شدّ العلماني الى الراهب ، راحت البوذية ،

(١) الشرق واليونان القديمة - منشورات عويدات .

بدورها ، ترى في حياة الفرد أربعة ادوار متتالية : دور رب البيت - دور المبتدئ - دور الراهب المستعطي او المتجول - دور الزاهد المتنسك . كذلك الدعوة البوذية التي كانت غير منتظمة لا بل فوضوية ، اخذت الآن طابع التسلسل والارتباط ، من المبتدئ الى الدرجات العليا ، مع اعتمادها على العلمانية التي لم تلبث ان أصبحت أشبه شيء بعلمانيين خاضعين لقانون رهباني ولعدد قليل من الفرائض . وقد حدث ما لا بد من حدوثه ، في مثل هذا الوضع ، الا وهو ظهور رؤوساء وطلوع قادة ينتقون على نسبة ما فيهم من مؤهلات ، وليس بنسبة سنهم كما كان الامر في العهد الماضي . ولكي يحافظوا على النظام الرهباني ، كان لا بد من وضع فرائض وقوانين اخذت تقسو وتشتد وتنتظم مع الزمن ، وتنظم كل تفاصيل الحياة المشتركة . وهذا التسلسل الاجتماعي الذي لا بد منه ولا ندحة عنه امام التوسع والانتشار الذي بلغته البوذية ، تضاعف بتسلسل ديني وروحي لا يصل اليه إلا كل من تفرّد بالروح الرهبانية الحقة وتقيّد بفرائضها . وهذا الاتصال بين العلمانيين والرهبان ، دفع بالبوذية ، في ذلك العهد ، لتستحيل الى شيء من الفلسفة والى مقالة تجادل وتناقش .

وهذا التحول يطرأ على البوذية يزدوج ، من الناحية الفلسفية والدينية التطور الفلسفي والديني بالتطور الآخر الذي اخذت به البراهمانية . فالحقبة هي من اخصب الحقب التي عرقها الادب المقدس او القانوني . فاللاحم الهندية الكبرى هي في سبيلها الى التكوين والبروز ، وكذلك سِيرَ بودا او ياكّا . فالتعاليم الفلسفية لدى البراهمانية *Darçana* تطلع لنا . أصولها الكبرى ، وهي : *Mīmāṃsā* ، و *Nyāyasūtra* ، و *Vaiśeṣika Sūtra* ، و *Sūtra* بينما يطلع علينا أشهر الادباء الجليلين الذين عرفتهم البوذية ، امثال : *Vasumitra* و *Açvaghosha* ، و *Vasubandhu* ، و *Asanga* و *Aryadeva* ، و *Nagārjuna* . وكلهم يشاركون في المعارك العنيفة في سبيل نشر البوذية . وفي هذه الحقبة تطلع علينا النصوص الاساسية ، منها ديفي الافادانا (القرن الثالث) وسانياديديسترا ، وتاكّا كالا وغير ذلك . كذلك تأخذ البوذية المبادرة في حقن الفنون . فليس من باب الصدق قط ، بل نتيجة لهذه السيطرة السياسية في شمالي الهند الغربي ، ان نرى الهندو - الاغريق يعتنقون البوذية . وليس من المستبعد قط ان يكون حدث تمازج او تفاعل بين هذه الفلسفات : الغنوسية والمانيّة والتوحيدية والتي كانت مقاطعات الهند الشمالية منسرحاً له فشهدت حركة فكرية ضخمة أثمرت الميتافيزيقا او فلسفة علم الوجود ، بينما لم تكن البوذية ، الى ذلك العهد ، سوى تعاليم اخلاقية تلاحظ سلوك الانسان . فالعناصر الهلينية والسامية والارامية من جانب ، وقرب المؤثرات الصينية ، من جانب آخر ، كل هذا ساعد جدياً على حدوث تحول عظيم . فالديانات الشعبية تتركز وترسخ لتنضم للديانات الرسمية وتتغلغل على السواء ، في البوذية والبراهمانية وتدمجا بعناصر جديدة ، هو هذا القلق وهذه الروح الرمزية وهو شيء لم يكن معروفاً من قبل . وهكذا تتبادل البوذية والبراهمانية القبس الواحدة من الاخرى فتزج كل واحدة منها نحو الشمول الكلي او نحو الروح المسكونية .

ان بُعد كرازة بوذا في الزمن ، حمل أتباعه ومريديه على اتخاذ موقف تجريدي ، فلسفي أكثر فأكثر . فراحوا يحاولون تحديد الناموس البوذي عن طريق نظرات تجريدية وليس بالاعتماد على بعض حوادث معينة من حياة المعلم . وتحت ضغط هذا الغوران الفكري الذي سيطر على الافكار ، في ذلك ، راحت البوذية تحاول ألا تحصر نفسها في الاخلاقية وفي خدمة الفرد بعد ان أصبحت فلسفة عامة وروحاً مسكونية . فالخلاص الفردي يستعاض عنه بخلاص الجنس البشري المتضامن مع كل ما في هذا الوجود .

وفي القرن الثالث تقريباً ، حدثت الواقعة بين هذه الفئة التي تمثل البوذية المتمسكة بأهداب التعاليم الاولى ، وبين البوذية الحديثة او المستجدة التي جاشت بمثل هذه الحركة التي تتمطى بها المدنيات المجاورة للهند والتي كانت احدي مفارقات هذا العصر . فمنذ الآن فصاعداً تعرف الفئة الاولى باسم: هيمايانا، أي الباب الضيق بينما أطلق على الثانية اسم مهايانا او الباب الكبير أو الواسع . وستعرف كل فئة مصيراً مختلفاً عن الاخرى كما ستخرج كل منهما بنتائج مختلفة سواء في الهند او في غيرها من الأصقاع الشرقية .

فالمايانا التي سادت في جنوبي الهند وسيطرت على المنطقة ، التزمت جانباً تقريرية سلبية ارتكزت على جدل آسر ، شديد الشكيمة . وقد كان خير من يثله ناغارجوناً ، الذي عاش بين ١٥٠ - ٢٠٠ بعد الميلاد . لا نعرف شيئاً يذكر عن سيرة هذا الخطيب الجدلي الذي لا يُضام ولا يرام . فالذي نعرفه عنه انه من مقاطعة بيرار، في الدكن الأوسط، الذي كان اذ ذاك، جزءاً من مملكة أندھرا . فقد ترك لنا عدداً كبيراً من المباحث بينها بحث بعنوان: « في الطريق الوسط » ، وغير ذلك . فالموقف الذي وقفه يقارب القول بالعدمية .

وقد سار على نهجه ، ونسج على منواله ، تلميذه : أرياديفا السنغاليزي العرق والدم (النصف الأول من القرن الثالث) ، ثم تعود هذه النظرية للظهور ثانية ، في القرنين السادس والسابع . محور تفكيره تركّز حول مشكلة الخواء أو العدم ، ونظرية النسبية الشاملة ، أو اللاجوهر . فالمشكلة في حد ذاتها ليست جديدة ، اذ رأينا في الحقبة السابقة البوذيين يقولون ويعلمون: « كل شيء خاوي خالٍ » ، غير أن ناغارجوناً يطبق هذا القول على عدم وجود النسبي . فهو يمضي في نفيه بحيث يصل الى أفكار ونظريات من هذا الشكل : « عندما نقر بوجود الأشياء التي استولدها الخيال ، فقد فقدت هذه الأشياء وجودها » .

بين الأشخاص البارزين الذين اطلعتهم المايانا ، في القرن الثاني شخصية أشفاغوشا ، الذي كان معاصراً للامبراطور كانيشكا، والمرجع الاكبر ، والثقة العليا في الجمع الذي التأم في كشمير خلال حكم هذا الامبراطور . رأى أشفاغوشا النور في مقاطعة « أوده » ، فكان صناجة زمانه وموسوعة علم وأدب : شاعراً ، موسيقياً ولاهوتياً . نحن مدينون له بعدد كبير من المؤلفات التي بلغ فيها «سفرة المنتهى» فتعمد من اروع ما عرفه التراث الفكري البوذي ، على الاطلاق ، بينها : « بوذا كاريتا » و « سوترا إكمكارا » . وهو يرى نقيض ما كان يقول به ناغارجوناً ، ان العدمية ، ليست قط محور هذه المشكلات، بل « تهااتا Tahata » ، أي الجوهر الذات أو الفرد ،

أي الواقع الجوهري ، أو الطبيعة المطلقة للأشياء والكائنات . فهو من هذا القبيل ، من القائلين بـ « اليوغا » التي ترى الحل في هذا الاستجماع الفكري الذي يبلغ تدريجياً أبعد ثنايا الروحية الشاملة فيتيح للفرد ان يتحرر من عوارض الزمان والمكان . فالعمل الذي قام به اشفاغوشا ، والذي سيكتمل فيما بعد على يد أسنغا ، في القرن الرابع ، هو هذه الميتافيزيقا البوذية التي كان من شأنها ان تجعل الديانة البوذية مفهومة من قبل العقول المشبعة بالثقافة التقليدية ، ويمكن للمرء ان يرى فيها محاولة للتقرب من البراهمانية ، وهي محاولة جاءت منسجمة مع نزعة انتقاء الأفضل التي عُرف بها الامبراطور كانيشكا وراح يعطف عليها ويرعاها ، ان لم يعمل بها .

كل هذه الغورة الميتافيزيقية لم تخلُ من بعض الاضطراب بحيث يجب ألا نتصور وضع الفلسفة في هذه الحقبة متميزاً بالانسجام والوحدة . فقد قام بين الفئتين البوذيتين منافسة شديدة ، وان غامضة ، كان من بعض نتائجها عدد لا يحصى من الملل والشيع بعضها شايع الآخر في جوهر مقالاته ، وبعضها الآخر استقل بنفسه ، كما عرف بعضها بحوية ونشاط عارمين . ومن مراكز هذا النشاط (كشمير) ، التي تقع على مقربة من غندهارا ، حيث ازدهرت شيعة ، قريبة من الشيعة المعروفة باسم سارفاستيفادين ، في مقاطعة ماتورا ، والتي ساهمت كثيراً في تطوير الباب الواسع . من هذه الملل ايضاً ، الملة المسماة فايدهاسيكا التي سلمت بمذهب الذرية مع استمرارها على نكران : « الأنا » أو الذات .

ويقابل هذه الوفرة في الملل والنحل ، تمازج او تخالط عقائدي فيما بينها مع كثير من المفارقات بين الواحدة والاخرى ، بحيث لم يرق بينها أي تجانس ، ونشاهد بينها شيئاً من التلاحم اللاشعوري او المقصود مع البراهمانية ، يبرز أثره ليس في النظريات والمبادئ فحسب بل ايضاً في مواصفات الآلهة التي يؤمن الطرفان بوجودها . فنجد الآن وصاعداً ، لم يَعد وحده ، هذا البوذا العظيم ، رجل الله ، بل هنالك سلسلة لبوذا تظهر جنباً الى جنب ، هي ثمرات تجريدات ذهنية ، في تشاكياموني ، خير ما يثلها وأهمها على الاطلاق هما : اميتاها وأميताيوس ، أي النور الذي لا نهاية له (في الاول) والديمومة التي لا آخر لها ولا نهاية (في الثاني) . فالاول هو أشبه ما يكون بآله النور ، فيه الكثير من سمات ايران والبراهمانية كما تتجلى ، على أحسن وجه ، في أوصاف فيشنافا . وهذه الميتافيزيقا التي طلعت علينا بمثل هذا العدد من الآلهة ، اوجدت فكرياً ، الى جانب هذه الصور المتعددة لبوذا التي عرفناها في الماضي ، بوذا المستقبل ، هو مترايا ، حيث تبرز بوضوح مفارقات فيدية وايرانية ، وربما رومانية ايضاً ، اذ نجد فيه بعض معالم ميترا - ميترا . وهؤلاء الكائنات السامية ، يصحبها كائنات فكرية ، مجردة هي الاخرى ، تُعرف عندهم باسم *Bodhisattva* ، الذي سيلعب ، أكثر فأكثر ، دوراً بارزاً في الاجيال الطالعة ، وبأخذ عددها فيما بعد ، بالازدياد ، منسجمة مع ذلك ، مع التطور الذي طلع على الذهنية البوذية . فبعد ان تمت لهم حالة الاشراق ، لم يعودوا ليكثرثوا كثيراً ببلوغ الغبطة او الطوبى او الزفانا ، بحيث يتاح لهم الانبعاث من جديد لينصرفوا للعمل على فداء البشرية وخلصها : فالعبادة والمحبة الشاملة حلاً محل عمل الفكر الذي كان في « الباب الضيق » يفضي بصاحبه الى الخلاص .

وهذا التعليم أفضى حتماً الى التطور الذي مرّ به التعليم البراهماني المعروف باسم : بهاكتي و الذي يعني : المشاركة والمساهمة ، ثم توسع المدلول فيما بعد بحيث أصبح يعني : تعبد أو عبادة أو سجد . وهذا التعليم الذي ظهر في هذا القسم الشمالي الشرقي من الهند صدر عن الطقوس والعبادات الشعبية التي تأثرت ، على أقدار مختلفة ، بالبوذية ، المسيطرة على هذه المنطقة . وهو يرتكز أصلاً ، على حركة مزدوجة : انجذاب الفرد نحو الالهي ، واستجابة الالهي للفرد . في هذا التبادل الرمزي السري حيث تنتهي المشاركة ، بالتححرر ، بالخلص *Moksha* مع انه يوجد فعل عبادة *Bhakti* . ففي هذه الحقبة التي تهمننا هنا ، تبدو هذه العاطفة نتيجة العقل ، وبالتالي اقرب الى «الفنوز» ، الى الروح الشامل ، إلا انها في طورها اللاحق ستتجه بالأكثر نحو العاطفة او الدفق الديني . فالعبادة *Bhakti* ليست سوى مظهر من مظاهر التعليم البراهماني .

وقد رأت هذه المدرسة البوذية ، بدافع من حركة رجعية ضد بوذية المهايانا والنحل الأخرى التي انبثقت عنها ، ضرورة تنظيم تعاليمها هي الأخرى وتأمين انسياقها . ففي الحين الذي كانت فيه المهايانا تتطور ، ظهرت على البراهمانية مدارسها المستقيمة الصحيحة التي ستضفي عليها ، أكثر فأكثر ، طابعها التقريري المدرسي . وقد نشأ بين القرنين الاول والسادس للميلاد ، ست مدارس مختلفة في قلب البراهمانية ، ترجع في جذورها الكبرى الى أبعد من ذلك ، وكلها تدعي انبثاقها من التقليد الفيدي الذي يمكن اعتباره بالنسبة لها ، المعدود الأصغر المشترك . واقدام هذه المدارس ، على الاطلاق ، هي المدرسة المعروفة باسم *Vaishika* ومدرسة *Mimamsa* ، التي ترجع تعاليمها وفرائضها - سترأ على ما يرجح العارفون ، الى القرن الثاني . اما المدرسة المعروفة باسم نيافا ، فهي تعود للنصف الاول من القرن الثالث . والمدارس الثلاث الباقية ، وهي : الفيدانتا ، واليوغا ، والسمخيا ، فقد ظهرت للوجود نتيجة هذه الاجتهادات التي قامت فيما بعد ، وليس هنا موضع الاستفاضة فيها والخوض في غمارها . واصحاب المدارس الثلاث الاولى ، مشكوك جداً بوجودهم تاريخياً . والمبادئ والنظريات التي تميز الواحدة منها عن الأخرى تباين فيما بينها تباين الملل والنحل البوذية ، هي الأخرى ، انما يوجد شيء يوحد فيما بينها ، هو انتسابها جميعاً ، الى جذر واحد ، وأصل واحد ، هو الجذر الفيدي . فبينما كانت المدرسة الميامزا لا تهتم إلا بالاصول والمراسم الطقسية دون ان تقدم أي تفسير لتناسخ الارواح ، ترى المدرسة الثانية فايستشيكاً منها ، تجعل من قضية الخلاص مشكلتها الاولى . فهي تبني تعاليمها على النظرية الذرية التي تعارض جوهر الفرد الروحي بالهيولى او المادة . ومن اتصال هذين المنصرين : الروح والمادة ، تبتدىء هذه السلسلة من التوالد والتناسخ التي لا انفصام لها ولا حد . ولكي يصبح في مكثه الجوهر الروحي للفرد الانعتاق من الجسم ، وبالتالي ، تحقيق الخلاص عن طريق انضمامه الى الجوهر الفرد للروح ، يجب ان تتم له معرفة تجريبية ، اختبارية . تذهب بكل أثر للوهم أو الخيال . اما عند مدرسة نيايا ، فالتناسخ لا يقوم اساساً في هذا التناقض او التضاد بين الروح والهيولى ، بل في هذا النشاط الذي يسبب الغلط . ولكي نأمن جانب الغلط ، علينا الاعتصام بالمنطق الذي فيه الدليل القاطع الذي يعصم عن الغلط ، قبل التعبير . فالقياس ، في نظر النيايا ، قادر وحده على

ان يضع حداً لسلسلة التناسخ ، ويهيء للفرد النجاة والخلاص .

وهكذا تلتقي البراهمانية والبوذية ، خلال هذا العهد ، عند البحث عن المطلق . وهذا البحث الموصول عن المطلق ، من نتائجه ان يسبب تغييرات مهمة يجب ان تدخل في الحساب ، عندما يراد تقويم هذا العهد ، على الوجه الاكمل ، وتقديره حق قدره ، وهي تغييرات من شأنها التأثير على الفنون التجسيمية .

فالشعب الذي لا يهتم كثيراً بالامور التقريرية والتفسير ، يطلق بسهولة كلية العنان لمشاعره وعواطفه التي يحثها بتشديد مثل هذا العدد الكبير من المعبود والهياكل . وهكذا ازدادت البوذية غنى بعد ان خلصت من أسباب الفوضى التي خلخلتها فأرزحتها ، وكسبت المزيد من الخطوة لدى العظماء . فهي بحاجة اكبر للمزيد من الأديار الكبيرة لتتسع لجماعاتها الآخذة بالازدهار يوماً بعد يوم ، وبفضل العطف الذي نعمت به لدى العظماء واصحاب النفوذ في البلاد ، تلقت مساعدات مالية واسعة راحت معها تشيد الكثير من المباني ازدادت على مر الأيام غنى وزهواً وزينة فنية . ففي الحين الذي راحت فيه تعمل على تنظيم ذاتها ، شرعت بحاجة ملحة لمُحفِة لتقوية نقاطها العقائدية الأساسية لتصمد في وجه الصدمات والهجوم الذي تلقاه من خصومها ، بحيث تستطيع عندما تحين الساعة ، الدخول معها في مناقسة ، في مجال تشييد المؤسسات والمباني والانشاءات الفنية ، في حقل الحفر والنقش . فمعاهدها لا تزال ، الى ذلك العهد قليلة العدد ، محدودة ، والايقونوغرافيا شبه معدومة عندها .

الفن
تسجل البوذية ، في هذه الحقبة ، في مجال الفن ، اكبر النجاحات وأمثلها . فهي الملهمة لفن العصر ، والمسيطرة عليه والمستبدة بأصوله ومناحيه ، لا منازع لها في ذلك . فهذا العهد ، يقع ، من الوجهة الفنية ، بين قطبي جذب ، يمثل اولهما بزخرف السوبا ١ و ٣ ، في مقاطعة سانشي ، (اواخر القرن الأول للميلاد) . اما الثاني ، فيتمثل بظهور بوادر فن الغوبتا ، (النصف الأول من القرن الرابع) فليس هنالك ، مبدئياً ، أي انفصال أو تقاطع ، بين العهد الماضي وبين هذه الحقبة ، اذ ان هذا الاستمرار الموصول يفضي بالفن الهندي من الطراز القديم الذي يتمثل بآثار بهار هوت و سانشي - والآثار الاخرى المتصلة بها - الى الطراز الكلاسيكي الاتباعي الذي تجلّى على أحسنه في عهد الغوبتا ، وخلفائهم من بعدهم . ومع ذلك ، يصح وصف هذه الحقبة موضوع هذا البحث ، ونعتها بكونها حقبة انتقال ، اذ انها تكلّة ، من جهة ، للفن القديم ، كما انها ، إيذاناً ، من جهة اخرى ، بطلوع طراز جديد لا يلبث ان يحل محل الفن القديم تدريجياً . فالحقبة هي ، ولا شك بذلك ، من أخصب الحقب في تاريخ الهند . من جهة اكتشاف الموضوعات الايقونوغرافية ، وتطوير الفن الجمالي وفلسفته . فالفن يعكس اذ ذاك ، بدقة كلية : هذا التشابك السياسي الذي ميز وضع البلاد آنئذ ، واكتمال البوذية التي بلغت فيه الأوج .

في البلاد ، اذ ذاك ، ثلاثة محاور أو مدارس تحتضن هذا الفن ، ممثلة لأقطاب السيادة الثلاثة ،

في الهند ، وهي مملكة الكوشانا في شمال غربي الهند (غندهارا) ومملكة ماتورا في الشمال ، وسيطرة الأندهر ، في الجنوب الشرقي (أمارافاتي) . والمدارس الثلاث امتازت في التطور الذي اخذت بأسبابه ، بهذه الروح التجديدية التي أدخلت على فن الرسم ، ولا سيما على الرسم الايقونوغرافي الخاص ببوذا . ففي القرنين الاول والثاني للميلاد ، يغلب استعمال صورة بوذا ، ومع ان صورته لم تكن تظهر قط ، في العهد الماضي ، في هذه المناظر او المشاهد التي تبرز حوادث ووقائع حياته على الارض ، اذ كانوا يكتفون بالرمز اليه تورية وبجازاً ، فكيف لعمرى بهذه السلسلة من النقوش المعروفة بالحفر النائي . ومع انه يجب التحفظ كثيراً عند التأكيد في ان هذا الرسم ، طلع اول ما طلع ، في منطقة غندهارا أكثر منها في منطقة ماتورا ، فمما لا شك فيه قط ان هذه الصورة ظهرت في امارافاتي ، بعد ذلك بقليل .

قد يمكن ان تكون الفكرة يونانية المصدر والمنشأ ، نشرها على ما يرجحون ، فنانون يونان ورومان ، أصلهم من آسيا الغربية . وقد تركزت الفكرة ، في مقاطعة كابتشا التي رأينا ما كانت عليه من نشاط الحركة التجارية ، في القرنين الاول والثاني للميلاد ، في هذه الحركة التي لم تلبث ان امتدت الى جميع أطراف العالم البوذي . فبرزت هذه الصورة الجديدة لبوذا ، لم يكن له تأثير كبير في الاسلوب الايقونوغرافي البوذي ، وان كان أضفى عليه شيئاً من عنصر الاستقرار ، عن طريق وضع رسوم المشاهد الحياتية الخاصة ببوذا ، وهي رسوم اتصفت أكثر فأكثر ، بالتناسق والتناظر .

لصورة بوذا كما تجسدت في المدرسة الشمالية الغربية قسماث ابولونية لمراهق شاب ، مستقيم الانف ، بينما فمه يبرز بوضوح ، غير ان حواجبه الكثيفة تكاد تغطي الى النصف عينيه البارزتين . إلا ان وجهه المفلطح ، واستطالة شحمة أذنه لثقل الاقراط الذهبية المتدلية منها ، كل ذلك يضعنا امام سحنة شرقية الطابع . وهو يرتدي قفطاناً يكاد يختفي تحت إسكيم رهباني غطى منكبيه ، وبدا كأنه غلالة ملتصقة تماماً بالجسم ، لها ثنايا مربعة تبرز للعين بوضوح . وهو يلبس الشارات الرسمية التي تحدثت عن قداسه . نرى الحواجب المقفولة تظهر بوضوح ، وهو ممسك براحتي يديه العجك الذي يرمز الى الشريعة البوذية وسيرها الى الامام . اما شعره المتجمد بانتظام فنراه وقد شدت جماعه الى الامام بواسطة اسلاك ذهبية . وقد ذهب المفسرون مذاهب شتى في تفسير هذا الشوّه في الشعر الذي أدى الى جحوظ الرأس على هذا النحو . وهذه العلامة تبرز في كل صور بوذا أينما وجدت في جميع ارجاء آسيا ، حتى يومنا هذا .

ففي مدرسة ماتورا نجد صورة نموذجية لبوذا الغندهاري ، برزت قسماثها وفقاً لمبادئ هذه المدرسة الفنية ، سواء أكانت سحلية او مقتبسة من الخارج . فهي من طابع الصور التي وضعت في العهد الماضي ، من نفس الطراز المعروف بطراز يكشا او طراز ماغاراجا . يبرز فيها بوذا برأس مستدير يشبه رأس دمية تطفو الابلتسامة على ثغره ، حليق الرأس كرأس الرهبان ، تغطيه قبة يزيد لوها بروز الجمجمة . فانسان العين يبرز من خلال الهُدب . وهو يرتدي معطفاً يشبه معطف الكهنة يظهر من فتحة فيه مائلة ، نصف جسمه . والنسيج الذي يلبسه يبدو أكثر

نعمومة من النسيج الذي يظهر في النموذج المصنوع في مدرسة غندهارا ويلتصق بجسمه ، وتظهر عليه بوضوح هذه الثنيات البارزة والمتوازية . فهو في مظهره الضخم نراه واقفاً على رجله المتباعدتين قليلاً ، ويقوم بحركات بسيطة ، طبيعية ، لا تثبت ان تصبح تقليدية . ليس في هذا الرسم ما يدل على وجود تأثير أجنبي او غريب فهو من صميم وحي التقليد الهندي ، وينسجم تماماً مع الاصول الفنية التي تقيدت بها المدرسة القديمة .

اما بوذا مدرسة امارافاتي الفنية ، فكل شيء فيه يدل على ان هذا الرسم جاء بعد النموذجين السابقين . وليس من النادر قط ان نشاهد في تقاطيع هذه الصورة البارزة بعض الطرق الفنية التي استعملتها المدرستان السابقتان ، أي ان الرمز يحمل محل الصورة ، او ان صورته تحمل السمات التقليدية المعروفة في الفن الهندي . فصور امارافاتي ، على شاكلة الصور الصادرة عن مدرسة ماتورا ، لها سمات هندية أصيلة ، افادت من التجارب الفنية الماضية . تبرز على سحنة بوذا هنا ، الاستطالة التي تميز المدرسة الدرافيدية الفنية ، هذه السمات التي يجعل منها فن الرسم الجمالي فيما بعد ، شيئاً نموذجياً . فتتواءم الجمجمة يبرز قليلاً . فهو يستقر كباقي أجزاء رأسه ، تحت جدائل مضفورة ، رقيقة ، مائلة الى اليمين . فهو يرتدي معطفاً رهبانياً ، أكثر سماكة من الذي نراه في نموذج مدرسة ماتورا ، ويظهر منه عري كتف اليمين ويبدو على جسمه ثنيات منسجمة تظهر من مقدمة الرأس الى مؤخرته ، ابتداء من الساعد المثني على صدره .

وهذه الفروق بين النماذج الفنية الثلاثة لصورة بوذا ، كما وضعتها هذه المدارس ، تبرز بوضوح المظاهر الفنية الأخرى . ففي غندهارا والمناطق التي تأثرت بالفن الهليني ، نرى الرسوم الفنية التي وضعها فنانو هذه المدرسة تترسم هذه المبادئ . فشخصية بوذا كما تبدو في رسوم هذه المدرسة ، تُبرز بوضوح هذا المركب من المؤثرات اليونانية البوذية وتمتدنا بصور مستوحاة من النظريات الفنية الهلينية او من التقاليد الهندية الصرفة ، من ذلك ، مثلاً : صور هؤلاء الاولاد ينبفخون في الشبابة والنائي المزدوج ، او حاملين الأكاليل المضفورة او عناقيد العنب : وهذه الأعمدة المنحوتة بشكل أشخاص مفتولي العضلات لهم اجنحة « غريبة » ، وهذه النسوة وقد برزت في شعورهن المصطفة ، رسوم على شكل أهلية او ابراج مصغرة مستننة ؛ ورسوم رجال مفتولي الشوارب لابسين قفاطين قصيرة ، وأكام ضيقة ؛ وهذه الراقصات ينقرن الكمان والعود ويضربن الطبول ؛ حاملات جواراً او عناقيد عنب . وفي المجال الزخرفي ، يجب ان ننوه بوجود أكاليل أعمدة كورنثية الطراز ، يضاف اليها من وقت لآخر صورة بوذا بين الشجر وبعض سعف النخيل . والشخص الهندية تبرز وفقاً للطراز الهليني المشبع بعناصر فنية مستوحاة من انطاكية وتدمر وسوزة وسلوقية ، أي مستمدة من هذا الشرق الروماني الذي نرى الفن اليوناني البوذي يستلهم الكثير من عناصره . وهذا الفن الذي يحمل سمات الفن الكلاسيكي ، والذي جيء به لخدمة الديانة الهندية ، يحمل بين مقوماته كثيراً من سمات الفن الروماني ، كما يبدو بعد ذلك واضحاً من هذه الرسوم التي يدخل في تركيبها الملائم ، والتي عُثر عليها بأعداد كبيرة في افغانستان ، ولا سيما في مقاطعة هدا ، وبينها رسوم تبدو على قسائمتها العناصر اليورو - آسيوية ،

كهؤلاء النساء والزهاد ذوي الوجوه النحيلة الضامرة ، الشبيهة بالصور المعروفة للسيد المسيح ، في الفن الروماني القوطي ، او يحاكون هؤلاء الرجال 'مغر' الشعر والزرق العينين ، والشارب المعتدل الذين يشبهون الغاليين ، وهؤلاء الرهبان الحليقي الشعر ذوي الملامح الرومانية . وخلافاً للتقاليد الهندية نحن امام فن يرغب في ابراز كل أطوار الحياة : اولاد صغار ، ومراهقون وشيوخ مطلقاً للحى ، والجباه المتفضنة بحيث تبرز الشخصيات جميلة حية ، مثيرة .

وبالرغم من هذا التنوع الذي امتاز به الفن في هذه الحقبة ، يطالعنا مع ذلك ، شيء من الوحدة بفضل هذه العناصر المشتركة بين المدارس الفنية الثلاث والاشكال الهندسية الواحدة ، ومظاهر الحفر والرسم التي نشاهدها لأول مرة والتي لم تخضع كثيراً كما نلاحظ لأول وهلة ، لهذه التغييرات التي اقتضاها الزي المحلي الغالب . إلا انه لا يسعنا ، بعد هذه النظرة العامة لنقيها على الفن الهندي ، إلا ان نؤكد بأن هذا الفن كما تجلى في هذا القسم الشمالي الغربي من الهند ، لا يمكن ان يدخل في هذه الجمالية الخاصة بالهند لانتائه الفاضح ولانتسابه للعالم الروماني .

فالهندسة المعمارية ترتبط مباشرة بالفن المعماري الذي سيطر في الحقبة السالفة . فهي نتيجة منطقية لهذا التطور الذي اخذت بأسبابه ، مع مراعاة الحركة التطورية التي سارت عليها البوذية . فالمعاهد المحفورة في الصخور ، حافظت على الرسم الهندي المعروف ، وقلدت دوماً أشكال الهياكل المصنوعة من الخشب ، إلا انها تزداد منهجية وغودجية ، كما نرى مثلاً ، في هياكل كنهاري ونازك رقم ٣ . فالهياكل التي نالت أهمية ملحوظة ، في العصور الماضية ، تغطي ، في بعض الاحيان ، مساحات شاسعة أي نحواً من ٥٠٠ متر قطر دائرتها ، كما هو هيكل امارافاتي ، والبناء يزداد ارتفاعاً كما يرتفع الاساس أكثر من ذي قبل ، وقبابها تصبح أكثر كروية ، والاروقة التي تقام عند خطها الدائري تتطور بشكل واضح ، كما نرى ذلك ، مثلاً ، في هيكل سانشي ، وفي هذه الثغرات الزخرفية التي تكثر منها الهندسة المعمارية ، وهي ثغرات بشكل نضوة حصان . ويقوم الى جنب هذه الهياكل من الطراز التقليدي ، الديني الطابع ، هياكل ترتفع على أعمدة ، كما ان بعضها الآخر شكلاً مستطيلاً ، ولها ابواب ضخمة ، كما هي هياكل الاجيال الوسطى .

اما التجديد فأكثر ما يتمثل في فن النقش والحفر ، مع الحرص على الاحتفاظ بالعمود الفني الذي ميز الاطرزة الفنية السابقة ، فهو ، من الوجهة التقنية فوق ذلك بكثير ، بعد ان جاء الفنانون بالدليل على تضلعهم من الاصول الفنية وتجويدهم لها تماماً . فمظاهره الخارجية متنوعة للغاية ، ليس من حيث طريقة الحفر والنقش ذاتها ، او المواد المختلفة المستعملة ، بل أيضاً من حيث المنهجية التي تميز كل مدرسة من هذه المدارس الفنية ، في ما يبرز من هذه الصفائح العاجية الصغيرة التي نجدها في هياكل بگرام وكابثشي حيث تقوم هذه التماثيل الضخمة ذات الحفر النائية التي نراها ماثلة في هياكل كارلي وكنهاري ، مروراً بهياكل ماتورا ، ذات الحجارة النافرة ، وبهذه النقوش البارزة التي لا تحصى ، المثلة في هيكل امارافاتي حيث يبرز تنوء الاشخاص نحواً من ٢٠ سنتمتراً . فالحجر الرملي الوردي يضيف على هيكل ماتورا مظهراً يتسم بالمحافظة ويقربه جداً من طراز معبد بهار هوت ، بينما المرمر الابيض او الخفيف العروق الذي نجده في هيكل امارافاتي يضيف

عليه مسحة من الخشوع تنسجم تماماً مع الطراز الفني لهذه المدرسة التي لا تخلو من بعض أثر التصنع .

فالجمالية البادية في مدرسة ماتورا تبرز بوضوح التعقيد الذي ميز وضع دولة كوشانا اذ عرفت ان توفيق بين مهابة ووقار هؤلاء الملوك الاغراب من سكان الفيافي والقفار الذين ما زالوا محتفظين باللبسة البدو الرحل وأزيائهم والعائم التي اصطلح الغز على لبسها ، وبين رهاقة النساء الهنديات اللواتي تطفو البسمة على شفاههن ، في هذه السجدة المثلثة الرسمية التي يقمن بها بكل انسجام . اما مدرسة امارافاتي الفنية فيشيع منها شعور يختلف عن ذلك تماماً : مظهر عال ، مديد ، يبدو عليه بعض التصنع ، وهذا التمثل الفائق الذي عرف به الطراز الفني المعروف بطراز غوبتا الارستوقراطي .

هذه المميزات المفردة تطبع كذلك فن الرسم والتصوير ، في هذا العصر ، واليه تعود بعض الصفائح العاجية التي عُثر عليها في مقاطعة كابتشي ، والتي تمتاز بدقة القسبات وبروزها ، وبهذه الوقفة السليمة ، وهذه الدقة التي ترافق الصنعة مع الحفاظ على فن المنظور الهندي . فالفن الهندي ، بعد حقبة الانتقال الغنية بالمؤثرات الجديدة التي جاءت من الخارج ، وبعد التجارب العديدة التي تمرّس بها ، لن يلبث ان ينضج وان يهيء لهذا الازدهار الذي سيتجلى على أتمه في عهد دولة الغوبتا والحقبة التي عقيبت هذا العهد .

الفصل الثالث

مراحل النفوذ الهندي في الأقطار الواقعة جنوبي شرقي آسيا

هذا الاهتمام الذي أظهره الهنود ، منذ مطلع المسيحية ، بالبلدان الواقعة على بحار الجنوب ، ازداد نشاطاً ، منذ الحين الذي وقفت فيه إيران حائلاً دون المواصلات التجارية مع الغرب . فراحَت تجارة الذهب والافاويه تبحث عن منافذ لها ، وطرق مواصلات أخرى . وهذا الاهتمام ، من جانب الهند ازداد أواراً عن طريق تحسين طرق المواصلات . فقد قام في الهند الصينية وشبه جزيرة الملايو ، عدد من « الدول » ، قدّر لها ان تسجل ، بعد قليل ، عهداً كبيراً من الازدهار التجاري ، وان تجتذب إليها أنظار الناس ، بعد أن عرفت كيف تنمّي علاقاتها بالهند ، وان تقتبس من الحضارة الهندية ما فيه قوام أمرها .

من هذه « الممالك الهندية » مملكة عرفها المؤرخون الصينيون ، في القرنين الثاني مملكة فو - نام والثالث لليلاد ، باسم مملكة فو - نام ، وهي مملكة تقع في مقاطعة كبوديا اليوم ، وفي هذا القسم السفلي من مقاطعة الكوشنصين . اما عاصمتها ، فتقع على مقربة من رابية با - فنوم ، على بعد ٥٠٠ إلى ٢٠٠ كلم من البحر ، حيث عثر المنقبون ، على آثار مهمة لمركز تجاري ، قام في ناحية أوك - ايو OC - EO ، الى الجنوب من فنوم - باقيه . فالمصادر الصينية ونقيشة سلسكريتية من القرن الثالث ، عثر عليها في فو - كانه ، من أعمال مقاطعة شامبا ، هي خير ما يمدنا بأوثق المعلومات ، عن تاريخ هذه البلاد في هذه الحقبة التي تعيننا هنا . فالظروف الاسطورية التي رافقت عملية استهناد هذه المقاطعة واقتباسها حضارة الهند ، في المصادر الصينية المثلثة بهذه الحوليات التاريخية ، وبالنقيشة التي عثر عليها في فو - كانه ، تكشف لنا بصورة غير واضحة تماماً ، عن أولى هذه الاتصالات بين مدينة متخلقة عن الركب ، وحضارة تفوقها سمواً وسناءً . فالمصادر الصينية تروي القضية على الوجه التالي : تراءى لرجل غريب قد يعود نسبة الى إحدى مقاطعات الهند الشرقية ، يُعرف باسم هوان - تيان ، وبالسسكريتية : كوندينيا Kaudinya ، كان يعترف بالآلهة (اسلوب تعبير عن عبادة البراهمانية) حلم رأى

فيه جنّاً يسلمه قوساً ويأمره بركوب سفينة شحن يخرج بها لمرض البحر . وعندما استيقظ هوان - تيان من نومه ذهب رأساً لمبعد هذا الجن ، وما لبث ان وجد عند جذع احدى الأشجار القوس الذي سبق ورآه في منامه . ثم انضم لركب من التجار على أهبة السفر مجراً ، وما كادوا يوغلون حتى راح هذا الجن يُعمّي الطريق عليهم ، فغير ، من حيث لا يدرون ، اتجاه السفينة التي حملتهم الى شواطئ مقاطعة فو - نام التي كانت اذ ذاك تحت ادارة امرأة تدعى ليويه ، أي ورقة الصفصاف ، التي سوّلت لها النفس الأمانة بالسوء ، نهب السفينة القادمة وسلب ركبها ، فأرسلت ثلة من جيشها نحو الشاطئ كما أرسلت بعض السفن المسلحة لمهاجمة سفينة هوان - تيان . وبدلاً من أن يعتري الخوف هوان - تيان ، أوتر قوسه ورمى سهماً اخترق هيكل سفينة الملكة وأصابت احد جنود الملكة فقتلته . واذا ذاك ، دب الخوف في نفس « ورقة الصفصاف » ، فاستسلمت له وتزوجها ، واستولى على الملكة . أما الرواية المستمدة من النقيشة ، فتقول بأن أحد البراهمان سلم كوندينيا مزيماً ، ولما وصل الى مقاطعة فو - نام رمى بمزراقه ليحدد المكان الذي ستقوم عليه . العاصمة التي ينوي تشييدها ، ثم تزوج من احدى كرنيمات ملك ال « ناغا » ، المدعوة سوما .

في كلا الروايتين نرى . سلالة جديدة من الملوك تطلع من هذا الزواج بين الملكة الوطنية والغريب الطاريء الفاتح . فانصرف في بادئ الامر الى تطوير طباع شعبه المتخلف عن ركب الحضارة مبتدئاً منهم بالملكة . فقد ساء ان يراها تسير عارية ، فراح يخطط لها بزة تلبسها . وكان من عادة البلاد قديماً ان يسير النساء عراة وعلى أجسامهم الوشم وجدائل الشعر هتدية على أكتافهن . وبعد ان أبرغم هوان - تيان الملكة على ارتداء الملابس ، راحت النساء يحتدين حذوها بارتداء ملابس بدائية للرجال والنساء الذين كانوا ، على السواء ، قبيحي المنظر وزنوجاً ، انما استمروا على السير حفاة مدة طويلة ، كما سنتبين ، ذلك ، فيما بعد .

كانت خلافة هوان - تيان عسيرة ، على ما يبدو ، اذ حاول رعاياه مراراً ، ان يأتوا بملك من أهل البلاد ، وليس من ذرية طاريء غريب . قام على الحكم بعده ابنه وعقبه ملك آخر اسمه هوان - بان - هونغ ، مات في القرن الثاني وله من العمر ٩٠ سنة . وسلم ابنه الاصفى أمره لقائده العظيم فان - مان ، او فان - شي - مان الذي تربع على سدة الملك حوالي ٢٢٥ - ٢٣٠ . وفان - شي - مان الذي نصبه على دست الحكم « أبناء الملكة » قد يكون هو نفسه شري - مارا الذي جاء اسمه في رقيمة فو - كانه . وقد أوتي من « الشجاعة والاقدام » ما كان معه بالفعل باني دولة فو - نان وباعث عظمته ورافع لوائها عالياً . فقد اخذ البوذية تحت رعايته ، وجعل السنسكريتية لغة الديوان . فرقيمة فو - كانه صريحة واضحة في هذا المجال ، لا تدع مجالاً للشك . ثم راح يغزو الممالك المجاورة له ويضمها الى ملكه حيث تم له ما أراد ، ولقب نفسه بملك فو - نان الكبير . ثم بنى له بعد ذلك عمارة بحرية من السفن الكبيرة وراح يغزو بها غديداً من الممالك ولا سيما ما وقع منها في شبه جزيرة الملايو . ويرجح العارفون ان في عهده ، أنقذ لو - ناي ، حاكم مقاطعة التونكين ، رسلاً نحو الجنوب لينشروا في ارجائها الحضارة الصينية .

وقد دفع فان - شي - مان الجزية لأول امراء وو ، بين عام ٢٢٥ - ٢٣١ ؟ وارسل الى حاكم المقاطعة بعض المصنوعات الزجاجية التي كان الصينيون يرغبون جداً في الحصول عليها . اعتراه المرض في احدى غزواته وتوفي مجاهداً ، فتابع ابنه الاكبر : فان - كن - تشانغ الحملة التي كان باشرها ابوه ، بينما راح ابن شقيقه فان - شي المدعو فان تشان يستولي على الملك . وقد يبدو محتملاً جداً ان يكون تشان هذا هو صاحب النقيشة التي عُثر عليها في فو - كانه ، في المقاطعة المعروفة باسم نها - ترانغ ، الأمر الذي يشير الى ان مملكة فو - نان ، امتدت حدودها الى هذه المنطقة ، في ذلك العصر .

في عهده الذي امتد عشر سنوات ، وصل الى فو - نان تاجر غريب الاصل يدعى كيا - سيانغ - لي ، قادماً من الهند حيث كان مكث من قبل . فراح يقص على فان - تشان اخبار الهند وعادات أهلها ، ويخبرهم ما للقانون فيها من حرمة ورعاية ، ويروي له ما فيها من الكنوز المكنوزة ، وما عليه تربتها من خصب وعطاء وانتاج وفير ، وانها تحوي كل ما يمكن للمرء ان يرغب فيه او يحلم به ، وان الممالك الكبيرة في الارض تكن الاحترام لهذه المملكة منذ اقدم المهور . فسأله فان تشان ، اذ ذاك : ما هي المسافة للهند من هنا ، وكـ تستغرق الرحلة اليها من الوقت ؟ فأجابه كيا - سيانغ - لي قائلاً : تقع الهند على مسافة ٣٠٠٠ لي من هنا ، وابـ الرحلة اليها تستغرق ذهاباً وإياباً ثلاث سنوات ، وربما لم يرجع الراحل اليها قبل اربع سنوات . فبهي قطب السماء والارض ، فما الذي راح الملك يحاول فعله بعد الذي سمعه من التاجر ؟ ومهما يكن ، فقد قرر ، بين ٢٤٠ - ٢٤٥ ، ان يوفد لهذه المملكة البعيدة بعثة برئاسة احد اقاربه ، هو : سو - وو . فأبحر سو - وو من مرفأ تيو - كيو - لي (قد يكون تاكولا التي ورد ذكرها عند بطليموس) فوصل مصب نهر الغنج . وبعد ان سار في النهر مسافة ٧٠٠٠ لي ، بلغ بعدها بلاد موراندا ، الامر الذي ذهل له الملك وراح يسأل متعجباً ، أهنالك أناس يعيشون في اقاصي اطراف الاوقيانوس ! وأمر بأن يرحبوا بمقدم سو - وو وان يطوفوا به في جميع ارجاء مملكته ثم ابعاده الى فو - نان مصحوباً بأحد رعاياه هو الهندي تشان - سونغ . ولكي يظهر شكره لفان - تشان ، على هذه الوفادة ، أرسل مع سو - وو اربعة احصنة اصيلة من بلاد يو - تشيه (الهندو - الغز) ، وبعد اربع سنوات قضاه في الخارج ، عاد الى فو - نان . وفي غيابه كان فان - تشان قد ارسل عام ٢٤٣ ، وفادة الى الصين ، عادت منها بفرقة من الموسيقيين . وهكذا دشّن عهداً من العلاقات الدبلوماسية سيستمر طيلة القرن الثالث .

عندما عاد سو - وو الى بلاده ، وجد ان فان - تشان ، قد توفي مقتولاً على يد الابن الأصغر لفان - شي - مان ، الذي قتل بدوره بيد قائد فان - تشان ، فتودي به ملكاً باسم : فان - سيون . وهذا الملك هو الذي استلم الأحصنة الأربعة المرسلة من الهند ، كما هو الذي استقبل الرسول الهندي الذي صحب سو - وو في طريق عودته الى بلاده . وبعد رجوع هذا الأخير بقليل ،

أي بين ٢٤٥ - ٢٥٠ ، تلقى فان - سيون سفارة من الصين تتألف من كانغ - تاي (١) ، وتشو - ينغ ، اللذين وجدا في بلاط ملك فو - نان موفد ملك الهند الذي لم يكن غادر البلاد بعد . وقد ضاعت أخبار رحلة كانغ - تاي ورفيقه الى فو - نان ، إلا ان الخوليات الصينية التالية تأتي على ذكر هذه الرحلة ، وإليها يعود ، كما يرجح المارفون ، معظم المعلومات التي نملكها عن هذه البلاد ، في العصر المذكور . كان فان - سيون جاكماً مستبدّاً ، وطاغية عنيداً ، فبنى له السرادقات والأروقة الجميلة ، يختلف إليها للاستجمام والراحة . وكان يقيم بين الصباح والظهر من كل يوم ثلاثة مواعيد للمقابلات . وكان الأجانب وانباء الشعب يقدمون له الهدايا من الموز وقصب السكر والسلاحف والطيور . وقد استقرب الموفدان الصينيان ، كيف ان النساء في هذه المملكة يلبسن قطعة قماش بحيث لا يظهر سوى الرأس ، اذ ان منذ عهد هوان - تيان ، بقي الرجال عارين ، لا يسترّون عوراتهم . « فالبلاد جميلة بديعة ، والحق يقال ، انما على الرجال فيها ان يظهروا بمظهر الحشمة ؛ انه لأمر غريب ! » . فبعد ان أبدوا هذه الملاحظة ، اصدر فان - سيون امرأ ، أوجب على كل رجل في المملكة ان يرتدي ثوباً من القماش .

وكانت البلاد على جانب من التنظيم . « تقوم فيها مدن لها أسوارها الحصينة ، وفيها قصور وصروح ومنازل سكن ، والناس معروفون بدمائة اخلاقهم ورقّة جانبهم ليس من اثر للسرقة بينهم يستسلمون للأعمال الزراعية ، يبذرون الأرض سنة ويستغلونها ثلاثة مواسم متتالية . يمجّدون الحفر والنقش ، معظم اواني المائدة من الفضة ، والضرائب تجبى عندهم ذهباً وفضة ولائىء وعطوراً . في البلاد كثير من الكتب والمؤلفات ولهم دور للمحفوظات ، اما حروف كتابتهم فلتشبه كثيراً الحروف المستعملة عند الهو Hou (أي سكان آسيا الوسطى الذين يستعملون حروفاً هندية الأصل) . والحال ، فالزمن هو تقريباً العهد الذي قام فيه المركز التجاري الذي وُجد حيث مدينة أوك - أو كانت آخذة بالنمو والتطور : فالمدينة كانت واسعة جداً ، رحة تقوم على بقعة مستطيلة الشكل ، منبسطة ، طولها ٣ كيلومترات وعرضها ١٥٠٠ متر وتزيد مساحتها على ٤٠٠ هكتار . وكان يخرقها ماراً في وسطها قناة تتهي الى مقربة من مرفأ . أما سكانها من ابناء البلاد فلم يتجاوزوا في تطوّرهم الحضاري مستوى العصر الحجري الجديد ، يقوم بينهم جوال من تجار الهند يستعملون السنسكريتية ، وكانت كتابتهم تشبه الكتابة المستعملة في شمالي الهند بين القرنين الثاني والخامس الميلاد . وقد سبق وذكرنا بالتفصيل الموجودات التي عثروا عليها بين الانقاض . ومن المفيد حقاً ، ان نعود لموضوع من جديد ، بينها اغراض وحاجيات رومانية الصنع من الحجر العقيقى الأحمر المحفور حفرأ ثاقماً ، أو من البلّور الصخري ، واكثر من سبعة آلاف لؤلؤة من البلور الصخري والعقيق ، والجزع والجسّست والزجاج الملون والرقاق الذهبية من عهد مارك اوريل واطونين الورع ، وكلها من مصنوعات القرن الثاني . والى هذا العهد بالذات ، يمكن ان نرد ، بقية رآة صينية من البرونز عثر عليها بين هذه المكتشفات . كذلك هذا الرأس الزجاجي من الفن الساساني الذي

(١) قد يكون أصله من مقاطعة الصفيان أي من أقطار آسيا الوسطى.

ألمعنا اليه والذي يمكن رده الى القرن الرابع . وعلى هذا الأساس يمكن لنا ان نفترض بأن هذه المدينة التي مر على وجودها أكثر من ثلاثة قرون، هي من بين المدن التي زارها كانغ - تاي وتشو - ينغ ، إذ ان منظر سكان البلاد الأصليين يسرون عراة ، يستخدمون القفوس الحجرية، كان يثير العجب والدهشة إذا ما قارناه بهؤلاء التجار الأعراب وما كانوا عليه من حضارة رفيعة . غير ان عدداً من المسافرين ، في ذلك العصر الذين أظهروا دهشتهم من خشونة الأهلين وما كانوا عليه من تخلف ، ينوهون من جهة ثانية ، بمستوى حضاري او بدرجة عالية في بعض تطوورهم ، عندما يتكلمون عن الآنية الفضية والذهبية التي يستعملها الأهلون في منازلهم ، وعما اشتهروا به من مهارة في الحفر والنقش . لا شك في انه قام في البلاد اذ ذاك يد عاملة عرفت بنشاطها بعد ما عثروا عليه من ادوات خاصة بصنع القوالب وصب المعادن ، وما في ذلك كله من دليل على استخدامهم المعادن ، ولا سيما القصدير والرصاص : ومع اننا لا نستطيع ان نحدد بوجه الضبط من أين كانوا يأتون بهذه المعادن ، من المهم ، مع ذلك ، ان نتوه هنا الى أي حد بلغ عندهم استخدام هذه المعادن في فو - نان . فاذا ما أغفل الرحالة الصينيون ان يسيروا الى عقائد القوم اذ ذاك ، فالآثار والعاديات التي اكتشفت ، تدل بوضوح ، على وصول البوذية والبراهمانية الى تلك البلاد . فالابحاث العلمية العارمة والاكتشافات الأثرية التي لا بد ان تطلع من بطن الارض ، من شأنها ان تمدنا بمعلومات ثمينة ، بهذا الصدد .

تبسّع زيارة الموفدين الصينيين لبلات فو - نان عدة بعثات أرسلها فان - سيون ملك فو - نان ، الى امبراطور الصين ، سنة ٢٦٨ ، و ٢٨٥ ، و ٢٨٦ ، و ٢٨٧ . وبقي يدفع له جزية تتألف من قصب السكر والصنادل (عدة مئات من الأزواج) والخيزران . وكان موفدوه ينضمون الى العشر او العشرين موقداً للدول الاجنبية الاخرى ، بينهم ممثلون عن مملكة كوريا (٢٨٦) وبلاد البسفديان (٢٨٧) . ومع ذلك لم يكن خضوع ملك فو - نان كاملاً او تاماً ، اذ نرى حاكم مقاطعة التونكين نفسه مضطراً للتوصل الى امبراطور الصين الجديد ، الامبراطور تسن ، لكي لا يخفّض عدد الحماية المربطة باستمرار في المقاطعة ، وذلك لأن ملك لن - يي ، يقوم دوماً بتعدييات على حدوده ، بمؤازرة ملك فو - نان . فهو يكتب له قائلاً : « قبائلهم عديدة وفرقهم الصديقة المتحالفة ، تتعاون وتشد أزراً بعضها البعض ، وبالنظر لطبيعة بلادهم الجبلية واعتمادهم عليها ، فهم لا يخضعون للصين ولا يخلصون الولاء لها » .

ومع ذلك ، فتاريخ فو - نان يبقى غامضاً في هذه الفترة الواقعة بين اواخر القرن الثالث والنصف الثاني من القرن الرابع . يقوم بأعباء الحكم فيها ، حوالي عام ٣٥٧ ، ملك غريب الاصل ، يشير اليه الصينيون باسم : تشان - نان ، وهو اسم يشير بالفعل الى لقب ملكي جرى اطلاقه واستعماله عند قبائل كوشانا ، بين سلالة كانشكا . والحال ، كانت الهند ، في هذا العهد تحت حكم القويبتا بعد ان تمّ لهم اخراج الكوشانا خارج البلاد ؛ فليس بغريب قط ان يكون احد اعضاء هذه الأسرة الملكية وصل بجزأ الى فو - نان واستقر به المطاف في هذه المقاطعة ، حيث نرى دلائل كثيرة تشير الى العلاقات التي قامت من قبل ، بين أولياء الأمر فيها وبين

الكوشانا . ونرى هذا الأمير، يدفع عام ٣٥٧، جزية لامبراطور الصين بينها الفيلة الأليفة . والظاهر ان هذه الهدية لم تلقَ حظوة في عيني ملك الصين ، فأصدر رقيماً امبراطورياً جافيه : « نظر أسلافنا من الاباطرة الى هذه الحيوانات المهداة من البلدان الاجنبية نظرة شؤم لما جرت على سكان البلاد من شروز وولايات ، فراحوا يمنعونها . والآن ، لما كانت هذه الحيوانات لم تصلنا بعد ، كان من اللازم اعادتها من حيث جاءت » . وفي هذا ، الاشارة الوحيدة ، لهذا الشخص « الذي يدعى انه ملك » . فتاريخ فو - نان لا يلبث ان يكتنفه الظلام من جديد ، في فترة تمتد حتى اواخر القرن الرابع ومطلع القرن الخامس .

بالاستناد الى بعض المقتطفات من النصوص التاريخية الصينية ، والنقاش
شبه جزيرة الملايو
ودولها العديدة
يمكن ان نذكر هنا بعض الممالك التي قامت هناك منذ عهد بعيد ، وأخذت
بأسباب حضارة الهند . من هذه الممالك ، مملكة تيان - سوين او توان - سيون التي أخضعها
الملك فان - شي - مان لسيطرة فو - نان ؛ ومملكة لانغ - يا - سيو التي تغطي رقعتها عرض
شبه الجزيرة من البحر الى البحر ، فكانت تتحكم بالحركة التجارية والنقل البحري في خليج سيام
وخليج البنغال ؛ ومملكة تامبرالنا التي وردت الاشارة اليها في *Niddesa* ؛ ومملكة تاكولا الواقعة
على الساحل الغربي لبرزخ كرا ، او قليلاً الى الجنوب منه ، ومن مرفئها أقلمت البعثة التي
أوفدها ، في القرن الثالث ، ملك فو - نان ، الى الهند . واذا كان يحق للمؤرخ ان يفترض بأن
هذه الممالك المختلفة عرفت شيئاً من الازدهار في القرنين الاول والثاني للميلاد ، فما من أثر باقٍ لها
يعود لهذا العهد السحيق ، ومن الصعب جداً العثور على تفاصيل تثير السبيل وتلقي ضوءاً على
تاريخ هذه الحضارة ، قبل العهد التالي لهذه الحقبة .

وكما ان مملكة «خير» ستقوم على أنقاض مملكة فو - نان ، كذلك قامت مملكة
مملكة لن - يي تشامبا على انقاض مملكة لن - يي ، اول نواة لمملكة مستقلة قامت على الساحل
الشرقي لشبه جزيرة الهند الصينية . فحتى سنة ١٩٢ للمسيح ، حسب التواريخ الصينية ، ومنذ
اواخر القرن الاول قبل الميلاد ، بسط الصينيون سيطرتهم على هذه البلاد . كانت مقاطعة
جي - نان الواقعة بين مشارف الانتام « وتمر الغيوم » تمارس شيئاً من السيطرة تمتد نحو الجنوب
حيث يقطن اقوام من اصل اندونيسي ، يعيشون على الفطرة ، عراة ، بحفاة ، تغطي اجسامهم
أشكال من الوشم ، لا يعرفون شيئاً من امور الزراعة ، ويقتاتون مما يقومون عليه من صيد وقنص .
ويتألبون بطوناً وأفخاذاً ، اشهرها جميعاً بطون الكوكوتية والاريكوية التي منها طلعت
الامر الملكية الاولى التي حكمت البلاد . وبالرغم مما كانت عليه هذه الاقوام من تخلف وتأخر ،
فقد اشتهرت بالقلاقل التي سببتها وبالاضرار التي لحقتها بالمعازل الصينية وحماياتها اذ كانت
تهاجمها على حين غرة منها وتنزل بها الحيف والخسف لا تحسب حساباً لاية ردة فعل من جانب
الصينيين ، اذ كان رجالها يسارعون للتسلل الى الغابات الملتفة وبذلك يأمنون كل عمل تأديبي

ضدّهم . ومنذ عام ١٣٧ لليلاد ، يقوم فريق من سكان البلاد الاصليين يُعرّفون ، في المصادر الصينية ، باسم كي - يو بمهاجمة مقاطعة جي - نان ويحرقون حصونها ومعاقبها ويقتلون حاكمها . وقد اضعفت هذه الهجمات المتكررة الحاميات الصينية الواقعة عند اطراف الامبراطورية الصينية ، فراح اولو الامر من الصينيين يضربون اخماساً بأسداس ، حول ما اذا كانوا يُزيدون من حاميتهم هناك ، او ان يتركوا الوطنيين وشأنهم في مهاجمتها ، كما يحلو لهم . ولم يدُر في حساب الصينيين ، ولم يدخل في سياستهم ان يسخروا برجالهم واعتدلتهم واموالهم ، للدفاع عن منطقة خطيرة وغير صحيّة . فقتلوا بالخبية والفشل لقاء ثمن تفاضيمهم . «عندما يستتب الأمن ، قال احد مستشاري الامبراطورية ، سنوعز الى هؤلاء البرابرة ان يتدبروا امرهم فيما بينهم بالتي هي احسن ، بحيث يقدمون لنا ذهباً وكية من الانسجة الحريرية تعوض الخسارة التي تكونت لحقت بنا» . وقد آثر الصينيون اتخاذ هذا الموقف مفضلين الوسائل الدبلوماسية على وسائل العنف ، وراحوا يستغلون بوادر الاضطرابات التي شجرت في البلاد ، موطئة لسقوط دولة «هان» ، بقيادة موظف من سكان البلاد الاصليين ، تذكره المصادر الصينية باسم كيو - ليان ، وهو الاسم نفسه الذي عرفت به القبائل الوطنية التي اخذت بمهاجمة المراكز الصينية ، تولى ادارة الثورة التي انطلقت شرارتها ، عام ١٩٢ ، فانقض على جي - نان ، وقتل نائب الحاكم ، واحتل الولاية برمتها . ثم نادى بنفسه ملكاً ، ونقل كرسي مملكته الى حاضرة ولاية سيانغ - لن ، المعروفة اليوم باسم تيان - تيان .

من الاهمية بمكان ان نلاحظ هنا ، ان هذه الحقبة الموافقة للقرن الثاني ، تتفق كما يرجحون مع الحقبة التي تم فيها صنع تمثال بوذا البروتزي في منطقة «كريشنا» والذي عثر عليه في دونغ - ديو - ونغ . وليس ما يمنع قط ، لابل من المعقول والمحتمل جداً ، ان يكون تمثال بوذا هذا ، وصل الى لن - يي - في مثل هذا الوقت ، ففي ذلك دليل قاطع على تغلغل البوذية وتسربها الى الساحل الشرقي من شبه الجزيرة الهند الصينية ، في هذا العهد بالذات الذي كانت فيه القوات الوطنية آخذة بمهاجمة القوات الصينية . جاء سقوط اسرة الهان ، عام ٢٢٠ ، بخدم قيام الدولة الجديدة المعروفة باسم ، لن - يي التي برزت للوجود في هذا العهد بالذات . فالولاء الذي تكنه للصين مها كان اسماً ، بقي مرعي الجانب بحيث ان الملكة الجديدة ما كاد يستتب الامر فيها حتى راحت عام ٢٢٠ و ٢٣٠ ترسل بعثات دبلوماسية للحاكم الصيني في التونكين . فلم تحل هذه البعثات ، مع ذلك ، من متابعة لن - يي ، مهاجمة الممتلكات الصينية وتشديد الحثاق عليها . وفي سنة ٢٤٠ هاجمت القوات الوطنية مقاطعة هويه واحتلت مدينتين ، ودكت معاملها بعد ان قامت بنهبها وسلبت جميع ما فيها من المقتنيات ، وقد استطاعت ان تصمد في وجه عمارة بحرية صينية جاءت تحمل تمزيقات للحاميات الصينية وأرغها على التراجع والإنكفاء . وحوالي عام ٢٧٠ ، قام الملك فان - هيونغ ، حفيد الملك كيو - ليان من ابنته ، يستأنف هجماته على القوات الصينية بعد ان عقد حلفاً مع ملك فو - نان المدعو فان - سيون - الذي قد يكون بينه وبين الملك الآخر ، آصرة نسب ، كما يستدل من الكنية المشتركة : فان . وقد اقتضى حاكم

التونكين عشر سنوات من الجهاد المرير والصمود ، استطاع بعدها حل القوات المهاجمة على النكوص واخلاء المقاطعات التي كانت احتلتها : وهكذا لم تطل سنة ٢٨٠ ، حتى رأينا قوات لن - بي وفو - نان تعود على أعقابها الى داخل بلادها . وقد تمتع ابن فان - هيونغ وخليفته على العرش ، وهو المعروف باسم فان - بي ، بملك طويل دام خمسين سنة ؛ واليه يعزى الفضل بارسال اول وفادة رسمية لتمثيل بلاده في بلاط ملك الصين ، عام ٢٨٤ ، اذا ما رأينا ان نضرب صفحا عن البعثات التي كانت أرسلت بين ٢٢٠ - ٢٣٠ ، الى مقاطعة التونكين . وقد ساد السلام البلاد ، في عهده ، بعد ان زاد من عدد جيشه ، واحسن تدريبه على فنون الحرب ، وزاد في تحصين المدن الكبرى في البلاد . وقد وجد في ادارته وحكمه للبلاد عونا كبيرا ، من قبل شخص يعرف باسم : وَن يقوم الشك حول أصله وفصله ، وحسبه ونسبه ، اذ يرى فيه بعضهم ، صينيا من مقاطعة يانغ - تشيو ، بيع في أسواق النخاسة والرق وهو صغير ، كما يرى بعضهم فيه رجلا من أبناء البلاد تخلت بأخلاق الصليين . فقد عمل ؛ في بادىء الامر ، في خدمة زعيم متوحش في احدى مقاطعات جي - نان ، حيث كشفت له الاقدار بصورة عجيبة ، الدور الذي أعدته له . وبعد ان هرب من خدمة سيده ، استجار بأحد التجار في مملكة لن - بي وعمل في خدمته ، وفي هذا السبيل قام بعدة رحلات الى الصين . واستقر به المطاف اخيراً ، بعد عام ٣١٥ بقليل ، في لن - بي ، ولم يلبث ان دخل في خدمة ملكهم الذي عرف ان يفيد من المعلومات والاختبارات الواسعة التي تمت لهذا الرجل ، خلال أسفاره ورحلاته الطويلة ؛ فأطلعه فيما أطلعه عليه من أشياء ، على كيفية تشييد القصور على الطراز الصيني ، مع الأبهة القائمة على الاعمدة ، وطريقة اقامة التحصينات حول المدن ، وبناء القلاع والحدائق حولها ، وكيفية صنع المركبات الحربية والاسلحة على أنواعها ؛ كذلك تولى تدريب عدد من العمال والصناع على صنع آلات الطرب والموسيقى على اختلافها . وهكذا تمكن ، بما تم له من رجحان العقل وبما أوتي من الكفاءات ان ينال حظوة عند الملك ، فعينه قائداً عاماً لجيشه ، وعرف ، بهذه الصفة ، ان يكسب ولاء جميع ضباط الجيش . ثم راح يوغر صدر الملك ضد أولاده ، وهكذا تمكن من ابعادهم عن البلاط وبالتالي من حرمانهم حق الوراثة . ولما شاخ الملك وطعن في السن ، دس قائده السم لورثته ، ثم اعتلى العرش ، عام ٣٣٦ ، باسم الملك فان - ون .

وعندما تم له الأمر ، اخذ في إنجاز ما كان باشر به من اصلاحات في عهد سيده ، واستخدم جيشه القوي للقضاء على الممالك المستقلة التي استطاعت ان تحافظ على استقلالها الداخلي . وما ان تمت له السيطرة التامة على البلاد ، حتى أرسل عام ٣٤٠ ، هدية الى الامبراطور تسن ، تضم قبلة أليفة مع رسالة مكتوبة بخط هندي ، الامر الذي يدل على درجة اقتباس لن - بي الثقافة الهندية . وقد رمى من وفادته الدبلوماسية هذه ، لتحقيق هدف معين ، اذ طلب من الصين ان ترفع حدودها الى جبال هوانغ - سن ، أي الى أبواب الانعام ، اذ كانت نفسه تزين له الاستيلاء على اراضي جي - نان الخصبة . ولما تأخر جواب امبراطور الصين وفرغ صبره من طول الانتظار ، اغتم فان - ون اول فرصة سنحت له واستولى على الاراضي والمقاطعات التي رغب في امتلاكها ؛

وقد تم له ذلك سنة ٣٤٧ ؛ وقد كان سكان جي - نان يتألمون كثيراً من المظالم وأنواع التعسفات التي كان الموظفون الصينيون ينزلونها بهم ؛ وهم على الغالب ، من شذاذ الآفاق فيرمقون الاهلين بصنوف أعمال الجور والاستبداد ، الامر الذي كثيراً ما حمل سكان البلاد على الثورة والانتفاض على الحكم الصيني . وقد اتفق ان راح حاكم المقاطعة يفرض على السكان ، عام ٣٤٧ ، ضرائب جديدة أثقلت كواهلهم ، كما اندفع بدون حساب لميوله الفاسقة . واذا ذاك قرر فان - ون استغلال هذا الظرف بالذات وان يستفيد الى أقصى حد ، من هيجان الشعب وانتفاضته ضد الحاكم الصيني ، فهاجم المقاطعة ، وألقى القبض على الحاكم ، وأمر بقتله ، ونهب مدنها ودك معاقبتها وحصونها . ثم وضع شروطه للسلم ، منها ضم المقاطعة لمملكته . وقد ردت الصين على هذه الاعمال بارسال حملة عسكرية تأديبية إلا ان فان - ون هاجمها بقوة وشتتها في السنة ذاتها . وفي سنة ٣٤٨ ، هاجم وهو واثق من قوته ، الولاية المجاورة ، وقام بمجزرة هائلة بين الحامية الصينية . وفي سنة ٣٤٩ ، جهز حملة عسكرية جديدة ، الى الشمال من حدوده الجديدة . إلا انه أصيب في المعركة بضربة قاتلة فمات وخلفه على الملك ابنه فان - فو .

وراح الملك الجديد يتابع السير في الخط الذي رسمه أبوه ويسير على السياسة التي نهجها أسلافه في توسيع نطاق مملكته الى الشمال . وما كاد يعتلي العرش حتى استأنف الحملة العسكرية التي لقي أبوه فيها حتفه . إلا انه أصيب بالفشل تبعاً ، عام ٣٥١ و ٣٥٩ ، وهكذا أرغم للتخلي عن معظم الفتوحات التي قام بها فان - ون . واضطر منذ ذلك الحين فصاعداً ، ان يرمي حرمة الولاء التي تربطه بامبراطور الصين ، ويرسل له بانتظام ، الجزية المترتبة عليه ، كما أرسل اليه وفادتين ؛ الاولى عام ٣٧٢ والثانية بعد ذلك بخمس سنين ، أي في عام ٣٧٧ ، ومات عام ٣٨٠ . وقد يمكن ان نرى في فان - فو نفسه ، الملك بهادر افارمان الاول ، صاحب النصب التذكاري لتأسيس اول معبد شُيّد في مقاطعة مي - سون . فان صح الافتراض ، فقد يكون تم لنا البرهان القاطع ، على اخذ الطبقات الحاكمة في البلاد ، بأسباب الحضارة الهندية ، منذ هذا العهد بالذات ، وتغلغل سلطة البراهمان اليها . فهذه النقيشة التي تُعد بحق من أهم الآثار التي أطلعتها الارض الهندية الصينية تشيد عالياً وتثني على الإله سيفا ماهسغارا ، وعلى زوجته أوما ، وعلى براهما وفيشنو ، وعلى الأرض ، والرياح والفضاء والنار . ثم تأخذ بتحديد الدائرة التي تكون أساس وقفية دائمة باسم الإله سيفا بهادر سغارا الذي يذكرنا اسمه باسم مؤسس هذه الوقفية ، وفقاً لعادة يعمل بها سواء في مقاطعة تشامبا او في بلاد خير . في هذه الدائرة المحددة «توقف الارض ومن عليها من السكان» . ويرتّب عليهم ان يقدموا للإله ، قسماً من غلة الارض ، باستثناء قسم ضئيل جداً ، يحتفظ به سيد البلاد . ومقابل هذه الحصة المسلمة للإله ، يُعفى صاحبها من العمل المترتب عليه إلا ما كان لا بد منه لتأمين حياة الملك والبلاط ، ومع ان أسلوب انشاء هذه الرقعة يتصف بالركاكة ، وقواعد الاعراب فيها مضطربة قلقلة ، فهي تبرز مع ذلك ، شيئاً هاماً ، وهو ان الملك يحمل ، منذ اواخر القرن الرابع ، اسماً هندياً ، ويستعمل السنسكريتية كلغة رسمية مقدسة ، ويتشبه باله الهيكل فيحمل اسمه . ويشير الى الأهمية التي يعلقها على هذا

الانتساب بتخصيصه وقفية يجرىها باحتفال رسمي . ومن المحتمل جداً ان يكون الإله بهادر سفاراً إلهاً محلياً، ويرمز الى سيفاً الذي تمتعت عبادته بأهمية كبرى في مقاطعتي كيبوديا وشمبا .

فالمعلومات التي نجمعها من المصادر الصينية حول عادات لن - بي تلقي ضوءاً جديداً على حوادث هذا العهد . فالملك ، يخرج راكباً الفيل ، يتقدمه حملة الاصداف والطبول ، فوق رأسه مظلة ، ويحيط به خدام يلوحون بالاعلام والبيارق . وهو يعتمر عمة مستطيلة محلاة بأزهار الذهب ، لها شرابة من الحرير . مراسم دفنه تتم في اليوم السابع من وفاته . « يُلَف جسمه بكل اعتناء ، وينقل الى شاطئ البحر او النهر ، على قرع الطبول ورقص الراقصين ، ثم يحرق على كومة من الحطب يجمعها الحاضرون . وتجمع العظام وتوضع في وعاء من الذهب وتطرح في البحر .

والتسلسل الاجتماعي او الطبقي يظهر بأشكال مختلفة . ففي الوقت الذي يلبس فيه الجميع زياً بدائياً ، هو عبارة عن قطعة من القماش يلفونها حول اجسامهم ، وأقراطاً في آذانهم ، نرى الطبقة الممتازة او المتميزة تضع احذية في أرجلها ، بينما العامة من الناس يمشون حفاة . كذلك ماتم الموظفين تقام ثلاثة ايام بعد وفاتهم ، في حين ان العامة من الشعب يدفنون في اليوم التالي لوفااتهم : وبينما رفات كبار القوم توضع في وعاء من الفضة وتطرح في مصب النهر ، نرى سواد الشعب الذي لم يتميز عن غيره بشيء يقنع بوعاء من الفخار ويطرح في مياه البحر .

تعقد حفلات الزواج أبان شهر الحصاد . فالبنيات يتقدمن من الشبان بطلب الزواج وليس محظوراً قط على ذوي القربى ان يتزوجوا من بعضهم البعض . ويضفر النساء شعورهن فوق الرأس بشكل مطرقة او قدوم . وعلامة على الحداد ، يقص أقارب الزوجين ، خلال المأتم شعورهم . وبعض النساء الارامل اللواتي لا يردن ان يتعزين لفقد أزواجهن يدعن شعورهن تنمو ويرسلنه على أكتافهن الى آخر ايامهن .

اما المظهر الخارجي لسكان البلاد الاصليين الذين كثيراً ما نوه المؤرخون والرواة بقسوة طبائعهم ومغامراتهم في الحرب ، فقد وصفه لنا الصينيون كما يلي : « هم رجال حرب قساة ، لا تعرف الرحمة سبيلاً الى قلوبهم . عيونهم غارقة في محاجرها ، والانف عندهم بارز مستقيم والشعر أسود ، جعد ، يسكنون بيوتاً من اللبن المشوي طليت حيطانها بالجص ويعلوها سقف مسطح ، أبوابها تتجه دوماً الى الشمال ، وان شئنا البعض عن العرف . سلاحهم القوس والسيوف القصيرة والرموح والنبال يتخذونها من الخيزران . . وعندهم عدة للطرب بينها القيثارة والعود ذي الحنبة الاوتار والناي .

وفي الحقبة التالية ، سيتاح لهذا المجتمع ان ينمو وينفتح . فترسخ عظمة بلاد لن - بي بعد ان صارت تعرف باسم شمبا وتوطد ، بعد ان تخوض معارك قاسية ضد الصينيين وسكان بلاد الأتام . واذ ذاك فقط ، يمكن اعتبار عملية إستهناد هذه البلاد تمت واكتملت .

الفصل الرابع

الكتلة الصينية

لسنا نقصد العودة الى اللوحة التي رسمناها عن صين الهان في المجلد السابق والتوسع فيها . فالتبدلات التي يمكن الإشارة اليها بين صين الهان السابقين وصين الهان اللاحقين ليست ذات شأن . ولذلك نرى من الأفضل هنا استعراض بعض مظاهر الثقافة الصينية في القرن الاول حتى اواخر القرن الرابع وتشديد الكلام على ما قد تنطوي عليه من تفرد وما يميزها حقاً في هذا العهد . فالصفحات السابقة وتلك التي كرسنا لها في المجلد الاول^(١) قد أبرزت تطورها السيامي ووصفت حياتها اليومية واطارها . ويجدر الآن ، حتى تأتي اللوحة كاملة ، ان نعلق أهمية خاصة على نمو الفكر والديانات والعلوم ، أي ، بكلمة موجزة ، على كل ما يعطي معنى عميقاً لهذه الحياة اليومية المستعادة بفضل علم الآثار والنصوص .

تفتتح امامنا ثلاثة نطاقات لجولتنا هذه في حياة الماضي : في الدرجة الاولى ، نطاق يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة السياسية والتطور التاريخي ، هو الوضع الاجتماعي طيلة هذا العهد ويمزاته وأزماته . وفي الدرجة الثانية نطاق الديانات الذي يحمل طابع حدث على جانب كبير من الأهمية : دخول البوذية الى الصين ، وتحضير هذا الدخول بفضل موقف الطاوية ، وردود فعل هذه الأخيرة امام الداخل الجديد . وعلينا أخيراً امعان النظر في النطاق التقني والعلمي حيث احتل التنجيم مركزاً هاماً وحيث ظهرت بعض الاكتشافات الخطيرة .

ستبرز حينذاك الحضارة الصينية في عهد الهان والسلالات الست على حقيقتها الكاملة : حضارة بلاد شاسعة الاطراف ، لا تزال في طور التكوين ، تفيد من حيوية وذكاء يكتنفها من اعداد ثروة ثقافية ستجمل منها احدى حضارات العالم العظمى . وحين تنبصر فيها كجموع تتجلى امامنا بتعقيدها الكلي ، وبوحدتها الكلية ايضاً . يبدو مجتمعها ، المرتكز الى العائلة : خاضعاً للتسلسل على غير جود ، وطافحاً حياة ونشاطاً ، ومتمتعاً بسلام حقيقي ، وخابراً مع ذلك عهود اضطرابات وثورات ومولماً بالبنخ والمغامرة وموسماً بفتوحاته التجارية والاستعمار ، ومستنداً الى شغفه الفطري للتعرف . الى العالم الذي ينفثه المسافرون بمجاهله وموطئاً أخيراً واقعيته العميقة . على الرغم من اخذه بالاساطير والخرافة .

(١) الشرق واليونان القديمة - منشورات عويدات .

١ - الوضع الاجتماعي

ان هذه اللوحة الشاملة للمجتمع الصيني في عهد الهان تستوجب تعميق النظر في نقاط المجتمع عدّة . ليس حينذاك في الصين من مدنى كبرى سوى العاصمتين الامبراطوريتين والعاصمتين او العواصم الثلاث للامارات الاقطاعية العظمى السابقة : وليست المدن سوى حصون صغيرة يعيش فيها الموظفون والحامية العسكرية وبعض التجار . يمارس الصناعيون اليدويون عملهم على نطاق ضيق في المدن والقرى ؛ ويستنتج بالتالى ان عددهم لم يكن مرتفعاً . يعيش باقي السكان في الأرياف : لذلك ألف الملاكون ، صغارهم وكبارهم ، مع الفلاحين ، الشطر الأهم في المجتمع ، ولذلك كان سواد السكان ريفيين لا مدنيين . غير ان كثافة السكان ما زالت متدنية لأن البلاد واسعة جداً .

في أعلى السلم الاجتماعي يتربع كبار الملاكين ، أعني بهم «الملوك» ، أي أبناء الإباطرة الذين تسلموا اماراة تابعة ، والاميرات التي يدير القيمون ممتلكاتهم ، والمقدمون الذين أنعم عليهم باقطاع بسبب لقبهم الشرفي ، والافراد الاثرياء ، ومعظم الموظفين . وتأتي بعدهم طبقة الفلاحين الكادحين الذين يملكون القليل من الاراضي وقد لا يملكون شيئاً . وفي أسفل السلم نرى العبيد الذين يخصصون للخدمة المنزلية والأعمال الشاقة ، ولا يحرقون الارض على العموم . وغالباً ما يكون هؤلاء العبيد من مجرمي الحق العام ويشغلون بأكثريةهم لحساب الدولة : فيستخدم عتبة آلاف منهم في المشاريع القومية لاستثمار الحديد والملح ، بينما يخدم غيرهم في الادارات والقصر الامبراطوري . ولكن سوادهم الأعظم خدام العائلات الاشراف ومستخدمون عند التجار الأثرياء . وتتغذى سوق الارقاء بوسائل أخرى غير جمعهم بين المحكومين : فغالباً ما يسرق الاولاد أو يُبتاعون من والدتهم ، ويحتطف الفتيان عنوة او مفاجأة ، ويبيع البرابرة أسرى غزواتهم من الجماعات الصينية . ولكن أبناء الارقاء ، كما يبدو ، كانوا احراراً في نظر القانون ، ما لم يبيعهم والدوم او يقوم في حالة الرق التي كانوا فيها .

عاشت العائلات الثرية حياة زهو كثيرة النفقات : فقد كان لدى بعضها عدّة عشرات من السراري المجموعات في الاحرام ، وعدّة مئات ، او ألوف احياناً ، من العبيد والموسيقين والمغنين والممثلين والكلاب والجناد ؛ وأقامت في مقرات رحيبة تستلزم الاكبات المشجرة والابواب الضخمة والفساطيط والشرف والشوارع والطرق .

ان هذا التنظيم الذي يكاد يكون ريفياً ، ورثته صين الهان عن العهد السابق . فكبار النظام العقاري الملاكين ومتوسطهم لا يتعاطون الزراعة بأنفسهم . وهم فئتان : اولئك الذين يمتلكون الارض فقط ويطلق على أملاكهم اذ ذاك «منغ - تيان» ؛ واولئك الذين يمتلكون أرضاً تعرف باسم «بي» ويستوفون بالاضافة الى ذلك رسماً على سكان الارض . اما امتلاك الارض «بي» ، الذي يقرّه مرسوم امبراطوري يمنح لقباً شرفياً ، فلا يخضع لبيع او ابتياع .

والاراضي الـ « دي » قليلة في عهد الهان لأن عدد المتقدمين قليل جداً ، وليس لدينا من ثم سوى معلومات نادرة عنها ؛ وجل ما نمتلكه هو ان سيد الـ « دي » يتسلم محصول الضرائب – الضريبة المقارية والضريبة الشخصية – ويدفع رسماً على السكان . فنحن نعرف مثلاً، سيداً يتوجب عليه ٢٥٠٠ قطعة نقدية عن ألف شخص ، في حال انه يستوفي ١٢٠ قطعة عن اليافع . فتصور الربح الصافي الذي يحققه .

اما الملك الخاص ، « منغ – تيان » ففي متناول الجميع ، النبلاء وعامة الشعب ؛ ولا يقرر مساحته سوى الثروة الشخصية . وبما ان موارد الثروة الطبيعية محصورة في الاستثمار الزراعي ، فالملكون المقاريون كثيرون : ولما كانت الادارة والمثقفون يعتمدون عرقلة التجارة والصناعة ، كانت الارض وحدها ما يوفر سبل العيش للعائلة الريفية . ولا يضم هؤلاء الملكون الموظفين وعامة الشعب فحسب ، بل كافة العائلات الكبرى ايضاً .

لا يخضع بيع وابتياح هذه الاملاك لأي قيد . ويبدو ان الاسعار غير مرتفعة ايضاً . اما العقود فقصيرة الاجل وصريحة جداً يحدد فيها التاريخ الكامل وقياسات الارض بالخطوات والسعر الاجمالي واسم الشاهدين والقيمة المخصصة لكل منها لقاء أتعابها . ووحدة قياس المساحة هي الـ « ميو » : وهي طريدة طويلة تبلغ ٢٤٠ خطوة طولاً وخطوة واحدة عرضاً أي حوالي ٣٤٥ م × ١٥٤٥ م ، او خمسة آرات تقريباً . وهذه المساحة هي ما تستطيع العائلة زراعته ، ولا يتجاوز محصول الـ « ميو » – الذي تفتح فيه ثلاثة اثلام – الـ ١٠٠ « شي » (Che) أي ٢٠ هكتولتر تقريباً .

تؤجر الاملاك ، لا سواً املاك الموظفين الذين تمنعهم وظيفتهم من مغادرة المدينة ، الى مزارعين او شركاء يتقاسمون محصول المزروعات مناصفة مع الملاك . اما املاك الافراد العاديين فيزرعها العبيد والعمال الزراعيون الذين تدفع لهم أجور خدماتهم . وهنالك فئة الاراضي المشاعية التي تكلل القرية امر زراعتها مؤقتاً الى الفلاحين ، والاراضي البائرة التي يحولها الفلاحون المهاجرون الى ارض صالحة للزراعة ويستثمرونها لحساب الدولة .

يعيش كبار الملاكين ومتوسطوهم حياة على بعض السعة تؤمنها لهم أتاوات مزارعيهم ؛ ولا يدفع الموظفون بعض الضرائب ولا تتناولهم اعمال التسخير . عندما ينهون أعمالهم ، يعدون وجبة لذيدة قوامها لحم الضأن فيأكلون ويشربون النبيذ ، ثم يغنون الاغاني في جو عائلي يرافقهم عبيدهم وينهون السهرة بالرقص

اما حياة الفلاح فقير ذلك ، لأنه يخضع لأعمال التسخير الرسمية ويقوم بأعمال الارض الشاقة . « يفلحون في الربيع » ويقلعون الحشائش في الصيف ، ويحصدون في الخريف ، ويخزنون المحاصيل في الهري في الخريف ، ويقومون بأعمال السخرة ، ويقطعون الحشب للتدفئة ، ويخدمون السلطات . في الربيع لا يستطيعون النجاة من الريح والغبار ؛ وفي الصيف من الحر والشمس ، وفي الخريف من تقلب الطقس والمطر ؛ وفي الشتاء من البرد والجليد ؛ لا يتمتعون طيلة الفصول الاربعة بيوم

راجة واحد . فاهيك عن أعمالهم الخاصة : فانهم يشيِّعون المسافرين ويستقبلون العائدين ؛ يعزّون بالموتى ويعودون المرضى ، يغذون الايتام ويربون الاولاد . وعليهم ، بعد هذا التعني والشقاء ؛ ان يتحملوا كوارث الفيضان والجفاف واوامر الحكومة الملحة بالطلب ودفع الضرائب في غير مواعيدها والاورام المتناقضة بين صباح ومساء . حينذاك يضطر الذين يمتلكون شيئاً الى بيعه بنصف ثمن والذين لا يمتلكون شيئاً الى الاستقراض والتعهد باعادة الضعف ضعفين ؛ وقد يبيع بعضهم حقولهم ويوتهم واولادهم وحفدتهم حتى يدفعوا ديونهم) «تساو تسو» في كتابه تسيان - هان تشو ، الفصل ٢٤ ، الجزء الاول ، ترجمة شافان .

يملك بعض الفلاحين بيتاً وحقلًا او عدة حقول . اما الباقون فلا يملكون شيئاً . وغالباً ما يضطر صغار الملاكين بينهم الى بيع ممتلكاتهم : وتستخدم العائلات الغنية احياناً اساليب مغايرة للقانون لتوسيع املاكها ؛ فهناك امثلة عدة عن ضغط كبار الملاكين على صغار الملاكين بغية انتزاع املاكهم منهم بثمن بخس : وبعد هذا التوسيع يشيدون في اراضيهم قصراً يحيطون به بمجديقة غناء . اما الذين افقروهم فيضطرون آنذاك للعمل في الزراعة لقاء اجر يومي ؛ وقد يخصصون موقفاً بقطعة ارض مشاعية لا تكاد زراعتها تنتج لهم ما يسدون به حاجات عائلتهم ؛ اضيف الى ذلك ان تصرفهم بهذه القطعة محدد الاجل ، ولا تمتلك كل قرية اراضي مشاعية تكفي لجميع الفلاحين ، فلا يبقى امامهم الا الهجرة الى المناطق البائرة الواسعة . ولكن استثمار هذه الاراضي يستوجب اعمالاً - صرف مياه وري - تكلف الدولة اموالاً طائلة ، وباستطاعة الدولة وحدها ان تتحملها . اضيف الى ذلك وجوب النظر الى تعاقب زراعة الارض واستراحتها وادخال ذلك في حساب توزيع الاراضي على الفلاحين . واضف الى ذلك اخيراً ان ضيق مساحة الاراضي المزروعة من جهة ، ووفرة اليد العاملة الزراعية من جهة ثانية ، غالباً ما يضعان الكادحين الريفيين في وضع عسير جداً . فيغادر الارض فلاحون كثيرون ويطلبون عملاً زراعياً في الممتلكات الصينية الجديدة في الجنوب او يمتهنون الجندية او القرصنة ، دون ان يتمكنوا مع ذلك من التخلص نهائياً من يؤسهم .

اقترحت على التوالي عدة علاجات لمداواة هذا الوضع . فحاولوا اما تحديد مساحة الاملاك الخاصة تحت طائلة حجز الفائض عن المساحة المرخص بها ؛ واما تحديد عدد العبيد والعمال الذين يشتغلون عند كبار الملاكين ، وهذا يدني بكل تأكيد امكافات الزراعة ويفضي بالضرورة الى تجزئة الاملاك الخاصة . وواجهوا ايضاً تحسين تقنية الزراعة بغية الحصول على انتاج اوفر . وقد سبق وتحققت هذه النجاحات في القرن الاول قبل المسيح ، وقامت بنوع خاص يجعل الدورة الزراعية على اساس التلم لا على اساس القطع الكاملة ، وبايلاء نزع الحشائش مزيداً من العناية ، على ان يلي هذا النزع تكويم التراب حول المزروعات الفتية حال ظهورها ، واستخدمت كذلك بذارة تصلح لبذر ثلاثة اثلام في آن واحد . فنزعت هذه التدابير الى ازالة نظام استراحة الارض بصورة تدريجية .

ولكن القانون لم يطبق يوماً بحذافيره ، فبقيت الاملاك الواسعة ، في اغلب الاحيان ، على

ما كانت عليه ، وشأنها في ذلك شأن وضع الفلاحين .

الاعباء الاميرية
ومداخيل الدولة
فرضت بعض الرسوم والضرائب على السكان ، فأثقلت كاهلهم بصورة خاصة الضريبة الشخصية التي تناولت اليفعان والاولاد الذين تجاوزوا سن السابعة ، والرسم العسكري ، والضريبة العقارية ، والضريبة على الدخل التي تناولت الصناعيين والتجار في الدرجة الاولى . ولم تدفع كل هذه الاعباء نقداً بل عينياً ايضاً ، وجوباً في اغلب الاحيان . وغالباً ما تكلف هذه الطريقة الاخيرة غالباً اذ انها تستلزم نقل الحبوب الى المستودعات الامبراطورية ، والنقل عملية بطيئة معرضة لاختار اللصوصية المسلحة : فإذا ما حجزت الحبوب ، توجب نقل غيرها . واضيفت الى هذه الرسوم المباشرة تلك التي تعود الى احتكارات الدولة ؛ وهذه تتناول الملح والحديد والنقد والمحاصيل الطبيعية كمحاصيل الصيد والقنص والعسل وخشب الاحراج ، والتمحور في عهد « وانغ مانغ » .
تستخدم الدولة هذه الاحتكارات وهذه المحاصيل استخداماً يتيح لها ان تجني منها حداً اعلى من الارباح . وهكذا فهي تشتري الحبوب حين تبلغ سعرها الادنى وتعيد بيعها حين تبلغ سعرها الاعلى . واذا ما افضت هذه الطريقة الى اثراء الخزانة ، فمن الثابت ان الشعب هو الضحية لان هذه الضرائب وهذه « الرقابات » تتناول في الواقع المواد الغذائية الضرورية جداً . وقد جنت الدولة مزيداً من الارباح ايضاً من تقلبات الاسعار بين مناطق الامبراطورية المختلفة عامدة الى الشراء حيث تكون الاسعار اكثر تدنياً .

اصلاحات
وانغ - مانغ
في القرن الاول بعد المسيح ، ادخل المغتصب « وانغ مانغ » اصلاحات بلبلت الاقتصاد الصيني لفترة قصيرة . ولكن منها بلغ من قصر هذه الفترة ، فمن المفيد ان نتوقف عندها بعض الوقت لأن اصلاحاتها ترتكز الى النظريات الكونفوشيوسية التي وجهت الفكر الصيني والاخلاق الصينية منذ قرون . غير ان محاولة وانغ مانغ تتصف في آن واحد بأنها ترتدي طابع العمل المبتكر وتنطوي على سيئة تطبيق التقليد الكونفوشيوسي تطبيقاً اعمى دون اي اعتبار الى ما علمه الاختبار . كان وانغ مانغ (٩ - ٢٣ بعد المسيح) في الحقيقة شخصاً غريباً : فهو الممهد الحقيقي للنظريات الاشتراكية ، وكان ماهراً جداً في توجيه الرأي العام كما يشاء . وإنما يبدو ، على الرغم من تدشينه سياسة ترتكز الى الاصلاحات الاقتصادية ، انه لم يكثرث برفاحية الشعب ومصالحه ، بل ضحى بها في النهاية على مذهب انايته . فكانت في الواقع ، على علمه بالاصول ، واقفاً عند النظريات ، متعصباً لمثل كونفوشيوس الذي نادى بتقليد العادات القديمة . بيد ان الكونفوشيوسية كانت في عهد الهان السلطة الوحيدة المعترف بها التي تساندها الحكومة الامبراطورية وتطبقها على اقل الاحداث اهمية في الحياة الخاصة او الرسمية . وكان وانغ مانغ ، وهو ابن عم الامبراطور ، كونفوشيوسياً متحمساً ، إلا انه كان فقيراً لا يجعل لقباً شرفياً . عاش في البدء حياة تقتير ، مواظباً على درس الكلاسيكيين ومرتبداً ملابس رجال الفكر من الكونفوشيوسيين . اصبح نبيلاً في السنة ١٦ قبل المسيح وخدمته الظروف تدريجياً - وفاة الامبراطور ، وصاية عمته - فتوصل يوماً بعد يوم الى أن يكون له

أثر بعيد في البلاط الذي فرض عليه الأخلاق الكونفوشوسية بمثل تشدده . فازدادت بذلك شهرته وتماظمت شعبيته ، حتى ان العرش ، عرض عليه ، حين توفي الامبراطور الشاب في السنة ٦٠ بعد المسيح . وافق ذلك طموحه وشغفه بالدسائس ، فاعتلى العرش في السنة ٩٠ بعد المسيح ، وشرع دون إبطاء في تحقيق اصلاحاته . شجّل برنامج النظام النقدي ، وأنظمة اقطاع الاراضي ، وإلغاء الرق ، واحتكارات الدولة والضرائب ورقابة الاسعار . فبرهن وانغ مانغ ، عن أنه دكتاتور حقيقي ، على بعض المثالية ، واستخدم لمصلحته شعبية المذهب الكونفوشوسي ، ولكنه ضيّق الخناق على الشعب بتصميمه على ان يفرض عليه نهجاً حياتياً لا يتفق والمعاصل البشرية التي أثارها . في السنة ٢٢٠ بعد المسيح ، انفجرت الثورة عليه ، ففقد شعبيته لدى الشعب وزاد في فقدانها ما علق الشعب عليه من آمال ، وفي خريف السنة ٢٣٠ استولى الثائرون على العاصمة وقبضوا على وانغ مانغ وقتلوه .

ان الاصلاحات التي بعثت هذه البغضاء تناولت في الواقع كل اقتصاد الامبراطورية . فقد باشر وانغ مانغ اقرار التأميم في كل الحقول ، مما خلخل توازن النظام الذي اعتمده الهان ، والوضع الاجتماعي الذي وصفناه اعلاه .

كانت مسألة النقد اعظم المسائل حدة . فقد كانت قاعدة الذهب ، حتى ذاك العهد ، متداولة بحرية ، بشكل سبائك ، تزن الواحدة منها ٢٤٤ غراماً . ومع ان ضرائب وأجوراً كثيرة كانت تدفع عينا ، كلها أو نصفها ، فان الذهب كان ضرورياً لتسديد الضريبة الشخصية التي تتناول اليفعان والأولاد فوق سن السابعة ، والضريبة على الدخل المفروضة على الصناعيين ، والرسوم المطلوب جمعها من الحكام الاقليميين في كل سنة ، والضرائب على بعض الأصناف التي لم تدفع عينا إلا بنسبة ٥٠٪ فقط . فاتخذ وانغ مانغ ، منذ استلامه الحكم ، تدابير قاسية جداً لم يكن القصد منها ، على ما يبدو ، تطبيق النظريات الكونفوشوسية فحسب ، بل إثراء الخزانة الامبراطورية أيضاً وبنوع خاص . ومع ذلك ، فعلى الرغم من الابعاء العسكرية التي أوجدها بهاجمة الهون - وقد لوجب عليه ذلك إرسال ٢٠٠ ٠٠٠ رجل الى الحدود على أهبة الاستعداد للحرب ، وتعبئة ٣٠٠ ٠٠٠ رجل للقيام بحملة ضدهم - جمع وانغ مانغ اموالاً طائلة ؛ فقد وجد في المساكن الامبراطورية ، بعد اعدامه ، ١٤٠ طناً ذهباً ، يضاف إليها القطع الحربية الثمينة والجواهر واليشب وغير ذلك مما جمع في مكاتب القصر المختلفة . غير أن وانغ مانغ لم يمس هذه الثروة لمنفعته الخاصة ، حتى ولو اضطرته الحاجة الى ذلك ، ولم ينقطع قط عن حياته التقديرية .

لقد قرر وانغ مانغ ، رغبة منه في جمع الذهب المتداول لمنفعة الخزانة الامبراطورية ، ألا يسمح إلا للملك ، باقتنائه . فتوجب على الأشراف والشعب ، تحت طائلة عقوبة الموت او النفي ، نقل كل ما هو بموزتهم منه الى خزانة الامبراطور الخاصة . ووضعت الخزانة في التداول ، بالمبادلة ، قطعاً برونزية متفاوتة الوزن هي أبعد من ان تعوض عن الذهب . فكان هذا التدبير الجذري في اسقاط قيمة النقد نتائجها الوخيمة على ذوي العلاقة ، لا سيما وان الذهب

هو القوة الوحيدة لدى طبقة الأثرياء الذين يحتاجون اليه بصورة ملحة لدفع الضرائب والمطالب للخرزانة . وقد افتقر ، بالإضافة الى النبلاء ، التجار والافراد الذين كانوا يملكون وحدهم تقريباً كل الذهب الذي لم يكن في حوزة الحكومة . ولعل اصابة التجار بهذا التدبير كانت أعظم من اصابة غيرهم لأن القانون حرّم عليهم امتلاك الاراضي والانخراط في الوظائف الرسمية . اما الفلاحون فكانوا افضل حالاً : لأنهم لم يستعملوا النقد إلا نادراً معتمدين المقايضة في الدرجة الاولى ؛ أضف الى ذلك ان سياسة الحكومة كانت تستهدف محاربة التجارة وتشجيع الزراعة ، فقدمت الدولة للزارعين تكراراً قروضاً متنوعة قد تكون بذاراً او مواد غذائية او ثيراناً للفلاحة ؛ وكان عليهم مبدئياً اعادتها للدولة ؛ ولكن غالباً ما تركت لهم بقرار امبراطوري .

غير ان حال الطبقة الزراعية لم تكن في الواقع كما يبدو من هذا الوصف : فعلى غرار قسم كبير من السكان اضطر الفلاحون الى الاستدانة بفوائد مرتفعة جداً . وإنما لجأوا الى الاستدانة للتمكن من الانفاق على الاحتفالات الدينية ، ولا سيما الجنائز منها ؛ وعقد التجار قروضاً بغية النهوض بمشروع تجاري جديد ، والنبلاء الجدد بغية التمكن من اقتناء العدة المفروض عليهم تقديمها للاشتراك في الحملات العسكرية .

ما ان نشرت المراسيم الامبراطورية التي اقر بموجبها تخفيض قيمة النقد ، تحت طائلة عقوبة الموت أو النفي ، حق عم الاضطراب الشعب بأكمله . ومرد ذلك الى ان ثلاثة ارباع الصينيين تقوضت ثرواتهم بصورة قاسية ، وكسدت المواد الغذائية في الاسواق ، وبات الفقراء « ييكون وينوحون في الساحات العامة والشوارع » . فأصبح من الصعب احصاء المحكومين بالموت ابتداء من الوزراء حتى افراد الطبقات الدنيا . وارتفعت الأسعار ارتفاعاً مضطرباً ، ولم تستوف الضرائب إلا نقداً قليل القيمة ، ولم تكف الأجور لتأمين المعيشة . فاضطر وانغ مانغ في السنة ١٤ بعد المسيح الى اقرار نقد سليم ، ولكنه لم ينفذ قراره إلا جزئياً واعطى مهلة ست سنوات لاستبدال القطع النقدية القديمة بالقطع النقدية الجديدة . وفي هذا التحويل الثاني ، فقد اصحاب الثروات تسعة اعشار ما كانت متبقياً لديهم . لذلك فقد زيف النقد على نطاق واسع . فأمر وانغ مانغ ، للحيلولة دون التزييف ، ان تؤلف العائلات من خمسة اشخاص يكون كل منهم مسؤولاً عن تصرفات الأربعة الآخرين ، ويعاقب الخمسة اذا أقدم أي منهم على مخالفة القانون . ولكن عدد الخالفات وتكررها جعل تنفيذ هذا التدبير امراً مستحيلاً . ومع ذلك فقد نفى السكان بأعداد كبيرة وحكم على عائلات كاملة بالعمل في ظروف بلغ من قسوتها انها أدت الى موت ستة او سبعة اشخاص من اصل كل عشرة .

اما سياسة اقطاع الارض فلم تكن اقل سوءاً . كان عدد السكان قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً في ظل سلم الهان السابقين ؛ فشجع ذلك نمو الاملاك العقارية ، كما أدى احياناً الى المجاعة وازدياد أعمال اللصوصية . فأقر وانغ مانغ في السنة ٩ بعد المسيح اصلاحاً مبنياً على نظام نادى به منشيوس وزعم التقليد الكونفوشيوسي انه يرتقي الى عهد الـ « تشيو » . قسم الـ « لي » (١٢١,٥٠ م) بموجب هذا النظام الى تسعة مربعات متساوية تعود الى مجموعة من ثماني عائلات ؛ تزرع كلا من المربعات الخارجية ، ومساحته ١٨٢ آراً ، عائلة تؤمن منه أودها لسنة كاملة .

ويقسم المربع الوسيط بدوره الى تسعة اجزاء تبلغ مساحة كل منها ٢٠ أراً ؛ تزرع كلا من الاقسام الدائرية الثمانية احدى هذه العائلات الثماني ويقدم محصولها فريضة للدولة ؛ اما المربع الوسيط فيكرس للأبنية الريفية والمساكن . ومعنى ذلك ان كل عائلة تزرع هكتارين تقريباً يعود محصول عشرهما للدولة . يبدو هذا النظام ممتازاً من الناحية النظرية . ولكنه يكاد يكون مستحيل التطبيق من الناحية العملية : فالارض الزراعية لا يمكن تقسيمها الى مريعات متساوية تماماً ، ولشجون الارض دورها في تقرير حدود كل جزء من الاجزاء . أضف الى ذلك ان هكتارين لا يكفيان لتأمين معيشة عائلة ، إلا اذا كانت الارض جيدة جيداً . وبجدة اولى ، لا يمثل عشر محصول هذه الاجزاء شيئاً يذكر — غير الجهود — اذا كانت الغاية منه تكوين احتياطي جماعي ، كما ان بيع الحبوب لا يمكن ان يسهم في اثراء الخزانة بالنظر الى ضالة المجموع منها سنوياً . لذلك فقد أضيفت رسوم كثيرة الى هذه الفريضة حتى غدا الفلاحون ، في النهاية ، يدفعون خمسة أعشار دخلهم .

في سبيل تطبيق هذا النظام ، الذي يغلب انه لم يطبق قبل وانغ مانغ او انه لم يطبق إلا على نطاق ضيق ، بدأ وانغ مانغ بتأمين كل الارض ؛ واعتبر الحقول ملكاً للسلطات يتمتع بيعها او نقلها او هبتها . ثم أعاد توزيع الاملاك بالاستناد الى عدد الافراد الذين تتألف منهم العائلة . وهكذا فقد أجاز لعائلة تضم تسعة يفعان من الذكور فما فوق « امتلاك » ٩٠٠ « مو » من الارض الصالحة للزراعة كحد أعلى (١٧ هكتاراً تقريباً) ، وفرض على كل عائلة تضم عدداً أعلى او أدنى من اليفعان المذكور ان « تعطي » الفائض من أراضيها الى الانسباء او الجيران . ففقدت الارض من ثم قيمتها التجارية ولم يعد باستطاعة كبار الملاكين ان يحنوا منها دخلاً كافياً . وكانت مخالفة هذا القانون ، وحتى انتقاده ، تعاقب بالنفي الى خارج الحدود او بالموت .

وفيما يتعلق بالرق — الذي كان ، الى حد ما ، شرطاً لازدهار الطبقة الثرية — اراد وانغ مانغ كذلك تطبيق النظريات الكونفوشيوسية ؛ وقد سبق ، قبله بمائة سنة ، ان فكر المسؤولون ، دون نتيجة مجدية ، بإلغاء الرق . وكان سلف وانغ مانغ قد خفض عدد العبيد بنسبة وضع الملاكين الاجتماعي : فلم يكن بمكنة الملوك ان يقتنوا منهم أكثر من مائتين ، والاميرات والمقدمين مائة والافراد ثلاثين فقط . ولكن هذا التحديد ايضاً لم ينفذ عملياً . فصمم وانغ مانغ على إلغاء العبيد إلغاءً جذرياً ، مستنداً في ذلك الى نص من كونفوشيوس ، ومحولاً لإيham الى خدمة الدولة دون غيرها : فلم يبق بموجب القانون الجديد سوى العبيد الذين قضت عليهم أحكام الحق العام بتنفيذ بعض العقوبات . غير ان وانغ مانغ اصطدم هنا ايضاً بمقاومة عنيفة ابدتها أثرياء الملاكين فاضطر الى إلغاء قانونه سنتين بعد صدوره تحاشياً لثورة معلنة . وحين فرضت ، في السنة ١٧ بعد المسيح ، ضريبة قيمتها ٣٦٠٠ قطعة على كل عبد مستخدم ، لم يكن ذلك لمنع الرق بصورة غير مباشرة ، بل لأن الخزانة الامبراطورية كانت بحاجة آنذاك الى مداخيل هامة .

وكانت الاحتكارات خاتمة تدابير وانغ مانغ الاقتصادية . سبق ورأينا ان بعضها يعود الى العهد السابق — التدابير العائدة للنقود والملح والحديد بنوع خاص — ورغبة منه في ربط عمله

بكونفوشيوس ، أطلق عليها اسم « كوان » ، أي رقابة ، الواردة في الادب الكونفوشيوسي ، فأقرّ الاحتكارات التي قامت من قبله والاحتكارات الملقاة ، واقام احتكارات اخرى ، كاحتكار المشروبات الخمرة مثلاً : فلم يعد باستطاعة الشعب منذئذ ان يستهلكها إلا لقاء رسم خاص ، بعد ان استأثرت الدولة بحق انتاجها وبيعها . واعاد احتكار محاصيل الجبل : ففرضت الدولة ضريبة على من يقطع الاشجار وعلى كل من كان بحاجة الى هذه المحاصيل : اسماءك ، قنيص ، الخ .. فأحدثت بالتالي ضريبة على القناصة والصيادين ومربي دود الحرير والصناعيين اليدويين والمهن الحرة : وتوجب على كل فرد تعيين دخله السنوي ودفع جزء من احد عشر من قيمته . وحكم على كل من يرفض تقديم تصريحه السنوي او يقدم تصريحاً كاذباً بقضاء سنة عبودية في خدمة الدولة . اصف الى ذلك ان الرسم الذي فرض على الاراضي البائرة حدّد بثلاثة اضعاف الرسم العادي . ونشرت قوانين نظمت كلاً من هذه الاحتكارات ونصت على ان مخالفتها تعرّض مرتكبها لبعض العقوبات وحتى لعقوبة الموت احياناً . حاولت عدّة شخصيات مقاومة هذا التشريع وهذه الضرائب التي جعلت حياة الوضعاء عسيرة جداً ، ولكن وانغ مانغ وقف من هذه المقاومة موقفاً صلباً لا يعرف للشفقة معنى . اقضت هذه التدابير في الحقيقة الى ارتفاع أسعار المواد الغذائية الرئيسية ارتفاعاً عظيماً ثابتاً والى استئثار الدولة بمعظم المشاريع الممتازة في ذاك العهد . غير ان أثرها في الشعب كان أقوى منه في طبقات الاثرياء المجهزة تجهيزاً افضل بفعل امتيازاتها او اجورها . كما ان الموظفين والمستخدمين لم يكونوا في مأمن من هذه القوانين القاسية : فان أجبرهم كان يقرّر كل سنة بالاستناد الى وضع المحاصيل ، فتعذر عليهم من ثم التفكير بغدوم . غير ان بعضهم ، كما نرجح ، قد لجأوا الى الاختلاس وجمعوا بعض الثروة ، اذ ان وانغ مانغ قد امر ، في السنة ١٩ بعد المسيح ، بأن يدفع كافة الموظفين ، باستثناء ذوي الأجور المحدودة منهم ، اربعة أخماس ما تملك يداهم . واعتمد على الوشاية في جمع هذه الضريبة - المعدة اساساً لتمهيد جيش الحدود - : فطاف المفتشون في طول البلاد وعرضها وحشوا العبيد والمروّسين على الوشاية بأسيادهم . وقد طلب الى الموظفين ، بالاضافة الى ذلك دفع ضريبة خاصة بغية مكافحة أعمال اللصوصية المسلحة .

فلا عجب من ثم اذا ما لقيت ثورة اوساط الفلاحين ، التي اندلعت ضد وانغ مانغ في السنة ٢٢ بعد المسيح ، تأييد ومساندة كافة السكان القائمين بعمل من الأعمال .
وهناك أخيراً اصلاح جبائي سادس - هو أطرف الاصلاحات إطلاقاً - تناول رقابة الاسعار وحصر القروض في الدولة دون غيرها . ولم يكن هذا الاصلاح بالجديد ، إذ ان محاولات مماثلة قد جرت قبل ذلك بأربعة قرون : فكانت الحبوب ، مثلاً ، تجمع في سني الاقبال ، ثم تبيعها الدولة حين تمحل المحاصيل ؛ فتتساوى حينذاك الأسعار ، ويتلافى القحط . تبنى وانغ مانغ هذا النظام ؛ وفي سبيل تطبيقه ، وكتل أمر مراقبة الأسواق الست الكبرى في الامبراطورية الى رؤساء عاون كلا منهم خمسة أشخاص في امور المفاوضة ، وشخص واحد في امور النقد . وشيد المخازن ؛ فكان على كل رئيس سوق تحديد أسعار كل صنف من المواد الغذائية ،

أي الحد الاعلى والحد الوسط والحد الأدنى ، دونما اهتمام لأسعار الأسواق الاخرى . كما كان عليه تطبيق هذه الأسعار على الفئات الخمس التالية: الحبوب والمنسوجات والحرائر والحيوط وكتل الشغل والوبر ، التي يأتي بها المزارعون . فاذا لم تباع كلها ، اشترى مكتب الرقابة الفائض منها بسعر السوق . واذا تجاوزت الاسعار الحدود المعينة ، باع المكتب البضائع المجموعة بالأسعار المحددة . فيحال بذلك دون تقلبات الأسعار ، وتستحيل المضاربة على التجار ويضمن المزارعون تصريف محاصيلهم ، أقله من الناحية النظرية ، اذ ان النظام قد انطوى على كثير من العيوب ، كما سنرى ذلك.

أما مسألة القروض ، فقد اتصفت بمزيد من الجدة . احتاج الشعب باستمرار الى المال للانفاق على الذبائح والجنائز ، وهي احتفالات غالباً ما تكلف أموالاً باهظة ؛ واضطر آخرون الى استقراض المال لدفع أجور اليد العاملة التي يستخدمونها . فاختر بعض أغنياء التجار لتسليم مكاتب الرقابة المعدة لتأمين القروض ، في حالات الحاجة القصوى فقط . ضاربت هذه المكاتب في تجارة المواد الغذائية ومارست تسليم القروض التي تغذيها الضريبة على الدخل المفروضة على الصناعة اليدوية والمهن الحرة . وحددت الفائدة بـ ٣٪ في الشهر ، وهو معدل اعلى من المعدل العادي المحدد بـ ٢٠٪ في السنة ؛ غير ان بعض النصوص قضت بأن لا يدفع طالب القرض اكثر من ١٠٪ من دخله الصافي: فتحدد القرض من ثم بالنسبة لثروة طالب القرض .

غير ان نظام الرقابة والقروض ، الذي وضع نظرياً لتشجيع المزارعين بتأمين بيع محاصيلهم واستقرار الأسعار والمساعدة المالية عند الحاجة ، قد انطوى على مساوئ عديدة . ولم يؤد الى حماية الطبقة التي تؤمن مؤونة الامبراطورية ، مع ان هذه الحماية هي الغاية الاولى من وضعه . فقد لجأ اغنياء التجار المكلفين رقابة الأسعار الى الغش بغية جني الأرباح دون مشقة ؛ أضف الى ذلك ان ست اسواق فقط قد أخضعت للرقابة ، في حال ان الأسواق الاخرى قد تعرضت للتقلبات . أما مضاربات الدولة في الاسعار فكانت محصورة نسبياً ، لأن بيع المواد الغذائية التي تشتريها لا يمكن ان يتجاوز سعراً منخفضاً نسبياً بغية الحفاظ على ظاهر المعيشة الطبيعي ؛ لذلك فقد نزعتم الى رفض الشراء إلا بأدنى الاسعار ؛ وقد تعذر حينذاك على المزارعين تصريف محاصيلهم .

لذلك ، فان اصلاحات وانغ مانغ ، في مجموعها لم تأت ، علياً ، بأي جديد سوى التطبيق الآني لبعض النظريات التي قال بها كونفوشيوس ومنافسوه دونما اعتبار الى الناحية العملية . فنحن لسنا في الحقيقة أمام ثورة أو محاولة اشتراكية : فان وانغ مانغ كان دسائساً وطموحاً اكثر منه مثالياً ، يغار على خير الشعب .. واذا ما هدفت تدابيرها في الظاهر الى حماية الطبقات الدنيا وإفقار الطبقات الثرية لمنفعة الدولة ، فانها قد أفضت الى خلخلة الاقتصاد الصيني ، واستياء جميع السكان ، وافقار الملاكين ، كبارهم وصغارهم ، وموت وتعميب أفراد لا يحصى لهم عد . وقد برهن وانغ مانغ في الدرجة الاولى عن منتهى القسوة امام الولايات التي تسببت فيها ، ولم يمنعه ذلك من مضاعفة العقوبات الصارمة المعدة لتأمين تطبيق نظامه .

في السنة ٢٢ بعد المسيح ، قام الفلاحون ضده وضد ممثليه بثورة حقيقية . (اطلق عليها اسم

حرب الحواجب الحمراء) . ف شعر آنذاك بحقيقة وضعه اليائس ؛ وحاول القيام بإصلاح معاكس بإلغاء معظم قوانينه . ولكن الأوان قد فات . ففضبة الشعب لم تهدأ ولم ترض إلا بموت ذاك الذي رفعه الشعب إلى العرش منذ خمسة عشر سنة .

استمرت الضوضاء ثلاث سنوات بعد ذلك ، ثم تنظمت الحياة الاجتماعية على
الازمة الاجتماعية
غرارها في عهد الهان السابقين . ثم أعاد سلم الهان اللاحقين توازن الصين
في آخر عهد الهان الاقتصادي . غير ان الفكر والسياسة سارا ببطء نحو تطور البلاد تطوراً
كلياً ، وهو تطور سيتحقق نهائياً حوالي السنة ٦٠٠ بعد المسيح . وبمكنتنا اليوم ، بفضل الدراسة
التي وضعها « اتيان بالاز » (« تونغ باو » ، المجلد ٣٩ ، ١٩٥٠) تقدير التغيرات العميقة التي
ظهرت بين السنة ١٥٠ والسنة ٢٥٠ والتي ميزت نهاية عالم هو عالم الهان . يمكننا في هذا العهد
مشاهدة حياة فكرية ناشطة ، تميزها عودة المجتمع إلى النظام الاقطاعي - وافتقاره ايضاً ، وشعور
ديني عميق ، ونشأة الشعر الغنائي وفن نقاشي جميل . ووافق كل ذلك اخيراً اختطار غزو أجني
مدام . في ذلك العهد مهدت نظريات المثقفين لتطور سياسي هام .

منذ ولاية وانغ مانغ المشؤومة والاضطرابات التي عقيتها ، أتاحت عودة السلم للثروات
الفردية ان تتكون مرة أخرى ، فتضاعف عدد السكان . غير ان السلطة الامبراطورية ، بالمقابلة ،
ضعفت بالنسبة نفسها : فقد غدت السلطة الحقيقية مطمع اعظم الناس طموحاً . وجرت الامبراطور
النبلاء في ضعفه ، فعبج عن ان يضمن لهم الامتيازات القديمة ؛ كما ان النبلاء قد أخطأوا ايضاً اذ
أنهم اخذوا بحياة البلاط الفاتنة فأهملوا ادارة أملاكهم وآثروا اللهو والقص والبطالة
والترف على القيام بمهام اعتبروها تافهة . وانما البلاط عيش دسائس : لذلك يجب انتهاز الفرصة
الساحنة ؛ فاللثروات حينذاك تجمع وتنهار بسرعة كلية ، والنجاحات المدهشة تعقبها الانهيارات
المدهشة ايضاً . كل تكتل يتكون ويسعى وراء بلوغ السلطة وينجح في مسعاه ثم يزول تماماً
(بعد فترة ازدهار تتفاوت مدتها) جاراً وراءه ، مع قادته ، أولئك الذين ساعدوهم او
خدموهم . ويستسلم حديثو النعمة لحياة بذخ جامح ؛ وتتجمع لدى رئيس التكتل « المالك » ،
ثروة تقدر بثلاثة مليارات وتخضع له المراكز الحساسة في الامبراطورية عن طريق الأعطيات أو
الفائدة ؛ ويعطى متنزهه القائم على بعض المسافة من لو - يانغ ، العاصمة ، كمثل نموذجي عن بذخ
ذاك العهد ، اذ انه مجهز في وسط منظر صناعي ، بمديقة حيوانات ملأى بالطيور والحيوانات
الغريبة . ولكن كل تكتل لا يلبث ان يتنازل صاعراً عن صلاحياته لأحد الطامعين إلى السلطة .
ومن أقوى التكتلات ، تكتل الخصيان الذي حظي ، حوالي السنة ١٦٠ ، بالعطف الامبراطوري ؛
وقد تألف بصورة خاصة من خمسة خصيان يستخدمهم الامبراطور للقضاء على تكتل الـ « ليانغ » ،
الذي تولى السلطة من قبله . وقد كوفى الخصيان بلقب المقدمة الذي أعطاهم حقاً باستيفاء
الضرائب المفروضة على ٧٦٠٠٠ عائلة ، ومبلغ من المال يعادل ٥٦ مليوناً . واعتمدوا على
التجار والصناعيين ورجال الاعمال وحتى على انساب الامبراطور وبرهنوا عن طمع أكال .

ولكنهم ، على نقيض تكتل « ليانغ » الذي كان رؤساؤه قادة اميين متفاخرين بنبيلهم ، انتسبوا الى عامة الشعب ، وسعوا وراء العلم ، واستطاعوا تحمل المسؤوليات وشجعوا المخترعين (العالم مدين بالورق الى أحدهم) والتنظيم المدرسي المستقل .

غير ان سرعة نجاح تكتل الحصيان قد أثارت سخط طبقة المثقفين الذين شعروا بالخطر يهددهم في امتيازاتهم القديمة : وكانوا في السابق يتولون الوظائف العامة ويحتفظون بنفوذ التربية والمعرفة . فالفوا في سبيل الدفاع عن انفسهم جمعية هي ا شبه بحزب سياسي وسعوا الى ان تستظهر النزاهة على فساد المسؤولين . كان الانتقاد سلاحهم الرئيسي ، وفي سبيل ايصاله الى المسامع ، اكتروا من الانذارات والمذكرات ، والعرائض والاعلانات الهجائية واللواذع الشعرية ، وبرعوا في اصول الدعاوة فاشهروا سيئات النظام وتجاوزات متسلمي السلطة وتحدي البدخ عند الاسياد العظماء وحديثي النعمة وارتشاهم — بينا امتدحوا ، بكلمات نافذة ، فضائل رؤسائهم وتباهوا في كل مناسبة بنزاهتهم الكلية . وقد عرف معظمهم حياة المدرسة ووقفوا على مايثيره الفقر من معاضل ، اصف الى ذلك انهم استفادوا في الولايات من صفار الموظفين والمستخدمين والطلاب الذين يطمعونهم على آلام شعب يشاركونه حياته بوصفهم صناعيين أو عمالاً زراعيين او مرؤوسين . فاهيك عن ان افراد الطبقة المثقفة كثير و العدد وموزعون على كافة انحاء البلاد . فكانوا بمثابة جمعية سرية حقيقية وما لبثوا ان اصبحوا عدوا رهيباً لتكتل الحصيان الذي سيشتد الصراع بينه وبينهم في سبيل السلطة . صراع لا هوادة فيه سينتقل النصر اثناءه من جبهة الى جبهة تكراراً وستكون نتيجته الاخيرة خراب البلاد والحرب الاهلية . والبؤس العام وتفتكك السلطة الامبراطورية .

اما فصول المأساة فأطول من ان تروى ، وهي ، على كل حال ، لا تدخل في موضوعنا ، لانها احداث تاريخية ، ولكن ما يهمنا هو فحص كل ما انطوى عليه هذا الصراع ، فلم يكن هنالك موضوع استلام السلطة فحسب ، بل بؤس الارياف الذي اوجد ثورة كامنة ، وتطور آراء الفلسفة الاجتماعية التي هي ، في الصين ، اساس الفلسفة الفلسفة . وان هذا التطور ، الذي تم على يد ثلاثة فلاسفة رئيسيين ، قد طبع هذا العهد بطابعه . اما الوسط الذي تكونت فيه هذه الآراء فهو وسط هذا الاضطراب الذي اسعره المثقفون والذي انتظر كافة بؤساء الامبراطورية اول فرصة سانحة للاشتراك فيه .

كانت عودة النظام الاقطاعي ثقيلة الوطأة على الكادحين الزراعيين . وكان الفلاح الحر سائراً في طريق الزوال ، تحت تأثير المجاعة الدائمة ، والضرائب واعمال التسخير ، وما تعرض له تعرضاً دائماً من فقدان اراضيه بفعل اقدام الملاكين الجشعين على استملاكها ، والكوارث الطبيعية ، من فيضان وجفاف ، التي لا مهرب له منها ، والديون الكثيرة التي غالباً ما يعقدها . فأخذ رويداً رويداً يعمل بالأجرة ، وتحول الى شريك في زراعة الارض ، واشتغل كعامل زراعي او هاجر الأرض ، واصبح تاجراً متنقلاً ، او صناعياً ، او خادماً منزلياً ، أو جندياً أو قاطع طرق . وباع اولاده كعبيد ونذر بناته للبقاء . وكان والحالة هذه حقلاً خصباً جاهزاً

لاسمار الثورة . حاولت شيعة طاوية نشأت منذ عشر سنوات تنظيم وجمع هذا الجمهور الفاقد التوازن ؛ فأسست طوائف ريفية تناول افرادها وجبات الطعام مجتمعين في مكان واحد واعترفوا بخطاياهم علانية . واختار اتباعها لأنفسهم اسم «العمائم الصفراء» - إذ ان اللون الأصفر يرمز إلى الأرض ؛ وتلقنوا مبادئ ديانة تكثر فيها الصيغ السحرية والإشارات والرموز الطاوية ، وبشروا بمهد ازدهار ، عهد المساواة الذهبي (تاي - بنغ) ، ووعدوا بشفاءات عجائبية ، وقد خضعوا لتنظيم عسكري وتمكنوا في السنة ١٨٤ من تأليف جيش ضم ٣٦ فرقة (٣٦٠.٠٠٠ رجل) وتحرك بغية احتلال الصين الأهلة بالسكان . فدخل الولايات واستولى على مراكز الادارة وقتل الموظفين أو طردهم ، وابدلهم بعمائم صفراء ، وجمع الضرائب واصلح الطرقات . كانت هذه الحركة مقدمة لاضطرابات خطيرة : فقد سيطر الموت الذي ترك وراءه اكداًساً من الجثث ، وانتشرت الجاعة في اعقاب هجرة السكان المغرعين ، وقامت الحرب الاهلية مع ما تستتبعه من موكب دام . فسوف تغدو الصين ، طيلة ثلاثين سنة ، فريسة المفاهرين الذين سيستفيدون من الحالة الراهنة للانقطاع الى اعمال اللصوصية نهياً واستلاباً وقتيلاً واحراقاً .

في هذا الجو المضطرب الذي انقلب فيه كل نظام وسيطر القلق والجزع والارتباب ، تبادل رجال الفكر الآراء . لم يؤلفوا بعد طبقة متلاحمة ، فزاد ذلك من تشوشهم ؛ أضف إلى ذلك ان الشك قد تسرب منذ اوائل القرن الثاني الى عقل مفسري التعليم الرسمي ، ولم تصادف الكونفوشيوسية حتى ذلك العهد شرحاً متلاحماً . فتطلبت الأزمة القاسية حلاً للخروج منها ، وجلي ان السالك بمقتضى الظروف الذي نادى به الكونفوشيوسيون لم يوفر هذا الحل : فلم يعد من جامع يجمع بين اللياقات والاعراف والطقوس وآداب المعاشرة وعدم التحيز والحقوق والواجبات وبين العالم الفاقد التوازن الذي احاط بهم حينذاك . اما اتباع مذهب الفقهاء الذين نادوا بالعدل عن طريق القوة ، فقد اصطدموا بالفوضى الثورية ، وعجزوا عن إعادة النظام الى نصابه . واكتفى الطاويون الفوضويون المتشائمون اخيراً بالمناداة بالعودة الى الطبيعة ، دون شرائع وعلم أخلاق ؛ وهذا أعظم المواقف « تريثاً » بين مواقف الفلاسفة المختلفة في هذا العهد الخفيف . فلم يعد الموضوع تعين « من » يسن القانون لأجله ، بل « ضد من » يجب أن يسن . أضف الى ذلك ان هذه المواقف الثلاثة قد انطوت على مفارقات أخرى كثيرة ، جعلت الغموض يكتنف الروابط السياسية والفلسفية - مع انها واقع راهن دائم في الصين . والحقيقة ، في نظر بالاز ، هي ان كلا من هذه المواقف يعكس مثالية طبقة اجتماعية : الكونفوشيوسية تعكس موقف البيروقراطية وكبار الموظفين ، والحركة الفقهية موقف الأوساط العسكرية والتجار والفنيين ، والطاوية موقف صغار الموظفين وطالبي الاستخدام والفلاحين الذين تنكروا لوطنهم الريفي . وقد شرح هذه المذاهب وفقاً لترتيبها اعلاه الفلاسفة : وانغ - فو (حوالي ٩٠ - ١٦٥) ، تسواي - شي (حوالي ١١٠ - ١٧٠) ، تشونغ - تشانغ - نونغ (المولود حوالي السنة ١٨٠) . ولد وانغ - فو من سرية ، ولم يتمكن ، من ثم ، من تولي الوظائف الرسمية . ومع ذلك فقد كان على صلة طيبة بأشهر رجال عصره ، ولكنه كان شديد الحقد على مجتمعه ، وهذا ما يفسر

حدّة كلامه . وان مؤلفه ذو قيمة كبرى لرسم لوحة عن المجتمع الصيني . خلال التصف الأول من القرن الثاني ، أي في الفترة التي سبقت ثورة المائتين الصفراء ، نادى وانغ - فو بإصلاحات أساسية مبنية على الكونفوشيوسية : العودة الى الزراعة ، صناعة يدوية منظمة وزينة ، حتى لا يتجاوز الناس حدود رفاهية دون بذخ نافل ، تجارة معتدلة محصورة في مقايضة محاصيل الاقتصاد الطبيعي . وطالب بأن يقاس الرجال بكفاءاتهم وفضائلهم الخاصة وليس بوضعهم الاجتماعي أو العائلي أو المالي . ولعلته رضي بإسناد الوظائف الرسمية الى الأجانب اذا أجازت مؤهلاتهم ذلك . وثار على المحسوبية ، وعنف أولئك الذين « يوزعون الثروات بسخاء على خدامهم وسراريهم » ، وأولئك الذين « لا يقرضون الغير فلساً واحداً » ، وأولئك الذين « يعرفون تمام المعرفة ان الحنطة تفسد في مستودعها ، ولا يرضون بإقراض الغير مكيالاً واحداً » . وان وصفه « للبذخ المفرط » الذي انتشر في الصين آنذاك لجليل الفائدة . فقد قال : « ان جيل اليوم يترك الزراعة ويتهاوت على التجارة (التي ندد بها الهان الكونفوشيوسيون تنديداً دائماً كما سبق ورأينا) . الثيران والأحصنة والعربات تسدّ الطرقات والمساكن . عدد الفلاحين يتناقص ، بينما يتزايد عدد أولئك الذين يكسبون معيشتهم بتعاطي مهنة باطلة . في هذه الايام يبذر الناس أموالهم في الإنفاق على الملابس والمأكل والمشرب . يحاولون طلاقة اللسان ويمارسون الغش والاختلاس . فالفلاحون الحقيقيون أنفسهم يهملون دورهم الأساسي في الزراعة ؛ يتخلون عن المهرات ، ويتركون الحقول فريسة للجرذ والطيور ، ويقتنصون في الجبل ويصنعون الألعاب ، أما نساؤهم ، فبدلاً من ان يعنين بالنسج والشؤون المنزلية ، ينكبن على أعمال السحر والرقص والرقى التي يحنن منها مكاسب ضخمة ، بفضل سذاجة الفقراء والمرضى . ولا يقع البذخ عند الأثرياء تحت وصف لأنهم يتنافسون رغبة في التفوق بعضهم على بعض . واذا ما حاول الفقراء تقليدهم ، فانهم ينفقون على وليمة واحدة كل ما جمعه من مال في حياتهم . بيد ان احتفالات الزواج والجنازات تفوق كل ما سواها ، لأنها تكلف أموالاً طائلة ، وتجند لها اليد العاملة من طرف الامبراطورية الى طرفها الآخر ، من لو - لانغ الى تيان - هوانغ . وقد أوضح وانغ - فو ذلك بقوله : « ان النبلاء الأثرياء في العاصمة وكبار الملاكين في الأرياف ، الذين لا يعيرون كبير اهتمام للاتفاق على ذوبيهم في حياتهم ، يكرمونهم بحفاوة فخمة عند موتهم » . وثار وانغ - فو اخيراً على اهمال الحاكم التي تضر بالشعب ببطشها واجراءاتها . وقارن بين انتاج دولة حسنة الادارة وجذب دولة فوضوية ، واحتج على امتيازات وطفيلية الطبقات الثرية ، وقال بإرساء النظام الاجتماعي على قانون غير متحيز يفرض على الجميع دون استثناء . أما الفيلسوف الثاني الذي يمثل الفقهاء والذي وصفه اتيان بالاز في كتابه المشار إليه اعلاه ، فهو تسواي - شي الذي ينتمي الى جيل عقب جيل وانغ فو مباشرة . أضاف الى ذلك انه كان ابن صديق كبير لهذا الأخير . انتسب الى عائلة نبيلة أضاعت أموالها في عهد هو - باي الحاكم ، واستدعي في السنة ١٥١ الى البلاط حيث عمل في المحفوظات وفي تحرير حواريات الهان الرسمية . ولكنه كان مرتبطاً بتكتل « ليانغ - كي » - الذي لن يلبث تكتل الحصيان ان يتقلب

عليه — فأقصي عن مركزه . غدت حياته منذئذ رمزاً لمهده ، وتخصص في المسائل التي يثيرها سكان الحدود ؛ ولما كان مشايماً صادقاً لمدرسة القانونيين ، لم يكتف بالتطبيقات ، بل انتقل الى التطبيق العملي ، فعلم البلديين ، الذين كانوا يرتدون الحشائش ملبساً ، كيف يستعمل القنب ، واشترى لهم من ماله الخاص دواليب المغازل والأنوال ، واعاد تنظيم الدفاع العسكري بواسطة الاشارات الضوئية . في هذه الحياة التي جعلته على اتصال يومي مباشر بالفقراء ، احتقر المراءاة الكونفوشيوسية وفجور الطبقات الثرية ، وتملك منه الشعور القومي ، في تجاهل حدود الامبراطورية النائية ، وثار على الخداع والفساد المسيطرين على الوطن . وحين اعترف له بمحارته ، عين حوالي السنة ١٦٠ والياً على لياوو — تونغ في منشوريا الجنوبية . ولكن اضطهاد المثقفين للخصيان فرض عليه موقف الحكمة ، فرفض مركز أمين سر الدولة الذي عرض عليه في وقت لاحق . ثم أضعأ أمواله على جنازة فخيمة أقامها لوالده نزولاً عند مقتضيات الاثرة السائدة في عصره ، ففقد على التوالي مقطر مشروبات روحية وتاجراً متنقلاً . ثم توفي معدماً لا يملك شروى نقير .

وضع دراسة « في السياسة » او « في الحكومة » (حوالي السنة ١٥٠) بلغ من صدق تعبيرها عن آراء معاصريه ان طالب بعضهم « بأن يستنسخها كل ملك ويضعها الى جانب عرشه » . قاده فكره الواقعي الى طرح أسئلة واضحة والاجابة عليها اجابة جلية جذرية . رأى ان الشلثنة هي العدو الحقيقي للدولة الحية ، وان التكيف بحسب الظروف ، الى جانب الاختبار ، يمكن وحده من الحكم حكماً فعلياً مجدياً . ورأى وجوب تفسير التقليد الذي قد يناسب الاحداث ويستجيب للعاجات . اما اذا بقي متحجراً فيتأخر الناس عن ركبهم ويتعذر عليهم فهم حقيقة واقع الامور . ونادى تساوي شي ، لتلافي البلبلة المسيطرة على الصين ، بالعودة الى القوانين الصارمة التي قد تقضي بمزيد من المكافآت او مزيد من العقوبات على السواء ، وفي سبيل ذلك يجب ان توضع وتنتشر بشكل يسهل فهمها . وقال كذلك بالعقوبات الجسدية وثار بتهم لاذع على تصوف « الطاوية » الذي كان آخذاً في الانتشار بين السكان الريفيين .

رسم ، على غرار وانغ فو ، لوحة ملأى بالحياة عن اخلاق عهده : ان البذخ الذي تميل اليه الطبيعة البشرية بالفطرة « لا يزال يشحذه عرض البضائع النادرة وصناعة الادوات الجميلة . ان البذخ يرفع سعر الكاليات ويخفض سعر المحاصيل الزراعية . لذلك يترك الفلاح محراثه ويتهاقت على مهن اوفر دخلاً . الاهراء فارغة والسجون غاصة بالسجناء . ان بذخ العبادة الجنائزية يفضي الى الافلاس . وبكي يتفوق الانسان على جاره لا يتردد في التضحية بثروته العائلية ، فيجر البؤس بعد ذلك الى امتحان السرقة . وكذلك فان مفاعيل هذه الاخلاق مؤسفة لدى الموظفين والشعب ، اذ ان الشعب يتجرد لاعمال اللصوصية من جراء تجاوزات الموظفين » (بالاز ، ص ١١٣) . وماذا نقول عن عدم الاستقامة : فالموظفون لا يدفعون فواتيرهم ويرغمون التجار على استعادة ادوات اشتروها واستعملوها ، والصناعيون ينتجون مصنوعات سيئة ، وبائعو الاسلحة للجنود يسلمونهم أسلحة معطلة — وسكان الحدود مضطرون الى صنع أسلحتهم الخاصة ليدافعوا عن

أنفسهم ضد هجمات البرابرة المتكررة . الدعاوى لا تحصى والقضاء فاسد .
المرتبات غير كافية وتدفع بالموظفين إلى الاختلاس . وقد ذكر تسواي شي بعض الايضاحات
بهذا الصدد : « ان كبار الموظفين ، المسؤولين عن منطقة لا تقل مساحتها عن مساحة الاخذات
في السابق ، يتقاضون مرتب كاتب بسيط . يخصص لهم عشرون مكيالاً من الحبوب عيناً ،
و ٢٠٠٠ قطعة عملة نقداً . وإذا لم يكن لديهم عبيد ، فانهم بحاجة الى خادم على الاقل يقبض من
سيده ألف قطعة نقدية شهرياً . وينفق نصف الالف الثاني على العلف والشحم واللحم بينما ينفق
النصف الآخر على خشب التدفئة والفحم والملح والخضار . يأكل هذان الشخصان ، الموظف
وخادمه ، ستة مكيال في الشهر الواحد ، ولا يكاد الباقي يكفي للأحصنة . فكيف يؤمن ثمن
الملابس الشتوية والصيفية ، والاتفاق على الذبائح في الفصول الاربعه وعلى الزائرين والاقرباء
والزوجة والأبناء ؟ » (بالاز ، ص ١١٥) .

وعاش احدث هؤلاء الفلاسفة الثلاثة سنّاً ، في عهد عصيب جداً : ولد في السنة ١٨٠ ، بعيد
اضطهاد الحُصيان للمثقفين وقبيل ثورة العيالم الصفراء ، وعرف كل الصين الشمالية ، وهي آنذاك
في غليان مغرغر : وسافر كثيراً لإكمال ثقافته ، ككل ابن عائلة ثرية ، وزار عدداً من الحكام
الاقليميين الذين لم يتردد في مصارحتهم في سلوكهم . في سن الثلاثين ، حوالي السنة ٢١٠ ، طلب
لتولي أمانة سر الدولة . وتتبع عن كثب احدثات زمانه السياسية الى جانب سيون - يو الاديب
الكبير وأحد الوجوه الرئيسية في صراعات جيله ، الذي كان في خدمة تساوو تساوو المدعو
لتكريس انهيار الهان . كان متعصباً للصدق لا يرضى بالسلوك على مقتضى الظروف ، وقال
بفلسفة السعادة والرفاهية التي اوحى له بها التعاليم الطاوية . تنبأ بزوال السلالة مثبثاً ان هوان
السلطة يدفع بالشعب الى الثورة وان غزو البرابرة يزيد في الطين بلة . بيد ان اللوحة التي رسمها
(حوالي السنة ٢٠٦) عن طبقة الاثرياء في عهده لا تسمح بعد بافتراض حصول مثل هذا
الانهيار : « تتجاوز قصور كبار الملاكين بالمئات . وتغطي حدائقهم الغناء مساحات واسعة من
الارياض ، ويمد عبيدهم بالالوف وزينهم بعشرات الالوف . يتجول التجار براكبهم وعرباتهم في
كل الاتجاهات ، وتتلأ المدن بضائع كدسها المضاربون . لا تتسع أعظم القصور لحليتهم وجواهرهم ،
ولا تتسع الجبال والوديان لأحصنتهم وأبقارهم وأغنامهم وخنازيرهم . وتمتع القصور الفخيمة
بغلمان وسراري آية في الجمال ، وتردد القاعات الكبيرة صدى انغام المغنيات وموسيقى البغايا .
وينتظر الزائرون موعد استقبالهم ولا يحترثون على الذهاب ، ويزدحم الفرسان والعربات فيتعذر
عليهم التقدم . ينتن لحم الحيوانات الأليفة دون ان يتمكن احد من أكله ، وتفسد افضل الخور
تصفيقاً دون ان يتمكن احد من احتساؤها . لا يحتاج السيد لأكثر من طرفة عين حتى يطاع ،
كما يكفي ان يظهر سروره او غضبه حتى يعرف الناس حقيقة فكره . هذه هي ملذات النبلاء ،
وهذه هي ثروات الأسياد في جوهرها . وهذا ما سيلغيه اولئك الذين سيلجأون الى الخداع
والاختلاس ! وحين يبلغونه ، لن يطالبهم احد بمخالفاتهم ! فمن ذا الذي يرضى آنذاك باقتفاء
أثر المثقفين الطامعين ، وإيثار الاملاق والبؤس على المجد والملذات ، والتخلي عن الراحة والحرية

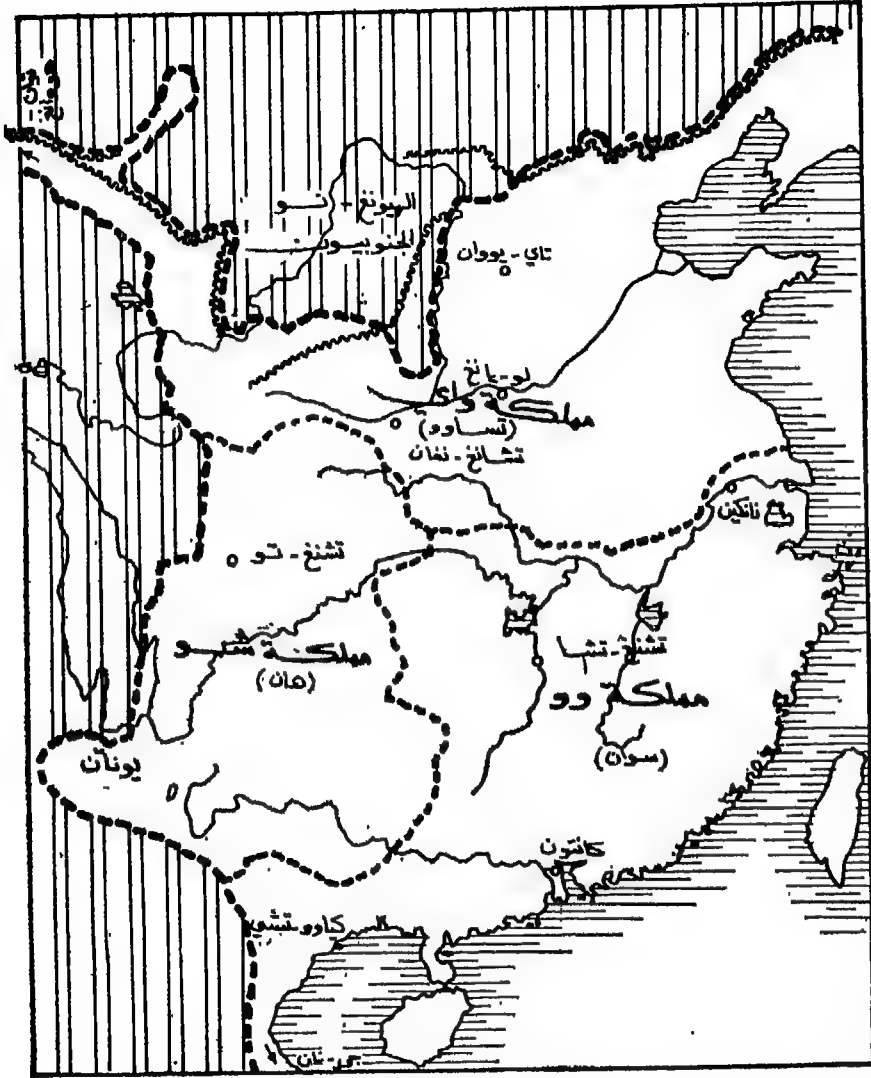
لعبودية الواجبات ؟ » ولكن هنالك ، الى جانب هذه البجوحة ، مدناً متهدمة ومناطق مقفرة من السكان . ويستنتج تشونغ - تشانغ تونغ بحفظة قلقة : « لا اعرف الى أين نحن سائرون ... » . نادى برنامج السياسي بالغاء الارستوقراطية ، وباصلاح زراعي يحدد مساحة الاملاك ، وبسن قوانين جزائية أشد صرامة - على انه لم يطالب بحكم الاعدام إلا للجريمة القتل والثورة وسفاح ذوي القرابة . واقترح تخفيض مساحة التقسيمات الادارية بغية تسهيل رقابتها . وطالب بتدقيق ضبط جداول الضرائب وسجلات السكان ، واعادة تنظيم الشرطة بتوزيعها فرقاً تضم عشرة وخمسة رجال ، وتشجيع الزراعة وتربية دودة القز . وأعلن الحاجة الملحة الى التربية والتطهير الاخلاقي بإشهار الأعمال الصالحة ، والحاجة الى حسن اختيار النخبة الادارية المدنية والرؤساء العسكريين ، وطالب اخيراً بقوانين صارمة ضد التجاوز والاخلال وبعقوبات ضد المشردين وبالتحقيقات في ابتزاز الاموال .

وكي يتحقق كل ذلك ، يجب الاعتماد على نخبة ذات سلطة قدرها تشونغ - تشانغ تونغ حسابياً بالاستناد الى نسبة السكان الأصحاء . فجاء بما طلع به برنامج دكتاتورية تضمن ، في ما تضمن ، زيادة مرتبات الموظفين ، وزيادة الضرائب ، وسلطة الادارة المطلقة . لسنا ندرى ما كان من شأن الاصلاحات التي اقترحها هؤلاء الفلاسفة ان تصنع من خير . فقد بلغ من الازمة الاجتماعية ما جعل التوازن مستحيلاً اذا لم تجتز الصين شدائد عظيمة . ولم تعط محذيرات الفلاسفة والمثقفين أية نتيجة في عالم فاسد ومتقلقل . فتمت نبوءة تشونغ - تشانغ تونغ بمحذافيرها : في السنة ٢٢٠ من العهد المسيحي ، انهارت سلالة الهان وتفتت السلطة ، وفي السنة ٣١٦ توغل البرابرة - التتر او الهون والمغول الاولون - في الشطر الشمالي من الامبراطورية . ولن تستعاد الوحدة قبل السنة ٥٨٩ .

طيلة ستين سنة ، من السنة ٢٢٠ حتى السنة ٢٨٠ ، انقسمت الصين بين سلالة الممالك الثلاث تساو تساو في الشمال ، وسلالة سوان كيوان في نانكين ، وأباطرة الهان والسلالات الست اللاحقين في سو - تشوان . لم تستطع البلاد ان تنهض من كبوتها بفعل هذه التجزئة السياسية . فحصل نقص عظيم في السكان . وأخفقت ثورة الفلاحين . واخذ الجور الاقطاعي يزداد وطأة بعد ان تنازلت الحكومة المركزية عن اخاذات واسعة ومنحت أسيادها سلطة مطلقة على السكان . أضيف الى ذلك اخيراً ان الحرب الاهلية قد استمرت . بيد ان عائلة سو - ما حاولت تحقيق وحدة سياسية ، فاستولت على مملكة الهان الشرعية في سو - تشوان في السنة ٢٦٣ ، كما استولت على عرش الصين الشمالية في السنة ٢٦٥ وعلى عرش مملكة نانكين الجنوبية في السنة ٢٨٠ ، وأعلن رئيسها نفسه امبراطوراً . وأطلقت السلالة الجديدة على نفسها اسم « تسين » . ولكن هذه الوحدة كانت قصيرة الامد (٢٦٥ - ٣١٧) ، وتعرضت منذ السنة ٣٠٤ لخطر غزوات البرابرة الذين سيستولون على كل الصين الشمالية وسيهمدون لتجزئة الاراضي لصينية طيلة أكثر من قرنين .

كان للتبدلات التي حدثت آنذاك مغزاها الهام : استسلمت السلالة الجديدة بسهولة للبذخ والترف ، فلم يدخل على الاخلاق العامة أي تحسن ، واستمرت الكونفوشوسية في الهبوط ،

وتسرب الى طبقة المثقفين رجال كثيرون غير اهل للانتماء اليها مؤملين بذلك النجاة من التسخير والعمل اليدوي. وطراً على مستوى الدروس تقهر جلي . وانتشرت البوذية ، وعرفت الطاوية ، وكأنها شعرت بحاجة للدفاع عن نفسها ، نوعاً من النهضة بوصفها فلسفة وديانة .



الشكل ٣١ - الصين في عهد الممالك الثلاث

كانت التبدلات الاجتماعية والاقتصادية اعظم التبدلات اطلاقاً . انخفض عدد السكان ، بفعل اضطرابات آخر عهد الهان ، الى ثلثي عددهم في عهد الهان : فقد ترك الموتى والمفقودون والمهاجرون والفارون فراغاً مشؤوماً في مجتمع صين سلالة التسين . فبرز مرة اخرى نظام « حماية » الكبار للصغار : غدا المرؤوسون متاعاً لأسيادهم ، واعتبر المستخدمون الحكوميون

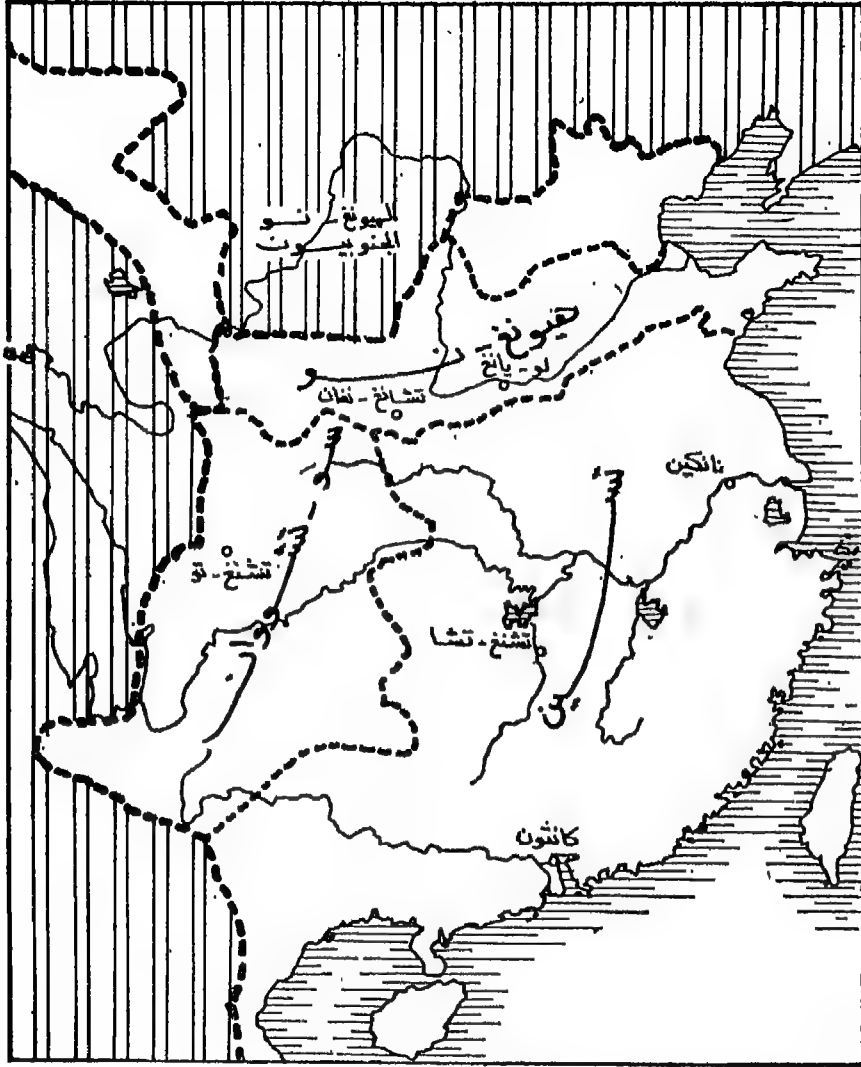
أنفسهم مرتبطين ارتباطاً خاصاً برؤسائهم: حتى أنهم لبسوا الحداد، بعد وفاتهم طيلة ثلاث سنوات، بحسب العرف السائد، وحصل المعلمون كذلك، لتلامذتهم على الاعفاء من أعمال التسخير، وخضع الزبن (كو) لسلطة كبار الملاكين، ولم تختلف حالهم عن حال العبيد (إلا بأنهم لا يباعون). وارتفع عدد الزبن والعبيد في عهد ولاية التسين. وقد لجأت الدولة، في مناسبات عديدة وظروف طارئة، الى مصادرتهم وتجنيدهم وادخالهم في فرق العمل، على الرغم من احتجاجات العائلات التي ينتسبون إليها.

غير أن دولة سلالة التسين، قد حاولت تشجيع العودة الى الأرض، بتشجيع الزراعة، وإحداث المستعمرات الريفية وتعمد أعمال الري. ويعتبر هذا المجهود أول نظام زراعي عرفته الصين. كان اساس النظام، كما في العصور القديمة، تقسيماً ادارياً هو القضاء (هيانغ). وتوزع الأراضي داخل القضاء على عائلات الفلاحين. كان لليفعان حق في استلام حصة كاملة، بينما لم يعط هذا الحق للصغار والشيوخ ولم يعط إلا جزئياً للفتيان والمتقدمين في السن. يجري التوزيع سنوياً، ولكنه لا يتناول سوى قسم من الأراضي، لأن اليفاع يستلم حصة يحتفظ بها حتى مماته: فتوضع حصته حينذاك تحت تصرف الجماعة. غير أن هذا التوزيع قد تنوعت أشكاله، في الأرجح، وفاقاً لكية الأراضي في القضاء، بسبب تفاوت عدد السكان في الأقضية. ويجب ألا نهمل أيضاً الاملاك التي يهبها الأباطرة، أو الأفراد للمعابد البوذية والطاوية، وقد ازدادت هذه الهبات السخية في عهد سلالة تانغ. أضف الى ذلك ان العائلات الكبرى المقيمة في أملاكها لا يسمح لها باقتناء بيوت أخرى، وحقول أخرى في العاصمة، وقد حظر عليها قانون صدر في السنة ٣٣٦، تحت طائلة الموت، تسليح أجزاء أراضيها، التي تشمل جبلاً ومستنقعات، بقية ائاحة دخولها لأفراد الشعب الذين يستطيعون بذلك جني العسل وصيد السمك. ولكن هذا القانون لم يعط نتيجة كبرى.

راقب تشجيع الزراعة موظفون محليون مكلفون، وفاقاً لمرتبتهم، تأمين محصول الأرض. كان لهم سلطة مطلقة على القرية وسكانها، فقد حق لهم، في سبيل غاية ما، مصادرة أدوات الصيد واسلحة القنص، بغية ارغام الفلاحين على الانصراف الى أعمال الزراعة وتربية دودة القز وإلى اعمال العناية بالاشجار المثمرة ويجدران صيانة المزروعات. وقد أضافوا أحياناً الى هذه التدابير العون السحري الذي توفره، بفعل الجاذبية، رايات خضراء تنصب في اليوم الاول من فصل الربيع، خارج المدينة على مقربة من ابواب سورها. كما أنهم فرضوا كذلك تقديم الذبائح لإله الأرض. بموازاة هذه التدابير، يجب ان ننظر في مسألة النقد والضرائب أيضاً. فنجد انهيار الهات حدث انخفاض أكيد في تداول النقد المعدني: إذ ان صفقات كثيرة قد تمت لقاء اثواب حريرية او منسوجات، وأن بعض الضرائب جمعت عيناً.

يبدو ان الضريبة العقارية لم تحدّد بشدة في أيام التسين. ويبدو انها تنوعت تنوعاً كبيراً بحسب المناطق والسنين. ان معلوماتنا بهذا الصدد لملي بعض الغموض ولكن ما لا شك فيه هو ان هذه الضريبة قد اقتطعت ابداً من دخل السكان واستوفيت حريراً ووبراً وحبوباً بنوع خاص، وقدّرت بالنسبة لعدد اليفاعين ثارة ولأهمية الاملاك ثارة أخرى، على ان هذه الطريقة

الأخيرة قد أُلغيت في السنة ٣٧٧ ، ولكن الطريقين ربما اعتمدتا في آن واحد قبل هذا التاريخ، وقد شكل ذلك ضريبة مزدوجة لبعض الافراد . ويغلب ان هذه الضرائب كانت ثقيلة اذا ما اعتمدنا على شهادات المعاصرين .



الشكل ٣٢ - الصين حوالي ٣١٦

كان من الجائز الاعتقاد بأن محاولات التوسيع لتوحيد الصين بعد الفوضى التي عمت البلاد في اوائل القرن الثالث ستعطي ثمارها. ولكن شيئاً من ذلك لم يحصل، وكانت نتيجة ضعف السلالة الجديدة تدفق الغزوات الكبرى على الصين الشمالية . فقرت السلطة الامبراطورية امام البرابرة والتجأت الى نانكين التي جعلت منها مركز ادارة الحكم في الصين الجنوبية . ورافقت هذا

الانتقال هجرة السكان الشماليين - الذين اسهموا ، بمجرد وجودهم ، في « صينة » هذه المناطق التي لم تستعمر إلا منذ عهد قريب نسبياً . فقد تراوحت نسبة المهاجرين بين الطبقات الحاكمة بين ٦٠ و ٧٠ ٪ ، ويمكن تقدير الشماليين « المرتحلين » بليون شخص تقريباً . أدخلت هذه الموجة خللاً عظيماً على الاقتصاد ، واعتبر المهاجرون أنفسهم ، في البداية ، في اقامة مؤقتة ، ولم يفقدوا الامل في عودة قريبة الى اخاذاتهم في الشمال . واتخذوا من موقفهم هذا حجة لاهمال واجباتهم المدنية . ولكنهم أرغوا منذ السنة ٣٦٤ على اتمامها ، على انهم حصلوا قبل ذلك على املاك واسعة ، مما أتاح لهم السيطرة على حشد ضخم من الزبن الوراثيين .

بينما كانت حياة المهاجرين ، في الصين الجنوبية ، سائرة في طريق التنظيم ، وبينما كان الادب والفن فيها ، على ما انطوى عليه من تشويش ، سائرين في طريق الازدهار ، عرفت الصين الشمالية ، في قبضة امراء الهون الظافرين ، اختلاطاً وبؤساً لا يوصفان . حافظت حكومة الغزاة على طابع عسكري صرف ، وبرز تقهر ثقافي خفيف . كان الاسياد الجدد بরাيرة أميين عاشوا جميعهم حياة المغامرات التي قادتهم الى فتح مناطق الشرق الغنية ، على انهم لم يفقدوا الى الذكاء والعاطفة الانسانية ، كما انهم حرصوا على ان تربطهم أطيب العلائق بالمتقنين الذين أطلعهم على نتاج الكلاسيكيين الصينيين ، لا بل تأثروا بالبوذية نفسها . ولكن معاضل خطيرة ، تفوق طاقات هؤلاء البدو السابقين ، جعلت حكمهم عديم التأثير . فقد أنهكت السكان الاضطرابات التي سبقت دخول الهون الى الصين وأفقرهم استلاب المدن والارياف على أيدي هؤلاء الاخيرين وأحرق بهم خطر المجاعة ، فعاشوا في بؤس مريع وضعف قواهم ، واستهدفهم جور اسياهم . وقد زاد الصراع العنصري بين الصينيين والهون في خطورة الوضع وشل جهود الحكومة الجديدة في سبيل اقامة سلطة ثابتة .

ستعرف الصين ، بعد هذه الاضطرابات وهذه التجزئة الفاجعة ، أياماً باسمه تفتتح فيها الثقافة الصينية تفتحاً بهياً . ولكن لا بد للفكر من تخض طويل وايناع شاق حتى تقطف الصين أخيراً ثمار هذه الاختبارات المؤلمة .

٢ - النطاق الديني

يغلب ان هذا العهد المديد ، والمضطرب ، والمعقد ، والغني بكل جديد وكل كارثة ، قد ولد في من عاشه سخطاً وقنوطاً . فهو قد قام على المتناقضات ، اذ اننا نرى فيه ، جنباً الى جنب ، ازدهاراً عجبياً عند البعض ، وغوراً مطبقاً عند البعض الآخر ، كما نرى البذخ والبؤس ، والبجوحة والمجاعة ، والسمو والانهيار . تجاوزت في هذا العهد الحرافة والواقعية ، وذابت فيه الأفئدة بكلمة رافة ، ودعا اليأس العميق الى الثورة ايضاً . في هذه الاضطرابات والازمات ، جاءت الديانات وألقت بمنازعاتها الخاصة ، كما سعت الى توفير التهدئة والطمأنينة .

ان أهم حدث على هذا الصعيد هو دخول البوذية الى الصين في منتصف القرن
دخول البوذية الاول للبلاد . كانت الطاوية آنذاك منتشرة في كافة الاوساط ، وسندرس
ميزاتها فيما بعد ، ولكن تسرب البوذية كان له أثره وتفاعله فيها ، ولذلك رأينا لزماً علينا ان
نتكلم عن البوذية أولاً .

يبدو هذا التسرب مرتبطاً بفتوحات الصين في آسيا الوسطى . فان الصينيين ، الذين اقاموا
فيها منذ القرن الثاني قبل المسيح ، كانوا على صلة مباشرة بالبختيار وفارتيا والهند وأقاموا علاقات
دبلوماسية مع الملوك الكوشانيين . ولعل المبشرين الاولين دخلوا تلك البلاد في أعقاب دخول
التجار الذين أحضروا الى الصين يشب خوطان وطنافس فارس وكشمير وعادوا بالحرير الى
الغرب . ولكن الاسطورة ترى رأياً آخر : فهي تقول ان امبراطور الهان ، منغ ، رأى في
الحلم ، في السنة ٦٤ بعد المسيح ، انساناً من ذهب يقترب اليه طائراً . في صباح اليوم التالي ،
طلب ان يفسر له حلمه فتكلم له احد وزرائه عن بوذا ؛ وتضيف الاسطورة انه قرّر حينذاك
ارسال وفد الى الهند أحضر له كتباً وقمائن وكهنة هنوداً . مها كان من أمر هذه الاسطورة ،
فالواقع هو اننا نجد ، في أيام هذا الامبراطور ، اول ذكر لطائفة بوذية في الصين ، أقامت الى
الشمال من كيافنغ - سو الحالية في املاك ملك تشو . في السنة ٦٥ ارسل هذا الامير الى البلاط
الامبراطوري ثلاثين ثوباً حريراً تكفيراً عن أخطائه : بعد ان صدر عفو عام من عقوبة الموت
اذا سدد الخالفون المفروض عليهم أقنعة ومنسوجات . فأعلن الامبراطور براءته آتياً على ذكر
« ذباح بوذا الخيرة » التي مارسها ملك تشو ، وأرفق المرسوم الامبراطوري بالمنسوجات « كي
يستخدمها في تأمين الغذاء الوفير لل « اوباسكا » وال « شرامانا » : وهذا لا يعني من ثم الرهبان
فحسب ، بل المؤمنين العلمانيين ايضاً ، أي المهتدين . ولكن الحقيقة الثابتة هي ان البوذية بدت
للصينيين وكأنها شيعة طاوية ، او طريقة لبلوغ الخلود تحتلف بعض الاختلاف عن طريقة الطاويين
آنذاك . فلا يجوز اذن ان نستخلص من ذلك ان ملك تشو نفسه قد اعتنق البوذية ، فهو قد
مارس في الأرجح عبادة توفيقية معترفاً ، في الوقت نفسه ، ببوذا و ب « هوانغ - لاو » ، الإله
الرئيسي في الديانة الطاوية آنذاك .

لم تمت هذه الطائفة الطاوية البوذية ، او البوذية فعلاً ، بموت حاميتها الذي انتحر في السنة
٧٣ . فقد ورد ذكرها في الفترة ١٧٢ - ١٧٨ والفترة ١٩٠ - ١٩٤ اللتين أضيفت فيها بعض
الأبنية الى الدبر : « ستوبا » مدفنية ، و « ستوبا » أخرى مؤلفة من عدة طبقات يحيط بها
معبد يتسع لثلاثة آلاف شخص ، اذا صدق الراوي .

ولكن طائفة بوذية أخرى تأسست في العاصمة لو - يانغ نفسها ، على أيدي مؤمنين أتوا من
كيافنغ - سو ، في الأرجح . وقد بلغ من غوها فيها ان الامبراطور ، هوان ، أحيا في القصر ،
حوالي السنة ١٦٦ ، احتفالات بوذية وطاوية . وقد سبق في السنة ١٤٨ ان نقلت بعض الكتب
البوذية الى اللغة الصينية على يد الفارتي نغان شي - كاو ، ثم واصل النقل مبشرون آخرون
نذكر منهم الهندي تشو - شو - فو والفارتي تشي تشان . وكان أثر الطاوية هنا وفي كيافنغ - سو

قويًا جداً إذ ان النقل قد اعتمد لغة ملأى بالمصطلحات الطاوية . ويستدل من اختيار الكتب المنقولة ان النقل قد تناول المواضيع التي اهتم لها الطاويون : كتب اخلاقية وكتب تأمل . وقد اقتصت هذه الاخيرة بالممارسات التحضيرية للتأمل ولا سيما التمارين التنفسية والمواضيع نفسها المفروضة للتأمل . وجلي ان المهتدين الصينيين انفسهم هم الذي قاموا بهذا الاختيار : ولم يهتموا لمعرفة المميزات الاساسية في البوذية بقدر اهتمامهم لاكتشاف الصلات بين هذه الديانة وديانتهم . وفسرت بعض الكتب البسيطة الحياة الدينية للموعوظين ، وبالغت في افهامهم واجبات سلوكهم في الاحتفالات الدينية : يجب سماع الشريعة مراراً كثيرة ، دوغما اهتمام الى طول العظة وقصرها ، والاصغاء اليها بكل انتباه ، دوغما تفكير بأي شيء آخر ، والتأمل ملياً بما ورد على لسان الرعاة ، وبلي ذلك تعداد المبادئ الاولى للأخلاق والتقوى : الشرور العشرون التي تحول دون تقدم المؤمن ، الخطيئة ، الفضائل الثلاثة عشر ، الخ . ثم تقترح مواضيع التأمل بمثل هذه البساطة متدرجة من المحسوس الى المجرّد .

بيد ان هذا الالتباس الذي قام ، عن قصد او عن غير قصد ، بين البوذية والطاوية ، قد زال شيئاً فشيئاً ، ومرد ذلك الى ان البوذية الصينية وعت واقمها وحقوقها وحاولت اثبات شخصيتها . منذ اواخر القرن الثاني بعد المسيح ، انتهى «طاوي» سابق اعتنق البوذية ، واسمه مايو - تسو ، الى رفض مبادئه - لاو - تشو رفضاً كلياً والتمهيد للكونفوشيوسية التي اعتبرها مذهب الدولة .

افادت البوذية ، منذ دخولها ، من حماية بلاط اقليمي ثم من حماية بلاط الإمبراطور نفسه ، فبلغت من القوة الراسخة ما سيتيح لها المقاومة والبقاء في احقاب الاضطراب التي ستلي سلم الهان . واستمر البوذيون الاجانب في دخول الصين معتمدين في أسفارهم طرقا القوافل او الطرقات البحرية : فبين السنة ٢٢٣ والسنة ٢٥٣ ، قام ابن سفير هندي - غزّي بنقل مؤلف بوذي جديد الى الصينية ، هو « اميتاها - سوترا » ، وفي السنة ٢٤٧ ، جاء تاجر سوغدياني من اقليم سمرقند ، مروراً بالهند والهند الصينية ، واخذ يبشر في نانكين . وبين السنة ٢٨٤ والسنة ٣١٣ ، قام الهندي - الغزي ، تشي فا - هو ، والهندي ، تشو شو - لان ، في سي نغان - فو ، بنقل مؤلف سادهارما - بونداريكا (بشنين الشريعة الجيدة) الشهير من اللغة السلسكريتية الى اللغة الصينية .

لعبت البوذية ، دون ان تفقد طابعها التبشيري والتحضيرية ، دوراً كبيراً في الظروف المؤلمة التي قسمت الصين في عهد التسين . فقد بعثت نصائح الرهبان البوذيين ، في زعماء القرن الرابع البرابرة ، بعض الخنو والشفقة في الصين الشمالية . كان احد هؤلاء الرهبان ، المدعو فو - تو - تنغ او فو - تو - تشنغ ، والمولود في كوكا من أبوين هنديين في الارجح ، قد وصل الى الصين الشمالية في السنة ٣١٠ ، أي قبيل الغزو بالذات . وكان قد زار قبل ذلك كشمير وأوساطاً بوذية كبيرة أخرى . وكان قصده من الهجيء الى الصين تأسيس مركز ديني في العاصمة الامبراطورية . لكن هجوم الهون المفاجيء في السنة ٣١٦ حال دون تحقيق مشروعه ، فرأى فو - تو - تنغ ، بدافع

روحه التبشيرية الحقيقية ، الكسب الذي يستطيع جنيه من الحقل الجديد المنبسط امامه ، فوطد علاقته بالرئيس ، تشي لو ، المشهور بقسوته ، ثم بابنه وخلفه ، شي هو ، الذي لم يكن دونة قسوة . توفى في الدرجة الاولى الى اقناعها بالاقلاع عن المشاريع الدموية ، اذ ان تشي لو بنوع خاص كان مصمماً على تقتيل كل تقي مدين . وسعى طيلة ٣٧ سنة الى تحسين طبائع هؤلاء الزعماء وظروف حياة السكان الصينيين . وأخذ يبرهن عن سحر قوة البوذية في حقول مختلفة : كالزراعة ، والحرب ، والطب ، والسياسة ، واستغل بمهارة فائقة سذاجة ايمان البرابرة ، فأوهمهم بقدرته على « استئزال المطر » ، وأعطى نصائح حصيفة في أصول فن الحرب ، وشفى من بعض الامراض (ممارسة الطب الهندي ، في الارجح) ، وبذل جهوداً متواصلة في سبيل استمرار التحالف بين حماته وفضح دسائس أعدائهم . فحظي بشعبية كبرى وحصل على ثقة زعماء الهون ، واعتبر حينذاك ان باستطاعته نشر عقيدته . وكان الظرف مؤثماً حقاً لأن البوذية كانت قد تسربت الى اوساط المثقفين ولأن الفلسفة الطاوية كانت ميالة للاعتراف ببعض النقاط المشتركة التي تقرها اليها . غير ان الشعب ، لا سيما في الصين الشمالية ، كان ، عملياً ، يجهل كل شيء عن هذه الديانة ، ويغلب ان معظم الرهبان البوذيين الذين كانوا في الصين قبل غزوة الهون قد لاقوا حتفهم خلال انقلابات القرن الرابع . كانت المهمة عظيمة ، ولكن بدا ان ساعة الاصلاح قد أزفت . فقام فو - تو - تنغ ، بمساعدة زعماء الهون ، يجمع التلاميذ وبتشييد المراكز الدينية المعدة للعب دور تبشيري في كافة المناطق حتى النائية منها ، وأدخل رهبانه الى البلاط وتدبر أمره حتى يكون لهم أثرهم في النطاق العام والنطاق الخاص على السواء . فوسعت هذه التدابير الاخيرة ، بطابع خاص ميز ، بوذية الصين الشمالية التي غدت بذلك ديانة شعبية منظمة بغية العمل مع الشعب ، وكان معنى ذلك ، من جهة ثانية ، اسهاماً حكومياً في ادارة المعابد وعل المترجين والفنانين والمفسرين . وباستطاعتنا القول ان كل ذلك قد ترك صدهاء العميق في وحدة الصين في عهد سلاقي « سواي » و « تانغ » .

كرس شي - هو عمل فو - تو - تنغ ، فأصدر مرسوماً يحيز تأسيس جمعية رهبانية بوذية . فواصل أعضاؤها بإدارة رسالة هذا الراهب العظيم الذي كان لعمله الديني والتبشيري والتاريخي تلك الأهمية العظيمة . ومنذ الساعات الاولى انضمت الى الرهبان بعض الراهبات . فدخلت « صيننة » البوذية ، بفضلهم جميعهم ، مرحلة التحقيق في الشمال والجنوب على السواء . فسار على خطى الملكين تشي لو وشي هو ، في شن - سي ، الملك فو - كيان (٣٥٨ - ٣٨٥) الذي حمى المبشر الشهير كوماناراجيفا ، المولود من أب هندي وأم تنتمي الى كوكا في كشافاريا . بعد ان استقر هذا الاخير في تشانغ - نغان ، نقل من السنسكريتية الى الصينية عدداً كبيراً من النصوص البوذية ، ولا سيما « سوتر المكارا » للشاعر الهندي « اشفاغوشا » ، وكتاب « فراديس الطهارة » (سوخافاتي) ، والنظام الرهباني لمدرسة ال « سرفستيفادين » ، وأبحاث مدرسة ال « مادهياميك » ، الخ .

ينم مجموع هذه الترجمات عن انتقاء تفضيلي في النصوص الهندية . وقد برزت في ممارسة البوذية

في الصين ، في عهد مبكر ، طريقة ستفضي في العهد اللاحق الى الأميدية التي نجحت ذاك النجاح الباهر في الصين وفي اليابان : فقد تأسست منذ عهد التسين اخويات المتعبدين لـ « اميتاها » (اميدا في اليابانية) واخذت تعقد الاجتماعات بغية القيام بتارين تقوية وتأدية صلوات مشتركة . ونعت عبادة الـ « بودهيستافا » العظماء نمواً كبيراً ، بأسماء صينية صرفة منقولة عن السنسكريتية : « فالو كيتشفارا » ، « الرحيم » أصبح « كويان - ين » ، الذي يخلص المبتهلين اليه من كافة الاخطار ومن الموت المفاجيء ، و « كشييتفارها » أصبح « تي - تسانغ » الذي يتجول في الجحيم وينجي الهلكى .

تستازم الحياة الدينية درجتين : الحياة الرهبانية والحياة العلمانية . الراهب يمتنع عن الزواج وعن اقتناء أملاك خاصة ، يعتمد في معيشتة على الاحسانات ، ولا يأكل إلا مرة في اليوم قبل الظهر ، وينصرف الى التأمل . ويكتفي المؤمنون العلمانيون بأعمال البر . ولكن البوذية الصينية ، على غرار الطاوية التي تحيي امام علمانييها احتفالات يتجلى فيها البذخ والأبهة ، لم تكتف بالعبادة البسيطة التي درجت عليها ، أي السجود وتقادم الزهور والبخور . فقد أحدثت آنذاك احتفالات للتكفير ، واحتفالات للحدود الموتى ، واحتفالات للأشخاص الذين انتهوا الى مصائر سيئة : الجحيم ، الأبالسة الجياح ، النح . تقرأ في هذه الاحتفالات مقاطع من الكتب المقدسة وترنم الصلوات ويشترك فيها المؤمنون ، على ان الكهنة يحتفظون بالدور الرئيسي . واتصفت بعض الاحتفالات بمزيد من الحياة : « في الاحتفال المقام لخلاص الحدود الموتى (ويغلب أنه صيني صرف) ، يقوم احد الكهنة الهنود ، وعلى رأسه قبعة بشكل زهرة البشنين ، وفي يده عصا قصديرية ذات حلقات رنانة ، بتمثيل دور تي - تسانغ متجولاً في الجحيم ومرغماً الأبالسة على فتح ابواب سجون الهلكى ، وللدلالة على فتح كل باب ، يحطم أثناء خرقه بضربة من عصاه السحرية . اما الميت الذي ينجو على يده ، فيجتاز النهر الجهنمي في مركب ، بينما يقلد بعض الرهبان الصغار حركة الجذافين مدخلين على نشيدهم مزاحاً لا يتخلو من التطرف . وفي احتفال تخليص الغرقى ، تلقى في النهر اساطيل ورقية من زهر البشنين التي تحمل كل منها شمعة مضاءة ، يستخدمها الغرقى كراكب تقلهم الى « الضفة الاخرى » فينجون . (هـ . مسبرو ، الديانات الصينية) .

تجمع المهتدون الاولون طوائف علمانية حول المبشر والمبهد الصغير . ثم اخذ الصيونيون ، في القرن الثالث ، يترهبون بأعداد كبيرة ، ففقدوا المعبد الصغير ديراً . ثم شيدت أديرة أخرى ازدادت ثرواتها تدريجياً بازدياد المؤمنين وتكاثر احساناتهم التي هي افضل وسيلة لمكافأة الاعمال . فأعطوا الطوائف الاراضي والمساكن والمعبد والمال . ومنذ القرن الرابع كانت هذه الاملاك واسعة جداً ، وقد اقام فيها العديد من الرهبان المثقفين ، وقد اعفي هؤلاء وأراضيهم ومزارعهم من الضرائب ، ولذلك فقد اتفق كثير من الفلاحين وصغار الملاكين مع الرهبان على ان يتنازلوا لهم صورياً عن ممتلكاتهم : فكانوا بموجب هذا الاتفاق يؤدون لهم بعض الخدمات متأكدين بالمقابلة من انهم لن يدفعوا ضرائب ولن يلزموا بأعمال التسخير او بالخدمة العسكرية .

تولى ادارة الاديرة رئيس قام تأثيره العظيم على قيمته الاخلاقية فقط . عاونه أمين صندوق وذوو رتب مختلفة . وشملت سلطته الاملاك والسكان . وكان يحاكم بحسب الانظمة الرهبانية حتى ولو أتى عملاً يخاله القانون المدني .

نشأت في القرون الاخيرة التي سبقت العهد المسيحي ، وانتشرت خصوصاً في عهد الطارية الهان والسلالات الست ، حين كان العالم الصيني في غليان سياسي وديني . « لعبت في عالم الشرق الأقصى دوراً مماثلاً لدور عبادة اورفيوس والامرار في العالم اليوناني » (هـ. مسبرو)، وهي في جوهرها ديانة خلاص . فأثارت من ثم مسألة الخلود ، بفهومها الصيني ، أي بشكل تتفوق فيه المادية على الروحانية . فليس هنا للنفس دور المقابل الروحي الغير المنظور للجسد المادي المنظور ، الذي قال به العالم اليوناني الروماني . ان نفوساً كثيرة – عشر في مجموعها – تقطن الانسان الذي ليس له بالمقابلة سوى جسد واحد يحاولون بلوغ الخلود فيه . فالمطلوب اذن اطالة دوامه او بالاحرى ابداله ، خلال الحياة ، بأعضاء خالدة تحل تدريجياً ، بقوة الممارسة الدينية والتقشفية ، محل الاعضاء الزائلة ، وتتيح للمؤمن الخلاص من الموت و « الصعود الى السماء في وضوح النهار » . فلا يكون موت هؤلاء الخالدين من ثم سوى موت ظاهر فقط : وليس ما يودع في التابوت سوى سيف او عصا اعطاها الخالدون ظاهر الجثة بينما هم انتقلوا كي يعيشوا بين الخالدين .

اما تحول الجسم الزائل الى جسم خالد فيتم بحياة دينية فردية، وبحياة اخلاقية واعمال فضيلة، وبتمارين جسدية ، وبعلائق ذاتية بالآلهة . وفي الاساس من الصوفية الطاوية الامتناع عن الحبوب ، والتنفس الجيني . ولا تحظر الحمية الحبوب فحسب ، بل النبيذ واللحم والنباتات ذات الطعنة القوية كالصل والثوم . اما التمارين التنفسية فتستهدف تعليم « حصر النفس » للتغذي منه ، بعد التغلب على كافة الاضطرابات الجسدية التي قد يتسبب فيها هذا الحصر . ويمكن ان يمد التنفس الجيني لاستخدام النفس ، أي الى شتى أساليب تنقل النفس في الجسم . ولكن يحذر لبلوغ ذلك تدريب التمارين بغية الحصول منه على نتيجة أكيدة . وتوافق هذه التمارين عقاير تحضر كمياتها وتوزع بكل فطنة ، لا سيما الزنجفر الذي يصعب الحصول عليه بسبب ارتفاع ثمنه . بيد ان الانسان ، حتى ولو بذل هذه الجهود في سبيل بلوغ الخلود ، لا يستطيع الخلاص من مصيره اذا مات في سن الشباب ، فبلوغ الخلود يتطلب وقتاً طويلاً ، ومقرر المصير يضبط بدقة كتاب الموت وكتاب الحياة ، ونادرون جداً هم الذين تدون أسماؤهم في هذا الاخير قبل ولادتهم . ويحذر لضمان هذا التدوين ارفاق هذه التمارين الجسدية بتقنية روحية تقضي الى المشاهدة الداخلية والتأمل والاتحاد الصوفي .

يجب في الدرجة الاولى ان يعيش المؤمن عيشة طاهرة ويأتي اعمالاً صالحة : اطعام الايتام ، وتهدد الطرقات ، وتشيد الجسور ، وتوزيع الثروة على الفقراء ، وتخليص القريب من الاخطار ، ووقايته من الامراض ، وتجنبيه الموت المعجول . ولكن عدد الخطايا يفوق عدد الاعمال الصالحة الى حد بعيد ، ويكفي عمل سيء واحد لافقاد الافادة من كافة الاعمال الصالحة . إلا ان تلافي

ذلك ممكن اذا مورست بعض الطقوس . فغالبا ما يبحث الآلهة والخالدون عن المؤمن الجاهل ، ولكن الواجب يقضي على المستنيرين بأن لا يقفوا هذا الموقف السلبي : عليهم ان يخطوا الخطوة الاولى ويبحثوا عن الآلهة الذين يستطيعون وحدهم تأمين الخلاص لهم . وهؤلاء الآلهة أكثر من ان يحصوا ، ويجب ان نرى في تعيينهم أثرا للزون البوذي . فهم موزعون بحسب تسلسل كثير المراتب يؤلف الخالدون فيه الوسطاء بين الآلهة والبشر . وكلما تقدم الاتباع المستنيرين أصبحت لهم صلة بالخالدين وتسلقوا درجات هذا التسلسل وغدوا تدريجيا من خاصتهم . ويقلد نسب الآلهة هذا التسلسل الامبراطوري وادارته ويعيش على غرارها في القصور . وغالبا ما ينحدر الآلهة الى الارض ويقيمون في مغاور الجبال ، ولكن لا يخدم كل من يريد وجودهم اذ ان البحث عن الآلهة في العالم عمل شاق وطويل ، اصف الى ذلك ان الاسفار باهظة النفقات ولا تتيسر للجميع .

هنالك سبيل مباشر للوصول اليهم لأنهم ليسوا في العالم فحسب ، بل في كل فرد ايضا ، والانسان عالم صغير ، وهو يجمع في داخله ، بهذه الصفة ، آلهة العالم الكبير . فبالامكان اذن ، يجمع الأفكار في التأمل ، الاتصال بهم ، وهذه تقنية تقتضي علما وتدريباً لأن المشاهدة في البداية على كثير من الغموض . ولا تتحسن إلا بالتمرين ، فتتضح التفاصيل تدريجياً مظهرة الآلهة بكل مميزاتهم .

غير ان المشاهدة الداخلية ليست سوى عتبة الحياة الروحية : فيجب الوصول الى المشاهدة العليا ، وهي انخراط حرّ طليق ، التي تتيح بلوغ الطريق ، « طاو » ، أي الحقيقة الفائقة الدائمة الوجود التي يتحقق الاتحاد الصوفي بها . ولكن يبدو ، اذا كان هذا هو الهدف ، ان الحياة الصوفية لم تعرف رواجاً في الطاوية اذ ان المؤمنين قد استهوا اقل الممارسات سمواً .

تأسست الديانة الطاوية أصلاً لجمهور المؤمنين ثم تنظمت تدريجياً متخطية الى حد بعيد إطار الطبقات المحظية حتى تشمل الشعب بأكليته . وحين برزت ، في السنة ١٧٤ ، بوادر ثورة العمام الصفراء ، كانت قد أصبحت ديانة راسخة التنظيم خاضعة لقانون على بعض الصلابة على الرغم من مظهرها الوالدي . وخضعت طوائفها ، على الرغم من المسافات الطويلة التي فصلت بينها ، لنظام واحد . وقام في أعلى سلم مراتبها ، عند العمام الصفراء ، الى الشرق ، رئيس أعلى يعاونه رئيسان آخران . وجاء بعده السحرة (فانغ) الذين تقاسموا ادارة الاقضية : كبار السحرة (تا - فانغ) يديرون شؤون عشرة آلاف مؤمن فما فوق ، وصغارهم (سياو - فانغ) بين ستة وثمانية آلاف . وجاء اخيراً الرؤساء الكبار الذين كانوا وسطاء بين السحرة وجمهور المؤمنين . واذا اختلفت هذه الأسماء عند العمام الصفراء في الغرب فان الرتب متعادلة تقريبا .

يستلم رئيس الطائفة ، المعلم (شي) ، وظيفته من ابيه ويسلمها بدوره الى ابنه ، او الى عمه او اخيه ، الخ ، اذا لم يرزق اولاداً . يعاونه مجلس رعية مؤلف من اعيان طاويين ، رجالاً ونساء ، ينعم عليهم برتب تسلسلية ؛ ويبدو ان عمل هذا المجلس كان ، في الدرجة الاولى ، تأمين الاموال اللازمة للعبادة . ويتولى الرئيس احصاء « رعاياه » ، فيدون الولادات والوفيات ،

ويسلم نسخاً عن « سجل المصير » يستضجها الميت الى العالم الثاني كي يحصل بموجبها على المعاملة التفضيلية التي يستحقها المؤمنون الاتقياء .

دور الرؤساء ديني في الدرجة الاولى : فهم مبشرون قبل أي شيء آخر ، وتجمع فرقهم عن طريق الاهتداء . وتحيي لهم العائلات ، في مناسبات مختلفة ، (ولادة صبي ، او بنت ، او موت احد افراد العائلة ، الخ .) احتفالاً أشبه بالعيد يقوم في جوهره على مأدبة وهدايا . ودور المعلمين ديني كله ايضاً : الجرائم تعتبر خطايا ، والامراض كذلك ، وتنال بهذه الصفة ، عقوبة صارمة : فيحكم على المرضى بدخول « بيت عزلة » - شبيه بالسجن - ويفرض عليهم تقديم خمسة مكابيل أرزاً في السنة . والغاية من ادارتهم نشر التقوى بين الجماهير ، وتوزع الرتب والالقاء ، وفاقاً لدرجة التقدم في الممارسة الدينية ، على الرجال والنساء على السواء ، لأن أبواب الحياة الدينية مفتوحة لكلا الجنسين دونما تمييز . وتستند هذه الحياة الى التمارين التنفسية ، والامتناع عن الحبوب ، وممارسة الفضائل والعناية بالصحة الجنسية ، وهي معدة لتوفير الصحة والحياة الطويلة والسعادة والبنين . في أقل من عشر سنوات استمال هذا التششف وهذه الاخلاق وهذه العناية ٣٦٠.٠٠٠ مؤمن ، الشيء الذي يفترض اهتداءات بالجملة . اما مظاهر هذه الحياة الدينية فجماعية : اعترافات علنية ، وشفاء بالجملة ، وصلوات مشتركة لشفاء المؤمنين . تقام أعياد كبيرة في توارينخ انقلاب الشمس واعتدال الليل والنهار ، يطلق على بعضها اسم « الصوم » وعلى البعض الآخر اسم « الجمعية » ، ولا يجتمع في الاولى منها سوى عدد محدود من المؤمنين (بين ستة وثمانية) تحت اشراف احد المعلمين ، في حال ان عددهم غير محدد في الاعياد الثانية . ولا تخضع الاعياد لطقوس ورتب معينة متماثلة ، بل تختلف بين شيعة وأخرى ، ولا يحتفل بها كلها في توارينخ ثابتة ، اذ ان بعضها تفرضه المناسبات ايضاً . بيد انها كلها تقام في الهواء الطلق في مساحة مقدسة . وتقوم بقرابين مختلفة هي ضحايا بشرية في الذبيحة الكبرى التي تقام لإله السماء ، وتوزع فيها ثنائم حربية معدة لمقاومة أبالسة الرقى الشافية التي توزع على المرضى . وفي « صوم » الوحل والفحم ، المعد لتجنب الامراض ، يطلى الوجه بالفحم والجبهة بالوحل ، ويستقيم المؤمنون منكسرين رؤوسهم ومرسلين شعراً متشعثاً يدخل أفواههم ، ويسيطرون عاقدين الاصابع . ويصومون طيلة ثلاثة أيام ويضيئون مصابيح المذابح ويمارسون التوبة ويلتمسون الرحمة للجدود الذين ماتوا او سوف يموتون . وترتدي بعض هذه الاعياد طابع الافراط في الاكل والانهك في السكر ويرافقها نكاح علني ، الشيء الذي يغتم له البوذيون . ولكن معظم الاعياد تتصف بالهدوء مستازمة اخراجاً يوفر جواً صوفياً فقط : المصابيح والبخور والموسيقى وضرب الطبول والصلوات المشتركة الطويلة والسجود ، وقد تدوم حتى خمسة او سبعة أيام ، ويقام منها اثنان في الشهر على الاقل .

لقد أسهمت هذه الاعياد وهذه الاحتفالات الى حد بعيد في نجاح الطاوية .

ان الكونفوشيوسية ، على نقيض الطاوية والبودية لم تهتم للفرد بسبل للأخلاق الكونفوشيوسية الحكومية في الدرجة الاولى . بدت وكأنها عقيدة رسمية وانحصرت في الطبقات الحاكمة لأن اكتشاف الديانة الشخصية يوجه اليها كافة الازدهان الشعبية . فالكونفوشيوسية اذن

نقيض الصوفية : اذ انها مذهب عقلي ملحد علياً . ولن نرى عقيدة المثقفين هذه آخذة في الانتشار إلا ابتداء من آخر عهد سلالة « تانغ » ولن تزدهر إلا في زمن لاحق ، في عهد سلالة « سونغ » وفي عهد الهان اللاحقين ، حين نجح مفسران مشهوران هما « ماجونغ » (بين ١٤٠ و ١٥٠) و « تشنغ هيوان » (بين ١٦٠ و ٢٠١) في اعطائها ، للمرة الاولى ، مظهراً متلاحماً . فأتت بجوهرها مذهب حكم مبني على مبادئ فلكية ومستنداً الى تعليم الكتب الكلاسيكية . وقد درجوا تقليدياً على نسبة هذا التعليم الى كونفوشيوس في حال انه ، في مجموعه ، اقدم عهداً . فقد كان هناك « كتاب التحولات » (يي - كنغ) ، و « كتاب الاناشيد » (شي - كنغ) ، و « كتاب الوثائق » (شو - كنغ) ، و « فصول الربيع » و « فصول الخريف » (تشوين - تسيو) و « كتاب الطقوس » (لي - كنغ) . اما التعليم فتقني ينطوي على صيغ عرافية وقصائد اخلاقية او تفسيرية النزعة ومختارات نظرية تتعلق بأخلاق الحكم والسياسة والحكومة والايخبار المحلية ووصف الاعياد والاحتفالات . واذا سعوا ، في عهد الهان ، لأن يستخلصوا منها عناصر علم المعقولات الذي سيوضع في عهد لاحق ، فقد سعوا خصوصاً لأن يكتشفوا فيها الحكم على النظام او تأييده . وقد بنوا على مشتملاتها تعليمياً فلسفياً لا ينطوي بعد على أية وحدة او بحث فلسفي ، ولكنه اتخذ ، للمرة الاولى ، شكلاً رسمياً . ثم تعددت مراكز التعليم تدريجياً : فبلغ عددها ١٥ في القرن الاول واقترح كل منها تفسيراً شخصياً ، واختلفت الآراء اختلافاً بينا احياناً ، ولكن الاختلاف تناول التفاصيل دون الجوهر ، وهو قد دار علياً حول تفاعل العالم المادي والعالم الادبي . ويتألف العالم من السماء التي تغطي وتلتج ، ومن الارض التي تحمل وتغذي ، وبينها الكائنات الحية والاشياء . الانسان أشرف هذه المحاصيل ، ويتمتع وحده بالوعي والشعور . ويسير العالم سيراً طبيعياً طالما لا يخالف الانسان الطريق ، « طاو » ، التي تسوس النظام كله ، او تعاقب المبدأين « ين » و « يانغ » ، اللذين ينظران توازنه . والحكم السيء ، قبل الافعال السيئة ، مسؤول عن اضطراب العالم الادبي ويستجلب الكوارث السبوية والارضية .

أقر الهان السابقون مذهب المثقفين فأصبح تعليمياً عاماً في كافة أنحاء الامبراطورية . وفي عهد الهان اللاحقين اشتملت « المدرسة الكبرى » ، الموكول اليها امر نشره ، على عدد ضخم من الابلية : فكانت أشبه بمدينة جامعية بقاعات دروسها ومكتبتها ومساكن معلمها وطلابها . وقد ألحقت بها في كل قضاء عدّة مدارس يتولى احدى المدرسين فيها تدريس كتاب او عدة كتب من مؤلفات الكلاسيكيين . ونحن نرجح ان عدد الطلاب كان مرتفعاً جداً في السنة ١٣٠ بعد المسيح اذ ان المجموعة البنائية بلغت ٢٤٠ والغرف ١٨٥٠ ، وقد استقبل فيها ، بعد سنوات ، ٣٠٠٠٠ مستمع بالإضافة الى الطلاب المسجلين . أسندت ادارتها الى رئيس ، وكان تحت امره المعلمين أساتذة مساعدون يتلقون تعليمهم وينقلونه الى الطلبة . اوجب نظام السنة ١٥٦ بعد المسيح درس مؤلفين كلاسيكيين في سنتين ، وأخضع الطلبة في آخر الدورة الى امتحان يحق للناجحين فيه حمل لقب وتقاضي مرتب . اما الراسبون فيضطرون لمتابعة دورة ثانية تمكنهم من

التقدم الى الامتحان مرة أخرى . واذا رغب البعض في متابعة دروسهم ، درسوا المؤلفين الكلاسيكيين الثلاثة الآخرين بعدد واحد في دورة تستغرق سنتين ، أي ان الدروس كلها تستغرق ثمانى سنوات يتخللها امتحان في نهاية كل دورة . ويقوم الامتحان بسلسلة من الأسئلة المكتوبة على لوحات خشبية ، صغيرة اذا كانت الاسئلة سهلة ، وكبيرة اذا كانت الاسئلة عويصة . كانت هذه اللوحات تعلق الواحدة قرب الاخرى ويختار الطلبة أسئلتهم بسهم يسدّونه اليها .

هذب هذا التعليم المنظم عقل الطبقات الحاكمة . وقد تطور بسرعة ما بين القرنين الثاني والرابع نحو إلحاد وخلق سياسي كان لها شأن كبير في ردود فعل المثقفين ابان الازمات المتعاقبة في ذاك العهد . ومن حيث هو مذهب اشراف ، لم يفسح مجالاً للفرد : فكل شيء مآله الى الآلة الكونية الضخمة . واذا ما حصل الانسان ثقافة ، فليس تحصيله لغاية شخصية بل للمساعدة على حسن سير العالم ، أي للتمكن من شغل الوظائف الرفيعة اذا احتاج احد الملوك الصالحين الى مستشارين . ولم يفسح المجال لبعض مبادئ الاخلاق الاجتماعية سوى التقوى البنيوية التي خصّص له كتاب هو « هياو - كنج » . ولكن هذا الشعور الطبيعي يوجب الأبناء نحو والديهم ليس في الواقع سوى عنصر من عناصر الحركة العامة : فنحن امام دستور دقيق الوصف يفرض بعض الاعمال نحو الوالدين الاحياء والاموات ويتخطى الى حد بعيد الأطار العائلي ، منظماً العلاقات بين الرؤساء والمرؤوسين ، وبين الرعايا والملك ، وبين البشرية قاطبة . ويؤدي هذا الدستور بالانسان الى تكامل ذاته من زاوية جماعية وكونية .

غير ان التلاحم الذي حققه المثقفون حتى القرن الثالث لم يصمد امام الهزات التي ذهبت بعد الهان . فأعاد الفوضى الى التعليم الرسمي انقسام الصين في عهد الممالك الثلاث . ولن ينهض المذهب الكونفوشيوسي قبل القرن السابع .

أنجز الصينيون ، خلال هذا العهد ، بتأثير من الاضطرابات التي فرضت النزعات الى توحيد الآراء على الافراد الى البحث عن عضد عاطفي في الديانة ، وتأثير من البوذية التي قدمت لهم علماً اخلاقياً بسيطاً وخلصاً فردياً ، الى مبدأ توحيد الآراء الدينية ايضاً الذي ترك أثره في الارستوقراطية الكونفوشيوسية نفسها . أضف الى ذلك ان اختلاطاً حقيقياً قد قام بين الطاوية والبوذية منذ دخول هذه الاخيرة ، واذا تجادل رجال الدين في بعض النقاط العقائدية ، فان عامة الشعب لم تعرّها أية أهمية : اذ ان اهتمامها الاول قد انحصر في الخلاص والحصول على الحينة الخالدة السعيدة . فلم يميز الشعب من ثم بين الفردوس البوذي والفردوس الطاوي ، وكلاهما محسوس ومفهوم .

تسرّبت عقيدة التقمص ، بتأثير من البوذية ، الى الطاوية التي تحولت آلهتها تدريجياً بفعل التأثير نفسه . وسلمت البوذية ، من جهتها ، بتسرب الحرارة الروحية التي كانت سائدة آنذاك ، واستوحت احتفالاتها تلك الاحتفالات التي احرزت ذلك النجاح العظيم لدى المؤمنين الطاويين .

وتوالت ، من جهة ثانية ، الظواهر «النفسانية الحارقة» التي رويت عنها بعض الحالات النموذجية : ففي اوائل القرن الثالث شرعت احدى المريضات فجأة بتكلم السنسكريتية وكتبت على الفور مؤلفاً سنسكريتياً من عشرين فصلاً تبين بعد ذلك انه « سوترا » بوذية . وحدث في اواخر القرن الرابع ان ابنة احد معلمي المدرسة الكونفوشيوسية الكبرى قد أملت باللغة الصينية ، بين سن التاسعة وسن السادسة عشرة ، قرابة عشرين مؤلفاً بوذياً نزل الوحي عليها بها . وتسربت كذلك بعض الآراء البوذية الى مذهب المثقفين ، ومنها التقمص بنوع خاص .

سيزداد هذا التسرب المتبادل خلال القرون اللاحقة على الرغم من المحاولات التي بذلت هنا وهناك وهتالك للحفاظ على نقاوة العقيدة . غير ان البوذية والطاوية قد أنهكها صراعها في سبيل كسب النفوس الصينية ، فكانت الغلبة في النهاية للكونفوشيوسية . ولكن ذلك لم يحدث قبل سلالة « تانغ » .

٣ - الاكتشافات التقنية والعلمية

ان العهد الذي نحن بصددده هو عهد الاكتشافات الآلية والادوية او عهد استخدامها على نطاق واسع . وهي قد رافقت ، كما هو بديهي ، الثورة الفكرية التي أشرنا اليها ، والفتوحات الصينية ، والميل الجشع الى البدخ والجدّة اللذين يميزان الصين في عهد الهان اللاحقين وعهد التسين . وانما انتشرت هذه الاكتشافات ، او انتشر تطبيقها ، في حقول مختلفة . ففي الحقل الآلي ، يمكننا ان نذكر المحراث ذا السنن الثلاث الذي سبق واكتشف في القرن الاول قبل المسيح وانتشر آنذاك في كافة أنحاء الامبراطورية ، والمطحنة المائية التي عرفت منذ اوائل العهد المسيحي ، واستخدمتها بعد ذلك جميع طبقات المجتمع ، لا سيما في القرنين الثالث والرابع ، والنول الذي بُسِّط وحُسِّن في القرن الثالث ، فخفض عدد الدراسات فيه من ٥٠ و ٦٠ الى ١٢ فقط ، و « العربية الجنوبية » التي صممت وفقاً لمبدأ القطارات الآلية والتي دارت عجلاتها بواسطة أجهزة مسننة ومحاور متحركة يدفعها مكبس (بستون) الى الامام . وفي حقل آخر ، اكتشف احد خصيان القرن الثاني صناعة معجون الورق الذي ستكون له تلك الاهمية العظيمة في المستقبل .

غير ان هذا العهد قد توصل الى العدد الأكبر من الاكتشافات في حقل علم الفلك . ليس من ريب في انه استفاد من بعض اكتشافات القرون السابقة ، ولكن ما ادخله عليها من تحسين وتكامل جعل الصينيين يعتمدون عليها حتى القرن الثالث عشر ، وهو تاريخ ادخال الآلات الفارسية الى الصين على أيدي المغول .

عرف الصينيون قبل الهان الادوات التالية : الساعة المائية ، والمزولة ، ولوحة القياس ، والساعة الشمسية . فأدخل الهان التحويرات عليها وأضافوا اليها المنظار والدوائر المعدنية التي تمثل حركات الاجرام السماوية ، والكرة السماوية . وبفضل ذلك ، « توصل علماء الفلك آنذاك

الى تحديد الطول التقريبي للسنة الامتوائية ، ووضع روزنامة قانونية ، والاهتمام الى حركات السيارات ، والنهوض بأولى النظريات العلمية لتمثيل العالم ، وإيجاد تقنية خاصة بملاحظة الفلك « (هـ . مسبرو) . أوضحوا حركات السيارات ، ولا سيما حركات القمر ، وتوصلوا الى بعض التدقيق في تحديد مواعيد الخسوف والكسوف واكتشفوا مبادرة نقطة الاعتدال (بين ٣٢٥ و ٣٥٠ بعد المسيح) . وبإستطاعتنا القول ان علم الفلك قد انتقل بفضلهم من مرحلة التمس الى مرحلة التحقيقات « العصرية » .

الساعة المائية كانت الساعة المائية (ليو - هيو ، كو - ليو) أشبه ببناء حقيقي ، وقد حلت محل ساعة مائية أقدم عهداً ، وصممت بحيث تقيس يوماً كاملاً . نظمت حياة القصر الجمهوري ليلاً ونهاراً ، لأنها كانت مزدوجة . تألفت من ثلاثة احواض مغطاة منضدة على مراقب : خزائن ، وحوض ينظم الحركة ، ومصّب . في اسفل المراقب يقوم اثناء بشكل الساعة المائية القديمة يعلوه غطاء مثقوب يمر فيه ساق معدني مدرّج ، والائام الاخير هذا هو اثناء الساعة بالذات . الساق مثبت في عوامة ومقسّم اجزاء متساوية بخطوط يشير كل منها الى مرور ربع ساعة (كو) . ويقف امام الثقب تمثال يبسط ذراعيه يقوم بدور وكيل الساعة . يدها تشير ان الى اقسام الساق التي تتوالى بين ذراعيه كلما ارتفعت العوامة بارتفاع مستوى الماء في الاثناء . وتتصل هذه الاحواض ببعضها بواسطة صنوبر قنيني الشكل مثبت في القسم الاسفل من الاحواض العليا الثلاثة يقذف بالماء من شدقه . أضف الى ذلك ان الحوض الذي يعلو الساعة مباشرة ينطوي على مصب يحول دون ارتفاع مستوى المياه وينظم تموين الساعة بها . وتعلو الاغطية هذه الاحواض جميعها حتى لا يتسرب الى الماء أي جسم غريب قد يسد الانابيب .

واجه مهندسو ذاك العهد مسألتين : تأمين استمرار معدل كمية المياه وتفاوت طول النهارات والليالي بحسب الفصول . كان الحوض الاعلى بمثابة خزان تكفي سعته نظرياً لاثني عشرة ساعة ، ولكنهم كانوا يراقبون مستوى الماء فيه ويملأونه عند الاقتضاء بوسيلة من الوسائل . وكان الحوض الثاني اثناء منظم الغاية منه الحفاظ على مستوى ثابت . اما الثالث فقد كان معداً لاستيعاب الفائض من مياه الحوض السابق . وبفضل هذا الجهاز كانت المياه تصب في الساعة بانتظام تقريباً . وكانت هذه الساعة مزدوجة ، فالائام السفلي مجهز بصنوبرين : احدهما يفتح في اول النهار ويقفل في اول الليل ، والثاني يقفل في اول النهار ويفتح في اول الليل . اما الساق الذي يرتفع بارتفاع المياه ، فيخرج كله من الثقب حين يتلى الاثناء ، أي انه يشير آنذاك الى ربع الساعة الاخير من النهار او من الليل . وعلى الرغم من ان شيئاً لم يذكر عن طريقة تفريغ اثناء الساعة ، فالارجح انه كان يؤمن بصنوبر او سدادة في اسفل الاثناء ، وكان الوقت متسعاً جداً للقيام بهذا التفريغ لأن كل « ساعة » تتوقف اثني عشرة من أصل اربع وعشرين . ولا ريب في ان كمية الماء الصابة في اثناء الساعة قد خضعت لحساب مدقق ، وبمكنتنا الاستنتاج ، بناء لتقديرات هـ . مسبرو ، انها كانت تصب ببطء ونقطة نقطة . وقد وجب لتأمين هذه النتيجة ان يكون الضغط في الحوض

المنظم ثابتاً، وكان هذا الحوض الوسيط ضرورياً من حيث ان المهندسين لم يفكروا بيجر الماء الى الحزان . ولكن هذا الحوض الوحيد غير كاف لتنظيم كمية المياه الصابة في اثناء الساعة (كان من الواجب ان يقوم الى جانبه حوض ثان) ، ولذلك اوجد فيه جهاز آلي يؤمن التنظيم : هو ، على ما يبدو ، أشبه بميزان احد طرفيه متحرك يسدّ مصب فائض المياه والثاني ثابت عند المستوى الذي يجب ألا تعلوه الماء . وقد جهز هذا الطرف الاخير ببعض الزئبق . فما ان تعلو الماء المستوى المحدد لها حتى تتحرك بعض نقاط الزئبق فيرتفع طرف الميزان المتحرك ويفتح مصب فائض المياه ، وحين تعود الماء الى مستواها في الحوض يعود الزئبق الى مكانه ويستوي الميزان افقياً ويسدّ مصب فائض المياه مرة اخرى ، وبذلك ينتظم الضغط .

اما بصدد تقدير الوقت فقد واجه المهندسون الصينيون بعض الصعوبات لأنهم قد استخدموا ساعتين احدهما للنهار والاخرى لليل ، ولأن ابدال الاولى بالثانية كان يجري عند شروق الشمس وغروبها : وقد استوجب ذلك عمليات ضبط متعاقبة لماشة قصر النهار والليل . ولكنهم تلافوا ذلك بتغيير الساق كلما طال النهار او قصر ربع ساعة كاملاً (كو = ١٤ و ١٢٤) . فيتكون من ثم فرق يجمع أربعاً وعشرين ساعة خلال السنة ، وكان هناك بالتالي اربعون ساقاً (عشرون منها نهائية وعشرون ليلية) تبدل كل تسعة ايام . وجلي ان هذا التقدير قد أفضى الى فروقات على بعض الاهمية بالنسبة الى الواقع ، فحوّره « هو جونغ » في اواخر القرن الاول باستخدام ٤٨ ساقاً تبدل كل سبعة ايام ونصف . وعلى الرغم من الأخطاء التي كان من شأن هذا التقدير ان يجر إليها ايضاً ، فقد عمل به حتى القرن الثاني عشر . اصف الى ذلك ان هذه الاخطاء لم تكن ذات شأن : خمس دقائق ونصف كحدّ أعلى في منقلب الشمس الشتوي مثلاً ، وهي اخطاء لا أثر لها في الحياة اليومية ولا تضايق سوى المنجمين .

المزولة
اقتصرت المزولة في عهد الهان على وقد طويل يغرز في الارض عمودياً في مكان شامس . حدّد علوّه بثمانية اقدام (او بأحد أضعاف الثمانية) . ينتصب في ارض أفقية تماماً يستثبت من استواء سطحها بواسطة قادن مائي (استخدم قبل الهان) يجب ان يكون هو نفسه عمودياً تماماً ايضاً : فتشد لهذه الغاية ثمانية حبال من أعلى الودد الى زوايا الارض المربعة وأواسط ضلوع هذه الارض ، فيؤدي توتر الحبال - المتساوية طولاً ٤ × ٤ - الى جعل الودد عمودياً تماماً . استخدمت المزولة لقياس الظل الذي ترسمه الشمس على الارض ودرس انتقاله ؛ فاستعمل علماء الفلك الصينيون لهذه الغاية « لوحة القياس » (تو - كواي) . عرفت هذه اللوحة في العهد السابق ، وكانت تصنع من اليشب او الخزف او البرونز او الخشب ، شكلها شكل المربع المنحرف ، ويتراوح طولها بين ٣٤٢ مم و ٢٣٤ مم . توضع ارضاً بجانب الودد ، وفي نهار المنقلب الصيفي ، ظهراً ، يساوي ظل الودد طول اللوحة . بعد ان يحدّد تاريخ المنقلب الصيفي ، يحدّد تاريخ المنقلب الشتوي حسابياً انطلاقاً من هذه الملاحظة : أي بعد مرور مائة واثنين وثمانين يوماً وخمسة أثمان اليوم . وقد انطوت هذه الحسابات على خطأ محسوس يبلغ يوماً وبعض اليوم بعد المنقلب الشتوي الحقيقي .

منذ عهد الهان أبدلت هذه اللوحة مسطرة حقيقية مدرّجة وطويلة يمكن استخدامها لقياس الظلال في كافة أيام السنة بما فيها ظل المنقلب الشتوي ، أطولها إطلاقاً . فقل منذئذ شأنت الأخطاء ، ولكن الخطأ في تقدير السنة الشمسية رافقه بالضرورة خطأ في تقدير الشهر القمري ، والتقديران مترابطان في الزوزنامة الصينية . ولم يتوصلوا الى مزيد من الدقة إلا في القرن الرابع بعد اجراء حسابات كثيرة بواسطة لوحة القياس ، كما لم تتح هذه الاداة ، المحسنة والمنعمة للوتد الشمسي ، إلا في القرن الخامس فقط ، اثبات تفاوت الفصول الذي لم ينتبهوا له حتى ذلك التاريخ . وعلى الرغم من كل ذلك ، فان الوتد الشمسي كان للصينيين الاداة الاساسية في علم الفلك التي بنوا عليها أبعد معارفهم وضوحاً حول شكل العالم .

استخدمت منذ عهد الهان أداة خاصة قريبة من المزولة للتأكد من تواريخ تغيير الساعة الشمسية الساق في الساعة المائتية . وكانت هذه الاداة لوحة (من يشب) مستطيلة الشكل ٢٨٨ مم × ٢٨٢ مم حفر في وسطها ثقب مستدير يبلغ قطره ٩٠٦ مم ورسمت حواليه دائرة يبلغ قطرها ٢٤٣ مم . وقد حفر في الثلثين السفليين من هذه الدائرة ثقب صغير متساوية الأبعاد مرقمة من ١ الى ٦٩ تصلها بالوسط خطوط مستقيمة . تشير هذه التقسيمات الى عدد أرباع الساعة في النهار ، وتستخدم تقسيمات الاطراف في حساب سمت الشمس عند شروقها وغروبها . وقد توصل الصينيون في عهد الهان الى معرفته معرفة تامة . وجليّ ان هذه اللوحة توضع أفقياً على سطح مستوٍ ، فيشير الساق المبرز في الثقب الوسطي الى تقدم الشمس . ويرجع القسم الغير المرقم نحو الجنوب . ولا يمكن ان يكون القصد منها معرفة الساعة لأن ثخانة الساق تحول دون التدقيق ولأن ظله يغطي أكثر من خط ، او خطين او ثلاثة احياناً . ولكن الساعة الشمسية ، على نقيض ذلك ، استخدمت ، بمراقبة الظل ، في تحديد موعد تغيير الساق في الساعة المائتية . فمن الأهمية بكان ألا يحصل خطأ في موعد هذه التغييرات ، لأن ضبط الوقت متوقف بكليته على ضبط تغيير الساق الذي يضيف او ينقص ربع ساعة ، صباحاً ومساءً . بفضل هذه الاداة أصبحت المراقبة أمراً ممكناً ؛ فكل يوم يلاحظ اتجاه الظل عند شروق الشمس وغروبها ، وكلما انتقل الظل من خط الى خط يكون النهار قد زاد او نقص ربع ساعة .

وجد المنظار (وانغ - توانغ - يو - هونغ) منذ عهد الهان السابقين واستمر استخدامه المنظار الى ان أدخل اليسوعيون المرقب . اقتصر استخدامه على عزل حقل محدود المساحة بغية تتبع حركة نجم ثابت او سيار معين . قوامه خيزران يبلغ ثمانية اقدام طولاً ويبلغ قطر فراغه الداخلي بوصة واحدة . يثبت على قاعدة تؤمن استقراره .

أتاحت الساعة المائتية والساعة الشمسية والمزولة ولوحة القياس الدوائر المندنية والمنظار تحديد الوقت بالضبط وقياس حركات الأجرام السماوية لتمثيل حركات الاجرام السيارية بتدقيق لم تبلغه العهود السابقة . غير ان القياسات الحيزية ما زالت ناقصة ومشوشة . فاستخدمت في النصف الثاني من القرن الاول دائرة استوائية لتمثيل

حركات الاجرام السماوية في مرصد « المنجم الكبير » : قدّم كنج شيو - تشانغ هذه الآلة للامبراطور في السنة ٥٢ قبل المسيح ؛ وكان باستطاعتها « قياس حركات الشمس والقمر والتثبت من شكل الفلك وحركته » . وهي في جوهرها دائرة برونزية مقسمة الى درجات قياس الواحدة منها بوصتان ، يبلغ قطرها ٥٧٤ مم ومحيطها ١٨٠ م تقريباً . فخطر لـ « فون فان » في السنة ٨٤ بعد المسيح ان يعطي احدى الدوائر انحناء مدار الشمس ، فصنع ادوات خاصة : هي الدوائر المصنوعة وفاقاً لهذا الانحناء والمؤلفة من دائرة برونزية مدرّجة مثبتة بحيث تكون مع خط الاستواء زاوية قياسها ٢٤ درجة تقريباً ، ويرجح ان منظراً متحركاً قد مرّ بوسط الدائرة ايضاً . فقدمت آلة مماثلة للامبراطور في السنة ٨٥ بعد المسيح ، واستخدمت آنذاك في مكتب « المنجم الكبير » لقياس حركة القمر اليومية وللتثبت من مداها بالدرجات . فاستطاع علماء الفلك الصينيون منذ ذلك العهد ، او بالاحرى منذ السنة ١٠٣ بعد المسيح ، ان يصفوا حركات السيارات الظاهرة وصفاً يكاد يكون صحيحاً . غير ان هذه الآلة التي افترقت الى دائرة خط الطول والى تعيين مركز القطب لم تكن سهلة الاستعمال عملياً ، ولعل هذه الصعوبة هي احد اسباب اكتشاف الكرة التي جمعت الدائرتين في آلة واحدة .

ظهر هذا الاكتشاف بعد مرور عشرين سنة على اكتشاف الدوائر المعدنية جهاز الكرة والدوائر المنفردة ، ولم يكن تحقيقها عملية سهلة . خطر لمكتشفها ، تشانغ هنغ ، حوالي السنة ١٢٤ ، ان يمثل الكرة السماوية كلها تمثيلاً ايجازياً بأن يضيف ، الى الدائرة الاستوائية ودائرة مدار الشمس ، دائرتين أخريين تمر احدهما بالقطبين وسمت الرأس وتحدد سطح خط الطول ، وتكون الثانية افقية ؛ وحاول ، بالاضافة الى ذلك ، ان يخضع هذه الكرة ، بقوة الماء ، لحركة الدوران الذي يتم في يوم واحد . وقد كرس تشانغ هنغ لاكتشافه مؤلفاً خاصاً لم يصل الينا لسوء الحظ ، ولكننا نعلم ان جهازه قد استخدم في لو - يانغ حتى غزوها في السنة ٣١٤ ، وان الغزاة قد قلدوه (٣٢٣) في سي - نغان - فو ، عاصمتهم الخاصة في تشن - شن . وكذلك قلده أباطرة حوض الـ « يانغ - تسو » في نانكين . وبلغ جهاز تشانغ - هنغ ٢٤٩٠ م محيطاً و٩٧٠ م قطراً داخلياً تقريباً ، وقد مر في وسطه منظار يتحرك في كل الاتجاهات . وكان وزنه عظيماً في الارجح ، ولم يقم على قاعدة بصل علق تعليقاً . ونحن نعلم اليوم كيف استعمل جهاز سي - نغان - فو : « يبدأ العالم بتدوير دائرة مدار الشمس المتحركة ، وفاقاً لحركة الشمس في الفلك ، حتى تتطبق على وضع الفلك ساعة الرصد ، ثم يثبت في هذا الوضع بواسطة السنة الاقفال والرزات ، وبعد ذلك يدور الدائرة الداخلية المتحركة حول الجرم الذي يرغب في رصده ، ثم يرقب هذا الجرم بواسطة المنظار الذي يرفعه او يخفضه عمودياً بقدر حاجته الى ذلك » (هـ . مسبرو) بفعل قوة الماء . كان هذا الجهاز يدور ويتبع باحكام حركات الدوران التي تتم في يوم واحد ، وتضبطه ساعة مائية ؛ ونحن نرجح ان الجهاز الداخلي وحده كان متحركاً ، بينما تبقى بدون حركة الدائرتان الخارجيتان المكونتان بتقاطعهما زاوية مستقيمة .

قد يفرينا أن نرى في هذا الجهاز تأثيراً غربياً ، إذ أن بطليموس قد وصف في العهد نفسه تقريباً جهازاً مماثلاً من حيث المبدأ والمظهر العام للجهاز الصيني ، ولكن الحقيقة الثابتة هي أن الجهازين مختلفان تماماً ، لأن الدائرتين الممتدتين في الصين وفي الغرب ، ليستا متشابهتين كلياً : فجهاز بطليموس قد انطوى على دائرتين ثابتتين ، هما دائرة مدار الشمس الموازية لسطح مدار الشمس ، ودائرة خط الطول التي تكون مع الأولى زاوية مستقيمة ، وبالإضافة إلى ذلك ، علم دوائر متحركة هي دوائر بعض خطوط العرض ، بينما لم ينطو جهاز تشانغ - هونغ إلا على دائرة خط الاعتدال ، التي هي دائرة خط الطول نفسها ، وعلى دائرة خط الاستواء أيضاً - دونما إشارة إلى القطبين ؛ أضف إلى ذلك أخيراً أن عِضادة الرصد قد وضعت في السطح الاستوائي . ثم إن الصينيين قد جهلوا علم الزوايا الذي اكتشفه هيبارخوس في اليونان قبل ذلك بعدة قرون ، فاضطروا إلى اعتماد وسائل اختبارية في حل مسائلهم ، وكانوا من ثم منجمين لا علماء فلك . فيرد معظم الاختلاف بين الطريقتين ، اليونانية والصينية ، إلى تأخر العلوم الرياضية في الصين .

وكان هنالك جهاز يتميز عن الكرة والدوائر الموصوفة أعلاه ، هو الكرة الكروية السماوية . السماوية (هوان - تيان - سيانغ) التي كانت تصنع من خشب أو من برونز « مستديرة كالكرة » ، ويمر فيها محور باتجاه شمالي جنوبي ، وتتحرك بقوة الساعة المائية . وكان قد سبقها وضع خرائط للفلك حسنت في القرن الرابع ، وأشار فيها إلى البروج بألوان خاصة . وستنقل هذه الخرائط في القرن الخامس إلى الكرة السماوية فتكملها .

وهكذا اكتشفت ثم تحسنت الرزامة والساعة والنظام الكوني ، فعمّ انتشارها خلال هذا العهد ، الذي كان من جهة ثانية غنياً جداً بالاكتشافات .

الفصل الخامس

انتشار الحضارة الصينية

في العهد الذي يعنينا ، شمل النفوذ الصيني اراضي واسعة جداً : التركستان الصيني الى الغرب وقد احتلته الصين بكليته تقريباً ، وكوريا الشمالية الى الشرق ، والتونكين وجزءاً من انام الى الجنوب . سببت لها هذه « المستعمرات » بعض المتاعب ، ولكنها فتحت لها بالمقابلة اسواقاً تجارية . فباستطاعتها ان ترسل إليها حاميات عسكرية تقدر بمئات الالوف تؤمن الموارد المحلية تغذيتها . وجنت منها مكاسب تجارية ايضاً ، ولا سيما من التركستان الصيني الذي تجتازه طرق القوافل الرئيسية . وتوقفت فيها ، على الصعيد الثقافي ، الى الاتصال بالعالم الغربي آنذاك ، الغني بكل خير فكري وديني ، وبشعوب « جديدة » مستعدة لتقبل نعم (؟) حضارة ابعد تقدماً من حضارتهم . وعلى الرغم من تقلبات احوالها الخاصة ، فانها قد استقرت بشبات في مناطق الحدود الثلاث هذه ، ولعبت فيها دور الدولة العظمى . وكان كل ذلك ، والحق يقال ، لتحقيق الهان السابقين (إلا في كوريا) الذي ورثه وواصله الهان اللاحقون من بعدهم .

تكلمنا اعلاه عن فيتنام بصدد النفوذ الهندي ، ولن نكرر هنا ما قلناه ، اذ اننا أبدينا في المناسبة نفسها ملاحظاتنا حول النفوذ الصيني . فسنكتفي بإيجاز العلاقات التي ربطت الصين بالتركستان الصيني وكوريا ، لا سيما وان هذه الأخيرة قد لعبت دور الوسيط مع اليابان في اوائل عهدها التاريخي .

رأينا ان الهان السابقين قد تولوا فتح آسيا الوسطى في التركستان وان احتلالهم آسيا الوسطى لهذه البلاد « الغربية » قد أتاح لهم الاتصال بالحضارات الهندية - الأوروبية . وطد الهان اللاحقون هذا الفتح وفرضوا على البلاد حماية راسخة . تنتشر في هذه البلاد الصحراوية ، التي يجتازها نهر تاريم ، واحات تمر بها القوافل المنتقلة من البختيار الى الصين . اما الطريقان المعتمدتان في الذهاب والاياب فيها : طريق تمر في الشمال بـ « طرفان » وقاراشهر و « كوكا » و « اكسو » و « اوك - طرفان » و « قشغر » ، واخرى تمر في الجنوب بـ « ليو - لان » و « خوطان » و « يرقند » . كانت هذه الواحات تؤلف ممالك صغيرة تتوقف حياتها على انتظام الاقنية القائمة فيها ، وكانت خاضعة آنذاك لهنود - اوروبيين يتميزون بلونهم الاصهب وعيونهم

الزرقاء ، ويتكلمون اللغة الطخارية في الشمال ولغة « الشاكا » في الجنوب ، وانتشرت بينهم لغة مشتركة هي اللغة السوغديانية المستعملة بين التجار بنوع خاص . واستوطن مناطق حدود هذه البلاد ، من جهة ثانية ، شعوب هاجرت الصين الغربية الى سوغديان والبختيار ، اشتهرت باسمها الصيني « يو - تشي » ، وأطلق عليها المؤلفون الكلاسيكيون اسم « الهنود - الغز » ، وقامت بينها وبين الايرانيين الحضريين في فارس علائق طيبة ، وكان هؤلاء اليو تشي من جهة ثانية على اتصال بالهند فاهتدوا الى البوذية في عهد مبكر ، وبراسطتهم دخلت البوذية الى التركستان الصيني الذي استخدمه المبشرون البوذيون جسراً للعبور الى الصين . وتبع هذا التسرب الطريق نفسها طيلة قرون عدة ، اذ ان معظم مترجمي النصوص البوذية الى اللغة الصينية ، كما رأينا ، انتسبوا الى الهنود - الغز او الفارتيين او السوغديانيين ، وهل يجب ان نذكر هنا بتاجر سوغدياني من سمرقند بشر بالبوذية في فانكين في السنة ٢٤٧ ؟ او بغو - تو - تنغ الذي لعب في القرن الرابع ذلك الدور الكبير لدى شي لو وتشى هو ، وهو قد ولد في كوكا من ابوين هنديين ؟ او بكوماراجيفا ، في النصف الثاني من القرن الرابع ، الذي ولد من أم كوكية الاصل ايضاً ؟

كان من الطبيعي ان تثير الامة التجارية ، التي اشتهرت بها واحات حوض التاريم ، طمع الصينيين الذين توقفوا كما رأينا الى القضاء فيها على تدخل الهند ، وقد اهتمت ، هي ايضاً ، لأمر رقابة طرق القوافل هذه . فتأسست تدريجياً ، بفضل عدد من القادة الصينيين ، ولا سيما بان تشاو ، مستعمرات عسكرية وزراعية في الواحات . وكان لزاماً على هذه المستعمرات ، المنعزلة بين شعوب غريبة ، ان تدافع عن نفسها وتهتم لاستثمار اراض زراعية خصبة جداً . قبل سكان التركستان الصيني بهذا الاحتلال مرغمين ، ولكنهم حالفوا جيرانهم الـ « هيونغ - نو » وثاروا تكراراً مهددين الجنود والموظفين الصينيين بخطر مداهم . بيد ان تشاو استغل المنازعات الداخلية والاطماع وجشع السكان وفرض سلطة الصين حتى السنة ١٠٢ . ثم مرت فترة نكبات أبعدت الصين عشرين سنة تقريباً ، ما لبث الوضع بعدها ان تحسن واستقر . غير ان التسين لم يحتفظوا فيها إلا بسيادة بروتوكولية . ولكن الصين استمرت في الاستفادة من حركة الانتقال على طرقات التركستان ، جانية منها مكاسب هامة باعتماد الاستيراد والتصدير ، وكان يشب خوطان وأحصنة تاريم وموسيقيو كوكا مطامعها الرئيسية .

استولى الهان السابقون كذلك على النصف الشمالي من شبه الجزيرة الكورية .
كوريا
ولكن كوريا لم تكن مراً على غرار التركستان الصيني بل منطقة مقفلة ستمثل اليابان مؤقتاً استمرار ثقافتها . فتوغل فيها التأثير الصيني وركد وتآصل ، متأهباً للتوسع نحو الشرق دون أي اصطدام ، كما يبدو .

يعود وجود الصين في كوريا الى حوالي ١٩٤ - ١٠٨ قبل المسيح حين استولى احد القادة الصينيين على الشمال الغربي من شبه الجزيرة وأسس اماره لو - لانغ (راكورو ، في اليابانية) ثم ما لبثت المنطقة المحتلة ان تجاوزت حدود هذه الامارة - التي بقيت مركز الحكومة - وقسمت

الى ثلاث امارات اخرى . فعين على رأس هذه الامارات الاربع حكام صينيون اعتمدوا فيها نظاماً ادارياً مقتبساً عن نظام الهان . وما لبثت الرقابة الصينية بعد ذلك ان شملت ، بواسطة هؤلاء الحكام ، المنطقة الجنوبية التي لم تعين حدودها بوضوح . وقد برزت سلطة الفاتح بنقاط عسكرية موزعة على جميع المراكز الهامة .

كانت كوريا منطقة آهلة بالسكان ؛ فالحوليات الصينية تزعم بأن عدد البيوت فيها قد بلغ في عهد الهان ٦٢٨١٢ بيتاً وان عدد سكانها قد بلغ ٤٠٦٧٤٠ نفساً ، على ان اماره لو - لانغ كانت أهم الامارات الاربع من حيث عدد السكان والازدهار .

اما العاصمة ، التي قامت على بعض المسافة من بيونغ - يانغ الحالية ، فكانت مدينة يحيط بها سدّ ترابي وتبلغ قياساتها ٦٥٠ × ٦٥٠ م . بليت مساكنها بالقرميد الذي اكتشفت منه كمية ضخمة ؛ والقرميد بحكم الصنع يزدان برسوم متقنة ويحمل في غالب الاحيان كتابة تشير الى انه يعود الى مسكن احد الموظفين . وقد حفر المدافن ، وهي كثيرة جداً (أحصى منها ١١٣٠ منذ ٢٠ سنة) ، على مقربة من المدن والقرى ، وكانت ضخمة الحجم احياناً ومتقنة الصنع ، واكتشف فيها أثاث مدفني ثمين ؛ شيدت جدرانها بقرميد مائل لقرميد المنازل المدنية يحمل اسم الميت وبعض الصلوات القصيرة . وتبرهن الآثار التي جمعت فيها - اسلحة وزخارف وحلي وخزفيات واوان برونزية ونقود ومرايا - ، بنمطها وصناعتها ، عن انها قد أنتجت خصيصاً للجالية الصينية ، اذا لم تكن صينية المصدر ؛ فان جمال التقنية ، والصنع ، ولا سيما المصوغ الذهبي المشبك ، ليس دون الانتاج الصيني ميزة . وقد أثبتت دراسة هذه المصنوعات ان عدداً كبيراً منها قد أنتج في كوريا وانها انتشرت في جنوب البلاد وفي اليابان . ارتبط مصير مركز ثقافة الهان هذا بمصير هذه السلالة فمرف الهبوط حين عرفته هي .

اليابان قامت علاقة اليابان بالصين بواسطة كوريا . وكان لطابع اليابان الجزائري أثره في حمايتها من جوار حضارة آسيوية ، في حال انها تنتسب عنصرياً الى اصل اينوي او اندونيسي في الارجح . وقد بقيت اليابان ، قبل تسرب سكان اليابسة اليها ، في المرحلة النيوليتية ، تجمع بينها وبين كوريا بعض اوجه التشابه . وحين دخلها النفوذ الصيني ، في السنة ٥٧ بعد المسيح ، كما يقال ، كانت الثقافة اليابانية متميزة بخزفيات بدائية وادوات محدودة (فؤوس ظرانية ، وميدى ، ونبال ، وسيف ، ومصنوعات عظمية مختلفة ، الخ .) ؛ وتشير التلال المدفنية الى القبور التي قامت بجانبها - وكانت على صلة بها في الارجح - تماثيل خزفية مصنوعة بواسطة الخرطة ، تعرف باسم « هانيوا » وتمثل رجالاً ونساء وحيوانات . وعلى الرغم من ان طابع الأثاث المدفني والـ « هانيوا » طابع مميز ، فمن الواجب ان نبحث عن أصلها ، كما يبدو ، في البر الآسيوي ، وبالتفضيل في الصين الجنوبية ، مروراً بكوريا ، مما يجعلنا نقول بعلاقات سابقة للشهادات التاريخية . ويبدو في الواقع ، ان هذه العلاقات قد قامت منذ القرنين الرابع والثالث قبل المسيح . ولكن اول ذكر لاتصال قام بين اليابان والبر الآسيوي لا يرقى إلا

الى السنة ٥٧ بعد المسيح ، وهو التاريخ الذي جاء فيه وفد ياباني الى الصين وقام بزيارة البلاط الامبراطوري في لو - يانغ . ويجدر بنا هنا ان نستشهد بالوصف الذي جاء في « الحوليات الصينية » عن اليابان : تقوم بلاد « وا » الى الجنوب الشرقي من كوريا الجنوبية ، في وسط المحيط ، وتتألف من بعض الجزر وتشمل أكثر من مائة مملكة . ومنذ ان فتح الامبراطور « وو - تي » كوريا الشمالية (في السنة ١٠٨ قبل المسيح) ، أصبح لأكثر من ثلاثين مملكة من هذه الممالك علائق بالصين بواسطة الموفدين او المؤلفين ... سكانها يتقنون فن النسيج ... اسلحة جنودها الرمح والترس والقوس والنبال الخيزرانية التي قد يصنع رأسها من عظم . رجالها يستوشمون اجسامهم بالرسوم التي تعين تسلسل المراتب بشكلها وحجمها . يستخدمون اللون الوردى واللون القرمزي لطلي اجسامهم كما يستخدم الصينيون غبار الارز . وتجدر الاشارة الى ان العلامات القرمزية التي تزين وجه ورقبة الـ « هانويا » ليست وشمًا ، لأن الوشم ، بحسب الأساطير والروايات اليابانية ، وقف على الطبقات الدنيا . هنالك تفاصيل اضافية وصلت اليها عن طريق الـ « واي » يستفاد منها ان سكان بلاد « وا » يفخسون في المياه لجمع الاصداف وان اجسامهم مزودة برسوم الحيتان . يتم هذه المعلومات مقطع من « تسيان - هان شو » لـ « بان كو » دخل التقليد الادبي ، نستشهد به نقلاً عن جان بوهو : « يقيم الـ « وو وو » الى الجنوب الشرقي من مقاطعة « فاي - فانغ » (الى الجنوب الشرقي من لو - لانغ) ودول الهان الثلاث (شن هان ، وماهان ، وبيان هان ، التي بقيت زمناً طويلاً مستقلة عن الصين) . يقطنون الجبال والجزر ... يؤلفون أكثر من مائة دولة ربطت حوالي الثلاثين منها علائق بالهان بواسطة الموفدين والمراسلات منذ ان قضى الهان « وو - تي » على كوريا الشمالية . يحمل رؤساء هذه الدول لقب الملوك وتنتقل السلطة فيها من الاب الى الابن . ومنهم الـ « وو وو العظيم » الذي يقيم في بلاد « ياماتاي » (ياماتو ؟) ... التربة جيدة للحصائد : الارز ، والقنبيط ، والـ « تشو » (؟) ، والتوت . السكان يعرفون النسيج والغزل ، وحيالة الحرير ، والكتمان . ويجمعون الجواهر البيضاء واليشب الاخضر (؟) . في الجبال تربية حمران (« تانتو » ، زنجفر) او حديد غير خالص يذكّر لونه بالدم . الهواء رطب وحار . البقول والنباتات الصالحة للأكل متوفرة صيفاً وشتاء . ليس في البلاد أبقار ، واحصنة ، وأغمر ، وأفهدة ، ونعاج ، وطيور داجنة . الاسلحة حرايب وتروس وأقواس خشبية ونبال خيزرانية قد يصنع رأسها من عظم أحياناً .

« الرجال يستوشمون ويزينون اجسامهم بالرسوم . وتميز المرتبة الاجتماعية بحسب (مكان) هذه الرسوم الى اليمين او الى الشمال وبحسب قياساتها . ملابس الرجال مصنوعة من طرائد معترضة تمقد وتجمع . النساء يرسلن شعرهن على ظهورهن (او) يثنيهن ويعقدنهن ؛ ملابسهن أشبه بدمر بسيطة يرتدينها بادخال رأسهن فيها . يزين أوجههن بالزنجفر على طريقة نساء « بلاد الوسط » ، وتستعمل النساء غبار الارز . المساكن محاطة بالجدران والسياج . لكل من الاب والام والابناء مسكنه الخاص . لا ينفصل الرجال عن النساء إلا في الجمعيات . يشربون ويأكلون بأيديهم ، ولكنهم يستعملون السلة والصحن .

« من عاداتهم أنهم يسرون حفاة ؛ ويرون في جلوس القرفصاء دليل احترام . ومن مزاجهم الاكثار من شرب خمر الارز . يعمّرون طويلاً ، وكثيرون منهم يتجاوزون سن المائة . النساء كثيرات في البلاد ؛ فلدى الكبار منهن أربع او خمس زوجات ولدى الآخرين اثنتان او ثلاث . والنساء بعيدات عن الطيش والحسد .

« من أخلاقهم أنهم بعيدون عن اللصوصية والسرقة والمنازعات ؛ وإذا ما خالف احدهم القوانين، فإنه يحرم من زوجه وأولاده، وإذا كانت مخالفته خطيرة، يباد أفراد عائلته وأنسابه . « في حالة الموت ، تحفظ الجثة عشرة أيام أو أكثر . افراد العائلة يبكون وينتحبون ، ولا يتناولون نبيذاً أو طعاماً ، ولكن الاصدقاء يأتون ويرقصون ويغنون ويحاولون الالهة . يحرقون العظام لمعرفة الغيب وإقرار ما هو قال وما هو شؤم . في الرحلات البرية والاسفار البحرية ، يطلبون الى احد الرجال الامتناع عن الاغتسال وتسريح الشعر وأكل اللحوم ومقاربة الزوجة ، ويطلقون عليه اسم « لابس الحداد » (الزاهد) . فإذا كانت الرحلة ناجحة ، كافأوه بالهدايا الثمينة ، وإذا مرض المسافرون او تعرضوا للاعتداء ، اعتقدوا بأن « لابس الحداد » كان مهملًا واتفقوا على قتله . »

في السنة ٥٧ بعد المسيح ، قصد احد اعيان « كيوشو » بلاط الهان ، حاملاً جزية جزيرته وتهانئه للبلاط الصيني ، فكافأه الامبراطور بان وهبه خاتماً وشاحاً . ولعل هذا الخاتم هو ما اكتشفه احد فلاحى « شيكوزن » في السنة ١٧٨٤ . ولا يرد ذكر علائق اليابان الرسمية بالصين مرة اخرى إلا في السنة ١٠٧ ، حين ارسل « ملك » ياباني الى البلاط الصيني مائة وستين عبداً كما جاء في التقليد . ويروى بعد ذلك ان احدى العوانس المتقدمات في السن قد انتخبت في السنة ١٩٤ ملكة بالاجماع ، ويقال انها مارست عبادة الابالسة وعرفت كيف تفتن الجماهير بسحرها . « كان لديها ألف من الإماء ، ولم يسمح برؤيتها إلا لعدد قليل من الناس . وأنيط برجل واحد تقديم المشرب والمأكّل لها ونقل كلامها وخطبها . اقامت في قصر أسندت حراسة ابراجه واسواره الى جنود مسلحين . وقد سادت في عهدها قوانين وعادات الزامية وصارمة » . ولعل هذه « الملكة » هي التي أرسلت الى لو - يانغ بعض الوفود في السنتين ٢٣٨ و ٢٤٣ وأقامت علاقات دبلوماسية مع الحاكم الكوري في تاي - فانغ . ويروى ان ألف شخص قد دفنوا معها حين أدركتها المنية ، وقد وضعت جثتها في ضريح يبلغ ١٠٠ قدم عرضاً .

بيد ان كل ذلك يكتنفه الغموض ويختلط بالأسطورة . ويبدو من المرجح ان العلائق بين اليابان والصين كانت آنذاك تجارية أكثر منها دبلوماسية ؛ اضاف الى ذلك انها بقيت متقطعة حتى القرن السابع . فحتى هذا التاريخ قايضت اليابان عبيدها بالمنسوجات والاسلحة الحديدية والمرايا البرونزية . وقامت هذه العلائق ، في الدرجة الاولى ، بواسطة كوريا الجنوبية التي ربما جمعت بين سكانها وسكان الجزر اليابانية بعض اوجه التشابه . ولكن العلائق الصينية - الكورية ، على ما يبدو ، قد اتسمت مع ذلك ببعض العداوة ؛ اجل لقد ورد ذكر بعض المقايضات : ففي اواخر القرن الثالث مثلاً ، وصل احد امراء « ميانا » (كوريا الجنوبية) الى بلاط « ياماتو » حيث قدّم له

حرير أحر ؛ وبعد مرور زمن قصير قامى اليابانيون الامرين من آلام المجاعة فقصدوا كوريا يطلبون الارز . وانما ورد ايضا ذكر الاهانة التي وجهها احد القادة الكوريين ، في السنة ٢٤٠ ، الى رئيس وفد ياماتو الى مملكة « سيل » (كوريا الشرقية) ، وذكر استيلاء اليابانيين ، في السنة ٣٩١ ، على جزء كبير من كوريا الجنوبية ؛ ويروى ان كوريا الشمالية قد دحرت اليابانيين ، فانسحبوا ، ثم أعادوا الكرة في السنة ٤٠٤ .

من الجليّ الثابت ان أثر الصين في اليابان قد بقي محدوداً : فقد عاشت هذه الاخيرة في شبه عزلة ، خاضعة لحضارة خاصة ، ومحتاطة ، على ما يبدو ، لكل تدخل اجني في شؤونها . يشق علينا اليوم معرفة ميّزات هذه الحضارة معرفة تامة ، ولكننا نستطيع التنويه بتلك البيوت التي استندت العارضة الحشبية في أعلى سقفها الى اوتاد عمودية وقطاطعت روافدها بشكل × متجاوزة العارضة تجاوزاً عظيماً ، وقد غطي سقفها بالتبن الطويل وقشر الشربين ، وثبتت كافة أجزائه بالربط ؛ كما احيط المسكن بسياج خشبي أو اكثر . ونعلم كذلك ان اليابانيين كانوا مُضْرَبين (كثيري الزوجات) ، وان الشبان والشابات كانوا يعيشون منفصلين ولا يستطيعون الاجتماع في مكان واحد إلا أثناء الليل . كما نعلم ان الزواج بين الاقارب الاذنين كان غير نادر . ونعلم اخيراً ان الجثث لم توارى الثرى - في نواويس فخارية - إلا بعد تحللها .

اما الديانة ، الـ « شنتو » ، فقد سيطرت عليها فكرة النقاوة الطقسية : فالموت والمرض وكل اراقة دم مجلبة للندس . لذلك بنيت أكواخ خاصة للولادة والحيض والنكاح الاول والموت ، على غرار المساكن العادية . اما الإمساك الطقسي على أنواعه فقد أنيط بـ « لابس الحداد » الذي يتمعد بالتقيد به عن جمهور معين . ولم يكن للآلهة (كامي) سوى أهمية محلية ولم يخصصوا بمعابد مسقوفة ؛ وكان هنالك غابات مقدسة . وربما كانت الضحايا التي تقدم لك « كامي » رمزية فقط : أحصنة وابقار بيضاء ، قنيص ، نسيج كتان ، قنّب ، ورق . وقد أمنت الاتصال بالآلهة نساء وسيطات تعاطين مناجاة الارواح والسحر .

قام المجتمع على أساس العائلة او التكتل الذي يكرم جداً مشتركاً ، دون ان يكون هنالك عبادة خاصة بالجدود كما في الصين . وقد ضمت النقابات او المهن الفلاحين والصيادين وعمال الغابات ؛ ولاسي الحداد والعرافين والمغنين ؛ والقضاة ؛ وصناع التروس والحائك والخياطين ؛ والجنود والسوّاس والقيمين على خزائن الاسلحة ؛ والكتبة والتراجمة والسرايين والرسامين والخزافين .

لم يكن بعد للصين - او لكوريا الصينية - أثر يذكر في هذه الحضارة الجزائرية التي ما زالت ابنة بيتها . ولن تفتتح اليابان حقاً امام التأثير الاجني قبل تسرب البوذية في القرن السادس .

الخاتمة

ان المجلد الثاني من « تاريخ الحضارات العام » هذا ، يتناوله بالبحث الغرب المتوسطي والاوروبي ، قد وسع النطاق الذي تناوله المجلد الاول توسيعاً عظيماً . ولكننا حتى الآن لم نستطع ذكر شيء عن مناطق شاسعة في الكرة الارضية : استراليا ، القارة الاميركية بأكملها ، آسيا الشمالية ، معظم اوروبا الشمالية والشرقية ، والشاطر الاكبر من افريقيا .

ولا يعني ذلك ان الانسان لم يعرفها . فوجوده فيها ثابت كما في غير مكان . وهو قد انتظم فيها مجتمعات ، ودولاً احياناً . واستثمر الارض وحول محاصيلها الضرورية لحياته ولهوه ونزاعاته . وخضع لموجبات اخلاقية فردية وجماعية . وتساءل عن مصيره ، فأدى واجباته نحو موثاه . وحاول تفسير الظواهر الطبيعية ، فاعتقد بقوة خارقة متفوقة على ضعفه ، وصرف ذهنه وفطنته في استئثارها اليه ، او اقله في اتحاد عدائها نحوه . وقد يكون كل ذلك بدايياً ، ولكنه ليس في الواقع أكثر بدائية منه في ما بدا عند نشأة شعوب عديدة خصها هذان المجلدان بأكثر من فصل من قصولها .

غير ان هذا التحيز الظاهر لا يستدعي أي حكم هام ، ولا أية تخطيطة بصدد برنامج هذه المجموعة كما حددته المقدمة العامة . وان في الانتباه الذي أعرناه الشرق الاقصى لدليلاً كافياً على ان درس « الحضارات » لم ينحرف نحو درس « الحضارة » المتمثلة ضمناً بالحضارة الاوروبية . إلا ان التاريخ لا يمكن وضعه دون حد أدنى من النور ودون هيكل توقيتي أولي ايضاً . فحتى الآن ، بخلت علينا مصادرنا الأثرية المتفرقة بالنور والتوقيت اللازمين في كافة هذه المناطق : ولن نستطيع إلا في عهد لاحق ان نكمل بنظرتنا الانسانية جمعاء .

شملت هذه النظرة هنا نطاقاً واسعاً يمتد من اليابان إلى المغرب ومن سكوثلندا إلى الحبشة فشبه الجزيرة الماليزية : فراقبت فيه حضارات متباينة ، مختلفة المصائر ، زعزعتها ازومات مستقل بعضها عن بعض . لقد جرت بينها بعض الاتصالات : وقد حاولت استعراضاتنا أعلاه الإشارة إليها إلى الاقتباسات المتبادلة بين حضارة وحضارة . وقد جاءت الحصيلة ، لعمرى ، في هذه القرون الاولى من العهد الميلادي ، اوفر منها في العهد السابق .

هنالك في الدرجة الاولى عمل روما الامبراطوري الذي وحد الحوض المتوسطي كله وضم اليه قطاعات كبرى من اوروبا الغربية . ففي كل مكان ، وطيلة اربعة او خمسة قرون ، قامت دولة واحدة ، ان لم يكن لغة واحدة ، كما قام ، بفوارق اقليمية بسيطة ، مجتمع واحد ، ومظاهر

حياة خارجية واحدة ، ومعتقدات واحدة ، وشواغل فكرية واحدة : ولما كان تحقيق الوحدة السياسية والعسكرية على بعض السهولة نسبياً ، لأنها لا تحتاج إلا الى القوة ، فقد آزرتهما نجاحات الوحدة الاقتصادية والاخلاقية التي أتاحت هي تحقيقها . وإذا كانت العوامل الآسيوية ، التي تكونت من قبل ، لم تتبع آنذاك مراحل الوحدة هذه ، فان احدهما على الاقل ، اعني به العالم الصيني(وأننا نهمل العالم الهندي الذي خلخله دخول الغزاة الى أقاليمه الشمالية الغربية) ، يوفر لنا مشهد عظمة مماثلة .

ولكن هنالك ما هو أهم من الوحدة الداخلية في كل من هذه الكتل الإقليمية والبشرية . فقد قامت بينها علائق أقل ندرة وربما اوفر اثماراً من ذي قبل . فالمصنوعات الكمالية قوبضت بكيات كبيرة ، ونقلت على طرقات طويلة ، لأن الحرير فعل في الغربيين فعل السحر ، وجعل منهم ، منذئذ ، زبن « بلاد الحرير » ، أي الصين . وقامت بعض العلائق الروحية ايضاً . فقد ظهر الفن اليوناني - البوذي بظهور صورة بوذا البشرية . وربما اقتبس أفلوطين بعض الشيء عن الهند ، ومهما يكن من الأمر ، فان غالباً نفسها قد تأثرت بالمانوية التي جمعت عناصر مختلفة أتها من تعاليم زردشت وبوذا والمسيح . كما ان الإيمان بالمسيح ، من جهة ثانية ، قد دخل الى الهند ، ان لم يكن منذ القرن الاول بواسطة برتولوماوس وتوما ، فأقله في القرن الرابع : فان المعجاني المدهش ، ثاوفيلوس الملقب بـ « الهندي » ، الآتي من جزيرة نائية ، قد لعب دوراً على بعض الأهمية في بلاط كونستانس الثاني ، كما يبدو . وقد أخذت المسيحية ، في الوقت نفسه تقريباً ، تتجه نحو آسيا الوسطى متبعة في سيرها الطرق البرية المعروفة . اصف الى ذلك اخيراً ان تضامن هذه العوالم المختلفة ، وهو تضامن غير مباشر ، قد برز عند اكتمال العصور القديمة ، بصدمة رجح الغزوات : فهو دفاع الصينيين المستميت على حدودهم الغربية الذي دفع بالهون نحو الجنوب الغربي وأفضى الى النتائج التي جرّتها هذا الدفع على البختيار والهند ، ثم على الامبراطورية الرومانية .

بيد أن شيئاً من كل ذلك لن يؤثر في جوهر الامور . فالغرب لن يتأثر بالمانوية ، كما ان الشرق الأقصى لن يتأثر بالمسيحية . لا بل ان غزوات البرابرة ستباعد بين العالمين بدلاً من أن تقارب بينهما . فهي في العالم الروماني القديم ، قد تسببت في نهاية الحضارات القديمة ، أو في سرعة تطور ما بقي منها . أما في آسيا الشرقية ، فلا شيء يولد أو يموت في اواخر القرن الرابع ، او اوائل القرن الخامس : الحضارتان الصينية والهندية ، تستمران في الحياة بحسب نسقهما القديم . فقبل ظهور الإسلام الذي لن يلبث أن يدخل بين هذين العالمين كإسفين أصلب وأثبت من الممالك الاراسية والساسانية ، أضعف انهار الغرب العلائق السطحية القائمة بينهما : وستمر قرون وقرون قبل ان تشتت وتؤثر تأثيراً حقيقياً في مصير البشر .

المصادر

١ - الغرب والامبراطورية الرومانية

١ - دراسات عامة

- A. PIGANOL, *Histoire de Rome*, (Paris, P.U.F., 4^e éd., 1954).
- P. LAVEDAN, avec la collaboration de S. BESQUES, *Histoire de l'Art, I, L'Antiquité* (Paris, P.U.F., 1949).
- L. DELAPORTE, E. DRIOTON, A. PIGANOL et R. COHEN, *Atlas historique, I, l'Antiquité* (Paris, P.U.F., 1937).
- J. DELORME, *Chronologie des civilisations* (Paris, P.U.F., 1949).
- À. PIGANOL, *La conquête romaine* (Paris, P.U.F., 4^e éd., 1944).
- E. ALBERTINI, *L'empire romain* (Paris, P.U.F., 3^e éd., 1939).
- L. HALPHEN, *Les Barbares, des grandes invasions aux conquêtes turques du XI^e siècle* (Paris, P.U.F., 5^e éd., 1948).
- Série de l'Histoire romaine :
- t. I, E. PAIS et J. BAYET, *Des origines à l'achèvement de la conquête, 133 avant J.-C.* (Paris, P.U.F., 2^e éd., 1940).
 - t. II, v. 1, G. BLOCH et I. CARCOPINO, *Des Gracques à Sylla* (Paris, P.U.F., 1935).
 - t. II, v. 2, J. CARCOPINO, *César* (Paris, P.U.F., 1936).
 - t. III, L. HOMO, *Le Haut-Empire*, Paris, P.U.F., 1933.
 - t. IV, v. 1, M. BESNIER, *L'Empire romain de l'avènement des Sévères au concile de Nicée* (Paris, P.U.F., 1937).
 - t. IV, v. 2, A. PIGANOL, *L'Empire chrétien* (Paris, P.U.F., 1947).
- Dans la série Histoire du Moyen Age :
- t. I., *Les destinées de l'Empire en Occident de 395 à 888*, v. 1, F. LOT, *De 395 à 768* (2^e éd. 1940).
 - t. III, CH. DIEHL et G. MARÇAIS, *Le monde oriental de 395 à 1081* (1944).
- L'Encyclopédie photographique de l'art.
- t. II, *Mésopotamie, Canaan, Chypre, Grèce* (1936).
 - t. III, *Grèce, Etrurie, Rome* (1938).
- CH. PICARD, *La sculpture antique* (Paris, Laurens), t. II, *De Phidias à l'ère byzantine* (1926).

٢ - إيطاليا في أوائل عهد الرومان

- Storia d'Italia illustrata* (Milan, Mondadori), t. I, P. DUCATI, *L'Italia antica dalle prime civiltà alla morte di Cesare, 44 a. C.* (1936).
- R. BLOCH, *Les origines de Rome*, dans la collection « Que sais-je ? » (Paris, P.U.F., 2^e éd., 1949).
- Du même, *Les Etrusques*, dans la même collection (1954).
- B. NOGARA, *Les Etrusques et leur civilisation* (Paris, Payot, 1936).
- P. DUCATI, *Le problème étrusque* (Paris, Leroux, 1938).

- M. PALLOTTINO, trad. R. BLOCH, *La civilisation étrusque* (Paris, Payot, 1949).
 A. GRENIER, *La religion étrusque*, dans le fasc. 3 du t. II, *Les religions de l'Europe ancienne*, de la collection « Mana » (Paris, P.U.F., 1948).

٣ - قرطاجنة

- S. GSELL, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, t. I-IV (Paris, Hachette, 1913 et suiv.).
 CH.-A. JULIEN et CH. COURTOIS, *Histoire de l'Afrique du Nord, des origines à la conquête arabe* (Paris, Payot, 1951).
 P. CINTAS, *Céramique punique* (Paris, Klincksieck, 1950).
 G. CHARLES-PICARD, *Les religions de l'Afrique antique* (Paris, Plon, 1954).
 C. PICARD, *Cartage* (Paris, Belles-Lettres, 1951).

٤ - الغاليون

- C. JULIAN, *Histoire de la Gaule*, t. I-III (Paris, Hachette, 1908-1909).
 H. HUBERT, *Les Celtes et l'expansion celtique jusqu'à l'époque de la Tène, Les Celtes depuis l'époque de la Tène et La civilisation celtique*, vol. 21 et 21 bis de la collection « L'évolution de l'humanité » (Paris, A. Michel, 1932).
 J. DECHELETTE, *Manuel d'archéologie préhistorique, celtique et gallo-romaine* (Paris, A. Picard), les quatre premiers volumes publiés de 1908 à 1914 et réédités en 1924-1927.
 A. GRENIER, *Les Gaulois* (Paris, Payot, 1945).
 E. THEVENOT, *Histoire des Gaulois*, dans la collection « Que sais-je ? » (Paris, P.U.F., 2^e éd., 1949).
 J. VENDRYES, *La religion des Celtes*, dans le fasc. 3 du t. II de la collection « Mana ».
 L. LENGYEL, *L'art gaulois dans les médailles*, (Montrouge, Corvina, 1954).
 C. JULIAN, les t. IV-VIII de l'*Histoire de la Gaule* (1914-1926).
 E. THEVENOT, *Les Gallo-Romains*, dans la collection « Que sais-je ? » (Paris, P.U.F., 1948).
 P.-M. DUVAL, *La vie quotidienne en Gaule pendant la paix romaine* (Paris, Hachette, 1952).
 J. CARCOPINO, *Points de vue sur l'impérialisme romain* (Paris, Le Divan, 1934).

٥ - روما

- L. HOMO, *La civilisation romaine* (Paris, Payot, 1930).
 T. FRANK, *An economic survey of ancient Rome* (5 vol., Baltimore, The Johns Hopkins press, 1933-1941).
 L. HOMO, *Les institutions politiques romaines, de la cité à l'Etat*, vol. 18 de la collection « L'évolution de l'humanité » (Paris, A. Michel, 1927).
 A. GRENIER, *Le génie romain dans la religion, la pensée et l'art*, vol. 17 de la même collection (1925).
 P. GRIMAL, *La vie à Rome dans l'antiquité*, dans la collection « Que sais-je ? » (Paris, P.U.F. 1953).
 J. BAYET, *Littérature latine : histoire et pages choisies traduites et commentées* (Paris, A. Colin, 6^e éd., 1953).
 H.-I. MARROU, *Histoire de l'éducation dans l'Antiquité* (Paris, éditions du Seuil, 1948).
 E. STRONG, *L'art romain*, dans la collection « Ars una » (Paris, Hachette, 1932).

٦- روما في العهد الجمهوري

- G. BLOCH, *La République romaine, conflits politiques et sociaux*, (Paris, Flammarion, 1913).
E. MEYER, *Römischer Staat und Staatsgedanke* (Zurich, Artemis Verlag, 1948).
G. COLIN, *Rome et la Grèce de 200 à 146 avant J.-C.*, fasc. XCIV de la « Bibliothèque des Ecoles françaises d'Athènes et de Rome » (Paris, Fontemoing, 1905).
P. GRIMAL, *Le siècle des Scipions; Rome et l'hellénisme au temps des guerres puniques*, (Paris, Aubier, éd. Montaigne, 1953).

٧- روما في العهد الامبراطوري

- G. BLOCH, *L'Empire romain, évolution et décadence*, dans la collection « Bibliothèque de philosophie scientifique » (Paris, Flammarion, 1921).
M. ROSTOVTZEFF, *The social and economic history of the Roman empire* (Oxford, 1926), dont des éditions révisées et complétées ont paru en allemand (1931), en italien (1933) et en espagnol (1938).
M.-P. CHARLESWORTH, trad. par G. BLUMBERG et P. GRIMAL, *Les routes et le trafic commercial dans l'Empire romain* (Paris, éditions de Cluny, 1938).
F. CUMONT, *Les religions orientales dans l'Empire romain* (Paris, Leroux, 4^e éd., 1928).
L. HOMO, *Rome impériale et l'urbanisme dans l'Antiquité*, vol. 18 bis de la collection « L'évolution de l'humanité » (Paris, A. Michel, 1952).
A. et M. CROISET, *Histoire de la littérature grecque*, t. V (Paris, de Boccard, 3^e éd., 1914).

٨- الامبراطورية الاولى

- L. FRIEDLANDER, *Darstellungen aus der Sittengeschichte Roms, in der Zeit von Augustus bis zum Ausgang der Antonine*, (10^e éd., 4 vol., Leipzig, 1920-1923).
J. CARCOPINO, *La vie quotidienne à Rome à l'apogée de l'Empire* (Paris, Hachette, 1939).
J. CHARBONNEAUX, *L'art au siècle d'Auguste* (La guilde du livre, 1948).

٩- الامبراطورية الثانية

- E. STEIN, *Geschichte des spätromischen Reiches*, t. I, *Vom römischen zum byzantinischen Staate, 284-476 n. Chr.* (Vienne, 1928).
F. LOT, *La fin du monde antique et le début du Moyen Age*, (Paris, A. Michel, 1927).
R. LATOUCHE, *Les grandes invasions et la crise de l'Occident au V^e siècle*, (Paris, Aubier, 1947).
H.-I. MARROU, *Saint Augustin et la fin de la culture antique* (Paris, de Boccard, 2^e éd., 1950).
Du même, *Saint Augustin et l'augustinisme*, (Paris, éditions du Seuil, 1955).

١٠- الكنيسة

- L'histoire de l'Eglise depuis les origines jusqu'à nos jours*, fondée par A. FLICHE et V. MARTIN (Paris, Bloud et Gay).
— t. I, J. LEBRETON et J. ZEILLER, *L'Eglise primitive* (1933).
— t. II, Des mêmes, *De la fin du II^e siècle à la paix constantinienne* (1935).
— t. III, P. DE LABRIOLLE, G. BARDY et J.-R. PALANQUE, *De la paix constantinienne à la mort de Théodose* (1936).
— t. IV, P. DE LABRIOLLE, G. BARDY et L. BREHIER, *De la mort de Théodose à l'élection de Grégoire le Grand* (1937).

- Mgr L. DUCHESNE, *Histoire ancienne de l'Eglise* (4 vol., Paris, de Boccard, 1910-1929).
H. LIETZMANN, trad. JUNG, *Histoire de l'Eglise ancienne* (3 vol., Paris, Payot 1936-1941).
P. DE LABRIOLLE, *Histoire de la littérature latine chrétienne*, 3^e éd. revue par G. BARDY (2 vol., Paris, Belles-Lettres, 1947).
A. PUECH, *Histoire de la littérature grecque chrétienne* (3 vol., Paris, Belles-Lettres, 1928-1930).
CH. DIEHL, *L'art chrétien primitif et l'art byzantin* (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1928).

١ - آسيا الشرقية منذ أوائل العهد المسيحي حتى آخر القرن الرابع

١ - دراسات عامة

راجع مصادر المجلد الاول : الشرق واليونان القديمة ١٩٦٤ ، ص ٦٤٧ وما يليها . منشورات عويدات - بيروت .

٢ - الهند

- A. L. BASHAM, *The Wonder that was India*, (Londres, Sidgwick et Jackson, 1954).
H. DEYDIER, *Contribution à l'étude de l'art du Gandhâra* (Paris, A. Maisonneuve, 1950).
A. FOUCHER, *L'art gréco-bouddhique du Gandhâra*, 3 vol. (Paris-Hanoï, 1918-1951).
R. GROUSSET, *Les philosophies indiennes*, 2 vol. (Paris, Desclée de Brouwer, 1931).
R. GHIRSHMAN, BEGRAM, *Recherches archéologiques et historiques sur les Kouchans*, Mémoires de la Délégation archéologique française en Afghanistan, t. XII (Le Caire, 1946).
J. et R. HACKIN, *Recherches archéologiques à Begram*, chantier N° 2 (1937), 2 vol., Mémoires de la Délégation archéologique française en Afghanistan, t. IX (Paris, Les éditions d'Art et d'Histoire, 1939).
Des mêmes, *Nouvelles recherches archéologiques à Begram* (1939-1940) (Paris, P.U.F., 1954).
J.-E. VAN LOHUIZEN-DE LEEUW, *The «Scythian» Period* (Leyde, Brill, 1949).
H.-G. RAWLINSON, *Intercourse between India and the Western World... to the fall of Rome* (Cambridge, 1926).
J.-Ph. VOGEL, *Ars Asiatica*, (Paris-Bruxelles, Van Oest, 1930).
L. RENOU, *La civilisation de l'Inde ancienne*, (Paris, Flammarion, 1950).

٣ - الصين

- HIRTH, *China and the Roman Orient* (Leipzig, 1885).
H. MASPERO, *Les religions chinoises*, (Paris, S. A. E. P., 1950).
H. MASPERO, *Le taoïsme*, (Paris, S. A. E. P., 1950).
P. PELLLOT, *La haute Asie*, s. l. n. d.

٤ - الهند الصينية وجزر جنوبي شرقي آسيا

- G. MASPERO, *Le royaume de Champa* (Paris, Van Oest, 1927).
P. DUPONT, *La statuaire préangkorienne* (Ascona, Ed. Artibus Asiae, 1955).

٥ - اليابان وكوريا

- J. BUHOT, *Histoire des arts du Japon*, I (Paris, Van Oest, 1949).
A. ECKARDT, *A History of Korean Art* (Londres-Leipzig, 1929).
G.-B. SAMSON, *Le Japon* (Paris, Payot, 1938).

مراجع عربية

تتمه للبحث ، واستكمالاً لجريدة المصادر الفرنجية ، رأت دار منشورات عويدات في بيروت ، تكليف الاستاذ يوسف أسعد داغر ، الاختصاصي بفن المكتبات ، والخبير العالمي بالبيبلوغرافيا الشرقية ، وأحد المترجمين لهذه الموسوعة التاريخية ، إعداد قائمة بأهم المراجع والمصادر التاريخية العربية الهامة التي تتعلق بأهم مواد هذا الجزء . وقد لبى الاستاذ داغر رجاءنا وقام بإعداد هذه القائمة خدمة منه للبحث العلمي والباحثين في عالم الفناء ، ممن يهتمون بالدراسات التاريخية في هذا العهد من تاريخ البشرية الممتد من أواسط القرن الثامن قبل الميلاد ، حتى اواخر القرن الرابع بعده .

الإدارة

١ - التاريخ العام

- يوحنا ابكار يوس: قطف الزهو في تاريخ الدهور - بيروت، المطبعة الأدبية، ١٨٨٥ - ص ٥٢٩.
- بوسويه: خطاب في التاريخ العام . ترجمة شاكر عون والشيخ عبد الله البستاني - بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٨٨٢ ص ٣٤٤ .
- جرجي زيدان : التاريخ العام ، منذ الخليقة الى يومنا هذا - القاهرة .
- الطبري : تاريخ الأمم والملوك - القاهرة ، المكتبة التجارية ٨ أجزاء ، ١٩٣٩ .
- مايرز ، فيليب فان نيس : التاريخ العام . ترجمة عن الانكليزية - بيروت ، المطبعة الأميركية ، ١٩٢٨ - ١٩٢٩ ، ٣ أجزاء في مجلد واحد .
- هامرئ ، السيرجون ألكسندر : تاريخ العالم . ترجمة وزارة المعارف العمومية - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ ، وترجمة ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦ - ١٩٦٠ في ٢٢ عدداً .
- ولز ، هربرت جورج : معالم تاريخ الانسانية . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٧ ، ٣ مجلدات .
- لانجر ، وليم ليونارد : موسوعة تاريخ العالم . أشرف على الترجمة محمد مصطفى زيادة - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ - ١٩٦٢ ، في ٤ مجلدات .
- فير سرفس : أصول الحضارة الشرقية . ترجمة رمزي يس - القاهرة ، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع ، ١٩٦٠ ص ٢٧٨ (الألف كتاب - ٣٠٤) .
- رالف لنتون : شجرة الحضارة . قصة الانسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث - القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ - ١٩٦٠ ، جزءان في مجلدين .
- برستد ، جيمس هنري : العصور القديمة . ترجمة داود قربان ، وهو تمهيد لدرس التاريخ القديم واعمال الانسان الأول - بيروت ، ١٩٣٠ ، ص ٦١٦ .
- » : انتصار الحضارة . تاريخ الشرق القديم . نقله الى العربية احمد فخري - القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٥ (يحتوي هذا الكتاب ٣٠ فصلاً ... لم يترجم منها إلا الفصول الثانية الاولى) .

ديورانت ، وليم جيمس : قصة الحضارة ، ١٩٥٩ ، عدة اجزاء :

ج ١ - ق ١ : نشأة الحضارة

ق ٢ : الشرق الأدنى

ق ٣ : الهند وجيرانها

ق ٤ : الشرق الأقصى - الصين

ق ٥ : د د - اليابان

ج ٢ ق ١ - ٣ : حياة اليونان

ج ٣ ق ١ : قيصر والمسيح او الحضارة الرومانية.

٢ - إيطاليا

فرنسيس دينوار : إيطاليا ... شعبها وارضها . ترجمة محمد نظيف ، مراجعة عبد الرحمن زكي ،
تقديم عز الدين فريد - القاهرة . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣ ص ١٢ .

٣ - روما

فومستيل دي كولانج : المدينة العتيقة . دراسات لعبادة الاغريق والرومان وشرعهم وأنظمتهم .

ترجمة عباس بيومي - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ ص ٥٥٠ .

الدكتور أسد رستم : عصر أوغسطس قيصر وخلفاؤه : ٤٤ ق.م - ٦٩ ب.م - بيروت ١٩٦١
- الجامعة اللبنانية - قسم الدراسات التاريخية - ٧ .

فيشر ، هيربرت ألبرت لورنس : تاريخ أوروبا في العصور القديمة . ترجمة ابراهيم نصوحى ومحمد
عواد حسين - القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٠ ص ١٧٨ .

بلوتارخوس : العظماء . عظماء اليونان والرومان والموازنات بينهم . ترجمة ميخائيل بشاره
داود - القاهرة ، دار المصور ، ١٩٢٨ .

٤ - الفينيقيون

جورج نقولا عطية : مباحث في المدينة الأولى - بيروت ، دار النشر للجامعيين ، ١٩٥٦
ص ٢٠٣ (قدم له خليل الجر) .

عبد الله يوسف نحاس : الفينيقيون وركاز الذهب واكتشاف اميركا - الطبعة الثانية - القاهرة
مطبعة جريدة البصير ، ١٩٥٠ ص ١٢٦ .

٥ - الساسانيون

كريستنسن ، آرثر : ايران في عهد الساسانيين . ترجمة الدكتور يحيى الحشاش ، راجعه عبدالوهاب
عزام - القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٧ ص ٥٩١ .

محمد محمدي : النظم الادارية الساسانية في دولة الخلفاء وما ظهر من اثر في الأدب العربي - بيروت
١٩٤١ (اطروحة بالدائرة العربية في الجامعة الاميركية) .

ديورانت ، وليم جيمس : قصة الحضارة الفارسية . ترجمة امين الشواربي - القاهرة ، مكتبة
الخانجي ١٩٤٧ ص ٨٩ .

جدول زميني مقارن

- ان التوقيت القديم غير اكيد في الغالب . لذلك اضطررنا الى استعمال مصطلحات تشير الى تاريخ تقريبي فقط :
- ان كلمة « حوالي » تشير الى تاريخ متأرجح قد يبلغ التفاوت فيه بين نصف قرن وعشر سنوات .
- ان علامة الاستفهام (?) تشير الى تاريخ متأرجح يبلغ التفاوت فيه عدة سنوات فقط .

التواريخ	الغرب
الالف الثاني	عصر البرونز في اوربوا الغربية، حضارة المساكن المائية في ايطاليا الشمالية .
اوائل الالف الاول	ظهور حضارة هاليسستا في اوربوا الوسطى ، وحضارة المدينة الجديدة في ايطاليا الشمالية . وعقبت هذه الأخيرة ، دون فاصل زمني، الحضارة الاتروزيية في ايطاليا الوسطى . تأسيس قرطاجة ، مستعمرة صور .
منتصف القرن الثامن	التقليد يحدد السنة ٧٥٣ تاريخا لتأسيس روما . بدء الاستعمار اليوناني في ايطاليا الجنوبية وصقلية .
اواخر القرن السابع	سيادة الاتروسك على روما . قرطاجة تجمع تحت سيطرتها الاسواق الليبية في المتوسط الغربي .
اوائل القرن السادس	الاغريق الايوليون يؤسسون مرسيليا (٦٠٠) . الاتروسك يقيمون في كمباليا . الكلتيون يدخلون شبه الجزيرة الايبيرية
٥٣٥ (?)	الاتروسك والقرطاجيون يهزمون اغريق كورسكا ، ثم لا يلبث الاتروسك ان يقيموا في سهل البو .
٥٠٩	روما تقلب الملكية وتتخلص من سيطرة الاتروسك .
اوائل القرن الخامس	استياد الدينومييني في سيراكوزا : التصار المستبد جيلون ، في ٤٨٠ ، على القرطاجيين في هيميرا ، اخوه وخلفه هيرون يهزم الاتروسك في كوم في السنة ٤٧٤ . الاتروسك يتخلون تدريجيا عن كمباليا للسمنيين . بدء حروب روما ضد جيرانها في اتروريا وايطاليا الوسطى . بدء صراع عامة الشعب للحصول على المساواة المدنية والسياسية بالاشراف : في ٤٩٤ ، احداث منصب المحامي عن عامة الشعب . فنانان يونانيان يزينا معبدا في روما .
٤٥٠ (?)	شريعة اللوحات الاثنتي عشرة .
نصف القرن الخامس والثاني	ظهور الحضارة التينية في اوربوا الوسطى والغربية .
اواخر القرن الخامس - اوائل القرن الرابع	تجدد الحرب بين قرطاجة واغريق صقلية : استياد دئيز القديم في سيراكوزا (٤٠٥-٣٦٧) . الرومان يحاصرون (٤٠٦-٣٩٦) ويحتلون مدينة فييس الاترودية . ظهور الغاليين في ايطاليا في اوائل القرن الرابع وبلوغهم روما التي ينهاونها في ٣٩٠ ، اقامتهم في سهل البو بعد طرد الاتروسك منه ، احتلالهم فلسينا (حوالي ٣٦٠) التي تصبح بولوليا
٧٧٠	

التواريخ	الهند والصين	الشرق الأدنى
الالف الثاني	حضارة الهندوس (موهنجودارو هارابا) • كتابة لم تحل رموزها بعد • في الصين : سلالات هيا وشانغ وتشيو • حوالي ١٥٠٠ وصول ال «آريا» الى حوض الهندوس •	غزوات الهندو الاوروبيين واقامتهم في الشرق الأدنى والهند • الامبراطورية المصرية الحديثة (١٥٨٠ - ١٠٩٠) • اوج الحضارة الايجية حوالي ١٥٠٠ •
اوائل الالف الاول	امتداد الآرية نحو الخارج	تحركات الشعوب في الشرق الأدنى : « شعوب البحر » ، اقامة الفلسطينيين على ساحل فلسطين ، انحطاط الامبراطورية الحثية المصرية ، غزو الدوريين لليونان • بدء الفتوحات الاشورية الكبرى في القرن التاسع • الشروع بوضع لائحة الفائزين في الالعاب الاولمبية •
٨١٣		
منتصف القرن الثامن		
اواخر القرن السابع		تقويض القوة الاشورية على ايدي البابليين والميديين (احتلال نينوى وهدمها في ٦١٢) • شرائع دراكون في اثينا (٦٢١)
اوائل القرن السادس		نبوخذ نصر يحتل اورشليم : سبي بابل • في السنة ٥٩٤ شرائع صولون في اثينا حيث يقيم بيسستراتوس نظام الاستبداد
٥٣٥ (?)	الهند : امتداد الآرية شرقا وجنوبا • قورش يدخل كابول (؟) • مولد بوذا (٥٥٩) • مولد جينا (٥٤٠) • فتوحات داريوس في الهند الشمالية • الصين : مولد كونفوشيوس (٥٥١) •	منذ ولاية قورش ، فتوحات فارسية عظمى ، يعض الاغريق يهاجرون بعد فتح آسيا الصغرى •
٥٠٩		قلب الاستبداد الاثيني في السنة ٥١٠ •
اوائل القرن الخامس	الصين : الممالك المحاربة • حياة الفيلسوف مو - تسو (٤٨٠ - ٤٠٠) • موت كونفوشيوس (٤٧٩) • الهند : موت بوذا (٤٨٧) • موت ٩ جينا ، ٤٦٨	الحروب الميديّة : في ٤٩٠ و ٤٨٠ - ٤٧٩ الاغريق يهزمون الفرس • نشأة ونمو القوة البحرية الاثينية • استئصال وسولوكليس • حوالي ٤٧٠ ، مولد سقراط •
٤٥٠ (?)		
نصف القرن الخامس والثاني	الشقاق التشيو (حوالي ٤٤٠)	في ٤٤٧ ، الشروع ببناء البارثنون • من ٤٤٣ حتى ٤٣٠ بريكليس قاض اول في اثينا • ماسي اوريبيد •
اواخر القرن الخامس - اوائل القرن الرابع		٤٣١ : اندلاع حرب البيلوبونيز ٤١٥-٤١٣ : حملة الاثينيين على سيراكوزا • ٤٠٤ : استسلام اثينا ، سيطرة سبارطة على اليونان حتى ٣٧١ • توسيدديد يضع تاريخ حرب البيلوبونيز • مهازل ارسطوفانوس • دعوى سقراط وموته في السنة ٣٩٩ افلاطون يؤسس الاكاديمية في السنة ٣٨٠ •

التواريخ	الغرب
القرن الرابع	عامة الشعب الرومانية تسووا بالمساواة بالاشراف • حصولها في السنة ٣٦٧. على حق تولي القنصلية ، للمرة الاولى يصبح احد افرادها قنصلا في ٣٦٦ ودكتاتورا في ٣٥٦ وقاضيا احصاء في ٣٥١ •
٣٤٣ - ٢٩١	سلسلة الحروب « السمنية » بين روما وجبيلي الابنين الجنوبي • ٣٢١ : هزيمة الرومان • روما تحتفظ اخيرا بكمبانيا حيث تضرب النقود منذ ٣٩٤ وتضطر السمنيين •
٣١٢	ابوس كلوديوس قاضي احصاء القناة الابية والطريق الابية
٣١٠ - ٣٠٧	حملة مستبد ميلاكسوزا ، اغاثوكليس ، في اريشيا ضد قرطاجة •
٢٨٠ - ٢٧٥	حملة بيروس ملك الايبير على ايطاليا بناء على دعوة طارنتا ، حروبه في ايطاليا ضد روما وفي صقلية ضد قرطاجة وعودته الى اليونان • دخول الفالين الى مقدونيا وبلوغهم دلفي في اول ٢٧٨ • استيطانهم تراقيا وقلب آسيا الصغرى •
٢٧٢	خضوع طارنتا لروما •
٢٦٤	ادخال مبارزات المسابقين الى روما • الرومان يدخلون مدينة كولسيني الاثروية ويهدمونها ثم ينتقلون الى صقلية ويحتلون ميسينا : بداية الحرب البونيقية الاولى •
٢٥٦ - ٢٥٥	لـزول ريغولوس الى البر الافريقي ، هزيمته واسره •
٢٥١ (?) - ١٨٤	حياة بلوت
٢٤١	نهاية الحرب البونيقية الاولى : سيادة الرومان على صقلية •
٢٤٠	اول مأساة مسرحية للفيوس اندرونيكوس •
٢٣٩ - ١٦٩	حياة ايثيوس •
٢٤٠ - ٢٣٧	« حرب المرتزقة » في اريشيا : قرطاجة تتخل عن سردينيا وكورسكا لروما • في ٢٣٧ هاميلكار برقا يقصد اسبانيا وييسط عليها سيطرة قرطاجة •
٢٣٤	مولد شيبليون الافريقي وكاتون القديم •
٢٣٢	حملة الديمقراطيين على مجلس اثينيون : فلامينيوس مجام عن حقوق الشعب •
٢٢٩	الحرب الاثروية الاولى : اول تدخل لروما وراء الادرياتيكا • موت هاميلكار برقا : صهره يخلفه •

التواريخ	الهند والصين	الشرق الأدنى
القرن الرابع	الصين : حياة منشيوس (مونغ-تسو) حوالي ٣٥٠	عودة الديمقراطية الى اثينا منذ ٤٠٣ • قيام الاتحاد البحري الثاني في ٣٧٧ • هزيمة سبارطة في لوكرا في ٣٧١ وبدء نفوذ طيبه حتى ٣٦٢ • فيلبوس يحكم مقدونيا من ٣٥٩ حتى ٣٣٦ ، وفي ٣٣٨ يسيطر نفوذه على اليونان بعد انتصاره في شيرونيا على الرغم من جهود ديموستينس •
٢٩١ - ٣٤٣	الهند : سلالة الموريا (٣٢٢ - ١٩٦)	٣٣٦ - ٣٢٣ : ملك الاسكندر الذي يمر في آسيا الصغرى في ٣٣٤ ويفتح صور في ٣٣٣ ويؤسس الاسكندرية في ٣٣١ ويفتح بابل في ٣٣١ ويخضع الايرانيين من ٣٣٠ الى ٣٢٧ ويحارب في الهند في ٣٢٦ و٣٢٥ ويموت اخيرا في بابل في ٣٢٣ • بعد موته يتنازع قواده ارضه بقوة السلاح •
٣١٢	الهند : شاندراغوبتا يمتلي العرش ٣١٣-٣١٢ ؟	فشل انتيفونس الاحول وابنه ديميتريوس بوليوركتيس في الحفاظ على وحدة امبراطورية الاسكندر لمصلحتها • منذ السنة ٣٠٦ حمل عدد من القادة لقب الملك •
٣٠٧ - ٣١٠	الصين : قيام محكمة التسين (٣١٠) • الهند : وفد ميفاستين الى باثاليبوترا (حوالي ٣٠٠)	استقرار الملكيات الهلينية : اللاتيفوليون في مقدونيا ، واللاجيون في مصر، والسلوقيون في ايران وبابل وسوريا وآسيا الصغرى • بوادر سلطة الاطالين على برغاموس • مولد ايراثوستينوس في ٢٧٥ •
٢٧٢		موت ابيقور
٢٦٤	الهند : اشوكا يمتلي العرش ٢٦٤ - ٢٦١ ؟	موت زيلون مؤسس المدرسة الرواقية •
٢٥٥ - ٢٥٦		
٢٥١ (?) - ١٨٤	استقلال البختيار بفضل اليوناني ذيودوتوس الاول • اشوكا يمتلق البوذية (٢٥٠) ٢٤٦ : مباشرة بناء سور الصين	حوالي ٢٥٠ اول عهد سلالة الارساسيين الفارسية •
٢٤١		
٢٤٠		
٢٣٩ - ١٦٩		
٢٤٠ - ٢٣٧		
٢٣٤		
٢٣٢		
٢٢٩		

التواريخ	الغرب
٢٢٥ - ٢١٨	آخر غزو يقوم به الغاليون على شبه الجزيرة الإيطالية : القضاء عليهم في راس تيلامون (٢٢٥) . بعد هذا النصر انتقل الرومان إلى احتلال سهل البو الذي يبدو أنه كان خاضعا لروما حين اندلعت الحرب اليونانية الثانية
٢١٩	الحرب الإليرية الثانية . هنيبعل الذي خلف ابن عمه ، في ٢٢١ على رأس قوات قرطاجة ، يدخل ساغونتيا ، فيؤدي عمله إلى الحرب ضد روما .
٢١٨	استفتاء كلوديوس الذي يحظر التجارة البحرية على الشيوخ وبنائهم .
٢١٨ - ٢٠١	الحرب البونيقية الثانية ٢١٨ : هنيبعل يجتاز غاليا الجنوبية والالاب ويبلغ إيطاليا ويهزم الرومان على التسين وتريبيا ، ٢١٧ : هزيمة فلامينيوس ومقتله في بحيرة ترازيينا ، دكتاتورية لك . فابيوس مكسيموس «الثاني» وتدبيره الدينية ، ٢١٦ : معركة كانا ، فابيوس يكتور يستشير هاتف غيسب دلفي . ٢١٥ : استسلام كابوا إلى هنيبعل ، هنيبعل يحالف فيليبوس الخامس المقدوني ، قانون اوبيوس ضد بلذخ الفساد . ٢١٤ : سيراكوزا تفصل عن روما التي تستعيدوها في ٢١٢ بعد حصار طويل مات أرخميدس في نهايته . ٢١٢ : هنيبعل يحتل طارتنا التي لن يستعيدوها الرومان قبل ٢٠٩ ، أول احتفال بأعياد إبرلون في روما على الطقس اليوناني . ٢١١ : استعادة كابوا ، هزيمة شيبليون ومقتله في اسبانيا على يد هاسدرو بثل شقيق هنيبعل ، اتفاق روما والايولييين وإطال الثاني للقيام «بالحرب المقدونية الأولى» في اليونان . ٢١٠ : شيبليون الشاب يوفد إلى اسبانيا حيث يحتل قرطاجة في ٢٠٩ ، في ٢٠٨ يهزم هاسدرو بثل الذي ينجو إلى إيطاليا لمساندة أخيه . ٢٠٧ : هزيمة عمل «الميطور» قبل التحاقه بأخيه ، اقترابه يحدث قلما كبيرا في روما حيث تتخذ تدابير دينية : تشييد ليفيوس اندرونيكوس . ٢٠٦ : شيبليون يقضي على قوة قرطاجة في اسبانيا ، ثم يعود إلى روما . ٢٠٥ : روما تمقد الصلح مع فيلبوس المقدوني . شيبليون ، الذي عين قنصلا ، يحضر حملته على إفريقيا . ٢٠٤ : ادخال عبادة سيبييل إلى روما ، شيبون ينزل إلى البر في إفريقيا ويحالف ماسينيسا . ٢٠٣ : هنيبعل يجلو هسن إيطاليا . ٢٠٢ : انتصار شيبليون في زاما . ٢٠١ : الصلح مع قرطاجة .
٢٠٠ (?)	موت ناليوس
العالم الروماني وجيرانه	الهند والصين
٢٠٠ - ١٩٤	الحرب المقدونية الثانية وتدخل روما العسكري في اليونان . ١٩٧ : البصار ت . كولكتيوس فلامينيوس في سينوسيفال . ١٩٦ : اعلان استقلال الدولة اليونانية المسلحة عن مقدونيا . ١٩٤ : جلاء القوات الرومانية عن اليونان جلاء تاما .
منذ ٢٠٠	روما تحتل غاليا الإيطالية مجددا وتخضع القبائل الليفورية
١٩٩ (?) - (١٩٥ ?) - (١٨٤ ?)	القوانين البوركية التي لا يعرف واضعوها والتي تهدف إلى حماية المواطنين ضد تحكم القضاة .
١٩٧	هنيبعل يقوم باصلاحات داخلية في قرطاجة . منفاء والتجاذو إلى انطيوخوس الثالث ، موته في بيقينيا في ١٨٣-١٨٢ بعد مطاردة روما له .
١٩٥	فصلية كاتون ، الفاء القانون الادبي . كاتون يقيم ثورات القبائل الاسبانية .
١٩٤ (?) - (١٥٩ ?)	حياة تيرانس .

التواريخ	الهند والصين	الشرق الأدنى
٢٢٥ - ٢١٨	الصين : سلالة التسين ٢٢١- ٢٠٧ .	انطيوخوس الثالث السلوقي يعتلي العرش في ٢٢٣ . فيلبوس الخامس المقدوني يعتلي العرش في ٢٢١ .
٢١٩		
٢١٨		
٢١٨ - ٢٠١	الصين : سلالة الهان (٢٠٦ قبل المسيح - ٢٢٠ بعد المسيح) .	فيلبوس الخامس يفرض السلم على اعدائه اليونانيين في ٢١٧ تفكيره بطرد الرومان من الممتلكات التي احتلها في اليوريا . من ٢١٢ الى ٢٠٥ ، قسام انطيوخوس الثالث ، الذي سبق وقمع محاولة اغتصاب في آسيا الصغرى بحملة عسكرية كبرى على ارمينيا وخصاب ايران ؛ بعد اعادة السلطة السلوقية على هذه المناطق النائية ، ذاعت شهرته في طريق عودته نحو المتوسط . فيلبوس الخامس وانطيوخوس الثالث يقومان باعمال متوازية في آسيا وبحر ايجه ، منذ ٢٠٣ للانفاداة من انحطاط قوة اللاجين اسيا مصر .
٢٠٠ (?)		

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند والصين
١٩٢ - ١٨٨	الحرب بين انطيوخوس الثالث والايوليقي . شتاء ١٩٠-١٨٩ : معركة مغنيزيا . ١٨٨ : معاهدة باعيا تحد من القوة السلوقية . بعد الحملة على غلاطي آسيا الصغرى ، لم يبق ، بعد ١٨٧ ، أي جندي روماني في آسيا واليونان . فصيحة الرقصات الخلاعية	الهند : ديمتريوس يفتد غندهارا والبنجاب ، ١٨٩
١٨٦		
١٨٥ - ١٨٤	كاتون فاضي احصاء . مولد شيببيون اميليانوس .	
١٨٣	موت شيببيون الافريقي الذي اقيمت عليه دعاوى عديدة في اواخر حياته .	
١٨٠ (?) - ١١٠ (?)	حياة بالاتيوس الرودسي .	
١٨٠ (?) - ١٠٣ (?)	حياة لوسيليوس	
١٨٠ - ١٧٨	حرب الكلثبير التي اشتهر فيها ط . سامرونوبوس غراكوس اب الاخيرين غراكوس .	الهند : سلالة الكونفا (١٧٦- ٦٤) اوكراتيس ينتزع البخترين وكايتا من ديمتريوس (١٧٢-١٦٨)

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند والصين
١٧٣	طرد الفلاسفة الابيقوريين من روما .	ميناندرس في البنجاب . نضواته تبلغ بافليبيورا
١٧٢ - ١٦٧	الحرب المقدونية الثالثة ضد الملك برسيه : انتصار بول اميل في بيدنا ، بوبيليوس يرغم انطيوخوس الثالث على الجلاء عن مصر ، ١٦٧ : تنظيم اربع جمهوريات مستقلة في مقدونيا ، الغاء الضريبة المباشرة . نفي ١٠٠٠ آخي الى ايطاليا بينهم بوليب .	
١٦١	مشورة مجلسية تقضي بطرد الفلاسفة وعلماء البيان من روما . روما تحالف اليهود الناصريين على الملكية السلوقية .	
١٥٤ - ١٥٢	حرب ثانية ضد الكلثير .	
١٥٠	السماح لـ ٣٠٠ آخي بقوا على الحياة بالعودة الى اليونان	
١٤٩ - ١٤٦	الحرب البونيقية الثالثة : شيبليون اميليانوس يعمد قنصلا لادارتها ، يهدم قرطاجة في ١٤٦ ، احداث ولاية «افريقيا» . في الوقت نفسه ، احداث حاسمة في اليونان . ١٤٩ : ثورة مقدونيا التي يلي قمعتها تحول البلاد الى ولاية . ١٤٧ : الاتحاد الآخي يعلن حربا تؤدي في ١٤٦ ، الى هدم كورنثوس على يد القنصل لـ موميوس .	
١٤٨	الحبر الاعظم موسيوس سكالولا يوعز بتحرير ونشر «الحوليات العظيمة» .	
١٤٧ - ١٣٧	اللوزيتانيون يقاومون السيطرة الرومانية ، وقد اغتيل رئيسهم فيريات في ١٣٩	
١٤٤ - ١٣٣	الحرب الثالثة والاخيرة ضد الكلثير . ١٣٧ : كارثة رومانية امام نومانس . شيبليون اميليانوس يعمد قنصلا مرة ثانية في ١٣٤ لادارة الحرب : في ١٣٣ يحتل نومانس ويهدمها .	الصين : وييمتلي العرش (١٤٠ - ٨٧) ، امتداد الفتوحات نحو التركستان الصيني
١٣٤ - ١٣٢	الحرب العبيدية الاولى	
١٣٥ (?) - ٥٠ (?)	حياة بوذا يدوليوس	
١٣٣	طبيب اريوس غراكوس محام عن الشعب ، قانونه الزراعي وموته . اطال الثالث يموت بعد ان عين الشعب الروماني وريثا له .	حوالي ١٣٠ ، بلغ الـ «يوتشي» البختران واخضعوها .
١٢٩	تحويل المملكة الاطالية القديمة الى ولاية «آسيا» بعد انكسار ارسطونيكوس . موت شيبليون اميليانوس . الفارثيون الارساسيون ينتزعون بلاد بابل لهاثيا من المملكة السلوقية .	
١٢٥ - ١١٨	احتلال وتنظيم ولاية غاليليا الناربونية . ١٢٢ : تأسيس اكواسكستيا (اكس) ، ١٢١ : حزيمة بيتويت ملك الارفرن ، ١١٨ : تأسيس ناربونا .	
١٢٣ - ١٢١	كايسوس غراكوس محام عن عامة الشعب .	

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند والصين
١١٩	ماريوس محام عن عامة الشعب: قانون سرية الانتخاب .	
١١٦	مولد فارون الذي سيموت في ٢٧ .	علاقات دبلوماسية بين الصين والبيختيار
١١٢ - ١٠٦	الحرب ضد جوغورتا . ١٠٧ تمين ماريوس قنصلا لادارتها . ١٠٦ يوخوس ملك موريتانيا يسلم جوغورتا .	
١١٣ - ١٠١	غزوة السمبر والتوتون . ١٠٥: هزيمة الرومان في اورانج . ١٠٢ و ١٠١: انتصارات ماريوس الحاسمة في اكس وفرسيل .	الهند : هليودوروس يقيم نصبا لـ « فيديشا »
١٠٦	مولد ششرون وبوسبيوس .	
١٠٣ - ١٠٢	الحرب العبدية الثانية	
١٠١	مولد قيصر .	
١٠٠	قنصلية ماريوس السادسة . اضطرابات في روما وموت ساتورنيوس	
٩٨ (?) - ٥٤ (?)	حياة لوكريس	
٩١ - ٨٨	ليفوس دروزوس محام عن الشعب في السنة ٩١ . موته يثير الإيطاليين . « الحرب الاجتماعية » تنصف بالحدة حتى السنة ٨٨ . تاريخ توسيع حق المواطنة .	
٩٠ (?) - ٥٠ (?)	نشاط انتماش باسيتيلس في روما	
٨٩ - ٨٢	بدء الحرب الاولى ضد متريدات الذي يأمر في السنة ٨٨ بتقتيل الإيطاليين في آسيا وديلوس . اليونان تثور ، سيللا يستعيد اثينا في ٨٦ . يعقد صلح مع متريدات في ٨٥ . اثناء عيابه اصبح الديمقراطيون مع ماريوس (الذي مات في ٨٧) وسينا (الذي مات في ٨٤) اسبابا روما . سيللا يعود على راس جيشه ، وفي السنة ٨٢ يهزم خصومه امام روما التي يدخلها عنوة ، احكامه بالنفي .	
٨٧ (?)	مولد كاتولوس ، الذي سيموت في ٥٤ (٩) ، وسالوستوس الذي سيموت في ٣٥ دكتاتورية	
٨١ - ٧٩	سيللا ، اصلاحاته الدستورية ، تشييد الابنية في روما وبرليستا ٠٠ سيللا يستقيل في ٧٩ .	
٨٠ - ٧١	الحرب في اسبانيا ضد الديمقراطي . سرتوريوس . يومبوس يضع لها حدا ويعيد الهدوء الى منطقة اليرينه . ومالفا .	ال «شاكاه» ينزلون نحو البنجاب
٧٣ - ٧١	الحرب العبدية الثالثة (سبارتاكوس) . فيريس قاضي صقليا .	الصين : سيوان - تي يمثل العرش في الصين (٧٣-٤٩) لتوحات جديدة نحو الغرب .
٧٣ - ٦٧	بدء الحرب الثانية ضد متريدات بقيادة لوكولوس حتى ٦٧ . جيشه يثور عليه فيفقد الافادة من انتصاراته .	

٥٠ - روما وامبراطوريتها

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند والصين
٧٠	قنصلية بومبيوس وكراسوس دعوى فيريس • الفاء فواتين سيلا • مولد فيرجيل الذي سيموت في السنة ١٩ •	اول عهد الـ « اندرا » في جنوبي الهند •
٦٧ - ٦٣	حملات بومبيوس في الشرق ضد القرصنة (٦٧) ، ثم ضد مريدات (٦٦) الذي يلتجئ الى مملكة البوسفور حيث يموت في ٦٣ • بومبيوس يجوب ارمينيا ، وسوريا التي يضمها الى الامبراطورية وينظمها ولاية (٦٣) ، وفلسطين حيث يدخل اورشليم (٦٣) •	
٦٣	قنصلية شيشرون ، انتخاب قيصر جيرا اعظم ، مؤامرة كاتيلينا ، مولد اوكتافيوس ، امبراطور الفد •	
٦١	عودة بومبيوس الى روما ، قيصرين حاكما في اسبانيا بعد ان شغل منصب القضاء (٦٢) •	اول عهد الـ « كانفا » في الهند (٦٤ - ٥٠)
٥٩	قيصر ينتخب قنصلا في السنة ٦٠ قنصلا للسنة ٥٩ بفضل اتفاقية مع بومبيوس وكراسوس (الحكومة الثلاثية الاولى) ، قانونه الزراعي ، استئثاره بالولايات الغالية • مولد تيت ليب (٩ ٦٤) الذي سيموت في السنة ١٧ بعد المسيح •	
٥٨ - ٥١	فتح غاليا المستقلة على يد قيصر ، في اواخر ٥٣ ، ثورة عامة برئاسة فرنسجيتوريكس ، ٥٢ : اليزيا ، ٥١ : نهاية المعادمة في اوكسلودونوم • اضطرابات في روما طيلة هذه الفترة •	
٥٥	قنصلية بومبيوس وكراسوس الثانية ، بعد اعادة الحكم الثلاثي •	
٥٣	الفارتيون يهزمون كراسوس ويقتلونه في كار •	
٥٢	الوضي في روما ، موت كلوديوس قنصلا في اصطدام مع زمرة ميلون • بومبيوس قنصل اوجد •	
٤٩ - ٤٤	الحرب الاهلية وكتاتورية قيصر ، ٤٩ ، اجتياز الروبيكون • ٤٨ : معركة فرسال ، موت بومبيوس في مصر ، قيصر يصل الى الاسكندرية ويجمع بكلوباترا ، يبقى في مصر حتى ربيع ٤٧ • ٤٦ : انتصار قنصلي تابسوس في افريقيا ، موت كاتسون الاوتيكي ، اقامة قيصر في روما ، انتصاراته ، اصلاح الرزنامة ، ٤٥ : انتصار قيصر في مولدا في اسبانيا • ١٥ اذار ٤٤ : اغتيال قيصر •	
٤٤ - ٣٠	الحرب الاهلية • ٤٤ : ذهاب فاتلسي قيصر ، بروتوس وكاسبوس الى الشرق ، شيشرون ينفق واكتافيوس ضد انطونيوس ويلقي الخطب القليلة ، ٤٣ • اتفاق انطونيوس واكتافيوس وليبيدوس (الحكومة الثلاثية الثانية) ، احكام بالنفي ، موت شيشرون ، ٤٢ : هزيمة بروتوس وكاسبوس في فيليببي ، واكتافيوس يعود الى ايطاليا ليوزع الاراضي على الجنود القدماء ، انطونيوس يبقى في الشرق ويشترك كلوباترا • ٣٩ : اتفاقه مع سكستوس بومبيوس سيد البحر المقيم في صقلية • ٣٦ : اختلال سكستوس بومبيوس الذي هزم ومات في ٣٥ ، حملة انطونيوس على الفارتيين ، ٣٤ : انطونيوس يهب كلوباترا والولاده منها اقاليم رومانية • ٣١ : معركة اكيوم • ٣٠ : وصول واكتافيوس الى الاسكندرية ، موت انطونيوس وكلوباترا •	حوالي السنة ٣٠ اول عهد « كوشانا » في شمالي الهند •

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند والصين
	٢٧ قبل المسيح - ٦٨ بعد المسيح : السلالة الجولية الكلودية	
٢٧	اقتسام ادارة الولايات بين مجلس الشيوخ واوكتافيانوس الذي لم يلبث ان لقب بـ ارغسطس .	
منذ ٢٧	انخفاض شمالي شبه الجزيرة الايبيرية .	
٢٥	اعادة مملكة موريتانيا وتسليم عرشها الى جوبا الثاني	
٢٠	الاتفاق مع الفارتيين حصول الحدود وارمينيا واستعادة اعلام الجوقات المباداة في كار .	
١٩	موت ليرجيل قبل ان ينهي ملحمة ايبنيه ، وموت تيبولوس .	
١٧	الاماب القرنية .	
منذ ١٦	حملات عسيرة وطويلة تمسح حدود ايسترىا واليريا الى الدانوب .	
١٣ - ٩	تشيد « هيكل السلام »	
منذ ١٢	حملات متكررة في جرمانيا لنقل الحدود الى نهر الالب .	
٨	موت ميسينوس وهوراسيوس .	
٠	ميلاد يسوع ، حدد خطأ في القرن الرابع ، يتأخير اربح سنوات في الارجح .	

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند
القرن الاول		ال « كوشانا » يأتون من الاوركسوس والبختر ويحلون محل ال « شاك » ويستقرون في الشمال الغربي من الهند ويؤسسون الامبراطورية الكوشانية .
٨ بعد المسيح	لقي اولفيد	
٩	هزيمة القائد الروماني فاروس أمام الجرمانى ارمينيوس : اوغسطس يتخل عن مشاريع الفتح في جرمانيا ويعيد الحدود الى الراين .	
١٤	١٤ - ٣٧ : طيباريوس موت اوغسطس	
١٧ - ٣١	خطوة قائد حرس القيصر ، سيجان ، الذي يقتل امراء عديدين ، افتضاح امره وقتله .	
١٨	موت اولفيد	
٢١ (?)	موت سترابون	تجارة منتظمة مع روما (سترابون)
٢٣ - ٢٥		
٢٥		
٢٧		وفد ملك سيلان (بنديا) الى الامبراطور اوغسطس
٢٨	التاريخ المرجع لموت المسيح	
٣٠	اعتداء القديس بولس	
٣٠ (?)		كوجولا كالفسا يمثلسي المرش (في الاربع) .
٣٢		
٤٠	٣٧ - ٤١ : كاليغولا ختم موريثانيا الى الامبراطورية	
٤١	اغتيال كاليغولا	
٤٣	٤١ - ٥٤ : كلودوس بدء فتح بريطانيا	

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
سلالة الهان السابقين منذ ٢٠٦ قبل المسيح		العهد النبولييتي	القرن الاول
سقوط الهان السابقين			٨ بعد المسيح
والغ مانغ يقتصب العرش (٢٢-٩) *			٩
			١٤
			٣١ - ١٤
			١٨
			٢١ (?)
ثورة الحواجب الحمراء *			٢٣ - ٢٥
عودة الهان : الهان اللاحقون (٢٢٠-٢٢٠)			٢٥
			٢٧
			٢٨
			٣٠
			٣٠ (?)
			٣٢
مولد بان كو مؤرخ الهان واخو القائد بان تشاو			
			٤٠
			٤١
			٤٣

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند
٤٩	كلوديوس يطرد اليهود من روما ، زواجه من اغيريبينا ابنة اخته .	
٥٠ (?)		كوجولاكافسا يحتل كايشا
٥١ - ٦٣	الحرب ضد الفارثين بسبب تدخلاتهم في ارمينيا ، حملات كوربولون .	
	٥٤ - ٦٨ : نيرون	
٥٥	مقتل بريتانيكوس	
٥٧		
٥٩	مقتل اغيريبينا	
حوالي ٦٠ - ٧٠		
٦٢	موت برسوس	
٦٤	حريق روما ، اضطهاد المسيحيين	
٦٥	موت سينيكا ولوكان وبترون	كوجولاكافسا يحتل غندهارا
٦٦	رحلة نيرون الى اليونان . ثورة اليهودية : اسناد قممها الى فسباسيانوس .	
٦٨ - ٦٩	حرب اهلية ٦٨ : ثورة فنديكس في غاليا ، المنادة بـ « جالبا » امبراطورا ، انتحار نيرون . ٦٩ : جيش الرين يتناذر بـ فيتليوس امبراطورا، فيتليوس يهزم « اوتون » ، ويرث جالبا بالتبني ، في إيطاليا . جيوش الشرق والدالوب تنادي بفسباسيانوس امبراطورا ، هزيمة فيتليوس ومقتله في إيطاليا .	
	٦٩ - ٩٦ : سلالة الفلافيين	
٧٠	قمع ثورة سيفيليس في غاليا ، احتلال وهدم اورشليم على يد تيطوس	
٧٢	احداث مناير لتعليم البيان اليوناني واللاتيني في روما	
٧٣		

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
			٤٩
			٥٠ (?)
			٥١ - ٦٣
			٥٥
		اليابان (كيوشو) ترسل وفدا الى الصين (لويانغ) . وهي لا تزال في عهد ما النيو ليتي . وقد ترك « بان كو » عنها وصفا طريفا .	٥٧
			٥٩
تأسيس الطائفة البوذية الاولى في كيانغ - سو			حوالي ٦٠ - ٧٠
			٦٢
			٦٤
ملك تشو يحسب رسميا هذه الطائفة .			٦٥
			٦٦
			٦٨ - ٦٩
			٧٠
			٧٢
انتحار ملك تشو			٧٣

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند
٧٣ - ١٠٢		
منذ ٧٤	احتلال الحقول التي كانت ملحقة باملاك الدولة وتقريـم الحدود بين الرين الاعلى والدانوب الاعلى .	
٧٨		بدء العهد المعروف بعهد «باكرا» المرازبة (كشاهاراتا) في غربي الهند .
	٧٩ - ٨١ : تيطوس	
٧٩	انفجار الفيزوف ، تهدم بومبي وهركلانوم ، موت بلـيـن القديم .	
	٨١ - ٩٦ : دوميتيانوس	
٨٢ (?)	اتمام مسرح فلافيانوس (الكوليزه) الذي بوشر بناؤه في ايام فسباسيانوس	
٨٤	دوميتيانوس يحمل لقب «قاضي الاحصاء الدائم» .	
٨٥		
منذ ٨٥	مناوشات مع الداسيين على الدانوب	
٨٦	احداث الالماب الكايتولية	
٨٨	الالماب القرنية	
٩٠ (?)		
٩٦	اغتيال دوميتيانوس	
	٩٦ - ١٩٢ : سلالة الانطونيين	
٩٦	مجلس الشيوخ يعلن (نرفا) امبراطورا	
٩٧	نرفا يتبنى ترايانوس . قنصلية تاسيت .	
٩٨	موت نرفا	
٩٩ (?)		
		الامبراطور الكوشاني يطلب الزواج من ابنة ملك الصين فيرفض طلبه
		الامبراطور الكوشاني « فيماكديسيس » ينهي احتلال الهند الشمالية .

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
القائد بان تشاو ينم فتح التركستان الصيني ويوطد فيه الاستعمار الصيني *			٧٣ - ١٠٢
			منذ ٧٤
			٧٨
			٧٩
			٨٢ (?)
			٧٤
			٨٥
			منذ ٨٥
			٨٦
			٨٨
			٩٠ (?)
			٩٦
			٩٦
			٩٧
			٩٨
			٩٩ (?)

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند
١٠٠ آخر القرن الاول	٩٨ - ١١٧ : ترايانوس قنصلية بلين القديم الذي يلقي « تقرير ترايانوس »	تزيين الـ « ستوبا » في سافيشي - ظهور صورة بوذا في غندهارا • اثبات النصوص الجينية • البوذية تزدهر في سيلان • الـ « اندرا » في الجنوب يوسعون نفوذهم • انشقاق في البوذية يتم نهائيا •
القرن الثاني	ضم داسيا الى الامبراطورية بعد حربين ضد الداسيين اعمال مرفا اوستيا موت مارسيل ضم الولاية العربية الى الامبراطورية	
١٠١ - ١٠٧		
١٠٢ - ١٠٥		
١٠٤ (?)		
١٠٥ - ١٠٦		
١٠٧		
١١٠ (?)		
١١٢	تدشين فوروم ترايانوس	
١١٣ (?)	موت بلين القديم الذي كان حاكما في بيتينيا في السنة ١١١-١١٢	
١١٤ - ١١٧	الحرب الفارسية • ترايانوس يضم ارمينيا وما بين النهرين الى الامبراطورية • يبلغ سلوقية • عمل دجلة وكتيزيفون • ١١٥: ثورة اليهود في المدن الشرقية • ترايانوس يتراجع • يموت في ١١٧ ، ويخلقه يتخلل عمن فتوحاته •	
١٢٠	١١٧ - ١٣٨ : هادريانوس موت تاسيت و (?) بلوتارك	كتابة « ناسك » تذكر النصر غوتاميبوترا (سلالة اندرا) على الـ « شاكاه »
منذ ١٢١	هادريانوس يقوم بعدة رحلات تفتيشية الى حدود الامبراطورية	
١٢٣	الشرع ببناء مقصف طيبور	
١٢٤ (?)		

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
			١٠٠ آخر القرن الاول
الصين تتصل بالامبراطورية الكوشانية بعد فتوحاتها في التركستان الصيني .			القرن الثاني
			١٠١ - ١٠٧
			١٠٢ - ١٠٥
			١٠٤ (?)
			١٠٥ - ١٠٦
		احد ملوك اليابان يرسل الى بلاد الصين ١٦٠ عبدا .	١٠٧
موت بان تشاو مؤرخة الهان وشقيقه القائد بان تشاو مولد الفيلسوف تسواي شي			١١٠ (?)
			١١٢
			١١٣ (?)
			١١٤ - ١١٧
			١٢٠
رحلة البهالين والموسيقيين الرومان عن طريق برما			١٢١ منذ
			١٢٣
تشانغ هنغ يخترع جهاز الكرة الارضية داخل دوائر تمثل الحركات الاجرام السماوية			١٢٤ (?)

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند
١٢٥ (?)	مولد ابوليوس	نهاية ملك « ناهابانا » ، مزيان المرافىء القريبة - نمو الفن اليوناني البوذي ومدرسة «اماراتي» ومدرسة «ماهورا»
حوالي ١٢٨		تجميل الستوبا في اماراتني على يد خليفة كوتا ميبوترا (التي ذكره بطليموس)
بعد ١٢٨	موت جوفينال	
١٣٠ (?)	مولد اولو جيل	
١٣١	نشر « البراءة الدائمة »	
١٣٢ - ١٣٥	ثورة اليهود بقيادة سيمان بن قصبه في فلسطين • منح اليهود من دخول اورشليم التي أصبحت ايليا كابيتولينا •	
١٣٧		
١٤٠ - ١٥٠		
١٤٤ - ١٨٥ (?)		الامبراطور كاتيشكا يصل بالامبراطورية الكوشانية الى الذروة «اشفاغوشها» رجل بطانة واديب وموسيقي وفيلسوف •
١٤٧ - ١٦٧		الهند ترسل عدة وفود الى الصين عن طريق بحار الجنوب •
١٤٨		
حوالي ١٥٠	جغرافية بطليموس	مراذبة اوجافيتسي ، ومنهم رودورادمان في اوج عزهم ملك « بوشياميترا » بن كوتاميبوترا - كاتيشكا لا يزال ملكا في الشمال •
حوالي ١٥٠ - ٢٠٠		« ناغارجون » المناضل الماهاياني
١٥٢		
حوالي ١٦٠		
١٦٠ - ٢٠٠		

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
			١٢٥ (?)
			حوالي ١٢٨
			بعد ١٢٨
			١٣٠ (?)
			١٣١
			١٣٢ - ١٣٥
ال « كيو » (لن - يي) يهاجمون جي - نان	المحاريون ال « كيو » المراكز المحصنة في جي - نان		١٣٧
ماجولغ يشرح عقيدة كولفوشينوس			١٤٠ - ١٥٠
			١٤٤ - ١٨٥ (?)
الوفود الهندية تأتيها عن طريق بحار الجنوب	الوفود الهندية تمر فيها في طريقها الى الصين .		١٤٧ - ١٦٧
الترجمات البوذية الاولى على يد الغارتي « نغان شي كاو »			١٤٨
			حوالي ١٥٠
			حوالي ١٥٠ - ٢٠٠
			١٥٢
تكتل الحصيان كلسي القدرة	اكتشاف مسدالة انطونينوس الذهبية في اوك - ايو (كوشنصين)		حوالي ١٦٠
تشنغ - هيوان يشرح عقيدة كولفوشينوس .			١٦٠ - ٢٠٠

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند
	١٦١ - ١٨٠ : مارك - اوريل	
١٦١	لوسيسيوس فيرويس يحمل لقب الامبراطور ويشترك في الحكم حتى مماته في ١٦٩	
١٦١ (?)	موت سويتون	
منذ ١٦٢	هجوم الفارسيين ، افيدريوس يقود الحرب ضدهم بقوة	
١٦٦		يبدء ملك « شاتاكارني » في الراج (الذي يخصه ناغارجونا برسالة
منذ ١٦٦	هجوم الجرمايين على الدانوب . يبلغون اكويليا في ايطاليا في ١٦٦ . مارك اوريل يوجه ضدهم الكوماندو والسرماطين سلسلة حروب شاقة . يبيد الحدود . مات في المعسكر في فيتا بينما كان يستعد لاحتلال بوهيميا .	
١٧٢ - ١٧٨		
١٧٥	الاحتصاب افيدريوس كاسيوس في الشرق ينتهي بالقمع . موت اريانوس	
١٧٦	احداث لاربعة مثابر للفلسفة ومعلم البيان في ايتنا	
١٧٧	مارك اوريل يشرك ابنه كومودوس بالحكم ويحمله لقب امبراطور . استشهاده الاسقف بوثين والقديسة بلاندينا ومسيحيين آخرين في ليون .	
١٨٠	موت كايوس مؤلف كتاب الانظمة »	
	١٨٠ - ١٩٢ : كومودوس	
١٨٠	كومودوس يضع حدا لمشاريع ابيه على الدانوب بعد انفراد بالامبراطورية	
١٨٤		
١٩٠ - ١٩٤		
١٩٠ (?)	موت لوكياليوس	
١٩٢	الغتيال كومودوس	
١٩٢ (?)		

التواريخ	اليابان وكوريا	بحار الجنوب	الصين
١٦١			
١٦١ (?)			
منذ ١٦٢			
١٦٦			وفد مارك - اوريل / تجار سوريون - الامبراطورميوان يحتوي في القصر احتفالات بوذية وطاوية .
منذ ١٦٦			
١٧٢ - ١٧٨			اضافة ابنية جديدة الى دينر « كيانغ - سو » البوذي
١٧٥			
١٧٦			
١٧٧			
١٨٠			
١٨٠			مولد الفيلسوف تشونغ تشانغ تونغ
١٨٤			قوة العائم الصلراء
١٩٠ - ١٩٤			اضافات جديدة الى دير كيانغ - سو البوذي
١٩٠ (?)			
١٩٢			
١٩٢ (?)		تأسيس « لن - يي »	

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند
١٩٣ - ١٩٧	١٩٣ - ٢٣٥ : سلالة ساويروس ١٩٣ - ٢١١ : سبتيموس ساويروس سبتيموس ساويروس يتغلب على المطالبين بالعرش لا سيما بسينيوس ليجر في الشرق (١٩٤-١٩٥) و كلوديوس البيئوس (معركة ليون ، ١٩٧)	
١٩٤		
١٩٧	ترتوليانوس يضع كتابه في الدفاع عن العقيدة المسيحية	
١٩٧ - ١٩٨	حملة على الفارثيين : احتلال وتنظيم ولاية ما بين النهرين .	
١٩٨	كر كلا يحمل لقب امبراطور	تجزؤ مملكة ال « الدرا » .
آخر القرن الثاني		توسع التجارة البحرية (سلفن شراعية كبيرة) - مذهب « نيايا » الفلسفي - ال « اكشفاكو » يملكون في الجنوب الشرقي (لالمارجونا كوندرا) .
أوائل القرن الثالث		
٢٠١	موت غالباوس	
٢٠٣	أوريجينوس يخلف اكلينطوس في ادارة مدرسة الاسكندرية للمسيحية . اتمام السبتيذونيوم	
٢٠٤	الالعاب القرنية	
٢٠٥	اعداد بلو. ثيانوس قائد حرس القصر وتعيين القانوني بابينيانوس خلفا له .	
٢٠٨ - ٢١١	سبتيموس ساويروس يحارب في بريطانيا . في ٢٠٨ ابنه الثاني جيتسا يحمل لقب الامبراطور . موته في يورك (٢١١) .	
حوالي ٢١٠		ال « بلانا » ينشرون حضارة ال « الدرا »
	٢١١ - ٢١٧ : كركلا	
٢١٢	الغتيال جيتا . الحكم على بابينيانوس . براءة كركلا .	
٢١٦	موكد ماني في بلاد بابل	
٢١٧	الغتيال كركلا خلال حملة على الفارثيين .	

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
			١٩٣ - ١٩٧
		احدى الموانس تمتلبي عرش اليابان .	١٩٤
			١٩٧
			١٩٧ - ١٩٨
			١٩٨
وصف ادبي للامبراطور الرومانية (فانسين) .	كتابة سنسكريتية له «فوكانه» (شامبا) .		آخر القرن الثاني أوائل القرن الثالث
			٢٠١
			٢٠٣
			٢٠٤
			٢٠٥
			٢٠٨ - ٢١١
الفيلسوف تشونغ تشانغ تولغ امين سر الدولة في دكتاتورية تساو تساو .			حوالي ٢١٠
			٢١٢
			٢٢٦
			٢١٧

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند
	٢١٨ - ٢٢٢ : ايلادغال	
٢١٨	بعد ملك مكرينوس القصير ، ايلادغال يعتلي العرش	
٢٢٠		
٢٢٠ - ٢٣٠		
٢٢٢	اغتيال ايلادغال وامه المصلحة ابن عمه الذي تبناه في ٢٢١ . موت ترتوليانوس حوالي هذا التاريخ .	
	٢٢٢ - ٢٣٥ : ساويروس الكسندروس	
٢٢٣ - ٢٥٣		
٢٢٤	اردشير الساساني يدخل كتيزيون طافرا : الملكة الفارسية تحل محل الملكة الفارسية	
٢٢٥ - ٢٣١		ال « شوكونا » يملكون في « بانافاسي »
٢٢٧ - ٢٢٩		الامبراطور الكوشاني فاسوديفاه يحالف ملك ارمينيا ضد اردشير
٢٢٨	مقتل قائد حرس القصر ، اذ لبيانوس ، على يد الحرس	
٢٢٩	قنصلية ديون كاسيوس النساء ولاية الامبراطور ساويروس الكسندروس .	
٢٣٠ (?)	اورديجنوس يضطر الى مغادرة الاسكندرية .	
٢٣١ - ٢٣٢	الحرب الاولى ضد الفرس .	
٢٣١ - ٢٤٢		
٢٣٥	اغتيال ساويروس الكسندروس ووالده في مايانس .	

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
سقوط الهان اللاحقين • تقسيم الامبراطورية الى ثلاث ممالك	لن - يي وفو - نان يرسلان وفدا الى البلاط الامبراطوري الصيني		٢١٨ ٢٢٠ ٢٢٠ - ٢٣٠ ٢٢٢ ٢٢٣ - ٢٥٣ ٢٢٤ ٢٢٥ - ٢٣١ ٢٢٧ - ٢٢٩ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ (?) ٢٣١ - ٢٣٢ ٢٣١ - ٢٤٢ ٢٣٥
وفد « لن يي » (وفو-نان؟)	ابن أحد الموفديسن الهندود - الفر ينقل الى الصينية كتاب « اميتايها مورترا »		
	فان شي - مان (كري مارا ؟) في فو - نان - حاكم التوتكين، لو-تاي يرسل وفدا الى الجنوب - فان شي - مان يدفع الجزية لامير ال « وو »		
	فان تشيان في فو - نان - يرسل وفدا الى ال « موروتندا » (الهند)		

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند
منذ ٢٣٥	٢٣٥ - ٢٨٤ : الفوضى العسكرية	
٢٣٨	تماقب اباطرة سريمي الزوال في جو من اسوأ المصاعب الخارجية والداخلية ، الحدود تهاجم وتجتاز ، ثورات وانفصالات في الولايات ، الازمة الاقتصادية تتفاقم . المناداة بفورديانوسوس الاول والثاني امبراطورين في قرطاجة ومقتلهما .	
٢٤٠	موت اردشير ، شاهبور الاول يعتلي العرش .	
٢٤٣ - ٢٤٠		رحلة ماني الى ضفاف الهندوس
٢٤٤ - ٢٤٠		وفد فولان الى ال « مورولدا »
٢٤١ - ٢٥١		ايران الساسانية تحت ل الامبراطورية الكوشانية .
٢٤٢ - ٢٤٤	حملة غوردانوس الثالث على شاهبور (سابور) .	
٢٤٣		
٢٤٤	الروطين يعصد روما لممارسة التعليم فيها ، يموت في السنة ٢٦٩ .	
٢٤٤ - ٢٤٩	فلبوس العربي : يحتفل باعياد روما الالفية في السنة ٢٤٨	
٢٤٤ - ٢٦١	بعثات ماثوية الى مصر	
٢٤٥ - ٢٥٠		
٢٤٧		
٢٤٨		
٢٤٨ - ٢٥١	ملك داسيوس الذي يموت في حملة على القوط . في السنة ٢٥٠ ، اضطهاد المسيحيين .	
٢٤٩		شاهبور يهزم فاسوديفا .
٢٥٢	هورموزد يحمل لقب « ملك ملوك الكوشانا » .	

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
			منذ ٢٣٥
وفد اليابان		ملكة اليابان المانسو (٩) ترسل بعثته الى البلاط الصيني فسي لو-يانغ وتقيم علاقات دبلوماسية مع كوريا .	٢٣٨
			٢٤٠
			٢٤٣ - ٢٤٠
	فان تشان يرسل وفدا الى « موروندا » (منطقة الفانج)		٢٤٤ - ٢٤٠
			٢٥١ - ٢٤١
			٢٤٤ - ٢٤٢
وفد فو - نان واليابان	فان تشان يرسل وفدا الى الصين .	ملكة اليابان المانسو ترسل وفدا الى الصين .	٢٤٣
			٢٤٤
			٢٤٩ - ٢٤٤
			٢٦١ - ٢٤٤
البلاط الامبراطوري يرسل وفدا الى فو - نان مؤلفا من كانغ تاي وتشو ينغ	فان صيون (فو - نان) يستقبل الوفدين الصينيين كانغ تاي وتشو ينغ اللذين يلتقيان موفد الموروندا الذي لحق بوفد السنة ٢٤٤-٢٤٠		٢٥٠ - ٢٤٥
احد تجار سوغديانا ييسر بالبوذية في نانكين .			٢٤٧
لن - يتي تهاجم منطقة هواي	لن - يتي تهاجم المراكز الصينية المحصنة في منطقة هواي		٢٤٨
			٢٥١ - ٢٤٨
			٢٤٩
	قائد كوري يهين موفد ياماتو (اليابان) في مملكة سيلا (كوريا الشرقية) .		٢٥٢

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند
٢٥٣ - ٢٦٠	ملك فاليريانوس • ٢٥٧ : اضطهاد • ٢٥٨ : الالامان يصلون حتى إيطاليا الشمالية ٢٦٠ : فاليريانوس أسير الساساني شاهبور الاول •	
٢٥٨ - ٢٦٨ - ٢٧٣	بوستوموس يحكم غاليــــــــــــــــا وبريطانيا واسبانيا • تتركوس يخلفه •	
٢٦٠ - ٢٦٨	غاليانوس ينفرد بالحكم بعد ان شارك ابيه فاليريانوس منذ ٢٥٣	
٢٦١ - ٢٦٢	بعثة مانوية الى جنوبي الزاب الصغرى •	
٢٦٢ - ٢٧٢	استقلال تدمر في عهد اذينة وزونوبيا والددة وهب اللات •	
٢٦٣ - ٢٦٥		
٢٦٨		
٢٦٨ - ٢٧٠	ملك كلوديوس الثاني «القوطي» الذي يطرد الالامان من إيطاليا والقوط من البلقان •	
٢٧٠ (?)	القديس الطوثيوس يتنسك في الصحراء •	
٢٧١ - ٢٧٥	ملك اوريليانوس • في ٢٧٢ ، يقوض دولة تدمر ، اعدام لونيچينوس ، تحكيم غير موافق لبولس الساموزاطي استقبل انطاكية الهرطوقي • في ٢٧٣ ، تتركوس يستقيل • التخلي عن داسيا والاراضي الملحقة باملاك الدولة نهائيا • تشييد اسوار محصنة حول روما •	
٢٧٦ - ٢٧٨	غزو عام : الفرنجة يبلغون اسبانيا •	
٢٧٧	موت ماني •	
٢٨٠		
٢٨٢ - ٢٨٣	ملك كاروس الذي يقود هجوما طائرا حتى كتيديون	
٢٨٤	المناداة ، بديوكليس سيانوس امبراطورا في خلقيدونيا • عقد الصلح مع الفرس	
٢٨٤ - ٣٠٥	ديوكليسيانوس والحكم الرباعي	
٢٨٤ - ٢٩٣	اول عهد ديوكليسيانوس وتنظيم الحكم الرباعي • ٢٨٥ : انتصاره على كارينوس • مكسيميا يصبح قيصر ثم امبراطورا في ٢٨٦ • في ٢٨٨ : اغتصاب كاروس سيوس في بريطانيا • ٢٩٣ : اختيار كونستانس كلور • ثم غاليريوس قيصرين •	
٢٨٥		

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
			٢٥٣ - ٢٦٠
			٢٥٨ - ٢٦٨ - ٢٧٣
			٢٦٠ - ٢٦٨
			٢٦١ - ٢٦٢
			٢٦٢ - ٢٧٢
			٢٦٣ - ٢٦٥
عائلة سو - ما تستولي على سو - تشوان ثم على الصين الشمالية .			
وفد فو-نان في عهد فان سيون	فان سيون (فو - نان) يرسل وفدا الى بلاط الصين .		٢٦٨
			٢٦٨ - ٢٧٠
لن - يي تهاجم جني - نان بمساعدة فو - نان	فو - نان ولن - يي تتحالفان وتهاجمان جني - نان		٢٧٠ (?)
			٢٧١ - ٢٧٥
			٢٧٦ - ٢٧٨
			٢٧٧
			٢٨٠
ال « سو - ما » يملكون الفسهم إباطرة باسم « تشين » .	الصين تهزم لن - يي وفو-نان في توكنين		٢٨٢ - ٢٨٣
تقتل نبوص سنسكريتية الى الصينية . وفد لن - يي	لن - يي ترسل وفدا الى بلاط الصين .		٢٨٤
			٢٨٤ - ٢٩٣
وفد فو - نان	فان سيون (فو - نان) يرسل وفدا الى بلاط الصين .		٢٨٥

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند
٢٨٦		
٢٨٨ - ٢٨٦	حملات مكسيميانوس الرئيسية على الرين .	
٢٨٧		
٢٩٤ - ٢٩٦	استعادة حدود الدانوب .	
٢٩٦	اخضاع بريطانيا حيث كان الكتوس قد خلف كاروس سيوس .	
٢٩٦ - ٢٩٧	ديوكليسيانوس في مصر حيث يقع اغتصاب اشيلوس .	
٢٩٧	صدور البراءة ضد المانويين .	
٢٩٧ - ٢٩٨	حملة ديوكليسيانوس على فارس . استعادة ما بين النهرين	
٢٩٨	حملة مكسيميانوس في افريقيا	
آخر القرن الثالث		
حوالي ٣٠٠		
٣٠٢	مرسوم الحد الاعلى .	
٣٠٢ - ٣٠٤	تدابير ومراسيم ضد المسيحيين .	
٣٠٤		
٣٠٥	لنازل ديوكليسيانوس ومكسيميانوس .	
	٣٠٥ - ٣١٣ : السلالة القسطنطينية	
	٣٠٦ - ٣٣٧ : قسطنطين	
٣٠٦	وفاة كولستانس . الجنود ينادون بابنه قسطنطين امبراطورا .	
٣٠٦ - ٣١٣	عهد اضطرابات يكثر فيه القياصرة والباطرة . اخيرا ، في السنة ٣١٢ ، قسطنطين ينتصر على مكسانس في معركة جسر ملفيوس ، وفي ٣١٣ ، ليسيتيوس يتخلسب على مكسيمينوس دايا في الشرق .	
٣١٠		
٣١١	وفاة غاليريوس الذي توقف عن اضطهاد المسيحيين قبل ذلك بزمان قصير .	

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
وفدا فو - نان وكوريا	فان سيون (فو - نان) يرسل وفدا الى بلاط الصين .	كوريا ترسل وفدا الى بلاط الصين .	٢٨٦
			٢٨٨ - ٢٨٦
وفدا فو - نان وسوغديانا	فان سيون (فو - نان) يرسل وفدا الى بلاط الصين .		٢٨٧
			٢٩٦ - ٢٩٤
			٢٩٦
			٢٩٧ - ٢٩٦
			٢٩٧
			٢٩٨ - ٢٩٧
			٢٩٨
بناء معبد لايوسطس في موزيريس (كراكتاتور)		احد امراء سيمانا (كوريا الجنوبية) يصل الى بلاط ياماتو (اليابان) .	آخر القرن الثالث
كتاب « لاليتاستارا » ينقل مرة اخرى الى الصين .			حوالي ٣٠٠
			٣٠١
			٣٠٢ - ٣٠٤
			٣٠٤
بداية الفزوات الكبرى			٣٠٥
			٣٠٦
			٣٠٦ - ٣١٣
			٣١٠
مولد الراهب فو - تو - تنغ في كوكا .			٣١١

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند
٣١٢	قسطنطين وليسيطيوس يجتمعان في ميلانو ويتفقان على مبدأ التساهل الديني .	
٣١٤	الحرب الاولى بين قسطنطين وليسيطيوس الذي يفقد الاقاليم البلقانية . مجمع آزل يحكم على الدوناتيين .	
٣١٥	قوس قسطنطين في روما . حوالي هذا التاريخ ، لاكتانس ينشر « ميتة المضطهدين »	
٣١٧		
٣٢٠ - ٣٣٥ (?)		شاندراغوبتا الاول يؤسس سلالة الـ « غوبتا » ويباشر احتلال الهند .
٣٢٤	الحرب الثانية بين قسطنطين وليسيطيوس الذي يغلب على امره . قسطنطين يعيد وحدة الامبراطورية . تكريس المركز المختار لبناء القسطنطينية .	
٣٢٥	مجمة ثيقيه .	
٣٢٥ - ٣٥٠		
٣٢٦	قسطنطين يامر بقتل ابنه كريسپوس ، ثم زوجته فوستا .	
٣٢٨	الناسيوس اسقف الاسكندرية .	
٣٣٠	تشين القسطنطينية .	
٣٣٥	قسطنطين ينظم الخلافة من بعده بين أبنائه الثلاثة وابني أخيه .	
٣٣٥ - ٣٨٥		ملك سامودراغوبتا الفاتح الكبير، الذي يوسع الامبراطورية من اديسا الى مدراس .
٣٣٦		
٣٣٧	ممبودية ووفاة قسطنطين .	
	٣٣٧ - ٣٦١ : كونستانتس الثاني	
٣٣٧ - ٣٥٣	تفيل ابناء اخي قسطنطين (٣٣٧) . كونستانتس الثاني يهاجم اخاه كونستان في ٣٤٠ لهزم . المنتصر ينتحز بمه الغتصاب ماغنانس على الرين (٣٥٠) . كونستانتس الثاني الذي كان يحكم الشرق ينتصر على المفتصب في ٣٥٣ .	
منذ ٣٣٨	الفرس يعودون الى الهجوم بقيادة ملكهم شاهپور الثاني عدو روما اللدود . الفرس يحاصرون نصيبين تكرارا ثم يدخلون اميدا في السنة ٣٥٩ على الرغم من دفاع روماني مستحيت اشترك فيه اميانوس مرسلينوس . ثم يدخلون سنغارا ايضا في السنة ٣٦٠ .	

التواريخ	اليابان وكوريا	بحار الجنوب	الصين
٣١٢			
٣١٤			
٣١٥			
٣١٧			البرابرة يهزمون التسميين فيلجأون الى الجنوب ويتخذون نانكين عاصمة لهم .
٣٢٠ - ٣٣٥ (?)			
٣٢٤			
٣٢٥			
٣٢٥ - ٣٥٠			اكتشاف مبادرة نقطة الاعتدال .
٣٢٦			
٣٢٨			
٣٣٠			
٣٣٥			
٣٣٥ - ٣٨٥			
٣٣٦	لان وان في لن - بي		
٣٣٧			
٣٣٧ - ٣٥٣			
منذ ٣٣٨			

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند
٣٣٩	الملكة الساسانية تضطهد المسيحيين بشدة .	
٣٤٠		
٣٤٧		
٣٤٨	اولفيلا ، اسقف القوط ، يلتجئ الى الاراضي الرومانية .	
٣٤٩		
حوالي ٣٥٠		اوج فتوحات سامودراغوبينا العسكرية الذي ينشئ اوسع امبراطورية منذ الموريا .
٣٥١		
٣٥١ - ٣٥٤	كونستانس يعين ابن عمه غالوس قيصرًا ويسند اليه ادارة الشرق ، يأمر بقتله في السنة ٣٥٤ .	
٣٥٥ - ٣٦٠	جوليانوس ، اخو غالوس يعين قيصرًا ويرسل الى غاليا لمحاربة الالامان . انتصاره في مستراسبورغ (٣٥٧) ، الجيش ينادي به امبراطورًا (٣٦٠) .	
٣٥٦	كونستانس يحظر تقديم اللباس	
٣٥٧		
٣٥٧ - ٣٥٩	مجماع سيرميوم وقوانين الايمان المتتالية .	
٣٥٨ - ٣٨٥		
٣٥٩		
٣٦١	موت كونستانس في طريق عودته من الشرق لمحاربة جوليانوس .	
٣٦١ - ٣٦٣	جوليانوس	
٣٦١	جوليانوس في القسطنطينية	
٣٦٢	قانون بتحليل استعمال النصوص الكلاسيكية على المعلمين المسيحيين . جوليانوس في انطاكية .	
٣٦٣	حملة جوليانوس على فارس . وفاته اثناء التراجع .	
٣٦٤ - ٣٩٥	السلالة الفالنتينية وثيودوسيوس	
٣٦٤	بعد ملك جوليانوس القصيرة الذي يضع حداً لأعمال الحرب ضد الفرس ، الجيش ينشئ بغالتيثيانوس الاول امبراطورًا الذي يشرك اخاه بالحكم ويسند اليه ولاية الشرق .	
٣٦٦ - ٣٨٤	داماز بابا	
٣٦٧	فالنتيانوس يعين ابنه ثيراتيانوس امبراطورًا .	
٣٧٢		

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
ولد لن - يي	فان ون (لن - يي) يرسل وقدا الى بلاط الصين .		٣٣٩
لن - يي تحتل جي - نان . موت الراهب فو - تو - تنغ .	فان ون تنتزع جي - نان من الصين .		٣٤٠
			٣٤٧
			٣٤٨
	موت فان ون (لن يي) ابنه فان فو يملك باسم فادرا فارما		٣٤٩
			حوالي ٣٥٠
	هزيمة فان فو في تونكين .		٣٥١
			٣٥١ - ٣٥٤
			٣٥٥ - ٣٦٠
ولد فو - نان قبلة مروضة	تشان - نان (فو نان) يرسل وقدا الى بلاط الصين .		٣٥٦
			٣٥٧
			٣٥٧ - ٣٥٩
فو - كيان ، ملك شن - سي يحمي المبشر الهندي كوماراجيفا			٣٥٨ - ٣٨٥
	فان - فو يهزم ثانية لسي تونكين .		٣٥٩
			٣٦١
			٣٦١
			٣٦٢
			٣٦٣
اللاجئون الصينيون في الجنوب يرغمون على تأدية واجباتهم المدنية .			٣٦٤
			٣٦٦ - ٣٨٤
			٣٦٧
	فان فو (شامبا) يرسل وفدا الى البلاط الصيني .		٣٧٢

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	المهند
٣٧٣	القديس مارتينوس اسقف تور • موت اثناسيوس اسقف الاسكندرية • امبروسوس الذي كان حاكم الولاية يصبح اسقفا ميلانو •	
٣٧٣ - ٣٧٦	ثورة فيرموس في افريقيا، قمعا على يد ثيودوسيوس الاب الذي اعدم بأمر من غراتيانوس •	
٣٧٥	وفاة فالنتينيانوس الاول • المناذرة بفالنتينيانوس الثاني امبراطورا فتحكم امه جوستينيا باسمه •	
٣٧٥ (?)	الهنون يهاجمون الاوستروقوط •	
٣٧٦ - ٣٧٨	القوط يجتازون الدانوب ، وفي السنة ٣٧٨ يهزمون فالنس ويقتلونه في ادرنا •	
٣٧٧		
٣٧٩	غراتيانوس يشرك ثيودوسيوس بالحكم • يتخل عن لقب الجبر الاعظم • قنصلية اوزون • القديس ايروليموس يرسم كاهنا •	
٣٨٠	ثيودوسيوس يوطن القوط كحلفاء جنوبي الدانوب • يحصر اسم المسيحيين الكاثوليكين في انصار قانون ثيكية •	
٣٨١	مجمع القسطنطينية المسكوني الذي عزل في اعاقبه كالفلة الاساقفة الاوربيين • غريغوريوس النازينزي يمين اسقفا على القسطنطينية ثم ينسحب •	
٣٨٢ - ٣٨٤	قضية مذبح اله النصر : فشل مسعى سيمناكوس لدى ثيودوسيوس •	
٣٨٣	مكسيموس يأمر بقتل غراتيانوس • ثيودوسيوس يعين ابنه اركاديوس امبراطورا •	
٣٨٤	وند فارس الى القسطنطينية : المفاوضات تقضي الى اتفاق يعين الحدود بين الدولتين ويقسم ارمينيا • ستيليجون يتزوج من والدة ثيودوسيوس سيرينا • القديس اوغسطينوس يعين استاذا في ميلانو •	
٣٨٥	القديس ايروليموس يقيم نهائيا في فلسطين •	
٣٨٦	اعدام بريسيليانوس والصاره الرئيسين •	
٣٨٧	مكسيموس في ايطاليا • معمودية القديس اوغسطينوس •	
٣٨٨	ثيودوسيوس ياتي الى ايطاليا ويهزم مكسيموس •	
٣٩٠	مجزرة تسالونيكي • الصراع بين ثيودوسيوس والقديس امبروسوس • ثيودوسيوس يعين نيكوماكوس فلانيانوس قائد حرس القصر ، ويخضع كؤمن للاسقف • خطبة ليبانيوس « من أجل المعابد » •	
٣٩١	تخليق العبادة الوثنية ، هدم معبد سيرابيس في الاسكندرية • قنصلية سيمناكوس • القديس اوغسطينوس يرسم كاهنا •	

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
			٣٧٣
			٣٧٦ - ٣٧٣
			٣٧٥
			٣٧٥ (?)
			٣٧٨ - ٣٧٦
	فان قو (شاميا) يرسل وفدا الى البلاط الصيني .		٣٧٧
			٣٧٩
			٣٨٠
			٣٨١
			٣٨٤ - ٣٨٢
			٣٨٣
			٣٨٤
			٣٨٥
			٣٨٦
			٣٨٧
			٣٨٨
			٣٩٠
			٣٩١

التواريخ	العالم الروماني وجيرانه	الهند
٣٩٢	مقتل فالنتينيانوس الثاني على يد اريونجاست الذي ينسب ياوجانيوس امبراطورا . ارستوقراطية روما الوثنية تساند هذا الاخير . يثبت نيكوماكوس في قيادة حرس القيصر فيحظر كافة الدبائع ، حتى المنزلية . روفينوس يعين قائد حرس القيصر في القسطنطينية . وفاة اوزون .	
٣٩٣	ثيودوسيوس يعين ابنه هونوريوس امبراطورا . اعتداء روفينوس الى المسيحية . وفاة ليبانيوس (?) .	
٣٩٤	انتصار ثيودوسيوس على اوجانيوس .	
٣٩٥	وفاة ثيودوسيوس . ابنه اركاديوس وهونوريوس يملكان الاول في الشرق والثاني في الغرب . القديس اوغسطينوس اسقف هيبرونا .	
آخر القرن الرابع		شالديراكوتا الثاني يعتلي العرش .

الصين	بحار الجنوب	اليابان وكوريا	التواريخ
			٣٩٢
			٣٩٣
			٣٩٤
			٣٩٥
		اليابان تستولي على قسم من كوريا الجنوبية .	آخر القرن الرابع

الأردن : ٣٥٨ .
 ارزو : ٦٧٧ .
 الأرساسية : ٢٦٥ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ .
 ارستاخوس الساموسي : ٤٧١ .
 أرستونيكوس : ٣٨٩ .
 أرستيدس الأثيني ، الاسقف : ٤٣٠ .
 أرسطو : ٢٤ ، ٥٨ ، ١٢٦ ، ٢٤١ ، ٤٦٦ ، ٤٧٩ ، ٦٢٩ .
 أرطيمس : ٣١ ، ٣٥ .
 ارغوس : ٢١٢ .
 الارغولوط : ٢٢٢ .
 الأرفال : ٢٠٥ .
 الارقيرون : ٨٤ ، ٨٦ .
 ارКАДيوس : ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٨ ، ٥٩١ ، ٦٣٤ .
 أول ، مدينة : ٣٤٢ ، ٥٦٨ ، ٥٨٢ .
 إرلندا ، إيرلندا - إيرلنديون : ٧٢ ، ٧٥ ، ٥٥٢ .
 الأرْموريك : ٧٩ ، ٩١ ، ٤٦٢ .
 أرمينيا : ١٠٤ ، ٥٣١ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٦١٤ ، ٦٢١ .
 الأرْنو ، نهر : ٢٦ .
 أريافوس النيقوميدي : ٤٧٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٤ - ٤٩٥ .
 أريتيوم : ١٧٥ .
 أريزو : ١٧٥ .
 الاريوباغوس : ٤٩١ .
 أريتريا : ٣٤٨ ، ٦٧٦ .
 اريوس : ٥٦٨ ، ٦٣٠ .
 ارياديفا : ٧٠٠ .
 أريُفيسْت : ٩٦ ، ٩٧ .
 اسام : ٦٨١ .
 اسبانيا : ١٢ ، ١٥ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٨٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

أتييس ، ٢١٣ ، ٤١٤ .
 الأتيك : ٢٢٧ .
 أتيكوس هيرودوس : ٢٢٧ ، ٣٦٢ ، ٤٩٤ .
 أتيكوس ، الفارس : ١٦٤ ، ٢٥٣ .
 اتيل : ٦٢٤ .
 الآثار الاخلاقية ، لبلوتارخوس : ٤٩٣ .
 الآثار البشرية والدينية ، لفارون : ٢٤٨ .
 اثناسيوس (القديس) : ٥٦٨ ، ٥٦٩ .
 ٦١٤ ، ٦١٧ ، ٦١٩ .
 الاثنتي عشرة لوحة (شريعة) : ٢٣٤ ، ٢٤٩ .
 أثينا : ٢٣ ، ٢٦ ، ٤٣ ، ٥٣ ، ١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٣١ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٧١ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٤ ، ٣٦١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٣٣ ، ٤٦٨ ، ٤٧٢ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٥١٧ ، ٥٢٩ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٧٥ .
 اثينا (الإلهة) : ٦٧٥ .
 اثيناوس : ٦٤١ .
 الاخمينية ، الدولة : ١٦٨ ، ٥٣٠ ، ٦٦٤ .
 الاخيون : ٢٤١ .
 الأدرياتيكي ، البحر : ١٧ ، ١٩ ، ٣٧ ، ٧٥ ، ٦٤٨ .
 الادوين : ٨٤ ، ٨٥ ، ٣٨٥ .
 الأديج ، نهر : ٢٨ .
 أذينة : ٥٣٢ .
 اراتوس السولي : ٢٥٣ ، ٤٤٧ .
 اراكوزي : ٦٦٦ .
 اربوغاست : ٥٤٧ ، ٥٦٥ .
 أرتوم ، الإله : ٣١ .
 أرتيميس : ٢١١ .
 ارجيه : ٢٠٨ .
 الأردن : ٢٧٣ .

اسوكا : ٦٦٨ ، ٦٧٠ .

أسوان : ٣٤٨ .

إسوس : ٥٠٦ .

آسيا : ٢٣ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ،
٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٥١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٨٢ ،
٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٣٤ ، ٣٧٢ ، ٣٩٤ ، ٤١٤ ،
٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٧٠ ، ٤٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٩ ،
٦١٤ ، ٦١٨ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ،
٦٦٥ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٤ ،
٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ،
٦٨٥ ، ٦٨٧ ، ٧٠٤ ، ٧٣٩ ، ٧٥٤ ، ٧٦١ ،
٧٦٢ .

آسيا الصغرى : ١٣ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٥ ،
٢٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ١٥٧ ،
٢١٣ ، ٢٢٥ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٣٤٣ ، ٣٥٢ ،
٣٨٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٧ ، ٤٦٢ ، ٤٦٨ ، ٥٠٥ ،
٥٠٧ ، ٥١٨ ، ٥٢١ ، ٥٢٨ ، ٥٣٢ ، ٥٥١ ،
٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٦٠٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٧ ، ٦٣١ .

آسيا الوسطى : ٥٥٠ .

اسيليوس بوليون ٤٥٤ .

الاسينيين ، فرقة : ٤١٧ .

أشمون ، معبد : ٦١ ، ٦٥ .

أشور ، اشوريون : ٤١ ، ٤٥ ، ١٠٥ .

أشين : ٦٨٠ .

الاطلسي ، المحيط : ٣٤٥ ، ٥٢٩ .

أعمدة هرقل : ١٢ .

أغاتوكليس ، ٤٢ ، ٥٧ .

أغاثيه : ٨١ .

أغريبا : ٣١٩ ، ٤٤٤ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ،
٥١٠ .

— .. رواق : ٤٦٩ .

١١١ ، ١١٢ ، ١١٩ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ،
١٨٧ ، ٢٢٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٨٠ ،
٣٢٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٤١٠ ، ٤٢٧ ، ٤٥٠ ،
٥٢١ ، ٥٢٩ ، ٥٣٢ ، ٥٥٣ ، ٥٨٢ ، ٦٠٧ ،
٦٢٣ ، ٦٣٢ .

اسرائيل : ١١٠ .

أستيل : ٢٤٣ .

اسفاغوشا : ٦٦٨ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ،
٧٤١ .

اسكلابيوس الاول : ٦١ ، ٢١٢ ، ٤١٢ ،
٤١٣ .

(الطبيب) : ٣٦٣ .

الاسكاليين ، رابية : ٣٦٠ .

الاسكندر : ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ٣٩ ،
٤١ ، ٥٨ ، ٧٤ ، ٩١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،
١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١٦٨ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ،
٢٥٠ ، ٢٩٦ ، ٣٧٨ ، ٤٠٦ ، ٤٢٥ ، ٤٥٢ ،
٤٦٢ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩١ ، ٤٩٤ ، ٥٠٥ ،
٥٢٢ ، ٦٣٤ ، ٦٨١ . (تاريخ) : ٤٨٦ .

الاسكندرية : ١٧٣ ، ١٩٠ ، ٢١٥ ،
٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٣٠١ ،
٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٢٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ،
٤١٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٤٤ ، ٤٥٨ ، ٤٧١ ،
٤٧٢ ، ٤٩١ ، ٥٣٧ ، ٥٦١ ، ٥٦٩ ، ٥٧٧ ،
٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦١٩ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٦ ،
٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣٧ ، ٦٣٩ ، ٦٧٥ ، ٦٧٧ ،
٦٨٢ ، ٦٨٦ . جامعتها : ٤٥٨ . نواديها :
٤٢٩ .

اسكندرية ترواد : ٣٤٤ .

الاسماعيليون العرب : ٥٥٢ ، ٦٠٠ ، ٦١٤ .

استغا : ٧٠١ .

أغريين : ٣٠٨ ، ٤٨٥ .

أغريجات : ٥٥ .

الأغريق : ١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٥٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٢٣٣ ، ٣٤٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٤١١ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤٤٥ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٧٤ ، ٤٩٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٤ ، ٥١٤ ، ٥٧٧ ، ٦٣٧ ، ٦٥٧ ، ٦٦٦ .

أغريكولا : ٤٨٧ .

أقباليينوس : ٢٢٣ .

أفستروبوس : ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٦٠٤ .

٦٢١ ، ٦٤٤ .

أفروديت : ٦٠ ، ٢١٣ .

إفريقيات : ١٢ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ١٠٤ ، ١١٢ ، ١٢٢ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ، ٢٢٤ ، ٢٥١ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٤٠٩ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣١ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٧٠ ، ٤٩٠ ، ٦٠٥ ، ٥٢١ ، ٥٢٨ ، ٥٣٥ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٦٠ ، ٥٦٧ ، ٥٦٩ ، ٥٧٢ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٩٨ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٢٢ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٧٦١ .

أقسافيا : ٥٨٨ .

أفسس : ٥٩ ، ٣١٤ ، ٤٩١ ، ٥٢٩ ، ٦٢١ ، ٦٢٨ .

أفسيفيوس : ٥٦٠ ، ٥٨٩ ، ٥٩١ .

٦٤٢ .

أفغانستان : ٥٣٠ ، ٧٠٥ .

أفلاطون : ١٢٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٣ ، ٤٠٤ .

٤١٨ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٦٢٩ .

أفلوطين : ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٨٦ ، ٦٨٨ .

٧٦٢ .

الأفتنين ، هضبة : ٥٠٨ .

أفيرون : ١٥٦ .

الأكاديميا : انظر الأفلاطونية .

أكتيوم : ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

٢٧١ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

أكسو : ٧٥٤ .

أكسوم : ٦١٤ .

أكليمنضوس : ٦٣٠ .

الأكويريا ، أو حصان تشرين : ٢٠٨ .

الأكيتين ، مقاطعة : ٧٩ ، ٥٨٢ .

الأكيلين ، هضبة : ٥٠٩ .

أكيليه : ٣٤٦ .

الألب ، جبال : ١٧ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٦٩ .

٧٥ ، ٨١ ، ٩٩ ، ٤٤١ ، ٥٢٧ ، ٥٣٢ .

٥٥٢ .

الألب ، نهر : ٧٨ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ .

آلاليا : ٢٨ .

آلاريك : ٥٤٧ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٩٦ .

٦٠٧ ، ٦٦٠ .

إلبا ، جزيرة : ٢٦ ، ٣٧ .

البريني ، انطوان : ٣٩٥ .

التاي : ٦٨٢ .

الالزاس : ٧٨ ، ٢٨٢ ، ٣٥٦ .

الالعب الرومانية : ٢٠٩ .

الالعب الشعبية : ٢٠٩ .

الالعب القرنية : ٢٠٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

٤٤٣ .

٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٦ .
 اميتاها : ٧٤٢ ، ٧٠١ .
 اميتاوس : ٧٠١ .
 أميدا (ديار بكر اليوم) : ٥٤٨ .
 انا باز ، كتاب : ٤٩٤ .
 الاناضول : ٤٢٥ .
 أنتام : ٧١٣ ، ٧١٥ ، ٧١٧ ، ٧٥٤ .
 أنترمونت : ٨١ ، ٨٤ .
 آن - قون : ٣٤٨ .
 أنتيبوليس : ٨١ .
 الانتينونية ، الملكية : ١١٢ .
 أنتيكيثروس : ٢٢٦ .
 اندراه : ٦٧٠ .
 اندرونيكوس - ليفيوس ، مترجمة
 الاوديسة الى اللاتينية : ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
 اندرينبولس (ادرنه) ، معركة :
 ٥٤٦ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٨ .
 اندمان : ٦٨٠ .
 اندهرا : ٦٦٧ ، ٦٦٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠٤ .
 اندونيسيا : ٦٧٧ ، ٦٧٨ .
 أنسرون : ٨١ .
 انسولاند : ٦٧٠ ، ٦٧٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨٣ .
 ٦٨٤ ، ٦٨٥ .
 أنسير (او انقرة) : ٧٥ .
 انطاكية : ٣٣٢ ، ٣٤٨ ، ٤١٨ ، ٤٣٣ ،
 ٤٩١ ، ٥٠٥ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٧ ، ٥٦٠ .
 ٥٨٤ ، ٦٠٠ ، ٦٠٤ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٢ ،
 ٦٣٠ ، ٦٣٦ ، ٦٤٣ ، ٦٤٥ ، ٦٧٤ ، ٧٠٥ .
 أنطونيا تشانيس : ٣٦٣ .
 انطونين : ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٢٩ ، ٣٤٩ ،
 ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٠ .
 - جدار : ٢٨٤ ، ٥٢٨ .
 انطونيانوس (قطعة نقدية) : ٥٣٤ .

الالعب المأتمية : ٢٠٩ .
 ألفيسس : ٢١٥ ، ٤٠٣ ، ٦٢٨ .
 ألقبيادس : ٢٢١ ، ٢٨٢ .
 الكسندروس او النبي الكاذب : ٤١٢ .
 آلهة البيت : ٢٠٤ .
 إلتيريا ، إلتيريون : ١٩ ، ٢٨ ، ٧١ ،
 ٧٤ ، ٨٢ ، ٥٣٩ ، ٥٤٤ ، ٥٦٩ ، ٥٨١ ،
 ٥٩٩ ، ٦٢٣ .
 الألامان : ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٤ ، ٥٥٠ .
 المانيا : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٣٥١ .
 المانيا الغربية : ٧٣ ، ٧٨ .
 - الشرقية الشمالية : ٧٨ .
 - الجنوبية : ٧٨ .
 إله الحظ : ٢٣١ .
 الآليم ، قبائل : ١٩ ، ٢٢ .
 أليزيا : ٨٤ ، ١١٥ .
 أليكانت ، مدينة : ٦٣ .
 إليون : ١٩ .
 الأم الكبرى : ٢٠٩ .
 امارافاتي : ٦٦٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ،
 ٦٨٩ ، ٦٩١ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ .
 أماسيا : ٤٦٨ .
 امبروسيوس (القديس) : ٥٦٧ ، ٥٦٩ ،
 ٥٨٢ ، ٥٩٢ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٣٢ .
 الأمبريون : ١٩ .
 امبورياس : مدينة : ٨٠ .
 امفيتريون : ٢٣٨ .
 اموداريا ، (نهر الاوكسوس قديماً) :
 ٣٤٨ .
 امور الحكم ، (كتاب) : ٢٩٣ ، ٢٩٦ ،
 ٤٠٢ ، ٤٣٦ ، ٤٤٤ .
 أمونيوس المصري : ٤٩١ .
 امونيوس ساكس : ٦٢٦ ، ٦٣٠ .
 اميانوس مرسلينوس : ٦٣٥ ، ٦٣٨ ،

الانطونية ، الاسرة : ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤١٢ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٤ ، ٤٦٨ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٨٦ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٦ ، ٥٣٨ ، ٥٥٥

انطونيوس : ٩٦ ، ١٠٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٤٠٢ ، ٤١٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٩٩ ، ٤٩٢

انطونيوس (القديس) : ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩

انطيوخوس الثالث او الكبير : ١١٤

— الرابع : ٢٢٧

انكلترا : ٥٢ ، ٧١

انكيڙ : ٤٥٣

أنوبيس : ٢٦٨

الالياذة : ٤٤٣ ، ٤٧٢

الإنياذة : ٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٩٨ ، ٤٥٣

أنيسوس : ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٤ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤

اوبسوس : ١٦٤

أوترانت ، مضيق : ١٩ ، ١١٧

اوتون ، مدينة : ٨٤ ، ٣٨٥ ، ٦٤٣

اوجينيوس : ٥٤٧ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٦٢٩

الأود ، نهر : ٣٤٤

اودرانج : ٦٤٧

اوده : ٧٠٠

أودواكر ، الاسكندر : ٥٥٨

الاوذيسه : ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٤٧٢

أورانج : ١١٤

اورشليم : ٦٢٢

أورفة : ٤٢٥

أورفيوس : ٥٣٧ ، ٧٤٣

أورليان : ٨٤

اوروبا : ٢١ ، ٢٥ ، ٣٧ ، ٥١ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ١٦٨ ، ٢٧٣ ، ٥٢٨ ، ٦١٤ ، ٦٧٩ ، ٧٦١

أوريبيد : ٢٣٧ ، ٢٤٣

اوريجينس : ٤٢٩ ، ٥٣٧ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣٧

أورييليانوس : ٥٢٦ ، ٥٣٠ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٩ ، ٥٤٦ ، ٥٦٠

اوريليانوس : ٥٧٣ ، ٥٩٠ ، ٦٠٤ ، ٦٤٧

اوزون : ٥٩٩ ، ٦٠٨ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤

اوزيريس : ٤١٤ ، ٤٩٣

أستراليا : ٧٦١

الاستروقوط او القوط اللامعون : ٥٥١

اوستي او اوستيا : ١٧٥ ، ٢١٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٨٦ ، ٥٠٤ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٧ ، ٥٩٨

اوسرونيا : ٦١٤

الأوسكية ، اللغة : ١٧٨

اوغسطس : ٦٥ ، ٨٩ ، ١٠٣ ، ١١١ ، ١٧٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٢٥ ، ٢٤٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣

اولوجيل : ٤٩٠ ، ٤٦٨ ، ٤٥٤ ،
 أوليس : ٢٣٨
 اوما : ٧١٦
 اوني ، الإله : ٣١
 الإيباريون : ١٨ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٩٩ ، ١١٥
 الإيباريه (شبه الجزيرة) : ٢١٢ ، ٤٦٢
 إيبوراكوم ، مدينة : ٥٢٨
 إيبونا ، الإلهة : ٨٩ ، ٤١٠
 إيجيه ، بحر : ١٢ ، ٢٣ ، ١٠٢ ، ١١٢ ،
 ١٦٨ ، ١٧١ ، ٢٢٧ ، ٣٥٢ ، ٥٢٩
 إيدا ، جبال : ٢١٣
 ايراتسينس : ٤٦٦
 ايرانت : ١٢ ، ١٠٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ،
 ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٦٢٧ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٦٩ ،
 ٦٧١ ، ٦٧٤ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ،
 ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٧٠١ ، ٧٠٨
 ايرلندا : ٦١٥
 إبرونيموس ، القديس : ٥٥٢ ، ٥٥٣
 ابرونيموس ، (القديس) : ٦١٨ ، ٦٤١
 إيريكس ، جبل : ٦٠ ، ٢١٣
 الايزار ، نهر : ٨٢
 ايزقراط : ٢٤٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،
 ٤٣٧
 الايزوريون : ٥٥٢
 إيزوس : ٩٣
 إيزيس : ٤٠٢ ، ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤٩٣ ،
 ٦٢٦ ، ٦٢٨
 إيستريا : ١٠٥
 إيستيل : ٣٤٤
 إيطاليا : ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ،
 ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ،
 ٢٨ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٦٩

٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦١ ،
 ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٤٧٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ،
 ٣٨٣ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٦ ،
 ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ،
 ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ،
 ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٣٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ،
 ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٩ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ،
 ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٧ ،
 ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ،
 ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥٢٢ ، ٥٣٠ ،
 ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٦٢ ، ٥٩٥ ، ٦١٠ ،
 ٦٢٨ ، ٦٤٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٥
 — تاريخ ... (كتاب) : ٣٦٣
 اوغسطينوس (القديس) : ٤٦٢ ،
 ٦١٦ ، ٦٢٠ ، ٦٢٣ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٨ ،
 ٦٣٩ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٦٠
 أوفيد : ٤٤٤ ، ٤٦٨
 اوك — اير : ٣٤٨ ، ٦٨٠ ، ٧٠٨ ، ٧١١
 — نهر : ٣٠٣
 اوكتاف او اوكتافيان : ٢٦٢ ، ٣٠٧ ،
 ٤٣٣ ، ٤٤٢ ، ٥٢٢
 اوكتافيوس : ١٣٥ ، ١٨٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ،
 ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٩٠ ، ٣٠٧ ، ٤٤٢
 اوكرانيا : ٧٤
 اوكلتيديونوم ، حصن : ٩٥
 الأوكسوس ، نهر (الاموداريا اليوم) :
 ٣٤٨ ، ٦٦٦ ، ٦٨٦
 اوك — طرفان : ٧٥٤
 اولبيا : ٨١
 اولبيانوس : ٢٩٦ ، ٤٧٧ ، ٦٤٠
 اولفيل : ٥٥١ ، ٥٦٩ ، ٦١٤ ، ٦٢١
 أولبيا ، مدينة : ٤٥٣

إيليس ارستيندس : ٤٩٤ ، ٥١٨
إينه : ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٨ ،
٤٤٢ ، ٥٣

ايوز : ٥٨٢

أتوس لوكوانس او لوكوتوس : ٢٠١

إيونوليس : ٤١٢

الايوني ، البحر : ١٦٦

ايونيا : ٢٨ ، ٥٩

الايونيون : ٣٧ ، ٨٠ ، ٦٧٣

— ب —

باب المندب : ٣٤٨

بابل ، بلاد : ١٠٤ ، ١٧٧ ، ٢٧٤ ،

٤١٣ ، ٦٣٢ ، ٦٨٦

بابليانوس : ٤٧٧ ، ٦٤٠

باراسيوس : ٢٢٨

باخوميوس (القديس) : ٦١٨ ، ٦١٩

البارناس : ٦٤٠

باريغازول : ٦٧٦

الباسك : ٧٩

باسكال : ٢٦٨

باسيتيليس : ٢٢٩

باسيليوس (القديس) : ٦١٨ ، ٦٣٩ ،

٦٤٤

با — فنوم : ٧٠٨

بافيا : ٥٢٩

باكوريوس : ٥٤٧

بالاديوس : ٦١٥

بالاز (اتيان) : ٧٢٨ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ،

٧٣٣

بالسترينا : ٢٢١

الباليوم : ٢٩٣

البامبا : ٢٠٩

بامير : ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٥

باناييتيوس : ٢٤٢ ، ٢٥٥ ، ٤٠٥

٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٠ ،

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٥ ،

١١٧ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ،

١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،

١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ،

١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،

١٩٥ ، ٢١٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ،

٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٤ ، ٣٠٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ،

٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ،

٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،

٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ،

٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٤٠٣ ، ٤٠٩ ، ٤٤٢ ، ٤٧٠ ،

٥٠٥ ، ٥١٤ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٦ ، ٥٢٩ ،

٥٣٢ ، ٥٥٠ ، ٥٥٣ ، ٥٦٠ ، ٥٦٩ ، ٥٧٥ ،

٥٧٩ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٤ ، ٥٩٨ ، ٦٠١ ،

٦٠٧ ، ٦١٣ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ،

٦٧٧

— الجنوبية : ١٢ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٩٨ ،

٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٤٥٠ ،

٤٦١ ، ٥١٤

— الوسطى : ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢

الايطاليك : ١٩ ، ٢٢ ، ٤٤

ايطاليكا ، مستعمرة : ٢٢٥

ايطاليكوس ، سيلوس : ٤٥٣

الايطاليون : ١٧ ، ٢٤ ، ٨٥ ، ٩٢ ،

١٠٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٨٨ ،

٢٦٣

إيكس آن بروفانس : ٧٨ ، ٩٤

إيكوسيا ، وصول بتياس اليها : ٥٢ ،

٧٣ ، ٣٤٢

إيل ، الإله : ٦١

إيلاغابال : ٢١٥ ، ٥٣٣ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ،

٦٢٦

إيليا كابيتولينا : ٤١٩

براسيوس ، الفنان الاغريقي : ٤٥٢
البرانس او اليرنيه (جبال) : ٤٤ ،

١٢٢

براكسيتل : ٤٥٣
براها : ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٧١٦
براها : ٦٩٨ ، ٧١٦
بريتوا : ٥٣٧
برتوفيل : ٤٥٢
البرتغال : ٣٥٧ ، ٣٦٩ ، ٥٠٤
برقولوماوس : ٧٦٢
بريصان : ٦٨٦
برسفوني : ٣٣
برسيه : ٢٤١
برغاموس : ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٤٨
٢٥١ ، ٤٣٣ ، ٤٥٢ ، ٤٩١ ، ٥٠٣
برقا ، آل : ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧
برقا ، ملقار : ٤٢
بركليس : ١٧ ، ٤٣ ، ٩٣١ ، ١٣٥ ،

٦٢٨

بركوكبا ، شمعون : ٣٧٢
برثاي : ٤٥٢
برنديس : ٤٤٢
برنيكي : ٣٤٨
برواش : ٦٧٨
بروبوس : ٥٣٩ ، ٥٩٩
بروبيرس : ٤٤٤ ، ٤٦٨
البروتيوم ، جبال : ٢٨
برودانس : ٦٤٤
برؤس : ٥٢٦
بروسيرين ، الإله : ٤١٥
بروفانس : ٧٩ ، ٨١
البروكوليانيون : ٤٧٦
بريتانيا : ٧٣ ، ٥٢٠ ، ٥٢٨
بريتانيكوس : ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٥٥٥

بان - تشاو : ٦٧١ ، ٦٧٣ ، ٦٨٥ ،

٧٥٥

البانيون ، مبنى : ٥٠١ ، ٥١٠
بان - كو : ٦٧٣ ، ٧٥٧
بانوبولس : ٦٤٣
بانورموس (باليرمو) : ١٩
بانونيا : ٤١٣ ، ٥٥٠
بانيه بعل ، الإله : ٦١
بانون : ٣٦٥ ، ٣٨٢ ، ٤٧٨ ، ٤٨٤
بتنا : ٦٦٦
بتوت ، الملك : ٨٤
بتوليس : ٤٧١ ، ٥٩١ ، ٦٢١
بتشياس ، البحر المرسلي : ٥٢
البحر الابيض المتوسط : ١١ ، ١٢ ، ١٤
١٦ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ،
٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٧٠ ،
٧٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٤ ،
٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ،
٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٧٣ ، ٤٣٢ ، ٤٣٩ ،
٤٥٥ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ ، ٥٢٠
البحر الاحمر : ٣٤٨ ، ٣٤٩
البحر الادرياتيكي : ٢٨ ، ٨٢ ، ١١٤ ،
١٦٦ ، ١٨٣ ، ٢٦١ ، ٤٧٠ ، ٥٥٣
بحر أزوف : ٥٢٨
البحر الاسود : ٢٦٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ،
٣٥٢ ، ٤٦١ ، ٥٢٩
بحر البلطيك : ٥٢٨
البحر الشمالي : ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٥٥٢
بحر قزوين : ٣٤٨ ، ٤٧٠
بحر مرمرة : ٥٢٩
بحر الميت ، مخطوطات : ٤١٧
البختيار (بختيار) : ٦٦٤ ، ٦٦٦ ،
٦٧٤ ، ٧٣٩ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٦٢
براباثوم : ٦٨٠

بريسكوس : ٦٢٨

بريسيليانوس : ٥٦٦

بريطانيا ، جزر : ٧٨ ، ٧٥ ، ٥١

٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩

٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٣١٠ ، ٣٥٠ ، ٥٣٢ ، ٥٥٢

٥٥٧ ، ٥٦٢ ، ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٦١٥

برينستا : ٢٣١ ، ٢٢١

بروهيريسوس : ٦٤٣

بريتكستاتوس : ٦٤١

بسلتوس : ٦٥٧

بسينونتي : ٢١٣ ، ٦٢٦

بشاور : ٦٦٦

البطالسة : ٣٠٥ ، ٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣

٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٩٠ ، ٤١٨ ، ٥٧٢ ، ٦٢٩

٦٥٩

بطرس القديس : ٦٢٢

بطريقوس (القديس) : ٦١٥

بطليموس : ٣٤٨ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥

٤٩٢ ، ٦٤٠ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٨٦

٧١٠ ، ٧٥٣

بعل او بعل مون : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٤١٠

— حصص : ٤١٥

بعلبك : ٤١٠ ، ٥٢٢

بغرام : ٦٦٦ ، ٦٩٢ ، ٧٠٦

بفلاغونيا : ٤١٢

البكتيون : ٥٥٢

بكين : ٦٧٤

البلاطين ، رابية : ٣٦٠ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩

بلاندين : ٤٢٣

بلاس : ٣١٩

بلافا : ٦٧٠

بليلا : ٤٥٥

البلجيكيون : ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩

البلقان : ١٢٢ ، ١٧٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٤

٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٦١٨ ، ٦٣٨

بلميرا : ٤١٣ ، ٥٣٢

بلوت : ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣

البلوونيز : ٢٢٦ ، ٣٤٤ ، ٥٥٢

بلوتارخوس او بلوتارك : ١٧٧ ، ٢٣٦

٢٥٢ ، ٤٠٤ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣

بليتونا (الإلهة) : ٢١٥

البليار ، جزر : ٤٤

بليزاما ، الإلهة : ٩٣

بلين الاصغر : ٣١١ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩

٣٩٠ ، ٤٢٢ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠ ، ٤٥٥ ، ٤٧٧

٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٦٧٦

بلين او بليني الاكبر : ٥٦ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦

٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٤٣٦ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣

٤٧٤ ، ٦٤٠ ، ٦٨٥

البليميون : ٥٢٨ ، ٥٥٢

ببونيووس ميلا : ٤٧٠ ، ٦٧٦

بومبيوس او بيبوس : ١٠٤ ، ١٠٦

١١٣ ، ١٢٥ ، ١٣٨ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٨

١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٩٣ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٩

٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٤٨٢

٦٧٦

ببيوس سكستوس : ٢٦٦

ببيوبوليس : ٣٤٤

البنائينيه ، حفلات : ١٤

بناريس : ٦٦٦

البنجاب : ٦٦٦

بنداريس : ٣٧

بنديا (بنديون) : ٦٧٠ ، ٦٨٥

بنديشري : ٣٤٨ ، ٦٧٦

بنغال : ٦٨٠

بنيفانت ، مدينة : ٤٩٩

بهادرافارمان : ٧١٦

بهادرسفارا : ٧١٦ ، ٧١٧

بوسكوريال : ٤٥٢ - كنز : ٥٠٦

البوسنه : ٧١

بوسويه : ١١٣ ، ٢٦١

بولس ، الفقيه الروماني : ٤٧٧ ، ٦٤٠

بولس ، الرسول : ٣٢٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٥٩١ ، ٦٢٢

بولس اميليوس : ١٠٦ ، ١٧٨ ، ٢٤١

بولونيا ، مدينة : ٢٠ ، ٢١ ، ٧٦

بوليب : ٤٤ ، ٦٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٦

١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤٤

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٣ ، ١٨٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٥

٢٤١ ، ٢٤٩ ، ٣٨١ ، ٤٣٩

بوليكليت : ٢٢٨ ، ٤٥٢

بولين النولي : ٦١٥ ، ٦٤٤

بولين دي بيلّا : ٦٠٨

بوماخيوس : ٦١٥

بومباي : ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٨٢

بومبيي : ١٧٥ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٥٦

٤٣٦ ، ٤٥٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥١٨

٥٢١ ، ٦٧٥ ، ٦٨٥

بون ، مدينة : ٢٨٥ ، ٢٨٧

البونت : ١٥٧

بونغ - توك : ٦٨٠

بولونيا : ٧٦

البونتيقيون : ٥٦

بوهو (جان) : ٧٥٧

بوهيميا : ٧٤

بويثوس : ٥٩

بيان هان : ٧٥٧

بيت لحم : ٦١٨

البيتوريچ : ٨٤

بيثينيا : ٣٨٩ ، ٤٠٧ ، ٤٢٢

بهارهوت : ٧٠٦

البو ، نهر : ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٣٠

٣٧ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٨٦

بواتيه : ٨٤ ، ٥٦٩ ، ٦١٥ ، ٦٣٢

بوالو : ٤٤٩

ببولونيا ، مدينة : ٢٦ ، ٣٧

بويوس غافديوس : ١٣٢

بويه : ٤٢١

بوتنجر : ٦٨٥

بودهيساتفا : ٧٤٢

بوتيولي : ١٧٦

بوتين ، الاسقف : ٤٢٣

بوذا : ٦٦٨ ، ٦٨٠ ، ٩٨٣ ، ٦٨٤

٦٨٦ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥

٧١٤ ، ٧٣٩ ، ٧٦٢

بوذوكيه : ٦٧٧

بوربونه : ٧٠

بورج ، مدينة : ٨٤

بورديو : ٣٤٢ ، ٥٦٩ ، ٥٩٩ ، ٦٠٨

٦٣٤ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨

بوردوليه ، مقاطعة : ٩٠ ، ٣٥١

البورغوند : ٥٢٨

بورغونيا : ٧٠ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٣٥١

بورفيروس : ٦٢٨ ، ٦٨٦

بوركهارت ، يعقوب : ٥٥٦

بوركيا : ٢٣٠

بورما : ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٨١ ، ٦٨٥

بوزانياس : ٤٦٩ ، ٤٩٤

بوزول : ١٧٦ ، ٢١٥

بوزيدونا : ٢٨

بوزييدونيوس : ٢٤٩ ، ٤٠٥

بوستوموس : ٥٣٢

البوسفور : ٥٢٩ ، ٥٧٣ ، ٥٨٣ ، ٦٠٠

بيدنا ، معركة : ١١٤ ، ١٦٩

بيرالك : ٦٨٧

بيرس : ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢

بيرسا : ٤٨ ، ٦١

بيرسه : ١١٢

بيروت : ٤٧٦ ، ٦٤٠

بيروس : ٤٥

بيريفو : ٥٤

بيرينيس : ٣٢١

البيريتيون : ٧٩

بيرينه : ٨١

بيزنطية : ٣٠١ ، ٥٢٤ ، ٥٣٨ ، ٥٩٣

٦٥٦ ، ٦٨١

بيزون : ٣١١

بيزيه : ٨١

بيستروم ، مدينة : ٢٨

بيكيل ، رواق : ٣٦١

بيلاطس البنطي : ٣٢٦ ، ٤٢٠

بيليوه (بول) : ٦٧٢

بيوقيا ، مدينة : ٤٩٢

بيونغ - يانغ : ٧٥٦

- ت -

تاراغون : ٣٤٨

تارائيس ، إله : ٩٣

تا - تسن : ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٨١

التاج ، نهر : ٥٠٤

تاركنوس ، آل : ٢٩ ، ١٢٧ ، ٢١٢

تارنت ، تارنتا ، طارنتا : ٢٣ ، ١٠٥

٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦

تاريم (نهر) : ٧٥٤

تاسيت : ٢٩٤ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٢٥

٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٧٧

٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٩

٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٨٤

تاش كورغان : ٦٧٥

تاكسيلا : ٦٩٢

تاكوا - بوا : ٦٨٠

تاكولا : ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٧١٠ ، ٧١٣

تامول : ٦٧٠

تانغ : ٧٣٦ ، ٧٤٦ ، ٧٤٨

تافوي : ٦٨٠

تانيت ، الإلهة : ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣

٤١٥ ، ٦٢٦

تاي - بنغ : ٧٣٠

تاي - فانغ : ٧٥٧ ، ٧٥٨

تايلاند : ٦٨٤

التاين ، نهر : ٢٨٤

التتر : ٧٣٤

تاريكوس : ٥٣٢ ، ٥٣٣

تديانوس : ٤٥٠

تدمر : ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٣٢ ، ٥٣٤

٦٠٤ ، ٧٠٥

ترايزو : ٣٤٤

تراجيدا : ٣٨٦

ترازيمينا : ١٥٠

ترافنكور : ٦٧٠

تراقيا : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٥٢٩ ، ٥٥٢

٥٦٠ ، ٥٨٢

ترانسلفانيا : ٧٤ ، ٥٥١

ترايانوس ، الامبراطور : ٢٨٢ ، ٣٠١

٣٠٤ ، ٣١١ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠

٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥١

٣٥٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٤

٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٥٥

٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٧

٤٩٩ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠

٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥١٨ ، ٥٢١ ، ٥٢٦

تشولا : ٦٧٠
 تشونغ - تشانغ - تونغ : ٧٣٠ ، ٧٣٤ .
 تشو - ينغ : ٦٨٨ ، ٧١١ ، ٧١٢
 تشي تشان : ٧٣٩
 تشي فا - هو : ٧٤٠
 تشينلا : ٦٨٠
 تكتوساج : ٧٤
 تمبالنغا : ٦٨٧ ، ٧١٣
 تمبيه ، وادي : ٣٦١
 تمرايتي : ٦٧٨
 تمغاد : ٥٢٢
 تملاك : ٦٧٨
 تنجور : ٦٧٠
 توان - هوانغ : ٧٣١
 تواتيس : ٩٣
 توتشي : ٣٨٦ ، ٥٢٠
 تور : ٤٨٠ ، ٥٧٠ ، ٦١٥
 توكيدينس : ١٩ ، ٢٥١ ، ٤٣٩ ، ٤٨٨ ، ٦٣٧
 توسكانا : ٥١٩
 توسكولوم : ٥١٩
 تولوز : ٧١ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٣
 توما (القديس) : ٦٦٨ ، ٦٨٥ ، ٧٦٢
 تومبوكتو : ٦٤٣
 تومي ، بلدة : ٤٤٤
 تونس : ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٢٢٦ ، ٣٧٠
 تونغ باو : ٧٢٨
 تونكين : ٣٤٨ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ، ٧٠٩ ، ٧١٢ ، ٧١٤ ، ٧٥٤
 تيان - سوين (توان سيون) : ٧١٣
 التبيت : ٦٣١ ، ٦٦٨ ، ٦٨٣
 التبير ، نهر : ٢٦ ، ٣٦ ، ١٢٦ ، ١٥٨
 ١٧٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٢٢ ، ٣١٦ ، ٣٤١

٥٣٩ ، ٦١٦ ، ٦٣٥ ، ٦٤٣ ، ٦٤٦ ، ٦٥٩ .
 ترتليانوس : ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٥٠ ، ٤٧٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥٦٠ ، ٦٣٦
 تركستان : ٧٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٤٢٥
 ٥٤٩ ، ٦٣٢ ، ٦٦٦ ، ٦٧٦ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥
 تريولا : ٤٥٥
 تريون : ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣١٥ ، ٣٤٠
 تريف : ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٦٠٠ ، ٦٤٨ ، ٦٣٤
 تريملكيون ، بطل رواية ساتيريكون : ٤٨٤
 تسالونيك : ١٢٢ ، ٥٢٩ ، ٥٦٧ ، ٥٨٢ ، ٦٥٢
 تساليا : ٣٦١
 تساوو تساوو : ٧٣٣ ، ٧٣٤
 تسين : ٧١٢ ، ٧١٥ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٤٠ ، ٧٤٢ ، ٧٤٨ ، ٧٥٥
 تسيان - هان تشو : ٧٢١
 تشانكاكافي : ٦٨٩
 تشاكا : ٦٦٩
 تشان - تان : ٧١٢
 تشان - سونغ : ٧١٠
 تشانغ - نغان : ٧٤١
 تشانغ هونغ : ٧٥٢ ، ٧٥٣
 تشاوو تسو : ٧٢١
 تشستبوس : ٥٠٢
 تشلستيس : ٦١ ، ٦٥ ، ٤١٥
 تشنغ هيوان : ٧٤٦
 تشو : ٧٣٩
 تشورباراكا : ٦٧٨
 تشو شو - فو : ٧٣٩
 تشو شو - لان : ٧٤٠

٣٧١ ، ٤١٤ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥٦٣

تیبور : ٣٦١ ، ٥٣٣

تیبول : ٤٤٤

تی - تسانخ : ٧٤٢

تیت - لیف : ١١٦ ، ١١٩ ، ٢٠٨ ،

٢١٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤١ ، ٤٥٠ ، ٤٥٣ ،

٤٧٧ ، ٤٨٦ ، ٦٤١

تیخه : ٣٠٣ ، ٤١٣

تیراسینا : ٣٤٤

تیراماریه دوکستیلازو : ١٩

حضارة : ٢٠ ، ٢١

تیرانس : ٥٨ ، ٢٤٣ ، ٢٥٨

التیرینی ، البحر : ١٧ ، ٢٥ ، ٢٦

تیرونیس : ٨٤

تیریان : ٣٤٨

تیزیه ، مدينة : ٥١٧

تیطس : ٢٩٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٦٨ ،

٤١٨ ، ٤٩١ ، ٥٠٩

تیلون ، رأس : ٧٧

تیملکيون ، ولیمة : ٣٦٥

تین ، الإله : ٣١

تیوتنز : ٧٨ ، ١١٤ ، ١٨٢

تو - کیو - لی : ٧١٠

- ث -

ثاوقیلوس : ٧٦٢

ثلینیة : ٨١

ثیاندروس ، الإله : ٤١٣

ثیمیستیوس : ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ،

٦١٤ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٤٣

ثیودوسیوس : ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ،

٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ،

٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٩ ، ٥٧٩ ، ٥٨٢ ،

٥٨٤ ، ٥٨٦ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٢ ، ٥٩٦ ،

٦١٩ ، ٦٣٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ ، ٦٦٠

- ثیودوسیوبولیس (لقب مدينة كارثا -

ارزروم اليوم) : ٥٥٠

ثیودوسیوس الثاني : ٦٤٠

ثیوکریتس : ٤٤١

ثیون : ٦٢٩

- ج -

جالینوس البرغامی : ٣٦٣ ، ٤١٣ ،

٤٧٥ ، ٤٩٢

جانوس : ٢٠٣ ، ٢٧٣

جانوس کویرینوس ، هیکل : ٢٧٣

جایا : ٦٨٠

جبل طارق : ١٠٢ ، ٢٦٢

جرمانوس (القديس) : ٦١٥

جرمانیا : ٢٧٤ ، ٣٢٧ ، ٥٠٠

الجرمانيون : ٧٢ ، ٧٨ ، ٩٩ ، ٦١٥

جرمانیکوس : ٣٠١ ، ٤٤٧

الجزر الخالدات : ٤٧٢

الجزيرة الايبيرية : ٥١ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ،

٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٢٨٠ ، ٤٦٢

الجزيرة العربية : ٦٠٠

جسر القنطرة ، على نهر التاج : ٥٠٤

جبلیکوس : ٦٢٨ ، ٦٢٩

جندي کابسترانو : ٢١

جنسریک : ٥٥٣ ، ٦٢٤

جوبتیر ، الإله : ٣١ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١١ ،

٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،

٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٩ ، ٤٤٣ ، ٦٢٦ ،

- تنوع ألقابه : ٢٠٠

- الافضل والاعظم : ٢٢٠

جوبتیر الکابیتولي : ٣٤ ، ١١١ ، ٢٠٣ ،

٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٤٤٧ ، ٥١٧

جوبتیر : ٢٠٣

جوتلاند : ٦٩ ، ٧٨

الجورا الصوابية ، جبال : ٢٧٤

الحرب البونيقية : ٤٣ ، ١٠٥ ، ١١٢ ،
٢٣٨ ، ١٦٧
- الاولى : ٤٢ ، ٢٢١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨
- الثانية : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٩ ، ٦٤ ،
١١٢ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٧١ ،
١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢٣٦ ،
٢٤٨ ، ٤٥٣

حرب العبيد : ١٧٨ ، ١٨٢
الحرب اليهودية : ٢٧٣ ، ٤١٩ ، ٤٢٢
حصان تشرين او عيد الاكويريا : ٢٠٨
حصان طروادة : ٢١١ ، ٢٥٤
الحفرة ، معبد : ٦٤ ، ٦٥
الحق الايطالي : ٣٢٩
- الروماني : ٣٣٥ ، ٣٧٤
- اللاتيني : ٣٣٥
حقوق الديكومات : ٢٧٤ ، ٢٨٥
الحكومة الثلاثية : ٤٠٢
حمص : ٥٣٣
حنّون ، رحلة : ٥٢ ، ٥٣
الحوليات ، كتاب لتاسيت : ٤٨٧
الحوليات العظيمة ، ل. ب. م. سكيفولا :
٢٤٨ ، ٢٤٩

- خ -

الخابور ، نهر : ٥٤٩
خباري : ٦٧٨
خريزيه : ٦٧٨
خريسوغونوس : ١٧٩
خطاب حق ، لسلس : ٤٢٩
الخطب الفرثيه لشيشرون : ٢٥٢
خلقيدونيا : ٦٢١ ، ٦٢٢
خليقيس : ٦٢٨
خواطر ، كتاب لاريانوس : ٤٩٥

جورجياس : ٤٩٤

جوستن : ٨١

جوستينا : ٥٦٩ ، ٥٨٨

جوستينيانوس : ٥٥٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٨ ،

٦٤٠

جوفسال : ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ،

٣٨٢ ، ٤١١ ، ٤٤٨ ، ٤٧٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ،

٥١٢ ، ٦٤٤

جوفوس : ٥٩٠

جوليا ، معبد : ٢٣١

جوليا دومنا : ٥٨٨ ، ٦٢٧

جوليا سوامياس : ٥٨٨

جوليا ماميا : ٥٨٨

جوليا ميزا : ٥٨٨

جوليان ، كميل : ٩٦ ، ٥٢٢

جوليانوس : ٥٤٣ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ،

٥٥٠ ، ٥٥٨ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٩ ، ٥٧٩ ،

٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٥ ، ٥٩٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ،

٦٣١ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤١١ ، ٦٤٢ ،

٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٩ ، ٦٥٦

الجيت : ٧٧

جيشون ، بلدة : ٣٠٥

جيانون السيراغوزي : ٤٨ ، ٦٢

جينابوم ، مدينة : ٩٢

جي - نان : ٦٨٧ ، ٧١٣ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ،

جينون او جونون ، الإله : ٣١ ، ٣٥ ،

٦١ ، ٦٥ ، ٢١١ ، ٢٢٠ ، ٤١٥

- ح -

الحبشة : ٣٤٧ ، ٧٦١

الحجر الاسود : ٢١٣

حديث عن الخطباء ، (كتاب لتاسيت) :

٤٨٠ ، ٤٥٠

الحرب التي لا ترحم : ٤٥

- البلبونيز : ٤٩٤

حرب المرتزقة : ٤٢ ، ٤٥

دنيسوس الهالكارناسي : ٤٣٩ ، ٤٦٨ ،

٤٩١

الدوديكا بول : ٣٠

دورا يورويوس : ٤٢٨

الدورانس ، نهر : ٨٢

الدورو ، نهر : ٧٨

دوليخة ، الإله : ٤١٠

دومتيانوس : ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ،

٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٧ ، ٣٥٢ ،

٣٦٢ ، ٣٦٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٤ ، ٤٠٥ ، ٤١٤ ،

٤٢٢ ، ٤٤٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ،

٤٨٩ ، ٤٩٤ ، ٥٠٨

دومتيوس أفير ٤٥٠

دومتيوس أهينا يابريوس : ٢٢٩

الدوميسية ، الطريق : ١٢٢

الدون ، نهر : ٥٢٨

دوناط : ٥٥٢ ، ٥٦٧ ، ٦٤١

دونغ - دو - ونغ : ٦٨٠ ، ٧١٤

دياليس : ٢٠٤

ديار بكر (اميدا قديما) : ٥٤٨

ديانا : ٢١١ ، ٤١٥

ديدون : ٢٣٨

ديديوس : ٢٤٨

الدير الابيض : ٦١٩

ديراخيوم ١٢٢

ديفيكياس : ٨٧

ديكسيوس : ٦٤١

ديلوس ، حلف : ٦٤ ، ١٥٧ ، ١٧١ ،

١٧٣ ، ١٧٥ ، ٢١٥

ديمتيز ، إله الزراعة : ٦٠ ، ٢١١

ديوستينس : ٢٥٢ ، ٦٣٧

ديموكريت ٢٥٥

ديميورج : ٤٣١

ديوجينس لايرس : ٦٤١

الخير : ٦٨٠ ، ٧١٣ ، ٧١٦

خوطان : ٦٦٦ ، ٧٣٩ ، ٧٥٤

خير سونيز : ٦٧٨

- د -

دار المحفوظات : ٢٣١ ، ٣١٩

داريوس : ٦٢ ، ٥٠٦ ، ٥٣٠

الداس : ٧٧ ، ٤٩٩

داسيا : ٢٧٣ ، ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٨ ،

٣٧٢ ، ٥٣٠ ، ٥٤٢ ، ٥٥٢ ، ٥٩٦ ، ٦٣٨ ،

داسيوس : ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٦١ ، ٦٤٧ ،

داماز : ٦٢٠

داموفيلوس : ١٢٢

الداغمارك : ٥٢

الدانوب : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٨٢ ،

٩١ ، ١٠٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ،

٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨ ،

٣٧٢ ، ٤١٢ ، ٤١٥ ، ٤٤٤ ، ٤٦١ ، ٤٧٠ ،

٤٩٩ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٤١ ،

٥٤٢ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٨٣ ، ٥٩٩ ،

٦٣٨ ، ٦٦٠

- خط : ٥٥٠

داليموليدس : ٢٣

دجلة : ٣٤٧ ، ٥٣٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٩

دروزوس : ١٣٦ ، ٣٠١

الدرويد ، الدرويدية : ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٣ ،

٩٤ ، ١٠٩

دفاع عن المسيحية ، لثرتليانوس : ٤٣٠

الدلتا : ٦١٧

دلف او دلفي : ٣٥ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٢١٢ ،

٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٣٥ ، ٤٩٢ ، ٦٤٩

دلماتيا : ١٠٤ ، ٥٥٢

دمشق : ٤١٠

الدنيستر ، نهر : ٥٥١

دنيسوس : ٢٣ ، ٣٧

ديوكليتيانوس او ديوكليسيانوس : ٥٢٥ ،
 ٥٢٦ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٥ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ،
 ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٧ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٦٠ ،
 ٥٦١ ، ٥٧٠ ، ٥٧٣ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ،
 ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ،
 ٥٩٧ ، ٦٢٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٤٢ ، ٦٤٧ ،
 ٦٥٣ ، ٦٤٨

ديون : ٦٤١

ديون كاسيوس ، حفيد الاول : ٣١٤ ،
 ٤١٩
 ديون ده بروس او الذهبي الفم : ٤٠٧ ،
 ٤٩١ ، ٤٩٤

ديونيسيوس : ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٤٠٧
 — اسرار او الطقوس : ٢١٥

— ذ —

ذئبة الكابيتول : ٣٦
 ذيوذوروس الصقلي : ٦٢ ، ٤٣٩ ، ٤٦٨ ،
 ٤٩١

— ر —

راتسيون : ٢٨٥
 راسنا : ٢٤
 راسين : ٦٤٣
 الرافضة ، فرقة : ٤١٧
 رافنتا : ٥٤٨ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤
 راكورو : ٧٥٥
 الربيع المقدس ، ٢١
 رثاء تراجانيوس : ٤٨١
 رحلة حول البحر الاسود ، كتاب :
 ٣٤٨

رحلة في بحر اريثريا : ٣٤٩ ، ٤٧٠
 الرعائية ، القصائد : ٤٤١
 الرها ، مدينة : ٤٢٥
 الرواقية : انظر زينون

الروبيكون ، نهر : ٢٦١
 روتيليوس ناماتيانيوس : ٦٦٠ ، ٦٦١
 رودوس : ١١٧ ، ١٧٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
 ٢٣٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥١
 روديه : ٨٠
 الروزنامة الجدلية : ٢٤٦
 روستوفتزييف : ٥٣٨ ، ٥٣٩
 روسيا : ٣٤٦ ، ٥٥٠ ، ٦٥٣
 الروسيون : ٧٢
 روفوس ، موسونيوس : ٤٥٩
 روفينوس : ٥٨٢ ، ٥٨٨
 رولتوس : ١٨٩

روما : ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٣ ،
 ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
 ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ،
 ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٦ ،
 ٧٧ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ،
 ٩١ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ،
 ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،
 ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
 ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ،
 ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ،
 ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
 ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ،
 ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ،
 ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،
 ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
 ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،
 ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
 ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،
 ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦١

٦٢ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
 ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٨ ،
 ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩ ،
 ١٠٤ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،
 ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ،
 ١٩٣ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ،
 ٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٣٢ ،
 ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧٩ ، ٣٩٨ ، ٤٠٢ ،
 ٤٠٥ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،
 ٤١٩ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٤٥٧ ،
 ٤٦١ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٨٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ،
 ٥٠٢ ، ٥٠٦ ، ٥٢٥ ، ٥٣١ ، ٥٤٥ ، ٥٧٤ ،
 ٥٧٧ ، ٦٠٨ ، ٦٣٣ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨١

رومانيا : ٦٠١ ، ٦٥٧

رومولوس : ٦٦١

الرون ، نهر : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٧ ،
 ٨٢ ، ٩٢ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٢

رونسار : ٢٣٦ ، ٦٥٧

الريف ، جبال : ٥٢٨

الرين ، نهر : ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٩٠ ،
 ٩٢ ، ٩٥ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ٢٦٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ،
 ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٥١ ،
 ٣٧٢ ، ٤١٥ ، ٥٠٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢ ،
 ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٥٠ ، ٦٦٠

— قناة... الاسفل : ٣٤٤

رينانيا : ٣٥٦ ، ٥٢٠

— ز —

الزاب (نهر) : ٦٨٦
 زاما (معركة) : ٥٦ ، ١٦٩
 زحل ، الإله : ٦١

٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،
 ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣٢٠ ،
 ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ،
 ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،
 ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ،
 ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ،
 ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٤٠١ ،
 ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ،
 ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ،
 ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ،
 ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٥٠ ،
 ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ،
 ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ،
 ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٩ ،
 ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ،
 ٤٩٢ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٢ ،
 ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥٢١ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ،
 ٥٣٤ ، ٥٤٠ ، ٥٤٤ ، ٥٥٣ ، ٥٦٠ ، ٥٧٣ ،
 ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٩٠ ،
 ٥٩٣ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ،
 ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦١٤ ، ٦٢٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ،
 ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٩ ، ٦٣٨ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ،
 ٦٤٢ ، ٦٤٤ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ،
 ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٩ ،
 ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٦ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ،
 ٦٧٢ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ،
 ٦٨٦ ، ٧٦١

هليانة روما : ١٩٧

روما اوغسطس عبادة : ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
 ٣١٢ ، ٣٣١ ، ٥١٧

الرومان ، الرومانيون : ٢١ ، ٢٤ ، ٢٨ ،
 ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٥ ،
 ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦١

الزراعية ، القصائد لفرجيل : ٤٤١ ،
٤٤٢

زردشت : ٧٦٢

زغرب : ٢٤

زفس او زوس ، الإله : ٦١ ، ٢٢٧ ،
٤١٠ ، ٦٧٥

— الاولمي : ٢٢٧

زنوبيا : ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٦٠

الزهرة او فينوس : ٣٥ ، ٤١٥ ، ٤١٩

زوئسيموس : ٦٢٣

زويدرذيه : ٣٤٤

زينون : ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥١ ، ٣٢٦ ،
٣٧٩ ، ٣٩٣ ، ٤٠٥ ، ٤١٨ ، ٤٢٢ ، ٤٤١ ،
٤٦٠ ، ٤٧٦ ، ٤٧٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ،
زينون الايزوري (تاراسيكوديسا) :
٥٥٨

— س —

ساپور : ٦٧٥ ، ٦٨٦

ساپور الاول : ٥٣١ ، ٥٣٢

— الثاني : ٥٤٨ ، ٥٥٠

سابيليوس : ٦٣٠

السابنز : ١٩ ، ٢١ ، ٤٧٦

ساتورن : ٢٠٣ ، ٦٣٣

— هيكل ... او بيت المال : ٣١٦

ساتورينوس : ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٤٨

ساتيريكون ، رواية لبترون : ٣٦٥ ،
٤٨٤

سارفاستيفادين : ٧٠١ ، ٧٤١

الساومات : ٥٢٨

الساسانيون : ٥٣٠ ، ٥٤١ ، ٥٦١

٥٨٤ ، ٦١٤ ، ٦٢٩

الساف (نهر) : ٥٨٣ ، ٥٩٩

ساكا : ٦٦٤ ، ٦٦٦

الساكسون : ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٥٢

سالييس : ١٨٩

سالزبورغ : ٧١

سالوستوس : ٢٥٠ ، ٢٥١

ساليون : ٢٠٥

ساموس : ٢٢٣ ، ٣٤٨

الساموساطي ، بولس : ٥٣٢ ، ٥٦٠

الساموسية ، الخزفيات : ١٧٥

سانشي : ٦٩١ ، ٧٠٣ ، ٧٠٦

سان لويس : ٤٨

سانت أنج ، مبنى : ٥٠٣

سانتونج ، مقاطعة : ٤٥٠

ساويروس ، سبتيموس : ٢٨٢ ، ٣٨٥

٤٧٧ ، ٤٩٥ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨

٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٧

٥٣٨ ، ٥٤٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٦ ، ٥٥٥ ، ٥٧٢

٥٧٤ ، ٥٧٧ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧

٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ ، ٦٥٣

ساويروس (سولييس) : ٦١٥

سبارطاكوس : ١٨١ ، ١٨٢

سبارطة : ١٨١ : ٤٥٩

سبالاكو : ٦٤٨

سبتيميا باتراباي (لقب الملكة زنوبيا) :

٥٣٢

ستاس : ٤٨٢

ستايين ، ارنتست : ٥٥٢

سترايون او سطرابون : ٤٨ ، ٨٩ ، ٩٤

٣٤٩ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٤٩١ ، ٦٨٥

ستراسبورج : ٢٨٧ ، ٥٥٠

ستيريا : ٧٠

ستيغالوس : ٤٩٧

الستيكس (نهر) : ٣٣

ستيليكون : ٥٤٧ ، ٥٨٨ ، ٦٤٤

سردينيا ، جزيرة : ١٨ ، ٢٦ ، ٢٨

سوخافاتي : ٧٤١
 السودان ٥٢
 سوريا : ١٠٤ ، ٢٦٥ ، ٢٨٥ ، ٤٢١ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٦٢ ، ٥٠٥ ، ٥٢١ ، ٥٣٢ ، ٥٨٠ ، ٦٠٠ ، ٦٠٤ ، ٦١٨ ، ٦٣١ ، ٦٧٤ ، ٦٨٣ ، ٦٨٢ ، ٦٧٥
 سوريا (الإلهة) : ٦٨٤ ، ٦٩٣
 سوزه : ٧٠٥
 سوسيغينيس : ٢٤٦
 سوغديانا : ٧١٢ ، ٧٥٥
 سوفوكليس : ٢٤٣
 سول : ٦٢٦
 سوما : ٧٠٩ ، ٧٣٤
 سوما - تسن : ٦٧٣
 سومطرا : ٦٧٠ ، ٦٨٠
 سوفونسيا ، الاميرة : ٦٣
 السوند : ٦٨٠
 سونغ : ٧٤٦
 سو - وو : ٧١٠
 سويتون ، المؤرخ : ٣٠٩ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣
 ٤٤٨ ، ٤٧٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٢ ، ٤٤٨
 السويس : ٣٤٨
 سويسرا : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٨ ، ٨٣
 السوفيت ، مجلس : ٥٢
 سيام : ٦٨٠
 سيوتنه : ١٨٩
 سيبيريا : ٦٨٢
 سيبيل ام الآلهة او الام الكبرى : ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٦٢٦
 سيجان : ٣٠٩ ، ٣٢١
 سيدة أليخه : ٦٣
 سيرابيس : ٢١٥ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٦٢٦
 سيراكوزه او سيراكوزا : ٢٣ ، ٣٧
 ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ١٧٠

٢٧٢ ، ١١٢ ، ٥١ ، ٤٤ ، ٤٢
 سرنه او قرنه : ٥٢
 سقراط : ٢٤٠
 سكسبتوس : ٤٠٤
 سكستوس بومبيوس : ١٨٢
 سكندينايا : ٧٢ ، ٧٨ ، ٣٤٦
 سكوتلندا : ٦١٥ ، ٦٩٩ ، ٧٦١
 السكورشانا : ٦٦٧
 السكيشيون : ٣٤٦
 سكيغولا ، بوبليوس موسيوس : ٢٤٨ ، ٢٤٩
 سلامين : ١٠٥
 سلتوس : ٨٥
 سلس : ٤٢٩ ، ٥٧٥
 سلمبو : ٦٢
 سالوقيه : ٧٠٥
 السالوقية ، الدولة : ١٠٤ ، ١١٢ ، ٣٠٥ ، ٣٤٧ ، ٣٧٨
 السالوقيون : ٣٧٩ ، ٤١٨
 سليان ، هيكل : ٤١٩
 سمرقند : ٧٤٠ ، ٧٥٥
 سيمان (القديس) : ٦١٨
 السمنيون : ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٣٧ ، ١١٤ ، ٢٢١ ، ٤٩٥
 سميساط : ٤٩٥
 السند : ٦٦٩
 السنغال ، نهر : ٥٢
 سواسون : ٨٤
 سوان كيوان : ٧٣٤
 سواي : ٦٧٤ ، ٧٤١
 سواي - شي : ٧٣٠ ، ٧٣١
 سويتا : ٦٧٨
 سويسوس ، جسر : ٢٠٥
 سوتشوان : ٧٣٤

- ش -

شاة كارني : ٦٦٩
 شاقوميان : ٧٦
 شاتيون - سير - لاسين : ٨٢
 شارون (ملك الموت) : ٣٣
 شافان : ٧٢١
 شالون - سير - سون : ٨٩
 شان تونغ : ٦٧١
 شان ده مارس : ٥١٠
 الشيتات ، يهود (دياسبورا) : ٤١٨
 شرفقري : ٣٤
 الشرق : ٥٦٨ ، ٥٧٢ ، ٥٨٤ ، ٦٠٠
 ٦٠١ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤
 ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢
 ٦٣٧ ، ٦٤٠ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥ ، ٦٨١ ، ٦٨٢
 ٦٨٥ ، ٦٨٩ ، ٧٦٢
 الشرق الادنى : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٩٩
 ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٧ ، ٣٤٤ ، ٤٦٦
 الشرق الهليني : ١٨٠ ، ١٩١ ، ٢٦٦
 ٢٦٧ ، ٣٠٦ ، ٣٣٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤
 ٣٧٤ ، ٣٨٥ ، ٤٠٤ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٦١
 ٤٩١ ، ٥١٢
 الشرق الاقصى : ١٠٤ ، ٢٧٤ ، ٣٤٧
 ٣٤٩ ، ٤٢٥ ، ٦١٤ ، ٦٤٠ ، ٦٨١
 الشرق القديم : ١٠٤
 شريدب : ٦٨٠
 شري - مارا : ٧٠٩
 الشط : ٤٧٠
 الشعوية : ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١
 شليفن : ٤٥
 شمبا : ٦٧٠ ، ٦٨٠ ، ٦٨٧ ، ٧١٣
 ٧١٦ ، ٧١٧
 شمعون بن كوزيبا : ٤١٩
 شتوميليه : ٣٤٤

سيرت ، خليج : ٤١
 سيرتا ، مدينة ٦٤ ، ٥٨٣
 السيرك العظيم : ٢٠٩
 سيرميوم : ٥٨٣ ، ٦٠١ ، ٦٣١ ، ٦٤٨
 سيريس : ٦٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١١
 ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٤١٥
 سيلان : ١١٣ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٤
 ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨
 ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٨٧ ، ١٩٣
 ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٠
 ٢٢٦ ، ٢٩٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٩ ، ٢٩٩
 ٣٨١ ، ٥٠٥
 سيلان : ٣٤٨
 سيلفانوس : ٥٥٤
 سيفا : ٧١٧
 سيفاماسفارا : ٧١٦
 سيلان : ٦٧٠ ، ٦٨٥
 سيليس : ٦٨٠
 سيلستيس : ٦٢٦
 سيمناكوس : ٥٨٥ ، ٥٩٦ ، ٦٤١
 ٦٤٣
 السين ، نهر : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥
 سيناء ، جزيرة : ٢٧٣
 سي نغان - فو : ٧٤٠ ، ٧٥٢
 سنيكا : ٣٦٢ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤
 ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٧
 ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١
 سينوب : ٤٣١
 سينوسيفال ، معركة : ١١٤ ، ٢٥٢
 ٢٣٦
 سينيزيوس : ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ٦٠٨ ، ٦٢٠
 ٦٤٣ ، ٦٤٤
 سيون - يو : ٧٣٣
 سيبليس : ٥٥٦

صقلية : ١٢ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ،
٢٣ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
٤٧ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ،
١٠٥ ، ١١٢ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ،
١٩٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ،
٢٦٦ ، ٣٤٣ ، ٤٦١ ، ٥٣٦ ، ٦٠٧ ، ٦٧٦

صور : ١٢ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٦٥
صيدا : ٤١

صولون : ٢٣٤
الصون ، نهر : ٨٢

الصين : ٢٨٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٤٧٠ ،
٤٧٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ،
٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ،
٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ،
٦٨٨ ، ٧١٠ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ،
٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٤ ، ٧٢٨ ،
٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ،
٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٧ ،
٧٤٨ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ،
٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٢

— ط —

الطاير المقدس : ٤٤
طاو : ٧٤٤ ، ٧٤٦

طرابلس الغرب : ٤٠ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٦١ ،
طرسوس : ٤٢٠
طرفان : ٧٥٤

طروادة ، حرب : ١٩ ، ٢١١ ، ٢١٣ ،
الطفيلية : ١٩١ ، ١٩٢ ،
ظوران ، الإله : ٣١

طوروس ، جبال : ٥٢٨
الطونة (نهر) او الدانوب : ٧٦

شن - سي : ٧٤١ ، ٧٥٢

شن هان : ٧٥٧

شنودي : ٦١٩

شودرا : ٦٩٨

شؤون الريف ، لقارون : ٢٤٨

شيبو الافريقي : ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٢ ،

١١٥ ، ١٢١ ، ١٣٧ ، ١٥١ ، ١٦٥ ، ١٨٧ ،

٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٤٥٣

شيبو اميليان : ٥٩ ، ٦٥ ، ١٠٦ ،

١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٦٣ ، ٢١٦ ، ٢٤١ ،

٢٤٢ ، ٢٥٥

— ندوة ... : ٢٤١ ، ٢٤٤

شنيو ، كورنيليوس تازيكا : ١٥١ ،

٢١٣ ، ٢٤٢

شيشرون : ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٣٢ ،

١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ،

١٧٩ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٦ ،

٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،

٢٥٦ ، ٢٩١ ، ٣٦٠ ، ٣٣٤ ، ٤٤١ ، ٤٤٩ ،

٤٥٣ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٦٤١ ، ٦٦١

شيكاكول : ٦٧٨

شيكوزن : ٧٥٨

شي لو : ٧٤١ ، ٧٥٥

شيليوس : ٦٠٧

شي هو : ٧٤١ ، ٧٥٥

— ص —

صافو : ٢٥٧

صانع العجائب ، لقب ابولونيوس دي

تيان : ٤٠٤

الصخرة الطرية : ١٣٤

الصدوقيون : ٤١٧

الصرح الذهبي : ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٥٠٩

صفاقس : ٦٤

٢٨٧ ، ٢٨٠ ، ٢٤١ ، ١١١ : طيباريوس
 ٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٣
 ٣٤١ ، ٣٢٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٠ ، ٣١٩ ، ٣١٣
 ٣٨١ ، ٣٧٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٠ ، ٣٥٣ ، ٣٤٩
 ٤٢٠ ، ٤١٨ ، ٤١٤ ، ٤١٠ ، ٤٠٣ ، ٣٨٣
 ٦٧٧ ، ٤٨٧ ، ٤٧٥ ، ٤٥٢ ، ٤٤٩ ، ٤٤٨
 طيبه : ٦١٩ ، ٦١٨
 - ع -

العاصي ، نهر : ٣٧١
 العالم المتوسطي : ١٠٢ ، ٢١٤ ، ٢٣٠
 عدن : ٣٤٨
 عرافة كوم : ٢٠٦ ، ٢١٢
 العرب : ٦٣٢
 العرب ، بلاد : ٩٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩
 العربية السعيدة : ٣٤٨
 عزرائيل : ٣٣
 عشتارت : ٢١٣ ، ٤١٩
 عطارد : ٩٣
 علم الفلك ، لمانيليوس : ٤٧٢
 العلوم الطبيعية ، لسنيكا : ٤٧٢
 علقون : ٥١ ، ٥٣
 العنقاء : ٤٧٠
 عوثيقة : ٤٠ ، ٤١
 - غ -

الغابة السوداء : ٢٧٤
 غاديس او قادس : ٤٠ ، ٥٢
 الغار ، نهر : ٥٠٤
 غاردون ، جسر : ٥٠٤
 الغارون ، نهر : ٦٩ ، ٧٩ ، ٨٤
 الغال ، بلاد : ٧٣
 غالا بلاسيديا : ٥٥٣
 غاليسا : ١٢ ، ١٥ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢

فارون : ١٧٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٤٦٧ ، ٤٧٥
 فازوديڦا : ٦٨٧
 فالنتينيانوس : ٥٤٢ ، ٥٤٨ ، ٥٥٠ ، ٥٦٥ ، ٥٦٩ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٦ ، ٥٨٨ ، ٦١٢ ، ٦١٥ ، ٦٣٤
 فالنس : ٥٤٣ ، ٥٥١ ، ٥٥٨ ، ٥٦٥ ، ٥٦٩ ، ٦١٩ ، ٦٢٩ ، ٦٣٥ ، ٦٤٢
 فاليرنا (خمر) : ١٧٤
 فاليريا : ٢٢٢
 فاليريانوس : ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٨ ، ٥٦١ ، ٦٨٦
 فاليريوس بنيانوس : ٦٠٧
 فاليريوس مكسيموس ميسالا : ٢٢١
 فان تشان : ٧١٠
 الفاندال : ٥٢٨ ، ٥٥٣
 فان - سيون : ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٤
 فان - شي - مان : ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١٣
 فان - فو : ٧١٦
 فان - كن - تشانغ : ٧١٠
 فان - هيونغ : ٧١٤ ، ٧١٥
 فان - ون : ٧١٥ ، ٧١٦
 فان - يي : ٧١٥
 فايدهاسيكا : ٧٠١
 فايبي : ٣٥ ، ٣٦ ، ١٦٦ ، ٢١١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢
 فتروف : ٣٤ ، ٤٥٢ ، ٤٧٥ ، ٥٠٥
 الفرات ، نهر : ١٠٤ ، ١٢٢ ، ٢٦٥ ، ٢٨٤ ، ٣٤٧ ، ٣٧٨ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٦٠٠ ، ٦١٤ ، ٦١٩
 فرجيل : ٢٦٨ ، ٢٧٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٢ ، ٤٩٨ ، ٦٣٦ ، ٦٤١ ، ٦٤٤ ، ٦٥٧

غرثمان : ٦٦٨
 غروسيه (رنيه) : ٦٧١
 غريغوريوس الثالث عشر ، البابا : ٢٤٧
 غريغوريوس النازينزي : ٦٢٠ ، ٦٢٩ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥
 الغز : ٣٤٦ ، ٥٥٢ ، ٦٦٤ ، ٦٧٤
 غلاط ، الغلاطيون : ٦٩ ، ٧٧ ، ٢٢٥
 غلاطية : ٧٥ ، ٤٢٥
 غلبا : ٣١١ ، ٣٢٧
 غلوشيا : ١٣٦ ، ١٤٨
 غليكون : ٤١٢
 الغنچ (نهر) : ٦٦٦ ، ٦٧٨ ، ٦٨١ ، ٦٨٨ ، ٧١٠
 غندهارا : ٦٦٤ ، ٦٧٠ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٧٠١ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥
 الغنوسية : ٤٣١
 غويتا : ٦٦٩ ، ٧٠٧ ، ٧١٢
 غويي : ٦٧١
 غوينو ، الكونت دو : ٤٤٩
 غودافاري : ٦٦٩
 غورداليوس : ٦٤٧ ، ٦٨٦
 غورغاسوس : ٢٢٢
 غيناس : ٥٤٧
 - ف -
 فابريكيوس : ٤٢٠
 فابيا ، عائلة : ١٥٩
 فابيوس بيكتور : ٢١٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢
 فابيوس ، ك : ٢٢٠ ، ٢٢٨
 فابيوس مكسيموس ، كونتوس : ٢١٢
 الفارثيون : ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٧٨ ، ٤٤٥ ، ٥٣٠ ، ٥٨٢ ، ٧٣٩ ، ٧٥٥
 فارنيز : ٦٤٧
 فاروس : ٩٩ ، ٢٧٤

فلامينيوس، كوينكتيوس: ١١٢، ١٣٦،
١٥٢، ٢٣٦

فلسطين: ٢٦٥، ٣٧٢، ٤١٨، ٤١٩،
٦١٨، ٦٧٠

فلسينا: ٢٨، ٣٧، ٧٦

فلوبير، غوستاف: ٦٢

فلورا: ٢٠٩

فليفو، بحيرة: ٣٤٤

قم الذهب (ديون ده بروس): ٤٠٧

قنجي: ٦٧٠

قن الخطابة، لكونتيليانوس: ٤٨٠

قنوم - باتيه: ٧٠٨

قهلوى: ٦٦٦

قو - تر - تشنغ: ٧٤٠، ٧٤١، ٧٥٥

قورث: ٢٨٤

الفوروم: ١٧٧، ٢٨٨، ٢٣١، ٢٤٦

٢٧٣، ٤٩٩، ٥٠٤، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠

٥١٦، ٥١٧، ٥١٥

قوستا: ٥٨٨

قوستيل دي كولانج: ٢٠٢

قوقيه، مدينة: ٢٨، ٨٠

قو - كانه: ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠

قو - كيان: ٧٤١

فولسك: ١٢٥، ٢٥٢

فولسيتيا: ٢١٩

الفولغا، نهر: ٥٥١

فولك اريكوميك: ٧٩

فولك تكتوزاج: ٧٩

فولكا، الفنان: ٣٥

فولوبيلس: ٤٣٥

فو - نام: ٦٠٨، ٧٠٩

فو - نان: ٦٧٠، ٦٧٨، ٦٨٠، ٦٨٧

٦٨٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣

الفرس: ٢٨، ٢٢٥، ٥٢٥، ٥٤٣،
٥٤٦، ٥٤٨، ٥٥٠، ٥٩٧، ٦٠٤، ٦٢١،
٦٦٦

فرسال، معركة: ٢٦٧

- ملحمة ... للوقين: ٤٨٢، ٤٨٤

فرساي Vercil: ٧٨

فرسبناي: ٣٣

فرسجتوريكس: ٨٥، ١١٥

فرنسا: ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٦، ٧٨

٨٢، ٢٧٢، ٣٥١، ٤٥٠، ٤٥١

- حجر ...: ٤٤٦

فرنسوا: ٦٥٨

فرنسوا، قبر: ٢٩

الفرنك: ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٤، ٥٣٦

٥٤٧، ٥٥١، ٨١٥

فروتون: ٣٦٢، ٤٢٣، ٤٤٧، ٤٥٠

٤٥٤، ٤٦٨، ٤٧٥، ٤٨١

فريخيا: ٢١٣، ٣٧٢، ٤٢٣، ٤٢٥

فريدلاند، لودفيغ: ٣٨٢

الفريسيين، فرقة: ٤١٧

فريول، مقاطعة: ١٩٠

فسبسيانوس: ١٩٥، ٢٨٦، ٢٩٢

٢٩٤، ٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١٣

٣٢٦، ٣٥٤، ٣٦٣، ٣٨٥، ٤٤٧، ٤٤٨

٤٥٩، ٤٩١، ٥١٠، ٥٣٩، ٥٥٥، ٦٨٢

فكس: ٨٢

فلافيانوس: ٦٢٧

فلافيانوس، فيديوس نيكوماخوس: ٥٦٥

الفلافية، الاسرة: ٢٧٣، ٢٨٤، ٣٠٩

٣١٠، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٨٥، ٣٨٨، ٤٠٤

٤٥٣، ٤٥٨، ٤٨٧، ٥٠٢

- المسرح ...: ٥٦١

فلافوس يوسيفوس: ٤٩١

فلاكوس، ديريس: ٤٦٨

فيلبوس : ٦٦١
 فيلبوس الاول العربي : ٥٣٧
 فيلبوس الثاني ، ملك : ٩١ ، ١٠٥
 فيلبوس الخامس المقدوني : ١١٢
 فيلوبابوس : ٤٩١
 فيليبي : ٦٥٥
 فيلو كالوس : ٦٥٣
 فيلوستراتوس : ٦٢٧ ، ٦٤١ ، ٦٤٣ ، ٦٨٧

فيلون الاسكندري : ٤١٨
 فيليشينا : ٥٣٧
 فيليه ، هيكل : ٥٢٢
 فيا كاثفيزا : ٦٦٦
 فينيقيا : ٥٤ ، ٢٦٥
 الفينينا : ٩١ ، ١٩
 فينوس ، الإلهة : ٣١ ، ٣٥ ، ٢١٦ ، ٢٦٨ ، ٢١٣

فينوس الام : ٣٣١
 فينوس الايريكية : ٢١٣
 الفينيقيون : ٢٢ ، ٤٠ ، ٦٠ ، ٦١
 الفيوم : ٣٥٠ ، ٦٠٠
 فيينا : ٣٧٢ ، ٤٢٣ ، ٤٤٦ ، ٥٨٠

— ق —

قادش ، مدينة : ٩١
 قاراشهر : ٧٥٤
 قارون : ٣٦٤
 قائد الليل : ٣٢٢
 قبادوقيا : ٤٧٠ ، ٤٩٤ ، ٥٣١
 القدس : ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٩٠ ، ٤٩٩

القراءات العلانية : ٤٥٤ ، ٤٥٥
 قرط حدشت او القرية الجديدة : ٤٠
 قرط عوثيقة : ٤١
 قرطاج : ١٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣

٧١٥ ، ٧١٤
 فونتيوس ، الحاكم : ١٧٤
 الفونيقيون : ١٩ ، ٥٦
 فيباسكا ، بلدة : ٣٦٩ ، ٣٧٠
 فيدياس : ٤٥٢
 فيبياني : ٦٧٧
 فيتنام : ٧٥٤
 فيتولينا : ٢٦ ، ٣٠
 فيثاغوروس : ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٣٥
 الفيثاغورية ، الكتب : ٢١٤ ، ٢٣٦ ، ٢٥٤ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٤١ ، ٤٧٩
 فيجاياني : ٦٧٠
 فيدوكاس : ٣٨٠
 فيدين : ٧٦
 فيريس : ١٣٢ ، ٦٥٦ ، ١٧٤ ، ١٨١

١٨٢

فيرتوس (الفضيلة) : ١٩٩
 فيرجيليوس ، افريساسيس : ١٧٩
 فيردومار ، الملك : ٢٣٨
 فيرمباتنام : ٦٧٧
 فيروس ، لوسوس : ٣٠٧ ، ٥٥٥
 الفيروف : ٣٥٦ ، ٤٧٣ ، ٥٠٥

الفيزيقوط او القوط المحتلون : ٥٤٧

٥٥٢

فيستا : ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٢٦
 فيستالات : ٢٠٥ ، ٢١٣
 فيشنو : ٧١٦
 فيغولوس ، نيجيديوس : ٢٥٤
 فيكوروئي ، امرأة : ٢٢١ ، ٢٢٢
 فيكيا : ٦٩٨
 فيلافي او فيلاي : ٨٤
 الفيلافية ، الحضارة : ٢٠ ، ٢١
 فيلبس ، معركة : ٢٦٧

٨٣٦

٦٣٦ ، ٦٣٨ ، ٦٤٠ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ،
٦٤٨ ، ٦٥١ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧

قشغر : ٧٥٤

القفاص : ٥٤٩

القفاص : ٦١٤

القناة الآبئة : ٢٢٣

— المارسية : ٢٢٣

— اقباليونس (ساموس) : ٢٢٣

قوروش الفارسي : ١٠٥

القوط : ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٨ ، ٥٤٦

٥٤٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٨٣

٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦١٤

قيافا : ٤٢٠

القيروان : ٤٢ ، ٥١ ، ٤١٩ ، ٤٦١

قيصر ، يوليوس : ١٧ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٩

٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩

٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦

١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥

١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤

١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٦٤ ، ١٦٥

١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٣

١٩٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٢١٦

٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢

٢٣٩ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦١ ، ٢٦٥

٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤

٢٩٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤

٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣٣٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٨

٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٤ ، ٤١٧ ، ٤٢١ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥

٤٣٦ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٥٣ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨

٤٨٢ ، ٤٨٩ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٢ ، ٥٢٩

— يوليوس ، شهر : ٣٠٣

قيصرية (فلسطين) : ٦٣٠

٢٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥

٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤

٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣

٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٠

١١١ ، ١١٥ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨

١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢

٣١٤ ، ٤٠٩ ، ٤١٥ ، ٤٢٧ ، ٤٨٥ ، ٤٩٠

٤٩٥ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦٧ ، ٦٠٠

٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٦ ، ٦٤٤

— سكانها : ٤٨

قرطاجنة : ٤٢ ، ١٧٠

القرطاجيون : ١٩ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٣٨

٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧

٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤

٦٧ ، ٦٨ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٩٩ ، ١١٥ ، ٢٣٣

٢٢٥

— ديانتهم : ٦٠

قرطبة : ٤٥٠

قزوين (بحر) : ٦٤٠ ، ٦٧٤

قسطنطين : ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٦

٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧

٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧

٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٨٢

٥٨٣ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩١

٥٩٥ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٤

٦١٥ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠

٦٣١ ، ٦٣٤ ، ٦٤٠ ، ٦٤٢ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨

٦٤٩ ، ٦٥٢

قسطنطين (الثاني) : ٦٣١

قسطنطينيوليس : ٥٨٣

القسطنطينية : ٦٤ ، ٥٤٨ ، ٥٥١ ، ٥٥٢

٥٥٤ ، ٥٥٨ ، ٥٧٣ ، ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣

٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٩٣ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٠١

٦١٦ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٣١

قيصرية (مورتانيا) : ٤٣٥

— لك —

كابري : ٣٢٠

كابوا : ٣٧ ، ١٨١ ، ١٨٢

كابول : ٣٤٧ ، ٦٦٦ ، ٦٨٣

كابيتشا : ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٧٠٤

كابيتشي : ٦٩٣ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧

كابيتول : ٢٠٥ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٣١

٣٥٤ ، ٤٠٩ ، ٤١٤ ، ٥٠٤ ، ٥٠٩ ، ٥١٧

كابيتشي - بغرام : ٦٧٥

كاتولوس : ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨

كاتيفارا : ٣٤٨

كاتيلينا : ١٣٢ ، ١٤٨ ، ١٦٥ ، ١٧٨

١٩٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣

كار : ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٢٠

كارلي : ٦٧٠ ، ٦٨٩ ، ٦٩٢ ، ٧٠٦

كارنا (ارزروم اليوم) : ٥٥٠

كارنتيا ، مقاطعة : ٧٠

كاروس : ٥٣٩

الكارولنجيين : ٥٥٧

كاستور وبولوكس : ٢١١

كاسيوس ، اوفيد : ٢٧٢ ، ٥٢٦ ، ٦٤١

كاتون او كاتون ، قاضي الاحصاء من

عويقة : ٥٦ ، ١١١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٣

١٦٤ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٠٢

٢٠٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧

٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤

٢٥٥ ، ٤١٦ ، ٤٥٣ ، ٤٨٢

كافرت : ٦٧٨

كالايريا : ١٧

كالنا او كانا ، موقعة : ٤٥ ، ١١٤ ، ١١٧

١٢٠ ، ١٥٠ ، ١٦٤ ، ١٧٨ ، ٢٠٨ ، ٢٢٣

٢٣٥

كاليولس ، برشينو : ٨٠

كاليت ، مقاطعة : ٨٤

كاليغولا : ٢٧٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤

٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣١٧ ، ٣٦٠ ، ٤١٤ ، ٤١٨

كانبوري : ٦٨٠

كانفا : ٦٦٩

كانيشكا : ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٧٠٠ ، ٧٠١

٧١٢

كايوس : ٦٤٠

كتاب الابطال ، لبلوتارخوس : ٤٩٣

كتب العرافة : ٢٠٦

كتلونيا : ٧٠

كتيزيفون : ٥٤٩

كرا : ٧١٣

كراتس : ٢٤٨

كراسيوس : ١٠٤ ، ١٢٠ ، ١٣٢ ، ١٦٣

١٦٥ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٢

كرا - كان : ٦٨٠

كر كلا : ٣٧٤ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٤٥

٥٧٣ ، ٥٧٥ ، ٥٨٨ ، ٦٠١ ، ٦٢٦ ، ٦٤٠

٦٤٨ ، ٦٥٠

كرنياد : ٢٤١

كريت : ٢١٠

كريسوس : ٥٨٨ ، ٦٣٤

كريشنا : ٦٦٩ ، ٧١٤

كريستوف كولمبوس : ٤٧٢

كستيريدي ، جزر : ٤٠ ، ٩١

كسينيفون : ٢٩٤

كشاتريا : ٦٩٨

كشفاريا : ٧٤١

كشا : ٧٠٠

كشمير : ٦٦٦ ، ٧٠١ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠

الكليبيون : ٣٩٣ ، ٤٠٣ ، ٤٩٦

الكلت - ليغور : ٧٩

الكلتو - الايباريون : ٥٧ ، ١١٤

الكلتو - التراقيون ٧٧

الكلتو - الكيشيون : ٧٧

الكلتيون : ٢١ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ١٨٢

الكلدان : ٤١١

كلوديا ، عائلة : ٢٢٤

كلوديافوس : ٦٤٤

كلوديوس ، الامبراطور : ٢٧٣ ، ٢٧٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧٣ ، ٣٨٤ ، ٤١٣ ، ٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٣٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٦ ، ٥٠٥ ، ٥١٢ ، ٥٨٨

- الثاني : ٥٣٩

كلوديوس البينوس : ٦٢٦

كلوديي : ٣٠٨

كلوفيس : ٦١٥

الكلية انظر : ارسطو

الكللايد ، نهر : ٢٨٤

كليماخوس : ٢٥٧

كليوبطرة او كليوباترا : ١٠٦ ، ٩٦ ، ٢٤٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٩٠ ، ٣٣١ ، ٤١٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥

- انف : ٢٦٨

كليوبطرة سيلانة : ٤٣٥

كليوديوس الامبراطور : ٢٤

كليوديوس ، الخطيب الميسج : ١٥٣

١٩٢

كلارا : ٦٧٨

كمبانيا : ٢٨ ، ٣٧ ، ٥٤ ، ٧٦ ، ٩٢ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٥٠٥ ، ٦٠٧ ، ٦١٥ ، ١٨٢ ، ١١٤ ، ٧٨ ، ١٨٢

كمبوديا : ٧٠٨ ، ٧١٧

كنارا : ٦٧٠

كنشيوران : ٦٧٠

كنغ - تاي : ٦٨٨ ، ٧١١ ، ٧١٢

كنهاري : ٦٧٠ ، ٦٨٩ ، ٦٩٢ ، ٧٠٦

كنوا : ٦٦٣

الكنيسة : ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٩٥ ، ٦٠٣ ، ٦٠٨ ، ٦١٠ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٣١ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٥ ، ٦٤٨ ، ٦٥٤

كو ، مقاطعة : ٨٤

كوادراتوس ، الاسقف : ٤٣٠

كواديون : ٥٢٧

كوانت - كورس : ٤٨٦ ، ٤٩٤

كوان - لون - تان : ٦٧٨

كوارت : ٦٨٠

كوردوبا : ٥٦٨

كورسك ، جزيرة : ١٨ ، ٢٦ ، ٢٨

٣٧ ، ٤٤

كورنايل : ٤٤٠

كورنش : ٢٣ ، ٢٦ ، ١١٠ ، ١٧٥

١٨٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٣٤٤ ، ٤٥٢

كورنواي : ٧٣

كورنيليا : ١٩٠ ، ٢٤١

كورومانديل : ٦٧٠

كوريا : ٦٧٣ ، ٦٨١ ، ٦٨٤ ، ٧١٢

٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩

كورينوس : ٢٠٤

كوريون : ١٣٦

كوسوتيوس : ٢٢٧

كوشانا : ٦٦٣ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩

٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥

٧١٢ ، ٧٠٧ ، ٧٠٤ ، ٦٨٩ ، ٦٨٨ ، ٦٨٧
 ٧١٣
 الكوشنصين : ٣٤٨ ، ٦٧٠ ، ٦٨٠ ، ٧٠٨
 كوكا : ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥
 كولوميل : ٤٧٥
 كولونيا ، مدينة : ٥٥٠ ، ٥٥٥ ، ٥٩٩
 الكوليزه او المسرح الفلافي : ٣٦١ ،
 ٣٦٨ ، ٥٠٢ ، ٢٠٩
 - تيطوس ... : ٣٦٨
 كوم ، مدينة : ١٩ ، ٢٨ ، ٣٧ ، ٢٠٦ ،
 ٢٣٤ ، ٣٨٦
 كوماجين : ٤١٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٥
 كوماراجيفا : ٧٤١ ، ٧٥٥
 كومود ، الامبراطور : ٢٩٩ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٧ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٤١ ، ٣٦٣ ،
 ٣٩٠ ، ٤١٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٥٢٦ ، ٥٥٥
 كومون ، فرانس : ٣٥٨
 كوميديا : ٣٨٦
 كونتليانوس : ٢٤٤ ، ٣٦٢ ، ٤٤٧ ،
 ٤٥٣ ، ٤٥٨ ، ٤٦٨ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠
 كونديليا : ٦٨٧ ، ٧٠٨
 كونستانس : ٥٦٩ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ،
 ٦٤٢ ، ٦٤٦ ، ٦٤٩ ، ٧٦٢
 كونستانس الثاني : ٥٥٠ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧ ،
 ٥٦٦
 كونستانس كلور : ٥٥٧ ، ٥٦٢
 كونفوشيوس : ٧٢٢ ، ٧٢٥ ، ٧٢٧ ،
 ٧٤٦
 كونكورديا : ١٩٩
 كونكين : ٦٧٠
 الكويرينال ، مضبة : ٥٠٤ ، ٥٠٩
 كويولاكبا (كوزولو كادفيزيس)
 ٦٦٦
 كيا - سيانغ - لي : ٧١٠
 كيانغ - سو : ٧٣٩
 كيثارستا : ٨١
 كيداه : ٦٨٠ ، ٦٨٧
 كيرالا : ٦٧٠
 كيرسونيز (الذهب) وشبه جزيرة
 الملايو : ٣٤٨
 كيرس ، مقاطعة : ٩٥
 كيرتوس : ٦٢٩
 كيرنيا : ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٩١ ، ٦٠٨
 كيليكيا : ١٥٦ ، ٣٤٤ ، ٤٢٠ ، ٥٣١
 كيو - ليان : ٧١٤
 - ل -
 لايروير ٤٤٠
 لايانوس ، كونيتس : ٢٦٥
 لاتين ، مدينة : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥
 اللاتيوم او اللاطيوم : ٢٠ ، ٢٧ ، ١٦٥ ،
 ١٨٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٣٦١ ، ٥١٩ ، ٦٠٧
 اللاجية ، الملكية ١٠٦ ،
 لار ، آلهة الحقول : ٢٠٢
 لافوتتين : ٤٨٥
 لاكتافس : ٥٧٦ ، ٥٩٧ ، ٦٣٤ ، ٦٤٢
 لاكونيا : ٣٠٥
 اللانغدوق : ٧٩
 لانغ - يا - سيبو : ٦٨٧ ، ٧١٣
 لار - تسو : ٧٤٠
 لبنان : ٣٤٢ ، ٤٧٧
 ليندس : ٣٠٠ ، ٤٠٢
 لسبيا حديقة كالتولوس : ٢٥٧
 لمبارديا : ٢٠ ، ٧٥ ، ٥٢٧
 لميز (الجزائر) : ٢٨٦
 لن - يي : ٦٧٠ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٧١٢ ،
 ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٧
 اللوار ، نهر : ٧٠
 لوب - نور : ٣٤٨

٧١٢ ، ٧٠٧ ، ٧٠٤ ، ٦٨٩ ، ٦٨٨ ، ٦٨٧
 ٧١٣
 الكوشنصين : ٣٤٨ ، ٦٧٠ ، ٦٨٠ ، ٧٠٨
 كوكا : ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥
 كولوميل : ٤٧٥
 كولونيا ، مدينة : ٥٥٠ ، ٥٥٥ ، ٥٩٩
 الكوليزه او المسرح الفلافي : ٣٦١ ،
 ٣٦٨ ، ٥٠٢ ، ٢٠٩
 - تيطوس ... : ٣٦٨
 كوم ، مدينة : ١٩ ، ٢٨ ، ٣٧ ، ٢٠٦ ،
 ٢٣٤ ، ٣٨٦
 كوماجين : ٤١٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٥
 كوماراجيفا : ٧٤١ ، ٧٥٥
 كومود ، الامبراطور : ٢٩٩ ، ٣٠٥ ،
 ٣٠٧ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٤١ ، ٣٦٣ ،
 ٣٩٠ ، ٤١٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٥٢٦ ، ٥٥٥
 كومون ، فرانس : ٣٥٨
 كوميديا : ٣٨٦
 كونتليانوس : ٢٤٤ ، ٣٦٢ ، ٤٤٧ ،
 ٤٥٣ ، ٤٥٨ ، ٤٦٨ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠
 كونديليا : ٦٨٧ ، ٧٠٨
 كونستانس : ٥٦٩ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ،
 ٦٤٢ ، ٦٤٦ ، ٦٤٩ ، ٧٦٢
 كونستانس الثاني : ٥٥٠ ، ٥٥٥ ، ٥٥٧ ،
 ٥٦٦
 كونستانس كلور : ٥٥٧ ، ٥٦٢
 كونفوشيوس : ٧٢٢ ، ٧٢٥ ، ٧٢٧ ،
 ٧٤٦
 كونكورديا : ١٩٩
 كونكين : ٦٧٠
 الكويرينال ، مضبة : ٥٠٤ ، ٥٠٩
 كويولاكبا (كوزولو كادفيزيس)
 ٦٦٦
 كيا - سيانغ - لي : ٧١٠

ليبيا : ٤٦٢
 ليبير : ٢٢٠
 ليبيرا : ٢٢٠
 الليبيون : ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٩٩
 ليديا : ١١٤
 ليزياس : ٦٣٧
 ليسنيوس : ٥٣٨ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤
 ٥٦٨ ، ٥٨٣ ، ٦١٨
 ليفوجيه : ٦١٥
 ليفوريا : ١٨ ، ٦٩
 الليغوريون : ١٦ ، ١٨ ، ٤٤ ، ٧٩
 ٨١ ، ٩٩
 ليفيا ، زوجة اوغسطس : ٣٨٣
 ليفيا ، عائلة : ٢٣٦
 ليكسوس ، مدينة : ٤٠
 الليكيون : ٢٩
 ليو - لان : ٧٥٤
 ليون ، مدينة : ٣٣١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٠
 ٣٨٥ ، ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٥١٦ ، ٥٣٨ ، ٦٢٦
 ليون (القديس) : ٦٢٤
 ليو - يه : ٧٠٩

- م -

ما ، الإلهة الكبادوكية : ٢١٥
 ما بين النهرين ، بلاد : ١٤ ، ١٥ ، ٣١
 ١٠٢ ، ١٠٤ ، ٢١٠ ، ٢٧٤ ، ٣٥٢ ، ٤٢٥
 ٤٢٧ ، ٤٣٠ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٤١ ، ٥٥٠
 ٦١٤ ، ٦٣١
 ماقورا : ٦٦٨ ، ٦٨٣ ، ٦٨٩ ، ٧٠١
 ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧
 ماجونغ : ٧٤٦
 مادهايميك : ٧٤١
 مادورا : ٦٧٠
 مارتينوس (القديس) : ٥٧٠ ، ٦١٥
 ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٣٣

لوبيرك : ٢٠٥
 لو - تاي : ٧٠٩
 لوتيسيا : ٥٨٩ ، ٦٤٩
 لوديون : ٢٠٩
 لورنتس ، آل : ٣٨٦ ، ٥٢٠
 اللورين : ٢٧٢
 لوزيتانيا : ٥٦٩
 لوسيليوس : ٢٤٤ ، ٢٤٥
 لوسيسوس ، الحمار : ٤١٥
 اللوفر : ٢٢٩
 لوقا : ٦٣٧
 لوقيانوس ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥
 لوقين : ٤٥٠ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩
 ٤٨٢ ، ٤٨٤
 لوكان : ٦٤٤
 لوكريس : ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٤٠٤
 لوكولوس : ١٢١ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٧٨
 لوكيلوس : ٤٨٢
 لوكيوس ، رواية : ٤٨٥
 لو - لانغ : ٧٣١ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧
 لوتجينوس : ٥٣٢ ، ٦٤٣
 لو - يانغ : ٧٢٨ ، ٧٣٩ ، ٧٥٢ ، ٧٥٧
 ٧٥٨
 لويس الرابع عشر ، عصره : ٤٣٣ ،
 ٤٣٨ ، ٤٤٩
 الليالي الاتيكية : ٤٦٨
 ليانغ : ٧٢٨
 ليانغ - كي : ٧٣١
 لياو - تونغ : ٧٣٢
 الليب ، نهر : ٧٣
 ليباري ، جزر : ٢٨
 ليبانيوس : ٦٠٣ ، ٦٠٦ ، ٦١٢ ، ٦٣٥
 ٦٣٦ ، ٦٤٤
 ليبرطاس (الحرية) : ١٩٩

المانش ، بحر : ٥٢٩
 ماني : ٦٨٨ ، ٦٨٦ ، ٦٣٢
 مانيلوس : ٤٧٢
 ماهاراشترا : ٦٦٦
 ماهان : ٧٥٧
 مايانس : ٢٨٧
 مايو - آسو : ٧٤٠
 متى : ٦٣٧
 مثلين : ٧٦
 المجسطي ، لبطليموس : ٤٧١
 المحوسية : ٣١
 محاورات الاموات ، كتاب للوقيانوس :
 ٤٩٦
 المحيط الاطلسي : ٤٠ ، ٥١ ، ٦٩ ، ٩١ ،
 ٤٧٠
 المدخل الاعظم في روما : ١٧٩
 المدرج : ٥٠١
 مديولانوم او فلسطينا : ٧٦
 مراغة : ٣٤٧
 مراکش : ٥٨٢
 المرتقة : ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٧٦ ،
 ١١٥
 مرقص (القديس) : ٦٥٢
 مرسلوس ، كلوديوس : ٢٣٨
 مرسيل او مرقبال : ٣٨٢ ، ٤٤٧ ،
 ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٧٨ ، ٤٨٣ ، ٥١٢
 مزسيلييا : ٢٨ ، ٤٢ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،
 ٨٢ ، ٨٣ ، ٩١ ، ١١٧ ، ٢٦٦ ، ٤٦٣ ، ٦٠٨
 مركور او هرميس : ٢١١
 مرو : ٣٤٧
 مريم : ٦٣١
 مستاليا : ٢٨ ، ٤٢ ، ٨٠
 مسبرو (. ه) : ٧٤٣ ، ٧٤٩ ، ٧٥٢
 المستعمرة الجوفونية القرطاجية : ٨٧

مارس او المريخ : ٣١ ، ٩٣ ، ٢٠٣ ،
 ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٥١٠ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨
 مارس ، اولتور : ٥١٠
 مارسيا ، محظية الامبراطور كومود :
 ٤٢٧
 مارسيون : ٤٣١
 مارك اوريل : ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،
 ٢٨٢ ، ٢٩١ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،
 ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ،
 ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٧٢ ،
 ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٣٩٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،
 ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٠ ، ٤٤٧ ،
 ٤٦٤ ، ٤٧٦ ، ٤٨١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٨ ،
 ٤٩٩ ، ٥٠٥ ، ٥١٨ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٥٥ ،
 ٦٢٨ ، ٦٨٥ ، ٧١١
 ماركوس انير : ٤٥٠
 ماركومانيون : ٥٢٧
 مارموتية : ٦١٥
 المارن ، نهر : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥
 مارييم ، مستنقعات : ٢٦
 مارينوس الصوري : ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٦ ،
 ماريوس : ٧٨ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
 ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٦١ ، ١٨٧ ، ٢٢٩ ، ٢٧٦ ،
 ٥٢٩ .
 المازدية : ٥٣٠ ، ٥٣١
 ماغنانس : ٥٥٠
 ماغون : ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ١٧٤
 ماكروب : ٦٤١
 مالطا : ٤١
 مالفا : ٦٦٩
 مامرقوس (الإله) : ٢٣
 المامرتين : ٢٣
 مان ، أرواح الموتى : ٢٠٢
 ماتتو : ٤٤١

مسينا : ٢٣ ، ٢٤

ـ مضيق ... : ٧٦

مسنيسا : ٤٤ ، ٥٠ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٣٥٢
المسيح ، المسيحية : ١٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
١٢٥ ، ١٩٠ ، ٣٢٦ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ،
٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ،
٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٥٠ ،
٤٩٠ ، ٥١٣ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ،
٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٨ ، ٦١٧ ،
٦٢٢ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٧٠ ،
٧٦٢

المشورة : ١٤٦ ، ١٤٨

مصر : ١٢ ، ١٤ ، ٣٢ ، ٥٢ ، ٥٩ ،
٦٠ ، ١٠٥ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ٢١٠ ، ٢٤٦ ،
٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٨٠ ، ٢٩٥ ، ٣٢٤ ، ٣٣٥ ،
٣٣٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ،
٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٤ ، ٣٨٥ ،
٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤٥٥ ، ٤٦٢ ، ٤٩٦ ،
٤٩٩ ، ٥٠٨ ، ٥١٢ ، ٥٢١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٥ ،
٥٣٦ ، ٥٥٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧٧ ،
٥٨٠ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦١١ ، ٦١٤ ، ٦١٧ ،
٦١٨ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٧ ، ٦٢٩ ، ٦٣١ ،
٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٤٣ ، ٦٥٩ ، ٦٧٠ ، ٦٨٣ ،
٦٨٦

معبد الحضرة : ٦٤

المغرب : ٧٦١

المغرب الاقصى : ٤٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٤ ،

٢٨٠

مغنيزيا ، موقعة : ١١٤

المقول : ٥٥٠ ، ٧٣٤

مقدونيا : ٧٥ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١٦٩ ،

١٧٠ ، ٢٦٧ ، ٤٢١ ، ٦٠١ ، ٦٥٥ ،

المقدونيون : ٧٤ ، ١٠٥ ،

مكاربوس : ٦١٨

المكتبة التاريخية ، كتاب : ٤٦٨

المكتبات العامة : ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٤٣٦ ،

٤٥٣ ، ٤٥٨ ، ٥٠٢ ، ٥١٠ ، ٥٢٠ ،

مكسانس : ٥٤٣ ، ٥٦٣ ، ٥٧٥ ، ٦٤٨ ،

مكسيموس : ٦٢٨

مكسيميانوس : ٥٥٦ ، ٥٦٢ ،

مكسيمينوس دايا : ٥٦٤ ، ٦٣٤ ،

مكتاس ، مدينة : ٤٣٥

مكيني : ٣١٩ ، ٤٣٥ ، ٤٤٣ ، ٤٤٩ ،

ملاغا ، مدينة : ٨٠

الملايو : ٣٤٨ ، ٦٧٠ ، ٦٨٠ ، ٦٨٧ ،

٦٨٨ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٣ ،

ملبوم : ٧٦

ملقرت ، الإله : ٦٢

منون ، تمثال : ٤٥٥

ملشيوس : ٧٢٤

منغ : ٧٣٩

منغ - تيان : ٧١٩ ، ٧٢٠ ،

منغوليا : ٦٣١ ، ٦٦٨ ، ٦٧٤ ، ٦٨٢ ،

منف ، الإله : ٤١٣

منيرفا ، مينرفا : ٣١ ، ٣٥ ، ٩٣ ،

٢٢٠ ، ٢٦٨ ،

المهدية : ٢٢٦

مؤامرة كاتيلينا ، لسالوستس : ٢٥١

موروندا : ٦٨٨ ، ٧١٠ ،

موريا : ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٨٩ ،

موريتانيا : ٦٥ ، ٢٨٠ ، ٣٢٥ ، ٤٣٥ ،

٤٧٠

موزيريس : ٦٧٦

الموزيل ، نهر : ٣٥١ ، ٥٩٩ ، ٦٤٧ ،

الموسمية ، الرياح : ٣٤٨

موسى : ٦٢٨

موشيري : ٦٧٨ ، ٦٨٥ ،

مون : ٦٨٠

موناكو : ٨١

مومسن ، المؤرخ : ٣١٥

موميوس : ٢٢٥

مونتانوس الفريجي : ٤٣١

مونينغ : ٢٢٩

مونيقا ، القديسة : ٥٩

موسيا ، بلاد : ٥٢٩

ميترا : ٤١٥ ، ٦٢٦

ميترا - ميترا : ٧٠١

ميتروقترا : ٥٨٣

ميتريدات : ١١٢ ، ١١٧ ، ١٥٧ ، ١٧١

١٧٨ ، ٢١٥ ، ٢٢٦ ، ٢٧٢

ميديا : ٢٦٥

الميروفنجيين : ٥٥٧

ميرون : ٤٥٢

مي - سون : ٧١٦

ميفارا : ٤٨

ميفاستيس : ٦٩٦

ميكونغ : ٦٨٠

ميلانو : ٥٦٧ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤

٥٩٨ ، ٦٢٠ ، ٦٣٢ ، ٦٤٤ ، ٦٤٨

ميلانو ، براءة : ٣١ ، ٥٦٣

ميلانيا (القديسة) : ٦٠٧ ، ٦١٥ ، ٦١٨

ميلون ، الخطيب المينج : ١٥٣

ميفيوس ، جسر : ٥٤٣ ، ٥٦٣

ميانا : ٧٥٨

ميناندروس : ٢٤٣

مينام : ٦٨٠

مينلاوس : ٤٩٧

مينودوروس امير اسطول بومبيوس :

١٧٩

مينوس : ٢٢

مبوس هورموس : ٣٤٨ ، ٣٤٩

مينيب : ٢٤٨

٨٤٤

منيكيه : ٨٠

المنيون : ٣١

- ن -

نا - تسين : ٣٤٨

ناريون ، مدينة : ٩٢ ، ١٨٧ ، ٢٢٩

٣٨٤ ، ٥٥٣

- ولاية ... : ١٧٤

نازك : ٦٧٠

ناغا : ٧٠٩

ناغارجون : ٧٠٠

نافيوس : ٢٣٧ ، ٢٣٨

نانت : ٥٦٣

نانكين : ٧٣٤ ، ٧٣٧ ، ٧٤٠ ، ٧٥٢

٧٥٥

نبتون : ٢٠٣ ، ٢٦٨

نربودا : ٦٦٦

نرسيس : ٣١٩ ، ٣٦٤ ، ٣٨٢

نرويه ، الامبراطور : ٤٨٧ ، ٥٠٨ ، ٥١٠

نصيين : ٤٣٠

نغان شي - كاو : ٧٣٩

النكار ، نهر : ٧٣

النمسا : ٧٨ ، ٦٥٨

نيزيس ، الإلهة : ٤١٥

نورمانديا : ٤٥٢

نولا : ٦١٥

نوما ، الملك : ٢٠٣ ، ٢١٤ ، ٢٣٥

نومائس : ٧٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٤

١٨٤

النوميد ، فرسان : ٤٤ ، ٦٣

نوميديا : ٥٦٧ ، ٢٩٢

نوفوس : ٦٤٣

نوين - اول : ٦٧٦

نيبوس ، كورنيليوس : ٢٥٠

نيجيدوس فيغولوس : ٤٠٤

نسخاو ، فرعون : ٥٣

نيتريا : ٦١٨ ، ٦١٩

نيرفا : ٣١٠ ، ٣١٦ ، ٣٨١

نيرون : ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩

٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٦٠

٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٣٩٠ ، ٣٩١

٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠٥ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٤٦

٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢

٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٩

٥١٣ ، ٥٥٥ ، ٦٢٧

نيس او نيكايا : ٨١

نيقيا : ٥٦٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١

نيكايا (نيس) : ٨١

نيكوبار : ٦٨٠

نيكوماكوس فلافيانوس : ٦٤١

نيكوميديا : ٥٦٢ ، ٥٨٣ ، ٦٠٠ ، ٦٤٨

النيل : ٢٦٢ ، ٣٤٥ ، ٤٧٠ ، ٦١٤

٦١٨ ، ٦٧٦

نيم ، مدينة : ٤٥٠ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤

نيلينغ : ٦٤٧

نيوشاتل ، بحيرة : ٧١

— ه —

الهان : ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤

٦٧٥ ، ٦٨٥ ، ٦٨٨ ، ٧١٤ ، ٧١٨ ، ٧١٩

٧٢٠ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٨ ، ٧٣١ ، ٧٣٣

٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤٣

٧٤٦ ، ٧٤٨ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥

٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨

هانيبعل ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧

٤٨ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٧٧ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٤

١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ، ١٧٤

١٧٨ ، ١٨٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٤٠

هاديس : ٣٣

هدريانوس ، الامبراطور : ٢٧٣ ، ٢٧٩

٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨

٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤١

٣٤٨ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠

٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٩

٤٠٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥٣

٤٥٥ ، ٤٦٤ ، ٤٧٠ ، ٤٧٦ ، ٤٨٥ ، ٤٨٩

٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٩ ، ٥٠١ ، ٥٠٣ ، ٥١٠

٥٣٢ ، ٦١١ ، ٦٣٥ ، ٦٤٢

— مدينة : ٥١٧

— جدار : ٢٨٤ ، ٥٢٨ ، ٥٥٢

— ... مذكرات : ٤٨٥

هرقل : ٣١

هرميس (او مركور) : ٣٥ ، ٢١١

٤٥٣

هرقولوس : ٥٩٠

هزيود : ٤٤٢

الهضبة الوسطى : ٦٩

هلشتات : ٧١ ، ٧٢ ، ٨٢

الهلقيت : ٨٤

هليوبوليس (بعلبك) : ٤١٠

هليوس : ٤٠٧ ، ٦٢٦

مملقار : ٤٦

هميرة : ٦٢

الهند : ٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٤٧٠

٦٢٧ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧

٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤

٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤

٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٨

٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٦

٧٠٨ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٣ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠

٧٥٥ ، ٧٦٢

الهند الصينية : ٣٤٨ ، ٦٧٧ ، ٦٨٠

٦٨٥ ، ٦٨٧ ، ٧٠٨ ، ٧٤٠

الهندوس ، نهر : ١٠٢ ، ٣٤٧ ، ٦٦٤ ، ٦٨٦

هناغريا : ٧٧

هو : ٧١١

هوان - بان - هونغ : ٧٠٩

هوان - تيان : ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١١

هوانغ - سن : ٧١٥

هوانغ - لاو : ٧٣٩

هو - باي : ٧٣١

هو جونغ : ٧٥٠

هوارتيوس : ١٩٨ ، ٢٦٩ ، ٣٠٢

٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٨٢

اللون : ٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٦٦٤

٧٢٣ ، ٧٣٤ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٦٢

هورتسيوس : ٢٥٢

هوسيوس : ٥٦٨

هوميروس : ٨٨ ، ٤٣٦ ، ٤٤٢ ، ٤٥٦

٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٥٧

هولوريوس : ٥٥٣ ، ٥٨١ ، ٥٨٨ ، ٦٠٤

هونوس : ١٩٩

هيبارخوس : ٧٥٣

هيبالوس ، مكتشف الرياح الموسمية :

٣٤٨

هيبوليت : ٦٨٦

هيبونا : ٦٢٠ ، ٦٤٥

هيرا : ٤١٠

هيرقليس : ٣١ ، ٣٥

هيرودوتوس : ١٧ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٧١ ، ٥٥

هيرون : ٣٧

الهيروول : ٥٢٨

هيزيود : ٦٣٧

هيس تريون : ٢٠٩

هينغو : ٤٨٤

هيكانا ، الإله : ٤١٥

هيكال السلام : ٤٤٥ ، ٥١٠

هينلاريون : ٥٦٩ ، ٦٣٢

هيلانة : ٦٥٧

هيباير : ٤٨

هيميريوس : ٦٤٣

هيونغ - نو : ٦٦٤ ، ٧٥٥

- و -

وا : ٧٥٧

وانغ - نو : ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢

وانغ مانغ : ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥

٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨

ورياهاكين (جوزف) : ٦٧٥

وستغاليا : ٧٦

وصف اليونان ، كتاب : ٤٦٩

وطاقة : ٤١

الولاية العربية : ٢٧٤

ون : ٧١٥

ونغ منغ : ٦٧٠ ، ٦٧١

وو : ٧١٠

وو - تي : ٧٥٧

وو - هو : ٧٥٧

- ي -

اليابان : ٦٧٣ ، ٦٨١ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤

٧٤٢ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨

٧٥٩ ، ٧٦١

ياتاكا : ٦٩٩

يارقند : ٦٧٥ ، ٧٥٤

يافانا : ٦٦٩ ، ٦٧٧

ياماتو : ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩

يانغ : ٧٤٦

يانغ - تشيو : ٧١٥

اليمن : ٣٤٨ ، ٦١٤

ين : ٦٤٦

يوبال الملك : ٤٣٥ ، ٤٧٠

يو - تشيه : ٧١٠ ، ٧٥٥

يوحنا قم الذهب : ٥٩٣ ، ٦٠٨ ، ٦١٦ ،
 ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٤٥
 يوريندس : ٤٧٩
 يوروبا : ٦٧٥
 يوستينانوس ، مدونته : ٣٩١
 يوستينوس : ٤٣٠
 يوسفوس ، فلاقيوس : ٤٢١
 يورغورطا او جوغورتا : ٦٥ ، ١١٢ ،
 ١١٤ ، ١٩٤ ، ٢٥١
 حرب يورغورطا : ٢٥١
 يوغوسلافيا : ٢٤
 اليوليو - الكلودية ، الاسرة : ٢٩٤ ،
 ٣٠١ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،
 ٣٨٨ ، ٤٧٨ ، ٥١٤ ، ٥١٩
 يوليوس الافريقي : ٤٥٠
 — سيكوندوس : ٤٥٠
 يو - نان : ٦٨١
 اليونان ، بلاد : ١٢ ، ١٥ ، ٢٣ ، ٢٦ ،
 ٤٥ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ١٠٥ ،

١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٢٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٧٢ ، ١٣٧ ، ١٧٨ ،
 ١٨٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،
 ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٣٦ ، ٢٧٢ ، ٣٥٢ ،
 ٣٥٥ ، ٣٨٢ ، ٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٩ ، ٤١٨ ،
 ٤٢١ ، ٤٤٣ ، ٤٦٩ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ،
 ٥٠١ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٩ ، ٥٥٢ ، ٥٨٠ ،
 ٦٢٩ ، ٦٤٢ ، ٦٥٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٦٩ ،
 ٧٥٣
 اليونان ، شعب : ٣١ ، ٩٣ ، ٢١١ ،
 ٤٠٣ ، ٤١٢ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٥٠٢ ،
 اليونان الكبرى : ١٩ ، ٢٢ ، ٤٢ ،
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ،
 اليونان البلقانية : ١٩٨
 اليهود ، واليهودية : ١٩٠ ، ٣٧٢ ، ٤٠٢ ،
 ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ،
 ٤٢٢ ، ٤٢٧ ، ٤٩٥ ، ٥٠٨ ، ٥٣٧
 يوه - قشه : ٦٦٦
 يي : ٧١٩ ، ٧٢٠

فهرست الخرائط والنصاميم

ض

- ١ - مخطط تيراماريه دو كستيلازو دي فونتبلاتو ١٩
- ٢ - خريطة قديمة لايطاليا تبين انتشار الاتروسك ٢٧
- ٣ - تصميم نظري لمعبد اتروسي ٣٥
- ٤ - قرطاجة ٤٩
- ٥ - انتشار الكلتيين ٧٥
- ٦ - الفتوح الرومانية في عهد الجمهورية ١٠٣
- ٧ - الامبراطورية الرومانية في آخر الدولة الانطونية ٢٧٥
- ٨ - الحدود بين الامبراطورية الرومانية وبين جرمانيا ومقاطعة ريتيا ٢٨٣
- ٩ - خريطة التقسيمات الادارية للامبراطورية الرومانية في اواسط القرن الثاني ٣٢٣
- ١٠ - مرافق اوستي القديمة ٣٤٣
- ١١ - كنيسة دورا يوروبوس ٤٢٩
- ١٢ - مواطن اللغات وحدودها ٤٦٣
- ١٣ - خطوط الطول عند بطليموس ٤٧٣
- ١٤ - الفوروم الروماني والمباني القائمة عليه في القرن الثاني ٥٠٩
- ١٥ - الساحات العامة (فوروم) في العهد الامبراطوري ٥١١
- ١٦ - المنزل المعروف « بمنزل الشاعر المسرحي » في مدينة بومبيي ٥١٤
- ١٧ - مدينة تمغاد في نوميديا ٥١٥
- ١٨ - ميدان بومبيي ٥١٦
- ١٩ - روما في القرن الرابع ٥٢٩
- ٢٠ - حدود الامبراطورية شرقاً في القرن الرابع ٥٤٩
- ٢١ - النصرانية في أواخر القرن الثالث ٥٦١
- ٢٢ - الابريشيات وقيادات الحرس في السنة ٣٩٥ ٥٨١
- ٢٣ - « مقصف » اودرانغ شمالي تريف ٦٠٩

- ٢٤ - السبتيزونيوم أو صرح سبتيموس ساويروس ٦٤٩
- ٢٥ - حمامات كركلا ٦٥٠
- ٢٦ - القسطنطينية في اواخر القرن الخامس ٦٥١
- ٢٧ - كاتدرائية مدينة فيلي في مقدونيا (اواخر القرن الخامس) ٦٥٥
- ٢٨ - آسيا في القرنين الاول والثاني بعد الميلاد ٦٦٥
- ٢٩ - الهند في عهد السكورشانا والاندھرا ٦٦٧
- ٣٠ - طرق المواصلات بين اوروبا وآسيا ٦٧٩
- ٣١ - الصين في عهد الممالك الثلاث ٧٣٥
- ٣٢ - الصين حوالي ٣١٦ ٧٣٧
- عائلة كورنيليوس شيبون وأهم أنسابها ١٤٩

فهرست الصور

- ١ - محارب كابستراتانو (القرن السادس قبل المسيح) .
- (متحف الحمامات ، روما . تصوير اندرسون) .
- ٢ - رأس محارب اتروسك (القرن السادس قبل المسيح) .
- (متحف الآثار ، فلورنسا . تصوير برودجي) .
- ٣ - محارب اتروسك من الخزف (القرن الرابع قبل المسيح) .
- (روما ، متحف الفاتيكان) .
- ٤ - الحديث . لوحة خزفية اكتشفت في شرفرتري (القرن الخامس قبل المسيح) .
- (متحف اللوفر . تصوير جيزودون) .
- ٥ - ديماس آل فولومنيوس ، على مقربة من بيروزا (القرن الثاني قبل المسيح) .
- (تصوير ادارة الآثار الايطالية) .
- ٦ - الخطيب . قطعة برونزية اترورية (القرن الثاني قبل المسيح) .
- (متحف الآثار ، فلورنسا ، تصوير اليناري) .
- ٧ - ذئبة الكابيتول (القرن الخامس قبل المسيح ؟) . قطعة برونزية اترورية .
- (قصر الامناء ، روما . تصوير اندرسون) .
- ٨ - القبر المعروف بـ « قبر المسيحية » على مقربة من تيبسا في الجزائر
- (القرن الاول قبل المسيح) . (تصوير مرسيل بوفيس) .
- ٩ - سيدة إلكيه (القرن الرابع قبل المسيح) .
- (متحف برادو ، مدريد . تصوير اندريه فينيو) .
- ١٠ - هوبليت ومركبات حربية . افريز تزدان به قوهة فيكس (القرن الخامس قبل المسيح) .
- (متحف شاتيون - سور - سين . تصوير فرنسكي) .
- ١١ - روما : الفوروم ، من خلال قوس سبتيموس ساويروس . (تصوير اليناري) .
- ١٢ - روما : منظر عام للفوروم (تصوير فيوليه) .
- ١٣ - روما : اطلال على جبل البالاتين . (تصوير جان روبيه) .
- ١٤ - روما : الباب الكبير ومدفن الخباز م . فرجيليوس اورياسايس . (تصوير فيوليه)
- ١٥ - اوغسطس . رأس رخامي اكتشف في آرل (القرن الاول قبل المسيح) .
- (مجموعة بول انغولفان . تصوير فرنسكي) .
- ١٦ - موكب شخصيات رسمية . نقش في «آرا باشيس» (القرن الاول قبل المسيح) .

- (متحف الوظائف ، فلورنسا . تصوير الناري) .
- ١٧ - بومبيي : طريق المدافن خارج باب هرقل . (تصوير الناري) .
- ١٨ - عرس ألدوبرنديني (قطعة) تصوير على حائط (القرن الاول بعد المسيح) .
(مكتبة الفاتيكان . تصوير الناري) .
- ١٩ - مقدمة خنزير وكبش وثور . نقش رخامي (القرن الاول بعد المسيح) .
(متحف اللوفر . تصوير اندريه فينيو) .
- ٢٠ - سر ديونيسي (قطعة) صورة على حائط . (القرن الاول بعد المسيح) . بومبيي مقصف الاسرار . (تصوير الناري) .
- ٢١ - اول الطريق الآتية من جهة روما (تصوير فيوليه)
- ٢٢ - روما : الكوليزه . (تصوير جان روبيه) .
- ٢٣ - روما : عمود ترايانوس (في آخر القرن السادس عشر حل تمثال القديس بطرس محل تمثال ترايانوس) . (تصوير فيوتييه) .
- ٢٤ - القوس المعروف بـ « قوس ترايانوس » في تمغداد (الجزائر) .
(تصوير مرسيل بوفيس) .
- ٢٥ - صورة محفورة تمثل مأتم احد الزعماء (القرن الثاني بعد المسيح) (تصوير مرسيل بوفيس) .
- ٢٦ - ضريح آل جوليوس في سان ريمي في مقاطعة بروفنسا . (تصوير مرسيل بوفيس) .
- ٢٧ - بقايا مسرح اوستيا (تصوير فيوليه) .
- ٢٨ - غنائم واسلاب اورشليم . نقش في قوس تيطوس في روما (القرن الاول بعد المسيح) .
(تصوير الناري) .
- ٢٩ - ميترا يقدم الثور قربانا . نقش رخامي (القرن الثالث بعد المسيح) .
(متحف اللوفر . تصوير اندريه فينيو)
- ٣٠ - قناة ماء سيفوفيا (اسبانيا) . (تصوير بول انغولفان) .
- ٣١ - الفوروم في هيبون (عنابة - الجزائر) . (تصوير مرسيل بوفيس) .
- ٣٢ - مسرح سبراتا - ليبيا . (القرن الثاني والثالث بعد المسيح) .
(تصوير مصلحة الآثار في ليبيا) .
- ٣٣ - احد مشاهد الصيد . فسيفساء . متحف جميلة (الجزائر) .
(تصوير مرسيل بوفيس) .
- ٣٤ - شخن سفينة ، فسيفساء في بواقي النقابات في اوستيا . (تصوير فيوليه) .
- ٣٥ - عربة سفر . نقش في كنيسة القديسة مريم . سال ، على مقربة من كلاجنفورت
(تصوير الناري) .
- ٣٦ - اورشليم : مقبرة اليهود والمدافن المعروفة بمدافن الانبياء . (تصوير فيوليه) .

- ٣٧ - روما : نقش وصورة جدارية ، في دياميس القديس سيستيانوس . (تصوير فيوليه) .
- ٣٨ - قصر ديوكليانوس في سبلت (يوغوسلافيا) . (مجموعة امانة الآثار ، سبلت) .
- ٣٩ - أباطرة الحكم الرباعي : ديوكليانوس وبكسيميانوس ، غاليريوس وكونستانس كلور (القرن الرابع) . كنيسة القديس مرقس ، البندقية . (تصوير فيوليه) .
- ٤٠ - ضريح غالاس بلاسيديا في رافينا (النصف الاول من القرن الخامس) . (تصوير اليناري) .
- ٤١ - بوديساتفا . مدرسة غندهارا الفنية (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) . منضد . (متحف غيمه . بعثة الفرد فوشيه . تصوير لافو) .
- ٤٢ - ملك - حية (ناغاراجا) . مدرسة ماتورا (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) . (متحف غيمه . تصوير لافو) .
- ٤٣ - نقش عاجي اكتشف في افغانستان (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) . (متحف كابول . تصوير متحف غيمه) .
- ٤٤ - المعيشة في قرية هندية . مدرسة امارافاتي (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) . رخام ابيض . (متحف مدراس . تصوير فيكتور غولوبيف)
- ٤٥ - معبد كارلي من الداخل (حوالي القرن الثاني بعد المسيح) . (تصوير متحف غيمه) .
- ٤٦ - بلاطة مدفن وو - لينغ - تسو (١٤٧ - ١٦٧ بعد المسيح) . سلالة الهان . نقش حجري . (تصوير متحف غيمه) .
- ٤٧ - صورة مصغرة لمدفن خزفي في بيت صيني اكتشف في مقاطعة تونكين (القرن الثاني او الثالث بعد المسيح) . (متحف غيمه . تصوير لافو) .
- ٤٨ - تمثال « هانيوا » من الخزف . اليابان (القرن الرابع ؟) (متحف غيمه . تصوير لافو) .

فهرست عام

ص

٧

مدخل للاستاذ يوسف اسعد داغر

القِسْمُ الْأَوَّلُ

٩

الغرب ووحدة البحر المتوسط

تاريخ المدنيات وتوقيتها التاريخي - استمرار مدنيات الشرق الادنى - تأثير الشرق المتوسط على الغرب - وحدة - ابقه لأرانها في الشرق الادنى وانقسام مستمر في الغرب - وحدة البحر المتوسط لحساب روما .

الكتاب الاول

المغلوبون على أمرهم

١٧ الفصل الاول . - مدينة الاتروسك

١٨ ١ - تاريخ إيطاليا القديم

مشكلات غامضة متشابهة - فسيفساء عنصرية - اول هذه الحضارات حضارة التيرامار - الحضارات الفيلانوفية - بعض مميزات الحضارات الإيطالية - حضارات شرق البحر المتوسط وإيطاليا - المخطاط المستعمرات اليونانية .

٢٣ ٢ - الاتروسك

مصادر البحث - قصة ملشأ هذا الشعب - قوة الاتروسك واتساع رقعة نفوذهم - التنظيم الداخلي - ديانة الاتروسك - العرافة والطبقة الدينية - الحياة الاخرى - الفن الاتروسي - المخطاط المدنية الاتروسكية وانتقال تراثها .

٣٩ الفصل الثاني . - قرطاجة وخضارتها

اصل هذا الشعب - نجاح قرطاجة ونشأة امبراطوريتها - القوى : الأسطول - الجيش - التنظيم السياسية والاجتماعية - القادة - الشعب - الامبراطورية القرطاجية والتجارة البحرية - الحياة الاقتصادية في قرطاجة ومواردها الوفيرة - التأثير بالحضارة الهلنستية وآدابها - تأثير قرطاجة بالفن الهليني - ديانة القرطاجيين - الطقوس الدينية ومناسكها المختلفة - الحضارة البونيقية وسكان البلاد البدائيون - محاولة مسينيسا وسجوده - زوال قرطاجة واضمحلال مدنتها .

٥١ الفصل الثالث . - الفاليون

عدم اكتمال المدنية الفالية وتأخر الأخذ بأساليبها .

٦٩ ١ - الكلتيون

الغموض الذي يكتنف نشأة هذا الشعب - أوروبا الغربية ومدنيت عصر الشبان - مدنيت ما قبل التاريخ او مدنيت العصر الحديدي - الكلتيون - امتداد الكلتيين : النتائج التي أدى إليها امتداد الكلتيين - توقف مدينة الكلتيين وأفلها .

٢ - الغاليون

٧٨

وحدة في التنوع - اتصالاتهم بالمدنية الهلينية وسبلهم اليها - تجزؤ البلاد أقواماً متنافسة -
الاحزاب والفوضى - النبلاء والاحلاف - النبلاء وما كانوا عليه من أعراف الحرب
والزهر - الازدهار الزراعي - المدن والصناعة والتجارة - الديانة - الادب والفن -
المدنية الغالية والسيطرة الرومانية .

الكتاب الثاني

٩٩

حضارة روما الجمهورية

الشعوب الغربية الاخرى قبل الرومان - روما التي تؤدي اليها كافة طرق المصور
القديمة - الفتح والحضارة في روما الجمهورية .

١٠٢ الفصل الاول - الفتح الروماني

١٠٢

١ - التوسع الجمهوري

١٠٢

خلق عالم متوسطي - الفتح الروماني عمل بطيء - وجماعي - التنظيم التقني للسياسة
الخارجية - الاسباب المبيحة للاستعمار الروماني - الاسباب الثانوية - مقاومات سريعة
الزوال ودون جدوى .

١١٣ ٢ - الشؤون العسكرية

١١٣

الكوارث العسكرية - التكيف الدائم - اداة الالتصاقات الحاسمة : الجوقة في اوائل
القرن الثاني - التناقض : الاسطول - الاسطول - القيادة - التجنيد وعدد الجنود
الحقيقي - اصلاحات ماريوس - الجندي والرئيس - عدم الانطباق على المهام الاستعمارية .

١٢٤ الفصل الثاني - المدينة وفشلها

١٢٤

١ - المدينة

١٢٤

المدينة اليونانية والمدينة الرومانية - الاقليم وأقسامه القانونية - جمهورية ذات دستور
« غتعلط » .

١٢٨ ١ - الظاهر الملكي : مناصب القضاة

١٢٨

منصب القاضي ، « السلطان » والدولة - الرواسب الملكية - التقييدات الواقعية - مناصب
القضاء بمنصب المحاماة عن حقوق الشعب - دوره التاريخي - « تسلسل الاجراء » .

١٣٨ ٢ - الظاهر الديمقراطي : جمعيات الشعب

١٣٨

جمعيات الشعب في اليونان وفي روما - الطوائف المختلفة في توزيع المواطنين والجمعيات -
صلاحيات الجمعيتين القبلية والمثوية - الاصول المعتمدة .

١٤٤ ٣ - الظاهر الارستوقراطي : مجلس الشيوخ

١٤٤

مجلس الشيوخ ، مجلس قضاة قداماء - مجلس الشيوخ والقضاة - صلاحيات مجلس الشيوخ -
النظام المجلسي وأسباب ازدهاره .

١٥١ ٢ - فشل النظام ونواقصه

١٥١

منشأ الازمات - الفوضى والحرب الاهلية - نواقص المدينة الجمهورية - الاقاليم .

الفصل الثالث . - التطور الاقتصادي والاجتماعي ١٥٨

١ - الطبقة الحاكمة ١٥٨

الاقتصاد والمجتمع الاوليان - انهيار طبقة الأشراف وطبقة النبلاء - الفرسان - الثروات
والبنخ - الافساد السياسي والديون .

٢ - الثورة الاقتصادية ١٦٥

١ - جمع رؤوس الاموال في إيطاليا ١٦٥

احتلال ايطاليا وتوسيع مصالح روما الاقتصادية - استثمار فترحاتهم خارج ايطاليا - الفئمة
وتعويضات الحرب والغرامات و«الاملاك العامة» - الاستثمار الخاص - جمعيات الملتزمين.

٢ - النتائج الاقتصادية ١٧٣

عالم الولايات - ايطاليا : الانتاج والمقايضات - روما وسط مالي كبير .

٣ - الطبقات الدنيا ١٧٨

١ - الرق وحرب العبيد ١٧٨

عدد العبيد - استخدامهم ومصيرهم - حروب العبيد .

٢ - الفلاحون الاحرار ١٨٢

الائمة : الاملاك الخاصة والاملاك العامة - الحركة الاصلاحية - التشريع الزراعي -
نتائج القوانين الزراعية :

٣ - الطبقة الكادحة المدنية ١٨٨

أمية ووحدة الكادحين المدنيين - البطالة - الطفيلية - اسباب التسلية - الافساد والعنف -
البؤس والديون .

الخاتمة ١٩٥

الفصل الرابع . - هلينة روما : الديانة ١٩٧

مميزات التطور الثقافي

١ - الديانة والحياة الدينية التقليديتان ١٩٨

الديانة الاولى - تعدد الآلهة - الإنسان امام الآلهة - الديانة العائلية - ديانة فلاحين -
الكهنوت - كهنوت الدولة - العبادة العامة - العبادة والدولة .

٢ - المستحدثات ٢١٠

الروابط الدينية بالحضارة اليونانية - الاقتباسات القديمة - ازمة الحرب البونيقية الثانية -
نقم - عدم جدواه : ادخال المبادات الشرقية - المظاهر الاجتماعية والسياسية
للتطور الديني .

الفصل الخامس . - هلينة روما : اليقظة الفنية والفكرية ٢١٨

١ - الفن ٢١٩

الاثروالاروسكي - الفن البدائي - الحضارة اليونانية والحضارة الايطالية والحضارة الرومانية
الاشغال العامة الكبرى - نقل التحف اليونانية - سيطرة الفن اليوناني والفنانين
اليونانيين - النقاشة - هندسة المعارة .

ص	٢ - التطور الفكري
٢٣٢	١ - اليقظة
٢٣٢	شعب فلاح وراقي - اليقظة البطينة والمسيرة - سرعة انتشار اللغتين معا - شعراء المظلة الرومانية الأولون - بلوت .
٢٣٩	٢ - مقاومة الحضارة اليونانية وانتشارها .
	كاتون والصراع ضد الحضارة اليونانية - ندرات الثقافة اليونانية في القرن الثاني - ادب الثقافة اليونانية - نشوء الهجاء : لوسيليوس .
٢٤٥	٣ - تفتح الادب اللاتيني .
	انطلاقة القرن الثاني - المجهود العلمي - النزعة الى العلم الواسع والمعارف المتنوعة والقانون - التاريخ - البلاغة - شيشرون - موت المسرح الادبي - الفلسفة والشعر : لوكريوس - الشعر الغنائي : كاتولوس .
٢٥٧	الخلاصة

القِسْمُ الثَّانِي

مدنيات الوحدة الرومانية

الكتاب الاول

المدينة الرومانية في عهد الامبراطورية الاولى

٢٦١	(القرنان الاول والثاني)
٢٦٣	الفصل الاول . - من الحرب الاهلية الى السلام الروماني
	المدينة الجمهورية أعجز بكثير من ان تدبر الامبراطورية - الامبراطورية والحرب الاهلية - الشرق الهليني ينازع روما الصدارة - نتيجة الصراع - السلام الروماني : مقوماته ووسائله - القوة اساس السلام الداخلي - القوة الخارجية - قصور الحلول العسكرية الجديدة - تنظيم القوة : البحرية - الجيش الروماني : اللجيون - الوحدات الاضافية - الجيوش - الاشراف على الحدود وتنظيمها - الحياة في مخيمات الجند - على ضوء الموازنة .
٢٩٠	الفصل الثاني . - الدولة بين النظر والواقع
	الثورة السياسية وطابعها النهائي .
٢٩١	١ - الامبراطور
٢٩١	١ - الحكم
	الامبراطور هو القائد الاعلى للجيش - سلطاته المدنية - السلطة - صاحب الجلالة في حمى القانون .
٨٥٧	

٢٩٨	٢ - الرجل الذي أعدته العناية الإلهية
	الهالة الروحية التي تجلج الامبراطورية ؛ تطورها ومناصبها - الامبراطور الحبر - هالة النصر الامبراطوري - الفضائل الامبراطورية - عبادة الامبراطور - بين المرأة والتشكك .
٣٠٦	٣ - الخلافة في الاسرة بين الواقع والنظر
	الخلافة الامبراطورية ؛ البديل في الوراثة الممتعة - تطور الحق السلالي والاسرة اليوليوس الكلودية - الاسرة الفلافية - الاسرة الانطونية واختيار الأصلح - عدم اكتمال تجرية النظام الملكي الامبراطوري .
٣١٢	٢ - النظام القديمة
	الاجتماعات الشعبية - المناصب والوظائف - مجلس الشيوخ .
٣١٧	٣ - النظام والمؤسسات التي طلعت بها الحكومة والادارة المركزية
	ضرورة التطور ومصابه - مجلس الامبراطور الخاص - المكاتب الادارية وصاية ونيابة .
٣٢٢	٤ - الادارة المحلية والاقليمية
	ايطاليا - توزيع الولايات والحكام - روح جديدة تغمر الادارة - العدالة - المالية ؛ استمرار التفاوت بين ايطاليا والولايات الأخرى - المدارة الضرائبية وفوحيد رسوم الجبائية - مجالس الولايات - الادارة المحلية والمبادئ التي قامت عليها - المؤسسات البلدية سير الادارة وبدء الازمة .
٣٣٧	الخلاصة
	النظام الملكي وبناء الدولة
٣٣٩	الفصل الثالث . - الحياة الاقتصادية والاجتماعية
٣٣٩	١ - الاقتصاد
	موم الحكام ومواجههم ؛ روما والجيش - المعالم الروماني وجهاً لوجه مع مسؤولياته - التجارة ووسائلها التقنية - النقد الروماني والعملات المستعملة - التجارة الدولية - الزراعة قصور وسائلها التقنية - الجماعة ؛ خطرها وواقفها - فقدان التجدد الصناعي وانعدامه - لامركزية صناعية - الإنتاج ومشكلاته .
٣٥٨	٢ - المجتمع
٣٥٩	١ - النظام الملكي واقع اجتماعي
	الامبراطور - بطانة الامبراطور - اصل كلمة « نظام » - طبقة الشيوخ وطبقة الشفاليه - السلوك وامتيازاته - الشعب الروماني - اليد العاملة في املاك البرلة .
٣٧٠	٢ - وحدة الامبراطورية والمجتمع الروماني
	روما مرآة الامبراطورية وبوتقتها . حركة العتق - استبدال السكان ونقلهم - الاعتراف بالمزايا بمقوق الرعية الرومانية للندن - الواقع الاجتماعي في المدن ؛ البورجوازية البلدية - سخاء البورجوازية وجودها - الحياة البلدية عنصر من عناصر وحدة الامبراطورية - المنشأ الهليني لهذا النظام - المستعبدات الرومانية ؛ المصارعون - الطبقات المتنازعة ؛ احتياجاتها والملح الامبراطوري - الغراء وقلة الإنجاب - فشل قوانين عاربنة البذخ والتشريعات الديموقراطية - الاستعانة بالنخب في الولايات - التغييرات التي لحقت بالنظمه المشيخية - الارتقاء الاجتماعي .

ص	
٣٨٨	٣ - الطبقات الاجتماعية الدنيا
	اليد العاملة - اليد العاملة في الريف - الشعور بالعاطفة الانسانية - حدود هذه النزعة الانسانية وقبورها .
٣٩٥	٤ - الازمة الطالعة وأسبابها القريبة
	حضارة ذات طابع مدني مغرق - حاجاتها - خطر الازمة وأولى مداخلات الدولة .
٤٠١	الفصل الرابع - الديانات القديمة والجديدة
٤٠١	١ - العاطفة الدينية
	أوغسطس وموقفه من الديانة - الفلسفة والدين - العناية الالهية - النتائج المترتبة على هذا الاعتقاد
٤٠٨	٢ - الوثنية وطقوسها
	المعابد - المعابد الاجنبية : الغرب - تفوق الشرق وتساميه الديني - الفروان الديني في الشرق - المعابد الشرقية في الغرب .
٤١٦	٣ - الديانات الموحدة واتباعها
	الشرق والتوحيد - اليهودية واليهود - المسيحية واليهودية - اضطهاد تيرون - الاسرة الانطونية والمسيحيون - أسباب هذا التقدم والنجاح - النتائج الثابتة - حياة الكنائس الاولى وتنظيماتها الداخلية - الجدل الديني والبدع .
٤٣٢	الفصل الخامس - الانجازات الأدبية والفنية : حدودها ونجاحاتها
٤٣٣	١ - عصر أوغسطس
	روما منافسة العواصم الهلنسية الاخرى - « عصر في صميمه من صنع أوغسطس » - التاريخ : تيت ليف - الشعر : فرجيل - هوراتيوس والشعراء - الوجدانيون - الفن الرسمي .
٤٤٦	٢ - الظروف والامواض العامة
	الثقافة والطبقات الاجتماعية العليا - النظام الاستبدادي - الشعوبية - رهافة الذوق عند النخبة الرومية - الاعجاب بالماضي - الانحرافات الدنيوية - نظام التربية اذ ذلك : الخطابة - الدوسه وأثرها في نشر الثقافة بين الثقافة والسياسة : الاهداف والنتائج - الوضع اللغوي .
٤٦٥	٣ - العمل العقلي والأدبي
٤٦٦	١ - المحطات الروح العلمية
	بين النقيضين : توقف هنا وانحراف هناك - الاستبحار العلمي والتخصص - معرفة العالم والنظام الكوني - التاريخ الطبيعى وعلمه - الطب - الحقوق .
٤٧٧	٢ - الآداب اللاتينية
	افراد ، فنون ، مراحل - الفلسفة الخطابية - الشعر - فن الروايات التاريخ الخائفة .
٤٩١	٣ - الآداب اليونانية
	بين المحطات ونهضة - بلوتارخوس - خطابة ، تاريخ ، فلسفة - لوقيانوس .
٤٩٦	٤ - الانجازات الهندسية والزخرقية
	قضية الأصالة - فن النحت والمذهب الواقعي - الهندسة المعمارية : مناهج ومناذج - السيطرة المعجبة على الطبيعة - الفن الزخرفي من الداخل والخارج - المدينة مركز الانصباء الحضاري - المدينة الامبراطورية ومبانيها العامة - التجنيل والمنازل - مدن الولايات - الدارات .

ص	خاتمة المطاف	٥٢٠
	حضارة نبلاء - وحدة واطراد	

الكتاب الثاني

حضارة العهد الامبراطوري الثاني

(القرنان الثالث والرابع)

٥٢٣	الفصل الاول . - ازمة القرن الثالث	٥٢٥
-----	-----------------------------------	-----

الفوضى العسكرية - الخطر البربري - اوروبا الوسطى الشرقية - الشرق ، الفرس الساسانيون -
 اخطار الانقسام - التضخم النقدي الاول في التاريخ - الازمة الاقتصادية وعواقبها
 الاجتماعية - الاضطرابات الدينية : الاضطهادات العامة الاولى - الثورة الاجتماعية
 وداعي المصلحة العليا .

الفصل الثاني . - تجديد الاخطار والاضطرابات خلال الاصلاحات الهزيلة في القرن

٥٤١	الرابع	٥٤١
٥٤١	١ - الجهود الباطلة ضد البرابرة	٥٤١

٥٤٢	١ - الجيش في العهد الامبراطوري الثاني	٥٤٢
	تنظيم الحدود - جيش الريف - التجنيد - التنظيم وفن الحرب - القيادة .	

٥٤٨	٢ - هجوم البرابرة	٥٤٨
	الفرس - الرين - وصول الهون وتعمد القوط - الهجوم الشامل - الفوضى .	

٥٥٤	٢ - الصعوبات الداخلية	٥٥٤
٥٥٤	١ - انتقال السلطة والحروب الاهلية	٥٥٤

الظروف العامة - نظام ديوكليسيانوس الرابعي - حل قسطنطين المخرج - حكم الجماعة
 في استمرار الوحدة - الفكرة السلالية وفشل الاغتصابات - استمرار داء الامبراطورية
 المزمين .

٥٥٩	٢ - النزاعات الدينية	٥٥٩
	السلم الديني وانتشار الديانة المسيحية في اواخر القرن الثالث - اضطهاد ديوكليسيانوس - تنصر قسطنطين : اقتناع ومصلحة - تسامح وامتيازات - نهاية الوثنية - الكنيسة والدولة - الدولة والمهرطقات .	

٥٧١	الفصل الثالث . - الملكية المطلقة والبيروقراطية	٥٧١
	اسباب تحول الدولة .	

٥٧٢	١ - اموال الدولة	٥٧٢
	النفقات - الموارد - التسخير - النواقص .	

٥٧٦	٢ - الادارة المحلية والاقليمية	٥٧٦
	المخطاط المدينة - بدء اغتصابات الاملاك الكبرى - البيروقراطية - الولايات - الابريشيات والوكلاء - قيادة حرس القصر - الماصتان : روما والقسطنطينية - الرواسب الشرقية في المواسم .	

٥٨٥	٣ - الحكومة المركزية والامبراطور
	الدولة والنظام الشخصي - الكونتيسة - المجمع والمصالح الكبرى - دسائس البلاط - الامبراطور : الرئيس العسكري - مجمل الاله - الحقوق والواجبات - العادات الجارية في الاحتفالات - الحكم المطلق .
٥٩٤	الفصل الرابع . - التجديدات الاقتصادية والاجتماعية
٥٩٥	١ - تكيف الاقتصاد الوضع النقدي - الاسعار : الحد الاعلى - مطالب الدولة الاقتصادية - نظرة عامة .
٦٠١	٢ - المجتمع العلماني مرسوم كركلا - جدة السياسة الاجتماعية - الطبقة الوسطى والحياة المدنية - الاشراف الرسيمون - اعباؤهم وامتيازاتهم - الثروة العقارية ومعيشة الاغنياء في املاكهم - العبيد - الكادحون الريفيون - القطافون - الفلاحون الشركاء - الحماية - الاسياد والاتباع .
٦١٤	٣ - المجتمع الكنسي ازدياد الامتداعات - قوة الكنيسة الاقتصادية - التملك والترف - الاسقف وكنيسته - الكنيسة : المجمع - رؤساء الاساقفة والبطاركة - البابوية .
٦٢٥	الفصل الخامس . - الفكر والفن
٦٢٥	١ - الفكر الديني
٦٣٦	١ - الوثنية المبادئ الشرقية ومذهب توحيد الآراء - افلاطونية افلوطين الحديثة - السحر - الحضارة اليونانية والوثنية .
٦٣٩	٢ - المسيحية اوريجينوس - مسألة المسيح - القضية الآرية - الهرطقات الاخرى - الماوية - تكييفات المباداة والتحولات الاخلاقية .
٦٣٤	٢ - الحياة الفكرية
٦٣٤	١ - الظروف العامة استمرار سحر الثقافة التقليدية - التعليم - المسيحية والمدرسة : قافوت جوليانوس - الوضع القوي .
٦٣٩	٢ - المؤلفات التقهر العلمي - القانون - العلم الواسع - التاريخ - البيان - الشعر - آباء الكنيسة .
٦٤٥	٣ - الفن قسط الماضي - المقاصف - استمرار المثل الاعلى للمدينة : روما - المقرات الامبراطورية : القسطنطينية - اخطاط التقنية - نهاية النقاشة - التأثيرات الشرقية - الروحانية - الكنيسة : البناء والزخرف .
٦٥٦	الفصل السادس . - موت روما القديمة وإرثها استمرار العهد الامبراطوري الثاني في الشرق - زواله في الغرب - أسباب الانهيار - انهيار حضارة - إرث روما .

القِسْمُ الثالث

ص	آسيا الشرقية
٦٦٣	من مطلع المسيحية حتى أواخر القرن الرابع
٦٦٤	الفصل الاول . - وصف عام لآسيا الشرقية
٦٦٤	١ - ثلاثة أقطاب للإشعاع الحضاري ايران من الخارج - الهند - الصين .
٦٧٤	٢ - التبادل التجاري والثقافي المبادلات التجارية - المؤثرات الفنية - وجوه أخرى من التبادل الثقافي .
٦٨٩	الفصل الثاني . - تطور الهند « الهندية » اطار المدينة والريف - الحياة الاجتماعية - التطور الفلسفي والديني - الفن .
٧٠٨	الفصل الثالث . - مراحل النفوذ الهندي في الاقطار الواقعة جنوبي شرقي آسيا ملكة فو - نام - شبه جزيرة الملايو ودولها العديدة - مملكة لن - يي .
٧١٨	الفصل الرابع . - الكتلة الصينية
٧١٩	١ - الوضع الاجتماعي المجتمع - النظام العقاري - الاعباء الاميرية ومداخليل الدولة - اصلاحات وانغ مانغ - الازمة الاجتماعية في آخر عهد الهان - الممالك الثلاث والسلالات الست .
٧٣٨	٢ - النطاق الديني دخول البوذية - الطاوية - الكونفوشيوسية - النزعات الى توحيد الإراء .
٧٤٨	٣ - الاكتشافات التقنية والعلمية الساعة المائية - المزولة - الساعة الشمسية - المنظار - الدوائر المعدنية لتمثيل حركات الاجرام السماوية - جهاز الكرة والدوائر - الكرة السماوية .
٧٥٤	الفصل الخامس . - انتشار الحضارة الصينية آسيا الوسطى - كوريا - اليابان .
٧٦٣	خاتمة عامة المصادر
٧٦٩	مراجع عربية جدول زمني مقارنة
٨٤٩	جدول الاعلام فهرست الخرائط والتصاميم
٨٥٥	فهرست الصور فهرست عام

انتهى المجلد الثاني، ويليه المجلد الثالث
القرون الوسطى

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME II

ROME ET SON EMPIRE

par

André AYMARD et **Jeannine AUBOYER**
Professeur à la Sorbonne *Conservateur au Musée Guimet*

Texte Traduit en Arabe

Par

Youssef A. DAGHER et Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris

